٩٧٧

تفسير

جوامع الجامع

تأليف أمين الإسلام

الشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي

من أعلام القرن السادس الهجري

الجزء الثاني

تحقيق

مؤسسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرّفة

٩٧٧

تفسير جوامع الجامع

للمفسر الكبير والمحقق النحرير

الشيخ ابي علي الفضل بن الحسن الطبرسي

من أعلام القرن السادس الهجري

الجزء الثاني

تحقيق

مؤسسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

شابك ٥ ـ ١٥٨ ـ ٤٧٠ ـ ٩٦٤
ISBN 964 - 470 - 158 - 5

تفسير جوامع الجامع

(ج ٢)

■ المؤلّف: المفسّر الكبير الشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي ﵀ □
■ الموضوع: التفسير □
■ تحقيق و طبع: مؤسّسة النشر الإسلامي □
■ الطبعة: الثالثة □
■ عدد الأجزاء: ٣ أجزاء □
■ عدد الصفحات: ٧٨٠ □
■ المطبوع: ٢٠٠٠ نسخة □
■ التاريخ: ١٤٢٤ هـ. ق □

مؤسّسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة

سورةُ الأنفالِ

مدنيَّةٌ(1) وهي ستٌّ وسبعُونَ آيةً بصرِيٌّ، خمسٌ كوفيٌّ، ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾(2) و﴿مَفْعُولاً﴾(3) الأوّل بصريٌّ، ﴿بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾(4) كوفيٌّ.

في خبرِ أُبيٍّ: «وَمَنْ قَرَأَ سورةَ الأنفالِ وبراءَةً فأنَا شفيعٌ له وشَاهدٌ لَه يومَ القيامةِ أنّهُ بريءٌ مِنَ النِفاقِ، وأُعطِيَ من الأَجرِ بعددِ كلِّ مُنافقٍ ومُنافقةٍ في دار الدُنيا عَشرَ حسناتٍ، ومُحِيَ عنه عَشرُ سَيِّئاتٍ، ورُفِعَ له عَشرُ دَرَجاتٍ، وكان العرشُ وحَمَلَتُه يُصلُّون عليه أيّامَ حياتِهِ في دار الدُّنيا»(5).

قال الصّادِقُ عليه السلام: «من قَرَأَهُما في كلِّ شهرٍ لم يَدْخُلْهُ نِفاقٌ أبداً، وكان من شيعةِ أميرِ المُؤمنينَ عليه السلام حقّاً، ويأكُلُ يومَ القيامةِ من موائِدِ الجنَّةِ معهُم حتّىٰ يفرُغَ النّاسُ مِنَ الحسابِ»(6).

---

(1) قال الشيخ في التبيان: ج 5 ص 71: هذه السورة مدنية في قول قتادة وابن عبّاس ومجاهد وعثمان وقال: هي أوّل مانزل على النبيّ صلى الله عليه وآله بالمدينة، وحكي عن ابن عبّاس: أنّها مدنية إلّا سبع آيات: أوّلها ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الىٰ آخر سبع آيات بعدها، وهي خمس وسبعون آية في الكوفي، وسبع وسبعون آية في الشامي، وست وسبعون في المدنيّين والبصري. وفي الكشّاف: ج 2 ص 193: أنّها نزلت بعد البقرة.

(2) الآية: 36.　　(3) الآية: 42.

(4) الآية: 62.

(5) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج 2 ص 240 مرسلاً.

(6) ثواب الأعمال: ص 132 الى قوله: «أميرالمؤمنين عليه السلام»، تفسير العياشي: ج 2 ص46 ح 1.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَسْـئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١)﴾

قَرَأَ ٱبْنُ مَسْعُودٍ وَعَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ زَيْنُ العابِدِينَ وَالباقِرُ وَالصَّادِقُ عليهم السلام: «يَسْئَلُونَكَ ٱلْأَنفَالَ»(١)، وَهذِهِ القِراءَةُ مُؤَدِّيَةٌ لِلسَّبَبِ فِي القِراءَةِ الأُخرى الَّتي هِيَ ﴿عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ وَذٰلِكَ أَنَّهُم إِنَّما سَأَلُوهُ عَنْها اسْتِعْلاماً لِحالِها، هَلْ يَسُوغُ طَلَبُها؟ وَفِي القِراءَةِ(٢) بِالنَّصْبِ تَصْرِيحٌ بِطَلَبِها، وَبَيانٌ عَنِ الغَرَضِ فِي السُّؤَالِ عَنْها. وَالنَّفَلُ: الزِيادَةُ عَلَى الشيءِ، قالَ لَبيدٌ:

إِنَّ تَقْوىٰ رَبِّنا خَيْرُ نَفَلٍ(٣)

قالَ الصادِقُ عليه السلام: الأَنْفالُ كُلُّ ماأُخِذَ مِنْ دارِ الحَرْبِ بِغَيرِ قِتالٍ، وَكُلُّ أَرْضٍ ٱنْجَلىٰ أَهْلُها عَنْها بِغَيْرِ قِتالٍ أيضاً ـ وَسَمَّاها الفُقَهاءُ فَيْئاً ـ وَالأَرَضُونَ الْمَواتُ وَالآجامُ وَبُطُونُ الأَوْدِيَةِ وَقَطائِعُ المُلُوكِ وَمِيراثُ مَنْ لا وارِثَ لَهُ، وَهِيَ لِلهِ وَالرَّسُولِ وَلِمَن قامَ مَقامَهُ بَعدَهُ(٤) ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بِاتِّقاءِ مُخالَفَةِ مايَأْمُرُكُم هُوَ وَرَسُولُهُ بِهِ ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ حَقِيقَةَ أَحْوالِ بَيْنَكُمْ، وَالْمَعْنى: أَصْلِحُوا مابَيْنَكُم مِنَ الأَحْوالِ حَتَّىٰ تَكُونَ أَحْوالَ أُلْفَةٍ وَاتِّفاقٍ وَمَوَدَّةٍ، ونَحوُه: «ذاتُ الصُّدورِ» وهي مُضْمَراتُها.

(١) ذكرها الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٥ ص ٧٢، وابن خالويه في الشواذ: ص ٥٤.

(٢) في نسخة بزيادة: الأُخرىٰ.

(٣) وعجزه: وبإذن الله رَيْثي وعَجَل. والمعنىٰ: انّ تقوى الله خير عطيّة، وأنّ بطئي وسرعتي في الأُمور كلّها فبإذن الله. انظر ديوان لبيد: ص ١٣٩.

(٤) التبيان: ج ٥ ص ٧٢.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾

أَيْ: ﴿إِنَّمَا﴾ ٱلكامِلُونَ فِي ٱلْإِيمانِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِنْ صِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ عِنْدَهُمْ وَٱقْتِدارُهُ وَأَلِيمُ عِقَابِهِ عَلَى ٱلْمَعَاصِي ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أَيْ: خَافَتْ ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ أَي: ٱزْدَادُوا بِهَا يَقيناً وطُمَأْنِينَةَ نَفْسٍ وَتَصْدِيقاً إِلَىٰ تَصْدِيقِهِمْ بِمَا أُنزِلَ قَبْلَ ذَٰلِكَ مِنَ ٱلْقُرْآنِ ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وَإِلَيْهِ يُفَوِّضُونَ أُمُورَهُمْ فِيمَا يَخَافُونَ وَيَرْجُونَ، وَخَصَّ ٱلصَّلاَةَ وَٱلزَّكَاةَ بِالذِكْرِ لِعِظَمِ شَأْنِهِما وَتَأَكُّدِ ٱلْأَمْرِ فِيهِمَا.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ ٱلْمُسْتَجْمِعُونَ لِهَـٰذِهِ ٱلْخِصَالِ ﴿هُمُ﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقُّوا إِطْلاَقَ ٱسْمِ ٱلْإِيمَانِ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ، و﴿حَقًّا﴾ صِفَةٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، أَي: إِيمَاناً حَقّاً، أَو هُوَ مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ لِلْجُمْلَةِ الَّتِي هِيَ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ كَمَا تَقُولُ: هُوَ عَبدُ اللهِ حَقّاً، أَيْ: حَقَّ ذَٰلِكَ حَقّاً ﴿دَرَجَـٰتٌ﴾ شَرَفٌ وَكَرامَةٌ وعُلُوُّ رُتبَةٍ ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ وَتَجَاوُزٌ لِسَيِّئَاتِهِمْ ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ نَعِيمُ الْجَنَّةِ، أَي: مَنَافِعُ دائمَةٌ، عَلَىٰ سَبيلِ التعْظيمِ، وهذا معنَى الثوابِ.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ (٥) يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَاتَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ (٨)﴾

الكافُ في مَحَلِّ الرَفعِ عَلىٰ أَنَّهُ خَبَرُ مُبْتَدَأ مَحْذُوف، أَيْ: هـٰذِهِ الحَالُ كحَالِ إِخْرَاجِكَ، وَالْمَعْنىٰ: أَنَّ حـَالَهُمْ في كَراهَةِ مٰاحَكَمَ ٱللهُ في الأَنْفالِ مِثْلُ حالِهِمْ فـي كَرَاهَةِ خُرُوجِكَ مِنْ بَيْتِكَ لِلْحَرْبِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي مَحَلِّ النَصْبِ عَلىٰ أَنـَّـهُ صِفَةٌ لِمَصْدَرِ الْفِعلِ الْمُقَدَّرِ في قَولِكَ: «الأَنْفالُ للهِ وٱلرَّسُولِ»، أَي: الأَنْفالُ ٱسْتَقَرَّتْ للهِ وَٱلرَّسُولِ، وَثَبَتَتْ مَعَ كَراهَتِهِمْ ثَباتاً مِثْلَ ثَباتِ إِخْراجِ رَبِّكَ إِيَّاكَ مِنْ بَيْتِكَ مَـعَ كَراهَتِهِمْ، فَعَلى هـٰذا لايَكونُ الوَقفُ مِنْ قَوْلِهِ:﴿قُلِ ٱلأَنفالُ﴾ إِلىٰ قَوْلِه: ﴿بِالْحَقِّ﴾، وَعَلَى الأَوَّلِ جـاَزَ الْوَقْفُ عَلىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ وَقَولِه: ﴿مُؤْمِنِينَ﴾، و﴿مِـن بَيْتِكَ﴾ يُرِيدُ بيتَهُ بالمدينةِ، أَوِ المدينةَ نفسَها، لأَنـَّها مُهاجَرُه ومَسكِنُه ﴿بِـالْحَقِّ﴾ أَي: إِخراجاً مُتَلَبِّساً بِالحكمةِ والصَوابِ الَّذي لامَحيدَ عنه، وهو الجِهادُ ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ﴾ في موضِعِ الحالِ، أَي: أَخْرَجَكَ فِي حالِ كَراهَتِهِمْ.

﴿يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾ فيما دعوتَهم إِليه، وهو تَلَقِّي النَـفيرِ، وهـو جَـيشُ قُرَيشٍ لإِيثارِهم عليه تَلَقِّيَ العِيرِ ﴿بَعْدَ مَاتَبَيَّنَ﴾ بعدَ إِعلامِ رسولِ اللهِ بأَنَّهم يُنْصَرُونَ، وجِدالُهم أَنـَّهم قالوا: ماخَرَجْنا إِلَّا للعيرِ، وذلك: أَنَّ عِيرَ قُرَيشٍ أَقْبَلَتْ من الشامِ مَعَها أَربعونَ راكباً منهم أَبو سُفيانَ وعمرُو بنُ العاصِ، فأَخْبَرَ جَبْرَئيلُ رسولَ اللهِ صلّى الله عليه وآله فأَخْبَرَ المُسلمينَ، فأَعْجَبَهم تَلَقِّي العيرِ، فَلَمَّا خَرَجُوا بَلَغَ أَهلَ مكَّةَ خَبرُ خُروجِهم، فنادىٰ أَبو جَهلٍ فَوقَ الكَعبةِ: ياأَهلَ مَكَّةَ النجا النجا[١] علىٰ كُلِّ صَعبٍ وذَلُـولٍ، عيرَكم، أَموالَكم، إِن أَصابَها مُحَمَّدٌ لَنْ تُفلِحُوا بعدَها أَبداً، وخَرجَ أَبو جهلٍ بجَميعِ أَهلِ مَكَّةَ وهُمُ النَفيرُ، وفِي المَثَلِ السَائِرِ: «لافِي العِيرِ ولا فِي النَفيرِ»[٢]، فقِيلَ له:

---

(١) أي: أسرِعْ أسرِعْ، وأصلها النجائك النجائك، فيقصران. (القاموس المحيط: نجا).

(٢) قال المفضّل: أوّل من قال ذلك أبو سفيان بن حرب بعدما أقبل بعير قريش وعلم بـتحيّن المسلمين انصرافه الى مكة فيقطعوا عليه، فخاف خوفاً شديداً وضرب وجوه عيره فساحل بها وترك بدراً يساراً، وقد كان بعـث إلىٰ قريش يخبرهـم بما يخافه ويأمرهم بالرجوع، ←

إنَّ العيرَ أَخَذَتْ طريقَ السَاحِلِ وَنَجَتْ، فارْجِعْ بالنَاسِ إلىٰ مكَّـةَ، فـقالَ: لا واللهِ حَتّى نَنْحَرَ الجُزُرَ ونَشْرَبَ الخَمرَ ببدرٍ، فتتسامعَ العربُ بِأَنَّ مـحمَّداً ـ صلى الله عليه وآله ـ لَـم يُصِبِ العِيرَ، وأَنّـا أَغضضناه، فَمَضىٰ بهم إلىٰ بدرٍ.

وبدرٌ ماء كانَتِ العَرَبُ تَجتمعُ فيه لِسُوقِهِم يوماً في السَنةِ، ونَزَلَ جَبْرَئيلُ فقالَ: يامحمَّدُ ـ صلى الله عليه وآله ـ إنَّ اللهَ وَعَدَكُم ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾: إمّـا العـيرَ وإمّـا قُـرَيْشاً، فاستَشارَ النبيُّ صلى الله عليه وآله أصحابَه وقالَ: ماتَقولُونَ؟ إنَّ القومَ قد خَرَجوا مِن مكّةَ فالعيرُ أَحبُّ إليكم أَمِ النَفيرُ؟ قالوا: بَلِ العِيرُ أَحبُّ إِلَيـنا مِـن لِـقاءِ العَـدُوِّ، فَـتَغَيَّرَ وجـهُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وقالَ: إنَّ العيرَ قد مَضَتْ علىٰ ساحِلِ البَحْرِ، وهذا أَبو جهلٍ قد أَقبلَ، فَقَالوا: يارَسُولَ اللهِ عَلَيْكَ بِالعيرِ وَدَعِ العَدُوَّ، فَقَامَ رِجالٌ من أَصحابِهِ وقَالُوا، ثُمَّ قَامَ المِقْدادُ بْنُ عَمْرٍو وَقَالَ: وَاللهِ لَـو أَمَـرْتَنَا أَنْ نَـخُوضَ جَـمْرَ الغَـضىٰ[1] وشَـوكَ ٱلهَراسِ[2] لَخُضْنَا[3] مَعَك، ولانَقُولُ لك ماقَالَتْ بَنُو إِسْرائيلَ لِمُوسى: ﴿فَـاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾[4] ولٰكِنَّا نَقولُ: امْضِ لِما أَمَرَك ربُّك فَـإِنَّا مَعَكَ مُقاتِلُون مادامَتْ مِنَّا عينٌ تَطْرِفُ، وقام سعدُ بنُ مُعاذٍ وَقال: يارَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله امضِ لِما أَرَدْتَ، فَوَالَّذي بَعَثَك بالحقِّ لَوِ ٱستَعرَضتَ بنا هذا البَحرَ لَخُضناه مَـعك ماتَخَلَّفَ مِنَّا رَجلٌ واحدٌ، ولَعلَّ اللهَ يُريكَ مِنَّا ماتَقَرُّ به عينُك، فَسِرْ بنا علىٰ بَرَكَةِ اللهِ، ففَرِحَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله بقَولِه، وقالَ: سِيروا علىٰ بَرَكَةِ اللهِ وأَبشِروا، فإنَّ اللهَ وَعَدَنِي ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ وَاللهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إلىٰ مَصارِعِ القومِ[5].

← فأقبلت قريش، ورجعت بنو زهرة فصادفهم أبو سفيان فقال: يابني زهرة لا في العير ولا في النفير. راجع مجمع الأمثال للميداني: ج ٢ ص ١٧٢.

(١) الغضىٰ: شجر ذو شوك. (مجمع البحرين: مادة غضا).

(٢) الهراس: شجر شائك ثمره كالنبق. (القاموس المحيط: هرس).

(٣) في بعض النسخ: لخضناه.

(٤) المائدة: ٢٤.

(٥) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

وَقولُه: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ تشبيهُ حالِهم بحالِ مَن يُعْتَلُ إِلَى ٱلقَتلِ وهو ناظرٌ إلىٰ أَسبابِ الموتِ لايَشُكُّ فيه.

﴿وَإِذْ﴾ منصوبٌ بإضمارِ «ٱذكُروا»، ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾، و ﴿غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾: العيرُ؛ لأَنَّه لَمْ يَكُنْ فيها إِلَّا أَربعُونَ فارساً، وَٱلشوكةُ: الحِدَّةُ، مُستَعارةٌ مِن حِدَّةِ الشَوكِ، أَي: تَتَمَنَّوْنَ أَن يكونَ العيرُ لَكُم، وَلاتُريدونَ الطَّائِفَةَ ٱلأُخرَى الَّتي هِيَ ذاتُ الشَوكَةِ[1] والحِدَّةِ ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أَي: يُثَبِّتَه، بِأَن يُعِزَّ الإسلامَ ويُعلِي كَلِمَتَهُ وَيُهْلِكَ وُجُوهَ قُرِيشٍ علىٰ أَيديكُم ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بآياتِهِ المُنزلَةِ في مُحارَبَتِهِم ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ باستئصالِهِم وقَتْلِهِم وأَسرِهِم وطَرْحِهِم في قَليبِ بدرٍ، والدَابِرُ: الآخِرُ، مِن دَبَرَ: إذا أَدبَرَ، والمعنىٰ: أَنَّكُم تُريدُونَ الفائِدَةَ العاجِلَةَ واللهُ يُرِيدُ مايَرجِعُ إِلىٰ علوِّ أُمورِ الدينِ وَنُصرةِ الحَقِّ، ولِذٰلِكَ ٱختارَلَكُم الطَائِفةَ الأُخْرىٰ ذاتَ الشَوكةِ، وغَلَبَ كَثرَتَهُم بِقِلَّتِكُم، وأَذَلَّهُم وأَعَزَّكُم، وقولُه: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ تَعَلَّقَ بمحذوفٍ، تقديرُهُ: لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ ويُبْطِلَ ٱلْبَاطِلَ فَعَلَ ذٰلِكَ.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَاجَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْيُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ

---

(١) في نسخة: الشدّة.

وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (١٣) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٤) ﴾

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ بدَلٌ مِن ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾، وقيلَ: إنّه يَتعلّقُ بقولِهِ: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾[1]، وَاستِغاثَتُهم: أنَّ رسولَ ٱللهِ صلى الله عليه وآله لَمَّا نَظَرَ إلى المُشركينَ وَهُم أَلفٌ وإلى أَصحابِهِ وهم ثَلاثُمائَةٍ وَنَيِّفٌ، اسْتَقْبَلَ ٱلقِبلةَ ومَدَّ يدَيْهِ يَدعُو: ٱللّٰهُمَّ أَنْجِزْ لِي ماوَعَدْتَني، ٱللّٰهُمَّ إِن تُهْلِك هذهِ العِصابَةَ[2] لاتُعْبَدُ في الأَرضِ، فَما زالَ كَذٰلِكَ حتَّىٰ سَقَطَ رِداؤُه من مَنْكِبِه[3] [4]، ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فأَغاثَكُم وأَجابَ دعوتَكم ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم﴾ أَصلُه: بِأَنِّي مُمِدُّكُم، فَحُذِفَ الجارُّ، وقُرِئَ: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بكسرِ الدَالِ وفتحِها[5]، مِن قولِك: رَدِفَه: إذا تَبِعَه، وأَرْدَفْتُهُ إيَّاه: إذا أَتْبَعْتَه، ويقالُ: أَرْدَفْتُه وأَتْبَعْتُه: إذا جِئْتَ بعدَه، فَعلى الأَوَّلِ يكونُ معنىٰ ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بكسرِ الدَّالِ: مُتْبِعينَ بعضُهم بعضاً، أَو مُتْبِعينَ أَنفُسَهم المُؤْمنينَ، وعَلى الثَاني يكونُ معناه: مُتْبِعِينَ بَعضُهُم لِبَعضٍ، أَو مُتْبِعينَ للمُؤْمنينَ يَحْفَظونَهم، ومن قَرَأَ بفتحِ الدَالِ فمعناه: مُتْبَعينَ أَو مُتَّبَعينَ.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أَي: وَمَاجَعَلَ اللهُ إمدادَكُم بالملائِكةِ ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أَي: بشارةً لَكُم بالنَصرِ كالسَكينةِ لبني إِسرائيلَ، والمعنىٰ: أَنَّكم استَغَثْتُم رَبَّكُم وتَضَرَّعْتُم، فكانَ الإِمدادُ بالملائِكةِ بشارةً لَكُم بالنَصرِ، وتسكيناً منكُم، وربطاً علىٰ قُلوبِكُم ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أَي: وَمَا النصرُ بالملائِكةِ وَغيرِهم من

---

(١) قاله الطبري في تفسيره: ج ٦ ص ١٨٨.

(٢) العصابة: الجماعة من الناس والخيل والطير. (الصحاح: مادة عصب).

(٣) المنكب: مجمع عظم العضد والكتف. (الصحاح: مادة نكب).

(٤) رواه مسلم في صحيحه: ج٣ ب١٨ ص١٣٨٤ ح٥٨، و أحمد في مسنده: ج١ ص ٣٠ و٣٢.

(٥) وبالفتح هي قراءة نافع ويعقوب. راجع التبيان: ج ٥ ص ٨٢.

الأَسبابِ إلاَّ مِنْ عندِاللهِ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ، قلَّ العدَدُ أَم كثُرَ.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ بَدَلٌ ثانٍ مِن ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾، أَو[١] منصوبٌ بـ﴿ٱلنَّصْرُ﴾ أَو بـ﴿مَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾، وقُرِئَ: ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ بِالتَخفيفِ[٢] والتَشديدِ ونَصْبِ ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾، والضميرُ للهِ عزَّوجلَّ، و ﴿أَمَنَةً﴾ مفعولٌ له، و ﴿مِنْهُ﴾ صفةٌ لِـ﴿أَمَنَةً﴾، أَي: أَمنةً حاصلةً لكم من اللهِ، والمعنىٰ: إِذ تَنعَسُونَ لِأَمنِكم الحاصلِ من اللهِ بإِزالةِ الرُعبِ من قلوبِكم ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم﴾ قُرِئَ بالتَشديدِ والتَخفيفِ[٣] ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أَي: مَطراً، و ﴿رِجْزَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾: وسوستُه إِليهم، وذلك أَنَّ المُشركينَ قد سَبَقُوهُم إِلى الماءِ، ونَزَلَ المُسلمونَ في كَثِيبٍ أَعفرَ[٤] تسوخُ فيه الأَقدامُ، وناموا، فاحتَلَمَ أَكثرُهم، فتَمثَّلَ لهم إِبليسُ وقال: يا أَصحابَ محمَّدٍ أَنتم تَزْعَمُونَ أَنَّكم على الحقِّ وأَنتم تُصَلُّون على الجَنابَةِ وقد عَطِشْتُم، ولو كنتم علىٰ حقٍّ ماغَلَبَكم هؤُلاءِ على الماءِ، وهاهُم الآنَ يَمشُونَ إِليكم وَيَقتلونَكم ويَسوقُونَ بقيَّتَكم إِلىٰ مَكَّةَ، فحَزِنوا لذلك، فأَنزلَ اللهُ المَطَرَ فمُطِرُوا ليلاً حتَّىٰ جَرَى الوادِي، واغتَسَلوا وتَوَضَّأوا، واتَّخَذُوا الحِياضَ علىٰ عُدْوَةِ[٥] الوادي، وتَلَبَّدَ[٦] الرَملُ الَّذي كان بينَهم وبينَ العدوِّ حتَّىٰ ثَبَتَ الأَقدامُ عليه، وزالَتْ وسوسةُ الشَيطانِ، والضَميرُ في ﴿بِهِ﴾ للماءِ أَو لِلربطِ؛ لأَنّ الجُرأَةَ تُثَبِّتُ القَدمَ في مَواطنِ الحربِ.

---

(١) في نسخة: إمّا.

(٢) وهي قراءة نافع. راجع الكشف عن وجوه القراءات السبع للقيسي: ج ١ ص ٤٨٩، وفي التبيان: ج ٥ ص ٨٥: هي قراءة أهل المدينة.

(٣) وقراءة التخفيف هي قراءة ابن كثير وسهل ويعقوب وأبي عمرو. راجع تفسير الآلوسي: ج ٩ ص ١٧٦.

(٤) الأعفر: الأبيض (الصحاح: مادة عفر).

(٥) العِدوة والعُدوة: جانب الوادي وحافّته. (الصحاح: مادة عدا).

(٦) تلبّد: تداخل ولزق بعضه ببعضٍ. (القاموس المحيط: مادة لبد).

﴿إِذْ يُوحِى﴾ يَجوزُ أَن يكونَ بَدلاً ثالثاً من ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ﴾، وأَن يَنتَصِبَ بِـ﴿يُثَبِّتَ﴾، ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ أُعينُكم على التَثبيتِ فثبِّتُوهم.

وقولُه: ﴿سَأُلْقِى﴾ إِلىٰ قولِه: ﴿فَاضْرِبُواْ﴾ يَجوزُ أَن يكونَ تفسيراً لقولِه: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ﴾، ولا مَعونةَ أعظمُ من إلقاءِ الرُعبِ في قلوبِ الكُفّارِ، ولاتَثبيتَ أَبلغُ من ضربِ أَعناقِهم، ويَجوزُ أَن يكونَ غيرَ تفسيرٍ، وأَن يُرادَ بِالتَثبيتِ أَن يُظهِروا ماتيقَّنَ به المُؤمنونَ أَنـَّهم أُمِدُّوا بهم ﴿فَاضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ الَّتي هي المَذابحُ، وقيل: أَرادَ الرُؤُوس[1]، والـ﴿بَنَانٍ﴾: الأَصابعُ، يُريدُ به الأَطرافَ، والمعنىٰ: ﴿فَاضْرِبُواْ﴾ المَقاتِلَ والأَطرافَ من اليدَيْنِ والرِّجلَيْنِ، ويجوزُ أَن يَكونَ من قولِه: ﴿سَأُلْقِى﴾ إِلىٰ قولِه: ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ عَقيبَ قولِه: ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تَلقيناً للملائكةِ مايُثَبِّتُونَهم به، أَي: قُولُوا لَهم قَولي: ﴿سَأُلْقِى﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إِشارةٌ إِلىٰ ماوَقَعَ بهم من القَتلِ والعِقابِ العاجِلِ، أَي: ذلك العقابُ وَقَعَ بهم بسببِ مُشاقَّتِهم، والمُشاقَّةُ مُشتقَّةٌ من الشقِّ لأَنَّ كُلّاً من المُتعادِيَيْنِ في شِقٍّ خلافِ شقِّ صاحبِه، والكافُ في ﴿ذَٰلِكَ﴾ لخِطابِ الرَسولِ ﷺ أَو لخطابِ كلِّ أَحدٍ. وفي ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ للكَفَرَةِ علىٰ طريقةِ الاِلتفاتِ، و﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأٌ و﴿بِأَنَّهُمْ﴾ خبرُه، و﴿ذَٰلِكُمْ﴾ في مَحلِّ الرَفعِ أَيضاً، أَي: ذلكم العقابُ أَوِ العقابُ ذلكم ﴿فَذُوقُوهُ﴾، ويَجوزُ أَن يكونَ في محلِّ النَصبِ علىٰ تقديرِ: عليكم ذلكم ﴿فَذُوقُوهُ﴾، كقولِك: زيداً فَاضْرِبْه ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ عطفٌ علىٰ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ في الوجهَيْنِ أَو نَصبٌ علىٰ أَنَّ الواوَ بمعنىٰ «مَعَ»، أَيْ: ذُوقُوا هَٰذَا العَذابَ العاجلَ مع الآجِلِ الَّذي لكُم في الآخِرةِ، فَوُضِعَ الظاهِرُ مَوضِعَ الضَميرِ.

---

(١) قاله عكرمة. راجع تفسير البغوي: ج ٢ ص ٢٣٠.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَناً إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧)﴾

الزَحْفُ: الجَيْشُ الَّذِي يُرىٰ لكَثْرتِهِ كأَنـّهُ يَزْحَفُ أَي: يَدِبُّ دَبِيباً، مِنْ زَحَفَ الصبيُّ: إِذا دَبَّ عَلَى ٱسْتِهِ، سُمِّيَ بِالمصدرِ، والجمعُ زُحُوفٌ، والمعنىٰ: إِذا لَقِيتُموهم للقِتالِ وهم كثيرٌ جَمٌّ وأَنتمُ قليلٌ فلاتَفِرُّوا، فَضْلاً عَنْ أَن تُساوُوهُم في العَدَدِ أَو تُدانُوهُم، فيكونُ ﴿زَحْفاً﴾ حالاً مِن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ويَجوزُ أَنْ يَكُونَ حالاً مِن الفَرِيقَيْنِ، أَي: إِذا لَقِيتُمُوهم مُتَزاحِفَيْنِ أَنْتم وَهُم، أَو حالاً مِن «المُؤْمِنينَ»، كأَنـّهم أُخبِرُوا بِما سيكونُ مِنهُم يَومَ حُنَيْنَ[1] حِينَ وَلَّوا مُدْبِرِينَ وهُمْ زَحْفٌ: اثنا عَشَرَ أَلفاً، وفي قَولِهِ: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ أَمارةٌ عليه ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ﴾ هُو الكَرُّ بعدَ الفَرِّ، يُخَيِّلُ عدُوَّهُ أَنـّهُ مُنْهَزِمٌ ثُمَّ يَعْطِفُ عليه، وهو نوعٌ مِنْ مكائِدِ الحربِ ﴿أَوْ مُتَحَيِّزاً﴾ أَي: أَو مُنحازاً ﴿إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ إِلىٰ جماعةٍ أُخرىٰ مِن المُسلمينَ سِوى الفِئَةِ الَّتِي هُوَ فيها، وٱنتصابُهُما على الحالِ وَ ﴿إِلَّا﴾ لغوٌ، أَو على الاستثناء مِن «المُوَلِّينَ»، أَي: وَمَنْ يُوَلِّهِمْ إِلَّا رَجُلاً منهُم مُتحرِّفاً أَو مُتَحَيِّزاً، ووَزْنُ مُتَحَيِّزٍ مُتَفَيْعِلٌ لامتفعِّلٌ؛ لأَنـّهُ مِن حازَ يَحُوزُ، فبناءُ مُتَفَعِّلٍ منه مُتحوِّزٌ.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ الفاءُ جوابُ شرطٍ محذوفٍ، تقديرُهُ: إِن افتَخَرْتُم بِقتْلِهِم فَأَنْتُم

(١) حُنَين: موضع بين الطائف ومكة، حارب فيه رسول الله ﷺ والمسلمون هوازن وثقيف فهزمهم وغنم ما كانوا ساقوه معهم من النساء والصبيان والماشية. انظر تفصيل يوم حنين في تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٣٤٤ ـ ٣٦٢.

لَمْ تَقتُلُوهُم ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بأَنْ أَنْزَلَ الملائِكَةَ، وألقَى الرُّعْبَ فـي قُـلُوبِهِم، وَقَوّىٰ قُلُوبَكُمْ ﴿وَمَارَمَيْتَ﴾ أَنت يامحمَّدُﷺ ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ [1]، وذلك أَنَّ قريشاً لَمَّا جاءَتْ بِخُيَلائِها[2] أَتاهُ جَبْرَئِيلُ فقال: خُذْ قَبْضَةً من تُرابٍ فَارْمِهِمْ بها، فقال لِعَليٍّ عليه السلام: أَعْطِنِي قَبْضَةً مِن حَصْباءِ الوادي، فأَعطاهُ، فَرَمَىٰ بـها فـي وُجُـوهِهِم، وقال: شاهتِ الوُجُوهُ، فلم يَبْقَ مُشرِكٌ إِلَّا شُغِلَ بِعَيْنَيْهِ، فانْهَزَمُوا وَرَدَفَهُم المُؤْمِنُونَ يَقْتُلُونَهُم وَيَأْسِرونَهُم ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ حيثُ أَثَّرَتِ الرَّمْيَةُ ذلك الأَثرَ العـظيمَ، أَثْبَتَ الرَمْيَ لرسولِ اللهِ لأَنَّهُ وُجِدَ منه صورةً، ونَفاهُ عنهُ مـعنىً لِأَنَّ أَثَـرَهُ الَّـذي لايَدْخُلُ في قدرةِ البشرِ فعلُ اللهِ عَزَّوعَلا، فكأَنَّهُ فاعلُ الرَميةِ على الحقيقةِ، وكأَنَّها لم تُوجَدْ مِن الرَسولِ أَصلاً. وقُرِئَ: «وَلَـٰكِنِ ٱللَّهُ قَتَلَهُمْ ... وَلَـٰكِنِ ٱللَّهُ رَمَىٰ»[3]، ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وَلِيُعْطِيَهُم ﴿بَلَآءً﴾ عطاءً ﴿حَسَناً﴾ جميلاً، قال زُهَيْرٌ:

وأَبْلاهُما خَيْرَ الْبَلاءِ الَّذي يَبْلُو [4]

والمعنىٰ: ولِلإحسانِ إِلى المُؤْمِنينَ والإِنعامِ عليهِم فَعَلَ مافَعَلَ، وَلَمْ يَفْعَلْهُ إِلَّا لذٰلِكَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لِأَقوالِهِم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأَحوالِهِم.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ (١٨) إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٩) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ

---

(١) قال الزجّاج: ليس هذا نفي رمي النبيّﷺ ولكن العرب خوطبت بما تعقل. انـظر مـعاني القرآن: ج ٢ ص ٤٠٦.

(٢) الخال والخُيلاء والخِيلاء: الكبر. (الصحاح: مادة خيل).

(٣) قرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. راجع التبيان: ج ٥ ص ٩٣.

(٤) وصدره: جزى الله بالإحسان مافعلا بكم. وهو من قصيدة يمدح بها سنان بن أبي حـارثة المرّي شيخ بني مرّة من غطفان، ومعناه واضح. انظر ديوان زهير: ص ٦١.

ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ (٢٠) وَلَاتَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَايَسۡمَعُونَ (٢١) ﴾

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إشارةٌ إلى البَلاءِ الحَسَنِ، وَمَحَلُّهُ الرَّفعُ، أي: الغَرَضُ ذلكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ﴾ عطفٌ علىٰ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ يعني: أَنَّ الغرضَ إبلاءُ المُؤمنينَ وتَوهينُ كيدِ الكافِرينَ، وقُرِئَ: «مُوَهِّنُ» بالتَشديدِ[١]، وقُرِئَ على الإضافةِ[٢]، وعلى الأَصلِ الَّذي هو التنوينُ وَالإِعمالُ[٣].

﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُ﴾ خطابٌ لأَهلِ مكَّةَ علىٰ طريقِ التَهكُّمِ، وذلك أَنَّهُم حينَ أَرادُوا أن يَنفِرُوا تَعَلَّقُوا بأَستارِ الكعبةِ وقالوا: ٱللَّهُمَّ انصُرْ أَعْلَى الجُنْدَيْنِ وأَهْدَى الفِئَتَيْنِ وأكرمَ الحِزْبَيْنِ، ورُوِيَ: أَنَّ أبا جهلٍ قالَ يومَ بدرٍ: ٱللَّهُمَّ أَيُّنا كان أَهْجَرَ وأَقْطَعَ للرَحِمِ فأَحِنْهُ[٤] اليومَ[٥]، أَي: فأَهْلِكْهُ، وقيلَ: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ﴾ خِطابٌ للمُؤْمِنينَ و ﴿إِن تَنتَهُواْ﴾ للكافرينَ[٦]، أَي: وإن تنتَهُوا عن عَداوةِ رسولِ اللهِ ﴿فَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡ وَإِن تَعُودُواْ﴾ لِمُحارَبَتِه ﴿نَعُدۡ﴾ لنصرتِه عليكم. وقُرِئَ: ﴿وأَنَّ ٱللَّهَ﴾ بالفتحِ علىٰ: ولِأَنَّ اللهَ مع المُؤمنينَ كان ذلك، وبالكسرِ[٧]

---

(١) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو. راجع التبيان: ج ٥ ص ٩٤، وفي تفسير البغوي ج ٢ ص ٢٣٨: انها قراءة أهل البصرة.

(٢) وهي قراءة حفص عن عاصم. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٣٣، وفي إعراب القرآن للنحّاس: ج ٢ ص ١٨٢، هي قراءة أهل الكوفة.

(٣) قرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم والحسن وأبو رجاء والأعمش وابن محيصن. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٠٥، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٤ ص ٤٧٨.

(٤) في بعض النسخ: فأهنه.

(٥) رواه ابن كثير في تفسيره: ج ٢ ص ٢٨٤ عن الزهري عن عبدالله بن ثعلبة.

(٦) قاله أبو علي الجبّائي كما في التبيان: ج ٥ ص ٩٦.

(٧) قرأه ابن كثير وعاصم برواية أبي بكر وأبو عمرو وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٠٥.

وهو الأَوْجهُ، ويُقَوِّيه قِراءَةُ عبدِاللهِ: «وَاللهُ مَعَ المُؤْمِنِين»[١].

وقُرِئَ: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ﴾ بحذفِ التَاءِ وإِدغامِها فـي الثَـانِي[٢]، والضَـميرُ فـي ﴿عَنْهُ﴾ لرسولِ اللهِ؛ لأنَّ المعنىٰ: أَطِيعُوا رَسُولَ اللهِ، كقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[٣]، ولأَنَّ طاعةَ اللهِ وطاعةَ الرَسولِ شيءٌ واحدٌ ورجـوعُ الضَـميرِ إِلىٰ أَحدِهِما رجوعٌ إِليهما، كما تَقولُ: الإِحسانُ والإِجمالُ لاينفعُ في فـلانٍ ﴿وَأَنـتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ دُعاءَهُ لكم. ﴿وَلَاتَكُونُواْ كَالَّذِينَ﴾ ادَّعُوا السَماعَ ﴿وَهُمْ لَايَسْمَعُونَ﴾ لأَنَّهم ليسُوا بمُصدِّقِينَ فكأَنـَّهم غيرُ سامِعِينَ.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَايَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْـلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَـلْبِهِ وَأَنَّـهُۥٓ إِلَـيْهِ تُـحْشَرُونَ (٢٤) وَٱتَّـقُواْ فِـتْنَةً لَّاتُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢٥)﴾

﴿إِنَّ شَرَّ﴾ مَن يدِبُّ علىٰ وجهِ الأَرضِ، أَو: إِنَّ شرَّ البهائمِ، جَعَلَهُم من جنسِ البهائمِ ثمَّ جَعَلَهُم شرَّها ﴿ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ﴾ أَي: الَّذِينَ هم صُمٌّ عن ٱلحقِّ لايَسْمَعُونَه، بُكْمٌ لايُقِرُّونَ بِه. ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ﴾ في هؤُلاءِ الصُمِّ البُكْـمِ ﴿خَـيْراً﴾ أَي: انـتِفاعاً باللُطفِ ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ لَلَطُفَ بِهِمْ حتَّى يَسْمَعُوا سَماعَ المُصدِّقينَ ﴿وَلَـوْ أَسْـمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ﴾ أَعرَضوا، وفي هذا دَلالةٌ علىٰ أَنـَّه سُبحانَه لايَمْنَعُ أَحداً اللُـطفَ، وإِنَّـما لايَلْطُفُ لِمَن يَعلَمُ أَنـَّهُ لايَنتَفِعُ بِهِ.

---

(١) حكاه عنه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٥ ص ٩٥.

(٢) في الكشّاف: «قرئ بطرح إحدى التائين وادغامها» وهو الأوجه، إذ لم نعثر على قراءةٍ بـاثبات التاء من غير ادغام أصلاً في المصادر المعتمدة لكي يقال: «وقرئ بحذف التاء وادعامها».

(٣) التوبة: ٦٢.

وقال الباقرُ عليه السلام: «هُم بَنُو عبدِ الدارِ لم يُسْلِمْ منهم غيرُ مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ وسُوَيْدِ بنِ حَرْمَلَةَ، كانوا يَقولون: نَحنُ صُمٌّ بُكْمٌ عَمَّا جاءَ به محمَّدٌ، وقد قُتِلُوا جميعاً بِأُحُدٍ، كانوا أَصحابَ اللواءِ»(١).

﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وَحَّدَ الضَميرَ؛ لأَنَّ استجابةَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله استجابةُ اللهِ، والمرادُ بِالاِستجابةِ: الطَاعةُ والامتثالُ ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ مِنْ علومِ الدينِ والشَرائِعِ؛ لأَنَّ العلمَ حياةٌ والجهلَ موتٌ، وقيلَ: لمُجاهَدَةِ الكفَّارِ وللشهادةِ(٢) لقولِه: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾(٣). ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أَي: يَمْلِكُ على المرءِ قلبَه فيُغَيِّرُ نِيَّاتِهِ ويَفْسَخُ عزائمَه، ويُبَدِّلُهُ بالذكرِ نِسياناً وبالنسِيانِ ذِكْراً وبالخوفِ أَمناً وبالأَمنِ خوفاً، وقيل: معناه: أَنَّ المرءَ لا يَستَطيعُ أَن يَكْتُمَ اللهَ بقلبِه شيئاً وهو يَطَّلِعُ علىٰ ضمائِرِهِ وخواطِرِهِ، فكأَنَّهُ حالَ بينَهُ وبينَ قلبِهِ(٤)، وقيل: معناهُ: أَنَّهُ يُميتُ المرءَ فتَفُوتُهُ الفرصةُ الَّتي هو واجدُها، وهي التَمكُّنُ من إِخلاصِ القلبِ ومُعالَجَةِ أَدوائِهِ وردِّهِ سَليماً كما يُريدُهُ اللهُ(٥)، فَاغْتَنِمُوا هذهِ الفُرصةَ وأَخلِصوا قُلوبَكم، وَاعْلَمُوا أَنَّكم ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيُثيبُكُمْ علىٰ حَسَبِ سلامةِ القُلوبِ وإِخلاصِ الطاعةِ.

وعن الصَادقِ عليه السلام: «يَحولُ بينَ المرءِ وبينَ أَن يَعْلَمَ أَنَّ الباطلَ حقٌّ»(٦).

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ أَي: بليَّةً(٧)، وقيل: ذنباً(٨)، وقيل: عذاباً(٩)، وقيل: هو إِقرارُ

---

(١) رواه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٥ ص ٩٩.

(٢) وهو قول الفرّاء وابن إسحاق والجبّائي والقتيبي. راجع التبيان: ج ٥ ص ١٠١.

(٣) آل عمران: ١٦٩.

(٤) قاله قتادة كما حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٢ ص ٣٠٨.

(٥) وهو قول علي بن عيسى الرماني على ماحكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٢ ص ٣٠٨.

(٦) رواه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٥ ص ١٠١.

(٧) وهو قول الحسن. راجع تفسيره: ج ١ ص ٤٠١.

(٨) وهو قول الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٢١١.

(٩) قاله ابن عباس والجبّائي راجع التبيان: ج ٥ ص ١٠٣، وأحكام القرآن لابن العربي: ج ٢ ←

المُنكَرِ بينَ أَظْهُرِهم[(١)].

وقولُه: ﴿لَا تُصِيبَنَّ﴾ لايَخلو أَن يكونَ جواباً للأَمرِ، أَو نَهياً بعد أَمرٍ معطوفاً عليه بحذفِ الواوِ، أَو صفةً لـ﴿فِتْنَةً﴾، فإذا كان جواباً فالمعنىٰ: إِن أَصابَتْكم لاتُصيبُ الظالمينَ ﴿مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ ولـٰكنَّها تَعُمُّكم، وإِنَّما جازَ دخولُ النُونِ في جوابِ الأَمرِ لأَنَّ فيه معنَى النهي، كما تَقولُ: ٱنزِلْ عن الدابَّةِ لاتُطرِحْك، ويَجوزُ: لاتُطْرِحَنَّك، وإذا كانَتْ نَهياً بعدَ أَمرٍ فكأَنَّه قيل: وَٱحْذَرُوا بليَّةً أَو ذَنباً أَوْ عِقاباً، ثُمَّ قيلَ: لاتَتَعرَّضُوا للظُلمِ فتُصيبُ البَليَّةُ أَو العقابُ أَو أَثَرُ الذنبِ ووبالُه مَن ظَلَمَ منكم خاصَّةً، وكذلك إذا جَعَلْتَه صفةً علىٰ إرادةِ القَولِ كَأَنَّه قيل: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً﴾ مَقولاً فيها: ﴿لَا تُصِيبَنَّ﴾، ونظيرُهُ قولُ الشاعر:

حَتَّىٰ إذا جَنَّ الظَّلامُ وَٱخْتَلَطَ جاءُوا بمَذْقٍ هَلْ رَأَيْتَ الذِّئْبَ قَطُّ[(٢)]

أَي: بمَذقٍ يُقالُ فيه هذا القولُ؛ لأَنَّ فيه لونَ الوُرْقَةِ الَّتي هي لونُ الذِئبِ، ويَعْضُدُهُ قِراءَةُ ابنِ مسعودٍ: «لَتُصِيبَنَّ»[(٣)] علىٰ جوابِ القَسَمِ المحذوفِ، ويكونُ «مِن» للتبيينِ علىٰ هذا، لأَنَّ المعنىٰ: لاتُصيبَنَّكم أَو لَتُصيبَنَّكُمْ خاصَّةً علىٰ ظُلمِكم؛ لأَنَّ الظُلمَ أَقبحُ منكم من سائرِ النَاسِ.

وعن ٱبنِ عبَّاسٍ قالَ: لمَّا نَزَلَتْ هذه الآيةُ قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ ظَلَمَ عَليّاً مَقْعَدِي هذا بَعْدَ وَفاتي فكَأَنَّما جَحَدَ نُبُوَّتِي وَنُبُوَّةَ الأَنبياءِ قَبْلِي»، أَوْرَدَهُ الحاكم

← ج ٢ ص ٣٩٠.

(١) قاله ابن عبّاس كما في التبيان: ج ٥ ص ١٠٣.

(٢) البيت للعجاج، يصف فيه قوماً بالشحّ وعدم إكرامهم للضيف، وبالغ في أنّهم لم يكرموه ولم يأتوا بما أتوا به إليه إلّا بعد سعي ومضيّ جانب من الليل، ثمّ لم يأتوه إلّا بلبنٍ ممزوج بالماء وهو يشبه لون الذئب لأنَّ فيه غبرة وكدورة. انظر خزانة الأدب: ج ٢ ص ١٠٩ و ١١٢.

(٣) حكاها عنه الزمخشري في كشّافه: ج ٢ ص ٢١٢.

أَبو القاسمِ الْحَسْكانيُّ في كتابِ شواهدِ التنزيلِ(١) مرفوعاً.

وعن ابنِ عبَّاسٍ أيضاً: أَنـَّهُ سُئِلَ عن هذِهِ الفتنةِ، فقالَ: أَبْهِمُوا ماأَبْهَمَ ٱللهُ، وعن السُدِّيِّ: نَزَلَتْ في أَهلِ بدرٍ فَاقْتَتَلُوا يومَ الجَمَلِ(٢).

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)﴾

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾ مَعاشِرَ المُهاجِرِينَ ﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ أَي: وقتَ كونِكُمْ أَقِلَّةً أَذِلَّةً، فـ﴿إِذْ﴾ هُنا مذكورٌ مفعولٌ به وليس بظرفٍ ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ يَسْتَضْعِفُكُمْ قُريْشٌ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: أَرضَ مكَّةَ قبلَ الهجرةِ ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ أَي: يَسْتَلِبَكُم المُشركُونَ من العَرَبِ إِنْ خَرَجْتُم منها ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ إِلى المدينةِ ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ أَي: قَوَّاكُم بمَظاهِرِ النَصرِ بإِمدادِ الملائكةِ يومَ بدرٍ ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يعني: الغَنائمَ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إِرادةَ أَن تَشْكُرُوا هذِهِ النِعَمَ.

وعن قَتادةَ: كانَتِ العربُ أَذَلَّ النـاسِ وأَشقاهُم عيشـاً، وأَعراهـم جِـلداً، يُؤْكلُونَ ولايَأْكُلُونَ، فَمَكَّنَ اللهُ لهم في البِلادِ، وَوَسَّعَ عليهِم في الرِّزْقِ والغَنائِمِ، وجَعَلَهُم مُلُوكاً(٣).

ومعنى الخَوْنِ: النَقْصُ، كما أَنَّ معنى الوَفاءِ: التَمامُ، ومنه تَخَوَّنَهُ أَي: تَنَقَّصَهُ،

(١) شواهد التنزيل: ج ١ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٢١٢.

(٣) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ٦ ص ٢١٩.

ثُمَّ اسْتُعْمِلَ في ضِدِّ الأَمَانةِ والوفاءِ[١]، لأَنَّكَ إِذا خُنْتَ الرَجُلَ في شَيءٍ فقد أَدْخَلْتَ عليه النُقْصَانَ فيه، والمعنىٰ: لاتَخُونُوا اللهَ بتَرْكِ أوامرِهِ، والرَسُولَ بتركِ سُنَّتِهِ وشَرائِعِهِ، وَ ﴿أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾ فيما بينَكم بأَنْ لاتَحْفَظُوها ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وبالَ ذلك وعقابَهُ، وقيل: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّكُم تخُونُون[٢]، يعني: أَنَّ الخِيانَةَ تُوجَدُ منكم عن عمدٍ، ويُحْتَمَلُ أَن يكونَ ﴿وَتَخُونُوٓاْ﴾ جزماً داخلاً في حكمِ النَهي، وأَن يكونَ نصباً بإِضمارِ «أَنْ»، نحوُ: لاتَأْكُلِ السَمَكَ وَتَشْرَبَ اللَبَنَ.

﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ جَعَلَهُمْ فتْنةً؛ لأَنَّهُم سببُ الوقوعِ في الفتنةِ وهي الإِثمُ أَو العذابُ، أَو يُرِيدُ: مِحْنَةٌ مِنَ اللهِ لِيَبْلُوَكُم كيفَ تُحَافِظُونَ فيهِم علىٰ حدودِهِ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فعليكُم أَن تَزْهَدُوا في الدُنيا، ولا تَحْرِصُوا علىٰ جمعِ المالِ وحُبِّ الوَلَدِ، ولا تُؤْثِرُوهُما علىٰ نَعِيمِ الأَبدِ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٢٩) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ (٣٠)﴾

﴿فُرْقَانًا﴾ أَي: فتحاً ونَصراً، كقولِه: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾[٣] لِأَنَّهُ يُفَرِّقُ بينَ الحقِّ بإِعزازِ أَهلِهِ والباطلِ بإِذلالِ أَهلِهِ، أَو هدايةً ونوراً وتوفيقاً وشَرحاً لِلصُدورِ، أَو بَياناً وظهوراً يُشْهِرُ أَمرَكُم في أَقطارِ الأَرضِ.

---

(١) قال الراغب: الخيانة والنفاق واحد، إلّا أنّ الخيانة تقال اعتباراً بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتباراً بالدين، ثمّ يتداخلان فالخيانة مخالفةُ الحقّ بنقض العهد في السرّ، ونقيض الخيانة: الأمانة، يقال: خنت فلاناً وخنت أمانة فلانٍ. راجع المفردات: مادة (خون).

(٢) حكاه الماوردي في تفسيره: ج ٢ ص ٣١١.

(٣) الأنفال: ٤١.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لمّا فَتَحَ ٱللهُ عليه، ذَكَّرَهُ مكرَ قُرَيْشٍ به حينَ كانَ بمكَّةَ لِيَشكُرَ النِعمةَ الجَليلةَ في إنجائهِ منهم وَٱستيلائهِ عليهم، أَي: وَٱذْكُرْ إذْ يَمْكُرُونَ بكَ حينَ اجتَمَعُوا في دارِ النَدْوَةِ وتَآمَرُوا في أَمرِكَ، فقال بعضُهُم: نَحبِسُهُ في بيتٍ ونُلْقِي إليهِ الطَعامَ والشَرابَ، وقال بعضُهُم: نَحمِلُهُ على جَمَلٍ ونُخرِجُهُ من بينِ أَظهُرِنَا، وقال أَبوجهلٍ: نَأْخُذُ من كلِّ بَطنٍ غلاماً ونُعطِيهِ سَيفاً صارماً فَيَضرِبُونَهُ ضَرْبَةَ رجلٍ واحدٍ فَيَتَفَرَّقُ دمُهُ في القبائِلِ فلايَقْوَىٰ بَنُو هاشمٍ علىٰ حربِ قُرَيْشٍ كُلِّهِم، فإذا طَلَبُوا العَقْلَ عَقَلْنَاهُ، فقالَ إبليسُ وَكَانَ قد دَخَلَ عليهم في صورةِ شيخٍ من أَهلِ نَجدٍ: هَـٰذَا الفَتَىٰ أَجْوَدُكُم رَأْياً، فَتَفَرَّقُوا علىٰ رأْيِهِ مُجْمِعِينَ علىٰ قَتْلِهِ.

وعنِ ٱبْنِ عبّاسٍ: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾: لِيُقَيِّدُوكَ ويُوثِقُوكَ [١]، وقيل: لِيُثْخِنُوك [٢] بالضربِ والجَرحِ [٣] من قولِهِم: ضَرَبُوهُ حتَّىٰ أَثبَتُوهُ لاحَرَاكَ بهِ، وفلانٌ مُثْبَتٌ وَجَعاً ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ وَيُخفُونَ المكائدَ ﴿وَيَمْكُرُ ٱللهُ﴾ ويُخفِي ٱللهُ ماأَعَدَّ لَهُم حتَّىٰ يَأْتِيَهُم بغتةً ﴿وَٱللهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [٤] أَي: مكرُهُ أَنْفَذُ مِن مكرِ غيرِهِ، أَو لأَنَّهُ لايُنزِلُ إلّا ماهو حقٌّ وعدلٌ.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ إِنْ

---

(١) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ٦ ص ٢٢٥.

(٢) أثخن في العدوّ: بالغ في الجراحة فيهم. (القاموس المحيط: مادة ثخن).

(٣) وهو قول عطاء والسدي كما حكاه عنهما أبو حيان في البحر المحيط: ج ٤ ص ٤٨٧، وفي تفسير القرطبي ج ٧ص ٣٩٧: قاله أبان بن تغلب وأبو حاتم، وفي التبيان: ج ٥ ص١٠٩ عن الجبائي.

(٤) قال الراغب: المكر: صرف الغير عمّا يقصده بحيلةٍ، وذلك ضربان: مكر محمود وذلك أن يتحرّىٰ بذلك فعلَ جميلٍ، وعلى ذلك قال: ﴿وَٱللهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾، ومذموم وهو أن يتحرّىٰ به فعل قبيحٍ. راجع المفردات: مادة (مكر).

هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَاكَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَاكَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَالَهُمْ أَلَّايُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَـانُوٓاْ أَوْلِـيَآءَهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ (٣٤) ﴾

﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ﴾ قائلُهُ: النضرُ بنُ الْحَارِثِ بنِ كَلَدَةَ، وأُسِرَ يومَ بدرٍ فقَتَلَهُ النبيُّ ﷺ صَبْراً بيدِ عليٍّ عليه السلام، وإنَّما قالَه صَـلَفاً[1] ونَـفاجَةً[2]، فـإنَّهم لم يَتَوانَوْا في مَشِيئَتِهِم لو ٱسْتَطَاعُوا ذَلِكَ، وَإِلَّا فما مَنَعَهُم أَن يَشاءُوا غَلَبَةَ من تَحدَّاهُم وَقَرَّعَهُم بالمُعْجِزِ حَتَّىٰ يَغْلِبُوهُ مع فَرطِ حِرصِهِم علىٰ قَهرِهِ وَغَلَبَتِهِ؟!

﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قَالَهُ النَضرُ أيضاً، وذلك أَنَّه جاءَ بـحديثِ رُسْتَمَ وإِسْفَنْديارَ من بِلادِ فارِسَ، وزَعَمَ أَنَّ هذا مثلُ ذلك، وهو القائِلُ: ٱللَّـهُمَّ إِنْ كانَ هذا هو الحَقَّ ـ أَي: إِن كانَ القرآنُ هو الحقَّ ـ فعاقِبْنا علىٰ إِنكارِهِ بالسِجِّيلِ كما فَعَلْتَ بأَصحابِ الفيلِ، أَو بعذابٍ آخَرَ، ومُرادُه أَن يَنْفِيَ كونَه حَقّاً، وإِذَا ٱنتفىٰ كونُه حقّاً لم يَستوجِبْ مُنكِرُه عَذاباً، فَكَانَ تَعْليقُ العَذابِ بكونِهِ حقّاً مَعَ ٱعـتِقادِ أَنَّـه ليس بحقٍّ كتَعْلِيقِهِ بالمُحالِ.

﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ اللامُ لِتأْكيدِ النفي، والدلالةِ علىٰ أَنَّ تعذيبَهم وهو بينَ أَظـهُرِهم غيرُ مُستقيمٍ في الحِكْمَةِ، ومِنْ قَضيَّةِ حِكمَةِ اللهِ أَن لايُعذِّبَ قوماً عذابَ ٱستئصالٍ ونَبِيُّهُم بينَ أَظْهُرِهم، وفيه إِشعارٌ بأَنَّـهم مُرصَدونَ بالعذابِ إِذا هاجَرَ عنهم بدَلالةِ

---

(١) الصلف ـ بالتحريك ـ: هو التكلّم بما يكرهه صاحبك، والتمدّح بماليس عندك، أو مجاوزة قدر الظرف والادّعاء فوق ذلك تكبّراً. (القاموس المحيط: مادة صلف).

(٢) رجلٌ نفّاج: إذا كان صاحب فخرٍ وكبرٍ. (الصحاح: مادة نفج).

قوله: ﴿وَمَالَهُمْ أَلَّايُعَذِّبَهُمُ ٱللهُ﴾، فكَأَنَّه قال: مايُعَذِّبُهم وأَنت فيهِم وهو مُعذِّبُهم إذا فارَقْتَهم ﴿وَمَالَهُمْ أَلَّايُعَذِّبَهُمُ﴾، وقولُه: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ، أَي: ﴿وَمَاكَانَ ٱللهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾ وفيهم مَنْ يَسْتَغْفِرُ وَهُم المُسلمونَ بينَ أَظهُرِهم مِن المُستَضعَفين الَّذين تَخَلَّفوا بعدَ خروجِ رسولِ ٱللهِ ﷺ وهم علىٰ عَزمِ الهِجرةِ، وقيل: معناه نَفيُ الاستغفارِ عَنهم، أَي: ولَوْ كانُوا مِمَّن يُؤْمِنُ باللهِ ويَسْتَغْفِرُ لَما عَذَّبَهم، ولكِنَّهم لايؤْمِنونَ ولايَستغفِرونَ[١].

﴿وَمَالَهُمْ أَلَّايُعَذِّبَهُمُ ٱللهُ﴾ وأَيُّ شيءٍ لهم فِي ٱنتفاءِ العَذابِ عنهم، يَعني: لاحَظَّ لهم في ذلك ﴿وَهُمْ﴾ مُعذَّبونَ لامَحالةَ، وكَيفَ لايُعَذَّبون وحالُهم أَنَّهم ﴿يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أَولياءَه ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُ﴾ أَي: وما ٱستَحقُّوا مَعَ شِركِهم بِاللهِ وعَداوتِهم لِرَسولِه أَن يَكونوا وُلاةَ أَمرِه ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ إِنَّما يَسْتَحِقُّ وِلايَتَه مَنْ كان تَقِيّاً من المسلمينَ ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ﴾ كَأَنَّه ٱستَثْنَىٰ مَنْ يَعلَمُ ويُعانِدُ، أَو أَرادَ بالأَكثرِ الجَميعَ كما يُرادُ بالقِلَّةِ العَدَمُ.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ ٱللهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ (٣٧)﴾

المُكاءُ: الصَفيرُ، وَالتَصدِيَةُ: التَصفيقُ، وهو ضربُ اليدِ على اليدِ، وهو تَفعِلَةٌ من الصَدَىٰ، والمعنىٰ: أَنَّهم وَضَعُوا المُكاءَ والتَصدِيَةَ موضِعَ الصَلاةِ، كَما أَنَّ الشاعِرَ في قولِه:

---

(١) قاله مجاهد وقتادة والسدي وابن عبّاس وابن زيد. راجع التبيان: ج ٥ ص ١١٣.

وماكُنْتُ أَخْشَى أَنْ يَكُونَ عطاؤهُ أَداهِمَ سُوداً أَو مُحَدْرَجَةً سُمْراً(١)

وَضَعَ القُيُودَ والسِياطَ موضِعَ العَطاءِ، وذلك أَنَّهم كانوا يَطُوفُونَ بالبيتِ عُراةً وهم مُشَبِّكُونَ بينَ أَصابِعِهِم يَصْفِرُونَ فيها وَيُصَفِّقُونَ، وكانوا يَفْعَلُونَ نحوَ ذلك إِذا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في صَلاتِهِ يُخَلِّطُونَ عليه ﴿فَذُوقُواْ﴾ عَذابَ القَتْلِ والأَسْرِ يَومَ بَدرٍ بسببِ كُفْرِكُم.

﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ نَزَلَتْ في المُطْعِمِينَ يَومَ بَدرٍ، كانَ كُلَّ يومٍ يُطْعِمُ واحدٌ مِنهم عَشْرَ جُزُرٍ، وقيل: إِنَّهُم قالوا لكلِّ من كانَتْ له تجارةٌ في العِيرِ: أَعِينوا بهذا المالِ على حربِ محمَّدٍ ـ ﷺ ـ لَعلَّنا نُدرِكُ منه ثأرَنا بما أُصِيبَ مِنَّا ببدرٍ(٢) ﴿لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أَي: كان غَرَضُهم في الإِنفاقِ الصَدَّ عن اتِّباعِ محمَّدٍ ﷺ وهو سبيلُ اللهِ ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ثُمَّ تَكونُ عاقبةُ إِنفاقِها حَسْرةً ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ آخِرَ الأَمرِ يَغْلِبُهُمُ المُؤْمِنونَ، والكافِرُونَ ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ﴾ الفَريقَ الخَبيثَ من الفَريقِ الطَيِّبِ ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُ﴾ فوقَ ﴿بَعْضٍ﴾ في جَهَنَّمَ يُضَيِّقُها عليهم ﴿فَيَرْكُمَهُ﴾ عبارةٌ عَنِ الجَمْعِ والضَّمِّ حَتَّى يَتَراكَمُوا، كقولِهِ: ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾(٣)، وقيلَ: نَفَقَةَ الكافِرِ من نَفَقَةِ المُؤْمِنِ، وَيَجْعَلَ نَفَقَةَ الكافِرِ بعضَها ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فوقَ بعضٍ ﴿فَيَرْكُمَهُ﴾ وَيَجْمَعَهُ

(١) البيت للفرزدق، وروي: فلمّا خَشيتُ أن يكون عطاؤه...، وأُخرىٰ: أخاف زياداً أن يكون عطاؤه...، وهي من قصيدة يذمّ بها زياداً بعدما فرَّ منه، إذ أراد زياد أن يختدعه ليقع في يديه فأشاع أنـّه لو أتاه لحباه وأكرمه، فبلغ ذلك الفرزدق فانطلق ينشأ هذه القصيدة، يقول: ما كنت أظنّ أن يكون عطاء زيادٍ قيوداً سوداً تلسع كما تلسع الحيّة السوداء أو سياطاً مفتولة سمراء يجلدني بها. انظر ديوان الفرزدق: ج ١ ص ٣٢٠.

(٢) قاله محمد بن مسلم و محمد بن يحيى بن حبّان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبدالرحمن. راجع تفسير الطبري: ج ٦ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٣) الجن: ١٩.

﴿جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ﴾ يُعاقِبُهُم بِهِ[١]، كَمَا قَالَ: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ الآية[٢]، وقُرِئَ: ﴿لِيَمِيزَ﴾ على التخْفِيفِ[٣].

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّاقَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ (٤٠)﴾

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أَي: قُلْ لِأَجلِهِم هذا القَولَ وهُوَ ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾، ولو كان بِمعنَىٰ خاطِبْهُمْ به لَقيلَ: إِنْ تَنْتَهُوا ـ بالتاءِ ـ يُغفَرْ لَكُمْ، أَي: إِن يَنْتَهُوا عَمَّا هُمْ عليه بالدُخولِ فِي الإِسلامِ ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّاقَدْ سَلَفَ﴾ من الشِركِ وعَداوةِ الرَسولِ ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ لِعداوَتِهِ وَقِتَالِهِ ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الَّذِينَ تَحزَّبُوا علىٰ أَنبياءِ ٱللهِ في تَدْمِيرِهم، فَلْيَتَوَقَّعُوا مِثلَ ذَلكَ إِن لَمْ يَنْتَهُوا.

﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أَي: إِلىٰ أَن لَايُوجَدَ فِيهِمْ شِركٌ ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ ويَضْمَحِلَّ كُلُّ دِينٍ باطِلٍ ويَبقَىٰ دِينُ الإِسلامِ وَحْدَهُ.

قال الصادِقُ[٤] عليه السلام: «لم يَجِئ تَأْويلُ هذِهِ الآيةِ، ولو قَد قامَ قائمنا بعدُ سَيرَىٰ مَنْ يُدْرِكُهُ ما يَكونُ من تأويلِ هذِهِ الآيةِ، وَلَيَبْلُغَنَّ دِينُ محمَّدٍ صلى الله عليه وآله ما بَلَغَ اللَّيلُ حتَّىٰ لا يَكونَ شِركٌ[٥] علىٰ ظَهرِ الأَرضِ»[٦].

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ عن الكفرِ وأَسْلَمُوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يُثيبُهم علىٰ

---

(١) قاله مقاتل على ماحكاه عنه السمرقندي في تفسيره: ج ٢ ص ١٧.

(٢) التوبة: ٣٥.

(٣) الظاهر أنّ القراءة المعتمدة عند المصنّف هي قراءة وتشديد.

(٤) في بعض النسخ: بعض الأئمّة.

(٥) في المجمع: مشرك.

(٦) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٥٦ ح ٤٨.

تَوبتِهم وإِسلامِهم، وقُرِئَ: «تَعْمَلُونَ» بالتاءِ[١]، فيكونُ المعنىٰ: فإِنَّ اللهَ بما تَعْمَلُونَ مِن الجِهادِ في سَبِيلِه ﴿بَصِيرٌ﴾ يُجازيكُمْ عليه أَحْسَنَ الجَزاءِ.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ ولَمْ يَنْتَهُوا فَثِقُوا بولايَةِ اللهِ ونُصْرتِهِ.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)﴾

«ما» مَوصُولةٌ، وَ ﴿مِن شَيْءٍ﴾ بَيانُهُ ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ﴾ مبتدأٌ، وَخبرُهُ محذوفٌ تقديرُهُ: فواجبٌ، أَو فحقٌّ أَنَّ ﴿لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾.

قَالَ أَصحابُنَا رضوان الله عليهم أَجمعين: إِنَّ الخُمْسَ يُقسَمُ عَلَىٰ سِتَّةِ أَسْهُمٍ كَمَا في الآيةِ: سَهْمٌ للهِ، وَسَهْمٌ لِلرّسولِ صلى الله عليه وآله، وَسَهْمٌ لِذَوِي الْقُرْبَىٰ، فهذِهِ ٱلأَسْهُمُ الثَّلاثَةُ اليومَ لِلإِمامِ القَائمِ مَقامَ الرَّسولِ صلى الله عليه وآله، وَسَهْمٌ لِيَتامَىٰ آلِ مُحمَّدٍ، وسهمٌ لِمَساكِينِهِمْ، وسهمٌ لأَبناءِ سَبِيلِهِم لايَشْرَكُهم في ذلك غيرُهُم؛ لأَنَّ ٱللهَ سبحانَهُ حَرَّمَ عَلَيهِمُ الصَّدَقَةَ لِكَونِهَا أَوسَاخَ النَّاسِ وعَوَّضَهُم مِن ذلك الخُمْسَ[٢]. رَوَىٰ ذلك الطبريُّ[٣] عن عَلِيِّ بْنِ الحُسينِ زينِ العابِدِينَ ومُحَمَّدِ بْنِ عليٍّ الباقِرِ صلواتُ اللهِ عليهما.

(١) وهي قراءة الحسن ويعقوب ورويس وسلام بن سليمان. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٤ ص ٤٩٥.
(٢) أنظر شرائع الإسلام: ج ١ ص ١٨١ ـ ١٨٢، واللمعة الدمشقية: ج ٢ ص ٧٨ ـ ٧٩.
(٣) تفسير الطبري: ج ٦ ص ٢٥٢ ح ١٦١٢٧ و ص ٢٥٤ ح ١٦١٤٢.

ورَوَوْا عن أميرالمُؤمِنينَ عليه السلام أَنّهُ قيلَ له: إنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ: ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ فقالَ: «أيتامُنا ومَساكِينُنا»[1].

وقولُه: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللهِ﴾ تَعلَّقَ بمحذوفٍ يَدُلُّ عليهِ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾، والمعنىٰ: إنْ كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللهِ فَاعْلَمُوا أَنَّ الخُمُسَ من الغنيمةِ يَجِبُ التَقرُّبُ بِهِ فَاقْطَعُوا عنهُ أَطْمَاعَكُم واقْتَنِعُوا بالأَخْماسِ الأربعةِ ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ معطوفٌ علىٰ ﴿بِاللهِ﴾ أَي: إنْ كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللهِ وبالمُنزَلِ ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يعني: يَومَ بدرٍ[2]، و﴿ٱلْجَمْعَانِ﴾: الفَرِيقَانِ مِنَ المُسلِمِينَ والكافِرِينَ، وَالمُرادُ: مَاأُنْزِلَ مِنَ الآياتِ والملائكةِ والفَتْحِ يومَئِذٍ.

﴿إِذْ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾، وَ«العُدْوَةُ»: شَطُّ الوادِي، بالكَسرِ والضَمِّ، و﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و ﴿ٱلْقُصْوَىٰ﴾ تأنيثُ الأَدنى والأَقصىٰ، والقياسُ أَنْ تُقْلَبَ الواوُ ياءً كالعُليا إلَّا أَنَّ القُصْوىٰ جاءَت على الأَصلِ شاذّاً كَالقَوَدِ، وَالعُدْوَةُ الدُنيا مِمَّا يَلِي المَدِينَةَ، والعُدْوَةُ القُصْوىٰ مِمَّا يَلي مكّةَ ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ يعني أَبا سُفيانَ والعِيرَ ﴿أَسْفَلَ﴾ نُصِبَ على الظرفِ، معناه: مكاناً أَسْفَلَ من مكانِكُم يَقودُونَ العِيرَ بالسَاحِلِ، ومحلُّهُ رفعٌ لأَنّه خبرُ المبتدأ.

والفائدةُ في ذِكرِ هذه المراكِزِ الإِخبارُ عن الحالِ الدالَّةِ علىٰ قوَّةِ المُشركينَ وضَعفِ المُسلِمينَ، وأَنَّ غَلَبَتَهم علىٰ مِثلِ هذِهِ الحالِ أَمرٌ إِلٰهِيٌّ لَمْ يَتَيَسَّرْ إِلَّا بِحَوْلِهِ وقُوَّتِه، وذلكَ أَنَّ العُدوةَ القُصْوىٰ كانَ فيها الماءُ، ولاماءَ بالعُدوةِ الدُنيا وهي خَبَارٌ[3] تَسُوخُ فيها الأَرجلُ، وكانت العِيرُ وَراءَ ظُهُورِهم مع كَثرةِ عَدَدِهم، وكانت

---

(١) عوالي اللآلئ لابن جمهور: ج ٢ ص ٧٥ ـ ٧٦ ح ٢٠١.

(٢) في نسخة زيادة: في يوم الجمعة السابع عشر أو التاسع عشر من شهر رمضان سنة الثاني من الهجرة، مرويّ عن الصادق عليه السلام.

(٣) الخَبَار: الأرض الرخوة. (الصحاح: مادة خبر).

الحِمايةُ دُونَها تُضاعِفُ حَمِيَّتَهم وتَحمِلُهم على أَنْ يَبْرَحُوا مَواطنَهم ويَبْذِلُوا نِهايةَ نَجْدَتِهم، وفيه تصويرُ مادبَّرَهُ عَزَّ اسْمُه مِن أمرِ وَقْعَةِ بدرٍ ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ من إعزازِ دِينِه وَإعلاءِ كلمتِهِ ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أَنتم وأَهلُ مَكَّةَ وَتَواضَعْتُم بَيْنَكُم على موعِدٍ تَلْتَقُونَ فيهِ لِلقِتَالِ لَخَالَفَ بَعضُكُم بَعْضاً، فَثَبَّطَكُم قِلَّتُكُم وكَثرَتُهُم عن الوَفاءِ بالمَوعِدِ، وَثَبَّطَهُم مَافي قُلُوبِهِم مِن الرُعبِ، فَلَمْ يَتَّفِقْ لكم من اللقاءِ ماوفَّقَهُ اللهُ ﴿لِيَقْضِىَ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ، أَي: لِيَقْضِيَ أَمراً كان واجباً أَن يُفعَلَ دَبْرَ ذلك، وقولُه: ﴿لِيَهْلِكَ﴾ بدلٌ منه، واستُعيرَ الهَلاكُ والحَياةُ للكفرِ والإسلامِ، أَي: لِيَصْدُرَ كُفرُ مَنْ كَفَرَ عن وُضُوحِ بَيِّنَةٍ وقيامِ حُجَّةٍ عليه، ويَصْدُرَ إسلامُ مَن أَسْلَمَ عن يقينٍ وعِلمٍ بأَنَّهُ الدِينُ الحقُّ الَّذِي يَجِبُ التَمَسُّكُ به ﴿لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يَعلَمُ كيفَ يُدبِّرُ أُمورَكُمْ.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (٤٤)﴾

﴿إِذْ﴾ نُصِبَ بإِضمارِ «ٱذْكُرْ»، أَو هو بَدلٌ ثانٍ من ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾، أَو متعلِّقٌ بقولِه: ﴿لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَي: يَعْلَمُ المَصالِحَ إِذْ يُقَلِّلُهُم في عَينِكَ ﴿فِى مَنَامِكَ﴾ أَي: في رُؤْياكَ، وذلك أَنَّ اللهَ سُبحانَه أَراهم إِيَّاه في رُؤْياه قَليلاً، فأَخْبَرَ بِذٰلِكَ أَصحابَه فكان[1] تَشجِيعاً لهم عليهم، وعن الحسن: ﴿فِى مَنَامِكَ﴾ في عينِك لأَنَّها مكانُ النومِ[2]، والفَشَلُ: الجُبنُ، أَي: لَجَبُنْتُم وهِبْتُمُ الإِقدامَ، ولَتَنازَعْتُمْ فِي الرَأْيِ وتَفَرَّقَتْ كَلِمتُكم فيما تَصْنَعُونَ ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أَي: أَنْعَمَ بالسلامَةِ من الفَشَلِ والتنازُعِ

---

(١) في نسخة زيادة: تثبيتاً لهم و.

(٢) تفسير الحسن البصري: ج ١ ص ٤٠٣.

﴿إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يَعْلَمُ ماسَيَكونُ فيها من الجُرأةِ والجُبْنِ.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ أي: يُبَصِّرُكُمْ إِيَّاهُم، و ﴿قَلِيلاً﴾ نَصْبٌ على الحالِ، وإِنَّما قَلَّلَهم في أَعْيُنِهِم تصديقاً لِرُؤْيَا رسولِ الله.

وعن ٱبنِ مَسعودٍ: لَقَدْ قُلِّلُوا في أَعيُنِنا حتَّى قُلْتُ لِرجلٍ إِلَىٰ جَنْبي: أَتَـراهُـم سَبعينَ؟ قال: أَراهم مائَةً، فَأَسَرْنا رَجُلاً منهم فقُلْنا: كَمْ كُنْتُمْ؟ قالَ: أَلفاً[1].

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ حَتَّى قال قائلٌ منهم: إِنَّمَا هُمْ أَكَلَةُ جَزورٍ، وإِنَّما قَلَّلَهُمْ في أَعْيُنِهِم لِيَجْتَرِئوا عَلَيهم قَبلَ اللقَاءِ، ثَمَّ كَثَّرَهُم فِيهَا بَعدَ اللقَاءِ لِتَفْجَأَهُمُ الكَـثرَةُ فَيَهَابُوا وتُفَلَّ شَوكَتُهُم حِينَ يَرَوْنَ مَالَم يَكُنْ فِي حِسَابِهِم، وذلك قولُه: ﴿يَـرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾[2]، وَيُمْكِنُ أَن يَكُونُوا قد أُبْصِرُوا الْكَثِيرَ قَلِيلاً بِأَنْ سَـتَرَ الله عَنهُم بَعضَ أُولئكَ بِسَاتِرٍ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَاتَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ (٤٦) وَلَاتَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَراً وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧)﴾

أَي: إِذا حَارَبْتُمْ جَمَاعَةً كَافِرَةً، وإِنَّمَا لم يَصِفْهُم لأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لايُحارِبُونَ إِلَّا الكُفَّارَ، واللقَاءُ ٱسمٌ للقِتَالِ غالبٌ ﴿فَـاثْبُتُواْ﴾ لِـقِتَالِهِم ولاتَـفِرُّوا ﴿وَٱذْكُـرُواْ ٱللَّهَ كَثِيراً﴾ فِي مَواطِنِ القِتالِ، مُسْتَعِينِينَ به مُسْتَظْهِرِينَ بذِكرِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أَي: تَظْفَرُونَ بِمُرادِكُم من النُصرةِ والمَثُوبَةِ. ﴿وَلَاتَنَـٰزَعُواْ﴾ أَي: لَاتَتَنَازَعُوا فِيمَا بَينَكُم فَتَضْعُفُوا عَنْ قِتَالِ عَدُوِّكُم، و﴿تَفْشَلُواْ﴾ مَنْصُوبٌ بِإِضمارِ «أَن»، والريحُ: الدولة،

---

(١) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ٦ ص ٢٥٩ ح ١٦١٧١.

(٢) آل عمران: ١٣.

شُبِّهَتْ في نفوذِ أَمرِها بالريحِ وهُبُوبِهَا، قالوا: هَبَّتْ رياحُ فُلانٍ: إِذا دَالَتْ له الدَولَةُ وَنَفَذَ أَمرُهُ، وقيلَ: لم يَكُنْ قَطُّ نَصْرٌ إِلَّا بريحٍ يَبْعَثُهَا ٱللهُ[١].

وفي الحديثِ: «نُصِرْتُ بِالصَبا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَبُورِ»[٢].

﴿كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ هُم أَهلُ مَكَّةَ خَـرَجُوا لِـيَحْمُوا[٣] عِـيرَهُم، فأَتاهم رسولُ أَبي سُفْيانَ وهم بالجُحْفَةِ[٤]: أَنِ ٱرْجِعُوا فَقَد سَلِمَتْ عيرُكُم، فأَبَىٰ أَبو جهلٍ وقال: حَتَّىٰ نَقْدمَ بَدراً نَشرَبُ بها الخُمُورَ وتَعْزِفُ علينَا القِيانُ، فذلك بَطَرُهُم ورئاؤهم الناسَ: إِطعامُهُم، فوافَوْها فسُقُوا كَأْس الحِمامِ[٥] مكانَ الخمرِ، وناحَتْ عليهمُ النَوائحُ مكانَ القِيان.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَاغَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّـى بَـرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَالَاتَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللهَ وَٱللهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٤٨)﴾

قِيلَ: إِنَّ قُرَيْشاً لَمَّا اجْتَمَعَتْ للمَسِيرِ ذَكَرَتْ مابينَها وبينَ كِنَانَةَ مـن ٱلحـربِ فكادَ ذَٰلِكَ يَثْنِيهِمْ، فَتَمَثَّلَ لَهُم إِبليسُ في صـورةِ سُـراقَـةَ بـنِ مـالكِ بـنِ جُـعْشُم الكِنانيِّ[٦] وكانَ مِن أَشرافِهِم، فَـ﴿قَالَ لَاغَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ ... وَإِنِّى﴾ مُجِيرُكُـم من بني كِـنَانَةَ ﴿فَـلَمَّا﴾ رَأَى المـلائِكَةَ تَـنْزِلُ ﴿نَكَـصَ﴾ ولمَّـا نَكَـصَ قـال له

(١) قاله قتادة وابن زيد. راجع تفسير الطبري: ج ٦ ص ٢٦١.

(٢) صحيح البخاري: ج ٢ ص ٤١، مسند أحمد: ج ١ ص ٢٢٨ و٣٢٤.

(٣) في نسخة: ليجمعوا.

(٤) الجُحفة: موضع بين مكة والمدينة.

(٥) في نسخة: المنايا، والحِمام ـ بالكسر ـ قَدرَ الموت. (الصحاح: مادة حمم).

(٦) ويكنّىٰ أبا سفيان، كان في الجاهلية قائفاً، وقد روىٰ البخاري قصّته في إدراكه النبيّ صلّى الله عليه وآله لمّا هاجر الى المدينة واقتفاءه أثره، ثم دعا النبي صلّى الله عليه وآله عليه حتّىٰ ساخت رجلا فرسه، ثـم طلبه من النبي صلّى الله عليه وآله الخلاص وأن لا يدلّ عليه، ففعل صلّى الله عليه وآله، وأسلم يوم الفتح، مات سنة ٢٤ هـ في أوّل خلافة عثمان. أُنظر الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٢ ص ١٩.

ٱلحارثُ (١) وكانت يدُهُ في يدِهِ: إلىٰ أين؟ أَتخذُلُنا في هذهِ الحالِ؟ فـ﴿قَالَ ... إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ ودفَعَ في صدرِهِ وَٱنْطَلَقَ، وٱنْهَزَمُوا، فلمَّا بَلَغُوا مَكَّةَ قَالُوا: هَـزَمَ النَّاسَ سُراقةُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ سُراقَةَ، فـقال: وَٱللهِ مـا شَعَرْتُ بـمسيرِكُم حـتَّىٰ بَـلَغَتْنِي هَزِيمَتُكُم (٢).

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٥٠) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١)﴾

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ بالمدينةِ ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وَالشاكُّونَ في الإسلامِ ﴿غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ يَـعْنُونَ المُسـلِمِينَ، أَي: ٱغـتَرُّوا بِـدِينِهِم وأنَّـهُم يُنْصَرُونَ من أَجلِهِ، فَخَرَجُوا مَعَ قِلَّتِهِم إلىٰ قتالِ المُشرِكِينَ مع كَثْرَتِهِم ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ يَنصُرُ الضَعِيفَ على القَوِيِّ، والقَلِيلَ على الكَثيرِ.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ أي: ولو عايَنْتَ وشاهَدْتَ، لأَنَّ «لَوْ» يَرُدُّ المضارعَ إلىٰ معنَى الماضِي، كما أَنَّ «إِنْ» تَرُدُّ الماضيَ إلىٰ معنَى الاستقبالِ، و﴿إِذْ﴾ نُصِبَ على الظَرفِ، وقُرِئَ: ﴿يَتَوَفَّى﴾ بالياءِ والتاءِ (٣)، و﴿يَضْرِبُونَ﴾ حالٌ، وعن مُجاهدٍ: ﴿أَدْبَـٰرَهُمْ﴾: أَستَاهَهُم وَلٰكِنَّ ٱللهَ كَريمٌ يَكْنِي (٤)، وقيلَ: يَضرِبونَ ما أَقْبَلَ منه (٥) وما أدبَرَ،

---

(١) في نسخة زيادة: بن هشام.

(٢) قاله ابن عبّاس كما في تفسير ابن كثير: ج ٢ ص ٣٠٣.

(٣) بالتاء قرأه ابن عامر والأعرج. راجع التذكرة في القراءات لابـن غـلبون: ج ٢ ص ٤٣٥، وإعراب القرآن للنحّاس: ج ٢ ص ١٩٠.

(٤) حكاه عنه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٥ ص ١٣٧.

(٥) لعلّ الصحيح المناسب لسياق الكلام: منهم.

وَالمرادُ به قَتْلَىٰ بدرٍ[١] ﴿ وَذُوقُواْ﴾ معطوفٌ علىٰ ﴿يَضْرِبُونَ﴾ عَلىٰ إرادةِ القولِ. أَي: ﴿وَ﴾ يَقُولُون: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ بعدَ هذا في الآخرةِ، وقيلَ: كانَتْ مَعَ المَلائكةِ مَقامِعُ من حديدٍ كُلَّمَا ضَرَبُوا بِهَا ٱلْتَهَبَتِ النَّارُ في جِراحاتِهِم[٢].

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ يُحْتَمَلُ أَن يَكُونَ من كَلامِ اللهِ، ومِنْ كَلامِ المَلائِكَةِ، و﴿ذَٰلِكَ﴾ مُبتدأٌ، وَ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ خبرُهُ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ عطفٌ عليهِ، أَي: ذلك العذابُ بِسَبَبَيْنِ: بسببِ كُفْرِكُم ومَعاصيكُم وبأَنَّ ٱللهَ يُعَذِّبُ الكُفَّارَ بالعدلِ؛ لأَنَّه لايَظلِمُ عبادَهُ في عُقُوبَتِهِم، وقد بَالَغَ في نَفيِ الظُّلمِ عن نفسِهِ بقولِه: ﴿لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٥٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَابِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ (٥٤)﴾

الكافُ في محلِّ الرَفعِ، أَي: دأْبُ هـٰؤُلاءِ مثلُ دَأْبِ ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، ودأْبُهم: عادتُهم وَعَملُهُم الَّذي دَأَبُوا فيهِ، أَي: دَاوَمُوا عليه، و ﴿كَفَرُواْ﴾ تفسيرٌ لِدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ. وَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إِلىٰ ماحَلَّ بِهِم، أَي: ﴿ذَٰلِكَ﴾ العَذابُ ﴿بِـ﴾ سببِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ لايَصِحُّ في حِكْمَتِهِ أَن يُغَيِّرَ نعمتَهُ عندَ ﴿قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا﴾ بهم من الحالِ، وعن السُّدِّيِّ[٣]: النعمَةُ محمَّدٌ ﷺ أَنْعَمَ اللهُ به علىٰ قُرَيْشٍ فَكَفَرُوا بـه

(١) وهو قول ابن عبّاس وابن جريج كما في تفسير البغوي: ج ٢ ص ٢٥٦.
(٢) قاله ابن عبّاس على ماحكاه عنه الرازي في تفسيره: ج ١٥ ص ١٧٨.
(٣) أبو محمد اسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي كريمة السدّي الكبير، من أهل الكوفة، يروي ←

وكَذَّبوه فَنَقَلَهُ إِلى الأَنصارِ[١] ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لِما يَقولُ مُكَذِّبو الرُّسُلِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يَفْعَلونَ.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ تكريرٌ للتأْكيدِ، وفي قولِهِ: ﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ زيادةُ دَلالةٍ على كُفرانِ النِعَمِ، وفي ذكرِ الإِغراقِ بيانٌ لِلأَخذِ بِالذنوبِ ﴿وَكُلٌّ كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ﴾ أي: وكُلٌّ مِنْ غَرْقَىٰ آلِ فرعونَ وقَتْلَىٰ قُرَيْشٍ كانوا ظالِمينَ أَنفُسَهُمْ بِكفرِهم ومَعاصِيهِم.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ (٥٨)﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أَصرُّوا على الكُفرِ فلا يُتَوقَّعُ منهم إيمانٌ، وهم بَنُو قُرَيْظَةَ عاهَدَهُم رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله على أن لا يُمالِئوا[٢] عليه عدوّاً، فنَكَثُوا بِأَن أَعانُوا مشرِكِي مَكَّةَ بالسِلاحِ وقالوا: نَسِينا وَ[٣] أَخطَأنا، ثُمَّ عاهَدَهُمْ فنَكَثُوا ومالأُوا عليه الأَحزابَ يومَ الخَندقِ. ﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ بَدَلٌ من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: ٱلَّذِينَ عاهَدْتَهُمْ من الَّذِينَ كَفَرُوا، جَعَلَهُمْ شَرَّ الدوابِّ لأَنَّ شَرَّ الناسِ الكُفّارُ، وشَرُّ الكُفّارِ المُصِرُّونَ منهم، وشَرُّ المُصِرِّينَ الَّذين يَنْقُضُونَ العهدَ

← عن أنس وعبد خير وأبي صالح، ورأى ابن عمر وابن عباس وغيرهما، وكان ثقة مأموناً، وذكره الشيخ في رجاله من أصحاب علي بن الحسين عليه السلام ومن أصحاب الباقر عليه السلام ومن اصحاب الصادق عليه السلام توفّي عام (١٢٧ هـ). أنظر اللباب لابن الأثير: ج ٢ ص ١١٠، ومعجم رجال الحديث للخوئي: ج ٣ ص ١٤٨.

(١) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ٦ ص ٢٦٩ ح ١٦٢٢٤.

(٢) مَالَأْتُهُ على الأمر مُمالَأَةً: ساعدته عليه وشايعته. (لسان العرب: مادة ملأ).

(٣) في نسخة: أو.

﴿وَهُمْ لَايَتَّقُونَ﴾ أَي: لايَخافُونَ عاقبةَ الغَدْرِ، ولايُبالُونَ مافيه من العارِ والنَارِ.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ أَي: تُصادِفَنَّهُمْ فِي الحربِ، والمعنىٰ: إِنْ ظَفِرْتَ بهم وأَدْرَكْتَهُمْ ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أَي: فَفَرِّقْ عن مُحارَبَتِك ومُناصَبَتِك مَنْ وَراءهم مِن الْكَفَرَةِ بِقَتْلِهِم شرَّ قَتْلَةٍ، حتّىٰ لايَجْسُرَ عليكَ بعدَهم أَحَدٌ؛ اعتِباراً بِهم واتِّعاظاً بحالِهِم. ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ مُعاهِدِينَ ﴿خِيَانَةً﴾ ونَكْثاً لِلعهدِ ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أَي: فَاطرَحْ إِليهِمُ العَهدَ ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ علىٰ طَريقٍ مُقْتَصِدٍ[1] مُسْتَوٍ، وذلك بِأَنْ تُخبِرَهُم بنَبْذِ العَهدِ إِخباراً ظاهراً مَكشوفاً، وتُبَيِّنَ لهم أَنَّكَ قَطَعْتَ مابَيْنَكَ وبَينَهُم، ولاتَبْدَأْهُم بالقتالِ وهُمْ علىٰ تَوَهُّمِ بَقاءِ العَهدِ فَيَكونَ ذلك خِيانةً ﴿إِنَّ اللهَ لَايُحِبُّ الْخَآئِنِينَ﴾ فلاتَخُنْهُم بِأَنْ تُناجِزَهُمُ القِتالَ مِن غيرِ إِعلامِهِم بالنَّبْذِ، وقيلَ: معناه على اسْتِواءٍ في العلمِ بنَقضِ العهدِ[2]، والجارُّ والمجرورُ في مَوضِعِ الحالِ، كَأَنَّهُ قيلَ: فَانبِذْ إِليهم ثابِتاً علىٰ طريقٍ قَصدٍ سَوِيٍّ، أَو حاصِلِينَ على اسْتِواءٍ في العِلمِ علىٰ أَنَّها حالٌ من النابِذِ والمَنْبوذِ إِليهم معاً.

﴿وَلَايَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَاتَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَاتُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١)﴾

﴿سَبَقُوٓاْ﴾ أَي: فاتُوا مِن أَن يُظْفَرَ بِهِم ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أَي: لَايَفُوتُونَ وَلَا يَجِدُونَ طالِبَهم عاجزاً عن إِدراكِهِم، وقُرِئَ: «أَنَّهُمْ» بالفتحِ[3] بمعنىٰ «لِأَنَّهم»،

---

(١) في نسخة: مستقيم.

(٢) قاله الأزهري علىٰ ماحكاه عنه القرطبي في تفسيره: ج ٨ ص ٣٢.

(٣) قرأه ابن عامر. راجع التبيان: ج ٥ ص ١٤٦.

وَكُلٌّ واحدَةٍ من المَكسورةِ والمَفتوحةِ تـعليلٌ، إلَّا أَنَّ المكسـورةَ عـلىٰ طـريقةِ الاِستئنافِ والمفتوحةَ تعليلٌ صريحٌ، والمعنىٰ: لاتَـحْسَبَنَّ[(١)] يـامحمَّدُ ـ صلى الله عليه وآله ـ الكافِرينَ قَد فَاتُوكَ فإِنَّ اللهَ يُظفِرُكَ بِهِم وَيُظهِرُكَ عليهِمْ، وفي الشَواذِّ قِراءَةُ ٱبـنِ مُحَيْصِنٍ[(٢)]: «لا يُعْجِزُونِ» بكسرِ النُونِ[(٣)]، وقُرِئَ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياءِ علىٰ أَنَّ الفِعلَ لِـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كَأَنَّه قيلَ: لَايَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَن سَبَقُوا، فـحُذِفَتْ «أَنْ»، كَقولِهِ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾[(٤)] أَو علىٰ أَنَّ المعنىٰ: وَلَايَـحْسَبَنَّهُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا.

والقُوَّةُ: كلُّ مايُتَقَوَّىٰ به في الحربِ من العُدَدِ، والرباطُ: ٱسمٌ للخَيلِ ٱلَّتي تُرْبَطُ في سَبيلِ ٱللهِ، وَيَجوزُ أَن يُسَمَّىٰ بالرِّباطِ ٱلَّذِي هو بِمَعنَى المُـرابَـطَةِ، ويَـجُوزُ أَن يكُونَ جمعَ رَبيطٍ كفِصالٍ جمعِ فَصيلٍ ﴿تُرْهِبُونَ﴾ قُرِئَ بالتخفيفِ والتَشـديدِ[(٥)]، يُقالُ: أَرْهَبْتُه وَرَهَّبْتُه، أَي: تُخِيفُونَ بما تُعِدُّونَهُ ﴿عَدُوَّ ٱللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ يعني أَهـلَ مَكَّـةَ ﴿وَءَاخَـرِينَ﴾ أَي: وتُـرْهِبُونَ كُـفَّاراً آخَـرِينَ ﴿مِـن﴾ دُونِ هَـؤُلَاءِ ﴿لَاتَعْلَمُونَهُمُ﴾ لأَنَّهم يُصَلُّون ويَصُومُونَ وَيَقُولُون: لا إِلـٰهَ إِلَّا ٱللهُ، مُحَمَّدٌ ـ صلى الله عليه وآله ـ رسولُ اللهِ ﴿ٱللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ لأَنَّه المُطَّلِعُ على ٱلأَسرارِ ﴿وَمَا تُـنفِقُواْ مِـن شَـىْءٍ﴾ في الجِهادِ يُوَفَّرْ عليكُم ثوابُهُ ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ لَاتُنْقَصُونَ شَيئاً منهُ.

﴿وَإِن جَنَحُواْ﴾ جَنَحَ لَهُ وإِليهِ: مَالَ، وَ«السَّلْمُ» بفتحِ السِينِ وكسرِهَا: الصُلحُ،

---

(١) حيث إنّ القراءة المعتمدة لدى المصنّف بالتاء كما هو ظاهر.

(٢) هو محمّد بن عبدالرحمن بن مُحيصِن السهمي المكّي المقرئ، روىٰ عنه عدّةٌ منهم مسلم، وقراءاته من شواذ القراءات، توفي سنة ١٢٣ هـ بمكة. راجع طبقات القرّاء للجزري: ج ٢ ص ١٦٧ رقم ٣١١٨.

(٣) شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٥٥.

(٤) الروم: ٢٤.

(٥) بالتشديد قرأه الحسن وورش. راجع إعراب القرآن للنحّاس: ج ٢ ص ١٩٤. والتذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٣٥.

يُؤَنَّثُ تأنِيثَ نَقِيضِهَا وَهي الحربُ، قال الشاعر:

السِّـلْمُ تَأْخُـذُ مِـنَها مـارَضيتَ بـهِ وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرَعُ(١)

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وَلاَتَخَفْ مِن خَـديعتِهِم ومَكـرِهِم فـإِنَّ ٱللَّهَ عـاصِمُك وكافِيكَ من مَكرِهِم.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّـدَكَ بِـنَصْرِهِۦ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَـوْ أَنـفَقْتَ مَـافِى ٱلْأَرْضِ جَـمِيعاً مَّآأَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَـٰٓأَيُّـهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّـبِىُّ حَـرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفاً مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّـهُمْ قَوْمٌ لَّايَفْقَهُونَ (٦٥) ٱلْـٔـَٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّـنكُمْ أَلْـفٌ يَـغْلِبُوٓاْ أَلْـفَيْنِ بِـإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ (٦٦)﴾

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ في ٱلصُلحِ بأَن يَقصِدُوا بهِ دَفْعَ أَصـحابِك عـن ٱلقِتالِ حتَّىٰ يَقْوَىٰ أَمرُهُم فَيَبْدَؤُوكُمْ بِالقِتالِ مِن غَيرِ ٱستعدادٍ مِنكُمْ ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ أَي مُحسِبَكَ ٱللَّهُ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ﴾ أَي: قَوَّاكَ ﴿بِنَصْرِهِۦ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ٱلَّذِينَ يَنصُرُونَكَ علىٰ أَعدائكَ، يُرِيدُ ٱلأَنصارَ وهُمُ: ٱلأَوسُ والخَـزرَجُ. ﴿وَأَلَّـفَ بَـيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ حتَّى صَارُوا مُتَحابِّينَ مُتوادِّينَ بعدَ ماكانَ بَيْنَهُم مِن التَضاغُنِ والتَحارُبِ

(١) والبيت لعبّاس بن مرداس السلمي، أنشده مخاطباً ابن عمّه والمنافس له لزعامة بني سليم الخفاف بن ندبة، يقول: إنّ السلم وإن طالت لم تر فيها إلّا مـاتحبّ ولاتـنال إلّا مـاتريد، ولايضرّك طولها، فإذا جاءت الحرب قطعتك عن لذاتك وشغلتك بنفسك، وهذا تـحريض علىٰ الصلح وتثبيط عن الحرب. انظر ديوان العبّاس بن مرداس: ص ١٠٣.

ولم يَكُنْ لِبَغضَائهم أَمَدٌ، فأَنساهُمُ ٱللهُ ذلك كُلَّهُ حتَّىٰ تَصَافَوْا وعَادُوا إخواناً ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَافِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ لَمَا أَمْكَنَكَ التأليفُ ﴿بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ وإزالةُ ضَغَائنِ الجاهليَّةِ عنهم ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بالإسلامِ.

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ الواوُ بِمَعْنَىٰ «مَعَ» وَمَا بعدَهُ منصوبٌ؛ لأَنَّ عطفَ الظَّاهِرِ المجرورِ على المَكْنِيِّ قبيحٌ، والمعنىٰ: كَفاكَ وكَفَىٰ مُتَّبِعيكَ ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٱللهُ ناصراً، أَو يَكونُ في محلِّ الرَفعِ أَي: كَفاكَ ٱللهُ وكَفاك ٱلْمُؤْمِنُونَ، وهذِهِ ٱلآيةُ نَزَلَتْ بِالْبَيداءِ في غَزْوةِ بدرٍ قبلَ القِتالِ[١].

والتَحريضُ: ٱلمُبالَغَةُ في ٱلحَثِّ على ٱلأَمرِ، من الحَرَضِ وهو أَن يَنْهَكَهُ المرضُ حتَّى يُشْفِيَ[٢] على الموتِ، وهذِهِ عِدَةٌ من ٱللهِ بأَنَّ الجماعةَ مِن المُؤْمِنِينَ إِن صَبَرُوا غَلَبُوا عَشْرَةَ أَمثالِهِم من الكُفَّارِ بتأْييدِ ٱللهِ ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أَي: بسببِ أَنَّ الكُفَّارَ جَهَلَةٌ يُقاتِلُونَ عَلَىٰ غيرِ ٱحتِسابِ ثوابٍ كالبَهائِمِ.

وعن ٱبنِ جُرَيْجٍ[٣]: كانَ عليهم أَن لايَفِرُّوا ويَثْبُتَ الواحدُ للعَشَرَةِ، وكان رسولُ ٱللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَعَثَ حمزةَ بنَ عبدِالمطَّلبِ في ثَلاثِينَ راكباً، فَلَقِيَ أبا جهلٍ في ثَلاثِمائَةِ راكبٍ، فَثَقُلَ عليهم ذَلِكَ وضَجُّوا مِنْهُ بعدَ مدَّةٍ، فَنُسِخَ وخُفِّفَ عنهم بِمُقاوَمَةِ الواحدِ ٱلاِثنَيْنِ[٤]، وقُرِئَ: ﴿ضَعْفاً﴾ بفتحِ الضادِ وضمِّها[٥]،

---

(١) انظر الكشّاف: ج ٢ ص ٢٣٤.

(٢) أشفىٰ على الشيء: إذا أشرف عليه. (الصحاح: مادة شفى).

(٣) هو عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج الأموي المكّي، أصله روميّ، مولىٰ بني أُمية، روىٰ عن عطاء والزهري وعكرمة وطاووس وغيرهم، كان من فقهاء أهل الحجاز وقرّائهم، قال أبو غسّان: سمعت جريراً يقول: كان ابن جريج يرىٰ المتعة. توفي سنة ١٥٠ هـ وهو ابن سبعين سنة. انظر وفيات الاعيان: ج ٢ ص ٣٣٨.

(٤) حكاه عنه أبو حيان في البحر المحيط: ج ٤ ص ٥١٧.

(٥) وبالضم قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والكسائي. راجع كتاب السبعة في ←

و«ضُعَفاءَ»[١] جمعُ ضعيفٍ، وقُرِئَ: ﴿يَكُن﴾ في ٱلْمَوضِعَيْنِ بالياءِ والتاءِ[٢]، والمرادُ بالضَعفِ: ٱلضَعفُ في البدنِ، وقيل: في ٱلبَصيرةِ وٱلاستقامةِ في الدِينِ وكانوا مُتفاوِتِينَ في ذلك[٣].

﴿مَاكَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٩)﴾

الإثخانُ: كَثْرةُ القتلِ والمُبالَغةُ فيه، من قولِهم: أَثْخَنَتْهُ الجِراحاتُ حتَّىٰ أَثبَتَتْهُ، وأَصلُه من الثَخانةِ الَّتي هي الغِلَظُ[٤] والكَثافةُ، والمعنىٰ: ﴿مَا﴾ اسْتَقامَ ﴿لِنَبِيٍّ﴾ وماصَحَّ له ﴿أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ﴾ يُذِلَّ الكُفْرَ ويُضَعِّفَهُ بإِشاعَةِ القتلِ في أَهلِهِ، ويُعِزَّ الإِسلامَ ويُقَوِّيَهُ بالاِستيلاءِ والقَهرِ، وكانَ هٰذا يومَ بدرٍ، فَلَمَّا كَثُرَ المسلمونَ نَزَلَ: ﴿فإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[٥] [٦].

ورُوِيَ: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بسبعينَ أَسيراً فيهمُ العَبَّاسُ عَمُّهُ وعَقيلُ بنُ

➜ القراءات لابن مجاهد: ص ٣٠٨.

(١) وهي قراءة ابن القعقاع. راجع الفريد في إعراب القرآن للهمداني: ج ٢ ص ٤٣٧.

(٢) وبالتاء وهي قراءة الحرميان وابن عامر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٣٦ وقال: وقرأ البصريان (أبو عمرو ويعقوب) الأول بالياء والثاني بالتاء من أجل ﴿صابرة﴾.

(٣) قال الثعالبي: قال كثير من اللغويّين: ضمّ الضاد في البدن، وفتحها في العقل، وهذه الآية انّما يراد بها حال الجسم، والضعف الأول هو كون الانسان من ماء مهين، والقوة بعد ذلك الشبيبة وشدة الأسر، والضعف الثاني هو الهرم والشيخوخة. هذا قول قتادة وغيره. راجع تفسير الثعالبي: ج ٢ ص ٥٤٩.

(٤) في نسخة: الغلظة.

(٥) سورة محمّد ﷺ: ٤.

(٦) وهو قول ابن عبّاس وقتادة. راجع التبيان: ج ٥ ص ١٥٦.

أبي طالبٍ ولم يُؤسَرْ أحَدٌ من أصحابِ رَسولِ ٱللهِ[١].

﴿عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ حُطامَها، سُمِّيَ بذلك لأنّه حَدَثٌ قليلُ اللّبثِ، يُريدُ ٱلفِداءَ، وٱلخِطابُ لِلمُؤمِنينَ ٱلّذينَ رَغِبُوا في أخذِ الفِداءِ من الأَسْرىٰ ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي: تُرِيدونَ عاجِلَ ٱلحَظِّ مِن عَرَضِ الدُنيا، واللهُ يُريدُ لكُمْ ثَوابَ الآخرةِ ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يُغَلِّبُ أولياءَه علىٰ أعدائه، وَيَتَمكّنُونَ مِنْهُم قَتْلاً وأَسْراً ويُطْلِقُ لهم الفِداءَ، ولٰكِنّهُ ﴿حَكِيمٌ﴾ يُؤَخِّرُ ذٰلكَ وَهُمْ يُعَجِّلُونَ.

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: حُكْمٌ منهُ ﴿سَبَقَ﴾ إثْباتُه فِي اللّوحِ بإباحَةِ ٱلغَنائمِ لكم ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ﴾ ٱسْتَحْلَلْتُم قبلَ الإباحةِ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وقيلَ: لَوْلَا كِتَابٌ من اللهِ في القُرآنِ: أنّهُ لايُعَذِّبُكُمْ والنَبِيُّ بينَ أظْهُرِكُمْ[٢].

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ هذا إباحَةٌ لِلْفِداءِ لِأنّهُ مِنْ جُمْلَةِ الغَنائِم، وقِيلَ: إنّهُمْ أمْسَكُوا عن الغنائِمَ ولَمْ يَمُدُّوا أيْدِيَهم إلَيها، فَنَزَلَت الآيَةُ[٣]، وَمعنَى الفاءِ التَسبيبُ، أي: قَدْ أبَحْتُ لكم الغَنائمَ ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾، و﴿حَلَٰلًا﴾ نَصْبٌ على ٱلحالِ مِنَ المَغْنُومِ، أو صِفَةٌ للمصدرِ، أي: أكلاً حلالاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾

وقُرِئَ: ﴿مِنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ وهو أَقْيَسُ من «الأُسارىٰ»[٤]؛ لأَنَّ الأَسِيرَ فَعيلٌ

---

(١) رواها الزمخشري في كشّافه: ج ٢ ص ٢٣٦، والبغوي في تفسيره: ج ٢ ص ٢٦٣.

(٢) قاله الجبّائي كما في التبيان: ج ٥ ص ١٥٧.

(٣) حكاه البغوي في تفسيره: ج ٢ ص ٢٦٢.

(٤) وقراءة «الأُسارىٰ» هي قراءة أبي عمرو وأبي جعفر. راجع التبيان: ج ٥ ص ١٥٩، ←

بمعنىٰ مَفْعُولٍ، وذلك يُجْمَعُ علىٰ فَعْلَىٰ نَحوُ جَرْحىٰ وقَتْلىٰ، وَقالوا: أُسارَىٰ: تَشْبِيهاً بِكُسالَىٰ، كما شَبَّهُوا كَسْلَىٰ بأَسْرىٰ ﴿قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم﴾ أَي: لِمَن في مُلْكَتِكُمْ، فكَأَنَّ أَيدِيَكُمْ قابِضَةٌ عليهم ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ خُلُوصَ عَقِيدَةٍ وصِحَّةَ نِيَّةٍ في الإِيمانِ ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ مِنَ الفِداءِ: إِمَّا أَنْ يُخَلِّفَكُمْ أَضعافَهُ في الدُنيا أَو يُثِيبَكُم في الآخرةِ.

ورُوِيَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لِلْعبَّاسِ: ٱفدِ ٱبْنَيْ أَخَوَيْكَ: عَقيلَ بنَ أَبـي طـالبٍ ونَوْفَلَ بنَ الحرِثِ، فقال: أَتَتْرُكُنِي أَتَكَفَّفُ قُرَيشاً مابَقِيتُ؟ قال: فأَينَ الذَهَبُ الَّذِي دَفَعْتَهُ إِلَىٰ أُمِّ الفَضْلِ، وقُلتَ: إِن حَدَثَ بي حَدَثٌ فهو لَكِ ولِلْفَضْلِ وعبدِاللهِ وقُثَمَ؟ فقال العَبَّاسُ: ومايُدْرِيكَ؟ قال: أَخْبَرَنِي بِهِ رَبِّي، قال: أَشْـهَدُ أَنَّكَ صـادِقٌ، وَأَنْ لَّآإِلَـهَ إِلَّا اللهُ، وأَنَّكَ عَبدُهُ ورَسُولُهُ، وَاللهِ لم يَطَّلِعْ عليه أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، ولَقَدْ دَفَعْتُ إِليها في سَوادِ اللَيْلِ، وَلَقَدْ كنتُ مُرْتاباً في أَمرِكَ، فَأَمَّا إِذا أَخْبَرْتَنِي بذٰلِكَ فلا رَيبَ، قالَ العَبَّاسُ: فَأَبْدَلَنِي اللهُ خَيراً مِن ذلك: لِي الآنَ عِشرونَ عَبداً إِنَّ أَدناهُم لَيَضرِبُ في عِشرِينَ أَلفاً، وأَعْطانِي زَمْزَمَ، ومَا أُحِبُّ أَنَّ لي بِها جَميعَ أَموالِ أَهلِ مكَّةَ، وأَنَا أَنْتَظِرُ المَغْفِرَةَ من ربِّي [1].

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ نَكْثَ مابايَعُوك عليه، ومَنْعَ ماضَمِنُوا مِنَ الفِداءِ ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ بِأَن خَرَجُوا إِلىٰ بَدرٍ وقاتَلُوا مع المُشـرِكينَ ﴿فَأَمْكَنَ﴾ ٱللَّهُ ﴿مِنْهُمْ﴾ وسيُمْكِنُ مِنهم إِنْ أَعادوا الخِيانةَ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

← وكتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٠٩.

(١) رواه ابن كثير في تفسيره: ج ٢ ص ٣١٣ وعزاه إلى البخاري في صحيحه وابن إسحاق في مغازيه، والبغوي في تفسيره أيضاً: ج ٢ ص ٢٦٣، والزمخشري في كشّافه: ج ٢ ص ٢٣٨.

وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَالَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٧٥) ﴾

﴿هَاجَرُواْ﴾ أي: فَارَقُوا أوطَانَهم وقومَهم حُبّاً للهِ وَلِرَسولِه، وهم المهاجِرونَ من مكَّةَ إلى ٱلْمَدينةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ﴾ هُمْ إلىٰ دِيارِهِم ﴿ونَصَرُوٓاْ﴾ هُمْ عَلىٰ أعدائِهِم، هُمُ ٱلأنصارُ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: يَتَوَلّىٰ بَعْضُهُم بعضاً في المِيراثِ، وكان المهاجِرُونَ وٱلأنصارُ يَتوارَثُونَ بالمُؤاخاةِ الأُولىٰ حتَّى نُسِخَ ذٰلِكَ بقولِهِ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [١]، وقُرِئَ: ﴿مِن وَلَـٰيَتِهِم﴾ بالفتحِ والكسرِ [٢]، قال الزجَّاجُ: هي بِفَتحِ الواوِ من النُصرةِ والنَسَبِ، وبالكسرِ هي بِمَنْزِلَةِ ٱلْإِمَارَةِ [٣]، والوجهُ في ٱلآيةِ أنَّه شُبِّهَ تَوَلّي بعضِهِم بعضاً بالصناعةِ والعَمَلِ، لأَنَّ كلَّ ماكانَ مِنْ هذَا الجنسِ فمكسورٌ كـالصياغةِ والكِـتابةِ، وكَأَنَّ الرَجلَ بِتَوَلِّيهِ صاحِبَهُ يُباشِرُ أَمْراً ويُزاوِلُ عملاً ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾ أي: وَإِنْ طَلَبَ المُؤْمِنونَ ٱلَّذِينَ لم يُهَاجِرُوا مِنكُم النُصرةَ لَهُم على الكُفَّارِ ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ لَهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ

(١) أُنظر كتاب الناسخ والمنسوخ لقتادة السدوسي: ص ٤٦.

(٢) وبالكسر هي قراءة حمزة والأعمش ويحيىٰ بن وثاب. راجع التبيان: ج ٥ ص ١٦١، وتفسير القرطبي: ج ٨ ص ٥٦.

(٣) حكاه عنه الرازي في تفسيره: ج ١ ص ٢١٠.

قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ﴾ وَعَهدٌ، فلا يَجُوزُ لَكُم نصرُكم عَليهِم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ معناهُ نَهْيُ المسلِمِينَ عن مُوالاةِ الكُفَّارِ ومُعاوَنَتِهِم وَإِن كانُوا أَقَارِبَ، وَأَن يَتْرُكُوا يَتَوَلَّىٰ بَعضُهُم بعضاً ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أَي: إِن لاَتَفْعَلُوا مَاأَمَرْتُكُمْ بِهِ مِن تَواصُلِ المُسلِمِينَ وتَوَلِّي بَعضِهم بَعضاً حتَّىٰ في التوارُثِ؛ تفضيلاً لِنسبةِ الإِسلامِ علىٰ نِسبةِ القَرابَةِ، ولَمْ تَقْطَعُوا العَلائقَ بينَكم وبينَ الكُفَّارِ تَحْصُلْ ﴿فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ومَفْسَدةٌ كَبيرةٌ؛ لأَنَّ المُسلمينَ مالم يَكونوا يداً واحدةً علىٰ أَهلِ الشِركِ كانَ الشِركُ ظاهراً، وتَجرّأَ أَهلُه علىٰ أَهلِ الإِسلامِ ودَعَوْهُم إِلىٰ الكُفْرِ.

ثُمَّ عاد سُبحانَه إِلىٰ ذكرِ المُهاجِرينَ والأَنصارِ وأَثنَىٰ عَلَيهم بِقولِه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأَنَّهُمْ حَقَّقُوا إِيمانَهم بالهِجرةِ والنُصرةِ والانِسلاخِ من الأَهلِ والمالِ لأَجْلِ الدِينِ.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِن بَعْدُ﴾ يُريدُ: اللاحِقِينَ بعدَ السَابِقِينَ إِلى الهِجرةِ، كَقَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِن بَعْدِهِمْ﴾ الآية [(١)] ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ من جُملَتِكم، وحُكْمُهم حُكْمُكُمْ في وُجوبِ مُوالاتِهم ونُصْرَتِهم وإِن تَأَخَّرَ إِيمانُهم وهِـجرتُهم ﴿وَأُوْلُـواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ وأُولو القَراباتِ أَوْلَىٰ بالتَوارُثِ، بعضُهم أَحقُّ بميراثِ بعضٍ من غَيرِهم، وهو نَسخٌ للتَوارُثِ بالهِجْرَةِ والنُصْرَةِ[(٢)] ﴿فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ أَي: في حُكْمِهِ، وقيلَ: في اللوحِ المحفوظِ [(٣)]، وقيلَ: في القُرآنِ[(٤)]، وفيه دَلالةٌ علىٰ أَنَّ مَنْ كانَ أَقْرَبَ إِلَى المَيِّتِ في النَسَبِ كانَ أَوْلَىٰ بِالمِيراثِ.

۞ ۞ ۞

---

(١) الحشر: ١٠.

(٢) أُنظر كتاب الناسخ والمنسوخ لابن حزم: ص ٣٩.

(٣) قاله ابن عبّاس. راجع تفسيره: ص ١٥٣.

(٤) حكاه السمرقندي في تفسيره: ج ٢ ص ٢٩.

سورةُ التَوبة

مَدَنِيَّةٌ[1]، وهي مِائَةٌ وتسعٌ وعِشرون آيةً كوفيٌّ، ثَلاثونَ بصريٌّ، عدَّ البصريُّ ﴿بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وعن الصَّادقِ عليه السلام قالَ: «ٱلأَنْفالُ وبراءَة واحدةٌ»[2].

وعن عليٍّ عليه السلام: «لم يَنْزِلْ «بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِـيمِ» عـلىٰ رأْسِ سـورةِ براءَةٍ؛ لأَنَّ «بسمِ ٱللهِ» للأَمانِ والرَحمةِ، ونَزَلَتْ براءَةٌ لِرَفعِ ٱلأَمانِ وللسَّيفِ»[3].

وقيلَ: إِنَّ السُورَتَيْنِ كَانَتَا تُدْعَيانِ القَـرِينَتَيْنِ، وَتُـعَدَّانِ السَّـابعةَ مـن السَّـبعِ الطِوالِ[4].

---

(١) في التبيان للشيخ الطوسي: ج ٥ ص ١٦٧: قال مجاهد وقتادة وعثمان: هي آخر مانزلت على النبيّ صلى الله عليه وآله بالمدينة.

قال الزمخشري: لها عدّة أسماء: براءة، التوبة، المقشقشة، المبعثرة، المشرّدة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافرة، المنكلة، المـدمدمة، سـورة العـذاب، لأنّ فـيها التـوبة عـلى المؤمنين، وهي تقشقش من النفاق أي تبرئ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين تبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها وتفضحهم وتنكلهم وتشرّد بـهم وتـخزيهم وتـدمدم عـليهم. وعـن حذيفة رضي الله عنه: إنّكم تسمّونها سورة التوبة، وإنّما هي سورة العذاب، والله ماتركت أحداً إلّا نالت منه. راجع الكشّاف: ج ٢ ص ٢٤١.

(٢) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٧٣ح ٣ وفيه: عن أحدهما عليهما السلام.

(٣) تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٣٢.

(٤) قاله ابن عبّاس وحكاه عن عثمان بن عفان. أُنظر تفسير الماوردي: ج ٢ ص ٣٣٦.

* * *

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللهِ وَأَنَّ ٱللهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ (٢) وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (٤)﴾

﴿بَرَآءَةٌ﴾ خبرُ مُبتَدَأ محذوفٍ، وَ ﴿مِنَ﴾ لابتِداءِ ٱلغايةِ، والمعنىٰ: هذهِ براءَةٌ واصِلةٌ ﴿مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾، ويجوزُ أن تكونَ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ مُبْتَدَأً وَإِن كَانَتْ نكرةً لِتَخصُّصِهَا بِصِفَتِهَا، والخبَرُ ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ كما تَقولُ: رجلٌ مِن قُرَيْشٍ في الدارِ، والمرادُ: أَنَّ ٱللهَ وَرَسُولَهُ قد بَرِئَا ﴿مِنَ﴾ العَهدِ ٱلَّذِي عَاهَدْتُم بِهِ ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وَأَنَّ عَهْدَهُمْ مَنبُوذٌ إِلَيْهِم.

﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ هذا خِطابٌ لِلمُشْرِكِينَ، أُمِرُوا أَن يَسِيحُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشهُرٍ ـ وهيَ ٱلأَشهُرُ ٱلحُرُمُ ـ آمِنِينَ أَينَ شاءُوا لَايُتَعَرَّضُ لَهُمْ، وذلك لِصِيَانَةِ ٱلْأَشْهُرِ ٱلْحُرُمِ مِن القتلِ والقتالِ فِيهَا، وقيلَ: إِنَّ «براءَةً» نَزَلَتْ في شَوَّال سَنَةَ تسعٍ من الهجرةِ وَٱلأَشهُرُ ٱلأَرْبَعَةُ: شوّالٌ، وذو ٱلقِعْدَةِ، وذوٱلحِجَّةِ، وٱلمُحَرَّمُ[١]، وقيلَ: هي عِشرونَ مِن ذِي الحِجَّةِ والمُحَرَّمُ وصَفَرٌ

(١) قاله ابن عبّاس والزهري كما حكاه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٥ ص ١٦٩.

وشَهرُ رَبيعٍ ٱلأَوَّل، وعَشرٌ مِن شهرِ رَبيعٍ ٱلآخِرِ[١]، وكَانَتْ حُرُماً لأَنَّهُمْ أُومِنُوا فِيهَا وَحُرِّمَ قَتلُهُم وقِتالُهُم، وهو ٱلأَصَحُّ.

وَأَجْمَعَ المُفَسِّرُونَ عَلَىٰ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ صلى الله عليه وآله حِينَ نَزَلَتْ «بَرَاءَةٌ» دَفَعَهَا إِلىٰ أَبي بَكْرٍ ثُمَّ أَخَذَهَا منه وَدَفَعَهَا إِلىٰ عليٍّ عليه السلام[٢] وَإِن ٱخْتَلَفُوا في تَفصيلِهِ، وقد شَرَحْنَاهُ في ٱلكِتابِ ٱلكَبيرِ[٣].

وعنِ ٱلباقِرِ عليه السلام قالَ: «خَطَبَ عليٌّ عليه السلام ٱلنَّاسَ يَومَ النحرِ وَٱخْتَرَطَ سَيفَهُ فقال: لَا يَطُوفَنَّ بالبَيتِ عُريانٌ، وَلَا يَحجَّنَّ ٱلبَيتَ مُشرِكٌ، وَمَنْ كَانَتْ له مُدَّةٌ فهو إِلىٰ مُدَّتِهِ، ومَنْ لَمْ يَكُنْ له مُدَّةٌ فمُدَّتُهُ أربعةُ أَشهُرٍ، وَقَرَأَ عليهمْ سورةَ براءَةٍ»[٤]، وقيل: إِنَّه قَرَأَ ثَلاثَ عَشرَةَ آيَةً مِنْ أَوَّلِ براءَةٍ[٥]، وقيل: ثَلاثِينَ أَو أَربعينَ آيةً[٦].

﴿فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أَي: لَا تَفُوتُونَهُ وَإِنْ أَمْهَلَكُمْ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أَي: مُذِلُّهُم في ٱلدُّنيا بالْقَتلِ، وَفي ٱلآخِرَةِ بالْعَذابِ.

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ٱلوَجهُ في رفعِهِ ماذَكَرْنَاهُ في ﴿بَرَآءَةٌ﴾ بِعَينِهِ، ثُمَّ الجُملةُ مَعطوفَةٌ علىٰ مِثلِها، وهو بمعنى الإِيذانِ كما أَنَّ الأَمانَ والعَطاءَ بمعنى الإِيمانِ والإِعطاءِ، والجُملةُ الأُولىٰ إِخبارٌ بثُبوتِ البَراءَةِ، والجُملةُ الثَانيةُ إِخبارٌ بوجوبِ الإِعلامِ بما ثَبَتَ من البَراءَةِ الواصلةِ من اللهِ ورسولِه إلى المُعاهِدينَ والنَاكِثين لجميعِ ٱلنَّاسِ، مَن عاهَدَ منهم ومَنْ لَمْ يُعاهِدْ ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ يومَ عَرَفَةَ، وقيل:

---

(١) قاله محمّد بن كعب القرظي ومجاهد والسدي والحسن وهو قول الصادق عليه السلام. راجع التبيان: ج ٥ ص ١٦٩، وتفسير الماوردي: ج ٢ ص ٣٣٨.

(٢) رواه ابن كثير من طرق عديدة في تفسيره: ج ٢ ص ٣١٨ ـ ٣١٩.

(٣) يريد به مجمع البيان: ج ٥ ـ ٦ ص ٣.

(٤) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٧٤ ح ٧.

(٥) قاله مجاهد علىٰ ماحكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٢٤٣.

(٦) وهو قول محمد بن كلب القرظي وغيره كما في تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٣٨٣.

يومَ النَحرِ (١)؛ لأنَّ فيه تمامَ الحجِّ ومُعْظَمَ أفعالِه (٢).

ورُوِيَ أنَّ علياً عليه السلام أخَذَ رجلٌ بِلجامِ دابَّتِه فقالَ: مَاالْحَجُّ الأَكْبَرُ؟ فقال: «يومُكَ هذا، خَلِّ عن دابَّتي» (٣).

﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ﴾ حُذِفَتِ الباءُ تخفيفاً، وقُرِئَ في الشَواذِّ: «إِنَّ اللهَ» بالكَسرِ (٤)، لأَنَّ الأذانَ في معنىٰ القَوْلِ ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ عَطْفٌ على الضَميرِ في ﴿بَرِىٓءٌ﴾ أَوْ على محلِّ «إِنَّ» المكسورةِ وٱسْمِها، وقُرِئَ بالنَّصبِ (٥) عَطفاً على ٱسمِ «إِنَّ»، أو لأنَّ الواوَ بمعنى «مَعَ»، ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ من الكُفْرِ وَٱلغَدْرِ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الإِقامةِ عليهما ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الإيمانِ ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ غيرُ سابِقِينَ اللهَ، ولا فائتينَ بأْسَهُ وعذابَهُ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ٱستِثْناءٌ مِنْ ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لأَنَّ الاِستِثْناءَ بمعنَى الاِستِدراكِ، وَالمَعنَى: ولَـٰكِنَّ الَّذِينَ لم يَنْكِثوا ولَمْ يَنقُضُوا من شرطِ العَهْدِ ﴿شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من أَعدائكُمْ ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ﴾ انقضاءِ ﴿مُدَّتِهِمْ﴾ الَّتي وَقَعَ العَهدُ إِلَيها، ولا تَجْعَلُوا الوَفِيَّ كالغادِرِ.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ

---

(١) في رواية عن النبي صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام والصادق عليه السلام وابن عبّاس وابن عمر وسعيد بن جبير وعبدالله بن أبي أوفىٰ وإبراهيم ومجاهد وابن مسعود والمغيرة بن شعبة وأبي هريرة والشعبي والنخعي والزهري وعطاء وابن زيد والسدي واختاره الطبري. راجع تفسير الماوردي: ج ٢ ص ٣٣٩، وتفسير الطبري: ج ٦ ص ٣١١ ـ ٣١٦.

(٢) في بعض النسخ: أحواله.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره: ج ٦ ص ٣١٢ ح ١٦٤٢٢.

(٤) قرأه الحسن والأعرج. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٦.

(٥) وهي قراءة الحسن وزيد بن علي وعيسىٰ بن عمر وابن أبي إسحاق. راجع تفسير القرطبي: ج ٨ ص ٧٠، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٦.

وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾

أي: ﴿إِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ﴾ الَّتي أُبيحَ فيها لِلنَاكِثِينَ أَنْ يَسِيحوا فـي الأَرضِ ﴿فَاقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فَضَعُوا السَيفَ فيهم حيثُ كانُوا وأَينَ وُجِدُوا، في حِـلٍّ أَو حَرَمٍ ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أَي: أَئسِرُوهُم، والأَخِيذُ: الأَسِيرُ ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ أَي: قَيِّدُوهُمْ وَٱمنَعُوهُمْ من التَصرُّفِ في البِلادِ، وقيلَ: حُولُوا بَينَهم وبـينَ المَسـجِدِ الحَـرامِ[١] ﴿وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أَي: كلَّ مَمَرٍّ وَطريقٍ تَرْصُدونَهم به، وٱنْتَصَبَ[٢] على الظرفِ كقولِه: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[٣]، ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ أَي: دَعُوهُمْ يَتَصَرَّفُونَ فِي الْبِلادِ، أَو: فُكُّوا[٤] عَنْهُمْ وَلا تَـتَعَرَّضُوا لَـهُمْ، أَوْ: دَعُـوهُمْ يَحُجُّوا ويَدْخُلُوا المَسْجِدَ ٱلْحَرامَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يَغفِرُ لَهُمْ ماقد سَلَفَ من كُفْرِهم وغَدْرِهم.

﴿أَحَدٌ﴾ مرفوعٌ بفعلِ الشَرطِ وهو مُضْمَرٌ يُفَسِّرُهُ الظَاهِرُ، تَقديرُه: وَإِنِ ٱسْتَجارَكَ أَحَدٌ ٱسْتَجارَكَ، والمعنىٰ: وإِن جاءَكَ أَحدٌ من المُشرِكينَ بعدَ ٱنقِضاءِ الأَشْهُرِ لاعَهدَ بينَكَ وبينَه فَاستَأْمَنَكَ لِيَسمَعَ ماتَدْعُو إِليه من القُرآنِ والدِينِ فَأَمِّنْهُ ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ ويَتَدَبَّرَهُ، فإِنَّ مُعْظَمَ الأَدِلَّةِ فيه ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ بعدَ ذلكَ، يَعني دارَهُ الَّتِي يَأْمَنُ فيها إِن لم يُسْلِمْ، ثُمَّ قاتِلْه إِن شِئْتَ من غيرِ غَدْرٍ ولاخِيانةٍ، وهذا الحكمُ

(١) قاله ابن عبّاس علىٰ ماحكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٢٤٧.

(٢) في بعض النسخ: والنصب.

(٣) الأعراف: ١٦.

(٤) في نسخة: فكفّوا.

ثابتٌ في كلِّ وقتٍ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الأمرُ بالإجارَةِ ﴿بِـ﴾ سببِ ﴿أَنَّهُمْ قَوْمٌ﴾ جَهَلَةٌ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ الإيمانَ فأَمِّنْهم حتّى يَسْمَعُوا ويَعْلَمُوا.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ (٨)﴾

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ صحيحٌ ومُحالٌ أن يَثْبُتَ لهم عهدٌ مع إضمارِهِمُ الغَدْرَ والنَّكْثَ، فلاتَطْمَعوا في ذلك، ولَكِنَّ ﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ﴾ منهم ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وَلم يَظْهَرْ منهم نَكْثٌ كَبَنِي كِنانَةَ وبَني ضَمْرَةَ، فَتَرَبَّصُوا أَمْرَهم ولاتُقاتِلُوهُم ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ﴾ على ٱلعهدِ ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ علىٰ مِثْلِه.

﴿كَيْفَ﴾ تَكرارٌ لاِستِبعادِ ثَباتِ ٱلمُشرِكينَ على العهدِ، وحُذِفَ الفعلُ لكونِه مَعْلوماً، أي: ﴿كَيْفَ﴾ يَكُونُ لَهُمْ عَهدٌ ﴿وَ﴾ حالُهم أَنَّهُمْ ﴿إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ ويَظْفَرُوا بِكم بعدَ ماسَبَقَ لهم من الأَيْمانِ والمَواثِيقِ ﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أَي: لَا يَحْفَظوا فيكُم قَرابَةً ولاعَهداً، قالَ حسَّانُ[1]:

لعَمرُك إنَّ إِلَّكَ من قُرَيْشٍ كإلِّ السَّقْبِ من رَأْلِ النَّعامِ[2]

---

(١) حسّان بن ثابت، ويكنّىٰ أبا الوليد، أصله من الخزرج، ولد بالمدينة عام ٥٦٣ م، كان أشعر أهل المدينة في زمانه وأهم شعراء الدعوة الإسلامية، فقد مدح الرسول ﷺ، ونظم المراثي في شهداء المسلمين، ونظم أيضاً في هجاء الخصوم والمنافقين، وكانت أشعاره في هجاء قريش وحدها كثيرة جمعها المدائني في كتاب أسماه: «هجاء حسّان لقريش» يقال: توفّي وله من العمر مائة وعشرين عاماً، وعدّوه من المعمّرين. انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة: ص ١٧٠ وما بعده.

(٢) انظر ديوان حسان بن ثابت: ج ١ ص ٣٩٤.

وقيل: إلاًّ: حلفاً[١] وقيل: إلاًّ: إلٰهاً[٢] ﴿يُرْضُونَكُم﴾ كَلامٌ مبتدأٌ في وصفِ حالِهِم من مُخالَفَةِ الباطنِ الظَّاهرَ، وإباءُ القُلوبِ: مُخالَفَةُ مافيها من الأضغانِ لما يُجرُونَهُ على ألسِنَتِهِم من الكلامِ الجميلِ ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ مُتَمَرِّدُونَ في الكفرِ والشركِ، لامُرُوءَةَ تَرْدَعُهُم كما تُوجَدُ في بعضِ الكفَّارِ من التَعَفُّفِ عمَّا يَثْلِمُ العِرْضَ والتَفادي عن النكثِ.

﴿ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَاكَانُواْ يَعْمَلُونَ (٩) لَايَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَاذِمَّةً وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) أَلَاتُقَـٰتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣)﴾

اسْتَبْدَلُوا ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللهِ﴾ أَي: بالقرآنِ والإسلامِ ﴿ثَمَناً قَلِيلًا﴾ وهو اتِّباعُ الأهواءِ والشَهواتِ ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ﴾ فَعَدَلُوا عنهُ وصَرَفُوا غيرَهُم. وَ﴿ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ المُجاوِزونَ الغايةَ فِي الظُلمِ والكُفرِ.

﴿فَإِن تَابُواْ﴾ عن الكُفرِ ونَقضِ العهدِ ﴿فَـ﴾ هم ﴿إِخْوَٰنُكُمْ﴾ حُذِفَ المبتدأُ ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ ونُبَيِّنُها، وهذا اعتراضٌ، فكأَنَّهُ قيلَ: وَمَنْ تَأَمَّلَ تفصيلَهَا فهو العالِمُ. ﴿وَإِن نَكَثُوٓاْ﴾ أَي: نَقَضُوا عُهودَهُم ﴿بَعْدِ﴾ أَن عَقَدُوها ﴿وَطَعَنُواْ فِى

---

(١) قاله قتادة. راجع تفسير الطبري: ج ٦ ص ٣٢٦ ح ١٦٥٢٢.

(٢) قاله سعيد بن جبير ومجاهد وأبو مجلز. راجع تفسير الطبري: ج ٦ ص ٣٢٥، وتفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٣٥.

دِينِكُمْ﴾ وعابُوهُ ﴿فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ أي: فقاتِلُوهم، وُضِعَ الظّاهرُ موضِعَ المُضْمَرِ إشعاراً بأنَّهم إذا نَكَثُوا في حالِ الشِركِ تَمَرُّداً وطَرحاً لِعاداتِ الكِرامِ الأَوْفِيَاءِ مِن العربِ ثمَّ آمنوا ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وصارُوا إخواناً للمُسلمينَ ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾ ثمَّ رَجَعُوا فَارْتَدُّوا عن الإسلامِ ونَكَثُوا ما بَايَعُوا عليهِ من الأَيمانِ وَطَعَنُوا في دينِ اللهِ فهُمْ رُؤَساءُ الكفرِ والضَّلالةِ والمُتَقَدِّمونَ فيهِ.

وعن حُذَيْفَةَ: لم يأْتِ أَهلُ هذهِ الآيةِ بعدُ[١].

وقَرَأَ عليٌّ عليه السلام هذهِ الآيةَ يومَ الجَمَلِ، ثُمَّ قالَ: «أَما وَاللهِ لَقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وقالَ لي: ياعليُّ لَتُقاتِلَنَّ الفِئَةَ النّاكِثَةَ والفِئَةَ الباغِيَةَ والفِئَةَ المارِقَةَ»[٢].

﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ﴾ أي: لا عُهُودَ لَهُم يَعني: لا يَحفَظُونَها، وَقُرِئَ بكسرِ الهمزةِ[٣]، أي: فلايُعطَوْنَ الأَمانَ بعدَ النَكثِ والرِدَّةِ، أو لا إِسلامَ لهم ولا إِيمانَ على الحقيقةِ، ولا اعتبارَ بِمَا أَظْهَرُوهُ من الإِيمانِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ يَتَعَلَّقُ بـ«قَـٰتِلُوٓاْ» أَي: لِيَكُنْ غَرَضُكم في مُقاتَلَتِهِم أَن يَنْتَهُوا عمَّا هُم عليهِ، وهذا من غايةِ كَرَمِهِ سبحانَهُ وفضلِهِ. ﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ﴾ دَخَلَتِ الهمزةُ للتَقريرِ، ومعناه: الحَضُّ على المُقاتَلَةِ ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ﴾ الَّتي عَقَدُوها ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ مِن مكَّةَ حِينَ تَشاوَرُوا في أَمرِهِ حتَّى أَذِنَ اللهُ له في الهِجْرَةِ فخَرَجَ بنفسِهِ ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ﴾ بالمُقاتَلَةِ والبادِئُ أَظْلَمُ، فما يَمْنَعُكُم أَن تُقاتِلوهُم بمثلِهِ؟! ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ تقريعٌ بِالخَشْيَةِ منهم وتوبيخٌ عليها ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ فقاتِلُوا أَعداءَهُ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فَإِنَّ المُؤْمِنَ لا يَخشَىٰ إِلَّا اللهَ.

(١) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ٦ ص ٣٣٠.

(٢) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٧٨ ح ٢٥.

(٣) وهي قراءة الحسن وابن عامر. راجع التبيان: ج ٥ ص ١٨١.

﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦)﴾

وبَّخَهُم بتركِ ٱلقتالِ، ثُمَّ أَكَّدَ ذلك بالأَمرِ بالقتالِ فقالَ: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ﴾، ثمَّ وَعَدَهُم أَنَّه ﴿يُعَذِّبْهُمُ﴾ بأَيديهم قتلاً، ويُخزِيهم أَسراً، وَيَنْصُرُهم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وَيَشْفِي ﴿صُدُورَ﴾ طائفةٍ من المُؤْمنين وهم خُزاعةُ[1]، وعن ٱبنِ عبَّاسٍ: هُم بُطونٌ من ٱليَمَنِ قَدِموا مكَّةَ وأَسْلَمُوا فَلَقُوا منهم أَذىً، فقال لهم رسولُ ٱللهِ ﷺ: «أَبْشِروا فإِنَّ الفَرَجَ قريبٌ»[2]. ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لِما لَقُوا منهم من ٱلمَكروهِ، وقد أَنْجَزَ ٱللهُ هذهِ ٱلمَواعيدَ كلَّها لهم، فكانَ ذلك دليلاً علىٰ صحَّةِ نُبُوَّةِ نبيِّه عليه السلام ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ ٱستئنافُ كلامٍ، وفيه إِخبارٌ بأَنَّ بعضَ أَهلِ مكَّةَ سيَتُوبُ عن كفرِه، وقد كانَ ذلك ـ أَيضاً ـ فقَد أَسْلَمَ كَثيرٌ مِّنهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يَعْلَمُ ماسَيَكونُ كما يَعْلَمُ ماقد كانَ ﴿حَكِيمٌ﴾ لايَفعَلُ إِلَّا مافيه ٱلحِكْمَةُ.

﴿أَمْ﴾ منقطعةٌ وفي ٱلهمزةِ معنَى ٱلتوبيخِ، يعني: أَنَّكم لاتُتْرَكُونَ علىٰ ماأَنْتُمْ عليهِ حتَّىٰ يُمَيِّزَ المُخْلِصونُ منكُم وهم[3] ٱلمُجاهِدونَ في سَبيلِ ٱللهِ لوجهِ ٱللهِ ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ ... وَلِيجَةً﴾ أَي: بِطانةً وأَولياءَ يُوالُونَهم ويُفشُونَ إِليهم أَسرارَهُم، وَ﴿لَمَّا﴾ معناها ٱلتَوَقُّعُ، ودلَّت علىٰ أَنَّ تَميُّزَ ذلك وإِيضاحَهُ مُتَوَقَّعٌ، وقولُه:

---

(١) وخزاعة: حيّ من الأزد، سمّوا ذلك لأنّ الأزد لمّا خرجت من مكّة لتتفرّق في البلاد تخلّفت عنهم خزاعة وأقامت بها، وخزع فلان عن أصحابه: أي تخلّف. انظر الصحاح: مادة خزع.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٢٥٢.

(٣) في نسخة زيادة: المهاجرون.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ﴾ عطفٌ علىٰ ﴿جَـٰهَدُوا﴾ فهو داخلٌ ـ أيضاً ـ في ٱلصِّلةِ، فكأنّـه قيلَ: وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللهُ ٱلمُجاهِدينَ منكم وٱلمُخلِصين غيرَ المُتَّخِذينَ وَلِيجةً مِنْ دُونِ ٱللهِ، وٱلوَليجةُ: فَعيلةٌ من وَلَجَ، كالدَخيلةِ من دَخَلَ، وٱلمرادُ بنفي ٱلعلمِ نفيُ المَعلومِ كما يُقالُ: ماعَلِمَ ٱللهُ ماقيلَ في فلانٍ أي: ما وُجِدَ ذلك منه.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَـٰجِدَ ٱللهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ (١٨)﴾

﴿مَا﴾ صَحَّ ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ وما ٱستقامَ لهم ﴿أَن يَعْمُرُواْ مَسَـٰجِدَ ٱللهِ﴾ يعني: عِمارةَ ٱلمَسجدِ ٱلحَرامِ، وَإِنَّما جُمِعَ لأَنَّ كُلَّ موضِعٍ منه مسجِدٌ، أَو لأَنَّـه قبلةُ ٱلمَساجدِ كُلِّها فعامِرُهُ كعامِرِ جميعِ ٱلمَساجِد، أَو أُريدَ جنسُ ٱلمَساجدِ فيَدخُلُ فيهِ ماهو صدرُها ومقدَّمُها، وقُرِئَ: «مَسْجِدَ ٱللهِ»[1]، ﴿شَـٰهِدِينَ﴾ حالٌ من ٱلواوِ في ﴿يَعْمُرُواْ﴾، ومعنىٰ شهادَتِهم ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾: ظُهورُ كفرِهم، وأَنَّهم نَصَبُوا أَصنامَهُم حولَ ٱلبيتِ وطافُوا حولَ ٱلبيتِ عُراةً، وَكُلَّما طافُوا شَوطاً سَجَدُوا لَها، وقيل: هو قولُهم: لَبَّيْك لاشريكَ لكَ، إلَّا شريكٌ هولَكَ، تَمْلِكُه ومامَلَكَ[2].

ورُوِيَ: أَنَّ ٱلمُهاجِرينَ وٱلأَنصارَ عَيَّرُوا أُسارى بدرٍ، وَوَبَّـخَ عـليٌّ ٱلعبَّاسَ بقتالِ رسولِ ٱللهِ ﷺ وقطيعةِ ٱلرَحِمِ، فقالَ ٱلعبَّاسُ: تَذكُرونَ مَساوِيَنا وتَكْتُمونَ محاسِنَنا؟ فقالوا: أَوَلَكُم مَحاسِنُ؟ قالوا: نَعَمْ، إِنَّا لَنَعْمُرُ ٱلمَسجِدَ ٱلحَرامَ ونَحجُبُ

---

(١) قراه ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. راجع التبيان: ج ٥ ص ١٨٨، وفي تفسير القرطبي: ج ٨ ص ٨٩: هي قراءة ابن عبّاس وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وابن محيصن.

(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٢٥٣.

ٱلكعبةَ ونَسقِي ٱلحَجيجَ ونَفُكُّ ٱلعانيَ[١]، فنَزَلَتْ[٢]. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ ٱلَّتي هي ٱلعِمارَةُ وٱلسقايَةُ وٱلحِجابَةُ وفكُّ ٱلعُناةِ.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ﴾ أي: إنَّما يَسْتَقيمُ عِمارةُ هَـٰؤُلاءِ، وٱلعِمارةُ تتناوَلُ: بِناهَا وَرمَّ ماٱستَرَمَّ منها، وكَنْسَها وتَنظيفَها، وتَنْويرَها بالمصابيحِ، وزيارتَها للعِبادةِ وٱلذِكـرِ ـ ومن ٱلذكرِ درسُ ٱلعلمِ بل هو أفضلُهُ وأَجَلُّهُ ـ وصِيانَتَها مِنْ فُضولِ ٱلكَلامِ.

وفي ٱلحديثِ: «يَأْتي في آخِرِ ٱلزَمانِ ناسٌ من أُمَّتي يَأْتونَ ٱلمَساجِدَ يَقْعُدُونَ فيها حَلَقاً، ذِكرُهم الدُنيا وحُبُّ الدُنيا، لاتُجالِسوهُم فليسَ للهِ بهم حاجَةٌ»[٣].

﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يعني: الخَشيَةَ والتَقوىٰ في أَبوابِ الدِينِ، وأَن لايَخْتارَ علىٰ رضاءِ اللهِ رضاءَ غيرِه.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٩) ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾

التَقديرُ: ﴿أَجَعَلْتُمْ﴾ أهلَ ﴿سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ ويَعْضُدُهُ قِراءَةُ مَن قَرَأَ: «سُقَاةَ ٱلحَاجِّ وَعَمَرَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ»[٤]، وهـو إنكـارُ

(١) العاني: الأسير. (القاموس المحيط: مادة عنا).

(٢) رواها الطبري في تفسيره: ج ٦ ص ٣٣٦ ح ١٦٥٧٢.

(٣) الكشّاف: ج ٢ ص ٢٥٤، ونحوه في مستدرك الحاكم: ج ٤ ص ٣٢٣.

(٤) وهي قراءة أبي بن كعب وابن الزبير وأبي وجزة السعدي ويزيد بن القعقاع. راجع تـفسير البغوي: ج ٢ ص ٢٧٦، وتفسير القرطبي: ج ٨ ص ٩١.

تَشبيهِ المُشرِكينَ بالمُسلِمينَ، وتَشبيهِ أَعمالِهِمُ المُحبَطَةِ بأَعمالِهِمُ المُثبَتَةِ وأَن يُسَوَّىٰ بينَهُمْ، وجُعِلَتْ تَسْوِيَتُهم ظُلماً بعدَ ظُلمِهم بالكُفْرِ، أَي: هُم ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِنْ غَيرِهِمْ من المُؤْمنينَ الَّذينَ لم يَفْعَلُوا هذِهِ الأَشياءَ ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ المُختَصُّونَ بالفَوزِ، ونُكِّرَ المُبَشَّرُ به من الرَّحمةِ والرِضوانِ والنعيمِ المُقيمِ؛ لوقُوعِ ذلك وراءَ صفةِ الواصفِ وتعريفِ المُعَرِّفِ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَاتَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَ ٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَ ٰنُكُمْ وَأَزْوَ ٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَ ٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ وَٱللَّهُ لَايَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ (٢٤)﴾

لمَّا أُمِرَ ٱلْمُؤمِنونَ بالهِجرةِ وَأَرادُوا أَن يُهاجِرُوا، فمنهم من تَعلَّقَتْ به زوجتُه، ومنهم من تَعَلَّقَ به أَبواه وأَولادُهُ، فكانوا يَمْنَعُونَهُم من ٱلهِجرةِ فيَترُكُونَها لأَجلِهِم، فَبَيَّنَ سبحانه أَنَّ أَمرَ الدِينِ مُقَدَّمٌ على ٱلنسبِ، وإِذا وَجَبَ قطعُ قَرابَةِ ٱلْوالدَيْنِ وٱلولدِ فالأَجنبيُّ أَولىٰ ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ﴾ أي: ٱخْتَارُوه ﴿عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ﴾.

وفي ٱلْحَديثِ: «لَايجِدُ أَحَدُكم طَعْمَ ٱلْإِيمانِ حَتَّىٰ يُحِبَّ فِي ٱللَّهِ ويُبْغِضَ فِي ٱللَّهِ»[(١)].

وقُرِئَ: ﴿عَشِيرَتُكُمْ﴾ على ٱلواحدِ[(٢)]، ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ وَعِيدٌ، عن ٱلْحَسَنِ: بعقوبةٍ عاجلةٍ أَو آجلةٍ[(٣)]، وهذِهِ آيةٌ شَديدةٌ كُلِّفَ ٱلْمُؤْمِنُ

---

(١) رواه الزمخشري في الكشاف: ج ٢ ص ٢٥٧ مرسلاً، ونحوه البيهقي في السنن: ج ١٠ ص ٢٣٢.

(٢) الظاهر أنّ المصنّف قد اعتمد قراءة الجمع، أي بالف بعد الراء هنا.

(٣) تفسير الحسن البصري: ج ١ ص ٤١١.

فيها أن يَتجرَّدَ من ٱلآباءِ وٱلأبناءِ وٱلعشائرِ وجميعِ حُظوظِ ٱلدُنيا لأجلِ ٱلدينِ. ٱللّهمَّ وَفِّقْنا لِمَا يُوافِقُ رضاكَ حتَّى نُحِبَّ فيك ٱلأَبْعَدِينَ ونُبْغِضَ فيك ٱلأَقْرَبِينَ.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧)﴾

﴿مَوَاطِنَ﴾ الحربِ: مقاماتُها ومواقِفُها، و ﴿حُنَيْنٍ﴾: وادٍ بينَ مكَّةَ وٱلطَّائفِ، كَانَتْ فيه ٱلوَقْعةُ بينَ ٱلمُسلِمينَ وهُمْ ٱثنا عَشَرَ أَلفاً منهم عَشَرَةُ آلافٍ حَضَرُوا فتحَ مكَّةَ وقدِ ٱنْضَمَّ إليها من ٱلطُّلقاءِ أَلفانِ، وبينَ هَوازِنَ وثَقِيفٍ وهم أَربعةُ آلافٍ في مَنِ ٱنْضَوىٰ إِليهم من أمدادِ[1] العربِ. فلمَّا ٱلتَقَوْا قالَ رجلٌ من المُسلِمينَ: لن نُغْلَبَ ٱليومَ من قِلَّةٍ، فساءَت مقالتُه رسولَ اللهِ ﷺ، وقيلَ: إنَّ قائلَها أبو بكرٍ[2] وذلك قولُه: ﴿أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ فَاقْتَتَلُوا قِتالاً شَديداً، وأَدْرَكَتِ المُسلِمينَ كلمةُ الإعجابِ بالكَثْرةِ فَانْهَزَموا حتَّىٰ بَلَغَ فَلُّهم[3] مَكَّةَ، وبَقِيَ رسولُ اللهِ ﷺ في مَرْكَزِه لا يَتَحَلْحَلُ[4]، وبَقِيَ عليٌّ عليه السلام ومَعَهُ الرَايةُ يُقاتِلُهم والعبَّاسُ بنُ عبدِالمطَّلبِ آخِذٌ بِلِجامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عن يَمِينِه وأَبو سُفْيانَ بنُ الحارثِ بنِ عبدِالمُطَّلبِ[5]

(١) بفتح الهمزة بمعنى الجيش والقوت، وبكسرها بمعنى الإعانة. (المصباح المنير: مادة مدد).
(٢) ذكره الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٢٥٩.
(٣) فلّهم: انهزامهم. (القاموس المحيط: مادة فلّ).
(٤) تحلحل عن مكانه: زال. (القاموس المحيط: مادة حلحل).
(٥) هو المغيرة بن الحارث بن عبدالمطلب، ابن عم رسول الله ﷺ وأخاه من الرضاعة، أرضعته حليمة السعدية، فلمّا بُعِثَ النبيّ ﷺ عاداه وهجاه، وكان شاعراً، وأسلم عام الفتح هو ←

عن يَسارِه في تِسعَةٍ من بَني هاشمٍ وعاشرُهم أَيْمَنُ بنُ أُمِّ أَيْمَنَ[١]، وقُتِل يَوْمَئذٍ، وقالَ عليه السلام للعبَّاسِ ـ وكانَ صَيِّتاً ـ: صِحْ بالنَّاسِ، فَنادىٰ: يامَعْشَرَ المُهاجِرينَ والأَنصارِ، ياأَهلَ بَيْعَةِ الشَجَرَةِ، ياأَصحابَ سورةِ البقرةِ، إلىٰ أَيـن تَـفِرُّونَ؟ هـذا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله، فَكَرُّوا وهم يَقولونَ: لَبَّيْكَ لبَّيْكَ، ونَزَلتِ المَلائكةُ عليهم البـياضُ علىٰ خُيولٍ بُلْقٍ، فَنظَرَ رسولُ ٱللهِ إلىٰ قِتالِ المُسلِمينَ فقال: ٱلآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ، أَنَا ٱلنَبِيُّ لاكَذِبُ، أَنَا ٱبنُ عَبدِ ٱلمُطَّلِبِ، ونَزَلَ النَصرُ من عندِ ٱللهِ وانهزَمَتْ هَوازِن[٢].

قولُه: ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾: ﴿ما﴾ مصدريَّةٌ، والباءُ بمعنىٰ «مَعَ»، أَي: مَـعَ رَحْـبِها، والجارُّ والمَجْرورُ في مَوضِعِ الحالِ، والمعنىٰ: لاتَـجِدُونَ مـوضِعاً تَسْـتَصْلِحونَهُ لِهَرَبِكم إليه لفرطِ رُعْبِكم، فكأَنَّـها ضاقَتْ عليكم ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ ثُمَّ انْهَزَمْتُم. ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللهُ سَكِينَتَهُ﴾ رَحْمتَهُ الَّتي سَكَنُوا بها ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الَّذين ثَبَتُوا معه ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالقتلِ والأَسْرِ وسَبْيِ النسـاءِ والذراريِّ وسَلبِ الأَموالِ. ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللهُ﴾ أَي: يُسْلِمُ من بعدِ ذلكَ ناسٌ منهم، وقيل: إنَّهُ سُبِيَ يومَئذٍ سِتَّةُ آلافِ نَفسٍ، وأُخِذَ من الإِبلِ والبَقرِ مالايُحْصىٰ[٣].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْـمُشْرِكُونَ نَـجَسٌ فَـلَايَقْرَبُوا۟ ٱلْـمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللهُ مِـن فَـضْلِهِ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)﴾

← وولده جعفر، مات في خلافة عمر سنة عشرين وصلّى عليه عمر ودُفِنَ بالبقيع. أُنظر الكنى والألقاب للقمي: ج ١ ص ٨٦.

(١) هو أيمن بن عبيد بن عمرو بن الخزرج، و أُمّه أُمّ أيمن بركة مولاة رسول الله صلى الله عليه وآله، و كان من المهاجرين الأوّلين، هاجر هو و أُمّه أُمّ أيمن مع علي بن أبي طالب عليه السلام لمّا هاجر بالفواطم بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله، و كان أحد العشرة الذين ثبتوا يوم حُنين وفيها قُتِل. أُنظر أعيان الشيعة: ج ٣ ص ٥٢٢.

(٢) أُنظر تفسير القمي: ج ١ ص ٢٨٥ ـ ٢٨٨.

(٣) قاله سعيد بن المسيب علىٰ ماحكاه القرطبي في تفسيره: ج ٨ ص ١٠٢.

«النَجَسُ» مصدرٌ، ومعناه: ذُونَجَسٍ؛ لأَنَّ معهم الشركُ الَّذي هو بمنزلةِ النَجَسِ، أَو جُعِلوا كَأَنَّهُمُ النَجاسَةُ بعَيْنِها مبالغةً في وَصْفِهِم بها، وعن ابنِ عبَّاسٍ: أَعيانُهم نَجِسَةٌ كالكِلابِ والخَنازيرِ[1]، وعن الحسنِ: مَن صافحَ مُشركاً تَوَضَّأَ[2].

وعن الصادقَيْن عليهما السلام: «من صافحَ الكافرَ ويدُه رَطْبَةٌ غَسَلَ يَدَهُ، وإلّا مَسَحَها بالحائِطِ»[3].

﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ فلا يَحُجُّوا ولا يَعْتَمِرُوا كَما كانوا يَفعَلونَ في الجاهليَّةِ ﴿بَعْدَ﴾ حجِّ ﴿عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ وهو عامُ تِسعٍ من الهِجرةِ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أَي: فَقْراً بسببِ منعِ المُشرِكينَ من الحجِّ وما كانَ لَكُمْ في قُدومِهم عليكم من الأَرفاقِ والمَكاسِبِ ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ مِن عطائهِ وتَفَضُّلِه على وجهٍ آخَرَ، فَأَسْلَمَ أَهلُ جُدَّةَ وصَنعاءَ وجُرَش[4] وتَبالَةَ[5] فَحَمَلُوا الطَعامَ إِلى مَكَّةَ فَكانَ ذلك أَعْوَدَ عليهم، وأَرْسَلَ السَماءَ عليهم مِدْراراً أَكْثَرَ بها خيرَهُم.

﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٢٦١.
(٢) تفسير الحسن البصري: ج ١ ص ٤١٢.
(٣) كذا في النسخ، والظاهر هو سهو، إذ لم نعثر عليه بهذه الألفاظ ولاقريب منها عنهما عليهما السلام، ولكن وجدناه قولاً منسوباً الى أصحابنا ـ كما في مجمع البيان نسبه الى أصحابنا ـ وليس حديثاً مروياً. انظر تهذيب الأحكام: ج ١ ص ٢٦٢، ومجمع البيان: ج ٥ ـ ٦ ص ٢٠.
(٤) جُرش: من مخاليف اليمن من جهة مكّة، وقيل: هي مدينة عظيمة باليمن وولاية واسعة، وذكر بعض أهل السير أنّ تبّعاً خرج من اليمن غازياً حتى إذا كان بجرش وهي إذ ذاك خربة فخلّف بها جمعاً ممّن كان صحبه ورأى فيهم ضعفاً وقال: اجرشوا هاهنا، أي: اثيروا فسمّيت جرش بذلك. انظر معجم البلدان للحموي: ج ٢ ص ٥٩ ـ ٦١.
(٥) تَبالة: موضع باليمن أيضاً، قال ياقوت: وأسلم أهل تبالة وجرش عن غير حرب، فأقرّها رسول الله صلى الله عليه وآله في أيدي أهلهما على ما أسلموا عليه وجعل على كلّ حالم ممّن بهما من أهل الكتاب ديناراً واشترط عليهم ضيافة المسلمين. انظر المعم: ج ١ ص ٨١٦.

ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ (٢٩) ﴾

عن ٱبنِ عبَّاس: أَلْقَى ٱلشيطانُ في قُلوبِهِم ٱلخَوفَ وقال: مِن أَيْنَ تَأْكُـلُونَ؟ فَأَمَرَهُمُ ٱللهُ تَعالىٰ بقِتالِ أَهلِ الكتابِ، وأَغناهُم بِالجِزْيَةِ وبفتحِ البِلادِ والغَنائمِ[1] ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ بيانٌ لِـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع ما في حَيِّزِه، نَفَىٰ عن اليـهودِ والنَصارىٰ الإيمانَ بِاللهِ؛ لأَنَّـهم أَضافُوا إِليه مالا يَلِيقُ به، ونَـفَىٰ عـنهم الإيـمانَ ﴿بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ لأَنَّـهُم في ذٰلكَ علىٰ خلافِ ماينْبَغِي، ونَفَىٰ عنهم تحريمَ ﴿مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ لأَنَّـهم لايُحَرِّمونَ ما حُرِّمَ في الكتابِ والسُنَّةِ.

وسُمِّيَتِ الجِزْيَةُ جِزيَةً لأَنَّـها قِطْعَةٌ ممَّا علىٰ أهلِ الذمَّةِ أَن يَجْزُوه أي يَقْضُوه ﴿عَن يَدٍ﴾: إِمَّا أَنْ يُرادَ يدُ المُعطِي، أو يَدُ الآخِـذِ، فـمعناهُ عـلى الأَوَّلِ: ﴿حَـتَّىٰ يُعْطُو﴾ ها عن يدٍ مُؤَاتِيَةٍ غيرِ مُمْتَنِعَةٍ، كَما يُقالُ: أَعطَىٰ بيدِهِ: إِذا أَصْحَبَ وَٱنقادَ، أَو حتَّىٰ يُعْطُوهَا عن يدٍ إِلىٰ يدٍ نَقداً غيرَ نَسِيئَةٍ ولامَبْعُوثاً علىٰ يدِ أَحدٍ. ومعناهُ علىٰ إِرادة يدِ الآخِذِ: حَتَّىٰ يُعْطُوهَا عن يدٍ قاهرةٍ مُسْتَوْلِيَةٍ أَو عن إِنعامٍ عليهِمْ ﴿وَهُـمْ صَـٰغِرُونَ﴾ أَي: تُؤخَذُ منهم الجزية على الصَغارِ والذُلِّ، وهو أَن يَأْتِيَ بها بـنفسِهِ ماشِياً غيرَ راكبٍ، ويُسَلِّمَها وهو قائمٌ والآخِذُ جالسٌ، وأَنْ يُؤْخَذَ بتلبيبِه[2] ويُقالَ له: أَدِّها.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ

---

(١) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ٦ ص ٣٤٦ ح ١٦٦١٢.

(٢) لبّبت الرجل تلبيباً: إذا جَمعْتَ ثيابه عند صدره ونحوه في الخصومة ثم جررته. (الصحاح: مادة لبب).

يُؤْفَكُونَ (٣٠) ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ ٱللهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهاً وَٰحِداً لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ (٣٢) هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾

﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللهِ﴾ مُبْتَدَأٌ وخبرٌ، وهو ٱسمٌ أَعْجَمِيٌّ، ولعُجمتِهِ وتعريفِهِ ٱمْتَنَعَ من الصَرفِ، ومَنْ نَوَّنَهُ جَعَلَهُ عَرَبِيّاً، وإنَّما قال ذلك جماعةٌ من ٱليهودِ ولم يَقُلْه كلُّهم ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ معناهُ: أَنَّهم ٱخْتَرَعُوه بِأَفْوَاهِهِمْ ولم يأْتِهم به كتابٌ، ومالهم به حُجَّةٌ ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: يُضاهِي قَولُهُم قَولَهم، فحُذِفَ ٱلمُضافُ وأُقيمَ المُضافُ إليه مقامَه، والمعنىٰ: أَنَّ الَّذِينَ كانُوا في عهدِ رسولِ ٱللهِ ﷺ من اليهودِ والنَصارىٰ يُضاهِي قَولُهم قولَ قُدَمائهم، يُريدُ أَنَّه كُفرٌ قَديمٌ فيهم، أَو: يُضاهِي قَولُهم قَوْلَ ٱلمُشرِكِين: «إِنَّ الملائكةَ بَناتُ ٱللهِ»، وقُرِئَ: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ بالهمزةِ من قولِهِم: ٱمْرَأَةٌ ضَهْيَأٌ عَلَىٰ فَعْيَلٍ، وهي الَّتي ضاهَأَتِ الرجالَ في أَنَّها لاتَحيضُ ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللهُ﴾ أَي: لَعَنَهُم ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كَيفَ يُصْرَفُون عَنِ الحَقِّ.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَاباً﴾ بِأَن أَطاعُوهُم في تَحليلِ ماحَرَّمَ ٱللهُ وتَحريمِ ماحَلَّلَهُ، كما يُطاعُ الأَربابُ في أَوامِرِهم ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ أَهَّلُوه لِلعبادةِ حينَ جَعَلُوهُ ٱبناً للهِ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهاً وَٰحِداً﴾ أَمَرَتْهُم بِذٰلِكَ أَدِلَّةُ العقلِ والنُصوصُ في التَوراةِ والإنجيلِ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تَنزِيهٌ له عنِ الإِشراكِ وٱستِبعادٌ لهُ.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ مثَّلَ سُبحانه حالَهُم في طَلَبِهِم إبطالَ

نُبُوَّةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وآله بتكذيبه بحالِ مَنْ يُرِيدُ أَن يَنْفُخَ في نورٍ عظيم، يُريدُ اللهُ أَن يُبَلِّغَهُ الغايةَ القُصوىٰ من الإِضاءَةِ والإِنارةِ لِيُطْفِئَه بنَفخِه ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ أَي: لِيُظْهِرَ الرَّسُولَ علىٰ أَهلِ الأَديانِ كلِّهم، أَو لِيظْهِرَ دينَ الحقِّ علىٰ كلِّ دينٍ، وقد أَجْـرَىٰ «أَبَـىٰ» مَجرىٰ لَمْ يُرِدْ، ولذلك قَابَلَ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟﴾ بقولِه: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ﴾ فَكَأَنَّه قالَ: ولا يُريدُ ٱللهُ إِلَّآ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾

أَكْلُ المالِ ﴿بِٱلْبَـٰطِلِ﴾: عبارةٌ عَن أَخذِهِ وتَناوُلِهِ مِنَ الجهةِ الَّتي يَحرُمُ منها أَخذُهُ، والمعنىٰ: أَنَّهُم كَانُوا يَأْخُذُونَ الرُّشَا فِي ٱلأَحكامِ وَفِي تَـخفيفِ الشَّـرائـعِ عن عَوامِّهم ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ يُحْتَمَلُ أَن يَكونَ إِشارةً إِلى الكَثيرِ مِنَ الأَحْبارِ والرُّهْبانِ، ويُحْتَمَلُ أَن يَكونَ المُرادُ بِهِ المُسلِمينَ الكانِزِينَ غيرَ المُنفِقِينَ، قَرَنَ بينَهم وبينَ المُرْتَشِينَ من اليَهودِ والنَّصارَىٰ، وعَنَىٰ بتركِ ٱلإِنفاقِ فـي سَـبيلِ ٱللهِ: مَـنعَ الزَكاةِ.

وفي الحديث: «ماأُدِّيَ زَكاتُه فَلَيْسَ بِكَنْزٍ وإِنْ كانَ باطِناً، ومابَلَغَ أَنْ يُزَكَّـىٰ فلم يُزَكَّ فهو كَنزٌ وإِن كانَ ظاهراً»(١).

﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ الضميرُ يَرجِعُ إِلَى ٱلْمَعْنَىٰ؛ لأَنَّ كلَّ واحدٍ مِنَ الذَهبِ وَالفِضَّةِ

(١) رواه الشيخ الطوسي في أماليه: ج ٢ ص ١٣٣ باسناده عن الرضا عن آبائه عليهم السلام عنه صلى الله عليه وآله.

جملةٌ وافيةٌ: دَنانيرُ ودَراهِمُ، فهو كقولِه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ (١)
وقيل: معناه: ولا يُنْفِقُونَهَا والذَّهَبَ (٢) كما أَنَّ معنىٰ قولِهِ:

فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِها لَغَرِيبُ (٣)

وَقَيَّارٌ كَذلكَ، وإِنَّما خُصَّ الذَهَبُ والفِضَّةُ من بينِ الأَموالِ بالذِكرِ لأَنَّهما قانونُ التَمَوُّلِ وأثمانُ الأَشياءِ، ولا يَكْنِزُهُما إِلَّا من فَضِلَا عن حاجتِهِ.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أَي: يُوقَدُ على الكُنُوزِ أَو على الذَهبِ والفِضَّةِ حتَّىٰ تَصيرَ ناراً ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا﴾ أَي: بتلكَ الكُنوزِ المُحْماةِ ﴿جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ خُصَّتْ هذِهِ الأَعضاءُ لأَنَّهم لم يَطْلُبُوا بتركِ الإِنْفاقِ إِلَّا الأَغراضَ الدُنيَوِيَّةَ: من وَجاهَةٍ عندَ النَاسِ وأَن يَكونَ ماءُ وُجُوهِهِم مَصُوناً، ومن أَكلِ الطَّيِّباتِ يَتَضَلَّعُونَ منها فيَنفُخُون جنوبَهم، ومن لُبسِ ثِيابٍ ناعمةٍ يَطْرَحُونَها علىٰ ظُهُورِهِم، وقيلَ: لأَنَّهُم كانُوا يَعْبِسُونَ وجوهَهم للفقيرِ وَيُوَلُّونَهُ جُنوبَهم في المَجالِسِ وظُهورَهم (٤) ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ علىٰ إِرادةِ القَوْلِ ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ لانتفاعِ أَنْفُسِكُم ﴿فَذُوقُواْ﴾ وَبالَ الَّذي ﴿كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ ـهُ، أَو وَبالَ كَونِكُم كَانِزِينَ.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ

(١) الحجرات: ٩.
(٢) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٢ ص ٤٤٥.
(٣) وصدره: ومن يك أمسىٰ بالمدينة رحلُهُ. وقائله ضابئ بن الحارث البُرجمي، أنشده في حبس عثمان بن عفّان، وكان يريد أن يفتك بعثمان فحبسه ولم يزل فيه الى أن مات. راجع الكامل للمبرد: ج ١ ص ٣٢٠.
(٤) قاله أبو بكر الورّاق كما حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٢ ص ٢٨٩.

أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (٣٦)﴾

﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: فِي اللَوحِ الْمَحفوظِ، أَو فِي القرآنِ، أَو فيما أَثْبَتَه مِن حُكمِهِ وَرَآهُ حِكمةً وصَواباً ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ ثَلاثَةٌ سَرْدٌ: ذُوالقِعْدَةِ، وذُوالحِجَّةِ، والمُحَرَّمُ، وَواحِدٌ فَردٌ وهو رَجَبٌ، ومنهُ قولُه صَلَواتُ اللهِ عليهِ فِي خُطبَتِه فِي حجَّةِ الوَداعِ: «أَلَا إِنَّ الزَمانَ قَد ٱستَدارَ كَهَيْئَتِه يومَ خَلَقَ ٱللهُ السَماواتِ والأَرضَ، السَنَةُ: ٱثْنا عَشَرَ شَهْراً، مِنها أَربعةٌ حُرُمٌ»[1].

والمَعنَىٰ: رَجَعَتِ الأَشْهُرُ إِلىٰ ماكانتْ عَليهِ، وعَادَ الحَجُّ في ذِي الحِجَّةِ، وبَطَلَ النَسِيءُ الَّذي كانَ في الجاهِلِيَّةِ ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ يعني: أَنَّ تَحريمَ الأَشهُرِ الأَرْبَعَةِ هو الدينُ المُستقيمُ: دِينُ إِبراهيمَ وإِسمَاعِيلَ، وكانتِ العربُ قد تَمَسَّكَتْ به وِراثَةً منهُما، وكانُوا يُعَظِّمُونَ الأَشْهُرَ الْحُرُمَ، ويُحَرِّمُونَ القِتالَ فيها، حتَّىٰ لو لَقِيَ الرَجلُ قاتِلَ أَبيهِ[2] لم يَهِجْهُ، وسَمَّوْا رَجَباً: الأَصَمَّ[3] ومُنْصِلَ الأَسِنَّةِ[4] حتَّىٰ أَحْدَثُوا النَسِيءَ فغَيَّرُوا، وقيل: ذلكَ الحسابُ القَيِّمُ لا ماأَحْدَثُوه مِنَ النَسيءِ[5] ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ بأَنْ تجعَلُوا حَرامَها حَلالاً ﴿كَآفَّةً﴾ حالٌ من الفاعلِ أَو المَفعولِ ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أَي: ناصِرُهُم، حَثَّهُم على التَقوىٰ بضَمانِ النُصرَةِ لأَهلِها.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج ٤ ص ٢٥١، السيرة الحلبيّة للحلبي الشافعي: ج ٣ ص ٢٥٦، الكشّاف: ج ٢ ص ٢٦٩، تفسير البغوي: ج ٢ ص ٢٩٠، تفسير القرطبي: ج ٨ ص ١٣٣.

(٢) في نسخة زيادة: وأخيه.

(٣) قال الفيومي: إنّما سمّي شهر رجب بالأصمّ لأنّه كان لايُسمَع فيه حركة قتالٍ ولانداء مستغيثٍ. المصباح المنير: مادة «صمت».

(٤) وقال: المُنصِل من أنصله، أي نزع نَصله، والمراد: أنّ شهر رجب حيث إنّهم لايقاتلون فيه فكأنّه هو الذي نزع نصل الأسنّة. أُنظر المصدر نفسه: مادة نصل.

(٥) قاله ابن قتيبة. راجع تفسير الماوردي: ج ٢ ص ٣٦٠.

وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَاحَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَاحَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَايَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ (٣٧) ﴾

﴿ٱلنَّسِىٓءُ﴾ تَأخيرُ حُرمةِ الشَهرِ إلىٰ شهرٍ آخرَ، وذلكَ أنّهم كانوا أصحابَ حُروبٍ، فإذا جاءَ الشَهرُ الحرامُ وهُم مُحارِبونَ شَقَّ عليهم تركُ المُحارَبَةِ، فكانُوا يُحِلُّونَه ويُحَرِّمُونَ مَكانَه شهراً آخَرَ، وذلك قولُه: ﴿لِيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَاحَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: لِيُوافِقُوا العِدَّةَ الَّتي هي الأَرْبعةُ ولايُخالِفُوها، وقد خالَفُوا تَخصيصَ الأَشهُرِ الحُرُمِ بالتَحريمِ، ورُبَّما زادوا في عِدَّةِ الشُهُورِ فيَجْعَلُونَها ثَلاثَةَ عَشَرَ شَهراً لِيَتَّسِعَ لهم الوقتُ، ولذلكَ قالَ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْراً﴾ يعني: من غيرِ زيادةٍ زادُوها، والضَميرُ في ﴿يُحِلُّونَهُ﴾ و ﴿يُحَرِّمُونَهُ﴾ لـ﴿ٱلنَّسِىٓءُ﴾ أي: إذا أَحَلُّوا شَهراً من الأَشْهُرِ الحُرُمِ ﴿عَاماً﴾ رَجَعُوا فَحَرَّمُوهُ في العامِ القابِلِ، وقُرِئَ: ﴿يُضَلُّ﴾ على البِناءِ للمَفعولِ، وقُرِئَ: «يُضِلُّ»[1] علىٰ أَنَّ الفِعلَ للهِ تعالىٰ، «ويَضِلُّ» قِراءَةُ الأكثرين[2]، وقُرِئَ: «النَسيُّ» بالتَشديدِ[3]، وهو تخفيفُ الهمزةِ في «النَسيءِ»، وعن الصَادقِ عليه السلام: «النَسْيُ»[4] علىٰ وزنِ الهَدْي، وهو علىٰ إبدالِ الياءِ من الهمزةِ، وهو مصدرُ نَسَأَهُ: إذا أَخَّرَهُ، يُقالُ: نَسَأَهُ نَسْئاً وَنَسِيئاً نحو مَسَّهُ مَسّاً ومَسيساً ﴿فَيُحِلُّواْ مَاحَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ معناه: فَيُحِلُّوا بمُواطَأَةِ العِدَّةِ وحدَها ﴿مَاحَرَّمَ ٱللَّهُ﴾

---

(١) قرأه ابن مسعود في رواية والحسن والأعمش وأبو عمرو ومجاهد وقتادة وعمرو بن ميمون وأبو رجاء ويعقوب. راجع تفسير القرطبي: ج ٨ ص ١٣٩، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٤٠.

(٢) وهي قراءة أهل الحرمين وأبي عمرو وعاصم برواية أبي بكر. انظر تفسير القرطبي: ج ٨ ص ١٣٩.

(٣) قرأه أبو جعفر وابن فرج عن البزي والزهري وحميد وورش عن نافع والحلواني. راجع تفسير القرطبي: ج ٨ ص ١٣٦، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٣٩.

(٤) ذكرها أبو حيان في البحر المحيط: ج ٥ ص ٣٩.

من القِتالِ ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾ خَذَلَهُمُ اللهُ فحَسِبُوا أعمالَهُم القَبيحةَ حَسَنَةً ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى﴾ أَي: لايَلطُفُ بهم بل يَخْذُلُهُم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾

أَصلُه: تَتَاقَلْتُمْ، فَأُدْغِمَتِ التاءُ في الثاءِ ثُمَّ أُدْخِلَتْ همزةُ الوَصلِ، أَي: تَباطَأْتُمْ، وضُمِّنَ مَعنَى المَيلِ فَعُدِّيَ بـ«إِلىٰ»، والمعنىٰ: مِلْتُم إِلَى الدُنيا ولَـذَّاتِـها، وكَـرِهْتُم مَشاقَّ السَفَرِ، ونحوُه ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[1]، وقِـيلَ: مِـلْتُم إِلَـى الإِقامَةِ بأَرضِكُم ودِيارِكُم[2]، وكانَ ذلك في غَزْوَةِ تَـبُوكَ فـي سَـنَةِ عَشْـرٍ بـعدَ رُجوعِهِم من الطَائف، اُستَنْفَرُوا في وقتِ قَحْطٍ وقَيْظٍ مع بُعْدِ الشقَّةِ وكَثرةِ العَـدُوِّ فشَقَّ ذلك عليهِم، وقيلَ: إِنَّه صلواتُ اللهِ عليه ماخَرَجَ في غَـزْوَةٍ إِلَّا وَرَّىٰ عـنها بغيرِها إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبوكَ؛ لِيَسْتَعِدَّ النَاسُ تَمامَ العُـدَّةِ[3]. ﴿مِـنَ ٱلْـَٔاخِـرَةِ﴾ بَـدَل الآخِرَةِ، ونحوُه: ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً﴾[4]، ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى﴾ جنبِ ﴿ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟﴾ سُخْطٌ عَظِيمٌ على المُتَثاقِلِينَ، حيثُ هَدَّدَهُم بعَذابٍ عظيمٍ مُطلَقٍ يَتناوَلُ عذابَ الدارَيْنِ، وأَنَّهُ يُهْلِكُهم ﴿وَيَسْتَبْدِلْ﴾ بهم ﴿قَوْمًا﴾ آخَرِينَ خَـيْرًا

---

(١) الأعراف: ١٧٦.

(٢) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٢ ص ٤٤٧.

(٣) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية: ج ٤ ص ١٥٩ عن الزهري ويزيد بن رومان وعبدالله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم.

(٤) الزخرف: ٦٠.

مِنهُم وأَطوَعَ، وأَنَّه غَنِيٌّ عنهم في نُصرةِ دينِه، لايُؤَثِّرُ تَثاقُلُهم فيها ﴿شَيْئاً﴾، وقيلَ: الضميرُ للنَّبيِّ صلى الله عليه وآله[١]، أَي: ﴿لاتَضُرُّوهُ شَيْئاً﴾ لِأَنَّ اللهَ وَعَدَ أَنْ يَعْصِمَهُ من النَّاسِ ولايَخذُلَهُ بل يَنصُرَهُ، ووَعدُ اللهِ كائنٌ لامَحالةَ.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِ لَاتَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾

أَي: إِنْ تَرَكْتُمْ نُصرتَه فإِنَّ اللهَ قد أَوْجَبَ له النُصرةَ، وجَعَلَهُ منصوراً حينَ لم يكُنْ مَعَهُ إِلَّا رَجُلٌ واحدٌ، فلن يَخذُلَهُ مِن بعدُ ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أَسْنَدَ الْإِخراجَ إِلى الْكُفَّارِ كَما في قولِهِ: ﴿مِن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِى أَخْرَجَتْكَ﴾[٢]، لِأَنَّهم حينَ هَمُّوا بإِخراجِهِ أَذِنَ ٱللهُ لَهُ فِي الخُروجِ عَنهُم، فكَأَنَّهُمْ أَخْرَجُوهُ ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ أَحَدَ ٱثْنَيْنِ كَقولِه: ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾[٣]، وهُما رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وأَبو بَكرٍ، وانتِصابُهُ على الحالِ، و ﴿إِذْ هُمَا﴾ بدلٌ من ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾، و ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ بدلٌ ثانٍ، و ﴿ٱلْغَارِ﴾: الثقْبُ العظِيمُ فِي الجبَلِ، وهو هاهنا غارُ ثَورٍ، جبلٌ في يُمْنىٰ مَكَّةَ علىٰ مَسيرةِ ساعةٍ ﴿لَاتَحْزَنْ﴾ أَي: لاتَخفْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ مُطَّلِعٌ علينا وعالمٌ بحالِنا يحفَظُنا ويَنصُرُنا، ولمَّا دَخَلَا الْغارَ بَعَثَ ٱللهُ حَمامَتَيْنِ فباضَتا فِي أَسْفَلِهِ، وَالْعَنْكَبوتَ فَنَسَجَتْ عليهِ، وقالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: «اَللّٰهُمَّ أَعْمِ أَبْصارَهُم»، فَجَعَلُوا يَتَرَدَّدُونَ حولَ الغارِ ولايَفطُنُونَ، أَخَذَ ٱللهُ بأَبصارِهم عنه ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ قَرَأَ الصَّادقُ عليه السلام: «عَلَىٰ رَسُولِهِ»[٤]، وسكينتُهُ: ما أَلْقَىٰ في قلبِهِ من الأَمَنَةِ الَّتي سَكَنَ

---

(١) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٢ ص ٤٤٨.

(٢) محمّد: ١٣. (٣) المائدة: ٧٣.

(٤) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٨٨ ـ ٨٩ ح ٥٨ وفيه: عن أبي جعفر عليه السلام.

إليها، وأيقنَ أنَّهم لا يَصِلُونَ إليهِ، وَالجُنُودُ: الملائكةُ يومَ بدرٍ والأحزابِ وحُنَيْنٍ أو ذلكَ اليومَ صَرَفُوا وجوهَ الكفَّارِ وأبصارَهُم عن أن يَروْهُ، وَ ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ دَعْوتَهُم إلى الكفرِ ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ دعوتُهُ إلى الإسلامِ، وقُرِئَ: «وَكَلِمَةَ ٱللَّهِ» بالنَصبِ[1]، وَ﴿هِيَ﴾ فَصْلٌ، وفيها تأكيدُ فضلِ كَلِمَةِ ٱللهِ في العُلُوِّ، وأنَّهَا المُخْتَصَّةُ به دونَ سائرِ الكَلِمِ.

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (٤٢) عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٤٣)﴾

﴿خِفَافاً﴾ في النُفورِ لِنَشاطِكُم له ﴿وَثِقَالاً﴾ عنهُ لمشقَّتِهِ عليكُم، أو ﴿خِفَافاً﴾ مِنَ السِلاحِ ﴿وَثِقَالاً﴾ منه، أو ﴿خِفَافاً﴾ لِقلَّةِ عِيالِكُم ﴿وَثِقَالاً﴾ لكَثْرَتِهِ، أو رُكْباناً ومُشاةً، أو شَباباً وشُيوخاً، أو صِحاحاً ومراضاً. عن ٱبنِ عبَّاسٍ: نُسِخَتْ بقولِهِ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾[2][3]، ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ إيجابٌ للجِهادِ بِهِمَا إن أمكَنَ، أو بأحدِهِمَا علىٰ حَسَبِ الحالِ والحاجةِ. والعَرَضُ: ما عَرَضَ لكَ من منافعِ الدُنيا، والمعنىٰ: ﴿لَوْ كَانَ﴾ ما دُعُوا إليه غُنماً ﴿قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً﴾ أي: وَسَطاً مُقارِباً ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾، وَ﴿ٱلشُّقَّةُ﴾: المَسافةُ الشَاقَّةُ، وَسَيَحْلِفُ المتخلِّفونَ عندَ رجوعِك من غَزْوةِ تَبوك ﴿بِٱللَّهِ﴾ يَقولون:

---

(١) وهي قراءة الحسن وأبي مجلز والأعمش ويعقوب. راجع التبيان: ج ٥ ص ٢٢١، وشواذ القرآن لابن خالويه: ص ٥٧.

(٢) التوبة: ٩١.

(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٢٧٣.

﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا﴾، وقولُهُ: ﴿لَخَرَجْنَا﴾ سَدَّ مَسَدَّ جوابِ ﴿لَوْ﴾ وَجوابِ القَسَمِ جميعاً، وَالإخبارُ بما سوفَ يَكونُ بعدَ قُفُولِهِ مِن خَلْفِهِم[١] وَٱعتِذارِهِم، وَقد كَانَ من جملةِ المُعجِزاتِ، والمرادُ بـ ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا﴾: ٱستطاعَةُ العُدَّةِ، أَو ٱستطاعَةُ الأَبدانِ كأَنَّهُم تمارَضوا ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿سَيَحْلِفُونَ﴾، أَو حالٌ بمعنىٰ: مُهْلِكِينَ، أَي: يُوقِعُونَهَا في الهَلاكِ بحَلْفِهِمُ الْكاذِبِ.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ هذا من لطيفِ المُعاتَبَةِ، بَدَأَهُ بالعَفوِ قبلَ العِتابِ، ويَجُوزُ العِتابُ من ٱللهِ فيما غيرُه منه أَولىٰ، لاسِيَّما للأَنبياءِ، ولا يَصِحُّ ما قالَه جارُ ٱللهِ: إنَّ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ كنايةٌ عن الجِنايةِ[٢]، حاشا سيِّدَ الأَنبياءِ وَخَيْرَ بَنِي حوَّاءَ مِن أَن يُنْسَبَ إِليهِ جِنايةٌ[٣].

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ

---

(١) في بعض النسخ: حلفهم بالحاء. (٢) الكشّاف: ج ٢ ص ٢٧٤.

(٣) قال العلّامة الطباطبائي: والآية في مقام دعوىٰ ظهور كذبهم ونفاقهم وأنّهم مفتضحون بأدنىٰ امتحان يمتحنون به، ومن مناسبات هذا المقام إلقاء العتاب الى المخاطب وتوبيخه والإنكار عليه كأنّه هو الذي ستر عليهم فضائح أعمالهم وسوء سريرتهم، وهو نوع من العناية الكلامية يتبيّن به ظهور الأمر ووضوحه لايراد أزيد من ذلك، فهو من أقسام البيان على طريق: إيّاك أعني واسمعي ياجارة، فالمراد بالكلام إظهار هذه الدعوىٰ لا الكشف عن تقصير النبي ﷺ وسوء تدبيره في إحياء أمر الله. أُنظر تفسير الميزان: ج ٩ ص ٢٨٥.

حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ (٤٨)﴾

أَي: لَيسَ مِن عادةِ المُؤْمِنِينَ أن يَسْتَأْذِنُوكَ في ﴿أَن يُجَـٰهِدُواْ﴾، أو كَراهَةَ أَن يُجاهِدُوا. ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ ٱلْمُنافِقُونَ ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ عِبارَةٌ عَنِ التَحيُّرِ؛ لأَنَّ التردّد صفة المتحيّر كَمَا أَنَّ الثَباتَ صفةُ المُسْتَبْصِرِ. ﴿وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ خُرُوجَهُم إِلى الغَزْوِ لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُمْ لو خَرَجُوا لكانوا يَمْشونَ بالنَميمةِ من المُسلِمينَ ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أَي: بَطَّأَ بهم وكَسَّلَهُم وخَذَلَهُم لما عَلِمَ منهم من الفَسادِ، وإِنَّمَا وَقَعَ ٱلاِستدراكُ بـ ﴿لَـٰكِن﴾ لأَنَّ قَولَهُ: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ﴾ يُعْطِي معنى النَفْي، فكأَنَّهُ قيلَ: لَمْ يَخْرُجُوا ولَـٰكِنْ تَثَبَّطُوا عن الخُروجِ؛ لأَنَّ ٱللهَ كَرِهَ ٱنْبعاثَهُم فَضَعَّفَ رَغْبَتَهم في الاِنبعاثِ ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ﴾ النِساءِ والصِبْيانِ، وهو إِذْنُ رسولِ ٱللهِ ﷺ لَهُم في القُعُودِ، وفي هذا دَلالةٌ علىٰ أَنَّ إِذنَهُ عليه السلام لَهُم غيرُ قَبيحٍ وإِنْ كانَ الأَوْلَىٰ أَن لا يَأْذَنَ لِيَظْهَرَ للنَاسِ نِفاقُهم.

ثُمَّ بَيَّنَ سُبحانَه وجهَ الحكمةِ في تَثْبِيطِهم عن الخُروجِ فقالَ: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم﴾ أَي: لو خَرَجَ هَـٰؤُلاءِ مَعَكُم إِلى الجِهادِ ﴿مَا زَادُوكُمْ﴾ بِخُرُوجِهِم ﴿إِلَّا خَبَالاً﴾ أَي: فَساداً وشَرّاً، وتقديرُه: مَازَادُوكُمْ شيئاً إِلَّا خَبالاً ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَـٰلَكُمْ﴾ أَي: وَلَسَعَوْا بَيْنَكُم بالتَضْرِيبِ(١) وَالنَمَائمِ وإِفسادِ ذاتِ البَينِ، يُقالُ: وَضَعَ البَعيرُ وَضْعاً: إِذا أَسْرَعَ، وأَوضَعْتُهُ أَنَا، والمعنىٰ: وَلَأَوْضَعُوا رَكَائبَهُم بَينَكُم، والمرادُ: الإِسراعُ بالفَسادِ؛ لأَنَّ الرَاكِبَ أَسرَعُ من الماشِي ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أَي: يُحَاوِلُونَ(٢) أَنْ يَفْتِنُوكُمْ بِأَن يُوقِعُوا الخِلافَ فِيمَا بينكُمْ، ويُفْسِدوا نِيَّاتِكُم في غَزَواتِكُم ﴿وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ أَي: عُيُونٌ نَمَّامُونَ يَسْمَعُونَ حديثَكُم فَيَنقُلُونَهُ إِليهم، أَو: فِيكُمْ قَومٌ يَسْمَعُونَ قَوْلَ المُنافِقينَ وَيَقْبَلُونَهُ ويُطِيعُونَهُم، يُرِيدُ مَن كانَ ضعيفَ الإِيمانِ من

(١) في نسخة: بالتفريق.
(٢) في بعض النسخ: يجادلون بالجيم.

جملةِ المُسلِمينَ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المُصِرِّينَ على الفَسادِ.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ الفتنةُ: ٱسمٌ يَقَعُ علىٰ كلِّ شرٍّ وفَسادٍ، أَي: نَصَبُوا لكَ الغَوائلَ وسَعَوْا في تَشْتِيتِ شَمْلِكَ، وعن سَعيدِ بنِ جُبَيْرٍ: وَقَفُوا لرسولِ ٱللهِ ﷺ في غَزْوَةِ تبوكَ على الثَنِيَّةِ[1] ليلةَ العَقَبَةِ لِيَفْتِكُوا بهِ وهم ٱثْنا عَشَرَ رجلاً ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ أَي: ودَبَّرُوا لكَ الحِيَلَ والمَكائدَ، وَٱحتَالُوا في إِبطالِ أَمرِكَ ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ وهُوَ تَأْييدُكَ ونُصْرَتُكَ ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وغَلَبَ دِينُهُ وعلا أَهلُهُ ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ في موضِعِ الحالِ.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِٱلْكَٰفِرِينَ (٤٩) إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢)﴾

وَمِنْ هؤُلاءِ المُنافِقينَ ﴿مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾ في القُعُودِ عنِ الجِهادِ ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ ولاتُوقِعْنِي فِي ٱلفِتنَةِ وهِيَ الإِثمُ بأَنْ لاتَأْذَنَ لِي، فَإِنِّي إِنْ تَخَلَّفْتُ بغيرِ إِذْنِكَ أَثِمْتُ، وقيلَ: هُوَ الجدُّ بنُ قيسٍ[2]، قالَ: قد عَلِمَتِ الأَنصارُ أَنِّي مُسْتَهْتَرٌ بالنِساءِ فلاتَفْتِنِّي بِبَناتِ الأَصفَرِ، يَعنِي: نِساءَ الرُومِ، ولٰكِنِّي أُعِينُكَ بِمالٍ فاتْرُكْنِي[3] ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ أَي: إِنَّ الفِتنَةَ هي الَّتي سَقَطُوا فِيها، وهِيَ فِتنَةُ

(١) الثنيّة: طريق العقبة. (الصحاح: مادة ثنى).

(٢) هو جدّ بن قيس بن صخر بن خنساء الأنصاري، كان من المنافقين، تخلّف عن رسول الله ﷺ عند بيعة الرضوان. راجع امتاع الأسماء للمقريزي: ج ١ ص ٤٤٧.

(٣) قاله ابن عبّاس ومجاهد وابن زيد وقتادة. راجع تفسير ابن عبّاس: ص ١٥٩، وتفسير الطبري: ج ٦ ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

التَخلُّفِ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِالكَـٰفِرِينَ﴾ أَي: بِهِمْ يومَ القِيامةِ، أَو مُحِيطَةٌ بهم الآنَ؛ لأَنَّ أَسبابَ إِحاطَتِها بِهم مَعَهُمْ، فكَأَنَّهُم في وَسَطِها.

﴿إِن تُصِبْكَ﴾ في بعضِ غَزَواتِكَ ﴿حَسَنَةٌ﴾ أَي: ظَفَرٌ وغُنْمٌ ونِعْمَةٌ مِنَ ٱللهِ ﴿تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ شِدَّةٌ وبَلِيَّةٌ ونَكْبَةٌ، نحوُ ماكانَ يومَ أُحُدٍ ﴿يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا﴾ ٱلَّذي نحنُ مُتَّسمُونَ به مِنَ الحَذَرِ والعَمَلِ بالحَزْمِ ﴿مِن قَبْلُ﴾ ما وَقَعَ هذَا البَلاءُ، وتَوَلَّوْا عن مقامِ التَحَدُّثِ بذلكَ والاجتماعِ له ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ مَسرُورونَ.

وقَرَأَ عبدُاللهِ: «هَلْ يُصِيبُنا»[1]، واللَامُ في قولِهِ: ﴿مَاكَتَبَ ٱللهُ لَنَا﴾ لِلاِختصاصِ، أَي: ﴿لَن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا﴾ اختصَّنا اللهُ بإِثباتِهِ وإِيجابِهِ: من النُصرَةِ أَو الشَهادةِ، وَ ﴿هُوَ مَوْلَيٰنَا﴾ يَتَوَلَّانَا ونَتَوَلَّاهُ ﴿وَعَلَى ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أَي: وحقُّ الْمُؤْمِنينَ أَن لايَتَوَكَّلُوا علىٰ غيرِ اللهِ تَعالَىٰ فَلْيَفْعَلُوا ماهُوَ حَقُّهُم.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ هل تَتَوَقَّعُونَ ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ أَي: إِحدَى العاقِبَتَيْنِ اللَّتَيْنِ كلٌّ واحدةٍ منهُما هِيَ حُسنَى العَواقِبِ، وهما: النُصرَةُ والشَهادةُ ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ إِحدَى السَوْأَتَيْنِ من العَواقِبِ، وإِنَّهما: ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ أَي: من السَماءِ كما نَزَلَ علىٰ عادٍ وثَمُودَ ﴿أَوْ﴾ بِعذابٍ ﴿بِأَيْدِينَا﴾ وهُوَ القتلُ علَى الكفرِ ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ بِنا ماذكَرْنَا من عَواقِبِنا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ فلابُدَّ أَن يَلقَىٰ كُلُّنا مايَتَرَبَّصُهُ لايَتجاوَزُه.

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَـٰسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَايَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَايُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ

(١) ذكره الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٢٧٨.

كَـٰرِهُونَ (٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ (٥٥) ﴾

﴿طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ حالٌ، أَي: طائِعينَ أَو مُكْرَهينَ، وهو أَمرٌ في معنَى الخَبرِ، والمَعنىٰ: ﴿لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ ماأَنفَقتُمْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً، ونحوُه قولُه: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْلَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾[(١)] وقولُ كُثَيِّرٍ[(٢)]:

أَسِيئي بِنَا أَو أَحْسِنِي لامَلُومَةً لَدَيْنا وَلَا مَقْلِيَّةً إِنْ تَـقَلَّتِ[(٣)]

أَي: لَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمُ ٱسْتَغْفَرْتَ لهُمْ أَو لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَّهُم، ولا نَلومُكِ أَسَأْتِ إِلَيْنَا أَو أَحْسَنْتِ، وإِنَّما يَجوزُ هذَا إِذا دلَّ الكلامُ عليهِ، كما جازَ عكسُهُ في قولِكَ: رَحِمَ ٱللَّهُ زيداً، أَو ٱللَّهُ غَفَرَ لَهُ ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَـٰسِقِينَ﴾ تعليلٌ لِرَدِّ إِنفاقِهِم.

﴿أَنَّـهُمْ كَفَرُواْ﴾ فاعلُ «مَنَعَ»، أَي: لمْ يَمنَعِ المُنافِقِينَ قَبولَ نَفَقاتِهِم إِلَّا كُفرُهُمْ ﴿بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ﴾، وقُرِئَ: ﴿تُقْبَلَ﴾ بالتَاءِ والياءِ[(٤)]، والإِعجابُ بالشَيءِ أَن تُسَرَّ بِهِ سرُورَ راضٍ به مُتَعَجِّبٍ من حُسنِهِ، والمعنىٰ: فلا تَسْتَحْسِنْ ماأُوتُوا مِـن زِيـنَةِ الدُّنيَا، فإِنَّ اللهَ أَعْطاهُمْ ذلكَ لِلعذابِ، بأَنْ عَرَّضَهُ للـغنائمِ والسَـبْي وَبَـلاهُم فـيهِ

---

(١) التوبة: ٨٠.

(٢) هو كثيّر بن عبدالرحمن بن الأسود الخزاعي، شاعر مشهور من أهل الحجاز، وصاحبته عزّة وإليها يُنسب، وكان عفيفاً، قال ابن قتيبة: وكان رافضيّاً، وقال لمّا حضرته الوفاة:

برئت الى الإله من ابن أروىٰ ومن دين الخوارج أجمعينا
ومن عمر برئت ومن عتيق غداة دعي أميرالمؤمنينا

راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة: ص ٣١٦ ـ ٣٢٩.

(٣) وهي من قصيدة يجيب فيها عزّة لمّا سمعها تسبّه حين أرغمها زوجها علىٰ ذلك، وهي من منتخبات قصائده، والتزم فيها مالا يلزم الشاعر، وذلك اللام قبل حرف الروى؛ اقتداراً في الكلام وقوة في الصناعة. راجع ديوان كثيّر عزّة: ص ٥٧ .

(٤) وبالياء قرأه حمزة والكسائي وزيد بن علي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣١٥، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٥٣ .

بالآفاتِ والمصائبِ، وَكَلَّفَهُم الإنفاقَ منه في أبوابِ الخيرِ ﴿وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ علىٰ رغمِ أُنوفِهم، وأذاقَهُم أنواعَ الكُلَفِ في جمعِ الأَموالِ وتَرْبِيَةِ الأَولادِ.

وَقولُه: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ مثلُ قولِه: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْماً﴾ [1] ومعناه: ٱلاِستدراجُ بالنِعَم، أَي: وَ﴿يُرِيدُ﴾ أَن يُديمَ عليهِم نِعْمَتَهُ إِلىٰ أَن يَمُوتُوا ﴿وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ مُشْتَغِلُونَ بالتَمَتُّعِ عن النَظَرِ للعاقبةِ.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَاهُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَ ٰتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّـمْ يُـعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآءَاتَىٰهُمُ ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللهُ سَيُؤْتِينَا ٱللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّآ إِلَى ٱللهِ رَ ٰغِبُونَ (٥٩)﴾

﴿لَمِنكُمْ﴾ أَي: مِن جملةِ المُسلِمِينَ ﴿يَـفْرَقُونَ﴾ يَـخَافُونَ القـتلَ والأَسـرَ فيَتَظَاهَرونَ بالإِسلامِ تَقِيَّةً. ﴿لَوْ يَجِدُونَ﴾ مكاناً يَلْجَؤونَ إِليهِ مُتَحَصِّنينَ بـهِ مـن رأسِ جبلٍ أَو قلعةٍ ﴿أَوْ مَغَـٰرَ ٰتٍ﴾ أَي: غِيرَاناً ﴿أَوْ مُدَّخَلاً﴾ وَهُـو: مُـفتعَلٌ مِـنَ الدُخولِ، وأَصلُهُ: «مُدتخَلاً» يُبدَلُ التَاءُ بعدَ الدَالِ دالاً، وقُرِئَ: «مَدْخَلاً» [2] أَي: موضِعَ دخولٍ يَأْوُونَ إِليه ونَفَقاً يَنْجَحِرُونَ فـيهِ ﴿لَـوَلَّوْاْ إِلَـيْهِ وَهُـمْ يَـجْمَحُونَ﴾ يُسرِعون إِسراعاً لايرُدُّهُم شيءٌ، مِنَ الفَرَسِ الجَمُوحِ.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ أَي: يَعِيبُكَ ﴿فِى﴾ قسمةِ ﴿ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ وَيَطْعُنُ عليكَ، ثُمَّ وَصَفَهُم بأَنَّ رِضاهُم وسُخْطَهُم لأَنـفُسِهم لا للـدِينِ، وَ ﴿إِذَا﴾ للـمفاجَأَةِ، أَي: فَـ﴿إِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ﴾ فاجَأُوا السُخْطَ.

---

(١) آل عمران: ١٧٨.

(٢) وهي قراءة الحسن وابن أبي إسحاق ومسلمة بن محارب وابن محيصن ويعقوب وابن كثير بخلاف عنه. راجع التبيان: ج ٥ ص ٢٤٠، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٥٥.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ﴾ جوابُ ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ، تقديرُه: وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ﴿مَآ﴾ أَعطاهم ﴿ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ من الغَنيمةِ والصَدَقةِ وطابَت به نُفوسُهم ﴿وَقَالُواْ﴾ مَعَ ذلك: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ سَيُعْطينا ﴿ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وإنْعامِهِ ﴿وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في أَن يُوَسِّعَ علينَا من فضلِهِ لـ﴿رَٰغِبُونَ﴾ لَكَانَ خيراً لَهُم.

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)﴾

﴿إِنَّمَا﴾ لقَصْرِ ﴿ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ علىٰ هذِهِ الأَصنافِ الثَمانِيَةِ، وأَنَّها مُخْتَصَّةٌ بها لَا تَتَجاوَزُها إِلىٰ غيرِهَا، ونحوُه: إِنَّمَا السَخاءُ لحاتِمٍ، أَي: ليس لغيرِهِ، ويُحتَمَلُ أَن تُصرَفَ إِلىٰ بعضِها، وعن حُذَيْفَةَ وٱبنِ عبَّاسٍ وغيرِهما من الصَّحابةِ أَنَّهم قالُوا: في أَيِّ صنفٍ منها وَضَعْتَها أَجْزَأَكَ[1]، وهُوَ مذهبُنا[2]، وَ «ٱلفقرَاءُ» هُمْ: المُتَعَفِّفُونَ ٱلَّذينَ لايَسْأَلُونَ ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ ٱلَّذينَ يَسْأَلُونَ، وقيلَ بالعكسِ[3]، والأَوَّلُ أَصَحُّ، وقيلَ: الفقيرُ: الَّذي لاشيءَ لهُ، والمِسكينُ: الَّذي له بُلغَةٌ من العيشِ لاتكفيهِ[4]، وقيلَ بالعكسِ[5]، ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ هم السُعاةُ الَّذينَ يَقْبِضُونَها

(١) أُنظر تفسير الطبري: ج ٦ ص ٤٠٤ ح ١٦٩٠٢ و ١٦٩٠٣ و ١٦٩٠٧، وتفسير القرطبي: ج ٨ ص ١٦٨ وزاد: وقال به من التابعين جماعة.

(٢) راجع الخلاف للشيخ الطوسي: ج ٢ ص ١٥٤ مسألة ١٩٦.

(٣) رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ. راجع التبيان: ج ٥ ص ٢٤٣.

(٤) وهو قول الشيخ الطوسي وابن البرّاج وابن حمزة وابن إدريس، وبه قال الأصمعي وأحمد ابن حنبل وأحد قولي الشافعي وأكثر أصحابه وأحمد بن عبيد وحكاه الطحاوي عن الكوفيّين. انظر الجمل والعقود للشيخ الطوسي: ص ١٠٣، ومختلف الشيعة للعلّامة: ج ٣ ص ١٩٨، وتفسير القرطبي: ج ٨ ص ١٦٩.

(٥) وهو قول الشيخ المفيد وابن الجنيد وسلّار، وبه قال أبو حنيفة ويونس بن حبيب وابن ←

﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أشرافٌ من العربِ كانَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله يتألّفهم على أن يُسلِمُوا فيَرْضَخُ(١) لهم شيئاً منها حِينَ كانَ في المُسلِمِينَ قِلّةٌ، وَ ﴿ٱلرِّقَابِ﴾ المكاتبُونَ يُعانُونَ منهَا في فكِّ رِقابِهم من الرقِّ، والعبيدُ إذا كانُوا في شِدّةٍ يُشتَرونَ ويُعتَقُونَ ويكونُ وَلاؤُهم لأربابِ الزكاةِ ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ وَهُمُ ٱلَّذِينَ رَكِبَتْهُمُ الدُّيونُ في غيرِ مَعصيةٍ ولا إسرافٍ ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو الجِهادُ وجميعُ مصالحِ المسلمينَ ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المسافِرُ المُنقَطَعُ به عن مالِهِ فهو فقيرٌ حيثُ هُوَ، غَنِيٌّ حيثُ مالُهُ ﴿فَرِيضَةً﴾ في معنَى المصدرِ المُؤكِّدِ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ مَعناهُ: فَرَضَ اللهُ الصدَقاتِ لَهُم، وإنَّما عَدَلَ عنِ «اللّامِ» إلىٰ «في» في الأربَعةِ الأخِيرةِ لِيَدُلَّ علىٰ أنَّهُم أحَقُّ بأن تُوضَعَ فيهِم الصَّدقاتُ مِمَّنْ سَبَقَ ذِكرُهُ، لأنَّ «في» للوعاءِ.

وإنَّما وَقعتِ الآيةُ في أثناءِ ذِكرِ المُنافِقينَ لتَدُلَّ بكَوْنِ هذهِ الأصنافِ مَصارفَ الصَّدَقاتِ خاصَّةً، علىٰ أنَّ أهلَ النِفاقِ ليسُوا مِن مُستَحِقِّيها، وأنَّهم بُعداءُ من مَصارِفِها، فما لَهُم ولِلتَكلُّمِ فيها ولِمَنْ قاسَمَها؟!

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ (٦٣)﴾

الأُذُنُ: الرَجلُ الَّذي يُصدِّقُ كلَّ ما يَسمَعُ ويَقبَلُ قولَ كلِّ أحَدٍ، سُمِّيَ بالعُضوِ

← السكّيت وابن قتيبة والقتبي. انظر المقنعة للشيخ المفيد: ص ٢٤١، ومختلف الشيعة للعلّامة: ج ٣ ص ١٩٨ عن ابن الجنيد، وتفسير القرطبي: ج ٨ ص ١٦٨.

(١) الرضخ: العطاء ليس بالكثير. (الصحاح: مادة رضخ).

الَّذِي هو آلةُ السَماعِ، كأَنَّ جُمْلَتَهُ أُذُنٌ سامِعةٌ كما سَمَّوُا الرَبيئَةَ[١] بالعَينِ، و ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾ كَقَوْلِك: رجلُ صدقٍ، تُريدُ الجَوْدَةَ والصَلاحَ، كَأَنَّه سُبحانَه قال: ﴿قُلْ﴾ نَعَمْ هُوَ أُذُنٌ ولكن نِعْمَ ٱلأُذُنُ، أو يُريدُ: هُوَ أُذُنٌ في الخيرِ وفيما يَجِبُ سَماعُهُ، وليس بأُذُنٍ في غيرِ ذٰلكَ، ويَدُلُّ عليه قِراءَةُ حمزةَ: «وَرَحْمَةٍ»[٢] بالجرِّ عطفاً عليه، أي: هُوَ أُذُنُ خَيْرٍ لكم وَرَحْمَةٍ لايَسْمَعُ غيرَهما ولايَقْبَلُهُ.

ثمَّ فَسَّرَ كَونَهُ أُذُنَ خيرٍ بأَنَّـه يُـصدِّقُ ﴿بِـاللهِ﴾ ويَـقْبَلُ مِـنَ ﴿ٱلْـمُؤْمِنِينَ﴾ ويُصَدِّقُهم فيما يُخْبِرُونَه بهِ، ولهذَا عُدِّيَ ٱلأَوَّلُ بالباءِ والثَاني باللامِ، كَما في قولِهِ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾[٣]، ﴿وَ﴾ هُوَ ﴿رَحْمَةٌ﴾ لِمَنْ آمَنَ ﴿مِنكُمْ﴾ أَي: أَظْـهَرَ ٱلإيمانَ أَيـُّها المُنافِقُونَ، حيثُ يَسْمَعُ منكُم ويَقْبَلُ إِيمانَكُم ولايَفْضَحُكُم مُراعـاةً لِما رَأى ٱللهُ سُبحانَهُ من المَصْلَحَةِ في الإبقاءِ عليكُم، فهو أُذُنٌ كَما قُلتم إِلَّا أَنـَّهُ أُذُنُ خيرٍ لكُم لا أُذُنُ سوءٍ، فَسَلَّمَ لَهُم قَولَهم فيهِ، إِلَّا أَنـَّهُ فَسَّرَ بما هوَ مدحٌ له وإن كانوا قَصَدُوا بِهِ المَذَمَّةَ، وأَنـَّه من أَهلِ سَلامةِ القلبِ.

ورُوِيَ: أَنَّ جماعةً ذمُّوه وبلَغَهُ ذلك، فقالَ بعضُهم: لاعليكُم، فـإِنَّما هـو أُذُنٌ سامعةٌ، يَسْمَعُ كلامَ المُبَلِّغِ ونحنُ نأْتيهِ فَنَعْتَذِرُ إِليه فَيَسْمَعُ عُذْرَنَا أَيضاً[٤].

وقُرِئَ: «أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ»[٥] وَهُوَ خبرُ مبتدأ محذوف، و «خَـيْرٌ» مـثلُهُ، أَي: هو أُذُنٌ، هو خيرٌ لَكُم، يعني: إِن كانَ كَما تَقُولونَ فَهُوَ خَيرٌ لكم؛ لأَنـَّه يَقْبَلُ عُذرَكُم

---

(١) ربأهم ولهم: صار ربيئة لهم أي طليعة، وطليعة الجيش: مـن يُـبعث ليـطّلع طِـلْعَ العـدوّ. (الصحاح: مادة ربأ).

(٢) انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع للقيسي: ج ١ ص ٥٠٣.

(٣) يوسف: ١٧.

(٤) رواه ابن عباس. راجع تفسيره: ص ١٦٠.

(٥) قرأه الحسن ومجاهد وزيد بن علي والأعشىٰ عن أبي بكـر عـن عـاصم. راجـع تـفسير القرطبي: ج ٨ ص ١٩٢، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٦٣.

ولا يُكافِئُكم على سُوءِ دُخْلَتِكم [١].

﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ الخِطابُ للمُسلمينَ، وكانَ المُنافِقُونَ يَتَكَلَّمونَ بالمَطاعِنِ ثُمَّ يأْتُونَهم فَيَعْتَذِرُونَ إليهم ويَحْلِفُونَ لِيَرْضَوا عنهم، فقيلَ لَهُم: ﴿إِن كُنتُمْ﴾ ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ كَما تَزْعُمُونَ فَأحَقُّ مَن أَرْضَيْتُمْ ﴿ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ بالطّاعةِ وَالمُوافَقَةِ، وإنَّما وَحَّدَ الضَميرَ لأَنَّه لاتَفاوُتَ بينَ رِضَا اللهِ ورسولِهِ، فهُما في حكمِ مُرْضىً واحدٍ، أَو: وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ وَرَسُولُهُ كذلك.

المُحادَّةُ: مُفاعَلَةٌ من الحَدِّ، أَي: المَنعِ ﴿فَأَنَّ لَهُ﴾ أَي: فحَقٌّ أَنَّ لَهُ ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾، ويَجوزُ أَن يَكونَ ﴿فَأَنَّ لَهُ﴾ مَعطوفاً علىٰ ﴿أَنَّهُ﴾ على أَنَّ جوابَ ﴿مَن﴾ محذوفٌ، والتَقديرُ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يَهْلِكْ ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّاتَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لَاتَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ (٦٦)﴾

كانُوا يَسْتَهْزِئونَ بالإسلامِ وأَهلِهِ وكانوا يَحْذَرونَ أَنْ يَفْضَحَهُمُ اللهُ بالوَحيِ فيهِمْ، والضَميرُ في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ و ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ للمُؤْمِنينَ، وفي ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ لِلمُنافِقِينَ، وصَحَّ ذلكَ لأَنَّ المَعنَى يَقُودُ إليه، ويَجوزُ أَن يَكونَ الضَميرُ في الكلِّ لِلمُنافِقينَ لأَنَّ السُورةَ إذا نَزَلَتْ في معناهُم فهي نازلةٌ عليهِم، والمَعنَى: أَنَّها تُذيعُ أَسْرارَهُمْ فَكأَنَّها تُخبِرُهُمْ بها، وقيلَ: معناهُ لِيَحْذَرِ ﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ على الأَمرِ [٢]، ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ﴾

---

(١) داخلة الرجل ودُخلته: باطن أمره. (الصحاح: مادة دخل).

(٢) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٢ ص ٤٥٩.

وَعيدٌ بلفظِ الأمرِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ أي: مُظْهِرٌ ﴿مَّا تَحْذَرُونَ﴾ إظهارَه مِن نِفاقِكُم.

وكانَ النَبيُّ ﷺ يَسيرُ مُنصَرَفَهُ مِن غَزْوَةِ تَبُوكَ وبينَ يدَيْهِ أَربعةُ نَفرٍ يَسِيرونَ ويَضْحَكُونَ ويَقولونَ: ٱنظُرُوا إِلىٰ هذَا الرَجلِ يُريدُ أَن يَفتَحَ قُصورَ الشَامِ وحُصونَه، هيهاتَ هيهاتَ، فأَخبَرَهُ جبَرْئيلُ عليه السلام بذلكَ، فقالَ ﷺ لعمَّارٍ: إِنَّ هٰؤُلاءِ يَستَهزِئونَ بي وبِالقرآنِ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ﴾: ﴿كُنَّا﴾ نَتحدَّثُ بحديثِ الرَكبِ، فَاتَّبَعَهم عَمَّارٌ وقالَ لَهُمْ: مِمَّ تَضْحَكون؟ قالوا: كُنَّا نَتَحَدَّثُ بحديثِ الرَكبِ، فقالَ عمَّارٌ: صَدَقَ ٱللهُ ورسولُهُ ٱحتَرَقتُمْ أَحرَقَكُمُ ٱللهُ، فَأَقبَلُوا إِلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ يَعتَذِرُونَ، فنزَلَتِ الآياتُ[(١)].

وقيلَ: نَزَلَتْ في ٱثْنَيْ عَشَرَ رجلاً وَقَفُوا على العَقَبَةِ لِيَفتِكُوا برسولِ اللهِ ﷺ، وقالَ بعضُهم لبعضٍ: إِنْ فَطَنَ نَقولُ: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾[(٢)].

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ لاتَشْتَغِلُوا بِاعْتِذاراتِكم الكاذبةِ فإِنَّها لاتَنفَعُكم بعدَ ظهورِ أَسرارِكُم ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ قد أَظْهَرْتُمْ كُفرَكُمْ ﴿بَعْدَ﴾ إِظهارِكُمُ الإِيمانَ ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ بإِحداثِهِمُ الإِيمانَ بعدَ النِفاقِ ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ مُصِرِّينَ على النِفاقِ، أَو: إِنْ نَعفُ عَنْ طَائفَةٍ منكُمْ لم يُؤْذُوا رسولَ ٱللهِ ﷺ ولم يستَهزِئوا بهِ نُعَذِّبْ طَائفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْذِينَ لِرسولِ ٱللهِ ﷺ مُستَهْزِئينَ، وقُرِئَ: «إِنْ يَعفُ عَنْ طَآئِفَةٍ يُعَذِّبْ طَآئِفَةً» على البِناءِ للفاعلِ[(٣)] وهو ٱللهُ عَزَّوجَلَّ.

﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي: ص ٢٠٧.

(٢) رواه العياشي في تفسيره: ج ٢ ص ٩٥ ح ٨٤ عن الباقر عليه السلام، وفي البحر المحيط: ج ٥ ص ٦٦ عن ابن كيسان وفيه: «جماعة» بدل «اثني عشر رجلاً».

(٣) قرأه عاصم الجحدري. راجع إعراب القرآن للنحّاس: ج ٢ ص ٢٢٦.

ٱلْفَـٰسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْـمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُـنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُـفَّارَ نَـارَ جَـهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلاً وَأَوْلَـٰداً فَـاسْتَمْتَعُوا۟ بِـخَلَـٰقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُـمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَـمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّـنَـٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) ﴾

﴿بَعْضُهُم مِّن﴾ جُمْلَةِ ﴿بَعْضٍ﴾ وبعضُهُم مُضافٌ إِلىٰ بعضٍ وهوَ تكذيبٌ لهُم فيما حلَفُوا: ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ [١]، وتحقيقٌ لقولِهِ: ﴿وَمَاهُم مِّنكُمْ﴾ [٢]، ثُمَّ وَصَفَهُم بما يَدلُّ على مُضادَّةِ حالِهِم لحالِ ٱلْمُؤْمنينَ بقولِهِ: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾ وَهو الكفرُ والمَعاصي ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ من: الإِيمانِ والطَّاعاتِ ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ شُحّاً بالخَيراتِ والصَّدَقاتِ والإِنفاقِ في سبيلِ ٱللهِ ﴿نَسُـوا۟ ٱللَّهَ﴾ أَغْـفَلُوا ذِكْـرَهُ ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ فَتَرَكَهُم عن رحمتِهِ وفضلِهِ ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ هُمُ ٱلْكَامِلُونَ فِي الفِسقِ الَّذي هُوَ التَمرُّدُ في الكُفرِ والاِنسلاخُ عن كلِّ خيرٍ. ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مُقَدِّراً لهم الخلودَ فيها ﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾ دَلالةٌ علىٰ عِظَمِ عذابِها، وأَنَّهُ لاشيءَ أَبلغُ منهُ، نَعوذُ باللهِ مِنها ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أَبْعَدَهُم مِن خَيرِه وأَهانَهُم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ سِوى الصَّلْي بالنارِ، دائمٌ كعذابِ النارِ، أَو: ﴿عَذَابٌ مُّـقِيمٌ﴾ مَـعهُم فـي العـاجِلِ لايَنفكُّونَ منهُ، وهو مايُقاسُونَه من تَعَبِ النِفاقِ ومايَخافُونَهُ أَبَداً من الفَضِيحةِ.

ومحلُّ الكافِ رَفعٌ تقديرُهُ: أَنْتم مِثلُ ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، أَو نَصبٌ تَقديرُهُ:

(١ و ٢) الآية ٥٦ المتقدّمة.

فَعَلْتُمْ مِثلَ فِعلِ ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وهُوَ أَنَّكُمُ اسْتَمْتَعْتُم وخُضْتُم كَمَا اسْتَمْتَعُوا وخاضُوا، وقولُهُ: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ﴾ تفسيرٌ لتشبيهِهِم بِهِم، وتمثيلٌ لفعلِهم بفعلِهم، والخَلَاقُ: النَصيبُ، وهُوَ ماخُلِقَ للإِنسانِ أَي: قُدِّرَ، كما قيلَ: له قِسمٌ ونَصيبٌ؛ لِأَنَّهُ قُسِمَ له ونُصِبَ أَي: أُثبِتَ ﴿وَخُضْتُمْ﴾ أَي: دَخَلْتُمْ في الباطِلِ واللَهوِ ﴿كَالَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ كالفَوجِ الَّذِي خاضُوا، أَو كالخَوضِ الَّذي خاضُوا، وعن ابنِ عبَّاسٍ: هٰؤُلاءِ بَنُو إِسرائيلَ شَبَّهَنا بهم، والَّذِي نفسِي بيدِهِ لَتَتَّبِعُنَّهُم حتَّىٰ لو دَخَلَ الرَجلُ منهم جُحرَ ضَبٍّ لَدخَلْتُمُوهُ[١].

﴿وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ﴾ قَوْمِ شُعَيْبٍ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ﴾ مدائن قَومِ لوطٍ أَهلَكَهَا اللّهُ بالخَسْفِ وقَلَّبَها عليهِم، من الإِفكِ وهو القَلبُ والصَّرفُ ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فما صَحَّ منهُ أَن يَظْلِمَهُم؛ لأَنَّهُ حكيمٌ لايَجوزُ أَن يَفعَلَ القبيحَ ويُعاقِبَ بغيرِ جُرمٍ ﴿وَلَـٰكِن﴾ ظَلَمُوا ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفرِ فَاسْتَحَقُّوا العِقابَ.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٧٢) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٧٣)﴾

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في مُقابَلَةِ قولِهِ: ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾[٢] أَي: يَلزَمُ

(١) حكاه عنه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٥ ص ٢٥٥.
(٢) الآية ٦٧ المتقدّمة.

كُلُّ واحدٍ منهُمْ مُوالاةُ بعضٍ ونصرتَه، وهُم يدٌ واحدةٌ علىٰ مَنْ سِواهُمْ ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ السينُ تُفِيدُ وجودَ الرَحمةِ لامَحالةَ وتُؤَكِّدُ الوعدَ، ونحوُهُ: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾ (١)، و ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ (٢)، ﴿عَزِيزٌ﴾ غالبٌ علىٰ كلِّ شَيْءٍ قادرٌ عليهِ، فهو يَقدِرُ على الثوابِ والعِقابِ ﴿حَكِيمٌ﴾ واضعٌ كلَّ شَيْءٍ مَوضِعَهُ.

﴿وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ يَطيبُ العيشُ فيها، بَناها ٱللهُ من اللُؤْلُؤِ والياقوتِ الأَحمرِ والزَبَرْجَدِ الأَخْضَرِ، و ﴿عَدْنٍ﴾ عَلَمٌ بدليلِ قولِهِ: ﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ (٣)، ويَدُلُّ عليهِ مارَواهُ أَبُو الدَرْداءِ (٤) عنِ النبيِّ ﷺ: «عَدْنٌ: دَارُ ٱللهِ ٱلَّتِي لَم تَرَها عينٌ وَلم تَخطُرْ علىٰ قلبِ بشرٍ، لايَسْكُنُها غيرُ ثَلاثةٍ: النَبِيُّونَ والصدِّيقُونَ والشُهَداءُ، يَقُولُ ٱللهُ عَزَّوجَلَّ: طُوبَىٰ لِمَنْ دَخَلَكِ» (٥)، وقيلَ: هي مدينةٌ في الجَنَّةِ (٦)، ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أَي: وشَيْءٌ مِن رضوانِ ٱللهِ ﴿أَكْبَرُ﴾ من ذلكَ كلِّهِ؛ لأَنَّ رضاه سببُ كلِّ سعادةٍ وموجِبُ كلِّ فوزٍ، وبه يُنالُ تعظيمُهُ وكَرامتُهُ، والكَرامةُ أَكبرُ أَصنافِ الثوابِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إِلىٰ ماوَعَدَ ٱللهُ أَو إِلى الرِضْوانِ، أَي: ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وَحدَهُ دونَ مايَعُدُّهُ الناسُ فوزاً.

﴿جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيفِ ﴿وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ بالحُجَّةِ.

الصادقُ عليه السلام: «جاهِدِ ٱلْكُفّارَ بالمُنافِقِينَ» وقال: «هل سَمِعْتُم أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَاتَلَ مُنافِقاً؟ إِنَّما كانَ يَتَأَلَّفُهُم» (٧).

---

(١) مريم: ٩٦.
(٢) النساء: ١٥٢.
(٣) مريم: ٦١.
(٤) هو عويمر بن زيد الأنصاري الخزرجي، وكان آخر أهل داره إسلاماً، شهد أُحد، وكان عالم أهل الشام ومقرئ أهل دمشق وقاضيهم، مات فيها سنة اثنتين وثلاثين. انظر المعارف لابن قتيبة: ص ٢٦٨.
(٥) أخرجه الطبري باسناده في تفسيره: ج ٦ ص ٤١٦ ح ١٦٩٥٨.
(٦) قاله الضحّاك كما في تفسير الطبري: ج ٦ ص ٤١٨ ح ١٦٩٧٢.
(٧) التبيان: ج ٥ ص ٢٦٠ وج ١٠ ص ٥٢ وفيه: هي قراءة أهل البيت عليهم السلام.

﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ ولاتُحابِّهم، وعَنِ الحَسَنِ: جِهادُ المُنافِقينَ إقامةُ الحُدودِ علَيهم[(١)].

﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَاقَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَيٰهُمُ ٱللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَالَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَانَصِيرٍ (٧٤)﴾

حلَفُوا ﴿بِاللهِ مَاقَالُواْ﴾ ماحُكِيَ عنهُم ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ وأَظهَرُوا كُفرَهُم بعدَ إظهارِهِمُ الإسلامَ ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ وهَمُّوا بالفَتكِ برسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، وذلك عندَ مَرْجِعِه مِنْ تَبوكَ، تواثَقَ اثنا عَشَر رجُلاً ـ وقيلَ: خمسةَ عشرَ ـ علىٰ أن يَدْفَعُوه عن راحِلَتِه إلى الوادي إذا تَسَنَّمَ العَقَبَةَ بالليلِ، فأَخَذَ عَمَّارُ بنُ ياسرٍ بخِطامِ ناقَتِهِ يَقُودُها، وحُذَيفَةُ خلفَها يَسُوقُها، فبَينَا هما كذلك إذْ سَمِعَ حُذَيفَةُ بوَقعِ أَخفافِ الإبلِ وبقَعْقَعَةِ السلاحِ، فَالْتَفتَ فإذا قومٌ مُتَلَثِّمونَ، فقالَ: إليكُمْ ياأَعداءَ اللهِ، وضَرَبَ وُجُوهَ رَواحِلِهِمْ حتَّى نَحَّاهم، فلمَّا نَزَلَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله قال لحُذَيفةَ: مَنْ عَرَفْتَ منهم؟ قال: لَمْ أَعرِفْ منهُم أَحداً، فقال صلى الله عليه وآله: إنَّهُ فُلانٌ وفُلانٌ، حتَّى عَدَّهُم كُلَّهمْ، فقالَ حُذَيفَةُ: أَلَا تَقْتُلُهُم يارسولَ اللهِ؟ فقالَ: أَكْرَهُ أن تَقُولَ العَرَبُ: لمَّا ظَفَرَ بأَصحابِه أَقْبَلَ يَقْتُلُهم[(٢)].

وعنِ الباقِرِ عليه السلام: «كانَتْ ثَمانيةٌ منهُم مِن قُرَيْشٍ وأَربعةٌ من العربِ»[(٣)].

﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ﴾ أَي: وما أَنْكَرُوا وماعابُوا ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَيٰهُمُ ٱللهُ وَرَسُولُهُ مِن

(١) تفسير الحسن البصري: ج ١ ص ٤٢٠.

(٢) رواها الزمخشري في كشافه: ج ٢ ص ٢٩١، والرازي في تفسيره: ج ١٦ ص ١٣٦.

(٣) أورده الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٥ ص ٢٦١.

فَضْلِهِ﴾ والمعنىٰ: أنّهُم جعَلُوا مَوضِعَ شُكرِ النعمَةِ كُفرانَها، وكانَ الواجبُ عليهم أن يُقابِلُوها بالشُكرِ.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَيـٰنَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (٧٥) فَلَمَّآ ءَاتَيـٰهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَاوَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ (٧٨)﴾

هوَ ثَعْلَبَةُ بنُ حاطِبٍ قالَ: يارَسولَ اللهِ، اُدعُ اللهَ أن يرزُقَني مالاً، فقالَ: يا ثَعْلَبَةُ قليلٌ تُؤَدِّي شكرَهُ خيرٌ من كثيرٍ لاتُطيقُه، فقالَ: والَّذي بَعثَكَ بالحَقِّ لَئن رَزَقَني مالاً لأُعْطِيَنَّ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ، فَدعَا لهُ، فاتَّخذَ غَنَماً، فَنَمَتْ كما يَنْمِي الدُودُ حتّىٰ ضاقَتْ بهَا المدينةُ، فنَزلَ وادياً وانقطَعَ عن الجماعةِ والجُمُعَةِ، وبَعَثَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله المُصدِّقَ[1] لِيأْخُذَ الصَدَقَةَ فأبَىٰ وبَخِلَ، فقال: وماهذِهِ إلَّا أُختُ الجِزْيَةِ، فقالَ: ياوَيحَ ثَعلبةَ ياوَيحَ ثَعلبةَ.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ عن الحَسَنِ: أنَّ الضميرَ للبُخلِ[2]، فأوْرَثَهم البُخلُ ﴿نِفَاقاً﴾ مُتمكِّناً ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾ لأنّه كان سبباً فيهِ وداعياً إليه، والظاهرُ أنَّ الضميرَ للهِ عزَّوجَلّ، أي: فَخذَلَهُم حتّى نافَقُوا وتَمكَّنَ النفاقُ في قلوبِهِم فلا يَنفكُّ عنها حتّىٰ يَموتُوا بسببِ إخلافِهم مَا وَعَدُوا اللهَ من التَصدُّقِ والصَلاحِ، وبكونِهم كاذبينَ، ومنه جُعِلَ خُلفُ المَوعِدِ ثُلثَ النفاقِ.

وعن عليٍّ عليه السلام: ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾: «ماأسَرُّوهُ من النفاقِ والعزمِ علىٰ

---

(١) المصدّق: الذي يأخذ صدقات الغنم. (الصحاح: مادة صدق).

(٢) تفسير الحسن البصري: ج ١ ص ٤٢٣.

إخلافِ ماوَعَدوهُ، وما يَتَناجَونَ بِهِ فيما بينَهُم من المَطاعنِ في الدينِ وتسميهِ الصَدَقَةِ جِزيةً»[١].

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ (٨٠)﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ في محلِّ النَصبِ أو الرفعِ على الذمِّ، وَٱلْمُطَّوِّعُ: الـمُتَبَرِّعُ، وأَصلُهُ: المُتَطَوِّعُ، أَي: يَعيبُونَ الْمُتَطَوِّعينَ بالصَدَقةِ ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويَطْعَنُونَ عليهم ﴿فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَ﴾ يَعِيبُونَ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا﴾ طَاقَتَهُم فَيَتَصَدَّقُونَ بالقليلِ ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ ويَسْتَهزِئُونَ ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ هوَ مثلُ قَولِهِ: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[٢] في أَنَّهُ خبرٌ غيرُ دُعاءٍ.

وقَولُهُ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أَمرٌ في معنَى الخبرِ، والمعنىٰ: لَنْ يَغفِرَ ٱللَّهُ لهُم ٱستَغْفَرْتَ لهُم أَم لم تَسْتَغْفِرْ لهُم، وفيه معنَى الشرطِ، و «السَبعونَ» جارٍ في كلامِهِم مَجْرَى الْمَثَلِ للتكثيرِ[٣]، قال عليٌّ عليه السلام:

لَأُصْبِحَنَّ الْعاصَ وٱبْنَ العاصِي ... سَبْعينَ أَلفاً عاقِدِي النواصِي[٤]

---

(١) أخرجه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٢٩٣.

(٢) البقرة: ١٥.

(٣) قال الشيخ الطوسي رحمه الله: وتعليق الاستغفار بالسبعين مرّة، والمراد به المبالغة لا العدد المخصوص، ويجري ذلك مجرىٰ قول القائل: لو قلت ألف مرّة ماقبلت، والمراد بذلك أنني لا أقبل منك، وكذلك الآية المراد بها نفي الغفران جملة. (التبيان: ج ٥ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨).

(٤) أنشده عليه السلام في عمرو بن العاص، يقول: لأُغازينّ الرجل العاصي عمراً بسبعين ألفاً من الخيل عاقدي نواصيها، وعقد الناصية من أمارات الشجاعة والاشاحة في القتال. راجع الديوان المنسوب له عليه السلام: ص ٥٨ وفيه: «لأُورِدَنَّ» بدل «لَأُصبِحَنَّ».

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَاتَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَداً وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ (٨٣)﴾

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ الَّذِينَ خَلَّفَهمُ النبيُّ صلى الله عليه وآله ولم يُخرِجْهُمْ معه إلىٰ تبوكَ، لمَّا ٱستَأذَنُوهُ في التأخُّرِ فأَذِنَ لهم ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ بِقُعودِهِم عن الغَزْوِ، و ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾: خَلفَه، يُقالُ: أَقامَ خِلافَ الحيِّ أي: بعدَهُم، وقيل: هو بمعنَى المُخالَفَةِ؛ لأَنَّهُم خالَفُوهُ حيثُ قَعَدُوا ونَهَضَ (١)، وٱنتَصَبَ بأَنَّه مفعولٌ له أَو حالٌ، أَي: قَعَدُوا لمُخالَفَةِ رسولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله أَو مُخالِفينَ له ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ هو تَعريضٌ بالمُؤْمِنِينَ وَبتَحَمُّلِهِمُ المَشاقَّ العظيمةَ لوجهِ ٱللهِ في بذلِ أَموالِهِم ونُفُوسِهِم ﴿وَقَالُواْ﴾ لهم أَو قال بعضُهُم لبعضٍ: لاتخرُجُوا إلى الغزْوِ ﴿فِى﴾ هذا ﴿ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً﴾ ٱستجهالٌ لهم، فإِنَّ من تَصَوَّنَ من مَشَقَّةِ ساعةٍ فوَقَعَ بذلك التَصَوُّنِ في مَشَقَّةِ الأَبَدِ كانَ أَجْهَلَ من كلِّ جاهلٍ. ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً﴾ معناه: فَسَيَضْحَكُونَ قَليلاً ويَبْكُونَ ﴿كَثِيراً جَزَآءً﴾ إلَّا أَنَّه أُخرِجَ علىٰ لفظِ الأَمرِ للدَلالةِ علىٰ أَنَّه حتمٌ واجبٌ لايَكونُ غيرُهُ.

وإنَّما قالَ: ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ لأَنَّ مِنهُم مَنْ تابَ ونَدِمَ على التخلُّفِ أَو ٱعتَذَرَ بعذرٍ صحيحٍ ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ إلىٰ غزوةٍ بعدَ غَزْوَةِ تبوكَ ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هي الخَرْجَةُ إلىٰ غزوةِ تبوكَ ﴿مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ مَرَّ تفسيرُهُ.

---

(١) قاله الأخفش في معاني القرآن: ج ٢ ص ٥٥٨.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ (٨٥)﴾

﴿مَاتَ﴾ صفةٌ لـ ﴿أَحَدٍ﴾، وإنَّما قيلَ بلفظِ الماضِي والمعنىٰ على الاِستقبالِ علىٰ تقديرِ الكونِ والوُجودِ؛ لأنَّهُ كائنٌ موجودٌ لامَحالةَ ﴿إِنَّهُمْ كَـفَرُوا۟﴾ تعليلٌ للنهي، وكانَ ﷺ يُصلِّي عليهِم ويُجرِيهِم علىٰ أَحكامِ المُسلِمينَ، وكانَ إذا صلَّىٰ علىٰ ميِّتٍ وَقَفَ علىٰ قبرِه ساعةً ويَدعُو له، فنُهِيَ عن الأَمرَيْنِ بسببِ كُفرِهِم باللهِ وموتِهِم علَى النفاقِ.

وأُعيدَ قولُه: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ لأَنَّ تَجدُّدَ النُـزولِ له شأْنٌ فـي تَـقريرِ مانَزَلَ لهُ وتَأْكيدِه لاسيَّما إِذا تَراخَىٰ مابينَ النُزولَيْنِ، ويَجوزُ أَن يكونَ النُزولانِ في فَرِيقَيْنِ من المُنافِقينَ.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ (٨٦) رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَـهُمْ لَا يَـفْقَهُونَ (٨٧) لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَـهُمُ ٱلْـخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَـهُمْ جَـنَّـٰتٍ تَـجْرِى مِـن تَـحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٨٩)﴾

يَجوزُ أَن يُرادَ السُورةُ بتَمامِها، وأَن يُرادَ بعضُها كما يَقَعُ القرآنُ والكتابُ على كلِّهِ وعلَىٰ بعضِهِ ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟﴾ هيَ «أَن» المُفسِّرَةُ ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ﴾ ذَوُو الفَضْلِ والسَعَةِ، من طالَ عليهِ طَولاً ﴿مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ الَّذِينَ لهم عذرٌ في التَخلُّفِ. ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ وهم النساءُ والصبيانُ والمَرضىٰ ﴿فَـهُمْ لَا يَـفْقَهُونَ﴾

ما في الجِهادِ مِنَ السّعادةِ والفَوزِ، وما فِي التَخلّفِ من الشَقاوةِ.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ﴾ إن تَخلَّفَ هؤلاءِ فقَد نَهَضَ إلى الغَزوِ مَعَ المُؤمنينَ، ونحوُه: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآية[١] ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتُ﴾ الجَنّةُ ونعيمُها، وقيل: منافعُ الدّارَيْنِ[٢].

﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٩٠)﴾

﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ المُقصِّرونَ، من عذَّرَ في الأمرِ: إذا تَوانىٰ ولم يَجدَّ فيهِ، وحقيقَتُه: أن يُوهِمَ أنَّ له عذراً فيما يَفعَلُ ولاعذرَ لَهُ، أو: «ٱلۡمُعۡتَذِرُونَ» بإدغامِ التاءِ فِي الذّالِ ونَقْلِ حركتِها إلى العينِ، ويَجوزُ في العربيّةِ كسرُ العينِ لالتقاءِ السّاكِنَيْنِ وَضمُّها لإتْباعِ المِيمِ ولكن لم يَثبُتْ بهما قِراءَةٌ، وهُمْ: الّذينَ يَعتَذِرونَ بالباطلِ، وقُرِئَ: «ٱلۡمُعۡذِرُونَ» بالتخفيفِ[٣] وهو الّذي يَجتَهِدُ في العُذرِ ويُبالِغُ فيه ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في ادِّعائِهمُ الإيمانَ، فلم يجيئُوا ولم يَعتذِرُوا، وَعَنْ أَبي عمرِو بنِ العلاءِ[٤]: كِلَا الفَريقَيْنِ كانَ مُسيئاً: جاءَ فريقٌ فَعَذَّرُوا وَجَنَحَ آخَرُونَ فقَعَدُوا[٥] ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ﴾ منَ الأعرابِ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ بالقتلِ في

(١) الأنعام: ٨٩.

(٢) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٣٠٠.

(٣) وهي قراءة ابن عبّاس وزيد بن علي والضحّاك ومجاهد والأعرج وأبي صالح وعيسىٰ بن هلال ويعقوب وقتيبة والكسائي في رواية. راجع تفسير القرطبي: ج ٨ ص ٢٢٤، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٨٤.

(٤) هو زبان بن العلاء، أبو عمرو التميمي المازني البصري، أحد القرّاء السبعة، وأحد أئمة اللغة والأدب، ولد بمكّة، ونشأ بالبصرة، ومات بالكوفة، سمع أنس، وقرأ على الحسن البصري والأعرج وأبي العالية ومجاهد وعاصم وابن كثير، توفّي سنة ١٥٥ هـ. انظر غاية النهاية لابن الجوزي: ج ١ ص ٢٨٨.

(٥) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٢ ص ٣١٨ ـ ٣١٩.

الدُّنيا وبالنَّارِ في الآخرةِ.

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣)﴾

﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾ الزَمْنَىٰ[1] وَالهَرْمَىٰ، و﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ الفقراءُ، والنُّصحُ ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: الإِيمانُ والطَّاعةُ في السرِّ والعَلانيَةِ ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أَي: المَعذورينَ النَّاصحينَ ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ ومعنىٰ لاسبيلَ عليهم: لاجُناحَ عليهم ولا طريقَ للعاتِبِ عليهم.

﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ﴾ حالٌ من الكافِ في ﴿أَتَوْكَ﴾ «وقد» مُضمَرٌ قبلَهُ، والمعنىٰ: وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ وَأَنتَ قائلٌ: لَا أَجِدُه ﴿تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾، و ﴿مِنَ﴾ للبيانِ، والجارُّ والمجرورُ في محلِّ النصبِ على التَمييزِ، أَي: تَفِيضُ دمعاً، وهو أَبلغُ من قولِكَ: يَفيضُ دَمعُها؛ لأَنَّ العينَ جُعِلَت كأَنَّها كُلَّها دمعٌ فائضٌ ﴿أَلَّا يَجِدُوا۟﴾ أَي: لأَن لَّايَجِدُوا، ومحلُّه نصبٌ لأَنَّه مفعولٌ له وناصِبُهُ المفعولُ له الَّذي هو ﴿حَزَنًا﴾. و﴿رَضُوا۟﴾ استئنافٌ، كأَنَّهُ قيلَ: مابالُهُمُ اسْتَأْذَنُوا ﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ فقيل: رَضُوا بالدَناءَةِ والانتظامِ في جملةِ ﴿ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: أَنَّ السَبَبَ في اسْتئذانِهِم رضَاهُم بالدَناءَةِ وخِذْلانُ ٱللهِ إِيَّاهُم.

---

(١) زَمِنَ الشخص زمناً وزمانةً: إذا مرض مرضاً يدوم زماناً طويلاً. (المصباح المنير: مادة زمن).

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّاتَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَايَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ (٩٦)﴾

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ عِلَّةٌ لِلنهي عنِ الاِعتذارِ؛ لأَنَّ غرضَ المُعتَذِرِ أَن يُصَدَّقَ فيما يَعْتَذِرُ بهِ، فإذا عَلِمَ أَنَّه مُكَذَّبٌ فينبَغِي أَن يَتْرُكَ الاِعتذارَ، وقولُه: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ علَّةٌ لانتفاءِ تصديقِهِم؛ لأَنَّ اللهَ سبحانَه إذا أَعْلَمَ بأَخبارِهم وأحوالِهم وأسرارِهِم لم يَسْتَقِمْ تَصديقُهم في مَعاذِيرِهم ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ أَتَتُوبونَ أم تثبتون علىٰ كُفرِكم؟ ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ إِلَيهِ وهو ﴿عَـٰلِمِ﴾ كُلِّ غيبٍ وشهادةٍ وسرٍّ وعَلَنٍ، فيُجازيكُم علىٰ حَسَبِ ذلك.

﴿لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ لِتَصْفَحُوا عن جُرمِهم ولاتُوَبِّخُوهم ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ فأَعطُوهم طَلِبَتَهم ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ تعليلٌ لترك مُعاتَبَتِهم، والمرادُ: أَنَّ العِتابَ لايَنْجَعُ فيهِم ولايُصْلِحُهم، إِنَّما يُعاتَبُ الأَديمُ ذو البَشَرَةِ، ويُوَبَّخُ المُؤْمِنُ على الزلَّةِ لِيُطَهِّرَه التوبيخُ بالحَمْلِ على التوبةِ، وهؤلاءِ أَرجاسٌ لاسبيلَ إِلىٰ تطهيرِهِم.

﴿لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ﴾ أَي: غَرضُهُم في الحَلْفِ طَلَبُ رضاكم لِيَنْفَعَهُم ذلك في دنياهُم، ولايَنْفَعُهُم رِضاكم إذا كانَ ٱللَّهُ ساخِطاً عليهِم.

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَايُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨)

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللهُ فِى رَحْمَتِهِ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩)﴾

﴿الأَعْرَابُ﴾ أَهلُ البَدْوِ ﴿أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً﴾ مِن أَهلِ الحَضَرِ لِقَسوَةِ قُلوبِهِم وجَفائِهِم، ونُشُوئِهِم في بُعدٍ من مُشاهَدَةِ العلماءِ وسَماعِ التَنزِيلِ ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللهُ﴾ من الشرائعِ والأَحكامِ ﴿وَٱللهُ عَلِيمٌ﴾ بحالِ أَهلِ الوَبَرِ وَالمَدَرِ ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يَحكُمُ به عَليهِم.

﴿مَغْرَماً﴾ أَي: غَرامَةً وخُسراناً، فلا يُنْفِقُ إِلَّا تَقِيَّةً من أَهلِ الإِسلامِ وَرِئَاءً، لا لِوَجهِ اللهِ ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ﴾ دَوائرَ الزَمانِ وحوادثَ الأَيَّامِ، ليُذْهِبَ غَلَبَتَكم عليه فَيَتَخَلَّصَ من إِعطاءِ الصَدَقَةِ ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ دعاءٌ مُعترضٌ، وقُرِئَ: «السُّوءِ» بالضمِّ[١] وهو العذابُ، و ﴿ٱلسَّوْءِ﴾ بالفتحِ ذمٌّ للدائرةِ، كما يُقالُ: رَجلُ سَوءٍ، ونقيضُهُ رَجلُ صِدقٍ، قال:

وكنتَ كذِئبِ السَوءِ لمَّا رَأَى دَماً   بِصاحِبِهِ يوماً أَحالَ على الدَّمِ[٢]

﴿وَٱللهُ سَمِيعٌ﴾ لِأَقْوالِهِم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأَحوالِهِم.

﴿قُرُبَٰتٍ﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ﴿يَتَّخِذُ﴾ والمعنىٰ: أَنَّ ما يُنْفِقُهُ سببٌ لحصولِ القُرُباتِ ﴿عِندَ ٱللهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾، لأَنَّ الرَسولَ كانَ يَدعُو للمُتَصَدِّقينَ بالخيرِ والبَرَكَةِ وَيستَغْفِرُ لهم، كقولِه: «ٱللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبي أَوفىٰ»[٣] لَمَّا أَتاهُ أَبو أَوفىٰ بصَدَقتِهِ،

---

(١) وهي قراءة شبل عن ابن كثير وأبي عمرو وابن محيصن. راجع التبيان: ج ٥ ص ٢٨٤، وكتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣١٦.

(٢) قائله الفرزدق، وهو يذمّ صاحباً له ويصفه في الجفاء بأنّه كذئب السوء. راجع ديوان الفرزدق: ج ٢ ص ٣٦٦.

(٣) أنظر صحيح البخاري: ج ٢ ص ١٥٩ وج ٨ ص ٩٠ و٩٦.

فلمَّا كانَ مايُنفِقُ سَبباً لذلكَ قيل: ﴿يَتَّخِذُ مَايُنفِقُ قُرُبَٰتٍ... وَصَلَوَٰتِ﴾، ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ هذا شَهادةٌ من اللهِ للمُتَصدِّقِ بصِحَّةِ مَااعْتَقَدَه من كونِ نَفقَتِه قُربات وصلوات، وتصديقٌ لرَجائهِ علىٰ طريقِ الاِستئنافِ مع حرفَي التَنبيهِ والتَحقيقِ المُؤذِنَيْنِ بثَباتِ الأَمرِ وتحقُّقِهِ، و ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ﴾ كذلكَ لِما في السينِ من تَحقُّقِ الوَعدِ، وقُرِئَ: «قُرُبَةٌ» بضَمِّ الرَّاءِ[١].

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٠٠)﴾

﴿ٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ هُمُ الَّذينَ صَلَّوْا إِلى القِبلَتَيْنِ، وقيل: الَّذينَ شَهِدُوا بَدراً[٢]، ﴿وَ﴾ مِنَ ﴿ٱلْأَنصَارِ﴾ أَهلِ بَيْعَةِ العَقَبَةِ الأُولىٰ وكانُوا اْثنَيْ عَشَرَ رجلاً، وأَهلِ العَقَبَةِ الثانيةِ وكانُوا سَبعِينَ رجلاً، والَّذينَ آمنوا حينَ قَدِمَ عليهم مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ فَعَلَّمَهُمُ القُرآنَ، وقُرِئَ: «ٱلْأَنصَارُ» بالرَفعِ[٣] عطفاً علىٰ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، وارْتَفعَ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ بِالابتداءِ وخبرُهُ ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾، وقَرَأَ اْبنُ كَثيرٍ[٤]: «مِنْ تَحْتِهَا»[٥].

---

(١) وهي قراءة نافع برواية ورش وإسماعيل والمفضّل. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣١٧.

(٢) قاله عطاء بن أبي رباح كما في تفسير الماوردي: ج ٢ ص ٣٩٥.

(٣) قرأه عمر بن الخطاب والحسن وقتادة ويعقوب وعيسى الكوفي وسلام وسعيد بن ابي سعيد وطلحة. راجع التبيان: ج ٥ ص ٢٨٧، وإعراب القرآن للنحّاس: ج ٢ ص ٢٣٢، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٩٢.

(٤) هو أبو بكر عبدالله بن كثير، أحد القرّاء السبعة، ولد عام ٤٥ هـ في مكّة، وينتسب الى أُسرة فارسية هاجرت الى اليمن، ولقّب بالداري أو الداراني لأنّه كان يعمل عطّاراً، وقد كان قاضي الجماعة بمكّة، توفّي بها عام ١٢٠ هـ. انظر دائرة المعارف الإسلامية: ج ١ ص ٢٦٩.

(٥) حكاها عنه الشيخ في التبيان: ج ٥ ص ٢٨٧.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَاتَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٠٢)

وَمِنْ جملةِ مَنْ حَوْلَ بَلْدَتِكُمْ وهي المدينةُ ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الَّذينَ يَسْكُنُونَ البَدْوَ ﴿مُنَـٰفِقُونَ﴾ وهم جُهَيْنَةُ وأَسْلَمُ وغِفارٌ وأَشْجَعُ وَمُزَيْنَةُ، كانوا نازِلينَ حولَ المدينةِ ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ عَطفٌ علَىٰ خبرِ المبتدأ الَّذي هو ﴿مِمَّنْ حَوْلَكُم﴾، ويَجُوزُ أَن يَكونَ جملةً معطوفةً على المبتدأ والخبرِ إذا قَدَّرْتَ: وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ قَوْمٌ ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ علىٰ أَن يَكونَ ﴿مَرَدُواْ﴾ صفةَ موصوفٍ محذوفٍ كقولِه:

أَنَا ٱبنُ جَلَا وطَلَّاعِ الثنايا (١)

أَي: ابنُ رجلٍ وَضَحَ أَمرُهُ، وَ ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ تَمَهَّرُوا فيه، من قولِهِم: مَرَدَ فلانٌ على عملِهِ، ومَرَدَ عليه: إِذَا دَرِبَ به حتَّىٰ لَانَ عليه وَمَهَر فيه، ودَلَّ علىٰ مَهارَتِهم فيه بقولِه: ﴿لَاتَعْلَمُهُمْ﴾ أَي: يَخفَونَ عليكَ معَ فِطْنَتِكَ وصدقِ فراستِكَ لفَرطِ تَنوُّقِهم (٢) في تحامِي (٣) ما يُشكِّكُ في أَمرِهم، ثمَّ قالَ: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ أَي: لايَعلَمُهُم إلَّا اللهُ المطَّلِعُ على البواطِنِ، لأَنَّهم يُبْطِنُونَ الكفرَ في ضَمائِرِهِمْ ويُظْهِرُونَ لك الإِيمانَ وظاهِرَ الإِخلَاصِ الَّذي لاتَشُكُّ معه في أَمرِهِمْ ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ هما: ضَربُ الملائكةِ وُجُوهَهُم وأَدبارَهُم عندَ قبضِ أَرواحِهِمْ، وعذابُ القَبرِ

(١) وعجزه: متىٰ أضع العمامة تعرفوني. والبيت منسوب تارة لسحيم بن وثيل الرياحي وكان عبداً حبشياً، وتارة للمثقب العبدي، وأُخرىٰ للعرجي. وهو من باب المفاخرة بالشجاعة والبطولة في الصولات في ميدان القتال، وفيه استعارة على سبيل التصريح. راجع شرح شواهد الكشّاف للأفندي: ص ٧٦.

(٢) تنوّق في الأمر: تجوّد وبالغ فيه. (القاموس المحيط: مادة نوق).

(٣) تحاماه الناس: أي توقّوه واجتنبوه. (الصحاح: مادة حمى).

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ في النَار.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ ولم يَعْتَذِرُوا بالمَعاذيرِ الكاذبةِ كغيرِهِمْ، وهُمْ ثلاثةُ نَفَرٍ من الأَنصارِ: أَبو لُبابَةَ بنُ عبدِالمُـنذِرِ، وأَوسُ بـنُ حِـذامٍ، وثَـعْلَبَةُ بـنُ وديعةَ[1] ﴿خَلَطُواْ عَمَلاً صَٰلِحاً وَءَاخَرَ سَيِّئاً﴾ فـيه دَلَالةٌ عـلى بُـطلانِ القـولِ بالإِحباطِ لأَنَّـه لو كانَ أَحدُ العَمَلَيْنِ مُحْبَطاً لم يكُنْ لقولِه: ﴿خَلَطُواْ﴾ معنىً؛ لأَنَّ الخَلْطَ يُسْتَعْمَلُ في الجمعِ مع الاِمتزاجِ كخَلْطِ الماءِ واللَّبَنِ، وبغيرِ امتزاجٍ كـخَلْطِ الدَنانيرِ والدَراهِمِ ﴿وَءَاخَرَ﴾ أَي: وعَمَلاً آخَرَ.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّـيهِم بِـهَا وَصَـلِّ عَـلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِـيمُ (١٠٤) وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾

﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ صفةٌ لِـ﴿صَدَقَةً﴾، والتَاءُ فيهِ للخِطابِ أَو للتَأْنيثِ، أَي: ﴿صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ أَنت ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ فَـيَكُونُ كِـلَا الفِـعلَيْنِ مُسـنَداً إِلَـى النَـبيِّ صلى الله عليه وآله، أَو ﴿صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ تلكَ الصَدَقَةُ ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ أَنتَ ﴿بِـهَا﴾ أَي: تَـنْسِبُهُمْ إِلى الزَكاةِ، والتَزكيةُ: مُبالَغَةٌ في التَطهيرِ وزيادةٌ فيه، أَو بمعنى الإِنماءِ والبَرَكَةِ في المالِ ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: وتَرَحَّمْ عَلَيْهِمْ بالدُعاءِ لَهُمْ بقبولِ صَدَقاتِهِم ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ إِنَّ دَعَواتِك يَسْكُنُونَ إِليها وتَطْمَئنُّ قلوبُهُم بها ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ يَسْمَعُ

---

(١) قال الشيخ الطوسي: روي عن ابن عبّاس أنّه قال: نزلت هذه الآية في عشرة أنفس تخلّفوا عن غزوة تبوك فيهم أبو لبابة، فربط سبعة منهم أنفسهم الى سواري المسجد الى أن قبلت توبتهم، وقيل: كانوا سبعة منهم أبو لبابة، وقال أبو جعفر عليه السلام: نزلت في أبي لبابة، ولم يذكر غيره، وبه قال مجاهد والزهري وأكثر المفسّرين. انظر التبيان: ج ٥ ص ٢٩٠.

دعاءَكَ لَهُمْ ﴿عَلِيمٌ﴾ يَعْلَمُ مايَكونُ مِنهُم، وقُرِئَ: ﴿صَلَوٰتَكَ﴾ على التَوحيدِ هنا وفي هُودٍ[1].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ إذا صَحَّتْ ﴿وَ﴾ يقبَلُ ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ إذا صَدَرَتْ عن خُلوصِ النيَّةِ، و ﴿هُوَ﴾ للتخصيصِ والتأْكيدِ، وَ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ مِن شأْنِهِ قبولُ توبةِ التائبينَ. ﴿وَقُلِ﴾ لهؤُلاءِ التائبينَ: ﴿ٱعْمَلُواْ﴾ فإنَّ ﴿عَمَلَكُمْ﴾ لايَخفَىٰ على ٱللهِ ولا علىٰ رسولِهِ ولا على المُؤْمِنينَ، خيراً كانَ أَو شرّاً.

ورَوَىٰ أَصحابنا: أَنَّ أَعمالَ الأُمَّةِ تُعْرَضُ على النبيِّ ﷺ في كُلِّ ٱثنَيْنِ وخَميسٍ فيَعْرِفُها، وكذلك تُعْرَضُ على الأَئمَّةِ القائمينَ مقامَهُ وهُم المَعْنِيُّونَ بقولِه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[2].

﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ سَتُرْجَعُونَ ﴿إِلَىٰ﴾ اللهِ الّذي يَعْلَمُ السرَّ والعَلانِيَةَ ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ بأَعمالِكُم ويُجازِيكُم عليها.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)﴾

قُرِئَ: ﴿مُرْجَوْنَ﴾ و «مُرْجَؤُونَ»[3] من أَرْجَيْتُهُ وأَرْجَأْتُهُ: إذا أَخَّرْتَهُ، أَي: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ من المُتَخَلِّفينَ موقوفٌ أَمرُهُم: ﴿إِمَّا﴾ أَن ﴿يُعَذِّبُهُمْ﴾ ٱللهُ إِنْ بَقُوا على الإِصرارِ ولم يَتُوبُوا، ﴿وَإِمَّا﴾ أَن ﴿يَتُوب عَلَيْهِمْ﴾ إِن تابُوا، وهم ثَلاثةٌ: كَعبُ ابنُ مالكٍ وهِلالُ بنُ أُمَيَّةَ ومُرارةُ بنُ الرَّبيعِ، أَمَرَ رسولُ ٱللهِ ﷺ أَصحَابَهُ أَن

(١) الآية: ٨٧ ويظهر أنّ القراءة المعتمدة لدى المصنّف هنا على الجمع تبعاً للزمخشري.

(٢) راجع بصائر الدرجات للصفّار: ص ٤٢٤ باب ٤ و٥ و٦، والكافي: ج ١ ص ٢١٩ باب عرض الأعمال على النبيّ ﷺ والأئمّة عليهم السلام.

(٣) قرأه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم. راجع الكشف عن وجوه القراءات للقيسي: ج ١ ص ٥٠٦.

لا يُكلِّموهم ففعَلُوا ذٰلك، ثمَّ تابَ ٱللهُ عليهم بعدَ خمسينَ يوماً، وتَصَدَّقَ كعبٌ بثُلثِ مالِهِ شكراً للهِ علىٰ توبتِه.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ (١٠٧) لَاتَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللهُ لَايَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٠٩) لَايَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾

قَرأَ أهلُ المدينةِ والشام: «ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا» بغيرِ واوٍ(١)، وكذلِكَ هو في مَصاحِفِهم(٢) لأنَّها قصَّةٌ برأسِها.

رُوِيَ: أنَّ بني عَمرِو بنِ عَوْفٍ(٣) لمَّا بَنَوْا مسجدَ قُباءَ وصلَّى فيه رسولُ ٱللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَسَدَتْهم إخوَتُهم بَنُو غَنمِ بنِ عَوْفٍ(٤) وقالوا: نَبْني مسجداً نُصلِّي فيهِ ولانَحضُرُ جماعةَ محمَّدٍ، فَبَنَوْا مسجداً إلىٰ جنبِ مسجدِ قُباءَ، وقالوا لرسولِ ٱللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وهو يَتجَهَّزُ إلىٰ تبوكَ: إنَّا نُحِبُّ أن تأتِيَنا فَتُصلِّي لنا فيه، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «إنِّي علىٰ جَناحِ سفرٍ»، ولمَّا ٱنصَرَفَ من تَبُوكَ نَزَلَتْ(٥)، فأَرْسَلَ مَنْ هَدَمَ المسجدَ وأَحْرَقَهُ، وأَمَرَ أن يُتَّخَذَ مكانَهُ كُناسةٌ تُلقَىٰ فيها الجِيَفُ والقُمامةُ(٦).

---

(١) انظر التبيان: ج ٥ ص ٢٩٧. (٢) انظر الكشّاف: ج ٢ ص ٣٠٩.
(٣) هم بطن من الأوس من الأزد، من القحطانية. (انظر معجم قبائل العرب: ج ٢ ص ٨٣٤).
(٤) وهم بطن من الخزرج من الأزد، من القحطانية. (انظر المصدر السابق: ج ٣ ص ٨٩٤).
(٥) أي نزلت هذه الآية. (٦) رواها ابن كثير في تفسيره: ج ٢ ص ٣٧١.

﴿ضِرَاراً﴾ مُضارَّةً لإخوانِهم: أَصحابِ مسجدِ قُباءَ، مُعازَّةً(١) ﴿وَكُفْراً﴾ وتقويةً للنفاقِ ﴿وَتَفْرِيقاً بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأَنَّهُم كانوا يُصَلُّون مُجتَمِعِينَ في مسجدِ قُباءَ فأَرَادُوا أَن يَتَفرَّقوا عنه وتَختَلِفَ كلمتُهم ﴿وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ أَي: وإِعدَاداً لأَجلِ مَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وهو أَبو عامرٍ الرَّاهبُ(٢)، وكان قد تَرَهَّبَ في الجاهليَّةِ ولَبِسَ المُسُوحَ، فلمَّا قدِمَ النَّبيُّ المدينةَ حَسَدَهُ وحزَّب عليه الأَحزابَ، ثمَّ هَرَبَ بعدَ فتحِ مكَّةَ وخَرَجَ إِلى الرُّومِ وتَنَصَّرَ، وهو أَبو «حَنْظَلَةَ» غسيلِ الملائِكةِ(٣)، قُتِلَ يومَ أُحُدٍ وكان جُنُباً فغَسَلَتْهُ الملائكةُ، وكان هؤُلاءِ يَتَوَقَّعونَ رجوعَ أَبي عامرٍ إِليهم، وأَعَدُّوا هذا المسجدَ له لِيُصلِّيَ فيه ويَظْهَرَ علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ، وَيتَعلَّقُ ﴿مِن قَبْلُ﴾ بـ ﴿ٱتَّخَذُوا﴾ أَي: ٱتَّخَذُوا مَسْجِداً مِنْ قَبلِ أَن يُنافِقَ هؤُلاءِ بالتَخلُّفِ، أَو يَتَعلَّقُ بـ ﴿حَارَبَ﴾ أَي: لأَجلِ مَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبلِ أَن يَتَّخِذُوا الْمَسْجِدَ ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ يعني هؤُلاءِ المنافقين: ما ﴿أَرَدْنَآ إِلَّا﴾ الفِعْلَةَ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أَو الإِرادةَ ٱلْحُسْنَىٰ وهي: الصلاةُ وذكرُ اللهِ والتوسِعَةُ على المُصلِّينَ.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾ أَي: لاتُصَلِّ فِيهِ أَبَداً، يُقالُ: فلانٌ يَقُومُ بالليلِ أَي: يُصلِّي ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ هو مسجدُ قُباءَ أَسَّسَهُ رسولُ اللهِ ﷺ وصَلَّىٰ فيهِ أَيَّامَ مُقامِهِ بقُبَاءَ، وقيل: هو مسجدُ رسولِ اللهِ ﷺ بالمدينةِ(٤) ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ من أَيّامِ وُجُودِهِ ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ أَي: أَولَىٰ بأَن تُصلِّيَ فيه ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّو

(١) عازّه معازّةً: إِذا عارضه في العزّة. (لسان العرب: مادة عزز).

(٢) هو أبو عامر عمرو بن صيفي الراهب الذي كان منافقاً ومخالفاً لرسول الله ﷺ، وكان رأس المنافقين الذين أرادوا أن يلقوا النبي ﷺ من الثنيّة في غزوة تبوك، وله بُني مسجد ضرار، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة. انظر الاستيعاب: ج ١ ص ٣٨٠.

(٣) هو حنظلة بن أبي عامر المعروف بغسيل الملائكة، قُتل يوم أُحد شهيداً، قتله أبو سفيان بن حرب وقال: حنظلة بحنظلة، يعني بابنه حنظلة المقتول ببدر. انظر الاستيعاب: ج ١ ص ٣٨١.

(٤) قاله ابن عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري كما في تفسير الماوردي: ج ٢ ص ٤٠٢.

أن ﴿يَتَطَهَّرُواْ﴾ رُوِيَ: أَنَّ النبيَّ ﷺ قالَ لهُم: إِنَّ ٱللهَ عزَّوجلَّ قد أَثْنَىٰ عليكم فماذا تَفْعَلُونَ في طُهُورِكُم؟ قالوا: نَغْسِلُ أَثَرَ الغائطِ، فقال: أَنْزَلَ ٱللهُ فيكم: ﴿وَٱللهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [١] أي: المُتَطَهِّرِينَ، ومَحَبَّتُهم للتطهُّرِ: أَنَّهم يُؤْثِرُونَهُ ويَحرِصونَ عليهِ، ومَحَبَّةُ اللهِ إِيَّاهُم: أَنَّه يَرْضَىٰ عنهم ويُحسِنُ إليهم كما يَفْعَلُ المُحِبُّ بمَحبُوبِهِ.

وقُرِئَ: ﴿أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُ﴾ و «أُسِّسَ بُنْيانُهُ» [٢]، وفي الشواذِّ: «أُسُسُ بُـنْيانِهِ» على الإضافةِ [٣]، وهو جمعُ أَساسٍ، والمعنىٰ: أفمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَ دينِهِ ﴿عَلَىٰ﴾ قاعدةٍ مُحكَمَةٍ وهي الحقُّ الَّذي هو ﴿تَقْوَىٰ ... ٱللهِ﴾ وَرِضوانُهُ ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ﴾ أَسَّسَهُ ﴿عَلَىٰ﴾ قاعدةٍ هي أَضْعَفُ القواعدِ وأَقَلُّها بقاءً وهو الباطلُ والنفاقُ الَّذي مَثَلُهُ مَثَلُ ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ في قلَّةِ الثَباتِ، والشَفَا: الشَفيرُ، وجُرُفُ الوَادِي: جانِبُهُ الَّذي يَتَحَفَّرُ أَصلُهُ بالماءِ وتَجرُفُه السُيولُ، والهارُ: الهائرُ الَّذي أَشفَىٰ على السُقوطِ والتَهدّمِ، وَوزنُهُ «فَعْلٌ» قُصِّرَ عن هائرٍ كخلفٍ عن خالفٍ، ونظيرُهُ: شاكٌ وصاتٌ من شائكٍ وصائتٍ، وأَلِفهُ ليسَتْ بأَلِفِ فاعلٍ، وأَصلُه هَورٌ وشَوكٌ وصَوتٌ، ولمَّا جُعِلَ الجُرُفُ الهارُ مجازاً عنِ الباطِلِ قيلَ: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ والمعنىٰ: فَهَوىٰ بِهِ الباطلُ في نَارِ جَهَنَّمَ، فكأَنَّ المُبْطِلَ أَسَّسَ بُنياناً علىٰ شَفيرِ جَـهَنَّمَ فـطاحَ بـه إِلىٰ قعرِها. ﴿رِيبَةً﴾ أَي: شكّاً في الدينِ ونِفاقاً، والمعنىٰ: ﴿لَا يَزَالُ﴾ هَدْمُ ﴿بُـنْيَـٰنهم ٱلَّذِى﴾ بنوه سببَ شكٍّ ونِفاقٍ ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾ لايَضمَحِلُّ أَثَرُه ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ﴾ أَي: تَتَقطَّعَ ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ قِطَعاً وتَتَفرَّقَ أَجزاءً، فحينَئذٍ يَسْلُونَ عنه، والريـبةُ بـاقيةٌ فـيها مادامَتْ سالِمةً، وقُرِئَ: ﴿تَقْطَعَ﴾ بالتخفيفِ [٤] والتشديدِ، ويَجوزُ أَن يُرادَ حقيقةً

(١) التبيان للطوسي: ج ٥ ص ٣٠٠، مستدرك الحاكم: ج ١ ص ١٥٥.
(٢) وهي قراءة نافع وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣١٨.
(٣) قرأه نصر بن عاصم. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٥٩.
(٤) قرأها جابر ونصر على ماحكاه عنهما ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ٦٠.

تَقْطِيعُها بقتلِهم أَو في النارِ، وقُرِئَ: «إِلى أَنْ»[١]، ورُوِيَ ذلك عن الصادقِ عليه السلام[٢]، وفي قِراءَةِ عبدِ اللهِ: «وَلَوْ قُطِّعَتْ قُلُوبُهُمْ»[٣]، وقيلَ: معناه: إلاَّ أن يَتُوبُوا تَوْبَةً تَتَقَطَّعُ بِها قلوبُهم نَدَماً علىٰ تَفْريطِهم[٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١١١) ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾

عَبَّرَ سبحانَه عن إثابتِهم بالجَنَّةِ علىٰ بذلِهم ﴿أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ في سبيلِهِ: بالاشتراءِ، وجَعَلَ الثوابَ ثَمَناً وأَعمالَهُمُ الحَسَنَةَ مُثْمَناً تمثيلاً، ورُوِيَ: أَنَّه تاجَرَهُم فأَغْلَىٰ لهم الثمنَ[٥].

وعن الصادقِ عليه السلام: «لَيسَ لأَبدانِكُم ثمنٌ إلَّا الجَنَّةُ، فلَا تَبِيعُوهَا إِلَّا بِهَا»[٦].

وعن الحسنِ: أَنْفُساً هو خَلَقَها، وأَموالاً هو رَزَقَها[٧].

ورُوِيَ: أَنَّ الأَنصارَ حينَ بايَعُوه عَلَى العَقَبَةِ قالَ عبدُاللهِ بنُ رَواحةَ[٨]: ٱشْتَرِطْ

---

(١) قرأه الحسن ومجاهد وقتادة ويعقوب وأبو حاتم. راجع التبيان: ج ٥ ص ٣٠٣، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ١٠١.

(٢) رواها البرقي عنه عليه السلام كما في مجمع البيان: ج ٥ ـ ٦ ص ٧٠.

(٣) حكاها عنه الزمخشري في كشّافه: ج ٢ ص ٣١٣.

(٤) قاله سفيان كما حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٢ ص ٤٠٥.

(٥) رواه ابن عبّاس والحسن وقتادة. راجع تفسير الحسن البصري: ج ١ ص ٤٢٩، وتفسير ابن كثير: ج ٢ ص ٣٧٤، وتفسير الطبري: ج ٦ ص ٤٨٢.

(٦) تحف العقول: ٣٧٩.

(٧) تفسير الحسن البصري: ج ١ ص ٤٢٩.

(٨) هو عبدالله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس الأنصاري الخزرجي، يكنّى أبا محمّد، ←

لربِّكَ ولنفسِكَ ماشِئْتَ، قالَ: أَشْتَرِطُ لربِّي أَن تَعْبُدُوهُ ولاتُشْرِكُوا به شَيْئاً، وأَشْتَرِطُ لِنفسِي أَن تَمنَعوني ممَّا تَمنَعُونَ منه أَنْفُسَكُم، قالَ: فإذا فَعَلْنَا ذلك فما لَنا؟ قال: لكُمُ الجنَّةُ، قالوا: رَبِحَ البيعُ لانُقيلُ ولانَستَقِيلُ[1].

﴿يُقَـٰتِلُونَ﴾ فيهِ معنَى الأمرِ، كقولِه: ﴿تُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[2]، ثمَّ قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[3]، وقُرِئَ: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ وعلى العكسِ[4] ﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً﴾ مصدرٌ مُؤَكِّدٌ، يعني: أَنَّ الوعدَ الَّذي وَعَدَهُ للمُجاهِدِينَ في سبيلِهِ وعدٌ ثابتٌ قد أَثْبَتَهُ ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ كما أثبتَهُ في ﴿ٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أَي: لَا أَحدَ أَوفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللهِ؛ لأَنَّ الخُلفَ قَبيحٌ لايُقدِمُ عليهِ الكريمُ[5] من الخلقِ مَعَ جوازِهِ عليهِم لحاجَتِهِم، فكيفَ بالكريمِ الغنيِّ الَّذِي لايَجوزُ عليهِ فعلُ القبيحِ ﴿فَاسْتَبْشِرُواْ﴾ أَي: فافرَحُوا بهذِهِ المُبايَعَةِ إِذْ بِعْتُم فانياً بباقٍ وزائلاً بدائمٍ ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ﴾ والظفرُ ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ ولاترغيبَ في الجِهادِ أَحسنُ وأَبلغُ منه.

﴿ٱلتَّـٰئِبُونَ﴾ رَفعٌ على المدحِ، أَي: هُمُ ٱلتائبُونَ، يعني: المُؤْمِنينَ المَذْكُورِينَ، ويدُلُّ عليهِ قِراءَةُ أُبَيٍّ[6] وعبدِاللهِ والباقرِ والصادقِ عليهما السلام: «التـائِبينَ» بـالياءِ[7]

← أحد النقباء، شهد العقبة وبدراً وأحداً والحديبيّة، استشهد يوم مؤتة وقد كان أحد الأُمراء في الوقعة، وكان أحد الشعراء الذين كانوا يردّون الأذىٰ عن رسول الله صلى الله عليه وآله. أُنظر الاستيعاب: ج ٣ ص ٨٩٨.

(١) رواها الطبري في تفسيره: ج ٦ ص ٤٨٢.

(٢ و٣) الصف: ١١ و١٢.

(٤) وهي قراءة النخعي ويحيىٰ بن وثّاب وطلحة والأعمش وحمزة والكسائي. راجع التبيان: ج ٥ ص ٣٠٥، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ١٠٢.

(٥) في نسخة: الكرام.

(٦) هو أُبي بن كعب بن قيس النجّار، شهد العقبة الثانية وبايع النبي صلى الله عليه وآله فيها، ثم شهد بدراً وكان أحد فقهاء الصحابة وأقرأهم، توفّي في خلافة عمر. انظر الاستيعاب: ج ١ ص ٦٥.

(٧) انظر الكافي: ج ٨ ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨ ح ٥٦٩، والكشّاف: ج ٢ ص ٣١٤.

إلىٰ قولِهِ: «وَٱلحافِظِينَ» نصباً على المدحِ، أَو جرّاً على الصفةِ لِـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ويَجوزُ أَن يكونَ ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ مُبتَدأً وخبرُهُ ﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾، وما بعدَه خبرٌ بعدَ خبرٍ، أَي: التائبونَ من الكفرِ على الحقيقةِ هم الجامعُونَ لهذه الخِصالِ، و ﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ هُمُ الّذينَ أَخْلَصُوا في عبادةِ ٱللهِ، وَ ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾: الصائمونَ، شُبِّهُوا بذَوِي السياحَةِ في الأَرضِ في امتِناعِهِم من شَهَواتِهِم، وقيل: هم طُلّابُ العلمِ يَسِيحُونَ في الأَرضِ يَطْلُبُونَهُ من مَظانِّهِ(١). ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللهِ﴾ القائمونَ بأَوامِرِهِ، والمُجْتَنِبُونَ لنواهِيهِ.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ (١١٤)﴾

عنِ الحسنِ: أَنَّ المُسلِمِينَ قالُوا: أَلَا نَسْتَغْفِرُ لآبائنا الّذِينَ ماتُوا في الجاهِليَّةِ؟ فنَزَلَتْ(٢)، أَي: لَايَنبَغِي لِنَبِيٍّ وَلا مُؤْمِنٍ أَنْ يَدعُوَ لِكافِرٍ وَيَستَغْفِرَ لَهُ، ولَا يصِحُّ ذلك في حكمةِ اللهِ ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ﴾ قَرابتَهُم ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ﴾ ماتُوا على الشركِ. ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ أَي: وَعَدَهَا إِبراهيمُ أَباهُ وهو قولُه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾(٣)، ويَدُلُّ عليهِ قِراءَةُ الحَسَنِ: «وَعَدَهَآ أَبَاهُ»(٤). ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ﴾ من جهةِ الوحيِ ﴿أَنَّهُۥ﴾ لَنْ يُؤْمِنَ ويَموتُ كافراً، وَانقطَعَ رَجَاؤه عن إِيمانِهِ ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، والأَوَّاهُ: فَعّالٌ من أَوْهِ، وهو الّذي يُكثِرُ التأَوُّهَ والبُكاءَ والدُعاءَ،

(١) قاله عكرمة. راجع تفسير الماوردي: ج ٢ ص ٤٠٧.
(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٢ ص ٣١٥.
(٣) الممتحنة: ٤.
(٤) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٣١٥.

ويُكثِرُ ذِكرَ ٱللهِ عزَّ ٱسمُهُ.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّايَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَالَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَانَصِيرٍ (١١٦)﴾

أَي: لَا يُؤَاخِذُ ﴿ٱللَّهُ﴾ عبادَهُ الَّذِينَ ﴿هَدَىٰهُمْ﴾ للإِسلامِ، ولايُسَمِّيهم ضُـلّالاً ولا يَخْذُلُهم بارتكابِ المَحظوراتِ إِلَّا بـعدَ أَن ﴿يُـبَيِّنَ لَـهُم﴾ حَـظْرَها عـليهم، ويُعَلِّمَهم أَنَّـها واجبةُ الاِتِّقاءِ والاِجتنابِ، فأَمَّا قبلَ البيانِ فلا سبيلَ عليهم، والمرادُ بـ﴿مَايَتَّقُونَ﴾: مايَجِبُ اتِّقاؤُه للنهي، فأَمَّا مايُعْلَمُ بالعَقلِ من القَبائحِ فغيرُ موقوفٍ على التوقيفِ.

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَاكَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّـهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُـلِّفُوا۟ حَـتَّىٰٓ إِذَا ضَـاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِـيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُـوَ ٱلتَّـوَّابُ ٱلرَّحِـيمُ (١١٨) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (١١٩)﴾

إِنَّما ذَكَرَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله استفتاحاً باسمِه ولأَنَّـه سببُ توبتِهم، وإِلَّا فمِنَ المَـعلومِ أَنَّـه لم يكُنْ منهُ ماأَوْجَبَ التوبةَ، ورُوِيَ عن الرضا عليه السلام: أَنَّـه قرأَ: «لَقَدْ تابَ ٱللَّهُ بِالنَّبِيِّ عَلَى المُهَاجِرِينَ»(١) وهو بَعثٌ للمُؤْمنينَ على التَّوبةِ، وأَنَّـه مامِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وهوَ مُحتاجٌ إِلى الاستِغفارِ والتوبةِ ﴿فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ في وقتِها، وقد يُستَعمَلُ الساعةُ في معنَى الزمانِ المُطلَقِ كما يُستَعمَلُ الغَداةُ والعَشيَّةُ واليومُ، نحوُ قولِه:

(١) أوردها في الاحتجاج: ج ١ ص ٧٦.

عَشِيَّةَ قارَعْنا جُذامَ وحِمْيَرا[١]

[وقَولِهِ:]

غداةَ طَفَتْ عَلماءِ بَكْرُ بنُ وائلٍ[٢]

أَي: علَى الماءِ، و ﴿ٱلْعُسْرَةِ﴾: حالُهُمْ في غَزْوَةِ تبوكَ، كانَ يَعتَقِبُ العَشَرةُ علىٰ بعيرٍ واحدٍ، وكانَ زادُهُم الشعيرَ المُسَوَّسَ والتَمرَ المُدَوِّدَ والإِهَالَةَ[٣] السنِخَةَ[٤]، وبلَغَتِ الشدَّةُ بِهِم أَن ٱقْتَسَمَ التَمرةَ ٱثنانِ، ورُبَّما مَصَّها الجماعةُ لِيَشرَبُوا عَلَيها الماءَ، وكانُوا في حَمارَّةِ القَيظِ[٥] وفي الضيقةِ الشديدةِ من القَحطِ وقلَّةِ الماءِ «كَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ» عن الثباتِ عَلَى الإِيمانِ، أَو عن ٱتِّباعِ الرَّسولِ ﷺ في تلكَ الغَزْوَةِ، وفي ﴿كَادَ﴾ ضميرُ الأَمرِ والشأنِ، وشَبَّهَهُ سيبَوَيْهِ بقولِهِم: «لَيسَ خَلَقَ اللهُ مثلَه»[٦]، وقُرِئَ: ﴿يَزِيغُ﴾ بالياءِ[٧]، قيلَ: إِنَّ قوماً منهُمْ همُّوا بِالاِنصرافِ مِن غَزاتِهِم بغيرِ ٱستئذانٍ، فعَصَمَهُمُ اللهُ تَعالىٰ حتَّىٰ مَضَوْا[٨]، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ مِنْ بعدِ ذلكَ الزيغِ ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تدارَكَهم

---

(١) قائله: زفر بن الحارث الكلابي، وصدره: وكنّا حسبنا كلّ بيضاءَ شحمةً. قاله يوم مرج راهط، وهو موضع كانت فيه وقعة بالشام وفيها قتل الضحّاك بن قيس. أراد أنّه حينما قابلنا القبيلتين علمنا أنّهما ليسوا كما ترهّمنا في شأنهم ضعفاء بل هم أقوياء وغير منخذلين. انظر شرح شواهد المغني: ص ٩٣٠.

(٢) وعجزه: وعاجت صدور الخيل شطر تميم. ذكره في شرح شواهد الكشّاف ولم يذكر قائله. أراد انهم علوا في المنزلة والعزّ بحيث لايعلوهم أحد كما أنّ الشيء يطفو وجه الماء وغيره يرسب. انظر شرح شواهد الكشّاف: ص ٥٢٥.

(٣) الإِهالة: الودك، أي دسم اللحم. (الصحاح: مادة أهل).

(٤) سنخ الدهن: إذا فسد وتغيّرت ريحه. (الصحاح: مادة سنخ).

(٥) حَمارّة القيظ: أي شدة حرّ الصيف. (لسان العرب: مادة قيظ).

(٦) انظر كتاب سيبويه: ج ١ ص ٦٩ ـ ٧٠.

(٧) فانّ المصنّف لم يعتمد إلّا على القراءة بالتاء تبعاً للزمخشري.

(٨) قاله ابن عبّاس في تفسيره: ص ١٦٧.

برأفتِهِ ورحمتِهِ.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ وهُم كَعْبُ بنُ مالكٍ ومُرارَةُ بنُ الربيعِ وهِلالُ ابنُ أُمَيَّةَ، خُلِّفُوا عن قبولِ التوبةِ بعدَ قبولِ توبةِ مَنْ قَبلَ تَوبَتَهُمْ، وقيلَ: خُلِّفُوا عن غَزْوَةِ تَبُوكَ لمَّا تَخلَّفُوا[١]، وقِراءَةُ أَهلِ البيتِ عليهم السلام وأَبي عبدِالرحمنِ السلميّ[٢]: «خَالَفُوا»[٣]، ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: برَحبِها، والمعنىٰ: مع سَعَتِها، وهو مَثَلٌ لِحَيرتِهِم في أمرِهِم، كأَنَّهُم لايَجِدُونَ في الأَرضِ مَوضِعَ قرارٍ ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أَي: قُلوبُهم من فَرطِ الوَحشةِ والغَمِّ ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ وعَلِمُوا ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ﴾ سَخَطِ ﴿ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ ثُمَّ رَجَعَ عليهِم بالقبولِ والرحمةِ مرَّةً بعدَ أُخرىٰ لِيَسْتَقِيمُوا علىٰ تَوبتِهِمْ ويَثْبُتُوا، أَو لِيَتُوبُوا أيضاً في المُستقْبلِ إنْ فَرَطَتْ منهم خَطيئَةٌ، عِلماً منهُمْ بـ ﴿انَّ ٱللَّهَ﴾ تَوَّابٌ علىٰ من تابَ ولَو عادَ في اليومِ سبعينَ مرَّةً.

﴿مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ الَّذينَ صَدَقُوا في دِينِ اللهِ نِيَّةً وقولاً وعَمَلاً، وعنِ الباقرِ عليه السلام: «كُونُوا مَعَ آلِ مُحَمَّدٍ»[٤].

وَقَرَأَ ابنُ عبَّاسٍ: «مِنَ ٱلصَّادِقِينَ»[٥]، ورُوِيَ أيضاً ذلك عنِ الصادقِ عليه السلام[٦].

---

(١) قاله الحسن وقتادة. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ١٠٩.

(٢) هو عبدالله بن حبيب الكوفي، من أصحاب أميرالمؤمنين عليه السلام، كان مقرئاً وفقيهاً، فقد أقرأ القرآن في المسجد لمدة أربعين سنة، شهد مع أميرالمؤمنين عليٍّ عليه السلام في صفّين ثم صار عنه بعدها، توفي في زمن عبدالملك بن مروان عام (٧٢ هـ). راجع رجال السيد الخوئي: ج ١٠ ص ١٥٥.

(٣) انظر شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٦٠.

(٤) المناقب لابن شهرآشوب: ج ٣ ص ٩٢ ـ ٩٣.

(٥) حكاها عنه أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط: ج ٥ ص ١١٠.

(٦) رواها عنه عليه السلام في البحر المحيط: ج ٥ ص ١١١.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٢١)﴾

ظاهِرُهُ خبرٌ ومعناهُ نهيٌ، مِثلُ قولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾[1]، ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ أُمِرُوا بصحبةِ رَسولِ اللهِ ﷺ على البَأساءِ والضرَّاءِ، وبأَن يُكابِدُوا مَعهُ الشدائدَ برَغبةٍ ونَشاطٍ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ مادلَّ عليهِ قولُهُ: «مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا» مِن وُجوبِ مُشايَعَتِهِ، أَي ﴿ذَٰلِكَ﴾ الوُجوبُ ﴿بِـ﴾ سَبَبِ ﴿أَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ﴾ شَيءٌ من عَطَشٍ ولا تَعَبٍ ولا مَجاعةٍ في طريقِ الجِهادِ، ولا يَضَعُونَ أَقدامَهم ولا يَدُوسونَ بحوافِرِ خُيُولِهم وأَخفافِ رَواحِلِهم مَوْضِعاً ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ وَطْأُهُم إيَّاهُ، وَلَا يَتصرَّفونَ في أَرضِهم تَصرُّفاً يُضَيِّقُ صدورَهُم ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ ولا يَرْزَؤُونَهمُ شيئاً بقتلٍ أَو أَسرٍ أَو أَمرٍ يَغُمُّهم ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ وَٱستَوجَبُوا الثوابَ عِندَ ٱللهِ، وَالمَوْطِئ: إِمَّا مَصدرٌ كالمَورِدِ وَإِمَّا مَكانٌ، والنيْلُ: يَجوزُ أَن يَكُونَ مصدراً مُؤَكِّداً وَأَن يَكُونَ بمعنَى المَنِيلِ، وهو عامٌّ في كلِّ مايَسوؤُهُمْ ويَضُرُّهم. ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أَي: أَرضاً في ذَهابِهِم ومَجيئِهم، وَالوَادِي: كلُّ مُنعَرَجٍ بينَ جبالٍ وآكامٍ يكُونُ مَنفَذاً للسيلِ، وهو في الأَصلِ فاعلٌ مِنْ وَدَىٰ: إِذا سَالَ، ومنه الوَدِيُّ[2] ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾

(١) الأحزاب: ٥٣.

(٢) الودي: مايخرج بعد البول. (الصحاح: مادة ودي).

ذلكَ الإنْفَاقُ وقطعُ الوَادِي، وتَعَلَّقَ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ بِـ﴿كُتِبَ﴾ أَي: أُثْبِتَ في صَحائفِهم لأَجلِ الجزاءِ.

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (١٢٣) وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ (١٢٥)﴾

﴿لِيَنفِرُواْ﴾ اللامُ لتأكيدِ النفي، والمعنىٰ: أَنَّ نفيرَ الكافَّةِ عَن أَوطانِهم لطلبِ الفِقْهِ[١] والعلمِ غيرُ صحيحٍ ولا مُمكِنٍ، وفيه: أَنَّه لو صَحَّ وأَمكَنَ ولم يُؤَدِّ إلىٰ مَفْسَدَةٍ لوَجَبَ على الكَافَّةِ؛ لأَنَّ طلبَ العلمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مُسلمٍ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ فحينَ لم يُمكِنْ نفيرُ الكافَّةِ فهلَّا نَفَرَ ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ أَي: جماعةٍ كثيرةٍ ﴿طَآئِفَةٌ﴾ أَي: جَماعةٌ قليلَةٌ «منهُمْ»: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾ لِيَتكَلَّفُوا الفَقَاهةَ فيهِ، ويَتَجشَّمُوا المَشاقَّ في تَحصيلِها ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ﴾ ولِيَجْعَلُوا غَرَضَهُم بالتفقُّهِ إنذارَ قَوْمِهِم وإرشَادَهُم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ عِقابَ ٱللهِ ويُطِيعُونَهُ.

﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أَي: يَقْرُبُونَ مِنكُم، فإِنَّ القِتالَ واجبٌ مَعَ جميعِ الكفَّارِ، ولـٰكنَّ الأَقْرَبَ فالأَقْرَبَ أَوجَبُ، ونظيرُهُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[٢]، وقد حَارَبَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قومَهُ ثُمَّ غيرَهُم مِنَ العربِ، وقيل:

(١) في بعض النسخ: التفقّه. (٢) الشعراء: ٢١٤.

هُمْ قُرَيْظَةُ والنضِيرُ[١] وفَدَكُ[٢] وخَيبَرُ[٣]، والأَوَّلُ أَصَحُّ؛ لأَنَّ السُّورةَ نَزَلَتْ في سنةِ تسعٍ، وقد فَرَغَ النبيُّ مِن أُولئك ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أَي: شِدَّةً وصَبْراً علىٰ جِهادِهِمْ، ونحوُهُ: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[٤].

﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ﴾ فمِنَ المنافِقِينَ مَنْ يقولُ بعضُهم لبعضٍ: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ﴾ ٱلسُّورَةُ ﴿إِيمَـٰناً﴾ استهزاءً باعتِقادِ المُؤْمِنِينَ زِيادةَ الإِيمانِ بزيادةِ العلمِ الحاصلِ بالوَحيِ ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰناً﴾ أَي: تَصديقاً ويَقيناً وثَلَجاً لصُدُورِهم.

وقولُهُ: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أَي: كُفراً مضمُوماً إِلىٰ كفرِهِم؛ لأَنَّهم بتَجدِيدِ الوحي جَدَّدوا كفراً ونفاقاً فازدادَ كفرُهُم عندَهُ وٱسْتَحْكَمَ.

﴿أَوَ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ

---

(١) قريظة والنضير: قبيلتان من يهود خيبر، وقد دخلوا في العرب على نسبهم الى هارون أخي موسىٰ عليه السلام، منهم محمّد بن كعب القرظي. انظر الصحاح: مادة نضر.

(٢) فدك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، أفاءها الله على رسوله صلى الله عليه وآله سنة سبع صلحاً فكانت خالصة له، وفيها عين فوّارة ونخيل كثيرة، وهي التي قالت فاطمة عليها السلام: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نحلنيها فقال أبو بكر: أُريد لذلك شهوداً، وبقيت كذلك حتّىٰ ولي عمر بن عبدالعزيز الخلافة كتب الى عامله بالمدينة يأمره بردّ فدك الى ولد فاطمة، فكانت في أيديهم حتّىٰ ولي يزيد بن عبدالملك فقبضها، فلم تزل في أيدي بني أُمية حتّىٰ ولي أبو العباس السفّاح الخلافة فدفعها الى الحسن بن الحسن بن علي عليه السلام فكان هو القيّم عليها يفرّقها في بني علي بن أبي طالب، فلمّا ولي المنصور وخرج عليه بنوالحسن قبضها عنهم، فلمّا ولي المهدي أعادها عليهم، ثمّ قبضها موسىٰ الهادي ومن بعده الى أيام المأمون فأمر أن يسجّل لهم بها فكُتب لهم، وفيها يقول دعبل:

أصبح وجه الزمان قد ضحكا ... بردّ مأمون هاشم فدكا

انظر معجم البلدان للحموي: ج ٣ ص ٨٥٦.

(٣) قاله ابن عبّاس في تفسيره: ص ١٦٨.

(٤) الآية ٧٣.

لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾

قُرِئَ: «أَوَ لَا تَرَوْنَ» بالتاءِ[١] أيضاً ﴿يُفْتَنُونَ﴾ أي: يُبْتَلَوْنَ ويُمْتَحَنُونَ بالمَرَضِ والقَحْطِ وغيرِهما من البَلَايَا ﴿ثُمَّ﴾ لايَنْتَهُونَ و ﴿لَايَتُوبُونَ﴾ مِن نِفاقِهِم ﴿وَلَاهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لا يَعْتَبِرُونَ، أو يُبْتَلَوْنَ بالجِهادِ مَعَ رسولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله ويُعايِنُونَ أَمرَهُ ومايُنَزِّلُ ٱللهُ عليهِ من النُصرةِ والتَأْييدِ، أو يَفْتِنُهُمُ الشَيطانُ فَيَنْقُضُونَ عُهُودَهُم مَعَ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله فَيَقْتُلُهم ويُنَكِّلُ بِهِم ثمَّ لايَنْزَجِرُونَ.

﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أَي: تَغامَزُوا بِعُيونِهم إنكاراً للوحي قائلين: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ من المُسلِمينَ لِنَنْصَرِفَ فإنَّا لانَصْبِرُ على ٱستِماعِهِ، أو تَرامَقُوا يَتَشاوَرُونَ في تَدبيرِ الخُروجِ والانسِلالِ ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ دعاءٌ عليهم بالخِذلانِ، أو بصَرْفِ قُلُوبِهم عمّا في قلوبِ أَهلِ الإِيمانِ من الانشِراحِ ﴿بِـ﴾ سَبَبِ ﴿أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لايَتَدَبَّرُونَ حتّى يَفْقَهُوا ويَعْلَمُوا.

﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسِكُم ومن نَسَبِكُم عربيٌّ قُرَشِيٌّ مثلُكُم، شديدٌ ﴿عَلَيْهِ﴾ ـ لكونه بعضاً منكُمْ ـ عَنَتُكُمْ ولِقاؤُكُم المَكرُوهَ، فهو يَخافُ عليكم سوءَ العاقبةِ والوُقوعَ في العذابِ ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ حتّىٰ لايَخرُجَ أَحدٌ منكم عن الاستِسعادِ بِهِ وبدينِهِ ٱلَّذي جاءَ بِهِ ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيرِكُمْ ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وقُرِئَ: «مِنْ أَنْفَسِكُمْ»[٢] أَي: مِنْ أَشرَفِكم وأَفضَلِكم، وقيل:

---

(١) وهي قراءة حمزة ويعقوب. راجع التبيان: ج ٥ ص ٣٢٦.

(٢) قرأه ابن عبّاس والزهري وأبو العالية والضحّاك وابن محيصن ومحبوب عن أبي عمرو وعبدالله بن قسيط المكي ويعقوب من بعض طرقه. راجع تفسير القرطبي: ج ٨ ص ٣٠١، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ١١٨.

هي قِراءَةُ رسولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وفاطمةَ عليها السلام (١).

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عنِ الإيمانِ بكَ فاستَعِنْ باللهِ وفَوِّضْ إليه، فإنَّهُ يَكْفِيكَ أمرَهُم ويَنْصُرُكَ عليهِم.

وقيل: هي آخِرُ آيةٍ نَزَلتْ من السَماءِ (٢)، وهذهِ السُورةُ آخِرُ سورةٍ كاملةٍ نَزَلَتْ (٣).

سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، عن ٱبنِ عبَّاسٍ: سَأَلْتُهُ عن سُورةِ التَوبةِ؟ فقالَ: تِلكَ الفاضِحةُ، مازالَ يَنزِلُ منهم ومنهم، حتَّى خَشِينا أَن لايَبقَىٰ مِنَّا أَحدٌ إلَّا ذُكِر (٤).

(١) قاله ابن خالويه في شواذه: ص ٦٠، وأبو حيان في بحره: ج ٥ ص ١١٨.
(٢) وهو قول أُبيّ وسعيد بن جبير والحسن وقتادة. راجع التبيان: ج ٥ ص ٣٣٠، وتفسير القرطبي: ج ٦ ص ٥٢٤.
(٣) قاله البراء بن عازب. راجع تفسير ابن كثير: ج ٢ ص ٣١٧، وفي التبيان: ج ٥ ص ١٦٧: قال مجاهد وقتادة وعثمان: هي آخر مانزلت على النبي صلى الله عليه وآله بالمدينة.
(٤) ذكره الطوسي في التبيان: ج ٥ ص ١٦٧.

سورةُ يُونُس

مَكيَّةٌ[1] وهيَ مِائَةٌ وَتسعُ آياتٍ.

وفي حديثِ أُبَيٍّ: «مَنْ قَرَأَها أُعطِيَ من الأَجرِ عَشْرَ حسناتٍ، بعددِ من صدَّقَ بيونُسَ وكذَّبَ بِهِ، وبعددِ من غَرِقَ مَعَ فرعونَ»[2].

وعن الصادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَها في كلِّ شَهرَيْنِ لم يُخَفْ عليهِ أَن يَكونَ من الجاهلينَ، وكانَ يومَ القيامةِ من المُقرَّبينَ»[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ

---

(١) قال الماوردي: هي مكّية كلّها عن الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عبّاس: إلّا ثلاث آيات من قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ الىٰ آخرهنّ. راجع تفسيره: ج ٢ ص ٤٢٠.

وزاد القرطبي في تفسيره: ج ٨ ص ٣٠٤: وقال مقاتل: إلّا آيتين وهي قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ نزلت بالمدينة، وقال الكلبي: مكّية إلّا قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّايُؤْمِنُ بِهِ﴾ نزلت بالمدينة في اليهود، وقالت فرقة: نزل من أوّلها نحوٌ من أربعين آية بمكّة وباقيها بالمدينة، انتهىٰ.

وقال الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٣٢٦: مكية، إلّا الآيات ٤٠ و٩٤ و٩٥ و٩٦ فمدنية، وهي مائة وتسع آيات، نزلت بعد الاسراء.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٣٧٦ مرسلاً.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٢.

إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ (٢) ﴾

﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إِلىٰ ماتَضَمَّنَتْهُ السُّورةُ مِنَ الآياتِ ﴿ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ اللوحِ المحفوظِ، أَو القرآنِ ذي الحكمةِ لاشتمالِهِ عليها، أَو نُطقِهِ بها.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً﴾ الهمزةُ لإِنكارِ التَعجُّبِ والتَعجيبِ منهُ، وَ ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ اسمُ ﴿كَانَ﴾، و ﴿عَجَباً﴾ خبرُهُ، ومَعنى اللامِ في ﴿لِلنَّاسِ﴾: أَنَّهم جَعَلُوه لهم أُعجُوبةً يَتَعَجَّبُونَ منها، والَّذي تَعَجَّبُوا منه: أَن يُوحَىٰ ﴿إِلَىٰ﴾ بشرٍ يكونُ رجلاً من جنسِ رجالهم دونَ أَن يَكونَ عظيماً مِن عُظَمائهم، وهذا ليس بعَجَبٍ؛ لأَنَّ ٱللهَ إِنَّما يَخْتَارُ مَنْ يَسْتَقِلُّ بمَا ٱخْتِيرَ لَهُ من أَعباءِ الرِّسالةِ[١] ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾: ﴿أَنْ﴾ هي المُفسِّرةُ؛ لأَنَّ ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ فيه معنى القولِ، ويَجوزُ أَن تكونَ المُخفَّفةَ من الثقيلةِ، وأَصلُهُ: أَنَّهُ أَنْذِرِ ٱلنَاسَ، علىٰ معنىٰ: أَنَّ الشَأْنَ قولُنا: أَنْذِرِ ٱلنَاسَ ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأَنَّ لَهُمْ، فحُذِفَ الباءُ ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي: سابقةً وفضلاً ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، ولمَّا كـانَ السَعيُ والسَبقُ بالقَدَمِ سُمِّيَتِ المَسعاةُ الجميلةُ والسَابقةُ قَدَماً، كما سُمِّيتِ النعمةُ يداً وباعاً[٢] لأَنَّها تُعطَىٰ باليدِ وَصَاحِبُها يَبُوعُ بهَا، وإِضافتُه إِلىٰ ﴿صِدْقٍ﴾ دَلالةٌ علَىٰ زيادةِ فضلٍ، وأَنَّه من السَوابقِ العظيمةِ ﴿إِنَّ هَـٰذَا﴾ الكتابَ «لَسِحرٌ»[٣]، وقُرِئَ: ﴿لَسَـٰحِرٌ﴾ فعلىٰ هذهِ القِراءَةِ يكونُ ﴿هَـٰذَا﴾ إشارةً إِلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ، وهو دليلُ عجزِهم واعترافِهم بذلِكَ وإِن كانوا كاذِبينَ في تَسمِيَتِهِ سِحراً.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَامِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ

---

(١) في بعض النسخ: النبوة.

(٢) الباع: قدر مدّ اليدين. (الصحاح: مادة بوع).

(٣) الظاهر أنّ المصنّف اعتمد هنا على هذه القراءة بحذف الألف متبعاً للزمخشري.

رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ ٱللهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ (٤)

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ يَقْضِيهِ ويُقَدِّرُه وَيُرَتِّبُهُ في مَراتِبِه علىٰ أَحكامِ عواقِبِه، كما يَفْعَلُ الناظِرُ في أَدبارِ الأُمُورِ، وَٱلْأَمْرُ: أَمرُ الخَلقِ كلِّهِ، وقد دَلَّ سبحانَه بالجملةِ قبلَها علىٰ عَظَمَةِ مَلَكُوتِهِ بخَلقِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى﴾ وقتٍ يسيرٍ مع بَسْطَتِها واتِّساعِها، وبِالاِستواءِ ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، ثُمَّ أَتْبَعَها هذهِ الجملةَ لزيادةِ الدَلالةِ على العَظَمَةِ في أَنَّهُ لايَخْرُجُ شَيءٌ من قَضائه وتَقديرِه، وكذا قولُه: ﴿مَامِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ دليلٌ على العزَّةِ والكِبرياءِ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارةٌ إلى المعلومِ بتلكَ العَظَمَةِ، أَي: ذَٰلِكَ العظيمُ الموصوفُ بما وُصِفَ به هو ﴿ٱللهُ﴾ الَّذي يَسْتَحِقُّ العبادةَ منكُم، وهو ﴿رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ وحدَهُ ولا تُشرِكُوا بِه بعضَ خَلْقِهِ من مَلَكٍ أَو إِنسانٍ فضلاً عن جَمادٍ لايَضُرُّ ولايَنْفَعُ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وأَصلُهُ «تَتَذَكَّرُونَ» يعني: أَنَّ أَدنىٰ تَذَكُّرٍ يُنَبِّهُ على الخطاءِ فيما أَنتُم عليهِ.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ أَي: إِلَيْهِ رُجُوعُكُمْ جَمِيعاً في العاقبةِ فَاسْتَعِدُّوا للقائه ﴿وَعْدَ ٱللهِ﴾ مصدرٌ مُؤَكِّدٌ لقولِهِ: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، و ﴿حَقّاً﴾ مصدرٌ مُؤَكِّدٌ لقولِهِ: ﴿وَعْدَ ٱللهِ﴾، ﴿إِنَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ٱستئنافٌ معناهُ التَعليلُ لوُجُوبِ المَرْجِعِ إِليهِ، وهُوَ: أَنَّ الغرضَ بِابتداءِ الخَلقِ وإِعادتِهِ جزاءُ المُكلَّفينَ عَلَى أَعمالِهِم، وقُرِئَ: «أَنَّهُ» بالفتحِ[1]، بمعنىٰ: لأَنَّهُ، أَو هُوَ منصوبٌ بالفعلِ الَّذي نَصَبَ ﴿وَعْدَ ٱللهِ﴾ أَي: وَعَدَ ٱللهُ وَعْداً إِبْداءَ الخلقِ ثمَّ إِعادَتَهُ، والمعنىٰ: إِعادةُ الخلقِ

---

(١) قرأه عبدالله بن مسعود ويزيد بن القعقاع والأعمش وسهل بن شعيب. راجع إعراب القرآن للنحّاس: ج ٢ ص ٢٤٤، والبحرالمحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ١٢٤.

بعدَ إبدائِه ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدلِ، وهو متعلّقٌ بِـ «يَـجْزِيَ» والمـعنىٰ: لِـيَجْزِيَهم بقسطِهِ وَيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُم، أو بِقسطِهِم وَعدلِهِم حينَ ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لأَنَّ الشِركَ ظُلمٌ، وَيؤَيِّدُ هذا الوجهَ أَنَّهُ يُقابِلُ قَولَهُ: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)﴾

الياءُ في ﴿ضِيَآءً﴾ مُنقلِبةٌ عن واوٍ[١] لِكسرةِ ماقبلَها، والضياءُ أَقْوىٰ منَ النُورِ ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: قَدَّرَ ﴿ٱلْقَمَرَ﴾، ﴿مَنَازِلَ﴾ أي: ذا مَنازِلَ، أو قَدَّرَ مَسيرَه مـنازِلَ، كقولِه: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾[٢]، ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾ حسابَ الأَوقاتِ منَ الأَشهُرِ والأَيّامِ واللَيالي ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورِ، أي: ﴿مَا خَلَقَـ﴾ـهُ ﴿إِلَّا﴾ مُلْتَبِساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الَّذي هو الحِكمةُ البالِغةُ ولمْ يَخلُقْهُ عَبَثاً. وخَـصَّ «المُـتَّقينَ» لأَنَّـهمْ يَحْذَرونَ العاقبةَ فيَدعوهُم ذلكَ إلى التَأَمُّلِ والنظرِ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ (٧) أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٩) دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠)﴾

أَي: لا يَأْمُلُونَ حُسنَ ﴿لِقَآءَنَا﴾ كما يَأْمُلُه السُعداءُ، أَو: لا يَخافونَ سوءَ لِقائِنا ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قَنِعُوا بها منَ ٱلآخِرةِ، واختارُوا القليلَ الفـانيَ عـلى

---

(١) في نسخة زيادة: ضوء. (٢) يس: ٣٩.

الكثيرِ الباقِي ﴿وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾ وسَكَنُوا إليها سكونَ مَنْ لايُزعَجُ عنها ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ﴾ ذاهبونَ عن تأمُّلِها، ذاهِلونَ عن النَّظرِ فيها.

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ﴾ يُوفِّقُهم بسببِ إيمانِهم لِلاستقامةِ علىٰ سلوكِ الطريقِ المُوصِلِ إلى الثَّوابِ، ولذلكَ جعَلَ قولَه: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ بياناً له وتفسيراً؛ لأنَّ التَمسُّكَ بسببِ السَّعادةِ كالوُصولِ إليها، أو: ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ في الآخرةِ بنورِ إيمانِهم إلىٰ سبيلِ الجَنَّةِ، نحوُ قولِه: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم﴾[١]. ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: دُعاؤُهم ﴿فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، ومعناهُ: اللَّهُمَّ إنَّا نُسبِّحُكَ، كما وَرَدَ في دُعاءِ القنوتِ: «اللَّهمَّ إيَّاكَ نَعْبُدُ ولَكَ نُصلِّي ونَسْجُدُ»[٢]، ويَجوزُ أن يُرادَ بالدُعاءِ العبادةُ علىٰ معنَىٰ: أنَّه لا تَكليفَ في الجَنَّةِ ولا عبادةَ، وما عبادتُهم إلَّا أن يُسبِّحُوا اللهَ ويَحْمَدُوهُ، ويَنْطِقُونَ بذلكَ تَلذُّذاً من غيرِ كُلفةٍ ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ وخاتِمةُ دعائِهم ﴿أَنِ﴾ يَقولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، وقولُه: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ﴾ معناهُ: أنَّ بعضَهم يُحَيِّي بعضاً بالسَّلامِ، وقيلَ: هي تَحيَّةُ الملائكةِ إيَّاهم[٣]، فيكونُ المصدرُ مضافاً إلى المفعولِ، وقيلَ: هي تَحيَّةُ اللهِ لهم[٤]، و «أَنْ» هي المُخفَّفةُ من الثَّقيلةِ، وأَصلُه: أنَّهُ الحَمْدُ للهِ.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٢)﴾

---

(١) الحديد: ١٢. (٢) المزار للمشهدي: ص ١٣٩.
(٣) قاله الضحاك كما في تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٩٠.
(٤) حكاه الزجاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ٨.

وَضَعَ ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ مَوضِعَ تَعجيلِهِ لَهُمُ الخيرَ إشعاراً بسرعةِ إجابتِهِ لَهُم حتَّىٰ كأَنَّ استعجالَهم بالخيرِ تَعجيلٌ لهُ، والمُرادُ قولُ مَنْ قالَ: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ (١)، والمعنَىٰ: ﴿وَلَوْ﴾ عَجَّلْنا لهُمُ ﴿الشَّرَّ﴾ الَّذي دَعَوْا بِهِ كما نُعَجِّلُ لهم الخيرَ ونُجيبُهم إليه ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لأُميتُوا وأُهْلِكوا، وقُرِئَ: «لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ» (٢) وتنصُرُهُ قِراءَةُ عبدِاللهِ: «لَقَضَيْنَا إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ» (٣)، ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ معناهُ: فلا نُعجِّلُ لهم الشرَّ ولا نَقضِي إِليهم أَجلَهُم، فَنَذَرُهُمْ ﴿فِى طُغْيَـٰنِهِمْ﴾ أَي: فنُمْهِلُهم ونُمْلِي لهم إِلزاماً للحجَّةِ عليهِمْ.

وقولُه: ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ في مَوضِعِ الحالِ أَي: مُضْطَجِعاً، والمعنَىٰ: أَنَّه لا يَزالُ داعياً لا يَفتُرُ في الدُعاءِ حتَّىٰ يَزُولَ عنه ﴿ٱلضُّرُّ﴾ فهو يَدْعُو في حالاتِه كلِّها لِيَسْتَدْفِعَ البلاءَ، و ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ للجنسِ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ أَي: أَزَلنا ﴿عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ﴾ أَي: مَضَىٰ علىٰ طريقتِهِ الأُولَىٰ قبلَ أَن مَسَّهُ الضُرُّ، أَو مَرَّ عن مَوقِفِ الدُعاءِ والتَضَرُّعِ لا يَرجِعُ إِليه كأَنَّهُ لا عهدَ لهُ بِهِ ﴿كَأَن﴾ تخفيفُ «كأَنَّ» وحُذِفَ ضميرُ الشَأْنِ منهُ، كقولِه:

كَأَنْ ظَبْيَةٌ تَعطُو إِلَىٰ وارِقِ السَّلَمِ (٤)

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَي: مثلُ ذلكَ التزيينِ ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ زَيَّنَ الشَيطانُ بوسوستِهِ لهم تركَ الدُعاءِ عندَ الرَخاءِ واتِّباعَ الشَهواتِ والأَماني الباطِلَةِ.

---

(١) الأنفال: ٣٢.

(٢) وهي قراءة ابن عامر ويعقوب. راجع التبيان: ج ٥ ص ٣٤٤.

(٣) حكاها عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٣٣٢.

(٤) البيت منسوب لباعث بن صريم اليشكري عن سيبويه والنحاس، وقيل: لأرقم بن علباء اليشكري عن القالي، وقيل: لراشد بن شهاب اليشكري عن أبي عبيد البكري، وقيل لغيرهم. وصدره: ويوماً توافينا بوجه مقسمٍ. راجع خزانة الأدب للبغدادي: ج ١٠ ص ٤١١.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾

﴿لَمَّا﴾ ظرفٌ لِـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، والواوُ في ﴿وَجَآءَتْهُمْ﴾ للحالِ، أَي: ﴿ظَلَمُواْ﴾ بالتَكذيبِ وَقد ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ بالمعْجِزاتِ والدَلالاتِ ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ اللامُ لتأْكيدِ النَفيِ، أَي: وَمَا كَانُوا يُؤْمِنُونَ حقّاً، والمعنىٰ: أَنَّ السببَ في إِهلاكِهِم تَكذيبُهُمُ الرُسُل، وعلمُ ٱللهِ إِصرارَهُم على الكفرِ، وأَنَّه لا فائِدةَ في إِمهالِهِمْ بعدَ أَن لَزِمتهُمُ الحجَّةُ بإِرسالِ الرُسُلِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَي: مِثلُ ذَلِكَ الجزاءِ يعني الإِهلاكَ ﴿نَجْزِى﴾ ٱلْمُشْرِكِينَ فِي المستَقْبلِ إذا لَمْ يُؤْمِنُوا، وهو وعيدٌ لأَهلِ مكَّةَ.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ أَي: ٱسْتَخْلَفْنَاكُم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِ﴾ القُرُونِ الَّتي أَهْلَكْنَاها ﴿لِنَنظُرَ﴾ أَتعملُونَ خيراً أَم شرّاً فنُعامِلَكُمْ علىٰ حَسَبِ أَعمالِكُم، و﴿كَيْفَ﴾ في محلِّ نَصبٍ بـ﴿تَعْمَلُونَ﴾: إِمَّا حالاً وإِمَّا مصدراً، والنَظرُ هُنَا مستعارٌ بمعنى العلمِ المُحقَّقِ الَّذِي هو العلمُ بالشَيءِ موجوداً، شُبِّهَ بنظرِ النَاظِرِ وعِيانِ المُعايِنِ في تحقُّقِهِ.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ (١٧)﴾

أَي: قالوا: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ﴾ آخرَ ليسَ فيهِ ما يَغِيظُنَا مِن ذَمِّ عبادةِ الأَوْثانِ

والوَعيدِ لعابِدِيها ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأَن تَجْعَلَ مكانَ آيةِ عذابٍ آيةَ رحمةٍ، وتُسْقِطَ ذِكرَ الآلِهَةِ وذمَّ عِبادتِها، فَأُمِرَ بِأَنْ يُجِيبَ عنِ التَبديلِ لأَنَّـه داخـلٌ تـحتَ مَـقدورِ الإنسانِ، فأَمَّا الإتيانُ بقرآنٍ آخَرَ فغيرُ مَقدورٍ عليه للإنسانِ ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ﴾ مَا يَنْبَغِي لِي ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِى نَفْسِىٓ﴾ مِن قِبَلِ نفسي، مِن غيرِ أَن يَأْمُـرَنِي بذلِكَ ربِّي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ لا آتي ولا أَذَرُ شيئاً من نحوِ ذلك إِلَّا مُتَّبِعاً لوحيِ اللهِ، إِن نُسِخَتْ آيةٌ أَو بُدِّلَتْ مكانَ أُخرىٰ تَـبِعتُ ذلك، وليسَ إِلَيَّ تـبديلٌ ولا نسخٌ ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ في التَبديلِ والنَسخِ مِنْ عندِ نَفْسِي ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: أَنَّ تِـلاوتَهُ ليسَتْ إِلَّا بـمَشيئَةِ اللهِ وإِحْدَاثِهِ أَمراً عجيباً خارقاً للعادةِ، وهو أَن يَخرُجَ رجلٌ أُمِّيٌّ لم يَتَعَلَّمْ ساعةً من عمرِهِ ولا نَشَأَ في بلدٍ فيه العلماءُ فَيَقْرَأَ عليكم كِتاباً بَهَرَ بفصاحَتِهِ كُلَّ كلامٍ فصيحٍ، مَشحُوناً بعلومِ الأُصولِ والفروعِ والإِخبارِ بما كانَ ويَكونُ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا ٱللهُ، وقَدْ نَشَأَ فيكم لَم تَسْمَعُوا منهُ حرفاً من ذلكَ منذُ أَربَعِينَ سنةً ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أَي: ولا أَعْلَمَكُمْ به علىٰ لِسَانِي، وقُرِئَ: «وَلَأَدْرَىٰـكُمْ بِـهِ» (١) عـلى إِثـباتِ الإِدراءِ، واللامُ لامُ الابتداءِ، والمعنىٰ: لو شاءَ ٱللهُ مَاتَلَوْتُهُ أَنا عليكم ولأَعْلَمَكُم بـه عـلىٰ لسانِ غيري ولكنَّهُ خصَّني بهذِهِ الكَرامَةِ ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ أَي: فقد أَقَمْتُ فِيما بينَكُم ناشِئاً وكَهْلاً فَلَمْ تَعْرِفُوني مُتَعاطِياً شيئاً مِنْ نحوِهِ فتَتَّهِمُوني باختراعِـهِ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتَعْلَمُوا أَنَّـه ليسَ إِلَّا مِن عندِ ٱللهِ تَعالىٰ.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَـنفَعُهُمْ وَيَـقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ

---

(١) وهي قراءة ابن كثير إلّا عن البزي وأبي ربيعة وقنبل إلّا المالكي والعطّار. راجع التبيان: ج ٥ ص ٣٥١، والبحر المحيط لأبي حيان ج ٥ ص ١٣٢.

شُفَعَآؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) ﴾

كانَ أَهلُ الطَّائِفِ ﴿يَعْبُدُونَ﴾ اللاتَ [١]، وأَهلُ مكَّةَ العُزَّى [٢] ومناةَ [٣] وهُبَلَ [٤]،

---

(١) قال هشام بن السائب الكلبي في كتابه الأصنام: ص ٣١ ـ ٣٣: واللات بالطائف، وكانت صخرة مربّعة، وكان يهوديّ يلُتّ عندها السويق، وسدنتها من ثقيف بنو عتّاب بن مالك، وكانوا قد بنوا عليها بناءً، وكانت قريش وجميع العرب تعظّمها، وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرىٰ اليوم، فلم تزل كذلك حتى أسلمت ثقيف، فبعث رسول الله ﷺ من هدّمها وحرّقها بالنار، وفي ذلك يقول شداد بن عارض الجُشَميّ:

لا تنصروا اللات إنّ الله مُهلكها ... وكيف نصركم من ليس ينتصرُ
إنّ التي حرّقت بالنار فاشتعلت ... ولم تقاتل لدي أحجارها هدرُ

(٢) وقال: وكان الذي اتخذ العزّىٰ ظالم بن أُسْعَد، وكانت بوادٍ من نخلة الشامية يقال له حُراض، فبنىٰ عليها بيتاً، وكانوا يسمعون فيه الصوت، وكانت أعظم الأصنام عند قريش، وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح، وسدنتها بنو شيبان بن جابر بن مرّة من بني سليم، ولم تزل كذلك حتىٰ بعث الله نبيّه ﷺ فعابها وغيرها ونهاهم عن عبادتها، فلمّا كان عام الفتح دعا النبيّ ﷺ الى هدمها فهدمت. المصدر السابق: ص ٣٣ ـ ٤٢.

(٣) وقال: وكانت أقدمها كلّها، وكانت منصوبة على ساحل البحر من ناحية المشلّل بقديد بين المدينة ومكة، وكانت العرب جميعاً تعظّمها وتذبح لها ويهدون لها، ولم يكن أحد أشدّ إعظاماً لها من الأوس والخزرج، فلم تزل ذلك حتى خرج رسول الله ﷺ من المدينة سنة (٨) هجرية وهو عام فتح الله عليه، فلمّا سار من المدينة أربع ليالٍ أو خمس بعث علياً عليه السلام إليها فهدمها وأخذ ما كان لها، فكان فيما أخذ سيفان كان الحارث بن أبي شمر الغسّاني ملك غسّان أهداهما لها، فوهبهما النبيّ ﷺ لعلي عليه السلام. المصدر نفسه: ص ٢٨ ـ ٣١.

(٤) وقال: وكان أعظمها عندهم، وكان فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة الانسان مكسور اليد اليمنىٰ، أدركته قريش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب، وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة، وكان في جوف الكعبة قدّامه سبعة أقداح مكتوب في أولها صريح والآخر ملصق، فإذا شكّوا في نسب مولود أهدوا له هدية ثمّ ضربوا بالقداح، فإن خرج صريح ألحقوه، وإن كان ملصقاً دفعوه، وقدح على الميت، وقدح على النكاح، فإذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفراً أو عملاً أتوه فاستقسموا بالقداح عنده، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه. فلمّا ظفر ←

وإسافاً ونائلة[١]، وكانوا يقولون: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ أتُخْبِرُونَهُ بكونِهم شُفَعاءَ عِنْدَهُ وهو إخبارٌ ﴿بِمَا﴾ ليسَ بمَعلومٍ للهِ، وإذا لَمْ يَكُنْ مَعلوماً لَهُ وهو العالمُ بالذاتِ المُحيطُ بجميعِ المَعلوماتِ لم يَكُنْ شيْئاً؛ لأنَّ الشيءَ ما يَصِحُّ أن يُعْلَمَ وقد أخبَرْتُم بِمَا لا يَدْخُلُ تحتَ الصحَّةِ، وقولُهُ: ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تأكيدٌ لنفيهِ؛ لأنَّ ما لا يُوجَدُ فِيهِمَا فهُوَ مُنتَفٍ مَعدومٌ ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ «مَا» مَوصولةٌ أو مصدريَّةٌ، أي: عَنِ الشُركاءِ الَّذينَ يُشْرِكُونَهم بهِ، أو عَنْ إشْراكِهم، وقُرِئَ: «تُشْرِكُونَ» بالتَاءِ[٢] أيضاً.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مُتَّفِقِينَ علَىٰ مِلَّةٍ وَاحِدَةٍ ودِينٍ واحدٍ من غيرِ أَنْ يَخْتَلِفوا بينَهُم، وذلكَ في عهدِ آدمَ إلىٰ أن قَتَلَ قابيلُ هابيلَ، وقيل: بعدَ الطُوفانِ[٣] ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وَهُوَ تأْخيرُ الحُكمِ بَينَهُم إلىٰ يَومِ

← رسول الله ﷺ يوم فتح مكة دخل المسجد والأصنام منصوبة حول الكعبة، فجعل يطعن بسية قوسه في عيونها ووجوهها ويقول: ﴿جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً﴾ ثمّ أمر بها فكفئت على وجوهها ثمّ أُخرجت وحرّقت، وفيه يقول راشد بن عبدالله السلمي:

قالت: هلمّ الى الحديث فقلت: لا ... يأبى الإله عليك والإسلامُ
أو ما رأيت محمّداً وقبيله ... بالفتح حين تُكَسّر الاصنامُ
لرأيت نور الله أضحىٰ ساطعاً ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

راجع المصدر السابق: ص ٤٣ ـ ٤٧.

(١) وقال الكلبي: وكان لهم إساف ونائلة، وهما رجل وامرأة من جُرهُم من أرض اليمن، وكان أساف يتعشّقها، فاقبلوا حجاجاً الى الكعبة فدخلا الكعبة فوجدا خلوةً ففجر بها فمُسخا حجرين ووضعا عند الكعبة ليتّعظ الناس بهما، فلمّا طال مكثهما وعبدت الأصنام عُبدا معها، وكان أحدهما بلصق الكعبة الى الآخر، فكانوا ينحرون ويذبحون عندهما. المصدر نفسه: ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٢) قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٤٨.

(٣) قاله الضحاك والكلبي، وروي عن الباقر عليه السلام. راجع تفسير العياشي: ج ١ ص ١٠٤ ح ٣٠٨، وتفسير الماوردي: ج ٢ ص ٤٢٨.

القيامةِ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا﴾ ٱخْتَلَفُوا ﴿فِيهِ﴾ ويُمَيَّزُ المُحِقُّ من المُبطلِ، ولكنَّ الحكمةَ أوجَبَتْ أن تَكونَ هذهِ الدّارُ للتّكليفِ وتلك للثّوابِ والعقابِ.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ (٢٠) وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١)﴾

أَرادُوا ﴿ءَايَةٌ﴾ مِنَ الآياتِ الّتي كانوا يَقْتَرِحُونَها ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ هو المختصُّ بِهِ، والصّارفُ عن إنزالِ الآياتِ المُقتَرَحةِ أَمرٌ مَغيبٌ لايَعْلَمُهُ إلّا هُوَ ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نُزُولَ ما اقْتَرَحْتُمُوهُ ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لِمَا يَفْعَلُ ٱللهُ بكُم لِعِنادِكُم وتَمادِيكُم في جُحُودِ الآياتِ الباهرةِ الّتي لَمْ يَنْزِلْ علىٰ أحدٍ مِنَ الأَنبياءِ مِثلُها، وَمِنْ جملَتِها القرآنُ المُعجزُ البَاقِي علىٰ وجهِ الدّهرِ.

﴿إِذَآ﴾ الأُولَىٰ للشرطِ والأَخِيرَةُ جوابُها، وهِيَ ظرفُ مكانٍ، والمَكْرُ: إخفاءُ المَكيدَةِ وطيُّها، مِنَ الجاريةِ المَمكُورةِ: المَطْوِيَّةِ الخَلقِ، و ﴿مَسَّتْهُمْ﴾ خالَطَتْهم حتّىٰ أَحَسُّوا بسُوءِ أَثرِهَا فيهِمْ، وهُو أَنّه سبحانَهُ سَلَّطَ علىٰ أهلِ مكّةَ القحطَ سبعَ سِنينَ حتّىٰ كادُوا يَهلِكُونَ، ثُمَّ لمّا رَحِمَهُم بالحَيا[1] صارُوا يَطْعُنُونَ في آياتِ اللهِ ويُعادُونَ رسولَهُ ويَكِيدُونَهُ، فلذلك وَصَفَهُم بسُرعةِ المكرِ حتّىٰ أتىٰ بكلمةِ المُفاجَأةِ، فكأنّهُ قال: فاجَأوا وقوعَ المكرِ مِنهُم وسَارَعُوا إليه ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ يُدَبِّرُ عقابَكُم ويُوقِعُهُ بِكُم قَبلَ أَن تُدَبِّرُوا في إطفاءِ نورِ الإسلامِ ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ إعلامٌ بأَنَّ ما يَظُنُّونَهُ خافياً غيرُ خافٍ عندَ ٱللهِ تعالىٰ.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ

(١) أحيا القوم: إذا صاروا في الحيا وهو الخصب، وأيضاً: المطر. (الصحاح: مادة حيا).

بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) ﴾

قُرِئَ: «يَنْشُرُكُمْ»(١) مِنَ النشرِ، ومِثلُهُ: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾(٢) والمعنىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ يُمَكِّنُكُمْ من السيرِ بِمَا هَيَّأَ لكُم مِن أَسبابِ السَيرِ ﴿فِى ٱلْبَرِّ﴾ بخلقِ الدَوابِّ وتسخيرِها لَكُم ﴿وَ﴾ فِي ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ بإرسالِ الرياحِ الَّتي تُجري السُفُنَ في الجِهاتِ المُختلِفةِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ خَصَّ الخِطابَ براكِبي البحرِ، أَي: إِذَا كُنْتُمْ فِي السُفُنِ ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ عَدَلَ عن الخِطابِ إِلى الغَيبةِ للمُبالَغَةِ، كأَنَّهُ يَذْكُرُ لغيرِهِم حَالَهُم ليُعَجِّبَهُم مِنهَا، أَي: وَجَرَتِ ٱلْفُلْكُ أَي: السُفُنُ بِالنَاسِ ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لَيِّنَةٍ يَستَطِيبُونَها، وجوابُ ﴿إِذَا﴾ قولُهُ: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي: شديدَةُ الهُبوبِ هائلَةٌ ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من أَمكنةِ الموجِ ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ وهو مَثَلٌ في الهَلاكِ ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ هو بدلٌ من ﴿ظَنُّوٓاْ﴾ لأَنَّ دعاءَهُم من لوازِمِ ظَنِّهِم الهَلاكَ، وهو مُلتبِسٌ بِهِ، والجملةُ الشَرطيَّةُ الواقعةُ بعدَ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ بِمَا في حيِّزِها غايَةٌ للتسييرِ، فكأَنَّه قالَ: هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ حَتَّىٰٓ إِذَا وَقَعَتْ هذِهِ الحادثَةُ وكانَ كَيْتَ وكَيْتَ من مَجيءِ الريحِ العاصفِ وتَراكُمِ الأَمواجِ والظَنِّ للهَلاكِ والدُعاءِ بالإِنجاءِ، وقالَ: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لأَنَّهم

(١) وهي قراءة زيد بن ثابت وابن عامر وأبي جعفر يزيد بن القعقاع والحسن وأبي العالية وزيد ابن علي وعبدالله بن جبير وأبي عبدالرحمن وشيبة. راجع التبيان: ج ٥ ص ٣٥٩، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ١٣٧.

(٢) الروم: ٢٠.

لا يَدعُونَ حينَئذٍ غيرَهُ معهُ ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ علىٰ إرادةِ القَولِ، أو لأَنَّ ﴿دَعَوُاْ﴾ من جملةِ القولِ.

﴿يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يُفسِدُونَ فيها ويَعِيثُونَ مُمعنينَ في ذلِكَ، وقُرِئَ: ﴿مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالنصبِ، والفرقُ بينَ القِراءَتَيْنِ [1] أَنَّكَ إذَا رَفَعْتَ كانَ «المَتاعُ» خبرَ المبتدأ الَّذي هو ﴿بَغْيُكُمْ﴾، و ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ صلتُهُ كقَولِهِ: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [2]، ومعناهُ: إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَمثالِكُم، أَي: بغيُ بعضِكُم على بعضٍ مَنفَعَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا لا بقاءَ لَهاَ، وإذا نَصَبْتَ فالخبرُ ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ والمعنىٰ: إِنَّمَا بَغْيُكُمْ وبالٌ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، و ﴿مَتَـٰعَ﴾ مصدرٌ مُؤَكِّدٌ.

وفي الحديثِ: «لا تَمكُرْ ولا تُعِنْ ماكراً، ولا تَبغِ ولا تُعِنْ باغياً، ولا تَنكُثْ ولا تُعِنْ ناكثاً» وكانَ يَتلُوها [3]. ورُوِيَ: «ثِنتانِ يُعجِّلُهُمَا اللهُ في الدُّنيا: البَغيُ، وعُقوقُ الوالدَيْنِ» [4].

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (٢٦)﴾

(١) يظهر أنّ المصنّف ﷺ اعتمد على القراءة الأُخرىٰ أي بالرفع كما هو واضح من عبارته.
(٢) القصص: ٧٦.
(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٣٣٩.
(٤) رواه البخاري في تاريخه الكبير: ج ١ ص ١٦٦.

شَبَّهَ حالَ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ في سُرعةِ ٱنقضائها بحالِ ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ في جَفافِه بعدَ خُضْرَتِه ونَضْرَتِه ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ فَاشْتَبَكَ بِسَبَبِهِ حَتَّىٰ خالَطَ بعضُهُ بعضاً ﴿أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ مَثَّلَ ٱلأَرْضَ بالعروسِ إذا أَخَذَتِ الثيابَ الفاخِرةَ من كلِّ لَوْنٍ، فاكْتَسَتْها وتَزَيَّنَتْ بغيرِها من أنواعِ الزِيَنِ، وأَصلُ ﴿ٱزَّيَّنَتْ﴾: تَزَيَّنَتْ ﴿قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ مُتَمَكِّنُونَ مِنها مُحصِّلُونَ لمَنفعَتِهَا ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ وهُوَ ضربُ زُرُوعِها ببعضِ العاهاتِ والآفاتِ بعدَ أَمنِهِم وإِيقانِهم أَنَّه قد سَلِمَ ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي: فَجَعَلْنا زَرْعَها ﴿حَصِيدًا﴾ شبيهاً بما يُحصَدُ من الزرعِ مِنْ قَطْعِهِ واستئصالِهِ ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ أَي: كأَن لم تغنَ زَرْعُها، فحُذِفَ المُضافُ، أَي: لَمْ يَنْبُتْ، ولابُدَّ من حذفِ المُضافِ الَّذِي هو الزَرعُ في هذِهِ المَواضِعِ وإِلَّا لَم يَسْتَقِمِ المَعنَىٰ. وعن الحسَنِ: «كَأَنْ لَّمْ يَغْنَ» بالياءِ[1]، علىٰ أَنَّ الضَميرَ للمضافِ المحذوفِ الَّذي هو الزَرعُ، و«ٱلأَمْسُ»: مَثَلٌ في الوقتِ القريبِ، كأَنَّه قيل: كأَن لم يُوجَدْ من قبلُ.

﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ الجَنَّةِ، أَضافَها إِلى ٱسمِه، وقيلَ: السلامُ: السلامةُ[2]؛ لأَنَّ أَهلَها سالمونَ من كلِّ مكروهٍ، وقيلَ: لِفُشُوِّ ٱلسَلامِ بينَهم وتَسليمِ الملائكةِ عليهم[3] ﴿وَيَهْدِى﴾ ويُوفِّقُ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ وهمُ الَّذِينَ لهُمْ في المَعلومِ لطفٌ يُجدَىٰ عليهِمْ.

و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: المَثُوبةُ الحُسنَىٰ ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وما يزيدُ على المَثوبةِ وهيَ التَفضُّلُ، ويَدُلُّ عليهِ قولُه: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾[4]، وعَن عليٍّ عليه السلام: «الزيادَةُ: غُرفةٌ من لُؤْلُؤَةٍ واحدةٍ»[5]، وعن ٱبنِ عبَّاسٍ: الزيادةُ: عَشْرُ

---

(١) حكاها عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٣٤١.

(٢) وهو قول الزجّاج والجبائي. راجع معاني القرآن: ج ٣ ص ١٥، والتبيان: ج ٥ ص ٣٦٤.

(٣) حكاه الزمخشري في كشّافه: ج ٢ ص ٣٤١.

(٤) النساء: ١٧٣، والشورى: ٢٦.

(٥) أخرجه الطبري من طرقه في تفسيره: ج ٦ ص ٥٥٢ ح ١٧٦٤٩ و ١٧٦٥٠ و ١٧٦٥١.

أَمثالِها[١]، وعن مُجاهدٍ[٢]: الزيادةُ: مَغفرةٌ من اللهِ ورِضوانٌ[٣] ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ ولا يَغْشاها ﴿قَتَرٌ﴾ غُبرةٌ فيها سَوادٌ ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ ولا أَثرُ هَوانٍ، والمعنىٰ: لا يَرْهَقُهُم ما يَرهَقُ أَهلَ النارِ، كقولِه: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾[٤]، و﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا﴾ إِمَّا أَن يَكونَ مَعطوفاً علىٰ قولِه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ كأَنَّه قيلَ: ﴿وَ﴾ لـ ﴿الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾، وإِمَّا أَن يَكونَ تَقديرُهُ: ﴿وَ﴾ جزاءُ ﴿الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾، والمعنىٰ: جزاؤُهم أَن تُجازَىٰ سيِّئَةٌ واحدةٌ بمثلِها لايُزادُ عليها، وهذا أَوجَهُ لأَنَّ في الأَوَّلِ

---

(١) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٢ ص ٤٣٣.

(٢) هو مجاهد بن جبر، مولى بني مخزوم، تابعي، مفسّر من أهل مكّة، قال الذهبي: أخذ التفسير عن ابن عباس، قرأه عليه ثلاث مرّات. تنقّل في الأسفار واستقرّ في الكوفة. أمّا كتابه في التفسير فيتّقيه المفسّرون، وسئل الأعمش عن ذلك فقال: كانوا يرون أنّه يسأل أهل الكتاب، يعني اليهود والنصارىٰ، مات بمكّة سنة ثلاث ومائة وهو ابن ثلاث وثمانين سنة. انظر ميزان الاعتدال للذهبي: ج ٣ ص ٩.

(٣) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ٦ ص ٥٥٢ ح ١٧٦٥٥، والسيوطي في الدر المنثور: ج ٤ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم، وأبو حيان في البحر المحيط: ج ٥ ص ١٤٦.

(٤) عبس: ٤١.

عطفاً علىٰ عاملَيْنِ، وفي هذا دليلٌ علىٰ أَنَّ المُرادَ بالزيادةِ: الفضلُ ﴿مَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أَي: لايَعْصِمُهم أَحدٌ من سَخَطِ اللهِ وعذابِهِ، أَو مـالَهُمْ مـن جِـهةِ اللهِ من يَعْصِمُهم كما يَكونُ للمُؤْمِنينَ ﴿مُظْلِماً﴾ حالٌ من الليلِ، ومَـن قَـرَأَ: «قِـطْعاً» بالسُكونِ[١] جَعَلَهُ صفةً لَه ﴿مَكَانَكُمْ﴾ الزَموا مكانَكم لا تَبرَحُوا حتَّىٰ تَنظُروا ما يُفعَلُ بكم، و﴿أَنتُمْ﴾ تأكيدٌ للضميرِ في ﴿مَكَانَكُمْ﴾؛ لأَنَّـه سـدَّ مَسَـدَّ «الزَمُـوا» ﴿وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ عطفٌ عليهِ ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ فَفرَّقْنا بينَهم وقَطَعْنَا الوُصَلَ الَّتي كانَتْ بَيْنَهم في الدُنيا ﴿مَاكُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ إِنَّما كُنتُم تَعْبُدُونَ الشياطينَ حيثُ أَمَروكُمْ أَن تَتَّخِذوا للهِ أَنداداً فأَطَعْتُمُوهُمْ.

﴿إِن كُنَّا﴾ هي المُخَفَّفَةُ من الثقيلةِ، واللامُ هي الفارِقةُ، وهُم الملائكةُ والمسيحُ ومَن عَبَدُوه مِن دونِ اللهِ من أُولِي العقلِ، وقيل: هم الأَصنامُ يُنْطِقُها اللهُ عـزَّوجلَّ بذلكَ مكانَ الشفاعةِ الَّتي رَجَوْها منهم[٢].

﴿هُنَالِكَ﴾ أَي: في ذلكَ المقامِ، أَو في ذلك الوقتِ على الاِستِعارةِ ﴿تَبْلُواْ﴾ أَي: تَخْتَبِرُ وتَذوقُ ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ مِن العملِ فتَعْرِفُ كيفَ هو، أَنـافعٌ أَم ضارٌّ؟ أَو مقبولٌ أَو مردودٌ؟ ومنهُ ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[٣]، وقُرِئَ: «تَتْلُوا»[٤] أَي: تَتَّبِعُ مَا أَسْلَفَتْ؛ لأَنَّ عملَه هو الَّذي يَهديهِ إِلىٰ طريقِ الجَنَّةِ أَو إِلىٰ طريقِ النَارِ، أَو تَقْرَأُ في صَحيفتِها ماقَدَّمَتْ من خيرٍ أَو شرٍ ﴿مَوْلَيٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ ربِّهم الصَّادِقِ رُبُوبِيَّتُه، أَو الَّذي يَتَوَلَّىٰ حسابَهم العَدلِ الَّذي لا يجورُ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَـانُواْ يَـفْتَرُونَ﴾

---

(١) وهي قراءة ابن كثير والكسائي ويعقوب. راجع كتاب السبعة في القراءات لابـن مـجاهد: ص ٣٢٥.

(٢) قاله مجاهد وابن زيد وابن عطية راجع تفسير الطبري: ج ٦ ص ٥٥٦.

(٣) الطارق: ٩.

(٤) قرأه حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٢٥.

وضاعَ عَنهم ماكانوا يَدَّعونَ أَنَّهم شركاءُ للهِ.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)﴾

أَي: ﴿مَن يَرْزُقُكُم﴾ منهما جميعاً؟ لم يَقتَصِرْ برزقِكم علىٰ جِهةٍ واحدةٍ لِيُفيضَ عليكم نِعمتَه ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ من يَستَطيعُ خلقَهما وتَسويتَهما على الحدِّ الَّذي هما عليهِ مِن الفِطرةِ العجيبةِ؟ أَو مَن يَحميهما ويُحصِّنُهما من الآفاتِ؟ ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ ومَن يَلِي تَدبيرَ أَمرِ العالَمِ كُلِّه؟ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عِقابَه في عبادةِ غيرِه.

﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ إشارةٌ إِلىٰ مَن هذه صفتُه وأَفعالُه ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الثابتُ رُبوبيَّتُه وإِلٰهيَّتُه ثَباتاً لاريبَ فيه لِمَن نَظَرَ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ﴾ لأَنَّ الحقَّ والضلالَ لا واسطةَ بينَهما، فمَن تَعدَّى الحقَّ وَقَعَ في الضَّلالِ ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ عنِ الحقِّ؟

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَي: مثلُ ذلكَ الحقِّ ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أَي: كما حَقَّ وثَبَتَ أَنَّ الحقَّ بعدَهُ الضلالُ فَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ تَمَرَّدوا في الكفرِ وخَرَجُوا إِلى الغايةِ القُصوىٰ فيهِ ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدلٌ من «الكَلِمَةِ»، أَي: حقَّ عَلَيهم انتِفاءُ الإيمانِ وعَلِمَ اللهُ ذلكَ منهُم، أَو أَرادَ بالكلمةِ: العذابَ، و ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تَعليلٌ، بمعنىٰ: لأَنَّهم لايُؤْمِنونَ.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ

ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾

وَضَعَ سُبحانَه إعادةَ الخَلقِ مَوضِعَ ما يَكونُ دافِعُه مُكابِراً؛ لظُهورِ برهانِه، ثُمَّ قالَ لنبيِّه صلى الله عليه وآله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أَمَرَهُ أن يَنوبَ عنهُم في الجوابِ، إذ لا يَدَعُهم لَجاجُهم ومُكابَرتُهم أن يَنْطِقُوا بكلمةِ الحقِّ، هَداهُ لِلْحَقِّ و إِلَى ٱلْحَقِّ: لُغتانِ، فجَمَعَ سُبحانَه بينَ اللُّغتَيْنِ، ويقالُ: هَدَىٰ بنفسِه، بمعنَى: اَهتدَى، كما يُقالُ: شَرَىٰ بمعنىٰ: اَشتَرَى، ومنه قِراءَةُ مَن قَرَأَ: «أَمَّنْ لَّا يَهْدِي»[1]، وقُرِئَ: «لَا يَهَدِّي» بفتحِ الهاءِ[2] وبكسرِها، وبكسرِ الهـاءِ واليـاءِ[3]، وأَصـلُه: «يَـهْتَدِي»، فأُدْغِـمَ وفُتِحَتِ الهاءُ لحركةِ التاءِ، أو كُسِرَتْ لالتقاءِ الساكنَيْنِ، وكُسِـرَتِ اليـاءُ لاتِّـباعِ مابعدَها، ومعناهُ: أنَّ اللهَ وحدَه هُو الَّذِي يَهْدِي للحقِّ بما رَكَّبَ في المُكلَّفينَ مـن العُقولِ ومَكَّنَهم من النَظرِ في الأَدلَّةِ ووَقَّـفَهم[4] عـلى الشَـرائـعِ، فـ ﴿هَـلْ مِـن شُرَكَآئِكُم﴾ الَّذينَ جَعَلْتُموهم للهِ أَنداداً أَحدٌ ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ مثلَ هدايةِ اللهِ؟

ثُمَّ قال: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ هذهِ الهداية ﴿أَحَقُّ﴾ بـالاتِّباعِ أَمِ الَّـذي ﴿لَّا يَـهِدِّيٓ﴾ أَي: لايَـهتَدِي بـنفسِهِ، أَو لا يَـهدِي غـيرَه ﴿إِلَّآ أَن﴾ يَـهْدِيَه اللهُ،

---

(١) وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف والمفضّل ويحيىٰ بن وثّاب والأعمش. راجـع كـتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٢٦، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ١٥٦.

(٢) قرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وورش وابن محيصن. راجع التـبيان: ج ٥ ص ٣٧٥، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ١٥٦.

(٣) وهي قراءة عاصم برواية أبي بكر كما في كـتاب السـبعة فـي القـراءات لابـن مـجاهد: ص ٣٢٦، وفي التبيان: ج ٥ ص ٣٧٥: هي قراءة أبي بكر إلّا الأعشىٰ والبرجمي.

(٤) في بعض النسخ: وفّقهم، وفي بعض الآخر زيادة: وأعلمهم.

أَو لا يَهْتَدِي إِلَّا أَن يَنْقُلَه الله من حالِه إِلىٰ أَن يَجْعَلَه حَيَواناً مُكلَّفاً فيهْدِيَه؟! ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بالباطلِ؟!

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ في إقرارِهم باللهِ ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ لأنَّه قولٌ لا يُسْنَدُ إِلىٰ دليلٍ ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ﴾ في معرفةِ اللهِ ﴿لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو العلمُ ﴿شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وعيدٌ.

﴿وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠)﴾

أي: ﴿وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ افتراءً ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن﴾ كانَ ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهو ما تَقَدَّمَهُ مِن الكُتبِ المُنزَلةِ؛ لأنَّه مُعْجِزٌ دُونَها، وهو عِيارٌ عليها وشاهدٌ بصِحَّتِها، ومعنىٰ ﴿وَمَا كَانَ ... أَن يُفْتَرَىٰ﴾: وما صَحَّ وما استقامَ وكانَ مُحالاً أَن يَكونَ مثلُهُ في إعجازِه وعُلوِّ شأنِه مُفترىً ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ وتبيينَ ما شُرِعَ وفُرِضَ من الأحكامِ من قولِه: ﴿كِتَـٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[1]. ﴿وَلَـٰكِن﴾ كانَ القُرآنُ تَصديقاً للكُتُبِ السَماويَّةِ وتفصيلاً للأحكامِ الشرعيَّةِ، مُنتفياً عنهُ الريبُ كائناً ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ بل أَيَقولونَ: اختَلَقَهُ؟! والهمزةُ: إمَّا تَقريرٌ لإلزامِ الحُجَّةِ عليهِم، أَو ٱستِبعادٌ لقولِهِم وإنكارٌ، والمعنَيانِ متقاربانِ ﴿قُلْ﴾ إِنِ ٱفتَرَيْتُه كما

(١) النساء: ٢٤.

زَعَمتُمْ ﴿فَأْتُواْ﴾ أنتم ﴿بِسُورَةٍ﴾ مُفتراةٍ ﴿مِّثْلِهِ﴾ فِي البَلاغةِ وحُسنِ النَظمِ، كما أَنتُم مِثلي في العربيَّةِ والفَصاحةِ ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ لِلإستعانةِ بِه على الإِتيانِ بمثلِه ﴿مِن دُونِ ٱللهِ﴾ يَعنِي أَنَّ اللهَ وحدَهُ هو القادرُ علىٰ أَن يَأْتِيَ بمثلِه، لا يَقْدِرُ علىٰ ذلكَ أَحدٌ غيرُه، فاسْتَعينُوا بكلّ من دونه علىٰ ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أَنّه ٱفْتَراهُ. ﴿بَلْ كَذَّبُواْ﴾ بالقرآنِ قبلَ أَن يَعْلَمُوا كُنهَ أَمرِه، ويَقِفُوا علىٰ ﴿تَأْوِيله﴾ ومَعانيهِ؛ لنُفورِهم عمَّا يُخالِفُ ما أَلَفُوه من دينِ آبائهم، وقيلَ: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أَي: ولم يَأْتِهم بعدُ تَأْويلُ مافيهِ من الإِخبارِ بالغيوبِ ـ أَي عاقبتُه ـ حتَّىٰ تَبَيَّنَ لهم أَهو كِذبٌ أَم صِدقٌ[1]، يَعنِي: أَنّه كتابٌ مُعجزٌ من جِهتَيْن: إِعجازِ نظمه، وما فيهِ من الإِخبارِ بالغائباتِ، فسارَعُوا إِلى التَكذيبِ قبلَ أَن يَنظُرُوا في بلوغِه حدَّ الإِعجازِ، وقبلَ أَن يَختَبِروا إِخبارَهُ بالمَغيباتِ.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ في نَفسِهِ ويَعْلَمُ أَنّه حقٌّ، ولٰكِنَّه يُعانِدُ ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا﴾ يُصدِّقُ ﴿بِهِ﴾، أَو: وَمِنهُمْ مَن سَيُؤْمِنُ بِهِ في المُستَقْبَلِ، ومنهم من يُصِرُّ على الكفرِ ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بالمُعانِدينَ، أَو المُصِرّينَ.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ ٱللهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)﴾

﴿وَإِن﴾ يَئِستَ مِن إِجابتِهِم وأَصَرُّوا علىٰ تكذيبِك فَتَبَرَّأْ منهم وخَلِّهم، فقَدْ

---

(١) حكاه الشيخ في التبيان: ج ٥ ص ٣٨٠.

أَعذَرْتَ إليهم، ومثلُه: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١]، ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ إلى آخرِ السُورةِ[٢]، وقيلَ: هي مَنسوخةٌ بآيةِ القِتالِ[٣].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أَي: ناسٌ يَستَمِعُونَ إذا قَرَأْتَ القرآنَ وعَلَّمْتَ الأَحكامَ ولكنَّهم لا يَقْبَلُونَ ولا يَعُونَ، وناسٌ يَـنْظُرُونَ إليكَ ويُـعايِنونَ دَلالاتِك وأَعلامَ نُبُوَّتِك ولٰكنَّهم لا يُصَدِّقُونَ، ثمّ قالَ: أَتَقْدِرُ علىٰ إسماعِ ﴿ٱلصُّمَّ﴾ ولو ٱنْضَمَّ إلىٰ صَمَمِهم عدمُ العقلِ؟! لأَنَّ الأَصمَّ العاقلَ ربَّما اسْتَدَلَّ وعَلِمَ، و: أَتَطْمَعُ أَن تَقْدِرَ علىٰ هدايةِ ﴿ٱلْعُمْىَ﴾ ولو ٱنْضَمَّ إلىٰ فقدِ البَصَرِ فقدُ البصيرةِ؟! يَعني: أَنَّـهم فـي اليأسِ من قبولِهم وتَصديقِهم كالصُمِّ والعُـمْيِ الَّـذينَ لا عـقولَ لَـهم ولا بَـصائر. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ لا يَنقُصُهم شيئاً ممَّا يَتَّصِلُ بمَصالِحِهم، أَو لا يَظْلِمُهم في تَعذيبِهم يومَ القيامةِ، بل العذابُ لاحقٌ بهم علىٰ سبيلِ العَدْلِ والاِستحقاقِ.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ (٤٥) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧)﴾

يَستقرِبونَ أَيّامَ لَبثِهم في الدُنيا لقلَّةِ ٱنتِفاعِهم بها، وقـيلَ: فـي القـبورِ لهَـولِ ما يَرَون[٤] ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يَعْرِفُ بعضُهم بعضاً كأَنَّهم لم يَتَفارقُوا[٥] إلَّا قليلاً، وذلكَ عندَ خروجِهم من القبورِ، ثُمَّ يَنقَطِعُ التَعارُفُ بينَهم لشدَّةِ الأَمرِ عليهم، قولُه: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ حالٌ مِن «هُمْ» أَي: نَحْشُرُهُمْ مُشابِهةً أَحوالُهم أَحوالَ مَـن لَـم

(١) الشعراء: ٢١٦. (٢) سورة «الكافرون».

(٣) قاله ابن زيد والكلبي ومقاتل. راجع التبيان: ج ٥ ص ٣٨١، وتفسير البغوي: ج ٢ ص ٣٥٥.

(٤) قاله ابن عبّاس. راجع تفسيره: ص ١٧٤، وتفسير البغوي: ج ٢ ص ٣٥٥، واختاره الزجّاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ٢٢. (٥) في بعض النسخ: يتعارفوا.

يلبث ﴿إِلَّا سَاعَةً﴾، و ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ جملةٌ مُبيّنةٌ لقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً﴾؛ لأنَّ التعارُفَ لا يبقىٰ مع طولِ العهدِ ويَصيرُ تناكُراً، أو يتعلَّقُ بالظرفِ ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ علىٰ إرادةِ القولِ، أي: يتعارفونَ بينَهم قائلينَ ذلكَ، أو هوَ شهادةٌ من اللهِ علىٰ خسرانِهم، والمعنىٰ: قد خسِروا في تجارتِهم وبيعِهم الإيمانَ بالكفرِ ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ للتجارةِ عارفينَ بها، وهو استئنافٌ فيه معنَى التعجُّبِ، كأنّه قالَ: ما أخْسَرَهُم!

﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جوابُ ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وجوابُ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ محذوفٌ كأنّه قالَ: وإمّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ في الدُنيا فذاكَ، أو نتوفَّيَنَّكَ قبلَ أن نُريَكَه فنحنُ نُريكَه في الآخرةِ ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ ذكَرَ الشهادةَ والمرادُ مُقتَضى الشهادةِ وهو العِقابُ، فكأنَّه قالَ: ثُمَّ اللهُ مُعاقِبٌ ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ يُبْعَثُ إليهم ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالمُعجزاتِ فكذّبوهُ ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم﴾ أي: بينَ النبيِّ ومَن كذَّبه ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدلِ، فأُنْجِيَ الرسولُ وعُذِّبَ المُكذِّبونَ، وقيلَ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ يومَ القيامةِ ﴿رَّسُولٌ﴾ تُنسَبُ إليه ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ المَوقِفَ فَيَشْهَدُ عليهم بالكُفرِ والإيمانِ ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم﴾[١].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٤٨) قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرّاً وَلَانَفْعاً إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَايَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَيكُمْ عَذَابُهُ بَيَـٰتاً أَوْ نَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَاوَقَعَ ءَامَنتُم بِهِ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢)﴾

(١) قاله مجاهد ومقاتل. راجع التبيان: ج ٥ ص ٣٨٧، وتفسير البغوي: ج ٢ ص ٣٥٦.

﴿مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ استِعجالٌ لِما وُعِدُوا منَ العذابِ علىٰ سبيلِ التَكـذيبِ والاِستبعادِ ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرّاً﴾ من فَقرٍ أو مَرَضٍ ﴿وَلَا نَفْعاً﴾ مِن غِنىً أو صِحَّةٍ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ استِثناءٌ مُنقطِعٌ، أي: ولكنَّ ماشاءَ اللهُ مِـن ذلكَ كـائنٌ فكيفَ أَمْلِكُ لكم الضَرَّ؟! ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ في عذابِهم وحدٌّ محدودٌ من الزَمـانِ ﴿إِذَا جَآءَ﴾ ذلكَ الوقتُ أُنجِزَ وعدُكم فَلا تَسْتَعْجِلُوه.

﴿إِنْ أَتَيكُمْ عَذَابُهُ بَيَـٰتاً﴾ ظـرفٌ، أَي: وقتَ بـياتٍ فـبَيَّتَكم وأَنـتم نـائمونَ ﴿أَوْ نَهَاراً﴾ أَي: أو في وقتٍ أَنتم فيهِ مُشتَغِلونَ بطلبِ مَعاشِكم، والبَياتُ بـمعنَى التَبييتِ، كالسَلامِ بمعنَى التسليمِ ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أَي: أَيَّ شـيءٍ يَسْتَعْجِلونَ من العذابِ وليس شيءٌ منه يوجِبُ الاِستِعجالَ؟ ويَـجوزُ أَن يَكـونَ معناه التَعجُّبَ، كَأَنـّه قالَ: أَيَّ هَولٍ شديدٍ يَسْتَعْجِلونَ منهُ؟! وقـيلَ: الضَـميرُ فـي ﴿مِنْهُ﴾ للهِ تعالىٰ وتَعَلَّقَ الاِستِفهامُ بِـ﴿أَرَءَيْـتُمْ﴾ (١)، والمـعنَىٰ: أَخْـبِروني مـاذا يَسْتَعْجِلُ منه المُجرِمونَ؟ وجوابُ الشَرطِ محذوفٌ وهو «تَندَمُوا على الاِستعجالِ» أَو «تَعرِفُوا الخَطأَ فيه»، ويَجوزُ أَن يَكونَ ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ جَواباً للشرطِ، كقولِكَ: إِن أَتيتُكَ ماذا تُطْعِمُني؟ ثمَّ تَتَعَلَّق الجملةُ بـ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، وأَن يَكونَ ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِ﴾ جوابَ الشَرطِ، و ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْـمُجْرِمُونَ﴾ اعتراضاً، والمعنَىٰ: إِن أَتاكُم عذابُه آمَنْتُمْ بِه بعدَ وقوعِه حينَ لا يَنْفَعُكم الإِيمانُ به؟ ودخولُ حرفِ الاِستِفهامِ علىٰ «ثُمَّ» كدخولِه على الواوِ والفاءِ في قولِه: ﴿أَفَأَمِنَ﴾ (٢) ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ (٣)، ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾ علىٰ إرادةِ القولِ، أَي: قيلَ لهم إذا آمَنوا بعدَ وقوعِ العذابِ: الآنَ آمَنْتُم به وقد كُنْتُمْ تُكَـذِّبونَ بِـه؟ لأَنَّ اسـتِعجالَهم كـانَ

(١) قاله الفرّاء في معاني القرآن: ج ١ ص ٤٦٧.
(٢ و٣) الأعراف: ٩٧ و ٩٨.

للتكذيب. ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ عطفٌ على «قيل» المُضمَرِ قبلَ ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾.

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)﴾

أي: ويَسْتَخبِرُونَكَ فيقولونَ: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾، وهو آستِفهامٌ على وجهِ الإنكارِ والاستِهزاءِ ﴿قُلْ إِى﴾ ومعناهُ: «نَعَمْ» في القَسَمِ، كما كانَ «هَلْ» بمعنى «قَدْ» في الاستِفهامِ خاصَّةً ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتينَ العذابَ، وهو لاحقٌ بكُم لامَحالةَ.

﴿ظَلَمَتْ﴾ صفةُ ﴿نَفْسٍ﴾ أي: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ ظالمةٍ ﴿مَا فِى﴾ الدُنيا اليومَ من خزائنِها وأموالِها على كَثرتِها ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ لَجعلَتْهُ فِدْيَةً لها، يُقالُ: فَداهُ فَافْتَدى ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ لأنَّهم بُهِتُوا لرُؤْيتِهِم ما لم يَحْتَسِبُوه، عايَنوا من تَفاقُمِ الأَمرِ ما سَلَبَهم قُواهم فلم يُطِيقوا عندَه بُكاءً ولا صُراخاً سِوى إسرارِ النَدامةِ في القُلوبِ، وقيلَ: أَسَرُّوا الرُؤَساءُ منهم النَدامةَ من أَتْباعِهم حياءً منهم وخوفاً من تَوبيخِهم[1]، وقيلَ: ﴿أَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أَخْلَصُوها؛ لأَنَّ سرَّ الشَيءِ خالصُهُ[2]، وقيل: معناه: أَظْهَروها[3] ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بينَ الظالمينَ والمَظلومينَ.

ثمَّ ذكَرَ سبحانَه: أَنَّ له المُلكَ كلَّهُ، وأَنَّه المُثيبُ والمُعاقِبُ، وأَنَّ ماوَعَدَه ﴿حَقٌّ﴾، وهو القادرُ على الإحياءِ والإماتةِ لايَقْدِرُ عليهما غيرُه، وَإلَى حسابِه وجزائِهِ

(١) قاله الفرّاء في معاني القرآن: ج ١ ص ٤٦٩، والزجّاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ٢٥.
(٢) ذكره الشيخ في التبيان: ج ٥ ص ٣٩٢.
(٣) وهو قول أبي عبيدة كما حكاه عنه الشيخ في التبيان: ج ٥ ص ٣٩٣.

المَرجِعُ، ليُعْلَمَ أَنَّ الأَمرَ كذلكَ فيُخافَ ويُرجىٰ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠)﴾

أَي: قَدْ جاءَكُمْ كتابٌ جامعٌ لهذهِ الفوائدِ من: ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾ وتنبيهٍ عَلى التَوحيدِ ﴿وَشِفَآءٌ﴾ أَي: دَواءٍ ﴿لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ من العقائدِ الفاسدةِ ﴿وَهُدًى﴾ أَي: دَلالةٍ تُؤَدِّي إلى الحقِّ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ لِمَن آمَنَ به وعَمِلَ بما فيهِ. الأَصلُ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ فَلْيَفْرَحُوا ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾[1]، والتَكريرُ للتَأْكيدِ والتَقريرِ، وإِيجابِ اَختِصاصِ الفضلِ والرَحمةِ بالفرحِ دونَ ماعَداهما من فوائدِ الدُنيا، وأَحدُ الفعلَيْنِ حُذِفَ لدَلالةِ الآخَرِ عليهِ، ودَخَلَتِ الفاءُ لمعنى الشَرطِ، أَي: إِن فَرِحُوا بشيءٍ فَلْيَخُصُّوهما بالفَرَحِ فإِنَّه لا مَفروحَ به أَحقُّ منهما، وقُرِئَ: «فَلْتَفْرَحُوا» بالتَاءِ[2] على الأَصلِ والقياسِ، وقيلَ: فَضْلُ ٱللَّهِ: الإِسلامُ، ورحمتُهُ: القرآنُ[3].

---

(١) ليس في بعض النسخ: «فبذلك فليفرحوا».

(٢) قرأه أُبيّ وعثمان والسلمي وأنس يزيد بن القعقاع وابن عامر والحسن ورويس وهلال بن يساف والأعمش وعمرو بن قائد والعباس بن الفضل الأنصاري وقتادة وأبو رجاء وابن هرمز وابن سيرين وأجازها الفرّاء ونسبها الى زيد بن ثابت، وروي عن النبيّ ﷺ. راجع التبيان: ج ٥ ص ٣٩٥، والفريد في إعراب القرآن للهمداني: ج ٢ ص ٥٧٠، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ١٧٢.

(٣) وهو قول ابن عبّاس وأبي سعيد الخدري والحسن وقتادة ومجاهد. راجع تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٧، والتبيان: ج ٥ ص ٣٩٧.

وعنِ الباقرِ عليه السلام: «فضلُ اللهِ: رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله، ورحمتُهُ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ عليه السلام»[١].

﴿أَرَأَيْتُم﴾ أخبِروني، و ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: ﴿مَآ﴾ منصوبٌ بـ ﴿أَنزَلَ﴾ أو بـ ﴿أَرَأَيْتُم﴾ في معنىٰ: أخبِرونيهِ ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلَٰلاً﴾ أي: أَنزَلَه اللهُ رزقاً حلالاً كلَّه، فجَعَلتُمْ بعضَه حَلالاً وبعضَه حراماً، كقولِهم: ﴿هَٰذِهِ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾[٢]، ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾: ﴿قُلْ﴾ تكريرٌ، و ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ تَعلَّقَ بـ ﴿أَرَأَيْتُم﴾، أي أَخْبِروني: أَاللهُ أَذِنَ لكُم في التَحريمِ والتَحليلِ ﴿أَمْ﴾ تكذِبونَ على اللهِ في نسبةِ ذلك إليه؟ ويَجوزُ أن يَكونَ ﴿أَمْ﴾ مُنقَطِعةً، بمعنىٰ: بل أَتَفتَرونَ على اللهِ؟ تقريراً لِلافتراءِ.

وكَفَىٰ بِهذهِ الآيةِ زاجرةً عن التَجوُّزِ فيما يُسْأَلُ عنه من أَحكامِ الشَرعِ، وباعِثةً علىٰ وجوبِ الاحتياطِ فيه، وأَن لا يُقالَ: جائزٌ وغيرُ جائزٍ إلَّا بعدَ الإيقانِ والإتْقانِ، حتَّى لا يَكونَ مُفتَرِياً على اللهِ.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ أَي: وأَيُّ شيءٍ ظَنُّ المُفْتَرِينَ في ذلكَ اليوم ما يُصنَعُ بهم فيهِ؟ وهو يومُ الجَزاءِ بالإحسانِ والإساءَةِ، وهوَ وَعيدٌ عظيمٌ حيثُ أُبْهِمَ أَمرُه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بما فَعَلَ بهم مِن ضُروبِ الإنعامِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ نِعَمَهُ.

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٦١) أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ٱلَّذِينَ

(١) تفسير القمي: ج ١ ص ٣١٣. (٢) الأنعام: ١٣٨.

ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ لَاتَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٦٤) وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلهِ جَمِيعاً هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦٥) ﴾

﴿مَا﴾ نافيةٌ، والخطابُ لِرَسولِ ٱللهِ ﷺ، والشأنُ: الأَمرُ، وهوَ مِن شَأَنْتُ شَأْنَه، ومعناهُ: قَصَدْتُ قَصْدَهُ، والضَميرُ في ﴿مِنْهُ﴾ للشَأنِ؛ لأَنَّ تِلاوةَ القرآنِ شأنٌ مِن مُعظَمِ شأنِ رَسولِ اللهِ ﷺ، أَو للتنزيلِ، أَي: ﴿وَمَا تَتْلُواْ﴾ مِن التنزيلِ ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾، وهو إِضمارٌ قبلَ الذكرِ للتفخيمِ ﴿وَلَاتَعْمَلُونَ﴾ أَنتُم جميعاً ﴿مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ﴾ شاهدينَ، به عالِمينَ ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ مِنْ أَفاضَ في العَمَلِ: إِذَا ٱندفَعَ فيه ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ قُرِئَ بالضَمِّ والكسرِ [١]، أَي وما يَغيبُ وما يَبْعُدُ ﴿عَن رَبِّكَ﴾، ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ في مَوضِعِ رفعٍ ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾ قُرِئَ بالنَصبِ والرَفعِ [٢]، فالرَفعُ على الابتداءِ لِيكونَ كلاماً برأسِه، والنَصبُ علىٰ نَفيِ الجِنسِ، فأَمَّا العطفُ علىٰ موضِعِ ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ في الرَفعِ، والعطفُ علىٰ لفظِ ﴿مِثْقَالِ﴾ في النَصبِ، إِذا جَعَلْتَه فتحاً في مَوضِعِ الجرِّ، فلَيسا بالوَجهِ؛ لأَنَّ قولَكَ: لا يَعْزُبُ عنه شيءٌ إِلَّا فِي كِتابٍ لا وجهَ له.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهم الَّذين يَتَوَلَّوْنَه بالطَاعةِ وَيَتوَلّاهُم بالحفظِ والكَرامةِ، وقد أَبانَ عنهم بقَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

وعن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قالَ: سُئلَ النَبيُّ ﷺ عن أَولياءِ الله، فقالَ: «همُ الَّذينَ

(١) وبالكسر هي قراءة يحيىٰ بن وثّاب والأعمش وابن مصرف والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٢٨، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ١٧٤.

(٢) قرأه حمزة وخلف ويعقوب. راجع التبيان: ج ٥ ص ٣٩٩، والتذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٥١.

يُذَكِّرُ اللهَ برُؤيَتِهم»[(١)]، يعني: في السَّمْتِ[(٢)] والهَيئَةِ، وقيلَ: هم المُتحابُّونَ في اللهِ[(٣)].

﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ نصبٌ أَو رفعٌ على المدحِ أَو الابتداءِ، والخبرُ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾، والبُشرَىٰ ﴿فِى ... ٱلدُّنْيَا﴾: ما بَشَّرَ اللهُ المُتَّقينَ في غيرِ مَوضِعٍ من كتابِه.

وعنِ النبيِّ صلى الله عليه وآله: «هي في الدُنيا الرُؤيا الصَالِحةُ يَراها المُؤمنُ لنفسِه أَو تُرىٰ له، وفي الآخرة الجَنَّةُ»[(٤)].

وعنه عليه السلام: «ذَهَبَتِ النُبوَّةُ وبَقِيَتِ المُبَشِّراتُ»[(٥)].

وعن عطاءٍ[(٦)]: لَهُمُ البُشرىٰ عندَ الموتِ يَأْتِيهم الملائكةُ بالرَحمةِ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ﴾[(٧)]، وأَمَّا البُشرَىٰ في الآخرةِ فَتَلَقِّي الملائكةِ إيَّاهم مُسلِّمينَ مُبشِّرينَ بالفَوزِ والكَرامةِ وغيرِ ذلك من البِشاراتِ، نحوُ إعطاءِ الصُحُفِ بأَيمانِهم وما يَرونَ من بياضِ وُجوهِهم ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ لا تَغييرَ لأَقوالِه، ولا إخلافَ لمَواعيدِه ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ كونِهم مُبشَّرينَ في الدَارَيْنِ، وكلتا الجملتَيْنِ اعتراضٌ.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ تكذيبُهم وتَدبيرُهم في إبطالِ أَمرِكَ وسائرُ ما يَتكَلَّمونَ

---

(١) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٣٥٥.

(٢) السمت: هيئة أهل الخير، يقال: ما أحسن سمته، أي سيرته. (الصحاح: مادة سمت).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره: ج ٦ ص ٥٧٥ ـ ٥٧٦ باسناده الى أبي هريرة وعمر بن الخطاب وأبي مالك الأشعري كلّهم عن النبيّ صلى الله عليه وآله.

(٤) مسند أحمد: ج ٦ ص ٤٥٢، مستدرك الحاكم: ج ٢ ص ٣٤٠.

(٥) مسند أحمد: ج ٦ ص ٣٨١، سنن الدارمي: ج ٢ ص ١٢٣.

(٦) هو عطاء بن أبي رباح أسلم: أبو محمّد، تابعي، من الفقهاء، كان عبداً أسود ولد في جند باليمن، ونشأ بمكّة، فكان مفتي أهلها ومحدّثهم، مات سنة خمس عشرة ومائة وهو ابن ثمان وثمانين سنة بعدما عمي. راجع المعارف لابن قتيبة: ص ٣٢٠.

(٧) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٣٥٦.

به في شأنِك ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ استئنافٌ فيهِ تَعليلٌ، كأَنَّـه قـالَ: مَـالِي لَا أَحْـزَنُ؟ فأُجِيبَ: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ أَي: إِنَّ الغَلَبَةَ والقَهرَ جميعاً للهِ وفي مُلكَتِه، لايَمْلِكُ أَحدٌ شيئاً منهما، لا هُم ولا غيرُهُم، فهو يَغْلِبُهُمْ ويَنْصُرُكَ عليهِم، إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنا ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِما يَقُولُونَ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يَعْزِمُونَ عليهِ، فيُكافِئُهُمْ بذلِكَ.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَـتَّبِعُ ٱلَّـذِينَ يَـدْعُونَ مِـن دُونِ ٱللَّهِ شُـرَكَـآءَ إِن يَـتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّـنَّ وَإِنْ هُـمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَداً سُبْحَـٰنَهُ هُـوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ بِهَـٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَـعْلَمُونَ (٦٨) قُـلْ إِنَّ ٱلَّـذِينَ يَـفْتَرُونَ عَـلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَـرْجِعُهُمْ ثُـمَّ نُـذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾

﴿مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هُمُ العقلاءُ ٱلْمُمَيِّزُونَ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ وَالجِنِّ والإِنسِ، وإِنَّما خَصَّهُم ليُبَيِّنَ أَنَّهم إذا كانُوا عبيدَهُ وَفي مُلكَتِهِ ولا يَـصلُحُ أَحدٌ منهم للإِلـٰهِيَّةِ فما وَراءَهُم ممَّا لا يَعقِلُ ولا يُمَيِّزُ أَحَقُّ أَن لا يَكُونَ شريكاً لهُ؟! ومعنَىٰ ﴿وَمَا﴾ يَتَّبِعُونَ ﴿شُرَكَآءَ﴾: وما يَتَّبِعُونَ حقيقةَ الشُركاءِ؛ لأَنَّ شِركَةَ اللهِ في الإِلـٰهِيَّةِ مُحالٌ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا﴾ ظَنَّهُم أَنَّهم شـركاءُ ﴿وَإِنْ هُـمْ إِلَّا يَـخْرُصُونَ﴾ يُقَدِّرُونَ تَقديراً باطلاً، ويَجُوزُ أَن يَكُونَ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ ٱستفهاماً، أَي: وَأَيَّ شَيْءٍ يَتَّبِعُونَ؟ وَعلى هذا فيكونُ ﴿شُرَكَآءَ﴾ نصباً بـ﴿يَدْعُونَ﴾، وعلىٰ الأَوَّلِ بـ﴿يَتَّبِعُ﴾، وكانَ حقُّهُ: وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَاءَ شُرَكَـاءَ، فـاقتُصِرَ عـلى أَحدِهِما للدَلالةِ، ويَجوزُ أَن يَكُونَ ﴿مَا﴾ مَوصولةً عطفاً عَلَىٰ ﴿مَـنْ﴾، بـمعنَىٰ:

وللهِ ما يَتَّبِعُهُ الَّذِينَ يَدعُونَ من دونِ ٱللهِ شركَاءَ، أَي: وله شركاؤُهُم.

ثُمَّ نَبَّهَ علىٰ عظيمِ نعمتِهِ بأَنَّهُ ﴿جَعَلَ ... ٱلَّيْلَ﴾ مُظْلِماً ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ مُضيئاً ﴿مُبْصِراً﴾ لِيَسْكُنُوا فِي اللَّيلِ، ويَبْصُرُوا في النَهارِ مَطالِبَ أَرزاقِهِم.

﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ تَنزيهٌ له عنِ ٱتِّخاذِ الوَلَدِ ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ علَّةٌ لنفي الوَلَدِ؛ لأَنَّ ما يَطْلُبُ به الولدَ من يَلِدُ، وما يَطْلُبُه له، السَبَبُ في كلِّه الحاجةُ، وإِذا كانَتْ عنه مُنتفِيةً كانَ الوَلَدُ عنه مُنتفِياً ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فهو مُسْتَغْنٍ عنِ ٱتِّخاذِ أَحدٍ منهم ولداً ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ﴾ أَي: ما عندَكُمْ من حُجَّةٍ ﴿بِهَـٰذَآ﴾ القَولِ، ولمَّا نَفَىٰ عنهم الحُجَّةَ جَعَلَهُم غَيْرَ عَالِمِينَ، فَدَلَّ بذلك علَىٰ أَنَّ كلَّ قولٍ ليسَ عليه برهانٌ فهو جهلٌ وليس بعلمٍ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بإِضافةِ الولدِ إِليه. ﴿مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أَي: ٱفتراؤُهُم هذا متاعٌ قليلٌ ومنفعةٌ يَسيرةٌ فِي الدُنيا ﴿ثُمَّ﴾ يَلقَوْنَ الشَقاءَ المُؤَبَّدَ بعدَهُ.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللهِ فَعَلَى ٱللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ (٧٣)﴾

﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم﴾ أَي: شَقَّ وَثَقُلَ عليكُم مكانِي و ﴿مَقَامِى﴾ يَعني: نَفْسَهُ، كما يُقالُ: فَعَلْتُ كذا لِمكانِ فلانٍ، ومنهُ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ (١) يَعني: خَافَ

(١) الرحمن: ٤٦.

رَبَّهُ، أَو يُرِيدُ: قِيامِي وَمَكثِي بينَ أَظْهُرِكُم مُدَداً طِوالاً، أَو مَقامِي [1] ﴿وَتَذْكِيرِى﴾ لأَنَّهم كانُوا إذا وَعَظُوا قاموا علىٰ أَرْجُلِهِمْ لِيَكُونَ كلامُهم مَسمُوعاً ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ مِنْ أَجْمَعَ على الأَمرِ و أَجْمَعَ الأَمْرَ وَأَزْمَعَهُ: إذا عَزَمَ عليهِ، والواوُ بمعنىٰ «مَعَ»، أَي: فأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ مع ﴿شُرَكَآءَكُمْ﴾ واحتَشِدُوا [2] فيما تُرِيدُونَ من إهلاكي، وَابْذِلُوا وُسعَكُم فيهِ ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أَي: ولا يَكُنْ قصدُكُم إلىٰ إهلاكي مَستوراً عليكُم ولَكِنْ مَكشوفاً مَشهوراً تُجاهِرُونَني بِهِ، والغُمَّةُ: السُترةُ، من غَمَّهُ: إذا سَتَرَهُ، ومنه الحديثُ «لا غُمَّةَ في فرائضِ اللهِ» [3] أَي: لا تَستَتِرُوا، ولكِنْ تُجَاهِرُوا بها، ويَجوزُ أَن يَكونَ المعنىٰ: ثُمَّ أَهلِكُوني لِئَلَّا يَكونَ عيشُكم بسبَبِي غُمَّةً، أَي: غمّاً وهمّاً، والغُمَّةُ والغَمُّ بمعنىً كالكُرْبَةِ والكَرْبِ ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ ذلكَ الأَمرَ الَّذي تُرِيدُونَ بِي، أَي: أَدُّوا إِلَيَّ ما هو حقٌّ عليكُم عندَكُمْ، من إهلاكي كما يَقضِي الرَجُلُ غَرِيمَهُ ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ي ولا تُمْهِلُوني.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ فإن أَعْرَضْتُم عن نَصِيحتِي وعن اتِّباعِ الحقِّ ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ فما كان عِندِي ما يُنَفِّرُكُمْ عَنِّي من طمعٍ في أَموالكُم، وطلبِ أَجرٍ علىٰ موعِظَتِكُم ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ وهُو الثَوابُ الَّذي يُثِيبُنِي فِي الآخِرَةِ ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المُستَسلِمينَ لأَمرِ اللهِ، أَوِ الَّذينَ لا يَطْلُبُونَ علىٰ تَعليمِ الدينِ أَجراً ولا يَأْخذُونَ بِهِ دُنيا، يُرِيدُونَ: أَنَّ ذلكَ مقتضَى الإسلامِ.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أَي: فَتَمُّوا علىٰ تَكذيبِهِ، وكان تَكذيبُهم له في آخِرِ المدَّةِ الطويلةِ كَتَكذِيبِهم في أَوَّلِها ﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُ فِى﴾ السَفينةِ ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ﴾ خُلَفاءَ لِمَن هَلَكَ بالغَرَقِ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ هذا تعظيمٌ لِما جَرىٰ عليهِم،

(١) في نسخة: قيامي.

(٢) احتشد: إذا اجتمع. (الصحاح: مادة حشد).

(٣) رواه الزمخشري في كشّافه: ج ٢ ص ٣٦٠.

وتحذيرٌ لِمُكذِّبي رسولِ الله صلى الله عليه وآله عن مثلِه.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِالبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَـانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ (٧٤) ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ بِـَٔايَـٰتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ (٧٧) قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)﴾

أَي: ﴿بَعَثْنَا مِن﴾ بَعْدِ نوحٍ ﴿رُسُلاً﴾ يعني: هُوداً وَصالِحاً وَإبراهيمَ وَلُوطاً وشُعَيباً ﴿فَجَآءُوهُم﴾ بالمعُجزاتِ والحُجَجِ المُبَيِّنَةِ[1] لِدَعْوَاهُم ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ أَي: فَمَا كَانَ إِيمَانُهم إِلَّا مُمتَنِعاً لِتَصْمِيمِهم عَلَى الكُفرِ ﴿بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ﴾ يُريدُ: أَنَّهُم كَانُوا أَهلَ جاهليَّةٍ قبلَ بِعثَةِ الرُسُلِ، فَلَمْ يَكُنْ بينَ حالَتَيْهِم فرقٌ: قبلَ البِعثةِ وبعدَها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَي: مِثلُ ذلكَ الطَبْعِ ﴿نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ كأَنَّ الطَبعَ جارٍ مجرى الكِنايةِ عن عِنادِهِم؛ لأَنَّ الخِذلانَ يَتْبَعُهُ، أَلا تَرَىٰ أَنَّهُ وَصَفَهُم بالاِعتداءِ وأَسنَدَهُ إِليهم.

﴿مِن بَعْدِهِم﴾ أَي: من بعدِ الرُسلِ ﴿فَاسْتَكْبَرُواْ﴾ عَنْ قبولِ الآياتِ بعدَ تَبَيُّنِهَا ﴿وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾ كُفَّاراً ذَوِي آثامٍ عِظامٍ، فلِذٰلكَ اَستَكبَروا عنها واجْتَرَأوا علىٰ ردِّها.

﴿فَلَمَّا﴾ عَرَفُوا أَنَّهُ هُوَ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ وأَنّه ﴿مِنْ﴾ عِندِالله ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

(١) في نسخة: المثبتة.

﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ أي: أتعيبونَهُ وتطعُنونَ فيهِ؟ ونحوُهُ: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ (١) أي: يَعِيبُهُم ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ إنكارٌ لما قالوهُ في عَيبِهِ والطَّعنِ عليهِ، ويَجوزُ أن يَكُونَ مَفعولُ ﴿أَتَقُولُونَ﴾ مَحذوفاً، وهو مادَلَّ عليهِ قولُهُم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، ثُمَّ قالَ: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾. ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ لِتَصرِفَنا، وَاللَّفتُ والفَتْلُ مِثلانِ، مُطَاوِعُهُما: الالتِفاتُ والانفِتالُ ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ يُرِيدُونَ عبادةَ الأَصنامِ ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: المُلكُ، لأَنَّ المُلوكَ مَوصُوفُونَ بالكِبرِ، وقُرِئَ: «ويَكُونَ» بالياءِ (٢).

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ (٨٢) فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ (٨٣)﴾

﴿مَا جِئْتُم بِهِ﴾: ﴿مَا﴾ مَوْصولةٌ، وَ ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ خبرُ المُبتدأ، أي: الَّذي جِئْتُم بِهِ هو السحرُ، لا الَّذي سَمَّيتُمُوهُ سحراً مِنَ المُعجِزاتِ، وقُرِئَ: «آلسِّحْرُ» على الاِستفهامِ (٣)، وَعَلَى هذهِ القِراءَةِ تَكونُ ﴿مَا﴾ استفهاميَّةً، بمعنَىٰ: أَيُّ شَيءٍ جِئْتُم بِهِ؟ أَهُوَ السحرُ؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ سيُظْهِرُ بُطلانَهُ ﴿ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

(١) الأنبياء: ٦٠.

(٢) قرأه ابن مسعود والحسن وإسماعيل وابن أبي ليلىٰ وأبو عمرو وعاصم بخلاف عنهما. راجع إعراب القرآن للنحّاس: ج ٢ ص ٢٦٣، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ١٨٢.

(٣) وهي قراءة أبي عمرو ومجاهد وأصحابه ويزيد بن القعقاع. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ١٨٢.

لا يُثبِتُهُ ولا يُدِيمُهُ، بَلْ يُدمِّرُ عليه. ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ ويُثبِتُهُ ﴿بِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ بقضاياهُ وَوَعدِه النصرَ.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ في أوّلِ أمرِهِ ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ أي: طائفةٌ من ذَرارِيِّ بَنِي إسرائِيلَ، كأنّهُ قالَ: إلّا أولادٌ مِنْ أولادِ قَوْمِهِ، وذلك أنّهُ دعا الآباءَ فلم يُجيبُوهُ خوفاً ﴿مِّن فِرْعَوْنَ﴾ وقيل: هُم بنُو إسرائيلَ، وكانوا ستَّمِائَةِ ألفٍ، وكانَ يعقوبُ دَخَلَ مصرَ مِنهُم باثنَيْنِ وسبعِينَ، وإنّما سَمَّاهم ذُرِّيَّةً علىٰ وجهِ التَصغيرِ لِقِلَّتِهِم بالإضافةِ إلى قومِ فِرعَونَ[1]، وقيل: الضَميرُ في ﴿قَوْمِهِۦ﴾ لِفِرْعَونَ، و«الذُرِّيَّةُ»: مُؤْمِنُ آلِ فرعونَ وآسيةُ امرأتُه وخازِنُه وامرأةُ خازِنِهِ وماشِطةُ امرأَتِهِ[2]، والضميرُ في ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ يَرجِعُ إلىٰ فِرعَون، والمعنىٰ: حزبُ آلِ فرعونَ كما يُقالُ: ربيعةُ ومُضَرُ، ويجوزُ أن يَرجِعَ إلىٰ «الذُرِّيَّةِ»، أي: علىٰ خوفٍ من فِرعَونَ وخوفٍ من أشرافِ بني إسرائيل، لأنّهم كانوا يَمنعونَهُم خوفاً من فرعونَ عَلَيْهِم وَعَلىٰ أنْفُسِهِمْ، ويَدُلُّ عليهِ قولُهُ: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أي: يُعذِّبَهُم ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ﴾ أي: قاهِرٌ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الظُلمِ والفَسادِ، وفي الكبرِ والعُتُوِّ.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ (٨٦)﴾

﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ أي: إليه أَسْنِدُوا أُمورَكُم في العِصمةِ مِنْ فِرعَونَ، ثُمَّ شَرَطَ في التوكُّلِ الإسلامَ، وهو أن يُسْلِموا نُفوسَهُم للهِ، أي: يَجعَلُوها له سالمةً خالصةً

(١) وهو قول ابن عبّاس على ماحكاه عنه السمرقندي في تفسيره: ج ٢ ص ١٠٧.

(٢) حكاه البغوي في تفسيره: ج ٢ ص ٣٦٤ ونسبه الى ابن عبّاس.

لاحَظَّ للشيطانِ فيها. ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لَا جَرَمَ قَبِلَ ٱللَّهُ تَوَكُّلَهُم، وأَجابَ دُعاءَهُم، ونَجَّاهُم وأَهْلَكَ أعداءَهُم، وجَعَلَهُم خُلَفاءَ في أَرضِهِ ﴿لَاتَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ أَي: مَوضِعَ فتنةٍ لَهُم، أَي: عذابٍ يُعَذِّبُونَنَا أَو يَفْتِنُونَنَا عن دِينِنَا، أَو فتنةً لهم يفتَتِنُونَ بنَا، يَقُولُونَ: لو كَانَ هؤُلاءِ على الحقِّ لَمَا أُصيبُوا. ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ﴾ قومِ فرعونَ واستِعبادِهم إِيَّانَا.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨٧) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَٰلاً فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَاتَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ (٨٩)﴾

تَبَوَّأَ المكانَ: اتَّخذَهُ مَباءَةً، نحوُ تَوَطَّنَهُ: اتَّخذَهُ مَوْطِناً[1]، والمعنىٰ: اجعَلَا ﴿بِمِصْرَ بُيُوتاً﴾ من بُيُوتِهِ مَبَاءَةً ﴿لِقَوْمِكُمَا﴾ ومَرجِعاً يَرجِعُونَ إِليه ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ﴾ تِلكَ ﴿قِبْلَةً﴾ أَي: مساجِدَ يُذْكَرُ فيهَا ٱسمُ ٱللهِ، وقيل: ٱجعَلُوا بُيُوتَكُم يُقابِلُ بعضُها بعضاً[2] ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دَاوِمُوا علىٰ فِعلِها ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ خِطابٌ لِمُوسَىٰ، وقيل: لمحمَّدٍ صلى الله عليه وآله[3].

وَالزينَةُ: ما يُتَزَيَّنُ بِهِ من لباسٍ أَو حُلِيٍّ أَو فِراشٍ أَو غيرِ ذلكَ ﴿لِيُضِلُّواْ عَن

(١) في بعض النسخ: وطناً.

(٢) قاله سعيد بن جبير علىٰ ماحكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٢ ص ٤٤٧.

(٣) قاله ابن جرير الطبري ومكي. راجع تفسير الطبري: ج ٦ ص ٥٩٨، وتفسير الثعالبي: ج ٢ ص ١٠٩.

سَبِيلِكَ﴾ قيلَ: هو دُعاءٌ بلفظِ الأَمرِ[١] كقولِهِ: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ ... وَٱشْدُدْ﴾ لمَّا لم يَبْقَ له طمعٌ في إِيمانِهِم اشتدَّ غضبُهُ عليهِمْ فَدَعَا اللهَ عليهِمْ بما عَلِمَ أَنَّه لا يَكونُ غيرُه، لِيَشْهَدَ عليهم أَنَّهم لا يَسْتَحِقُّونَ إِلَّا الخِذلانَ، وأَن يُخَلِّيَ بينَهُم وبينَ ضَلالِهِم، ومعنى الطمسِ على الأَموالِ: تَغييرُهَا عن جِهَتِها إِلىٰ جِهَةٍ لا يُنْتَفَعُ بِهَا، قيلَ: صارت جميعُ أَموالِهِمْ حجارَةً[٢]، والشدُّ على القُلوبِ: عبارةٌ عن الخِذلانِ والطبعِ ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ﴾ جوابٌ للدُّعاءِ، وقيلَ: إِنَّ اللَّامَ في ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ للتعليلِ[٣] علىٰ أَنَّهُم جعَلُوا نِعمةَ ٱللهِ سَبَباً في الضَلالِ فكأَنَّهم أُعطُوها لِيُضِلُّوا، وقولُهُ: ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ﴾ عطفٌ علىٰ ﴿لِيُضِلُّواْ﴾، وقولُه: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ دعاءٌ مُعترِضٌ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ، وكَانَ موسىٰ يَدعُو وهارونُ يُؤَمِّنُ فَسَمَّاهُمَا داعِيَيْنِ[٤].

﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ فاثبُتَا علىٰ ما أَنتُمَا عليهِ مِنَ الدعوَةِ والزيادةِ في إِلزامِ الحُجَّةِ.

الصادقُ عليه السلام: «مَكَثَ فِرعَونُ بعدَ هذَا الدُّعاءِ أَربعينَ سنةً»[٥].

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَي: لاتَتَّبِعَا طريقَ الجَهَلَةِ ولا تَعْجَلا، وقُرِئَ: «وَلَاتَتْبِعانِ» بنونِ الخفيفةِ وكسرِهَا[٦] لالتقاءِ الساكِنَيْنِ تَشبيهاً بنونِ التثنية.

---

(١) قاله الحسن والكسائي وأبو عبيدة والفرّاء. راجع التبيان: ج ٥ ص ٤٢٣، ومجاز القرآن: ج ١ ص ٢٨١، ومعاني القرآن: ج ١ ص ٤٧٧، والبحر المحيط: ج ٥ ص ١٨٦.

(٢) وهو قول ابن عبّاس ومحمّد بن كعب وقتادة والضحّاك وأبي صالح والسدي ومحمّد بن سليمان المقدسي. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ١٨٧.

(٣) وهو قول الخليل وسيبويه على ماحكاه عنهما القرطبي في تفسيره: ج ٨ ص ٣٧٤.

(٤) وهو قول ابن عبّاس ومحمّد بن كعب والربيع وابن زيد وعكرمة وأبي العالية. راجع التبيان: ج ٥ ص ٤٢٤، والبحر المحيط: ج ٥ ص ١٨٧.

(٥) تفسير العياشي: ج ٢ ص ١٢٧ ح ٤٠.

(٦) وهي قراءة ابن ذكوان وابن عامر إلّا الداحوني عن هشام. راجع التبيان: ج ٥ ص ٤٢٥.

﴿وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّـهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٩٠) ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٩١) فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ (٩٢)﴾

أي: عَبَّرْنَا بهم ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ حتَّىٰ جاوَزوهُ سالِمينَ ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ لَحِقَهُم ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ يُقَالُ: تَبِعْتُهُ حتَّىٰ أَتْبَعْتُهُ، قُرِئَ: ﴿أَنَّـهُۥ﴾ بالفتحِ على حذفِ الباءِ، و «إِنَّهُ» بالكسرِ[(١)] على الاستئنافِ، بَدَلاً مِن ﴿ءَامَنتُ﴾ كَرَّرَ المعنَى الواحدَ ثَلاث مرَّاتٍ في ثَلَاثِ عباراتٍ حِرصاً على القبولِ، ثُمَّ لم يُقْبَلْ مِنهُ حيثُ أَخْطَأَ وَقْتَهُ وقالَه في وقتِ الإلجاءِ، وكانتِ المَرَّةُ الواحدةُ كافيةً وقتَ الاختيارِ وبقاءِ التكليفِ.

﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾ أي: أَتُؤْمِنُ الساعةَ في وقتِ الاضطرارِ حينَ أَدْرَكَكَ ٱلْغَرَقُ؟ وَيُحْكَىٰ: أَنَّه حينَ قالَ: ﴿ءَامَنتُ﴾ أَخَذَ جِبْرَئِيلُ من حَالِ[(٢)] البحرِ فَدَسَّهُ في فيهِ[(٣)] ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: الضالِّينَ المُضِلِّينَ عَنِ الإيمانِ.

قُرِئَ: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ بالتَشديدِ والتَخفيفِ[(٤)]، أَي: نُبعِدُكَ مِمَّا وَقَعَ فيهِ قَومُكَ، وقيل: نُلقِيكَ بنَجْوَةٍ مِنَ الأَرضِ وهي المَكانُ المُرتَفِعُ[(٥)] ﴿بِبَدَنِكَ﴾ في مَوضِعِ الْحالِ، أَي: في الحالِ الَّتي لا روحَ فيكَ وإِنَّما أَنتَ بدنٌ، أَو ببدنِكَ كاملاً سَوياً لم يَنقُصْ منه شيءٌ ولمْ يَتَغَيَّرْ، أَو بدِرْعِكَ وكانت له دِرعٌ من ذَهَبٍ يُعْرَفُ بِها ﴿لِمَنْ

(١) قرأه حمزة والكسائي. راجع الكشف عن وجوه القراءات للقيسي: ج ١ ص ٥٢٢.
(٢) الحال: الطين الأسود. (الصحاح: مادة حول).
(٣) حكاها الطبري في تاريخه: ج ١ ص ٢٩٢، وأخرجها الترمذي في سننه: ج ٥ ص ٢٦٨.
(٤) وبالتخفيف قرأه قتيبة ويعقوب. راجع التبيان: ج ٥ ص ٤٢٨.
(٥) قاله ابن عبّاس. راجع تفسيره: ص ١٧٩.

خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ لِمَنْ وَراءَك من الناسِ علامةً، وهُم بنو إِسرائِيلَ، وكانَ في أَنْفُسِهم أَنَّ فِرعَونَ أَجَلُّ شأناً من أَن يُغْرَقَ فأَلقاهُ ٱللهُ على السَاحِلِ حتَّىٰ عَايَنُوهُ، ومعنَىٰ كونِهِ آيَةً: أَن يَظهَرَ للناسِ عُبودِيَّته ومَهَانَتُهُ، وأَنَّ مَا كَانَ يَدَّعيهِ مِنَ الرُبُوبِيَّةِ مُحالٌ، وأَن يَكونَ عِبرةً يَعْتَبِرُ بها الأُمَمُ بعدَهُ فلا يَجْتَرِئوا علىٰ مَا اجْتَرَأَ عليه.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَاتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَاتَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٩٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَايُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٩٧)﴾

﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ مَنزِلاً صالحاً مَرضيّاً وهو بيتُ المَقْدِسِ والشامِ ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وهي الأَشياءُ اللذيذةُ ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُواْ﴾ في دِينِهم، وما تَشَعَّبُوا فيهِ شُعَباً ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بدينِ الحقِّ ولَزِمَهم الثباتُ عليهِ، وقيل: العلمُ بمحمَّدٍ صلى الله عليه وآله ونَعتِه[١]، واختلافُهم فيهِ: أَنّه هو أَم ليسَ به.

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ أَي: فإِن وَقَعَ لك شَكٌّ فرضاً وتَقديراً ﴿فَسْـَٔلِ﴾ عُلماءَ أَهلِ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ فإِنَّهمُ مُحيطونَ علماً بصحَّةِ ما أُنزِلَ إِليكَ، وعن الصادق عليه السلام: «لم يَشُكَّ ولَمْ يَسْأَلْ»[٢]. ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أَي: ثَبتَ عندكَ بالآياتِ والبَراهينِ أَنَّ ما أَتاكَ هو الحقُّ الَّذي لا مَدخَلَ فيه للمِرْيَةِ ﴿فَلَاتَكُونَنَّ مِنَ

(١) قاله ابن بحر على ماحكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٢ ص ٤٥٠.

(٢) تفسير القمي: ج ١ ص ٣١٧.

ٱلْمُمْتَرِينَ وَلَاتَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: فَاثْبُتْ علىٰ ما أَنتَ عليهِ من انتفاءِ المِريةِ والتكذيبِ بآياتِ اللهِ عنكَ، وقيلَ: خُـوطِبَ رسـولُ اللهِ والمـرادُ أُمَّتُه [١]، والمعنىٰ: فإن كُنتُم في شَكٍّ ممَّا أنزَلْنا إليكُم، كقولِه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُوراً مُّـبِيناً﴾ [٢]، وقيلَ: الخِطابُ للسامعِ مِمَّن يَجوزُ عـليه الشَكُّ [٣]، كـقولِ العـربِ: «إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهُنْ» [٤].

وقيلَ: ﴿إِنْ﴾ للنفي [٥]، أَي: فَمَا كُنْتَ فِي شَكٍّ ... فَسْأَلْ، والمعنىٰ: لا نَأْمُرُكَ بالسُّؤالِ لأنَّك شاكٌّ ولـكِنْ لِتَزدادَ يَقيناً، كما ازدادَ إبراهيمُ بمُعايَنَةِ إحياءِ المَوتَىٰ ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ ثَبَتَ عليهِم قولُ اللهِ الَّذي كَتَبَه في اللَوحِ وأَخْبَرَ بـهِ الملائكةَ أَنـَّهم يَمُوتونَ كُفَّاراً، فلا يَكونُ غَيرُه، وتلكَ كِتابةُ عـلمٍ لا كـتابةُ إرادةٍ، تعالَى اللهُ عن ذلكَ.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَـنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأَمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٩٩)﴾

---

(١) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ٣٢.
(٢) النساء: ١٧٤.
(٣) حكاه السمرقندي في تفسيره: ج ٢ ص ١١١ ونسبه الى القتبي.
(٤) أول من قال ذلك الهذيل بن هبيرة أخو بني ثعلبة التغلبي، وكان أغار علىٰ بني ضبّة فغنم فأقبل بالغنائم، فقال له أصحابه: أقسمها بيننا، فقال: إني أخاف إن تشاغلتم بـالاقتسام أن يدرككم الطلب، فأبوا، فعندها قال: إذا عزّ أخوك فهن، ثمّ نزل فقسم بينهم الغنائم. ويضرب لمن لا يخاف استدلاله وهوانه، أي إذا غلبك ولم تقاومه فَـلِنْ له. راجـع مـجمع الأمـثال للميداني: ج ١ ص ٢٤.
(٥) ذكره الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٣٧١.

فهلّا ﴿كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ واحدةٌ من القُرَى الّتي أَهْلَكْناها تابَتْ عن الكفرِ، و ﴿ءَامَنَتْ﴾ وقتَ بَقاءِ التكليفِ قبلَ مُعايَنَةِ البَأْسِ، ولم تُؤَخِّرِ التَوبةَ كما أَخَّرها فرعونُ إلىٰ أن أدرَكَهُ الغَرَقُ ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ﴾ بأَنْ يَقْبَلَه اللهُ منها ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ استِثناءٌ مِن القُرىٰ؛ لأَنَّ المُرادَ أَهالِيها، وهو اَستِثناءٌ منقطعٌ بمعنَىٰ: ولكنَّ قومَ يُونُسَ، ويَجوزُ أَن يَكونَ متَّصلاً والجملةُ في معنَى النَفي، كأَنَّه قيلَ: ما آمَنَتْ قريةٌ من القُرَى الهالكِة إلّا قومُ يُونُسَ، وكانَ قد بُعِثَ إلىٰ نِينَوىٰ[1] من أَرضِ المَوصِلِ[2]، فكَذَّبُوه، فَذَهَبَ عنهم مُغاضِباً، فلمَّا فَقَدُوه خافُوا نزولَ العذابِ، فَلَبِسُوا المُسوحَ وعَجُّوا وَبَكَوْا، فَصَرَفَ اللهُ ﴿عَنْهُمْ﴾ العَذَابَ وكانَ قد نَزَلَ وقَرُبَ منهم، وعن الفُضَيلِ بنِ عِياض: أَنَّهم قالوا: اللّهمَّ إنَّ ذُنُوبَنا قد عَظُمَتْ وجلَّتْ وأَنتَ أَعْظَمُ منها وأَجَلُّ، افعَلْ بِنا ما أَنتَ أَهلهُ، ولا تَفْعَلْ بنا ما نحنُ أَهلُه[3].

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ مشيئَةَ الإِلْجاءِ ﴿لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ علىٰ وجهِ الإحاطةِ والعمومِ ﴿جَمِيعاً﴾ مُجتمِعينَ على الإيمانِ، يَدُلُّ عليه قولُه: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ يَعني: إِنَّما يَقدِرُ اللهُ علىٰ إكراهِهم لا أَنتَ؛ لأَنَّه هو يَقْدِرُ أَن يَفعَلَ في قلوبِهم ما يَضطَرُّونَ عندَه إلى الإيمانِ، وليسَ ذلكَ في مَقدورِ القَدَرِ، ولا يَستَطيعُه البَشَر.

---

(١) وهي قرية قديمة لا تزال آثارها باقية قبالة مدينة الموصل في العراق، وهي مدينة يونس ابن متّى النبي‌‌عليه‌السلام. راجع معجم البلدان للحموي: ج ٤ ص ٨٧٠.

(٢) الموصل: وهي مدينة قديمة مشهورة، اختطّها هرثمة بن عرفجة البارقي، وكان قبل ذلك حصناً فيه بيع ومنازل للنصارىٰ واليهود، فانزل هرثمة المسلمين منازلهم، ومصّر المدينة لهم، قالوا: وسمّيت بالموصل لأنّها وصلت بين الجزيرة والعراق، وقيل: وصلت بين دجلة والفرات، وفي وسطها قبر جرجيس النبي‌‌عليه‌السلام. راجع فتوح البلدان للبلاذري: ج ٢ ص ٣٣١ - ٣٣٣.

(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٣٧٢.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ مِنَ النفوسِ الَّتي عَلِمَ اللهُ أَنَّها تؤمِنُ ﴿أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بتَسهيلِهِ وتَوفيقِهِ له وتَمكينِهِ منه ودعائه إليه ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قَابَلَ الإِذنَ بالرجسِ وهو الخِذلانُ، والنَفسَ المعلومَ إِيمانُها بـ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وهُمُ المُصرُّونَ على الكفرِ، كقولِه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1]، وسَمَّى الخِذلانَ رِجساً وهو العذابُ لأَنَّهُ سببُه.

﴿مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مِنَ العِبَرِ والآياتِ ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ الرُسُلُ المُنذِرُونَ أو الإِنذاراتُ ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يُتَوَقَّعُ إيمانُهم، وَ﴿مَا﴾ نافيةٌ أو استفهاميَّةٌ.

وَ﴿أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وقائعِ اللهِ فيهم، كما يُقالُ: أيَّامُ العربِ؛ لوَقائِعها. ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا﴾ عطفٌ علىٰ كلامٍ مَحذوفٍ يَدُلُّ عليهِ ما قَبْلَهُ، كأَنَّهُ قال: نُهْلِكُ الأُمَمَ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا، علىٰ حكايةِ الأَحوالِ الماضِيَةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مَعَهم، وَ﴿كَذَٰلِكَ ... نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مثلُ ذلك الإِنجاءِ نُنْجِ المُؤْمِنينَ منكم ونُهْلِكُ المُشرِكِينَ، و﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ اعتراضٌ، يعني: حَقَّ ذلك علينا حقّاً، وقُرِئَ: «نُنَجِّى» بالتَشديدِ[2].

---

(١) البقرة: ١٧١.

(٢) وهي قراءة الجمهور غير الكسائي وحفص عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٣٣٠.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ (١٠٩)﴾

﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن﴾ صحَّةِ ﴿دِينِى فَـ﴾ هذا دِيني وهو: أَنِّي ﴿لَآ أَعْبُدُ﴾ الحِجارَةَ ٱلَّتي ﴿تَعْبُدُونَـ﴾ـها ﴿مِن دُونِ﴾ مَن هو ربُّكم وإلٰهُكم ﴿وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ فهو الحَقيقُ بأَن يُخافَ ويُرْجَىٰ ويُعْبَدَ ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ﴾ المُصدِّقينَ بالتوحيدِ.

﴿وَأَنْ أَقِمْ﴾ والباءُ مرادٌ فَحُذِفَ، أَي: بأَنْ أَكونَ وبأَن أَقِمْ، فإِنَّ «أَنْ» قد تُوصَلُ بالأَمرِ والنَهيِ، وشُبِّهَ ذلك بقولِهم: «أَنتَ الّذي تَفْعَلُ» على الخطابِ، لأَنَّ الغَرَضَ وصلُها بما يَكونُ مَعَهُ في معنى المصدرِ، والأَمرُ والنهيُ يَدُلّانِ على المصدرِ كما يَدُلُّ غيرُهما من الأَفعالِ. ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ ٱستَقِمْ إِليهِ فلا تَلتَفِتْ يَميناً ولا شِمالاً، و﴿حَنِيفاً﴾ حالٌ مِن ﴿ٱلدِّينِ﴾ أَو مِن الوَجْهِ. ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ أَي: فَإِن دَعَوْتَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ فَكَنَىٰ عنه بالفعلِ إِيجازاً ﴿فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: ﴿إِذاً﴾ جَزاءٌ للشَرطِ وجوابٌ لسؤَالٍ مقدَّرٍ، كأَنَّ سائلاً سَأَلَ عن تَبِعةِ عبادةِ غيرِ الله، فَأَعلَمَ أَنَّ الشِركَ من أَعظَمِ الظُلمِ.

ثمَّ عقَّبَ النَهيَ عن عبادةِ مالا يَنْفَعُ ولا يَضُرُّ بأَنَّ اللهَ هو الضَارُّ والنَافِعُ الَّذِي إِن أَصابَك ﴿بِضُرٍّ﴾ لم يَقدِرْ علىٰ كشفِهِ ﴿إِلَّا هُوَ وَإِن﴾ أَرادَكَ ﴿بِخَيْرٍ﴾ لم يَرُدَّ أَحدٌ ما يُريدُ بِك من ﴿فَضْلِهِ﴾ فهو الحَقيقُ بأَن يُعْبَدَ دونَ الأَوثانِ.

﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ فلم يَبقَ لكُم عذرٌ، ولا لكُم على ٱللهِ حُجَّةٌ ﴿فَمَنِ﴾ ٱختَارَ الهُدَىٰ وٱتِّباعَ الحقِّ لم يَنْفَعْ إِلَّا نفسَهُ ﴿وَمَن﴾ ٱختَارَ الضَلالَ لم يَضُرَّ إِلَّا نفسَهُ، واللَامُ و «علَى» دليلان علىٰ معنى النَفعِ والضَرَرِ ﴿وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ مُوكَّلٍ إِليَّ أَمرُكُمْ وحَملُكُم علىٰ ما أُريدُ، إِنَّما أَنَا بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ علىٰ دعوتِهم واحتمالِ أَذاهُم ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ لك بالنَصْرِ عليهم والغَلَبَةِ ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأَنَّهُ لَا يَحكُمُ إِلَّا بِالحقِّ والعَدلِ.

۞ ۞ ۞

سورةُ هُود

مَكيَّةٌ[1] مائَةٌ وإحدَىٰ وعِشرونَ آيةً بصريٌّ، ثلاثٌ كـوفيٌّ، عـدَّ الكـوفيُّ: ﴿بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[2]، ﴿فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾[3].

في حديثِ أُبَيٍّ: «ومَن قَرَأَها أُعطِيَ مِن الأَجرِ عَشْرَ حسناتٍ بعددِ مَن صَدَّقَ بنوحٍ وكَذَّبَ بهِ وهودٍ وصالحٍ وشعيبٍ ولوطٍ وإبراهيمَ ومُوسى، وكان يومَ القيامةِ من السُعداءِ»[4].

الباقرُعليه‌السلام: «مَن قَرَأَها في كلِّ جُمُعةٍ بَعَثَهُ ٱللهُ يومَ القيامةِ في زُمرةِ النـبيِّينَ، وحُوسِبَ حساباً يسيراً، ولم تُعرَفْ له خطيئَةٌ عَمِلَها يومَ القيامةِ»[5].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٥ ص ٤٤٥: مكية في قراءة قتادة ومجاهد وغـيرهما، وهي مائة وثلاث وعشرون آية في الكوفي، واثنتان في المدني، وواحدة في البصري وعند إسماعيل.

وقال الماوردي في تفسيره: ج ٢ ص ٤٥٥: مكية في قول الحسن وعكـرمة وعـطاء وجابر، وقال ابن عباس وقتادة: إلّا آية وهي قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ ٱلَّيْلِ﴾. ونحوه القرطبي في تفسيره: ج ٩ ص ١.

وعن الكشّاف: ج ٢ ص ٣٧٧: مكية إلّا الآيات: ١٢ و١٧ و١١٤ فمدنية، وهـي مـائة وثلاث وعشرون آية، نزلت بعد سورة يونس.

(٢) الآية: ٥٤.

(٣) الآية: ٧٤.

(٤) رواه الزمخشري في كشّافه: ج ٢ ص ٤٣٩ مرسلاً.

(٥) تفسير العياشي: ج ٢ ص ١٣٩ ح ١.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٤) أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٥)﴾

﴿أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ﴾ نُظِمَتْ مُحكَماً لانقصَ[١] فيهِ ولا خَلَلَ كالبِناءِ المُحكَمِ، أَو جُعِلَتْ آياته حكيمةً، من حَكُمَ: إذا صارَ حكيماً، كقوله: ﴿ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾[٢]، أَو مُنِعَتْ من الفَسادِ، من أَحكَمَ الدابّةَ: وَضَعَ عليها الحَكَمَةَ[٣] لِتَمْنَعَهَا مِنَ الجِماحِ، قال جَرِيرٌ:

أَبَنِي حنيفةَ أَحكِمُوا سُفَهاءَكُم إِنِّي أَخَافُ عَلَيكُم أَن أَغضَبَا[٤]

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ كما تُفَصَّلُ القلائدُ، بدلائلِ التوحيدِ والمَواعظِ والأَحكامِ وَالقَصَصِ، أَو جُعِلَتْ فصولاً: آيةً آيةً وسورةً سورةً، أَو فُرِّقَتْ في التنزيلِ فلم تُنَزَّلْ جملةً واحدةً، ومعنىٰ ﴿ثُمَّ﴾: التراخِي في الحَالِ لا في الوقتِ، كما تَقولُ: هي مُحكمةٌ أَحسنَ الإِحكامِ ثمَّ مُفَصَّلةٌ أَحسنَ التفصيلِ، و ﴿كِتَـٰبٌ﴾: خبرُ مبتدأ

(١) في بعض النسخ: «نقض».
(٢) يونس: ١.
(٣) حَكَمة اللجام: ماأحاط بِحَنَكَي الدابّة، وفيها العذاران، سمِّيت بذلك لأنّها تمنعه من الجري الشديد، مشتقّ من ذلك، وجمعه حَكَمٌ. (لسان العرب: مادة حكم).
(٤) البيت واضح المعنىٰ، ففيه ضرب من التهديد، راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة: ص ٣٧٤.

محذوف ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ أحْكَمَها، و ﴿خَبِيرٍ﴾: عالمٍ فَصَّلَها، أي: بَيَّنَها وشَرَحَها.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ مفعولٌ له، أي: لأَن لاتَعْبُدُوا، أو يَكونُ «أَنْ» مُفَسِّرةً، لأَنَّ في تفصيلِ الآياتِ معنَى القولِ، كأنّه قيلَ: قالَ: لاتَعْبُدُوا إلَّا ٱللهَ، أو أَمَرَكُم أن لاتَعْبُدوا إلَّا اللهَ، أي: أَمَرَكُم بالتوحيدِ. ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ﴾ أي: وأَمَرَكم بالاستغفارِ، والضميرُ في ﴿مِنْهُ﴾ للهِ، أي: ﴿إِنَّنِي لَكُم ... نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ من جِهَتِهِ، كقولِهِ: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللهِ﴾[١]، أو هي صِلةٌ لِـ ﴿نَذِيرٌ﴾ أي: أُنذِرُكُم ﴿مِنْهُ﴾ ومن عذابِهِ إن كَفَرْتُم، وأُبَشِّرُكُم بثوابِهِ إن آمَنْتُم ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ يعني: ٱسْتَغْفِرُوا من الشركِ ثُمَّ أَخلِصُوا التوبةَ وٱسْتَقِيمُوا عليها كقولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾[٢]. ﴿يُمَتِّعْكُم﴾ في الدُّنيا بالنِّعَمِ السابغةِ والمنافعِ المُتتابِعَةِ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلىٰ أن يَتَوَفَّاكم ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ أي: ويُعطِ في الآخرةِ كُلَّ ذي فضلٍ في العَمَلِ وزيادةٍ فيه جزاءَ فضلِهِ لايُبْخَسُ، أو فَضْلَهُ في الثوابِ والدرجاتِ ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: تَتَوَلَّوا، فحُذِفَ إحدَى التاءَيْنِ ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ يومِ القيامةِ، وبَيَّنَ العذابَ بأَنَّ مَرْجِعَهم إلَى القادرِ علىٰ مايُريدُهُ من عذابِهم.

﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ أَي: يَزْوَرُّونَ عنِ الحقِّ ويَنْحَرِفُونَ عنه؛ لأَنَّ مَن أَقبلَ على الشيءِ اسْتَقْبَلَهُ بصدرِهِ، ومن انحرَفَ عنه ثَنَىٰ عنه صدرَه ﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ أَي: يُريدونَ لِيَسْتَخْفُوا من ٱللهِ، فلا يُطْلِعُ[٣] رسولَه والمُؤْمِنينَ على ٱزورارِهم ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ معناه: يَتَغَطَّونَ بثيابِهم كراهةً لاستماعِ كلامِ اللهِ، كقولِه: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾[٤]، ثُمَّ قالَ: ﴿يَعْلَمُ مَايُسِرُّونَ وَمَايُعْلِنُونَ﴾ يعني: أَنَّهُ لاتفاوُتَ في علمِهِ بينَ إسرارِهِم وإعلانِهم.

---

(١) البيّنة: ٢. (٢) الأحقاف: ١٣.

(٣) في بعض النسخ: «يطّلع» بالتشديد. (٤) نوح: ٧.

وفي قِراءَةِ أهلِ البيتِ عليهم السلام: «يَثْنَوْني صدورُهمْ»(١) علىٰ يَفْعَوْعِلُ، من الثَّني وهو بناءُ مُبالغةٍ، وقُرِئَ بالتاءِ(٢) والياءِ(٣).

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ (٦) وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٨)﴾

﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ لمّا ضَمِنَ سبحانَه أن يَتَفَضَّلَ بالرزقِ عليهِم وتَكَفَّلَ به صارَ التَفضُّلُ واجباً، فلذلكَ جاءَ بلفظِ الوجوبِ كالنُّذورِ الواجبةِ على العبادِ ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ مَوضِعَ قرارِها ومَسكِنَها ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ حيثُ كانتْ مُودَعَةً فيهِ قبلَ الاِستقرارِ من: أَصلابِ الآباءِ وأَرحامِ الأُمَّهاتِ، أَو البَيْضِ ﴿كُلٌّ﴾ أي: كُلُّ واحدةٍ من الدوابِّ ورزقُها ومُستَقَرُّها ومُستَوْدَعُها ﴿فِى كِتَـٰبٍ﴾ في اللَّوحِ المحفوظِ، يعني: أَنَّ ذكرَها مكتوبٌ فيه ظاهرٌ.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي: ماكانَ تحتَه خَلقٌ إلَّا الماءُ، قبلَ خَلقِ السماواتِ والأَرضِ وارتفاعِه فوقَها، وفيه دَلالةٌ علىٰ أَنَّ العرشَ والماءَ كانا مخلوقَيْنِ قبلَ خلقِ السماواتِ والأَرضِ(٤) ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ يَتَعَلَّقُ بـ﴿خَلَقَ﴾ أي:

---

(١) أُنظر البحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٢٠٢.

(٢) وهي قراءة ابن عباس ومجاهد ونصر بن عاصم على ماحكاه عنهم ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ٦٤.

(٣) وهي قراءة ابن عباس ومجاهد أيضاً وابن يعمر وابن أبي اسحاق. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٢٠٢.

(٤) قال العلّامة الطباطبائي قدس سره: وكون العرش على الماء يومئذٍ كناية عن أنّ ملكه تعالى كان ←

خَلَقَهنَّ لحكمةٍ بالغةٍ، وهي أن يَجْعَلَها مساكنَ لعبادِهِ، ويُنعِمَ عليهم فيها بفُنونِ النِعَم، ويُكَلِّفهم ويُعرِّضَهم لثَوابِ الآخرةِ، ولمَّا أَشبَهَ ذلك اختبارَ المُختبِرِ قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: ليَفعَلَ بكم ما يَفْعَلُ المُبْتَلِي لأَحوالِكم كيفَ تَعْمَلُونَ ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ تَعليقٌ؛ لأَنَّ في الاختبارِ معنى العِلمِ، وهو طريقٌ إليه، والَّذين هم أَحْسَنُ عَمَلاً: هم المُتَّقُونَ، فخَصَّهم بالذكرِ تَشريفاً لهم وتَرغيباً في حيازةِ فَضْلِهم ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ فتَوَقَّعُوه لقالوا: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أَي: أَمرٌ باطلٌ، وأَشاروا بهذا إلى القرآنِ لأَنَّ القُرآنَ هو الناطقُ بالبَعثِ، فإذا جَعَلُوه سحراً فقد انْدَرَجَ تحتَه إنكارُ مافيه من البعثِ وغيره، وقُرِئَ: «إِلَّا سَاحِرٌ»(١) يُريدونَ الرَسولَ.

و ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ عذابَ الآخرةِ، وقيل: عذابَ يومِ بدرٍ(٢) ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أَي: حينٍ، والمعنىٰ: إلىٰ جَماعةٍ من الأَوقاتِ ﴿لَيَقُولُنَّ مَايَحْبِسُهُۥٓ﴾ أَي: مايَمْنَعُه من النُزولِ استِعجالاً له، و ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ منصوبٌ بخبرِ ﴿لَيْسَ﴾، وفيه دليلٌ(٣) علىٰ جوازِ تَقديمِ خبرِ «ليسَ» علىٰ «ليسَ»؛ لأَنَّ المعمولَ لايَقَعُ إلَّا حيثُ يَجوزُ وقوعُ العاملِ فيه، ووُضِعَ ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مَوضِعَ يَسْتَعْجِلونَ؛ لأَنَّ استِعجالَهم كانَ علىٰ وجهِ الاستهزاءِ ﴿وَحَاقَ﴾ في معنىٰ: «يَحيقُ» إلَّاأَنَّه جاءَ علىٰ عادةِاللهِ فيإخباره.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ

→ مستقرّاً يومئذٍ على هذا الماء الذي هو مادة الحياة، فعرش الملك مظهر ملكه، واستقراره على محلٍ هو استقرار ملكه عليه كما أنّ استواءه على العرش احتواؤه على الملك واخذه في تدبيره، وقول بعضهم: انّ المراد بالعرش البناء بعيدٌ عن الفهم. انظر الميزان: ج ١٠ ص ١٥١.

(١) قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٣٩١.

(٢) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ١٨٢.

(٣) في نسخة: دلالة.

فَخُورٌ (١٠) إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) ﴾

﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ لِلجنسِ ﴿رَحْمَةً﴾ أي: نعمةً من صِحَّةٍ أَو ثروةٍ أَو نحوِ ذلك ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا﴾ أَي: سَلَبْناها منهُ ﴿إِنَّهُ لَيَـُٔوسٌ﴾ شَديدُ اليَأْسِ، قَنُوطٌ من أَن تعودَ إِليهِ تلك النِعمةُ المَنزوعةُ، قاطعٌ رجاءَه من سَعةِ فضلِ اللهِ ﴿كَفُورٌ﴾ عظيمُ الكُفرانِ لِنِعَمِه.

﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ أَي: المَصائبُ الَّتي ساءَتْني وَحَزَنَتْني ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ﴾ أَي: أَشِرٌ بَطِرٌ ﴿فَخُورٌ﴾ على الناس بِمَا أَنْعَمَ اللهُ عليهِ، قد شَغَلَه الفَرَحُ والفَخْرُ عن الشُكرِ. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أَي: قابَلوا الشدَّةَ بالصبرِ، والنِعمةَ بالشُكرِ.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤) ﴾

كانوا يَقْتَرِحونَ عليهِ أَشياءَ تَعَنُّتاً، فقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾، وكانَ يَضِيقُ صدرُه صلَواتُ اللهِ عليهِ وآلهِ بما يَقولونَه ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ كَراهةَ أَن يَقولُوا: هلَّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ ماٱقْتَرَحْناه من الكُنوزِ والملائكة؟ ولِمَ أُنْزِلَ عليهِ مالا نُريدُه ولا نَقْتَرِحُه؟ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ أَي: ليسَ عليكَ إِلَّا إِنذارُهم بما أُوحِيَ إِليك ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يَحْفَظُ مايَقُولونَ ثُمَّ يَفعَلُ بهم مايَجِبُ أَن يُفعَلَ، فكِلْ أَمرَكَ إِليه، وعليكَ بتَبليغِ ٱلوَحي غيرَ مُبالٍ بمقالهم ولا مُلتفِتٍ إِلىٰ فِعالِهم من: ٱستكبارِهِم واستهزائهم.

﴿أَمْ﴾ منقطعةٌ، والضميرُ في ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ لِـ ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾، تَحدَّاهُم ﴿بِعَشْرِ

سُوَرٍ﴾ ثُمَّ تَحَدَّاهُم بسورةٍ واحدةٍ لمَّا ٱستَبانَ عجزُهم عنِ الإتيانِ بالعَشرِ ﴿مِثْلِهِ﴾ بمعنَىٰ: أَمثالِهِ؛ لأَنَّه أرادَ مُماثلةَ كلٍّ واحدةٍ منهَا له ﴿مُفْتَرَيَـٰتٍ﴾ صفةٌ لِـ «عَشرِ سُوَرٍ»، وَالمعنىٰ: هَبُوا أَنـِّي ٱفتَرَيْتُهُ من عندِ نَفسِي كما زَعَمْتُمْ ﴿فَأْتُواْ﴾ أَنتُم بكلامٍ ﴿مِثْلِهِ﴾ في حُسنِ النَظمِ والفَصاحةِ مُفترىً مُختَلَقٍ من عندِ أَنفُسِكُم، فأَنتُم فُصَحاءُ مثلي تقدرونَ علىٰ مثلِ ماأَقدِرُ عليهِ من الكلامِ.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ أَي: لكَ وللمُؤْمِنينَ ﴿فَـٱعْلَمُوٓاْ﴾ أَيُّها المُؤْمِنُونَ، أَي: اثبُتُوا على العلمِ الَّذِي أَنتُم عليهِ وازْدادُوا يقيناً ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ أَي: أُنزِلَ مُلتَبِساً بمَا لايَعْلَمُهُ إِلَّا ٱللهُ من نظمٍ مُعجزٍ لجَميعِ الخَلقِ وإِخبارٍ بغُيوبٍ لاسبيلَ لَهُم إِليهِ ﴿وَ﴾ ٱعلَمُوا عندَ ذلك: ﴿أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ﴾ اللهُ وَحدَهُ، وأَنَّ تَوحيدَهُ هُو الحقُّ، والشِركَ به هو الظُلمُ الصَريحُ ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ مُخلِصُونَ مُوقِنُونَ بعدَ قيامِ الحُجَّةِ القاطعةِ؟ ويَجوزُ أَن يَكونَ الخطابُ للكُفَّارِ، فيَكونُ المعنىٰ: فَإِنْ لمْ يَسْتَجِبْ لَكُمْ مَنْ تَدْعُونَهُمْ إِلىٰ مُعَارَضَتِه فقد قَامَتْ عليكُم الحُجَّةُ، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ مُتابِعُون بالإِسلامِ مُعتقِدُونَ للتَوحيدِ.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَايُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَاصَنَعُواْ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّاكَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٦) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَاماً وَرَحْمَةً أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَاتَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَايُؤْمِنُونَ (١٧)﴾

﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ نُوصِلْ إِليهم ونُوفِّرْ عليهم أُجورَ ﴿أَعْمَـٰلهمْ﴾ مِن غيرِ بَخسٍ

في الدُنيا، وهو مايُرزَقُونَ ﴿فِيهَا﴾ من الصِحَّةِ والرزقِ، وقيل: هم أَهلُ الرياءِ(١). ﴿وَحَبِطَ مَاصَنَعُواْ﴾ أَي: ماصَنَعُوهُ، أَو صَنيعُهُمْ ﴿فِيهَا﴾ في الآخرةِ، يعني: لم يَكُنْ لصَنيعِهِم ثوابٌ؛ لأَنَّهم لم يُرِيدوا به الآخرةَ، وإِنَّما أَرادُوا به الدُنيا وقد وُفِّيَ إِلَيْهِم ماأَرادوا ﴿وَبَـٰطِلٌ مَّاكَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أَي: كَانَ عَمَلُهم في نفسِهِ باطلاً؛ لأَنَّه لم يُعملْ للوجهِ الصحيحِ الَّذي هو ابتِغاءُ وجهِ ٱللهِ، فلا ثَوابَ يُسْتَحَقُّ عليه ولاأَجْرَ.

والتقديرُ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ كَمَنْ كَانَ يُريدُ الحياةَ الدُنيا علىٰ برهانٍ مِنَ ٱللهِ وبيانٍ وحُجَّةٍ علىٰ أَنَّ دينَ الإِسلامِ حقٌّ وهو دليلُ العقلِ، والمعنىٰ: أَنَّهم لايُقارِبُونَهُم في المَنزلَةِ، وبينَ الفَريقَيْنِ تَفاوُتٌ شديدٌ وبَونٌ بعيدٌ ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ وَيتَّبعُ ذلكَ البرهانَ ﴿شَاهِدٌ﴾ يَشهدُ بصحَّتِهِ وهو القرآنُ ﴿مِّنْهُ﴾ مِنَ اللهِ، وقيلَ: البَيِّنَةُ: القرآنُ، والشاهِدُ: جَبْرَئيلُ يَتْلُو القرآنَ(٢)، وقيل: أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ هو النَبيُّ، والشَاهِدُ مِنْهُ: عليُّ بنُ أَبي طالبٍعليه‌السلام يَشْهَدُ له وهو منهُ، وهو المَرويُّ عَنهُمعليهم‌السلام(٣) ﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾ مِن قبلِ القرآنِ ﴿كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وهو التَوراةُ يَتْلُوه أيضاً في التَصديقِ ﴿إِمَاماً﴾ مُؤْتَمّاً بِهِ في الدِينِ قُدْوَةً فيهِ ﴿وَرَحْمَةً﴾ ونعمةً عظيمةً على المُنزَلِ عليهِم ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ يَعني: مَن كَان علىٰ بيِّنةٍ ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالقرآنِ ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ ٱلأَحْزَابِ﴾ يعني: أَهلَ مكَّةَ ومن وَافَقَهُم وضَامَّهُم مِنَ المُتحزِّبينَ علىٰ رسولِاللهِ ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَاتَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ أَي: شكٍّ مِنَ القرآنِ، أَو من المَوعدِ.

(١) قاله مجاهد على ماحكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٢ ص ٣٧٧.

(٢) قاله ابن عباس وعبدالرحمن بن زيد والنخعي وعكرمة والضحاك. راجع تفسير ابن عباس: ص ١٨٣، وتفسير الماوردي: ج ٢ ص ٤٦١.

(٣) تفسير القمّي: ج ١ ص ٣٢٤، وفي التبيان: ج ٥ ص ٤٦٠: روي ذلك عن أبي جعفرعليه‌السلام، وفي تفسير الماوردي: ج ٢ ص ٤٦١ عن علي بن الحسين، وذكره الطبري في تفسيره: ج ٧ ص ١٧ باسناده عن جابر عن عليعليه‌السلام.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أُوْلَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٨) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ (١٩) أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ (٢٠) أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ (٢٢)﴾

﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: يُحبَسُونَ ويُوقَفونَ مَوقِفاً يراهُمُ الخلائقُ للمُطالَبَةِ بما عَمِلُوا ﴿وَ﴾ يَشهَدُ عليهم ﴿ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ من: الملائكةِ الحَفَظَةِ والأنبياءِ بأَنَّهُمُ الكاذِبُون ﴿عَلَىٰ﴾ اللهِ بأَنَّه ٱتَّخذَ ولداً وشريكاً، وأَنَّهم أَضافُوا إِليه مالم يُنزِلْهُ، ويَقولُون: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يَغْوُونَ الخَلقَ ويَصرِفُونَهم عن دينِ اللهِ ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ أي: يَصِفُونَها بالاِعوجاجِ وهي مُستقيمةٌ، أَو يَبغُونَ أَهلَها أَن يَعْوَجُّوا بالاِرتدادِ. و ﴿هُمْ﴾ الثانيةُ: فصلٌ أُكِّدَ بهِ كُفرُهُم بالآخِرَةِ. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ﴾ أي: فائتينَ ٱللهَ ﴿فِى﴾ الدُنيا أَن يُعاقِبَهم لو أَرادَ عِقابَهُم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾ مَنْ يَتَوَلَّاهُم فَينصُرَهُم ويَمْنَعَهُم مِنه، ولكنَّهُ أَرادَ إِنظارَهُم وتَأْخيرَ عِقابِهِم إِلىٰ هذا اليومِ، وهو من كلامِ ﴿ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾، وقُرِئَ: «يُضَعَّفُ»[1]. ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ المعنىٰ: أَنَّهم لفرطِ تَصامُمِهم عن ٱستماعِ الحقِّ كأَنَّهُم لايَستَطِيعونَ السَمعَ. ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بأَنِ ٱشتَرَوْا عبادةَ الآلهةِ بعبادةِ ٱللهِ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: وضاعَ عَنْهُم مَااشتَرَوْهُ،

(١) وهي قراءة ابن كثير وابن عامر ويعقوب. راجع تفسير البغوي: ج ٢ ص ٣٧٨.

وهو: ﴿ماكَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ مِنْ شَفاعةِ آلِهَتِهِمْ لَهُم. ﴿لَاجَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أَي: لايَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ، كَسَبَ ذلكَ الفعلُ لهم الخُسرانَ، وقيل: معناهُ: حقّاً لهم أنَّهم أَخْسَرُ الناسِ في الآخرةِ[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّـهِمْ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (٢٣) مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)﴾

﴿أَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اطمأنُّوا إليه وخشَعُوا له وانْقَطَعُوا إِلىٰ عبادتِهِ وذكرِهِ، من الخَبْتِ وهو الأَرضُ المستويةُ. شُبِّهَ فريقُ الكفّارِ بـ ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ﴾ وفريقُ المُؤْمنينَ بـ ﴿ٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ وهو مِنَ اللفِّ والطِباقِ، وفيه معنَيانِ: أَن يُشبِّهَ الفريقَ بشيئينِ، كما شَبَّهَ امرُؤُ القيسِ قُلُوبَ الطَيرِ بالحَشَفِ والعُنّابِ في قوله:

كَأَنَّ قُلوبَ الطَيرِ رَطْباً وَيابِساً لَدَىٰ وَكْرِها العُنّابُ والحَشَفُ البالي[2]

وأَن يُشَبِّهَهُ بالَّذي جَمَعَ بينَ العَمَىٰ والصَمَمِ، وبِالَّذي جَمَعَ بينَ السَمعِ والبصرِ، علىٰ أَن يَكونَ الواوُ في ﴿وَٱلْأَصَمِّ﴾ وَفِي ﴿وَٱلسَّمِيعِ﴾ لعطفِ الصِفةِ على الصِفةِ ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ الفريقانِ ﴿مَثَلاً﴾ تَشبيهاً؟

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لَّاتَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَانَرَىٰكَ إِلَّا بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَانَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَيٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ

---

(١) ذكره الزجّاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ٤٥.

(٢) البيت من قصيدة يصف فيها مغامراته وصيده العقبان. راجع ديوان امرئ القيس: ص ١٤٥.

عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ (٢٨)﴾

قُرِئَ: ﴿إِنِّى﴾ بالفتح[١] والكسرِ، فالفتح علىٰ ﴿أَرْسَلْنَا﴾هُ بـ«أَنـّي لَكُمْ نَذِيرٌ»، والمعنىٰ: ﴿أَرْسَلْنَا نُوحاً﴾ مُلْتَبِساً بهذا الكلامِ وهو قولُهُ: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ بالكسر، فلمَّا اتَّصلَ بهِ الجارُّ فُتِحَ كَما فُتِحَ «كأنَّ» وأصلُهُ الكسرُ في قولِكَ: إنَّ زيداً كالأسدِ، وأمَّا كسر «إنَّ» فعلىٰ إرادة القولِ.

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ بدلٌ من ﴿إِنِّى لَكُمْ﴾ أي: أَرْسَلْنَا بِأَنْ لا تَعْبُدُوٓا ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أو تَكُونُ ﴿أَن﴾ مُفسِّرَةً مُتعَلِّقةً بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أو بـ﴿نَذِيرٌ﴾، ﴿أَلِيمٍ﴾ مجازٌ في صفةِ ﴿يَوْمٍ﴾ أَو ﴿عَذَابَ﴾، لأَنَّ الأَليمَ في الحقيقةِ هو المُعَذِّبُ، ونظيرُهُ قولُهُم: نهارُهُ صائمٌ وليلُهُ قائمٌ.

﴿ٱلْمَلَأُ﴾ الأشرافُ؛ لأَنَّهم يَمْلَؤُونَ القلوبَ هَيبةً ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَراً مِّثْلَنَا﴾ ظَنُّوا أَنَّ الرَسولَ يَنبغي أَن يَكونَ من غيرِ جنسِ المُرسَلِ إليهِ، والـ«أَرَاذِلُ»: جمعُ الأَرذَلِ، و﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ قُرِئَ بالهمزةِ[٢] وغيرِ الهمزةِ، بمعنىٰ: اتَّبعُوكَ أَوَّلَ الرَّأْيِ، أَو ظاهرَ الرَّأيِ، وإِنَّما انتصبَ على الظَرفِ، وأَصلُهُ: وقتَ حدوثِ أَوَّلِ رَأْيِهِمْ أَو وقتَ حُدوثِ ظَاهِرِ رَأْيِهِمْ فحُذِفَ المُضافُ، وأُريدَ: أَنَّ اتِّباعَهُم لكَ إِنَّما كان بَديهةً من غيرِ رَوِيَّةٍ ونظرٍ، وإِنَّما استَرْذَلوهم لفقرِهِم وقلَّةِ ذات يَدِهِم ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أَي: زيادةِ شرفٍ تُؤَهِّلُكُم للنُبوَّةِ.

﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أَخبِرُوني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ﴾ بُرهانٍ ﴿من رَّبِّى﴾ وشاهدٍ يَشهَدُ بصحَّةِ نُبوَّتي ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ بإِيتاءِ البيِّنةِ، علىٰ أَنَّ البيِّنةَ هي الرَحمةُ

---

(١) قرأه ابن كثير وأبو عمرو والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٣٢.

(٢) وهي قراءة أبي عمرو ونُصير. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٣٢، والتذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٥٧.

بِعَينِها، ويَجوزُ أن يُريدَ بالبيِّنةِ: المُعْجِزَةَ وبالرَحمةِ: النُبوَّةَ[١] «فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ»[٢] أي: خَفِيَتْ بعدَ البيِّنةِ[٣]، وقُرِئَ: ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ أي: أُخْفِيَتْ عليكم ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾ أنُكرِهُكم علىٰ قبولِها، ونُجْبِرُكم على الاِهتداء بها ﴿وَأَنتُمْ﴾ تكْرَهونَها ولا تختارُونَها ولا إكراهَ في الدينِ؟

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْراً ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذاً لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣١)﴾

الضميرُ في ﴿عَلَيْهِ﴾ يرجِعُ إلىٰ قولِهِ: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ معناه: إنَّهم يُلاقُونَ ٱللهَ فيُعاقِبُ مَن طَرَدَهُم، أو يُلاقُونَهُ فيُجازِيهِمْ علىٰ مايَعْتَقِدُونَهُ من الإخلاصِ في الإيمانِ كما ظَهَرَ لي مِنْهُمْ، أو علىٰ ماتَقْرِفُونَهم[٤] بِهِ من خِلافِ ذلك ﴿تَجْهَلُونَ﴾ الحقَّ وأَهلَهُ، أو تَسفهونَ على المُؤمنينَ، أو تَجْهَلُون لقاءَ ربِّكم.

﴿مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ مَن يَمْنَعُنِي مِن ٱنتقامِ ٱللهِ وعذابِهِ ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ﴾؟ وكانوا يَسْأَلُونَهُ أن يَطْرُدَهُم ليُؤمِنوا؛ أَنَفَةً مِن أن يَكُونوا معَهُم علىٰ سَواءٍ.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ فأدَّعِيَ فضلاً عليكم في الدُنيا حتّىٰ

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٣٨٩.
(٢ و٣) الظاهر أنّ القراءة المعتمدة لدى المصنّف هنا على التخفيف.
(٤) في بعض النسخ: تعرفونهم.

تَجْحَدُوا فضلِي بقولِي: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، ﴿وَلَآ﴾ أَدَّعِي أَنِّي ﴿أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ حتَّىٰ أَطَّلِعَ علىٰ نفوسِ أتباعِي وضمائرِ قُلوبِهم ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ حتَّىٰ تَقولوا لي: مَاأَنتَ إلَّا بشرٌ مثلُنا، ولا أَحكُمُ علَىٰ مَن تَسْتَرْذِلُونَه لفقرِهِم: أَنَّ ٱللهَ ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ... خَيْراً﴾ كما تَقُولُونَ؛ لهَوانِهم عليه ﴿إِنِّىٓ إِذاً لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ إن قُلتُ شيئاً من ذلِكَ، وٱلازدراءُ: ٱفتعالٌ من زَرَىٰ عليهِ: إذا عابَهُ.

﴿قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)﴾

أَي: حاجَجْتَنَا وزِدتَ فِي مُجَادَلَتِنا علىٰ قدرِ الكفايةِ ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ مِنَ العذابِ فإنَّا لانُـؤْمِنُ بكَ. ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللهُ﴾ وليسَ الإتيانُ بِـهِ إليَّ ﴿إِن شَآءَ﴾ تعجيلَه لَكُم.

وقولُه: ﴿إِن كَانَ ٱللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ شرطٌ جزاؤُهُ مادَلَّ عليهِ قولُهُ: ﴿لَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ﴾، وهذا الدَالُّ في حكمِ مادلَّ عليهِ، فَوُصِلَ بشرطٍ كما يُوصَلُ الجزاءُ بالشَرطِ في قولِهِم: إن أَحْسَنْتَ إلَيَّ أَحْسَنْتُ إليكَ إن أَمْكَنَني. وأَمَّا المعنيُّ في قولِهِ: ﴿إِن كَانَ ٱللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ فهو أَنَّ الكافِرَ إِذَا عَلِمَ ٱللهُ منه الإصرارَ على الكفرِ فخلَّاهُ وشأْنَهُ ولم يَقْسِرْهُ على الإيمانِ سُمِّي ذلك إغواءً وإضلالاً، كما أَنَّه إذا عَرَفَ منه الارعواءَ[1] إلى الإيمانِ فَلطَفَ به سُمِّيَ إرشاداً وهِدايةً.

---

(١) الارعواء: الكفّ عن الأمر، وقد ارعوىٰ عن القبيح أي: ارتدع، والاسم: الرُّعْيا والرَّعْوىٰ. (مجمع البحرين: مادة رعا).

﴿فَعَلَيَّ إِجرَامِى﴾ معناهُ: إن صحَّ وثَبَتَ أنّي ﴿ٱفْتَرَيْتُهُ﴾ فَعَلَيَّ عقوبةُ إِجْرَامِي أي: افترائي، وكانَ حَقّي حينئذٍ أن تُعرِضُوا عنّي ﴿وَأَنَا بَرِىٓءٌ﴾ أي: ولم يَثْبُتْ ذلك وَأَنَا بريءٌ منه، ومعنىٰ ﴿مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾: مِن إجرامِكُم في إسنادِ الافتراءِ عليَّ، فلا وجهَ لإعراضِكُم عنّي.

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ (٣٦) وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩)﴾

أَقنَطَهُ ٱللهُ سُبحَانَه من إيمانِهِمْ ﴿إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ إلَّا مَن وُجِدَ منه ما كان يُتَوَقَّعُ من الإيمانِ، و ﴿قَدْ﴾ للتَوَقُّعِ ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: فَلَا تَحْزَنْ حزنَ بائسٍ مسكينٍ، قالَ:

مَا يَقْسِمُ ٱللهُ فَاقْبَلْ غَيْرَ مُبْتَئِسٍ ... مِنْهُ وَاقْعُدْ كَرِيماً ناعِمَ البَالِ[1]

أي: فلا تَحزَنْ بما فَعَلُوهُ من تَكذيبِكَ وإيذائِكَ، فقد حانَ وقتُ الانتقامِ لكَ مِنهُمْ وإنجائكَ.

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ في مَوضِعِ الحالِ، أي: ﴿ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ مُلتَبِساً ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، كأَنَّ للهِ سُبحانَهُ معه أَعْيُناً تَكْلَؤُه[2] أَن يَزِيغَ في صَنعتهِ عن الصَوابِ ﴿وَوَحْيِنَا﴾ وأَنَّا نُوحِي إِليكَ ونُلهِمُكَ كيفَ تَصْنَعُ؟ وعن ابنِ عبَّاسٍ: لَم يَعْلَمْ كيفَ صَنعَةُ الفُلْكِ،

---

(١) وقائله حسّان بن ثابت، ومعناه واضح. راجع ديوان حسّان: ص ١٢١.
(٢) كلأه: أي حرسه. (القاموس المحيط: مادة كلأ).

فأَوْحَى ٱللهُ إليه أَن يَصْنَعَهَا مثلَ جُؤْجُؤ الطائرِ[1] [2]. ﴿وَلَا تُخَـٰطِبۡنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ ولا تَدْعُنِي في شأنِ قومِكَ وَٱسْتِدفاعِ العذابِ عَنْهُم بشَفاعَتِكَ ﴿إِنَّهُم﴾ مَحكومٌ عليهِم بالإغراقِ، وقد وَجَبَ ذلِكَ فلا سبيلَ إلىٰ كَفِّهِ.

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ حكايةُ حالٍ ماضيةٍ ﴿سَخِرُواْ مِنۡهُ﴾ ومن عملِهِ السفينةَ، وكانَ يَعْمَلُها في بَرِّيَّةٍ في أَبعدِ مَوضِعٍ من الماءِ، فكانُوا يَتَضاحَكُونَ ويَقُولُونَ: يانُوحُ، صِرْتَ نجّاراً بعدَما كُنْتَ نبيّاً! ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ في المُسْتَقْبَلِ ﴿كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ منّا الساعةَ إذا وَقَعَ عليكُمُ الغَرَقُ في الدُنيا والحَرْقُ في الآخِرَةِ.

﴿مَن يَأۡتِيهِ﴾ في محلِّ النصبِ بـ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾، أَي: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ الّذي ﴿يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ وهو عذابُ الدُنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ﴾ حُلُولَ الدَينِ والحقِّ اللازمِ ﴿عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ وهو عذابُ الآخرةِ، ويَجوزُ أَن يَكونَ ﴿مَن﴾ ٱستفهاميّةً ويَكونَ تعليقاً.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ (٤٠) وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ (٤١) وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٤٢) قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ (٤٣)﴾

﴿حَتَّىٰٓ﴾ هذِهِ هي الّتِي يُبْتَدَأُ بعدَها الكلامُ، دَخَلَتْ على الجملةِ من: الشرطِ

---

(١) جؤجؤ الطائر والسفينة: صدرهما، والجمع الجآجئ. (الصحاح: مادة جأجأ).
(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٣٩٢.

والجزاء ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ بالماءِ، أي: ٱرتَفَعَ الماءُ بشدَّةِ ٱندفاعٍ، وهوَ تنُّورُ الخابزةِ، وكانَ في ناحيةِ الكوفةِ، وقيلَ: التنُّورُ: وجهُ الأرضِ[1]، ﴿وَأَهْلَكَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱثْنَيْنِ﴾، وكذلك ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾، يعني: فـ ﴿ٱحْمِلْ﴾ أهلَكَ والمُؤْمِنينَ مِنْ غيرِهِم، و ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ مفعولُ ﴿ٱحْمِلْ﴾، والمُرادُ بـ ﴿كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾: الشِياعُ، وقُرِئَ: ﴿مِن كُلٍّ﴾ بالتنوينِ[2] وحَذفِ المضافِ إليه من ﴿كُلٍّ﴾، والمُرادُ: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ زَوْجَيْنِ، فعلىٰ هذا يَكونُ انتصابُ الـ ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ على أنَّهُ صفةٌ لـ ﴿زَوْجَيْنِ﴾، واستُثْنِيَ من أهلِهِ ﴿مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ أنَّه مِن أهلِ النَارِ للعلمِ بأنَّه يَختارُ الكفرَ، ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قيل: كانوا ثمانيةً[3]، وقيل: كانوا ٱثْنَيْنِ وسبعينَ رجلاً وٱمرأةً[4].

﴿وَقَالَ﴾ نوحٌ لِمَن مَعَهُ: ﴿ٱرْكَبُواْ فِيهَا﴾، وقُرِئَ: ﴿مجرىٰـهَا﴾ بضمِّ الميم[5] وفتحِهِ، واتَّفقُوا على ضمِّ الميمِ في ﴿مُرْسَىٰهَآ﴾ إلَّا ماروي عن ابنِ مُحيصنٍ: أنَّهُ فَتحَ الميمَ فيهما[6]، من جرَىٰ ورَسا: إمَّا مصدرَيْنِ، أو وقتَيْنِ، أو مكانَيْنِ، والمعنىٰ: ٱرْكَبُوا فيهَا مُسمِّينَ ٱللهَ، أو قائلين: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ وقت إجرائـها ووقتَ إرسـائها، أو وقتَ جَرْيِها ووقتَ رُسُوِّها، على القِراءَةِ الأُخرىٰ، ويَجوزُ أن يَكونَا مصدرَيْنِ حُذِفَ منهما الوقتُ المضافُ، كقولِهِم: خُفُوقَ النَجمِ ومقدَمَ الحاجِّ، ويَجوزُ أن يَكونا

---

(١) قاله ابن عباس وعكرمة والزهري، راجع تفسير الماوردي: ج ٢ ص ٤٧٢، وتفسير البغوي: ج ٢ ص ٣٨٣.

(٢) الظاهر من العبارة أنّ المصنّف اعتمد هنا على قراءة الاضافة وحذف التنوين تبعاً للزمخشري.

(٣) وهو قول قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب القرظي. راجع تفسير البغوي: ج ٢ ص ٣٨٤.

(٤) قاله مقاتل على ماحكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٢ ص ٣٨٤.

(٥) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٣٣.

(٦) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ١ ص ٣٨٥.

مكانَي الإجراءِ والإرساءِ، وانتصابُهُما بما في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ من معنَى الفعلِ، أَو بما فيهِ من إرادةِ القَولِ، ورُوِيَ: أَنَّ نوحاً كانَ يَقُولُ إذا أَرادَ أَن تَجْرِيَ: «بِسْمِ ٱللَّهِ» وَإِذَا أَرادَ أَنْ تَرسُوَ: «بِسْمِ ٱللَّهِ»[١]، ويَجوزُ أَن يُرادَ: باللهِ إِجراؤُها وإِرساؤُها، أَي: بأَمرِهِ ومشيئتِهِ، وٱلاِسْمُ مُقْحَمٌ[٢].

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ معناه: أَنَّ السَفينةَ تَجرِي بنوحٍ ومَنْ معهُ على الماءِ ﴿فِي﴾ أمواجٍ ﴿كَالْجِبَالِ﴾ في عِظَمِها وارتفاعِهَا.

وقَرأَ عليٌّ عليه السلام: «وَنَادَىٰ نوحٌ ٱبْنَهَ» بفتحِ الهاءِ[٣]، اكْتَفَىٰ بالفتحةِ عنِ الأَلفِ، ورُوِيَ أَيضاً: «ٱبْنَهَا»[٤] والضميرُ لامرأَتِهِ ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ وهو مَفْعِلٌ من عَزَلَهُ عنهَ: إذا نَحّاهُ وأَبعَدَهُ، يعني: وكَان في مكانٍ عَزَلَ فيهِ نفسَهُ عَن أَبيهِ وعن مَركَبِ المُؤْمِنِينَ، وقيل: كانَ في مَعزِلٍ عن دينِ أبيهِ[٥]، ﴿يَـٰبُنَيَّ﴾ قُرِئَ بفتحِ الياءِ وكسرِها[٦]، فالكسرُ للاقتصار عليهِ مِنْ ياءِ الإِضافةِ، والفتحُ للاقتصارِ عليهِ مِنَ الأَلفِ المُبدَلةِ مِنْ ياءِ الإِضافةِ في قولِكَ: يابُنَيَّا، أَو سَقَطَتِ الياءُ والأَلِفُ لالتقاءِ

---

(١) رواها الطبري في تفسيره: ج ٧ ص ٤٥ عن الضحّاك.

(٢) قحمه تقحيماً: إذا أدخله في الأمر بلا روية. والمراد هنا: أنّ لفظ الاسم في قوله تعالىٰ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜـٰهَا﴾ أُدخل بين الجارّ والمجرور بقصد المبالغة في عظمة الله سبحانه وقدرته.

(٣) رويت هذه القراءة عن علي عليه السلام وعلي بن الحسين وابنه الباقر وابنه الصّادق عليهم السلام وعروة ابن الزبير وهشام بن عروة. قال القرطبي: وزعم أبو حاتم أنّها تجوز علىٰ أنّه يريد «ابنها» فحذف الألف كما تقول: «ابنه» فتحذف الواو، وقال النحاس: وهذا الذي قاله أبو حاتم لايجوز على مذهب سيبويه؛ لأنّ الألف خفيفة فلا يجوز حذفها، والواو الثقيلة يجوز حذفها. راجع تفسير القرطبي: ج ٩ ص ٣٨، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٢٢٦.

(٤) ورويت أيضاً عن علي عليه السلام وعروة. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٦٥، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٢٢٦.

(٥) ذكره الزجّاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ٥٤.

(٦) وبالكسر قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة وابن عامر والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٣٤.

السَاكِنَيْنِ؛ لأَنَّ الرَاءَ بعدَهما ساكنةٌ.

﴿لَاعَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ﴾ الطُوفانِ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ ٱللهُ، أي: إِلَّا مكانُ مَنْ رَحِمَ ٱللهُ من المُؤْمِنينَ، يعني: السَفينةَ، أو: لَاعَاصِمَ ٱليومَ إِلَّا الرَاحِمُ وهو ٱللهُ تعالىٰ، وقيلَ: لَاعَاصِمَ بمعنىٰ: لا ذاعصمةٍ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ ٱللهُ، كقولِهِم: ماءٌ دافِقٌ، وعيشةٌ راضيةٌ[1]، وقيلَ: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ، كَأَنَّهُ قيلَ: ولَكِنْ مَنْ رَحِمَهُ ٱللهُ فهو معصومٌ[2].

﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٤٤) وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَالَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَالَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَاكُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)﴾

نداءُ الـ«أَرْضِ» وَالـ«سَمَاءِ» بمَا يُنَادَىٰ به العقلاءُ ممَّا يَدلُّ علىٰ كمالِ العزَّةِ وٱلاقتدارِ، وأَنَّ هذه الأَجرامَ العظيمةَ مُنقادةٌ لتكوينِهِ فيهَا مـا يشاءُ، غيرُ مُمتنعةٍ عليهِ، كأَنَّها عقلاءُ مُميِّزونَ قد عَرَفُوا جلالَتَهُ وعظمتَهُ، فهم يَنْقَادُونَ له وَيَمْتَثِلُونَ

---

(١) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ٥٤.

(٢) وهو قول الزجّاج كما حكاه القرطبي في تفسيره: ج ٩ ص ٣٩.

أَمرَهُ على الفورِ من غيرِ رَيثٍ، والبَلعُ: عبارةٌ عن النَشْفِ، والإِقلاعُ: الإمساكُ ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ مِن غاضَهُ: إذا نَقَصهُ ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ وأُنجِزَ المَوعودُ في إهلاكِ القومِ ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ أَي: استقرَّتِ السَفِينَةُ ﴿عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ وهو جبلٌ بالمَوْصِلِ ﴿وَقِيلَ بُعْداً﴾ يقال: بَعُدَ بُعْداً وبَعَداً: إذا أرادوا البُعدَ البعيدَ من حيثُ الهلاكِ والموتِ ونحوِ ذلك، ولذلكَ اختُصَّ بدعاءِ السُوءِ، ومَجيءُ إخبارِهِ عزَّ ٱسمُهُ على[1] الفعلِ المبنيِّ للمفعولِ للدلالةِ على الجلالِ والعظمةِ، وأَنَّ تلكَ الأُمورَ العِظامَ لاتَكونُ إلَّا بفعلِ قاهرٍ قادرٍ لايُشارَكُ في أَفعالِهِ، فلا يَذْهَبُ الوهمِ إلىٰ أَنَّ غيرَهُ يقولُ: ﴿يَٰٓأَرْضُ ... وَيَٰسَمَآءُ﴾ وأَنَّ أَحداً سواهُ يَقضِي ذلِكَ الأَمرَ.

﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ أَي: من بعض أَهلي؛ لأَنَّه كانَ ابنَهُ من صُلبهِ، أو كان ربيباً لَهُ فهو بعضُ أَهلِهِ ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ لاشكَّ في إِنجازِهِ، وقد وَعدتَني أَن تُنجِّيَ أَهلِي ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أَي: أَعدَلُهُم وأَعلَمُهم.

﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الّذين وَعَدْتُك بنَجاتِهم مَعَكَ؛ لأَنَّه لَيس علىٰ دينِكَ ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ تَعليلٌ لانتفاءِ كونِهِ مِنْ أَهلِهِ، وفيه إِيذانٌ بأَنَّ قَرابَةَ الدينِ غامِرَةٌ لقَرابةِ النَسَبِ، وجُعِلَتْ ذاتُهُ عملاً غيرَ صالحٍ مُبالَغَةً في ذمِّهِ، كقولِ الخَنْساءِ:

فإِنَّما هِيَ إِقبالٌ وإِدْبارٌ[2]

وقُرِئَ: «إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالحٍ»[3]، وَقُرِئَ: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾ بكسرِ النونِ بالياءِ[4]

---

(١) في بعض النسخ: عن.

(٢) صدره: ترتع مارتعت حتّى اذا ادّكرت. تقدّم شرح البيت في ج ١ ص ١٧٧ و ٢٠٥ فراجع.

(٣) وهي قراءة الكسائي ويعقوب. راجع التبيان: ج ٥ ص ٤٩٤.

(٤) قرأه أبو جعفر القارئ ويعقوب واحمد بن صالح عن ورش وأبو عمرو. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٥٩، وتفسير البغوي: ج ٢ ص ٣٨٦.

وبغيرِ ياءٍ، وقُرِئَ: «فَلَا تَسْـَٔلنَّ» مشدَّدَةَ النُّونِ مَفتوحةً[١]، وَ«لَا تَسْـَٔلَنِّي» بِالتَشديدِ وإثباتِ الياءِ[٢] وغيرِ ياءٍ[٣]. والمعنىٰ: فلا تَلتمِسْ منِّي ٱلتِماساً لا تَعلَمُ أَصَوابٌ هو أَم غيرُ صوابٍ، حتَّىٰ تَقِفَ علىٰ كُنهِه، وذكرُ السُّؤَالِ دليلٌ علىٰ أنَّ النداءَ كان قبلَ أَن يَغرَقَ، وجَعَلَ سبحانه سؤَالَ مالا يُعرَفُ كُنهُه جهلاً، ثمَّ وَعَظَ أَن لا يَعودَ إِليهِ وإِلىٰ أَمثالِه من فعلِ ﴿ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾.

﴿أَنْ أَسْـَٔلَكَ﴾ أَن أَطلُبَ منك في المُستقبلِ ﴿مَا﴾ لاعلمَ ﴿لِى﴾ بصحَّتِه، تَأَدُّباً بأَدبِكَ واتِّعاظاً بمَوعظتِك ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ قالَه علىٰ سبيلِ الخُضوعِ للهِ عزَّ ٱسمُه والتذلُّلِ له والاِستِكانةِ.

﴿بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا﴾ أَي: مسلَّماً مَحفوظاً من جِهَتِنا، أَو مسلَّماً عليكَ مكرَّماً ﴿وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ﴾ ومُبارِكاً عليك، والبركاتُ: الخيراتُ النَامِيةُ ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾: «مِنْ» للبيانِ، يُريدُ: الأُممَ الَّذينَ كانوا معهُ في السَفينةِ؛ لأَنَّهم كانوا جَماعاتٍ، ولأَنَّ الأُممَ تَشعَّبَتْ منهم، ويَجوزُ أَن تكونَ «من» لابتداءِ الغايةِ، أَي: علىٰ أُمَمٍ ناشِئَةٍ ممَّن معكَ، وهي الأُممُ إِلىٰ آخِرِ الدهرِ، وهذا أَوجَهُ، و ﴿أُمَمٌ﴾ رفعٌ بالابتداءِ، و﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ صفتُه، والخبرُ مَحذوفٌ تَقديرُه: وممَّن معكَ أُممٌ سنُمتِّعُهم، والمعنىٰ: أَنَّ السَلامَ منَّا والبركاتِ عليك وعلىٰ أُمَمٍ مُؤْمنينَ يَنشَؤُونَ ممَّن معكَ، وممَّن معك أُممٌ مُمتَّعونَ بالدُنيا صائرونَ إِلى النارِ، وكان نوحٌ أَبا الأَنبياءِ، والخلقُ بعدَ الطوفانِ منه وممَّن كان معهُ في السَفينةِ.

﴿تِلْكَ﴾ إِشارةٌ إِلىٰ قصَّةِ نوحٍ، ومحلُّها رفعٌ بالابتداءِ، والجُمَلُ بعدَها أَخبارٌ،

---

(١) قرأه ابن كثير وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٣٥.

(٢) وهي قراءة ورش عن نافع. راجع التبيان: ج ٥ ص ٤٩٤.

(٣) وهي قراءة نافع وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٣٥.

أي: تلك القصَّةُ بعضُ ﴿أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ مُوحاةٌ ﴿إِلَيْكَ﴾ مَجهولةٌ عندكَ وعندَ ﴿قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ أي: مِن قَبلِ إِيحائي إليكَ، أو من قبلِ هذا العلمِ الَّذي كَسبتَهُ بالوَحي، أو من قبلِ هذا الوقتِ ﴿فَاصْبِرْ﴾ علَىٰ تَبليغِ الرسالةِ وعلىٰ أَذَىٰ قومِك كما صَبرَ نوحٌ ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ﴾ فِي الفوزِ والنَصرِ والغلبةِ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَٰقَوْمِ لَآأَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُواْ يَٰهُودُ مَاجِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعاً ثُمَّ لَاتُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّامِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآأُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)﴾

﴿أَخَاهُمْ﴾ في النَسبِ دونَ الدينِ، أي: واحداً منهم، عَطفٌ علىٰ ﴿أَرْسَلْنَا نُوحاً﴾، و ﴿هُوداً﴾ عطفُ بيانٍ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ علىٰ اللهِ كَذِباً باتِّخاذِكم

الأَوثانَ له شُركاءَ. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إذ تَرُدُّونَ نصيحةَ مَن لا يَطلُبُ عليها ﴿أَجْراً ... إِلَّا﴾ منَ اللهِ، ولا شيءَ أَنفَىٰ للتُهمةِ من حَسْمِ المَطامِعِ.

الـ«مِدْرَارُ»: الكثيرُ الدُرورِ، كالمِغْزارِ، رَغَّبَهم في الإِيمانِ بكثرةِ المَطرِ وزيادةِ القُوَّةِ، لأنَّ القومَ كانوا أَصحابَ زُروعٍ وبساتينَ، وكانوا يُدِلُّونَ[1] بالقوَّةِ والبَطْشِ والنَجْدةِ.

وعن الحسنِ بنِ عليٍّ عليهما السلام أَنَّه وَفَدَ على مُعاويةَ، فلمَّا خَرَجَ تَبِعَهُ بعضُ حُجَّابِه وقالَ: إِنِّي رجلٌ ذو مالٍ ولا يُولَدُ لِي، فعَلِّمْني شيئاً لعلَّ الله يَرزُقُني وَلداً، فقال: «عليكَ بالاستغفارِ»، فكانَ يُكثِرُ الاستغفارَ حتَّىٰ رُبَّما استغفَرَ في اليومِ سَبْعمائَةِ مرَّةٍ، فوُلِدَ له عَشَرةُ بنينَ، فبَلَغَ ذلكَ مُعاويةَ، فقالَ: هلَّا سأَلتَهُ ممَّ قال ذلكَ؟ فَوَفَدَ وَفْدةً أُخرىٰ، فَسَأَلَه الرَجلُ، فقالَ: «أَلم تَسمَعْ قولَ اللهِ عزَّوجلَّ في قصَّةِ[2] هُودٍ: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ وفي قصَّةِ نوحٍ: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾[3]»[4].

﴿وَلَا تَتَوَلَّوْاْ﴾ ولا تُعرِضُوا عنِّي وعمَّا أَدعوكُم إِليه ﴿مُجْرِمِينَ﴾ مُصرِّينَ علىٰ أَجرامِكم وآثامِكم.

﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ كذِبٌ منهم وجُحودٌ، كما قالتْ قريشٌ لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾[5] مع كثرةِ آياتِه ومُعجِزاتِه، ﴿عَن قَوْلِكَ﴾ حالٌ من الضَميرِ في ﴿تَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا﴾ بمعنىٰ: وما نَترُكُ آلهتَنا صادرينَ عن قولِكَ. ﴿ٱعْتَرَىٰكَ﴾ مفعولُ ﴿نَّقُولُ﴾ و ﴿إِلَّا﴾ لغوٌ، والمعنَىٰ: مانَقولُ إِلَّا قولَنا: ﴿ٱعْتَرَىٰكَ

---

(١) يُدِلُّ بفلانٍ: أي يثق به. (الصحاح: مادة دلل).

(٢) في نسخة: سورة. (٣) نوح: ١٢.

(٤) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٤٠٢.

(٥) يونس: ٢٠.

﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ أي: خَبَلَك ومسَّك بجنونٍ؛ لِسبِّك إيَّاها وعَداوتِك لَها، مُكافاةً منها لكَ، فمِن ثَمَّ تَتكلَّمُ بكلامِ المَجانينِ ﴿قَالَ﴾ هودٌ: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ واجَهَهُمْ بهذا الكلامِ لِثقتِه بربِّه واعتصامِه بِه، كما قال نوحٌ لقومِه: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ (١)، ﴿مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من إشراكِكم آلهةً من دونِه، أو ممَّا تُشْرِكُونَه من آلهةٍ من دونِه، أي: أَنتُم تَجعَلونَها شُركاءَ له ولم يَجْعَلْها هو شركاءَ ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعاً﴾ أنتُم وآلهتُكم من غيرِ إنظارٍ، فإنِّي لاأُبالي بِكم ولا بكيدِكم.

ولمَّا ذكَرَ تَوَكُّلَه على اللهِ ووثُوقَه به وبكِلاءَتِه (٢) وَصَفَه بما يوجِبُ التَوَكُّلَ عليهِ من اشتمالِ رُبُوبيَّتِه عليهِ وعليهِم، وكونِ كلِّ ﴿دَآبَّةٍ﴾ تحتَ مُلكَتِه (٣) وقَهرِه، والأَخذُ ﴿بِنَاصِيَتِهَآ﴾: تَمثيلٌ لذلك ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: علىٰ طريقِ الحَقِّ والعدلِ لايَفوتُه ظالمٌ.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: تَتولَّوا، لم أُعاتَبْ على التَفريطِ في الإبلاغِ ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ فأَبَيْتُمْ إلَّا تَكذيبَ الرسالةِ ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى﴾ كلامٌ مُستأْنَفٌ، يُريدُ: ويُهلِكُكم اللهُ ويَجيءُ بقومٍ آخَرينَ يَخلُفونَكم في ديارِكم وأَموالِكم ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾ بتولِّيكم ﴿شَيْئاً﴾ من ضررٍ قطُّ، وإنَّما تَضُرُّونَ أَنفسَكم ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: رقيبٌ عليه مُهيمِنٌ، فما تَخفَىٰ عليه أَعمالُكم، ولا يَغفُلُ عن مُؤَاخذَتِكم.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ حينَ أَهْلَكنا عدُوَّهم ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهو السَمومُ (٤) الَّتي كانتْ تَدخُلُ في أُنوفِهم

(١) يونس: ٧١.
(٢) في بعض النسخ: بكلماته. وكلأه اللهُ كِلاءةً: أي حفظه وحرسه. (الصحاح: مادة كلأ).
(٣) في بعض النسخ: مملكته.
(٤) السموم: الريح الحارّة. (لسان العرب: مادة سمم).

وتَخرُجَ من أدبارِهم فتَقْطَعُهم عُضواً عُضواً، وقيل: أرادَ بالتَنجِيَةِ الثانيةِ إنجاءَهم من عذابِ الآخرة(١).

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ إشارةٌ إلىٰ آثارِهم وقُبورِهم، ثمَّ استأنفَ وصفَهم فقال: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾ لأنَّهم إذا عَصَوا رسولَهم فقد عَصَوا جميعَ رُسلِ اللهِ ﴿كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يُريدُ رُؤَساءَهم ودُعاتَهم إلىٰ تكذيبِ الرُسلِ. ﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ جُعلتِ اللَعنةُ تابعةً لهم في الدارَينِ تَكبُّهم علىٰ وجوهِهم في عذابِ اللهِ، وتكريرُ ﴿أَلَآ﴾ مع الشَهادةِ بكفرِهم والدُعاءِ عليهم تَفظِيعٌ لأَمرِهم، وبعثٌ على الاعتبارِ بِهِم، والحَذَرِ من مثلِ حالِهم.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحاً قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحاً وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُوداْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِّثَمُودَ (٦٨)﴾

---

(١) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ٥٩.

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ معناهُ: ما أنشأكم من الأرضِ إلَّا هو ﴿وَ﴾ لا ﴿ٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ غيرُه، وإنشاؤُهم منها هو: خلقُ آدمَ من ترابٍ، واستعمارُهم فيها هو: أمرُهم بعِمارتِها، والعِمارةُ مُتنوِّعةٌ إلىٰ: واجبٍ ومَندوبٍ ومباحٍ ومكروهٍ، وقيل: ﴿ٱسْتَعْمَرَكُمْ﴾ من العُمْرِ، نحوُ: استبقاكم، من البقاءِ[1]، وقيل: هو من العُمْرَى[2]، فيكون ﴿ٱسْتَعْمَرَكُمْ﴾ بمعنىٰ: أعْمَرَكُم[3]، أي: أعمَرَكم فيها ديارَكُم ثمَّ هو وارثُها منكم إذا انقَضَتْ أعمارُكم، وبمعنىٰ: جَعَلَكم مُعْمِرين ديارَكم فيها؛ لأنَّ الرجلَ إذا ورَّثَ دارَه غيرَه من بعدِه فكأنَّما أعمَرَه إيَّاها؛ لأنَّه يَسكُنُها عُمرَه، ثمَّ يَترُكُها لغيرِه ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ﴾ دانِي الرَّحمةِ ﴿مُّجِيبٌ﴾ لمَن دَعاهُ.

﴿كُنتَ فِينَا﴾ فيما بينَنا ﴿مَرْجُوًّا﴾ نَرجُو منك الخيرَ، لِمَا كانتْ تَلوحُ فيك مِن مَخائلِه، فكُنَّا نَستَرشِدُك في تدابيرِنا، ونُشاوِرُك في أُمورِنا، فالآنَ انقَطَع رجاؤُنا عنك، وعَلِمْنا أن لاخيرَ فيك ﴿يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ حكايةُ حالٍ ماضيةٍ ﴿مُرِيبٍ﴾ من أَرابَه: إذا أَوقَعه في الريبةِ، أَو من أَرابَ الرَّجلُ: إذا كان ذا رِيبةٍ.

﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ وهي النُّبوَّةُ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى﴾ بما تَقولونَ ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ غيرَ أَن أُخَسِّرَكم، أَي: أَنسِبَكم إلى الخُسرانِ وأَقولَ لكم: إنَّكم خاسِرونَ. ﴿ءَايَةً﴾ نصبٌ على الحالِ، والعاملُ فيها معنى الإشارةِ، و﴿لَكُمْ﴾ حالٌ أيضاً من ﴿ءَايَةً﴾ مُتقدِّمةٌ عليها؛ لأنَّها لو تأَخَّرتْ لكانتْ صفةً لها، فلمَّا تقدَّمَت انتَصبَتْ على الحالِ ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ﴾ أَي: فاترُكوها آكلةً ﴿فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ ولا تُصيبوها ﴿بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ﴾ إنْ فَعَلْتُمْ ذلكَ ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ عاجِلٌ لايَستأْخِرُ.

---

(١) قاله الضحّاك. راجع تفسير الماوردي: ج ٢ ص ٤٧٩.

(٢) العُمرىٰ، مايُجعل لك طُول عمرك، وعمرته إيّاه وأعمرته: جعلته له عمره أو عُمرىٰ. (القاموس المحيط: مادة عمر).

(٣) قاله مجاهد. راجع تفسير الماوردي: ج ٢ ص ٤٧٩.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ﴾ صالحٌ: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ استَمْتِعوا بالعيشِ ﴿فِى دَارِكُمْ﴾ في بلدِكم، ويُسمَّى البلدُ الدَارَ؛ لأنَّه يُدارُ فيه بالتَصرُّفِ، يُقالُ: دِيارُ بكرٍ؛ لبِلادِهم ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ قيل: عَقروها يومَ الأَرْبَعاءِ وهَلَكوا يومَ السَبتِ [١]، ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ فيه، فاتُّسِعَ في الظَرفِ بحذفِ الحرفِ وإجرائه مَجرَى المفعولِ به، نحوُ قولِه:

وَيومٍ شَهِدْناهُ سُلَيْماً وَعامراً [٢]

أَو ﴿مَكْذُوبٍ﴾ مصدرٌ كالمعقولِ [٣] والمَجلودِ، أي: غيرُ كذِبٍ.

﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ قُرِئَ مفتوحَ الميمِ [٤]؛ لأنَّه مُضافٌ إلىٰ «إذٍ» وهوَ غيرُ متمكِّنٍ، كقولِه:

عَلَى حِينَ عاتَبْتُ المَشيبَ على الصبا [٥]

وقُرِئَ مكسورَ الميمِ؛ لأنَّه اسمٌ مُعرَبٌ فانجرَّ بالإضافةِ، والمعنىٰ: و﴿نَجَّيْنَا﴾هُمْ من خِزيِ ذلك اليومِ ومَهانتِه وذِلَّتِه وفَضيحتِه، كما قال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [٦]، ولا خِزْيَ أَعظمُ من خِزيِ مَن كانَ هلاكُه بغضبِ اللهِ وبأسِه. وقُرِئَ: ﴿إِنَّ ثَمُودَاْ﴾ و ﴿لِّثَمُودَ﴾ بمنعِ الصَرفِ وبالتنوينِ [٧] في جميعِ القرآنِ،

---

(١) حكاه الزجّاج في معاني القرآن: ج ٢ ص ٣٥١.

(٢) وعجزه: قليل سوى الطعن النهال نوافله. والبيت منسوب لرجل من عامر، يفخر بشجاعته وكثرة غنائمه. قال البغدادي: وهذا البيت من أبيات سيبويه الخمسين التي جهل قائلوها. راجع كتاب سيبويه: ج ١ ص ١٧٨، وخزانة الأدب للبغدادي: ج ٧ ص ١٨١ وج ٨ ص ٢٠٢.

(٣) في نسخة: المنقول.

(٤) قرأه الكسائي والأعشىٰ ورجال نافع سوى إسماعيل. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٣٦، والتذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٥٩.

(٥) وعجزه: وقلتُ: ألمّا أصحُ والشيب وازعُ. والبيت للنابغة الذبياني، يذكر فيه بكاءه على الديار في حين مشيبه، ومعاتبته لنفسه على طربه وصباه. انظر ديوان النابغة: ص ٨٠.

(٦) الآية: ٥٨.

(٧) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر «ألا إنَّ ثموداً» بالتنوين، وقرأ الكسائي وحده ←

فالصَرفُ لأنّه اسمُ الحَيِّ أو الأَبِ الأكبرِ، ومَنْعُ الصَرفِ للتعريفِ والتأنيثِ بمعنَى القبيلةِ.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَـٰماً قَالَ سَلَـٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَاتَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَاتَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَٱمْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخاً إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللهِ رَحْمَتُ ٱللهِ وَبَرَكَـٰتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)﴾

﴿رُسُلُنَآ﴾ يعني: الملائكةَ، وكانوا ثلاثةً: جبرئيلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ، الصادقُ عليه السلام: «كانوا أربعةً ورابعُهم مَلَكٌ آخرُ»[١]، وقيل: كانوا تسعةً[٢]، وقيل: أحدَ عشرَ[٣]، وكانوا على صُوَرِ الغِلمانِ ﴿بِالْبُشْرَىٰ﴾ هي البِشارةُ بإسحاقَ. وعن الباقرِ عليه السلام: «إنَّ هذه البِشارةَ كانتْ بإسماعيلَ من هاجَرَ»[٤]، ﴿قَالُواْ سَلَـٰماً﴾ أي: سَلَّمنا عليكَ سلاماً، أو أَصَبْتَ سلاماً أي: سلامةً ﴿قَالَ﴾ إبراهيمُ ﴿سَلَـٰمٌ﴾ أي: أَمْرُكُم سلامٌ، وقُرِئَ: «سِلْمٌ»[٥] وهو بمعنىٰ: سلامٌ، مثلُ حِلٍّ وحلالٍ

← «ألا بُعداً لثمودٍ» بالخفض والتنوين. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٣٧.

(١) تفسير العياشي: ج ٢ ص ١٥٣ و١٥٥ ح ٤٦ و٥٣.

(٢) قاله الضحّاك على ماحكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٢ ص ٣٩٢.

(٣) وهو قول السدي. راجع الكشّاف: ج ٢ ص ٤٠٩.

(٤) تفسير العياشي: ج ٢ ص ١٥٢ ح ٤٤.

(٥) قرأه حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٣٧.

وحِزْمٍ وحَرام، قال الشاعرُ:

مَرَرنا فَقُلْنَا: إِيهِ سِلْمٌ فَسَلَّمَتْ كَمَا اكْتَلَّ بالبَرْقِ الغَمَامُ اللَوائحُ[١]

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ﴾ أي: فما لَبِثَ في المجيءِ بل عَجَّلَ فيهِ، أَو فما لَبِثَ مَجيئُه، والحَنيذُ: المَشوِيُّ بالحِجارةِ المُحماةِ في أُخدُودٍ من الأَرضِ، وقيلَ: هو المَشوِيُّ يَقطُرُ دَسَمُه[٢]، ويَدُلُّ عليهِ قولُه: ﴿بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾[٣]. ﴿فَلَمَّا رَءَآ﴾ إبراهيمُ أَيْدِيَ المَلائكةِ ﴿لَا تَصِلُ﴾ إِلَى العِجلِ الحنيذِ، أَنكَرَهم، يقالُ: نَكِرَه وأَنْكَرَه واسْتَنْكَرَه بمعنىً، وإنَّما أَنكرَهم؛ لأَنّه خافَ أَن يَكونُوا نَزَلوا لأَمرٍ أَنكرَه اللهُ من قومِه، ولذلكَ ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾، ﴿وَأَوْجَسَ﴾ أي: أَضمَرَ ﴿مِنْهُمْ﴾ خوفاً.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ وراءَ السِتر تَسمَعُ تَحاوُرَهم، وقيلَ: كانت قائمةً تَخدِمُهم[٤] ﴿فَضَحِكَتْ﴾ سُروراً بزوالِ الخِيفةِ، أو بهَلاكِ أَهلِ الخبائث، وقيلَ: ﴿فَضَحِكَتْ﴾ حاضَتْ[٥] [٦]، وهي سارةُ، وكانَت ابنةَ عمِّ إبراهيمَ ﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ﴾ بنَبِيٍّ بينَ نبيَّيْنِ، والوَرَاءُ: ولدُ الولدِ، وقُرِئَ: ﴿يَعْقُوبَ﴾ بالنَصبِ، كأَنّه قالَ: ووَهَبْنا لَها إِسحاقَ ومن وراءِ إِسحاقَ يعقوبَ، علىٰ طَريقةِ قولِه:

مَشَائيمُ لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرةً ولا ناعِبٍ إِلَّا بِشُوْمٍ غُرابُها[٧]

---

(١) البيت لذي الرمّة، ومعناه: قلنا: سلّمي واستأنسي فأمرنا سلمٌ، أي: نحن سالمون مستأنسون ومؤانسون. انظر ديوان ذي الرمّة: ص ٦٢٥ وفيه: «مَرَرْنَ».

(٢) قاله السدي وشمر بن عطية وسفيان ووهب بن منبه. راجع تفسير الطبري: ج ٧ ص ٦٩.

(٣) الذاريات: ٢٦.

(٤) قاله مجاهد علىٰ ماحكاه الماوردي في تفسيره: ج ٢ ص ٤٨٤.

(٥) قاله مجاهد وعكرمة. راجع تفسير الماوردي: ج ٢ ص ٤٨٤.

(٦) قال الزجّاج: فأمّا من قال: ضحكت: حاضت، فليس بشيء. وقال الفراء: فلم نسمعه من ثقة. انظر معاني القرآن للزجّاج: ج ٣ ص ٦٢، ومعاني القرآن للفراء: ج ٢ ص ٢٢.

(٧) البيت للأخوص اليربوعي، فأراد بقوله: «مَشَائيم» بني دارم بن مالك، وهو من قصيدة ←

ومَن قَرَأَ: «يَعْقُوبُ» بالرَّفعِ (١) فارتفاعُه بالابتداءِ أَو بـالظَّرفِ. والأَلفُ فـي ﴿يَـٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ مُبدَلةٌ من ياءِ الإِضافةِ، وكذا في «ياعَجَبا» و «يـالَهْفا»، ﴿شَـيْخاً﴾ نصبٌ على الحالِ، والعاملُ فيهِ معنَى الإِشارةِ، وكانَ لها ثَمانٍ وسَبعون (٢) سـنةً ولإِبراهيمَ مائةُ سنة ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أَن يُولَدَ وَلَدٌ بينَ هَرِمَينِ.

﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ أَي: إِنَّ هذِه وأَمثالَها ممَّا يُكرِمُكم اللهُ به ياأَهلَ بيتِ النُّبوَّةِ، فليسَ هذا مكانَ عَجَبٍ، وقيل: الرَّحمةُ: النُّبوَّةُ، والبركاتُ: الأَسْباطُ من بنِي إِسرائيلَ؛ لأَنَّ الأَنبياءَ منهُم (٣)، ﴿حَمِيدٌ﴾ فاعلٌ لِما يَستحِقُّ بـه الحمدَ من عبادِهِ ﴿مَجِيدٌ﴾ كريمٌ كثيرُ الإِحسانِ إِليهم، و ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ نصبٌ على النداءِ، أَو على المَدْحِ.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ أَي: لمَّا ٱطمأَنَّ قلبُه بعدَ الخوفِ ومُلِئَ سُروراً بسببِ البُشرَىٰ بدَلَ الغمِّ، فَرغَ لِلمُجادَلةِ، وجوابُ «لَمَّا» محذوفٌ تقديرهُ: اجـتَرَأَ علىٰ خِطابِنا، أَو قال: كيتَ وكيتَ، ثمَّ استأْنَفَ ﴿يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ وقيل: إِنَّ ﴿يُجَـٰدِلُنَا﴾ جوابُ «لَمَّا»، وإِنَّما جِيءَ به مُضارعاً لِحكايةِ الحالِ (٤)، وقيلَ: إِنَّ «لَمَّا» يَرُدُّ المُضارعَ إِلىٰ معنَى الماضِي، كما أَنَّ «إِن» تَرُدُّ الماضيَ إِلىٰ معنَى الاستقبالِ (٥)،

← يذمّ الدارميّين وينسبهم الى الشؤم وقلّة الصلاح والخير، ذلك انّهم هرّبوا قاتلاً كان بنو يربوع قد أودعوه عندهم بعدما كفلوه، ثم ادّعوا أنّه قد هرب وهذه ديته، فلمّا سمعهم الأخوص يذكرون الدية قال: دعوني أتكلّم، فقال هذه الأبيات. انظر خزانة الأدب للبغدادي: ج ٤ ص ١٥٨ ومابعدها وج ٨ ص ٢٩٥ و ٥٥٤ ، وفيهن «بِبَيْن» بدل «بِشؤم».

(١) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٣٣٨.

(٢) في نسخة: تسعون.

(٣) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٤١١.

(٤) اختاره الزجّاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ٦٤.

(٥) قاله النحّاس في اعراب القرآن: ج ٢ ص ٢٩٥ .

وقيل: معناهُ: أَخَذَ يُجادِلُنا، أَو أَقْبَلَ يُجادِلُنا[١]، أَي: يُجادِلُ رُسلنا ﴿فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ أَي: في مَعناهُم، ومجادَلَتُه إيَّاهُم أَنَّه قالَ لهم: إِنْ كانَ فيها خمسونَ من المؤْمنينَ أَتُهلِكونَهم؟ قالوا: لا، قالَ: فأَربعونَ؟ قالوا: لا، فما زالَ يَنْقصُ حتَّىٰ قال: فواحدٌ؟ قالوا: لا، فـ ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾[٢].

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ غيرُ عجولٍ علىٰ مَن أَساءَ إِليه ﴿أَوَّٰهٌ﴾ كثيرُ الدُعاءِ ﴿مُّنِيبٌ﴾ راجعٌ إِلى اللهِ بما يُحِبُّ ويَرضَىٰ، وفيه بيانٌ: أَنَّ هٰذِه الصفاتِ مِمَّا حَمَلَه[٣] على المُجادَلةِ فيهِم، رَجاءَ أَن يَرفَعَ العذابَ عَنهم.

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ علىٰ إرادةِ القولِ، أَي: قالت له الملائكةُ: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ الجِدالِ وإِن كانتِ الرحمةُ دأْبَك، فلا فائدةَ فيه ﴿إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أَي: قضاؤُه وحكمُهُ الَّذي لايَصدُرُ إِلَّا عن حكمةٍ، والعَذَابُ نازلٌ بِهِم لامَحالةَ لامَردَّ له بجدالٍ ولا غيرِه.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَانُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَايَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا

---

(١) وهو قول الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص ٢٣.

(٢) العنكبوت: ٣٢.

(٣) في بعض النسخ: حملته.

سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَاهِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾

يعني: ساءَ ﴿لُوطاً﴾ مَجِيءُ الرُسلِ ﴿وَضَاقَ﴾ بمجيئهم ذَرْعُه، وذلكَ لأَنَّه حَسِبَ أَنَّهم آدَميُّونَ ورَأَىٰ حُسنَ صورتِهم وجمالَ جُملتِهم، فخافَ علَيهم خُبثَ قومِه وسوءَ سيرَتِهم، و ﴿يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ وعَصَبْصَبٌ: شَديدٌ، مِن عَصَبَهُ: إذا شَدَّهُ.

ورُوِيَ[١]: أَنَّ لوطاً قد تَقَدَّمَهم وهُم يَمشُونَ خلفَه إِلى المنزِلِ، فقالَ في نفسِه: أَيَّ شيءٍ صَنعتُ؟ آتِي بِهِم قومِي وَأَنا أَعرِفُهم؟! فالتفتَ إِليهم وقالَ: إِنَّكُم لَتأْتُونَ شِرارَ خلقِ اللهِ، وكانَ اللهُ سُبحانَه قالَ لِجَبرَئيلَ: لاتُهلِكْهم حتَّىٰ يَشْهَدَ[٢] عليهم ثَلاثَ شَهاداتٍ، فقال جبرئيلُ: هذه واحدةٌ، ثمَّ مَشَىٰ لوطٌ، ثمَّ ٱلتَفَتَ إِليهم ثانياً وقالَ ذلك، ثمَّ التَفتَ ثالثةً عندَ بابِ المدينةِ وقالَ ذلك، فقال جبرئيلُ: هذه الثَلاثَةُ، فدَخَلُوا مَعَه منزلَه ولَم يَعلَمْ بذلك أَحدٌ، فصَعِدَت امرأَتُه فوقَ السَطحِ فصَفَّقَتْ، فلَمْ يَسمَعُوا، فَدخَّنَتْ، فلمَّا رأَوا الدُخانَ أَقبَلُوا ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أَي: يُسْرِعونَ كَما[٣] يُدفَعونَ دَفْعاً ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ ذلكَ الوقتِ ﴿كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ الفَواحِشَ فضَرُوا[٤] بها ومَرَنُوا عليها ﴿قَالَ﴾ لوطٌ ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ فتزَوَّجوهنَّ، وكانَ تَزويجُ المُسلِماتِ من الكفَّارِ جائزاً، كما زَوَّجَ رسولُاللهِ صلى الله عليه وآله ٱبنَتيهِ من عُتبةَ بنِ أَبي لَهَبٍ وأَبي العاصِ بنِ الرَبيعِ قبلَ أَن يُسلِمَا وهما كافرانِ، وقيلَ: كانَ لَهم سيِّدانِ مُطاعانِ فأَرادَ أَن يُزوِّجَهما ابنتَيهِ[٥] ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أَي: أَحَلُّ لكم من الرجالِ ﴿فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾

(١) أُنظر الكافي: ج ٥ ص ٥٤٦ ـ ٥٤٧ ح ٦ قطعة.
(٢) في بعض النسخ: تشهد.
(٣) في بعض النسخ: كأنّما.
(٤) ضَرِيَ الكلبُ بالصيد يَضرىٰ ضراوةً، أي: تعوّد. (الصحاح: مادة ضري).
(٥) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٤١٤.

في مُواقعةِ الذُكورِ ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ أَي: لاتَفْضَحونِ، من الخِزْيِ، أَو: لاتُخْجِلونِ، من الخَزايةِ وهي الحَياءُ ﴿فِى ضَيْفِىٓ﴾ في حقِّ أَضْيافِي [١]، فإِنَّه إِذا خُزِيَ ضيفُ الرَجلِ أَو جارُه فقد خُزِيَ الرَجلُ، وذلكَ من الكَرَمِ ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ رجلٌ واحدٌ يهتَدِي إِلىٰ سبيلِ الرُشدِ في الكَفِّ عن القبيحِ. ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ لأَنّا لانَتَزَوَّجُهنَّ، أَو مالنا فيهنَّ من حاجةٍ لأَنّا نَرغَبُ عن نكاحِ الإِناثِ ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَانُرِيدُ﴾ عَنَوا إِتيانَ الذُكورِ.

وَجوابُ ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ، يعني: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ لَفَعلتُ بكم وصَنعتُ، أَي: لَو قَوِيتُ عليكم بنفْسي ﴿أَوْ﴾ أَوَيتُ ﴿إِلَىٰ﴾ قويٍّ أَمْتَنِعُ به منكُم لَدَفعتُكم عن أَضيافي، فشَبَّهَ القويَّ العزيزَ بالرُكنِ من الجبلِ في شدَّتِه وَمِنْعَتِه، ولذلكَ قالَ جبرَئيلُ: إِنَّ رُكنَكَ لشديدٌ، افتحِ البابَ ودَعْنا وإِيّاهم، ففَتَحَ البابَ ودَخلُوا، فضَرَبَ جبرَئيلُ بجَناحِه وجوهَهم وطَمَسَ أَعينَهم فأَعْماهم.

قالتِ الملائكةُ: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أُرْسِلنا لهَلاكِهم فلا تَغتمّ ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ بسوءٍ أَبَداً ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ قُرِئَ بالقَطْعِ والوَصلِ [٢]، أَي: سِرْ بأَهلِكَ ليلاً، والقِطْعُ: القِطعةُ العظيمةُ من اللَيلِ، كَأَنَّما قُطِعَ بِنصفَينِ ﴿وَلَايَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أَي: ولا يَتَخلَّفْ منكم أَحدٌ، أَو لايَنْظُرْ أَحدٌ منكم وراءَه [٣]، والأَوَّلُ أَوجَهُ ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ قُرئَ بالنَصبِ والرَفعِ [٤]، ورُوِيَ: أَنَّه قالَ: مَتىٰ مَوعِدُ إِهلاكِهم؟ قالوا: ﴿ٱلصُّبْحُ﴾ فقال: أُريدُ أَسْرَعَ من ذلكَ؛ لضَيقِ صدرِهِ بهم، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [٥].

---

(١) إذ «الضيف» يقع على الواحد والاثنين والجماعة.

(٢) بالوصل قرأه ابن كثير ونافع. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٣٨.

(٣) وهو قول مجاهد على ماحكاه عنه القرطبي في تفسيره: ج ٩ ص ٨٠.

(٤) بالرفع قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٣٨.

(٥) رواه السمرقندي في تفسيره: ج ٢ ص ١٣٨.

﴿جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ جعَلَ جبرَئيلُ جَناحَه في أسفلِها ثمَّ رفعَها إلى السَماءِ حتّىٰ سَمِعَ أهلُ السَماءِ نِباحَ الكِلابِ وصياحَ الديكةِ، ثمَّ قَلَّبَها عليهم، وأتْبَعُوا الحِجارةَ مِن فوقِهم ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ هي كَلِمةٌ مُعرَّبةٌ مِن: سَنْك كِل، بدليلِ قولِه: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾[1]. ﴿مَنضُودٍ﴾ نُضِدَ فِي السَماءِ نَضْداً مُعَدّاً للعذابِ، وقيلَ: أُرسِلَ بعضُه في أَثَرِ بعضٍ مُتَتابعاً[2]. ﴿مُسَوَّمَةً﴾ مُعْلَمَةً للعذابِ ﴿وَمَاهِيَ مِن﴾ كلِّ ظالمٍ ﴿بِبَعِيدٍ﴾، وفيه وَعيدٌ لكُفَّارِ قُريشٍ.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ وَلَاتَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَاتَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَاتَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَايَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَانَشَـٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَاٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَـٰقَوْمِ لَايَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآأَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)﴾

﴿إِنِّيَ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي: برُخْصٍ من السعْرِ وثَروةٍ وسَعَةٍ[3] تُغْنيكم عن

---

(١) الذاريات: ٣٣.

(٢) قاله الربيع. راجع تفسير الماوردي: ج ٢ ص ٤٩٣.

(٣) في بعض النسخ: ووسعة.

التَطْفيفِ، أو: أراكُمْ بِخَيْرٍ ونعمةٍ من اللهِ فلاتُزيلُوه عَنكم بما أَنتم عليهِ ﴿يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ مُهلكٍ من قولِه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ [١]، وأَصلُه مِن إحاطَةِ العدوِّ، وُصِفَ «اليومُ» به لأَنَّ الزَمانَ يَشتَمِلُ علىٰ مايَحْدُثُ فيه. والبَخْسُ: النَقصُ والهَضْمُ. ﴿وَلَاتَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ نَهْيٌ عن السَرِقَةِ والغارةِ وقَطعِ السَبيلِ.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ مايُبْقِي لكم من الحَلالِ بعدَ التَنزُّهِ عمَّا هو حرامٌ عليكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أَي: بشَرطِ الإيمانِ لظُهورِ فائدتِها مع الإيمانِ من حصولِ الثَوابِ مع النَجاةِ من العقابِ، أَو يُريدُ: إنْ كُنْتُمْ مصدِّقينَ لي في نصيحتي لكم ﴿وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أَحْفَظُ أَعمالَكم [٢] وأُجازِيكم عليها، إنَّما أَنا نذيرٌ ناصِحٌ لكم.

كانَ شُعَيْبٌ كثيرَ الصَلَواتِ فقَصَدُوا بقولِهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ الهُزْءَ، والمعنىٰ: أَصَلَوَاتُكَ الَّتِي تُداوِمُ عليها تَأْمُرُكَ بتَكليفِ ﴿أَن نَّتْرُكَ مَايَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن﴾ نَترُكَ فعلَ ﴿مَانَشَٰٓؤُاْ﴾ في أَموَالِنا؟ فحُذِفَ المضافُ؛ لأَنَّ الإنسانَ لايُؤمَرُ بفعلِ غيرِه، وقُرِئَ: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ على التَوحيدِ [٣]، ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ أَرادوا بذلكَ نِسبتَه إلىٰ غايةِ السَفَهِ والغَيِّ، فعَكَسُوا لِيَتَهَكَّموا به.

﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ﴾ أَي: مِن لدنه ﴿رِزْقاً حَسَناً﴾ وهوَ مارزَقَه من النبوَّةِ والحكمةِ، وقيلَ: أَرادَ رِزقاً حلالاً طَيِّباً من غيرِ بَخسٍ [٤]، وجوابُ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ محذوفٌ، والمعنىٰ: أَخْبِرُوني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ﴾ حُجَّةٍ واضِحَةٍ ويَقينٍ ﴿مِن رَّبِّى﴾ وكنتُ نبيّاً على الحقيقةِ: أَيَصِحُّ لي أَن لا آمُرَكم بتركِ عبادةِ الأَوثانِ والكفِّ عن القبائحِ والأَنبياءُ لايُبْعَثونَ إلّا لذلكَ؟! ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾

---

(١) الكهف: ٤٢. (٢) في بعض النسخ زيادة: عليكم.

(٣) يظهر من عبارة المصنّف أنّه يعتمد على القراءة بالجمع كما هو ظاهر.

(٤) قاله الضحاك. راجع تفسير الماوردي: ج ٢ ص ٤٩٧.

معناهُ: وما أُريدُ أَن أَسبِقَكم إِلىٰ شهواتكم الَّتي نهيتُكم عنها لأَستَبِدَّ بها دونكم ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ أَي: ماأُريدُ ﴿إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ﴾ وهـو أَن أُصْلِحَكُم بـمَوْعِظَتي ونَـصيحَتي ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ ظَرفٌ، أَي: مُدَّةَ استطاعتي للإِصلاحِ ومادمتُ مُتمكِّناً منه، أَو بدلٌ من ﴿ٱلْإِصْلَـٰحَ﴾ أَي: المقدارَ الَّـذي اسـتَطعتُ مـنه، ويَـجوزُ أَن يكـونَ مـفعولاً ﴿ٱلْإِصْلَـٰحَ﴾ كقوله:

ضَعِيفُ النَكايَةِ أَعْدَاءَهُ(١)

أَي: ماأُريدُ إِلَّا أَنْ أُصْلِحَ مااستَطعتُ إِصلاحَه من فاسدِكُم ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وما كَوني مُوفَّقاً لإِصابةِ الحقِّ فيما آتِي وأَذَرُ إِلَّا بمَعونتِه وتوفيقِه، والمعنَىٰ: أَنَّه اَستَوفَقَ ربَّه في إِمضاءِ أَمرهِ علىٰ رضاءِ اللهِ، وطَلَبَ منه التَأْييدَ والنَصرَ على عَدُوِّه، وفي ضِمنِه تهديدٌ للكفَّارِ وحَسْمٌ لأَطماعِهم منه.

﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يُكْسِبنَّكم ﴿شِقَاقِىٓ﴾ أَي: خِلافي وعَداوتِي إِصابةَ العذابِ ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ يعني: أَنـَّهم أُهلِكُوا في عهدٍ قريبٍ من عهدِكم فهُم أَقربُ الهالكينَ منكم. ﴿رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ عظيمُ الرَحـمةِ مُـتَوَدِّدٌ إِلىٰ عـبادِه بكـثرةِ الإِنعامِ عليهم، مُريدٌ لمَنافِعِهم.

﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن

(١) وعجزه: يخال الفرار يُراخي الأجلَ. لم نعثر على قائله، ذكره سيبويه ضمن شواهده. وبه يهجو الشاعر رجلاً ويصفه بالجبن والضعف، وأنـّه دائماً يـلجأ الى الفـرار ويـظنّه مـؤخّراً لأجله. أُنظر كتاب سيبويه: ج ١ ص ١٩٢، وخزانة الأدب للبغدادي: ج ٨ ص ١٢٧.

يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾

﴿مَانَفْقَهُ﴾ أي: مانفهمُ ﴿كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ﴾ وكانُوا يَفهمونَه ولكنَّهم لم يَقْبَلوه، فكأنَّهم لم يَفقَهوه ﴿وَإِنَّا لَنَرَٰكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾ لاقوّةَ لكَ ولاعِزَّ فيما بينَنا فلاتَقدِرُ على الامتِناعِ منَّا إن أرَدْنا بكَ مكروهاً ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ﴾ أي: قَتَلْناك شرَّ قَتْلَةٍ، والرَهْطُ: من الثلاثةِ إلى العَشرةِ ﴿وَمَآأَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ فَنَدَعَ قتلَكَ لعزَّتِك علينا، ولكن لم نَقتُلْك لأجلِ قومِك، والمرادُ: ماأنتَ بعزيزٍ علينا بل رهطُك هـمُ الأعِزَّةُ علينا، ولذلكَ قال في جوابِهم: ﴿أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيّاً﴾ ونسيتموه وجعلتموه كالشيءِ المنبوذِ وراءَ الظَهرِ لايُعبَأُ بـه، والظِهريُّ مَنسوبٌ إلى الظهرِ، والكسر من تغييراتِ النَسَبِ ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ قد أحاطَ بأعمالِكم عِلماً، فلا يَخفَىٰ عليه شيءٌ منها.

﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ المَكانةُ: إمَّا مصدرٌ من مَكُنَ مَكانةً فهو مَكِينٌ، أو ٱسمُ المكانِ، يُقالُ: مكانٌ ومَكانةٌ، والمعنَىٰ: ٱعمَلُوا قارِّينَ علىٰ مكانِكُمُ الَّذي أنتُم عليهِ من الشركِ والعَداوةِ لي، أو ٱعمَلوا مُتَمكِّنينَ من عَداوتي مُطِيقينَ[1] لها ﴿إِنِّى عَـٰمِلٌ﴾ عَلَىٰ حَسَبِ مايُؤتيني اللهُ من النُصرةِ والتَأْييدِ ويُمكِّنُني ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ﴾ يجوزُ أن يكونَ ﴿مَنْ﴾ ٱستِفهاميَّةً مُعلِّقةً لفعلِ[2] العِلمِ عن عَمَلِه فيها، كأنَّه قال: سَوْفَ تَعْلَمُونَ أيُّنا يأتِيهِ ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ﴾ أيُّنا ﴿هُوَ كَـٰذِبٌ﴾، ويجوزُ أن تكونَ موصولةً، والمعنَىٰ: سَوفَ تَعلمونَ الشَقِيَّ الَّذي يأتِيه

---

(١) في نسخة: مطبقين.
(٢) في بعض النسخ: بفعل.

عذابٌ يُخزيهِ والّذي هُوَ كَاذِبٌ ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ﴾ وانتَظِرُوا العاقبةَ ﴿إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ منتَظِرٌ، والرَقِيبُ بمعنى الرَاقبِ أو بمعنى المُراقِبِ أو بمعنى المُرْتَقِبِ، الجَاثِمُ: اللاَزمُ لمكانِه لايَرِيمُ[1]. رُوِي: أَنَّ جَبرئيلَ صاحَ بهم صيحةً فزهَقَ روحُ كلِّ واحدٍ منهُم حيثُ هو[2]. ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ﴾ كأن لم يُقِيمُوا ﴿فِى دِيَـٰرِهِمْ﴾ أَحـياءً مُـتصرِّفينَ مُتردِّدينَ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ (٩٩) ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَازَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأَخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَاتَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥)﴾

﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: بحُجَجِنا ومُعجِزاتِنا ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وحجَّةٍ ظاهرةٍ مُخلَّصَةٍ من التَلبيسِ والتَمويهِ. ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أَي: مافي أَمرِه رُشدٌ، إنَّما هو غَيٌّ وضلالٌ. ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يَتقدَّمُهم إِلى النَارِ وهم يتَّبِعونَه كما كانَ لهم

---

(١) رام يريم رَيْماً: برح وزال. (القاموس المحيط: مادة رام).

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٤٢٥.

قُدْوةً في الضَلالِ.

ويجوزُ أَن يُريدَ بقولِه: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ وما أَمرُه بـصالحِ العـاقبةِ حميدِها، ويكون قوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ تفسيراً لذلك وإِيضاحاً ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أُتِيَ بلفظِ الماضِي لأَنَّ الماضِيَ يَدُلُّ علىٰ أَمرٍ موجودٍ مقطوعٍ به، والمرادُ: يَقْدُمُهم فيُورِدُهم النارَ لامَحالةَ ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ﴾ الَّذي يَرِدُونَه: النَارُ؛ لأَنَّ الوِرْدَ إِنَّما يُرادُ لتسكينِ العَطَشِ وتَبريدِ الأَكبادِ والنَارُ ضِدُّه، والوِرْدُ: الماءُ الَّذي يُـورَدُ، والإِبـلُ الواردةُ أَيضاً.

﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ﴾ أَي: فِي الدُنيا ﴿لَعْنَةً وَ﴾ يُلْعَنُونَ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ رفدُهم، أَي: بِئْسَ العَونُ المُعانُ، وذلكَ أَنَّ اللَعنةَ في الدُنيا رِفْـدٌ للعذابِ ومَددٌ له وقد رُفِدَتْ باللَعنةِ في الآخرةِ، وقيل: بِئْس العطاءُ المُعْطَىٰ[١].

﴿ذَ ٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أَي: ذلكَ النَبأُ بعضُ أَنباءِ القُرى المُهلَكَةِ ﴿نَـقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ خبرٌ بعدَ خبرٍ ﴿مِنْهَا﴾ الضَميرُ لـ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ أَي: بعضُها ﴿قَآئِمٌ﴾ أَي: باقٍ وبعضُها عافِي الأَثَرِ، كالزَرعِ القَائمِ علىٰ ساقِه والمَحْصُودِ، وهذه جملةٌ مسـتَأْنَفةٌ لامحلَّ لها.

﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ﴾ بإِهلاكِنا ﴿وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بارتِكابِ مابه أُهلِكُوا ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ فما قَدرت أَن تَرُدَّ عنهم بَأْسَ اللهِ ﴿ٱلَّتِى يَدْعُونَ﴾ أَي: يَعبُدونها، وهي حكايةُ حالٍ ماضيةٍ ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمْـرُ رَبِّكَ﴾ أَي: عـذابُـه ونَـقِمَتُه، و﴿لَّمَّا﴾ منصوبٌ بِـ﴿مَآ أَغْنَتْ﴾، والتَتبِيبُ: التَخسيرُ، ومنه تَبَّبَهُ: أَوقعه في الخُسرانِ.

﴿وَكَذَ ٰلِكَ﴾ الكافُ مرفوعُ المحلِّ، أَي: ومثلُ ذلك الأَخْـذِ ﴿أَخْـذُ رَبِّكَ ... ٱلْقُرَىٰ﴾، ﴿وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ﴾ حالٌ من ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾، ﴿أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وَجيعٌ صَعبٌ على

---

(١) قاله القتبي على ماحكاه عنه السمرقندي في تفسيره: ج ٢ ص ١٤١.

المأخوذِ، حذَّرَ سبحانه مِن وَخامةِ عاقبةِ الظُّلمِ لكلِّ أَهلِ قريةٍ ظالمةٍ، بل لكلِّ ظالمٍ ظَلَمَ غيرَه أو نَفسَه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ ماقصَّ اللهُ من قِصَصِ الأُمَمِ الهالِكَةِ بذُنُوبِها ﴿لَآيَةً﴾ لَعبرةً ﴿لِّمَنْ خَافَ﴾ لأنَّه يَنْظُرُ إلىٰ ماأحلَّ اللهُ بالمجرمينَ في الدُّنيا، وهو أُنموذَجٌ لما أَعدَّه لهم في الآخرةِ، فإذا رأىٰ عِظَمَه وشدَّتَه اعتَبَرَ به عِظَمَ العذابِ الموعودِ في الآخرةِ فيكونُ له لطفاً في زيادةِ الخَشيةِ، ونحوهُ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [١]، ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ يومِ القيامةِ يَدُلُّ عليه قولُه: ﴿عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾، و ﴿ٱلنَّاسُ﴾ رفعٌ باسمِ المفعولِ الَّذي هو ﴿مَّجْمُوعٌ﴾ كما يُرْفَعُ بفعلِه إذا قُلتَ: يُجْمَعُ له النَّاسُ، أَي: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ﴾ موصوفٌ بأَن يكونَ موعداً لجمعِ الناسِ له صفةً لازمةً ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أَي: مشهودٌ فيهِ، يَشْهَدُ فيه الخَلائقُ الموقِفَ لايَغيبُ عنه أَحدٌ، قال الشاعر:

فِي مَحْفِلٍ مِنْ نَواصِي النَّاسِ مَشْهُودِ [٢]

الأَجَلُ يُطلَقُ علىٰ مدَّةِ التَّأْجيلِ وعلى مُنتَهاها، فيَقولونَ: انتَهى الأَجلُ، وبلَغَ الأَجلُ آخرَهُ، ويقولونَ: حَلَّ الأَجلُ، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [٣] يُرادُ آخرُ مدَّةِ التأجيلِ، والعَدُّ إِنَّما هو للمدَّةِ لالغايتها ومنتهاها، فالمعنىٰ: مايؤَخِّرُه [٤] إلَّا لانتِهاءِ مدَّةٍ معدودةٍ فحُذِفَ المضافُ.

وقُرِئَ: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ بغيرِ ياءٍ، ونحوُه قولُهم: «لاأَدْرِ» بحذفِ الياءِ للاجتزاءِ

---

(١) النازعات: ٢٦.

(٢) وصدره: ومشهد قد كفيت الغائبين به. البيت منسوب لأم قبيس الضبية، وهو من أبيات الحماسة والفخر، تقول: رُبَّ مشهدٍ مشهود أو محفلٍ ملتئم من أشراف الناس ورؤسائهم قد كفيت الغائبين بالنطق عنهم، فكشفت الغمة واثبتت الحجة وقلت الصواب عنهم. انظر شرح شواهد الكشّاف للأفندي: ص ٣٧٦.

(٣) فاطر: ٤٥.

(٤) في بعض النسخ: نؤخّره.

بالكسرةِ عنها، وفاعلُ ﴿يَأْتِ﴾: ٱللهُ عزَّوجلَّ؛ لقولِه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللهُ﴾ (١)، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ (٢)، ويدلُّ عليه قِراءَةُ من قَرَأَ: «وَمَا يُؤَخِّرُهُ» بالياءِ (٣) وقولُه: ﴿بِإِذْنِهِ﴾، ويجوزُ أن يكونَ الفاعلُ ضميراً لِـ﴿يَوْمَ﴾ (٤) كقولِهِ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلساعَةَ أَن تَأْتِيَهُم﴾ (٥)، وانتصَبَ الظَرفُ بـ﴿لَاتَكَلَّمُ﴾ أَي: لاتَتَكلَّمُ، والمرادُ بإتيان اليَومِ: إتيانُ هَوْلِه وشدائدِه ﴿فَمِنْهُمْ﴾ الضَميرُ لأَهلِ الموقِفِ، ولم يُذْكَروا؛ لأَنَّ ذلكَ معلومٌ.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَاشَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَاشَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) فَلَاتَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠)﴾

الزَفِيرُ: إِخراجُ النَفَسِ، والشَهِيقُ: ردُّهُ (٦) قال الشمّاخُ (٧):

---

(١) البقرة: ٢١٠. (٢) الفجر: ٢٢.

(٣) وهي قراءة المفضّل والأعمش. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٦١.

(٤) راجع تفصيله في الفريد في اعراب القرآن للهمداني: ج ٢ ص ٦٦٦ ـ ٦٦٧.

(٥) الزخرف: ٦٦.

(٦) قال الطريحي: شهيق الحمار: آخر صوته، والزفير: أوله، شبّه حسيسها المفضع بشهيق الحمار الذي هو كذلك. وشهق الرجل: ردّد نَفَسه مع سماع صوته من حلقه. مجمع البحرين: ج ٥ ص ١٩٧ مادة (شهق).

(٧) هو الشمّاخ بن ضرار المازني الغطفاني، شاعر مخضرم، عاش اكثر حياته في العصر ←

بعيدٌ مَدَى التطْرِيبِ أَوَّلُ صوتِهِ زفيرٌ ويتلُوهُ شهيقٌ مُحَشرِجُ(١)

﴿مَادَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ يعني: المُبَدَّلتَينِ، أي: مَادامَتْ سماواتُ الآخرةِ وأَرضُها وهي مخلوقةٌ للأَبدِ، وكلُّ ماعلَاكَ وأَظَلَّكَ فهو سماءٌ، ولابدَّ لأَهلِ الآخرةِ ممَّا يُظِلُّهم ويُقلُّهم، وقيل: إنَّ ذلك عبارةٌ عنِ التَّأْبيدِ(٢) كقولِ العربِ: «مَالَاحَ كوكبٌ ومَا أَقامَ ثَبِيرٌ ورَضْوَى»، وغيرِ ذلك من كلماتِ التَّأْبيدِ ﴿إِلَّا مَاشَآءَ رَبُّكَ﴾ هو ٱستثناءٌ من الخُلودِ في عذابِ النارِ ومن الخُلودِ في نعيمِ الجنَّةِ، وذلك أَنَّ أَهلَ النَّارِ لايُعذَّبُونَ بالنَّارِ وحدَهَا، بل يُعذَّبُونَ بأَنواعٍ من العذابِ، وبما هُوَ أَغلظُ من الجميعِ وهو سَخَطُ ٱللهِ عَليهِم وإِهانتُهُ إِيَّاهُم، وكذلك أَهلُ الجَنَّةِ لهُم سِوى الجَنَّةِ ممَّا هو أَكبرُ منها وهو رِضوانُ ٱللهِ وإكرامُهُ وَتبجيلُهُ، فهو المرادُ بالاستثناءِ، وقيلَ: المرادُ بالاِستثناء من ﴿ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ وخُلودِهِم: مَنْ شاءَ ٱللهُ أَن يُخرِجَهُ من النَارِ بتوحيدِهِ وإِيمانِهِ لإِيصالِ الثَوابِ الَّذي ٱستحقُّوهُ بِطاعَتِهِم إِليهم(٣)، ويكونُ «مَا» بمعنَى «مَنْ»، كما يُروَىٰ عنِ العَربِ: «سُبْحَانَ مَاسَبَّحْتُ لَهُ» يَقُولونَه عِندَ سَماعِ الرَعدِ، وكقولِه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾(٤)، والمراد بالاستثناءِ مِنَ ﴿ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟﴾ وخُلودِهِمْ في ٱلْجَنَّةِ أَيضاً: هؤُلاءِ الَّذينَ يُنقَلُونَ إِلى الجنَّةِ مِنَ النارِ، والمعنىٰ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ... إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ من الوقتِ الذي أَدخَلهُم فيه النارَ قبلَ أن يَنقُلَهم الىٰ الجنَّةِ، فَـ﴿مَا﴾ هاهنا علىٰ بابِهِ والاِستثناءُ

← الاسلامي، أقام في المدينة المنوّرة كثيراً، وقيل: إنّه أنشد شعراً امام الرسول ﷺ، توفّي في خلافة عثمان. أُنظر الاغاني لأبي فرج الاصفهاني: ج ٩ ص ١٥٨.

(١) يصف فيه حمار وحش بحسن الصوت وطول النَفَس. انظر شرح شواهد الكشّاف للافندي: ص ٣٥٥.

(٢) حكاه البغوي في تفسيره: ج ٢ ص ٤٠٢ ونسبه الى أهل المعاني.

(٣) قاله ابن عباس والضحاك وقتادة، ويرويه أنس عن النبي ﷺ. راجع تفسير الماوردي: ج ٢ ص ٥٠٥.

(٤) الحشر: ١، الصف: ١.

من الزَمانِ، والاستثناءُ في الأَوّلِ من الأَعيانِ.

وعن قَتادةَ: ٱللَّهُ أَعْلَمُ بثُنياهُ[١]، ذكرَ لنا أَنَّ ناساً يُصِيبُهُمْ سَفْعٌ[٢] من النَارِ بذُنُوبِهم ثُمَّ يَتفضَّلُ ٱللَّهُ عليهِمْ فيُدخِلُهُمُ الجنَّةَ، يُسمَّونَ الجهنَّمِيِّينَ، وهم الَّذين أُنفِذَ فيهِمُ الوعيدُ ثمَّ أُخرِجُوا بالشَفاعةِ[٣].

وقُرِئَ: ﴿سُعِدُواْ﴾ بضمِّ السينِ، ويكونُ علىٰ هذَا أَسْعَدَهُ ٱللَّهُ فهو مسعودٌ، وسَعِدَ الرَجُلُ فهو سعيدٌ، ونحوُه: حَزِنَ الرجُلُ وحَزَنْته ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي: غيرَ مقطوعٍ، ولكنَّهُ مُمتدٌّ إلىٰ غيرِ نِهايةٍ.

ولمَّا قَصَّ قِصَصَ الكفَّارِ وماحلَّ بِهِم من نَقِمةِ ٱللَّهِ سبحانَهُ قَالَ: ﴿فَلَاتَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ أَي: فلا تَشُكّ بعدَ ماأُنزِلَ عليك من هذِهِ القِصَصِ في سُوءِ عاقبةِ عبادتِهِمْ للأَوثانِ، وتَعرُّضِهِم بهَا لِمَا أَصَابَ أَمثالَهم قبلَهُم، تسليةً لِرسولِ ٱللَّهِ ﷺ، ووعداً له بالانتقامِ منهُم ووعيداً لَهُم ﴿مَايَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ أي: حالُهُم في الشِركِ مثلُ حالِ آبائِهم مِنْ غيرِ تفاوُتٍ بينَ الحالتَينِ، فسيَنْزِلُ بهم مثلُ مانَزَلَ بآبائِهم، وهو استئنافٌ معناهُ: تعليلُ النَهي عن المِرية ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أَي: حظَّهُم من العذاب كما وفَّينا آباءَهُم أَنصباءَهُم.

﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أَي: آمنَ بِهِ قومٌ وكَفَرَ بِهِ قومٌ، كما اختُلِفَ في القرآنِ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ يعني: كلمةَ الإنظارِ إلىٰ يومِ القيامةِ ﴿لَقُضِىَ﴾ بَيْنَ قومِ موسَىٰ أَو بَيْنَ قومِكَ، وهذَا من جملةِ التَسليةِ أَيضاً.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١)

(١) في مجمع البيان بلفظ: بمشيئته. قال الجوهري: الثُنيا: الاسم من الاستثناء وكذا الثنوى. انظر الصحاح: مادة (ثنى).

(٢) سفعته النار: اذا أحرقته إحراقاً يسيراً فغيرّت لون البشرة. (الصحاح: مادة سفع).

(٣) حكاه عنه عبدالرزاق في تفسيره: ج ١ ص ٢٧٣.

فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣)﴾

﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ التنوينُ عِوَضٌ عن المضافِ إليهِ، يعني: وَإِنَّ كُلَّهم أي: جميعَ المُختَلِفِينَ فيهِ ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ جوابُ قَسَمٍ محذوفٍ، واللَامُ في ﴿لَّمَّا﴾ مُوَطِّئَةٌ للقَسَمِ وَ «مَا» مزيدةٌ، وَالمعنىٰ: وإنَّ جميعَهُم وَاللهِ لَيُوَفِّيَنَّهُم ﴿رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ من حَسَنٍ وقبيحٍ وإيمانٍ وكفرٍ، وقُرِئَ: «وَإِنْ كُلًّا» بالتَخفيفِ[١] علىٰ إعمالِ المخفَّفةِ عَمَلَ الثَقيلةِ اعتباراً لأَصلِهَا الَّذي هو الثَقيلُ، وقُرِئَ: ﴿لمَّا﴾ بالتشديدِ معَ ﴿إِنَّ﴾ الثقيلةِ والخفيفةِ، وكِلَاهُمَا مشكِلٌ عندَ النَحويِّين، إِذ ليسَ يجوزُ أَن يُرادُ بـ ﴿لمَّا﴾ معنى الحِينِ، ولَا معنَىٰ «إلَّا» كالَّتِي في قولِهِمْ: نَشَدتُكَ ٱللهَ لَمَّا فَعَلْتَ وَإلَّا فَعَلْتَ، ولا معنىٰ «لَمْ»، وأَحسَنُ مايُصرَفُ إليه أَن يُقالَ: إِنَّهُ أَرادَ «لَمّاً» من قولِه: ﴿أَكْلاً لَّمًّا﴾[٢]، ثمَّ وَقَفَ فقال: ﴿لمَّا﴾، ثمَّ أَجرَى الوصلَ مجرَى الوقفِ، ويكونُ المعنَىٰ: وَإنَّ كُلاًّ ملمُومِينَ يعني: مجموعِينَ، كأَنَّهُ قال: وإنَّ كُلاًّ جميعاً، كقولِه: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[٣]، ويجوزُ أَن يكونَ ﴿لمَّا﴾ مصدراً علىٰ زِنَةِ فَعْلَىٰ، مِثلُ: الدَعوىٰ والشَروىٰ.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي: فاستَقِم ٱستقامةً مِثلَ الاستقامةِ الَّتي أُمِرْتَ بِهَا علىٰ جادَّةِ الحقِّ غيرَ عادلٍ عنهَا ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ عطفٌ على الضَميرِ المُستَكِنِّ فِي «ٱستَقِمْ»، وجازَ ذلِكَ مِن غيرِ تأكيدٍ بالضَميرِ المنفصلِ لأَنَّ الفاصِلَ قامَ[٤] مقامَهُ،

---

(١) قرأ ابن كثير ونافع (الحرميان) بتخفيف «إن» و «لما»، وقرأ أبو عمرو والكسائي بتشديد الأُولى وتخفيف الثانية، وأمّا ابو بكر عن عاصم فقد قرأ بتخفيف الأُولى وتشديد الثانية. راجع التبيان: ج ٦ ص ٧٣ ـ ٧٤، والتذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٦١.

(٢) الفجر: ١٩.

(٣) الحجر: ٣٠.

(٤) في بعض النسخ: قائم.

والمعنىٰ: فاستقِمْ أنتَ وليستقِمْ مَنْ تابَ عنِ الكُفرِ وآمَنَ مَعَكَ ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ ولا تَخرُجُوا عن حدودِ ٱللهِ ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عالِمٌ فهو مُجازِيكم بِهِ.

وعنِ الصّادقِ عليه السلام: «﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي: ٱفتقِرْ إلى ٱللهِ بصحّةِ العزمِ»(١).

وعن ابنِ عبّاسٍ: مانزَلَتْ آيةٌ كانَتْ أشَقَّ علىٰ رسولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله من هذهِ الآيةِ(٢)، ولهذا قالَ: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ والواقعةُ وأَخَواتُها»(٣).

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ولا تَمِيلُوا إلى ٱلّذينَ وُجِدَ منهُمُ الظُّلمُ، والنَهيُ مُتناوِلٌ للدُخولِ معَهُمْ في ظُلمِهِمْ، وإظهارِ الرضا بفعلِهِمْ ومُصاحَبَتِهم ومصادَقَتِهم ومداهَنَتِهم، وعن الحسن: جَعَلَ ٱللهُ الدينَ بينَ لاءَينِ: ﴿لَا تَطْغَوْاْ﴾ وَ﴿لَا تَرْكَنُوٓاْ﴾(٤).

وفي الحديثِ: «مَنْ دَعَا لِظالِمٍ بِالْبَقاءِ فَقَدْ أَحبَّ أَنْ يُعْصَى اللهُ فِي أَرْضِهِ»(٥).

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ حالٌ من قَولِهِ: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: فَتَمَسَّكُمُ ٱلنارُ وَأَنتم علىٰ هذهِ الحالِ، ومعناهُ: ومالكم من أنصارٍ يقدِرُونَ علىٰ منعِكُمْ من عذابِهِ غيرُهُ ﴿ثُمَّ﴾ لاينصُرُكُم هُوَ.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ (١١٤) وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (١١٥) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره: ج ٧ ص ١١٥.

(٢) حكاه عنه القرطبي في تفسيره: ج ٩ ص ١٠٧.

(٣) قد تواتر هذا الحديث عنه صلى الله عليه وآله بهذا اللفظ أو قريب منه من طرق الخاصة والعامة، نذكر على سبيل المثال: أمالي الشيخ الصدوق: ج ١ ص ١٩٤، الخصال: ص ١٩٩، المعجم الكبير للطبراني: ج٦ ص ١٣٨ وج ١٧ ص ٢٨٧، المصنّف لابن أبي شيبة: ج ١٠ ص ٥٥٤، وغيرها.

(٤) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٢٢.

(٥) اتحاف السادة المتقين للزبيدي: ج ٦ ص ١٣٣.

مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ (١١٦) ﴾

﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ غُدوةً وعَشِيَّةً ﴿وَزُلَفاً مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ وَسَاعَاتٍ من اللَيلِ، وهي ساعتُهُ[١] القريبةُ مِن آخرِ النهارِ، من أزلَفَهُ: إذا قرَّبَهُ، وصلاةُ الغُدوةِ: صلاةُ الفجرِ، وصلاةُ العَشِيَّةِ: المغربُ، وصلاةُ الزُلَفِ: العِشاءُ الآخِرةُ، وتَرَكَ ذِكرَ الظُهرِ والعصرِ؛ لأنَّهما مذكورانِ على التبَعِ للطَرَفِ الأَخيرِ لأنَّهما بعدَ الزوالِ، وقد قالَ سبحانَهُ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾[٢]، والدُلُوكُ: الزَوالُ، وقُرِئَ: «وَزُلُفاً» بضمَّتَيْنِ[٣] ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قيل: معناهُ: إنَّ الصَلواتِ الخمسَ تُكفِّرُ مابينَها من الذنُوبِ[٤]، لأَنَّ ﴿ٱلْحَسَنَٰتِ﴾ معرَّفةٌ باللامِ، وقد تَقدَّمَ ذكرُ الصلواتِ.

وعن عليٍّ عليه السلام: «أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله قال: أرجىٰ آيةٍ فِي كِتَابِ اللهِ هذه الآيَةُ»[٥].

وقيل: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ﴾ يَكُنَّ لطفاً في تركِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[٦]، ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ قولِهِ: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾ وما بعدَهُ ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾: عِظَةٌ للمتَّعِظِينَ.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ على الامتِثالِ بما أُمِرْتَ بِهِ، والانتهاءِ عمَّا نُهِيتَ عنه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَايُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. وهذهِ الآياتُ اشتَمَلَتْ على الاستقامةِ، وإقامةِ الصَلواتِ، والانتهاءِ عنِ الطُغيانِ والرُكُونِ إلى الظَلَمةِ، وغيرِ ذلِكَ مِنَ الطاعاتِ.

﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ أَي: فهلَّا كانَ ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ أَي: أُولُو

---

(١) في نسخة، ساعاته. (٢) الاسراء: ٧٨.

(٣) وهي قراءة أبي جعفر المدني وابن اسحاق وعيسىٰ على ماحكاه عنهم ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ٦٦.

(٤) قاله ابن عباس وابن مسعود والحسن والضحّاك. راجع تفسير الماوردي: ج ٢ ص ٥٠٩.

(٥) تفسير العياشي: ج ٢ ص ١٦١ ح ٧٤ قطعة.

(٦) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٤٣٥.

فضلٍ وخيرٍ، وسُمِّي الفضلُ والجُودَةُ بَقِيَّةً؛ لأَنَّ الرَجُلَ يَستبقِي مِمَّا يُخرِجُهُ أَجْوَدَهُ وأَفْضَلَهُ، فصارَ مَثَلاً في الجودةِ والفضلِ، ويُقالُ: فلانٌ مِن بقيَّةِ القومِ أي: من خِيارِهِمْ، وقد تكونُ البقيَّةُ بمعنىٰ: البَقْوَىٰ، وعلىٰ ذلك فيكونُ معناه: فهلّا كانَ منهُم ذَوُو بقاءٍ علىٰ أَنفُسِهِم، وصِيانةٍ لها من سَخَطِ ٱللهِ وعقابِهِ ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ استثناءٌ منقطعٌ معناه: ولكِن قليلاً ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾، وَ «مِنْ» لِلبيانِ ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآأُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ أَرادَ بِـ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ تارِكِي النَهي عنِ المُنكَراتِ، أَي: اتَّبعُوا ماعُوِّدُوا مِنَ التَنعُّمِ وطلبِ أَسبابِ العيشِ الهنِيءِ، ورَفَضُوا ماوراءَ ذلِكَ.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ (١٢١) وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)﴾

﴿كَانَ﴾ بمعنىٰ: صَحَّ وٱستَقامَ، واللامُ لتأْكيدِ النفيِ، و ﴿بِظُلْمٍ﴾ حالٌ عن الفاعلِ، والمعنىٰ: استَحالَ في الحكمةِ أَن يُهْلِكَ اللهُ ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ ظالماً ﴿وَأَهْلُهَا﴾ قومٌ ﴿مُصْلِحُونَ﴾ تنزيهاً لذاتِهِ عنِ الظُلمِ، وإِيذاناً بأَنَّ إِهلاكَ المُصلِحِينَ ظُلمٌ[1]، وقيل: الظُلمُ: الشِركُ[2]، أَي: لايُهلِكُ القُرَىٰ بسببِ شركِ أَهلِهَا وهُمْ مُصلِحُونَ

---

(١) في بعض النسخ زيادة: مستحيل عليه.

(٢) قاله ابن عباس على ماحكاه عنه السمرقندي في تفسيره: ج ٢ ص ١٤٦.

يَتعاطَونَ الحقَّ فيما بَيْنَهُم، ولا يَضُمُّونَ إلىٰ ظُلمِهِمْ فساداً آخَرَ.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ لاضطرَّ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ إلىٰ أن يكونوا أهلَ ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: ملَّةٍ واحدةٍ وهي ملَّةُ الإسلامِ، ولكنَّهُ مَكَّنهم من الاختيارِ ليستحقُّوا الثوابَ، فاختَارَ بعضهم الحقَّ وبعضهم الباطل فاختَلفُوا ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا﴾ ناساً هدَاهُمُ اللهُ ولَطَفَ بِهِم، فاتَّفقُوا علىٰ دِينِ الحَقِّ غيرَ مختلِفِينَ فيهِ ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾: «ذَٰلِكَ» إشارةٌ إلىٰ مادلَّ عليهِ الكلامُ الأوَّلُ، يعني: وَلذلكَ من التَمكينِ والاختيارِ الَّذي كان عنه الاختلافُ ﴿خَلَقَهُمْ﴾ لِيُثِيبَ الَّذِي يَخْتارُ الحقَّ بحُسنِ ٱختيارِهِ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وهي قولُهُ للملائكةِ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿وَكُلًّا﴾ أي: وكُلَّ نبأ ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾، و﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ بيانٌ لِـ﴿كُلًّا﴾، وَ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ بدلٌ مِنْ ﴿كُلًّا﴾، ويجوزُ أن يكونَ المعنَىٰ: وكلَّ اقتصاصٍ نَقُصُّ، علىٰ معنَىٰ: وكُلَّ نوعٍ من أنواعِ الاقتصاصِ نقصُّ عليكَ على الأساليبِ المختلفةِ، وَ ﴿مَا نُثَبِّتُ﴾ مفعولُ ﴿نَقُصُّ﴾، وَمعنَىٰ تثبيتِ فؤَادِه: زيادةُ يقينِهِ وطمأنينةُ قلبِهِ؛ لأَنَّ تكاثُرَ الأَدلَّةِ أثبتُ للقلبِ ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ﴾ السُورةِ، أَو في هذه الأَنباءِ المقصوصةِ فيها ماهو حقٌّ ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ وَتذكيرٌ.

﴿اعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ علىٰ حالِكُم الَّتي أَنتم عَلَيها ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾.

﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ بنا الدوائر ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أَن ينزلَ بكُم نحوُ ماقصَّ اللهُ مِنَ النقم النازلةِ بأَمثالكُم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لايخفىٰ عليهِ خافيةٌ، فلا يخفىٰ عليهِ أَعمالُكُم ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ فينتَقِمُ لكَ مِنهُمْ ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فَإِنَّهُ يَنصُرُكَ ويكفِيكَ أَمرَهُم.

❁ ❁ ❁

سورةُ يوسُف

مَكيّةٌ، وهي مائةٌ وإحدَىٰ عشرة آيةً بالإجماعِ[1].

في حديثِ أُبَيٍّ: «عَلِّمُوا أرِقّاءَكُمْ سورةَ يوسُفَ عليه السلام، فأَيُّما مُسلِمٍ تلاهَا وعَلَّمَها أَهلَهُ وماملَكَتْ يمينُهُ هَوَّنَ ٱللهُ عليهِ سَكَرَاتِ الموتِ، وأَعطاهُ القوَّةَ أَن لايَحسُدَ مسلِماً»[2].

وعنِ الصّادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرأَهَا في كُلِّ ليلَةٍ بَعثَهُ ٱللهُ يومَ القيامةِ وجَمالُهُ مثلُ جمالِ يُوسُفَ عليه السلام، ولايُصِيبُهُ فَزَعٌ، وكانَ مِنْ خِيارِ عبادِ اللهِ الصّالحِينَ»[3].

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (١) إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في تبيانه: ج ٦ ص ٩١: مكية في قول مجاهد وقتادة، وهي مائة وإحدىٰ عشرة آية بلا خلاف في ذلك.

وقال الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٤٤٠: مكية الّا الآيات ١ و٢ و٣ و٧ فمدنية، وهي مائة واحدىٰ عشرة آية، نزلت بعد سورة هود.

وقال الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٥: مكيّة كلّها، وقال ابن عباس وقتادة: الّا أربع آيات منها.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٥١١ مرسلاً.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٣.

تَعۡقِلُونَ (٢) نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ (٣) إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ (٤) قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ (٥) ﴾

﴿ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ الظاهِرِ أَمْرُهُ في الإعْجازِ، أو المُبينِ أنّهُ مِن عندِ ٱللهِ لا مِن عندِ البَشَرِ، أو المُبينِ الواضِحِ ٱلَّذي لَاتَشتَبِهُ معانيهِ على العرب لنُزولِهِ بلسانهم. ﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ حالٌ ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ إرادةَ أَن تَفهَمُوهُ وتُحيطُوا بمعانيهِ، ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾ (١) لالتبَسَ عليكم.

وَ﴿ٱلۡقَصَصِ﴾ يكونُ مصدراً، أو يكونُ بمعنَى المقصُوصِ، كالنَّقَصِ والحَسَبِ، فإن أُريدَ المصدرُ فالمعنَىٰ: نحنُ نَقُصُّ عليكَ أحسنَ الاقتصاصِ ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أَي: بإيحائنا إليكَ هذهِ السُورةَ، فيكونُ ﴿أَحۡسَنَ﴾ نصباً على المصدرِ لإضافتِهِ إلى المصدَرِ، والمرادُ بأَحْسَنِ الاقتصاصِ: أنّهُ ٱقتُصَّ علىٰ أَبدعِ أُسلوبٍ وأَحسنِ طريقةٍ وأعجَبِ نظمٍ، وإن أُريدَ بـ﴿ٱلۡقَصَصِ﴾ المقصوصُ فالمعنَىٰ: نحنُ نقُصُّ عليكَ أَحسنَ مايُقَصُّ مِنَ الأَحاديثِ في بابِهِ لِمَا يَتَضَمَّنُ مِنَ النُكَتِ والحِكَمِ والعِبَرِ الَّتي ليسَت في غيرِها ﴿وَإِن كُنتَ﴾: ﴿إِن﴾ مُخَفَّفَةٌ من التَقيلةِ (٢) والضَميرُ في ﴿قَبۡلِهِۦ﴾ يعودُ إلىٰ ﴿مَآ أَوۡحَيۡنَا﴾ أَي: الحديثَ وإن كُنْتَ مِنْ قَبْلِ إيحائنا إليكَ مِنَ ﴿ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ عنهُ: مَاكانَ لَكَ بِهِ علمٌ قطُّ.

﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ﴾ بدلٌ مِنْ ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ وهو مِن بدَلِ الاشتمالِ؛ لأَنَّ

---

(١) فصّلت: ٤٤.

(٢) في بعض النسخ: المثقلة.

الوقتَ مشتملٌ علىٰ مَايُقَصُّ فيهِ ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ قُرِئَ بكسرِ التّاءِ وفتحها[١]، وهي تاءُ التأْنيثِ جُعِلت عِوَضاً من ياءِ الإضافةِ، وإنّما صَحَّ أَن يكونَ عِوَضاً منها لأَنَّ التأْنيثَ والإضافةَ يَتَناسَبانِ في أَنَّ كُلَّ واحدٍ منهما زيادةٌ مضمومةٌ إلى الاسمِ في آخرِهِ، ومَنْ فَتَحَ حَذَفَ الأَلِفَ من «يَاأَبَتَا» وأَبقَى الفتحةَ دليلاً عليها ﴿إِنِّى رَأَيْتُ﴾ مِنَ الرُّؤْيَا، وعنِ ابنِ عبَّاسٍ: أَنَّ يُوسُفَ رَأَىٰ فِي المَنامِ ليلةَ القدرِ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً نَزَلْنَ مِنَ السَماءِ فَسَجَدنَ لَهُ، وَرَأَى الشَمْسَ وَالْقَمَرَ نَزَلَا مِنَ السَماءِ فَسَجَدَا لَهُ، فالشَمسُ وَالْقَمَرُ أَبَواهُ وَالْكَواكِبُ إِخوتُهُ الأَحَدَ عَشَرَ[٢]، وقيل: الشَمْسُ أَبوهُ والقمرُ خالتُه[٣]، وذلكَ أَنَّ أُمَّهُ «رَاحيلَ» قد ماتَتْ، ويجُوزُ أَن يكونَ الواوُ في ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ بمعنَىٰ «مَعَ» أي: رأيتُ الكواكبَ مع الشَمسِ والقمرِ، و ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ كلامٌ مُستأْنَفٌ علىٰ تقديرِ سؤَالٍ وَقَعَ جواباً له، كأَنَّه قالَ لَهُ يعقوبُ: كيف رأَيتَها؟ فقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾ يعقوبُ: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ خافَ عليهِ حَسَدَ إخوتِهِ لَهُ وبَغيَهُم عليهِ؛ لِمَا عَرَفَ مِن دَلالةِ رُؤْياهُ علىٰ أَنَّ ٱللَّهَ يُبلِّغُهُ من شَرَفِ الدَّارَينِ أَمراً عظيماً ﴿فَيَكِيدُوا۟﴾ منصوبٌ بإِضمارِ «أَنْ»، والمعنىٰ: إن قَصَصْتَها عليهِمْ كَادُوكَ، ضَمَّنَ قولَهُ: «يَكِيدُوا» معنىٰ «يَحْتَالُوا» فعدَّاهُ باللامِ ليُفيدَ معنَى الفعلَينِ، ثُمَّ أَكَّدَهُ بالمصدرِ فقال: ﴿كَيْدًا﴾، ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظَاهِرُ العَداوَةِ.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ (٧)

---

(١) وبالفتح هي قراءة ابن عامر وأبي جعفر والأعرج. راجع تفسير القرطبي: ج ٩ ص ١٢١.

(٢) تفسير ابن عباس: ص ١٩٣.

(٣) قاله ابن عباس وقتادة والسدي. راجع تفسير الطبري: ج ٧ ص ١٤٩.

إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٨) ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَـٰلِحِينَ (٩) ﴾

الاجتِباءُ: الاصطِفاءُ، وَ ﴿ٱلْأَحَادِيث﴾ الرُّؤىٰ جمعُ الرُّؤْيَا؛ لأَنَّ الرُّؤْيـا: إمّـا حديثُ نفسٍ أَو حديثُ مَلَكٍ أَو حديث شيطانٍ، وَتَأْوِيلُها: عـبارتُها وتـفسيرُهَا، وكانَ يوسفُعليه السلام أعبرَ النَاسِ للرُؤْيَا وَأَصحَّهُم عِبارةً لها، وقيل: هو مَعَانِي كُتُبِ ٱللهِ تَعالىٰ وسُنَنِ الأَنبياءِ ومـا غـمَضَ عَـلى النـاسِ مـن مـقاصدِهَا، يُـفسِّرُها لهُـم ويُشرِّحُها[١]، وهي اسمُ جمعٍ للحديثِ، ومعنىٰ إِتمامِ النعمةِ: أَنَّهُ وَصَلَ نِعمةَ الدُنيا لهم بنعمةِ الآخرةِ فجَعَلَهُم أَنبياءَ وملوكاً ثُمَّ نَقَلَهُم إِلىٰ نعيمِ الآخرةِ والدَرجاتِ العُلَى من الجَنَّةِ، وَ ﴿ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ أَهلِهِ ونسلِهِ، وأَصلُ «آلٍ»: أَهلٌ، بدليلِ أَنَّ تـصغيرَهُ «أُهيلٌ» إِلَّاأَنَّه لايُستعمَلُ إِلَّا فيمن له خطَرٌ فيقالُ: آلُ النبيِّ وآلُ المَلِكِ، و﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ عطفُ بيانٍ لِـ﴿أَبَوَيْكَ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بموضعِ الاجتباءِ ﴿حَكِيمٌ﴾ في إِتمامِ الإِنعامِ علىٰ مَنْ يَستحِقُّهُ.

﴿فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ في قِصَّتِهِم وحديثِهِمْ ﴿ءَايَـٰتٌ﴾ أَي: علاماتٌ ودلائلُ علىٰ حكمتِه، أَو عِبَرٌ وأَعاجيبُ ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ عن قصَّتِهِم، أَو آيـاتٌ عـلىٰ نُـبوَّةِ محمّدٍصلى الله عليه وآله ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ للّذينَ سأَلُوهُ: من اليهودِ عنهَا فأَخبرَهُم بالصَحَّةِ[٢] من غيرِ سَماعٍ ولا قِراءَةِ كتابٍ، فقد رُوِيَ: أَنَّهم قالوا لكبُراءِ المُشركينَ: سَلُوا محمَّداً: لِمَ انتقَلَ آلُ يعقوبَ من الشامِ إِلىٰ مصرَ؟ وعن قصَّةِ يوسُفَ[٣]، وقُرِئَ: «ءَايَةٌ»[٤].

---

(١) قاله الجبائي والزجّاج. راجع التبيان: ج ٦ ص ٩٨، ومعاني القرآن للزجّاج: ج ٣ ص ٩٢.

(٢) في نسخة: بالقصّة.

(٣) رواها القرطبي في تفسيره: ج ٩ ص ١٣٠.

(٤) قرأه ابن كثير وحده. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٦٥.

﴿لَيُوسُفُ﴾ لامُ الابتداءِ، وفيها تأكيدٌ وتحقيقٌ لمضمونِ الجملَةِ، أَرادُوا: أَنَّ زيادةَ مَحبَّتِهِ لِيوسفَ وأَخيهِ بَنيامينَ أَمرٌ ثابتٌ لاشُبهةَ فيهِ، وإنَّما قَالُوا: ﴿أَخُوهُ﴾ لأَنَّ أُمَّهما كانَتْ واحدةً ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ حالٌ، والمرادُ: أَنَّهُ يُفضِّلُهُمَا في المَحبَّةِ علينَا وهما ابنانِ صغيرانِ لاكِفايةَ فيهِمَا، ونحنُ جَماعةٌ: عَشرَةُ رجالٍ كُفاةٌ نَقومُ بمَرافقِهِ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى﴾ ذَهابٍ عن طريقِ الحقِّ والثَّوابِ، والعُصْبَةُ والعِصابَةُ: العشَرَةُ فصاعداً، سُمُّوا بذلِكَ لأَنَّهم تُعصَبُ بِهِمُ الأُمورُ.

﴿اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً﴾ مجهولةً بعيدةً منَ العُمرانِ، هذا هُوَ المعنَىٰ في تنكيرِهَا وإخلائِها من الوصفِ، ولإبهامِهِا من هذا الوجهِ نُصِبَ نَصبَ الظُروفِ المبهمةِ ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يُقبِلْ عليكم إقبالةً واحدةً ولا يَلتفِتْ عنكم إلىٰ غيرِكم، وقيل: ﴿يَخْلُ لَكُمْ﴾ يَفرُغْ لكم من الشُغلِ بيُوسفَ[1]. ﴿وَتَكُونُواْ مِن﴾ بَعْدِ يوسفَ، أَي: بَعدَ قتلهِ أَو تغريبِهِ ﴿قَوْماً صَـٰلِحِينَ﴾ تائبين إِلى ٱللهِ ممَّا جَنَيتُمْ عليهِ، أَو تَصلَحُ دُنياكُم وتَنتظِمُ أُمورُكم[2].

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَاتَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ (١٠) قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَاتَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَـٰصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ (١٣) قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذاً لَّخَـٰسِرُونَ (١٤)﴾

القَائلُ: يهودا، وكانَ أَحسنَ إخوتِهِ رأْياً فيهِ، وهو الَّذي قالَ: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾[3]. ﴿قَالَ﴾ لَهُم: القتلُ أَمرٌ عظيمٌ ﴿أَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ

(١) قاله الطبري في تفسيره: ج ٧ ص ١٥٢.
(٢) قاله الحسن كما في تفسير الماوردي: ج ٣ ص ١١.
(٣) الآية: ٨٠.

﴿ٱلْجُبِّ﴾ وهو غَورُهُ وما غابَ مِنه عن عينِ النَاظرِ وأَظلمَ مِن أَسفَلِه، وقُرِئَ: «غَيَابَاتِ» في الموضعَيْنِ على الجمعِ[١]، وَالجُبُّ: البئرُ الَّتِي لَمْ تُطْوَ ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ يَأْخُذْهُ ﴿بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ وهمُ الَّذينَ يسيرُونَ في الأَرضِ ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أَي: إِن كُنتُم علىٰ أَن تَفعَلُوا ما يَحْصُلُ به غَرضُكُم فهذا هُوَ الرَأْيُ.

«مَالَكَ لَاتَأْمَنُنَا» بإظهارِ النُونَينِ[٢]، وقُرِئَ: ﴿لَاتَأْمَنَّا﴾ بالإدغامِ بإِشمامٍ وغيرِ إِشمامٍ[٣]، والمعنىٰ: لِمَ تَخافُنا عليهِ ونحنُ نُريدُ له الخيرَ ونُحِبُّهُ، وما فَعَلْنَا في أَمرِهِ مايدُلُّ علىٰ خِلافِ النَصيحةِ؟

وقُرِئَ: «نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ» بالنُونِ فيهِمَا[٤] وبالياءِ فيهما والجزمِ، وقُرِئَ: الأَوَّلُ بالنُونِ والثَاني بالياءِ[٥]، وأَصلُ الرَتعةِ: الخِصبُ والسِعَةُ، والمعنىٰ: نَنالُ مانَحتاجُ إِليهِ ونَتَّسِعُ في أَكلِ الفَواكِهِ وغيرِها، وقُرِئَ: «يَرْتَعِ» بكسرِ العينِ «وَيَلْعَبْ» بالياءِ فيهِمَا[٦] وبالنُونِ[٧] من ٱرتعىٰ يرتعي، يُقالُ: رعىٰ وٱرتعىٰ، مثلُ: شوىٰ وٱشتوىٰ، وقد يَستقِيمُ أَن يقالَ: «نرتعْ» وإِنَّما يرتعُ إِبلُهم، ونَرتعِ وإِنَّما يَرتعي إِبلُهم[٨]، فيكونُ علىٰ حذفِ المضافِ، وأَرادُوا بِهِ اللَعِبَ المباحَ مثلُ الرَمْيِ والاستِباقِ بالأَقدامِ.

﴿لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ﴾ اعتذرَ إِلَيهم بشيئَينِ: أَحدُهُمَا: أَنَّ مفارقَتَهُ إِيَّاهُ ممَّا

---

(١) قرأه نافع وأبو جعفر. راجع التبيان: ج ٦ ص ١٠٢.

(٢) وهي قراءة طلحة بن مصرف. راجع تفسير القرطبي: ج ٩ ص ١٣٨.

(٣) حكاها ابن غلبون في التذكرة: ج ٢ ص ٤٦٥ عن الأعشىٰ، والقرطبي في تفسيره: ج ٩ ص ١٣٨ عن يزيد بن القعقاع وعمرو بن عبيد والزهري.

(٤) قرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو. راجع التبيان: ج ٦ ص ١٠٤.

(٥) وهي قراءة ابن كثير برواية اسماعيل المكي وبه قرأ يعقوب. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٤٥.

(٦) قرأه نافع وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٤٥.

(٧) وهي قراءة النخعي وأبي اسحاق ويعقوب. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٢٨٥.

(٨) واليه ذهب أبو عبيدة في مجاز القرآن: ج ١ ص ٣٠٣.

يَحزُنُه لأَنّه كان لايَصبِرُ عنهُ ساعةً، والآخَرُ: خَوفُه عليه من عَدْوةِ ﴿ٱلذِّئْبُ﴾ إذا غفَلُوا ﴿عَنْهُ﴾ بِرعيِهم ولَعِبِهِمْ ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ اللامُ مُوطِّئةٌ للقَسَمِ، و﴿إِنَّآ إِذاً لَّخَٰسِرُونَ﴾ جوابُ القسمِ وقد سدَّ مسدَّ جوابِ الشرطِ، والواو في ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ واوُ الحالِ، حلَفُوا له: لئن كانَ ماخَافَهُ من خَطْفةِ الذئبِ أَخاهُم من بينِهم وحالُهم أَنَّهُم عَشَرَةُ رجالٍ، بمثلِهِم تُعصَبُ الأُمُورُ وتُستَكْفَى الخطوبُ، إِنَّهم إذاً لقومٌ هالِكُونَ ضعفاً وخَوَراً وعَجزاً، أَو مستحِقُّونَ أَن يَهْلِكُوا لأَنَّهُ لاغَنَاءَ عندَهُم، أَو مستحِقُّونَ لأَن يُدعَى عليهِمْ بالخَسَارِ والدَمارِ فيُقالَ: خَسَّرَهُم اللهُ، حينَ أَكلَ الذئبُ بعضَهم وهم حُضورٌ.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ (١٥) وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآأَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ (١٧) وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَاتَصِفُونَ (١٨)﴾

﴿أَن يَجْعَلُوهُ﴾ مفعولُ ﴿أَجْمَعُوٓاْ﴾ مِن أَجمَعَ الأَمرَ وأَزمعَهُ، جواب «لَمَّا» محذوفٌ، والتَقديرُ: فَعَلُوا بِهِ مافَعَلُوا من الأَذَىٰ، فقد رُوِيَ: أَنَّهم لمَّا بَرَزُوا به إلىٰ البرِّيةِ أَظهروا لهُ العَداوةَ وأَخذُوا يضرِبُونَهُ، فلمَّا أَرادوا إلقاءَهُ في الجُبِّ رَبطُوا يدَيْهِ ونزَعُوا قميصَهُ ودَلَّوهُ في البئرِ، فلمَّا بلغَ نصفَها أَلقوهُ وكان في البئرِ ماءٌ فسقَطَ فيهِ، ثمَّ آوىٰ إلىٰ صَخرةٍ فقامَ عليها، وكان إبراهيمُ خليلُ الرَحمنِ لمَّا أُلقِيَ في النَارِ عرياناً أَتاهُ جَبرَئيلُ بقميصٍ من حريرِ الجنَّةِ فأَلبسَهُ إيَّاه، فدفعَهُ إبراهيمُ إلىٰ إسحاقَ، وإسحاقُ إلىٰ يعقوبَ، وجعَلَهُ يعقوبُ في تميمةٍ علَّقَها في عُنقِ يوسفَ،

فجاءَ جَبرئيلُ فأَخرجَهُ وأَلبسَهُ إِيَّاهُ، وهو القميص الَّذي وَجَد يعقوبُ ريحَهُ لمَّا فَصَلَتِ ٱلعيرُ من مصر[1].

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أَوحَىٰ إِليه في الصغرِ كما أَوحَىٰ إِلَىٰ يحيىٰ وعيسىٰ: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا﴾، وإنَّما أَوحىٰ إِليهِ لِيُبَشَّرَ بما يَؤُولُ إِليهِ أَمرُهُ، والمعنىٰ: لتتخلَّصَنَّ ممَّا أَنتَ فيه، ولَتُحدِّثَنَّ إِخوتَكَ بما فَعَلُوا بِكَ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَنَّكَ يوسفُ؛ لعلوِّ شأْنِك ولطولِ عهدِهِم بِك، وقيل: يُريدُ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإِيحائنا إِليهِ وإِزالتِنا الوحشةَ عنه، ويَحسِبُونَ أَنَّهُ مُستوحِشٌ لا أَنيسَ لَهُ.

وَجَاءَ إِخوتُهُ ﴿أَبَاهُمْ عِشَآءً﴾ آخِرَ النَهارِ، وأَظهرُوا البُكاءَ لِيُوهِمُوهُ أَنَّهم صادِقُونَ. ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أَي: نَتَسَابَقُ في العَدوِ أَو في الرَمي، وقيل: في تفسيرِهِ: ننتضِلُ[2] [3]. ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ﴾ مصدِّقٍ ﴿لَّنَا وَلَوْ كُنَّا﴾ من أَهلِ الصِدقِ عندكَ لشدَّةِ مَحبَّتِكَ لِيوسفَ فكيفَ وَأَنت سَيِّئُ الظَنِّ بِنَا غيرُ واثقٍ بقولِنَا! ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أَي: ذِي كَذِبٍ، أَو[4] وُصِفَ بالمصدرِ مبالغةً، كقولِ الشاعر:

فَهُنَّ بِهِ جُودٌ وَأَنْتُمْ بِهِ بُخْلُ[5]

ورُوِيَ: أَنَّ يعقوبَ أَخذَ القميصَ وأَلقاهُ علىٰ وجهِهِ وبَكَىٰ حتَّىٰ خُضِبَ وجهُهُ بدمِ القميصِ وقالَ: تَاللهِ مارأَيتُ كاليومِ ذِئباً أَحلَمَ من هذَا، أَكَلَ ٱبني ولَمْ يُمزِّقْ عليهِ قميصَهُ[6].

---

(١) رواها البغوي في تفسيره: ج ٢ ص ٤١٤.

(٢) ننتضل: نتبارىٰ في الرمي، ونستبق: نتبارىٰ في الجري. انظر لسان العرب: مادتي (نضل) و(سبق).

(٤) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ٩٥.

(٤) في بعض النسخ: «و» بدل «أو».

(٥) أنشده الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٤٥١.

(٦) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٤٥١.

﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ محلُّهُ نصبٌ على الظَرفِ، أَي: ﴿وَجَآءُو﴾ فوقَ ﴿قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، ولا يجوزُ أَن يكونَ حالاً مُتقدِّمةً؛ لأَنَّ الحالَ عن المجرورِ لا يَتَقدَّمُ عليهِ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أَي: سهَّلَتْ ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ عظيماً ارتكبتُمُوه من يوسُفَ وهَوَّنَتْهُ في أَعيُنِكُم [1]، والسَوَلُ: الاسترخاءُ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أَي: فأَمري صبرٌ جميلٌ، أَو فصبرٌ جميلٌ أَمثَلُ، وفي الحديثِ: «إِنَّ الصَبرَ الْجَمِيلَ هُوَ الَّذِي لا شَكْوَىٰ فِيهِ» [2] يعني: إِلى الخلقِ، لِقولِهِ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [3]. ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ﴾ احتمالِ ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ ـهُ من هَلاكِ يوسُفَ.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ (٢٠)﴾

﴿سَيَّارَةٌ﴾ جَماعةٌ مارَّةٌ تَسِيرُ من قِبَلِ مَدْيَنَ إِلىٰ مصرَ، وذلك بعدَ ثلاثةِ أَيَّامٍ من إِلقاءِ يوسفَ في الجُبِّ، فأَخْطَأُوا الطَريقَ فنزلُوا قريباً مِنهُ ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾ والوارِدُ: الَّذي يرِدُ ليستقي للقومِ، أَي: بَعَثُوا رجلاً يَطلُبُ لهم الماءَ، وهو مالِكُ بنُ ذُعرٍ ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ في البِئرِ، فَتعلَّقَ يوسفُ بالحَبلِ، فلمَّا خرجَ إِذا هو بغلامٍ أَحسنِ مايكونُ من الغِلمانِ، «قَالَ يَابُشْرَايَ» [4] أَي: أَضَافَ البُشرَىٰ إِلىٰ نفسِهِ، وقُرِئَ: ﴿يَٰبُشْرَىٰ﴾ نادَىٰ: البُشرَىٰ، كأَنَّه قَالَ: تعالَي فهذا أَوانُكِ ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ الضميرُ للوارِدِ وأَصحابِهِ: أَخفَوْهُ منَ الرفقَةِ، وقيل: أَخفَوا أَمرَهُ ووجدانَهُم له في الجُبِّ

---

(١) في بعض النسخ: في أنفسكم.

(٢) رواه الطبري في تفسيره: ج ٧ ص ١٦٣ بإسنادة عن النبي ﷺ.

(٣) الآية: ٨٦.

(٤) الظاهر أنّ القراءة المعتمدة لدى المصنّف هنا بالألف والياء.

وقالوا لهم: دَفَعَهُ إلينَا أهلُ الماءِ لنَبيعَهُ لهم بِمصرَ[١]، وعن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ الضَميرَ لإخوةِ يُوسُفَ وَأَنَّهُمْ قَالُوا لِلرفقةِ: هَذَا غُلامٌ لَنا قَدْ أَبِقَ فَاشْتَرُوهُ مِنَّا، وَسَكَتَ يُوسُفُ مَخَافَةَ أَنْ يَقْتُلُوهُ[٢]، وانتصبَ ﴿بِضَٰعَةً﴾ على الحالِ، أي: أَخْفَوه متاعاً للتجارةِ، والبِضاعةُ: مايُبْضَعُ من المالِ لِلتجارةِ، أي: يُقْطَعُ.

﴿وَشَرَوْهُ﴾ باعُوه ﴿بِثَمَنِۢ بَخْسٍ﴾ مَبخوسٍ ناقصٍ عن القِيمةِ نُقصاناً ظاهراً ﴿دَرَٰهِمَ﴾ لادنانيرَ ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ قَليلةٍ تُعَدُّ عَدّاً ولا تُوزَنُ، وعن ابنِ عبَّاسٍ: كانَتْ عشرينَ دِرهَماً[٣] ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ ممَّن يَرغَبُ عمَّا في يدِه فيَبيعُه بما طَفَّ من الثمنِ؛ لأنَّهم التقَطُوه، والمُلْتَقِطُ للشيءِ لايُبالِي بِمَ باعَه، ويجوزُ أن يكونَ المَعنىٰ: واشترَوه من إخوتِه يعني: الرفقةَ وكانوا من الزاهدينَ في نفسِ يوسفَ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَداً وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَايَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٢٢) وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَايُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٣)﴾

﴿ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ هو العَزيزُ الَّذي كانَ علىٰ خزائنِ مصرَ، واسمُه قطفيرُ أو اطفيرُ، والمَلِكُ يومئذٍ: الريانُ بنُ الوليدِ، وعن ابنِ عبَّاسٍ: العزيزُ مَلِكُ مِصرَ[٤]، وقيلَ: اشتَراهُ العزيزُ وهو ابنُ سبعَ عَشْرةَ سنةً، وأقامَ في منزلِه ثلاثَ عشْرَةَ سنةً، واستوزَرَه الريانُ بنُ الوليدِ وهو ابنُ ثلاثينَ سنةً، وآتاهُ اللهُ الحِكمةَ

---

(١) قاله مجاهد والسدي. راجع تفسير الطبري: ج ٧ ص ١٦٥ و ١٦٦.

(٢) تفسير ابن عباس: ص ١٩٥. (٣) المصدر السابق.

(٤) تفسير ابن عباس: ١٩٥.

والعلمَ وهو ابنُ ثلاثٍ وثلاثينَ سنةً، وتُوفِّيَ وهو ابنُ مائةٍ وعشرينَ سنةً[١]، وقيل: اشتراهُ العزيزُ بأَربعينَ ديناراً وزوجِ نعلٍ وثوبَينِ أبيضَينِ[٢].

﴿وَقَالَ ... لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ أَي: اجعَلي منزلَه ومَقامَه عِندَنا كَريماً، أَي: حَسَناً مرضيّاً بدليلِ قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ ومعناهُ: تَعَهَّدِيهِ بالإحسانِ حتَّىٰ يكونَ نفسُه طيِّبةً في صُحبتِنا ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ لعلَّهُ يَنفعُنا بكفايتِه وأَمانتِه، أَو نَتَبنَّاه ونُقيمَه مَقامَ الوَلدِ، وكانَ قد تَفرَّسَ فيه الرُشدَ فقالَ ذلكَ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أَي: ومثلُ ذلك الإِنجاءِ والعَطفِ، والمرادُ: كَما أَنْجَيناهُ وعَطَفْنا عليهِ العزيزَ ﴿مَكَّنَّا﴾ لهُ ﴿فِى﴾ أَرْضِ مصرَ، وجَعلناه مَلِكاً يَتصرَّفُ فيها بأَمرِه ونَهْيِه ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ كانَ ذلكَ الإِنجاءُ والتَمكينُ ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ لايُمنَعُ ممَّا يَشاءُ ويَقْضِي، أَو عَلَى أَمْرِ يوسفَ يُدبِّرُه ولايَكِلُه إِلىٰ غيرِه.

وقيلَ في الـ«أَشُدِّ»: ثَانِي عَشْرةَ سنةً[٣]، وعِشرونَ[٤]، وثَلاثٌ وثلاثونَ[٥]، وأَربعونَ[٦]، وقيل: أَقصاهُ ثِنْتانِ وستُّونَ سنةً[٧]، ﴿حُكْماً﴾ أَي: حِكمةً، يعني: النبوَّةَ ﴿وَعِلْماً﴾ بالشريعةِ، وقيلَ: الحُكمَ على النَاسِ والعِلمَ بوُجوهِ المَصالحِ[٨]، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيه تَنبيهٌ علىٰ أَنَّ اللهَ آتاهُ الحُكمَ والعلمَ جَزاءً علىٰ إِحسانِه في العملِ وتقواهُ.

---

(١) قاله ابن اسحاق علىٰ ما في تاريخ الطبري: ج ١ ص ٢٣٥.
(٢) قاله ابن عباس كما في مجمع البيان: ج ٥ ـ ٦ ص ٢٢١.
(٣) قاله الشعبي وربيعة وزيد بن أسلم ومالك بن أنس. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٢١.
(٤) قاله ابن عباس والضحاك. راجع التبيان: ج ٦ ص ١١٧.
(٥) قاله الحسن ومجاهد وقتادة وابن عباس على رواية. راجع تفسير الطبري: ج ٧ ص ١٧٥.
(٦) قاله الحسن. راجع تفسيره: ج ٢ ص ٣٠.
(٧) حكاه الطبري في تفسيره: ج ٧ ص ١٧٤.
(٨) حكاه النحاس في إعراب القرآن: ج ٢ ص ٣٢١.

وعن الحسنِ: مَنْ أَحْسَنَ عِبادَةَ رَبِّهِ فِي شَبِيبَتِهِ آتاهُ الحِكمةَ في اكْتِهَالِهِ(١).

والمُراودَةُ: مفاعَلةٌ مِن رادَ يَرُودُ: إذا جاءَ وذَهبَ، والمعنَىٰ: خادعَتْه ﴿عَن نَّفْسِهِ﴾ أَي: فَعلَتْ مايَفعلُهُ المخادِعُ بصاحبِه عن الشَيءِ الَّذي لايُريدُ أَن يُخرِجَه من يَدِه، يَحتالُ أَن يَغلبَه عليهِ ويَأْخُذَه منه، وهي عبارةٌ عن التَمحُّلِ(٢) لمواقَعَتِه إِيَّاها، و ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أَي: أَقبِلْ وتَعالَ، وقُرِئَ: «هَيْتُ لَكَ» بضمِّ التاءِ(٣)، و«هِيتَ لَكَ» بكسرِ الهاءِ وفتحِ التَاءِ(٤)، و «هِئْتُ لَكَ» بالهمزةِ وضمِّ التَاءِ(٥)، بمعنى تهيَّأْتُ لكَ، يقالُ: هاءَ يَهِيْءُ، واللاَمُ من صلةِ الفعلِ وأَمَّا في الأَصواتِ فللبيانِ، كأَنَّه قيل: لكَ أَقولُ هذا ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أَعوذُ باللهِ مَعاذاً ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضَميرُ للشَأْنِ والحَديثِ ﴿رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ مُبتدأٌ وخبرٌ، يريدُ قطفيرَ حينَ قالَ لامرأَتِه: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ فليسَ جزاؤُه أَنْ أَخلُفَه في أَهلِه بسوءٍ وأَخُونَه.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ

---

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٤٥٤.

(٢) تمحَّل: أي احتال. (الصحاح: مادة محل).

(٣) قرأه ابن كثير وأبو عبدالرحمن السلمي. راجع المحتسب لابن جني: ج ١ ص ٣٣٧.

(٤) وهي قراءة نافع وابن عامر وذكوان. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص٤٦٦.

(٥) وهي قراءة ابن عباس وابن عامر وهشام. راجع التبيان: ج ٦ ص ١١٨، ومعاني القرآن للزجاج: ج ٣ص ١٠٠.

ٱلصَّـٰدِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾

هَمَّ بالأمرِ: إذا قَصدَه وعَزَمَ عليه، والمعنَىٰ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ﴾ بمخالطتِهِ ﴿وَهَمَّ﴾ بِمخُالَطتِهَا ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ جوابهُ محذوفٌ تقديرُه: لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ لَخَالَطَهَا، فحُذِفَ لأَنَّ قولَه: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ يَدُلُّ عليهِ، كقولِكَ: هَمَمْتُ بقَتْلِه لولا أَنـّي خِفتُ اللهَ، معناه: لولا أَنـّي خِفتُ ٱللهَ لَقَتَلْتُه، والمرادُ في قولِه: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾: أَنَّ نفسَه مالَتْ إِلى المُخالَطةِ ونازعتْ إِليها عن شهوةِ الشَبابِ مَـيْلاً يُشْـبِهُ الهـمَّ بـها والقَصْدَ إِليها، ولو لَمْ يكُنْ ذلك الميلُ الشَديدُ المسمَّىٰ همّاً لشدَّتِه لَما كانَ صاحبُه ممدوحاً عند اللهِ بالامتناعِ، ولو كانَ همُّه كهَمِّها لَما مَدَحه ٱللهُ بأَنـّه: ﴿مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، ويجوزُ أَن يُريدَ بقولِه: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾: وشارَفَ أَن يَهُمَّ بِها، كما يقولُ الرجلُ: قَتَلْتُهُ لو لَم أَخَفِ ٱللهَ، ومِن حقِّ القارئِ أَن يقفَ علىٰ ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِـهِۦ﴾ وَيبتدِئَ ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ (١)، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكافُ في محلِّ النَصبِ أَي: مثلَ ذلكَ التَثبيتِ ثبَّتْناه، أَو في محلِّ الرَفعِ أَي: الأَمرُ مثلُ ذلك ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ مِن خِيانةِ السَيِّدِ ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ مِنَ الزنا «إِنَّهُۥ مِنْ عِـبَادِنَا ٱلْـمُخْلِصِينَ» الَّذينَ أَخلَصوا دينَهم للهِ، وبالفتحِ: الَّذين أَخلَصَهم اللهُ لطاعتِه بأَن عَصَمَهم.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ وتَسابَقا إِلى البابِ، علىٰ حذفِ الجارِّ أَو عـلى تَـضمينِه معنَى «ٱبْتَدَرَا»، ففَرَّ منها يوسُفُ فأَسرَعَ يُريدُ البابَ البَرّانـيَّ لِـيَخرُجَ، وأَسْـرَعَتْ وراءَهُ لتَمنعَهُ الخُروجَ ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُـرٍ﴾ اجتذَبَتْهُ من خـلفِهِ فـانقَدَّ، أَي:

(١) قال الهمداني: والأحسن أن يقف القارئ على قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾، لا بل يجب عـليه ليخرج ﴿وَهمَّ بِهَا﴾ من حيّز القسم، ليدلّ أنـّه لم يهمّ بها. انظر الفريد: ج ٣ ص ٤٨.

انشقَّ ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ وصادفَا بعلَهَا وهو قطفيرُ، و﴿مَا﴾ نافيةٌ، أي: ليس جزاؤُهُ إلَّا السجنَ، أو استفهاميَّةٌ بمعنَى: أيُّ شَيءٍ جزاؤُهُ إلَّا السجنُ؟ كما يقولُ: من في الدَّارِ إلَّا زيدٌ؟ وقيلَ: العَذَابُ الأَلِيمُ: الضربُ بالسياطِ [١].

ولمَّا عرَضَتْهُ للسجنِ والعذابِ وأَغرَتْ بِهِ وجب عليهِ الدَفعُ عن النَفسِ فـ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ ولولا ذَلِكَ لكتَمَ عليها ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قيل: كانَ ابنَ عمٍّ لهَا وكانَ جَالساً مع زوجِهَا عندَ البابِ [٢]، وقيل: كانَ ابنَ خالٍ لها صبيّاً في المهدِ [٣]، وسُمِّيَ قولُهُ شهادةً لِمَا أدَّىٰ مُؤَدَّى الشَهادَةِ في أن ثبَتَ بِهِ قولُ يوسُفَ وبَطَلَ قولُهَا.

﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ يعني: قطفيرَ، وعَلِمَ بَراءَةَ يوسفَ وصِدقَهُ وكذبَهَا ﴿قَالَ إِنَّهُ﴾ أي: إنَّ قولَكِ: ﴿مَاجَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ أو: إنَّ هذا الأَمرَ ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾، واستعظَمَ كيدَ النساءِ لأنَّهنَّ أَلطفُ مكيدةً وأَنفذُ حِيلةً من الرجالِ. ﴿يُوسُفُ﴾ حُذِفَ منه حرفُ النداءِ لأنَّهُ منادىً قريبٌ ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا﴾ الأَمرِ واكتُمهُ ولاتُحدِّثْ بِهِ ﴿وَٱسْتَغْفِرِي﴾ أنتِ ﴿لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ﴾ القومِ المتعمِّدينَ لِلذنبِ، يقالُ: خَطِئَ إذا أذنَبَ متعمِّداً.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا

---

(١) حكاه البغوي في تفسيره: ج ٢ ص ٤٢١.

(٢) قاله السدي. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٢٨.

(٣) قاله ابن عباس وأبو هريرة وسعيد بن جبير وهلال بن يساف والحسن الضحاك. راجع تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٣٣، وتفسير الطبري: ج ٧ ص ١٩١ ـ ١٩٢.

إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِۦ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْءَايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) ﴾

﴿وَقَالَ﴾ جماعةٌ من النساءِ، والنسْوَةُ: اسمٌ مفردٌ لجمعِ المَرأَةِ، وتأْنيثُهُ غيرُ حقيقيٍّ كتأْنيثِ اللُّمَّةِ[1]، وفيه[2] لغتانِ: كسرُ النُونِ وضمُّها ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ في مِصرَ ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ يُرِدْنَ قطفيرَ، والعزيزُ: المَلِكُ بلسانِ العَرَبِ. ﴿فَتَىٰهَا﴾ غُلامَها ﴿شَغَفَهَا﴾ خَرَقَ حُبُّهُ شغافَ قلبِها حتَّىٰ وَصَلَ إِلى الفُؤادِ، والشغافُ: حجابُ القلبِ، ورُويَ عن أَهلِ البيتِ عليهم السلام: «شَعَفَهَا» بالعينِ[3]، من شَعَفَ البعيرَ: إذا هَنَأَهُ فأَحرقَهُ بالقَطِرَانِ، قال امرُؤُ القيسِ:

كما شَعَفَ المَهنوءَةَ الرَّجُلُ الطَّالِي[4]

و﴿حُبًّا﴾ نصبٌ على التَميزِ ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أَي: في خطأٍ وبُعدٍ عنِ الصَواب. ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ باغتيابِهِنَّ وتعييرِهِنَّ وقولِهِنَّ: امرأَةُ العزيزِ عَشِقَتْ عبدَها الكَنْعانيَّ ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ دعَتهُنَّ ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ مايتَّكِئْنَ عليه من نَمارِقَ[5]، قَصَدَتْ بتلكَ الهيئَةِ وهي قُعودُهُنَّ متَّكئاتٍ

---

(١) اللُمّة: الصاحب والأصحاب في السفر والمؤنس، للواحد والجمع. (القاموس: مادة لمم).

(٢) أي: في «النسوة».

(٣) انظر تفسير القرطبي: ج ٩ ص ١٧٦، والبحر المحيط: ج ٥ ص ٣٠١.

(٤) صدره: لتقتلني وقد شعفت فؤادها. ومعناه واضح. راجع ديوان امرئ القيس: ص ١٤٢.

(٥) النُمرُقة والنِمرِقة: الوسادة الصغيرة، والجمع نمارق. (الصحاح: مادة نمرق).

والسكاكينُ في أيديهنَّ أن يَدهَشْنَ عندَ رؤيتهِ ويشغَلْنَ عن نفوسهنَّ فيُقَطِّعْنَ أيديهنَّ، وقيلَ: ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ مجلِسَ طعامٍ؛ لأنّهم كانُوا يَتَّكِئُونَ للطَعامِ والشَرابِ والحديثِ كعادةِ المُتْرَفِينَ[1]، وقيل: ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ طعاماً يُحَزُّ حَزّاً، أي: يُعتَمَدُ بالسكِّينِ؛ لأنَّ القاطعَ يَتَّكِئُ على المقطوعِ بالسكِّينِ[2]، ﴿أَكْبَرْنَهُ﴾ أعظمنَهُ وَهِبْنَ ذلكَ الحسنَ الرائعَ والجمالَ الرائقَ، قيل: كانَ يوسفُ إذا سارَ في أزِقَّةِ مِصرَ يُرَىٰ تلألُؤُ وجهِه على الجِدارِ كما يُرَى نورُ الشمسِ من الماءِ عليها[3]، وقيل: وَرِثَ الجمالَ من جدَّتِهِ سارةَ[4]، ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ جَرَحْنَها ﴿حَـٰشَ﴾ كلمةٌ تُفيدُ معنى التنزيهِ[5] في بابِ الاستثناءِ، تقولُ: أساءَ القومُ حاشَا زيدٍ، فمعنىٰ حَاشَا للهِ: براءةُ اللهِ وتنزيهُ اللهِ مِن صفاتِ العجزِ والتعجُّبُ من قدرتِهِ علىٰ خلقِ جميلٍ مثلِهِ، وأمّا قولُهُ: ﴿حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[6] فالتعجُّبُ من قدرتِه علىٰ خلقِ عفيفٍ مثلِهِ ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا﴾ نفينَ عنهُ البشريَّةَ؛ لِغَرابةِ حالِهِ في الحُسنِ، وأثْبتنَ لهُ المَلَكِيَّةَ لِمَا هو مركوزٌ في الطِباعِ أنّهُ لا أحسنَ من المَلَكِ.

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ ولم تَقُلْ: فهذا، وهو حاضِرٌ، رفعاً لمنزلتِهِ في الحُسنِ واستحقاقِ أن يُحَبَّ ويُفتَتَنَ بِهِ، أو تقولُ: هو ذلِكَ العبدُ الّذي صوَّرتُنَّ في أنفسِكُنَّ ثُمَّ لمتُنَّني فيهِ، ولو صوَّرتُنَّهُ بما عايَنتُنَّ لعَذَرتُنَّني في الافتِتانِ بهِ ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي: امتنَعَ أشدَّ امتناعٍ كأنّه في عِصمةٍ، واجتَهَدَ في الاستزادةِ منها،

(١) قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ومجاهد. راجع تفسير البغوي: ج ٢ ص ٤٢٣.

(٢) قاله أبو زيد الانصاري وعكرمة والضحاك. راجع تفسير الطبري: ج ٧ ص ٢٠١.

(٣) وهو قول اسحاق بن أبي فروة. راجع تفسير البغوي: ج ٢ ص ٤٢٣.

(٤) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٤٦٥.

(٥) في بعض النسخ: «التبرئة» بدل «التنزيه».

(٦) الآية: ٥١.

ونحوُهُ: استمسَكَ، وفي هذا برهانٌ قويٌّ علىٰ أَنَّ يوسفَ بريءٌ ممَّا أَضافَ إِليهِ الحَشْوِيَّةُ[١] من همِّ المعصيةِ ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ الأَصلُ: مَا آمرُ بِهِ، فحُذِفَ الجارُّ، كما في قولِكَ: أَمرتُكَ الخيرَ ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ لَيُحبَسنَّ في السجنِ ﴿وَلَيَكُونًا﴾ بالنُّونِ الخفيفةِ ولذلِكَ كُتبَتْ في المُصحَفِ أَلفاً.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أَي: أَسهلُ عليَّ ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ من الفاحشةِ، أَو نُزولُ السجنِ أَحبُّ إِليَّ من رُكُوبِ المعصيةِ، رُوِيَ: أَنَّ النسوةَ لَمَّا خَرَجْنَ من عندِهَا أَرسَلَتْ كلُّ واحدةٍ منهُنَّ إِلىٰ يوسفَ سِرّاً تسأَلُهُ الزيارةَ[٢]، وقيل: إِنَّهُنَّ قُلنَ لَهُ: أَطِعْ مولاتَكَ فإِنَّها مظلومةٌ وأَنتَ تَظلِمُها[٣]، وقُرِئَ: «ٱلسَّجْنُ» بالفتحِ[٤] على المصدرِ ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ فَزِعَ إِلى أَلطافِ ٱللهِ تعالىٰ وعصمتِهِ كعادةِ الأَنبياءِ والأَولياءِ فيما وطَّنَ عليه نفسَهُ من الصَبرِ ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أَمِلْ إِليهِنَّ ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ الَّذينَ لايعمَلُون بما يعلَمُونَ، أَو من السُفهاءِ لأَنَّ الحكيمَ لا يفعَلُ القبيحَ.

---

(١) الحشوية ـ بسكون الشين وفتحها ـ وهم: قوم تمسّكوا بالظواهر فذهبوا الى التجسّم وغيره. قال الجرجاني: وسمّيت الحشوية حشوية لأنّهم يحشون الأحاديث التي لا أصل لها في الاحاديث المروية عن رسول الله ﷺ، وقال: وجميع الحشوية يقولون بالجبر والتشبيه وتوصيفه تعالى بالنفس واليد والسمع والبصر، وقالوا: إنّ كلّ حديث يأتي به الثقة من العلماء فهو حجة أياً كانت الواسطة. وقال الصفدي: إنّ الغالب في الحنفية معتزلة، والغالب في الشافعية أشاعرة، والغالب في المالكية قدرية، والغالب في الحنابلة حشوية. راجع التعريفات للجرجاني: ص ٣٤١.

(٢) رواه المصنّف في مجمع البيان: ج ٥ ـ ٦ ص ٢٣١ من حديث أبي حمزة الثمالي عن علي ابن الحسين عليهما السلام.

(٣) ذكره السمرقندي في تفسيره: ج ٢ ص ١٦٠.

(٤) وهي قراءة عثمان بن عفّان ومولاه طارق ويعقوب وابن أبي اسحاق وعبدالرحمن الأعرج وزيد بن علي والزهري وابن هرمز. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٦٧، وتفسير القرطبي: ج ٩ ص ١٨٤ ـ ١٨٥، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٣٠٦.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ الفاعل مُضمرٌ لدَلالةِ مايُفسِّرُهُ عليهِ وهو ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾، والمعنىٰ: بَدا لهم بَداءٌ، أَي: ظَهرَ لهم رأيٌ: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾، ﴿مِن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْآيَـٰتِ﴾ وهي الشواهدُ علىٰ براءَتِهِ ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلىٰ زمانٍ، والضميرُ في ﴿لَهُم﴾ لِـ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ وأَهلِهِ.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزاً تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَايَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّايُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ (٣٧) وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ مَاكَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَايَشْكُرُونَ (٣٨) يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٣٩) مَاتَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآأَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَايَعْلَمُونَ (٤٠)﴾

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ أَي: عبدانِ للملِكِ: مَلِكِ مصرَ مُصاحِبَينِ له، لأَنَّ «مَعَ» تدلُّ على الصُحبةِ، والفَتيانِ: خَبّازُ المَلكِ وشَرابِيُّهُ أُدخِلَا السجنَ ساعة أُدخِلَ يوسفُ، نُمِّيَ(١) إلى المَلِكِ أَنَّهما يَسُمّانِهِ ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ﴾ يعني: في المَنامِ، وهي حكايةُ حالٍ ماضيةٍ ﴿أَعْصِرُ خَمْراً﴾ يعني: عِنباً، تسميةً للعنبِ بما يؤُولُ إليهِ ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ من الَّذينَ يُحسِنُونَ عِبارَةَ الرُؤْيا، أَو من المُحسنينَ إلىٰ أَهلِ السجنِ، فأَحسِنْ إلينَا: بأَن تُفرِّجَ عنّا الغُمَّةَ بتأويلِ مارأَينا إن كانَت لكَ يدٌ في تأويلِ الرؤيا،

(١) نمّيتُ الحديثَ تنميةً: اذا بلّغته علىٰ وجه النميمة والافساد. (الصحاح: مادة نمم).

رُوِيَ: أَنَّهُ كان إذا مَرِضَ رجلٌ منهم قام عليهِ، وإذا ضاقَ علىٰ أَحدٍ منهم مكـانُهُ وَسَّعَ له، وإِن ٱحتاجَ جَمَعَ له (١).

وعن الشعبيِّ: أَنَّ الفتَيينِ امتحناهُ، فقال الشَرابيُّ: إِنِّي أراني في بُسـتانٍ فـإِذا بأَصلِ حَبَلَةٍ (٢) عليها ثلاثُ عناقيدَ من عنبٍ فقطَعْتُها وعَصَرْتُها في كأسِ المـلِكِ وسقَيْتُهُ، وقال الخَبَّازُ: إِنِّي أراني فوقَ رأْسي ثلاثُ سِلالٍ فـيها أَنـواعُ الأَطـعمةِ فإِذا سِباعُ الطَيرِ يَنْهَبْنَ منهَا (٣). ﴿نَبِّئْنَا﴾ بِتأْوِيلِ ذلكَ.

ولمَّا ٱستَعْبَرَاه وَوَصَفاه بالإحسان ابتَدَأَ فوصَفَ نَفْسَهُ بما هو فوقَ علمِ العلماءِ وهو الإِخبارُ بالغيبِ، وأَنَّـه يُنَبِّئُهُمَا بِمَا يُحمَلُ إِليهما من ٱلطَعامِ في السجنِ قبلَ أَن يَأْتِيَهُما، ويَصِفُه لَهُمَا ويَقولُ: ٱليومَ ﴿يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ﴾ بصفةٍ كَذا وكَذا فيجدانِهِ علىٰ ماأَخبَرَ بهِ، وجعَلَ ذلك تخلُّصاً إِلَىٰ أَنْ يَذْكُرَ لَهمَا التوحيدَ ويَعْرِضَ عليهما الإِيمانَ ويُقَبِّحَ إِليهِمَا الشركَ باللهِ ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ إشارةٌ إِلى التَأْويلِ، أَي: ذلكَ التَأْويلُ والإِخبارُ بالغائباتِ ﴿مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ وَأَوحَىٰ بِهِ إِليَّ، ولَم أَقُلْهُ عَن تَكهُّنٍ وتنجُّمٍ ﴿إِنِّـى تَرَكْتُ﴾ يجوزُ أَن يكونَ استئنافَ كلامٍ، وأَن يكونَ تعليلاً لِما قبلَهُ أَي: عَلَّمَنِي رَبِّي لأَنِّـي تَرَكْتُ ﴿مِلَّةَ﴾ أُولئكَ ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ﴾ الأَنبياءِ المذكورينَ وهيَ المِلَّةُ الحَنِيفِيَّةُ، وذكَرَ آباءَهُ ليُرِيَهُما أَنَّـه مِن أَهلِ بيتِ النبُوَّةِ ومعدِنِ الوَحيِ بعدَ أَن عَرَّفَهُمَا أَنَّـه نبيٌّ يُوحَىٰ إِليهِ؛ ليُقوِّيَ رغبتَهُما في الاستماعِإِليهِ ﴿مَاكَانَ لَنَآ﴾ أَي: ماصحَّ لَنا ـ مَعْشَرَ الأَنبياءِ ـ الشركُ ﴿بِاللهِ﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾ التَمسُّكُ بالتَوحيدِ ﴿مِن فَضْلِ ٱللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ عَلَى الرُسلِ وعلى المُرسَلِ إِليهِمْ ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ﴾ المُرسَل إِليـهم

---

(١) رواه قتادة والضحاك والسدي. راجع تفسير الطبري: ج ٧ ص ٢١٤.

(٢) الحَبَلَة ـ بالتحريك ـ: القضيب من الكرم. (الصحاح: مادة حبل).

(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٤٦٩.

﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضلَ اللهِ فَيُشرِكُون.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ يريدُ: ياصاحِبَيَّ في السجنِ، فأَضَافَهُمَا إلى السجنِ، كقولِه: ياسَارِقَ اللَيلَةِ أَهلَ الدَارِ، فكمَا أَنَّ اللَيلةَ مسروقٌ فيها غير مسروقة فكذلك السجنُ مصحوبٌ فيه غيرُ مصحوبٍ، وَإِنَّما المصحوبُ غيرُه وهو يوسفُ عليه السلام، ويجوزُ أَن يُريدَ: ياساكنَي السجنِ، كقولِه عزَّ ٱسمُهُ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾[1]، ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ في العَددِ، أَي: أَأَن يكونَ لكما أَربابٌ شتَّىٰ يَستَعْبِدُكُما هذا ويَستَعْبِدُكُما هذا ﴿خَيْرٌ﴾ لكما ﴿أَمِ﴾ أَن يكونَ لكما ربٌّ واحدٌ قاهرٌ لايُغالَبُ ولايُشارَكُ في الرُّبُوبِيَّةِ؟ وهذا مثَلٌ ضربَهُ لعبادةِ ٱللهِ وحدَهُ ولعبادةِ الأَصنامِ. ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ فارغةً سَمَّيْتُمْ بِهَا، يقالُ: سمَّيتُهُ بـزيدٍ وسمَّيتُهُ زيداً ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بِتسميتِهَا ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أَي: حُجَّةٍ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ في أَمرِ الدينِ والعبادةِ ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾، ثُمَّ بيَّنَ مَاحَكَمَ اللهُ فقالَ: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الثابتُ بالدلائلِ.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)﴾

﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ يعني: الشرابِيَّ ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ أَي: سيِّدَهُ ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أَي: قُطِعَ وفُرِغَ منهُ، ورُوِيَ: أَنَّهما قالَا: مارَأَينَا شيئاً، فأَخبَرَهُما أَنَّ ذلكَ كائنٌ صَدَقْتُمَا أَو كذَبْتُما[2].

---

(١) الحشر: ٢٠.

(٢) قاله ابن مسعود. راجع تفسير البغوي: ج ٢ ص ٤٢٧.

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ الظَنُّ هنا بمعنى العلمِ، كما في قولِهِ: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾[1]، ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ صِفْنِي عندَ المَلِكِ بصفتي وأَخبِرْهُ بحالِي وأَنّي حُبِسْتُ ظُلماً. فَأَنسَى الشرابِيَّ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أَن يذكُرَهُ لِرَبِّهِ، وقيلَ: أَنسى الشيطانُ يوسفَ ذِكرَ ربِّهِ في تلكَ الحالِ حينَ وكَلَ أَمرَهُ إِلىٰ غيرِهِ حتّىٰ استغَاثَ بمخلوقٍ[2]، وَالبِضْعُ: مابينَ الثلاثِ إلى التسعِ، وأَصحُّ الأَقوالِ: أَنَّهُ ﴿لَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ﴾ سبعَ ﴿سِنِينَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ (٤٤) وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)﴾

قَرَأَ الصَادقُ عليه السلام: «وَسَبْعَ سَنَابِلَ ... يَأْكُلْنَ مَاقَرَّبْتُمْ لَهُنَّ»[3].

لمَّا دنَا فَرَجُ يوسفَ من الحبسِ رَأَى المَلِكُ وهو الريانُ بنُ الوليدِ رُؤيا هَالَتْهُ:

---

(١) الحاقة: ٢٠.

(٢) قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة. راجع تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ١٦٣.

(٣) تفسير القمّي: ج ١ ص ٣٤٥، تفسير العياشي: ج ٢ ص ١٧٩ ح ٣٣.

رأىٰ ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ خرَجْنَ من نهرٍ يابسٍ، و ﴿سَبْع﴾ بقرات ﴿عِجَافٌ﴾ فأَكلتِ العِجافُ السمانَ ﴿وَ﴾ رَأَى ﴿سَبْعَ سُنبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ قد انعقدَ حبُّها ﴿وَ﴾ سبعاً ﴿أُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ قد استَحْصَدَتْ، فالتَوَتِ اليابسَاتُ على الخُضرِ حتَّىٰ غَلَبْنَ عليها، فجَمَعَ الأَشرافَ والكُهَّانَ وقَصَّ رُؤياهُ عليهم ﴿وَقَالَ ... أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ أَي: عَبِّرُوا ما رَأيتُ في منامي ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أَي: إِن كُنتم تَنْتَدِبُون[1] لِعِبارةِ الرُؤيا، وحقيقةُ عَبَرْتُ الرُؤيا: ذَكَرتُ عاقبتَها، كما تقولُ: عبرتُ النَهَر: إذا قَطَعْتَهُ حتَّىٰ تبلُغَ آخِرَ عَرضِهِ، وأَمَّا اللامُ في قولِهِ: ﴿لِلرُّءْيَا﴾ إِمَّا أَن تكونَ للبيانِ كقولِه: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾[2]، وإِمَّا أَن تدخُلَ لأَنَّ المعمولَ إِذا تَقَدَّمَ علىٰ عامِلِهِ لم يَقْوَ على العملِ فعُضِدَ باللامِ كما يُعضَدُ بِهِ اسمُ الفاعِلِ إِذا قيل: هو عابِرٌ للرؤيا لانحطاطِهِ عن الفعلِ في القوَّةِ، ويجوزُ أَن يكونَ ﴿لِلرُّءْيَا﴾ خَبرَ «كانَ»، كما تقولُ: كانَ فلانٌ لهذا الأَمرِ: إِذا كانَ مستقلّاً بِهِ مُتمكِّناً مِنهُ، و ﴿تَعْبُرُونَ﴾ خبرٌ بعدَ خبرٍ أَو حالٌ، والسبَبُ في وقوعِ ﴿عِجَافٌ﴾ جمعاً لـ«عَجفاءَ»، وأَفعَلُ وفَعلاءُ لايُجمَعانِ علىٰ فِعالٍ، حملُهُ علىٰ ﴿سِمَانٍ﴾ لأَنَّهُ نقيضُهُ، وهم يحْمِلُونَ النَظيرَ على النَظيرِ والنَقيضَ على النَقيضِ ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ أَي: وسبعاً أُخَرَ.

وَأَضْغَٰثُ ٱلْأَحْلَامِ: تخاليطُهَا وأَباطيلُها، وما يكونُ منها من وسوسةٍ أَو حديثِ نفسٍ، وأَصلُ الأَضْغاثِ: ماجُمِعَ من أَخلاطِ النَباتِ وحُزِمَ، والواحِدُ ضِغثٌ، والإِضافَةُ بمعنىٰ «مِنْ»، أَي: أَضغَاثٌ مِن أَحلام، والمعنىٰ: هي أَضغاثُ أَحلامِ.

﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أَي: بعدَ مدَّةٍ طويلةٍ ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أَنا أُخبِرُكُمْ بِهِ عمَّنْ عندَهُ علمُهُ ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ فابعثُونِي إِليهِ لأَسأَلَهُ ومُرُونِي باستِعبارِهِ، فأَرسَلُوهُ

---

(١) ندبه لأمرٍ فانتدب له: أي دعاه له فأجاب. (الصحاح: مادة ندب).

(٢) الآية: ٢٠.

إلىٰ يوسُفَ، فأتاهُ فقالَ: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أيُّها البليغُ في الصدقِ، وإنَّما قالَهُ لأنَّهُ تعرَّفَ صدقَهُ في تأويلِ رُؤْياهُ ورُؤْيا صاحِبِهِ، ولذلك كلَّمهُ كلامَ مُحترزٍ فقالَ: ﴿لَعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ لأنَّهُ ليسَ علىٰ يقينٍ من الرُّجوعِ فربَّما اخترِم دونَهُ، ولا من عِلمِهِمْ فربَّمَا لم يَعلَمُوا، ومعنىٰ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾: لعلَّهم يَعلَمونَ فضلَكَ ومكانَكَ من العلمِ فيطلُبُونَكَ ويُخلِّصونَكَ من حبسِكَ، وعن ابنِ عبَّاسٍ: لم يكنِ السجنُ في المدينةِ(١).

﴿تَزۡرَعُونَ﴾ خبرٌ في معنَى الأمرِ، كقولِهِ: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ﴾(٢)، ويَدُلُّ عليهِ قولُهُ: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾، قُرِئَ: ﴿دَأَبٗا﴾ بسكونِ الهمزةِ(٣) وتحريكِهَا، وهما مصدرَا دَأَبَ في العمَلِ، وهو حالٌ من المأمورينَ، أي: دائبينَ: إمَّا على تَدْأَبُونَ دَأباً، وَإمَّا علىٰ إيقاعِ ﴿دَأَبٗا﴾ بمعنىٰ: ذَوِي دَأَبٍ ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ لِئَلَّا يَتَسَوَّسَ، و ﴿يَأۡكُلۡنَ﴾ من الإسنادِ المَجازيِّ: جُعِلَ أكلُ أهلِهِنَّ مُسنداً إليهنَّ ﴿تُحۡصِنُونَ﴾ تُحرِزُونَ وتَخبَؤُونَ. ﴿يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ من الغوثِ أو من الغَيثِ، يُقالُ: غِيثَتِ البلادُ: إذا مُطِرَتْ(٤)، ومنهُ قولُ الأعرابيَّةِ: غِثْنَا ماشِئنَا ﴿يَعۡصِرُونَ﴾ العِنبَ والسمسِمَ، وقُرِئَ: «يُعْصَرُونَ»(٥) من عَصَرَهُ: إذا أنجاهُ، وقيل: معناهُ: يُمْطَرُونَ(٦).

تَأَوَّلَ البقراتِ السمانَ والسُّنبلاتِ الخُضْرَ بِسنينَ مُخصِبَةٍ، والعِجافَ

---

(١) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٢ ص ٤٢٩.
(٢) الصف: ١١.
(٣) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٤٩.
(٤) في بعض النسخ: أمطرت.
(٥) وهي قراءة عيسىٰ والأعرج. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٣١٦.
(٦) قاله عيسىٰ بن عمر الثقفي. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٤٥.

واليابساتِ بسنينَ مُجدِبَةٍ، ثمّ بشّرَهُم بعدَ الفراغِ من تأويلِ الرُؤيا بأنّ العامَ الثامِنَ يجيءُ مباركاً خصيباً كثيرَ الخيرِ، وذلك من جِهةِ الوحي.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَابَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَاخَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَاعَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَايَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ (٥٢) وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَارَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣)﴾

تأنّىٰ عليه السلام وتثبّتَ في إجابةِ المَلِكِ وقدّمَ سؤالَ النسوةِ ليُظهِرَ براءةَ ساحتِهِ عمّا اتُّهِمَ بِهِ وحُبِسَ لأجلِهِ، ومِن كَرمِهِ وحُسنِ أدبِهِ أنّهُ لَمْ يذكُرِ امرأةَ العزيزِ مع ماصَنَعَتْ بِهِ من السجنِ والعذابِ، واقتصَرَ علىٰ ذكرِ ﴿ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾. ﴿مَاخَطْبُكُنَّ﴾ ماشأنُكُنَّ ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ هل وجَدْتُنَّ منه ميلاً إليكُنَّ؟ ﴿قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ﴾ تعجُّباً من عفّتِهِ ونَزاهتِهِ عن الرِيبَةِ ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ثَبَتَ الحقُّ واستقرَّ، وهو من حَصْحَصَ البعيرُ: إذا أَلقَىٰ ثَفِناتِهِ للإناخةِ، ولا مزيدَ علىٰ شهادَتِهِنَّ لَهُ بالبراءَةِ واعترافِهِنَّ علىٰ أنفسِهِنَّ بأنّه لم يَفْعَلْ شيئاً ممّا قَرَفْنَهُ به لأنّهنَّ خصومُه، وإذا اعترفَ الخصمُ بأنّ صاحبَهُ على الحقِّ وهو على الباطلِ لم يبقَ لأحدٍ كلامٌ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك التشمُّرُ والتمكّنُ والتثبُّتُ ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيزُ ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾ بِظَهرِ الغيبِ في حُرمتِهِ، وقولُهُ: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ في محلِّ النصبِ على الحالِ من الفاعلِ أو المفعولِ، بمعنىٰ: وأنا غائب عنه أو هو غائبٌ عنّي ﴿وَ﴾ لِيَعْلَمَ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ

﴿لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ أي: لا يُنفِّذُهُ ولا يُسدِّدُهُ.

ثُمَّ تواضَعَ للهِ وبيَّنَ أنَّ مافيهِ من الأمانةِ إنَّما هو بتوفيقِ ٱللهِ وعصمتِهِ، فقال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ من الزَلَلِ ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ أرادَ الجنسَ ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ إلَّا البعضَ الَّذي رَحِمَه ربِّي بالعِصمةِ، ويجوزُ أن يكُونَ بمعنى الزَمانِ، أي: وَقت رحمةِ ربِّي، وقيلَ: هو من كلام امرأةِ العزيزِ[1]، أي: ذلك الَّذي قُلتُ لِيعلَمَ يُوسفُ أنِّي لم أَكْذِبْ عليهِ في حالِ الغَيْبَةِ وصَدَقْتُ فيمَا سُئلتُ عنهُ، وَمَا أُبرِّئُ نَفْسِي مع ذلكَ مِنَ الخيانةِ فإنِّي خُنْتُهُ حينَ قَذَفتُهُ وَسجَنتُهُ، تُريدُ الاعتذارَ مِمَّا كانَ مِنهَا.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ (٥٧)﴾

﴿أَسْتَخْلِصْهُ﴾ وأَستخِصّه متقاربانِ، والمعنىٰ: أنَّه جعَلَهُ خالصاً لنفسِهِ وخاصّاً بهِ يرجعُ إليه في تدبيرِهِ ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ وعَرَفَ فَضْلَهُ وأَمانتَهُ؛ لأَنَّه استدَلَّ بكلامِهِ علىٰ عقلِهِ، وبعفَّتِهِ علىٰ أَمانتِهِ ﴿قَالَ إِنَّكَ﴾ أيُّها الصدِّيقُ ﴿ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو مَكانةٍ ومنزلةٍ ﴿أَمِينٌ﴾ مُؤتَمَنٌ علىٰ كلِّ شيءٍ.

ثُمَّ قالَ: أَيُّها الصدِّيقُ، إنِّي أُحِبُّ أن أَسمعَ رُؤيايَ منكَ، قال: نَعَمْ أيُّها الملِكُ رَأيتَ سبعَ بقراتٍ، فوصَفَ لونَهُنَّ وأَحوالَهُنَّ ووصَفَ السنابلَ على الهيئَةِ الَّتي رآهَا، ثُمَّ قالَ له: من حقِّكَ أَن تجمَعَ الطَعامَ وتزرَعَ زرعاً كثيراً في هذِهِ السنينَ

(١) حكاه الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٤٨.

المُخصِبةِ، وتَبنِيَ الأَهراءَ[١] فيأْتِيكَ الخَلقُ من النَواحي ويَمْتَارُونَ منكَ، ويجتمعُ لك من الكنوزِ مالم يجتمع لأَحدٍ قبلَكَ، فقالَ الملِكُ: مَنْ لي بهذا؟ فـ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ أَي: وَلِّني خزائنَ أَرضِكَ ﴿إِنِّى حَفِيظٌ﴾ لِمَا اسـتَوْدَعْتَنِي أَحفَظُهُ عن أَن تجريَ فيه خيانةٌ ﴿عَلِيمٌ﴾ بوُجُوهِ التَصرُّفِ، وصَفَ نفسَهُ بـالأَمانةِ والكِفايةِ اللَّتَينِ يطلُبُهما الملوكُ مِمَّن يُوَلُّونَهُ، وإِنَّما طَلَبَ يوسفُ الوَلاَيَةَ ليتوصَّلَ بذلكَ إِلىٰ إِمضاءِ أَحكامِ ٱللهِ وبَسْطِ العَدلِ، ووَضْعِ الحقُوقِ مواضِعَها، ويتمكَّنَ من الأُمورِ الَّتي كانَتْ مُفوَّضَةً إِليه من حيثُ كانَ نبيّاً إِماماً، ولعلمِهِ أَنَّ غـيْرَهُ لايـقُومُ في ذلكَ مقامَهُ، وفي ذلك دَلالَةٌ علىٰ جوازِ تولِّي القَضاءِ من جِهةِ السلطانِ الجائرِ إِذا كان فيه تمكُّنٌ من إِقامةِ الحقِّ وتنفيذِ أَحكامِ الدينِ، وقيل: إِنَّ الملِكَ كان يُصدِرُ عن رأيِهِ ولا يعترِضُ عليهِ في كلِّ مارَأَىٰ، فكانَ في حكمِ التابعِ له والمطيعِ[٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أَي: ومثلُ ذلك التمكينِ الظاهِرِ ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى﴾ أَرْضِ مِصْرَ ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ أَي: كُلَّ مكانٍ أَرادَ أَن يتَّخِذَهُ منزِلاً ومُتبوَّأً لَمْ يمتنِعْ منهُ لاستيلائه علىٰ جميعِها، وقُرِئَ: «نَشَآءُ» بالنونِ[٣] ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ بعطائنا في الدُنيا والدين ﴿مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في الدُّنيَا. ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِـرَةِ خَيْرٌ﴾ لَهُمْ.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَـهُ مُـنكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَـا خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلَاكَيْلَ لَكُمْ عِـندِى

---

(١) الهُرىٰ: بيت كبير يُجمع فيه طعام السلطان، والجمع: أهراء. (القاموس المحيط: مادة هرى).

(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٤٨٢.

(٣) قرأه ابن كثير والمفضّل. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٦٨.

وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)﴾

لَمَّا تمكَّنَ يوسُفُ بمصرَ وقُحِطَ الناسُ جمَعَ يعقوبُ بنِيهِ وقالَ: بَلَغَني أَنَّهُ يُباعُ الطعامُ بمصرَ وأَنَّ صاحبَهُ رجلٌ صالحٌ، فاذهَبُوا إِليهِ، فتَجهَّزُوا وَسارُوا حَتَّىٰ وَرَدُوا مصرَ ﴿فَدَخَلُوا۟﴾ عَلَىٰ يوسُفَ ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ لأَنَّ هِمَّتَهُ كانَتْ معقُودَةً بِهِم وَبمعرِفَتِهِم ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ لَم يَعْرِفُوهُ لِطُولِ العَهدِ، وَلاعتِقادِهِم أَنَّه قد هَلَكَ.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أَي: أَصلَحَهم بِعُدَّتِهِم وَأوقَرَ رَكائِبَهم بِما طَلَبُوه مِنَ المِيرةِ ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ لابُدَّ من مقدِّمةٍ سَبقَت مَعَهُمْ حَتَّى جَرَّتْ هذِهِ المسأَلَةَ، رُوِيَ[١]: أَنَّه لَمَّا رَآهُم قالَ: مَنْ أَنتُم؟ قالُوا: نَحنُ إِخْوَةٌ عَشَرَةٌ وأَبُونا نَبِيٌّ منَ الأَنبياءِ اسمُهُ: يَعقوبُ، وكُنَّا اثْنَيْ عَشَرَ إِخوةً[٢] فَهَلَكَ مِنَّا واحدٌ، قالَ: فأَينَ الأَخُ ٱلحادِي عَشَرَ؟ قالُوا: هُوَ عندَ أَبِيهِ يَتَسلَّىٰ بِهِ من الهالِكِ ﴿قَالَ﴾ يوسفُ: ﴿ٱئْتُونِى﴾ بِهِ ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ ولا أَبخَسُ أَحَداً شَيئاً ﴿وَأَنَا خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ المُضِيفِينَ. ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَـ﴾ لَيسَ ﴿لَكُمْ عِندِى﴾ طَعامٌ أَكِيلُه عليكُم، وقولُهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ يجوزُ أَن يكونَ مجزوماً عطفاً علىٰ محلِّ قولِهِ: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾ كأَنَّه قالَ: فإِن لم تَأْتُوني بِهِ تُحرَمُوا ولا تَقْرَبُوا، ويجوزُ أَن يكونَ بمعنَى النهي.

﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أَي: سَنُخادِعُهُ عنهُ ونحتالُ حتَّىٰ نَنْتزِعَهُ من يدِهِ ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ لَقادِرُونَ علىٰ ذلِكَ.

---

(١) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٤٨٤.
(٢) كذا في النسخ، والصحيح: «أخاً».

«وَقَالَ لِفِتْيَتِهِ»[١] وقُرِئَ: ﴿لِفِتْيَـٰنِهِ﴾ وهما: جمعُ فتىً، مثلُ إخوةٍ وإخوانٍ في جمعِ أخٍ، وفِعلَةٌ: جمعُ القلَّةِ، وفِعلانٌ: جمعُ الكثرةِ، أي: لغِلمانِهِ الكيَّالِينَ ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ يعني: ثَمَنَ طعامِهِمْ ومَا كانُوا جاؤُوا بِهِ في أوعيتِهِمْ، واحدُها رَحْلٌ، يقالُ للوِعاءِ: رَحْلٌ، ولِلمسكنِ: رحلٌ، وأصلُهُ: الشيءُ المُعَدُّ للرحيلِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ لعلَّهُم يعرفُونَ حقَّ ردِّها وحقَّ التكرُّمِ بإعطاءِ البدَلَينِ ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ وفرَّغُوا ظُروفَهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعلَّ معرِفتَهُم بذلك تدعُوهم إلى الرُّجوعِ إلينا، قيلَ: لَمْ يَرَ من الكرَمِ أن يأْخُذَ من أَبيهِ وإخوتِهِ ثمناً[٢].

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)﴾

﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ أرادُوا قولَ يُوسُفَ عليه السلام: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ لأنَّه إذا أعْلَمَهُمْ بِمَنْعِ الكَيلِ فقَدْ مَنَعَهُمُ الكيلَ ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ بنيامينَ ﴿نَكْتَلْ﴾ بِرفعِ المانِعِ مِنَ الكَيلِ فنكتل مانحتاجُ إليهِ من الطعامِ، وقُرِئَ: «يَكْتَلْ» بالياءِ[٣]، أي: يَكْتَلْ أَخُونا فَيَنْضَمّ اكتيالُه إلى اكتيالِنا، أَو يكُنْ سبباً لِلاكتيالِ. ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ﴾

---

(١) الظاهر أنّ المصنّف اعتمد هنا على قراءة الياء ثم التاء بعدها تبعاً للزمخشري.

(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٤٨٥.

(٣) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٥٠.

أَي: لاآمَنُكُم ﴿عَلَىٰ﴾ بِنيامينَ في الذهابِ بِهِ ﴿إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ يوسُفَ إذ قُلتُم فيهِ: ﴿إِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[١] كما تقولُونَه في أَخيهِ ثُمَّ لم تَفُوا بِضَمانِكُم ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا﴾ فتوَكَّلَ على ٱللهِ فيهِ ودَفَعَهُ إِليهم، و ﴿حَـٰفِظًا﴾ نصبٌ على التمييزِ كقولِهِم: «للهِ دَرُّهُ فارساً»، ويجوزُ أَن يكونَ حالاً، وقُرِئَ: «حِفْظاً»[٢]، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ يرحَمُ ضَعفِي وكِبرَ سنِّي، فيحفَظُهُ ويَردُّهُ عليَّ ولايَجْمَعُ عليَّ مصيبَتَينِ.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ﴾ أَي: أَوعيةَ طعامِهِمْ ﴿وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾، وقَرَأَ يحيَى بنُ وَثَّابٍ[٣]: «رِدَّتْ» بكسرِ الراءِ[٤] على أَنَّ كسرَ الدالِ المُدغَمةِ نُقِلَتْ إِلى الراءِ ﴿مَانَبْغِى﴾: ﴿مَا﴾ للنفيِ، أَي: مانبغِي في القولِ، أَو مانَبتَغِي شيئاً وراءَ مافُعِلَ بنَا من الإِحسانِ والإِكرامِ، أَو للاستفهامِ بِمعنَىٰ: أَيَّ شيءٍ نطلُبُ وراءَ هذا من الإِحسانِ؟ وقيل: معناهُ: مانُريدُ منكَ بِضاعةً أُخرَىٰ[٥]، وقَولُهُ: ﴿هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ جملةٌ مُستأْنَفَةٌ مُوضِحَةٌ لقولِهِ: ﴿مَانَبْغِى﴾ وَالجُمَلُ بعدَها معطوفةٌ عليهَا علىٰ معنَىٰ: أَنَّ بِضاعَتَنا رُدَّتْ إِلينَا فَنستَظْهِرُ بِهَا ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ في رجوعِنَا إِلى الملِكِ ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ فما يصيبُهُ شيءٌ مِمَّا تخافُهُ ﴿وَنَزْدَادُ﴾ باستحضارِ أَخينَا وَسْقَ[٦] بعير زائداً علىٰ أَوساقِ أَباعِرِنا، فأَيَّ شيءٍ نطلُبُ وراءَ

---

(١) الآية: ١٢.

(٢) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وعاصم برواية أبي بكر وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٥٠.

(٣) هو يحيىٰ بن وثّاب الأسدي بالولاء، الكوفي، إمام أهل الكوفة في القرآن، قليل الحديث، سمع ابن عمر وابن عباس، وروىٰ عن ابن مسعود وأبي هريرة وعائشة مرسلاً، وروىٰ عنه الأعمش وقتادة. توفّي سنة ١٠٣ هـ. انظر تهذيب الاسماء واللغات للنووي: ج ٢ ص ١٥٩.

(٤) حكاها عنه ابن جني في المحتسب: ج ١ ص ٣٤٥.

(٥) قاله قتادة: راجع تفسير الطبري: ج ٧ ص ٢٤٧، وتفسير الماوردي: ج ٣ ص ٥٨.

(٦) الوسق: ستون صاعاً، قال الخليل: هو حمل البعير. (الصحاح: مادة وسق).

هذهِ المَباغِي الَّتي نستصلِحُ بها أحوالَنا؟ ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أَي: ذلك مكيلٌ قليلٌ لايكفينَا، يعنُون: مايُكالُ لَهُم فأرادُوا أَن يزدادُوا إليهِ مايُكالُ لأَخيهمْ، أَو يكونُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلىٰ كيلِ بعيرٍ، أَي: ذلكَ الكيلُ شيءٌ قليلٌ لايُضايِقُنا فيه المَلِكُ، أَو سهلٌ عليهِ لايَتَعاظَمُهُ.

﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ﴾ أَي: تُعطُوني مَاأَتوثَّقُ بهِ ﴿مِنَ﴾ عِندِ ﴿ٱللَّهِ﴾ من عهدٍ أَو حَلْفٍ ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ﴾ جوابُ القسمِ، لأَنَّ المعنَىٰ: حتَّىٰ تُقْسِمُوا باللهِ لتأْتُنَّني بـهِ ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إِلَّا أَن تُغلَبُوا فلَمْ تقدرُوا على الإِتيانِ بهِ، أَو إِلَّا أَن تَهلِكُوا ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أَي: أَعْطَوْهُ مايوثَقُ بِهِ من العُهودِ والأَيمانِ ﴿قَالَ﴾ يعقوبُ ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَانَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أَي: رقيبٌ مطَّلِعٌ، إِن أَخلَفْتُم أَنتَصَفَ لي منكم.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَاتَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّاكَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَايَعْلَمُونَ (٦٨)﴾

نَهاهُم أَن يدخُلُوا ﴿مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ لأَنَّهم كانُوا ذَوي جمالٍ وبهاءٍ وهيئَةٍ حسنةٍ، قد شُهِرُوا في مصرَ بِالقُربةِ من المَلِكِ والتَكرِمَةِ الخاصَّةِ الَّتي لم تكُن لغيرِهِم، فخَافَ عليهِمُ العينَ ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ يعني: إِن أَرادَ ٱللهُ بكم سوءً لَم يَنفَعكُم، ولم يَدْفَعْ عنكم ماأَشرتُ بِهِ عليكُم من التَفرُّقِ وهو مصيبُكم لامَحالةَ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أَي: متفرِّقِينَ ﴿مَّاكَانَ يُغْنِى عَنْهُم﴾ رأْيُ يعقوبَ ودخولُهُمْ متفرِّقينَ شيئاً قطُّ ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناءٌ منقطِعٌ علىٰ معنىً:

ولكن حاجةً ﴿فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ وهي إظهارُ الشفقةِ عليهم بما قالَهُ لهم ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ﴾ أي: إنَّهُ لذو يقينٍ ومَعْرِفةٍ باللهِ ﴿لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ أي: من أجلِ تعليمِنا إيَّاهُ.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ (٧٠) قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ (٧٣) قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ (٧٤) قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾

﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ أي: ضَمَّ إليه ﴿أَخَاهُ﴾ بنيامينَ، رُوِيَ: أنَّهم قالوا لَهُ: هذا أخونا قد جِئنَاكَ بِهِ، فقال: أحسَنتُم، فأنزَلَهُم وأكرمَهُم وأجلَسَ كلَّ اثنَينِ منهُم على مائدةٍ فبَقِيَ بِنْيَامين وحدَهُ، فَأَجلَسَهُ مَعَهُ على مائدتِهِ وقال له: أتُحِبُّ أن أكونَ أخاكَ بدلَ أخيكَ الهالِكِ؟ قال: مَنْ يجِدُ أخاً مثلَكَ؟ ولكِن لم يَلِدْكَ يعقوبُ ولا راحيلُ، فبكَىٰ يوسُفُ وقام إليهِ وعانَقَهُ وقالَ له: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ فلا تحزَنْ ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ بنَا فيما مَضَىٰ، فإنَّ اللهَ تَعالَىٰ قد أحسنَ إلينَا وجَمَعَنَا، ولا تُعْلِمْهُم بما أعلمتُكَ (١).

(١) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٤٨٩.

و﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾: مِشربَةٌ يُسقَىٰ بها وهي الصواعُ، قيل: كانَ يُسقَىٰ بها المَلِكُ ثُمَّ جُعِلَت صاعاً يُكالُ بِهِ وكانَت من فضَّةٍ مُموَّهَةٍ بالذهبِ[١]، وقيل: كانَتْ من ذَهبٍ مرصَّعَةٍ بالجواهرِ[٢] ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ ثُمَّ نادَىٰ منادٍ، يقالُ: آذَنَ: أَعلَمَ، وأَذَّنَ: أَكثَرَ الإعلامَ، وَ﴿ٱلْعِيرُ﴾: الإبلُ الَّتي عليها الأَحمالُ لأَنَّها تَعيرُ، أَي: تَجيءُ وتَذهَبُ، وقيلَ: هي قافِلةُ الحَميرِ ثُمَّ كثُرَ حتَّىٰ قيلَ لكلِّ قافِلةٍ: عِيرٌ[٣]، والمُرادُ: أَصحابُ العِيرِ كقولِهِ: ياخَيْلَ اللهِ اركَبي. ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أَي: قالَ المنادِي: مَنْ ﴿جَآءَ﴾ بِالصُّواعِ فَلَهُ ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ مِنَ الطَّعامِ ﴿وَأَنَا﴾ بذلكَ كَفيلٌ: ضامِنٌ أُؤَدِّيهِ إِليهِ.

﴿تَاللهِ﴾ قَسَمٌ فيهِ مَعْنى التعجُّبِ مِمَّا أُضِيفَ إِليهم، وإِنَّما قَالُوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ فَاستَشهَدُوا بعلمِهم لِمَا ثَبَتَ عِندَهُمْ من دَلائلِ دِينِهم وأَمانَتِهم وحسنِ سِيرَتِهم في معامَلَتِهم مَعَهم مَرَّةً بَعدَ أُخرىٰ، ولأَنَّهم رَدُّوا بِضاعَتَهُمُ الَّتي وَجَدُوها في رِحالِهم مَخافَةَ أَن يَكونَ وُضِعَ ذلك بِغيرِ إِذنِ العزيزِ ﴿وَمَاكُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ وما كُنَّا مَوصُوفينَ بالسَرِقَةِ قَطُّ.

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ الهاءُ لِلصُّواعِ، أَي: فَما جزاءُ سَرِقَتِهِ ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ فِي ادِّعائكم البراءَةَ منهُ؟ ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أَي: جزاءُ سَرِقَتِهِ أَخذُ ﴿مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ﴾، وكانتِ السُّنَّةُ في بَني إِسرائيلَ أَن يُسترقَّ السَارقُ سنةً فلذلكَ استَفتَوا فِي جَزائه، وقولُهم: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مَعناه: فَهو جَزاؤُهُ لاغيرُ، كَقَولِكَ: حَقُّ فلانٍ أَن يُكْرَمَ ويُنَعَم عليهِ فذلك حقُّه، أَي: فهو حقُّه، ويَجوزُ أَن يكونَ ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مبتدأً والجُملةُ الشرطيَّةُ خبرَهُ، والأَصلُ: جزاؤُهُ من وُجِدَ في رَحلِهِ فَهُوَ هوَ، فَوُضِعَ ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مَوضِعَ «هو» إِقامةً لِلظاهرِ مقامَ المُضمرِ.

---

(١) قاله قتادة. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٦١.

(٢) قاله عبدالرحمن بن زيد. راجع المصدر السابق.

(٣) قاله مجاهد. راجع تفسير الطبري: ج ٧ ص ٢٥٤.

﴿فَبَدأَ بِـ﴾ تفتيشِ ﴿أَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ بنيامينَ لِنَفي التُـهْمَةِ ﴿ثُـمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن﴾ وعائِه، والصُواعُ يُذكَّرُ ويُؤَنَّثُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلكَ الكَـيدِ العظيمِ ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ يعني: علَّمناهُ إيَّاهُ وأوحَينا به إليهِ ﴿مَاكَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ هذا تفسيرٌ للكيدِ وبيانٌ لَهُ؛ لأنَّه كانَ في دينِ ملِكِ مصرَ وحكمِهِ في السَارِقِ أنْ يُضرَبَ ويُغرَمَ مثلَ ماأَخَذَ لا أنْ يُستَعبَدَ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: ماكان يأخُذُ إلَّا بمشيئَةِ اللهِ وإذنِه فيهِ ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ فِي العلمِ كما رَفَعْنا دَرجةَ يوسُفَ فيه، وقُرِئَ: «يَرْفَعُ» بالياءِ[1] و ﴿دَرَجَـٰتٍ﴾ بالتنوينِ[2]، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أَرفعُ درجةً منه فِي علمِه حَتَّىٰ يَنتهِيَ إلى اللهِ تعالى العالمِ لِذاتِه، فَـلا يَختَصُّ بمعلومٍ دُونَ معلومٍ فيقِفُ عليهِ ولا يتعدَّاهُ.

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِـمَا تَـصِفُونَ (٧٧) قَـالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَـانَهُ إِنَّـا نَـرَىٰـكَ مِـنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذاً لَّظَـٰلِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقاً مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَافَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَـلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ (٨٠)﴾

﴿أَخٌ لَّهُ﴾ عَنَوا بهِ يوسُفَ، واختُلِفَ فيما أضافُوه إلىٰ يـوسُفَ مِـنَ السَـرِقَةِ، وأَصحُّ الأَقوالِ[3] فيهِ: أَنَّ عمَّتَهُ كانَت تَحضُنُهُ بعدَ وفاةِ أُمِّهِ وتُحِبُّهُ حُبّاً شَـدِيداً،

(١) قرأه يعقوب والحسن وعيسىٰ. راجع التبيان: ج ٦ ص ١٧٤، والبحر المحيط لابي حيان: ج ٥ ص ٣٣٢.

(٢) الظاهر أنّ القراءة المعتمدة لدى المصنّف من غير تنوين، أي بالإضافة كما لا يخفىٰ.

(٣) وهو قول مجاهد على ماحكاه القرطبي في تفسيره: ج ٩ ص ٢٣٩.

فلمَّا تَرعْرَعَ أَرادَ يعقوبُ استردادهُ منهَا، وكانت مِنطَقَةُ إِسحاقَ عندَها لكونِها أَكبرَ وُلْدِهِ وكانُوا يَتوارَثُونَها بالكِبَرِ، فعَمَدتْ إِلى المِنْطَقَةِ وشَدَّتْهُ علىٰ يوسُفَ تحتَ ثِيابِهِ وادَّعَت أَنّـه سَرَقَها، فحبَسَتْه بذلكَ السَبَبِ عندَها ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾ هذا إِضمارٌ قبلَ الذكرِ علىٰ شَريطةِ التَفسيرِ، وتَفسيرُهُ: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً﴾ فكأَنّـه قال: فَأسـرَّ الجُملةَ أَو الكلمةَ الَّتي هي قولُه: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً﴾، والمَعنىٰ: قالَ ﴿فِى نَفْسِهِ﴾: أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً؛ لأَنَّ قولَه: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً﴾ بَدَلٌ من ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ أَي: أَنتم شرٌّ منزلةً فِي السَرِقَةِ؛ لأَنّـكم سَرَقتُم أَخاكم من أَبيكم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ يَعلَم أَنّـه ليس الأَمرُ كَما تَصِفُونَ، ولم يَصِحَّ لِي ولا لأَخي سَرِقَةٌ.

ثُمَّ رَفَقُوا في القولِ واستَعطَفُوه بذكرِ أَبيهم يعقوبَ، وأَنّـه شَيْخٌ كَبِيرُ السـنِّ أَو كبيرُ القدرِ، وأَنَّ بِنيامينَ أَحبُّ إِليه منهم ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ أَي: بَدَلَه علىٰ وجهِ الاستِرهانِ أَو الاستِعْبادِ ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إِلَينَا فأَتمِمْ إِحسانَك، أَو ٱجْرِ علىٰ عادتِكَ في الإِحسانِ فإِنَّه عادتُك. ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ هو كلامٌ مُوجَّهٌ، ظاهِرُهُ: أَنّـه يجِبُ أَخذُ مَن وُجِدَ الصُواعُ في رَحلِهِ علىٰ مُقتضَىٰ فُتْياكُم، فلو أَخَذْنَا غيرَهُ كانَ ظُلماً عندكم فلا تطلبُوا منّي ماتَعرِفُونَ أَنّـه ظُلمٌ، وباطِنُهُ: أَنَّ ٱللَّهَ تعالىٰ أَمَرني بأَخذِ بنيامينَ واحتباسِهِ لِمَصالحَ عَلِمَها في ذلكَ، فلَو أَخذتُ غيرَهُ كُـنتُ ظـالِماً: عامِلاً بخِلافِ ماأُمِرتُ بِهِ، ومعنىٰ ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ﴾: نَعُوذُ باللهِ مَعاذاً مِـنْ أَن نَأْخُذَ، و ﴿إِذاً﴾ جوابٌ لهم وجزاءٌ؛ لأَنَّ المعنىٰ: إِنْ نَأْخُذْ بَدَلَه ظَلَمْنَا.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ﴾ يئسُوا ﴿خَلَصُواْ﴾ أَي: اعـتَزَلُوا وَانـفرَدُوا عـن النَـاسِ خالِصِينَ لايَشُوبُهم سِواهُم ﴿نَجِيّاً﴾: ذوي نَجوَىٰ، فيكونُ النَجيُّ مصدراً بـمعنى التناجي، كما قيلَ: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ (١) تنزيلاً لِلمَصدرِ مَنزِلةَ الوصفِ، أَو قـوماً

(١) الاسراء: ٤٧.

نَجِيّاً أي: مُناجِياً لِمناجاةِ بعضِهم بعضاً، فيكونُ مِثلَ العَشِيرِ والسَمِيرِ بمَعنى المُعاشِرِ والمُسامِرِ، ومنه قولُه تَعالى: ﴿وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيّاً﴾ (١)، وكَانَ تَناجِيهِم في تَدبيرِ أَمرِهم: أَيَرجِعُونَ أَم يُقِيمُونَ، وإِذا رَجَعُوا فَماذا يَقُولُونَ لأَبِيهم في شأنِ أَخِيهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السنِّ وهُوَ روبيلُ، وقيلَ: رَئيسُهم وهو شَمعونُ (٢)، وقيلَ: كبيرُهم في الرأيِ والعقلِ وهو يهوذا (٣) أو لاوي (٤) ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقاً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ذَكَّرَهمُ الوَثيقةَ الَّتي أَخَذَها عَلَيهم يعقوبُ ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ فيه وُجُوهٌ: أَن تكونَ ﴿مَا﴾ مَزيدةً، أَي: وَمِن قبلِ هذا قصَّرتُم في شأنِ يوسُفَ ولم تحفظُوا عهدَ أَبيكم، وأَن تكونَ مصدريَّةً علىٰ أَن تكونَ مُبتدأً و ﴿مِن قَبْلُ﴾ خَبَرَهُ، أَي: وقَعَ من قبلُ تفريطُكُم في يوسُفَ، أَو يكونَ في مَحلِّ نصبٍ عطفاً علىٰ مَفعولِ ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ﴾ أَي: أَلَم تعلمُوا أَخذَ أَبِيكُم مَوثِقاً عَلَيكُم وتَفريطَكُم مِن قبلُ في يوسُفَ؟ وَأَن تكونَ موصولةً بـمَعنىٰ: ومـن قـبلِ هـذا مـافَرَّطتُمُوه، أَي: قدَّمتُمُوه في حقِّ يوسُفَ من الخيانةِ العظيمةِ، ومحلُّهُ الرفعُ أَو النصبُ على الوَجهَينِ ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ فلَن أُفارِقَ أَرضَ مصرَ ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ في الانصِرافِ إِليهِ ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ بالخُروجِ منها، أَو بالانتصافِ مِمَّن أَخذَ أَخِي، أَو بخلاصِهِ من يَدِه.

﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ (٨١) وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً

(١) مريم: ٥٢.
(٢) قاله مجاهد. راجع تفسير الطبري: ج ٧ ص ٢٦٩.
(٣) وهو قول مجاهد على ماحكاه الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٦٧.
(٤) وهو قول محمد بن كعب وابن إسحاق. راجع تفسير القرطبي: ج ٩ ص ٢٤١.

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللهِ مَالَاتَعْلَمُونَ (٨٦) يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَاتَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللهِ إِنَّهُ لَايَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ (٨٧) ﴾

﴿وَمَاشَهِدْنَآ﴾ عليه ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ فِي الظاهِرِ أَنَّ الصُّواعَ اسْتُخرِجَ مِن وعائه ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ﴾ أي: لِلأَمرِ الخفيِّ ﴿حَـٰفِظِينَ﴾ ولم نَشعُرْ أَسَرَقَ أم دُسَّ الصاعُ في رَحلِهِ. ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ هي مصرُ، أَي: أَرسِلْ إِلىٰ أَهلِها فَسَلْهُم عن كُنهِ القِصَّةِ ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: أَصحابَ العِيرِ.

والمعنىٰ: فَرَجَعُوا إِلىٰ أَبِيهِم وقالوا له: مَاقالَ أَخوهم، فَـ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أَردتُموه، وإِلَّا فَمَا أَدرىٰ ذلكَ الرجلَ أَنَّ السارقَ يُـؤْخَذُ بسَـرِقَتِه لَولا تَعليمُكم ﴿عَسَى ٱللهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعاً﴾ بيوسفَ وَأَخيهِ وروبيلَ أَو غيرِه ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالِي في الحُزنِ والأَسَفِ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الَّذِي لم يبتَلِني إِلَّا لِحِكمةٍ ومصلَحَةٍ.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ وأَعرَضَ ﴿عَنْهُمْ﴾ كَراهةً لِما جاؤُوا بِهِ ﴿وَقَالَ يَـٰأَسَفَىٰ﴾ أَضافَ الأَسَفَ إِلىٰ نفسِهِ، والأَلِفُ بدلٌ من ياءِ الإِضافةِ، والأَسَفُ: أَشدُّ الحُزنِ والحَسْرةِ، وتَأَسُّفُه ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ دُونَ غيرِه دليلٌ علىٰ أَنَّه لَم يَقَعْ فائتٌ عندَه مَوقِعَهُ، وأَنَّ الرُّزْءَ[١] فيهِ كان عندَهُ غَضّاً طَرِيّاً مَعَ طولِ الْعهدِ ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾

(١) الرزء: المصيبة. (الصحاح: مادة رزأ).

والبُكاءِ حتَّىٰ أَشْرَفَ علَى العَمَىٰ فَكانَ لايَرَىٰ إلَّا رُؤْيةً ضعيفةً، وقيلَ: إنَّه عَمِيَ[(١)] ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أَي: مملُوءٌ من الغيظِ علىٰ أَولاده ولايُظهِرُ مايَسُوُّهم.

﴿تَفْتَؤُاْ﴾ أَي: لاتَفتأُ، حُذِفَ حرفُ النفي لأَنَّه لايَلتبِسُ بالإِثْباتِ لأَنَّه لَو كانَ إِثباتاً لم يَكنْ بُدٌّ من اللامِ والنُونِ، ونحوُهُ:

فقلتُ: يَمينُ اللهِ أَبرحُ قاعداً[(٢)]

ومَعنىٰ «لاتفتأُ»: لاتَزالُ، كما يُقالُ: مافَتِئَ يفعلُ كذا ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضاً﴾ أَي: مُشفياً على الهَلاكِ، وأَحْرَضَه المَرَضُ، ويَستوِي فيه الواحِدُ والجمعُ والمذكَّرُ والمؤَنَّثُ لأَنَّه مصدَرٌ، والصفةُ حَرِضٌ، ومثلُهُ: دَنَفٌ ودَنِفٌ.

البَثُّ: أَصعَبُ الهَمِّ الَّذي لايَصبِرُ عليه صاحِبُه فَيَبُثُّه إلى الناس، أَي: يَنْشُرُه، وَ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ﴾ معناه: لاأَشْكُو إِلىٰ أَحدٍ وإِنَّما أَشكُو ﴿إِلَى ٱللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ﴾ صُنعِ ﴿ٱللهِ﴾ ورحمَتِه ﴿مَالَاتَعْلَمُونَ﴾ وحُسنُ ظَنِّي به أَنَّه يَأْتيني بالفرَجِ مِن حيثُ لاأَحتَسِبُ، ورُوِيَ: أَنَّه رَأَى مَلَكَ المَوتِ عليه السلام فَسَأَله: هل قَبَضتَ روحَ يُوسُفَ؟ فقالَ: لَا، فَعَلِمَ أَنَّه حَيٌّ[(٣)]. فقالَ: ﴿ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أَي: فتَعرَّفُوا مِنهُما وتَطَلَّبُوا خبرَهما، وهو تفعُّلٌ من الإِحساسِ وهو المَعرِفَةُ ﴿مِن رَّوْحِ ٱللهِ﴾ من فَرَجِهِ وتنفيسِهِ، وقيلَ: مِن رَحمتِهِ[(٤)] ﴿إِنَّهُۥ لَايَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ لأَنَّ المُؤْمِنَ منَ اللهِ علىٰ خيرٍ، يَرجُوه عندَ البَلاءِ، ويَشْكُرُه في الرَخاء.

---

(١) قاله مجاهد. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٧٠.

(٢) وعجزه: ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي. البيت لأمرئ القيس من قصيدته اللامية التي يصف فيها مغامراته وصيده وسعيه الى المجد. راجع ديوان امرئ القيس: ص ١٤١.

(٣) رواه البغوي في تفسيره: ج ٢ ص ٤٤٥.

(٤) قاله قتادة والضحّاك. راجع تفسير الطبري: ج ٧ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَـٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّافَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ (٨٩) قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَايُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ (٩١) قَالَ لَاتَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٩٢) ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣)﴾

﴿ٱلضُّرُّ﴾ الهُزالُ مِن الجُوعِ والشدَّةِ، شَكَوا إِلَىٰ يُوسُفَ مانالَهم من القَحطِ وهَلاكِ المَواشِي، وَالبِضاعَةُ المُزجَاةُ: المَدفُوعةُ، يَدفَعُها كلُّ تاجرٍ رَغبَةً عَنها وتَحقيراً لَها، من أَزجيتُهُ: إذا دَفعْتَه وطَرَدْتَهُ، قيلَ: كَانَتْ مِن مَتاعِ الأَعرابِ: الصُوفِ والسَمْنِ[١]، وقيلَ: كانَت دراهمَ زُيُوفاً[٢] لاتُنفَقُ في ثَمَنِ الطعامِ[٣]، ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ كما كُنْتَ تُوفيهِ في السِنينَ الماضيةِ ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ وتفضَّلْ علينا بالمسامحةِ، وزِدْنا علىٰ حقِّنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يُثِيبُهُم علىٰ صَدَقَاتِهِم بِأَفضَلَ منها.

فَرَقَّ يوسفُ لَهم ولَمْ يتَمالَكْ أَنْ عرَّفَهم نفسَهُ، و ﴿قَالَ﴾ لَهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّافَعَلْتُم﴾ استَفهمَ عن وجهِ القُبحِ الَّذي يَجِبُ أَن يُراعيَهُ التائبُ، أَي: هَل عَلِمتُم قُبحَ ﴿مَّافَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ﴾ لاتَعْلَمُونَ قُبحَه فلذلِكَ أَقدَمْتُم عليهِ، يعني: هَل عَلِمتُم قُبحَهُ فَتُبتُم إِلى ٱللهِ مِنهُ؟ لأَنَّ علمَ القُبحِ يَجُرُّ إِلى التوبةِ، فَكَانَ

(١) قاله عبدالله بن الحارث. راجع تفسير الماوردي: ج ٢ ص ٧٣.
(٢) زافت الدراهم: اذا صارت مردودة لغشٍّ فيها. (القاموس المحيط: مادة زفت).
(٣) قاله ابن عباس. راجع تفسير البغوي: ج ٢ ص ٤٤٦.

كلامُه شَفَقَةً عَليهم ونُصحاً لَهم في الدينِ؛ إيثاراً لِحقِّ ٱللهِ علَىٰ حقِّ نفسِهِ في ذلك المقامِ الَّذي ينفُثُ فيه المَصْدُورُ ويَتَشَفَّى المُحْنَقُ المَغِيظُ. وقِيلَ: معناهُ: إذ أَنتم صِبيانٌ أَو شُبَّانٌ حِينَ يغلِبُ على الإنسانِ الجهلُ[١].

وقُرِئَ: ﴿أَءِنَّكَ﴾ علَى الاستِفهامِ، وَ «إِنَّكَ» علَى الإِيجابِ[٢]. قيل: إِنَّه تبسَّمَ فَأَبصَرُوا ثَناياهُ فعَرَفوهُ وكانَتْ كاللُّؤْلُؤِ المَنْظومِ[٣]، وقيلَ: رَفَعَ التاجَ عن رَأسِه فعَرفُوه[٤] ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ﴾ ٱللهَ: من يَخَفِ اللهَ وعِقَابَهُ ﴿وَيَصْبِرْ﴾ عنِ المَعصِيَةِ وعلى الطاعةِ ﴿فَإِنَّ ٱللهَ لَايُضِيعُ أَجْرَ﴾ هُم، فوُضِعَ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مَوضِعَ الضميرِ؛ لاشتِمالِه على المُتَّقِينَ والصابِرِينَ.

﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللهُ عَلَيْنَا﴾ أَي: فَضَّلَكَ علَينا بالتقوىٰ والصبرِ وسِيرَةِ المُحسِنينَ، وَإِنَّ شأنَنا وحالَنا أَنّا ﴿كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ مُتعمِّدينَ لِلإثمِ، لاجَرَمَ أَنَّ اللهَ أَعزَّكَ وأَذَلَّنا. ﴿لَاتَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ لاعَتْبَ ولا تَعييرَ ولا تأْنيبَ ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أَي: لاأُثَرِّبُكم اليومَ فِيما فَعَلتُم ﴿يَغْفِرُ ٱللهُ لَكُمْ﴾ ذُنوبَكم، دَعَا لَهُم بالمَغفِرَةِ لِما فَرَطَ منهم. ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾، قيلَ: إِنَّه القَميصُ المُتوارَثُ الَّذي كانَ في تَعويذِ يُوسُفَ وكانَ مِنَ الجَنَّةِ[٥] ﴿يَأْتِ بَصِيراً﴾ أَي: يَرجِعْ بصيراً، أَو يَأْتِ إِلَيَّ وَهُو بَصيرٌ، ويَنصُرُهُ قولُه: ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أَي: لِيأْتِنِي أَبي وآلُهُ جميعاً.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُواْ تَاللهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَٱرْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللهِ

(١) قاله ابن عباس والحسن. راجع تفسير القرطبي: ج ٩ ص ٢٥٦.
(٢) قرأه ابن كثير وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٥١.
(٣ و٣) قاله ابن عباس على ماحكاه عنه القرطبي في تفسيره: ج ٩ ص ٢٥٦.
(٥) وهو قول مجاهد. راجع تفسير القرطبي: ج ٩ ص ٢٥٨.

مَالَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٩٨) ﴾

﴿وَلَمَّا﴾ خَرَجتِ القافلةُ وانفصلتْ ﴿ٱلْعِيرُ﴾ من مصرَ ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوبُ لوُلدِ وُلدِهِ ومَن حولَهُ: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أَوجَدَهُ ٱللهُ تعالىٰ ريحَ القميصِ حينَ أقبلَ من مَسيرَةِ ثمانٍ أو عَشرٍ ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي: تَنسِبُوني إلى الفَنَدِ وهو الخَرَفُ، والمعنىٰ: لَولاَ تَفنِيدُكُم إيَّاي لصَدَّقتُمُوني.

﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي: في ذَهَابِكَ عنِ الصوابِ قِدَماً[(١)] في إفراطِ محبَّتِكَ ليوسُفَ ورَجائك للقائه، وكان عندَهُم أنَّـه قد ماتَ.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَـٰهُ﴾ يعني: القميصَ، طَرحَهُ ﴿عَلَىٰ﴾ وَجْهِ يعقوبَ، أَو أَلقاهُ يعقوبُ ﴿فَٱرْتَدَّ﴾ فرجَعَ ﴿بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ يـعني قـولَه: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللهِ﴾[(٢)]، وقولُه: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ﴾ كلامٌ مبتدأٌ لم يقَعْ عليه القـولُ، ويجوزُ أيضاً أن يكونَ واقعاً عليهِ.

﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ قيلَ: إنَّه أَخَّرَ الاستغفارَ إلىٰ وقتِ السحَرِ؛ لأنَّـه أقربُ إلىٰ إجابةِ الدُعاءِ[(٣)]، وقيلَ: إلىٰ سَحَرِ ليلةِ الجُمُعَةِ[(٤)].

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللهُ ءَامِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّداً وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ

(١) في نسخة: قديماً. (٢) الآية: ٨٧.

(٣) قاله ابن مسعود وابراهيم التيمي وابن جريج. راجع تفسير الطبري: ج ٧ ص ٣٠٠.

(٤) كما ورد في الحديث عنه ﷺ، أخرجه الطبري في تفسيره: ج ٧ ص ٣٠٠ وهو المروي عن الباقر والصادق عليهما السلام كما في تفسير العياشي: ج ٢ ص ١٩٦ ح ٨١.

إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) ﴾

معنىٰ دُخُولِهم ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قبلَ دُخولِهم مصرَ: أَنَّهم حينَ استَقْبلَهُم يوسفُ كأَنَّه نزلَ لهم في بيتٍ أَو مِضْرَبٍ هناك، فَدَخلُوا عليه وضَمَّ ﴿إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ ثُمَّ ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وتعلَّقَتِ المشيئَةُ بالدخولِ مقيَّداً بالأمنِ، والتقديرُ: ٱدْخُلُوا مِصْرَ آمِنِينَ إِن شاءَ ٱللهُ دَخَلْتُمُوهُ آمِنِين، ثُمَّ حُذِفَ الجزاءُ لدَلالةِ الكلامِ عليهِ، ثُمَّ اعترِضَ بالجملةِ الجزائيةِ بينَ الحالِ وذي الحالِ، وقولُهُ: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ معناه: ضمَّهما إِليه واعْتَنَقَهُما.

ولمَّا دخلَ مصرَ وجلَسَ في مَجلِسِهِ مستوياً علىٰ سريرِهِ واجتمعُوا إِليه أَكرمَ أَبويهِ فَرَفعَهُما ﴿عَلَى﴾ السريرِ ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ﴾ يعني: الإِخوةَ الأَحَدَ عَشَرَ ﴿سُجَّداً﴾ وكانتِ السجدةُ عندَهم جاريةً مجرى التحيَّةِ والتكرمة، وقيلَ: معناه: خَرَّ إِخوتُهُ وأَبواهُ لأَجلِهِ سُجَّداً للهِ شُكراً[1]، ويعضُدُهُ مارُوِيَ عن الصادقِعليه السلام أَنَّه قرأ: «وَخَرُّوا للهِ سَاجِدِينَ»، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ﴾ يقالُ: أَحسنَ به وَإِليهِ، وأَساءَ به وإِليه، قال:

أَسِيئي بنا أَو أَحسني لاملومةً لدينا ولا مَقلِيَّةً إِن تَقلَّتِ[2]

وَ﴿ٱلْبَدْوِ﴾ الباديةُ، وهُم كانوا أَهلَ باديةٍ وأَصحابَ مَواشٍ، ينتقِلُون في المياهِ

(١) قاله ابن عباس كما في تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٨٢، وأخرجه العياشي في تفسيره: ج ٢ ص ١٩٧ مسنداً الى أبي جعفرعليه السلام وبطريق آخر عن عليّ بن محمد بن الرضاعليه السلام.

(٢) البيت لكثير بن عبدالرحمن الخزاعي المشهور بكثير عزّة، وهي من قصيدة يجيب فيها عزّة لمّا سمعها تسبّه. تقدّم شرح البيت وتفصيله في ص ٧١ فراجع.

والمناجعِ[١] ﴿نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أي: أفسدَ بيننا وحرّشَ ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ﴾ في تدبيرِ عبادِهِ يُسهِّلُ لهمُ العسيرَ، وبلطفِهِ اجتمَعْنا.

ورُوِيَ: أنَّ يعقوبَ أقامَ معهُ أربعاً وعشرينَ سنةً ثمَّ ماتَ ودُفِنَ بالشامِ عن وصيَّةٍ منهُ بذلك[٢]، وقيل: إنَّه عاشَ مع يوسُفَ حولَينِ، وعاشَ يوسُفُ بعدَ أبيهِ ثلاثاً وعشرينَ سنةً[٣]، فلمّا تمَّ أمرُه وعَلِمَ أنَّه لايدُومُ له ملكُه طَلَبَتْ نفسُهُ المُلكَ الدائمَ الَّذي لايفْنَىٰ، فتمنَّى الموتَ وماتمنَّاهُ نبيٌّ قبلَهُ ولا بعدَهُ، فتوفَّاهُ ٱللهُ طيِّباً طاهراً.

و ﴿مِنَ﴾ في قولِهِ: ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ وَ ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ للتبعيضِ؛ لأنَّه لم يُؤْتَ إلَّا بعضَ مُلكِ الدُنيا أو بعضَ مُلكِ مصرَ وبعضَ التَأويلِ ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ﴾ أنتَ الَّذي تتولَّاني بالنعمةِ في الدارَينِ، وتُوصِلُ المُلكَ الفانِيَ بالمُلكِ الباقِي ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ وصفٌ لقولِهِ: ﴿رَبِّ﴾ أو نصبٌ على النداءِ ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ من آبائي، أو على العمومِ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ ماسبَقَ مِن نَبأِ يوسُفَ وهو مُبتَدأٌ، وَ ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبَرَانِ، والمعنىٰ: أنَّ هذا النبأَ غيبٌ لم يحصُلْ لكَ إلَّا من جِهَةِ الوحيِ، لأنَّك لم تَحضُرْ بني يعقوب حينَ ﴿أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بيوسُفَ، ويبغُونَ له الغوائلَ حتَّىٰ ألقَوه في الجُبِّ.

---

(١) النُجعة: طلب الكلأ والعرف. (لسان العرب: مادة نجع).

(٢) انظر تاريخ الطبري: ج ١ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

(٣) أخرج العياشي عن محمد بن مسلم قال: قلتُ لأبي جعفر عليه السلام: كم عاش يعقوب مع يوسف بمصر بعد ما جمع الله يعقوب شمله، وأراه تأويل رؤيا يوسف الصادقة؟ قال: عاش حولين، قلت: فمن كان يومئذٍ الحجة لله في الأرض يعقوب أم يوسف؟ فقال: كان يعقوب الحجة وكان الملك ليوسف، فلمّا مات يعقوب حمل يوسف عظام يعقوب في تابوت الى الشام، فدفنه في بيت المقدس ثم كان يوسف بن يعقوب الحجة. تفسير العياشي: ج ٢ ص ١٩٨ ح ٨٧.

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧) قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩)﴾

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ يريدُ العمومَ، وعن ابنِ عبَّاسٍ: يُريدُ أَهلَ مكَّةَ(١)، أَي: وماهُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ علىٰ إيمانِهم؛ لعِنادِهم وتَصميمِهم علـى الكـفرِ. ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ﴾ عَلَى تبليغِ الرسالةِ أَجراً فيصدَّهُم ذلك عن الإيمانِ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عِظَةٌ منَ ٱللهِ تعالىٰ ﴿لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ عامَّةً، يعني: القُرآنَ.

﴿وَ﴾ كم ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ أَي: علامةٍ ودَلالةٍ علىٰ توحيدِ ٱللهِ ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ ويشاهِدُونها ﴿وَهُمْ ... مُعْرِضُونَ﴾ عَنْهَا، لايَعْتبِرُون بهَا. ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم﴾ في إقرارِهم ﴿بِٱللَّهِ﴾ وبأنّه خلقَهُم وخلَقَ السماواتِ والأَرضَ ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بعبادةِ الأَوثانِ، يُريدُ: مُشركِي قريشٍ، وقيل: هم الَّذينَ يُشبِّهُونَ ٱللهَ بخلقِهِ(٢)، وقيل: هُم أَهلُ الكتابِ معهم شركٌ وإِيمانٌ(٣).

---

(١) تفسير ابن عباس: ص ٢٠٤.

(٢) قاله ابن عباس والسدي. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٨٧.

(٣) قاله الحسن. راجع الكشّاف: ج ٢ ص ٥٠٨.

وعنِ الباقرِ عليه السلام: «أنّه شركُ الطاعةِ لاشركُ العبادةِ، أطاعُوا الشيطانَ في ارتكابِ المعاصي»[١].

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ﴾ أي: نَقِمَةٌ تَغشاهُم، وعذابٌ يَغمُرُهم.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ هذهِ السبيلُ الَّتي هي الدعوةُ إلى الإيمانِ والتوحيدِ سَبيلي، ثُمَّ فسَّرَ سبيلَهُ بقولِه: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: أدعُو إلىٰ دينِهِ مع حُجَّةٍ واضحةٍ، وَ﴿أَنَا﴾: تأكيدٌ للضميرِ المُستكِنِّ في ﴿أَدْعُوٓاْ﴾، وَ ﴿مَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ عطفٌ عليهِ، أي: أدعُو إليها أنا ويدعُو إليها مَنِ ٱتَّبعَنِي، ويجوزُ أن يكونَ ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ حالاً مِن ﴿أَدْعُوٓاْ﴾ عامِلةَ الرفعِ في ﴿أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾، ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ وأُنزِّهُ ٱللهَ مِنَ الشُركاءِ.

﴿إِلَّا رِجَالاً﴾ لاملائكةً، وقُرِئَ: ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ بالنونِ[٢] ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ لأنّهم أعلَمُ وَأحلَمُ، وأهلُ البَوادِي أهلُ الجَفاءِ والقَسوةِ ﴿وَلَدَارُ﴾ الساعةِ ﴿ٱلْأَخِرَةِ﴾، أو الحالةِ ﴿ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ أي: خافُوا ٱللهَ فلم يُشرِكُوا به.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾

هنا حذفٌ دلَّ الكلامُ عليه، كأنّه قيل: وما أرسلْنا قبلَكَ إلّا رجالاً قد تأخَّرَ نصرُنا إيّاهم كما أخَّرْناهُ عن هذهِ الأُمّةِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ ٱستَيأَسُوا عن النصرِ ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ أي: فظنَّ ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ أنّهم قد كذَّبَهم قومُهم فيما وَعَدُوهم من

(١) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٠٠ ح ٩٨.

(٢) إذ الظاهر أنّ القراءة المعتمدة لدى المصنّف بالياء مبنيّاً للمجهول.

العذابِ والنصرِ عليهم، وقُرِئَ: ﴿كُذِبُواْ﴾ بالتخفيفِ، وهُوَ قِراءَةُ أَئمةِ الهُدَىٰ عليهم السلام [١]، ومعناه: وظَنَّ المرسَلُ إليهم أَنَّ الرُسُلَ قد كَذِبُوهم فيما أَخبَرُوهُم بِه من نُصرةِ ٱللهِ إِيَّاهم [٢]، جَاءَ الرُسلَ ﴿نَصْرُنَا﴾ بإرسالِ العَذابِ على الكفَّارِ «فَنُنَجِّيَ مَن نَّشَآءُ» [٣] أَي: نُخلِّصُ من نشاءُ من العذابِ عندَ نزولِهِ، وقُرِئَ: ﴿فَنُجِّيَ﴾ بالتشديدِ علىٰ لفظِ الماضِي المبنيِّ للمفعولِ، والمرادُ بـ ﴿مَن نَّشَآءُ﴾: المُؤمنون، ويبيِّنُ ذلكَ قولُه: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

الضميرُ في ﴿قَصَصِهِمْ﴾ راجعٌ إِلىٰ يوسُفَ وإِخوتِهِ ﴿عِبْرَةٌ﴾ أَي: اعتبارٌ للعقلاءِ، فإِنَّ نبيَّنا صلى الله عليه وآله لم يقرَأْ كتاباً ولا سَمِعَ حديثاً ولا خالطَ أَهلَهُ ثمَّ حدَّثَهم بهِ في حُسنِ نظمِهِ ومعانيه بحيثُ لم يرُدَّ عليه أَحدٌ من ذلك شيئاً، وفيه أَوضحُ برهانٍ علىٰ صحَّةِ نُبوَّتِهِ ﴿مَا كَانَ﴾ ٱلْقُرآنُ ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أَي: يُختَلَقُ ﴿وَلَٰكِن﴾ كانَ ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أَي: قبلَهُ من الكُتُبِ السماويَّةِ ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُحتاجُ إِليه في الدين ﴿وَهُدًى﴾ ودَلالةً ﴿وَرَحْمَةً﴾ ونعمةً ينتفِعُ بها المُؤمنونَ عِلماً وعملاً.

❁ ❁ ❁

---

(١) أُنظر تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٠١ ح ١٠٢.

(٢) وهو قول ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد والضحاك. راجع التبيان: ج ٦ ص ٢٠٧.

(٣) الظاهر من عبارة المصنّف أنّه يعتمد هنا على القراءة بنونين.

سورةُ الرعدِ

مُختلَفٌ فيها(١)، وهي خمسٌ وأَربعُونَ آيةً بصريٌّ، وثلاثٌ كوفيٌّ، عُدَّ غير الكُوفيِّ ﴿لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(٢)، ﴿ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ﴾(٣).

في حديثِ أُبيٍّ: «ومَنْ قرأَ سورةَ الرعدِ أُعطِيَ من الأَجرِ عَشر حسَناتٍ بعدَدِ كُلِّ سَحابٍ مضَىٰ وكُلِّ سَحابٍ يكونُ إلىٰ يومِ القيامةِ، وكانَ يَومَ القيامةِ من المُوفينَ بعهدِ ٱللهِ»(٤).

وعن الصَّادِقِ عليه السلام: «مَن أَكثرَ قِراءَةَ الرعدِ لم يُصِبْهُ ٱللهُ بصاعقةٍ أَبداً، وأُدخِلَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ»(٥).

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٦ ص ٢١١: قال قتادة: هي مدنية إلّا آية منها فانّها مكية وهي قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾. وقال مجاهد: هي مكية وليس فيها ناسخ ولا منسوخ. وهي ثلاث وأربعون آية في الكوفي وأربع في المدنيّيْن وخمس في البصري.

وقال الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٩١: مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنية في قول الكلبي ومقاتل، وقال ابن عباس: مدنية إلّا آيتين منها وهما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الى آخرهما.

وقال الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٥١١: مدنية، نزلت بعد سورة محمد صلى الله عليه وآله.

(٢) الآية: ٥. (٣) الآية: ١٦.

(٤) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٥٣٦ مرسلاً.

(٥) ثواب الأعمال: ص ١٣٣، تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٠٢ ح ١.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓر تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَايُؤْمِنُونَ (١) ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰراً وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣)﴾

﴿تِلْكَ﴾ مُبتدأٌ وَ ﴿ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ خبرُهُ ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ مِن القرآنِ كُلُّه هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الّذي لامزيدَ عليه.

﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأٌ وَ ﴿ٱلَّذِى رَفَعَ﴾ خبرُهُ، بدليلِ قولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾، ويجوزُ أن يكونَ صفةً وقولُهُ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ﴾ خبراً بعدَ خبرٍ ﴿تَرَوْنَهَا﴾ كلامٌ مستأنَفٌ بمعنىٰ: وأنتُم تَرَوْنَها كذلك، ليس دُونَها دِعامةٌ ولا فوقَها عَلاقةٌ، وقيل: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفةٌ لِـ ﴿عَمَدٍ﴾[١]، وقُرِئَ: «عُمُدٍ» بضمَّتَينِ[٢]، يعني: بغيرِ عُمُدٍ مَرئيَّةٍ، وإنّما تَعمِدُهَا قدرةُ ٱللهِ عزَّوجلَّ ﴿يُدَبِّرُ﴾ أَمرَ ملكوتِهِ وأُمور خلقِهِ على الوجهِ الّذي توجِبُهُ الحِكمةُ ﴿يُفَصِّلُ﴾ آياتِهِ في كـتبِهِ المـنزَلةِ ﴿لَعَلَّكُم ... تُوقِنُونَ﴾ بالجزاءِ، وبأَنَّ هذا المدبِّرَ المُفصِّلَ قادرٌ على البَعثِ والنُشورِ، ولابُدَّ لكُم مِنَ الرُجوعِ إليه.

﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ بَسَطَها طُولاً وعرضاً ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثـوابتَ

---

(١) قاله قتادة واياس بن معاوية وغيرهما. راجع تفسير القرطبي: ج ٩ ص ٢٧٩.

(٢) قرأه أبو حيوة ويحيىٰ بن وثاب. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٣٥٩.

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: خَلَقَ فيهَا من جميعِ أنواعِها زوجَينِ زوجَينِ: أسودَ وأبيضَ وحُلواً وحامضاً ورَطباً ويابساً وما أشبَهَ ذلك من الأَصنافِ المُختلفةِ ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يُلْبِسُ ظُلمةَ الليلِ ضِياءَ النَهارِ فيصيرُ مُظلِماً بعدَ أن كان مُضيئاً.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٥)﴾

﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ بِقاعٌ مختلفةٌ مع كونِها متجاوِرةً متلاصِقةً: طيِّبةٌ إلىٰ سَبْخَةٍ، وصُلبةٌ إلىٰ رخْوَةٍ، وصالحةٌ للزرعِ والشجرِ إلىٰ أُخرىٰ علىٰ عكسِها مع انتظامِ جميعِها في جنسِ الأَرضيَّةِ، وكذلك الكُرومُ والزُروعُ والنَخيلُ النَابتَةُ[1] في هذهِ القِطَعِ مختلفةُ الأَجناسِ والأَنواعِ وهي تُسقَىٰ ﴿بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾، وتراها متغايرةَ الثمارِ في الأَشكالِ والهَيئاتِ والطعومِ والروائحِ، متفاضلةً فيها، و ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ دَلالَةٌ علىٰ صُنعِ القادرِ العالِمِ المُوقِعِ أَفعالَهُ علىٰ وجهٍ دونَ وجهٍ، وقُرِئَ: «وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنْوَانٍ وَغَيْرِ صِنْوَانٍ» بالجرِّ[2] عطفاً علىٰ ﴿أَعْنَٰبٍ﴾، والصنوانُ: جمعُ صِنْوٍ، وهي النخلةُ لها رأسانِ وأَصلُهما واحِدٌ، وقُرِئَ بضمِّ الصَادِ[3] وكسرِها وهما

(١) في بعض النسخ: الثابتة.

(٢) وهي قراءة عاصم برواية أبي بكر ونافع وابن عامر وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٥٦.

(٣) قرأه مجاهد والسلمي والحسن بن العباس عن حفص والمفضل. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٥٦، وتفسير القرطبي: ج ٩ ص ٢٨٢.

لغتانِ، وقُرِئَ: ﴿يُسْقَىٰ﴾ بالتاءِ[١] والياءِ، وقُرِئَ: ﴿نُفَضِّلُ﴾ بالنونِ والياءِ[٢] ﴿فِى ٱلْأُكُلِ﴾ بضمِّ الكافِ وسكونِها[٣].

﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ يامحمَّدُ من قولِهم في إنكارِ البعثِ ﴿فَـ﴾ ﴿قَوْلُهُمْ﴾ ﴿عَجَبٌ﴾ حقيقٌ بأن يُتعَجَّبَ منه؛ لأَنَّ مَنْ قَدَرَ علىٰ إنشاءِ ماعُدِّدَ عليك من الصَّنائعِ العجيبةِ والفِطَرِ البديعةِ كانتِ الإعادةُ أهونَ عليه ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ إلىٰ آخر قولِهم، يجوزُ أن يكونَ في محلِّ الرَّفعِ بدلاً من ﴿قَوْلُهُمْ﴾، وأن يكونَ في محلِّ نصبٍ بالقولِ، و ﴿إِذَا﴾ نصبٌ بما دلَّ عليه قولُه: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فكأنَّه قيل: أَنُبْعَثُ إذا مِتْنا وَ ﴿كُنَّا تُرَٰبًا﴾، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أُولئك المُتمادُونَ في كفرِهم الكامِلُونَ فيهِ ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ وصفٌ لهم بالإصرارِ، كقولِه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا﴾[٤]، وكقولِ الشاعرِ:

لَهُم عنِ الرُّشدِ أَغلالٌ وأَقيادُ[٥]

أَو هو من جملةِ الوعيدِ.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَاتَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَاتَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَاتَزْدَادُ وَكُلُّ

---

(١) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٥٦.
(٢) وبالياء هي قراءة حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٧٥.
(٣) وبسكونها قرأه نافع وابن كثير. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٥٢٨ .
(٤) يسٓ: ٨.
(٥) وصدره: ضلّوا وإنّ سبيل الغيّ مقصدهم. لم نعثر على قائله، يقول في ذمّ قوم: إنّهم اتّخذوا سبيل الغيّ دون الرشد والهداية مقصداً لهم، فكأنّهم عن سبيل الرشد مكبّلين لايقدرون أن يمشوا إليه بأرجلهم. راجع شرح شواهد الكشاف للأفندي: ص ٣٧٧.

شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ (٩) سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالَّيْلِ وَسَارِبُ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) ﴾

﴿بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ بالعَذابِ والنقِمةِ قبلَ الرحمةِ، بالعافيةِ والإحسانِ إليهم بالإمهالِ، وذلك أنّهم سألوا رسولَ ٱللهِ ﷺ أن يأتِيَهم بالعَذابِ ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾ أي: وقَد مَضَتْ ﴿مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ﴾ أي: عُقُوباتُ أمثالِهم مِنَ المُكَذِّبينَ، وسُمِّيَتِ العقوبةُ مَثُلَةً لِما بينَ العِقابِ والمُعاقَبِ عليهِ مِنَ المُماثَلَةِ، وَجَزاءُ السيِّئَةِ سيِّئَةٌ مِثلُها، ويُقالُ: أمثَلْتُ الرجلَ مِنْ صاحِبِه وأقصصْتُهُ منهُ، والمِثالُ: القِصاصُ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أَي: مَعَ ظُلمِهم أنفُسَهم بالذنوبِ، ومَحلُّه النَصبُ على الحالِ، بمَعْنى: ظالمينَ لأنْفُسِهم.

وعن سَعيدِ بنِ المُسيِّبِ[1]: لَمَّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ قالَ رَسولُ ٱللهِ ﷺ: «لولا عَفْوُ اللهِ وتَجاوُزُهُ ماهَنأَ أحداً العيشُ، ولولا وَعيدُ اللهِ وعِقابُهُ لاتَّكَلَ كُلُّ واحدٍ»[2].

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ لم يعتدُّوا بالآياتِ المُنزَلةِ على رَسولِ اللهِ ﷺ عِناداً، فاقترَحُوا نحوَ آياتِ مُوسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام من انقلابِ العصا حيَّةً وإحياءِ المَوتىٰ، فقيلَ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يامحمّدُ ﴿مُنذِرٌ﴾ مُخوِّفٌ لهم من سوءِ العاقبةِ، وما عليكَ

(١) هو سعيد بن المسيّب بن حَزَن المخزومي القرشي، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد، إذ كان يعيش من التجارة بالزيت ولم يأخذ عطاءً. وكان قد سمع من الامام علي بن الحسين عليه السلام وروى عنه، عدّه الشيخ الطوسي والبرقي أيضاً في أصحاب السجاد عليه السلام. أنظر طبقات ابن سعد: ج ٥ ص ٨٨، ورجال الخوئي: ج ٨ ص ١٣٢.

(٢) المغني عن حمل الاسفار للعراقي: ج ٣ ص ١٤٤.

إلّا الإتيانُ بما يَصِحُّ به أنَّك رسولٌ مُنذِرٌ، والآياتُ كلُّها متساويةٌ في حصولِ صحَّةِ الدعوىٰ بها ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ يَهدِيهم إلى الدينِ، ويَدعُوهُم إلى اللهِ بوَجهٍ من الهِدايةِ وبآيةٍ خُصَّ بِها، ولم يُجعَلِ الأَنبياءُ شِرْعاً[1] سَواءً في الآياتِ والمُعجِزاتِ.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾: ﴿مَا﴾ إمَّا موصولةٌ في ﴿مَا تَحْمِلُ﴾ و ﴿مَا تَغِيضُ﴾ و ﴿مَا تَزْدَادُ﴾ وإمَّا مصدريَّةٌ، فإن كانَتْ مَوصولَةً فالمَعْنىٰ: أَنَّهُ يَعلَمُ ما تَحمِلُه مِن الولَدِ علَىٰ أيِّ حالٍ هوَ من ذُكورةٍ وأُنوثةٍ وتَمامٍ وخِداجٍ[2] وحُسنٍ وقُبحٍ وَغيرِ ذَلكَ من الصفاتِ ﴿وَ﴾ يَعلَمُ ﴿مَا﴾ تَغيضُهُ ﴿الْأَرْحَامُ﴾ أي: تَنقُصُه، يُقالُ: غاضَ الماءُ وغِضتُهُ أنَا ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ أَي: تأْخُذُه زائداً، ومِمَّا تنقُصُه الرَحِمُ وتَزدادُهُ عدَدُ الولدِ، فإنَّ الرحِمَ يَشتمِلُ علَىٰ واحدٍ واثنين وثلاثةٍ وأَكثرَ، ومنه حدُّ الولدِ في أَنْ يكونَ تامّاً ومُخدجاً، ومنه مُدَّةُ الوِلادةِ. وإن كانَتْ مصدريَّةً فَالمَعنىٰ: أنَّه يَعلَمُ حِمْلَ كلِّ أُنْثَىٰ ويَعلَمُ غَيْضَ الأَرحامِ وازدِيادَها، لايَخفَىٰ علَيهِ شيءٌ من ذَلكَ، ويجوزُ أَنْ يُرادَ غُيوضُ مافي الأَرحامِ وزيادتُه، فأُسنِدَ الفعلُ إلى «الْأَرْحَام» وهوَ لِما فيها، علَىٰ أَنْ يَكونَ الفعلانِ غيرَ متعدِّيَينِ، ويَعضُدُه قولُ الحَسنِ: الغَيضوضَةُ: أَن تَضَعَ لِثَمانيةِ أَشهُرٍ أَو أَقلَّ مِن ذَلك، والازدِيادُ: أَنْ تَزيدَ علىٰ تِسعةِ أَشهُرٍ[3]، وعنه: الغَيضُ: أَنْ يَكونَ سِقطاً لِغيرِ تَمامٍ والازدِيادُ ماوُلِدَ لِتَمامٍ[4]، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ بِقَدَرٍ[5] وحدٍّ لايُجاوِزُه ولا يَقْصُرُ عنه.

﴿الْكَبِيرُ﴾ العظيمُ الشأْنِ الَّذي كُلُّ شيءٍ دونَه ﴿الْمُتَعَالِ﴾ المُستَعْلِي علىٰ كلِّ شيءٍ بقدرتِهِ، أَو الَّذي كبُرَ عن صفاتِ المخلوقينَ.

---

(١) الشِرعَةُ والشِرْعُ: مثل الشيء. (الصحاح: مادة شرع).

(٢) خَدَجَت الناقةُ تخدج خِداجاً: اذا ألقت ولدها قبل تمام الأيام. (الصحاح: مادة خدج).

(٣) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٥١. (٤) نفس المصدر السابق.

(٥) في بعض النسخ: مقدّر.

﴿سَارِبٌ﴾ أَي: ذاهبٌ في سَرْبِهِ، بالفتحِ أَي: في طريقِهِ ومذهبِهِ، يُقالُ: سَرَبَ في الأَرضِ سُروباً، والمعنىٰ: سَواءٌ عندَه مَنِ استَخفَىٰ أَي: طلَبَ الخَفاءَ[1] في مُختبَأ ﴿بِالَّيْلِ﴾ في ظلمتِهِ ومن يضطرِبُ في كلِّ وجه ظاهراً ﴿بِالنَّهَارِ﴾ يبصُرُ كلَّ أَحدٍ، والضميرُ في ﴿لَهُ﴾ راجعٌ إِلىٰ ﴿من﴾ والمعنىٰ: لمَن أَسرَّ ومن جَهَرَ، وَمنِ استَخْفَىٰ ومن سَرَبَ.

﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ أَي: جَماعاتٌ من الملائكةِ تعتقِبُ في حفظِه وكِلاءَتِهِ، والأَصلُ: مُعتَقِباتٌ، فأُدغِمَتِ التاءُ في القافِ، أَو مُفَعِّلاتٌ[2] من عقَّبَهُ: إِذا جاءَ علىٰ عَقِبِهِ، كما يقالُ: قفَّاهُ، لأَنَّ بعضَهم يُعقِّبُ بعضاً، أَو لأَنَّهم يعقِّبُونَ ما يتكلَّمُ به فيكتبُونَه ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ هما صفتانِ جَميعاً، وليس ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ بصلةٍ للحفظِ، كأَنَّه قيل: له معقِّباتٌ من أَمرِ ٱللهِ، أَو: يحفَظُونَهُ من أَجلِ أَمرِ ٱللهِ تعالىٰ أَي: من أَجلِ أَنَّ ٱللهَ أَمَرَهُم بحفظِهِ، والدليلُ عليه قِراءَةُ عليٍّ عليه السلام وابنِ عبَّاسٍ وجعفرِ بنِ محمَّدٍ الصَّادقِ عليه السلام: «لَهُ رَقِيبٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمُعَقِّباتٌ مِنْ خَلْفِهِ يَحفَظُونَهُ بِأَمْرِ ٱللهِ»[3]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافيةِ والنعمةِ ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الحالِ الجميلةِ بكثرةِ المَعاصِي ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ يلي أَمرَهُم ويدفعُ عنهم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ (١٣) لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (١٤) وَلِلَّهِ

---

(١) في نسخة: الاختفاء.

(٢) في بعض النسخ: معقّبات.

(٣) انظر التبيان: ج ٦ ص ٢٢٨، وتفسير القرطبي: ج ٩ ص ٢٩٣.

يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ (١٥) ﴾

﴿خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ لايجوزُ أَن يكونَ انتصابُهُما على المفعولِ له؛ لأَنَّهما ليسا بفعلِ فاعلِ الفعلِ المعلَّلِ إِلَّا أَن يكونَ علىٰ تقديرِ حذفِ مضافٍ، أَي: إرادةَ خوفٍ وطمَعٍ، أَو علىٰ معنىٰ: إخافةً وإِطماعاً، ويجوزُ أَن يكونَ انتصابُهما على الحالِ مِنَ ﴿ٱلْبَرْقَ﴾ كأَنَّه في نفسِهِ خوفٌ وطمَعٌ، أَو علىٰ: ذا خوفٍ وطمع، أَو من المخاطَبينَ أَي: خائِفِينَ وطامِعِينَ، ومعنى الخوفِ والطمعِ: أَنَّه يُخافُ عندَ لَمْعِ البرقِ من وقوعِ الصواعقِ ويُطْمَعُ في الغَيثِ، وقيلَ: يَخافُ المطرَ من له فيه ضررٌ كالمُسافرِ ومن له بيتٌ يَكِفُ[١] عليه، ويطمَعُ فيه من له نفعٌ فيه[٢]، ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ بالماءِ: يرفَعُها من الأَرضِ ويُجريها في الجوِّ.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾ أَي: سامِعُو الرعدِ من العبادِ حامِدِينَ له، يَقولونَ: سبحانَ ٱللهِ والحمدُ للهِ، وقيلَ: إِنَّ الرعد ملَكٌ موكَّلٌ بالسحابِ يزجُرُهُ بصَوتِهِ، فهو يسبِّحُ ٱللهَ ويَحْمَدُهُ[٣] ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أَي: يُسَبِّحُ الملائكةُ من هيبتِهِ وجَلالِهِ.

ولمَّا ذكَرَ سبحانَه مادلَّ علىٰ أَنَّه العالمُ القادرُ علىٰ كلِّ شَيءٍ قالَ: ﴿وَهُمْ﴾ يعني: الكُفَّارَ الَّذينَ أَنكرُوا آياتِهِ ﴿يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللهِ﴾ حيثُ يُنكِرونَ عَلَىٰ رَسولِه مايَصِفُه به مِن القُدرَةِ على البَعثِ والإِعادةِ ويتَّخذونَ له الشركاءَ والأَندادَ، فهذا جِدالُهم، وَ ﴿ٱلْمِحَالِ﴾: المُماحَلةُ وهي المُماكَرةُ والمُكايَدةُ، ومنه تَمحَّلَ لكذا: إذا تكلَّفَ استعمالَ الحِيلةِ واجتهَدَ فيهِ، ومَحَلَ بفلانٍ: إذا سَعَىٰ به إِلى السُلطانِ، ومنه

---

(١) وكف البيتُ: اذا قَطَرَ. (الصحاح: مادة وكف).

(٢) قاله قتادة. راجع التبيان: ج ٦ ص ٢٢٩ .

(٣) وهو قول ابن عباس وعكرمة وسلمة بن كهيل. راجع تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ١٨٧، وتفسير البغوي: ج ٣ ص ١١.

الحديثُ: «ولا تجعَلْهُ بنَا ماحِلاً مُصدَّقاً» يعني: القرآنَ، والمعنىٰ: أنَّه شديدُ المَكْرِ بأَعدائهِ، يأْتِيهم بالهَلاكِ من حيثُ لا يَشعُرُونَ.

﴿لَهُ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ معناهُ: أَنَّه سبحانَه يُدعَىٰ فَيستَجيبُ الدعـوةَ، فأُضـيفَتِ الـ﴿دَعْوَةُ﴾ إلى ﴿ٱلْحَقِّ﴾ لكونِها مختصَّةً بالحقِّ وبمَعْزِلٍ من البـاطلِ، وقـيلَ: إنَّ معناهُ: دعوةُ المدعوِّ الحقِّ الَّذي يسمَعُ ويُجيبُ وهو ٱللهُ سبحانه[1]، وعن الحَسنِ: الحقُّ: هو ٱللهُ، وكلُّ دعاءٍ إليهِ دعوةُ الحقِّ[2]، ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: والآلِهةُ الَّذينَ يدعُوهُمُ الكُفَّارُ من دونِ اللهِ ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ مِنْ طَلِبَاتِهِمْ ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ﴾ إلَّا استِجابةً كَاستِجابةِ باسطِ كَفَّيْهِ، أَي: كَاستِجابةِ ﴿ٱلْمَآءِ﴾ من بَسطَ كَفَّيْهِ إليهِ يطلُبُ منه أَن يبلغَ ﴿فَاهُ﴾، والماءُ جَمادٌ لا يَشعُرُ بِـبَسطِ كـفَّيهِ ولا بحاجتِهِ إليه، ولا يَقْدِرُ أَن يُجِيبَ دعاءَهُ ويَبْلُغَ فَاهُ، وقيلَ: معناه: أَنَّهم كمن أَرادَ أَن يَغْرِفَ الماءَ بيدَيهِ لِيَشْرَبَهُ فَيبسُطُهما ناشراً أَصابِعَهُ فـلم تَـلْقَ كَـفَّاه مـنهُ شـيئاً[3] ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: في ضَياعٍ لا جَدْوَىٰ فيهِ.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ أَي: يَنْقادونَ لإِحداثِ ماأَرادَهُ فيهم من أَفعالِهِ شَاؤُوا أَم أَبَوْا، ويَنقَادُ له[4] ﴿ظِلَٰلُهُم﴾ أَيضاً، حيثُ يتصَرَّفُ علىٰ مشيئَتِهِ في الامتدادِ والتقلُّصِ والفَيءِ والزوالِ.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَاضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ

---

(١) قاله ابن عباس. راجع تفسيره: ص ٢٠٦.
(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٥٢١.
(٣) قاله ابن عباس. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٢.
(٤) في بعض النسخ: لهم.

ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ (١٦) ﴾

﴿قُلْ﴾ يامحمَّدُ لهؤلاءِ الكفَّارِ: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومُدبِّرُهما؟ فإذا استعجَمَ[١] عَليهِم الجوابُ ولايُمكِنُهم أن يقولُوا: الأَصنامُ، فلَقِّنْهُم و ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، فإنَّهم لايَقدِرُونَ أن يُنكِرُوه ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم﴾ بعدَ أَن علِمْتُمُوهُ ربَّ السمَاوَاتِ والأَرضِ ﴿من دُونِهِ أَوْلِيَآءَ﴾ فجعَلتُمْ ماكان يجبُ أَن يكونَ سببَ التوحيدِ من علمِكُم وإقرارِكم سببَ الإِشراكِ ﴿لَايَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ﴾ أَي: لايَستطيعُونَ لها ﴿نَفْعاً وَلَاضَرّاً﴾ فكيفَ يَستطيعُونَه لغيرهم وقد آثرتمُوهُم على الخالقِ الرازقِ فما أَبينَ ضلالَكُم! ﴿أَمْ جَعَلُواْ﴾ بل أَجعَلُوا، وهي همزةُ الإِنكارِ ﴿خَلَقُواْ﴾ صفةٌ لِـ ﴿شُرَكَآءَ﴾، يعني: أَنَّهم لَمْ يتَّخِذُوا ﴿لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ خالِقينَ قد ﴿خَلَقُواْ﴾ مثلَ خَلْقِ ٱللَّهِ ﴿فَتَشَـٰبَهَ ... عَلَيْهِمْ﴾ خلقُ ٱللَّهِ وخلقُهُمْ حتَّىٰ يقولُوا: قَدَرَ هؤلَاءِ على الخَلقِ كما قَدَرَ ٱللَّهُ عليه فاستحَقُّوا العبادةَ، فنتَّخِذُهم له شركاءَ ونعبُدُهم كما عبدْنَا اللهَ، ولكنَّهم اتَّخذُوا له شركاءَ عاجزِينَ لايَقدِرُونَ علىٰ شيءٍ ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ لاخالِقَ سِواهُ، فلا يكونُ له شريكٌ في العبادةِ ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾ فِي الإِلهِيَّةِ ﴿ٱلْقَهَّـٰرُ﴾ لايُغالَبُ، ومَنْ سِواهُ مربوبٌ ومقهورٌ.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَايَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ

(١) استعجم عليه الكلام: اذا استبهم. (الصحاح: مادة عجم).

﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (١٨)﴾

هذا مثَلٌ ضَرَبَهُ ﴿ٱللَّهُ﴾ تعالىٰ للحقِّ وأَهلِهِ والباطلِ وأَهلِهِ، فمثَّلَ الحقَّ وأَهلَه بالماءِ الَّذي يُنْزِلُه ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فتَسِيلُ بِهِ ﴿أَوْدِيَةٌ﴾ الناسِ فيُحيوْنَ به ويَنتفِعُونَ منهُ بأَنواعِ المَنافعِ، وبالفلزِّ الَّذي ينتفعُونَ به في اتِّخاذِ الحُليِّ والآلاتِ المختلفةِ، وأَنَّ ذلك ماكثٌ في الأَرض باقٍ بقاءً ظاهراً، يثبتُ الماءُ في منافعِهِ ويبقىٰ آثارُهُ في العُيونِ والآبارِ والحُبوبِ والثمارِ الَّتي تَنبُتُ به، وكذلكالجواهرُ تَبْقَىٰ أَزمنةً طويلةً، وشَبَّهَ الباطلَ في سُرعةِ اضمحلالِه ووشكِ زوالِهِ وخُلوِّهِ من المنفعةِ بِزَبَدِ السيلِ الَّذي يَرْمِي بِهِ وبزَبَدِ الفلزِّ الَّذي يَطفُو فوقَهُ إِذا أُذِيبَ.

وقولُهُ: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ معناه: بِمقدارِها الَّذي عرَفَ ٱللَّهُ أَنَّه نافعٌ غير ضارٍّ، والفائدةُ في قَولِه: ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ كالفائدةِ في قَولِه: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ لأَنَّه جَمَعَ الماءَ والفِلِزَّ في النفعِ في قولِهِ: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فذَكَرَ وجهَ الانتفاع بما يُوقَد عليه مِنهُ ويُذابُ وهو الحِليَةُ والمَتاعُ، وقولُه: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ﴾ عِبارةٌ جامعةٌ لأَنواعِ الفِلِزِّ معَ إِظهارِ الكبرياءِ في ذكرِهِ علىٰ وجهِ التهاوُنِ بِهِ كما جاءَ في ذكرِ الآجُرِّ ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ (١)، وَ ﴿مِن﴾ لابتداءِ الغايةِ، أَي: ومنهُ يَنْشَأُ ﴿زَبَدٌ﴾ مِثْلُ زَبَدِ الماءِ، أو للتبعيض بمعنىٰ: وبعضُهُ زَبَدٌ، والرابي: العالي المُنتَفِخُ علىٰ وجهِ الماءِ، والجُفَاءُ: المتفرِّقُ، جَفَأَهُ السيلُ أَي: رَمَىٰ بِهِ، وجَفَأَتِ القِدْرُ بِزَبَدِها، وقُرِئَ: ﴿يُوقِدُونَ﴾ بالياءِ(٢)، أَي: يُوقِدُ الناسُ.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾ اللامُ متعلِّقةٌ بـ﴿يَضْرِبُ﴾ أَي: كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمثالَ

---

(١) القصص: ٣٨.

(٢) يظهر من العبارة أنّ المصنّف اعتمد القراءة بالتاء هنا.

للَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا وهم الْمؤمنُونَ ﴿وَ﴾ للَّذِينَ ﴿لَمْ يَسْتَجِيبُواْ﴾ وهمُ الكافرونَ، أي: هُما مَثَلا الفريقَينِ، وَ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ صفةٌ لمصدرِ ﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾ أي: استجابُوا الاستجابةَ الحُسنىٰ، وقولُه: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم﴾ كلامٌ مبتدأٌ في ذكرِ ماأُعِدَّ لغيرِ المستجيبينَ، وقيلَ: إنّ الكلامَ قد تمَّ عندَ قولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ ومابعدَهُ كلامٌ مُستأنَفٌ [١]، و ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مبتدأٌ خبرُهُ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ﴾، والمعنىٰ: لهم المَثُوبَةُ الحُسنى وهي الجنَّةُ، و ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ﴾ مبتدأٌ خبرُهُ ﴿لَوْ﴾ مع مافي حيِّزِهِ، و ﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ المناقَشةُ في الحسابِ، وعنِ النخعيِّ [٢]: أَن يُحاسَبَ الرجلُ بذُنوبِهِ كُلِّها: لايُغفَرَ منها شيءٌ [٣].

الصادقُ عليه السلام: «هو أَن لايُقبَلَ لهم حسنةٌ، ولايُغفَرَ لهم سيِّئةٌ» [٤].

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩) ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ (٢٠) وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ (٢١) وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٢) جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ

---

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٥٢٤.

(٢) هو إبراهيم بن يزيد بن الأسود النخعي المذحجي؛ أبو عمران، مولىً من أهل الكوفة، كان من أكابر التابعين صلاحاً وحفظاً للحديث، حُمل عنه العلم وهو ابن ثمان عشرة سنة، عدّه الشيخ الطوسي في رجاله من أصحاب علي عليه السلام، توفّي سنة ٩٦ هـ، وهو ابن ست وأربعين سنة. (طبقات ابن سعد: ج ٦ ص ٢٧٠، رجال السيد الخوئي: ج ١ ص ٣٥٦).

(٣) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ١٠٧.

(٤) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢١٠ ح ٣٨ و٣٩.

بَابٍ (٢٣) سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٤) ﴾

دخلتْ همزةُ الإنكارِ على الفاءِ لإنكارِ أن تَقعَ شُبهَةٌ بعدَ ماضُرِبَ من المثَلِ في أنَّ حالَ مَنْ عَلِمَ ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ فاستجابَ، بخلافِ حالِ الجاهلِ الَّذي لم يَستَبصِرْ فيَستَجيبَ، وبينَهُمَا من البَوْنِ مابينَ الزبَدِ والماءِ والخُبثِ والإبْريزِ[1] ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ الَّذين يعملون علىٰ قضايا عقولِهم فيَتفكَّرُونَ ويَستبصِرُونَ.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ﴾ مبتدأٌ وخبرُهُ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، ويجوزُ أن يكونَ صفةً لِـ ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ والأوَّلُ أوجَهُ ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من الأَرحامِ والقَراباتِ، ويدخُلُ فيهِ وَصْلُ قَرابةِ رسولِاللهِ صلى الله عليه وآله وقَرابةِ المُؤْمنينَ[2] الثابتةِ بسببِ الايمانِ، بالإحسانِ إليهم بِحَسَبِ الطاقةِ[3] والذبِّ عنهُم ونُصرَتِهم والنصيحةِ لهم وعيادةِ مَرضاهُم وحضورِ جنائزِهم، ومنه مراعاةُ حقِّ الخَدَمِ والجِيرانِ والرفقَاءِ في السفرِ ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أَي: يخافُونَ وعيدَهُ كُلَّهُ ﴿وَيَخَافُونَ﴾ خصوصاً ﴿سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ فيُحاسِبُونَ أَنفُسَهم قبلَ أَن يُحاسَبُوا.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على القيامِ بأَوامرِ ٱللهِ ومَشاقِّ التكليفِ، وعلَى المصائبِ في النفوسِ والأَموالِ، وعن معاصي ٱللهِ ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ لا لغرضٍ من الأَغراضِ الدنيويَّةِ، أَو ليقالَ: ماأَصبرَهُ وأَوقرَهُ ولئَلّا يَشمَتَ به الأَعداءُ، كقولِه:

وَتَجَلُّدي لِلشامِتِينَ أُرِيهِمُ ... أَنِّي لِرَيبِ الدهرِ لا أَتضعضعُ[4]

---

(١) الإبريز: الخالص. (الصحاح: مادة برز). (٢) في نسخة: قرابة أميرالمؤمنين عليه السلام.

(٣) في بعض النسخ: الطاعة.

(٤) البيت لأبي ذؤيب خويلد بن خالد المخزومي يرثي بنيه، وقبله:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لاتنفع

يقول: إنّ هذا التجلّد الذي أُريه به من نفسي انّما هو لدفع شماتةالشامتين فأُريهم بأنّي ←

﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾ من الحلالِ؛ لأَنَّ الحرامَ لا يكونُ رزقاً ولا يُسنَدُ إلى ٱللهِ ﴿سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾ يتناولُ النافلةَ؛ لأنَّها في السرِّ أفضلُ، فأمَّا الفرائضُ فالمجاهرَةُ بها أفضلُ؛ نفياً للتهمَةِ ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ يدفعُونَها، ومنهُ الحديثُ: «أَتبعِ السيِّئَةَ الحسنَةَ تَمحُها»[1]، وعن ابن عبَّاس: يَدْفَعُونَ بالحَسَنِ من الكلامِ مايَرِدُ عليهم مِن سَيِّئِ غيرِهم[2]، وعن الحسنِ: إذا حُرِمُوا أعطَوا، وإذا ظُلِمُوا عفَوا، وإذا قُطِعُوا وَصَلُوا[3] ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ عاقبةُ الدُنيا وهي الجنَّةُ؛ لأنَّها الَّتي أَرادَ ٱللهُ أَن تكونَ عاقبةَ الدنيا ومرجِعَ أَهلِها، وَ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ﴾ بدل من ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ جمعُ أَبَوَيْ كُلِّ واحدٍ منهُمْ، فكأَنَّهُ قيلَ: من آبائهم وأُمَّهاتِهِمْ، جَعَلَ سبحانَهُ من ثوابِ المُطيعِ سُرورَهُ بما يُريهِ في أَهلِهِ وأَنسابِهِ وذُرِّيَّتِهِ وإلحاقِهِم به في الجنَّةِ ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ من أَبوابِ قُصورِهِمْ. ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم﴾ في مَوضعِ الحالِ؛ لأَنَّ المعنىٰ: قائلين: سلامٌ عليكُم أَو مسلِّمين، وتَعلُّقَ قولِه: ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ بمحذوفٍ تقديرُهُ: هذا بِما صبرتُمْ، يَعْنُونَ: هذا الثوابُ بما صَبَرتُم، أَي: بسببِ صبرِكُم، أَو بدَلُ مااحتمَلْتُم من مشاقِّ الصبرِ، والمعنىٰ: لئن تَعِبتُمْ في الدنيا لقَدِ ٱسْتَرَحْتُم الساعةَ، ويجوزُ أَن يَتعلَّقَ بـ ﴿سَلَـٰمٌ﴾ أَي: نُسلِّمُ عليكُم ونُكرِمُكم بصَبرِكُم.

← لاأتخضع ولا أخشع لأجل حدثان الزمان الطارئ من حيث لاأشعر. ويذكر أنّ معاوية مرض واتّفق أن جاء وفد العراق وفيهم الإمام الحسن الزكي عليه السلام، فصاح معاوية: كحّلوني وزيّنوني وألبسوني العمامة، وحاول أن يظهر القوة فأنشد له البيت الثاني، فأجابه عليه السلام بغتة بالأول. أُنظر كتاب العين: مادة (ضع)، ولسان العرب: مادة (ضعع).

(١) مسند أحمد: ج ٥ ص ١٥٣ و١٥٨ و٢٢٨ و٢٣٦.

(٢) تفسير ابن عباس: ص ٢٠٧. (٣) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ١٦.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ (٢٥) ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ (٢٦) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ (٢٨) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ (٢٩) كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠)﴾

﴿مِن بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ﴾ أي: من بعدِ ما أوثقوهُ بهِ منَ الاعترافِ والقبولِ ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بمَعَاصِي ٱللهِ وظلمِ عبادِهِ وإخرابِ بلادِهِ ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: عذابُ النارِ.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: ٱللهُ وحدَهُ هو يَبسُطُ الرزقَ وَيقدِرُه دونَ غيرِه، وهو الَّذي بَسَطَ رزقَ قريشٍ ﴿وَفَرِحُوا۟﴾ بمَا بَسطَ لهم مِنهُ فَرَحَ بَطَرٍ لافَرَحَ سُرُورٍ بفضلِ اللهِ وإنعامِهِ عليهم، ﴿وَ﴾ ليْسَتْ هذهِ ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى﴾ جَنْبِ نعيمِ ﴿ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ﴾ أي: شيءٌ قليلٌ يُتمتَّعُ بِهِ كعُجالَةِ الراكبِ ثمَّ يَفْنَىٰ ويَضمحِلُّ، وخَفِيَ عليهم ذلكَ حتَّىٰ آثَرُوهُ على النعيمِ الدائمِ.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ هو جارٍ مجرى التعجُّبِ من قولِهِم، مع كثرةِ آياتِهِ الباهرةِ الَّتي لم يُؤْتَها نبيٌّ قبلَهُ، وكفىٰ بالقرآنِ وحدَهُ آيةً مُعجِزَةً، فإذا لم يَعْتَدُّوا بها كانَ موضِعاً للتعجُّبِ، فكأنَّهُ قيل لهم: ماأَشَدَّ عِنادَكُم! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ مِمَّن كانَ مثلَكُم في التصميمِ على الكفرِ فلا سبيلَ إِلىٰ

اهتِدائهم وإن أُنزلَتْ كُلُّ آيةٍ ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ﴾ كَانَ علىٰ خِلافِ صفتِكُم، ومعنى الإنابةِ: الإقبالُ على الحقِّ، والدخولُ في نوبةِ الخيرِ.

وَ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بدلٌ مِن ﴿مَنْ أَنَابَ﴾، ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بِذكرِ رَحمةِ ٱللهِ ومغفرتِهِ.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مبتدأٌ و ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ خبرُهُ، وطُوبَىٰ: مِن طَابَ، مصدرٌ كبُشرَىٰ وزُلفَىٰ، ومعنىٰ طُوبَىٰ لكَ: أَصَبْتَ خيراً وطِيباً، واللامُ للبيانِ، مثلُها في: سقياً لك، والواوُ في «طُوبَىٰ» منقلِبَةٌ عن ياءٍ لضمَّةِ ماقبلَهَا، كواوِ مُوقِنٍ ومُوسِرٍ.

ورُوِيَ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وآله: «أَنَّ طُوبىٰ شجَرةٌ أَصلُها في دارِي وفرعُها علىٰ أَهلِ الجنَّةِ»(١).

وقالَ مرَّةً أُخرىٰ: «في دارِ عليٍّ» فقيلَ له في ذلك، فقالَ: «إِنَّ دارِي ودارَ عليٍّ في الجنَّةِ بمكانٍ واحدٍ»(٢).

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَي: مثلَ ذلك الإرسالِ ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يعني: أَرسلنَاكَ إرسالاً له فضلٌ علىٰ غيرِهِ من الإرسالاتِ ﴿فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ﴾ تَقَدَّمَتْها ﴿أُمَمٌ﴾ كثيرةٌ، فهي آخِرُ الأُمَمِ وأَنتَ خاتَمُ الأَنبياءِ ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ﴾ الكتابَ العظيمَ ﴿ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَ﴾ حالُ هٰؤُلاءِ أَنَّهُمْ ﴿يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الواسعِ الرحمةِ، فكفرُوا بِنعمتِهِ فِي إرسالِ مثلِكَ إليهم، وإنزالِ هذا القرآنِ المُعجزِ عليهم ﴿قُلْ هُوَ﴾ الرَّحمنُ ﴿رَبِّى﴾ وخالِقي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تعَالَىٰ عنِ الشركاءِ والأَندادِ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نُصرَتِي عليكم ﴿وَإِلَيْهِ﴾ مآبي، فيُثيبُني علىٰ مُصابَرَتِكُم ومُجاهَدَتِكُم.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ

(١ و٢) الكافي: ج ٢ ص ٢٣٩ ح ٣٠، الخصال: ج ٢ ص ٥٥٦، تفسير القرطبي: ج ٩ ص ٣١٧.

لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعاً وَلَايَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ لَايُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (٣١)
وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢)
أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ للهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَايَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللهُ فَمَالَهُ مِنْ هَادٍ
(٣٣) لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَالَهُم مِّنَ ٱللهِ مِن وَاقٍ (٣٤) ﴾

جوابُ ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ، والمعنىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَاناً سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ عن مَقارِّها، وزُعزِعَتْ عن أَماكِنِها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ حتَّى تَتصدَّعَ وتَشَقَّقَ قِطَعاً، وقيلَ: معناه: شُقِّقَتْ فجُعِلَتْ أَنهاراً وعُيوناً[1] ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فتَسْمَعُ وتُجِيبُ لكانَ هذا القرآنَ لِعِظَمِ قدرِهِ وجَلالةِ أَمرِهِ، وقيلَ: لَمَا آمنُوا بِهِ[2]، كقولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ ...﴾ الآية[3]. وعن الفَرّاءِ[4]: أَنَّه يَتَعَلَّقُ بما قبلَهُ، والمعنىٰ: وهم يكفُرُونَ بالرحمنِ ولو أَنَّ قرآناً سُيِّرَتْ به الجبالُ، وما بينَهُما اعتراضٌ[5] ﴿بَل للهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعاً﴾ بَل للهِ القدرةُ علىٰ كُلِّ شيءٍ، وهو قادرٌ على الآياتِ الَّتي اقترَحُوها

(١) حكاه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ١٩.
(٢) وهو قول الزجّاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ١٤٨.
(٣) الأنعام: ١١١.
(٤) هو أبو زكريا يحيىٰ بن زياد بن عبدالله الأسلمي الكوفي، كان فقيهاً عالماً بأيام العرب وأخبارها وأشعارها، عارفاً بالطبّ والنجوم، متكلّماً فيلسوفاً، وكان قد أخذ النحو من الكسائي، ولد بالكوفة وانتقل الى بغداد في أيام المأمون العباسي واتّصل به، ألّف كثيراً من المصنّفات، توفّي عام ٢٠٧ هـ في طريق مكة عن عمرٍ يناهز الثلاث وستون سنة. أنظر وفيات الأعيان لابن خلكان: ج ٥ ص ٢٢٥.
(٥) معاني القرآن: ج ٢ ص ٦٣.

لكنَّهُ لايَفعَلُ؛ لِما يعلَمُهُ من المصلَحةِ.

﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَسِ﴾ أي: أَفلَم يَعلَمْ، وهي لغةُ قومٍ مـن النَـخَعِ (١)، وقـيلَ: إنَّـما استُعمِلَ اليأسُ بمعنى العلمِ لتضمُّنِهِ معناه؛ لأَنَّ اليائسَ عـن الشـيءِ عـالمٌ بأنَّـه لايكونُ، كما ٱستُعمِلَ الرجـاءُ بـمعنى الخَـوفِ لذلك (٢)، ويـدُلُّ عـليهِ أَنَّ أهـلَ البيتِ عليهم‌السلام وابنَ عبَّاس وجماعةً من الصحابةِ والتابعينَ قَرَأوا: «أَفَلَمْ يَـتَبَيَّنْ» (٣) وهو تفسيرُ ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَسِ﴾، ويجوزُ أَن يكونَ المعنىٰ: أَوَلَم يَقْنَطْ عن إِيمانِ هَؤُلاءِ الكُفَّارِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بِـ ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللهُ لَهَدَى ٱلنَّـاسَ جَـمِيعاً﴾ ولهَـدَاهـم ﴿وَلَايَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾ من كُفرِهِم وسوءِ أَفعالِهِم ﴿قَارِعَةٌ﴾ أَي: داهيةٌ تَقْرَعُهُمْ من صُنوفِ المصائبِ في نفوسهم وأموالهم ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ القارعةُ ﴿قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللهِ﴾ وهو مـوتُهم أَوِ القـيامةُ، وقـيلَ: المـرادُ بالقارعةِ: سَرايَا النبيِّ صلى‌الله‌عليه‌وآله الَّتي كان يَبْعَثُها إِليـهم فـتُغِيرُ حـولَ مكَّـةَ وتـختطِفُ منهم (٤)، أَو: تَحُلُّ أَنتَ يامحمَّدُ بجيشِكَ قريباً مِنْ دارِهم كما حلَّ بـالحُدَيبِيَةِ (٥) حتَّىٰ يأْتِيَ وعدُ ٱللهِ وهو فتحُ مكَّةَ؛ لأَنَّـه سبحَانَه وعدَهُ ذلك.

---

(١) النَخَع ـ بفتح النون والخاء ـ: وهي قبيلة من العرب نزلت الكوفة، ومنها انـتشر ذكـرهم، وجدّهم جَسَر ـ بالفتح ـ ابن عمرو بن عُلّة بن جَلْد بن مالك بن أدد، سمّي النخع لأنّـه ذهب عن قومه. انظر الأنساب للسمعاني: ج ٥ ص ٤٧٣.

(٢) حكاه الزجّاج عن بعض أهل اللغة. راجع معاني القرآن: ج ٣ ص ١٤٩.

(٣) أُنظر الكشّاف: ج ٢ ص ٥٣٠، وتفسير القرطبي: ج ٩ ص ٣٢٠، والفريد في اعراب القرآن للهمداني: ج ٣ ص ١٣٨، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٣٩٢.

(٤) قاله ابن عباس وعكرمة، راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ١١٣، وتفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٠.

(٥) الحديبية: قرية متوسطة قريبة من مكة، سمِّيت ببئرٍ فيها عند مسجد الشجرة التـي بـايع رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله تحتها، وقال الخطّابي: سمِّيت بشجرة حدباء كانت في ذلك الموضع، وقـال محمد بن موسى الخوارزمي: اعتمر النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله عمرة الحـديبية وودع المشـركين لمـضي خمس سنين وعشرة أشهر للهجرة النبوية. أُنظر معجم البلدان للحموي: ج ٢ ص ٢٢٢.

والإملاءُ: الإمهالُ وأن يُتْرَكَ مَلاوَةً من الزمانِ في خَفْضٍ وأمنٍ كالبهيمةِ يُمْلَى لها في المَرْعَىٰ، وهذا وعيدٌ لهم.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ احتجاجٌ عليهم في إشراكِهِمْ باللهِ، يعني: أفاللهُ الَّذي هو رقيبٌ ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾ صالحةٍ أو طالحةٍ ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ يعلَمُ خيرَهُ وشرَّهُ، ويُعِدُّ لِكلٍّ جزاءَهُ، كمَنْ ليس كذلك؟ ويجوزُ أن يُقدَّرَ مايكونُ خبراً للمبتدأ ويُعطَفَ عليه ﴿وَجَعَلُواْ﴾ وتقديرُهُ: أفمن هو بهذِهِ الصفةِ لم يُوحِّدُوهُ وجعَلُوا له وهو ٱللهُ الَّذي يَستحِقُّ العبادةَ وحدَهُ ﴿شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: جعلْتُم له شُركاءَ فسمُّوهُم له مَنْ هُم، وأَنبِئوهُ بأسمائهم، ثُمَّ قالَ: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُۥ﴾ هي «أَمِ» المنقطعةُ، أي: بَل أَتُنَبِّئُونَه بشُركاءَ لَايَعْلَمُهُم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو العالمُ بما في السماواتِ والأَرضِ، فإذا لم يعلَمْهُم فإنَّهم ليسُوا بشيءٍ يَتعلَّقُ بِهِم العلمُ، والمرادُ: نفيُ أن يكونَ له شركاءُ، ونحوُهُ: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللهَ بِمَا لَايَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (١)، ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ بل أَتُسمُّونَهم شركاءَ بظاهرٍ من القولِ ليس له حقيقةٌ، وهذِهِ الأَساليبُ العجيبةُ في الاحتجاجِ تُنادِي بلسانٍ فصيحٍ أَنَّها ليست من كلامِ البشرِ ﴿وَصُدُّواْ﴾ قُرِئَ: بفتحِ الصادِ(٢) وضمِّها ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللهُ﴾ ومَنْ يَخذُلْهُ لعلمِهِ بأنَّه لايَهْتَدِي ﴿فَمَالَهُ مِنْ﴾ أحَدٍ يقدِرُ علىٰ هِدايتِهِ. ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتلِ والسبيِ وسائرِ المِحَنِ تلحَقُهم؛ عقوبةً لهم علىٰ كُفرِهِم ﴿وَمَالَهُم مِّنَ ٱللهِ مِن وَاقٍ﴾ أي: دافعٍ يدفعُ عنهم عذابَهُ.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ (٣٥) وَٱلَّذِينَ

(١) يونس: ١٨.

(٢) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٥٩.

ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ
قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ (٣٦)
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ
مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) ﴾

﴿ مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ صفتُها التي هي في غَرابةِ المَثَلِ، وهو مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ عندَ سيبويهِ[١]، أي: فيما نَقُصُّ عليكم مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ، وعندَ غيرِهِ[٢] الخبرُ: ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ كما تقولُ: صفةُ زيدٍ أَسْمَرُ، وعنِ الزجّاجِ: معناه: مثلُ الجنَّةِ جنَّةٌ تجري من تحتِها الأَنهارُ، علىٰ حذفِ الموصوفِ تمثيلاً لِما غابَ عنَّا بما نشاهِدُ[٣] ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ ﴾ كقولِهِ: ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾[٤]، ﴿ وَظِلُّهَا ﴾ دائمٌ لا يُنسَخُ كما يُنْسَخُ في الدُنيا بالشمس.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ وهُم: عبدُ ٱللهِ بنُ سَلامٍ[٥] وكعبٌ[٦] وأَصحابُهما ومَن أَسلَمَ من النصارىٰ وهم ثمانُونَ رجلاً: أَربعُونَ بنَجْرانَ واثنانِ وثلاثونَ بأَرضِ الحبشةِ وثمانيةٌ باليمَنِ ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾

---

(١) أنظر كتاب سيبويه: ج ١ ص ١٤٣.
(٢) كالفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص ٦٥.
(٣) معاني القرآن: ج ٣ ص ١٥٠.
(٤) الواقعة: ٣٣.
(٥) هو عبدالله بن سلام بن الحارث الاسرائيلي، ثم الانصاري، كان اسمه في الجاهلية: الحصين، فلمّا أسلم سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله بعبدالله، وهو أحد الأحبار أسلم عند قدوم النبي صلى الله عليه وآله المدينة، توفّي فيها سنة ٤٣ هـ أيام معاوية. انظر أسد الغابة: ج ٣ ص ١٧٦.
(٦) كذا ذكره غيره من أعلام التفسير كالزمخشري، ولعلّه ايراده لـ «كعب» من باب التمثيل من قبيل القضايا الحقيقية التي لايعتبر فيها وجود الموضوع خارجاً، أو هو من سهو القلم، وإلّا فالمعروف عن كعبٍ هذا وهو من كبار علماء اليهود في اليمن في الجاهلية، أنّه أدرك النبي صلى الله عليه وآله ولم يره، وكان إسلامه في خلافة أبي بكر أو عمر، ووفاته في خلافة عثمان سنة ٣٣ هـ، وهذا يعني انّ إسلامه جاء متأخّراً عن وقت نزول هذه الآية، إذ لم نجد ممّن أسلم قبل نزول هذه الآية وكان يهودياً واسمه كعباً على ماتشهد به كتب السير والتواريخ. راجع على سبيل المثال: أُسد الغابة للجزري: ج ٤ ص ٢٤٩، وتهذيب التهذيب لابن حجر: ج ٨ ص ٤٣٨.

أَي: ومن أَحزابِهم، وهُم كفَّارُهم المُتحزِّبونَ علىٰ رسولِ ٱللهِ بالعَداوةِ ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ ممَّا يخالِفُ أَحكامَهُم وغيرِ ذلك ممَّا حَرَّفُوه وبَدَّلُوه من الشرائعِ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ فيما أُنزِلَ إِليَّ بِـ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦ﴾ فإنكارُكُم له إنكارٌ لِعبادةِ ٱللهِ وتوحيدِهِ ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ﴾ خصوصاً لاأَدعُو إِلىٰ غيرِهِ ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إِلى غيرِهِ مَرجِعِي، فلا معنىً لإنكارِكُم وأَنتُم تَقولُونَ مثلَ ذلكَ.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلَ ذلكَ الإنزالِ ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾ مأْموراً فيه بعبادةِ ٱللهِ وتوحيدِهِ والدعوةِ إليه وإلىٰ دينِهِ ﴿حُكْماً عَرَبِيّاً﴾ حِكمةً عربيَّةً مُترجَمَةً بلسانِ العَرَبِ، وانتصابُهُ على الحالِ ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ في أُمورٍ يدعونكَ إِلىٰ أَن تُوافِقهم عليهَا ماهي إِلَّا أَهواءٌ وشُبَهٌ ﴿بَعْدَ﴾ ثُبوتِ ﴿ٱلْعِلْمِ﴾ عندك بالحججِ والدلائلِ والبيِّناتِ، لم يَنصُرْكَ ٱللهُ وخَذَلَكَ، فلا يَقِيكَ مِنهُ ﴿وَاقٍ﴾، وهذَا من بابِ الإلهابِ والتهييجِ والبعثِ للسامعينَ على الصلابةِ في الدينِ، والتثبُّتِ فيه من الزلَّةِ عندَ الشُبهةِ بعدَ الاستمساكِ بالحجَّةِ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُواْ ٱللهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ (٣٩) وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ (٤٠)﴾

كانُوا يُعَيِّرُونَ رسولَ ٱللهِ ﷺ بكثرةِ تَزَوُّجِ النساءِ، فقيلَ: إِنَّ الرسلَ قبلَهُ كانوا مثلَه ذَوِي أَزواجٍ وذرِّيَّةٍ ﴿وَمَا كَانَ﴾ لَهُمْ أَنْ يأْتوا بآياتٍ برأْيِهم وبما يُقترَحُ عليهم منها، والشرائعُ: مصالحُ تختلِفُ باختلافِ الأَوقاتِ والأَحوالِ، فَـ﴿لِكُلِّ﴾ وقتٍ حكمٌ يُكتَبُ على العبادِ، أَي: يُفرَضُ عليهم علىٰ مايقتضِيهِ استِصلاحُهم.

﴿يَمْحُواْ ٱللهُ مَا يَشَآءُ﴾ أَي: يَنسَخُ مايَستصوِبُ نسخَهُ ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بدلَهُ مايَرَى

المصلحةَ في إثباتِهِ أو يترُكُهُ غيرَ منسوخٍ، وقيلَ: يمحُو من ديوانِ الحَفَظَةِ مايشاءُ من ذُنُوبِ المُؤمنينَ فضلاً فيُسقِطُ عِقابَهُ ويترُكُ ذنُوبَ من يريدُ عِقابَهُ مُثبَتاً عَدْلاً[١]، وقيلَ: يمحُو بعضَ الخلائقِ ويُثبِتُ بعضاً من الأناسيِّ وسائرِ الحَيَوانِ والنباتِ والأشجارِ وصفاتِها وأحوالِها، فيمحُو من الرزقِ والأجلِ ويزيدُ فيهما ويمحُو السعادةَ والشقاوةَ ويُثبِتُهما[٢] ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أَصلُ كُلِّ كتابٍ وهو اللوحُ المحفوظُ؛ لأنَّ كُلَّ كائنٍ مكتوبٌ فيهِ.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ وكيفَما دارتِ الحالُ أَريناكَ ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى﴾ وعَدنا هؤلاءِ الكُفَّارَ من نُصْرةِ المُؤمنينَ عليهم، وتمكينِكَ منهم بالقتلِ والأسرِ واغتنامِ الأموالِ، أو تَوفَّيناكَ قبلَ ذلك ﴿فَإِنَّمَا﴾ يَجِبُ ﴿عَلَيْكَ﴾ تبليغُ الرسالةِ فحَسْبُ ﴿وَعَلَيْنَا﴾ حسابُهم لاعليكَ، نُجازيهِم وننتقِمُ منهم إمَّا عاجلاً وإمَّا آجلاً.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَامُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَاتَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ (٤٣)﴾

يريدُ: أَرضَ الكفرِ ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بما نَفْتَحُ على المسلِمينَ من بلادِهِم، فننقُصُ من بلادَ الحربِ ونَزيدُ في بلادِ الإسلامِ وذلك من آياتِ النصرِ، والمعنى: عليك البَلاغُ ولايَهُمَّنَّك ماوراءَ ذلك، فنحنُ نَكفيكَهُ ونُتِمُّ ماوَعَدْناكَ من الظفرِ وإعلاءِ كلمةِ الإسلامِ، وقيلَ: ننقُصُها بذَهابِ علمائها وخِيارِ أهلِها[٣]

(١) وهو قول الضحّاك. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ١١٨.
(٢) وهو قول عمر وابن مسعود. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٣.
(٣) قاله ابن عباس. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ١١٩.

﴿لَامُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ لَارادَّ لحكمِهِ، والمعقِّبُ: الَّذي يَكُرُّ على الشيءِ فيُبطِلُهُ، وهو جملةٌ في موضعِ الحالِ، كأَنَّهُ قيلَ: وَٱللهُ يحكم نافذاً حكمُهُ.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وَصَفَهُم بالمكرِ، ثُمَّ جعَلَ مكرَهُم كـ«لامكر» بالإضافة إِلىٰ مكرِهِ فقالَ: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعاً﴾، ثُمَّ فسَّرَ ذلك بقولِه: ﴿يَعْلَمُ مَاتَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، لأَنَّ منْ عَلِمَ ماتكسب كلُّ نفسٍ وأعدَّ لها جزاءَها فهو المكرُ كُلُّهُ؛ لأَنَّهُ يأتِيهم من حيثُ لايشعُرُونَ، وقُرِئَ: «ٱلْكَافِرُ»[١] والمرادُ بالكافِرِ: الجنسُ.

﴿كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً﴾ بمَا أَظْهَرَ من المعجزاتِ علىٰ نُبُوَّتِي ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ والَّذي عندَه علمُ القرآنِ وما أُلِّفَ عليهِ من النظمِ المُعجزِ، وقيلَ: ومَنْ هو مِن علماءِ أَهلِ الكتابِ الَّذينَ أَسلَمُوا، لأَنَّهُم يشهَدُونَ بنَعْتِهِ في كُتُبِهِم[٢]، وقيلَ: هو ٱللهُ عزَّ وجلَّ و﴿ٱلْكِتَـٰبِ﴾ اللوحُ المحفوظُ[٣]، وقيل: هو عليُّ بنُ أَبي طالب عليه السلام[٤].

الصادق عليه السلام: «إِيَّانا عَنَىٰ، وعليٌّ أَوَّلُنا وَأَفضَلُنا وخيرُنا بعدَ النبيِّ صلى الله عليه وآله»[٥].

۞ ۞ ۞

---

(١) وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٨٠.

(٢) قاله قتادة وسعيد بن جبير وروي عن ابن عباس. راجع التبيان: ج ٦ ص ٢٦٧، وتفسير القرطبي: ج ٩ ص ٣٣٥.

(٣) قاله الحسن ومجاهد والضحاك. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ١١٩.

(٤) روى القرطبي عن عبدالله بن عطاء أنّه قال لأبي جعفر عليه السلام: إنّ ناساً زعموا أنّ الذي عنده علم الكتاب عبدالله بن سلام، فقال: انّما ذلك علي بن أبي طالب عليه السلام. ثم قال القرطبي: وكذلك قال محمد بن الحنفية. راجع تفسير القرطبي: ج ٩ ص ٣٣٦.

(٥) الكافي: ج ١ ص ٢٢٩ ح ٦، تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٢٠ ح ٧٦، وفيهما عن الباقر عليه السلام.

سورةُ إبراهيم

مَكِّيَّةٌ إلَّا آيتَينِ[(١)]، إحدَىٰ وخَمسُونَ آيةً بَصرِيّ، اثنتانِ كوفيّ، عدَّ الكوفيُّ ﴿بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[(٢)] آيةً.

في حديثِ أُبيٍّ: «من قَرَأَ سورةَ إبراهيمَ أُعطِيَ من الأَجرِ عَشْر حسناتٍ بعدَدِ مَنْ عَبَدَ الأَصنامَ ومَن لم يَعْبُدْها»[(٣)].

الصادِقُ عليه السلام: «مَنْ قَرأَ سورةَ إبراهيمَ والحِجْرَ في ركعتَينِ جميعاً في كُلِّ جُمُعَةٍ لم يُصِبْهُ فقرٌ ولا جُنونٌ ولا بَلوى»[(٤)].

---

(١) قال الشيخ الطوسي: قال قتادة: هي مكية إلّا آيتين: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ الىٰ قوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾، وقال مجاهد: هي مكية وليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وهي اثنان وخمسون آية في الكوفي، وأربع في المدنيّين، وآية في البصري. انظر التبيان: ج ٦ ص ٢٦٩.

وقال الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ١٢٠: هي مكية كلّها في قول الحسن وعكرمة وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلّا آيتين منها مدنية وهي: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْراً﴾ والتي بعدها.

وقال الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٥٣٧: هي مكية إلّا آيتي ٢٨ و٢٩ فمدنيتان، وآياتها ٥٢، نزلت بعد سورة نوح.

(٢) الآية: ١٩.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٥٦٨ مرسلاً.

(٤) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٢٢ ح ١.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (١) ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُ مَافِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَـٰئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ (٣) وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٤)﴾

﴿مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من الضلالةِ إلى الهُدىٰ، ومنَ الكفرِ إلى الإيمانِ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتسهيلِهِ وتيسيرِهِ، مستعارٌ من الإذنِ الّذي هو تسهيلٌ للحِجابِ، والمرادُ: مايمنَحُهُم سبحانَه من التوفيقِ والأَلطافِ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ﴾ بدلٌ من قولِه: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بتكريرِ العاملِ ﴿ٱللَّهِ﴾ بالجرِّ عطفُ بيانٍ لـ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾؛ لأنَّه جَرىٰ مجرَى الأَعلامِ؛ لاختصاصِهِ بالمعبودِ الّذي تَحِقُّ له العبادةُ، كما غُلِّبَ النجمُ للثريّا، وقُرِئَ بالرفعِ (١) على «هُوَ ٱللَّهُ»، و «الوَيْلُ»: نقيضُ الوَأْلِ وهو النجاةُ، وهو ٱسمُ معنىً كالهَلاكِ، إلّا أنّه لايُشتَقُّ منه فعلٌ، إنّما يقالُ: «ويلاً له» فيُنصَبُ نَصْبَ المصادرِ، ثُمَّ يُرفَعُ رَفعَهَا لإفادةِ معنى الثباتِ فيقالُ: «ويلٌ له» كما يقالُ: سلامٌ عليك، والمعنىٰ: أنّهم يُولوِلُونَ ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ويَضِجُّونَ منه فيقُولُون: «ياويلاهُ» كقولِه تعالىٰ: ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾ (٢).

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ مبتدأٌ خبرُهُ ﴿أُوْلَـٰئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ﴾، ويجوزُ أَن

---

(١) قرأه نافع وابن عامر والمفضّل. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٨١.

(٢) الفرقان: ١٣.

يكونَ مجروراً صفةً لِـ «الْكَافِرِينَ» ومنصوباً على الذمِّ أو مرفوعاً علىٰ: أعني ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾، أو: هم ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾، والاستحبابُ: استفعالٌ من المحبَّةِ ومعناه: الإيثارُ ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ أَي: ويَطلُبونَ لسبيلِ ٱللهِ اعوجاجاً، وأن يَدُلُّوا الناسَ علىٰ أَنَّها سبيلٌ ناكبةٌ عن الحقِّ غيرُ مستويةٍ، والأَصلُ: «يَبْغُونَ لَهَا» فحُذِفَ الجَارُّ وأُوصِلَ الفعلُ ﴿فِى ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ﴾ أَي: ضَلُّوا عن طريقِ الحقِّ ووقعوا دونه بمراحلَ، ووَصْفُ الضلالِ بالبَعيدِ مجازٌ، وإِنَّما البعدُ في الحقيقةِ للضالِّ؛ لأَنَّه هو الَّذي يَتَباعَدُ عن الطريقِ، فهو نحوُ قولِهم: جَدَّ جِدُّهُ.

﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ أَي: بلغةِ قومِه ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أَي: لِيَفقَهُوا عنه مايَدعُوهم إِليه ﴿فَيُضِلُّ ٱللهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هو مثلُ قولِه: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [1] لأَنَّه سبحانَه لايُضِلُّ إِلَّا مَن يَعْلَمُ أَنَّه لن يُؤْمِنَ، ولايَهدِي إِلَّا مَن يَعْلَمُ أَنَّه يُؤْمِنُ، والمرادُ بالإِضلالِ: التخليةُ ومنعُ الأَلطافِ، والمرادُ بالهِدايةِ: التوفيقُ واللُّطفُ، فكان ذلك كِنايةً عن الكفرِ والإِيمانِ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ ٱللهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ (٨)﴾

---

(١) التغابن: ٢.

﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾ هي «أن» المُفسِّرَةُ؛ لأَنَّ الإرسالَ فيه معنَى القولِ، فكأَنَّه قالَ: أَرْسَلْنَاهُ وقُلنَا له: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾، ويجوزُ أَن تكونَ «أن» الناصبة للفعلِ والتقديرُ: بأَن أَخرِجْ قومَكَ، ويجوزُ أَن يُوصَلَ «أن» بفعلِ الأَمرِ؛ لأَنَّ الغرضَ وصلُها بما يكونُ معه في تأويلِ المصدرِ وهو الفعلُ، والأَمرُ وغيرُهُ سَواءٌ في الفعليَّةِ ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللهِ﴾ أَي: وأَنذِرْهُم بوقائعِ ٱللهِ الواقعةِ على الأُممِ قبلَهُم، ومنهُ: «أَيَّامُ العربِ» لحُرُوبِها ومَلَاحِمِهَا، كيومِ بُعاثٍ[1] ويومِ النسارِ[2] ويومِ الفِجارِ[3] ونحوِها، وعن ابنِ عبَّاس: هي نَعْمَاؤُهُ وبلاؤُهُ[4] ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ يَصبِرُ علىٰ بلاءِ ٱللهِ ﴿شَكُورٍ﴾ يشكرُ نِعَمَهُ.

﴿إِذْ أَنجَـٰكُم﴾ ظرفٌ لِلنعْمَةِ بمعنى الإنعامِ، أَي: إنعامَه ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ذلكَ الوقتَ، ويجوزُ أَن يكونَ بدلاً من ﴿نِعْمَةَ ٱللهِ﴾ أَي: ﴿ٱذْكُرُواْ﴾ وقتَ إنجائكُم وهو بدلُ الاشتمالِ. ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ من جملةِ ما ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ أَي: وَٱذكُرُوا حينَ تَأَذَّنَ رَبُّكُم، وتأَذَّنَ وآذنَ بمعنىً، مثلُ تَوعَّدَ وأَوعَدَ وتَفَضَّلَ وأَفضَلَ، ولابدَّ في تفعَّلَ من زيادةِ معنىً ليس في «أَفعَلَ»، كأَنَّه قالَ: وإذْ آذَنَ ربُّكم إيذاناً بليغاً

(١) وبُعاث ـ بضم الباء ـ: موضع في نواحي المدينة على ليلتين منها، كانت به وقائع بين الأوس والخزرج في الجاهلية. راجع تفاصيل هذه الوقائع في كتاب أيام العرب في الجاهلية: ص ٧٣ ـ ٨٤.

(٢) النسار ـ بكسر النون ـ: اسم موضع، وقيل: هي جبال صغار، وقيل: هو ماء لبني عامر، وقيل غير ذلك، كانت عنده وقعة بين الرباب وبين هوازن وسعد بن عمرو بن تميم. راجع تفصيل هذه الوقعة في أيام العرب قبل الاسلام لأبي عبيدة: ج ٢ ص ٥٢٧ ـ ٥٤٢.

(٣) وأيام الفِجار عدّة، فأوّلها مابين كنانة وهوازن أثر حادثة حدثت في سوق عكاظ، وثانيها مابين قريش وبني عامر في سوق عكاظ أيضاً، وثالثها مابين قريش وكنانة كلّها وبين هوازن. أُنظر تفاصيلها في أيام العرب قبل الاسلام لأبي عبيدة: ص ٥٠٣.

(٤) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٢ ص ٥٤٠.

ينتفي عندَهُ الشكوكُ، والمعنىٰ: وإذ تأذَّنَ رَبُّكم فقالَ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ ماخُوِّلْتُم(١) من نعمةِ الإنجاءِ وغيرِها ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمةً إلىٰ نِعمةٍ ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ وغَمَطْتُم(٢) ماأنعمتُ به عليكُم ﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ لِمَنْ كَفَرَ نِعْمَتِي.

﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَ﴾ الناسُ جَمِيعُهُم فمضرَّةُ كُفرانِكُم عائدةٌ عليكم، وَ ﴿ٱللَّهُ﴾ غَنِيٌّ عَنْ شُكرِكُم ﴿حَمِيدٌ﴾ مستوجبٌ للحمدِ بكثرةِ أَنعُمِهِ وإِن لم يَحمَدْهُ حامِدٌ.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (١٠)﴾

﴿وَٱلَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ مبتدأٌ وخبرُهُ ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وهي جملةٌ اعتراضيَّةٌ، أَو: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في محلِّ جرٍّ عطفاً علىٰ ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾، وَ ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ اعتراضٌ، والمعنىٰ: أنَّهم من الكثرةِ بحيثُ لايَعلَمُ عددَهُم إلَّا ٱللهُ، وكانَ ابنُ مسعودٍ إذا قَرَأَ هذهِ الآيَةَ قالَ: كَذِبَ النسَّابونَ(٣)، وقيلَ: إنَّ بينَ عدنانَ(٤) وإسماعيلَ ثلاثينَ أباً لايُعرَفُونَ(٥) ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أَي: فعضُّوا علىٰ

(١) خوّله المال: أعطاه أياه. (لسان العرب: مادة خول).

(٢) غمِطَ وغَمَطَ النعمة يغمِطَها غمطاً: أي بطره وحقَرَه. (الصحاح: مادة غمط).

(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٥٤٢.

(٤) وعدنان هو أحد من تقف عندهم انساب العرب، والمؤرّخون متّفقون علىٰ أنّه من أبناء اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام، تقدّم تفصيله في ج ١ ص ٤٨ فراجع.

(٥) قاله ابن عباس. راجع الكشّاف: ج ٢ ص ٥٤٢.

أصابعِ أَيدِيهِم من شدَّةِ الغيظِ والضجرِ لِمَا جاءَت به الرُسُلُ، كقولِهِ: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ (١)، أَو أَشارُوا بأَيديهِم إِلىٰ أَلسِنَتِهم وَمانَطَقتْ بِه مِن قولِهِم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أَي: هذا جوابُنا لَكُم لَيسَ عندَنا غيرُهُ إِقناطاً لَهُم منَ التصديقِ، أَو وضَعُوا أَيديَهُم علىٰ أَفواهِهِمْ يَقولُونَ لِلأَنبياءِ: اسكُتُوا، وقيلَ: الأَيدِي جَمعُ يدٍ وهي: النعمةُ، بمعنى الأَيادِي، أَي: رَدُّوا نِعَمَ الأَنبياءِ الَّتي هي أَجلُّ النِعَم من مَواعِظِهم والشرائعِ الَّتي أُوحِيَتْ إِليهم في أَفواهِهم، لأَنَّهم إِذا لَم يَقبلُوها فكأَنَّهم رَدُّوها في أَفواهِهم ورجَعُوهَا إِلىٰ حيثُ جاءَتْ منهُ على طريقِ المَثَلِ (٢) ﴿شَكٍّ ... مُرِيبٍ﴾ مُوقِعٍ في الريبةِ، أَو ذي رِيبةٍ.

﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ دخلَت همزةُ الإِنكارِ على الظرفِ لأَنَّ الكلامَ في المَشكوكِ فيه، وأَنَّه لايحتملُ الشكَّ لافي الشكِّ ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ أَي: لأَجلِ المَغفرةِ، كما تَقُولُ: دعوتُهُ ليأكُلَ معي، أَو يَدعُوكم إِلى الإِيمانِ لِيَغفِرَ لَكُمْ ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَي: إِلىٰ وقتٍ بيَّنَ مِقدارَهُ وسَمَّاهُ يُبَلِغُكُمُوهُ: إِن آمَنتُم وإِلَّا عاجَلَكم بالهَلاكِ قَبلَ ذلكَ الوقتِ ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أَي: ماأَنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لافضلَ لَكُم علَينا، فلِمَ خُصِّصْتُم بالنبوَّةِ؟ ﴿بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحُجَّةٍ واضحةٍ، أَرادوا بذلكَ مااقترحُوهُ منَ الآياتِ تعنُّتاً (٣) وعِناداً.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَاكَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَـٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَالَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا

---

(١) آل عمران: ١١٩.

(٢) قاله مجاهد وقتادة. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ١٢٥.

(٣) في نسخة: بغياً.

وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾

﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ تسليمٌ لقولِهم، يَعْنُونَ: أنَّهم مِثلُهم في البَشريَّةِ وحدَها ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ بالنبوَّةِ، ولا يَخُصُّهم بتلك الكَرامةِ إلَّا لخَصائصَ فيهم ليسَت في أبناءِ جنسِهم ﴿وَمَا﴾ صحَّ ﴿لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم﴾ بالآيةِ الَّتي اقترَحتُموها ﴿إِلَّا﴾ بمشيئةِ ﴿ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أمرٌ مِنْهُم للمُؤْمنينَ كافَّةً بالتوكُّلِ وقَصَدُوا بذلكَ أنفُسَهم، أي: ومِنْ حقِّنا أن نَتوكَّلَ على ٱللهِ في الصبرِ علىٰ مُعاداتكم وعِنادِكم، وأيُّ عُذرٍ ﴿لَنَآ﴾ فِي ﴿أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ﴾ فَعلَ بنا مايُوجِبُ توكُّلَنا عليهِ، وهوَ التوفيقُ لِهدايةِ كلٍّ واحدٍ مِنَّا إلى السبيلِ الَّذي يجبُ عليهِ سُلوكُه في الدينِ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ (١٨) ﴾

أي: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ﴾ بلادِنا، إلَّا أن ترجعوا إلىٰ أديانِنا ومذاهبِنا ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ حكايةٌ تقتضي إضمارَ القولِ أو أُجرِيَ الإيحاءُ مَجرَى القولِ، والمرادُ بـ«الأَرْض»: أرضُ الظالمينَ وديارُهم.

وفي الحديثِ: «مَنْ آذىٰ جارَهُ ورَّثَهُ ٱللّٰهُ دارَه»[١].

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ ماقضَى ٱللّٰهُ به من الهَلاكِ لِلظالمين[٢] وإسكانِ المُؤْمنينَ ديارَهُم، أي: ذلك الأمرُ حقٌّ ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي: مَوقِفِي وهو موقِفُ الحسابِ؛ لأنّه موقِفُ ٱللهِ الّذي يقِفُ فيه عبادَهُ، أو علىٰ إقحامِ المقام.

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ واستَنْصَرُوا ٱللهَ علىٰ أعدائهم، أو استَحْكَمُوا ٱللهَ وسأَلوه القضاءَ بينَهُم، من الفُتاحَةِ وهي الحكومةُ، ومنه: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾[٣]، وهو عطفٌ علىٰ ﴿أَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾، ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ معناه: فنُصِرُوا وظَفَرُوا وَخَابَ كُلُّ جبّارٍ عنيدٍ وهُم قومُهم. ﴿من وَرَآئِهِ﴾ من بينِ يدَيْ هذا الجبّارِ نار ﴿جَهَنَّمُ﴾ يُلْقَىٰ فيها مايُلقَىٰ ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ هو عطفُ بيانٍ، كأنّه قالَ: وَيُسقَىٰ من ماءٍ، فأبهَمَهُ إبهاماً ثُمَّ بيَّنَهُ بقولِهِ: ﴿صَدِيدٍ﴾ وهو مايسيلُ من جُلودِ أهلِ النارِ من الدمِ والقيحِ. ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ يتكلَّفُ جَرْعَهُ ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ دخَلَ «كادَ» للمبالغَةِ، أي: ولا يُقارِبُ أن يُسيغَهُ فكيفَ يكونُ الإساغةُ، كقولِه: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾[٤] أي: لم يقربْ من رؤيتِها فكيفَ يَراها ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ كأنَّ أسبابَ الموتِ قد أحاطَت بهِ من كُلِّ الجهاتِ ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ فيستريحَ ﴿وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: ومِن بينِ يدَيهِ عذابٌ أشَدُّ ممّا قبلَهُ وأغلَظُ.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ مبتَدأٌ محذوفُ الخبرِ عندَ سيبويهِ[٥]، والتقديرُ: فيما نَقُصُّ عليكُم مثَلُ ٱلّذينَ كفَرُوا، وقولُهُ: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ علىٰ

---

(١) رواه الزمخشري الكشّاف ج ٢ ص ٥٤٥.

(٢) في بعض النسخ: إهلاك الظالمين.

(٣) الأعراف: ٨٩.

(٤) النور: ٤٠.

(٥) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٥٤٧.

تقديرِ جوابِ سائلٍ يقولُ: كيفَ مثلُهم؟ فقيلَ: أَعمالُهم كرمادٍ، أَو يكونُ ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ بدلاً من ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ والتقديرُ: مَثَلُ أعمالِ ٱلَّذينَ كفروا ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ فذَرَتْهُ وسَفَتْهُ ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ جعَلَ العَصْفَ لليومِ وهو لما فيهِ، كما تقولُ: يومٌ ماطِرٌ، و ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ هي: المكارِمُ الَّتي كانَت لهم من صلةِ الأَرحـامِ وعتقِ الرقابِ وإِغاثةِ الملهوفينَ وإكرامِ الأَضيافِ وغيرِ ذلك من صنائِعِهم، شُبِّهَت في حُبُوطِها وذَهَابِها هباءً منثوراً لِبنائها علىٰ غيرِ أَساسٍ مـن مـعرِفَةِ ٱللهِ تـعالىٰ والإيمانِ بهِ برمادٍ طيَّرتهُ الريحُ العاصِفُ ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يومَ القيامةِ مـنها ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ كما لا يُقْدَرُ من الرمادِ المُطَيَّرِ علىٰ شيءٍ لا يَرونَ بشيءٍ منها ثواباً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِـٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُـذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللهِ مِن شَىْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ سَـوَآءٌ عَـلَيْنَآ أَجَـزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١)﴾

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالحكمةِ والغرضِ الصحيحِ ولم يَخلُقْهما عَبَثاً ولا شهوةً، وقُـرِئَ: «خَالِقُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ»[١] ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أَي: يُعدِمْكُم ﴿وَ﴾ يَخلُق مكانَكُم خَلْقاً آخَرينَ. ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللهِ﴾ بممتنعٍ متعذِّرٍ، بل هو عـليه هـيِّنٌ يسيرٌ؛ لأَنَّهُ قادرٌ لذاتِهِ، لا اختصاصَ له بمقدورٍ دونَ مقدورٍ.

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ ويبرُزُونَ يومَ القيامةِ للهِ، أَي: يَظْهَرُونَ من قُبورِهم ويَخرُجُونَ منها لحكمِ ٱللهِ وحِسابِهِ، و ﴿ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾: الأَتباعُ والعوامُّ، وٱلَّذِينَ ﴿ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾: سادَتُهم وكُبراؤُهمُ الَّذينَ ٱستَتبَعُوهُم واستَغوَوْهُم وصَدُّوهُم عـن اتِّـباعِ الأَنـبياءِ

(١) قرأه حمزة والكسائي. راجع التبيان: ج ٦ ص ٢٨٦.

واستماعِ كلامِهِم، و «التَبَعُ»: جمعُ التابعِ، مثلُ: خادمٍ وخَدَمٍ وغائبٍ وغَيَبٍ ﴿قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ﴾ أي: لو هَدَانا اللهُ إلىٰ طريقِ الخَلاص مِن العِقابِ لهديناكم إلىٰ ذلك ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ مُستَوِيانِ علينا الجزَعُ والصبرُ ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: مَنجىً ومَهرَبٍ.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ (٢٣)﴾

يقولُ ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ وهو إبليسُ، يَقومُ خطيباً في الأَشقياءِ من الجِنِّ والإِنسِ إذا ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: قُطِعَ وفُرِغَ من الأمرِ وهو الحسابُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو البعثُ والجزاءُ على الأَعمالِ فوَفَىٰ لكم بمَا وَعَدَكُم ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ خِلافَ ذلك ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ ولم أُوفِ لكُم بما وَعَدْتُكم ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ﴾ أَي: تسلُّطٍ وقهرٍ، فأَقسِرَكُم على الكفرِ والمعاصِي وأُكرِهَكُم عليها ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ إلَّا دعائي إيَّاكم إلى الضلالةِ بوَسْوَسَتِي وتَزيينِي، وليسَ الدعاءُ من جنسِ السلطانِ، ولكنَّهُ كقولِهِم: ماتَحِيَّتُهم إلَّا الضربُ ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ حيثُ اغترَرْتُم بِي وأَطَعْتُمونِي إذ دَعَوْتُكم ولم تُطيعُوا ربَّكُم إذ دَعَاكُم ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ لايُنجِي بعضُنا بعضاً من عذابِ ٱللَّهِ ولايُغيثُهُ، والإِصراخُ: الإِغاثةُ، و «مَا» في ﴿بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾ مصدريَّةٌ، يعني: ﴿كَفَرْتُ﴾ اليومَ بإِشراكِكُم إيَّاي ﴿مِن قَبْلُ﴾ هذا اليومِ أي: في الدنيا، ونحوُهُ:

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ (١)، ومعنىٰ كُفرِهِ بإشراكِهم إيَّاهُ: تبرُّؤُهُ منهُ واستنكارُهُ له، وقيلَ: تعلَّقَ ﴿مِن قَبْلُ﴾ بـ ﴿كَفَرْتُ﴾ (٢)، و «ما» موصولةٌ أي: كفرتُ من قبلُ حين أبيتُ السجود لآدمَ بالَّذي أشركتُمونيهِ وهو ٱللهُ جَلَّ جَلالُه، تقولُ: شَرِكْتُ زيداً، ثُمَّ تقولُ: أَشْرَكَنِيهِ فلانٌ أي: جعَلَني له شريكاً، وهذا آخِرُ قولِ إبليسَ، وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ قولُ ٱللهِ عزَّوجلَّ، ويحتمِلُ أن يكونَ من جُملةِ قولِ إبليسَ.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ (٢٤) تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَالَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَايَشَآءُ (٢٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ (٣٠)﴾

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً﴾ أي: اعتمَدَ مثلاً ووضعَهُ، وَ ﴿كَلِمَةً﴾ منصوبةٌ بفعلٍ مُضمَرٍ، أي: جعلَ ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، وهو تفسيرٌ لقولِهِ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً﴾ كما تقولُ: أكرَمَ الأميرُ زيداً: كساهُ حُلَّةً وحمَلَهُ علىٰ فرسٍ، ويجوزُ أن يَنْتصِبَ ﴿مَثَلاً﴾ وَ ﴿كَلِمَةً﴾ بِـ ﴿ضَرَبَ﴾ أي: ضَرَبَ كلمةً طيِّبةً مثلاً، بمعنىٰ: جعلَها مثلاً، ثُمَّ قالَ: ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ علىٰ أنَّها خبر مبتدأ محذوف، أي: هي كشجرةٍ طيِّبةٍ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾

(١) فاطر: ١٤.

(٢) حكاه الزمخشري في الكشاف: ج ٢ ص ٥٥١.

في الأَرضِ: ضاربٌ بعُرُوقِهِ فيهَا ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أَي: في جهةِ العُلوِّ والصعودِ، أَي: وفُرُوعُها، على الاكتفاءِ بلفظِ الجنسِ، والكلمةُ الطيِّبةُ: كلمةُ التوحيدِ[١]، وقيلَ: هي كُلُّ كلمةٍ حسنةٍ كالتسبيحةِ والتحميدةِ والتوبةِ والاستِغفارِ[٢]، وأَمَّا الشجرةُ: فكُلُّ شجرةٍ مُثمرةٍ طيِّبةِ الثمارِ كالنخلةِ والتينِ والرمّانِ وغيرِ ذلكَ، وعن ابنِ عبَّاس: شجرةٌ في الجنَّةِ[٣].

وعن الباقرعليه‌السلام: «الشجرةُ: رسولُ ٱللهِ صلى‌الله‌عليه‌وآله، وفرعُها: عليٌّ عليه‌السلام، وعنصر[٤] الشجرةِ: فاطمةُ عليها‌السلام، وثمرُها: أَولادُهَا، وأَغصانُها[٥] وورقُها: شيعتُهَا[٦]»[٧].

وعنِ النبيِّ صلى‌الله‌عليه‌وآله: «أَنا شَجَرةٌ، وفاطمةُ فَرعُها، وعليٌّ لِقاحُها، والحسنُ والحسينُ ثمرُها، وشيعتُنا أَوراقُها»[٨].

﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ﴾ تُعطِي ثَمرَها كلَّ وقتٍ وقَّته اللهُ لإِثمارِها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بتَيسيرِ خالِقها وتكوينِه ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ كمَثلِ شَجَرةٍ، أَي: صفتُها كصفتِها، والكلمةُ الخَبيثةُ: كلمةُ الشركِ، وقيلَ: كلُّ كلمةٍ قبيحةٍ[٩]، وأَمَّا الشجَرةُ الخبيثةُ: فكلُّ شجرةٍ لايَطيبُ ثمرُها كشجرةِ الحَنْظَلِ والكَشُوثِ[١٠].

---

(١) وهو قول ابن عباس. راجع تفسيره: ص ٢١٣.

(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٥٥٣.

(٣) حكاه عنه الشيخ في التبيان: ج ٦ ص ٢٩١.

(٤) في نسخة: غصن.

(٥) ليس في بعض النسخ لفظة: «وأغصانها».

(٦) في بعض النسخ: شيعتنا.

(٧) تفسير القمّي: ج ١ ص ٣٦٩، معاني الأخبار: ص ٤٠٠ ح ٦١.

(٨) أمالي الطوسي: ج ٢ ص ١٨ ح ٢٠، تاريخ ابن عساكر: ج ٤ ص ٣٢١.

(٩) حكاه الزمخشري في الكشاف: ج ٢ ص ٥٥٣.

(١٠) الكشُوث: نبت يتعلّق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بِعِرقٍ في الأرض. (الصحاح: مادة كشث).

وعن الباقر عليه السلام: «أنّها بنو أُميّة»[١].

﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ أي: استُوصِلَتْ، وهيَ في مقابَلةِ قولِه: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾، ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: استِقرارٍ، يُقالُ: قَرَّ قَراراً مثلُ: ثَبتَ ثَباتاً، شُبِّهَ بها القولُ الَّذي لَم يُعضَدْ بحجَّةٍ فهو داحِضٌ غيرُ ثابتٍ يَضمحِلُّ عن قريبٍ، ونحوُه: الباطلُ لَجْلَجٌ[٢].

والْقَوْل ﴿ٱلثَّابِت﴾ الَّذي ثَبَتَ بالحجَّةِ والبُرهانِ في قلبِ صاحِبه وتمكَّنَ فيه واطمأنَّت إليهِ نفسُه، وتثبيتُهم به في الدُنيا أنّهم إذا فُتِنُوا في دينِهم لم يَزِلُّوا ﴿وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ أنّهم إذا سُئِلُوا في القبرِ عن مُعتَقَدِهم ودينِهم ونبيِّهم يقولُ كلٌّ منهم: ٱللهُ ربِّي.وديني الإسلامُ ونبيِّي محمَّدٌ صلى الله عليه وآله، فيقولُ لهُ المَلَكانِ: نَمْ قَريرَ العينِ نومَ الشابِّ الناعمِ ﴿وَيُضِلُّ ٱللهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ الَّذينَ لم يَتَمسَّكُوا بحجَّةٍ في دينهم، واقتصَرُوا علىٰ تقليدِ شُيوخِهم في الدنيا، فلا يثبُتُونَ في مواقِفِ الفِتَنِ، وتَزِلُّ أَقدامُهم عن الحقِّ، وهم في الآخرةِ أَضلُّ وأزلُّ ﴿وَيَفْعَلُ ٱللهُ مَا يَشَآءُ﴾ ولا يشاءُ إلَّا ماتُوجِبُهُ الحكمةُ من تثبيتِ المُؤمنينَ وتأْييدِهم وخِذْلانِ الظّالِمينَ.

﴿بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللهِ كُفْراً﴾ أي: شُكرَ نعمةِ ٱللهِ كفراً بأَن وَضَعُوهُ مكانَهُ، وقيلَ: هم الأَفْجَرانِ من قريشٍ: بنو أُميَّةَ وبنُو المُغيرَةِ، فأَمَّا بنو أُميَّةَ فمُتِّعوا إلىٰ حينٍ، وأَمَّا بنو المُغيرةِ فكفَيتُمُوهم يومَ بدرٍ[٣] ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ﴾ ممَّن تابَعَهُم على الكفرِ ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ أي: الهَلاكِ. ﴿جَهَنَّمَ﴾ عطفُ بيانٍ لِـ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾.

وقُرِئَ: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ بفتحِ الياءِ[٤] وضمِّها، ولمّا كانَ الضلالُ والإِضلالُ نتيجةَ

---

(١) تفسير القمّي: ج ١ ص ٣٦٩.

(٢) أي يُرَدَّد من غير أن ينفُذَ. (الصحاح: مادة لجج).

(٣) وهو قول أميرالمؤمنين عليٍّ عليه السلام والصادق عليه السلام وابن عباس وعمر وسعيد بن جبير ومجاهد والضحاك. راجع تفسير القمّي: ج ١ ص ٣٧١، وتفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٣٠ ح ٢٨، وتفسير الماوردي: ج ٣ ص ١٣٦.

(٤) قرأه ابن كثير وأبو عمرو ورويس. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٨٢.

اتِّخاذِ «الأَنْدَادِ» أُدخِلَ اللامُ وإن لم يكُنْ غرضاً على طريقِ التشبيهِ والتقريب ﴿ تَمَتَّعُواْ﴾ إِيذانٌ بأَنَّهم كأَنَّهم مأمُورونَ بالتمتُّعِ [١] لانغماسِهِم فيه، وأَنَّهم لايعرِفُون غيرَه ولايُريدونَهُ.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ (٣١) ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ (٣٣) وَءَاتَـٰكُم مِّن كُلِّ مَاسَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَاتُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾

المقولُ محذوفٌ؛ لأَنَّ جوابَ ﴿قُل﴾ يدُلُّ عليهِ، والتقديرُ: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ﴾ أَقيمُوا الصلاةَ وأَنفِقُوا ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ﴾، وقيل: هو بمعنىٰ: لِيُقيمُوا ولِيُنفِقُوا وهو المقولُ [٢]، وجازَ حذفُ اللامِ لأَنَّ الأَمرَ الَّذِي هو ﴿قُل﴾ عِوَضٌ منه، ولو قيل ابتداءً: ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ﴾ لم يَجُزْ، وانتصَبَ ﴿سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾ على الحالِ، بمعنىٰ: مُسِرِّينَ ومُعلِنِينَ، أَو على الظرفِ أَي: وقتَي سرٍّ وعلانيةٍ، أَو على المصدرِ أَي: إِنفاقَ سرٍّ وإِنفاقَ علانيةٍ، و الخِلَالُ: المُخالَّةُ.

﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأٌ وَ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ خبرُه، و ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بيانٌ لِلرزْقِ، أَي: «أَخْرَجَ بِهِ ... رِزْقاً» هو ثمراتٌ، ويجوزُ أَن يكونَ ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مفعولَ «أَخْرَجَ» و﴿رِزْقاً﴾ حالاً من المفعولِ أَو نصباً على المصدرِ لِـ«أَخْرَجَ» لأَنَّه في

---

(١) في نسخة: بالتمتيع، وفي نسخة أُخرىٰ زيادة: بالحاضر.

(٢) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

معنىٰ: رَزَقَ ﴿لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: بقولِهِ: كُنْ فَيَكُونُ. ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ يدأبانِ في سيرهِما، لايفْتُرانِ في منافعِ الخلقِ وإصلاحِ مايُصلِحانِ من الأَرضِ والأَبدانِ والنباتِ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقَبانِ لمعاشِكُم وسُباتِكُم.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ مِن جميعِ ماسأَلتُموهُ نظراً في مصالِحِكُم، و﴿مِن﴾ للتبعيضِ، وقيلَ: معناه: من كلِّ شيءٍ سأَلتُموه ولم تسأَلوهُ[١]، فيكون ﴿مَا﴾ موصوفةً بالجملةِ وحُذِفَ «ولم تَسأَلوهُ»؛ لأَنَّ ماأُبقِيَ يدُلُّ علىٰ ماأُلقِيَ، ومثلُهُ: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾[٢] وحُذِفَ «وَالبَرْدَ»، وقُرِئَ: «مِنْ كُلٍّ» بالتنوينِ[٣] وهو قِراءَةُ السيِّدَينِ: الباقرِ والصادقِ عليهما السلام، وعلى هذا فيكونُ ﴿مَاسَأَلْتُمُوهُ﴾ نفياً ومحلُّه نصبٌ على الحالِ، أَي: آتاكُم من جميعِ ذلكَ غيرَ سَائليهِ، أَو تكونُ ﴿مَا﴾ موصولةً بمعنىٰ: ماآتاكُم من كلِّ ذلكَ ماٱحتَجْتُم إِليه، فكأَنَّكُم سأَلتُموهُ أَو طلَبتُموه بلسانِ الحالِ ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ أَي: لاتَعُدُّوها ولا تُطيقُوا حصْرَها ﴿لَظَلُومٌ﴾ للنعمةِ لايَشكُرُها ﴿كَفَّارٌ﴾ يكفرُها، أَو ظلومٌ في الشدَّةِ: يَشْكُو وَيَجزَعُ، كفَّارٌ في النعمةِ: يجمَعُ ويمنَعُ.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِناً وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَآ إِنَّكَ

(١) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ١٦٣.
(٢) النحل: ٨١.
(٣) قرأه ابن عباس والحسن وسلام بن المنذر وقتادة والضحاك. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٣٦، وتفسير القرطبي: ج ٩ ص ٣٦٧.

تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ (٣٨) ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٩) رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ (٤٠) رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ (٤١) ﴾

يُرِيدُ ﴿ٱلْبَلَدَ﴾ الحرامَ ﴿ءَامِناً﴾ ذا أَمنٍ، ويقالُ: جَنَبهُ الشرَّ وجنَّبهُ الخيرَ وأَجْنَبَهُ، والمعنىٰ: ثبِّتْني ﴿وَبَنِىَّ﴾ على اجتنابِ عبادةِ ﴿ٱلْأَصْنَامَ﴾ وأَراد بنيهِ من صُلْبِهِ. ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فأَعوذُ بكَ لأَن تَعصِمَني وبَنِيَّ من ذلكَ، ومعنى إضلالِهنَّ الناسَ: أَنَّهُم ضَلُّوا بِسببِهِنَّ فكأَنَّهُنَّ أَضلَلْنَهُمْ، كما يُقالُ: غَرَّتْهُ الدنيا بمعنى: اغترَّ بِها وبسببِها ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ علىٰ ملّتي ﴿فَإِنَّهُ مِنِّى﴾ أَي: هو بعضي؛ لاختصاصِهِ بِي ومُلابَسَتِهِ لِي، ونحوُه قولُهﷺ: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»[(١)] أَي: لَيس بعضَ المُؤْمنينَ؛ لأَنَّ الغشَّ ليس من أَفعالِهم ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ﴾ تَسْتُرُ على العبادِ معاصِيهم ﴿رحِيمٌ﴾ بِهم.

﴿مِن ذُرِّيَّتِى﴾ أَي: بَعضَ أَولادِي وَهُوَ إِسماعيلُ وأَولادُهُ ﴿بِوَادٍ﴾ هو وادي مَكَّةَ ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ لايكونُ فيهِ شيءٌ من زَرعٍ قطُّ ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ الَّذي لم يَزَلْ مُمَنَّعاً عزيزاً يَهابُه كلُّ جَبَّارٍ كالشيءِ المُحرَّمِ الَّذي حقُّه أَن يُجتَنَبَ، أَو جُعِلَ محرَّماً علَى الطوفانِ مَمنوعاً منهُ كما سُمِّيَ عَتيقاً لأَنَّه أُعتِقَ منهُ، أَو هوَ محرَّمٌ محترمٌ عظيمُ الحُرمةِ لايَحِلُّ انتهاكُها، وماحولَهُ حَرَمٌ لحرمتِهِ ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَتعَلَّقُ اللامُ بـ﴿أَسْكَنتُ﴾ أَي: ماأَسكَنْتُهُمْ بهذا الوادي إلّا لِيُقِيمُوا الصلاةَ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ وَيَعمُرُوهُ بذِكرِكَ وعبادتِكَ ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ﴾ أَفئدة

(١) مسند أحمد: ج ٣ ص ٤٩٨، سنن الدارمي: ج ٢ ص ٢٤٨.

﴿ٱلنَّاسِ﴾، و﴿مِن﴾ للتبعيضِ ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تَسرَعُ إليهم وتفزَعُ، وقُرِئَ: «تَهْوَىٓ إِلَيْهِمْ»(١) من هَوِيَ يَهْوَىٰ: إذا أَحَبَّ، ضُمِّنَ معنى «تَنزِعُ» فعُدِّيَ تعديتَهُ، وهي قِراءَةُ أَهلِ البيتِ عليهم السلام ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ معَ سُكناهُم وادِياً ليس فيه شيءٌ منها بأَن تُجْلَبَ إليهِم منَ البلادِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ النعمةَ في أن يُرزَقُوا أنواعَ الثمراتِ حاضرةً في وادٍ يَبابٍ(٢).

﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ أَي: تعلَمُ السرَّ كما تَعلَمُ العَلَنَ عِلماً لاتفاوُتَ فيهِ، فلاحاجةَ بنا إلى الدعاءِ والطلَب وَإِنَّما نَدْعُوكَ إظهاراً للعُبوديَّةِ لكَ، وافتقاراً إلىٰ ماعندَكَ، واستِعجالاً لنَيلِ مواهِبِكَ ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الَّذي هو عَلَّامُ الغُيوبِ ﴿مِن شَىْءٍ فِى﴾ كلِّ مكانٍ من ﴿ٱلْأَرْضِ وَ ... ٱلسَّمَآءِ﴾ و ﴿مِن﴾ للاستِغراقِ.

﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ أَي: مع الكِبَرِ، كقولِ الشاعرِ:

إنِّي علَىٰ ماتَرَيْنَ مِن كِبَري أَعلمُ من حيثُ يُؤْكَلُ الكَتِفُ(٣)

وهوَ في مَوضعِ الحالِ، أَي: وَهَبَ لي وأنا كبيرٌ أو في حالِ الكِبَرِ ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أَي: مُجيبُه وقابِلُه، وهو إضافةُ الصفةِ إلىٰ مَفْعُولِها، والأَصلُ: لَسَميعٌ الدعاءَ. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ أَي: وبعضَ ذُرِّيَّتِي عطفاً على الضميرِ المنصوب في ﴿ٱجْعَلْنِى﴾، ﴿وَتَقَبَّلْ﴾ دُعَائي أي: عبادَتِي، أَو: وَأَجِبْ دُعائي؛ لأَنَّ قبولَ الدعاءِ: الإجابةُ، وقبولَ الطاعةِ: الإثابةُ. ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ في هذا دَلالةٌ علىٰ أَنَّ

---

(١) وهي قراءة مجاهد على ماحكاه عنه القرطبي في تفسيره: ج ٩ ص ٣٧٣.

(٢) أرض يباب: أي خراب. (الصحاح: مادة يبب).

(٣) لم نعثر على قائله، يقول: إنّي مع ماترين من هرمي وكبري الموجبَيْن للخرف عادة، لكنني عارف بالأمور متفطّن لها على بصيرة منها، وقوله: «أعلم من أين يؤكل الكتف» مثل يُضرب للمجرّب العارف بالأمور. راجع شرح شواهد الكشّاف للأفندي: ص ٤٥٨.

أَبوَيهِ لَمْ يَكُونا كافِرَينِ وَإِنَّما كان آزَرُ عمَّهُ أَو جدَّه لأُمِّهِ على الخلافِ فيهِ؛ لأَنَّه سأَلَ المَغفِرةَ لهُما ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ وهو يومُ القِيامةِ، وقُرِئَ: «وَلِوَلَدَيَّ»[١] وهوَ قِراءَةُ أَهلِ البيتِ عليهم السلام، وَهُما إِسماعيلُ وإِسحاقُ، و ﴿يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ معناهُ: يثبُتُ، وهو مستعارٌ من قيامِ القائِمِ علَى الرِجْلِ، يدُلُّ عليهِ قولُهم: قامتِ الحربُ علىٰ ساقٍ، ويجوزُ أَن يُسنَدَ إِلى ﴿ٱلْحِسَاب﴾ قيامُ أَهلِهِ إِسناداً مجازيّاً، أَو أَن يكونَ مثلَ ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[٢].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ (٤٣) وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ (٤٥)﴾

هذا وعيدٌ للظالِمِ وتَسليةٌ للمظلومِ ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ أَي: أَبصارُهم لاتَقِرُّ في أَماكِنِها من هَولِ ماتَرىٰ في ذلكَ اليومِ. ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مُسرِعينَ إِلى الداعِي، وقيل: الإِهطاعُ: أَن تُقبِلَ بِبَصرِكَ علَىٰ ماتَرىٰ تُديمُ النظَرَ إِليهِ لاتطرِفُ[٣] ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ رافِعِي رُؤُوسِهِمْ ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لاتَرجِعُ إِليهم أَعيُنُهُمْ، فلا يُغمِّضُونَها لكِنَّها مفتوحةٌ ممدودةٌ من غيرِ تحريكِ الأَجفانِ ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ

---

(١) وهي قراءة ابراهيم النخعي ويحيىٰ بن يعمر. راجع تفسير القرطبي: ج ٩ ص ٣٧٥.

(٢) يوسف: ٨٢.

(٣) قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وأبو الضحىٰ. راجع تفسير الطبري: ج ٧ ص ٤٦٨.

﴿هَوَآءٌ﴾ أي خَلَاءٌ: خاليةٌ عنِ العُقولِ، وُصِفتِ الأَفئدةُ بالهواءِ إذا كانَ صاحبُها لاقوَّةَ في قلبِه وَلَا جُرأةَ، قالَ حَسَّان:

فأَنتَ مُجوَّفٌ نَخِبٌ هَواءُ[١]

وعن ابنِ جُرَيْج[٢]: هواءٌ صفرٌ من الخيرِ خاويةٌ منهُ[٣].

﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ مفعولٌ ثانٍ لِـ﴿أَنذِرِ﴾ وهو يومُ القيامةِ ﴿أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ رُدَّنا إِلى الدنيا وأَمهِلْنا إِلىٰ أَمَدٍ من الزمانِ قريبٍ نتدارَكُ مافرَّطنا فيهِ من إجابةِ دَعوتِك واتِّباعِ رُسُلِكَ، ويجوزُ أَن يكونَ المرادُ يومَ هلاكِهم بالعذابِ العاجِلِ أَو يومَ موتِهم مُعذَّبينَ فيَسألونَ يومئذٍ تأْخيرَهم إلىٰ أَجلٍ كَما في قولِهِ: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾[٤]، ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم﴾ علىٰ إرادةِ القولِ، أَي: حَلَفْتمْ ﴿مَالَكُم مِّن﴾ انتقالٍ إِلىٰ دارٍ أُخرىٰ، أَو قُلتُم ذلكَ بلسانِ الحالِ حيثُ بَنَيْتُم شديداً وأَمَّلتُم بعيداً، و﴿مَالَكُم﴾ جوابُ القَسَمِ وإِن جاءَ بلفظِ الخِطابِ.

يُقالُ: سكَنَ الدارَ وسَكَنَ فيها، من السُكنىٰ أَو منَ السُكونِ، أَي: اطمَأْنَنْتُم فيها طيِّبي النفوسِ سائرينَ سِيرةَ مَنْ قبلكم في الظلم ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ بالإِخبارِ والمشاهَدةِ ﴿كَيْفَ﴾ أَهْلَكْناهُمْ ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ فلَمْ تعتبرُوا.

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ

---

(١) وصدره: ألا أبلغْ أبا سفيان عنّي. والبيت من قصيدة طويلة قالها قبل فتح مكة، مدح بها النبي ﷺ وهجا أبا سفيان وكان قد هجا النبي ﷺ من قبل. راجع ديوان حسان: ج ١ ص١٨.
(٢) هو عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج، تقدّمت ترجمته في ص ٤١ من سورة الأنفال.
(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٥٦٤.
(٤) المنافقون: ١٠.

ٱلْوَ ٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ (٥٠) لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٥١) هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَ ٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ (٥٢) ﴾

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ العَظيمَ ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ يُمكِنُ أَن يكونَ مُضافاً إِلَى الفاعلِ كالأَوَّلِ، وَالمعنىٰ: وَعِنْدَ ٱللهِ مَكْرُهُمْ يُجازِيهِم عليهِ، وأَنْ يكون مضافاً إِلى المفعولِ، والمَعنى: وعند اللهِ مكرهم الَّذي يَمكُرهم بهِ وهو عذابُهم الَّذي يأتيهم من حيثُ لا يشعرونَ ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ أَي: وإنْ كانَ مكرُهُم لعِظَمِه وكِبَرِهِ يَكادُ يُزيلُ الجِبالَ عن أَماكِنها، وعلَى هذا تكونُ ﴿إِن﴾ هيَ المُخفَّفَةَ منَ الثقيلَةِ، واللامُ في ﴿لِتَزُولَ﴾ هيَ الفارقة، وَقد جُعِلَت ﴿إِن﴾ نافيةً واللامُ مؤكِّدةً لها، كقولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ (١)، أَي: وَمَا كانَ مكرُهم لِتَزولَ منهُ ماهوَ مثلُ الجبالِ منْ دلائلِ النبيِّ صلى الله عليه وآله وشرائعِهِ في الثباتِ والتمكُّنِ.

وقَرأَ عليٌّ عليه السلام وعُمرُ وابنُ مسعودٍ: «وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ» (٢).

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ مثلُ قولِهِ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ (٣)، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِىٓ﴾ (٤)، وقدَّمَ الوَعْدَ ليُعلِمَ أَنَّهُ لا يُخلِفُ الوعدَ أَصلاً، ثمَّ قالَ: ﴿رُسُلَهُۥٓ﴾ ليُؤْذِنَ أَنَّه إِذا لم يُخلِفْ أَحداً وعدَهُ فكيفَ يُخلِفُه رُسُلَه الَّذين هم خِيَرَتُه من عبادِه؟

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾ بدلٌ من ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ﴾ أَو علَى الظرفِ للانتِقامِ،

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٤٠، والكشّاف: ج ٢ ص ٥٦٦.

(٣) غافر: ٥١. (٤) المجادلة: ٢١.

والمَعنىٰ: يَوْمَ تُبدَّلُ هذِهِ الأَرضُ الَّتي تَـعرِفُونَها أَرضاً أُخـرىٰ غـيرَها، وكـذلك ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتُ﴾، والتبديلُ: التغييرُ، وقد يكونُ في الذواتِ كقولِكَ: بدَّلْتُ الدراهـمَ دنانيرَ، ومنه: ﴿بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا﴾ (١)، ﴿وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ (٢)، وقد يكونُ في الأَوصافِ كقولِكَ: بدَّلْتُ الحَلْقَةَ خاتَماً: إِذا أَذبتَها وسوَّيتَها خاتماً فنقَلْتَها من شَكلٍ إِلىٰ شَكلٍ. واختُلِفَ في تبديلِ الأَرضِ والسماواتِ، فقيلَ: تُبدَّلُ أَوصافُها فتُسيَّرُ على الأَرضِ جبالُها، وتُفجَّرُ بِحارُها، وتُسوَّىٰ فلا يُـرى فـيها عِـوَجٌ ولا أَمْتٌ (٣) (٤)، وقيلَ: تُخلَقُ أَرضٌ وسَماواتٌ أُخرُ (٥).

﴿مُقَرَّنِينَ﴾ قُرِّنَ بعضُهم مع بعضٍ ومعَ الشياطينِ، أَو مُغلَّلِينَ قُرِّنَتْ أَيدِيهِم إِلىٰ أَرجُلِهم ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ أَي: الأَغلالِ. ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ أَي: قَميصُهُم ﴿من قَطِرَانٍ﴾ وهو مايُطْلَىٰ به الإبِلُ الجَربىٰ فيُحرَقُ الجَربُ والجِلدُ، وقُرِئَ: «مِنْ قِطْرٍ ءَانٍ» (٦)، والقِطرُ: النحاسُ أَو الصفرُ المُذابُ، والآني: المُتَناهِي حَـرُّه ﴿وَتَـغْشَىٰ وُجُـوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ خَصَّ الوجوهَ لأَنَّ الوجهَ أَعزُّ مَوضعٍ في ظاهِرِ البدَنِ وأَشرفُهُ كالقَلبِ في باطِنِه، ولذلكَ قال: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ (٧).

﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ﴾ هوَ من صلةِ قولِهِ:﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أَي: يُفعَلُ بِهِمْ مايُفعَلُ

---

(١) النساء: ٥٦. (٢) سبأ: ١٦.

(٣) الأَمْت: التلال الصغار. (الصحاح: مادة أمت).

(٤) وهو قول الحسن. راجع التبيان: ج ٦ ص ٣٠٩.

(٥) قاله ابن عباس وابن مسعود وأنس ومجاهد ومحمد بن كعب وكعب الأحبار وابـن جـبير وابن عيسىٰ، ورووه عن علي عليه السلام. راجع تفسير الطـبري: ج ٧ ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣، وتـفسير الماوردي: ج ٣ ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٦) قرأه سعيد بن جبير وعكرمة عن ابـن عـباس وعـيسىٰ. راجـع تـفسير المـاوردي: ج ٣ ص ١٤٥، وشواذ القرآن لابن خالويه: ص ٧٤، والتبيان: ج ٦ ص ٣١١.

(٧) الهُمزة: ٧.

لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ﴿كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: كِفايةٌ للتذكيرِ والموعظةِ، ويَعنِي بـ﴿هَٰذَا﴾ ماوصَفَه من قولِهِ: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ إلىٰ قولِهِ: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ معطوفٌ علىٰ محذوفٍ، أي: لِيُنصَحُوا ولِيُنذَرُوا بِهِ أي: بهذا البَلاغِ ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لأنَّ الخوفَ يدعُو إلى النظرِ المُوصِلِ إلى التوحيدِ، وقيلَ: معناه: هذا القرآنُ عِظةٌ بالغةٌ كافيةٌ لِلناسِ، أُنزِلَ لِيبَلَّغُوا ولِيُنذَرُوا بما فيهِ مِنَ الوعيدِ، وليَعْلَمُوا أنَّما هوَ إلٰهٌ واحدٌ بالنظرِ في الأدلَّةِ المؤدِّيةِ إلى التوحيدِ المُثبتَةِ في القرآنِ[1]، وليتذكَّرَ وليتَّعِظَ بِهِ ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ذوو العقولِ والنُّهىٰ.

۞ ۞ ۞

(١) وهو قول ابن زيد. راجع التبيان: ج ٦ ص ٣١١.

سورةُ الحِجرِ

مَكِّيَّةٌ[1]، وهي تسعٌ وتسعون آيةً بلا خلافٍ.

في حديثِ أُبيٍّ: «من قرأَهَا أُعطِيَ من الأَجرِ عشر حَسناتٍ بعدد المهاجرينَ والأَنصارِ والمستهزئينَ بمحمّدٍ صلى الله عليه وآله»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ (١) رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٦ ص ٣١٣: مكية في قول قتادة ومجاهد.

وقال الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ١٤٧: مكية باتفاق، إلّا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعاً مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ فمدنية.

وقال الزمخشري في كشّافه: ج ٢ ص ٥٦٩: مكية إلّا آية ٨٧ فمدنية، وهي تسع وتسعون آية، نزلت بعد سورة يوسف.

وفي تفسير الآلوسي: ج ١٤ ص ٢ ما لفظه: أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنّها نزلت بمكة، وروي ذلك عن قتادة ومجاهد، وفي مجمع البيان عن الحسن أنّها مكية إلّا قوله تعالى: ﴿وَلَقَد ءاتَيْنَٰك سَبعاً مِّن المثانِي والقُرءَانَ العَظِيمَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿كما أَنْزَلْنَا على المقتسِمِينَ الّذينَ جَعَلُوا القُرءانَ عِضِينَ﴾ وذكر الجلال السيوطي في الاتقان عن بعضهم استثناء الآية الأولىٰ فقط ثم قال: قلت: وينبغي استثناء قوله تعالى: ﴿ولَقَد عَلمنَا المُستَقْدِمينَ﴾ الآية لما أخرجه الترمذي.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٥٩٢ مرسلاً.

لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَّاتَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَايَسْتَـْٔخِرُونَ (٥) وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَّوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (٧) مَانُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِالحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذاً مُّنظَرِينَ (٨) ﴾

﴿رُبَمَا﴾ قُرِئَ بتشديدِ الباءِ[١] وتَخفيفِها، ودخَلَت على الفعلِ المضارعِ وإِن كانَتْ إِنَّما تدخُلُ علَى الماضِي فإنَّها إِنَّما تدُلُّ علىٰ أَمر قد مَضَىٰ؛ لأَنَّ المترقَّبَ في أَخبارِ اللهِ عزَّوجلَّ بمنزلةِ الماضِي المَقطوعِ به في التحقُّقِ، فكأَنَّه قالَ: رُبَّما وَدّوا، والمعنىٰ: رُبَّما يَتمنَّى الكُفَّارُ يومَ القيامةِ إذا عايَنُوا حالَهم وحالَ المسلِمينَ، ورُوِيَ: أَنَّ ذلكَ يكونُ إِذا رَأَوا المسلِمينَ يَخرُجونَ من النارِ[٢]، و﴿لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ حكايةُ وَدادَتِهِم.

﴿ذَرْهُمْ﴾ أَي: اقْطَعْ طمَعَكَ منهم ودَعْهم عن النهي عمَّا هم عليهِ وخلِّهم ﴿يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ بدُنياهُم، ويُشغِلْهم أَمَلُهم الكاذبُ عن اتِّباعِكَ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سُوءَ صنيعِهم، وهذا إِيذانٌ بأَنَّهم لايَنفعُهم الوعظُ ولايَنجَعُ فيهمُ النصحُ، ومبالَغةٌ في الإِنذارِ وإِلزامٌ للحُجَّةِ.

﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ﴾ صفةٌ لـ﴿قَرْيَةٍ﴾، والقياسُ أَن لايَتوسَّطَ الواوُ بينَهما كما في قولِه: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾[٣]، وإِنَّما تَوسَّطتْ لتأكيدِ لُصوقِ الصفةِ بالموصُوفِ كما تقُولُ في الحالِ: جاءَني زيدٌ عليه ثوبٌ، وجاءَني وعليهِ

---

(١) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي. أُنظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٦٦.

(٢) رواها أبو موسى الاشعري عن النبيﷺ كما في تفسير البغوي: ج ٣ ص ٤٣.

(٣) الشعراء: ٢٠٨.

ثوبٌ، ومعناهُ: مكتوبٌ ﴿مَّعْلُومٌ﴾ وهوَ أَجَلُها الَّذِي كُتِبَ في اللوحِ المحفوظ، أَلا تَرى إِلىٰ قولِهِ: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ في موضعِ كتابها، وأَنَّثَ «الأُمَّةَ» أوّلاً ثمَّ ذكَّرَها ثانياً حملاً علَى اللفظِ والمَعنَىٰ، وأَراد: ﴿مَايَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ عنهُ فحُذِفَ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ كانَ هذا النداءُ منهم علىٰ وجهِ الاستِهزاءِ، كما قالَ فرعونُ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [١]. والمَعنىٰ: إِنَّك لتقولُ قولَ المجانينِ حينَ تَدَّعي أَنَّ ٱللَّهَ تعالىٰ نزَّل عليكَ الذكرَ.

ورُكِّبَت «لو» معَ «لا» و «ما» لمَعنَيَينِ: أَحدُهما: امتناعُ الشيءِ لوجودِ غيرِه، والآخَرُ: التحضيضُ، وأَمَّا «هلْ» فلم تُركَّبْ إِلَّا معَ «لا» وحدَها للتحضيضِ، قال ابنُ مُقبلٍ [٢]:

لَومَا الحَياءُ ولَومَا الدِّينُ عِبتُكمَا ببَعض ما فيكُمَا إِذ عِبتُما عَوَري [٣]

والمعنىٰ: هَلَّا تَأْتِينَا بالمَلَائكة يشهَدُونَ بصِدقِكَ، أَو هلَّا يَأْتُونَنَا الملائكة للعقابِ علىٰ تكذيبنا إِيَّاكَ.

«مَا تَنَزَّلُ» أَي: ما تَتَنزَّلُ ٱلْمَلائِكَةُ [٤]، وقُرِئَ: ﴿نُنَزِّلُ﴾ بالنونينِ ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ بالنصبِ، وقُرِئَ: «تُنَزَّلُ الملائكةُ» على البناءِ للمفعولِ [٥] ﴿إِلَّا بِالحَقِّ﴾ إِلَّا تنزيلاً مُلتَبِساً بالحقِّ أَي: بالحكمةِ والمصلَحةِ، وقيلَ: بالوحيِ أَو بالعذابِ [٦]، و ﴿إِذاً﴾

---

(١) الشعراء: ٢٧.

(٢) هو تميم بن أُبيّ بن مُقبل، من بني العجلان، شاعر جاهلي أدرك الاسلام وأسلم، ورثىٰ عثمان بن عفان، وكان يبكي اهل الجاهلية، عاش نيفاً ومائة سنة، وعدّ من المخضرمين. أُنظر كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة: ص ٢٧٦ ـ ٢٧٨.

(٣) البيت من قصيدة قالها ردّاً على الذين سخروا منه لعوره، ومعنى البيت واضح. راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة: ص ٢٧٧.

(٤) يبدو أنّ المصنّف اعتمد هنا ـ تبعاً للزمخشري ـ على هذه القراءة كما لايخفىٰ.

(٥) قرأه أبو بكر والمفضّل. راجع كتاب التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٨٥.

(٦) وهو قول الحسن ومجاهد. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ١٤٩.

جوابٌ وجزاءٌ، والتقديرُ: ﴿وَ﴾ لو نَزَّلْنَا ٱلْمَلَائكَةَ ﴿مَـاكَـانُوٓاْ ... مُّـنظَرِينَ﴾ أَي: مؤَخَّرينَ مُمْهَلينَ، والمعنىٰ: لانُمهِلُهُم ساعةً.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَايَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٢) لَايُؤْمِنُونَ بِـهِ وَقَـدْ خَـلَتْ سُـنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥) وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجاً وَزَيَّـنَّـٰهَا لِـلنَّـٰظِرِينَ (١٦) وَحَـفِظْنَـٰهَا مِـن كُـلِّ شَـيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨)﴾

هذا ردٌّ لإِنكارِهم واستهزائهم في قولِهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْـرُ﴾ ولذلكَ قالَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ فأكَّد عليهِمْ أَنّـه هوَ المُنزِّلُ للقرآنِ علَى القطعِ والثباتِ، وأَنّـهُ حافظُهُ من كلِّ زيادةٍ ونُقصانٍ وتغييرٍ وتحريفٍ، بخِلافِ الكُتبِ المتقدِّمةِ فإِنَّهُ لم يَتَوَلَّ حفظَها وإِنَّما استحفَظَها الربَّانيِّينَ ولم يَكِلِ القرآنَ إِلىٰ غيرِ حفظِهِ، وعـنِ الفرَّاءِ: يجوزُ أَن يكونَ الضميرُ فـي ﴿لَـهُ﴾ لرسـولِ اللهِ ﷺ [١]، كـقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [٢].

﴿فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: فِي فِرَقِهِم وطَوائفِهِم، والشـيعةُ: الفِـرقةُ إِذا اتَّـفقُوا في [٣] مذهبٍ وطريقةٍ، أَي: نَبَّأْنا من قبلِكَ رُسُلاً فِيهِم.

﴿وَمَايَأْتِيهِم﴾ حكايةُ حالٍ ماضيةٍ؛ لأَنَّ «ما» لايدخُلُ علىٰ مضارعٍ إِلَّا وهوَ في معنى الحالِ، ولا علىٰ ماضٍ إِلَّا وهوَ قريبٌ من الحالِ.

---

(١) معاني القرآن: ج ٢ ص ٨٥. (٢) المائدة: ٦٧.

(٣) في نسخة: علىٰ.

والضميرُ في ﴿نَسْلُكُهُ﴾ للذِكْرِ، وسلكتُ الخيطَ في الإِبرةِ وأَسلَكتُهُ: أَدخلتُهُ فيها ونظَمْتُهُ، أَي: مثلَ ذلكَ السلكِ ونحوَهُ نسلُكُ الذِكرَ ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، علَى معنىٰ: أَنـَّه يُلقِيهِ في قلوبِهم مُكَذَّباً به غيرَ مقبولٍ، كما لو أَنزَلتَ بلئيمٍ حاجةً فلم يُجبكَ إِليها تقولُ: كذلكَ أُنزِلُها باللِئَامِ، يعني: هذا الإِنزالَ أُنزِلُها بهم مردودةً غيرَ مقضِيَّةٍ.

و﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ في محلِّ النصبِ على الحالِ أَي: غيرَ مُؤْمِنينَ بِهِ، أَو هوَ بيانٌ لقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ﴾. ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَي: طريقَتُهم ٱلَّتي سَنَّها ٱللهُ في إِهلاكِهم حينَ كذَّبُوا رُسلَهم، وهوَ وعيدٌ.

وقُـرِئَ: ﴿يَـعْرُجُونَ﴾ بـضمِّ الراءِ وكسرِها[١]، و﴿سُكِّـرَتْ﴾ بـالتثقيلِ والتخفيفِ[٢]، والمعنىٰ: حُبِسَت عنِ الإِبصار، مـنَ السَكرِ أَو السُكرِ، أَي: كـما يُحبَسُ النهرُ من الجَري، يُريدُ: أَنَّ هؤُلاءِ المشركين بلَغَ من عِنادِهم أَن لو فُتِحَ لهم بابٌ من أَبوابِ السماءِ، ويُسِّرَ لهم معراجٌ يصعَدُونَ فيهِ إِليها لقَالُوا: هو شيْءٌ خُيِّلَ إِلينا علىٰ غيرِ حقيقةٍ، بل قالُوا: قد سَحَرَنا محمَّدٌ ـ صلى الله عليه وآله ـ بذلك، وقـيلَ: الضـميرُ للملائكةِ[٣]، أَي: لَو أَريناهُمُ الملائكةَ يصعَدُونَ في السماءِ عِياناً ﴿لَقَالُوٓاْ﴾ ذلكَ، وذكَرَ «ظَلُّوا» ليجعَلَ عُروجَهم بالنهارِ ليكُونُوا مُستوضِحينَ لِـما يـرَونَهُ، وقـالَ: ﴿إِنَّمَا﴾ ليَدُلَّ علَىٰ أَنـَّهم يقطَعُونَ بأَنَّ ذلكَ ليس إِلَّا تسكيراً لأَبصارِهم.

﴿مَنِ ٱسْتَرَقَ﴾ في محلِّ النصبِ علَى الاستثناءِ. عن ابنِ عبَّاسٍ: أَنـَّهم كانوا لايُحجَبونَ عنِ السماواتِ، فلمَّا وُلِدَ عيسىٰ مُنِعُوا من ثلاثِ سماواتٍ، فلمَّا وُلِـدَ محمَّدٌ صلى الله عليه وآله مُنِعوا من السماواتِ كلِّها[٤]. ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ أَي: ظاهرٌ للمُبصِرينَ.

---

(١) والقراءة بالكسر هي قراءة الأعمش وابن أبي الزناد وعيسىٰ. راجـع شـواذ القـرآن لابـن خالويه: ص ٧٤.

(٢) وبالتخفيف قرأه ابن كثير وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٦٦.

(٣) قاله ابن عباس وقتادة وابن جريج والضحاك. راجع تفسير الطبري: ج ٧ ص ٤٩٦.

(٤) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٤٥.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)﴾

﴿مَدَدْنَـٰهَا﴾ بسَطْناها وجَعَلْنا لَها طُولاً وعَرْضاً ﴿رَوَٰسِيَ﴾ جِبالاً ثابتةً، والمَوْزُونُ: المقدَّرُ[1] المعلومُ، وُزِنَ بميزانِ الحِكمةِ، أو الَّذي لهُ وزنٌ وقدرٌ في أبوابِ المَنفعةِ، وقيلَ: هوَ مايُوزَنُ نحوُ الذهبِ والفضّةِ وغيرِهما[2].

﴿مَعَـٰيِشَ﴾ بياءٍ صريحةٍ بخلافِ «الشمائلِ» ونحوِها فإنَّها تُهمَزُ، وتصريحُ الياءِ فيها خطأٌ، أو يُخرَجُ الياءُ بينَ بينَ[3] ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ عطفٌ علَىٰ ﴿مَعَـٰيِشَ﴾ أو علَى محلِّ ﴿لَكُمْ﴾، كأنّه قيلَ: وَجَعَلْنا لَكُمْ فيها مَعايِشَ وَجَعَلْنا لكُم مَنْ لستُمْ لَهُ برازقينَ، وأَراد بهِمُ العيالَ والمَماليكَ الَّذين يَحسِبُونَ أنَّهم يرزُقُونَهم وإنَّما اللهُ رازقُهم وإيَّاهم، ولايجوزُ أن يكون مجروراً عطفاً على الضمير المجرور في ﴿لَكُمْ﴾.

---

(١) في بعض النسخ: المقدار.

(٢) وهو قول الحسن وابن زيد. راجع التبيان: ج ٦ ص ٣٢٦.

(٣) قال الهمداني: «معايش» جمع معيشة، والياء أصلية متحركة في التقدير بإزاء الذال من «معذرة»، وأصلها معيشة بوزن مَفعِلَة، فاذا جُمعت على مفاعل فالوجه تصحيح الياء ردّاً الى أصلها، ولا يجوز فيه الهمز كما جاز في «صحائف» لأجل أن ياء «صحيفة» أتبعت ألف رسالة من حيث إنّها مَدّة عارية من تقدير الحركة كالألف فهُمزت لذلك ... الى أن قال: والمعيشة: مايعاش به من المطاعم والمشارب وغيرهما. راجع الفريد في اعراب القرآن: ج ٢ ص ٢٧٤.

﴿وَ﴾ ما ﴿مِن شَيْءٍ﴾ ينتفعُ به العبادُ ﴿إِلَّا﴾ ونحنُ قادرونَ علىٰ إيجادِهِ وتكوينِه، وضَرَبَ «الخَزَائنَ» مثلاً لاقتِدارِه علىٰ كلِّ مقدورٍ ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ﴾ أي: ومانُعطيهِ ﴿إِلَّا﴾ بمقدارٍ ﴿مَّعْلُومٍ﴾ نعلَمُ أنّهُ مصلَحَةٌ لَهُم.

﴿لَوَاقِحَ﴾ فيهِ قولانِ: أحدُهما: أنَّ معناها المَلاقِحُ، جمعُ مُلْقِحةٍ[1]، كما قالَ:

ومُختَبِطٌ ممَّا تُطيحُ الطوائحُ[2].

أرادَ المَطاوِحَ جمعُ مُطيحةٍ، والثاني: أنّه يقالُ: ريحٌ لاقِحٌ: إذا جاءَتْ بخيرٍ وَضِدّها العَقيمُ[3]، ونحوُهُ: سَحابٌ ماطِرٌ ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ فَجَعَلْناهُ لَكُم سُقْيا ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ نَفَىٰ عنهُم ماأثبتَهُ لنفسِهِ في قولِه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي: نحنُ الخازِنونَ للماءِ، القادرونَ علىٰ خلقِه في السماء وإنزالِه منها، ولاتقدرونَ علىٰ ذلكَ.

﴿وَنَحْنُ ٱلْوَارِثُونَ﴾ الباقونَ بعدَ هَلاكِ الخلقِ كلِّه، وهو استعارةٌ من وارثِ الميِّتِ؛ لأنّهُ يَبْقىٰ بعدَ فناءِ الموروثِ منهُ.

وفي حديثِه صلواتُ ٱللهِ عليهِ وآلِه: «واجعَلْهُ الوارثَ مِنَّا»[4].

---

(١) قاله أبو عبيدة والجوهري. راجع مجاز القرآن: ج ١ ص ٣٤٨، والصحاح: مادة (لقح).

(٢) وصدره: لِيُبْك يزيد ضارعٌ لخصومةٍ. وقد اختلفوا في قائله، نسبه بعض الى الحارث بن نهيك، ونسبه الآخر الى لبيد، وفي الخزانة نسبه الى نهشل بن حرِّيّ النهشلي من قصيدة يرثي بها أخاه يزيد بن نهشل ويصفه بالنصر والكرم للذليل وطالب المعروف. ونهشل هذا شاعر مخضرم شريف قومه، بقي الى أيام معاوية، وكان مع علي عليه السلام في حروبه، وقُتل أخوه مالك بصفّين وهو يومئذٍ رئيس بني حنظلة. راجع خزانة الأدب للبغدادي: ج ١ ص ٣٠٣ وج ٨ ص ١٣٩.

(٣) وهو قول الحسن في تفسيره: ج ٢ ص ٦٥.

(٤) وهو من دعاءٍ كان صلى الله عليه وآله يدعو به وهو: «اللّهم متّعني بسمعي وبصري، واجعلهما الوارث مني، وانصرني علىٰ من ظلمني، وأرني فيه ثاري» أخرجه الحاكم في المستدرك: ج ١ ص ٥٢٣ وج ٢ ص ١٤٢، والطبراني في المعجم الصغير: ج ٢ ص ١٠٨، وأخرج الحاكم أيضاً في المستدرك: ج ٤ ص ٤١٣ ـ ٤١٤ عن أنس: انّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان اذا أصابه رمد أو أحداً من أهله وأصحابه دعا بهؤلاء الكلمات: «اللّهم متّعني ببصري، واجعله الوارث مني، ←

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾ مِنِ استَقْدَمَ وِلادةً وموتاً، ومن استأْخرَ أَي: تأَخَّر من الأَوَّلينَ والآخرينَ، أَو مَن خرَجَ من أَصلابِ الرجالِ ومن لم يخرُجْ بَعدُ، أَو من تقدَّمَ في الإسلام، أَو في صفِّ الجماعةِ ومن تأَخَّر. ﴿هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أَي: هو وحدَه القادرُ علىٰ حشرهم، والعالِمُ بحصرهم مع كثرتهم ووفورِ عِدَّتِهم ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ باهرُ الحكمةِ ﴿عَلِيمٌ﴾ واسعُ العلمِ، أَحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ (٣١) قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾

الصلصالُ: الطِينُ اليابِسُ الَّذي يُصَلصِلُ وهوَ غيرُ مطبوخٍ فإِذا طُبِخَ فهوَ فخَّارٌ، والحَمَأُ: الطِينُ الأَسودُ المُتغيِّرُ، والمسنونُ: المُصَوَّرُ، وسُنَّةُ الوجهِ: صورَتُهُ، وقيلَ: هو المصبوبُ المُفْرَغُ كأَنَّه أُفرِغَ حتَّىٰ صارَ صورةً[1]، وحقُّ ﴿مَسْنُون﴾ بمعنىٰ:

← وأرني في العدو ثاري، وانصرني على من ظلمني».

(١) وهو قول أبي عمرو بن العلاء وأبي عبيدة. راجع مجاز القرآن: ج ١ ص ٣٥١، وتفسير الماوردي: ج ٣ ص ١٥٨.

مصوَّرٍ أَن يكونَ صفةً لـ ﴿صَلْصَٰلٍ﴾ كأَنّه أُفرِغَ الحمأُ فصُوِّرَ منها تِمثالُ إِنسانٍ أَجوفَ فيَبُسَ حتَّىٰ إِذا نُقِرَ صَلصَلَ ثم غُيِّرَ بعدَ ذلكَ فصُيِّرَ إِنساناً.

﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ للجنِّ كآدمَ للناسِ ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ من نار الحرِّ الشديدِ النافِذِ في المَسامِّ.

﴿وَ﴾ اذكُر ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ وقتَ قولِه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أَي: عدَّلْتُ خِلقتَهُ وأَكملتُها وهيَّأتها لنفخِ الروحِ فيها ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ معناه: أَحيَيتُه، وليسَ ثَمَّ نفخٌ ولا منفوخٌ فيها وإِنَّما هو تمثيلٌ لتحصيلِ مايُحْيَىٰ بِهِ فيهِ[١].

﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ﴾ حُذِفَ حرفُ الجرِّ مع «أَنْ» والتقديرُ: مَالَكَ في أَن لاتَكُونَ ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، والمعنىٰ: أَيُّ غَرضٍ لكَ في إِبائكَ السجودَ، وأَيُّ داعٍ لك إِليهِ؟ ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ اللامُ لتأكيدِ النفيِ، أَي: لايصحُّ منِّي أَن أَسجُدَ ويستحيلُ منِّي ذلكَ. ﴿رَجِيمٌ﴾ مرجومٌ، مَلعُونٌ، مطرودٌ من الرحمةِ، مُبعَّدٌ منها، والضميرُ في ﴿مِنْهَا﴾ يعودُ إِلى الجنَّةِ أَو إِلى السماءِ أَو إِلى الملائكةِ.

و﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ و﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ و﴿يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ في معنىً واحدٍ خُولِفَ بينَ العِباراتِ سُلوكاً لطريقِ البلاغةِ، وقيلَ: إِنَّما سأَلَ الإِنظارَ إِلى اليومِ الَّذي فيهِ يُبْعَثُونَ لِئَلَّا يموتَ؛ لأَنَّهُ لايموتُ يومَ البعثِ أَحدٌ، فلَمْ يُجَبْ إِلىٰ ذلكَ وأُنظِرَ إِلى آخرِ أَيَّامِ التكليفِ[٢].

---

(١) قال العلّامة الطباطبائي: النفخ: إدخال الهواء في داخل الاجسام بفم أو غيره، ويكنّى به عن إلقاء أثر أو أمرٍ غير محسوس في شيء، ويعني به في الآية: إيجاده تعالى الروح الانساني بما له من الرابطة والتعلّق بالبدن، وليس بداخل فيه دخول الهواء في الجسم المنفوخ فيه. راجع تفسير الميزان: ج ١٢ ص ١٥٤.

(٢) ذكره العلّامة الطباطبائي في تفسيره: ج ١٢ ص ١٦٠ وقال: نُسبَ الى ابن عباس، ومال إليه الجمهور.

﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ الباءُ للقسَم و «ما» مصدريَّةٌ، وجوابُ القسَمِ ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾، والمعنىٰ: أُقسِمُ بإغوائك إيّايَ ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾، ومعنىٰ إغوائه إيَّاهُ: تسبيبُهُ لغَيِّهِ بأَن أَمرَهُ بالسجودِ لآدمَ فأَفضَىٰ ذلك إلىٰ غَيِّهِ، وما الأَمرُ بالسجودِ إلَّا حسَنٌ وتعريضٌ للثوابِ بالتواضعِ والخضوعِ لأَمرِ اللهِ، ولكنَّ الملعونَ اختارَ الاستكبارَ فهلَكَ وغَوَىٰ باختيارِه. ويجوزُ أَن لايكونَ ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ قسَماً ويُقدَّرَ قسَمٌ محذوفٌ، ويكونَ المعنىٰ: بسببِ تسبيبِكَ لإغوائي أُقسمُ لأَفعلَنَّ بهم نحوَ مافعلْتَ بي من التسبيبِ لإغوائهم بأَن أُزيِّنَ لهم المعاصِيَ وأُوَسوِسَ إليهم مايكونُ سبَبَ هلاكِهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَي: في الدنيا الَّتي هيَ دارُ الغرورِ، كقولِه تعالىٰ: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [1]، أَو أَرادَ: لأَجعلنَّ مكانَ التزيينِ عندَهُم الأَرضَ ولأُوقِعَنَّ تَزييني فيها، أَي: لأُزَيِّنَنَّها في أَعيُنِهم حتَّى يستحِبُّوها على الآخِرةِ ويَطمئنُّوا إليها. ثُمَّ استثنَىٰ ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ لأَنَّه علِمَ أَنَّهم لايَقبلُونَ قولَه.

﴿قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤) إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَافِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰناً عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ (٤٧) لَايَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَاهُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ (٥٠)﴾

أَي: ﴿هَـٰذَا﴾ طريقٌ حقٌّ ﴿عَلَىَّ﴾ أَن أُراعيَهُ، وهوَ أَن لايكونَ لَكَ ﴿سُلْطَـٰنٌ﴾

---

(١) الأعراف: ١٧٦.

علىٰ عِبادي إلَّا مَنِ اختارَ منهُم متابَعَتَك لغوايَتِهِ، وقُرِئَ: «صِرَاطٌ عَلِيٌّ»(١) وهو من عُلُوِّ الشرفِ والفضلِ. ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾ الضميرُ لـ ﴿ٱلْغَاوِينَ﴾.

وأَبْوَابُ جهنَّمَ: أَطباقُها، بعضُها فوقَ بعضٍ ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أَي: نصيبٌ مفروضٌ(٢).

و﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الَّذِينَ يتَّقونَ مايجبُ عليهم اتِّقاؤهُ مِمَّا نُهُوا عنهُ، يقالُ لهمْ: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ أَي: سالمين مُسلَّمين من الآفاتِ ﴿ءَامِنِينَ﴾ منَ الإِخراجِ منها.

والغِلُّ: الحِقدُ الكامِنُ في القلبِ، معناهُ: وأَزلْنا ماكانَ في قلوبِهم من أَسبابِ العَداوةِ في الدنيا، وقيلَ: معناه: طهَّرْنا قلوبَهم من أَن يتحاسدُوا على الدرجَاتِ في الجنَّةِ(٣)، و﴿إِخْوَٰنًا﴾ نصبٌ علَى الحالِ، و ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ كذلكَ: أَي: كائنين علىٰ مجالِسِ السرُورِ مُتواجِهين، ينظرُ بعضُهم إِلىٰ وجهِ بعضٍ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا﴾ تَعَبٌ وعناءٌ.

ثمَّ قرَّرَ ما ذكره من الوعدِ ومكَّنَهُ في نفوسِهم بقولِه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا﴾ وَحْدِي ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ للذنوبِ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الكثيرُ الرحمةِ ﴿وَأَنَّ عَذَابِى﴾ هوَ المُستأهِلُ لأَنْ يُسمَّىٰ أَليماً، فارجُوا رحمتي وخافُوا عذابي.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ

(١) قرأه يعقوب وابن سيرين وقتادة. راجع التبيان: ج ٦ ص ٣٣٧.

(٢) في نسخة: مفروز.

(٣) حكاه الزمخشري في الكشاف: ج ٢ ص ٥٨٠.

إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٦٠) ﴾

﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾، أي: وأَخبِرْهم عنهم ليتَّخِذوا ما أُحِلَّ بقومِ لوطٍ من العذابِ؛ عبرةً يعتبرُونَ بها سخطَ ٱللهِ وانتقامَهُ من المُجرِمينَ، ويتحقَّقُوا عندَه أنَّ عذابَه هوَ العذابُ الأَليمُ ﴿فَقَالُواْ سَلَٰماً﴾ أي: نُسلِّمُ عليكَ سلاماً، أو سَلِمْتَ سلاماً ﴿قَالَ﴾ إبراهيمُ ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفونَ، وكانَ خوفُه لأَنَّهم دخَلُوا بغيرِ إِذنٍ وبغيرِ وقتٍ، أو لامتناعِهم منَ الأَكلِ.

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئنافٌ في معنَى التعليلِ للنهي عن الوَجَلِ، المعنىٰ: إِنَّك آمِنٌ مُبشَّرٌ فـ﴿لَا تَوْجَلْ﴾.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى﴾ مع مسِّ ﴿ٱلْكِبَرُ﴾ بأَن يُولَدَ لي؟ أَي: أَنَّ الوِلادةَ أَمرٌ عجيبٌ معَ الكِبَرِ ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ وهي «ما» الاستفهاميَّة دخلَها معنَى التعجُّبِ، كأَنَّه قالَ: فبأَيِّ أُعجُوبةٍ تُبشِّرونَ، وقُرِئَ بفتحِ النونِ وكسرِها[1] علىٰ حذفِ نونِ الجمعِ، والأَصلُ «تُبَشِّرُونَنِ»، وقُرِئَ بإِثباتِ الياءِ «تُبَشِّرُونِي»[2] و«تُبَشِّرُونِّ»[3] بإِدغامِ نونِ الجمعِ في نونِ العِمادِ.

﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أَي: باليقينِ الَّذي لا لَبْسَ فيهِ ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ أَي: الآيسينَ.

---

(١) وقراءة الكسر هي قراءة نافع وشيبة. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٨٦، وتفسير القرطبي: ج ١٠ ص ٣٥.

(٢) حكاها في مجمع البيان: ج ٥ ـ ٦ ص ٣٣٩ عن يعقوب.

(٣) أي: بكسر النون مشدّدة، وهي قراءة ابن كثير وابن محيصن. راجع تفسير القرطبي: ج ١٠ ص ٣٥.

وقرِئَ: ﴿يَقْنَطُ﴾ بكسرِ النونِ[١] وفتحها ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ أي: المُخطِئونَ سبيلَ الصوابِ، يعني: لَمْ أَستنكِرهُ قُنوطاً من رحمتِه ولكن اسْتِبعاداً له في العادةِ الجاريةِ بينَ الخلقِ ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: فما شأنُكم الَّذي بُعِثتُم لهُ؟

وقولُه: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ إن كانَ استثناءً من ﴿قَوْمٍ﴾ كانَ منقطعاً؛ لأَنَّ القومَ موصُوفونَ بالإجرامِ فاختَلَفَ لذلكَ الجنسانِ، وإن كان استثناءً من الضميرِ في ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ كان متَّصلاً، كأنَّه قالَ: ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ قَدْ أَجرَمُوا كُلُّهم إلَّا آلَ لوطٍ.

وقولُه: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثناءٌ من الضميرِ المجرورِ في ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾ وليسَ استثناءً منَ الاستثناءِ ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ تعليقٌ؛ لأَنَّ التقديرَ يتضمَّنُ معنَى العلمِ، ولذلكَ فَسَّرَ العلماءُ تقديرَ اللهِ تَعالى أعمالَ العبادِ بالعلمِ[٢]، وإنَّما أَسْندَ الملائكةُ فعلَ التقديرِ إلىٰ أَنفُسِهم وهو للهِ تعالىٰ لِما لَهُم من القُربِ والاختصاصِ باللهِ، كما يقولُ خاصَّةُ المَلِكِ: فعَلْنَا كذا وأَمَرْنا بكذا، والمدبِّرُ والآمرُ هو المَلِكُ لا هُم، وقُرِئَ: «قَدَرْنا» بالتخفيفِ[٣] وكذلكَ في النملِ[٤].

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا

---

(١) قرأه ابو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف والحسن البصري والأعمش. راجع الكشف عن وجوه القراءات للقيسي: ج ٢ ص ٣١، وتفسير البغوي: ج ٣ ص ٥٣.

(٢) قسّم علماء الكلام التقدير الى مراتب أو أقسام ثلاثة: التشريعي والعيني والعلمي، وهذا الأخير عرّفوه بأنّه عبارة عن تحديد كل شيء بخصوصياته في علمه الأزليّ سبحانه وتعالى قبل ايجادها، فهو تعالى يعلم حدّ كلّ شيء ومقداره وخصوصياته الجسمانية وغير الجسمانية، وقد أُشير إليه في آيات الكتاب المجيد، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾، وقال جلّ شأنه: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾. انظر الالهيات للسبحاني: ص ٢٦٦.

(٣) قرأه أبو بكر والمفضّل. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٨٧.

(٤) الآية: ٥٧.

لَصَـٰدِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٧٠) قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) ﴾

﴿مُنكَرُونَ﴾ أي: تُنكِرُكُم نفسي وتَنْفِرُ منكم فأَخافُ أَنْ تطرُقُوني بشرٍّ، يدُلُّ عليهِ قولُهم: ﴿بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: ماجِئْناكَ بما تُنكِرُنا لأَجلِهِ، بل جئناكَ بما فيهِ فرَحُكَ وسرورُك وهوَ العذابُ الَّذي كنتَ تُخوِّفُهم بهِ وتتوعَّدُهم بنُزُولِه فيمتَرونَ أَي: يشكُّونَ فيه. ﴿وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ باليقينِ عن عذابِهم ﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ في الإِخبارِ بنُزولِه بهم.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ قُرِئَ بقَطعِ الهمزةِ ووصلِها[1] من سَرَىٰ وأَسرَىٰ ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ وهوَ من آخِرِه بعدَما يمضِي أَكثرُ الليلِ ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾ أَي: اقْتَفِ آثارَهم وكُنْ وراءَهم لتكونَ عيناً عليهِم فلَا يتخلَّفَ أَحدٌ منهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ إِلىٰ ماخلَّفَ وراءَه في المدينةِ، أَو هو كنايةٌ عن مواصَلةِ السيرِ وتركِ التوقُّفِ؛ لأَنَّ من يلتفِتُ لابُدَّ له في ذلكَ من أَدنىٰ وَقْفَةٍ ﴿وَٱمْضُواْ﴾ أَي: اذهَبُوا إِلىٰ ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أَي: إِلى المَوضِعِ الَّذي أُمِرتُم بالذهابِ إِليهِ وهو الشامُ، وعُدِّيَ

---

(١) وبالوصل قرأه ابن كثير ونافع. راجع تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٢٢٢.

﴿ٱمْضُواْ﴾ إلىٰ ﴿حَيْثُ﴾ كما يُعدَّىٰ إلى الظرفِ المُبهَمِ؛ لأَنَّ «حيثُ» مبهمٌ في الأَمكنةِ، وكذلكَ الضميرُ في «تُؤْمَرُونَه».

وعُدِّيَ ﴿وَقَضَيْنَآ﴾ بـ«إلىٰ» لأَنَّ المعنىٰ: وَأَوْحَيْنَا ﴿إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ مَقضِيّاً، وفَسَّر ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ بقولِه: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ وفي إبهامِه وتفسيرِه تعظيمٌ للأَمرِ، وقُرئَ: «إِنَّ» بالكسرِ[1] على الاستئنافِ، كأَنَّ قائلاً قالَ: أَخبِرْنا عن ذلك الأَمرِ فقيلَ: إِنَّ دابرَ هؤُلاءِ مقطوعٌ، ودابِرُهم: آخِرُهم، يعني: يُستأصَلُونَ عن آخِرِهم حتَّىٰ لايَبقىٰ منهمْ أَحدٌ ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ أَي: داخلينَ في وقتِ الصبحِ.

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ وهي سَدُومُ[2] الَّتي يُضرَبُ بقاضِيهَا المَثلُ في الجَورِ[3]، مُستَبْشِرِينَ بالملائكةِ. ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ي بفضيحةِ ضَيفي؛ لأَنَّ من أُسيءَ إلىٰ ضيفِهِ وجارِه فقد أُسيءَ إليه. ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ي ولا تُذِلُّوني بإذلالِ ضيفي، من الخِزْي، أَو لاتُشوِّرُوا بي، من الخَزايةِ وهي الحَياءُ.

﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أَي: عن أَن تُجيرَ منهم أَحداً أَو تَدفعَ عنهم أَو تمنَعَ بيننا وبينَهم وهو ماأَوعدُوه من قولِهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾[4]، وقيلَ: عن ضيافةِ الناسِ وإنزالِهم[5].

﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ إشارةٌ إلى النساءِ؛ لأَنَّ كلَّ أُمَّةٍ أَولادُ نَبيِّها، أَي: هَؤُلاءِ بَنَاتِي فَانْكِحُوهنَّ وخَلُّوا بنيَّ فلا تتعرَّضُوا لهم ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ شكٌّ في قبولِهم لقولِه،

---

(١) وهي قراءة الأعمش وزيد بن علي. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٤٦١.

(٢) سدوم بفتح السين وبالدال المهملة، وقيل: بالذال المعجمة، وهي مدينة من مدائن قوم لوط عليه‌السلام. راجع معجم البلدان للحموي: ج ٣ ص ٥٩.

(٣) يقال: إنّ من جوره أنّه حكم على أنّه إذا ارتكبوا الفاحشة من أحد أُخذ منه أربعة دراهم! أنظر مجمع الامثال للميداني: ج ١ ص ١٩٩.

(٤) الشعراء: ١٦٧.

(٥) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ١٨٢.

فكأنَّهُ قالَ: إنْ فَعلْتُم ماأَقُولُه لكُم ومـاأَظُنُّكم تـفعَلُونَ، وقـيلَ: مـعناه: إنْ كُـنتم متَزوِّجينَ[١].

﴿لَعَمْرُكَ﴾ أي: وحياتِكَ يامحمَّدُ ومدَّةِ بقائك، وعن المـبرّدِ[٢]: هـو دُعـاءٌ معناه: أَسأَلُ اللهَ عُمرَك[٣]، وتقديرُه: لعمرُك ممَّا أُقسِمُ بهِ، والعَمرُ والعُـمرُ واحـدٌ إلَّا أنَّهم خصُّوا القسَمَ بالمفتوحِ لخِفَّةِ الفـتحة ﴿إِنَّـهُمْ لَـفِى سَكْـرَتِهِمْ﴾ أي: فـي غَوايتِهمُ الَّتي أذهبَتْ عُقولَهم يتحيَّرونَ.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وهي صيحةُ جَبرئيلَ ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخِلينَ في الشروقِ وهوَ طُلُوعُ الشمس. ﴿مِن سِجِّيلٍ﴾ من طينٍ عليهِ كِتابٌ.

والمتوسِّمُ: المُتفرِّسُ، المتأَمِّلُ، المتثبِّتُ في نظرِه حتَّىٰ يـعرِفَ حـقيقةَ سِـمَةِ الشيء.

الصادقُ عليه السلام: «نحنُ المتوسِّمونَ»[٤].

وفي الحديثِ: «إنَّ للهِ عباداً يَعرِفُونَ الناسَ بالتوسُّمِ»[٥].

﴿وَإِنَّهَا﴾ وإنَّ آثارَها ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ ثابتٍ يسلُكُه الناسُ لم يندَرِسْ بـعدُ وَهُم يُبصِرُونَ تلكَ الآثارَ، وهي تنبيهٌ لقريشٍ، كقولِه: ﴿وَإِنَّكُـمْ لَـتَمُرُّونَ عَـلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾[٦].

---

(١) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ١٨٣.

(٢) هو أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي الثمالي البصري، نزيل بغداد، وكان إماماً في النحو واللغة، أخذ الأدب عن ابي عثمان المازني وأبي حاتم السجستاني، وأخذ عنه نفطويه، توفّي عام ٢٨٦ هـ ببغداد. انظر وفيات الاعيان لابن خلكان: ج ٣ ص ٤٤٥.

(٣) حكاه عنه الشيخ في التبيان: ج ٦ ص ٣٤٨.

(٤) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٤٧ ح ٢٩.

(٥) مجمع الزوائد للهيثمي: ج ١٠ ص ٢٦٨، اتحاف السادة المتقين للزبيدي: ج ٦ ص ٥٤٥.

(٦) الصافات: ١٣٧.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَـٰلِمِينَ (٧٨) فَـانْتَقَمْنَا مِـنْهُمْ وَإِنَّـهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً ءَامِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (٨٤) وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَابَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّـاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ (٨٦)﴾

﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ قومُ شُعيبٍ، وتقديرهُ: وَإِنَّهُ كان أَصحابُ ٱلْأَيْكَةِ ظالمينَ. ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني: قُرَىٰ قومِ لوطٍ والأَيكةِ ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ لَبِطريقٍ واضحٍ يُؤَمُّ ويُتَّبعُ ويُهتدَىٰ به.

و﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾: ثمودُ، والحِجرُ: وادِيهم، وهو بـينَ المـدينةِ والشـام. ﴿ءَامِنِينَ﴾ من أَن تنهدمَ بيوتُهم ومن نقبِ اللصوصِ لوثـاقتِها واسـتحكامِها، أَو آمنينَ من عذابِ ٱللهِ، يَحسِبُونَ أَنَّ الجبالَ تحميهم منه.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ فما دَفَعَ عنهم العذابَ ﴿مَا كَانُواْ﴾ يَكسبُونهُ مـن البـناءِ الوثيقِ والمالِ والعُدَدِ.

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أَي: إِلَّا خَلْقاً ملتبِساً بالحقِّ والحكمةِ والثوابِ لاباطلاً وعَبَثاً، أَو بسببِ العدلِ والإِنصافِ يومَ الجزاءِ على الأَعمالِ ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ فينْتقِمُ ٱللهُ لكَ فيها من أَعدائك، ويُـجازيك وإِيَّـاهم وجـميعَ الخـلائِقِ عـلىٰ أَعـمالِهم ﴿فَاصْفَحِ﴾ أَي: فأَعرِضْ عنهم وٱحـتمِلْ مـاتلقَىٰ مـنهم إِعـراضاً جـميلاً بـحلمٍ وإِغضاءٍ. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ﴾ الَّذي خلقَكَ وخلقَهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بِحالِك وحالِهم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعاً مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْـقُرْءَانَ ٱلْـعَظِيمَ (٨٧) لَاتَـمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَامَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَٰجاً مِّنْهُمْ وَلَاتَحْزَنْ عَـلَيْهِمْ وَٱخْـفِضْ جَـنَاحَكَ

لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ (٨٩) كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ (٩٥) ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) ﴾

﴿سَبْعاً﴾ أَي: سبعَ آياتٍ وهي الفاتِحةُ، أَو سبعَ سُوَرٍ وهي السبعُ الطُّوَلُ[1]، والسابعةُ الأَنفالُ وبراءَةٌ لأَنَّهما في حُكمِ سورةٍ واحدةٍ، ولذلكَ لم يُفصَلْ بينَهما بـ«بِسمِ ٱللهِ ٱلرَّحمنِ ٱلرَّحيمِ» والأَوَّلُ أَصحُّ، و ﴿ٱلْمَثَانِى﴾ من التثنيةِ وهي التكريرُ؛ لأَنَّ الفاتحةَ تُكرَّرُ قراءَتُها في الصلاةِ، أَو من الثناءِ لاشتمالِها على الثناءِ علَى اللهِ، والواحدةُ مَثْنَاةٌ: مَفعَلَةٌ، أَي: موضعُ ثناءٍ أَو تثنيةٍ، و ﴿مِن﴾ إِمَّا للبيانِ أَو للتبعيضِ.

﴿لَاتَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أَي: لاتطمحْ ببصَرِكَ ﴿إِلَىٰ مَامَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَٰجاً﴾ أَي: أَصنافاً مِنَ المشرِكينَ من أَنواعِ النِعمِ طُموحَ راغبٍ فيهِ مُتَمَنٍّ له، واشتغِنِ بما أُوتيتَ من النعمةِ الَّتي كلُّ نعمةٍ وإِن عَظُمتْ فهيَ بالإِضافةِ إِليها نَزْرَةٌ يسيرةٌ وهي ٱلْقرآنُ ٱلْعظيمُ ﴿وَلَاتَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أَن لمْ يُؤْمِنُوا فيتقوَّىٰ بهم الإِسلامُ وأَهلُه، وتواضَعْ لمن معكَ منَ ٱلْمُؤْمِنِينَ، وطِبْ نفساً عن إِيمانِ الأَغنياءِ والأَقوياءِ.

﴿وَقُلْ﴾ لهم ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أُنذِرُكمْ ببيانٍ وبرهانٍ أَنَّ عذابَ اللهِ نازلٌ بكم، وأُبيِّنُ لكم ماتحتاجُونَ إِليهِ وماأُرسلتُ بهِ إِليكُم.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ فيهِ وجهانِ: أَحدُهما: أَن يتعلَّقَ بقولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ﴾ أَي: أَنزلنا عليكَ مثلَ ماأَنزلنا على اليهودِ والنصارىٰ وهمُ

---

(١) في بعض النسخ: الطوال.

المُقتسِمُونَ ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ إذ قالوا بعنادِهم: بعضُه حقٌّ موافقٌ للتوراةِ والإنجيلِ وبعضُه باطلٌ مخالفٌ لهما، فاقتسَمُوه إلىٰ حقٍّ وباطلٍ وعَضَّوْهُ.

والثاني: أن يتعلَّقَ بقولِه: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: أُنذِرُكُم عَذاباً مثلَ ماأنزلنا على المُقتسِمينَ الَّذينَ اقتسَمُوا مَداخِلَ مكَّةَ أيَّامَ المَوسِمِ، وهم ستَّةَ عَشَرَ رجلاً بَعثَهُمُ الوليدُ بنُ المُغيرةِ فقَعَدُوا في كلِّ مَدخَلٍ ينفِّرُونَ الناسَ عن الإيمانِ برسولِ ٱللهِ ﷺ، يقُولُ بعضُهم: لاتغترُّوا بالخارجِ مِنَّا والمدَّعِي النبوَّةَ فإنَّهُ ساحرٌ، ويقولُ الآخرُ: كذَّابٌ، والآخرُ: شاعرٌ، فأهلكَهُم اللهُ يومَ بدرٍ وقبلَه بآفاتٍ، ﴿عِضِينَ﴾ أجزاءً، جمعُ عِضَةٍ، وأصلُه عِضوَةٌ، فِعْلَةٌ من عضَّىٰ الشاةَ إذاجعلَهاأعضاءً.

﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾ عبارةٌ عن الوَعيدِ، وقيل: نَسألُهمْ سؤالَ توبيخٍ وتقريعٍ: لِمَ عَصَيتُم؟!(١).

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: فاجْهَر بهِ وأَظهِرْه، يقالُ: صدَعَ بالحجَّةِ: إذا تكلَّمَ بها جِهاراً، مِن الصديعِ وهو الصبحُ، والأَصلُ: بِما تُؤمَرُ بِهِ منَ الشرائعِ، فحُذِفَ الجارُّ، كما في قولِ الشاعرِ:

أَمَرْتُكَ الخيرَ فافْعَلْ ماأُمِرتَ بهِ(٢)

ثمَّ حُذِفَ ضميرُ المفعولِ، ويجوزُ أن يكونَ «مَا» مصدريَّةً، أي: بأَمرِكَ، وهو مصدرٌ من المبنيِّ للمفعولِ.

والْمُسْتهزِئونَ: خمسةُ نفرٍ ذَوُو أَسنانٍ وشرفٍ: الوَليدُ بنُ المُغِيرةِ والعاصُ بنُ

(١) وهو قول ابن عباس. راجع تفسير القرطبي: ج ١٠ ص ٦١.

(٢) وعجزه: فقد تركتك ذا مالٍ وذا نشب. واختلف في قائله، فقيل: لخفاف بن نُدبة، وقيل: لعباس بن مرداس، وقيل: لعمرو بن معدي كرب وإليه مال سيبويه، وقيل: لأعشىٰ طرود وإليه مال البغدادي في خزانة الأدب، وقيل: لزرعة بن السائب وإليه ذهب المرزباني. انظر خزانة الأدب: ج ١ ص ٣٣٩ ـ ٣٤٥.

وائلٍ والأَسودُ بنُ عبدِ يَغوثَ والأَسودُ بنُ المطَّلِبِ بنِ عبدِ مَنافٍ والحارثُ بنُ الطُّلاطِلَةِ، ماتُوا كلُّهم قبلَ بدرٍ، قالَ جبرَئيلُ للنبيِّ عليه السلام: أُمرتُ أن أكفِيَكَهُم، فأَومأَ إلىٰ ساقِ الوَليدِ فمرَّ وهوَ يجرُّ ثوبه، فتعلَّقتْ بثوبِهِ شَوْكَةٌ فمنعه الكِبرُ أن يخفِضَ رأسَه فينزِعَها فخدشَتْ ساقَهُ فماتَ من ذلكَ، وأَومأَ إلىٰ أَخمَصِ[1] العاصِ بنِ وائلٍ فوَطأَ شُبْرُمَةً[2] فدخلَت فيها وقالَ: لُدِغتُ، ولم يزَلْ يَحُكُّها حتّىٰ ماتَ، وأَشارَ إلىٰ عينَي الأَسودِ فعَمِيَ، وجعَلَ يضرِبُ رأسه على الجِدارِ حتّىٰ ماتَ، وأَشارَ إلىٰ أَنفِ الحارثِ فامتخَطَ قَيحاً فماتَ، وأَشارَ إلى الأَسودِ فاسْتَسقىٰ فماتَ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ (٩٨) وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ (٩٩)﴾

أَي: ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ من تكذيبكَ، والطعنِ فيكَ وفي القرآنِ. ﴿فَسَبِّحْ﴾ أَي: فافزعْ إِلَى ٱللهِ عزَّ اسمُه فيما نابَكَ[3] يكشِفْ عنكَ الغَمَّ ويكفكَ المُهمَّ ﴿وَكُن مِّنَ﴾ الَّذِينَ يسجُدونَ للهِ، كانَ صلواتُ اللهِ عليهِ وآلِه وسلّمإذاأَحزنَه أَمرٌ فزِعَ إِلَى الصَّلاةِ. ودُم علىٰ عبادةِ ﴿رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ أَي: الموتُ، يعني: مادُمتَ حيّاً.

۞ ۞ ۞

---

(١) أخمص القدم: باطنها الذي لايُصيب الأرض، يقال: خمصت القدمُ: اذا ارتفعت عن الأرض فلم تمسّه. (مجمع البحرين: مادة خمص).

(٢) الشُبْرُم: ضرب من الشجر ذي شوك. (القاموس المحيط: مادة شبرم).

(٣) في بعض النسخ: يأتيك.

سورةُ النحل

وتُسمَّى أيضاً سورةَ النِعَمِ، أكثرُها مَكّيٌّ [1]، مائةٌ وثمانٍ وعشرونَ آيةً بلا خِلافٍ.

في حديثِ أُبيٍّ: «من قرأها لم يُحاسِبْهُ اللهُ تعالىٰ على النِعمِ الَّتي أنعمَها عليهِ في دارِ الدنيا، وإن ماتَ في يومٍ تلاها أَو ليلةٍ أُعْطيَ من الأَجرِ كالَّذي ماتَ فأَحسنَ الوصيَّةَ» [2].

وعنِ الباقرِ عليه السلام: «مَن قرأَها في كلِّ شهرٍ كُفي المَغرَمَ في الدنيا وسبعينَ نوعاً من أَنواعِ البلاءِ أَهونُه الجنونُ والجُذامُ والبرصُ، وكان مسكنُه في جنَّةِ عدنٍ وهي وسطُ الجِنانِ» [3].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج٦ ص٣٥٧: هي مكية الّا آية هي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِن بَعْدِمَا ظُلِمُواْ﴾ الآية. وقال الشعبي: نزلت النحل كلّها بمكة إلّا قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ الى آخرها. وقال قتادة: من أول السورة الى قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ مكي، والباقي مدني. وقال مجاهد: أولها مكي وآخرها مدني، وهي مائة وعشرون آية ليس فيها خلاف.

وقال القرطبي: ج ١٠ ص ٦٥ ما لفظه: وهي مكية كلّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وتسمّى سورة النعم بسبب ماعدّد الله فيها من نعمه على عباده. وقيل: هي مكية الّا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ الآية، نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة وقتلىٰ أُحد.

وقال الزمخشري في الكشاف: ج ٢ ص ٥٩٢: مكية غير ثلاث آيات في آخرها، وتسمّى سورة النعم، وهي مائة وثمان وعشرون آية، نزلت بعد سورة الكهف.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٦٤٥ مرسلاً.

(٣) ثواب الأعمال: ص ١٣٣، تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٥٤ ح ١ باختلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ (٢) خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧)﴾

قرُبَ ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بعذابِ هؤلاءِ الكُفَّارِ، أو ﴿أَتَىٰ أَمْرُ﴾[١] القيامةِ، أي: هو بمنزلةِ الآتي الواقعِ وإن كانَ مُنتظَراً لقُربِ وقوعِه ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، كانوا يستعجِلونَ ذلك كما حكَى اللهُ عنهم قولَهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[٢]. ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تبرَّأَ[٣] عزَّوجلَّ عن أن يكونَ له شريكٌ وأن تكون آلهتُهم له شُركاءَ فتكونُ «مَا» موصولةً، أو عن إشراكِهم فتكونُ مصدريَّةً، وقُرِئَ: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالياءِ والتاءِ[٤].

وقُرِئَ: ﴿يُنَزِّلُ﴾ بالتخفيفِ[٥] والتشديدِ و﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ بالنصبِ، وقُرِئَ: «تَنَزَّلُ الملائكةُ»[٦] أي: تتنزَّلُ ﴿بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾: بما يُحيي القُلوبَ الميِّتةَ

---

(١) في نسخة زيادة: يوم.

(٢) الأنفال: ٣٢.

(٣) في نسخة: تنزّه.

(٤) وقراءة التاء هي قراءة حمزة والكسائي. راجع التبيان: ج ٦ ص ٣٥٧.

(٥) قرأه ابن كثير وأبو عمرو وورش ورويس. راجع التبيان: ج ٦ ص ٣٥٩، والتذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٨٩.

(٦) وهي قراءة المفضّل عن عاصم وروح. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ←

بالجهلِ من وحيه أو بما يقومُ في الدينِ مقامَ الروحِ في الجَسَدِ، وَ ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ بدلٌ من «ٱلرُّوحِ» أي: يُنَزِّلُهم بأَن أَنْذِرُوا، والتَّقديرُ: بأَنَّه، والضميرُ للشأنِ أي: بأَنَّ الشأنَ أَقولُ لكم: أَنذِرُوا، أَو يكونُ ﴿أَنْ﴾ مفسِّرةً لأَنَّ تنزيلَ الملائكةِ بالوحي فيه معنى القولِ، ومعنىٰ أَنذِرُوا: أَعْلِمُوا بـ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ من نَذِرْتُ بكذا: إذا عَلِمْتَهُ، أي: يقولُ لهم: أَعلِمُوا الناسَ قولي: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾.

ثمَّ دلَّ علىٰ وحدانيَّتِهِ وأنَّه لا إله إلَّا هو بذكرِ ما لايقدِرُ عليه غيرُه من خلقِ ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وخلقِ ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ وما يُصلِحُهُ وما لابُدَّ له منه من خلقِ البهائمِ لأَكلِهِ ورُكُوبِهِ وحملِ أَثقالِهِ وسائرِ حاجاتِهِ وخلقِ ما لايعلَمونَ من أَصنافِ خلقِهِ ﴿تَعَـٰلَىٰ﴾ وجَلَّ من أن يُشرَكَ به غيرُه ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ معناه: فإذا هو مجادِلٌ للخُصُومِ[1]، مِنطِيقٌ، مُبِينٌ عن نفسِهِ بعدَما كانَ نطفةً جماداً، وقيلَ: فإذا هو خصيمٌ لربِّه، مُنكِرٌ لخالقِهِ[2].

و﴿ٱلْأَنْعَـٰمَ﴾: الأَزواجُ الثمانيةُ، وأَكثرُ مايقعُ على الإبلِ، وانتَصَبَ بفعلٍ مضمرٍ يفسِّره الظاهرُ، وَ«الدِّفْءُ»: اسمُ ما يُدفَأُ به، كالمِلءِ اسمُ مايُملأُ به، وهو اللباس المعمول من صُوفٍ أَو وَبَرٍ أَو شَعَرٍ، ﴿وَمَنَـٰفِعُ﴾: هي نَسلُها ودرُّها وغيرُ ذلك من الحَملِ والركوبِ وإثارةِ الأَرضِ.

ومنَّ سبحانَه بالتجمُّلِ بها كما منَّ بالانتفاعِ بها لأَنَّها من أَغراضِ أَصحابِ المَواشي؛ لأَنَّهم إذا أَراحُوها بالعَشِيِّ وسرَحوها بالغَداةِ فَزُيِّنَتِ الأَفْنِيةُ[3]

← ص ٤٨٩، وتفسير القرطبي: ج ١٠ ص ٦٧.

(١) في بعض النسخ زيادة: واو.

(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٥٩٣.

(٣) الأفنية جمع فناء، وهو ما امتدّ من جوانب الشيء، يقال: فناء الدار: اذا امتدّ جوانبها. (الصحاح: مادة فنى).

وتجاوبَ فيها الثغاءُ[١] والرُّغاءُ[٢] فرحَتْ أربابُها وأجلَّهم الناظرونَ إليها فَكَسَّبَتْهم الجاهَ والحُرمةَ عند الناسِ، وقدَّمَ الإراحةَ على السرحِ لأنَّ الجمالَ في الإراحةِ أظهرُ إذا أقبلتْ مَلأى البطونِ حافلةَ الضروعِ.

وقُرِئَ: ﴿بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ بفتحِ الشينِ[٣] وكسرِها، وهما لغتانِ في معنى المشقَّةِ، والفرقُ بينَهما: أنَّ المفتوحَ مصدرُ «شَقَّ الأمرُ عليه» وحقيقتُه راجعةٌ إلى الشَقِّ الَّذي هو الصدعُ، وأمَّا الشِقُّ: فالنصفُ كأنَّه يذهَبُ نصفُ قوَّتِهِ لما ينالُهُ من الجَهدِ، والمعنىٰ: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ بعيدٍ ﴿لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ﴾ في التقديرِ: لو لم يخلقِ الإبلَ، إلَّا بجَهدِ أنفسِكُم ومشقَّتِها، ويجوزُ أن يكونَ المعنىٰ: لم تكونوا بالغيه بها إلَّا بشِقِّ الأنفُسِ، وقيلَ: إنَّ البلدَ مكَّةُ[٤] ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيثُ رَحِمَكُم بخلقِ هذه الحواملِ وتيسيرِ هذه المصالحِ.

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣)﴾

---

(١) الثُغاء: صوت الشاة والمعز وما شاكلهما. (لسان العرب: مادة ثغا).

(٢) قال الجوهري: الرُغاء: صوت ذوات الخفّ. أُنظر الصحاح: مادة رغا.

(٣) وهي قراءة أبي جعفر المدني واليزيدي. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٧٦.

(٤) قاله عكرمة. راجع تفسير الطبري: ج ٧ ص ٥٦١.

عطَفَ ﴿ٱلْخَيْلَ﴾ على ﴿ٱلْأَنْعَـٰمَ﴾، أي: خلَقَ هؤلاءِ للركوبِ وللزينةِ، وعطَفَ ﴿زِينَةً﴾ على محلِّ ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ ولم يُرِدِ المعطوفَ والمعطوفَ عليه علىٰ سننٍ واحدٍ؛ لأنَّ الركوبَ فعلُ المخاطبينَ، والزينةَ فعلُ الزائنِ وهو الخالقُ عزَّ ٱسمُه ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أَنواعِ الحَيَوانِ والنباتِ والجمادِ لمنافعِكم.

والمرادُ بـ ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾: الجنسُ، ولذلك أضافَ إليها «القَصْدَ» وقالَ: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾، والقصدُ مصدرٌ بمعنى الفاعِلِ، سبيلٌ قصدٌ وقاصدٌ أَي: مستقيمٌ، كأَنَّه يقصِدُ الوجهَ الَّذي يؤمُّه السالكُ لايعدِلُ عنه، ومعنىٰ قولِهِ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾: أَنَّ هِدايَةَ الطريقِ المُوصِلِ إِلى الحقِّ واجبةٌ عليه، ونحوُه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [1]، ﴿وَمِنْهَا﴾ أَي: ومن السبيلِ ﴿جَآئِرٌ﴾ عن القصدِ، فأَعلَمَ سبحانَه بأَنَّ السبيلَ العادلَ عن الحقِّ لايُضافُ إِليه بقولِهِ: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾، ولو كان الأَمرُ علىٰ ماظنَّهُ المجبِّرةُ لقالَ: وعليه جائرُها أَو وعليه الجائر، ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قسْراً وإلجاءً إِلى السبيلِ القصدِ.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أَي: مطراً ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ أَي: لكم هو شرابٌ كقولِه:

يَأْبَى الظُّلَامةَ منه النوْفَلُ الزُّفَرُ [2]

والشرابُ: مايُشرَبُ، وقولُه: ﴿شَجَرٌ﴾ يعني: الشجرَ الذي ترعاهُ المَواشي، وقيلَ: معناه لكُم من ذلك الماءِ شرابٌ [3] ﴿وَمِنْهُ﴾ شربُ ﴿شَجَرٍ﴾ أَو سَقيُ شجرٍ فحُذِفَ المضافُ، أَو لكم من إِنباتِهِ شجرٌ أَو من سَقيِهِ شجرٌ فحُذِفَ المضافُ إِلى

---

(١) الليل: ١٢.

(٢) وصدره: أخو رغائب يُعطيها ويسألها. والبيت منسوب لأعشىٰ باهلة. انظر الكامل للمبرّد: ج ١ ص ٨٠.

(٣) قاله أبو جعفر الطبري في تفسيره: ج ٧ ص ٥٦٦.

الهاءِ في ﴿مِنْهُ﴾ كما قالَ زُهيرٌ:

أَمِنْ أُمِّ أَوفَىٰ دِمْنَةٌ لم تَكلَّمِ [١]

أَي: من ناحيةِ أُمِّ أَوفَىٰ ﴿تُسِيمُونَ﴾ من سامَتِ الماشيةُ: إِذا رَعَتْ فهي سائمةٌ وأَسمتُها أَنا. وقُرِئَ: ﴿يُنبِتُ﴾ بالياءِ والنونِ [٢]، ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: ﴿مِن﴾ للتبعيضِ؛ لأَنَّ كُلَّ الثمراتِ لاتكونُ إِلَّا في الجنَّةِ، وأُنبِتَ في الأَرضِ بعضٌ من كُلِّها ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ يَنظُرونَ فيستَدِلُّونَ بها عليه وعلىٰ كمالِ حكمتهِ وقُدرَتِهِ.

وقُرِئَ جميعُها بالنصبِ [٣] فيكونُ المعنىٰ: وَ جَعَلَ ٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ، إِذ لايَصْلُحُ أَن يقالَ: وسخَّرَ النجومَ مسخَّراتٍ، ويجوزُ أَن يكونَ المعنىٰ: أَنَّه سخَّرها أَنواعاً مَن التسخيرِ، جمعُ «مسَخَّرٍ»، بمعنىٰ «تسخيرٍ»، من قولِك: سخَّرَه ٱللهُ مُسخَّراً، فكأَنَّه قالَ: وسخَّرها لكم تسخيراتٍ بأَمرهِ، وقُرِئَ بنصبِ ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ وحدَهُما ورفعِ مابعدَهما على الابتداءِ والخَبرِ [٤]، وقُرِئَ: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌ﴾ بالرفعِ وما قبلَهُ بالنصبِ. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ جَمَعَ الآيةَ هُنَا؛ لأَنَّ الآثار [٥] العلويَّةَ أَظهرُ دَلالةً للعقلاءِ علىٰ عظمةِ اللهِ وباهرِ قدرتهِ.

---

(١) وعجزه: بحومانة الدراج فالمتثلَّم. والبيت مطلع معلّقته الميميّة، وهي القصيدة التي يمدح بها هرم بن سنان والحارث بن عوف، وهما سيدان من سادات ذبيان، قد تدخلا في اصلاح ذات البين بين عبس وذبيان ووقّفا الحرب الضروس التي نشبت بينهما على أثر حرب داحس والغبراء، ودفعا من أموالهما حقناً للدماء ديات القتلىٰ الذين لم يؤخذ بثأرهم، فكانت ثلاثة آلاف بعير. راجع ديوان زهير: ص ٧٤، وخزانة الأدب للبغدادي: ج ٨ ص ٥٢٨.

(٢) وقراءة النون هي قراءة عاصم برواية أبي بكر إلّا الأعشىٰ والبرجمي ويحيىٰ. راجع التبيان: ج ٦ ص ٣٦٤، والتذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٨٩.

(٣) أراد من قوله تعالى: ﴿اللَّيْلَ﴾ ومعطوفاتها وحتىٰ قوله: ﴿مسَخَّرات﴾، وهي قراءة ابن كثير ونافع وحمزة والكسائي وأبي عمرو وعاصم برواية أبي بكر. أُنظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٧٠.

(٤) قرأه ابن عامر وحده. راجع التبيان: ج ٦ ص ٣٦٥.

(٥) في بعض النسخ: الآيات.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ﴾ معطوفٌ علىٰ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، يعني: ماخلَقَ فيها من حيوَانٍ ونباتٍ وغيرِ ذلك من أنواع النِعَمِ مُختَلِفَ الهَيآتِ والأَشكالِ لايُشْبِهُ بعضُها بعضاً.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَـٰمَـٰتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّايَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللهِ لَاتُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾

﴿سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي: ذَلَّلَهُ لكُم وسهَّلَ لكم الطريقَ إلىٰ ركوبهِ، واستخراجِ مافيهِ من المَنافعِ، وأَرادَ بِـ«اللحمِ الطريِّ»: السمَكَ، وَصَفَهُ بالطراوةِ لأَنَّ الفسادَ يُسرِعُ إليه فيُسارَعُ إلىٰ أكلهِ لئلَّا يَفْسُدَ، و«الحليةُ» هي: اللؤلؤُ والمَرجانُ ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ أي: تَتَزيَّنُونَ بها وتُلبسونها نساءَكُم ﴿مَوَاخِرَ﴾ أي: شَوَاقَّ لماءِالبحرِ بحَيازِيمِها[١]، وعن الفرَّاءِ[٢]: المَخْرُ: صوتُ جَرْيِ الفُلكِ بالرياحِ، وابتغاءُ الفضلِ: التجارةُ ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كَراهةَأَن تميلَ بكُم وتَضطربَ ﴿وَأَنْهَـٰراً﴾ وجعَلَ فيها أَنهاراً؛ لأَنَّ في«أَلْقَىٰ» معنَىٰ «جَعَلَ» كما قالَ سبحانَه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰداً وَٱلْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾[٣]،

(١) الحيزوم: وسط الصدر. (الصحاح: مادة حزم).

(٢) هو يحيىٰ بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، مولى بني أسد، إمام الكوفيّين وأعلمهم بالنحو واللغة والأدب، ومن كلام ثعلب: لولا الفراء ماكانت اللغة، ويذكر إنّه ابن خالة محمد ابن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة، وعرف أبوه زياد بالأقطع؛ لأنّ يده قطعت في معركة «فخ» عام ١٦٩ هـ التي شهدها مع الحسين بن علي بن الحسن الزكي عليه السلام في خلافة موسى الهادي العباسي. سمّي بالفراء لأنّه كان يفري الكلام أي: يحسن تقطيعه وتفصيله. توفي عام ٢٠٧ هـ بطريق مكّة. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان: ج ٥ ص ٢٢٥.

(٣) النبأ: ٦ و ٧.

﴿وَسُبُلاً﴾ أَي: طُرُقاً ﴿تَهْتَدُونَ﴾ بها إِلىٰ حيثُ شئتم من البِلادِ.

﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ﴾ وهي معالِمُ الطرُقِ وكلُّ مايَستدِلُّ به المارَّةُ من جبلٍ وسَهْلٍ وغيرِ ذلك، والمرادُ بـ«النجم»: الجنسُ، كما يُقالُ: كَثُرَ الدرهمُ في أَيدي الناسِ، وعن السدِّي: هو الثريَّا والفَرقَدانِ وبناتُ نَعْشٍ والجَدْيُ[١]، فكأَنَّه سبحانَهُ بتقديمِ النجْمِ وإِقحامِ ﴿هُمْ﴾ فيه والخروجِ من الخِطابِ إِلى الغيبةِ أَرادَ أَنَّ قريشاً ـ خصوصاً ـ لهم اهتداءٌ بالنجومِ ـ خصوصاً ـ في أَسفارِهِم، فكانَ لهم بذلك علمٌ لم يكن مثلُه لغيرِهِم، فكانَ الشكرُ أَوجبَ عليهم فلذلك خُصِّصُوا.

الصادقُ عليه السلام: «نحن العَلامَاتُ، والنجمُ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم»[٢].

﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ أُريدَ به الأَصنامُ، وجُعِلَ «مَنْ» فيما لايعقلُ لِمَا اتَّصَلَ بذكرِ الخالقِ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعتبِرُونَ.

﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ أَي: لاتضبطُوا عددَها فضلاً عن أَن تُطيقُوا القِيامَ بشكرِها ﴿إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يتجاوَزُ عن تقصيرِكُم في أَداءِ شكرِ نِعَمِهِ ولا يَقطَعُها عنكم.

﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَاتُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَايَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَالَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَاجَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَايُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)﴾

﴿يَدْعُونَ﴾ قُرِئَ بالياءِ والتاءِ[٣]، نَفَىٰ عنهم خصائصَ الإلهيَّةِ بنفي كونهم

---

(١) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٦٤.

(٢) الكافي: ج ١ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ باب انّ الأئمّة هم العلامات ....، المناقب لابن شهرآشوب: ج ٤ ص ١٧٨.

(٣) وقراءة التاء هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو ونافع وابن عامر وحمزة والكسائي. راجع ←

خالقينَ، وأَحياءً لايمُوتُونَ، وعَالِمينَ بوقتِ البعثِ، وأثبَتَ لهم صفاتِ الخلقِ بأَنَّهم مخلُوقُونَ وأَنَّهم أَمواتٌ وأَنَّهم جاهلُونَ بالغيبِ، أَي: لو كانوا آلهةً على الحقيقةِ لكانوا أَحياءً غيرَ أَمواتٍ وأَمرُهم على العكسِ من ذلك، والضميرُ في ﴿يُبْعَثُونَ﴾ للداعينَ، أَي: لايشعُرونَ متَىٰ يُبعَثُ عابدُوهم، وفيه تهكُّمٌ بالمُشركينَ، وأَنَّ آلهتَهم لايعلَمونَ وقتَ بعثِهم فكيفَ يكونُ لهم وقتُ جزاءٍ منهم على عبادتِهم!

﴿لَاجَرَمَ﴾ حقّاً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ سِرَّهُم وعلانيتَهم فيُجازِيهم، وهو وعيدٌ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَايَزِرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَايَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٢٧) ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَاكُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)﴾

﴿مَاذَآ﴾ منصوبٌ بـ ﴿أَنزَلَ﴾ بمعنىٰ: أَيَّ شيءٍ أَنزلَ ربُّكُم؟ أَو مرفوعٌ بالابتداءِ بمعنىٰ: أَيُّ شيءٍ أَنزَلَه ربُّكم؟ فإذا نَصبْتَ فمعنىٰ ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: ماتدَّعُونَ نُزُولَه أَساطيرُ الأَوَّلين، وإِذا رفَعْتَ فالمعنىٰ: المُنزَلُ أَساطيرُ الأَوَّلينَ، أَي: أَحاديثُ الأَوَّلينَ وأَباطيلُهم.

← كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٧١.

﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ﴾ أي: قالوا ذلك إضلالاً للناسِ وصدّاً عن رسولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فحمَلُوا أوزارَ ضلالهم ﴿كَامِلَةً﴾ وبعضَ ﴿أَوْزَارِ﴾ مَنْ أضلُّوهم؛ لأنَّ المُضِلَّ والضالَّ شريكانِ، هذا يُضِلُّهُ وهذا يُطاوِعُهُ علىٰ إضلالِهِ، وجاءَ باللامِ من غيرِ أن يكونَ غرضاً، نحوُ قولِك: خرجتُ من البلدِ مخافةَ الشرِّ، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حالٌ من المفعولِ، أي: يُضلُّونَ من لايعلَمُ أنَّهم ضُلَّالٌ، وإنَّما وَصَفَ بالضلالِ من لايعلَمُ لأنَّه كانَ عليه أن يَبحَثَ ويَنظُرَ بعقلِهِ حتَّىٰ يميِّزَ بينَ المُحِقِّ والمبطِلِ.

و﴿ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أساطينُ البناءِ، وقيلَ: الأَساسُ [١]، وهذا تمثيلٌ لاستئصالهم، والمعنىٰ: أنَّهم سوَّوا منصوباتٍ [٢] ليمكُرُوا ٱللهَ بها فجعَلَ ٱللهُ هلاكهم في تلك المنصوباتِ، كحالِ قومٍ بنَوا بُنياناً وعَمَدُوه بالأَساطينِ فأُتيَ البنيانُ من الأَساطينِ بأَن ضُعْضِعَت فسَقَطَ عليهِمُ السقفُ وهلَكُوا، ومن أَمثالِهم: من حَفَرَ لأَخيه جُبّاً وَقَعَ فيه مُنكبّاً [٣]، والمرادُ بإتيانِ ٱللهِ: إتيانُ أمرِهِ ﴿مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ من جهةِ القواعدِ.

وقرأَ الصادقُ عليه السلام: «فَأَتَى ٱللهُ بَيْتَهُمْ» [٤].

﴿يُخْزِيهِمْ﴾ أَي: يذلُّهُم بعذابِ الخزْيِ، يعني: هذا لهم في الدنيا ثم العذابُ في الآخِرةِ ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾ أضافَهم الىٰ نفسِهِ علىٰ طريقِ الاستهزاءِ بهم ليوبِّخهم بذلك ﴿تُشَـٰٓقُّونَ﴾ أي: تُعادون المُؤمنينَ وتُخاصِمونَهم في شأنِهم ومعناهُم [٥]،

---

(١) قاله زيد بن أسلم. راجع تفسير الطبري: ج ٧ ص ٥٧٧.

(٢) المنصوبة: الحيلة، يقال: سوّى فلان منصوبة. (أقرب الموارد: مادة نصب).

(٣) وهو من الأمثال المشهورة على ألسن الناطقين بلغة الضاد، ونحوه بألفاظ قريبة منه نقلته كتب الأمثال. راجع مجمع الأمثال للميداني: ج ٢ ص ٢٥٣.

(٤) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٥٨ ح ٢١.

(٥) في بعض النسخ: مغناهم.

وقُرِئَ بكسرِ النونِ[١] بمعنى: تُشاقُّونَني؛ لأَنَّ مُشاقَّةَ المُؤمنين كأَنَّها مُشاقَّةُ ٱللهِ، و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ هم: الأَنبياءُ والعلماءُ من أُمَمِهم، وقيلَ: هم الملائكةُ[٢].

﴿تَتَوَفَّـٰهُمُ﴾ قُرِئَ بالتاءِ والياءِ[٣]، وبإِدغامِ التاءِ في التاءِ[٤] ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ أَي: تسالَمُوا وأَخبَتُوا[٥] وجاءوا بخِلافِ ماكانُوا عليه في الدنيا من الشقاقِ[٦] والكِبرِ، وقالُوا: ﴿مَاكُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ جَحَدُوا ماوُجِدَ منهم من الكفرِ والعدوانِ في الدنيا، فرَدَّ عليهم أُولو العلمِ: ﴿إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهو يُجازِيكُم عليه، وهذا أيضاً من الشماتةِ، وكذلك ﴿فَادْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَايَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللهُ ٱلْمُتَّقِينَ (٣١) ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّـٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَاعَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّاكَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٤)﴾

﴿خَيْراً﴾ أَي: أَنزَلَ خيراً، ونُصِبَ هذا ورُفِعَ الأَوَّلُ فصلاً بينَ جوابِ المُقِرِّ

(١) قرأه نافع وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٧١.
(٢) قاله ابن عباس. راجع تفسيره: ص ٢٢٣.
(٣) وهي قراءة حمزة. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٩١.
(٤) قرأه ابن كثير كما في شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٧٦.
(٥) الإخبات: الخشوع، يقال: أَخْبَتَ لله أي: خشع له. (الصحاح: مادة خبت).
(٦) في بعض النسخ: النفاق.

وبينَ جوابِ الجاحدِ، فهؤلاءِ أطبَقُوا الجوابَ على السؤالِ مفعولاً للإنزالِ فقالوا: خيراً، وأُولئك عدلوا بالجوابِ عنِ السؤالِ فقالُوا: هو أَساطيرُ الأَوَّلينَ وليس من الإنزالِ في شيءٍ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ وما بعدهُ بدلٌ من ﴿خَيْراً﴾ حكايةٌ لقولِ الّذينَ اتَّقَوا، أَي: قالُوا هذا القولَ، ويجوزُ أَن يكونَ كلاماً مُبتَدَأً عدةً للقائلين ﴿حَسَنَةٌ﴾ أَي: مكافأَةٌ ﴿فِى ... ٱلدُّنْيَا﴾ بإحسانِهم، ولهم في الآخرةِ ماهو خيرٌ منها ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ دارُ الآخرةِ، فحُذِفَ المخصوصُ بالمدحِ لتقدُّم ذكره.

﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ﴾ خبرُ مبتَدَأ محذوف، ويجوزُ أَن يكونَ المخصوصَ بالمدحِ.

﴿طَيِّبِينَ﴾ طاهرينَ من ظُلمِ أَنفُسِهم بالكفرِ والمعاصي؛ لأَنَّه في مقابَلَةِ ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، ﴿يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ سلامةٌ لكم من كلِّ سُوءٍ.

﴿تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ لقبضِ الأَرواحِ ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بالعذابِ المُستأصِلِ أَو القيامةُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَي: مثلَ ذلكَ الفعلِ من الشركِ والتكذيبِ ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتدميرِهم ﴿وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأَنَّهم فعلوا ماستوجبوا به التدمير.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَاعَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَايَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ (٣٨)﴾

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الكُفَّارِ والضُّلَّالِ: أَشركُوا باللهِ وحرَّموا ما أَحَلَّ اللهُ وارتكبوا ماحرَّمَهُ، فلمَّا نُبِّهوا علىٰ قُبحِ أَفعالِهم نسبُوها إلى اللهِ وقالُوا:

﴿لَو شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لم نفعلها ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا﴾ أن يُبلِّغوا الحقَّ وأنَّ اللهَ لايشاءُ الشركَ والمعاصِيَ بالبيانِ والبرهانِ.

﴿فِى كُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: مامن أُمَّةٍ إلّا وقد ﴿بَعَثْنَا﴾ فيهم ﴿رَّسُولاً﴾ يأمرُهم بالخيرِ الَّذي هو عبادةُ اللهِ، وينهاهُم عن الشرِّ(١) الَّذي هو اجتناب(٢) ﴿ٱلطَّـٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: لطَفَ بهِ لِعلمِهِ أنّه من أهلِ اللطفِ ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ أي: ثبتَ عليه الخذلانُ والتركُ من اللطفِ لتصميمهِ على الكفرِ ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَانظُرُواْ﴾ مافعلتُ بـ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ حتّىٰ لا يَبقَىٰ لكم شبهةٌ في أنّي لا أُريدُ الشرَّ حيثُ أفعلُ ما أفعلُ بالأشرارِ.

ثُمَّ ذكَرَ سبحانه عنادَ قريشٍ، وحِرصَ النبيِّ ﷺ علىٰ إيمانِهم، وعرَّفه أنّهم ممَّن حقَّت عليهم الضلالةُ، وأنّه ﴿لَايَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ أي: لايلطفُ بمن يخذلُه، وقيل: معناهُ: لايهتدي(٣)، يقالُ: هداهُ اللهُ فَهَدىٰ، وقُرِئَ: «لَايُهْدَى» على البناءِ للمفعولِ(٤) والعائدُ إلىٰ ﴿مَن﴾ الموصولةِ الهاءُ المحذوفُ، أي: مَن يُضِلُّهُ.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَايَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَايَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠)﴾

﴿بَلَىٰ﴾ إثباتٌ لما بعدَ النفي، أي: بلىٰ يَبْعَثُهم، و ﴿وَعْداً﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لما دلَّ

---

(١) في نسخة: الشرك. (٢) في بعض النسخ: اختيار.

(٣) وهو قول الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٦٠٥.

(٤) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو ونافع وابن عامر والحسن البصري والأعرج ومجاهد وشيبة وشبل ومزاحم الخراساني والعطاردي وابن سيرين. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٧٢، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٤٩٠.

عليهِ ﴿بَلَىٰ﴾ لأَنَّ ﴿يَبْعَثُ﴾ موعدٌ منَ اللهِ، ثُمَّ بيَّنَ أَنَّ الوفاءَ بـذلكَ الوعـدِ حـقٌّ واجبٌ على اللهِ في الحكمةِ ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّـهم يُبعَثون، أَو أَنَّـه وعدٌ واجبٌ علَى اللهِ لأَنَّـهم يقولونَ: لايَجِبُ على اللهِ شيءٌ من مواجبِ الحكمةِ.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ الضميرُ لِـ﴿مَن يَمُوتُ﴾ وهـو عـامٌّ للـمؤمنينَ والكـافرينَ، و ﴿ٱلَّذِى﴾ اختلفوا ﴿فِيهِ﴾ هو الحقُّ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّـهُمْ﴾ كَـذِبُوا فـي قولِهم: لايبعثُ اللهُ منْ يَموتُ.

﴿قَوْلُنَا﴾ مُبتدأٌ و ﴿أَن نَّقُولَ﴾ خبرُهُ و ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ من «كانَ» التامَّةِ، أَي: إذا أَردنا وجودَ شيءٍ فليسَ إلّا أَن نقولَ ﴿لَهُ﴾: أَحْدُثْ فهو مُحْدَثٌ عـقيبَ ذلكَ لايَتوقَّفُ، وهذا مَثلٌ في أَنَّ مراداً لايَمتنِعُ عليهِ، وأَنَّ وجودَه عند إرادتهِ مثلُ وجودِ المأمورِ به عندَ أَمرِ الآمرِ المُطاعِ إذا ورَدَ على المأمورِ المُطيعِ المُمتثِلِ، ولا قـولَ هناكَ، وقُرئَ: «فَيَكُونَ» بالنصبِ[١] عطفاً على ﴿نَقُولَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (٤١) ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّـهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ هم: رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وأَصحابُه، ظلَمَهم أَهلُ مكَّـةَ فـفرُّوا بدينهم إلى اللهِ، فهاجَرَ بعضُهم إلَى الحبشةِ ثُمَّ بعدُ هاجَرُوا إلَى المدينةِ، وقيلَ: همُ الّذينَ كانُوا محبوسينَ بمكَّةَ بعدَ هجرةِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، وكلَّما خـرجُـوا تَـبِعُوهم

(١) قرأه ابن عامر والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٧٣.

وردُّوهم، منهم بِلالٌ وصُهَيبٌ[1] وعمَّارٌ وخَـبَّابٌ[2] [3] ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ فـي حـقِّهِ ولوجهِه ﴿حَسَنَةً﴾ صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ تبوِئَةً حسـنةً، وعـن أَميرِالمؤمنين عليه السلام: «لَنُثْوِيَنَّهُمْ»[4] ومعناه: إثواءَةً حسنةً، أَي: لننزِّلَنَّهم في الدنـيا منزلةً حسنةً، وهي الغَلَبةُ علىٰ أَهلِ مكَّةَ الَّذين ظَلَموهم وعلَى العربِ قاطبةً وعلىٰ أَهلِ المشرقِ والمغربِ، وقيلَ: لَنبوِّئنَّهم مَبَاءَةً حسنةً وهيَ المدينةُ حـيثُ آواهـمُ الأَنصارُ ونصَرُوهم[5] ﴿لَوْ كَانُواْ يَـعْلَمُونَ﴾ الضميرُ للكفَّارِ، أَي: لو عَلِمُوا أَنَّ اللهَ يَجمَعُ للمهاجرينَ الدنيا والآخرةَ لرَغِبُوا في دينهم، ويـجوزُ أَن يكـونَ الضـميرُ للمُهاجِرينَ، أَي: لو كانُوا يعلمونَ ذلكَ لزادوا في اجتهادهم وصبرِهم.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أَي: همُ الَّذين صبروا، أَو أَعني الَّذِين صـبروا، وكـلاهُما مدحٌ، صبرُوا علَى العذابِ وعلىٰ مفارقةِ الوطنِ وعلى الجهاد.

قالت قريشٌ: اللهُ لا يُرسِلُ إلينا بَشَراً مثلَنا، فقالَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِـن قَـبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ علَى أَلسنةِ الملائكةِ ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ وهـم أَهـلُ

---

(١) هو صُهيبُ بن سِنانِ بن مالك، بدريٌّ، وجميعُ المدنيِّينَ يُثْبِتُونَ نسبَهُ في النَّمر ابن قـاسط، قال بعضُهم: كان أبوه سِنانُ بنُ مالكٍ عاملاً لكسرىٰ على «الأبلة»، وكانت مـنازِلُهم بأرض المَوْصِلِ وما يليها من الجزيرةِ، فأغَارتِ الروم على تلك الناحيةِ فَسَبَوا صُهيباً وهو غـلامٌ صغيرٌ، فنشأ في الروم، فابتَاعَتْهُ «كَلْبٌ» منهم، ثُمَّ قَدِمَت بِهِ مكَّةَ فاشْتَراه عبدُ اللهِ بن جُدعانَ، ويُقال: إِنَّ ابنَ جُدعانَ أعتقَه وبعَثَ به إِلى النَّبيِّ صلى الله عليه وآله، تُوفِّي بالمدينةِ سنةَ ثمانٍ وثلاثينَ في شوَّالٍ، وهو ابن سبعين سنةً، فدُفِنَ بالبقيعِ. أُنظر المعارف لابن قتيبة: ص ١٥١.

(٢) خَبَّابُ بنُ الأَرَتِّ بنِ جندلة، من بني سعدِ بنِ تميمٍ، ويُكنّىٰ: أبا عبدالله، وكان أصابه سـباءٌ فبِيعَ بمكَّةَ فاشتَرَتْهُ أُمُّ أنمار ـ وهي أم سباع الخزاعيَّة من حلفاءِ بني زهرةَ ـ فأعتقَتْهُ، ماتَ بالكوفةِ سنةَ سبعٍ وثلاثينَ هـ، وهو ابن ثلاثٍ وستِّين سنةً، وهو أَوَّلُ من [illegible] عليٌّ عليه السلام بالكوفةِ وصلَّى عليه عند مُنصرفَه من صِفِّينَ. أُنظر المعارف لابن قتيبة: ص ٧٩.

(٣) قاله الكلبي علىٰ ماحكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ١٨٩.

(٤) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٦٠٧.

(٥) قاله الشعبي. راجع تفسير الطبري: ج ٧ ص ٥٨٥.

الكتابِ ليُعَلِّمُوكم أَنَّه سُبحانَهُ لم يبعثْ إلىٰ مَن تقدَّم منَ الأُممِ إلَّا البشرَ، وقيلَ: إنَّ أهلَ الذكرِ: أَهلُ القرآنِ، والذِكرُ: القرآنُ[١]، وقيل: أَهلُ العلمِ[٢].

وعن الباقرِ عليه السلام: «نحنُ أَهلُ الذِّكرِ»[٣].

﴿بِالْبَيِّنَـٰتِ﴾ يتعلّقُ بـ﴿مَآ أَرْسَلْنَا﴾ وَيَدخُلُ تحتَ الاستثناءِ، أَي: وَمَا أَرسلنا إلَّا رجالاً بالبيِّناتِ، كما تقولُ: ماضرَبتُ إلَّا زيداً بالسوطِ، وأَصلُه: ضربتُ زيداً بالسوطِ، أَو يتعلَّقُ بـ﴿رِجَالاً﴾ صفةً له، أَي: رجالاً ملتبسين بالبيِّناتِ، أَو بـ﴿نُوحِىٓ﴾ أَي: نوحي إليهم بالبيِّناتِ، وقولُه: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ اعتراضٌ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ أَي: القرآنَ، إنَّما سُمِّي ذكراً لأَنَّهُ موعظةٌ وتنبيهٌ للغافلينَ ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا﴾ نزّلَ اللهُ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ في الذِكرِ ممّا أُمِروا به ونُهوا عنهُ إرادةَ أَنْ يتفكّروا فيَنتبِهُوا[٤].

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧) أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)﴾

(١) قاله ابن زيد. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ١٨٩.
(٢) وهو قول الرماني والأزهري والزجاج. راجع التبيان: ج ٦ ص ٣٨٤.
(٣) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٦٠ ح ٣٢، تفسير الطبري: ج ٧ ص ٥٨٧.
(٤) في بعض النسخ: فيتنبّهوا.

أي: ﴿مَكَرُواْ﴾ المَكراتِ ﴿ٱلسَّيِّئَاتِ﴾، يريدُ: أَهلَ مكَّةَ وما مكَرُوا به رسولَ اللهِ ﷺ. ﴿فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ حالٌ، أَي: مُتقلِّبينَ في أَسفارِهم ومَتاجِرِهم. ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أَي: متخوِّفين، وهو أَن يُهلِكَ قوماً قبلَهم فيتخوَّفوا، أَي: ﴿يَأْخُذَهُمْ﴾ العذابُ وهم متخوِّفُونَ متوقِّعُونَ، وهوَ خِلافُ قولِه: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وقيلَ: معناه: علىٰ تنقُّصٍ، أَي: يأخذَهم علىٰ أن يتنقَّصَهم شيئاً بعدَ شيءٍ في أَنفسِهم وأَموالِهم حتّىٰ يَهلكُوا[1] ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيثُ يَحْلُمُ عنكُم ولا يُعذِّبُكم عاجلاً.

وقُرِئَ: «أَوَ لَمْ تَرَوْا»[2] و «تَتَفَيَّؤُاْ» بالتاءِ[3] والياءِ ﴿مَاخَلَقَ ٱللَّهُ﴾: ﴿مَا﴾ موصولةٌ، وهو مبهمٌ بيانُه: ﴿مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُۥ﴾، و ﴿ٱلْيَمِينِ﴾ بمعنى الأَيمانِ ﴿سُجَّدًا﴾ حالٌ من الظلالِ ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ حالٌ من الضميرِ في ﴿ظِلَـٰلُهُۥ﴾ لأَنَّه في معنَى الجمعِ، وهوَ ماخَلَقَ اللهُ من كلِّ شيءٍ له ظِلٌّ، وجُمِعَ بالواو والنون لأَنَّ الدخُورَ من أَوصافِ العُقلاءِ، أَو لأَنَّ في جملةِ ذلكَ من يعقِلُ فغُلِّبَ العقلاءُ، والمعنىٰ: أَوَ لَم يَرَوا إِلىٰ مَاخَلَقَ اللهُ من الأَجرامِ الَّتي لها ظِلالٌ متفَيِّئَةٌ عن أَيمانها وشمائلها، أَي: عن جانبَي كُلِّ واحدٍ منها، مستعار من يمينِ الإِنسان وشِمالِهِ، أَي: يَرجِعُ الظلالُ من جانبٍ إِلىٰ جانبٍ منقادةً للهِ، غيرَ ممتنعةٍ عليه فيما سخَّرَها له من التفيُّؤ، والأَجرامُ في أَنفسِها ـ أيضاً ـ داخِرةٌ صاغِرةٌ منقادةٌ لأَفعالِ ٱللهِ فيها.

﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ بيانٌ لـ﴿مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جميعاً، علىٰ أَنَّ ٱلسماوَاتِ خلقاً للهِ يَدِبُّونَ فيها، أَو بيانٌ لـ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وحدَهُ ويرادُ

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد. راجع التبيان: ج ٦ ص ٣٨٦.
(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٧٣.
(٣) قرأه أبو عمرو وحده. راجع التيسير في القراءات السبع للداني: ص ١٣٨.

بـ﴿مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ الملائكةُ، وكُـرِّرَ ذكـرُهم عـلىٰ مـعنىٰ: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ خصوصاً من بينِ الساجدينَ لأنَّهم أعبَدُ الخلقِ، أَو يـرادُ مـلائكةُ الأَرضِ مـن الحفظَةِ وغيرِهم، والمرادُ بسجودِ المكلَّفينَ: طاعتُهُم وعبادتُهم، وبسجودِ غيرِهم: انقيادُها لإِرادةِ ٱللهِ وأَنَّها غيرُ ممتنعَةٍ عليه.

﴿يَخَافُونَ﴾ حالٌ من الضميرِ في ﴿لَايَسْتَكْبِرُونَ﴾، أَو استئنافٌ لبـيانِ نـفي الاستكبارِ وتأكيدِه؛ لأَنَّ مَنْ خافَ اللهَ لم يستكبرْ عـن عـبادتِه ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ إنْ تعلَّقَ بـ﴿يَخَافُونَ﴾ فالمعنىٰ: يخافونَهُ أَن يُـرسِلَ عـليهمْ عـذاباً مـن فـوقِهم، وإِنْ تعلَّق بـ﴿رَبَّهُم﴾ فهوَ حالٌ منه، أَي: يخافونَ ربَّهم غالباً لهم قـاهراً، كـقولِه: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾ (١).

﴿وَقَالَ ٱللهُ لَاتَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّـٰىَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ ٱللهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)﴾

﴿إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ هو تأكيدٌ للعددِ ودَلَالةٌ على العِنايةِ به، أَلا ترىٰ أَنَّكَ لو قلتَ: إِنَّما هو إِلـهٌ، ولم تُـؤَكِّـدْهُ بـ«واحـد» لم يَـحسُنْ، وخُـيِّلَ أَنَّك أَثـبتَّ الإِلهـيَّةَ لا الوحدانيَّةَ ﴿فَإِيَّـٰىَ فَارْهَبُونِ﴾ نُقِلَ الكلامُ من الغَيبةِ إِلى التكـلُّمِ عـلَى طـريقةِ الالتفاتِ؛ لأَنَّ الغائبَ هو المُتكلِّمُ، ولأَنَّه أَبلغُ فـي التـرهيبِ مـن قـولِه: وإِيَّـاهُ فَارهبوهُ، ومن أَن يجيءَ ماقبلَه علىٰ لفظِ التكلُّمِ.

---

(١) الأعراف: ١٢٧.

و﴿ٱلدِّينُ﴾: الطاعةُ ﴿وَاصِباً﴾ حالٌ عَمِلَ فيها الظرفُ، والواصِبُ: الواجبُ الثابتُ؛ لأَنَّ كلَّ نعمةٍ منهُ فالطاعةُ واجبةٌ لهُ على كلِّ مُنعَمٍ عليهِ، ويجوزُ أَن يكونَ من الوَصَبِ، أَي: ولهُ الدينُ ذا كُلفةٍ ومشقَّةٍ ولذلكَ سُمِّيَ تكليفاً، أَو: وله الجزاءُ دائماً ثابتاً سَرْمداً لايزالُ[1] يعني: الثوابَ والعِقابَ.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ أَي: ما اتَّصلَ بكم من نعمةٍ في النفسِ أَو المالِ ﴿فَـ﴾ هوَ ﴿مِنَ ٱللهِ﴾، ﴿فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ﴾ أَي: فَما تتضرَّعونَ إِلَّا إِليهِ، والجُؤَارُ: رفعُ الصوتِ بالدعاءِ، وقُرِئَ: «تَجَرُونَ» بطرحِ الهمزةِ وإِلقاءِ حركتِها على الجيمِ[2].

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم﴾ يجوزُ أَن يكونَ الضميرُ في ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ عامّاً ويُرِيدَ بالفريقِ فَريقَ الكَفَرةِ، وأَن يكونَ الخِطابُ للكفَّار، و﴿مِنكُم﴾ للبيانِ لا للتبعيض، كَأَنَّه قال: إِذا فَريقٌ كافرٌ وهم أَنتم، ويجوزُ أَن يكون فيهم من اعتبر، كقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾[3].

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ﴾ من نعمةِ الكشفِ عنهم، كأَنَّهم جعلوا غرضهم في الشركِ كُفرانَ النعمةِ ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تخلِيَةٌ ووعيدٌ، ويجوزُ أَن يكونَ ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ و﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ من الأَمرِ الواردِ بمعنى الخِذلانِ والتخليةِ، واللامُ لامَ الأَمرِ.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ تَاللهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ للهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ

---

(١) في نسخة: لايزول.
(٢) وهي قراءة الزهري على ماحكاه عنه أبو حيان في البحر المحيط: ج ٥ ص ٥٠٢.
(٣) لقمان: ٣٢.

مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٦٠) ﴾

أي: ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ بها، يريدُ: آلهَتهم؛ لأنَّهم اعتقدوا فيها أنَّها تضرُّ وتنفعُ وتشفعُ وهي جمادٌ، فهم إذن جاهلون بها، وقيلَ: الضميرُ في ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ للآلهةِ، أي: لأشياءَ غيرِ موصوفةٍ بالعلمِ، أي: يتقرَّبون إليها[1]، فـ﴿يَجْعَلُونَ﴾ لها ﴿نَصِيباً﴾ في أنعامِهم وزروعِهم وهي لاتشعرُ بذلك ﴿لَتُسْئَلُنَّ﴾ وعيدٌ ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ منَ الإفكِ في زعمِكم أنَّها آلهةٌ، وأنَّها أهلٌ للتقرُّبِ إليها.

زعَمُوا أنَّ الملائكةَ بَنَاتُ اللهِ ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهٌ لذاته من نسبةِ الولدِ إليهِ، أو تعجُّبٌ من قولهم ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ يعني: البنينَ، ومَحلُّهُ نصبٌ عطفاً على ﴿ٱلْبَنَاتِ﴾ أي: وجعلوا لأنفسهم مايشتهونه من الذكورِ، أو رفعٌ على الابتداءِ.

و﴿ظَلَّ﴾ بمعنىٰ: صارَ، كما يُستعمَلُ «أَصبح» و «أمسى» و «بات» بمعنى الصيرورةِ، أي: صار ﴿وَجْهُهُ مُسْوَدّاً﴾ مُربَدّاً[2] من الكآبةِ، فـ﴿هُوَ كَظِيمٌ﴾: مملوءٌ حَنَقاً على المرأةِ. ﴿يَتَوَارَىٰ﴾ أي: يستخفِي ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن﴾ أجلِ ﴿سُوٓءِ﴾ المُبشَّر ﴿بِهِ﴾ ويُحدِّثُ نفسه وينظرُ ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ﴾ هوانٍ وذُلٍّ ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ أي: يئدُهُ ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيثُ يجعلُونَ الولَدَ الَّذي هو عندهم بهذا المحلِّ للهِ تَعَالىٰ، ويجعلُونَ لأنفسِهم مَن هو على العكسِ من هذهِ الصفةِ.

﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: صفةُ السوءِ، وهي الحاجةُ إلَى الولَدِ، أو صفةُ النقصِ من الجهلِ والعجزِ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهو صفاتُ الإلٰهيَّةِ والغِنَىٰ عن الصاحبةِ

---

(١) قاله مجاهد وقتادة. راجع تفسير الطبري: ج ٧ ص ٥٩٨.

(٢) اربدَّ وجهه وتربَّد: اذا احمرَّ حمرةً فيها سواد عند الغضب. (لسان العرب: مادة ربد).

والولدِ، والنزاهةُ عن صفاتِ المخلوقين.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥)﴾

﴿بِظُلْمِهِم﴾ أي: بكفرهم ومعاصيهم ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على الأرضِ، أي: لأَهلكَ الدوابَّ كُلَّها بشؤمِ ظلمِ الظالمينَ، وقيلَ: ماتركَ مِن دابَّةٍ ظالمةٍ تَدبُّ عليها[1]، وعن ٱبنِ عبَّاس: من مُشركٍ[2].

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأَنفسِهم من البناتِ ومن شُركاءَ في رياسَتِهم ومن الاستخفافِ برسولهم، ويجعلونَ له أَرذلَ أَموالهم ولأَصنامهم أَكرمها ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ﴾ مع ذلكَ ﴿ٱلْكَذِبَ﴾، و ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلْكَذِبَ﴾، وهو قولُ قريشٍ: لنا البنونَ، أَو هو قولهم: إن كان مايقوله محمَّدٌ ﷺ حقّاً فإنَّ لنا الجنَّةَ ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ قُرئَ مفتوحَ الراءِ ومكسورَها[3]، وبالتخفيفِ والتشديدِ[4]، فالمفتوحُ بمعنىٰ: مقدَّمون إلى النارِ معجَّلونَ إليها، من أَفرطْتُ فلاناً وفرَّطتُهُ في

(١) حكاه الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ١٩٦.
(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٢ ص ٦١٣.
(٣) وبالكسر قرأه نافع. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٧٤.
(٤) وقراءة التشديد هي قراءة أبي جعفر المدني. راجع التبيان: ج ٦ ص ٣٩٥.

طلَبِ الماءِ، أَي: قدَّمتُه، وقيلَ: منسيُّونَ متروكونَ[١]، من أَفرطتُ فُلاناً خلفي: إذا خلَّفتَه ونَسيتَه، والمكسورُ المخفَّفُ من الإفراطِ في المعاصي، وبالتشديدِ من التفريطِ في الطاعاتِ.

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أَي: فهو قرينُهم في الدنيا، جعل ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ عبارةً عن زمانِ الدنيا، ويجوزُ أَن يرجعَ الضميرُ إلىٰ مشركي قريشٍ، أَي: زَيَّنَ ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ للكفَّارِ قبلهم ﴿أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ فهو وليُّ هؤلاءِ لأَنَّهم منهم.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ عطفٌ علىٰ مَحلِّ ﴿لِتُبَيِّنَ﴾، و ﴿ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ هو البعثُ؛ لأَنَّ بعضهم كانَ يؤمِنُ بِهِ وأَشياءُ من التحريمِ والتحليلِ.

﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماعَ إنصافٍ وتدبُّرٍ؛ لأَنَّ مَن لم يسمع بقلبه فكأَنَّه أَصمُّ.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠)﴾

وقُرِئَ: ﴿نُسْقِيكُم﴾ بفتحِ النونِ[٢] وضمِّها، هاهنا وفي «ٱلْمُؤْمِنُونَ»[٣]

---

(١) قاله مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير والضحاك. راجع المصدر السابق.

(٢) قرأه نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٩٢.

(٣) الآية: ٢١.

وهو استئنافٌ، كأنَّه قيل: كيف العبرة؟ فقيل: نُسقيكُم ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾، وإذا ذُكِّرَ ﴿ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ فعلىٰ أن يكونَ اسماً مفرداً بمعنى الجمعِ، مثل «نَعَمٌ» في قولِهِ:

في كلِّ عامٍ نَعَمٌ تَحْوونَهُ يُلْقِحُهُ قَومٌ وتَنتجُونَهُ[1]

وإذا أُنِّث فلأنَّه تكسير نَعَمٍ، والمعنىٰ: أنَّه سبحانه يخلقُ اللبنَ وسيطاً بين الفرثِ والدمِ يكتَنفانه، وبينه وبينهما برزخٌ من قدرةِ ٱللهِ عزَّوجلَّ لايشُوبانه ولا يبغي أَحدهما عليه بلَونٍ ولا طعمٍ ولا رائحةٍ، بل هو خالصٌ من ذلك كُلِّه ﴿سَآئِغاً﴾ أَي: سهل المرورِ في الحلقِ، و ﴿مِن﴾ الأُولىٰ للتبعيضِ؛ لأَنَّ اللبنَ بعضُ مافي بطونِهِ، والثانيةُ لابتداءِ الغايةِ؛ لأَنَّ بين الفرثِ والدمِ مكانَ الإِسقاءِ الَّذي منه يَبتَدِئ.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ﴾ يتعلَّقُ بمحذوفٍ، والتقديرُ: ونُسقيكم من ثمراتِ النخيلِ ﴿وَٱلْأَعْنَـٰبِ﴾ أَي: من عصيرِها، و ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً﴾ بيانٌ لكيفيَّة الإِسقاءِ، أَو يتعلَّقُ بـ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ وتكونُ ﴿مِنْهُ﴾ تكريراً للظرفِ للتوكيدِ، والهاءُ في ﴿مِنْهُ﴾ يعودُ إِلىٰ «ٱلثَّمَرَٰتِ» لأَنَّ «الثمر» بمعنىٰ «الثمرات»، ويجوزُ أَن يعود إِلى موصوفٍ محذوفٍ و﴿تَتَّخِذُونَ﴾ صفةٌ له، والتقديرُ: ما تَتَّخذونَ منه سَكَراً، وتكونُ «ما» نكرةً موصوفةً، أو: ثمرٌ تَتَّخذون منه سَكَراً ﴿وَرِزْقاً حَسَناً﴾ لأَنَّهم كانوا يأكلون بعضَها ويتَّخذُون بعضَها سَكَراً، والسكَرُ: الخمرُ وكُلّ ما يُسكِرُ، سُمِّيَت بالمصدرِ من سَكِرَ سَكَراً وسَكْراً، قال:

فجاؤونَا بهم سَكَرٌ علينا فأَجلَى اليومُ والسكرانُ صَاحي[2]

(١) وقائله: قيس بن الحصين الحارثي من بني سعد، يخاطب فيها قوماً من اللصوص المغيرين، يقول لهم: انتم تحوون كل عام نَعَماً لأناس ألقحوه وجهدوا في سبيله ثم إنّكم تنتجونه وتستفيدون من فوائده في حيّكم. أُنظر شرح شواهد الكشاف للأفندي: ص ٥٥٤.

(٢) لم نعثر على قائله فيما توفرت لدينا من مصادر، وفيه يذمّ الشاعر قوماً موصوفين بالغضب أرادوا الحرب مع قوم الشاعر، لكن لشجاعة قومه وبطشهم كشفوهم وهزموهم، فكأنّ قومه ←

والرزقُ الحَسَنُ: ماهو حلالٌ منها كالخلِّ والدبسِ والتّمرِ[١] والزبيبِ.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ أَي: أَلهمها وقذَفَ في قلوبِها وعلَّمها علىٰ وجهٍ لا سبيلَ لأَحدٍ إِلى الوقوفِ عليهِ، فإِنَّ صَنعَتَها الأَنيقةَ ولُطفَها فـي تـدبيرِ أَمـرِها والعجائبَ المركَّبَةَ في طباعها شواهدُ بيِّنةٌ علىٰ أَنَّ ٱللهَ سبحانه أَودَعَها عِلماً بذلك ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى﴾ هي «أَن» المفسِّرةُ؛ لأَنَّ الإِيحاءَ فيه معنى القولِ، وقُرِئَ: «بِيُوتاً» بكسرِ الباءِ[٢] لأَجلِ الياءِ في جميع القرآنِ و ﴿يَعْرِشُونَ﴾ بضمِّ الراءِ[٣] وكسرِها، أَي: ومن الكَرْمِ الَّذي يعرِشُونه، أي: يـتَّخذونَ مـنه العـريشَ[٤]، والضـميرُ فـي ﴿يَعْرِشُونَ﴾ للناسِ و ﴿مِن﴾ في جميعِها للبعضيَّةِ؛ لأَنَّـها لاتبني بيُوتَها في كـلِّ جبلٍ وكلِّ شجرٍ وكلِّ مايُعرَشُ ولا في كلِّ مكانٍ منها. ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أَي: مِن أَيِّ ثمرةٍ شئتِ واشتهيتِ، فإِذا أَكَلْتِها ﴿فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ﴾ أَي: الطرقَ الَّتي أَلهمَكِ وأَفهمَكِ في عملِ العسلِ، أَو: إِذا أَكلتِ الثـمارَ فـاسلُكي إِلىٰ بـيوتِكِ راجعةً سُبُلَ ربِّكِ لاتتوعَّرُ عليكِ ولا تَضلِّينَ فيها، وَ ﴿ذُلُلاً﴾ جمعُ ذلولٍ حالٌ من ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾؛ لأَنَّ ٱللهَ ذلَّلَها لها وسهَّلَها، أَو من الضميرِ في ﴿فَاسْلُكِى﴾ أَي: وأَنتِ ذُلُلٌ منقادَةٌ لما أُمرتِ به ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ يعني: العسَلَ اختلف أَلوانُه: أَبيَضُ وأَصفرُ وأَحمرُ ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ لأَنَّـه من جملةِ الأَشفيةِ والأَدويةِ المشهورةِ، وتنكيرُهُ: إِمَّا لتعظيمِ الشفاءِالَّذي فيه، أَو لأَنَّ فيه بعضَ الشفاءِ،

← كانوا في سكرة وحيرة وفي اللقاء صحوا من سكرتهم وشمّروا عن ساعدهم فهزموا القوم. راجع شرح شواهد الكشّاف للأفندي: ص ٣٦١.

(١) في بعض النسخ ليس فيها «التمر».

(٢) قرأه عاصم على ما حكاه عنه المشهدي في كنز الدقائق: ج ٥ ص ٣٥٥.

(٣) قرأه ابن عامر وعاصم برواية أبي بكر والسلمي وعبيد بن نضلة. راجع كتاب السبعة فـي القراءات لابن مجاهد: ص ٣٧٤، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٥١٢.

(٤) العرش والعريش: ما يُستظلّ به. (الصحاح: مادة عرش).

وقال: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا﴾ وإن كانت تُلقِيهِ من أَفواهِها كالريقِ، لئَلَّا يُظَنَّ أَنَّه ليس من بطنِها.

﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أَي: أَخَسِّهِ وأَحقَره، وهو خمسٌ وسبعون سنةً عن عليٍّ عليه السلام[1]، وتسعونَ سنةً عن قَتَادةَ[2]، لأَنَّه لاعُمرَ أَسوءُ حالاً من عمرِ الهَرمِ ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ ليصيرَ إِلىٰ حالٍ شبيهةٍ بحالِ الطفوليَّةِ في النسيانِ، وأَن يعلَمَ شيئاً ثُمَّ ينسىٰ فلا يعلمهُ إِن سُئِلَ عنه، وقيل: لئلَّا يعلمَ زيادةَ علمٍ علىٰ علمِهِ[3].

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَامَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ أَفَبِالْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَالَايَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَاتَعْلَمُونَ (٧٤)﴾

أَي: جعلكُم متفاوتين ﴿فِى ٱلرِّزْقِ﴾ فرزَقَكُم أَفضَلَ ممَّا رزق مَماليككُم وهُم بشرٌ مثلُكم، فأَنتُم لاتسوُّونَ بينَكم وبينَهم فيما أَنعَمَ اللهُ به عليكُم، ولا تَجعَلُونَهم فيه شركاءَ، ولا تَرضَونَ ذلك لأَنفُسِكم، فكيف رضيتُم أَن تجعلوا عبيدَهُ له شركاءَ وتُوجِّهُوا العبادةَ والقربَ إِليهم كما تُوجِّهُونَ ذلك إِليه؟! وقيل: معناه: أَنَّ الموالِيَ

(١) التبيان: ج ٦ ص ٤٠٥، تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٢٠٠.
(٢) تفسير البغوي: ج ٣ ص ٧٦.
(٣) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٦٢٠.

والمماليكَ ٱللهُ رازِقُهم جميعاً ﴿فَهُمْ﴾ في رِزْقِهِ ﴿سَوَآءٌ﴾ فلا يَحسَبُ الموالي أنّهم يرزقونَهم من عندِهِم وإنّما هو رزقُ اللهِ أجراه إليهم علىٰ أيدِيهم [(١)]، وقيل: معناه: فلم يَرُدَّ الموالي فضلَ مارُزقوه علىٰ مماليكِهم حتّىٰ يتساوَوا في المَطعَمِ والمَلبَس [(٢)].

ويُحكىٰ عن أبي ذرٍّ: أنّه سَمِعَ النبيَّ صلى الله عليه وآله يقولُ: إنّما هم إخوانُكم فاكسُوهم ممّا تلبسونَ وأطعِمُوهم ممّا تطعمونَ، فما رُئيَ عبدُه بعدَ ذلك إلّا ورداؤُهُ رداؤُهُ وإزارُه إزارُهُ من غيرِ تفاوُتٍ [(٣)].

﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللهِ يَجْحَدُونَ﴾ فجعل ذلك من جملةِ جحود النعمةِ، وقُرِئَ: ﴿يَجْحَدُونَ﴾ بالياءِ والتاءِ [(٤)] ﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من جنسكم ﴿حَفَدَةً﴾ أي: خدَماً وأعواناً. الصادقُ عليه السلام: «هم أختانُ [(٥)] الرجلِ علىٰ بناتِهِ» [(٦)]. وقيل: هم أولادُ الأولادِ [(٧)]، وهو جمعُ حافدٍ، وحَفَدَ الرجلُ: أسرَعَ في الطاعةِ والخدمةِ.

وفي الدعاءِ: «إليك نَسْعَىٰ ونَحفدُ» [(٨)].

﴿مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يعني: بعضَها ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو مايعتقدونَ من

---

(١) حكاه ابن عيسىٰ. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٢٠١.

(٢) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة. راجع المصدر السابق.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٦٢٠، وابن حجر في الكاف الشاف: ص ٩٤.

(٤) وقراءة التاء هي قراءة عاصم برواية أبي بكر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٧٤.

(٥) الخَتَن: كل مَن كان من قبل المرأة مثل الأب والأخ، وهم الأختان، هكذا في كلام العرب، وأمّا عند العامة فَخَتَن الرجل: زوج ابنته. (الصحاح: مادة ختن).

(٦) تفسير القمّي: ج ١ ص ٣٨٧.

(٧) قاله ابن عباس. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٢٠٢.

(٨) وهو من أدعية القنوت، رواه الجوهري في الصحاح وابن الأثير في النهاية. انظر الصحاح والنهاية: مادة «حفد».

منفعةِ الأَصنامِ وشفاعَتِها ﴿وَ ... يَكْفُرُونَ﴾، ﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ المُشاهدةِ الَّتي لاشبهةَ فيها، وقيل: يريدُ بنعمةِ ٱللهِ رسولَ ٱللهِ ﷺ والقرآنَ والإسلامَ[١] أي: هم كافرونَ بها مُنكِرونَ لها.

﴿رِزْقاً﴾ مصدرٌ و ﴿شَيْئاً﴾ منتصبٌ به، كقولِه: ﴿أَوْ إِطْعَـٰمٌ ... يَتِيماً ... أَوْ مِسْكِيناً﴾[٢]، أي: ﴿مَالَا يَمْلِكُ﴾ أن يرزُقَ شيئاً، ويجوزُ أن يكونَ بمعنىٰ: «مايُرزَقُ» فيكونَ ﴿شَيْئاً﴾ بدلاً منه بمعنىٰ: قليلاً، و ﴿مِنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ صِلةٌ للرزقِ إن كانَ مصدراً، بمعنىٰ: لايرزقُ من السماوات مطراً ومن الأَرضِ نباتاً، أَو صفةٌ إن كان اسماً لما يُرزَقُ، والضميرُ في ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لِـ﴿مَا﴾ لأَنـّه في معنى الآلهةِ بعدَما قيلَ: ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ على اللفظِ، ويجوزُ أن يكونَ للكُفَّارِ، أَي: ولا يستطيعونَ مع أنـّهم أَحياءٌ شيئاً من ذلك فكيف بالجماد.

﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ تمثيلٌ للإشراك باللهِ والتشبيهِ بهِ؛ لأَنَّ من يضرِبُ الأَمثالَ يُشبِّهُ حالاً بحالٍ وقصَّةً بقصَّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ ماتفعلونه ويُعاقبُكم عليها ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَـٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧)﴾

---

(١) قاله ابن عباس ومقاتل. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٥١٥.
(٢) البلد: ١٤ ـ ١٦.

ذكَرَ ﴿مَمْلُوكاً﴾ ليميِّزَ العبدَ من الحُرِّ لأنَّـهما من عبادِ ٱللهِ، و ﴿مَن﴾ في قولِه: ﴿وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ﴾ موصوفةٌ، أَي: وحُرّاً رزقناهُ ليُطابِقَ ﴿عَبْداً﴾، ويجوزُ أَن يكونَ موصولةً، و ﴿يَسْتَوُونَ﴾ معناه: هل يستوِي الأَحرارُ والعبيدُ؟ وإِذا كان القادرُ والعاجزُ لايستويانِ فكيف يُسَوَّىٰ بين الحجارةِ وبين اللهِ القادرِ علىٰ مايشاءُ الرازِقِ جميعَ خلقِهِ؟!

الأَبكمُ: الَّذي وُلِدَ أَخرس فلا يفهمُ ولا يُفهِمُ ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَـٰهُ﴾ أَي: ثقلٌ وعِيالٌ علىٰ مَن يلي أَمرَه ويعُولُه ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ حيثُما يرسلْهُ في حاجةٍ أَو يصرفْهُ في كِفايةِ مهمٍّ لم ينفعْ ولم ﴿يَأْتِ﴾ بنُجْحٍ ولا يَهتدِي إِلىٰ منفعةٍ ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن﴾ كان سليمَ الحواس نفّاعاً كافياً ذا رُشدٍ وديانةٍ فهو ﴿يَأْمُرُ﴾ الناس ﴿بِالْعَدْلِ﴾ والخيرِ ﴿وَهُوَ﴾ في نفسهِ ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أَي: دينٍ قويمٍ وسيرةٍ صالحةٍ؟!

وهذان مثلانِ ضربهما ٱللهُ لنفسِهِ ولما يفيضهُ علىٰ عبادِهِ من النِعمِ الدينيَّةِ والدنياويَّةِ، وللأَصنامِ الَّتي هي جمادٌ ومواتٌ لاتنفعُ ولا تضرُّ، وقيل: ضربهما ٱللهُ مَثَلَينِ للكافِرِ والمُؤمنِ[1].

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أَي: يختَصُّ به علمُ ماغابَ منهما عن العبادِ وخفيَ عليهم علمُهُ ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ أَي: هو عندَ ٱللهِ وإِن تَراخَىٰ، كما تقولونَ في الشيءِ الَّذي تستقربونَه: هو كلمحِ البصرِ ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ إِذا بالغتم في استقرابِهِ، ونحوُهُ: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[2]، يعني: إِنَّه عندَه قريبٌ دانٍ وهو عندكم بعيدٌ، وقيل: معناه: أَنَّ إِقامةَ الساعةِ وإِحياءَ جميعِ

---

(١) قاله ابن عباس. راجع تفسيره: ص ٢٢٧.

(٢) الحج: ٤٧.

الأَمواتِ تكونُ في أَقرَبِ وقتٍ وأَوحاهُ(١) (٢) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو يقدرُ علىٰ أَن يُقيمَ الساعةَ.

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَايُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠)﴾

قُرِئَ: ﴿أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ بضمِّ الهمزةِ وكسرِها(٣) في جميعِ القرآنِ ﴿لَاتَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ في موضعِ الحالِ، المعنىٰ: غيرَ عالِمِينَ شيئاً من حقِّ المُنعِمِ الَّذي خلقَكُم في البطونِ، ويجوزُ أَن يكونَ ﴿شَيْـًٔا﴾ مصدراً والمعنىٰ: لاتعلمون علماً ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ أَي: وركَّبَ فيكم هذهِ الأَشياءَ لإِزالةِ الجهلِ الَّذي ولدْتُم عليه، واكتسابِ العلمِ والعملِ به من شكرِ المنعِمِ وطاعتِهِ وعبادتِهِ.

وقُرِئَ: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ بالياءِ والتاءِ(٤) ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ مُذلَّلاتٍ للطيرانِ بما خُلِقَ لها من الأَجنحةِ والأَسبابِ المُؤاتيةِ لذلك، والجَوُّ: الهواءُ المتباعدُ من الأَرضِ في سمتِ العلوِ والسكاكُ واللوحُ أَبعدُ منه ﴿مَايُمْسِكُهُنَّ﴾ في قبضِهِنَّ وبسطِهِنَّ ووقوفِهِنَّ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جَلَّ جلالُه.

---

(١) الوَحَىٰ: السرعة، والوَحِيُّ: السريع. (الصحاح: مادة وحیٰ).
(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٦٢٣.
(٣) وقراءة الكسر هي قراءة الكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٩٣.
(٤) وبالتاء قرأه ابن عامر وحمزة ويعقوب. راجع المصدر السابق.

﴿مِن بُيُوتِكُمْ﴾ الّتي تسكنونها من الحجرِ والمدرِ والخيامِ والأخبيةِ[١] ﴿سَكَناً﴾ هو فَعَلٌ بمعنىٰ مفعولٍ، وهو ما يُسكنُ إليه من بيتٍ أو إلفٍ ﴿بُيُوتاً﴾ هي القِبَابُ من الأُدُمِ والأَنطاعِ ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ ترونها خفيفةَ المحملِ ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ أي: ارتحالِكُم من بلدٍ إلىٰ بلدٍ، وقُرِئَ بفتحِ العينِ[٢] وسكونِها ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ أي: تَخِفُّ عليكم في أوقاتِ السفرِ والحضرِ جميعاً ﴿وَمَتَـٰعاً﴾ أي: شيئاً يُنتفعُ به ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلىٰ أن تَبلىٰ، أو إلىٰ أن تموتوا.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَ ٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَ ٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَ ٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ (٨٣) وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لَايُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَاهُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَاهُمْ يُنظَرُونَ (٨٥)﴾

﴿مِّمَّا خَلَقَ﴾ من الأشجارِ والأبنيةِ أشياءَ تستظلّونَ بها في الحرِّ والبردِ ﴿أَكْنَـٰناً﴾ جمع «كِنٍّ» وهو ما يُستكنُّ به من الغِيرانِ والبيوتِ المنحوتةِ في الجبالِ ﴿سَرَ ٰبِيلَ﴾ أي: قُمُصاً من القُطنِ والكتّانِ والصوفِ وغيرها ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ ولم يذكرِ البردَ لأنَّ الوقايةَ من الحرِّ عندهم أهمُّ، ودلَّ ذكرُ الحرِّ على البردِ ﴿وَسَرَ ٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ يريدُ الدروعَ والجواشِنَ، والسربالُ عامٌّ يقعُ علىٰ كلّ ماكان من حديدٍ أو غيرِه ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ تنظُرون في نعمهِ الفاشيةِ فتؤمنونَ به وتَنقادونَ له.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ فلم يقبلوا منك فقد أعذرتَ وأدّيتَ ماوجبَ عليك من التبليغِ.

---

(١) الأخبية جمع خباء: وهو بناء يكون من وَبَرٍ أو صوف. (الصحاح: مادة خبا).
(٢) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٧٥.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ الَّتي عدَّدناها حيثُ يعترفونَ بها وأنَّها من ٱللهِ ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بعبادتِهم غيرَ ٱللهِ ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾ ٱلجاحدونَ، وقيل: نعمةُ ٱللهِ: نبوَّةُ محمَّدٍ ﷺ[1] كانوا يعرفونها ثُمَّ ينكرونها عِناداً، وأكثرهم المنكرونَ بقلوبهم.

﴿شَهِيداً﴾ وهو نبيُّها أو إمامها القائمُ مقامَه يشهدُ لهم وعليهم بالإيمانِ والتصديقِ والكفرِ والتكذيبِ ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في الاعتذارِ، والمعنىٰ: لا حُجَّةَ لهم، فدلَّ بتركِ الإذنِ علىٰ أن لا حجَّةَ لهم ولا عُذرَ ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يُسترضونَ، أي: لا يقالُ لهم: أرضُوا ربَّكم؛ لأنَّ الآخرةَ ليست بدارِ تكليفٍ، وانتصَبَ ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ﴾ بمحذوفٍ، والتقديرُ: واذكرْ يوم نبعثُ، أو: يوم نبعثُ وقعوا فيما وقعوا فيه. وكذا قولُه: ﴿وَإِذَا﴾ رَأَوْا ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ أي: إذا رأَوْه ثقُلَ عليهم ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٨٧) ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ (٨٨) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩٠)

﴿شُرَكَآؤُنَا﴾ أي: آلهتنا التي دعوناها شركاءَ ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: قالَ الَّذينَ عبدوهم لهم بإنطاقِ ٱللهِ إيَّاهم: ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في أنَّا أمرناكم بعبادتِنا

---

(١) قاله السدي. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٢٠٧.

أو في قولكُم: إنّا آلهةٌ. ﴿وَأَلْقَوْا﴾ يعني: الّذين أشركوا ﴿ٱلسَّلَمَ﴾ أي: الاستسلامَ لأَمرِ ٱللهِ وحكمِهِ بعد الإباءِ والاستكبارِ في الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: بطَلَ عنهم ﴿مَاكَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ من أنَّ للهِ شركاءَ وأنّهم يشفَعُونَ لهم.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وحملوا غيرهم على الكفرِ يُضاعِفُ اللهُ عقابَهم كما ضاعفوا كفرَهم ﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ بكونهم مفسدين للناس بصدِّهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللهِ﴾.

﴿شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: نبيَّهم الّذي أُرسِلَ إليهم، أَو الحجَّةَ الّذي هو إمامُ عصرهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يامحمّدُ ﴿شَهِيداً عَلَىٰ هَـٰؤُلَآءِ﴾ أي: أُمَّتك ﴿تِبْيَـٰناً﴾ أَي: بياناً بليغاً ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أُمورِ الدينِ، فما من شيءٍ منها إلّا وقد بُيِّنَ في القرآنِ: إمّا بالنصِّ عليه، أَو الإحالةِ علىٰ مايوجِبُ العلمَ من: بيان النبيِّ ﷺ أَو الحُجَجِ القائمينَ مقامَه أَو إجماعِ الأُمَّةِ، فيكونُ علىٰ هذا حكمُ جميعِها مستفاداً من القرآنِ.

﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ بالواجبِ من الإنصافِ بين الخلقِ وغيرِ ذلك ﴿وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ وهو التفضُّلُ والندبُ، ولفظُ الإحسانِ جامعٌ لكلِّ خير ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وإعطاءِ الأَقاربِ[1] حقَّهم بصلَتِهم، وقيل: هم قرابةُ النبيِّ ﷺ ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي: الفاحشةِ وهي ماجاوزَ حدودَ ٱللهِ ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ماتنكرُه العقولُ ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾ طَلَبُ التطاولِ بالظلمِ.

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَاتَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَاتَكُونُواْ كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَاكُنتُمْ

(١) في بعض النسخ زيادة: جميعاً.

فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) ﴾

عَهْدُ ٱللَّهِ: هو البيعةُ لرسولِ اللهِ ﷺ على الإسلامِ والإيمانِ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ (١)، ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ البيعةَ ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أَي: بعدَ توثيقِها باسمِ ٱللهِ، و«أَكَّدَ» و «وَكَّدَ» لغتانِ، والأَصلُ: الواوُ والهمزةُ بدلٌ منه ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ رقيباً وشاهداً؛ لأَنَّ الكفيلَ يراقبُ حالَ المكفولِ به ويُراعِيه.

﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ في نقض الأَيمانِ ﴿كَـ﴾ المرأةِ ﴿ٱلَّتِى﴾ غزَلَتْ ثم ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ بعدَ إمراره (٢) وإحكامِهِ فجعلتْهُ ﴿أَنكَٰثًا﴾ جمعُ نِكْثٍ، وهو ما يُنكثُ فتلُهُ، وهي رَيطةُ بنتُ سَعدِ بنِ تَيمِ بنِ مُرّةَ من قريشٍ، كانت تَغزلُ مع جواريها إلى انتصافِ النهارِ ثُمَّ تأمرهنَّ فينقضْنَ ما غزلْنَ ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ بسببِ أَن تكونَ أُمَّةٌ، يعني: جماعةَ قريش ﴿هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أَي: أَزيدُ عدداً وأَوفرُ مالاً من أُمَّةٍ من جماعةِ المُؤمنينَ ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ الضميرُ لقولِهِ: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ لأَنَّه في معنى المصدرِ، أَي: إنَّما يختبِرُكم بكونِهم أربىٰ لينظر أَتُوفُونَ بعهدِ ٱللهِ وبيعةِ رسولِ ٱللهِ ﷺ أَم تغترُّونَ بكثرةِ قريش وقوَّتِهم وثروتِهم وقلَّة غيرهم من المؤمنين وضعفِهم وفقرِهم ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وعيدٌ وتحذيرٌ من مخالَفةِ الرسولِ.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مُسلِمةً مُؤمنةً ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾

---

(١) الفتح: ١٠.

(٢) في بعض النسخ: إيرامه. وفي الصحاح: أمررتُ الحبل: اذا فتلته فتلاً شديداً.

وهو أن يخذُلَ مَنْ عَلِمَ أنّه يختارُ الضلالَ والكفر، ويلطفَ بمن عَلِمَ أنّه يختارُ الإيمانَ، يعني: أنّه بَنَى الأمرَ على الاختيارِ لا على الإجبارِ، وحَقّقَ ذلك بقولِه: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ثُمَّ كرّر النهيَ عن اتّخاذِ الأيمانِ ﴿دَخَلاً﴾ بينَهم؛ تأكيداً عليهم، والدخَلُ: أن يكونَ الباطنُ خِلافَ الظاهِرِ، فيكون داخلُ القلبِ على الكفاءِ[1] والظاهرُ على الوفاءِ ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ﴾ أي: فتزِلَّ أقدامكم عن محجّةِ الإسلامِ ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ عليها، وإنّما وحِّدتِ القدمُ ونكِّرتْ لاستعظامِ أن تزِلَّ قدمٌ واحدةٌ عن طريقِ الحقِّ بعد أن ثبتَتْ عليه فكيفَ بأقدامٍ كثيرة ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ في الدنيا بصدودكم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أو بصدِّكم غيرَكم عنها؛ لأنّهم لو نَقَضُوا أيمانَ البَيعةِ وارتَدّوا لاتّخذُوا نقضها سُنّةً لغيرِهم يستنّونَ بها ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرةِ.

الصادقُ عليه السلام: «نَزَلَتْ هذه الآيةُ في وِلايةِ عليٍّ عليه السلام والبيعةِ له حينَ قال النبيُّ صلى الله عليه وآله: سلّموا علىٰ عليٍّ بإمرةِ المُؤمنينَ»[2].

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٩٧) فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ (١٠٠)﴾

---

(١) في نسخة: اللفَاء، وهو مقابل الوفاء. أُنظر لسان العرب: مادة «لفأ».

(٢) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٦٨ ح ٦٤.

﴿وَلَا﴾ تستبدلوا ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ وبيعةِ رسولِ ٱللهِ ﴿ثَمَناً قَلِيلاً﴾ عرضاً يسيراً من الدنيا ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثوابِ على الوفاءِ بالعُهودِ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأَشرَفُ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الفرقَ بين الخيرِ والشرِّ. ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ من متاعِ الدنيا ﴿يَنفَدُ﴾ أَي: يفنىٰ، وقُرِئَ: ﴿لَنَجْزِيَنَّ﴾ بالياءِ[١] والنونِ. ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ يعني: في الدنيا، وهو الظاهرُ لقولِه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ وعَدَهُ ٱللهُ ثوابَ الدنيا والآخرة، وعن ابنِ عبّاس: الحياةُ الطيِّبَةُ: الرزقُ الحلالُ[٢]، وعن الحسنِ: القَناعةُ[٣]، وقيلَ: يعني في الجَنَّةِ[٤]، ولا يطيبُ لمُؤمنٍ حياةٌ إلَّا في الجنَّةِ.

ولمَّا ذكَرَ العملَ الصالحَ وثوابَهُ وَصَلَ به قولَه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ ليُعلَمَ أَنَّ الاستعاذةَ من جملةِ العملِ الصالحِ، يعني: فإذا أَردتَ قراءَةَ القرآنِ فَاستعذْ، كقولِه: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾[٥] وكما تقول: إذا أَكلتَ فسمِّ اللهَ، وإنَّما عُبِّر عن إرادةِ الفعلِ بلفظِ الفعلِ لأَنَّ الفعلَ يوجد عند القصدِ والإرادةِ بغيرِ فاصلٍ. ﴿لَيْسَ لَهُ سُلْطَٰنٌ﴾ أَي: تسلُّطٌ علىٰ أَولياءِ اللهِ، يعني: أَنَّهم لايقبلونَ منهُ مايريده منهم ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُ عَلَى﴾ من يتولَّاه ويطيعه ﴿بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ الضميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ يرجعُ إلىٰ ﴿رَبِّهِمْ﴾، ويجوز أَن يرجعَ إلىٰ ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أَي: بسببِه مشركونَ.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ

---

(١) قرأه نافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٧٥.

(٢) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٢١٢.

(٣) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ٧٥. (٤) قاله قتادة. راجع التبيان: ج ٦ ص ٤٢٤.

(٥) المائدة: ٦.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ (١٠٥)﴾

تبديلُ الآيَةِ ﴿مَكَانَ﴾ الآيةِ هو النسخُ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ فينزِّلُ في كُلِّ وقتٍ ماتوجبه المصلحةُ، وما كانَ مصلَحةً أمس جازَ أَن يصيرَ مفسدةً اليوم وخلافُه مصلَحةً، وهو سبحانه عالمٌ بالمصالحِ كلِّها ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ أَي: كاذبٌ تأمرُ أَمس بأَمرٍ واليومَ بخِلافِهِ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ جوازَ النسخِ، وأَنَّه من عند اللهِ لجهلِهم.

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني: جبرئيلَ، أُضيفَ إِلىٰ ﴿ٱلْقُدُسِ﴾ وهو الطُهرُ كقولِهم: حاتمُ الجودِ، وزيدُ الخيرِ، والمرادُ: الروحُ المقدَّسُ، وحاتِمُ الجوادُ، وزيدٌ الخيِّرُ. والمقدَّسُ: المطهَّرُ من المآثمِ، وفي ﴿يُنَزِّلُ﴾ و ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ منَ المعنى أَنَّه نَزَّلَه شيئاً بعدَ شيءٍ علىٰ حَسَبِ المصالحِ، وفيه إِشارةٌ إِلىٰ أَنَّ التنزيلَ[1] أَيضاً من بابِ المصالحِ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في موضعِ الحالِ من الهاءِ في ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ أَي: ملتبساً بالحكمةِ، يعني: أَنَّ النسخَ من جملةِ الحقِّ ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما فيهِ من الحججِ والبيِّناتِ فيزدادوا تصديقاً ويقولُوا: هوَ الحقُّ من ربِّنا ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ معطوفانِ على محلِّ ﴿لِيُثَبِّتَ﴾ والتقديرُ: تثبيتاً لهم وهدايةً وتبشيراً.

﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ قالوا: يُعلِّمهُ غلامٌ روميٌّ كان لحُوَيطبِ بنِ عبدِ العُزَّىٰ[2]،

---

(١) في بعض النسخ: التبديل.

(٢) وهو من بني عامر بن لؤي، عاش مائة وعشرين سنة، نصفها في الجاهلية، مات في خلافة معاوية، وكان من المؤلّفة قلوبهم. راجع المعارف لابن قتيبة: ص ١٧٦.

اسمُه: عائشٌ أَو يعيشُ، أَسلمَ وحسُنَ إِسلامه وكان صاحبَ كتابٍ، وقيلَ: هو سلمانُ الفارسيُّ ﷺ، قالوا: إِنَّه يتعلَّمُ القصصَ منه[1] ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ أَي: لغةُ الَّذِي يُضيفونَ إِليه التعليمَ ويميلون إِليه القولَ أَعجميَّةٌ، مِن أَلحد القبرَ ولَحَدَهُ فهوَ مُلحَدٌ وملحودٌ: إِذا أَمالَ حفرَه عن الاستقامةِ، ثُمَّ استعيرَ ذلكَ لكلِّ إِمالةٍ عن استقامةٍ، فقالُوا: أَلحَدَ فلانٌ في قولِه، وأَلحد في دينِه ﴿وَهَٰذَا﴾ يعني: القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ ذو بيانٍ وفصاحةٍ، وقُرِئَ: «يَلْحَدُونَ» بفتحِ الياءِ والحاءِ[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أَي: يعلمُ اللهُ منهم أَنَّهم لا يؤمنون ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ لا يلطف بهم ويخذلهم. ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ﴾ ردٌّ لقولِهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾، أَي: إِنَّما يليقُ افتراءُ الكذب بمن لا يؤمنُ باللهِ؛ لأَنَّ الإِيمانَ يمنع من الكذب.

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَٰنِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٠٧) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٠٩) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠)﴾

﴿مَن كَفَرَ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، والمعنىٰ: إِنَّما يفتري

(١) قاله الضحاك. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٢١٥.

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٧٥.

الكذبَ ﴿مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَـٰنِهِ﴾ واستَثْنى منهمُ المُكرَهَ، ويجوزُ أن ينتصبَ على الذمِّ، أَو يكون شرطاً مبتدأً محذوفَ الجوابِ؛ لأَنَّ جوابَ ﴿مَن شَرَحَ﴾ يدلُّ عليه، كأَنَّه قيلَ: مَن كفر باللهِ فعليهم غضبٌ منَ ٱللهِ، إِلَّا مَن أُكرِهَ.

وروي: أَنَّ أُناساً من أَهل مكَّةَ ارتدُّوا عن الإِسلامِ، وكـانَ فـيهم مـن أُكـره فأَجرَىٰ كلمةَ الكفرِ علىٰ لسانِه وهوَ معتقدٌ للإِيمانِ، منهم عَمَّارٌ وأَبواهُ ياسرٌ وسُميَّةُ، وصُهيبٌ وبِلالٌ وخَبّابٌ، وقُتِلَ أَبو عمّارٍ وأُمُّه فأَعطاهم عمّارٌ بـلسانِه مـاأَرادوا، فقالَ قومٌ من المسلمينَ: كَفَرَ عمّارٌ، فقالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: «كلّا، إِنَّ عمّاراً مُلِئَ إِيماناً من قرنه إِلىٰ قدمه، واختلط الإِيمان بلحمه ودمه»، وجاءَ عمّارٌ إِلىٰ رسول اللهِ صلى الله عليه وآله وهو يبكي، فقالَ له: «ماوراءَكَ؟» قال: شرٌّ يارسولَ اللهِ، ماتُرِكتُ حتىٰ نلتُ منكَ وذكرتُ آلهتهم بخيرٍ، فجعلَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله يمسحُ عينيه ويقولُ: «مالكَ، إِن عادوا لك فعُدْ لهُم بما قلتَ»[(١)].

﴿ذَٰلِكَ﴾ إِشارةٌ إِلى الوعـيدِ بسـببِ اسـتحبابهم ﴿ٱلدُّنْيَا عَـلَى ٱلْآخِـرَةِ﴾ واستحقاقهم خذلانَ اللهِ بكفرهم. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ﴾ الكاملونَ في الغفلةِ فـلا أَحـدَ أَغفلُ منهم، إِذ غفلوا عن تدبُّرِ عاقبةِ حالهم في الآخرةِ وذلكَ غايةُ الغفلةِ.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ دلالةٌ علىٰ تباعد حالِ هؤلاءِ من حـالِ أُولئكَ وهُـم عـمّارٌ وأَصحابُه، ومعنىٰ «إِنَّ ربَّكَ لَهم»: أَنَّه لهم لا عليهم، بمعنىٰ: أَنَّه وليُّهم وناصرُهم لا عدوُّهم وخاذلُهم، وقيلَ: إِنَّ خبرَ ﴿إِنَّ﴾ قوله: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(٢)]، وهذا مـن بابِ ماجاءَ في القرآنِ تكرير «إِنَّ»، وكذلك الآيةُ الَّتي فـيما بـعدُ: ﴿ثُـمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ﴾ إِلى آخرِهِ[(٣)] ﴿مِن بَعْدِ مَافُتِنُواْ﴾ أَي: عُذِّبوا في اللهِ

---

(١) انظر تفسير البغوي: ج ٣ ص ٨٦.

(٢) قاله أبو البقاء علىٰ مافي البحر المحيط لأبي حيان: ج ٥ ص ٥٤١.

(٣) الآية: ١١٩.

وأُكرِهوا على الكفر فأعطَوهم بعض ماأرادوا ليسلموا من شرِّهم.

﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١) وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ (١١٣) فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلاً طَيِّباً وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥)﴾

انتصبَ ﴿يَوْمَ تَأْتِى﴾ بـ﴿رَّحِيمٌ﴾ أو بـ«ٱذْكُرْ»، والمعنىٰ: يوم يأتي ﴿كُلُّ﴾ إنسانٍ يجادلُ ﴿عَن﴾ ذاتِه لايهمُّهُ غيرها، كلٌّ يقولُ: نفسي نفسي، ومعنى المجادلةِ: الاحتجاجُ عنها والاعتذارُ لها، كقولِهم: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾[١] ونحوِ ذلكَ.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً﴾ أي: جعل القريةَ الّتي هذه صفتها مثلاً لكلِّ قومٍ أنعمَ اللهُ عليهم فبطروا وكفروا النعمة وتولّوا فأنزلَ اللهُ بهمُ العذابَ والنقمة ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ أي: قارّةً ساكنةً لايزعجها خوفٌ أو ضيقٌ ﴿رَغَداً﴾ أي: واسعاً، وسُمّي أثرُ ﴿ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ لِبَاساً لأنَّ أثرهما يظهر على الإنسانِ كما يظهرُ اللباس، وقيلَ: لأنّه شملهم الجوعُ والخوفُ كما يشملُ اللباسُ البدنَ، فكأنّه قالَ: فأذاقهم ماغشيهم وشملهم من الجوعِ والخوفِ[٢]، وقيل: هذه القريةُ هيَ مكّةُ[٣] عذّبهم

---

(١) الأعراف: ٣٨.

(٢) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٦٣٩.

(٣) وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة. راجع التبيان: ج ٦ ص ٤٣٢.

اللهُ بالجوعِ سبعَ سنينَ حتّىٰ أكلُوا القِـدَّ والعِلْهِزَ ـ وهـو الوَبَـر يـختلط بـالدم ـ والقُرَادِ[١]، وكانوا مع ذلك خائفين من النبيِّ ﷺ وأَصحابه يُغيرون علىٰ قوافلهم، وذلك حين دعا عليهم فقال: «اللّهمَّ اُشدُدْ وطأتكَ علىٰ مُضَرَ واجعلْ عليهم سنينَ كسِنِي يوسفَ عليه السلام»[٢]. ﴿وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ في موضعِ الحالِ.

ثمَّ خاطب المؤمنين بقولِه: ﴿فَكُلُواْ﴾ أي: كـلوا ﴿مِمَّا﴾ أعـطاكـم ﴿ٱللَّهُ﴾ من الغنائم وأَحلَّها لكم، وما بعدَه مفسَّرٌ في سورةِ البقرةِ.

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٩)﴾

يجوز أَن تكـونَ «مَـا» مـوصولةً، ويـنتصِبَ ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ بـ﴿لَا تَقُولُواْ﴾، والمعنىٰ: ولا تقولوا الكذبَ ﴿لِمَا﴾ تصفُهُ ﴿أَلْسِنَتُكُمُ﴾ من البهائمِ بالحلِّ والحرمةِ في قولكم: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾[٣]، واللامُ مثلها في قولكَ: ولا تَقُولُوا لما أَحلَّ اللهُ: هو حرامٌ، وقوله: ﴿هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلْكَذِبَ﴾. ويجوزُ أَن تكونَ «ما» مـصدريَّةً، ويـنتصِبَ ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ بـ﴿تَصِفُ﴾، والمعنىٰ: ولا تَقُولُوا: هذا حلالٌ وهـذا حـرامٌ لوصـفِ

---

(١) القُراد: هو مايتعلّق بالبعير ونحوه، وهو كالقمل للانسان. (مجمع البحرين: مادة قرد).
(٢) المصنّف لابن أبي شيبة: ج ٢ ص ٣١٧، مشكل الآثار للطحاوي: ج ١ ص ٢٣٦.
(٣) الأنعام: ١٣٩.

أَلسنتكم الكذبَ، أي: لاتحرِّمُوا ولا تُحلِّلُوا لأَجلِ قولٍ كَذِبٍ نطقتْ به أَلسنتكم لا لأَجلِ حُجَّةٍ ﴿لِتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللهِ﴾ في إضافةِ التحريمِ والتحليلِ إليه، واللامُ في ﴿لِتَفْتَرُواْ﴾ من التعليلِ الّذي لايتضمَّنُ معنى الغَرَضِ.

﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أَي: منفعتهم فيما هم عليه من أفعالِ الجاهليَّةِ منفعةٌ قليلةٌ وعقابُها عظيمٌ. ﴿مَاقَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ يعني في سورةِ الأَنعامِ.

﴿بِجَهَـٰلَةٍ﴾ في موضعِ الحالِ، أَي: ﴿عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ جاهلين غير متدبِّرين للعاقبةِ ﴿مِن بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد التوبةِ والجهالةِ.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً للهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَـٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤)﴾

﴿كَانَ أُمَّةً﴾ أَي: كَان وحدَهُ أُمَّةً من الأُممِ لكمالِهِ في صفاتِ الخيرِ، وعن مجاهدٍ: كان مُؤمناً وحده منفرداً في دهرِه بالتوحيدِ والناس كفّارٌ[1]، وعن قَتَادةَ: كان إمامَ هُدىً قُدوةً يُؤتمُّ به[2] ﴿قَانِتاً﴾ مطيعاً ﴿للهِ﴾ دائماً على عبادته ﴿حَنِيفاً﴾ مستقيماً في الطاعةِ، مائلاً إلى الإسلامِ غير زائلٍ عنه ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تكذيبٌ لكفَّارِ قريش في زعمهم أَنَّهم على ملَّةِ إبراهيم. ﴿شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ﴾ يعني: لأَنعمِ ٱللهِ تعالىٰ معترفاً بها، رويَ: أَنَّه كان لايَتغذّىٰ

---

(١) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٨٩.
(٢) حكاه عنه ابن كثير في تفسيره: ج ٢ ص ٥٧١.

إلّا مع ضيفٍ [١] [٢].

﴿حَسَنَةً﴾ عن قتادةَ: هي تنويهُ[٣] ٱللهِ باسمِهِ وذكرِهِ حتّىٰ أنّه ليس من أهل دينٍ إلّا وهم يتولّونه[٤]، وقيل: هي النبوّةُ[٥]، وقيل: هي قول المصلّي منّا: كما صلّيتَ علىٰ إبراهيمَ وآلِ إبراهيمَ[٦] ﴿لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أي: من أهلِ الجنّةِ، وناهيكَ بهذا ترغيباً في الصلاح.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ وفي ﴿ثُمَّ﴾ هذه تعظيمٌ لمنزلة رسولِ ٱللهِ ﷺ، وإعلامٌ بأنَّ أفضلَ ما أُوتي خليلَ ٱللهِ من الكَرامةِ اتّباعُ نبيِّنا محمّدٍ ﷺ ملّتَهُ من قبلِ أنّها دلّت على تباعُدِ هذا النعتِ في المرتبةِ من بين سائر النعوتِ الّتي أثنى ٱللهُ عليه بها.

المعنىٰ: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ﴾ وبالُ ﴿ٱلسَّبْتُ﴾ وهو المسخُ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ فأَحلّوا الصيدَ فيه تارةً وحرَّموا أُخرىٰ، وكان الواجبُ عليهم أَن يحرِّموه علىٰ كلمةٍ واحدةٍ ويتّفقوا فيه.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَاعُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ (١٢٦) وَٱصْبِرْ وَمَاصَبْرُكَ إِلَّا بِٱللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَاتَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨)﴾

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ﴾ دينِ ﴿رَبِّكَ﴾ الّذي هو طريقٌ إلىٰ مرضاته ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ بالمقالةِ

---

(١) في نسخة زيادة: ﴿ٱجْتَبَـٰهُ﴾ اختصه واصطفاه للنبوة ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الىٰ ملّة الاسلام.

(٢) انظر تفسير الرازي: ج ٢٠ ص ١٣٥.

(٣) نوّهته تنويهاً: اذا رفعته، ونوّهتُ باسمه: اذا رفعت ذكره. (الصحاح: مادة نوه).

(٤) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٢١٩.

(٥) قاله الحسن البصري في تفسيره: ج ٢ ص ٧٧.

(٦) قاله مقاتل بن حيان. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٨٩.

المحكمةِ الصحيحةِ وهي الدليلُ المُوضِحُ للحقِّ، وقيل: بالقرآنِ[١] ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ وهي الَّتي لايَخفىٰ عليهم أنَّك تُناصحهم بها وتنفعهم فيها ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالطريقةِ الَّتي هي أحسنُ طرقِ المجادلةِ من الرفقِ واللينِ من غير فظاظةٍ وعنفٍ ليكونوا أقربَ إلى الإجابةِ.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ وإن أردتم معاقبةَ غيرِكم علىٰ وجهِ المُجازاةِ فعاقبوهُ ﴿بِـ﴾ قَدرِ ﴿مَاعُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ ولا تَزيدوا عليه، وسُمِّي الفعلُ الأوَّلُ باسمِ الثاني للمزاوجةِ.

كان المشركونَ قد مَثَّلُوا بقتلى أُحُدٍ وبحمزةَ بنِ عبدِالمطَّلبِ رضي الله عنه، أَخَذَت هندٌ كبدَهُ فَجَعَلت تَلُوكُهُ[٢]، وجَدَعُوا أَنفه وأُذنه، فقال المسلمون: لئن أَمكنَنَا ٱللهُ منهم لنُمثِّلنَّ بالأَحياءِ فضلاً عن الأموات، فنزلت.

﴿لَهُوَ خَيْرٌ﴾ الضميرُ يرجِعُ إلى «الصبرِ» وهو مصدرُ ﴿صَبَرْتُمْ﴾، ويرادُ بِـ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ المخاطَبونَ، والمعنىٰ: ولئن صبرتم لصبركم خيرٌ لكم، فوُضِعَ «الصابرون» موضعَ الضميرِ ثناءً من ٱللهِ عليهم بأنَّهم صابرون، ويجوز أن يُرادَ جنسُ الصابرينَ، أي: الصبرُ خيرٌ للصابرين.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ أنت يامحمَّد فيما تلقَاهُ من الأذىٰ ﴿وَمَاصَبْرُكَ إِلَّا بِـ﴾ توفيق ﴿ٱللهِ﴾ وتثبيتِهِ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المشركين في إعراضِهم عنك، أو علىٰ قتلىٰ أُحُدٍ فإنَّ ٱللهَ تعالى نقلهم إلىٰ كرامته، وقُرِئَ: ﴿فِى ضَيْقٍ﴾ بفتح الضادِ وكسرِها[٣]، أي: لايضيقَنَّ صدركَ من مكرِهم.

﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي: هو وليُّ الَّذين اتَّقوا الشركَ والكبائرَ ﴿وَ﴾ وليُّ ﴿ٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ في أعمالهم.

---

(١) قاله الكلبي. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٢٢٠.

(٢) لكتُ الشيء في فمي ألوكه: اذا علكته، أي: مضغته. (الصحاح: مادة لوك).

(٣) وبالكسر قرأه ابن كثير والمسيبي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٩٤.

سورةُ بني إسرائيلَ

مكّيةٌ[1]، وهي مائةٌ وإحدىٰ عشرة آية كوفي، عشرٌ في غيرِهِم، عدَّ الكوفيُّ ﴿لِلأَذْقَانِ سُجَّداً﴾[2].

في حديثِ أُبيٍّ: «من قرأَ سورةَ بني إسرائيل فرَقَّ قلبُه عندَ ذكرِ الوالدين أُعطيَ في الجنَّةِ قنطارينِ من الأَجرِ»[3].

الصادقعليه السلام: «من قرأَها في كُلِّ ليلةِ جمعةٍ لم يَمتْ حتَّىٰ يُدرِكَ القائمَعليه السلام، ويكون من أصحابِهِ»[4].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٦ ص ٤٤٣ مالفظه: هي مكية في قول مجاهد وقتادة، وهي مائة واحدى عشرة آية في الكوفي، ومائة وعشر آيات في البصري والمدني.

وقال الماوردي البصري في تفسيره: ج ٣ ص ٢٢٣: مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباس وقتادة: إلّا ثماني آيات من قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ الى قوله: ﴿سُلْطَـٰناً نَّصِيراً﴾.

وقال الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٦٤٦: مكية إلّا الآيات ٢٦ و ٣٢ و٣٣ و ٥٧، ومن آية ٧٣ الى غاية آية ٨٠ فمدنية، وآياتها ١١١، نزلت بعد القصص.

وقال الثعالبي في جواهره: ج ٢ ص ٢٤٨: هذه السورة مكية إلّا ثلاث آيات، قال ابن مسعود في بني اسرائيل والكهف: إنّهما من العتاق الأول، وهنّ من تلادي، يريد: انهنّ من قديم كسبه.

(٢) الآية: ١٠٧.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٧٠١ مرسلاً، وفيه «قنطار» بدل «قنطارين».

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٣.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلاً مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (١) وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلاً (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْداً شَكُوراً (٣)﴾

﴿سُبْحَـٰنَ﴾ عَلَمٌ للتسبيحِ، وانتصابه بفعلٍ مضمرٍ تُرك إظهاره، والتقديرُ: أُسبِّحُ ٱللّهَ سُبحان[١]، ثُمَّ نُزِّل «سبحَانَ» منزلةَ الفعلِ فسَدَّ مسدَّهُ، ودلَّ على التنزيهِ البليغِ من جميعِ القبائحِ[٢]، و﴿أَسْرَىٰ﴾ وسَرَىٰ بمعنىً، ونُكِّر قوله: ﴿لَيْلاً﴾ لتقليلِ مدَّة الإسراءِ، وأَنَّه أُسرِيَ[٣] في ليلةٍ من جملةِ الليالي من مكَّةَ إلى الشامِ مسيرةَ أَربعين ليلةً، وقد عُرِجَ به إلى السماءِ من بيتِ المَقدِس في تلك الليلةِ وبلغَ البيتَ المعمورَ وبلَغَ سدرةَ المنتهىٰ، وقيل: إنَّه كان قبلَ الهجرةِ بسنةٍ[٤]، و﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾: بيتِ المَقدس؛ لأَنَّه لم يكن حينئذٍ وَراءَهُ مسجدٌ ﴿بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ يريد بركاتِ الدينِ والدنيا؛ لأَنَّه مُتعبَّدُ الأَنبياءِ ومهبَطُ الوحي، وهو محفوفٌ بالأَنهارِ الجاريةِ والأَشجار المثمرة ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ العجيبةِ الَّتي منها إسراؤُه في ليلةٍ واحدةٍ من مكَّةَ إلىٰ هناكَ، والعروجُ بـه إلى السماءِ، ورؤيةُ الأَنبياءِ، والبلوغُ إلى البيتِ المعمورِ وسدرةِ المنتهىٰ.

---

(١) في بعض النسخ: سبحاناً.

(٢) رُوي عن طلحة بن عبيد الله انّه قال: سألت رسول الله ﷺ عن معنىٰ «سبحان الله» فقال: «تنزيهاً لله من كل سوء». ذكرها النحاس في إعرابه: ج ٢ ص ٤١٣.

(٣) في بعض النسخ زيادة: «به».

(٤) قاله مقاتل. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٩٢.

ورويَ: أنّه لمّا رجعَ وحدَّثَ بذلك قريشاً كذَّبُوه، وفيهم مَن سافر إلىٰ بيتِ المَقدس فاستنعتوه مسجدَ بيتِ المَقدس، فجُلي له فطفقَ ينظر إليه وينعته لهم حتّىٰ وصَفَ جملتَهُ، ثمَّ قالوا له: أَخبِرنا عن عيرنا، فأَخبرَهم بعدد جمالها وأَحمالِها، وقال: يقدمها جملٌ أَورقُ[1]، ويطلع عليكم عند طلوع الشمس، فخرجوا يشتدُّون نحو الثنيَّة[2] فقال قائلٌ منهم: هذه وَٱللهِ الشمسُ قد طلعتْ، وقال آخَرُ: هذه وٱللهِ الإبلُ قد أَقبلتْ يقدمها جملٌ أَورقُ كما قال محمَّدٌ صلى الله عليه وآله، ثم لم يؤمنوا وقالوا: هذا سحرٌ[3].

قُرِئَ: «أَلّا يَتَّخِذُوا» بالياءِ[4] علىٰ: لئَلّا يَتَّخِذُوا، وبالتاءِ علىٰ: أَي لا تَتَّخِذُوا، كقولك: كتَبتُ إليه أَنِ افعلْ كذا ﴿وَكِيلاً﴾ أَي: مُعتَمَداً تكلون إليه أُموركم.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نصبٌ على الاختصاص، وقيل: على النداءِ[5] في قراءةِ من قرأَ: «لاتَتَّخِذُوا» بالتاءِ على النهي، والمعنىٰ: قلنا لهم: لَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُوني وكيلاً ياذرِّيةَ مَن حملنا مع نُوحٍ، أَو: لاتَتَّخِذُوا ذرِّيةَ من حملنا مع نوحٍ وكيلاً، فيكون ﴿وَكِيلاً﴾ مُوَحَّدَ اللفظِ مجموعَ المعنىٰ، كرفيقٍ في قوله: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَـٰئِكَ رَفِيقاً﴾[6]، أَي: لا تجعلوهم أَرباباً، ومن ذرِّيةِ مَن حُمِلَ مع نوحٍ عُزيرٌ وعيسىٰ، ذكَّرهُم سبحانه نعمته في إنجاءِ آبائِهم من الغرقِ بحملِهم في السفينةِ ﴿إِنَّهُ﴾ أَي: إنَّ نوحاً ﴿كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ كثيرَ الشكر.

روي عن الباقرِ والصادقِ عليهما السلام: «أَنّه كانَ إذا أَصبح وأَمسىٰ قال: اللهمَّ

---

(١) الأورق من الإبل: الذي في لونه بياض الىٰ سواد. (الصحاح: مادة ورق).

(٢) الثنيّة: طريق العقبة (الصحاح: مادة ثنى).

(٣) رواه الشيخ الطوسي في تبيانه: ج ٦ ص ٤٤٦.

(٤) وهي قراءة أبي عمرو بن العلاء وحده. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٩٧.

(٥) وهو قول الزجاج في معانيه: ج ٣ ص ٢٢٦.

(٦) النساء: ٦٩.

إِنّي أُشهِدُك أَنَّ ماأَصبَحَ أَو أَمسىٰ بي من نعمةٍ فـي ديـنٍ أَو دنـيا فـمنكَ وحـدَكَ لاشريكَ لك، لك الحمدُ ولك الشكرُ بها عليَّ حتَّىٰ تَرضَىٰ وبعد الرضا، فهذا كـان شكره»[١].

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً (٤) فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَـٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُمْ بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيراً (٨)﴾

أَي: ﴿وَ﴾ أوحينا ﴿إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وحياً مقضيّاً مقطوعاً بأَنّهم يفسدون ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لامَحالةَ، ويعلُون أَي: يتعظَّمون ويبغون، والمرادُ بـ﴿ٱلْكِتَـٰبِ﴾: التوراةُ، وقوله: ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ جوابُ قسمٍ محذوفٍ، أَو يكون القضاءُ المقطوعُ بـه جارياً مجرى القسمِ فيكونُ ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ جواباً له، فكأَنّه قالَ: أَقسَمْنا لتُـفسدنَّ ﴿مَرَّتَيْنِ﴾: أُولِيهما: قتلُ زكريّا وحبسُ إرميا حينَ أَنذرهم سخطَ اللهِ، والأُخرىٰ: قتلُ يحيىٰ بن زكريّا وقصدُ قتلِ عيسىٰ ﴿عِبَاداً لَّنَآ﴾ وعن عليٍّ عليه السلام: «عَبيداً لنا»[٢]

(١) من لايحضره الفقيه للصدوق: ج ١ ص ٣٣٥ باب مايستحبّ من الدعاء في كـل صـباح ح ٩٨١، علل الشرائع له: ج ١ ص ٢٩ باب ٢١.

(٢) لم نعثر فيما توفّرت لدينا من كتب الخاصة ممّن تنسب هذه القراءة الى أميرالمؤمنين عليه السلام إلّا وتعزيها الى كتب المصنّف رحمه الله، وأمّا كتب العامّة فتنسبها الى زيد بن علي عليه السلام والحسن. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٧٨، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٩.

وهم سنحاريبُ وجنودُه، وقيلَ: بُختنَصّر[١]، فقتلوا علماءَهم وأَحرقُوا التوراةَ وخرَّبوا المسجدَ وقتلوا سبعين أَلفاً منهم وسبوا سبعينَ أَلفاً.

ومعنىٰ قوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾: خلَّينا بينهم وبينَ مافعلُوا ولم نمنعهم، فهو كقولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[٢]، وأُسنِدَ الجَوسُ إلِيهم وهو التردّد ﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ بالفسادِ، وتخريبُ المسجدِ وإحراقُ التوراةِ من جملةِ الجَوس، وقولُه: ﴿وَعْدُ أُولَٰهُمَا﴾ معناهُ: وعدُ عقابِ أُولاهما ﴿وَكَانَ﴾ وَعدُ العقابِ ﴿وَعْداً﴾ لابدَّ أَن يُفعلَ.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: الدولةَ والغلَبةَ على الَّذين بُعِثوا عليكم، وأَظهرناكم عليهم وأَكثرنا أَموالَكم وأَولادَكم ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ أَكثرَ عدداً من أَعدائكم، وهو جمعُ نفرٍ كالمَعِيزِ والعَبيدِ، وقيل: النفيرُ: مَن يَنفِرُ مع الرجلِ من قومِه[٣].

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ فالإِحسانُ مختصٌّ بـ﴿أَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ فالإِساءةُ مختصَّةٌ بها، لايتعدّى النفعُ والضررُ إلِىٰ غيركم.

وعن عليٍّ عليه السلام: «ماأَحسنتُ إلِىٰ أَحدٍ ولا أَسأتُ إلِيهِ» وتلَا هذه الآيةَ[٤].

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ﴾ المرّة ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ بعثناهم ﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ﴾ حُذِفَ لدلالة ذكره أَوَّلاً عليه، والمعنىٰ: ليجعلوا وجوهَكم تبدو آثار المساءةِ والكآبةِ فيها، وقُرئَ: «لِيَسُوءَ»[٥] والضميرُ للهِ أَو للوَعدِ أَو للبعثِ، و «لِنَسوءَ» بالنون[٦]،

(١) وهو قول سعيد بن المسيب. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٢٢٩.
(٢) الأنعام: ١٢٩.
(٣) قاله أبو مسلم. راجع تفسير الآلوسي: ج ١٥ ص ١٨.
(٤) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٦٥٠.
(٥) قرأه ابن عامر وحمزة وأبو بكر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٩٧.
(٦) وهي قراءة الكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٧٨.

وقوله: ﴿مَاعَلَوْاْ﴾ محلُّه نصبٌ بأنّه مفعولُ ﴿لِيُتَبِّرُواْ﴾ أي: ليُهلكوا كلَّ شيءٍ غلبوه واستولوا عليه، ويجوزُ أن يكونَ بمعنىٰ: مدّةَ عُلوِّهم.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد المرّة الثانية إن تبتم ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ مرّةً ثالثةً ﴿عُدْنَا﴾ إلىٰ عقوبتكم، وقد عادُوا فأعادَ ٱللهُ عليهم النقمةَ بتسليطِ الأكاسرةِ عليهم، وقيلَ: ببعثِ محمّدٍ ﷺ، فالمؤمنون يأخذون منهم الجزية إلىٰ يومِ القيامة(١)، والحصيرُ: السجنُ.

﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً (٩) وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٠) وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولاً (١١) وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلاً (١٢)﴾

﴿يَهْدِى﴾ للملّةِ ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ الملل، أو للطريقةِ أو للحالةِ الّتي هي أشدُّ استقامةً، وعطفَ قولَه: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ على ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ علىٰ معنىٰ: أنّه ﴿يُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ببشارتين: بثوابهم وبعقاب أعدائهم.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ ربّه عند غضبه ﴿بِالشَّرِّ﴾ علىٰ نفسِه وأهلِه ومالِه كما يَدعُوه لهم ﴿بِالْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولاً﴾ يتسرَّعُ إلىٰ طلبِ كلِّ ما يقعُ في قلبِه ويخطرُ ببالِه لايتأنّىٰ فيهِ.

﴿ءَايَتَيْنِ﴾ أي: دلالتينِ تدلّانِ علىٰ وحدانيّةِ خالقِهما؛ لما في كلِّ واحدٍ منهما من الفوائدِ، فكلُّ واحدٍ من ﴿ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ آيةٌ في نفسه، وعلىٰ هذا فيكونُ إضافةُ

---

(١) قاله قتادة. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٠٧.

﴿ءَايَةَ﴾ إلىٰ ﴿ٱلَّيْلِ﴾ و ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ للتبيينِ كإضافةِ العددِ إلى المعدودِ، أي: ﴿فَمَحَوْنَآ﴾ الآيةَ الَّتي هي الليلُ ﴿وَجَعَلْنَآ﴾ الآيةَ الَّتي هي النهارُ ﴿مُبْصِرَةً﴾، وقيلَ: إنَّ المرادَ: وجعلنا نيِّري الليلِ والنهارِ آيتينِ[(١)]، يعني: الشمسَ والقمر ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: فجعلنا الليلَ مَمحُوَّ الضوءِ مظلماً ﴿وَجَعَلْنَآ﴾ النهارَ مبصراً يُبصَرُ فيه الأشياءُ، أو: فمحونا آيةَ الليلِ الَّتي هي القمرُ حيثُ لم يخلقْ لهُ شعاعاً كشعاعِ الشمسِ، وجعلنا الشمسَ ذاتَ شعاعٍ يُبصَرُ في ضوئها كلُّ شيءٍ ﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لتتوصَّلوا ببياضِ النهارِ إلى التصرُّفِ في معايشكم وطلبِ أرزاقكم ﴿وَلِتَعْلَمُواْ﴾ باختلافِ الليلِ والنهارِ ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ والشهورِ ﴿وَ﴾ جنسَ ﴿ٱلْحِسَابَ﴾ وآجالَ الديونِ وغيرَ ذلكَ، ولولاهُما لم يُعلَم شيءٌ من ذلك، ولتعطَّلَتِ الأُمور ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلاً﴾ بيَّناهُ بياناً غيرَ ملتبسٍ، وميَّزناهُ تمييزاً بيِّناً غيرَ خافٍ.

﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰباً يَلْقَىٰهُ مَنشُوراً (١٣) ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤) مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾

﴿طَـٰٓئِرَهُ﴾ عمله، وقيلَ: هو من قولكَ: طارَ لهُ سهمٌ: إذا خرجَ[(٢)]، يعني: ﴿أَلْزَمْنَـٰهُ﴾ ماطارَ من عمله، يريدُ: أنَّ عمله له لازمٌ لزومَ القلادةِ أوِ الغُلِّ العُنقَ لاينفكُّ عنهُ، كما قيلَ في المثَلِ: تَقلَّدَها طَوقَ الحَمامةِ[(٣)]، وقُرِئَ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ﴾ بالنونِ، و«يُخْرِجُ لَهُ» بالياءِ[(٤)] والضميرُ للهِ عزَّوجلَّ، و «يُخْرَجُ» على البِناءِ

---

(١) قاله الرازي في تفسيره: ج ٢٠ ص ١٦٤.

(٢) قاله ابن عيينة علىٰ ماحكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٦٥٢.

(٣) ويضرب فيمن تلبّس بخصلةٍ قبيحة ـ على الأغلب ـ بحيث لاتزايله ولا تفارقه حتى يفارق طوق الحمامةِ الحمامةَ. وقد تقدّم ذكره. راجع مجمع الأمثال للميداني: ج ١ ص ١٥٣.

(٤) قرأه يحيىٰ بن وثاب. راجع تفسير القرطبي: ج ١٠ ص ٢٢٩.

للمفعولِ [١]، و«يَخْرُجُ» [٢] من خرَجَ، والضميرُ للطائرِ أي: يخرُجُ الطائرُ ﴿كِتَـٰباً﴾، وانْتَصبَ ﴿كِتَـٰباً﴾ على الحالِ، وقُرِئَ: «يُلَقَّىٰهُ» بالتشديدِ على البِناءِ للمفعولِ [٣]، و﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُوراً﴾ صفتانِ لـ«الكتاب»، أَو ﴿يَلْقَىٰهُ﴾ صفةٌ و ﴿مَنشُوراً﴾ حالٌ من ﴿يَلْقَىٰهُ﴾.

﴿اَقْرَأْ﴾ علىٰ إرادةِ القولِ، وعن قَتادةَ: يقرَأُ ذلكَ اليوم مَن لم يكن في الدنيا قارئاً [٤]، و ﴿بِنَفْسِكَ﴾ في محلِّ الرفعِ فاعلُ ﴿كَفَىٰ﴾، و ﴿حَسِيباً﴾ تمييزٌ، وهوَ بمعنىٰ حاسبٍ، كضريبِ القِداحِ [٥] بمعنى ضاربها، و ﴿عَلَيْكَ﴾ يتعلَّقُ به من قولهم: حَسَبَ عليهِ كذا، ويجوزُ أن يكونَ بمعنىٰ «الكافي» وُضِعَ موضعَ «الشهيدِ» فعُدِّيَ بـ«علىٰ»؛ لأَنَّ الشاهدَ يكفي المُدَّعي ماأَهمَّهُ، وذُكِّرَ ﴿حَسِيباً﴾ لأَنَّه بمنزلةِ الشهيدِ والقاضي، والأَغلبُ أَنَّ ذلكَ يتولاَّهُ الرجالُ، فكأَنَّه قالَ: كَفَىٰ بنفسكَ رجلاً حَسيباً، أَو تُؤَوَّلُ النفسُ بالشخصِ، كما يقالُ: ثلاثةُ أَنفُسٍ.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أَي: كلُّ نفسٍ حاملةٌ وزرَها ولا تَحمِلُ وِزرَ نفسٍ أُخرىٰ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ وما صحَّ منَّا في الحكمةِ أَنْ نُعذِّبَ قوماً إلاَّ بعدَ أَن ﴿نَبْعَثَ﴾ إليهم ﴿رَسُولاً﴾ فنلزمهم الحجَّةَ.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيراً (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (١٧) مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ

---

(١) قرأه أبو جعفر. راجع التبيان: ج ٦ ص ٤٥٥.
(٢) قرأه ابن عباس والحسن ومجاهد وابن محيصن وأبو جعفر ويعقوب. راجع تفسير القرطبي: ج ١٠ ص ٢٢٩.
(٣) وهي قراءة ابن عامر وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٧٨.
(٤) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٦٥٣.
(٥) القِداح: جمع قِدْح وهو السهم قبل أن يُراش ويركّب نصله. (الصحاح: مادة قدح).

فِيهَا مَانَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَـٰهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً (١٨) وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً (١٩) كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (٢٠) ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١) لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً (٢٢) ﴾

المعنىٰ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ﴾ أهلَ ﴿قَرْيَةً﴾ بعدَ قيامِ الحجَّةِ عليهم وإرسالِ الرسلِ إليهم ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ المتنعِّمين فيها بالإيمانِ والطاعةِ توكيداً للحجَّة عليهم ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ بالمعاصي ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي: فوجب حينئذٍ علىٰ أهلها الوعيدُ فأهلكنَاها إهلاكاً، وإنَّما خصَّ المُتْرَفِينَ ـ وهم الرؤساءُ ـ بالذكرِ لأنَّ غيرهم تبعٌ لهم، وقيلَ: معناه: كثَّرنا مترفيها[1]، فيكونُ من بابِ أَمرته فأَمِرَ، أي: كثَّرتُه فكثُرَ، مثلُ: بَشرتُه فبَشِر. وفي الحديثِ: «خيرُ المالِ سكَّةٌ مأبورةٌ ومُهرةٌ مأمورةٌ»[2] أي: كثيرةُ النتاجِ. وقرئَ: «آمَرْنَا»[3] أي: أفعلْنَا، من أَمِرَ وآمرَهُ غيرُهُ، وأَمَّرْنَا بمعناه، أو من أَمُرَ إمارةً وأمَّره ٱللهُ، أي: جعلناهم أُمراءَ وسلَّطْناهم.

﴿وَكَمْ﴾ مفعولُ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ تبيينٌ لـ﴿كَمْ﴾ وتمييزٌ له، يعني: عاداً وثمودَ وقُروناً بين ذلك كثيراً.

﴿مَن﴾ كانت ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ وهي النِعمُ الدنيويَّةُ همَّتَهُ ولم يُرِدْ غيرها تفضَّلْنا

(١) قال الآلوسي: حكاه أبو حاتم عن أبي زيد، و اختاره الفارسي. راجع روح المعاني: ج ١٥ ص ٤٤.

(٢) رواه ابن حجر في فتح الباري: ج ٨ ص ٣٩٥، والهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٥ ص ٢٥٨. والسكّة: الطريقة المصطفّة من النخل، والمأبورة: الملقّحة، والمهرة: ولد الفرس إذا كانت أنثىٰ، ومأمورة: كثيرة النسل.

(٣) قرأه يعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٩٨.

عليه بـ﴿مَانَشَآءُ﴾ منها ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ فقيّدَ الأَمرَ بقيدينِ: أَحدُهُما: تقييدُ المعجَّلِ بالمشيئةِ، والثاني: تقييدُ المعجَّلِ له بإِرادَتِهِ، وقولُه: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ بدلٌ من ﴿لَهُۥ﴾ بدلَ البعض من الكُلِّ؛ لأَنَّ الضميرَ من ﴿لَهُۥ﴾ يرجعُ إِلىٰ ﴿مَّن﴾ وهو للكثرة، وقيل: هو مَن يريدُ الدنيا بعملِ الآخرةِ كالمُرائي والمنافقِ(١) ﴿مَدْحُوراً﴾ مطروداً من رحمةِ ٱللهِ تعالى. ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أَي: حَقَّها من السعي، اشترط ثلاثَ شرائطَ في كونِ السعي ﴿مَشْكُوراً﴾: إِرادةُ الآخرةِ والسعيُ فيما كُلِّفَ من الفعلِ والتركِ والإِيمانُ الصحيحُ، وشكرُ ٱللهِ سعيه هو ثوابه على الطاعة.

﴿كُلًّا﴾ أَي: كُلَّ واحدٍ من الفريقينِ، والتنوينُ عِوَضٌ من المضافِ إِليه ﴿نُّمِدُّ﴾ هم: نزيدهم ﴿مِنْ﴾ عطائنا، ونجعَلُ الآنفَ منه مدداً للسالفِ لا نقطعه، فنَرزقُ المطيعَ والعاصيَ جميعاً علىٰ وجهِ التفضُّل ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ﴾ وفَضْلُه ممنوعاً: لايُمنَعُ من عاصٍ لعصيانه.

﴿ٱنظُرْ﴾ بعينِ الاعتبارِ ﴿كَيْفَ﴾ جعلناهم متفاوتين في التفضُّلِ، ودَرَجَاتُ ٱلآخرةِ ومراتبها ﴿أَكْبَرُ﴾ والتفاوُتُ فيها أَكثرُ.

﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً﴾ يعني: أَنَّك إِذا فعلتَ ذلك بَقِيتَ ماعِشْتَ مذموماً علىٰ أَلسِنةِ العُقلاءِ ﴿مَخْذُولاً﴾ لاناصرَ لك، وقيل: معنى القُعودِ: الذلُّ والخزيُ والعجزُ لا الجلوس(٢)، كما يقال: قَعَدَ به الضعفُ.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً (٢٣) وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا

---

(١) قاله القفال على ماحكاه عنه الرازي في تفسيره: ج ٢٠ ص ١٧٨.

(٢) قاله الفراء والزمخشري علىٰ ما حكاه عنهما أبو حيان في البحر المحيط: ج ٦ ص ٢٢.

﴿رَبَّيَانِى صَغِيراً (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُوراً (٢٥)﴾

معناه: أَمَرَ ﴿رَبُّكَ﴾ أمراً مقطوعاً به ﴿أَنْ لَّاتَعْبُدُوٓاْ﴾ [١]: ﴿أَنْ﴾ بمعنىٰ «أي»، و ﴿لَاتَعْبُدُوٓاْ﴾ نهيٌ، أو يريدُ: بأَن لاتعبُدُوا، ﴿وَبِالْوَٰلِدَيْنِ﴾ أي: وأحسِنُوا بالوالدينِ ﴿إِحْسَـٰناً﴾ أو: بأَن تُحسِنُوا بالوالدينِ إحساناً.

﴿إِمَّا﴾ هي «إِن» الشرطيَّةُ زيدتْ عليها «ما» توكيداً، ولذلك دخَلتِ النونُ المُؤَكِّدةُ في الفعلِ، و ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ فاعلُ ﴿يَبْلُغَنَّ﴾، وقرئَ: «يَبْلُغَانِّ» [٢] وعلىٰ هذا فيكون ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ بدلاً من ألفِ الضميرِ، و ﴿كِلَاهُمَا﴾ عطفٌ علىٰ ﴿أَحَدُهُمَآ﴾.

«أُفِّ» [٣] صوتٌ يدلُّ علىٰ تضجُّرٍ، وقُرِئَ: ﴿أُفٍّ﴾ بالتنوينِ والكسر، و «أُفَّ» بالفتحِ [٤] وكذلك في الأنبياءِ [٥] والأَحقافِ [٦]، وقرأَ أبو السمَّالِ [٧]: «أُفُّ» بالضمِّ [٨]. فأَمَّا الكسرُ فعلىٰ أَصلِ البِناءِ، وأَمَّا الفتحُ فتخفيفٌ للضمَّةِ والتشديدِ كـ«ثمّ»، وأَمَّا الضمُّ فللإِتباعِ كـ«منذ»، ومعنىٰ قوله: ﴿يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾: أَن يكبُرا ويكونا كَلّاً علىٰ ولدِهما لا كافلَ لهما غيرُه، فهما عنده في بيته وكَنَفِهِ وذلك أَشقُّ عليه، وربَّما تولَّىٰ منهما ماكانا يتولَّيانِ منه في حالِ صغره، فأُمِرَ بأَن يستعملَ معهما لِينَ الجانبِ وخفض الجناحِ والاحتمالَ حتَّىٰ لايقول لهما

---

(١) كذا في جميع النسخ.
(٢) قراه حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٧٩.
(٣) الظاهر من عبارة المصنّف هنا أنّه يعتمد على قراءة الكسر من غير تنوين كما هو واضح.
(٤) وهي قراءة ابن كثير وابن عامر. راجع المصدر نفسه.
(٥) الآية: ٦٧. (٦) الآية: ١٧.
(٧) هو قَعنَب بن أبي قَعنَب العدويّ البصري؛ أبو السمَّال، واشتهر أنّ له اختياراً في القراءات شاذّاً عن الجمهور. أنظر النهاية في طبقات القرّاء لابن الجزري: ج ٢ ص ٢٧.
(٨) أُنظر شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٧٩.

عند الضجرِ بما يستقذرُ منهما أَو يستثقلُ من مؤونتهما: أُفٍّ، فضلاً عمَّا يزيدُ عليه.

ولقد بالغَ عزَّوعلا في التوصيةِ بهما حيثُ شَفَّعَ الإحسانَ إليهما بتوحيدِهِ، ثم ضيَّقَ الأَمرَ في البِرِّ بهما حتَّىٰ لم يرخِّص في أَدنَىٰ كلمةٍ تدلُّ على التضجُّرِ مع موجباتِ الضجَر. وعن الصادقِ عليه السلام: «أَدنى العقوقِ: أُفٍّ، ولَو علِمَ ٱللَّهُ شيئاً أَهونَ من «أُفٍّ» لنَهىٰ عنه»[(١)].

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أَي: لاتزجرهما عمَّا يفعلانه، ولا تمتنع من شيءٍ أَراداه منك ﴿وَقُل لَّهُمَا﴾ بدَلَ التأَفيفِ والنَهر ﴿قَوْلاً كَرِيماً﴾ جميلاً كما يقتضيه حسنُ الأَدبِ،وقيل: هو أَن يقولَ: ياأَبتاه ويا أُمَّاه كما قال إِبراهيمُ عليه السلام لأَبيه مع كفرِهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾[(٢)] ولا تدعوهما بأَسمائهما فإِنَّه من الجفاءِ وسوءِ الأَدب[(٣)].

وفي ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِ﴾ وجهان: أَحدُهما: أَن يكونَ كإِضافةِ حاتمٍ إِلى الجُودِ إِذا قلتَ: حاتمُ الجود، أَي: فَـ﴿ٱخْفِضْ لَهُمَا﴾ جَناحَك الذليلَ، والآخر: أَن تجعل لذُلِّهِ جناحاً منخفضاً، كما جَعَلَ لبيدٌ[(٤)] للشمالِ يداً وللقِرَّةِ زماماً في قولِه:

وغـداةِ ريـحٍ قـد كشـفتُ وقـرَّةٍ ... قد أَصبحتْ بيدِ الشمالِ زمامها[(٥)]

أَرادَ المبالغة في التواضُعِ والتذلُّلِ لهما ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ من فرطِ رحمتِك لهما

---

(١) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٨٥ ح ٣٨. (٢) مريم: ٤٢ و ٤٣ و ٤٤ و ٤٥.

(٣) قاله مجاهد. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١١٠.

(٤) هو لبيد بن ربيعة بن مالك؛ أبو عقيل، كان من شعراء الجاهلية وفرسانهم، أدرك الإسلام وترك الشعر وسكن الكوفة، عاش عمراً طويلاً، وهو أحد أصحاب المعلّقات، مات في أول خلافة معاوية وهو ابن مائة وسبع وخمسين سنة. انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٤٨ - ١٥٦.

(٥) البيت من معلّقته التي مطلعها:

عَـفَت الديـار مَـحلّها فَـمُقامُها ... بِـمنىً تأبّـدَ غَـولُها فَـرِجَامُها

والتي قال له النابغة لما سمعها منه: اذهب فأنت أشعر العرب. وفيها تمجيد لأيامه وافتخار لأفعالِه. انظر ديوان لبيد بن ربيعة: ص ١٧٦.

لكبرهما، ولا تكتفِ برحمتك عليهما الَّتي لابقاءَ لها بل ٱدْعُ ٱللهَ سبحانه بأَن يرحمهما رحمته الباقية، وٱجعلْ ذلك جزاءً لرحمتهما عليك في حال صغرك وتربيتهما لك.

وفي الصحيحِ: أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله قال: «رَغِمَ أَنفُه» ثلاثَ مرَّاتٍ، قالوا: مَن يا رسولَ ٱللهِ؟ قال: «مَن أَدرك أَبويه عندالكبرأَحدَهماأَو كليهما ولم يدخلِ الجنَّةَ»(١).

وعن حُذيفةَ: أَنَّه ٱستأذن رسولَ ٱللهِ صلى الله عليه وآله في قتل أَبيه وهو في صفِّ المشركينَ، فقال له رسولُ ٱللهِ صلى الله عليه وآله: «دعه يَلِهِ غيرُك»(٢).

﴿بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ بما في ضمائركم من البرِّ والعقوق ﴿إِن تَكُونُواْ﴾ قاصدين إِلى الصلاح والبرِّ ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّٰبِينَ﴾ أَي: التوَّابين الراجعين إِلى اللهِ فيما يتوبهم ﴿غَفُوراً﴾.

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٢٦) إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (٣٠)﴾

وَصَّىٰ سبحانَه بغيرِ الوالدين من القرابات، وبأَن يُوتىٰ حقَّهم بعد أَن وصَّىٰ بهما، وقيل: إِنَّ المرادَ بـ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قَرابةُ النبيِّ(٣).

---

(١) صحيح مسلم: ج ٤ كتاب البر والصلة ب ٣ ص ١٩٧٨.

(٢) رواه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٦٦٠.

(٣) حكاه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٦ ص ٤٦٨، والبغوي في تفسيره: ج ٣ ص ١١٢ ←

وعن أبي سعيد الخُدرِيّ(١): أنّه لمّا نزلَتْ أعطىٰ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام فدَكَ(٢).

﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ أي: وآتِ المسكين ﴿حَقَّهُۥ﴾ الّذي جعله ٱللهُ له من الزكاة ﴿وَ﴾ آتِ ﴿ٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ حقَّه وهو المنقطع به من المجتازين ﴿وَلَا تُبَذِّرْ﴾ والتبذيرُ: تفريقُ المالِ فيما لاينبغي، وإنفاقُه علىٰ وجهِ الإسراف.

وعن مجاهدٍ: لو أنفقَ مُدّاً في باطلٍ كان تبذيراً، ولو أنفقَ جميعَ مالِهِ في الحقِّ لم يَكُن مبذِّراً(٣).

ومرَّ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله بسعدٍ وهو يتوضّأُ فقال: «ماهذا السرَفُ ياسعدُ؟!» قال: أوَ في الوضوءِ سَرَفٌ؟ قال: «نعم وإن كنتَ علىٰ نهرٍ جارٍ»(٤).

﴿إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ أمثالهم السالكون طريقتهم، وهذا غاية الذمِّ ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُوراً﴾ فلا ينبغي أن يُطاعَ فإنّه لا يدعو إلّا إلىٰ مثل فعله من الشرِّ، وإنْ تُعرضْ عن هؤلاءِ الّذينَ أمرتُكَ بإيتاءِ حقوقِهم حياءً من الردِّ لتبتغي الفضل ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ والسعةَ الّتي يمكنك معها البذلُ ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً﴾ أي: عِدْهم عِدَةً جميلةً، فوُضِعَ الابتغاءُ موضِعَ فَقْدِ الرزقِ؛ لأنَّ فاقدَ الرزقِ مبتغٍ له، ويجوزُ أن يتعلّقَ ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ بجوابِ الشرطِ مُقدَّماً عليه، أي: فقل لهم قولاً سهلاً تطييباً لقلوبهم ابتغاءَ رحمةِ اللهِ الّتي ترجوها برحمتك عليهم، ويجوزُ أن

← كلاهما عن علي بن الحسين عليه السلام.

(١) هو سعد بن مالك بن سنان الخُدري الخزرجي الأنصاري، صحابي وممن لازمه صلى الله عليه وآله، أول مشاهده الخندق، وكان ممّن حفظ عن رسول الله صلى الله عليه وآله سنناً كثيرة، وكان من نجباء الأنصار وعلمائهم، توفي بالمدينة سنة ٧٤ هـ. أنظر الاستيعاب: ج ٢ ص ٦٠٢ برقم ٩٥٤.

(٢) التبيان: ج ٦ ص ٤٦٨، تفسير ابن كثير: ج ٣ ص ٣٦.

(٣) حكاه عنه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٦ ص ٤٦٩.

(٤) مسند أحمد: ج ٢ ص ٢٢١، اتحاف السادة المتقين للزبيدي: ج ٢ ص ٣٧٠.

يكون الإعراضُ عنهم كنايةً عن عدم الاستطاعة، أي: وإنْ لم تنفعْهم.

ثُمَّ أَمَر سبحانه بالاقتصادِ الَّذي هو بين الإسرافِ والتقتيرِ، وهو تمثيلٌ لمنعِ الشحيحِ وإعطاءِ المُسرف ﴿فَتَقْعُدَ مَلُوماً﴾ أي: فتصير ملوماً عند ٱللهِ؛ لأَنَّ المُسرفَ غيرُ مرضِيٍّ عنده وعند الناس ﴿مَحْسُوراً﴾ منقطعاً بك لاشيءَ عندك، وقيل: محسوراً: عُرياناً[1].

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يوسِّع ﴿ٱلرِّزْقَ﴾ ويضيِّقه بحسَبِ المصلحةِ مع سَعةِ خزائنه.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيراً (٣١) وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً (٣٢) وَلَاتَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰناً فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُوراً (٣٣) وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولاً (٣٤) وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥)﴾

كانوا يئِدون بناتهم ﴿خَشْيَةَ﴾ الفقرِ وهو الإملاقُ، فذلك قتلهم أولادهم، فنهاهم ٱللهُ سبحانَه عن ذلك وضمِن لهم أرزاقَهم، وقُرِئَ: ﴿خِطْـًٔا﴾ يقال: خطِئَ خِطأً أي: أَثِمَ إثماً، والخِطءُ والخَطَأُ كالحِذرِ والحَذَرِ[2]، وقرئَ: «خِطَآءً» بالكسرِ والمدِّ[3].

﴿فَـٰحِشَةً﴾ قبيحةً زائدةً علىٰ حدِّ القبح ﴿وَسَآءَ سَبِيلاً﴾ أي: وبئس طريقاً

---

(١) قاله جابر على ماحكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٦٦٢.

(٢) يظهر من عبارة المصنّف ﷺ أنّه يعتمد هنا على قراءة فتح الخاء والطاء كما هو واضح من مثاله.

(٣) قرأه ابن كثير وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٧٩.

طريقَه وهو أَن يغصبَ على الغيرِ امرأَتَهُ أَو أُختَه أَو بنتَه من غيرِ سببٍ، والسببُ ممكنٌ وهو النكاح المشروع.

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وهو أَن يكفرَ بعد إِيمانٍ أَو يزني بعد إِحصانٍ أَو يقتلَ مؤمناً عمداً ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً﴾ غيرَ راكبٍ واحدةً من هذه الثلاثِ ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ﴾ الَّذي بينَه وبينَه قرابةٌ توجبُ المطالبة بدمه ﴿سُلْطَـٰناً﴾ أَي: تسلُّطاً على القاتلِ في الاقتصاص منه، وقُرِئَ: ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ بالياءِ والتاءِ[١]، فالياءُ علىٰ أَنَّ الضميرَ للولي، أَي: فلا يقتلِ الوليُّ غيرَ القاتلِ، ولا ٱثنينِ والقاتل واحدٌ كعادةِ الجاهليَّةِ، أَو لايمثلْ بالقاتلِ، وقيل: إِنَّ الضميرَ للقاتلِ الأَوَّلِ[٢]، والتاءُ علىٰ أَنَّ الخطابَ للوليِّ أَو قاتلِ المظلوم ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً﴾ والضميرُ: إِمَّا للوليِّ أَي: نصره ٱللهُ بأَن أَوجب له القصاص، وإِمَّا للمظلومِ؛ لأَنَّ ٱللهَ ناصره بأَن أَوجب القصاص بقتله ويثيبه في الآخرةِ.

﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وهي حفظُهُ عليه ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولاً﴾ أَي: مطلوباً يطلبُ من المُعاهِدِ أَن يَفِيَ به، ويجوزُ أَن يكونَ تخييلاً، كأَنَّه يقالُ للعهدِ: لِمَ نُكِثْتَ؟ توبيخاً للناكثِ كما تُسأَلُ المَوْءُودةُ ﴿بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾[٣].

وقُرِئَ: ﴿بِالقِسْطَاسِ﴾ بضمِّ القافِ[٤] وكسرِها، وهو الميزانُ صغيراً كان أَو كبيراً ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ وأَحسنُ عاقبةً، وهو تفعيلٌ من آلَ: إِذا رجع، وهو ما يؤول إِليه.

---

(١) وقراءة التاء هي قراءة حمزة والكسائي وابن عامر. راجع المصدر السابق.

(٢) وهو قول أبي علي كما في التبيان: ج ٦ ص ٤٧٣.

(٣) التكوير: ٩.

(٤) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم برواية أبي بكر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٨٠.

﴿وَلَا تَقْفُ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (٣٨) ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَاتَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً (٣٩) أَفَأَصْفَٰكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (٤٠)﴾

يقال: قفا أَثَرَهُ وقافه واقتفاهُ واقتافه بمعنَىٰ: اتَّبعَهُ، ومنه القافةُ[١]، أَي: لاتكن في اتِّباعِكَ ﴿مَا﴾ لا عِلْمَ ﴿لَكَ بِهِ﴾ من قولٍ أَو فعلٍ كمن يتَّبعُ مسلكاً لايعلمُ أَنَّه يوصله إِلىٰ مقصده، والمرادُ: النهيُ عن أَن يقولَ الرجلُ ما لايعلمُ أَو يعملَ بما لايعلمُ، ويدخلُ فيه النهيُ عن اتِّباعِ الظنِّ وعن التقليدِ، وعن الحسن: لاتَقْفُ أَخاكَ المسلمَ إِذا مرَّ بكَ فتقولَ: هذا يفعلُ كذا، ورأيته يفعل كذا ولم تَرَ، وسمِعتُهُ ولم تسمعْ[٢]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إِشارةٌ إِلىٰ ﴿ٱلسَّمع وَٱلْبَصر وَٱلْفُؤَاد﴾، و﴿عَنْهُ﴾ في موضعِ الفاعلِ، أَي: ﴿كُلُّ﴾ واحدٍ منها كان ﴿مَسْـُٔولاً﴾ عنه، فـ«مسؤول» مسندٌ إِلى الجارِّ والمجرورِ، يقال للإِنسانِ: لِمَ سمعتَ ما لايحلُّ لك سماعُه؟ ولِمَ نظرتَ إِلىٰ ما لايحِلُّ لك النظرُ إِليه؟ ولِمَ عزمتَ علىٰ ما لايحلُّ لك العزمُ عليه؟

﴿مَرَحاً﴾ حالٌ، أَي: ذَا مَرَحٍ ﴿لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ لن تجعلَ فيها خرقاً بشدَّةِ وَطْئك لها ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولاً﴾ بتطاولِك، وهذا تهكُّمٌ بالمختالِ. قرئَ: «سَيِّئَةً»[٣] و﴿سَيِّئُهُ﴾ علىٰ إِضافةِ «سيِّءٍ» إِلىٰ ضميرِ ﴿كُلُّ﴾، والسيِّئَةُ في حكمِ الأَسماءِ بمنزلةِ الإِثمِ والذنبِ، فلذلك قال: ﴿سَيِّئُهُ﴾ مع قولِه: ﴿مَكْرُوهاً﴾

---

(١) في بعض النسخ: القافية.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٦٦٦.

(٣) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٣٨٠.

إذْ لا اعتبارَ بتأنيثه، أي: كُلُّ مانُهِيَ عنه من هذه الخصالِ المعدودةِ كانَ إثماً مكروهاً.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ ماتقدَّمَ من قولِه: ﴿لَاتَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ﴾ إلىٰ هذه الغايةِ، وسمَّاه حكمةً؛ لأنَّه كلامٌ مُحكَمٌ لامَجالَ فيه للفسادِ بوجهٍ.

وعن ابنِ عبَّاس: أنَّ هذهِ الثمانيَ عشرةَ آيةً كانَت في ألواحِ موسى أوَّلُها: ﴿لَاتَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ﴾، جعلَ اللهُ سبحانه فاتحَتَها وخاتمَتَها النهيَ عنِ الشركِ؛ لأنَّ التوحيدَ رأسُ كُلِّ حكمةٍ[1].

﴿أَفَأَصْفَـٰكُمْ﴾ أي: أفخصَّكم ﴿رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ وهم أفضلُ الأولادِ لم يجعل فيهم نصيباً لنفسِهِ واتَّخذَ الأدونَ وهي البناتُ وهذا خِلافُ الحكمةِ، وهو خِطابٌ للَّذينَ قالوا: الملائكةُ بناتُ اللهِ ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾ بإضافتكم إليه الأولادَ ثُمَّ بتفضيلكم أنفسَكم عليه.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً (٤١) قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّابْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحَـٰنَهُ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤٤)﴾

﴿صَرَّفْنَا﴾ أي: كرَّرنا الدلائلَ وفصَّلنا العِبَرَ فيه، أو: أوقعنا التصريفَ فيه وجعلنَاه مكاناً للتكريرِ ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ ليتَّعظوا ويعتبروا، وقُرِئَ: «لِيَذْكُرُوا»[2]، فـ﴿مَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾ عن الحقِّ، وعن سُفيانَ: زادَني خضوعاً مازادَ أعداءَكَ نفوراً[3].

---

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٦٦٨.

(٢) قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٠٠.

(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٦٦٩.

﴿إذاً﴾ يدلُّ علىٰ أنَّ قولَهُ: ﴿لَّٱبْتَغَوْاْ﴾ جوابٌ عن مقالةِ المشركين وجزاءٌ لـ﴿لَوْ﴾ والمعنىٰ: لطلبوا ﴿إِلَىٰ﴾ مَن له الملكُ والإِلهيَّةُ ﴿سَبِيلاً﴾ بالمغالَبةِ، كما يفعلُ الملوكُ بعضُهم ببعضٍ، وفيه إشارةٌ إلىٰ دليلِ التمانعِ كما في قولِهِ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1]. ﴿عُلُوّاً كَبِيراً﴾ في معنىٰ: تعالياً، والمرادُ: البراءَةُ من ذلك والنزاهةُ، ووصفُ العلوِّ بالكبرِ مبالغةٌ في معنى البراءَةِ عمَّا وصفُوهُ به.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ﴾ بلسانِ الحالِ، حيثُ تدلُّ علىٰ صانعها وعلىٰ صفاتِهِ العُلَى، فكأَنَها تنطقُ بذلك، وكأَنها تنزِّهُ ٱللهَ عمَّا لايجوزُ عليه من الشركاءِ، وليس ﴿شَىْءٍ﴾ من الموجوداتِ ﴿إِلَّا﴾ و ﴿يُسَبِّحُ﴾ بِحَمْدِ ٱللهِ علىٰ هذا الوجهِ، إذ كلُّها حادثٌ مصنوعٌ يحتاجُ إلىٰ صانعٍ غيرِ مصنوعٍ، فهو يدلُّ علىٰ إثباتِ قديمٍ غنيٍّ عن كُلِّ شيءٍ سواهُ، لا يجوزُ عليه مايجوزُ علىٰ المُحدَثاتِ ﴿وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أَي: لا تعلمون تسبيحَ هذه الأَشياء، إذ لم تنظروا فيها فتعلموا دلالتَها على التوحيد ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ لايعاجلُكم بالعقابِ علىٰ سوءِ نظركم وشرككم.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُوراً (٤٦) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً (٤٧) ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٤٨) وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰماً وَرُفَـٰتاً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (٤٩)﴾

(١) الأنبياء: ٢٢.

﴿حِجَاباً مَّسْتُوراً﴾ أَي: ذا سَترٍ كقولِك: سيلٌ مُفعَمٌ[١] أَي: ذو إِفعامٍ، وقيل: حِجاباً مستوراً عن العيونِ من قدرةِ ٱللهِ تعالى لايُبصَرُ، حَجَبَه ٱللهُ سبحانه عن أَبصارِ أَعدائه من المشركينَ فكانُوا يمرُّونَ به ولا يَرَونَه[٢].

﴿وَحْدَهُ﴾ من نوعِ قولِهم: رَجَعَ عودَهُ علىٰ بَدْئه[٣] في أَنَّه مصدرٌ يسدُّ مسدَّ الحالِ، يقال: وَحَدَ يَحِدُ وَحْداً وحِدَةً، والأَصلُ يحِدُ وَحْدَهُ، والنفورُ: مصدرٌ بمعنى التَولية، أَو جمعُ نافرٍ كشُهودٍ جمعُ شاهدٍ، أَي: أَحبُّوا أَن تَذكرَ معه آلهتَهم لأَنَّهم مشركونَ، فإِذا لم تَذكرْهم نفروا.

﴿بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ من اللغوِ والاستهزاءِ بالقرآنِ، و ﴿بِهِ﴾ في موضعِ الحالِ، أَي: يستمعونَ هازِئينَ، و﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ﴾ نصبٌ بـ﴿أَعْلَمُ﴾ أَي: أَعلَمُ وقتَ استماعهم بما به يستمعونَ ﴿وإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ وبما يَتَناجَونَ به إِذ هُم ذَوو نجوى، أَي: متناجون ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ بدل مِن ﴿إِذْ هُمْ﴾ أَي: ما ﴿تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً﴾ قد سُحِرَ فجُنَّ واختلطَ عليه عقلُهُ، وإِنَّما قالوا ذلك لينفِّرُوا عنه.

﴿كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ مثَّلوكَ بالساحرِ والمجنونِ ﴿فَضَلُّواْ﴾ في ذلك ضلالَ المتحيِّرِ في أَمرِهِ لايدري كيف يتوجَّه. ﴿وَرُفَـٰتاً﴾ أَي: تراباً وغباراً وانتَثَر لحومُنا أَنُبعَثُ بعدَ ذلك ﴿خَلْقاً جَدِيداً﴾؟

﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً (٥٠) أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيباً (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ

---

(١) مفعم: مملوء، يقال: أفعمت الإناء: اذا ملأته. (الصحاح: مادة فعم).

(٢) وهو قول أسماء بنت أبي بكر كما في تفسير الآلوسي: ج ١٥ ص ٨٨.

(٣) العود: الطريق القديم، يقال: رجع عوده علىٰ بدئه: إذا رجع في الطريق الذي جاء منه. (الصحاح: مادة عود).

فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً (٥٢) وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوّاً مُّبِيناً (٥٣) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُوراً (٥٥)﴾

رَدَّ قوله: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً﴾ على قولهم: ﴿كُنَّا عِظَـٰماً﴾، فكأنَّه قال: كونوا حجارةً ﴿أَوْ حَدِيداً﴾ ولا تكونوا عظاماً فإنَّه يَقدرُ على إعادتكم أَحياءً، وردِّكم إلى رطوبةِ الحيِّ وغضاضته(١). ﴿أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ عن قبولِ الحياةِ، ويَعظم عندكم أن يُحْيِيَهُ ٱللَّهُ ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ﴾ أَي: خلقَكُم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإنَّ من قَدَرَ على الإنشاءِ كان على الإعادةِ أَقدرُ، وإنَّما قال ذلك لكونهم مُقرِّينَ بالنشأَةِ الأُولىٰ ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ أَي: فسيحرِّكون نحوك ﴿رُءُوسَهُمْ﴾ تعجُّباً واستهزاءً.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ أَي: يبعثُكم فتنبعثون منقادين غيرَ ممتنعينَ، والدعاءُ والاستجابةُ كلاهُما مَجازٌ هنا ﴿بِحَمْدِهِ﴾ حالٌ منهم أَي: حامدين لله، موحِّدين، وعن سعيد بن جُبيرٍ: يخرجونَ من قبورهم قائلينَ: سبحانَك ٱللَّهُمَّ وبحمدِكَ(٢) ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ أَنَّكم ما ﴿لَّبِثْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ لسرعةِ انقلابِ الدنيا إلى الآخرةِ، أَو لعلمكم بطول اللبثِ في الآخرةِ، ونُزِّلَ النفيُ منزلةَ الاستفهامِ في التعليقِ.

﴿وَقُل﴾ للمؤمنينَ: ﴿يَقُولُواْ﴾ للمشركينَ الكلمةَ ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، وفسّر ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بقولِه: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ ولا تقولُوا لهم ما يغيظهم ويغضبهم، وقيل: معناه: مُرْهم يقولوا الكلمةَ الحُسنَىٰ

(١) شيء غضّ وغضيض: أي طري. (الصحاح: مادة غضض).
(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٦٧٢.

وهي كلمةُ الشهادتينِ والأَقوالُ المندوبُ إليها[١] ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفسد بينهم ويُغري بعضَهم علىٰ بعضٍ ليُوقعَ بينَهم العداوة والبغضاء.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾ بأَحوالكم وبتدبير أُموركم[٢] ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بفضلِه ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بعَدله ﴿وَكِيلاً﴾ أي: ربّاً موكولاً إليك أَمرُهم تجبرهم على الإسلامِ، وإنَّما أَرسلناكَ بشيراً ونذيراً فدارِهِم واحتَمِلْ منهم.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ﴾ ردٌّ علىٰ كفَّارِ قريشٍ في إنكارِهِم نبوَّةَ نبيِّنا صلى الله عليه وآله، أي: ربُّكَ أَعلمُ ﴿بِـ﴾ أحوالِ ﴿مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومقاديرِهم، فلا يختارُ مَن يختارُهُ من الملائكةِ والأَنبياءِ لميلِهِ إليهم، وإنَّما يختارهم لعلمِهِ ببواطـنهم وبما يستأهِلُ كلُّ واحدٍ منهم ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا﴾ إشارةٌ إلىٰ تفضيلِ رسولِ ٱللهِ ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ دَلَالةٌ علىٰ تفضيلِهِ ـ أَيضاً ـ فإِنَّه خاتَمُ الأَنبياءِ، ومكتوبٌ في زبورِ داود: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾[٣] وهم محمَّدٌ وأَهلُ بيتِهِ عليهم السلام.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً (٥٦) أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً (٥٧) وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُوراً (٥٨) وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفاً (٥٩) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ

---

(١) قاله ابن عباس. راجع تفسير البحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٤٩.

(٢) في بعض النسخ زيادة: لا يجبركم على الإسلام.

(٣) الأنبياء: ١٠٥.

أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰناً كَبِيراً (٦٠) ﴾

﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ همُ الملائكةُ، وقيل: عيسى وعُزيرٌ[1]، وقيل: نفرٌ من الجنِّ عبدَهُم قومٌ من العربِ ثمَّ أَسلَمَ الجنُّ[2]، والمعنىٰ: ٱدْعُوهُم فإنَّهم لايقدرُونَ علىٰ أَن يكشفوا ﴿عَنكُمْ﴾ الضرَّ ﴿وَلَا﴾ أَن يحوِّلُوه عنكم إِلىٰ غيركم.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ مبتدأٌ وخبرُهُ ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يعني: أَنَّ آلهتَهم يبتغونَ ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ وهي القربةُ ﴿إِلَىٰ﴾ ٱللهِ عزَّوجلَّ، و ﴿أَيُّهُمْ﴾ بدلٌ من واوِ ﴿يَبْتَغُونَ﴾، و«أَيّ» اسمٌ موصولٌ، أَي: يبتغي مَن هو ﴿أَقْرَبُ﴾ منهم الوسيلةَ إِلى ٱللهِ فكيف غيرُ الأَقربِ! أَو ضُمِّنَ ﴿يَبْتَغُونَ﴾ معنى يحرصونَ، أَي: يحرصونَ أَيُّهم يكونُ أَقربَ إِلى ٱللهِ، وذلك بأَن يزيدوا في الطاعةِ والخيرِ ﴿وَيَرْجُونَ ... وَيَخَافُونَ﴾ كغيرِهم فكيفَ تدعونَهم آلهةً!

﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ بالموتِ ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ بالقتلِ وأَنواعِ العذابِ، وقيل: الهلاكُ للصالحةِ والعذابُ للطالحةِ[3]، و ﴿ٱلْكِتَـٰبِ﴾: اللوحُ المحفوظُ، استعارَ سبحانَه المنعَ لتركِ إِرسالِ الآياتِ من أَجلِ صارفِ الحكمةِ.

وَ﴿أَن﴾ الأُولىٰ منصوبةُ الموضعِ والثانيةُ مرفوعةٌ، والمعنىٰ: ولم يمنعنا إِرسالَ ﴿ٱلْأَيَـٰتِ إِلَّآ﴾ تكذيبُ الأَوَّلينَ، يريدُ الآياتِ الَّتي اقترحُوها من إِحياءِ الموتىٰ وأَن يحوِّلَ الصفَا ذهباً وغيرِ ذلك، وقد حَكَمَ ٱللهُ تعالىٰ في الأُممِ: أَنَّ من كذَّبَ بالآيةِ المقترحةِ عُوجِلَ بعذابِ الاستئصالِ، وقد عَلِمَ سبحانه أَنَّه لو أَرسلَ هذه

---

(١) قاله ابن عباس ومجاهد والحسن. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٢٠.

(٢) وهو قول ابن مسعود. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٢٥٠.

(٣) قاله مقاتل. راجع تفسير الرازي: ج ٢٠ ص ٢٣٣.

الآياتِ لكذَّبُوا بها واستوجبوا العذابَ العاجلَ المُستأصِلَ، ومن حكمِهِ [١] سبحانه في هذه الأُمَّةِ أَن لا يعذِّبهم بعذابِ الاستئصالِ تشريفاً لنبيِّه عليه السلام، وأَن يُؤخِّر أمرهم إلىٰ يوم القيامةِ.

ثمَّ ذكَرَ سبحانه من الآياتِ الَّتي ﴿كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ فأُهلِكُوا: ناقةَ صالحٍ؛ لأَنَّ آثارَهم في بلادِ العربِ قريبةٌ منهم ﴿مُبْصِرَةً﴾ بيِّنةً ﴿فَظَلَمُواْ﴾ أَي: فكفروا ﴿بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَـٰتِ﴾ الَّتي نظهرها على الأَنبياءِ ﴿إِلَّا تَخْوِيفاً﴾ وإِنذاراً بعذابِ الآخرةِ.

﴿وَ﴾ اذكُر ﴿إِذْ قُلْنَا لَكَ﴾ أَي: أَوحينَا إِليك: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ بقريشٍ، يعني: بشَّرناكَ بوقْعةِ بدرٍ ونُصرتك عليهم وهو قولُه: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [٢]، ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [٣]، فجعَلَه سبحانه كأَنْ قد كانَ، فقال: أَحاطَ بالناس، علىٰ عادتِهِ سبحانه في إِخبارِهِ، وقيل: معناه: أَحاطَ علماً بأَحوالِ الناس وأَفعالِهم وما يستحقُّونه عليها من الثوابِ والعقابِ وهو قادرٌ علىٰ فعلِ ذلك بهم، عالِمٌ بما يُصلحهم [٤]، وهذا وعدٌ له بالعصمةِ من أَذىٰ قومِهِ.

واختُلِفَ في ﴿ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ﴾ أُرِيَها النبيُّ عليه السلام، فقيل: هي رؤيةُ العينِ المذكورةُ في أَوَّلِ السورةِ من الإِسراءِ إلىٰ بيتِ المَقْدِسِ والمعراجِ [٥]، وأَرادَ بالفِتْنَةِ: الامتِحانَ وشدَّةَ التكليفِ ليعرِّضَ المصدِّقَ بذلك لجزيلِ الثوابِ والمُكذِّبَ لأَليمِ العقابِ، وقيل: هي الرؤيَا الَّتي في قولِه: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا

(١) في نسخة: حكمته.

(٢) القمر: ٤٥.

(٣) آل عمران: ١٢.

(٤) قاله الكلبي. راجع تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٢٧٤.

(٥) وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وابراهيم وابن جريج وابن زيد ومجاهد والضحاك. راجع التبيان: ج ٦ ص ٤٩٤، وتفسير الطبري: ج ٨ ص ١٠١.

بِالْحَقِّ﴾ [١] رَأَىٰ أَنّـَه سيدخلُ مكَّةَ وهو بالمدينةِ فصدَّه المشركونَ عن دخولها يومَ الحُدَيبيَّة، وإنَّما كانت فتنةً لِمَا دخلَ علىٰ بعض المسلمينَ من الشبهةِ والشكِّ فقال: أَليس قد أَخبرتَنا بأَن ندخلَ المسجدَ الحرامَ آمنينَ؟ فـقال صلى الله عليه وآله: لم أَقُلْ: إِنَّكم تدخلونَها العَامَ، لتدخلنَّها إن شاء ٱللهُ، ورجَعَ ثُمَّ دخَلَها في العامِ القابلِ [٢]، وقيل: هي رُؤيا رَآها في منامِهِ أَنَّ قُروداً تصعدُ منبرَهُ وتَـنزِلُ [٣]، وقـيل ـ علىٰ هـذا التأويلِ ـ: إنَّ ﴿ٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ هي بنُو أُميَّةَ أَخبَرَهُ ٱللهُ سبحانه بتغلُّبهم علىٰ مقامِهِ وقتلِهم ذرِّيته [٤]، وقيل: إنَّ الشجرةَ الملعونَةَ هي شجرةُ الزقُّومِ لُعِنَت في القرآنِ حيث لُعِنَ طَاعمُوها من الكفَّارِ، فوُصِفَت بلَعنِ أَصحابِها علىٰ المجاز [٥] ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بمخاوفِ الدنيا والآخـرةِ ﴿فَـمَا يَـزِيدُهُمْ﴾ التـخويفُ ﴿إِلَّا طُغْيَـٰناً كَبِيراً﴾ أَي: عُتُوّاً في الكفرِ لا يرجعون عنه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (٦١) قالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً (٦٢) قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُوراً (٦٣) وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُوراً (٦٤) إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ

---

(١) الفتح: ٢٧.

(٢) قاله ابن عباس. راجع التبيان: ج ٦ ص ٤٩٤.

(٣) قاله سهل بن سعد، وهو المروي عن أبي جعفر وأبـي عـبدالله عليهما السلام. راجـع التـبيان: ج ٦ ص ٤٩٤، وتفسير الماوردي: ج ٣ ص ٢٥٣.

(٤) قاله سعيد بن المسيب وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام. راجع التبيان: ج ٦ ص ٤٩٤.

(٥) وهو قول ابن عباس والحسن وأبي مالك وسعيد بن جبير وابراهيم ومجاهد وقتادة وابـن زيد والضحاك. راجع التبيان: ج ٦ ص ٤٩٤، وتفسير الماوردي: ج ٣ ص ٢٥٣.

سُلْطَـٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥)﴾

﴿طِيناً﴾ حالٌ منَ الموصولِ الَّذي هو ﴿مَنْ خَلَقْتَ﴾ علىٰ معنىٰ: ﴿ءَأَسْجُدُ﴾ لَهُ وهو طينٌ أي: أَصلُهُ طينٌ، أو من الضميرِ المحذوفِ مـن الصـلةِ عـلىٰ مـعنىٰ: ﴿لِمَنْ﴾ كان في وقتِ خلقِهِ طيناً.

والكافُ في ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ للخِطابِ و ﴿هَـٰذَا﴾ مفعولٌ به، والمعنىٰ: أَخبِرْني عن ﴿هَـٰذَا ٱلَّذِى﴾ كَرَّمته ﴿عَلَيَّ﴾ أَي: فضَّلتَهُ وٱخترتَهُ عليَّ: لِمَ اخترتَهُ عليَّ وأَنـا خيرٌ منه؟ فحُذِفَ للاختصارِ، ثمَّ ابتدأَ فقالَ: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِـ﴾ي، واللامُ لتوطئةِ القسمِ ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ لأَستأصلنَّهم بالإغواءِ ولأَستولِيَنَّ عليهم، من احْتَنكَ الجَـرادُ الأَرضَ: إِذا أَكلَ ماعليها، وأَصلُه من الحَنَكِ، وإِنَّما طَمِعَ الملعونُ في ذلكَ لأَنَّـه سبحانَهُ أَخبَرَ الملائكةَ أَنَّه سيجعلُ في الأَرضِ مَن يفسدُ فيها ويسفكُ الدماءَ.

﴿ٱذْهَبْ﴾ معناه: امضِ لشأنكَ الَّذي اخترتَهُ، وليسَ هوَ منَ الذهابِ الَّذي هو ضدُّ المجيءِ، ثمَّ قالَ: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ كما قـالَ مُـوسىٰ للسامريِّ: ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَامِسَاسَ﴾ (١)، والتقديرُ: فإِنَّ جهنَّمَ جزاؤهم وجزاؤكَ، فغَلَّبَ المخاطَبَ على الغائبِ فقالَ: ﴿جَزَآؤُكُـمْ جَـزَآءً مَّوْفُوراً﴾ مصدرٌ علىٰ إِضمارِ تُجازَونَ، أَو لأَنَّ ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَـزَآؤُكُـمْ﴾ بـمعنىٰ: تُجازَونَ، والموفورُ: الموفَّر الكامل.

﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ واستَخِفَّ ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾ واستزِلَّهم بوسوستكَ، والفَـزُّ: الخفيفُ، و﴿أَجْلِبْ﴾ من الجَلَبَةِ وهي الصياحُ، أَي: صِحْ «بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ» واحشرهم عليهم، والرجلُ: اسمُ جمعٍ للراجلِ، ونظيرُه الركبُ والصحبُ، وقُرِئَ: ﴿وَرَجِلِكَ﴾ (٢)

---

(١) طـٰه: ٩٧.

(٢) الظاهرأنّ المصنّف قداعتمدهناعلى قراءة سكون الجيم تبعاً للزمخشري كماهوواضح منه.

علىٰ أَنَّ فَعِلاً بمعنى فاعلٍ، يقالُ: رَجُلٌ ورَجِلٌ، أي: راجلٌ، ومعناهُ: وجمعِكَ الرَجِلِ(١) ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ يريدُ كلَّ معصيةٍ يحمِلُهم عليها: في بابِ الأَموالِ كالربا والإِنفاقِ في الفسقِ ومنعِ الزكاةِ، وفي بابِ الأَولادِ بالزنا ودعوى الولَدِ بغيرِ سببٍ ﴿وَعِدْهُمْ﴾ بالمواعيدِ الكاذبَةِ من: شفاعةِ الآلِهةِ وتمنِّي البقاءِ وطُولِ الأَملِ. ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ الصالحينَ ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ أَي: لاتقدرُ أَن تُغويَهم لأَنَّهم لايغترُّونَ بكَ ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ لهم، يتوكَّلونَ عليهِ في الاستعاذةِ منكَ فيحفظهم من شرِّك.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُوراً (٦٧) أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَاتَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَاتَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً (٦٩)﴾

﴿يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ أَي: يُسيِّرُ ويُجري لكم السفنَ ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ أَي: خوفُ الغَرَق ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾ أَي: ذَهبَ عن أَوهامكم وخواطركم كلُّ مَن تدعونه ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وحده، فلا ترجونَ هناك النجاةَ إِلَّا من عنده، ولا يخطرُ ببالكم أَنَّ غيرَه يقدرُ علىٰ إِنقاذكم ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ من البحرِ ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ فأَمِنتم فحمَلَكم ذلكَ على الإِعراضِ.

و ﴿جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ منصوبٌ بـ﴿يَخْسِفَ﴾ مفعولٌ به، كالأَرضِ في قوله:

---

(١) في نسخة: «الراجِل».

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ (١)، و ﴿بِكُمْ﴾ حالٌ، والمعنىٰ: أَن يقلبَ جانبَ البرِّ وأَنتم عليه ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾ وهي الريحُ الَّتي تحصبُ، أَي: ترمي بالحصباءِ، والمعنىٰ: وإِنْ لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسفِ أَصابَكُم به من فوقكم بريحٍ يُرسلها عليكم فيها الحصباءَ يَرجمكم بها ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً﴾ حافظاً يصرفُ عنكم ذلكَ.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن﴾ يقوّي دواعيكم إِلىٰ أَن تَرجِعُوا فتركبوا البحرَ الَّذي نَجَّاكم منهُ فأَعرضتم ﴿فَـ﴾ ينتقمَ منكم بأَنْ ﴿يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً﴾ وهي ﴿ٱلرِّيحِ﴾ الَّتي لهَا قصيفٌ، أَي: صوتٌ شديدٌ، كأَنها تتقصَّفُ أَي: تتكسَّرُ، وقيل: هي الَّتي لا تمرُّ بشيءٍ إِلَّا قصفتهُ (٢) ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ وقرِئَ بالتاءِ (٣) يعني: الريحَ، وبالنونِ (٤)، وكذلكَ ﴿يخسِفَ﴾ و ﴿يُرسِلَ﴾، و ﴿يُعِيدَكُمْ﴾ قرِئَ بالياءِ والنونِ (٥) ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أَي: بكفرانكم النعمةَ في الإِنجاءِ، و التبيعُ: المُطالِبُ من قولِه: ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٦) أَي: مُطالبَةٌ، قال الشمَّاخُ:

كما لاذَ الغَريمُ من التبيعِ (٧)

المعنىٰ: أَنَّا نفعلُ ما نفعلُ بهم ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ﴾ أَحداً يطالبنا بما فعلنا؛ انتصاراً منَّا.

---

(١) القصص: ٨١.

(٢) قاله أبو عبيدة في مجاز القرآن: ج ١ ص ٣٨٥.

(٣) قرأه أبو جعفر ورويس ومجاهد وشيبة. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٠١، وتفسير القرطبي: ج ١٠ ص ٢٩٣.

(٤) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو. راجع التذكرة في القراءات: ج ٢ ص ٥٠١.

(٥) وبالنون قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع التبيان: ج ٦ ص ٥٠١.

(٦) البقرة: ١٧٨.

(٧) وصدره: يلوذ ثعالب الشرَقَين منها. وفيه يصف فرار مجموعة من الثعالب من هجمات العقبان، يقول: إنّها تلوذ من العقبان كما يفرّ الغريم من المطالِب. أُنظر شرح شواهد الكشّاف للأفندي: ص ٤٤٣.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيَ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠) يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢)﴾

يعني: ﴿كَرَّمْنَا﴾ هم بالنطقِ والعقلِ والتمييزِ والصورةِ الحسَنَةِ والقامةِ المعتدلةِ، وتدبيرِ أَمرِ المعاشِ والمعادِ، وبتسليطهم علىٰ مافي الأَرض، وتسخير سائر الحيواناتِ لهم ﴿وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ﴾ على الدوابِّ ﴿وَ﴾ في ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ على السفنِ ﴿وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ هو ما سوى الملائكةِ؛ لأَنَّ الفضل عامٌّ في جنسِ الملائكة وخاصٌّ في بني آدم.

﴿بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ بمن ائتمُّوا به من نبيٍّ أو إمامٍ أو كتابٍ.

الصادق عليه السلام: «ألا تحمدونَ اللهَ؟ إذا كانَ يومُ القيامةِ فَدُعي كلُّ قومٍ إلى مَن يتولَّونَهُ، وفزعنا إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وفزعتم إلينا، فإلىٰ أينَ ترونَ يُذهَبُ بكم؟ إلى الجنَّةِ وربِّ الكعبةِ» قالَها ثلاثاً(١).

﴿فَمَنْ أُوتِيَ﴾ من هؤلاء ﴿كِتَـٰبَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ﴾ إشارةٌ إلى ﴿مَنْ﴾ لأَنَّهُ في معنى الجمعِ ﴿يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ﴾ لايجبنون(٢) عن قراءتهِ لِمَا يَرونَ فيه من مواجب السرورِ ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ هوَ المفتولُ الَّذي في شقِّ النواةِ، أي: لايُنقَصونَ من ثوابهم أدنىٰ شيء.

﴿وَمَن كَانَ فِي﴾ الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ لايَهتدِي إلىٰ طريقِ النجاةِ ﴿فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ لا يَهتدي إلىٰ طريقِ الجنَّة، وجُوِّزَ أن يكونَ الثاني بمعنى التفضيلِ،

(١) المناقب لابن شهر آشوب: ج ٣ ص ٦٥. (٢) في بعض النسخ: لايجتنبون.

ولذلك قَرأَ أبو عمرو الأَوّلَ مُمالاً والثاني بالتفخيم[١]؛ لأَنَّ أفعلَ التفضيلِ تمامُهُ بـ«مِن» فكانتْ أَلِفُهُ كأنَّها في وسط الكلمةِ، كقولِكَ: أَعمالكم.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذاً لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً (٧٤) إِذاً لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً (٧٥) وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلاً (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (٧٧)﴾

﴿إِن﴾ هذه مخفَّفةٌ من الثقيلةِ، واللامُ هي الفارقةُ بينَها وبينَ النافيةِ، ومعناه: أَنّ الحديثَ أَوِ الأَمرَ قارَبُوا أَن يصرِفوكَ ﴿عَنِ﴾ القُرآنِ ﴿ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أَي: عن حكمه، لتضيفَ إِلينا ما لم نُنزِّله عليك ﴿وَإِذاً لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ أَي: وَلو اتَّبعتَ مرادهم لأَظهروا خُلَّتك.

رُوي: أنَّ قُريشاً قالُوا للنبيِّ صلى الله عليه وآله: لاندَعُكَ تستلمُ الحجر الأَسود حتّىٰ تُلِمَّ[٢] بآلهتنا، فقالَ في نفسِه: ما عليَّ في أَن أُلِمَّ بها واللهُ يعلمُ أَنّي لها كـارهٌ ويـدعوني أَستلمُ الحجرَ، فأُنزلَتْ[٣]. ورُويَ غيرُ ذلكَ وهوَ مذكورٌ في موضِعِهِ[٤].

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ أَي: لولا تثبيتنا لك بالعصمةِ والأَلطافِ ﴿لَقَدْ﴾ قارَبتَ أَن تميلَ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أدنىٰ ميلٍ فتُعطيهم بعضَ مـا سألوكَ. ﴿إِذاً لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ﴾ عذابِ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ﴾ عذاب ﴿ٱلْمَمَاتِ﴾ يعني: عـذابَ الدنـيا والآخـرةِ

---

(١) أُنظر تفسير القرطبي: ج ١٠ ص ٢٩٩.
(٢) الإلمام: النزول، وألمَّ به: اذا نزل به. (الصحاح: مادة لمم).
(٣) رواه سعيد بن جبير كما في تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٢٥٩.
(٤) وهو مارواه ابن عباس. راجع المصدر السابق.

مضاعَفَينِ، أَي: لضاعفنا لكَ العذابَ المعجَّلَ للعصاةِ في الحياةِ الدنيا وما نُؤخِّره لما بعدَ الموتِ، وفي هذَا دليلٌ علىٰ أَنَّ القبيحَ يكونُ عِظَمُ قبحه علىٰ مقدارِ عِظَمِ شأنِ فاعله.

وعن ابنِ عبَّاس: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ معصومٌ، وإِنَّما هوَ تخويفٌ لئَلَّا يركَنَ مؤمنٌ إلىٰ مُشركٍ في شيءٍ من أَحكامِ ٱللهِ تعالىٰ[١].

﴿وَإِن كَادُواْ﴾ يعني: قريشاً ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ ليزعجونك ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أَرضِ مَكَّةَ بالإِخراج ﴿وَإِذاً لَّا يَلْبَثُونَ﴾ أَي: لايبقَونَ بعدَ إِخراجِكَ ﴿إِلَّا﴾ زماناً ﴿قَلِيلاً﴾ فإِنَّ اللهَ يُهلِكهم وقد أُهلِكُوا ببدرٍ بعدَ إِخراجِهِ بقليلٍ، أَو: إِلَّا ناساً قليلاً منهم يريدُ مَن انفلَت منهم يومَ بدرٍ ومَن آمنَ، وقيلَ: من أَرضِ المدينةِ؛ لأَنَّ اليهودَ قالوا له: إِنَّ الأَنبياءَ بُعِثُوا بالشام وهي مُهاجَرُ إِبراهيمَ، فلو خرجتَ إِلى الشامِ لآمنَّا بِكَ، فهمَّ بالخروجِ إِلى الشامِ فنزَلَتْ[٢]، وقرئَ: «خَلْفَكَ»[٣] و﴿خِلَـٰفَكَ﴾ ومعناهما واحدٌ، قال:

عَفَتِ الديارُ خِلافَهُمْ فكأَنَّما ... بَسَطَ الشواطِبُ بَينَهنَّ حَصِيراً[٤]

أي: بعدَهم ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا﴾ يعني: أَنَّ كلَّ قوم أَخرَجُوا رسولَهم مِن بينهم فسُنَّةُ أَن يُهلِكَهم، وانتصابُهُ بأَنَّهُ مصدرٌ مؤكِّدٌ، أَي: سنَّ اللهُ ذلكَ سُنَّة.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ

---

(١) حكاه عنه القرطبي في تفسيره: ج ١٠ ص ٣٠٠.

(٢) وهو قول الكلبي. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٢٧.

(٣) قرأه ابن كثير ونافع وأبوعمرو وعاصم برواية أبيبكر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٨٣.

(٤) قائله هو الحارث بن خالد المخزومي، وفيه يصف ديار الأحبّة بعد رحيلهم، وأنّها بقيت غير مكنوسة وفيها ركام السعف المتساقط، كأنّها بُسط فيها السعف بسطاً. أنظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: ج ١ ص ٣٨٧.

قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (٧٨) وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً (٧٩) وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰناً نَّصِيراً (٨٠) وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقاً (٨١) وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَاراً (٨٢) ﴾

الدُّلُوكَ: الزوالُ، وقيلَ: هو الغروبُ[١]، والأوّلُ أصحُّ؛ لتكونَ الآيـةُ جـامعةً للصلواتِ الخمسِ، فَصلاتَا دُلوكِ الشمس: الظهرُ والعصرُ، وصَلاتَا ﴿غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾: المغربُ والعِشاءُ الآخرةُ، والمرادُ بـ﴿قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾: صلاةُ الفَجرِ، و﴿غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾: أوّلُ بُدُوِّ الليلِ وظُلمتِهِ ﴿مَشْهُوداً﴾ يشهدُهُ ملائكةُ الليلِ والنـهارِ، يَـصعَدُ هـؤُلاءِ وينزلُ هؤُلاءِ، فهو في آخِرِ ديوانِ ٱلليلِ وأَوّلِ ديوانِ النهارِ، ويـجوزُ أَن يكـونَ ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ حثاً علىٰ طولِ القراءَةِ في صلاةِ الفَجرِ لِكونِها مشهودةً بالجماعةِ الكثيرةِ ليسمعَ الناسُ القرآنَ فيكثُرَ الثوابُ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ وَعليكَ بعضَ الليلِ ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ والتهجُّدُ: تركُ الهُجُودِ للصلاةِ، ونحوُهُ: التأثُّمُ والتحرُّجُ، ويقالُ للنومِ: التهجُّدُ أيضاً ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أَي: عبادةً زائدةً لكَ علَى الصلواتِ الخمسِ، وُضِعَ ﴿نَـافِلَةً﴾ مَوضِعَ تهجُّداً؛ لأَنَّ التهجُّدَ عبادةٌ زائدةٌ فجمعهُما معنىً واحدٌ، فالمعنىٰ: أَنَّ التهجُّدَ زِيدَ لكَ علَى الصلَواتِ المكتوبةِ فريضةً عليكَ خاصَّةً وتَطَوُّعاً لغيرِك، وقيلَ: معناهُ: نافلةً لكَ ولغيركَ[٢]، وخُصَّ بالخطابِ لِما في ذلكَ من دعاءِ الغيرِ[٣] إلى الاستنانِ بسنَّتِهِ ﴿مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ نصبٌ على الظرفِ، أَي: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ﴾ فيقيمَكَ

---

(١) قاله مجاهد عن ابن عباس وابن مسعود وابن زيد. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٢٦٢.

(٢) قاله مجاهد: راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٢٦٤.

(٣) في بعض النسخ: الخير.

مَقاماً مَحموداً، أَو ضُمِّنَ ﴿يَبْعَثَكَ﴾ معنىٰ: يُقيمَكَ، ويجوزُ أَنْ يكونَ حالاً بمعنى: ذَا مَقَامٍ محمودٍ، ومعنى المقام المَحمودِ: المقامُ الَّذي يَحمَدُهُ فيهِ ٱلأَوَّلونَ والآخرونَ وهو مَقامُ الشفاعةِ، يَسأَلُ فيهِ فيُعطَىٰ، ويشفعُ فيه فيُشَفَّعُ، ويُشرَّفُ فيه علىٰ جميعِ الخلائقِ فيُوضَعُ في كفِّهِ لواءُ الحمدِ يجتمِعُ تحتَهُ الأَنبياءُ والملائكةُ.

و﴿مُدْخَلَ﴾ و ﴿مُخْرَجَ﴾ بمعنى المصدرِ، أي: ﴿أَدْخِلْنِى﴾ في جميعِ ماأَرسلتَني بهِ إِدخالاً مرضياً ﴿وَأَخْرِجْنِى﴾ منه إِخراجاً مرضيّاً يُحمدُ عاقبتهُ، وقيلَ: يريدُ إِدخالَه مكَّةَ ظاهراً علَيهَا بالفتحِ وإِخراجَهُ منها سالماً[١]، وقيلَ: هو عامٌّ[٢] ﴿سُلْطَـٰناً﴾ حجَّةً تنصُرني علَى مَن خالَفني، أَو مُلكاً وعِزّاً ناصِراً للإِسلامِ على الكُفرِ، فأُجيبَتْ دعوتُه بقولِه: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ﴾[٣]، ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾[٤].

وكانَ حولَ البيتِ ثلاثمائَةٍ وستُّونَ صنماً لقبائل العربِ يحجُّونَ إِليها، فلمَّا نَزَلَتْ هذه الآيةُ يومَ الفتحِ قالَ جبرَئيلُ لرسولِ ٱللهِ ﷺ: خُذْ مِخصَرتك[٥] ثمَّ أَلقِهَا، فجعلَ يأتي صَنماً صَنماً وينْكتُ بالمِخصَرةِ في عينِهِ ويقولُ: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾، فينَكبُّ الصنمُ لوجهِهِ، فأَلقَاهَا جميعاً، وبَقِيَ صنمُ خُزاعةَ فوقَ الكعبةِ وكانَ من قواريرَ صُفْرٍ، فقالَ: ياعليُّ ٱرْمِ بِهِ، فحمَلَهُ رسولُ ٱللهِ ﷺ حتَّىٰ صعِدَ فرَمَىٰ بِهِ فكسَرَهُ، فجعَلَ أَهلُ مكَّةَ يتعجَّبُونَ ويقولُونَ: مارأَينا رجلاً أَسحرَ من محمَّدٍ ﷺ[٦].

---

(١) قاله الضحاك. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٣٢.

(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٦٨٨.

(٣) التوبة: ٣٣. (٤) المائدة: ٥٦.

(٥) المِخْصَرة: كل ما اختصر الإنسان بيده فأمسكه من عصاً ونحوه. (الصحاح: مادة خصر).

(٦) وهو مارواه ابن مسعود كما في تفسير القرطبي: ج ١٠ ص ٣١٤.

﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ هَلَكَ وذَهبَ، من قولِهم: زهقَتْ نفسُهُ: إذا خرجَتْ، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ الإسلامُ، و﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ الشركُ ﴿كَانَ زَهُوقاً﴾ أي: مُضمَحِلاً غيرَ ثابتٍ.

﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾: ﴿مِن﴾ للتبيينِ أو للتبعيضِ، أي: كلُّ شيءٍ نزَلَ من القرآنِ فهو ﴿شِفَآءٌ ... لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يزدادُونَ بهِ إيماناً، فيقعُ منهم موقعَ الشفاءِ من المَرضَىٰ.

وعنِ النبيِّ ﷺ: «مَنْ لم يَستَشْفِ بالقُرآنِ فلا شَفاهُ ٱللهُ»[1].

وَلَا يزدادُ به الكافرونَ ﴿إِلَّا خَسَاراً﴾ أي: نُقصاناً؛ لتكذيبِهم بهِ وكُفرِهم.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوساً (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً (٨٤) وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (٨٥) وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلاً (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (٨٧)﴾

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ بالصحَّةِ والغَناءِ ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذكرِ اللهِ تعالىٰ كأنَّهُ مستغنٍ عنهُ ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ تأكيدٌ للإعراضِ؛ لأَنَّ معنَى الإعراضِ عنِ الشيءِ: أَن يُولِّيَهُ عُرْضَ وجهِهِ، ومعنَى النأيِ بالجانبِ: أَن يُولِّيَهُ ظهرَهُ، أَو يريدُ التجبُّرَ والاستكبارَ؛ لأَنَّ ذلكَ من عادةِ المتكبِّرِ المُعجَبِ بنفسِهِ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أَي: المِحنةُ والشدَّةُ، أَو الفقرُ ﴿كَانَ يَـُٔوساً﴾ شَديدَ القُنُوطِ واليَأْسِ من رجاءِ الفرجِ، وقُرِئَ: «وَنَاءَ بِجَانِبِهِ»[2] قُدِّمَ اللامُ علَى العينِ كما قالُوا: «رَاءَ» في «رأَى»، أَو يكونُ من نَاءَ: إذَا نَهضَ.

﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أَحدٍ ﴿يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أَي: مذهَبِه وطريقتِه الَّتي تُشاكِلُ حالَه

---

(١) تفسير الرازي: ج ٢١ ص ٣٤.

(٢) قرأه ابن ذكوان وابن عامر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٠١.

في الهُدىٰ والضلالِ، بدَلالةِ قولِهِ: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ أَي: أَسدُّ طريقةً وأَصوَبُ مذهباً.

﴿الرُّوحُ﴾ المسؤولُ عنهُ هوَ الروحُ الَّذي في الحَيَوانِ، سُئلَ عَلَيْهِ الصلاةُ والسلامُ عن حقيقتِهِ فَأخبرَ أَنّه ﴿مِنْ أَمْرِ﴾ ٱللهِ[1]، أَي: ممَّا استأْثرَ ٱللهُ بهِ، وقيلَ: إِنَّ اليَهودَ قالَتْ: إِنْ أَجابَ محمَّدٌ عنِ الرُّوحِ فليسَ بنَبِيٍّ، وَإِن لَمْ يُجِبْ فهو نَبيٌّ فإِنَّا نَجِدُ في كُتبنا ذلكَ[2]، وقيلَ: هوَ جبرئيلُ[3] أَو مَلَكٌ منَ الملائكةِ يقومُ صفّاً والملائكةُ صفّاً[4]، وقيلَ: هوَ القرآنُ[5]، و ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أَي: من وحيِهِ وكلامِه، ليس من كلامِ البشَرِ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ الخِطابُ عامٌّ ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ أَي: شيئاً يسيراً؛ لأَنَّ معلوماتِ ٱللهِ سبحانَهُ لا نِهايةَ لها.

﴿لَنَذْهَبَنَّ﴾ جوابُ قسمٍ محذوفٍ وسَدَّ مَسدَّ جوابِ الشرطِ، والمعنىٰ: إِنْ ﴿شِئْنَا﴾ ذَهَبْنا بالقرآنِ ومَحوناهُ عنِ الصدُورِ فَلَم نترُكْ له أَثراً ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ﴾ بعدَ الذهابِ ﴿بِهِ﴾ مَن يتوكَّلُ ﴿عَلَيْنَا﴾ باستردادِهِ وإِعادَتِهِ محفوظاً مسطُوراً. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ إِلَّا أَن يرحمَكَ ربُّكَ فيردَّهُ عليكَ، كأَنَّ رحمتَهُ تتوكَّلُ عليه

---

(١) ذكر الشيخ المصنّف رحمه الله الخبر مجملاً، ولإتمام الفائدة نورده بلفظه: عن الاعمش عن ابراهيم عن علقمة عن عبدالله بن مسعود قال: بينما أنا أمشي مع النبي صلى الله عليه وآله في حرثٍ إذ مرَّ بنفرٍ من اليهود، فقال بعضهم لبعضٍ: سلوه عن الروح، فقالوا: ماربكم إليه؟ لايستقبلكم بشيء تكرهونه، فقالوا: سلوه، فقام إليه بعضهم فسأله عن الروح، قال: فأسكت النبي صلى الله عليه وآله فلم يردَّ عليه شيئاً، فعلمتُ أنّه يوحىٰ إليه، قال: فقمتُ مكاني، فلمّا نزل الوحي قال: ﴿ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أُوتيتم من العلم إلّا قليلاً﴾. راجع صحيح مسلم: ج ٤ ص ٢١٥٢ ح ٢٧٩٤، سنن الترمذي: ج ٥ ص ٣٠٤ ح ٣١٤١.

(٢) قاله ابن عباس. راجع تفسير الطبري: ج ٨ ص ١٤٢.

(٣) وقائله ابن عباس أيضاً. راجع التبيان: ج ٦ ص ٥١٥.

(٤) روي ذلك عن علي عليه السلام. راجع المصدر السابق.

(٥) وهو قول الحسن. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٢٦٩.

بالردِّ، أَو يكونُ استثناءً منقطعاً بمعنىٰ: ولكن رَحمَةً منْ رَبِّكَ تركَتْه غيرَ مَذهوبٍ بِهِ، وهذا امتنانٌ منهُ سبحانَهُ ببَقاءِ القرآنِ محفوظاً بعد المنَّةِ في تنزيله وتحفيظه.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (٨٩) وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنبُوعاً (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِىَ بِاللهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰباً نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَّسُولاً (٩٣)﴾

أَي: لو تظاهَرَ الثقلَانِ ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ في فَصاحتِهِ وبَلاغتِهِ وحسنِ تَأليفِهِ ونظمِهِ لعَجزُوا عنِ الإِتيانِ ﴿بِمِثْلِهِۦ﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ﴾ أَي: بيَّنا لهم وكرَّرنَا ﴿مِن كُلِّ﴾ معنىً هوَ كالمَثَلِ في حُسنِهِ وغَرابتِهِ، وقد احتاجُوا إِليهِ في دينهم ودنيَاهُم فلم يَرضَوا ﴿إِلَّا كُفُوراً﴾ أَي: جُحوداً.

ولمَّا تبيَّنَ إِعجازُ القرآنِ، وانْضَافَ إِليهِ غيرُهُ من المعجزاتِ ﴿وَ﴾ لَزِمتْهُمُ الحُجَّةُ «قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تُفَجِّرَ»[١] أَي: تُفتِّحَ ﴿لَنَا مِنَ﴾ أَرضِ مكَّةَ ﴿يَنبُوعاً﴾ أَي: عيناً ينبعُ منهُ الماءُ لايَنقطِعُ، وهو يفعُولٌ كيعبُوبٍ[٢] من عبَّ،

(١) الظاهر أنّ المصنّف ﷺ قد اعتمد على قراءة التشديد هنا تبعاً للزمخشري، وهي القراءة المتداولة عند غير الكوفيّين الذين قرؤوها بالتخفيف.

(٢) اليعبوب: الفرس الكثير الجري، وقيل: الطويل السريع، وقيل: السهل في عدوه. وأيضاً النهر الشديد الجِرية. (الصحاح ولسان العرب: مادة عبب).

وقُرِئَ: ﴿تَفْجُرَ﴾ بالتخفيفِ.

وقولُهم: ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ عنوا بهِ قولَه تعالىٰ: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ (١) وقُرِئَ: ﴿كِسَفاً﴾ بفتحِ السينِ وسُكونه (٢) جمعُ كِسْفَةٍ ﴿قَبِيلاً﴾ أي: كفيلاً بما تقولُ، شاهداً بصحَّتِهِ، والمعنىٰ: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِاللَّهِ﴾ قَبِيلاً ﴿وَ﴾ بـ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ قُبُلاً (٣)، كقَولِه:

رَمَانِي بأَمرٍ كنتُ منهُ ووالِدي بريئاً ومن جُولِ الطويِّ رَمَاني (٤)

أَو يريدُ: مُقابِلاً لنَا حتَّىٰ نُشاهِدَهُ ونُعايِنَهُ، أَو جمعُ قَبيلةٍ أَي: جماعةً، حالاً مِنَ ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾.

والزخرفُ: الذهبُ ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى﴾ معارِجِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ فحُذِفَ المضافُ ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ﴾ لأجلِ رُقِيِّكَ ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا﴾ منَ ٱلسماءِ ﴿كِتَـٰباً﴾ فيه تصديقُكَ، وإِنَّما قَصَدُوا بهذهِ الاقتِراحاتِ اللجاجَ والعِنادَ ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى﴾ وقُرِئَ: «قَالَ سُبْحَانَ رَبِّي» (٥)، تعجُّبٌ منِ اقتراحاتِهم عليهِ ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً﴾ مثلَ سائرِ الرسلِ، وقد كانُوا لا يأتُونَ أُممَهُم إِلَّا بما يُظهِرُه اللهُ عليهم منَ الآياتِ، وليسَ أَمرُ الآياتِ إِليَّ، إِنَّما هو إِلى اللهِ وهوَ العالمُ بالمصالحِ، فلا وجهَ لطلبكُم إِيَّاها منِّي.

---

(١) سبأ: ٩.

(٢) وبالسكون قرأه ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٨٥.

(٣) في بعض النسخ: قبيلاً.

(٤) اختلف في قائله، فقد نسبه سيبويه الى ابن أحمر، وقيل: للأزرق بن طرفة، كما نسبه الأفندي الى الفرزدق ولم نجده في ديوانه المطبوع. ومعناه واضح، وجول الطويّ: جدار البئر من اعلاها الى أسفلها، وفي المثل: رماني من جول الطويّ: أي رماني بما هو راجع إليه. أنظر كتاب سيبويه: ج ١ ص ٧٥، وشرح شواهد الكشاف: ص ٥٤٩.

(٥) قرأه ابن كثير وابن عامر وكذا هي في مصاحف أهل مكة والشام. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٨٥.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكاً رَّسُولاً (٩٥) قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (٩٦) وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيراً (٩٧) ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰماً وَرُفَـٰتاً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُوراً (٩٩) قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُوراً (١٠٠)﴾

أَي: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ الإيمانَ بالقرآنِ وبنبوّةِ محمّدٍ ﷺ ﴿إِلَّآ﴾ إنكارُهم أن يُرْسِلَ ٱللهُ البشرَ، فـ﴿أَن﴾ الأُولى مفعولٌ ثانٍ لِـ﴿مَنَعَ﴾، و ﴿أَن﴾ الثانيةُ فاعِل[1] والهمزةُ في ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ﴾ للإنكارِ، فبيَّنَ سبحانهُ أَنَّ ما أنكرُوه غير مُنكَرٍ وإنَّما المنكرُ خِلافُه عند الله؛ لأَنَّ حكمتَهُ البالغةَ تقتضي أَنْ لا يُرسِلَ الملَكَ بالوحي إلّا إلى الأنبياءِ أو إلىٰ أمثالِهِ من الملائكةِ، ثُمَّ قرَّرَ سبحانه بأنّه ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ علىٰ أرجُلهم ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ ساكنينَ في الأَرضِ لنزَّلَ الله ﴿عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكاً رَّسُولاً﴾ يَهدِيهم إلى الرُّشدِ ويُعلِّمهمُ الدِينَ، فأَمَّا الإنسُ فإنَّما يُرسلُ المَلكَ إلىٰ مَن يختارُهُ منهم للنبوَّةِ فيقومُ بدعوتِهم وإرشادهم.

---

(١) في بعض النسخ: فاعله.

﴿شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ علىٰ أَنّي قضيتُ ما عليَّ من التبليغِ وأَنَّكمْ كذَّبتُم ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً﴾ عالماً بأحوالِهم، وهذا وعيدٌ للكفَّارِ وتسليةٌ للنبيِّ ﷺ، و﴿شَهِيداً﴾ تمييزٌ أَو حالٌ.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ أَي: يُوفِّقه ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ﴾ ومن يَخْذُلْ ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أَي: أَنصاراً ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يُسحَبُونَ علَيهَا إِلى النارِ كما يُفعَلُ في الدنيا بمَنْ يُبالغُ في إِهانتِهِ وتعذيبِهِ ﴿عُمْياً﴾ عمَّا يسرُّهم ﴿بُكْماً﴾ عن التكلُّمِ بما ينفعُهُم ﴿صُمّاً﴾ عمَّا يُمتِّعهم، كما كانُوا في الدنيا لايستبصرونَ ولَا ينطقونَ بالحَقِّ ويتصامُّون عن استماعه، ويجوزُ أَن يُحشَرُوا وقد إِيفَتْ[1] حواسُّهم من الموقفِ إِلى النارِ بعدَ الحِسابِ، فقد أَخبرَ عنهم بأَنَّهم يتكلَّمون ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أَي: كلَّما ٱحترقَت[2] لحُومُهم فسَكَنَ لَهَبُها بُدِّلُوا غيرَها فرجعتْ مُلتَهبةً مُستعرةً.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾ وهوَ تَسليطُ النارِ علىٰ أَجزائهم تأكلها وتُفنِيهَا ثُمَّ إِعادَتُها؛ ليَزيدَ بذلكَ تحسُّرُهم على التكذيبِ بالبعث.

﴿أَوَلَمْ﴾ يعلمُوا ﴿أَنَّ﴾ مَنْ قَدَرَ على خَلْقِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فهوَ ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ﴾ خلقِ أَمثالِهم منَ الإِنسِ؛ لأَنَّهم ليسُوا بأَشدَّ خلقاً منهنَّ كما قالَ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾[3] ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهوَ الموتُ أَو القيامةُ، فَأَبَوْا معَ وضوحِ الدليلِ ﴿إِلَّا﴾ الجُحودَ.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ تقديرُهُ: لو تَملكُونَ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ؛ لأَنَّ «لَوْ» لاتدخلُ إِلَّا علَى الفعلِ، فأُضمِرَ «تملِكُونَ» علىٰ شريطةِ التفسيرِ، وأُبدِلَ مِنَ الضميرِ المتَّصلِ الَّذي هو الواوُ ضميرٌ منفصلٌ وهو ﴿أَنتُمْ﴾، فـ﴿أَنتُمْ﴾ فاعلُ الفعلِ المُضمرِ

(١) إِيفَتْ حواسهم: أي أصابتها آفة، يقال: إِيفَ الزرع: إذا أصابته آفة. (الصحاح: مادة أوف).
(٢) في بعض النسخ زيادة: جلودهم.
(٣) النازعات: ٢٧.

و ﴿تَمْلِكُونَ﴾ تفسيرُهُ، أي: لو مَلَكْتُمْ ﴿خَزَآئِنَ﴾ أرزاقِ اللهِ ونِعَمِهِ على خَلقِه ﴿لَأَمْسَكْتُمْ﴾ شُحّاً وبُخلاً، والقَتُورُ: البَخيلُ، وقيلَ: هوَ جوابُ قولِهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا﴾[1] وما اقترحوه من الزخرفِ وغيرِهِ، ويريدُ: أنَّهم لو مَلَكُوا خزائنَ اللهِ لبَخِلُوا بها[2].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ فَسْئَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُوراً (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (١٠٢) فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعاً (١٠٣) وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً (١٠٤) وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً (١٠٥)﴾

الآياتُ التسعُ: هي العَصَا واليدُ والجَرادُ والقُمَّلُ والضفادعُ والدمُ والحجَرُ والبحرُ والطورُ الَّذي رُفِعَ فوقَ بني إسرائيلَ، هذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ[3]، وقد ذُكِرَ أيضاً: الطوفانُ والسِنُونَ ونقصٌ من الثمراتِ مكانَ الحجرِ والبحرِ والطورِ[4]، وقيل: إنَّها تسعُ آياتٍ في الأحكامِ، فرُوِيَ: أنَّ بعضَ اليهودِ سأَل رسولَ ٱللهِ عن ذلك فقال: أوحَى ٱللهُ إلىٰ موسىٰ أن: قُل لبني إسراءِيلَ: لاتُشركُوا بِاللهِ شيئاً ولا تسرقُوا ولا تزنُوا ولا تقتُلُوا النفسَ الَّتي حرَّمَ ٱللهُ إلَّا بالحقِّ ولا تَسْحَرُوا ولا تأكلوا الربَا ولا تمشُوا ببَرِيءٍ إلىٰ ذي سُلطانٍ ليقتُلَهُ ولا تَقذِفوا مُحصَنَةً

(١) الآية: ٩٠.
(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ٢٦١.
(٣) حكاه الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٧٧.
(٤) وهو ماذكره الحسن البصري في تفسيره: ج ٢ ص ٩٥.

ولا تَفِرُّوا منَ الزحفِ، وأَنْتُم يايهودُ خاصَّةً لاتَعْدُوا في السبتِ، فقبَّلَ اليَهوديُّ يدَه وقال: أَشهَدُ أَنَّك نَبيٌّ[1].

﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أَي: سَلْهُم من فرعونَ وقُل له: أَرسِلْ معي بني إِسرائيل، أَو سَلْهم عن حالِ دينِهم، أَو سَلهُم أَن يعاضِدُوكَ، وقيل: معناه: فسْأَلْ يارسولَ ٱللهِ المؤمنينَ من بني إِسرائيلَ وهم عبدُ ٱللهِ بنُ سلامٍ وأَصحابُهُ لتزدادَ يقيناً وطمأنينةَ قلبٍ[2]، وعلى القولِ الأَوَّلِ تعلَّق ﴿إِذْ جَآءَهُم﴾ بالقولِ المحذوفِ، أَي فقلنا له: سَلْهُم، وأَمَّا على القولِ الثاني فتعلَّق بـ﴿ءَاتَيْنَا﴾ أَو بإِضمارِ «اذكُرْ»، والمعنىٰ: إِذ جاءَ آباءَهُم[3] ﴿مَسْحُوراً﴾ سُحِرْتَ فخُولِطَ عقلُكَ.

﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يافرعونُ ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآياتِ ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ حُجَجاً وبيِّناتٍ مكشوفاتٍ ولكنَّكَ معانِدٌ، وقُرِئَ: «عَلِمْتُ»[4] بمعنىٰ: لستُ بمَسحورٍ بل أَنا عالمٌ بصحَّةِ الأَمرِ، ثُمَّ قابلَ ظنَّهُ بظنِّه، فكأَنَّه قال: إِن ظَنَنْتَني مسحوراً فـ﴿إِنِّى﴾ أَظُنُّكَ ﴿مَثْبُوراً﴾ هالكاً، وظنِّي أَصحُّ من ظنِّك، فإِنَّ له أَمارةً ظاهرةً وهي إِنكارُكَ ماتعرِفُ صحَّتَه وعنادُكَ.

﴿فَأَرَادَ﴾ فرعونُ ﴿أَن﴾ يَستخِفَّ موسىٰ وقومَه ﴿مِّنَ﴾ أَرضِ مصرَ ويُخرِجَهم منها، أَو ينفيهم عن ظَهرِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بالقتلِ، فاستَفْزَزْناهُ: بأَن أَغرقناهُ وقومَه بأَجمعهم. ﴿وَقُلْنَا ... لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟﴾ أَرْضَ مصرَ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ وهو قيامُ الساعةِ ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ جميعاً مختلِطِينَ ثُمَّ يُحكم بينَكم، واللفيفُ:

---

(١) هو ما رواه صفوان بن عسّال عن النبيﷺ. راجع مسند أحمد: ج ٤ ص ٢٣٩، وسنن النسائي: ج ٧ص ١١١.

(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٦٩٧.

(٣) في نسخة: إيّاهم.

(٤) قرأه الكسائي والأعشىٰ. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٠٣.

الجَماعاتُ من قبائلَ شتّىٰ.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ﴾ أي: ما أَنزلنَا القرآنَ إلّا بالحقِّ والحكمةِ ﴿وَ﴾ ما ﴿نَزَلَ﴾ إلّا بالحكمةِ؛ لاشتمالِهِ على الهدايةِ إلى الخيراتِ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا﴾ لتُبشِّرَهم وتُنذِرَهم.

﴿وَقُرْءَاناً فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلاً (١٠٦) قُلْ ءَامِنُواْ بِهِ أَوْ لَاتُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً (١٠٩) قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيّاً مَّاتَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً (١١٠) وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِنَ ٱلذُّلِ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (١١١)﴾

﴿وَقُرْءَاناً﴾ منصوبٌ بفعلٍ مضمرٍ يُفسِّرُه: «فَرَّقْنَاهُ»[1] وقُرِئَ بالتخفيفِ، ورُوِيَ عن عليٍّ عليه السلام بالتشديدِ وعن ابنِ عبّاس وأُبَيّ وغيرِهم[2]، ومعنى المشدَّدِ: وجعلناه مفرَّقاً مُنجَّماً في النزولِ ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: علىٰ تثبُّتٍ وتُؤدةٍ[3] وترتيلٍ ليكونَ أمكنَ في قلوبِهم ﴿وَنَزَّلْنَـٰهُ﴾ علىٰ حَسَبِ الحاجةِ والحوادثِ.

وعن ابنِ عبّاس: لأَنْ أَقرأَ سورةَ البقرة وأُرتِّلَها أحبُّ إليَّ من أن أَقرأَ

(١) الظاهر أنّ القراءة المعتمدة لدى المصنّف هنا على التشديد.

(٢) كابن مسعود وقتادة وأبي رجاء العطاردي والشعبي وحميد وعمرو بن قائد وزيد بن علي وعمرو بن ذر وعكرمة والحسن. أنظر تفسير القرطبي: ج ١٠ ص ٣٣٩، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٨٧.

(٣) التؤدة: التمهّل والرزانة والتأنّي. (العين: مادة وأد).

القرآنَ هَذّاً[١] [٢].

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ أَمرٌ بالإعراضِ عنهم وقلَّةِ الاكتراثِ بهم وبإيمانِهم، وأنَّهم لم يدخُلوا في الإيمانِ، فإنَّ مَن هم أفضلُ منهم من الَّذينَ قرأوا الكتبَ وعَلِمُوا الشرائعَ قد آمنُوا به وصحَّ عندهم أنَّه النبيُّ الموعودُ في كُتُبِهم، فـ﴿إِذَا﴾ تُلِيَ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ خرُّوا ﴿سُجَّدًا﴾ تعظيماً لأَمرِ اللهِ، ولإنجازِهِ ماوَعدَهُ في الكتبِ المُنزلَةِ من بعثةِ محمَّدٍ ﷺ وإنزالِ القرآنِ عليه، وهو المرادُ بالوعدِ في قولِه: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أَي: إنَّه كانَ وعدُ ٱللهِ حقّاً كائناً، وإنّما ذكَرَ الذقَنَ لأَنَّ الساجدَ أَقربُ شيءٍ منه إلى الأرضِ ذقَنُهُ، ومعنى اللامِ: الاختصاصُ؛ لأَنَّهم جعَلُوا أَذقَانَهم ووجوهَهم للسجودِ والخُرورِ.

وكرَّرَ قولَه: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ لاختلافِ الحالينِ، وهما: خُرورُهُم في حالِ كونِهم ساجِدينَ، وخرورُهُم في حالِ كونِهم باكينَ ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ القرآنُ ﴿خُشُوعًا﴾ أَي: لِينَ قلبٍ وتواضعاً للهِ.

والدعاءُ بمعنى التسميةِ لابمعنى النداءِ، وهو يتعدَّىٰ إلىٰ مفعولينِ، تقول: دعوتُهُ زيداً، ثمَّ تترُكُ أَحدَ المفعولينِ استغناءً عنه فتقولُ: دعوتُ زيداً، و ﴿ٱللَّهَ﴾ و﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ يريدُ بهما الاسمَ لا المُسمَّىٰ، و ﴿أَوِ﴾ للتخييرِ، أَي: سَمُّوا ٱللهَ بهذا الاسمِ أَو بهذَا، والتنوينُ في «أَيٍّ» عِوَضٌ من المضافِ إليه، و ﴿مَّا﴾ مزيدةٌ مُؤكِّدةٌ للشرطِ، و ﴿تَدْعُوا۟﴾ مجزومٌ بالشرطِ الَّذي يتضَمَّنُهُ «أَيٌّ» والمعنىٰ: أَيَّ هذينِ الاسمينِ سمَّيتُم أَوَ ذكَرتُم ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، والضميرُ في ﴿لَهُ﴾ لا يرجِعُ إلىٰ أحدِ الاسمينِ لكن إلىٰ مسمَّاهما وهو ذاتُه عزَّ اسمُه؛ لأَنَّ التسميةَ للذاتِ

(١) الهذّ: الاسراع في القراءة وفي القطع. (الصحاح: مادة هذذ).

(٢) سنن البيهقي: ج ٢ ص ٥٤ و٣٩٦ و ج ٣ ص ١٣.

لا للاسمِ، والمرادُ: ﴿أَيًّا﴾ مَا تدعوهُ فهو حسَنٌ، فوُضِعَ موضِعَهُ ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لأنَّه إذا حَسُنَت أَسماؤُهُ كُلُّها حَسُنَ هذانِ الاسمانِ لأنَّهما منها، والمعنيُّ في كونِ أَسمائه أَحسَنَ الأَسماءِ: أنَّها تستَقِلُّ بمعاني التمجيدِ والتعظيمِ والتقديس.

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِـ﴾ قِراءَةِ ﴿صَلَاتِكَ﴾ حُذِفَ المضافُ لفقدِ الالتباس؛ لأَنَّ الجهرَ والمُخافَتَةَ معلومٌ أنَّهما صفتانِ للصوتِ لاغيرِ، والصلاةُ عبارةٌ عن أَفعالٍ مخصوصةٍ وأَذكارٍ ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ﴾ الجهرِ والمُخافَتةِ ﴿سَبِيلًا﴾ وسطاً، وقيلَ: بأَن تجهَر بصلاةِ الليلِ وتُخافِتَ بصلاةِ النهارِ (١)، وقيلَ: بصلاتِك: بدعائِك (٢).

﴿وَلِيٌّ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ ناصرٌ من الذلِّ ومانعٌ له منه يتعزَّزُ به، أَو: لايُوالي أَحداً من أَجلِ مَذَلَّةٍ به ليدفعها بموالاتِهِ.

۞ ۞ ۞

---

(١) وهو قول الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ١٧١.

(٢) قاله ابن عباس وعائشة وأبو عياض والنخعي وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وعبد الله بن شداد والزبير ومكحول. راجع التبيان: ج ٦ ص ٥٣٤، وتفسير البغوي: ج ٣ ص ١٤٢.

سورةُ الكهفِ

مكِّيةٌ[1]، مائَةٌ وإِحدَىٰ عَشْـرَةَ آيـةً بـصريٌّ، عشـرٌ كـوفيٌّ، عـدَّ البـصريُّ ﴿عِندَهَا قَوْماً﴾[2].

في حديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرأَهَا فهو معصومٌ ثمانيةَ أَيَّامٍ من كُلِّ فتنةٍ، ومَن قرأَ الآيةَ الَّتي في آخِرِها حينَ يأخذ مضجَعَهُ كانَ له في مضجَعِهِ نوراً يـتلألأُ إِلى الكـعبةِ، حَشْوَ ذلكَ النورِ ملائِكةٌ يُصَلُّونَ عليه حتَّى يقومَ»[3].

الصادقُ عليه السلام: «مَنْ قرأَها في كُلِّ ليلةِ جُمُعَةٍ لم يَـمُتْ إِلَّا شـهيداً، وبَـعَثَهُ ٱللهُ مع الشهداءِ»[4].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٣: قال مجاهد وقتادة: هي مكية، وهي مائة وعشر في الكوفي، واحدى عشرة في البصري، وخمس في المدنيّين.
وقال الماوردي البصري في تفسيره: ج ٣ ص ٢٨٣: مكية كلّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباس وقتادة: إلّا آية منها وهي قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾.
وقال القرطبي في تفسيره: ج ١٠ ص ٣٤٦: وهي مكية في قول جميع المفسّرين، وروي عن فرقة: أنّ أول السورة نزل بالمدينة الى قوله: ﴿جُرُزاً﴾، والأول أصح.
وقال الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٧٠٢: مكية إلّا آية ٣٨ ومن آية ٨٣ الى غاية آية ١٠١ فمدنية، وآياتها ١١٠ نزلت بعد الغاشية.

(٢) الآية ٨٦.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٧٥١ مرسلاً.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٤.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)﴾

علَّمَ سبحانه عبادَهُ كيفَ يحمدونه علىٰ أجلِّ نِعَمِهِ عليهم وهي ما أنزله ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمَّدٍ ﷺ من القرآنِ الَّذي هو سببُ نجاتهم ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً﴾ أي: شيئاً من العِوَجِ، والعِوَجُ في المعاني كالعَوَجِ في الأَعيانِ، والمرادُ به: نفيُ التناقُض عن معانيهِ.

وانتصَبَ ﴿قَيِّماً﴾ بمضمرٍ وليس بحالٍ من ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ لأَنَّ قولَهُ: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً﴾ معطوفٌ علىٰ ﴿أَنزَلَ﴾ فهو داخلٌ في حيِّزِ الصلةِ، فمن جعَلَهُ حالاً من ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يكونُ فاصلاً بينَ الحالِ وذي الحالِ ببعضِ الصلةِ وذلك غيرُ جائزٍ، والتقديرُ: ولم يَجعلْ له عوجاً بل جعلَهُ ﴿قَيِّماً﴾ لأَنَّه إِذا نَفَىٰ عنه العِوَجَ فقد أَثبتَ له الاستقامةَ، وجمَعَ بينَهُمَا للتأكيدِ، وقيل: معناه: قَيِّماً بمصالحِ العبادِ وقيِّماً على سائرِ الكتبِ شاهداً بصحَّتها[1] ﴿لِيُنذِرَ﴾ الَّذينَ كفرُوا ﴿بَأْساً شَدِيداً﴾ فاقتُصِرَ علىٰ أَحدِ المفعولين ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾ أي: صادراً من عندِهِ، والأَجرُ الحَسَنُ: الجنَّةُ. ﴿مَّـٰكِثِينَ﴾ أي: لابثينَ ﴿فِيهِ﴾ مُؤبَّدِينَ.

﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ لأَنَّه ليس ممَّا يُعلَمُ لاستحالتِهِ ﴿كَلِمَةً﴾ نصبٌ على

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص ١٣٣.

التمييزِ وفيه معنى التعجُّبِ، كأنَّهُ قالَ: ما أَكبَرَهَا كلمةً، وقيل: ﴿كَبُرَتْ﴾ مثلُ «نِعْمَت»[١]، و﴿كَلِمَةً﴾ تفسيرٌ لفاعلِ ﴿كَبُرَتْ﴾، و ﴿تَخْرُجُ﴾ صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، والتقديرُ: كَبُرتِ الكلمةُ كلمةً خارجةً ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ والكلمةُ هي قولُهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللهُ وَلَداً﴾ سُمِّيت كلمةً كما سمَّوا القصيدةَ كلمةً.

﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفاً (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧) وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً (٨)﴾

﴿بَـٰخِعٌ﴾ أَي: قاتلٌ ﴿نَفْسَكَ﴾ وَجْداً وأَسفاً ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾ بالقرآنِ، شبَّهَهُ برجلٍ فارَقَهُ أَعِزَّتُه فهو يتحسَّرُ ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ﴾ ويَبْخَعُ نفسَه تلهُّفاً علىٰ فراقهم، و﴿أَسَفاً﴾ حالٌ أَو مفعولٌ له، والأَسَفُ: المبالَغَةُ في الحزنِ والغَضَبِ، ورجلٌ أَسِفٌ وأَسيفٌ.

﴿مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: ما يصلُحُ أَن يكونَ ﴿زِينَةً﴾ وحِلْيَةً للأَرضِ ولأَهلِها من زَخارفِ الدنيا وما يُستحسَنُ منها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ أَي: لنختبرهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ وهو مَن كانَ أَزهدَ فيها.

ثُمَّ زَهَّدَ سبحانَه فيها بقولِه: ﴿وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾ من هذه الزينةِ ﴿صَعِيداً جُرُزاً﴾ أَي: مثلَ أَرضٍ بيضاءَ لا نباتَ فيها بعد أَن كانَت خضراءَ مُونِقةً[٢] في زوالِ بهجتِهِ وذَهابِ رونقِهِ وحسنه.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَباً (٩) إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا

(١) قاله الفارسي وإليه ذهب أكثر النحاة على ماحكاه الآلوسي في تفسيره: ج ١٥ ص ٢٠٤.
(٢) يقال: آنقني الشيء أي: أعجبني. (الصحاح: مادة أنق).

مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً (١١) ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَداً (١٢) ﴾

﴿ٱلْكَهْفِ﴾ الغارُ الواسعُ في الجبلِ، واختُلِفَ في ﴿ٱلرَّقِيمِ﴾: فقيل: هو لوحٌ من رَصاصٍ رُقِمَتْ فيه أسماؤُهم جُعِلَ على باب الكهفِ[١]، وقيل: هو اسمُ الوادي الَّذي كان فيها الكهفُ[٢]، وقيل: هُمُ النفرُ الثلاثةُ الَّذينَ دخَلوا في غارٍ فانسدَّ عليهم فدعَا كلُّ واحدٍ منهم بما عمِلَهُ لله خالصاً ففرَّجَ عَنهم[٣] ﴿كَانُواْ﴾ آيةً عَجَباً ﴿مِنْ ءَايَـٰتِنَا﴾ وصفاً بالمصدرِ، أَو ذاتَ عجبٍ.

﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أَي: رحمةً من خزائنِ رحمتِكَ، وهي المغفرةُ والرزقُ والأَمنُ من الأعداءِ ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ الَّذي نحنُ فيه ﴿رَشَداً﴾ حتَّىٰ نكونَ بسببه راشدينَ، أَو: اجعَلْ أَمرَنا رَشَداً كلَّهُ كقولِك: رأَيتُ منك أَسداً[٤].

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ حِجاباً من أَن تسمَعَ، يعني: أَنَمْنَاهم إِنَامةً ثقيلةً لاتُنبِّههم منها الأَصواتُ، فحُذِفَ المفعولُ الَّذي هو الحجابُ، كما قالوا: بَنَىٰ عَلَى امرأَتِهِ، يَعنُونَ: بَنَىٰ عليها القُبَّةَ ﴿سِنِينَ عَدَداً﴾ أَي: ذواتَ عددٍ أَي: سنينَ كثيرةً. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ﴾ أَي: أَيقظناهم من نومهم ﴿أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ فيه معنَى الاستفهامِ، ولذلك عُلِّقَ عنه ﴿لِنَعْلَمَ﴾ فلم يعملْ فيه، و ﴿أَحْصَىٰ﴾ فعلٌ ماضٍ ومعناه: أَيُّ الحِزبَينِ من المؤمنينَ والكافرينَ من قومِ أَصحابِ الكهفِ ضَبَطَ أَمَداً لأَوقاتِ لَبْثِهم، ولا يكونُ ﴿أَحْصَىٰ﴾ من أَفعلِ التفضيلِ في شيءٍ؛ لأَنَّه لايُبنَىٰ من غيرِ الثلاثيِّ المجرَّدِ، ولم يَزَلْ سبحانَه عالماً بذلك، وإِنَّما أَرادَ ما تعَلَّقَ به العلمُ من ظهورِ

---

(١) قاله سعيد بن جبير. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٤٥.

(٢) وهو قول الضحاك. راجع تفسير ابن كثير: ج ٢ ص ٧٢.

(٣) وهو مارواه ابن عمر عن النبيﷺ. راجع صحيح مسلم: ج ٤ ص ٢٠٩٩ ح ٢٧٤٣، ومسند أحمد ٢: ١١٦.

(٤) في نسخة: رشداً.

الأَمرِ لهم ليزدادوا إيماناً، وقيل: يعني بالحِزْبَينِ: أَصحابَ الكهفِ وأنّهم لمّا ٱستَيقَظُوا اختلفوا في مقدار لَبْثِهم[1].

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلَـٰهاً لَّقَدْ قُلْنَآ إِذاً شَطَطاً (١٤) هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً (١٥) وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً (١٦)﴾

﴿وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى﴾ بالتوفيقِ والأَلطافِ المُقَوِّيةِ لدَواعِيهم. ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أَي: قَوَّيناهَا وشَدَدْنا عليها حتَّىٰ صَبَروا علىٰ هَجْرِ الأَوطانِ والفِرارِ بالدينِ إلىٰ بعض الغيرانِ ﴿إِذْ قَامُواْ﴾ بينَ يدَي مَلِكِهِمُ الجبَّارِ: دَقْيانوسَ من غيرِ مبالاةٍ به ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا﴾ الَّذي نعبُدُهُ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿شَطَطاً﴾ أَي: قولاً ذا شطَطٍ، وهو الإِفراطُ في الظلمِ، من شَطَّ: إذا بَعُدَ.

﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأٌ و﴿قَوْمُنَا﴾ عطفُ بيانٍ وخبرُه ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ وهو إِخبارٌ في معنى الإنكار ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾ أَي: هلَّا يَأتونَ علىٰ عبادتِهم ﴿بِسُلْطَـٰنٍ بَيِّنٍ﴾ بحُجَّةٍ ظاهرةٍ، وهو تبكيتٌ[2] لأَنَّ الإتيانَ بالحجَّةِ علىٰ ذلك مُحالٌ، وفيه دَلالةٌ علىٰ فَسادِ التقليدِ ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً﴾ بنسبةِ الشريكِ إِليه.

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ خِطابٌ من تمليخا ـ وهو رئيسُ أَصحابِ الكهفِ ـ لأَصحابِهِ ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ في محلِّ النصبِ للعطفِ على الضميرِ، يعني: وإِذ

(١) قاله مجاهد. راجع تفسير الرازي: ج ٢١ ص ٨٤.
(٢) التبكيت: هو التعنيف واللوم، يقال: فلان بكّت فلاناً: اذا عنّفه ولامه. (الصحاح: مادة بكت).

اعتزلتموهم واعتزلتم معبوديهم ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يجوزُ أن يكونَ استثناءً متَّصلاً على أنَّهم كانوا يعترِفُون باللهِ ويُشرِكُونَ معه، وأن يكونَ منقطِعاً، وقيل: هو اعتراضٌ ومعناه: الإخبارُ من اللهِ تعالىٰ أنَّهم لم يعبُدُوا غيرَ اللهِ[1] ﴿مِرْفَقاً﴾ قُرِئَ بفتحِ الميمِ[2] وكسرِها، وهو ما يُرتَفَقُ به أي: يُنتَفَع.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (١٨) وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذاً أَبَداً (٢٠)﴾

قُرِئَ: ﴿تَزَٰوَرُ﴾ بالتخفيفِ والتشديدِ[3]، فالتخفيفُ لحذفِ التاءِ، والتشديدُ للإدغامِ، وقُرِئَ: «تَزْوَرُّ» علىٰ وزنِ «تَحمَرُّ»[4] وكلُّها مِنَ الزَّوَرِ وهو الميلُ، و﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾: جهةُ اليمينِ، وحقيقتُها الجهةُ المسمَّاةُ باليمينِ ﴿تَقْرِضُهُمْ﴾

---

(١) حكاه الزمخشري في الكشاف: ج ٢ ص ٧٠٧.

(٢) قرأه نافع وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٨٨.

(٣) وقراءة التشديد هي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٨٨.

(٤) قرأه ابن عامر ويعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٠٨.

تَقطعُهم لاتَقرَبُهم، من معنى القطيعةِ والصرْمِ ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أَي: في مُتَّسعٍ من الكهفِ، ومعناه: أَنَّهم لاتُصيبُهمُ الشمسُ في طلوعِ نهارِهِم ولا في غروبِها مع أَنَّهم في مكانٍ واسعٍ منفتحٍ من غارِهِم، يَنالُهم فيه بَرْدُ النسيمِ ورَوحُ الهواءِ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهو ماصنَعَه بهم من ازورارِ الشمسِ وقَرْضِها طالعةً وغاربةً، وقولُه: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ ثَناءٌ عليهم بأَنَّهم جاهَدُوا في ٱللهِ فلَطَفَ بهم، وأَرشَدَهم إِلىٰ نَيْلِ تلك الكَرامةِ.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ خِطابٌ لكلِّ أَحدٍ، والأَيْقاظُ: جمعُ يَقُظٍ، أَي: ﴿وَهُمْ﴾ نِيامٌ وعيونُهم مفتَّحةٌ، فيحسَبُهم من ينظُرُ إِليهم ﴿أَيْقَاظاً﴾ وقيل: لكَثرةِ تقلُّبِهم[1]، وقرأَ الصادقُ عليه السلام: «وَكَالِبُهُمْ»[2] أَي: صاحبُ كلبِهم ﴿بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ حكايةُ حالٍ ماضيةٍ؛ لأَنَّ اسمَ الفاعِلِ لايعمَلُ إِلَّا إِذا كانَ بمعنى المضارِعِ، ولايعمَلُ[3] إِذا كان في معنى الماضي، والوصيدُ: الفِناءُ، وقيل: العَتَبَةُ[4]، والرُّعبُ: الخوفُ الَّذي يَرعَبُ الصدرَ، أَي: يَملَؤُهُ، وذلك لِمَا أَلبَسَهُم ٱللهُ من الهَيبةِ، وقيل: لطولِ أَظفارِهم وشُعُورِهم[5]، وقيل: لوحشةِ مكانِهم[6].

﴿وَ﴾ كما أَنَمْناهم تلكَ النومَةَ ﴿بَعَثْنَـٰهُمْ﴾ منها ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ﴾ أَي: ليَسأَلَ بعضُهم بعضاً، ويتعرَّفوا حالَهم وما صَنعَ ٱللهُ بهم، فيعتَبِرُوا ويستَدِلُّوا علىٰ معرفَةِ صانِعِهم، ويَزدَادوا يقيناً إِلى يقينِهم ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأَنَّهم دخَلُوا

(١) قاله الزجاج على ماحكاه عنه الرازي في تفسيره: ج ٢١ ص ١٠١.
(٢) حكاه عنه عليه السلام الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٧٠٩.
(٣) في بعض النسخ زيادة: إِلَّا.
(٤) قاله عطاء. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٥٤.
(٥) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٧٠٩، والرازي في تفسيره: ج ٢١ ص ١٠١.
(٦) حكاه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ١٥٥.

الكهفَ غُدْوةً وانتبَهُوا بعدَ الزوالِ فظَنُّوا أَنَّهم في يومِهم، فلمَّا نظَروا إِلىٰ طولِ أَظفارِهِم وشُعُورِهم ﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أَي: ربُّكم أَعلمُ بذلك، لا طريقَ لكم إِلىٰ علمِهِ، فخذُوا في شيءٍ آخرَ ممَّا يُهِمُّكُم، وقُرِئَ: ﴿بِوَرِقِكُمْ﴾ بكسرِ الرَّاءِ وسكونِها[١] وهو الفضَّةُ ﴿أَيُّهَآ﴾ أَي: أَيُّ أَهلِها، فحُذِفَ، مثلُ: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[٢]، ﴿أَزْكَىٰ طَعَاماً﴾ أَي: أَطيبُ وأَحلُّ وأَكثرُ وأَرخصُ ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أَي: وليتَكلَّفِ اللُّطفَ في أَمرِ البيعِ أَو في أَمرِ التخفِّي حتَّىٰ لا يُعْرَفَ ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً﴾ أَي: لا يُخبِرَنَّ بِمكانِكم أَحداً من أَهلِ المدينةِ ﴿إِنَّهُمْ إِن﴾ يعلَمُوا بمكانِكم ويطَّلِعُوا ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يقتُلُوكم بالرَّجْمِ وهي أَخبثُ القِتْلةِ ﴿أَوْ﴾ يُدخِلُوكُم ﴿فِى مِلَّتِهِمْ﴾ بالعُنْفِ ويُصيِّروكم إِليها ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ﴾ إِن دخَلْتُم في دينِهم ﴿أَبَداً﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً (٢٢) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً (٢٣) إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَداً (٢٤)﴾

﴿وَ﴾ كما أَنَمْناهُم وبَعَثْناهم لما في ذلك من الحكمةِ أَطْلَعْنا[٣] ﴿عَلَيْهِمْ﴾

---

(١) وهي قراءة أبي عمرو وحمزة وأبي بكر وروح. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٠٨.

(٢) يوسف: ٨٢.

(٣) في بعض النسخ: اطّلعنا، اطّلعناهم.

لِيعلمَ الَّذينَ أَطْلَعناهم[١] علىٰ حالِهم ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ الَّذِي هو البعثُ ﴿حَقٌّ﴾ لأَنَّ حالَهم في نومِهم وانتباهِهِم[٢] كحالِ مَن يموتُ ثُم يُبعَثُ، وَ ﴿إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ﴾ يتعلَّقُ بِـ﴿أَعْثَرْنَا﴾ أَي: أعثرنَاهم عليهم حينَ ﴿يَتَنَـٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أَمْرَ دينِهم، ويختلِفُونَ في البعثِ، فكانَ يقولُ بعضُهم: يُبعَثُ الأَرواحُ دونَ الأَجسادِ، ويقولُ بعضُهم: يُبعَثُ الأَجسادُ مع الأَرواحِ حتَّىٰ يَرتَفعَ الخِلافُ ويتبيَّنَ أَنَّ الأَجسادَ تُبعَثُ حيَّةً حسَّاسةً فيها أَرواحُها كما كانَت قبلَ الموتِ ﴿فَقَالُوا۟﴾ حينَ تَوفَّى ٱللَّهُ أَصحابَ الكـهفِ: ﴿ٱبْنُوا۟﴾ علىٰ بابِ كهفِهم ﴿بُنْيَـٰنًا﴾ كما يُبْنَى المقابِرُ ﴿قَالَ ٱلَّـذِينَ غَـلَبُوا۟ عَـلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ من المسلمينَ ومَلِكِهم: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ﴾ علىٰ بابِ الكهفِ ﴿مَّسْجِدًا﴾ يُصلِّي فيه المسلِمونَ ويتبرَّكُونَ بمكانِهم ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أَأَحياءٌ نِيامٌ هُم أَم أَمواتٌ؟ فقَد قيلَ: إِنَّهم ماتُوا[٣]، وقيل: إنّهم لايموتون إِلى يومِ القيامةِ[٤].

﴿سَيَقُولُونَ﴾ الضميرُ لمن خَاضَ في قصَّتِهم في زمانِ رسولِ ٱللَّهِ ﷺ من أَهلِ الكتابِ والمسلمينَ، و ﴿ثَلَـٰثَةٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أَي: هُم ثلاثةٌ، وكذلك ﴿خَمْسَةٌ﴾ و ﴿سَبْعَةٌ﴾، وَ ﴿رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ جملةٌ من مبتدأ وخبر وقَعَتْ صفةً لِـ﴿ثَلَـٰثَةٌ﴾، وكذلك ﴿سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ و ﴿ثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، وأَمَّا الواو الداخلةُ على الجملةِ الثالثةِ فإِنَّها دخلَتْ على الجملةِ الواقعةِ صفةً للنكِرَةِ كما تَدخُلُ على الجملةِ الواقعةِ حالاً عن المعرفةِ، تقولُ: جاءَني رجلٌ ومعه آخرُ، وجاءَني زيدٌ ومعه غلامُه، وفائدةُ الواو تأكيدُ لُصوقِ الصفةِ بالموصوفِ، والدلالَةُ علىٰ أَنَّ اتِّصافَه بها أَمرٌ ثابتٌ مُستقِرٌّ، فهذِهِ الواو تُؤْذِنُ بأَنَّ قولَ الَّذينَ قالوا: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ

---

(١) في بعض النسخ: اطّلعنا، اطّلعناهم. (٢) في نسخة زيادة: حالهم.
(٣) وهو قول الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٢٠٢.
(٤) حكاه الرازي في تفسيره: ج ٢١ ص ١٠٥.

﴿كَلْبُهُمْ﴾ قولٌ صادرٌ عن علمٍ لا عن رجمِ ظنٍّ كقولِ غيرِهم، ومعنىٰ قولِهِ: ﴿رَجْماً بِالْغَيْبِ﴾: رَمْياً بالخبرِ الخفيِّ وإتياناً به، نحوُ قولِه: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (١) أي: يأْتُونَ بهِ، أو وُضِعَ الرَّجمُ موضعَ الظَّنِّ كأنَّه قال: ظنّاً بالغيبِ، قال زُهَيرٌ:

وَمَا هُوَ عَنْهَا بالحديثِ المُرَجَّمِ (٢)

أي: المظنونِ، وعن ابنِ عبَّاس: حينَ وَقَعَتِ الواوُ انقطعَتِ العِدَّةُ، يعني: لم يبقَ بعدَها عِدَّةُ عادٍّ يُلتفَتُ إليها، وثبتَ أنَّهم سبعةٌ وثامِنُهم كلبُهم على القطعِ (٣)، ويدُلُّ عليه أنَّه سبحانه أتبعَ القولَينِ قولَه: ﴿رَجْماً بِالْغَيْبِ﴾ وأتبَعَ القولَ الثالثَ قولَه: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، وقالَ ابنُ عبَّاس: أنَا من أُولئك القليلِ (٤) ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ أي: فلا تُجادِلْ أهلَ الكتابِ في أمرِ أصحابِ الكهفِ ﴿إِلَّا﴾ جدالاً ﴿ظَـٰهِراً﴾ بحجَّةٍ ودَلالةٍ تَقُصُّ عليهم ما أوحى ٱللهُ إليك، وهو كقولِهِ: ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (٥)، ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ﴾ وَلَا تَسْأَلْ ﴿أَحَداً﴾ مِنْهُمْ عن قصَّتهم.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِـ﴾ أجلِ ﴿شَاْىْءٍ﴾ تَعزِمُ عليه: ﴿إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ الشيءَ ﴿غَداً﴾ أي: فيما يَستقبِلُ من الأوقاتِ. ﴿إِلَّا أَن يَشَآءَ ٱللهُ﴾ متعلِّقٌ بالنهي لا بقولِه: ﴿إِنِّى فَاعِلٌ﴾ لأنَّه لو قال: إِنِّي فَاعِلٌ كذا إِلَّا أن يشاءَ ٱللهُ كان معناه: إلَّا أن تعترِضَ

---

(١) سبأ: ٥٣.

(٢) وصدره: وما الحرب إلّا ما علمتم وذقتم. والبيت من معلّقته التي مطلعها:

أمن أمّ أوفى دمنةٌ لم تكلّم ... بحومانة الدراج فالمتثلّمِ

وفيها يخاطب قبيلة ذبيان وأحلافهم ويحرّضهم على الصلح مع بني عمّهم بني عبس، ويخوّفهم من الحرب، فإنّهم قد علموا شدائدها في حرب داحس، فيقول لهم: ما الحرب إلّا ماجرّبتم وذقتم مرارتها فايّاكم أن تعودوا الى مثلها. انظر ديوان زهير بن أبي سلمى: ص ٨١.

(٣) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٩٧.

(٤) كما حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ١٥٦.

(٥) النحل: ١٢٥.

مشيئَةُ ٱللهِ دونَ فعلِهِ، وذلك ما لامدخَلَ فيه للنهي، وتعلُّقُه بالنهي علىٰ وجهين: أَحدُهُما: لاتقولَنَّ ذلك القولَ إلَّا أَن يشاءَ ٱللهُ أَن تقولَه بأَن يَأْذَنَ لك فيه، والثاني: لاتقولَنَّ ذلك إلَّا بِأَن يشاءَ ٱللهُ أَي: بمشيئَةِ ٱللهِ، وهو في موضعِ الحالِ يعني: إلَّا ملتبِساً[١] بمشيئَةِ ٱللهِ، قائلاً: إن شاءَ ٱللهُ ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ أَي: مشيئَةَ ربِّك وقُلْ: إن شاءَ ٱللهُ ﴿إِذَا﴾ ٱعترَاكَ نِسْيانٌ لذلك، يعني: ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ كلمةَ الاستثناءِ ثُمَّ ذَكَرْتَ فتدَارَكْها، وعن ابنِ عبَّاس: ولو بعدَ سنةٍ[٢]، وعن الصادقِ عليه السلام: «مالم ينقطِعِ الكلامُ»، وقيل: معناه: وَٱذْكُرْ ربَّكَ إذا اعتراكَ النسيانُ ليُذَكِّرَكَ المَنْسيَّ[٣] ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن﴾ يهدِيَني ﴿رَبِّى﴾ بِشيءٍ آخَرَ بدلَ هذا المنسيِّ أَقْرَبَ منهُ ﴿رَشَداً﴾ وأَدنَىٰ خيراً ومنفعةً، وقيل: معناه: لعلَّ ربِّي يُؤتيني من البيِّناتِ علىٰ أَنِّي نبيٌّ ماهو أَعظَمُ في[٤] الدلالةِ من نَبَأ أَصحابِ الكهفِ[٥]، وقد فَعَل سبحانه ذلك حيثُ قَصَّ عليه أَخبارَ الأَنبياءِ وأَنبَأَه من الغيوب بما هو أَعظمُ من ذلك.

﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَـٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعاً (٢٥) قُلِ ٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَالَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَايُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَداً (٢٦) وَٱتْلُ مَآأُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَامُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَداً (٢٧) وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَاتُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطاً (٢٨) وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن

(١) في بعض النسخ: متلبّساً.
(٢) حكاه عنه ابن كثير في تفسيره: ج ٣ ص ٧٨.
(٣) قاله عكرمة. راجع التبيان: ج ٧ ص ٢٩. (٤) في بعض النسخ: «من».
(٥) قاله الزجاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ٢٧٨.

وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً (٢٩) ﴾

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ﴾ الآية بيانٌ لما أجمَلَ في قولِهِ: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ الآية[1]، و ﴿سِنِينَ﴾ عطفُ بيانٍ لـ﴿ثَلَـٰثَ مِائَةٍ﴾، وقُرِئَ: «ثلاثَ مِائَةِ سِنينَ» مضافاً[2]، على وضعِ الجمعِ موضِعَ الواحدِ في التمييزِ، كما قالَ سبحانه: ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلاً﴾[3]، ﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعاً﴾ أي: تِسعَ سنينَ؛ لأنَّ ما قبلَه دلَّ عليه. ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ يريدُ أنَّه أعلَمُ من الَّذينَ اختَلَفُوا فيهم بمدَّةِ لَبْثِهم، والحقُّ ما أخبَرَكَ بِهِ.

ورُوِيَ: أنَّ يهوديّاً سأَلَ عليّاً عليه السلام عن مدَّةِ لَبْثِهم، فأَخبرَ بما في القرآنِ، فقالَ: إِنَّا نَجِدُ في كتابِنا[4] ثلاثمائةٍ، فقالَ عليه السلام: «ذاكَ بسِنِي الشمسِ وهذا بسِنِي القمرِ»[5].

ثمَّ ذَكَرَ اختصاصَهُ بما غابَ في ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وأنَّه العالِمُ بذلكَ، ثمَّ جاءَ بما دلَّ على التعجُّبِ من إدراكِهِ المَسموعاتِ والمُبصَراتِ للدلالةِ علىٰ أنَّ أَمرَهُ في الإِدراكِ خارِجٌ عن حدِّ ما عليه إِدراكُ كلِّ سامعٍ ومُبصِرٍ؛ لأَنَّه يُدرِكُ أَلطفَ الأَشياء وأَصغرَها ﴿مَالَهُم﴾ الضميرُ لأَهلِ السماواتِ والأَرْضِ ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ أَي: مُتولٍّ لأُمورِهم ﴿وَ﴾ ليس ﴿يُشْرِكُ فِى﴾ قَضَائِهِ ﴿أَحَداً﴾ منهم، قُرِئَ: «وَلَاتُشْرِكْ» بالتاءِ والجزمِ على النهي[6].

﴿لَامُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِ﴾ لايقدِرُ أَحدٌ علىٰ تبديلِ أَحكامِ كلماتِهِ وتغييرِها

---

(١) الآية: ١١.

(٢) قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٠٨.

(٣) الآية: ١٠٣. (٤) في نسخة: كتبنا.

(٥) رواه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ١٥٨.

(٦) وهي قراءة ابن عامر وحده. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٠٩.

﴿وَ﴾ لا ﴿تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾[1] ومَوئلاً، يقالُ: ٱلتَحَدَ إِلىٰ كذا: إِذا مالَ إِليهِ.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ أَي: ٱحْبِسْها ﴿مَعَ﴾ المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يُداومونَ علىٰ الدعاءِ عندَ الصباحِ والمَساءِ، وقيلَ: المرادُ بـ﴿ٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾: صلاةُ الفجرِ والعَصرِ[2] وقُرِئَ: «بالغُدْوَة»[3] ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أَي: لاتَتَجاوَزْ عَيناكَ عنهم بالنظرِ إِلىٰ غيرِهم من أَبناءِ الدنيا ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في مجالَسةِ أَهلِ الغِنىٰ، وهي جملةٌ في موضعِ الحالِ، وكانَ النبيُّ ﷺ حريصاً علىٰ إِيمانِ عُظماءِ المشركينَ طمعاً في إِيمانِ أَتباعِهم، فأُمِرَ بالإِقبالِ علىٰ فقراءِ المُؤْمنينَ كخبَّابٍ وعمَّارٍ وأَبي ذرٍّ وغيرِهم، وأَن لايَرفعَ بصرَهُ عنهم ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ أَي: جعَلْنا قلبَهُ غافِلاً بالخِذْلانِ، أَو وَجدْناه غافلاً ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾، أَو: لم نَسِمْهُ بالذكرِ ولم نَجعَلْهُ من الَّذين كتَبْنَا في قلوبِهمُ الإِيمانَ، مِنْ أَغفلَ إِبلَهُ: إِذا تَركَها بغيرِ وَسْم ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ في أَفعالِه ومُشتَهَياتِهِ ﴿فُرُطاً﴾ أَي: إِفراطاً وتجاوزاً للحدِّ، ونَبذاً للحَقِّ وراءَ ظَهرِه، من قولِهم: فرسٌ فُرُطٌ أَي: متقدِّمٌ للخيلِ.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، والمعنىٰ: جاءَ الحقُّ وزاحتِ العِلَلُ فلم يَبقَ إِلَّا اختيارُكم لنفوسِكُم ماشئتُم منَ الأَخذِ في طريقِ النجاةِ أَو في طريقِ الهَلاكِ ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أَي: أَعددْنا وهيَّأْنا لِلَّذينَ ظَلَمُوا أَنفسَهم بعبادةِ غيرِ اللهِ، وشبَّهَ سبحانَهُ مايحيطُ ﴿بِهِمْ﴾ منَ النارِ من جوانبِهِمْ بالسُّرادِق ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ وهوَ كلُّ شيءٍ أُذِيبَ كالنُحاسِ والصُفْرِ، وقيلَ: هو دُرْدِيُّ[4] الزيتِ[5]،

(١) في بعض النسخ زيادة: أي ملتجأً.
(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٧١٧.
(٣) قرأه ابن عامر وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٩٠.
(٤) دُرْدِيّ الزيت: مايبقىٰ في أسفله. (الصحاح: مادة درد).
(٥) قاله ابن عباس. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٠٣.

ورُوِيَ: أَنَّه كعَكَرِ[١] الزيتِ فإذا قَرُبَ إليهِ سَقَطَتْ فَرْوَةُ رأْسِهِ[٢] ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ إذا قُدِّمَ ليُشرَبَ انشوَى الوجهُ من حرارتِه ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ ذلك ﴿وَسَآءَتْ﴾ النارُ ﴿مُرْتَفَقاً﴾ مُتَّكأً، من المِرْفَقِ، وهو يُشاكِلُ قولَه: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾[٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَانُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْـهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (٣١)﴾

وَقعَ قولُه: ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ موقعَ الضميرِ العائدِ إلى اسمِ ﴿إِنَّ﴾، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ استئنافُ كلامٍ، ويجوزُ أن يكونَ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ خبرَ ﴿إِنَّ﴾ و ﴿إِنَّا لَانُضِيعُ﴾ اعتراضاً.

و﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ لابتداءِ الغايةِ، وفي ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ للتبيينِ، والسُندُسُ: مارَقَّ منَ الديباجِ، والاسْتَبْرَقُ: ماغَلُظَ منه ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي: مُتنعِّمينَ في تلكَ الجنَّاتِ على السُرُرِ في الحِجالِ؛ لأَنَّ الاتِّكاءَ هيئَةُ أهلِ التنَعُّمِ منَ الملوكِ وغيرِهم.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً (٣٢) كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـئاً وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَراً (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِ

(١) العَكَر: هو دُردِيّ الزيت وغيره. (الصحاح: مادة عكر).
(٢) وهو مارواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٧١٩ عن النبي ﷺ مرسلاً.
(٣) الآية: ٣١.

وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا (٣٥) وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾

مثَّلَ سبحانَهُ حالَ المؤمِنينَ والكافرينَ بحالِ ﴿رَّجُلَيْنِ﴾ متجاورَينِ كانَ ﴿لِأَحَدِهِمَا﴾ بُستانانِ أجنَّهُما الأشجَارُ ﴿مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ وهما محفوفتانِ ﴿بِنَخْلٍ﴾ تُطِيفُ[1] النخلُ بهما، وبينَ البُستانَينِ مزرَعَةٌ، وعن ابنِ عبَّاس: كانا ٱبنَيْ ملِكٍ في بني إسرائيلَ وَرِثَا مالاً جزيلاً، فأخذَ المؤمنُ منهما حقَّهُ وتقرَّبَ بهِ إلى ٱللهِ تعالىٰ، وأخذَ الآخَرُ حقَّهُ فتملَّكَ به الجنَّتَينِ والضياعَ والأموالَ[2]. ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: كلُّ واحدةٍ مِنَ البستانَينِ أعطَتْ غلَّتَها، و ﴿ءَاتَتْ﴾ محمولةٌ على اللفظِ؛ لأنَّ لفظَ ﴿كِلْتَا﴾ مفردٌ ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: لَم تَنقُصْ ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ أي: وشَقَقْنا وَسَطَ الجنَّتَينِ ماءً جارياً.

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ أي: أنواعٌ منَ المالِ، من ثَمَّرَ مَالَهُ: إذا كثَّرَه، وقُرِئَ: «ثُمُرٌ» و«بِثُمُرِهِ»[3] بضمَّتَينِ[4] وبسكونِ الميمِ أيضاً[5] في الموضعينِ، ويجوزُ أن يكونَ «ثُمُرٌ» جمع «ثَمَرةٍ» أو جمعَ «ثِمارٍ» ثُمَّ يُخَفَّفَ ويُقالَ: «ثُمْرٌ» مثلُ: «كُتْبٍ»، وقُرِئَ: بفتحِ الثاءِ والميمِ وهوَ جمعُ ثَمَرةٍ: مايُجْتَنَىٰ من ذِي الثمرةِ، و﴿أَعَزُّ نَفَرًا﴾ يعني: أنصاراً وحَشَماً، وقيلَ: أولاداً ذُكوراً لأنَّهم يَنفِرُونَ معَهُ[6]، و ﴿يُحَاوِرُهُۥ﴾:

---

(١) في بعض النسخ: يطيفُ.
(٢) أُنظر تفسير ابن عباس: ص ٢٤٧.
(٣) من الآية: ٤٢.
(٤) قرأه ابن كثير ونافع وابن عامر وحمزة والكسائي. كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٩٠.
(٥) وهي قراءة أبي عمرو. راجع التبيان: ج ٧ ص ٣٨.
(٦) قاله مقاتل. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٦٢.

يُراجعُه الكلامَ، من حارَ يحُورُ: إذا رجعَ.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ آخذاً بيدِ صاحبِه المُسلِمِ يطوفُ به ويُريهِ أَملاكَه ويفاخِرُه بأموالِه ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أَي: مُعجَبٌ بما أُوتِيَ، مفتخِرٌ بِه، كافِرٌ لِنعمةِ ربِّه. ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ أَقسمَ علىٰ أَنّه إِنْ رَدَّ إِلىٰ ربِّه علىٰ سبيلِ التقديرِ كما يزعَمُ صاحبُه ليَجِدَنَّ في الآخرةِ ﴿خَيْراً﴾ من جنَّتِه في الدنيا، وقُرِئَ: «خَيْراً مِّنْهُمَا»[١] بعودِ الضميرِ إِلىٰ ﴿ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾، ﴿مُنقَلَباً﴾ مَرجِعاً وعاقبةً، وانتصابُهُ على التمييزِ.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلاً (٣٧) لَّـٰكِنَّا هُوَ ٱللهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَداً (٣٨) وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَاشَآءَ ٱللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَداً (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ ٱللهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً (٤٣) هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً (٤٤)﴾

﴿خَلَقَكَ﴾ أَي: خلقَ أَصلَك ﴿مِن تُرَابٍ﴾ لأَنَّ خلْقَ أَصلِه سببٌ في خلقِه، فكأَنَّ خلْقَه خلقٌ له ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ﴾ أَي: عدَّلَكَ وأَكملَكَ إِنساناً مُعتدِلَ الخَلقِ بالغاً مبلغَ الرجالِ.

﴿لَّـٰكِنَّا﴾ أَصلهُ: «لكنْ أَنا» فحُذِفَتِ الهمزةُ وأُلقِيَتْ حركتُها علىٰ نونِ «لكنْ»

---

(١) وهي قراءة نافع وابن كثير وابن عامر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٠٩.

فالتقتِ النونانِ فأُدغِمَ، و﴿ هُوَ﴾ ضميرُ الشأنِ، أَي: الشأنُ ﴿ٱللَّهُ رَبِّى﴾، والجملةُ خبرُ «أَنَـا» والراجعُ منها إليه ياءُ الضميرِ، وقُرِئَ بحذفِ أَلفِ «أَنا» في الوصلِ[١]، وقُرِئَ أيضاً بإثباتِها في الوصل والوقفِ جميعاً[٢]، وحَسَّـنَ ذلكَ وُقـوعُ الأَلفِ عِوضاً من حذفِ الهمزةِ، يقولُ لصاحبِه: أَنتَ كافرٌ باللهِ لكنِّي مؤمنٌ موحِّدٌ.

﴿مَاشَآءَ ٱللَّهُ﴾: ﴿ما﴾ موصولةٌ مرفوعةُ المَحلِّ علىٰ خبرِ الابتداءِ، والتقديرُ: الأَمرُ ماشاءَ اللهُ، أَو شرطيَّةٌ منصوبةُ المحلِّ والجزاءُ محذوفٌ، والتقديرُ: أَيَّ شيءٍ شاءَ اللهُ كانَ، والمعنىٰ هلَّا ﴿قُلْتَ﴾ عندَ دُخولِ ﴿جَنَّتَكَ﴾: الأَمرُ ماشاءَ اللهُ اعترافاً بأَنَّها حَصلَتْ لكَ بمشيئَةِ اللهِ وفضلِهِ، وأَنَّ أَمرَها بيَدِهِ إِن شاءَ حالَ بـينَكَ وبـينَها ونَزَعَ بركَتَها عنك ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ﴾ إِقرارٌ بأَنَّ قوَّتَه عـلىٰ عِـمارتِها بـمعونتِه، إِذ لايَقْوَىٰ أَحدٌ في بدنِه وما يملِكُهُ إِلَّا باللهِ، و ﴿أَنَـا﴾ فصْلٌ و ﴿أَقَلَّ﴾ مفعولٌ ثـانٍ لـ﴿تَرَنِ﴾، وفي قولِه: ﴿وَوَلَداً﴾ دَلالَةٌ علىٰ أَن النفرَ في قولِهِ: ﴿وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ المرادُ به الأَولادُ، والمعنىٰ: ﴿إِن﴾ تَرَني أَفقرَ ﴿مِنكَ﴾ فَأَنا أَتوقَّعُ مـن صُـنعِ اللهِ ﴿أَن﴾ يرزُقَني ﴿خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ﴾ ويَسلُبَكَ نِعمَهُ، ويُخرِّبَ جـنَّتَكَ لإِيـماني وكُـفرانِكَ، و«الحُسْبَانُ» مصدرٌ بمعنى الحِسابِ، أَي: مقداراً قدَّرهُ اللهُ وحسَبَهُ وهـو الحكـمُ بتَخريبِها، وقيلَ: ﴿حُسْبَاناً﴾: مَرامِيَّ من عذابِه: حجارةً أَو صاعقةً[٣] ﴿صَعِيداً﴾ أَرضاً مُستوِيَةً لا نباتَ عليها، يَزْلَقُ عنها القدَمُ لمَلاسَتِها، و ﴿زَلَقاً﴾ و ﴿غَـوْراً﴾ كِلاهما وصفٌ بالمصدرِ.

﴿وَأُحِيطَ﴾ به عبارةٌ عن الهَلاكِ، وأَصلُ الإِحاطةِ: إِدارةُ الحائطِ على الشيءِ،

---

(١) وهي قراءة أبي عمرو روايةً على ماحكاه ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ٨٣.

(٢) قرأه ابن عامر والمسيّبي ورويس. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٠٩، والكشف عن وجوه القراءات السبع للقيسي: ج ٢ ص ٦١.

(٣) قاله قتادة والقتيبي. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٦٣.

وتقليبُ الكَفَّيْنِ عبارةٌ عنِ النَدَمِ والتَحسُّرِ؛ لأَنَّ النادمَ يـفعَلُ ذلكَ، فكأَنَّـه قـالَ: فأَصبحَ يَندَمُ ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ أَي: في عِمارتِها ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ يعني: سقَطَتْ عُروشُ كُرومِها على الأَرضِ وسقطَتْ فوقَها الكرومُ، قالوا: أَرسلَ اللهُ عليها ناراً فأَهلكَتْها[١] وغارَ ﴿مَآؤُهَا﴾ ثمَّ تمنَّىٰ لو لَم يكُـنْ مشـرِكاً حـتَّىٰ لايُهلِكَ اللهُ بستانَهُ، ويجوزُ أَن يكونَ توبةً منَ الشركِ ودخولاً في الإِيمانِ.

وقُرِئَ: ﴿لَمْ تَكُن﴾ بالتاءِ والياءِ[٢] و﴿يَنصُرُونَهُ﴾ محمولٌ على المعنى دونَ اللفظِ، والمعنىٰ: ﴿لَمْ تَكُن لَّهُ﴾ جماعةٌ تَقدِرُ علىٰ نصرَتِه ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَي: هوَ سبحانَه وحدَه القادرُ علىٰ نصرتِه، لايقدِرُ أَحدٌ غيرُه أَنْ يَنصُرَهُ، إِلَّا أَنَّه لم يَنصُرْهُ لأَنَّه اسْتوجَبَ الخِذلانَ ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِراً﴾ أَي: مُمتَنِعاً بقوَّتِهِ عن انتقامِ اللهِ.

قُرِئَ: ﴿ٱلْوَلَـٰيَةُ﴾ بفتحِ الواوِ وكسرِها[٣]، والفتحُ بـمعنى النُصرةِ، والكسـرُ بمعنى السُلطانِ والمُلكِ، و ﴿هُنَالِكَ﴾ أَي: في ذلكَ المقامِ وتلكَ الحـالِ النُـصرةُ ﴿لِلَّهِ﴾ وحدَهُ لايَستطيعُها أَحدٌ سِواهُ، أَو: السُلطانُ للهِ لايمتنعُ منهُ، أَو: في مثلِ تلكَ الحالِ الشديدةِ يَتولَّى اللهَ ويؤْمنُ به كلُّ مُضطَرٍّ، يعني: أَنَّ قولَه: ﴿يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ﴾ كلمةٌ أَلجأَتْهُ الضرورةُ إِليها، و﴿ٱلْحَقِّ﴾ قُرِئَ بالرفعِ[٤] صفةً لـ﴿ٱلْوَلَـٰيَةُ﴾، وبالجرِّ صفةً للهِ ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً﴾ لأَوليائهِ و ﴿خَيْرٌ عُقْباً﴾ أَي: عاقبةً، يعني: عاقبةُ طاعتِه خيرٌ من عاقبةِ طاعةِ غيرِه، وقُرِئَ بضمِّ القافِ[٥] وسكونِها.

---

(١) في بعض النسخ: أهلكها.

(٢) وبالياء قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥١٠.

(٣) وقراءة الكسر هي قراءة حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٩٢.

(٤) قرأه أبو عمرو والكسائي. راجع المصدر السابق.

(٥) وهي قراءة أبي عمرو والكسائي ونافع وابن كثير وابن عامر. راجع المصدر نفسه.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِراً (٤٥) ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (٤٧) وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً (٤٨) وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَـٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (٤٩)﴾

﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تكاثف بسَبَبِه حتَّىٰ خالَطَ بعضُهُ بعضاً ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيماً﴾ متهشِّماً متحطِّماً ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ﴾ فتَنْقُلُه من موضعٍ إلىٰ موضع، وقُرِئَ: «تَذْرُوهُ الرِّيحُ»(١) شُبِّه حالُ الدنيا في نَضْرَتِها وبَهجَتِها وما يَتَعقَّبُها منَ الهَلاكِ بحالِ النباتِ يكونُ أخضرَ ثمَّ يَهِيجُ فتُطِيرُهُ الرِّياحُ.

﴿وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ﴾ هيَ الطاعاتُ والحسَناتُ يَبْقَىٰ ثوابُها أبداً، وقيلَ: هي الصلواتُ الخمسُ(٢) ﴿خَيْرٌ ... ثَوَاباً﴾ يعني: مايتعلَّقُ بها من الثوابِ، وما يتعلَّقُ بها من الأَمَلِ؛ لأنَّ صاحبَها يأْمُلُ في الدنيا ثوابَ اللهِ ونصيبَه في الآخرةِ.

وقُرِئَ: «تُسَيَّرُ»(٣) من سُيِّرَتْ و﴿نُسَيِّرُ﴾ من سيَّرْنَا، وتَسييرُها: قلعُها من أماكِنِها وجعلُها هَبَاءً مَنْثوراً، أو تسييرُها في الجوِّ ﴿بَارِزَةً﴾ ليسَ عليها مايَسترُها

---

(١) قرأه طلحة بن مصرّف. راجع تفسير القرطبي: ج ١٠ ص ٤١٣.

(٢) وهو قول سعيد بن جبير ومسروق وابراهيم. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٦٥.

(٣) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر. راجع المصدر السابق.

ممَّا كانَ عليها ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ جَمَعْناهم إلى الموقِفِ، ويُقالُ: غادَرَه وأَغدرَهُ أَي: تركَهُ، ومنه الغديرُ: ما غادَرَهُ السيلُ، وشُبِّهتْ حالُهم بحالِ الجنودِ يُعرَضُونَ على الملِكِ.

﴿صَفًّا﴾ مصطفِّينَ ظاهرين، تُرَىٰ جماعتُهم كما يُرَىٰ كلُّ واحدٍ منهم ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ علىٰ إرادةِ القولِ، والمعنىٰ: قلنا لهم: لَقَدْ بَعثْناكُمْ ﴿كَمَا﴾ أَنشأناكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وقيلَ: جئتُمُونا عُراةً لاشيْءَ مَعَكُم[1] ﴿مَوْعِداً﴾ أَي: وقتاً لإِنجازِ ماوُعِدْتُم علىٰ أَلسِنةِ الرُسُلِ من البَعثِ.

و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ للجنسِ، يعني: صحائفَ الأَعمالِ ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ يُنادُونَ هلكَتَهُمُ الخاصَّةَ من بينِ الهَلَكَاتِ[2] ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ عبارةٌ عنِ الإِحاطةِ بالجميعِ ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أَي: عدَّها وضَبطَها ﴿وَوَجَدُواْ مَاعَمِلُواْ حَاضِراً﴾ في الصُحُفِ، أَو وجدُوا جزاءَ ماعمِلُوا ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ أَي: لاينقُصُ ثوابَ مُحسنٍ، وَلَا يزيدُ في عقابِ مُسيءٍ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلاً (٥٠) مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَاكُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُداً (٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم

---

(١) وهو ماروته عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُحشر الناس يوم القيامة حُفاة عُراة غُرلاً ...»، وما رواه ابن عباس عنه ﷺ بلفظ: «قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظةٍ فقال: يا أيّها الناس إنّكم تحشرون الى الله حُفاة عراة غُرلاً كما بدأنا أول خلقٍ نعيده ...». أُنظر صحيح مسلم: ج ٤ ص ٢١٩٤ ح ٢٨٥٩، وسنن الترمذي: ج ٤ ص ٦١٥ ح ٢٤٢٣.

(٢) في نسخة: المهلكات.

مَّوْبِقاً (٥٢) وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفاً (٥٣) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلاً (٥٤) وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلاً (٥٥) ﴾

﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، والفاءُ للتسبيبِ، جُعلَ كونُه من الجنِّ سبباً في فِسقِه، ومعنىٰ «فَسَقَ»: خَرجَ عمَّا أَمرَهُ بهِ ربُّهُ من السُّجودِ، أَو صارَ فاسقاً كافِراً بسببِ ﴿أَمْرِ رَبِّهِ﴾ الَّذي هوَ قولُه: ﴿ٱسْجُدُواْ﴾، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ﴾ الهمزةُ للإنكارِ والتعجُّبِ، أَي: أَبَعْدَ ما وُجِدَ منه تَتَّخِذُونَهُ ﴿وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ وتَستَبدِلُونهم بِي؟! ﴿بِئْسَ﴾ البَدَلُ مِنَ ٱللهِ إِبليسُ لِمَن ٱستبدَلَهُ.

وقُرِئَ: «مَآ أَشْهَدْنَاهُمْ»[١] أَي: ما أَحضَرتُ إِبليسَ وذُرِّيَّته ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أَي: اعتضاداً بِهِم ﴿وَلَا﴾ أَشهَدْتُ بعضَهمْ ﴿خَلْقَ﴾ بعضٍ، وهوَ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[٢]، ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾ وَضَعَ ﴿ٱلْمُضِلِّينَ﴾ موضعَ الضميرِ ذَمّاً لهم بالإِضلالِ، أَي: فما لَكمْ تَتَّخِذُونَهم شركاءَ لي[٣] في العبادةِ.

وقُرِئَ: ﴿يَقُولُ﴾ بالياءِ والنونِ[٤]، وأَضافَ «الشُّرَكَاءَ» إِليهِ علىٰ زعمِهم تَوبيخاً لهم يُريدُ الجنَّ، والمَوْبِقُ: المَهْلِكُ، من وَبَقَ يَبِقُ: إذا هَلَكَ، ويجوزُ أَنْ يكونَ مصدراً أَي: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ وادياً من أَودِيَةِ جهنَّمَ، هو مكانُ الهَلاكِ والعَذابِ

---

(١) وهي قراءة يزيد بن القعقاع والسجستاني وعون العقيلي. راجع شواذ القرآن: ص ٨٣.
(٢) النساء: ٢٩.
(٣) في بعض النسخ: شركائي.
(٤) وبالنون قرأه حمزة وحده. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥١١.

الشديدِ مشترَكاً يَهلكُونَ فيه جميعاً، وعنِ الفرَّاءِ: البَيْنُ: الوصلُ، أي: جعلْنا تواصُلَهم في الدنيا هَلاكاً يومَ القيامةِ[١]، ويجوزُ أن يُريدَ بالشركاءِ: الملائكةَ وعُزَيراً وعيسىٰ، وبالمَوبِقِ: البَرزخَ البعيدَ، أي: جَعلْنا بينَهُمْ أمداً بعيداً.

﴿فَظَنُّوٓاْ﴾ أي: فأيقَنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ مُخالِطُوها واقِعُونَ في عذابِها ﴿مَصْرِفاً﴾ أي: مَعْدِلاً[٢].

﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ أي: أكثرَ الأشياء الَّتي يَتأتَّىٰ منها الجدَلُ إن فصَّلْتَها، جَدَلاً: خصومَةً ومُماراةً في الباطلِ، وانتصابُه على التمييزِ.

﴿أَن﴾ الأُولىٰ نصبٌ، والثانيةُ رفعٌ وقبلَها مضافٌ محذوفٌ، والتقديرُ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ الإيمانَ والاستغفار ﴿إِلَّآ﴾ انتظارُ ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهيَ الإهلاكُ ﴿أَوْ﴾ انتظارُ أن ﴿يَأْتِيَهُمُ﴾ عَذابُ الآخرةِ «قِبلاً»[٣] عِياناً، وقُرئَ: ﴿قُبُلاً﴾ أنواعاً.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُواً (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَاقَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذاً أَبَداً (٥٧) وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلاً (٥٨) وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً (٥٩)﴾

جدالُهم: قولُهم للأنبياءِ: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[٤]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ

---

(١) معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص ١٤٧.   (٢) في نسخة: معزلاً.

(٣) الظاهر أنّ القراءة المعتمدة لدى المصنّف هنا بكسر القاف وفتح الباء تبعاً للزمخشري.

(٤) يس: ١٥.

مَلَـٰٓئِكَةً﴾[١] ونحوَ ذلك ﴿لِيُدْحِضُواْ﴾ أي: ليُزِيلُوا ويُبْطِلُوا، من إدحاضِ القَدَمِ وهو إزلاقُها ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾: ﴿مَا﴾ موصولةٌ والعائدُ إليها من الصلةِ محذوفٌ، أَي: ومَا أُنذِروهُ من البعثِ والجزاءِ، أَو مصدريَّةٌ بمعنىٰ: وإنذارُهم ﴿هُزُواً﴾ أَي: موضعَ استهزاءٍ.

﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ بالقرآنِ، ولذلك عادَ الضميرُ إليه مذكَّراً في قولِه: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أَي: لا أَحَدَ أَظلَمُ ممَّن ذُكِّرَ بالقرآنِ فلم يتذكَّرْ حينَ ذُكِّرَ، و ﴿أَعْرَضَ﴾ عنه جانباً ﴿وَنَسِىَ﴾ عاقبةَ ﴿مَاقَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الكفرِ والمعاصي غيرَ مفكِّرٍ فيها، ثُمَّ علَّلَ إعراضَهم ونسيانَهم بأَنَّهم مطبوعٌ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، وجَمَعَ بعدَ الإفرادِ للحملِ علىٰ لفظِ «مَنْ» ومعناهُ، ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ﴾ أَي: فلا يكون منهم اهتداءٌ البتَّةَ، و﴿إِذاً﴾ جوابٌ وجزاءٌ يعني: أَنَّهم جعَلُوا ماكانَ يجِبُ أَن يكونَ سببَ الاهتداءِ سبباً في انتفائه.

و﴿ٱلْغَفُورُ﴾: البليغُ المغفِرَةِ ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ الموصوفُ بالرحمةِ فلا ﴿يُؤَاخِذُهُم﴾ عاجلاً مع استحقاقِهِمُ العذابَ ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ يعني: يومَ القيامةِ، وقيل: يومَ بدرٍ[٢] ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلاً﴾ ملجَأً ومَنْجىً، يقال: وَأَلَ إليه: إذا لَجَأَ إليهِ، ووَأَلَ: إذا نَجَىٰ.

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ إشارةٌ إلىٰ قُرَىٰ عادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ وغيرِهم، و﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾ صفةٌ لـ﴿تِلْكَ﴾ و﴿تِلْكَ﴾ مبتدأٌ و﴿أَهْلَكْنَـٰهُمْ﴾ خبرُه، ويجوزُ أَن يكونَ ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ نصباً بفعلٍ مُضمرٍ يفسِّرُه «أَهْلَكْنَا»، والمعنىٰ: وتلكَ أَصحابَ القُرَى أَهلَكْناهُمْ ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ مثلَ ظُلمِ قريش «وَجَعَلْنَا لِمُهْلَكِهِمْ»[٣] أَي: لإهلاكِهم

(١) المؤمنون: ٢٤.
(٢) قاله الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٢٤٣.
(٣) يظهر أنّ القراءة المعتمدة لدى المصنّف هنا بضمّ الميم و فتح اللام التي بعدها وهي قراءة الجمهور سوىٰ عاصمٍ على المشهور.

أو لوقتِ إهلاكِهم، وقُرِئَ: ﴿لِمَهْلِكِهِم﴾ ومعناه: لهَلاكِهم، أو لوقتِ هَلاكِهم ﴿مَوْعِداً﴾ معلوماً، والمَوعِدُ: وقتٌ أو مصدرٌ.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُباً (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَباً (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَـٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَباً (٦٢) قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَـٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَباً (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصاً (٦٤)﴾

﴿فَتَـٰهُ﴾ يوشَعُ بنُ نونٍ، وسمَّاه فتاهُ لأنَّه كانَ يخدِمُهُ ويَتْبَعُهُ ليأخُذَ منه العلمَ. وفي الحديثِ: «لِيَقُلْ أَحَدُكم: فتايَ وفتَاتِي، ولا يقُلْ: عبدِي وأَمَتي»[١].

و﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ بمعنىٰ: لا أزالُ، وخبرُهُ محذوفٌ لدَلَالةِ الحالِ عليه؛ لأنَّها كانَتْ حالَ سفرٍ، فلَو كان بمعنىٰ: «لا أزولُ» لدَلَّ على الإقامةِ، فلابُدَّ أن يكونَ المعنىٰ: ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أسيرُ ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ وهو المكانُ ٱلَّذي وُعِدَ فيه مُوسَىٰ لقاءَ الخَضِرِ عليهما السلام، وهو مُلتقَىٰ بحرَيْ فارِسَ والرومِ، فبحرُ الرومِ ممَّا يَلي المغربَ وبحرُ فارِسَ ممَّا يَلي المشرقَ ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُباً﴾ أَو أَسيرَ زماناً طويلاً، والحُقبُ: ثمانُونَ سنةً، أَو سبعونَ. ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أي: نَسِيَا تفقُّدَ أَمرِهِ وما يكونُ منه ممَّا جُعِلَ أَمارَةً علىٰ وِجدانِ البُغْيَةِ، وقيل: نَسِيَ يوشَعُ أَنْ يُقدِّمَهُ ونَسِيَ موسى أن يأْمُرَهُ فيهِ بشيءٍ وكان سَمكةً مملوحةً[٢]، وقيل: إنَّ يوشَعَ حَمَلَ الحوتَ والخُبْزَ في المِكْتَلِ فنزَلا ليلةً علىٰ شاطِئِ عينٍ تُسَمَّى عينَ الحياةِ ونامَ مُوسىٰ، فلمَّا أَصابَ

---

(١) رواه أحمد في مسنده: ج ٢ ص ٤٩٦، وفي صحيح مسلم: ج ٤ ص ١٧٦٤ ح ٢٢٤٩ بلفظ: «لا يقولنّ أحدكم ...».

(٢) قاله ابن عباس. راجع التبيان: ج ٧ ص ٦٧.

السمكةَ رَوحُ الماءِ وبردُهُ عاشَت ووقَعَت في الماءِ[١]، وقيلَ: تَوَضَّأَ يوشعُ من تلكَ العينِ فَانتَضَحَ الماءُ على الحوتِ فعاشَ ووَثَبَ في الماءِ[٢] ﴿فَاتَّخَذَ ٱلْحُوتُ﴾ ﴿سَبِيلَهُۥ﴾ أَي: طريقَهُ ﴿فِى ٱلْبَحْرِ سَرَباً﴾ أَي: مسلَكاً يذهَبُ فيهِ، صارَ الماءُ عليه مثلَ الطاقِ وحَصلَ من الماءِ في مثلِ السرَبِ.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ المَوعِدَ وهو الصخرَةُ لِنسيانِ موسىٰ تفقُّدَ أَمرِ الحوتِ ونسيانِ يوشَعَ أَن يَذْكُرَ لِموسىٰ مارآه من حياتِهِ[٣] ووقوعِهِ في الماءِ أُلقِيَ علىٰ موسىٰ النَّصَبُ والجُوعُ ولم يَجُعْ ولم يَتْعَبْ قبلَ ذلك، فتذَكَّرَ موسى الحوتَ وطلَبَهُ، وقولُه: ﴿مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا﴾ إشارةٌ إِلىٰ مسيرِهِما حينَ جاوَزَا الصخْرَةَ وسارا تلكَ اللَّيلَةَ والغدَ إِلى الظهرِ، ولمَّا طَلَبَ موسى الحوتَ ذَكَرَ يوشَعُ مارَأَىٰ منه وما اعترَاه من نِسيانِهِ إِلىٰ تلك الغايةِ، فدُهِشَ فطَفِقَ يسأَلُ موسىٰ عن سببِ ذلك، فكأَنَّه ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ﴾ مادَهَانِي ﴿إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ ونسيتُ حديثَه، وقيل: معناه: تركتُ الحوتَ وفقَدتُه[٤]، و ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ بدلٌ من الهاءِ في ﴿أَنْسَـٰنِيهُ﴾ أَي: وما أَنساني ذِكرَهُ ﴿إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ وقرأَ حمزةُ[٥]: ﴿وَمَآ أَنْسَـٰنِيهُ﴾ وفي الفتحِ ﴿عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾[٦] بضمِّ الهاءِ[٧]، و ﴿عَجَباً﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ﴿ٱتَّخَذَ﴾ مثلُ ﴿سَرَباً﴾، أَي: واتَّخذَ سبيلَه سبيلاً عجباً وهو كونُهُ مثلَ السَّربِ، وقولُه: ﴿وَمَآ

---

(١) وهو قول الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص ١٥٤.

(٢) قاله الكلبي. راجع تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٣٠٥.

(٣) في نسخة: حوته.

(٤) قاله البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ١٧٢.

(٥) كذا في جميع النسخ، لكن لم نعثر فيما توفَّرت لدينا من مصادر عن قراءة كهذه منسوبة لحمزة، بل هي متواترة عن حفص وحده وقد، نسب هذه القراءة ـ في الموضعين ـ الى حفص في مجمع البيان: ج ٥ ـ ٦ ص ٤٧٩.

(٦) الآية: ١٠.

(٧) أنظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٩٤.

أَنسَـٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ اعتراضٌ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه.

و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ اتِّخاذِهِ سبيلاً، أي: ذلكَ الَّذي ﴿كُنَّا﴾ نَطْلُبُ من العلامةِ ﴿فَارْتَدَّا﴾ أَي: رجعَا في الطريقِ الَّذي جاءَا منه يـقُصَّانِ آثـارَهما ﴿قَصَصاً﴾، وقُرِئَ: ﴿نَبْغِ﴾ بغيرِ ياءٍ في الوصلِ[(١)] وإثباتُها أَحسنُ[(٢)].

﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً (٦٥) قَالَ لَـهُ مُوسَىٰ هَـلْ أَتَّـبِعُكَ عَـلَىٰٓ أَن تُـعَلِّمَنِ مِـمَّا عُـلِّمْتَ رُشْداً (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراً (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَالَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَـابِراً وَلَآ أَعْـصِى لَكَ أَمْراً (٦٩) قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِـنْهُ ذِكْراً (٧٠) فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْراً (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُـلْ إِنَّكَ لَـن تَسْـتَطِيعَ مَـعِىَ صَبْراً (٧٢) قَالَ لَاتُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْراً (٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْراً (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراً (٧٥)﴾

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هي الوحيُ والنبوَّةُ ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ ممَّا يختصُّ بِنا منَ العلمِ وهوَ الإِخبارُ عنِ الغُيوبِ. وقُرِئَ: «رَشَداً»[(٣)] ومعناهُ: علماً ذا رُشْدٍ أَرْشُدُ بهِ في ديني، و ﴿لَن تَسْتَطِيعَ﴾ نَفَى استطاعةَ الصبرِ معه علىٰ وجهِ التأكيدِ كأنَّـها مـمَّا لايصِحُّ ثبوتُه، وعلَّلَ ذلكَ بأنَّه يَأتي بما لايَعرِفُ هـوَ بـاطنَه ولا يـعلَمُ حـقيقَتَه

---

(١) وهي قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٩٢.

(٢) والكسائي وحده أثبتها في الوصل. راجع المصدر السابق.

(٣) قرأه أبو عمرو وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٩٤.

فظاهِرُهُ عندَه مُنكَرٌ، والخُبْرُ: العلمُ، و ﴿خُبْراً﴾ تمييزٌ، أي: ﴿لَمْ﴾ يُحِطْ ﴿بِهِ﴾ خُبْرُكَ. ﴿وَلَآ أَعْصِى﴾ في محلِّ نصبٍ عطفٌ علىٰ ﴿صَابِراً﴾ أي: ﴿سَتَجِدُنِىٓ﴾ صابراً وغيرَ عاصٍ، وعلَّقَ صبرَهُ بمشيئَةِ اللهِ علماً منه بشدّةِ الأمرِ. وقُرِئَ: «فَلَا تَسْئَلَنِّي» بالنونِ الثقيلةِ[١]، والمعنىٰ: أنَّ من شرطِ اتِّباعِكَ لي أن لاتَسْأَلَني ﴿عَن شَىْءٍ﴾ أفعَلُه ممَّا تُنكِرُه عليَّ إذ يَخفى عليكَ وجهُ حسنِه ﴿حَتَّىٰٓ﴾ أكونَ أنا مفسِّرَهُ ﴿لَكَ﴾ وهذا من أدبِ المتعلِّمِ على العالِمِ والمتبوعِ علىٰ التابعِ.

﴿فَانطَلَقَا﴾ علىٰ ساحلِ البحرِ يطلُبانِ السفينةَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ﴾ أَخَذَ الخَضِرُ الفَأْسَ فَخَرَقَ السفينةَ بأَنْ قلعَ لَوحَيْنِ ممَّا يلي الماءَ منها، فحَشاها موسىٰ بثوبِهِ وجعلَ يقولُ: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾، وقُرِئَ: «لِيُغَرِّقَ أَهْلَهَا»[٢]، ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾ أي: عظيماً، من قولِهم: أَمِرَ الأَمْرُ: إذا عظُمَ.

﴿بِمَا نَسِيتُ﴾ أي: بشيءٍ نسيتُهُ، أو بالَّذي نَسيتُهُ، أو بنِسياني، أَرادَ: أَنَّه نَسِيَ وصيَّتَه ولا مؤاخذةَ علَى الناسي، وعن أُبيٍّ: أنَّه لم يَنْسَ ولكنَّه من مَعاريضِ الكلام[٣]، أَرادَ: أنَّه أخرجَ الكلامَ في معرضِ النهي عنِ المؤاخذةِ بالنسيانِ يُوهِمُهُ أنَّه قد نسيَ، ويجوزُ أن يُريدَ بالنسيانِ: التركَ، أَي: ﴿لَاتُؤَاخِذْنِى بِمَا﴾ تركتُ من وصيَّتِكَ أوَّلَ مرَّةٍ ﴿وَلَا تُرْهِقْنِى﴾ أَي: لا تُكلِّفْني ﴿مِنْ أَمْرِى﴾ مَشقَّةً، وعامِلْني باليَسيرِ، ورَهِقَهُ: غَشِيَهُ، وأَرْهَقَهُ إيّاه، فكأَنَّه قالَ: ولا تُغْشني ﴿عُسْراً﴾ من أَمري وهو اتِّباعُهُ إيَّاهُ، وقُرِئَ: «عُسُراً» بضمَّتَينِ[٤].

---

(١) وهي قراءة نافع وابن عامر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥١٢.

(٢) قرأه الحسن وأبو رجاء. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٨٤.

(٣) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٢٥٨.

(٤) قرأه عيسىٰ ويحيىٰ بن وثاب وأبو جعفر المدني. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٨٤.

فَخَرَجَا مِنَ البحرِ وانْطَلَقَا يمشيانِ، فـ﴿لَقِيَا غُلَـٰماً فَقَتَلَهُ﴾ الخضِرُ، «زَاكِيَةً»[١] أَي: طاهِرَةً من الذنوبِ، وقُرِئَ: ﴿زَكِيَّةً﴾، ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: لمْ يَقتُلْ نفساً فيُقْتَصَّ[٢] منها ﴿نُكْراً﴾ أي: فظِيعاً مُنكَراً، وقُرِئَ بضمَّتَينِ[٣]، وفي زيادةِ ﴿لَكَ﴾ هنا زيادةُ العِتابِ علىٰ تركِ الوصيَّة.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْراً (٧٦) فَانْطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (٧٧) قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَالَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً (٧٨) أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (٧٩) وأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰناً وَكُفْراً (٨٠) فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْماً (٨١) وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً (٨٢)﴾

﴿بَعْدَهَا﴾ أَي: بعدَ هذِه المرَّةِ، أَو بعدَ المسأَلةِ ﴿فَلَا تُصَـٰحِبْنِى﴾ أي: فلا تُتابِعْني علىٰ صُحبتِكَ وإن طلبتُها، وقُرِئَ: «فلا تَصْحَبْني»[٤] أَي: فلا تكُنْ

(١) يبدو أنّ المصنّف قد اعتمد على هذه القراءة بالألف هنا تبعاً للكشّاف.

(٢) في نسخة: فتُقتصّ.

(٣) قرأه نافع برواية الأصمعي ويعقوب وأبو بكر عن عاصم وابن ذكوان عن ابن عامر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥١٣، والتبيان: ج ٧ ص ٧٣.

(٤) وهي قراءة عيسىٰ وابن عامر في رواية. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٨٤.

صاحبي ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْراً﴾ أي: قد أعذَرْتَ فيما بيني وبينَكَ إذ أخبَرْتَني أن لا أستطيعَ مَعَكَ صبراً.

وعن النبيِّ ﷺ: «ٱستَحْيَا نَبِيُّ اللهِ موسى، فلو صَبَر لرأىٰ ألفاً من العجائبِ»(١).

وقُرِئَ: «مِنْ لَّدُنِي» بتخفيفِ النُّونِ(٢). ﴿أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ هيَ أنطاكيةُ، وقيل: أَيْلَةُ(٣)، وقيلَ: قريةٌ علىٰ ساحلِ البحرِ تُسمَّىٰ ناصرةً(٤) ﴿أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ أي: لم يُضِفْهما أحدٌ من أهلِها، والتضييفُ والإضافةُ بمعنىً، وعنِ النبيِّ ﷺ: «كانُوا أهلَ قريةٍ لِئَاماً»(٥)، وقيلَ: شَرُّ القُرىٰ: الَّتي لا يُضافُ الضيفُ فيها، ولا يُعرَفُ لابنِ السبيلِ حقُّه(٦) ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي: أشرفَ على أن يَنْهَدِمَ، ٱستُعِيرتِ الإرادةُ للمشارَفةِ والقُربِ كما ٱستُعِيرَ الهمُّ والعَزْمُ لذلكَ، قالَ:

يريدُ الرُّمحُ صدرَ أَبي بَراءٍ ... ويَرغَبُ عن دِماءِ بني عقيلِ(٧)

وقالَ حسَّانُ:

إنَّ دهراً يلفُّ شَمْلِي بجُملٍ ... لزمانٌ يَهُمُّ بالإحسانِ(٨)

وٱنقضَّ: أَسرعَ سقوطُه، وهوَ انفعَلَ مطاوِعُ قضَضْتُهُ(٩)، وقيلَ: هو افعَلَّ من

---

(١) رواه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٧٥.

(٢) وهي قراءة نافع والأعشىٰ. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥١٣.

(٣) قاله قتادة وابن سيرين. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٧٥، وتفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٣٠ وفيه: «الأُبلة».

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره: ج ١١ ص ٢٤ ونسبه الى الثعلبي.

(٥) أخرجه السيوطي في الدر: ج ٥ ص ٤٢٧ وعزاه الى الديلمي عن أُبيّ بن كعب عنه ﷺ.

(٦) وهو قول قتادة. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٧٥.

(٧) لم نعثر على قائله فيما توفّرت لدينا من مصادر معتمدة، إلّا صاحب مجاز القرآن فقد نسبه الى الحارثي ولم يبيّن من هو، ومعناه واضح. راجع مجاز القرآن لأبي عبيدة: ج ١ ص ٤١٠.

(٨) وفيه تشبيه الزمان بانسانٍ يصحّ منه إرادة الإحسان على طريق المكنية، والهمّ في هذا البيت تخييل أو هو من باب المجاز العقلي. انظر ديوان حسّان بن ثابت: ج ١ ص ٥١٧.

(٩) في نسخة: نقضته.

النقضِ كاحمَرَّ من الحُمْرَةِ[١] ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ بيدِه، وقيلَ: مسحَهُ بيدِه فقامَ واسْتَوى[٢]، ولمَّا أَقامَ الجدارَ وكانت الحالُ حالَ افتقارٍ إلى المَطْعَمِ ولم يجدا مُواسِياً، لَم يَمْلِكْ موسىٰ نفسَه أَنْ ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ﴾ ٱتَّخَذْتَ ﴿عَلَيْهِ أَجْراً﴾ حتَّىٰ نَسُدَّ به جَوْعَتَنا[٣]، وقُرِئَ: «لَتَخِذْتَ»[٤] والتاءُ من «تَخِذْتَ» أَصلٌ، «اتَّخَذَ» افتعَلَ منه كـ«اتَّبَعَ» من «تَبِعَ» وليس من الأَخذِ في شيءٍ.

﴿قَالَ هَٰذَا﴾ أَي: الاعتراضُ سببُ الفِراقِ، والأَصلُ: هَذَا فِرَاقٌ بَيْنِي وبَيْنَكَ، فأَضافَ المصدرَ إلىٰ الظرفِ كما يُضافُ إلى المفعولِ به ﴿لِمَسَٰكِينَ﴾ لفقراءَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بها ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ ويتعَيَّشُونَ بها ﴿وَرَآءَهُم﴾ أَمامَهم كقولِهِ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾[٥]، وقيل: خَلْفَهم[٦]، وكان طريقُهم في رجوعِهم عليه، وما كان عندَهم خبرُهُ فأَعلمَ ٱللهُ به الخَضِرَ وهو جُلَنْدَى[٧]، وقَرَأَ أُبَيٌّ وعبدُ ٱللهِ[٨]: «كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْباً»[٩]، وقَرأَ أُبَيٌّ وابنُ عبَّاس: «وأَمَّا ٱلْغُلَامُ فَكانَ كَافِراً

---

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٧٣٩ ـ ٧٤٠.

(٢) قاله سعيد بن جبير على ماحكاه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ١٧٥.

(٣) في بعض النسخ: جوعنا.

(٤) وهي قراءة ابن كثير والبصريين. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥١٤.

(٥) المؤمنون: ١٠٠.

(٦) قاله الزجاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ٣٠٥.

(٧) وجُلَنْدىٰ: اسم ملك عمان. أنظر الصحاح: مادة «جلد».

(٨) والمراد به عبد الله بن مسعود بن غافل؛ أبو عبد الرحمن، من أكابر الصحابة والسابقين في الاسلام، أمّره عثمان على الكوفة في خلافته ثم عزله وأمره بالرجوع الى المدينة، ثم جعله القيّم على بيت المال، ثم استعفاه لخلافٍ حدث بينه وبينه فأعفاه وأخذ منه مفاتيح بيت المال، توفّي في خلافة عثمان ـ أثر كسر ضلع حدث به بعد أن داسه الخليفة برجليه ـ عن نحو ستين عاماً. أنظر الإصابة: ج ٢ ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩، والاستيعاب: ج ٣ ص ٩٨٧ ـ ٩٩٤.

(٩) حكاه عنهما الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٨٠.

وَأَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ»(١) وكلاهُما قِراءَةُ أَهلِ البيتِ عليهم السلام(٢)، ﴿فَخَشِينَآ﴾ أَي: فَخِفْنَا ﴿أَن﴾ يُغْشِيَ الوالدَينِ المُؤمنَينِ ﴿طُغْيَـٰناً﴾ عليهما ﴿وَكُفْراً﴾ لِنعمتِهما بعقوقِهِ وسوءِ صنيعِهِ، ويُلحِقَ بهما بلاءً، أَو يعذِّبُهما برأيه(٣) فيَحْمِلَهما على الطغيانِ والكُفرانِ. وقُرِئَ: ﴿يُبْدِلَهُمَا﴾ بالتشديدِ(٤) والتخفيفِ، والزكاةُ: الطهارةُ والنقاءُ من الذنوبِ، والرُحْمُ: الرحمةُ والعطفُ.

الصادقُ عليه السلام: «إنَّهما أَبدلا بالغلامِ المقتولِ جاريةً فوَلَدَتْ سبعين نبيّاً»(٥).

واختُلِفَ في الكنزِ، فقيل: مالٌ مدفونٌ من الذهَبِ والفضَّةِ(٦)، وقيل: كُتبُ علمٍ مدفونةٌ(٧)، وقيل: لوحٌ من ذَهبٍ مكتوبٌ فيه: «عجباً لِمَن يؤمِنُ بالقَدَرِ كيف يَحزَنُ، عجباً لمن أَيقَنَ بالرزقِ كيف يَتْعَبُ، عجباً لمن أَيقَنَ بالموتِ كيف يفرَحُ، عجباً لمن يُؤمِنُ بالحسابِ كيف يَغْفُلُ، عجباً لمن رأى الدُّنيا وتقَلُّبَها بأَهلِها كيف يَطْمئِنُّ إليها لا إلهَ إلَّا اللهُ محمَّدٌ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله»(٨).

الصادقُ عليه السلام: «إنَّه كانَ بينَهما وبينَ ذلك الأَبِ الصالحِ سبعَةُ آباءٍ»(٩).

---

(١) حكاها الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٣٣٤، والبغوي في تفسيره: ج ٣ ص ١٧٦ وفيهما: وكانَ أَبواه.

(٢) انظر تفسير العياشي: ج ٢ ص ٣٣٥ و٣٣٦ ح ٥٤ و٥٥.

(٣) في بعض النسخ: بدائه.

(٤) وهي قراءة نافع وأبي عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٩٧.

(٥) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ ح ٦٠ و٦١.

(٦) قاله عكرمة وقتادة. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٣٦.

(٧) قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٣٦.

(٨) وهو قول ابن عباس وعكرمة وعمر مولى غُفرة والحسن، ورواه عثمان بن عفان وأنس عن النبي صلى الله عليه وآله. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٣٦، وتفسير القرطبي: ج ١١ ص ٣٨. وفي تفسير القمي: ج ٢ ص ٤٠ باسناده عن معاوية بن عمّار عن الصادق عليه السلام.

(٩) حكاه عنه عليه السلام الرازي في تفسيره: ج ٢١ ص ١٦٢.

﴿رَحْمَةً﴾ مفعولٌ له، أَو مصدرٌ منصوبٌ بـ﴿أَرَادَ رَبُّكَ﴾ لأَنَّه في معنىٰ «رَحِمَهُما»، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ﴾ مارأَيتُ ﴿عَنْ أَمْرِى﴾ أَي: عن اجتهادي ورأْيي، وإِنَّما فعلتُه بأَمرِ ٱللهِ، وفي قراءَةِ عليٍّ عليه السلام: «وَمَا فَعَلْتُهُ يَا مُوسَىٰ عَنْ أَمْرِي».

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَباً (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَباً (٨٥) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً (٨٧) وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً فَلَهُ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٨٩) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٩٢)﴾

﴿ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ هو الإِسكندرُ ٱلَّذي ملَكَ الدنيا، وقيلَ: مَلكَ الدنيا مُؤمنانِ: ذُو القرنينِ وسليمانُ، وكافرانِ: نُمرودُ وبُخْتُ نَصَّرَ[1]. واختُلِفَ فيه[2] فقيلَ: كان عبداً صالحاً أَعطاه ٱللهُ العلمَ والحكمةَ وملَّكهُ الأَرضَ[3]، وقيلَ: كان نبيّاً فَتَحَ ٱللهُ علىٰ يديهِ الأَرضَ[4].

وعن عليٍّ عليه السلام: «كان عبداً صالحاً ضُرِبَ علىٰ قَرْنِهِ الأَيمَنِ في طاعةِ ٱللهِ

---

(١) قاله مجاهد في تفسيره: ص ٤٥٠.

(٢) أي بذي القرنين.

(٣) وهو قول علي عليه السلام على ماحكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٣٣٧.

(٤) وهو قول عكرمة ومجاهد عن ابن عمر وابن العاص. راجع تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٣١٠.

فماتَ، ثُمَّ بعَثَهُ ٱللهُ فضَرِبَ علىٰ قرنِهِ الأَيسَرِ فماتَ فبعَثَهُ ٱللهُ، فسُمِّيَ ذَا القَرْنَينِ، وفيكم مثلُهُ»[1].

وقيلَ: سُمِّيَ ذا القرنينِ لأنَّـه قد بلَغَ قُطْرَي الأَرضِ من المشرقِ والمغربِ[2]، وقيلَ: كان لتاجِهِ قرنانِ[3]، والسائلُونَ: همُ اليهودُ، سأَلوه على وجهِ الامـتحانِ، وقيلَ: سأَله أَبو جهلٍ وأَشياعُه[4] ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن﴾ أَسبابِ ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ أَرادَهُ من أَغراضِهِ ومقاصِدِهِ في مُلكِهِ ﴿سَبَبًا﴾ طريقاً مـوصلاً إليـه، فأَرادَ بـلوغَ المـغربِ «فاتَّبَعَ سَبَباً» يُوصِلُهُ إليه حتَّىٰ بلَغَ، وكذلك أَرادَ المشرقَ «فَاتَّبَعَ سبَبَاً» وأَرادَ بلوغَ السدَّيْنِ «فَاتَّبَعَ سَبَباً»[5]، وقُرِئَ: ﴿فَأَتْبَعَ﴾ بقطعِ الهمزةِ، أَي: فأَتبعَ أَمرَهُ سبباً، أَو أَتبعَ ماهو عليه سبباً.

وقُرِئَ: ﴿حَمِئَةٍ﴾ من حَمِئَتِ البِئرُ: إِذا صارَت فيها الحَمْأَةُ[6]، و «حَامِيَةٍ»[7] أَي: حارَّةٍ ﴿وَوَجَدَ﴾ عندَ العَيْنِ ناساً كانُوا كفَرَةً، فخيَّرهُ ٱللهُ بينَ أَن يُعذِّبَهُم بالقتلِ وأَن يدعُوَهم إِلى الإِسلامِ فاختارَ دعوَتَهم واستمالَتَهم، فـ﴿قَالَ أَمَّا مَن﴾ دَعوتَه فَأَبىٰ إِلَّا البقاءَ علىٰ أَعظمِ الظلمِ وهو الكـفرُ فـذاك هـو المـعذَّبُ فـي الدارَيـنِ

(١) حكاه عنهعليه السلام الزمخشري فـي الكشّـاف: ج ٢ ص ٧٤٣، والرازي فـي تـفسيره: ج ٢١ ص ١٦٤.

(٢) وهو قول الزهري. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٣٧.

(٣) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٧٤٣.

(٤) وهو ماورواه القمي في تفسيره: ج ٢ ص ٣١ و ٤٠ بإسناده عـن الصـادقعليه السلام، وإليـه ذهب محمد بن إسحاق على ماحكاه عنه الرازي في تفسيره: ج ٢١ ص ٨٢ و ١٦٤.

(٥) الظاهر أنّ القراءة المعتمدة عند المصنّف هنا بوصل الهمزة وتشديد التاء المفتوحة.

(٦) الحمأة: الطين الأسود. (الصحاح: مادة حمأ).

(٧) وهي قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم برواية أبي بكر. راجع كتاب السبعة فـي القراءات لابن مجاهد: ص ٣٩٨.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَ﴾ أَصلَحَ «فَلَهُ جَزَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ»[١] أَي: جزاءُ الفِعلةِ الحُسْنَى، وقُرِئَ: ﴿جَزَآءً﴾ بالنصبِ والتنوينِ، ومعناه: فلَه المَثوبَةُ الحُسنَىٰ جزاءً أَي: مَجزيَّةً، فهو مصدرٌ وُضِعَ موضِعَ الحالِ ﴿مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾ أَي: لا نَأْمُرُه بالصعبِ الشاقِّ ولكِن بالسهلِ المُتَيسِّرِ من الخراجِ وغيرِ ذلك، وتقديرُهُ: ذا يُسرٍ.

وقُرِئَ: ﴿مَطْلَعَ﴾ بفتحِ اللامِ[٢] وكسرِها وهو مصدَرٌ، والمعنىٰ: ﴿بَلَغَ﴾ مكانَ مطلعِ ٱلشمسِ ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً﴾ لم يَكُن بها جبَلٌ ولا شجَرٌ ولا بِناءٌ، وعن كَعْبٍ: كان أَرضُهم لاتُمسِكُ الأَبنيةَ وبها أَسرابٌ، فإذا طَلَعتِ الشمسُ دَخَلُوها، فإذا غَرَبَتْ تصرَّفُوا في أُمورِهم ومعايِشِهِمْ[٣]، وقيلَ: السترُ: اللباسُ[٤]، وعن مُجاهدٍ: مَنْ لا يلبَسُ الثيابَ من السودانِ عندَ مطلِعِ الشمس أَكثرُ من جميعِ أَهلِ الأَرضِ[٥].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَي: أَمر ذِي القرنينِ كذلك، أَي: كما وصَفْناه تعظيماً لأَمرِهِ ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الجنودِ والآلاتِ وأَسبابِ المُلكِ ﴿خُبْراً﴾ أَي: علماً تكثيراً لذلك، وقيلَ: يُريدُ ﴿بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ مثلَ ذلك أَي: كما بلَغَ مغرِبَها[٦]، وقيلَ: تَطْلُعُ علىٰ قومٍ مثلِ ذلك القبيلِ الَّذي تَغرُبُ عليهم[٧]، ومعناه: أَنَّهم كَفَرَةٌ مثلُهم، وحكمُهم مثلُ حكمِهم في تعذيبِهِ لمن بَقِيَ منهم على الكُفرِ وإحسانِهِ إلىٰ مَن آمنَ منهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لَّايَكَادُونَ يَفْقَهُونَ

(١) يبدو جلياً أنّ المصنّف ﷺ قد اعتمد هنا على هذه القراءة أي بالرفع من غير تنوين.
(٢) قرأه ابن كثير برواية شبل وعيسىٰ وابن محيصن. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٨٥.
(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٧٤٥.
(٤) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٢٥٢.
(٥) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٢ ص ٧٤٥.
(٦) قاله السمرقندي في تفسيره: ج ٢ ص ٣١١.
(٧) وهو قول الزجّاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ٣٠٩.

قَوْلاً (٩٣) قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً (٩٥) ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (٩٦) فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُ نَقْباً (٩٧) قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقّاً (٩٨) ﴾

السدَّانِ: جبَلانِ سَدَّ ذو القرنينِ ما بينَهما، وقُرِئَ: بالضمِّ(١) والفتحِ، وقيلَ: ماكانَ من عملِ العبادِ فهو مفتوحٌ، وما كانَ من خلقِ ٱللهِ فهو مضمومٌ؛ لأَنَّه فُعْلٌ بمعنىٰ مفعولٍ فعَلَهُ ٱللهُ وخلَقَهُ، والمفتوح مصدرٌ فهو حَدَثٌ يُحدِثُهُ الناسُ(٢)، و﴿بَيْنَ﴾ ٱنتصَبَ علىٰ أنَّه مفعولٌ به، كما ٱنجرَّ بالإضافةِ في قولِهِ: ﴿هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾(٣)، وهذا المكانُ في مُنْقطَعِ أَرضِ التُركِ ممَّا يلي المشرقَ ﴿مِن دُونِهِمَا قَوْماً﴾ قيلَ: هم التُركُ(٤) ﴿لَّايَكَـٰدُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ أَي: لايكادُونَ يَفهَمُونَه إلَّا بجَهْدٍ ومَشقَّةٍ من إشارةٍ ونحوِها، وقُرِئَ: «يُفْقِهُونَ»(٥) أَي: لايُفْهِمُونَ السامعَ كلامَهم ولا يُبيِّنُونَه؛ لأَنَّ لغتَهم غريبةٌ مجهولةٌ.

﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ ٱسمانِ أَعجميَّانِ، وقُرِئَا: بالهمزةِ ﴿مُفْسِدُونَ فِى

(١) قرأه حمزة والكسائي ونافع وعاصم برواية أبي بكر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٣٩٩.

(٢) وهو قول عكرمة وأبي عبيدة. راجع مجاز القرآن لأبي عبيدة: ج ١ ص ٤١٤، والتبيان: ج ٧ ص ٨٩.

(٣) الآية: ٧٨.

(٤) قاله السدي والضحاك. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٨٠.

(٥) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع العنوان في القراءات السبع لابن خلف: ص ١٢٤.

ٱلْأَرْضِ﴾ قيلَ: كانوا يأكُلُونَ الناسَ [١]، وقيلَ: كانوا يَخرُجُونَ أَيّامَ الربيعِ فلا يَتركُونَ شيئاً أَخضَرَ إِلَّا أَكَلُوه ولا يابساً إِلَّا ٱحتَمَلُوهُ [٢] [٣].

وعن النبيِّ صلى الله عليه وآله في صفتهم: «أَنّه لايموتُ أَحدٌ منهم حتَّىٰ ينظُرَ إِلىٰ أَلفِ ذَكَرٍ من صُلبِه كُلُّهم قد حَمَلَ السلاحَ» [٤].

وقيلَ: إِنَّهم صنفانِ: طِوالٌ مُفرِطُو الطُولِ وقِصارٌ مُفرِطُو القِصَرِ [٥].

وقُرِئَ: ﴿خَرْجاً﴾ و «خَرَاجاً» [٦] أَي: جُعْلاً نُخرِجُه من أَموالِنا، ونظيرُهما النَوْلُ والنَوالُ.

﴿مَا مَكَّنِّى ... رَبِّى﴾ أَي: ماجَعَلَني رَبِّي فِيهِ مكيناً من كَثرةِ المالِ واليسارِ ﴿خَيْرٌ﴾ مِمَّا تَبذلُونَه من الخَراجِ فلا حاجةَ بي إِليه، وقُرئَ: بالإِدغامِ وفكِّه [٧] ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾ أَي: برجالٍ وصُنّاعٍ يُحسِنُون البناءَ وبالآلاتِ ﴿رَدْماً﴾ أَي: حاجزاً حصيناً، وَالرَدْمُ: أَكبرُ من السدِّ، قيل: حَفَرَ الأَساسَ حتَّىٰ بلَغَ الماءَ، وجعَلَ الأَساسَ من الصخرِ والنحاسِ المُذابِ، والبُنْيانَ من ﴿زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ بينَهما الحَطَبُ والفَحْمُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ سَدَّ ما ﴿بَيْنَ﴾ الجبلَينِ إِلىٰ أَعلاهُما، ثم وضَعَ المَنافِيخَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ صارَتْ كالنارِ صَبَّ النُحاسَ المُذابَ على الحديدِ المُحْمَىٰ فالتصَقَ

---

(١) قاله سعيد بن جبير. راجع التبيان: ج ٧ ص ٩١، وفي تفسير الطبري: ج ٨ ص ٢٧٩ نسبه الى سعيد بن عبد العزيز.

(٢) في نسخة: حملوه.

(٣) قاله الكلبي. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٨١ و ١٨٢.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٢٨٤ باسناده عن أبي سعيد الخدري عنه صلى الله عليه وآله باختلاف يسير لايضرّ.

(٥) حكاه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ١٨١ ونسبه الى علي عليه السلام.

(٦) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٠٠.

(٧) قرأ ابن كثير وحده بالتفكيك ـ أي: بنونين ـ والباقون بالادغام. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥١٦.

بعضُه ببعضٍ وصار جبلاً صَلْداً[١]، والصَدَفانِ بفتحتَين: جانبا الجبلينِ؛ لأنَّـهما يَتصادَفانِ أَي: يَتقابَلانِ، وقُرِئَ: «الصُدُفَيْنِ» بـضمَّتينِ[٢] وبـضمَّةٍ وسكـونٍ[٣]، وٱلْقِطْرُ: النُحاسُ المُذابُ، و ﴿قِطْراً﴾ منصوبٌ بـ﴿أُفْرِغْ﴾ وتقديرُه: ﴿ءَاتُونِىٓ﴾ قِطراً أُفرِغْ عَلَيه قِطْراً، فحُذِفَ الأَوَّلُ لدَلالةِ الثاني عليه، وقُرِئَ: «قَالَ ٱئْتُونِي»[٤] جِيئوني.

﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟﴾ بحذفِ التاءِ للخفَّةِ، وقُرِئَ: «فما ٱصطَاعُوا» بـقلبِ السـينِ صاداً[٥] ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أَن يَعْلُوه، أَي: لا حيلةَ لهم في صُعُودِهِ لارتفاعِهِ ومَلاستِهِ، ولا في نَقْبِهِ لصَلابتِهِ وثَخانتِهِ.

﴿هَـٰذَا﴾ إشارةٌ إِلى السدِّ، أَي: هذا السدُّ نعْمَةٌ ﴿مِّن﴾ ٱللهِ وَ ﴿رَحْمَةٌ﴾ علىٰ عبادِهِ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى﴾ أَي: دَنَا مجيءُ يومِ القيامةِ جَعَلَ السدَّ «دَكّاً»[٦] أَي: مدكُوكاً مبسوطاً مُسوّىً بالأَرضِ، وكلُّ ما انبسَط بعدَ ارتفاعٍ فقد ٱندَكَّ، وقُـرِئَ: ﴿دَكَّآءَ﴾ بالمدِّ، أَي: أَرضاً مُستويةً ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقّاً﴾ هذا آخِرُ حكايةِ قولِ ذي القرنَينِ.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعاً (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضاً (١٠٠) ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً (١٠١) أَفَحَسِبَ

---

(١) أُنظر تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٨٢.

(٢) قرأه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. راجع الكشف عن وجوه القراءات للقيسي: ج ٢ ص ٧٩.

(٣) وهي قراءة عاصم برواية أبي بكر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٠١.

(٤) قرأه حمزة وعاصم برواية أبي بكر. راجع المصدر السابق.

(٥) وهي قراءة الأعشىٰ على ماحكاه عنه ابن غلبون في تذكرته: ج ٢ ص ٥١٨.

(٦) يبدو واضحاً أنّ المصنّف اعتمد هنا على القراءة بالقصر تبعاً للكشّاف، وهي قراءة المشهور غير الكوفيّين.

ﭐلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلاً (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلاً (١٠٣) ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (١٠٤) أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْناً (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُواً (١٠٦) ﴾

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ أي: وجعلْنا بعضَ الخلقِ يومَ خروجِ يأجوجَ ومأجوجَ ﴿يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾ أي: يضطَرِبُونَ ويختَلِطونَ إنسهم وجِنُّهم حيارَىٰ، أو يكونُ الضميرُ ليأجوجَ ومأجوجَ وأنَّهم يموجونَ حينَ يخرجُونَ ممَّا وراءَ السدِّ مُزدَحِمينَ في البلادِ.

وقد رُوِيَ: أنَّهم يأتونَ البحرَ فيشربونَ ماءَهُ ويأكُلون دوابَّه، ثُمَّ يأكُلونَ الشجرَ ومَن ظَفِرُوا به ممَّن لم يتحصَّنْ منهم من الناسِ، ثُمَّ يَبعَثُ ٱللهُ نَغَفاً[1] في أقفائهم فتدخلُ آذانَهم فيهلكُونَ بها[2].

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ وأبرزناها لهم فرأَوها وشاهَدُوها.

﴿عَن ذِكْرِى﴾ عن آياتي والتفكُّرِ فيها، ونحوُهُ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾[3].

﴿وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾ أي: وكانوا صُمّاً عنه.

وقِراءَةُ أميرِ المُؤمنينَ عليه السلام: «أَفَحَسْبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا»[4] أي: أفكافِيهم ومُحسِبُهم ﴿أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ وهم الملائكةُ، فهو مبتدأٌ وخبرٌ،

(١) النَغَف: نوعٌ من الدود يكون في أُنوف الإبل والغنم. (الصحاح: مادة نغف).

(٢) قاله وهب. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٨٤.

(٣) البقرة: ١٨.

(٤) حكاه الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٩٦، وابن خالويه في شواذ القرآن: ص ٨٥.

أَوبمنزلةِ الفعلِ والفاعلِ؛ لأَنَّ اَسمَ الفاعلِ إذا اعتَمَدَ على الهمزةِ ساوىٰ الفعلَ في العملِ، كقولِك: أَقائمُ الزيدانِ، والمعنىٰ: أَنَّ ذلك لايَكفِيهِمْ ولا يَنْفَعُهُمْ عندَ ٱللهِ كما حَسِبُوا.

وأَمَّا القِراءَةُ المشهورةُ فمعناها: أَفحسِبُوا أَن يتَّخذُوهم من دوني أَرباباً ينصُرُونَهم، أَي: لايكونون لهم أَولياءَ ناصرينَ، و النُزُلُ: مايُقامُ للنزيلِ وهو الضيفُ، ونحوُه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ أَي: ضَاعَ وبطَلَ عملُهم، وهمُ الرُهبانُ ﴿وَهُمْ﴾ يَظُنُّون ﴿أَنَّهُمْ﴾ مُحْسِنُونَ، وأَنَّ أَفعالَهم طاعةٌ وقُربةٌ. وعن عليٍّ عليه السلام: هو كقولِهِ: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾[2] وقال: «منهم أَهلُ حَرُوراءَ»[3][4].

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْناً﴾ أَي: لايكونُ لهم عندنَا وزنٌ ومقدارٌ، ونَزْدَري بهم[5].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَايَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً (١٠٨) قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً (١٠٩) قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَـٰلِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠)﴾

---

(١) آل عمران: ٢١. 	(٢) الغاشية: ٣.

(٣) حَرَوراء: هو موضع علىٰ ميلين من الكوفة، نزل به الخوارج الذين خالفوا أمير المؤمنين علي عليه السلام فنُسبوا إليها. وبها كان أول تحكيمهم واجتماعهم حين خالفوه عليه السلام. اُنظر معجم البلدان للحموي: ج ٢ ص ٢٤٦.

(٤) التبيان: ج ٧ ص ٩٧ وزاد: وسأله ابن الكوّا عن ذلك، فقال عليه السلام: أنت وأصحابك منهم.

(٥) وفي بعض النسخ زيادة: أعينهم.

الحِوَلُ: التَحوُّل [١]، يقالُ: حالَ عن مكانِهِ حِوَلاً، كما قالوا: عادَني حُبُّها عِوَداً، أَي: لا يطْلُبُونَ تحوُّلاً ﴿عَنْهَا﴾ إلىٰ موضعٍ آخرَ لكمالِ طيبِها.

المِدَادُ: اسمُ مايُمَدُّ به الدواةُ، والمعنىٰ: ﴿لَوْ﴾ كُتِبَتْ كَلِمَاتُ علمِ ٱللهِ وحكمتِهِ و ﴿كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً﴾ لها، والمرادُ بالبحرِ: الجنسُ ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ﴾ الـ﴿كَلِمَـٰتُ﴾، ﴿وَلَوْ جِئْنَا﴾ بمثلِ البَحرِ مداداً لَنَفِدَ أيضاً والكلماتُ لاتَنْفَدُ، و ﴿مَدَداً﴾ تمييزٌ، كقولِك: لي مثلُه رجلاً، والمدَدُ مثلُ المِدادِ: وهو مايُمَدُّ به، وقُرِئَ: «يَنْفَدَ» بالياءِ [٢].

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ أَي: يَأْمُلُ حُسنَ ﴿لِقَآءَ رَبِّهِ﴾ وأَن يلقَاه لقاءَ رضاً وقبولٍ، أَو: فَمَنْ كانَ يخافُ سوءَ لقائه، والمرادُ بالنهي عن الإِشراكِ بالعبادةِ: أَن لايُرائيَ بعملِهِ، وأَن لا يبتَغِيَ به إِلَّا وجهَ ربِّه خالصاً لايُريدُ به غيرَه.

وعن النبيِّ ﷺ قالَ: «قالَ ٱللهُ عزَّوجلَّ: أَنَا أَغْنَى الشركاءِ عنِ الشِركِ، فمن عَمِلَ عملاً أَشركَ فيه غيرِي فأَنَا منه بريءٌ، فهو للَّذي أَشْرَكَ» [٣].

وعنِ الصادقِ عليه السلام: «ما من أَحدٍ يقرَأُ آخِرَ الكهفِ عند النومِ إِلَّا تَيَقَّظَ في الساعةِ الَّتي يريدُها» [٤] [٥].

❁ ❁ ❁

---

(١) في نسخة زيادة: الحول والتحوّل بمعنىً.

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٠٢.

(٣) صحيح مسلم: ج ٤ ص ٢٢٨٩ ح ٢٩٨٥ وفيه بعد «غيري»: تركته وشركه، سنن ابن ماجة: ج ٢ ص ١٤٠٥ ح ٤٢٠٢.

(٤) أُصول الكافي: ج ٢ ص ٥٤٠ ح ١٧.

(٥) إلىٰ هنا يتمّ الجزء الأوّل من الكتاب حسب تجزئة المصنّف رحمه الله علىٰ مايبدو من النسخ، حيث ورد في بعضها: «تمّ الجلد الأوّل من تفسير الجامع للشيخ الجليل أمين الاسلام الفضل ابن الحسن الطبرسي روّح الله روحه»، وفي بعضها «تمّ الجلد الأوّل من تفسير جوامع الجامع ... الخ»، وفي بعضها زيادة: «والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على خير خلقه محمد وآله الطاهرين» قبل عبارة: «تم الجلد الأول ... الخ».

سورةُ مريم

مكِّيةٌ[1]، ثمانٍ وتسعون آية، عدَّ الكوفي ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ آيةً ولم يَعُدَّها غيرُهم، ولم يَعُدُّوا ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ﴾[2] وعدَّها غيرُهم.

وفي حديثِ أُبيٍّ: «من قرأها أُعطِيَ من الأَجرِ بعددِ كل من صدَّقَ بزَكَرِيَّا ويحيَىٰ ومريمَ وعيسىٰ وموسىٰ وهارونَ وإِبراهيمَ وإِسحاقَ ويعقوبَ وإِسماعيلَ عَشْرَ حسناتٍ»[3] الخبر بتمامِهِ.

وعنِ الصادقِ عليه السلام: «من أَدْمَنَ قِراءَةَ سورةِ مريمَ عليها السلام لم يَمُتْ في الدنيا حتَّىٰ يُصيبَ منها مايُغْنِيهِ في نفسِهِ ومالِه وولدِهِ، وأُعطِيَ في الآخرةِ مثلَ مُلكِ سليمانَ بن داود في الدنيا»[4] [5].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ١٠١: هي مكية في قول قتادة ومجاهد، وهي ثمان وتسعون آية في المدني الأول والكوفي والبصري والشامي، وتسع وتسعون في المكي والمدني الأخير وفي عدد اسماعيل.

وقال الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣: مكية إلّا آيتي ٥٨ و ٧١ فمدنيتان، وآياتها ٩٨، نزلت بعد سورة فاطر.

وقال القرطبي في تفسيره: ج ١١ ص ٧٢: وهي مكية باجماع، وهي تسعون وثمان آيات.

(٢) الآية: ٧٥.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٨ باختلاف يسير، وزاد: «وعشر حسنات بعدد من دعا الله في الدنيا وبعدد من لم يدع الله».

(٤) في بعض النسخ زيادة: صدق ولي الله.

(٥) ←

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً
خَفِيّاً (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن
بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً (٤) وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى
عَاقِراً فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً (٥) يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ
رَبِّ رَضِيّاً (٦) يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ
سَمِيّاً (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ
مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيّاً (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ
وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا (٩)﴾

قرأَ أبو عمرو[1] بإمالةِ ﴿هـ﴾ وتفخيم ﴿يـ﴾[2]، وقُرِئَ علىٰ عكسِهِ[3]، وقُرِئَ بإمالتِهما[4]. أي: هذا ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ زَكَرِيَّا ﴿عَبْدَهُۥ﴾، فـ﴿ذِكْرُ﴾ مضافٌ إلىٰ المفعولِ، و ﴿رَحْمَتِ﴾ مضافٌ إلى الفاعلِ، وانتصبَ ﴿عَبْدَهُۥ﴾ لأنّه مفعولُ ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾، والرحمةُ: إجابتُهُ إيّاهُ حينَ دَعَاه وسأَله الولدَ.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً﴾ أَي: دَعَا ربَّه دعاءً ﴿خَفِيّاً﴾ يُخفيهِ في نفسِهِ.

← (٥) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٤ ح ١ وزاد بعد «وولده»: وكان في الآخرة من أصحاب عيسىٰ بن مريم عليه السلام.

(١) وهو أبو عمرو زبان بن العلاء البصري القارئ. تقدّمت ترجمته في ج ١ ص ٢٦، فراجع.

(٢) انظر التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٣.

(٣) وهي قراءة ابن عامر وحمزة. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٠٦.

(٤) وهي قراءة يحيىٰ والكسائي وأبي بكر عن عاصم. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٣.

وفي الحديثِ: «خيرُ الدعاءِ الخَفِيُّ»[١].

وعن الحسنِ: نداءً[٢] لا رياءَ فيه[٣]، أو أخفاه لئلّا يُلامَ في طلبِ الولدِ وقتَ الشيخوخةِ، وأضافَ الوَهْنَ إلىٰ ﴿ٱلْعَظْم﴾ لأنَّ به قِوامُ البدنِ، فإذا ﴿وَهَنَ﴾ تساقطتْ قوَّتُه، واللامُ للجنسِ، يعني: أنَّ هذا الجنسَ الَّذي هو العَمودُ والقِوامُ قد أصابَه الوَهْنُ، وشَبَّهَ الشيبَ بشُواظِ النارِ في بياضِه، وانتشارَهُ في الشعرِ باشتعالِ النارِ، وأَسنَدَ الاشتعالَ إلىٰ مكانِ الشعرِ ومنبِتِهِ وهو ﴿ٱلرَّأْسُ﴾ وجعلَ «الشيْبَ» مميِّزاً، ولم يَقُلْ: «رأسي» اكتفاءً بعلمِ المخاطَبِ أنَّه رأسُهُ، ثُمَّ توسَّل إليه سبحانه بما سَلَفَ له معه من الاستجابةِ.

و ﴿ٱلْمَوَٰلِيَ﴾: هم العُمومةُ وبَنُو العمِّ ﴿مِن وَرَآءِى﴾ أي: مِن بعدَ موتي، وقرأ عليُّ بن الحسينِ ومحمَّدُ بن عليٍّ عليهما السلام: «خَفَّتِ ٱلْمَوَالِي مِن ورائي»[٤]، ومعناه: قَلَّ بنو عمِّي وأهلي ومَنْ أُخَلِّفُه من بعدِي ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى﴾ عقيماً لا تلِدُ ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ أي: ولداً يَليني ويكونُ أولىٰ بميراثي، وقولُه: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ تأكيدٌ لكونه ﴿وَلِيًّا﴾ مرضيّاً بكونه مضافاً إلى ٱللهِ وصادراً من عندِهِ.

﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ﴾ بالجزمِ[٥] على الجوابِ للدعاءِ، وبالرفعِ على الصفةِ، كقولِه: ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾[٦] وقرأ عليٌّ عليه السلام وابنُ عبَّاس وجعفرُ بنُ محمَّدٍ عليه السلام والحسنُ

(١) مسند أحمد: ج ١ ص ١٧٢ و ١٨٠ و ١٨٧، المصنَّف لابن أبي شيبة: ج ١ ص ٣٧٦.
(٢) في بعض النسخ: دعاء.
(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣.
(٤) حكاه عنهما عليهما السلام ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ٨٦.
(٥) وهي قراءة أبي عمرو والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٣.
(٦) القصص: ٣٤.

وجماعةٌ[١]: «يَرِثُني وارثٌ من آلِ يعقوبَ»[٢] ويُسَمَّى التجريدَ في علمِ البيانِ، وتقديرُه: فهَبْ لي وليّاً يرِثُني به وارثٌ من آلِ يعقوبَ وهو نفسُه الوارثُ، وهذا ضربٌ غريبٌ كأنَّه جَرَّدَ منه وارثاً، ومثلُهُ قولُه: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾[٣] وهي نفسها دارُ الخلدِ ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾ أي: واجعَلْ ياربِّ هذا الوليَّ مرضيّاً عندَكَ ممتثِلاً لأمرِكَ.

﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً﴾ لم يُسَمَّ أحدٌ بـ﴿يَحْيَىٰ﴾ قبْلَه.

عن الصادقِ عليه السلام: «وكذلك الحسينُ عليه السلام لم يكُنْ له من قبلُ سَميٌّ، ولم تَبكِ السماءُ إلَّا عليهما أربعينَ صباحاً، قيلَ له: وما كان بكاؤها؟ قالَ: كانَت تَطْلُعُ حمراءَ وتغيبُ حمراءَ، وكان قاتلُ يحيىٰ ولد زناءٍ، وقاتِلُ الحسينِ عليه السلام ولدَ زناءٍ»[٤].

وعن مجاهدٍ: ﴿سَمِيّاً﴾ أي: مِثلاً وشبيهاً[٥]، كقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾[٦]، وإنَّما قيل للمِثْلِ: سَميٌّ؛ لأنَّ كُلَّ متشابهَينِ يُسمَّىٰ كُلُّ واحدٍ منهما باسمِ شبيهِهِ، فكُلُّ واحدٍ منهما سمِيٌّ لصاحبِهِ.

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِراً﴾ أي: كانَت علىٰ صفةِ العُقْرِ حينَ أنَا شابٌّ وكَهْلٌ، فما رُزِقْتُ الولدَ لاختلالِ أحدِ السببَينِ، أفحينَ ٱختَلَّ السببانِ جميعاً أُرزَقُه؟! والعُتِيُّ: اليُبسُ والجُسْأَةُ[٧] في العِظامِ والمفاصلِ من أجلِ الكِبَرِ، وقُرِئَ: ﴿عِتِيّاً﴾

---

(١) كعاصم الجحدري وابن يعمر وقتادة وأبي حرب بن أبي الاسود وأبي نهيك. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ١٧٤.

(٢) أُنظر شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٨٦، والبحر المحيط: ج ٦ ص ١٧٤.

(٣) فصّلت: ٢٨.

(٤) مناقب ابن شهرآشوب: ج ٤ ص ٥٤ وليس فيه: «وكان قاتل يحيىٰ ....» الخ، وأُنظر كامل الزيارات لابن قولويه: ب ٢٨ فصل في بكاء السماء والأرض على قتل الحسين عليه السلام ويحيىٰ ابن زكريا عليه السلام ص ٨٨ ـ ٩١.

(٥) تفسير مجاهد: ص ٤٥٤.

(٦) الآية: ٦٥.

(٧) في بعض النسخ: الجساوة. وجَسَأت يده: اذا صلبت. (الصحاح: مادة جسأ).

بكسرِ العينِ[١]، وكذلك ﴿صِلِيّاً﴾[٢] و ﴿جِثِيّاً﴾[٣] و ﴿بِكِيّاً﴾[٤] [٥].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكافُ رفعٌ، أَي: الأمرُ كذلك، تصديقٌ له، ثمَّ ابتدأَ ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾، أَو هو نَصْبٌ بـ﴿قَالَ﴾، و ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ مبهمٍ يـفَسِّرُهُ ﴿هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾، ونحوُهُ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾[٦]، ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ يُعتدُّ به، وقُرِئَ: «وَقَدْ خَلَقْنَاكَ»[٧].

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيّاً (١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً (١١) يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيّاً (١٢) وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيّاً (١٣) وَبَرّاً بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً (١٤) وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً (١٥)﴾

يعني: ﴿ٱجْعَل لِّىٓ﴾ علامةً أَعلَمُ بها وقوعَ مابُشِّرتُ به ﴿قَالَ﴾: علامتُك أَن تُمنَعَ الكلامَ فلا تُطيقَهُ وأَنتَ سويُّ الخَلقِ مابكَ خَرَسٌ، ودلَّ ذكرُ «الليالي» هنا و«الأَيَّام» في آلِ عمرانَ[٨] علىٰ أَنَّ ذلك كانَ ثلاثةَ أَيَّامٍ بلَيَالِيها.

﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ أَي: أَشار إِليهم بيدِهِ، وقيلَ: كَتبَ لهم على الأَرض ﴿سَبِّحُواْ﴾[٩] أَي: صلُّوا، أَو هو على الظاهرِ، و ﴿أَن﴾ هي المفسِّرةُ.

﴿خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أَي: التوراةَ ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجِدٍّ وصحَّةِ عـزيمةٍ عـلى القيامِ بـه

---

(١) الظاهر أنّ القراءة المعتمدة لدى المصنّف بضمّ العين.

(٢) الآية: ٧٠.

(٣) الآية: ٦٨.

(٤) الآية: ٥٨.

(٥) قراءة حمزة والكسائي بكسر الباء والباقون بضمّها. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٠٧.

(٦) الحجر: ٦٦.

(٧) قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٤.

(٨) الاية: ٤١.

(٩) قاله مجاهد في تفسيره: ص ٤٥٤.

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ﴾ أي: الحكمةَ والنبوّةَ في حالِ صِباهُ وهو ابنُ ثلاثِ سنينَ. ﴿وَحَنَانًا﴾ وآتيناهُ رحمةً ﴿مِن﴾ عندِنا وتعطُّفاً وتحنُّناً على العبادِ، وقيلَ للهِ تعالىٰ: حنَّانٌ كما قيلَ: رحيمٌ علىٰ سبيلِ الاستعارةِ[1] ﴿وَزَكَوٰةً﴾ لِمَنْ قَبِلَ دينَهُ فيكونُ زكيّاً طاهراً. ﴿وَ﴾ بارّاً ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾ محسِناً إليهما، مطيعاً لهما، طالباً رضاهما ﴿وَلَمْ يَكُن﴾ متكبّراً متطاولاً على الناس ﴿عَصِيًّا﴾ عاصياً لربِّه.

﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ﴾ منّا في هذِهِ الأحوالِ، وخصَّه سبحانَه بالكَرامةِ والسلامةِ في هذِهِ المَواطنِ الثلاثةِ الّتي هي أوحشُ المواطنِ: ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ فيرَى نفسَه خارجاً ممّا كانَ فيه ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ فيَرَىٰ أشياءَ ليس له بها عهدٌ ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ﴾ فيَرَىٰ نفسَهُ في المَحشَرِ العظيم.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤)﴾

﴿إِذِ﴾ بدلٌ من ﴿مَرْيَمَ﴾ وهو بدلُ الاشتمالِ، وفيه دَلالةٌ علىٰ أنَّ المقصودَ بذكرِ مريمَ ذكرُ هذا الوقتِ لوقوعِ قصَّتِها العجيبةِ فيه، و ﴿ٱنتَبَذَتْ﴾ أي: اعتزَلَتْ

(١) أُنظر الكشّاف: ج ٣ ص ٨.

في مكانٍ ممَّا يَلي شَرْقيَّ بيتِ المَقدِسِ قد تَخلَّتْ للعبادةِ فيه، وإنَّما اتَّخذَتِ النصارى الشرقَ قبلةً لأنَّ مريمَ انتبذتْ ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِن﴾ دُونِ أَهلِها ﴿حِجَابًا﴾ أي: سِتراً وحاجزاً بينَها وبينَهم ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يعني: جبرئيلَ عليه السلام، أضافه إلىٰ نفسِهِ تشريفاً له، فأتاها فانتصَبَ بينَ يدَيها في صورةِ آدميٍّ شابٍّ سويِّ الخَلقِ، لم يَنْتَقِصْ (١) من الصُّورةِ الآدميَّةِ شيئاً.

﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِالرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أرادت: إن كان يُرجَىٰ منك أن تتَّقيَ اللهَ وتخشَاه فإنِّي عائذةٌ به منك. ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ﴾ من استعَذْتِ به ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ لأكونَ سبباً في هِبةِ ﴿غُلَـٰمًا زَكِيًّا﴾ طاهراً من الأدناس أو نامٍ في أفعالِ الخيرِ، أو هو حكايةٌ لقولِ اللهِ عزَّوجلَّ، وقُرِئَ: «لِيَهَبَ» (٢) والضميرُ للربِّ وهو الواهبُ.

﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ جَعلَ المسَّ عبارةً عن النكاحِ الحلالِ، كقولِه: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ (٣)، ويُقالُ في الزنا: فَجَرَ بها وما أَشْبَهَ ذلك، والبَغِيُّ: الفاجرةُ الَّتي تَبْغِي الرجالَ، وهي فعولٌ عندَ المبرِّدِ بَغُويٌ فأُدغِمَتِ الواو في الياءِ (٤)، وقيلَ: هي فعيلٌ، ولو كَانَتْ فعولاً لكانَ يقالُ: بَغُوٌّ كما قيلَ: فلانٌ نَهُوٌّ عن المُنكرِ (٥).

﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ فَعَلْنا ذلك، فحُذِفَ، أو هو معطوفٌ علىٰ تعليلٍ مضمرٍ، أي: لِنُبَيِّنَ بِهِ قدرتَنَا ولنجعلَه آيةً ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ مقدَّراً، مسطوراً في اللوحِ

---

(١) في نسخة: ينقص.

(٢) وهي قراءة أبي عمرو وورش والحلواني ويعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٤.

(٣) البقرة: ٢٣٧.

(٤) أنظر الكامل للمبرّد: ج ٢ ص ٨٠٧.

(٥) وهو قول ابن جنّي. راجع الكشّاف: ج ٣ ص ١٠.

لابُدَّ من جريِهِ عليك، أو كانَ أمراً حقيقاً بأَن يُقضىٰ لكونه ﴿ءَايَـةً ... وَرَحْـمَةً﴾، والمرادُ بالآيةِ: العبرةُ والبرهانُ عـلىٰ قـدرةِ ٱللهِ تـعالىٰ، وبـالرحـمةِ: الشـرائـعُ والألطافُ، وما كانَ كذلك فهو جديرٌ بالتكوينِ.

وعن ٱبنِ عبَّاس: فاطمأَنَّتْ إِلىٰ قولِهِ فدَنَا منها فنَفَخَ في جَيْبِ دِرْعِها فَحَمَلَت من ساعَتِها(١).

وعنِ الباقرِ عليه السلام: «فكَمُلَ الولدُ في الرحِمِ من ساعتِه كـما يكـمُلُ الولدُ فـي أَرحامِ النساءِ بتسعةِ أشهرٍ»(٢).

وقيلَ: حَمَلَتْهُ وهي بنتُ ثَـلَاثَ(٣) عَشَـرَة سـنةً(٤)، وقـيلَ: بـنتُ عَشْـرٍ(٥) ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ﴾ أَي: ٱعتزَلَتْ وهو في بطنِها، كقولِه تعالىٰ: ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾(٦) أَي: تنبُتُ ودهنُها فيها، والجارُّ والمجرورُ في موضِعِ الحالِ ﴿قَصِيّاً﴾ بعيداً من أَهلِها.

و«أَجَآءَ» منقولٌ من «جاءَ» إِلَّا أَنَّ استعمالَه قد تـغيَّرَ بـعدَ النـقلِ إِلىٰ مـعنَى الإلجاءِ، ونظيرُهُ: «آتى» حيثُ لم يُسـتَعمَلْ إِلَّا فـي الإعـطاءِ، و ﴿ٱلْـمَخَاضُ﴾: تمَخُّضُ الولدِ في بطنِها، أَي: أَلجأَها وَجَعُ الوِلادةِ ﴿إِلَىٰ جِذْعِ﴾ نَخلَةٍ في الصحراءِ يابسةٍ، ليس لها ثمرةٌ ولا خُـضرَةٌ، وكـان الوقتُ شِـتاءً، والتـعريفُ للـعهدِ، أَي: ﴿ٱلنَّخْلَةِ﴾ المعروفةِ في تلك الصحراءِ، وقُرِئَ: ﴿مِتُّ﴾ بالضمِّ(٧) والكسرِ، يقال:

---

(١) حكاه عنه القرطبي في تفسيره: ج ١١ ص ٩١.

(٢) انظر تفسير الآلوسي: ج ١٦ ص ٧٩، وفي روضة الكـافي: ص ٢٧٣ ح ٥١٦ نـحوه عـن الصادق عليه السلام.

(٣) في نسخة: إحدىٰ.

(٤) وهو قول الطبري في تاريخه: ج ١ ص ٤١٧.

(٥) قاله مقاتل. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٩٢.

(٦) المؤمنون: ٢٠.

(٧) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وعاصم برواية أبي بكر. راجع كـتاب السـبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٢١٨.

ماتَ يمُوتُ، وماتَ يَماتُ ﴿وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً﴾ أي: شيئاً حقيراً متروكاً، وهو مامن حقِّهِ أن يُطرَحَ ويُنْسَىٰ كخرقةِ الحائضِ، كما أنَّ الذِبْحَ[1] اسمُ مامِن شأنِهِ[2] أن يُذبَحَ، وقُرِئَ: ﴿نَسياً﴾ بالفتحِ[3] وهما لغتانِ كالوِتْرِ والوَتْرِ.

«فَنَادَىٰهَا مَن تَحْتَهَآ»[4] عيسىٰ أو جبرئيلُ، والضميرُ في «مَنْ تَحْتَهَا» لـ﴿ٱلنَّخْلَةِ﴾، وقُرِئَ: ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾[5]، وقيلَ: كانَ أسفلَ منها تحتَ الأَكَمَةِ فصاحَ بها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾[6] وسُئِلَ النبيُّ ﷺ عن السريِّ، فقال: «هو الجدولُ»[7]، قالَ لَبيدٌ:

فتَوَسَّطَا عُرْضَ ٱلسريِّ فَصَدَّعَا ... مَسْجُورَةً متجاوِراً قُلَّامُها[8]

أي: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ﴾ تَحْتَ قَدَمَيْكِ نهراً تَشْرَبينَ منه وتتطهّرينَ، وقيل: السرِيُّ: الشريفُ الرفيعُ، من السَرْوِ يعني: عيسىٰ عليه السلام[9]، وعن الحسن: كانَ واللهِ عبداً سريّاً[10].

﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ

(١) في بعض النسخ: الذبيح. (٢) في بعض النسخ: حقّه.
(٣) يستفاد من العبارة أنّ المصنّف يعتمد علىٰ قراءة الكسر هنا.
(٤) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وأبي بكر عن عاصم ورويس. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٠٨.
(٥) الظاهر أنّ القراءة المعتمدة لدى المصنّف هنا بفتح الميم من «من».
(٦) قاله الكلبي. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٦٤.
(٧) رواه الزمخشري في كشّافه: ج ٣ ص ١٢، والرازي في تفسيره: ج ٢١ ص ٢٠٥.
(٨) والبيت من معلّقته المشهورة التي مطلعها:

عَفَت الديارُ محلُّها فمقامُها ... بمنىً تأبّد غولُها فرِجامُها

وفي البيت المذكور يصف الشاعر اثنين من العَير وَرَدا عيناً ممتلئة ماءً فدخلا من عرض نهرها وقد تجاوز نبتها. أنظر ديوان لبيد بن ربيعة: ص ١٧٠.
(٩) قاله الحسن البصري في تفسيره: ج ٢ ص ١٠٩.
(١٠) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ١٠٩.

لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيّاً (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُواْ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً (٢٧) يَـٰأُخْتَ هَـٰرُونَ مَاكَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيّاً (٢٩) قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيّاً (٣٠) وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً أَيْنَ مَاكُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِالصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَادُمْتُ حَيّاً (٣١) وَبَرّاً بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّاراً شَقِيّاً (٣٢) وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً (٣٣) ﴾

أَي: واجذبي ﴿إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾، وقُرِئَ: «تَسَّاقَطْ» بالتاءِ[1] والياءِ[2] والتشديدِ، والأَصلُ: «تتساقطْ» و «يَتَساقَطْ» فأُدغِمَ، و «تَساقَطْ» بطرحِ التاءِ الثانية[3] و ﴿تُسَـٰقِطْ﴾ بضمِّ التاءِ وكسرِ القافِ، والتاءُ لـ﴿ٱلنَّخْلَةِ﴾ والياءُ لِـ﴿جِذْعِ﴾، و ﴿رُطَباً﴾ تمييزٌ أَو مفعولٌ علىٰ حَسَبِ القِراءَةِ، والباءُ في ﴿بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ مزيدةٌ للتأكيدِ كما في قولِه: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ﴾[4]، أَو علىٰ معنى: افْعَلِي الهَزَّ به، والجَنِيُّ: المَجْنِيُّ، من جَنَيْتُ الثمرةَ.

﴿فَكُلِى﴾ يَامريمُ من هذَا الرُّطبِ ﴿وَٱشْرَبِى﴾ من ماءِ السريِّ، وقدْ جَمَعْنَا[5] لك في السريِّ والرُّطَبِ فائدتينِ: إحداهما: الأَكلُ والشُربُ، والأُخرىٰ: قُرَّةُ العينِ وسَلْوَةُ الصدرِ لكَونِهما معجزَتَينِ.

---

(١) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر والكسائي وأبي بكر عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٠٩.

(٢) وهي قراءة يعقوب والعليمي ونصير والبراء بن عازب والأعمش في رواية. راجع التبيان: ج ٧ ص ١١٦، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ١٨٤.

(٣) قرأه حمزة والأعمش وطلحة وابن وثاب ومسروق. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٥، والبحر المحيط: ج ٦ ص ١٨٤.

(٤) البقرة: ١٩٥.

(٥) في بعض النسخ: جعلنا.

وعن الباقر عليه السلام: «لَم تَستَشفِ النُفَساءُ بِمثلِ الرُّطَبِ؛ لأَنَّ اللهَ أطعَمَهُ مريمَ في نِفاسِها»(١).

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾ أَصلُه: تَرْأَيْنَّ إِلَّا أَنَّ الاستعمالَ بغيرِ همزٍ، والياءُ فيهِ ضميرُ المخاطَبِ المؤنَّثِ، أي: إن تَرَيْ ﴿أَحَداً﴾ مِنَ ٱلْبَشَرِ يَسْأَلْكِ عن ولدِكِ ﴿فَقُولِيٓ إِنِّى﴾ أَوجَبْتُ علىٰ نفسي صَوْماً أي: صَمْتاً، يُريدُ إِمساكاً عنِ الكلامِ؛ لأَنَّهم كانُوا لايتكلَّمونَ في صِيامِهم، وقد نَهَى النبيُّ صلى الله عليه وآله عن صَومِ الصمتِ لأَنَّه نُسِخَ في شريعتِهِ.

﴿تَحْمِلُهُۥ﴾ حالٌ منَ الضميرِ المرفوعِ في ﴿فَأَتَتْ﴾ أَو منَ الهاءِ المجرورِ في ﴿بِهِۦ﴾ أَو منهما جميعاً ﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أَي: عظيماً بديعاً أَو أمراً قبيحاً. و﴿هَـٰرُونَ﴾ كانَ أَخاها من أَبيها، وكانَ معروفاً بحسنِ الطريقةِ، وقيلَ: هو أَخو موسىٰ عليه السلام، وكانت من وُلدِه كما يقالُ: ياأَخا تميمٍ أَي: ياواحداً منهم(٢)، وقيلَ: رجلٌ صالحٌ أَو طالحٌ في زمانِها شَبَّهُوها به(٣)، أَي: كنتِ عندَنا مثلَه في الصلاحِ، أَو شَتَمُوها به(٤).

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ فأَومأَتْ إِلىٰ عيسى بأَنْ كَلِّموهُ ﴿مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أَي: مَن وُجِدَ صبيّاً في المهدِ.

أَنطقَه ٱللهُ أَوَّلاً بأَنَّه ﴿عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ ردّاً لقولِ النصارىٰ ﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يعني: الإِنجيلَ ﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ أَكملَ ٱللهُ عقلَهُ واستنبأَهُ طِفلاً. ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾ أَي: نفّاعاً، مَعْلَماً(٥) للخيرِ حَيث ﴿مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِالصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ كَلَّفَنيهما

(١) المحاسن للبرقي: ج ٢ ص ٥٣٥ وفيه عن أبي عبدالله عليه السلام.
(٢) قاله السدي. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ١٩٤.
(٣) وهو قول قول مجاهد وكعب والمغيرة بن شعبة يرفعه للنبي صلى الله عليه وآله. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٦٨.
(٤) وفي بعض النسخ زيادة: في الفساد.
(٥) في بعض النسخ: معلّماً.

﴿مَا﴾ بقيتُ ﴿حَيّاً﴾ مكلَّفاً. ﴿وَبَرّاً بِوَٰلِدَتِى﴾ أي: بارّاً بوالدتي مؤدِّياً شكرَها ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى﴾ مِنَ الجَبابرةِ الأشقياءِ. ﴿وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ﴾ أُدخِلَ لامُ التعريفِ لتعرُّفِه بالذكرِ قبلَه، كقولِكَ: جاءَنا رجلٌ فكانَ من فعلِ الرجلِ كذا، والمعنىٰ: ذلكَ السلامُ الموجَّهُ إلىٰ يحيى في المواطنِ الثلاثةِ موجَّهٌ إليَّ.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَاكَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)﴾

أَي: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الَّذي قالَ: إِنِّي عبدُ ٱللهِ ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، لا مايقولُه النصارىٰ مِن: أَنَّه ابنُ ٱللهِ، وأَنَّه إِلٰهٌ ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ قُرِئَ بالنصبِ والرفعِ[1]، فالرفعُ علىٰ أَنَّه خبرُ مبتدأ محذوف أو علىٰ أَنَّه خبرٌ بعدَ خبر أَو بدلٌ، والنصبُ على المَدحِ إِنْ فُسِّرَ بـ«كلمةِ ٱللهِ» وعلىٰ أَنَّه مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمونِ الجملةِ إن أُريدَ قولُ الصدقِ كقولِكَ: هوَ عبدُٱللهِ الحقَّ لا الباطلَ، وإِنَّما قيلَ لعيسىٰ عليه السلام: «كلمةُ ٱللهِ» و﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ لأَنَّهُ لم يُولَدْ إِلَّا بكلمةِ اللهِ وحدَها، وهيَ قولُهُ: ﴿كُن﴾ من غيرِ واسطةِ أَبٍ، تسميةً للمسبَّبِ باسمِ السببِ كما سُمِّيَ الغيثُ بالسماء، أَي: أَمرُهُ حقٌّ يقينٌ، وهم ﴿فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يشكُّونَ، أَو يتمارَونَ يتلاحَونَ[2]: قالتِ اليهودُ: ساحرٌ

---

(١) وبالرفع قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٠٩.

(٢) تَلاحَ القوم: اذا تنازعوا. (الصحاح: مادة تلح).

كذّابٌ، وقالتِ النصارى: ابنُ اللهِ وثالثُ ثلاثةٍ ﴿مَاكَانَ للهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ تكذيبٌ للنصارىٰ وتبكيتٌ[١] لهم بالدلالةِ على انتفاءِ الولدِ عنهُ، وأنّه ممّا لايُتصوَّرُ في العقولِ، وأنَّ من المُحالِ أن يكونَ ذاتُه كذاتِ من ينشأُ منه الولدُ، ثُمَّ بيَّنَ ﴿سُبْحَـٰنَهُۥٓ﴾ إحالتَه بأنَّ مَن أرادَ شيئاً من الأجناسِ كلِّها أوجدَه بـ﴿كُن﴾ فهوَ منزَّهٌ من شَبَهِ الحَيَوانِ الوالدِ[٢].

وقُرِئَ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ بفتحِ الهمزةِ[٣] وكسرِها، فالفتحُ علىٰ معنىٰ: ولأنّه ﴿رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾، أو بأنّه أي: بسببِ ذلكَ فَاعْبُدُوهُ، والكسرُ على استئنافِ الكلامِ.

و ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾: اليهودُ والنصارىٰ، وقيلَ: النصارىٰ[٤]، لأنَّهم تفرَّقوا ثلاثَ فِرَقٍ: نُسطُوريَّةٌ ويعقوبيّةٌ ومَلكائيَّةٌ، وقالَ: ﴿مِن بَيْنِهِمْ﴾ لأنَّ منهم مَن ثبتَ على الحقِّ ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: من شُهودِهم هولَ الحِسابِ والجزاءِ في يومِ القيامة، أو من مكانِ الشُهودِ فيه وهوَ الموقِفُ، أو من وقتِ الشُهودِ، أو من شهادةِ ذلكَ اليومِ عليهم وأن تشهَدَ عليهمُ الملائكةُ والأنبياءُ وألسنتُهم وأيديهم وأرجُلُهم بسُوءِ أعمالِهم، أو مِنْ مكانِ الشهادةِ أو وقتِها.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي: ما أسمعَهُمْ وأبصرَهُمْ[٥]، ولا يُوصَفُ ٱللهُ بالتعجُّبِ، والمرادُ: أنَّ أسماعَهم وأبصارَهم يومئذٍ جديرٌ بأنْ يُتعجَّبَ منهما[٦] بعدَما كانُوا صُمّاً عُمياً في الدنيا ﴿لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ وقعَ الظاهرُ موقعَ الضميرِ[٧] إيذاناً بأنْ

---

(١) التبكيت: التقريع، يقال: بكته بالحجة اذا غلبه. (الصحاح: مادة بكت).

(٢) في نسخة زيادة: والولد.

(٣) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو ويعقوب. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤١٠.

(٤) قاله أبو الليث السمرقندي في تفسيره: ج ٢ ص ٣٢٤.

(٥) في نسخة زيادة: يوم القيامة حيث لاينفعهم، ومثله: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

(٦) في نسخة: منها.

(٧) في بعض النسخ: المضمر.

لاظُلمَ أَعظَمُ من ظُلمِهم حيثُ أَغفلُوا النظرَ والاستماعَ.

﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ فُرِغَ من الحسابِ، وحُكِمَ بينَ الخلائقِ بالعدلِ، وتصادَرَ الفَريقانِ إلى الجنَّةِ والنارِ، و﴿إِذْ﴾ بدلٌ من ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ أَو منصوبٌ بـ﴿ٱلْحَسْرَةِ ... وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ يتعلَّقُ بقولِه: ﴿فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ و ﴿أَنذِرْهُمْ﴾ اعتراضٌ، أَو يتعلَّقُ بـ﴿أَنذِرْهُمْ﴾ والمعنىٰ: وأَنذِرْهُم علىٰ هذهِ الحالِ غافلين غير مؤمنين.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أَي: نُميتُ سُكَّانَها، فلا يبقَىٰ فيها مالكٌ ولا متصرِّفٌ.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً (٤٢) يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطاً سَوِيّاً (٤٣) يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيّاً (٤٤) يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيّاً (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيّاً (٤٦) قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيّاً (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيّاً (٤٨) فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً (٥٠)﴾

﴿فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ في القرآنِ، والصِدِّيقُ: من أَبنيةِ المُبالَغةِ، أَي: المُبالِغُ في الصِدقِ وكثيرُ التصديقِ لكُتبِ ٱللهِ وأَنبيائهِ، وَ﴿كَانَ ... نَبِيّاً﴾ في نفسِه. و﴿إِذْ قَالَ﴾ بدلٌ من ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ وما بينَهما اعتراضٌ، أَو يتعلَّقُ بـ﴿كَانَ﴾ أَي: كانَ جامعاً

لِخصائصِ الصدِّيقينَ والأنبياءِ حينَ خاطَبَ أَباهُ تلكَ المُخاطَباتِ في أَحسنِ ترتيبٍ، فطلبَ منه العلَّةَ أَوّلاً في عبادتِهِ ﴿مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ مع أَنَّ العبادةَ لايَستَحِقُّها إِلَّا المُنعِمُ الَّذي له غايةُ الإِنعامِ، وهوَ اللهُ الخالقُ الرازقُ الَّذي منهُ أُصولُ النِعَمِ، ثُمَّ دَعاهُ إِلى اتِّباعِهِ بأَنْ قالَ: ﴿قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ باللهِ والمعرفَةِ به ﴿مَالَمْ يَأْتِكَ﴾، ثُمَّ نهاهُ عن عبادةِ ﴿ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ وطاعتِهِ فيما يدعُوه إِليه، وذكَرَ عِصْيانَ ﴿ٱلشَّيْطَـٰنَ ... لِلرَّحْمَـٰنِ﴾ واستكبارَهُ، ثُمَّ خوَّفَه سُوءَ العاقبةِ لِمَا هوَ فيه، وصدَّرَ كلَّ نصيحةٍ من هذهِ النصائحِ بِقولِه: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ استعطافاً له، والتاءُ في ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ عِوَضٌ من ياءِ الإِضافةِ، فلا يقالُ: ياأَبتي، وقُرِئَ: «يَاأَبَتَ» بفتحِ التاءِ[1]، و﴿مَا﴾ في ﴿مَا لَا يَسْمَعُ﴾ و﴿مَالَمْ يَأْتِكَ﴾ يجوزُ أَنْ تكونَ موصولةً وموصوفةً، والمفعولُ في ﴿لَا يَسْمَعُ﴾ و﴿لَا يُبْصِرُ﴾ غيرُ منويٍّ، والمرادُ: ماليسَ به استماعٌ ولا إِبصارٌ، و﴿شَيْـًٔا﴾ في موضعِ المصدرِ، أَي: شيئاً من الغَناءِ، أَو مفعولٌ به من قولهم: أَغنِ عنِّي وجهَكَ، أَي: أَبعِدْ عنِّي.

﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى﴾ أَي: أَمُعْرِضٌ أَنتَ عنْ عبادةِ آلهَتي الَّتي هيَ الأَصنامُ، وزاهدٌ فيها؟ ﴿لَئِن لَّمْ﴾ تمتنِعْ عن هذا ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أَي: لأَرمِيَنَّكَ بلساني، يُريدُ الشتمَ والذمَّ، ومنهُ الرجيمُ: المَرمِيُّ باللعنِ، أَو لأَقتُلَنَّكَ من رجمِ الزاني، أَو لأَطرُدَنَّكَ رمياً بالحجارةِ، وأَصلُ الرجمِ: الرميُ بالرِجامِ ﴿مَلِيًّا﴾ أَي: زماناً طويلاً، من المَلاوَةِ، وعُطِفَ ﴿وَٱهْجُرْنِى﴾ علىٰ محذوفٍ، أَي: لأَرْجُمَنَّكَ فاحذَرْني واهجُرْني.

﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ﴾ سلامُ توديعٍ ومتاركةٍ ومباعدةٍ منهُ، كقولِه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا﴾[2] ويجوزُ أَن يكونَ دعاءً له بالسلامةِ استمالةً، ويدلُّ عليه

---

(١) قرأه ابن عامر وحده. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٤٦٥.
(٢) الفرقان: ٦٣.

أَنَّه وَعَدَهُ الاستغفارَ، والحَفيُّ: البليغُ في البِرِّ والأَلطافِ، يقالُ: حَفِيَ به وتَحَفَّىٰ به.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ أي: وأَتنحّىٰ منكُم جانباً، أَرادَ مُهاجَرَتَهُ إلى الشامِ ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾ أَي: أَعبُدُه، ومنه قولُه عليه السلام: «الدعاءُ: هو العبادةُ»(١)، ويجوزُ أن يريدَ بالدُّعاءِ ماحَكاه اللهُ في سورةِ الشعراءِ(٢)، وقولُه: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ فيه تعريضٌ لشقاوتِهم بدعاءِ آلهَتِهم مع التواضعِ للهِ عزَّ اسمهُ في كلمةِ ﴿عَسَىٰٓ﴾.

و﴿لَمَّا﴾ فارَقَهم وتركَهم وهبَ اللهُ سبحانَه ﴿لَهُۥٓ﴾ أولاداً أَنبياءَ، وأَرادَ بـ«الرحمَةِ»: النبوَّةَ، وعن الحسنِ: المالَ والوُلد(٣) (٤)، وهيَ عامَّةٌ في كلِّ خيرٍ دينيٍّ ودنيويٍّ أُوتوهُ، و لِسَانُ الصدْقِ: الثناءُ الحسنُ، وعُبِّرَ باللسانِ عمَّا يوجدُ باللسانِ كما يُعبَّرُ باليدِ عمَّا يُطلَقُ باليدِ وهي العطيَّةُ، قالَ:

إِنِّي أَتَتْني لِسَانٌ لَاأُسَرُّ بها(٥).

أَي: رسالةٌ، ولسانُ العربِ: لغتُهُم وكلامُهم ﴿عَلِيًّا﴾ أَي: مرتفعاً، فكلُّ أهلِ الأَديانِ يتولَّونَهُ ويثنُونَ عليه وعلىٰ ذُرِّيَّتِه، وقيلَ: معناه: أَعْلَيْنَا ذِكرَهم بأَنَّ محمّداً وأُمَّتَه يذكُرونَهم بالجميلِ، ويُصلُّونَ عليهم إلىٰ يومِ القيامةِ(٦).

---

(١) مسند أحمد: ج ٤ ص ٢٧١، المعجم الصغير للطبراني: ج ٢ ص ٩٧.

(٢) وهو قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ الآية: ٧٢.

(٣) في بعض النسخ: البنون.

(٤) كذا في جميع النسخ، لكنا لم نعثر فيما توفّرت من مصادر على قولٍ كهذا للحسن، بل نسبته المصادر المعتمدة الى الكلبي. راجع علىٰ سبيل المثال: الكشّاف: ج ٣ ص ٢٢، وتفسير البغوي: ج ٣ ص ١٩٨.

(٥) وعجزه: من علو لا عجبٌ منها ولا سَخَر. والبيت منسوب لأعشىٰ باهلة - واسمه عامر بن الحارث بن رياح الباهلي - وهو من قصيدة يرثي بها أخاه لأمه المنتشر الباهلي، وكان رئيساً فارساً، والقصيدة هي من المراثي المفضّلة المشهورة بالبراعة والبلاغة كما قاله السيد المرتضى في أماليه. أنظر أمالي السيد المرتضى: ج ٢ ص ٢٠ - ٢٤.

(٦) قاله ابن عباس والحسن. راجع التبيان: ج ٧ ص ١٣١.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً (٥١) وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيّاً (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيّاً (٥٣) وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيّاً (٥٥) وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً (٥٦) وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَاناً عَلِيّاً (٥٧) أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً (٥٨)﴾

قُرِئَ: ﴿مُخْلَصاً﴾ بفتحِ اللامِ وكسرِها[1]، ومعناهُ بالكسرِ: أَنَّه أَخلَصَ العبادةَ عن الشركِ والرياءِ، وأَخلَصَ نفسَهُ وأَسلمَ وجهَهُ للهِ، وبالفتحِ: أَنَّه الَّذي أَخلَصَهُ اللهُ، والرسولُ: من الأنبياءِ الَّذي معهُ كتابٌ، والنبيُّ: الَّذي يُنبئُ عنِ اللهِ وإِنْ لم يكن معهُ كتابٌ.

و ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ منَ اليمينِ، أَي: من ناحيةِ ﴿ٱلطُّورِ﴾ اليُمنىٰ، أَو منَ اليُمنِ فيكونُ صفةً لـ﴿ٱلطُّورِ﴾، ﴿وَقَرَّبْنَـٰهُ﴾ حيثُ كلَّمناهُ بغيرِ واسطةِ ملَكٍ ورَفَعْنا منزلَته ﴿نَجِيّاً﴾ أَي: مناجياً كليماً.

﴿مِن رَّحْمَتِنَآ﴾ أَي: من أَجلِ رحمتِنا له ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ ... هَـٰرُونَ﴾.

﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ إذا وعَدَ بشيءٍ وَفَىٰ به، وذُكِرَ بصدقِ الوعدِ وإِنْ كانَ غيرُه منَ الأَنبياءِ كذلكَ: تشريفاً له وإِكراماً، أَو لأَنَّه المشهورُ من خصالِه، وناهيكَ أَنَّه وَعَدَ من نفسِهِ الصبرَ على الذبحِ حيثُ قالَ: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[2]

(١) وبالكسر هي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر وعاصم في رواية الكسائي عن أبي بكر والمفضّل عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤١٠.
(٢) الصافات: ١٠٢.

فَوفَىٰ، وعن ابنِ عبَّاس: أنَّه واعدَ[١] رجلاً أن ينتظِرَهُ في مكانٍ ونسِيَ الرجلُ فانْتظَرَه سَنةً[٢]. ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ﴾ وقومَه ﴿بِالصَّلَوٰةِ﴾ والعِبادةِ ليَجعَلَهُمْ قُدوةً لمن وراءَهم، ولأنَّهم أولىٰ بذلكَ من سائرِ الناس، وهو كقولِه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[٣]، ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾[٤]، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾[٥].

قيلَ: سُمِّيَ ﴿إِدْرِيسَ﴾ لكَثرةِ دِراستِهِ كتابَ اللهِ[٦]، وفيه نظرٌ؛ لأنَّ الاسمَ أعجميٌّ، ولذلكَ امتنعَ من الصرفِ، ولو كانَ «إفعيلاً» من الدرسِ لم يكُنْ فيه إلَّا سببٌ واحدٌ وهو العلميَّةُ فكانَ يجبُ أن ينصرفَ. والمَكَانُ العَلِيُّ: شرفُ النبوَّةِ والقربةُ منَ اللهِ، وقد أنزلَ اللهُ تعالىٰ عليه ثلاثينَ صحيفةً، وهو أوَّلُ من خاطَ الثيابَ ولَبِسَها وكانُوا يَلْبَسُونَ الجُلُودَ، وهو أوَّلُ من خطَّ بالقلمِ ونظرَ في علمِ النجومِ والحسابِ، وقيلَ: لأنَّه رُفِعَ إلى السماءِ الرابعَةِ[٧] أو السادسةِ[٨].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورينَ في السورةِ من زكريَّا إلىٰ إدريسَ عليهم السلام، و﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ للبيانِ؛ لأنَّ جميعَ الأنبياءِ مُنعَمٌ عليهم، و ﴿مِن﴾ الثانيةُ للتبعيض، والبُكِيُّ: جمعُ باكٍ، كالسجودِ والقُعودِ في جمع ساجدٍ وقاعدٍ.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا (٦٠) جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ

(١) في بعض النسخ: وعد.

(٢) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٣٧٦.

(٣) الشعراء: ٢١٤.

(٤) التحريم: ٦.

(٥) طـه: ١٣٢.

(٦) قاله وهب بن منبه اليهودي. راجع تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٣٢٦.

(٧) قاله أنس والخدري وكعب الأحبار ومجاهد. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٧٧.

(٨) واليه ذهب ابن عباس والضحاك. راجع المصدر السابق.

بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً (٦١) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَـٰماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً (٦٣) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً (٦٤) رَّبُّ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً (٦٥)﴾

يقالُ: خَلَفَهُ: إذا عقبَه، ثُمَّ يقالُ في عَقِبِ الخيرِ: خَلَفٌ ـ بالفتح ـ وفي عَقِبِ السوءِ خَلْفٌ ـ بالسكون ـ كما قيلَ: وعدٌ في ضَمانِ الخيرِ ووعيدٌ في ضَمانِ الشرِّ، وعن ابنِ عبَّاس: همُ اليهودُ[(١) (٢)]، وقيلَ: ﴿أَضَاعُواْ الصَّلَوٰةَ﴾ بتأخيرِها عن أوقاتِها[(٣)] ﴿وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَٰتِ﴾.

رَوَوا عن عليٍّ عليه السلام: «مَنْ بَنَى الشديدَ، ورَكِبَ المنظورَ، ولَبِسَ المشهورَ»[(٤)].

وكلُّ شرٍّ عندَ العربِ غَيٌّ، وكلُّ خيرٍ رَشادٌ، قال:

فمَنْ يَلْقَ خيراً يَحمد الناسُ أَمرَهُ ... ومَنْ يَغْوِ لايَعدَمْ على الغيِّ لائماً[(٥)]

وقيلَ: يريدُ جزاءَ غَيٍّ[(٦)]، كقولِه: ﴿يَلْقَ أَثَاماً﴾[(٧)] أي: مجازاةَ أثامٍ،

---

(١) في نسخة زيادة: تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمر واستحلّوا نكاح الأُخت من الأب.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٦.

(٣) قاله ابن مسعود وابراهيم وعمر بن عبد العزيز. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٧٩ وتفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٠١.

(٤) رواه القرطبي في تفسيره: ج ١١ ص ١٢٥.

(٥) والبيت منسوب للمرقش الأصغر، واسمه عمرو بن حرملة، وقيل: ربيعة بن سفيان، وهو من قصيدة مطلعها:

ألا يا آسلمي لاصَرم في اليوم فاطِما ... ولا أبداً مادام وصلك دائماً

ومعنى البيت: أنّ من يفعل الخير يحمده الناس ويثنون عليه، ومن يغو ويفعل الشرّ لاتتركه اللوائم على فعله. راجع شرح القصيدة ومناسبتها في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة: ص ١٠٦.

(٦) قاله الزجّاج في معاني القرآن واعرابه: ج ٣ ص ٣٣٦.

(٧) الفرقان: ٦٨.

أو: ﴿غَيّاً﴾ عن طريقِ الجنَّةِ، وقيلَ: غيٌّ: وادٍ في جهنَّم[١]. ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لايُنْقَصُون ﴿شَيْئاً﴾ من جزاءِ أعمالِهم ولا يُمْنَعُونَهُ.

﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾؛ لأنَّ ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ اشتمَلَتْ عليها، قيلَ: إنَّ «المَأْتِيّ» مفعولٌ بمعنى فاعلٍ[٢]، والوجهُ: أنَّ «الوَعْدَ» هو الجنَّةُ وهـمْ يَأتُـونَها، أَو هو من قَولِكَ: أَتَىٰ إليه إحساناً، فمعناه: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ مفعولاً مُنْجَزاً.

﴿لَغْواً﴾ أَي: فضولَ كلامٍ لا طائلَ فيه، وهو تنبيهٌ علىٰ وجوبِ تجنُّبِ اللغوِ حيثُ نزَّهَ الله عنهُ الدارَ الَّتي لاتكليفَ فـيها ﴿إِلَّآ﴾ تسـليمَ بـعضِهم عـلىٰ بـعضٍ أَو تسليمَ الملائكةِ عليهم، أَي: فإن كانَ ذلكَ لغواً فـ﴿لَايَسْمَعُونَ﴾ إِلَّا ذلكَ، فيكونُ من قبيلِ قولِ الشاعرِ:

ولا عَيْبَ فيهمْ غيرَ أنَّ سـيوفَهمْ بهنَّ فُلُولٌ من قِرَاعِ الكـتائبِ[٣]

كانت العربُ تَكْرَهُ الوَجبَةَ، وهي الأكلَةُ الواحدةُ في اليومِ الواحِدِ، فأَخبرَ سبحانه أَنَّ ﴿لَهُمْ﴾ في الجنَّةِ ﴿رِزْقُهُمْ ... بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ وهيَ العادةُ المحمودةُ، ولا يكونُ ثَمَّ ليلٌ وَلَا نَهارٌ ولكن على التقديرِ.

وقُرِئَ: «نُوَرِّثُ» بالتشديدِ[٤]، والمعنىٰ: نُبقي عليه ٱلْجَنَّةَ كـما يَـبقىٰ عـلى الوارثِ مالُ الموروُثِ، وقيلَ: أُورِثُوا منَ الجنَّةِ المساكنَ الَّتي كانَت لأَهلِ النـارِ لو أَطاعُوا[٥].

---

(١) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٢٥٧. (٢) قاله الفرّاء في معاني القرآن: ج ٢ ص ١٧٠.

(٣) والبيت للنابغة الذبياني من قصيدته المشهورة التي مطلعها:

كليني لهمٍّ يـا أُمـيمة نـاصبِ وليلٍ أُقاسيه بطيءِ الكـواكب

وقد تقدّم شرح البيت في ج ١ ص ٣٨٤ و ٦٨٩ فراجع.

(٤) قرأه رويس. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٦.

(٥) قاله الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٣٥٨.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ حكايةُ قولِ جبرئيلَ عليه السلام حينَ استَبْطَأَهُ رسولُ ٱللهِ[١]، والتنزُّلُ له معنيانِ: أَحدُهما: النُزولُ علىٰ مَهَلٍ، والآخَرُ: النُزولُ على الإطلاقِ، والمرادُ هنا: أَنَّ نزولَنا وقتاً بعدَ وقتٍ ليسَ ﴿إِلَّا بِأَمْرِ﴾ ٱللهِ ﴿لَهُ مَا﴾ قُدَّامَنا ﴿وَمَاخَلْفَنَا﴾ من الجهاتِ والأَماكنِ وما نحنُ فيها، فلا ننتقلُ من جهةٍ إلىٰ جهةٍ إلّا بأَمرِه ومشيئتِهِ، وقيلَ: مامَضَىٰ من أَعمارِنا وما بَقِيَ منها والحالُ الَّتي نحنُ فيها[٢]، وقيلَ: مامَضَىٰ من أَمرِ الدنيا وما يستقبلُ من أَمرِ الآخرةِ[٣] ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ مابينَ النفختينِ وهو أَربعونَ سنةً، وقيلَ: الأَرضُ الَّتي بينَ أَيدينا إِذا نَزَلْنَا والسماءُ الَّتي وراءَنا وما بينَ السماءِ والأَرض[٤] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾ أَي: تارِكاً لكَ يامحمَّدُ، كقولِهِ: ﴿مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَىٰ﴾[٥]، وقيلَ: وما كانَ ربُّكَ ناسياً لأَعمالِ العامِلينَ[٦].

وكيفَ يجوزُ النسيانُ والغفلةُ علىٰ مَن له ملكُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فحينَ عَرَفْتَهُ بهذهِ الصفةِ ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ وحدَه ﴿وَٱصْطَبِرْ لِـ﴾ مَشاقِّ ﴿عِبَٰدَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ أَي: مِثلاً وشبيهاً، أَي: إذا صحَّ أَن لامعبودَ إِلَّا هوَ وحدَه لم يكُنْ بُدٌّ من عبادتِهِ، وعن ابنِ عبَّاس: لايُسمَّىٰ أَحدٌ الرحمنَ غيرُه[٧]، وقيلَ: لم يُسَمَّ شيءٌ بالله قطّ[٨].

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ

---

(١) في نسخة زيادة هنا: عمّا سأله المشركون من قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح.
(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٩.
(٣) قاله ابن عباس والربيع وقتادة والضحاك وأبو العالية. راجع تفسير الطبري: ج ٨ ص ٣٦٠.
(٤) وهو قول ابن عباس على ماحكاه عنه القرطبي في تفسيره: ج ١١ ص ١٢٩.
(٥) الضحىٰ: ٣.
(٦) وهو قول الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٠.
(٧) تفسير ابن عباس: ص ٢٥٨.
(٨) قاله قتادة والكلبي. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٨٢.

ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَـٰثًا وَرِءْيًا (٧٤) ﴾

يجوزُ أَن يَكونَ المرادُ بـ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ الجنسَ بأَسره، لَمّا كانت هذهِ المقالةُ موجودةً في جنسِهم أُسْنِدَتْ إلىٰ جميعِهم، وأَنْ يكونَ بعضَ الجنسِ وهمُ الكَفَرةُ، وانتَصبَ ﴿إِذَا﴾ بفعلٍ مضمرٍ يدلُّ عليه ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾، لأَنَّ مابعدَ لامِ الابتداءِ لايَعْمَلُ فيما قبلَهُ، ودخَلَتْ ﴿مَا﴾ للتوكيدِ، كأَنَّهمْ قالُوا: أَحَقّاً أَنّا سنُخرَجُ أَحياءَ بعدَ الموتِ؟! والواوُ عَطَفَتْ «لَايَذَّكَّرُ»[1] علىٰ ﴿يَقُولُ﴾، والمعنىٰ: أَيَقُولُ ذلك[2] ولا يَتَذَكَّرُ حالَ النَّشأَةِ الأُولىٰ حتَّىٰ لايُنكِرَ النشأَةَ الأُخرىٰ، فإِنَّ تلكَ أَعجَبُ وأَدلُّ علىٰ قدرةِ الصانعِ، إذ أَخْرَجَ الجواهرَ والأَعراضَ[3] من العدمِ إلى الوجودِ علىٰ غيرِ مثالٍ سبَقَ من غيرِه، وأَمّا الثانيةُ فَقَدْ تَقَدَّمتْ نظيرَتُها وليسَ فيها إِلَّا ردُّها علىٰ ماكانَت عليه مجموعةً بعدَ التفريقِ، وقولُه: ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ دليلٌ علىٰ هذا المعنَىٰ، وقُرِئَ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾ بالتخفيفِ ﴿مِن قَبْلُ﴾ أَي: من قبلِ الحالةِ الَّتي هوَ فيها وهيَ حالةُ بقائهِ.

أَقسمَ سبحانَهُ باسمِه مضافاً إِلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ: تفخيماً لشأنِه ورَفعاً لقَدرِه،

---

(١) الظاهر من العبارة أنّ المصنّف اعتمد علىٰ قراءة التشديد هنا كما هو واضح.

(٢) في نسخة زيادة: استهزاءً.

(٣) ليس في بعض النسخ لفظة «الأعراض».

ويجوزُ أَن يكونَ الواو في ﴿وَٱلشَّيَـٰطِينَ﴾ للعطفِ، وأَن يكونَ بمعنَى «مَعَ»، أَي: يُحشَرُونَ مع قُرَنائِهِم منَ الشياطينِ الَّذينَ أَضلُّوهم، يُقْرَنُ كلُّ كافرٍ مـعَ شـيطانٍ في سلسلةٍ ﴿ثُمَّ﴾ يُحضَرونَ ﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ مـتجاثينَ[١] مسـتَوفِزِينَ[٢] عـلى الرُّكَبِ، متخاصِمِينَ يتبرَّأُ بعضُهم من بعض، ومثلُه: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾[٣].

و«الشيعَةُ» هنا هي الطائفةُ الَّتي شاعَتْ، أَي: تَبِعَتْ غاوياً من الغُواةِ، والمعنَىٰ: نستخرِجُ ﴿مِن كُلِّ﴾ طائفةٍ من طوائفِ الغيِّ والضلالِ أَعتاهم وأَعـصاهم، فـإِذَا اجتمعوا طرحناهم في النارِ على الترتيبِ: نُقدِّمُ أَولاهم بالعذابِ فأَولاهم، ويجوزُ أَن يريدَ بأَشَدِّهم ﴿عِتِيًّا﴾: رؤساءَ الشِيَعِ وأَئمَّتَهم لتَضاعُفِ جُرمِهم، فإِنَّهم ضُلَّالٌ ومضلُّون، كقولِه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[٤].

واخْتُلِفَ في إِعرابِ ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾ فقالَ الخليلُ[٥]: إِنَّه مرفوعٌ على الحكايةِ والتقديرُ: ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ الَّذينَ يُقالُ فيهم: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾[٦]، وقالَ سيبَويهِ: هو مبنيٌّ على الضمِّ لسقوطِ صدرِ الجملةِ الَّتي هي صلةُ ﴿أَيُّهُمْ﴾ وأَصلهُ: لَنَنْزِعَنَّ من كُـلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ هو أَشدُّ، منصوباً[٧].

﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ التـفاتٌ إِلى الإِنسـانِ، ويـعضُدُهُ قـراءَةُ ابـنِ عـبَّاس: «وَإِنْ

---

(١) الجثو: الجلوس على الركبتين، أو القيام على أطراف الأصابع. (القاموس: مادة جثا).

(٢) يقال: استَوفَزَ في قعدته: اذا قعد قعوداً منتصباً غير مطمئن. (الصحاح: مادة وفز).

(٣) الجاثية: ٢٨. (٤) العنكبوت: ١٣.

(٥) هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي، من أئمة اللغة والأدب وواضع علم العروض في الشعر، ولد عام ١٠٠ هـ في البصرة، وعاش فيها فـقيراً صابراً مغموراً في الناس لايُعرف، وهو أُستاذ سيبويه النحوي، توفي عـام ١٧٠ هـ. أُنـظر وفيات الأعيان لابن خلكان: ج ٢ ص ١٥.

(٦) حكاه عنه تلميذه سيبويه ومكي بن أبي طالب القيسي. راجع كتاب سيبويه: ج ٢ ص ٣٣٩، ومشكل اعراب القرآن: ج ١ ـ ٢ ص ٤٥٨.

(٧) أُنظر كتاب سيبويه: ج ٢ ص ٣٩٩.

مِّنْهُمْ»(١)، أَو خِطابٌ للناسِ من غيرِ التفاتٍ إِلى المذكورِ، فإِن أُريدَ الجنسُ كلُّه فمعنى الورودِ: دخولُهم فيها وهي خامدةٌ(٢) فيعبُرُها المُؤمنونَ وتَنهارُ النارُ بغيرِهم، وعن ابنِ مسعود والحسن: هو الجوازُ على الصراطِ؛ لأَنَّ الصراطَ ممدودٌ عليها(٣)، وعن ابنِ عبَّاس: قد يَرِدُ الشيءُ الشيءَ وإن لم يدخُلْهُ، كقولِه: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾(٤) ووَردَتِ القافلةُ البلَدَ وإن لم تَدْخُلْهُ(٥)(٦)، وعن مُجاهدٍ: ورودُ المؤمنِ النارَ هو مَسُّ الحُمَّىٰ جسَدَهُ في الدنيا(٧)، لقولِه عليه السلام: «الحُمَّىٰ من فَيْحِ جهنَّم»(٨) و«الحُمَّىٰ حظُّ كُلِّ مؤمنٍ من النَّارِ»(٩)(١٠) وإِن أُريدَ الكُفَّارُ خاصَّةً فالمعنىٰ ظاهرٌ، والحَتْمُ مصدرُ حَتَمَ الأَمرَ: إِذا أَوجبَهُ فسُمِّيَ به المُوجَبُ، أَي: ﴿كَانَ﴾ ورودُهُم واجباً ﴿عَلَىٰ﴾ اللهِ، أَوجبَهُ علىٰ نفسِهِ وقَضَىٰ به.

وقُرِئَ: ﴿نُنَجِّي﴾ و«نُنْجِي»(١١) بالتشديدِ والتخفيفِ(١٢) ﴿جِثِيّاً﴾ حالٌ، وهو جمعُ جاثٍ.

---

(١) حكاه عنه ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ٨٩.

(٢) في نسخة: جامدة.

(٣ و٦) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٥.

(٤) القصص: ٢٣.

(٥) في نسخة زيادة: ولكن قربت منه.

(٧) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٠٥.

(٨) تعدّدت ألفاظ الحديث في روايات من طرق العامة، أُنظر على سبيل المثال: صحيح البخاري: ج ٤ ص ٢٤٦ ح ٣٢٦١ وج ٧ ص ٢٣٦ ح ٥٧٢٥، سنن ابن ماجة: ج ٢ ص ١١٤٩ ح ٣٤٧١ و٣٤٧٣، ومسند احمد ج ١ ص ٢٩١ وج ٢ ص ٢١ و٨٥.

(٩) مجمع الزوائد للهيثمي: ج ٢ ص ٣٠٦، الترغيب والترهيب للمنذري: ج ٤ ص ٣٠٠.

(١٠) في نسخة زيادة: ويجوز أن يراد بالورود جثوّهم حولها.

(١١) وهي قراءة الكسائي ويعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٧.

(١٢) في نسخة زيادة: وينجّىٰ وينجىٰ على مالم يسمّ فاعله إن أُريد الجنس باسره فهو ظاهر، وإن أُريد الكفرة وحدهم، فمعنى ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾: انّ المتقين يساقون الى الجنة عقيب ورود الكفّار، لا أنّهم يواردونهم ثم يتخلصون.

﴿بَيِّنَـٰتٍ﴾ ظاهراتِ الحُجَجِ، مبيَّناتِ المقاصدِ، وهي حالٌ مؤكِّدةٌ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقاً﴾(١)، وقُرِئَ: «مُقَاماً»(٢) بالضمِّ وهو موضعُ الإقامةِ، وقُرِئَ بالفتحِ وهو موضعُ القيامِ، والنديُّ: المجلِسُ وحيث يَنْتَدي القومُ، والمعنَىٰ: أنَّهم إذا سَمِعُوا الآياتِ(٣) قالوا: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ من المؤمنينَ بِهَا والجاحدينَ لها أوفرُ حظّاً من الدنيا(٤).

وَ﴿كَمْ﴾ مفعولُ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِن﴾ تبيينٌ لإبهامِهَا، أَي: كثيراً من القرونِ أهلَكْنا، و ﴿هُمْ أَحْسَنُ﴾ في موضع نصبٍ صفةً لِـ﴿كَمْ﴾، والأَثَاثُ: متاعُ البيتِ، وقُرِئَ: ﴿وَرِءْياً﴾ بالهمزةِ وغيرِ الهمزةِ(٥) وهو فِعْلٌ بمعنى مفعولٍ من رأَيت، ومن لم يَهمِزْ قَلَبَ الهمزةَ ياءً وأَدغَمَ، ويجوزُ أَن يكونَ من الريِّ الَّذي هو النعمةُ والترفُّهُ، من قولِهِم: ريَّانٌ من النعيم.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدّاً حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَايُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً (٧٥) وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً (٧٦) أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً (٧٧) أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ

---

(١) البقرة: ٩١.

(٢) قرأه ابن كثير وحده. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٧.

(٣) في نسخة زيادة: وهُم جهلة لايعلمون إلّا ظاهراً من الحياة الدنيا، وذلك مبلغهم من العلم.

(٤) في نسخة هنا زيادة: حتى يجعل ذلك عياراً على الفضل والنقص والرفعة والضعة، ويروى انّهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون رؤوسهم ويتطيبون ويتزينون بالزين الفاخرة، ثم يدعون مفتخرين علىٰ فقراء المسلمين أنّهم اكرم عند الله منهم.

(٥) وهي قراءة نافع وابن عامر وابن ذكوان والأعشىٰ. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤١١، والتذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٧.

مِّنْهُمْ»[١]، أَو خِطابٌ للناسِ من غيرِ التفاتٍ إِلى المذكورِ، فإن أُريدَ الجنسُ كـلُّه فمعنى الورودِ: دخولُهم فيها وهي خامدةٌ[٢] فـيعبُرُها المُـؤمنونَ وتَـنهارُ النـارُ بغيرِهم، وعن ابنِ مسعود والحسن: هو الجوازُ على الصراطِ؛ لأَنَّ الصراطَ ممدودٌ عليها[٣]، وعن ابنِ عبَّاس: قد يَرِدُ الشيءُ الشيءَ وإن لم يدخُلْهُ، كقولِه: ﴿وَلَـمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾[٤] ووَرَدَتِ القافلةُ البلَدَ وإن لم تَدْخُلْهُ[٥][٦]، وعـن مُـجاهدٍ: ورودُ المؤمن النارَ هو مَسُّ الحُمَّىٰ جسَدَهُ في الدنيا[٧]، لقولِهِ عليه السلام: «الحُمَّىٰ مـن فَيْحِ جهنَّم»[٨] و «الحُمَّىٰ حظُّ كُلِّ مؤمنٍ من النَّارِ»[٩][١٠] وإن أُريدَ الكُفَّارُ خاصَّةً فالمعنىٰ ظاهرٌ، والحَتْمُ مصدرُ حَتَمَ الأَمرَ: إذا أَوجَبَهُ فسُـمِّيَ بـه المُـوجَبُ، أَي: ﴿كَانَ﴾ ورودُهُم واجباً ﴿عَلَىٰ﴾ ٱللهِ، أَوجبَهُ علىٰ نفسِهِ وقَضَىٰ به.

وقُرِئَ: ﴿نُنَجِّى﴾ و «نُنْجِي»[١١] بالتشديدِ والتخفيفِ[١٢] ﴿جِـثِيّاً﴾ حـالٌ، وهو جمعُ جاثٍ.

---

(١) حكاه عنه ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ٨٩.

(٢) في نسخة: جامدة.

(٣ و٦) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٥.

(٤) القصص: ٢٣. (٥) في نسخة زيادة: ولكن قربت منه.

(٧) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٠٥.

(٨) تعدّدت ألفاظ الحديث في روايات من طرق العامة، أُنظر عـلى سـبيل المـثال: صـحيح البخاري: ج ٤ ص ٢٤٦ ح ٣٢٦١ وج ٧ ص ٢٣٦ ح ٥٧٢٥، سنن ابن ماجة: ج ٢ ص ١١٤٩ ح ٣٤٧١ و٣٤٧٣، ومسند احمد ج ١ ص ٢٩١ وج ٢ ص ٢١ و٨٥.

(٩) مجمع الزوائد للهيثمي: ج ٢ ص ٣٠٦، الترغيب والترهيب للمنذري: ج ٤ ص ٣٠٠.

(١٠) في نسخة زيادة: ويجوز أن يراد بالورود جثوّهم حولها.

(١١) وهي قراءة الكسائي ويعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٧.

(١٢) في نسخة زيادة: وينجّىٰ وينجىٰ على مالم يسمّ فاعله إن أُريد الجنس باسره فهو ظاهر، وإن أُريد الكفرة وحدهم، فمعنى ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾: انّ المتقين يساقون الى الجنة عقيب ورود الكفّار، لا أنّهم يواردونهم ثم يتخلصون.

﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ ظاهراتِ الحُجَجِ، مبيَّناتِ المقاصدِ، وهي حالٌ مؤكِّدةٌ، كقولِه تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقاً﴾ (١)، وقُرِئَ: «مُقَاماً» (٢) بالضمِّ وهو موضعُ الإقامةِ، وقُرِئَ بالفتحِ وهو موضعُ القيامِ، والنديُّ: المجلِسُ وحيث يَنْتَدي القومُ، والمعنَىٰ: أنَّهم إذا سَمِعُوا الآياتِ (٣) قالوا: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ من المؤمنينَ بِهَا والجاحدينَ لها أوفرُ حظّاً من الدنيا (٤).

وَ﴿كَمْ﴾ مفعولُ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِن﴾ تبيينٌ لإبهامِهَا، أي: كثيراً من القرونِ أهلَكْنا، و ﴿هُمْ أَحْسَنُ﴾ في موضع نصبٍ صفةً لِـ﴿كَمْ﴾، والأَثَاثُ: متاعُ البيتِ، وقُرِئَ: ﴿وَرِءْياً﴾ بالهمزةِ وغيرِ الهمزةِ (٥) وهو فِعْلٌ بمعنى مفعولٍ من رأَيت، ومن لم يَهمِزْ قَلَبَ الهمزةَ ياءً وأَدغَمَ، ويجوزُ أن يكونَ من الريِّ الَّذي هو النعمةُ والترفُّهُ، من قولِهم: ريَّانٌ من النعيم.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدّاً حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَايُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً (٧٥) وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً (٧٦) أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً (٧٧) أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ

---

(١) البقرة: ٩١.

(٢) قرأه ابن كثير وحده. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٧.

(٣) في نسخة زيادة: وهُم جهلة لايعلمون إلّا ظاهراً من الحياة الدنيا، وذلك مبلغهم من العلم.

(٤) في نسخة هنا زيادة: حتى يجعل ذلك عياراً على الفضل والنقص والرفعة والضعة، ويروى انّهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون رؤوسهم ويتطيبون ويتزينون بالزين الفاخرة، ثم يدعون مفتخرين علىٰ فقراء المسلمين أنّهم اكرم عند الله منهم.

(٥) وهي قراءة نافع وابن عامر وابن ذكوان والأعشىٰ. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤١١، والتذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٧.

ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْداً (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَايَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدّاً (٧٩) وَنَرِثُهُ مَايَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً (٨٠)﴾

المعنىٰ: مَدَّ ﴿لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ أي: أَمهَلَهُ وأملَىٰ له في العُمرِ[1]، فأَتَىٰ بِهِ علىٰ لفظِ الأمرِ ليُعلَمَ بذلك أنَّه حتمٌ مفعولٌ لا مَحالةَ كالمأمورِ به؛ ليَقْطَعَ عذرَ الضالِّ إذ عَمَّرهُ مايُمكِنُهُ التذكُّرُ فيه، أو يكونُ في معنى الدعـاءِ بأَن يُـمهِلَهُ ٱللهُ، أو بـمعنىٰ: فليَعشْ ماشاءَ فإِنَّه لاينفعُهُ طولُ عمرِهِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟﴾ الموعودَ رأيَ عينٍ: ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ في الدنيا وهو ظفرُ المسلمين بهم وتعذيبُهم إِيَّاهم قتلاً وأَسْـراً ﴿وَإِمَّـا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: يومَ القيامةِ، وما ينالُهم من النكالِ ﴿فَـ﴾ حينئذٍ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ الأَمرَ علىٰ عكسِ ماقدَّروهُ، وأَنَّهم ﴿شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً﴾ لا ﴿خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾ كما قَالُوه، و ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هذه هي الَّتي تُحكَىٰ بعدها الجُمَلُ، والجملةُ هي قولُه: ﴿إِذَا رَأَوْا۟ مَايُوعَدُونَ ... فَسَيَعْلَمُونَ﴾، والنديُّ: المجلِسُ الجامِعُ لوجوهِ القومِ.

﴿وَيَزِيدُ﴾ معطوفٌ علىٰ موضعِ ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ والمعنىٰ: يزيدُ في ضلالِ الضُّلَّالِ بخذلانهِ، ويزيدُ في هدايةِ المهتَدينَ بتوفيقِهِ، و ﴿ٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ﴾ وهـي أَعمالُ الآخرةِ كلُّها ﴿خَيْرٌ ... ثَوَاباً﴾ من مُفاخَراتِ الكفَّارِ ﴿وَخَيْرٌ﴾ مرجِعاً وعاقبةً أَو خيرٌ منفَعَةً، من قولِهم: ليس لهذا الأَمرِ مَرَدٌّ وهو أَرَدُّ عليك أَي: أَنفعُ، قالَ:

ولا يَرُدُّ بُكَايَ زَنْداً[2]

ولمَّا كانت رؤيةُ الشيءِ طريقاً إِلىٰ علمِهِ، وصحَّةِ الخبرِ عنه ٱستعمَلُوا «أَرَأَيْتَ»

---

(١) في نسخة زيادة: ويزيده بانواع التنعمّ: كقوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ﴾.

(٢) وصدر البيت: ما إِن جَزِعْتُ ولا هَلِعْتُ. وهو من قصيدة لعمرو بن معد يكرب، وقبله:

كم من أخٍ لي صالحٍ ... بوّأته بيديّ لحدا

يقول: إنّ هذا الأخ الصالح ماحزنت عليه حزناً شديداً ولا هيّناً، وهذا نفي الحزن رأساً، وهو لايريد البكاء عليه، إذ لا يغني بكاه شيئاً، فتعقيبه نفي الجزع بهذا تنبيهاً علىٰ أنّ صبره عن تأدّبٍ وتبصّرٍ ومعرفةٍ بالعواقب. أُنظر خزانة الأدب للبغدادي: ج ١١ ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

في معنَى «أَخْبِرْ»، والفاءُ جاءَت للتعقيبِ، فكأَنَّه قالَ: أَخْبِرْ أيضاً بقصَّةِ هذا الكافرِ عقيبَ حديثِ أُولئكَ وهو العاصُ بن وائل: كان لخَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ عليه دينٌ فتقَاضَاهُ، فقالَ: لا واللهِ حتَّىٰ تكفرَ بمحمَّدٍ، فقالَ: لا واللهِ لا أَكفرُ بمحمَّدٍ حيّاً ولا ميِّتاً، ولا حينَ تُبْعَثُ[1]، قالَ: فإنِّي لمبعوثٌ؟ فإذا بُعِثْتُ سيكونُ لي مالٌ وولَدٌ فأُعطِيكَ.

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ من قولِهِم: اَطَّلَعَ الجَبَلَ: إذا ارتَقَىٰ إِلىٰ أَعلاهُ، والمعنىٰ: أَو قَدْ بلَغَ من عظمةِ قدرِهِ أَنِ ارْتقَىٰ إِلىٰ علمِ الغيبِ حتَّى عَلِمَ أَنَّا سنُؤتِيهِ ﴿مالاً وَوَلَداً ... أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ﴾ اللهِ ﴿عَهْداً﴾؟ فإنَّ ما ادَّعاهُ لا يُتوصَّلُ إليه إلّا بأَحَدِ هذينِ الطريقَينِ، وقُرِئَ: «وُلْداً»[2] وهو جمعُ وَلَدٍ.

﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ وتنبيهٌ على الخَطأ، أَي: هو مُخطئٌ فيما تصوَّره لنفسِهِ وتمنَّاه، فليرتَدِعْ عنه. ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أَي: ماعندَهُ من المالِ والولَدِ بإِهلاكِنا إِيَّاهُ ﴿وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾ وحيداً بلا مالٍ ولا وَلَدٍ ولا عُدَّةٍ ولا عَدَدٍ.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْداً (٨٥) وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً (٨٦) لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْداً (٨٧) وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَداً (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدّاً (٨٩) تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدّاً (٩٠) أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَداً (٩١)﴾

---

(١) في نسخة زيادة: يا كافر.

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٢٧.

أي: ليتعزَّزُوا بآلهتِهم بأن يكونُوا لهم شفعاءَ في الآخرةِ. ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لهم وإنكارٌ لتعزُّزِهِم بهم ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ الضميرُ لـ«الآلهة» أي: سيجحَدُونَ عبادتَهُم ويُنكرونَها ويقولُونَ: وَٱللهِ ماعبدتُمونا، كقوله: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ (١) أَو للمشركينَ، أَي: يُنكِرونَ أَن يكونُوا عَبَدُوها كما في قوله: ﴿وَٱللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٢). ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ هو في مقابلةِ ﴿لَهُمْ عِزًّا﴾ والمرادُ: ضدُّ العزِّ وهو الذُلُّ والهَوانُ، أَي: يكونُونَ عليهم ضِدّاً لما قَصَدُوه وذُلّاً لهم لا عِزّاً، أَو يكونُونَ عليهم عوناً، والضِدُّ: العونُ؛ لأَنَّه يُضادُّهُ بإِعانتِهِ عليه، وإِنَّما وحَّدَ لأَنَّهم كشيءٍ واحدٍ في تَضامِّهِم وتوافُقِهِم، كقولهعليه‌السلام: «وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُم» (٣).

﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أَي: تُزعِجهم إِزعاجاً من الطاعةِ إِلى المعصيةِ، وتُهَيِّجهم وتُغريهم لها بالوساوس، والمعنىٰ: خَلَّيْنَا بينَهم وبينهم ولم نَمْنَعْهم (٤) ولم نَحُلْ بينَهُم وبينَهم بالإِلجاءِ.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بأَن يَهلِكُوا ويَبيدُوا حتَّىٰ تَستَريحَ منهم، فليس بينَك وبينَ هَلاكِهِم إِلَّا أَيَّاماً معدودةً قليلةً.

وعن ابنِ عبَّاس: أَنَّه كانَ إِذا قرأَها بَكَىٰ وقال: آخِرُ العددِ خُروجُ نفسِكَ، آخِرُ العددِ فراقُ أَهلِكَ، آخِرُ العددِ دخولُ قبرِكَ (٥)

---

(١) النحل: ٨٦. (٢) الانعام: ٢٣.

(٣) أخرجه النسائي في سننه: ج ٨ ص ٢٠ من كتاب القسامة باسناده عن عليعليه‌السلام.

(٤) في نسخة زيادة: ولم نعصمهم، وقيل: سلّطناهم كقوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَـٰنًا﴾ وسمّيت التخلية باسم الإرسال مجازاً كقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ﴾ أي: سلّطنا.

(٥) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٢.

وعن ابنِ السمّاك[١]: إذا كانت الأنفاسُ بالعددِ ولم يَكُن لها مدَدٌ فما أسرَعَ ماتَنْفَدُ[٢].

ذكَر ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بلفظِ التبجيلِ، وهو أَنَّهم يُجمَعُونَ إلىٰ ربِّهم الَّذي غَمَرَهُم برحمتِهِ كما يَفِدُ الوُفَّادُ على الملوكِ ينتظرونَ فضلَهُ وإكرامَهُ، وذكَرَ الكافِرِينَ بأَنَّهم يُسَاقُونَ إلى النارِ باستخفافٍ وإهانةٍ كأَنَّهم إبلٌ عِطَاشٌ تُساقُ إلى الماءِ.

﴿لَايَمْلِكُونَ﴾ الواو ضميرُ العبادِ، ودلَّ عليه ذكرُ ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ و﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، و ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ﴾ بدلٌ، ويجوز أَن تكونَ علامةَ الجمعِ على لغةِ مَنْ قالَ: أَكلونِيَ البَراغيثُ، والفاعلُ ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ﴾ لأَنَّه في معنى الجمعِ، وإِن نَصَبْتَ ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ﴾ علىٰ تقديرِ حذفِ المضافِ جازَ، أَي: ﴿إِلَّا﴾ شفاعةَ ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ﴾، والمرادُ: لايملِكُونَ أَن يُشفَعَ لهم، واتِّخاذُ العهدِ هو الاستظهارُ بالإيمانِ والإقرارِ بوحدانيَّةِ ٱللهِ وتصديقِ أَنبيائه وأَوليائه، وقيلَ: إِنَّ المعنىٰ: لايَشفَعُ إِلَّا من أَطلقَ الرحمنُ له الشفاعةَ وأَذِنَ له فيه كالأَنبياءِ والأَئمَّةِ وخيارِ المؤمنينَ[٣].

وعن ابنِ مسعود: أَنَّ النبيَّ ﷺ قال لأَصحابِهِ ذاتَ يومٍ: «أَيَعجزُ أَحدُكُم أَن يَتَّخِذَ كُلَّ صباحٍ ومساءٍ عند ٱللهِ عهداً؟» قالوا: وكيفَ ذلك؟ قالَ: «يقولُ: اللَّهُمَّ فاطرَ السَّماواتِ والأرضِ، عالمَ الغيبِ والشهادةِ، إِنِّي أَعهدُ إِليكَ بأَنِّي أَشهَدُ أَن لَّا إِلـٰه إِلَّا أَنتَ وحدَكَ لا شريكَ لكَ، وأَنَّ محمَّداً عبدُكَ ورسولُكَ، وإِنَّك إِن تَكِلْنِي إِلىٰ نَفْسي تُقَرِّبْني من الشرِّ وتباعِدْني من الخيرِ، وإِنِّي لا أَثِقُ إِلَّا برحمتِكَ، فاجْعَلْ

(١) هو أبو عمرو عثمان بن أحمد بن عبد الله الدقّاق، المعروف بابن السمّاك، من أهل بغداد، كان مكثراً من الحديث، وله حلقة درس، مات عام ٣٤٤ هـ ببغداد ودفن بمقبرة باب الدير. راجع الانساب للسمعاني: ج ٣ ص ٢٩٠.

(٢) حكاه عنه الرازي في تفسيره: ج ٢١ ص ٢٥٢.

(٣) قاله ابن عطية. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٢١٨.

سورةُ طَـٰه

مكّيّةٌ[1]، وهي مائةٌ وخمسٌ وثلاثونَ آيةً كوفيٌّ، اثنتانِ بصريٌّ، عدَّ الكوفيُّ: ﴿طه﴾ ﴿نُسَبِّحَكَ كَثِيراً﴾[2] ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾[3] ﴿لِنَفْسِى﴾[4] ﴿مَاغَشِيَهُمْ﴾[5] ﴿رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ﴾[6]، وعدَّ البصري: ﴿فُتُوناً﴾[7] ﴿مِنِّى هُدًى﴾[8] ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[9].

في حديثِ أُبيٍّ: «من قرأَها أُعطِيَ يَومَ القيامةِ ثوابَ المهاجرين والأنصار»[10].

وعن الصادقِ عليه السلام: «لا تَدَعُوا قِراءَةَ طه، فإِنَّ ٱللهَ يُحبُّها ويُحبُّ مَن قرأَها، ومَنْ أَدْمَنَ قِراءَتَها أعطاهُ ٱللهُ كتابَهُ بيمينهِ ولم يُحاسبْهُ بما عَمِلَ في الإسلامِ، وأُعطيَ من الأَجرِ حتَّىٰ يرضىٰ»[11].

---

(١) قال الزمخشري في كشّافه: ج ٣ ص ٤٩: مكية إلّا آيتي ١٣٠ و ١٣١ فمدنيتان، وهي ١٣٥ آية، نزلت بعد مريم.

(٢ و٣) الآية: ٣٣ و٣٤.

(٤) الآية: ٤١.

(٥) الآية: ٧٨.

(٦) الآية: ٩٢.

(٧) الآية: ٤٠.

(٨) الآية: ١٢٣.

(٩) الآية: ١٣١.

(١٠) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٠٠ مرسلاً.

(١١) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٤.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طه (١) مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى (٤) ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ (٥) لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ (٦) وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ٱللهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ (٨)﴾

قُرِئَ بتفخيمِ ﴿ط﴾ وإمالةِ ﴿ـه﴾[١]، وقُرِئَ بإمالتِهِمَا[٢]، وتَفْخيمِهِمَا[٣]، وعن الحسن: «طَهْ»[٤]، وفُسِّرَ بأنَّه أَمرٌ بالوطءِ[٥]، وأَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله كانَ يقومُ في تهجُّدهِ علىٰ إحدىٰ رِجلَيه، فأُمِرَ بأَن يَطَأَ الأَرضَ بقدَمَيهِ معاً[٦]، ورُوِيَ ذلك عن الصادق عليه السلام[٧]، والأَصلُ «طَأْ» فقُلِبَت همزتُه هاءً، أَو قُلِبَتْ أَلفاً في «يَطَأْ» ثُمَّ بُنِيَ عليه الأَمرُ، والهاءُ للسكتِ.

﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾ إنْ جُعلَت ﴿طه﴾ اسماً للسورةِ احتَمَلَ أَن يكونَ خبراً عنه وهو مبتدأٌ و ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ أُوقِعَ موقعَ الضميرِ لأَنَّ السورةَ قرآنٌ، واحتَمَلَ أَن يكونَ جواباً

---

(١) وهي قراءة أبي عمرو وورش وأبي اسحاق. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٣١، وتفسير القرطبي: ج ١١ ص ١٦٨.

(٢) قرأه حمزة والكسائي والأعمش وخلف وأبو بكر الّا الأعشىٰ والبرجمي. راجع التبيان: ج ٧ ص ١٥٧، وتفسير القرطبي: ج ١١ ص ١٦٨.

(٣) وهي قراءة الجمهور. راجع المصادر السابقة.

(٤) تفسير الحسن البصري: ج ٣ ص ١١٥.

(٥) وهو ما حكاه ابن الأنباري. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٩٣.

(٦) رواه ابن عباس والربيع بن أنس كلاهما عنه صلى الله عليه وآله. راجع تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٣٣٦، وتفسير ابن كثير: ج ٣ ص ١٣٨.

(٧) أُنظر تفسير القمي: ج ٢ ص ٥٧ ـ ٥٨.

له وهو قَسَمٌ ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ أي: لتتعبَ هذا التعَبَ، وكان ﷺ يُصلِّي الليلَ كُلَّه ويُعلِّقُ صدرَهُ بحبلٍ حتَّىٰ لايَغلِبَهُ النومُ، فأمرَه ٱللهُ سبحانَه أنْ يُخفِّفَه علىٰ نفسِهِ، و«الشقَاءُ» يجيءُ بمعنىٰ «التعب» ومنه المَثَلُ: «أَتْعَبُ من رائضِ مُهْرٍ» و«أشقىٰ مِنْ رائض مُهرٍ».

﴿تَذْكِرَةً﴾ علَّةٌ للفعلِ و ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ كذلك، إلَّا أنَّ هذا وَجَبَ مجيئُهُ مع اللامِ لأنَّه ليس لفاعلِ الفعلِ المعلَّلِ(١)، والمعنىٰ: لكن أنزلنَاهُ ﴿لِـ﴾ نُـذكِّـرَ بـه ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ ٱللهَ، والتذكرةُ بمعنى التذكيرِ.

﴿تَنزِيلًا﴾ أَي: نُنَزِّلُ تنزيلاً، ويجوزُ أن يُنصَبَ بـ ﴿أَنزَلْنَا﴾ لأنَّ معنىٰ «مَآ أَنزَلْنَاهُ إِلَّا تَذْكِرَةً»: أنزلْناهُ تذكرةً، أو يكونُ بمعنىٰ: أنزلَهُ ٱللهُ تذكرةً لمَنْ يَخشَىٰ تنزيلَ ٱللهِ، وما بعدَ ﴿تَنزِيلًا﴾ إلىٰ قولِهِ: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ تعظيمٌ لشأنِ المُنزَلِ لنسبتِهِ إلىٰ مَن هذِهِ أفعالُه وصفاتُه، و﴿ٱلْعُلَى﴾ جمعُ «العُليَا» تأنيثُ «الأَعْلَىٰ»، ووصَفَ ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ بذلك دَلالةً علىٰ عِظَمِ اقتدارِ من يَخلُقُ مثلَها في عُلُوِّها.

و﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ مرفوعٌ على المدحِ علىٰ تقديرِ: هو الرحمنُ، والجملةُ الَّتي هي ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ يجوزُ أن تكونَ خبر لمُبتدأ محذوف، وأن تكونَ مع ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ خبرَيْنِ للمبتدأ، ولمَّا كانَ الاستِواءُ ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الَّذي هو سريرُ المَلِكِ ممَّا يَردُفُ(٢) المُلكَ جعلوهُ كنايةً عن المُلْكِ فقالوا: ٱسْتَوَىٰ على العَرْشِ بِمعنى: مَلَكَ، ونحوُه: قولُهم: يَدُ فلانٍ مبسوطةٌ أَي: هو جوادٌ، ويَدُه مغلولةٌ أي: هو بخيلٌ، من غيرِ تصوُّرِ يدٍ ولا غُلٍّ ولا بَسْطٍ. ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ أَي: ما في ضمنِ الأَرضِ من الكنوزِ والأمواتِ.

---

(١) في نسخة زيادة: به ففاتته شريطة الانتصاب.

(٢) في نسخة: يرادف.

﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ وهو ما أَسْرَرتَهُ إلىٰ غيرِكَ ﴿وَأَخْفَى﴾ من ذلك وهو ما أخطَرْتَهُ ببالِكَ، أَو ما أَسرَرتَهُ في نفسِكَ ﴿وَأَخْفَى﴾ منه وهو ما ستُسِرُّهُ فيها، والمعنىٰ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ﴾ بذكرِ ٱللهِ وغيرِهِ فاعلَمْ أنَّه غنيٌّ عن جهرِكَ لأَنَّهُ عَلِمَ ﴿ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ منه[1]. و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ تأنيثُ الأحسنِ.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (٩) إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ (١١) إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ (١٣) إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ (١٤) إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ (١٦)﴾

ثمَّ قفَّاهُ بقصَّةِ ﴿مُوسَىٰٓ﴾ عليه السلام ليقتديَ به في الصبرِ علىٰ تكاليفِ الرسالةِ ومُقاساةِ الشدائدِ، و﴿إِذْ﴾ ظرفٌ لـ﴿حَدِيثُ﴾ أو مفعولٌ لـ«ٱذْكُرْ»، استأذَنَ موسىٰ عليه السلام شُعيباً في الخروجِ إلىٰ أُمِّه، وخرجَ بأَهلِهِ، فوُلِدَ له في الطريقِ ابنٌ في ليلةٍ شاتيةٍ مُظلِمَةٍ، وقد ضَلَّ الطريقَ وتفرَّقَتْ ماشيتهُ ولم ينقدحْ زندُه[2]، فـ﴿رَءَا نَارًا﴾ من بعيدٍ ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ في مكانكم ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ﴾ أي: أَبْصَرْتُ، والإِيناسُ: الإبصارُ البيِّنُ الَّذي لاشُبهةَ فيه، وقيلَ: هو إبصارُ ما يُؤنَسُ به[3]، ولمَّا كانَ الإيناسُ متيقَّناً حقَّقهُ بلفظةِ «إنَّ»، ولمَّا كانَ الإتيانُ بالقَبَسِ ـ وهو النارُ المقتبسةُ ـ

---

(١) في نسخة زيادة: عنده.

(٢) الزند: العود الذي يُقدح به النار. (الصحاح: مادة زند).

(٣) قاله ابن عباس. راجع تفسير القرطبي: ج ١١ ص ١٧١.

ووجودُ الهُدَىٰ متوَقَّعَيْنِ بَنَى الأَمرَ فيهما على الرجاءِ والطمعِ فقالَ: ﴿لَعَلِّىٓ﴾ لئَلَّا يَعِدَ ماليسَ الوفاءُ به مستيقناً، وأَرادَ بِـ﴿هُدًى﴾ قوماً يهدونه إلى الطريقِ، أَو ينفعونه بهداهم في أبوابِ الدينِ؛ لأَنَّ أَفكارَ الأَبرارِ مغمورةٌ بالهِمَمِ الدينيَّةِ في جميعِ أَحوالِهم، والمعنىٰ: ذَوي هُدىً، أَو إِذا وُجِدَ الهُداةُ فقد وُجِدَ الهدىٰ.

وقُرِئَ: «أَنِّي» بالفتحِ[١]، أَي: ﴿نُودِىَ﴾ بأَنِّي ﴿أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ ومن كَسَرَ فالمعنىٰ: نُودِيَ فقيلَ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾، أَو لأَنَّ النداءَ ضربٌ مِن القَولِ، والمعنىٰ في تكريرِ الضميرِ: تَوكيدُ الدلالةِ وتحقيقُ المعرفةِ.

ورُوي[٢]: أَنَّه حين انتهىٰ رأَى شجرةً خَضراءَ من أَسفَلِها إلى أَعلاها تَتَوَقَّدُ فيها نارٌ بيضاءُ، وسَمِعَ تسبيحَ الملائكةِ، ورأَىٰ نوراً عظيماً لم تكُنِ الخضرةُ تُطفِئُ النارَ ولا النارُ تُحرِقُ الخضرةَ، فَعلِمَ أَنَّه لأَمرٍ عظيم، فبُهِتَ فأُلقِيَتْ عليه السكينَةُ ثُمَّ نُودِيَ: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قيلَ: أُمِرَ بخَلْعِ النعلينِ لأَنَّهما كانتا من جلد حِمارٍ ميِّتٍ[٣]، وقيلَ: ليُباشِرَ الوادِيَ بقَدَمَيْه متبرِّكاً به واحتراماً له[٤] [٥] ﴿طُوًى﴾ قُرِئَ بالتنوين وغير التنوين[٦] بتأويلِ المكانِ والبقعةِ، وقيلَ: سمِّيَ به لأَنَّه قُدِّسَ مرَّتَينِ فكأَنَّه طُوِيَ بالبركةِ كرَّتينِ[٧].

---

(١) قرأه ابن كثير وأبو عمرو ونصير. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٣١.

(٢) وهو ما رواه ابن عباس. راجع تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٣٣٧.

(٣) قاله كعب الأحبار وعكرمة والحسن، وروته العامّة عن النبيﷺ. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢١٣، وتفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ١١٦، وتفسير ابن العربي: ج ٣ ص ٢٥٣.

(٤) في نسخة زيادة: وقيل: لأن الحفوة تواضع، ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافين.

(٥) وهو قول عليعليه السلام والحسن وابن جريج ومجاهد وعكرمة. راجع التبيان: ج ٧ ص ١٦٤، وتفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٩٦.

(٦) وبغير التنوين قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو والحسن وأبو السمال والأعمش وابن محيصن. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٩٠، وكتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤١٧.

(٧) قاله الحسن البصري في تفسيره: ج ٢ ص ١١٥.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ أي: أصطفيتكَ للرسالةِ، وقرئَ: «وَإِنَّا اخْتَرْنَاكَ»[١]، ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ تعلّقَ اللامُ بـ﴿ٱسْتَمِعْ﴾ أو بـ﴿ٱخْتَرْتُكَ﴾ و «مَا» موصولةٌ أو مصدريّةٌ.

﴿لِذِكْرِىٓ﴾ أي: لتذكرني[٢] فيها؛ لأنَّ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تشتمِلُ على الأذكارِ، وعن مجاهد: لأنّي ذكرتُها في الكُتبِ وأمرتُ بها[٣]، وقيلَ: لأن أذكرَكَ بالمدحِ والثناءِ وأجعَلَ لكَ لسانَ صدقٍ[٤]، أو لذِكرِي خاصّةً لاتَشوبُه بذكرِ غيرِي، أو لأوقاتِ ذِكرِي وهي مَواقيتُ الصلاةِ، واللامُ مثلُها في قولِكَ: جِئتُكَ لوقتٍ كذا ولِستٍّ مَضَيْنَ، ومثلُه قولُه: ﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾[٥]، وقيلَ: إنّه ذِكرُ الصلاةِ بعدَ نسيانها أي: أقِمها متىٰ ذكَرْتَ: كُنتَ في وقتِها أو لم تكُنْ[٦]، ورُويَ ذلكَ عنِ الباقرِ[٧] عليه السلام[٨]، وكان ينبغي أن يُقالَ: لِذِكرِها ولكنّه علىٰ حذفِ المضافِ أي: لذكرِ صلاتي، أو لأنّه إذا ذُكِرَ الصلاةُ فقد ذُكِرَ اللهُ.

﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي: فلا أقولُ: هي ﴿ءَاتِيَةٌ﴾ لفرطِ إرادتي إخفاءَها، ولولا مافي الإخبارِ بإتيانها مع تَعميَةِ وقتِها من اللطفِ لَما أخبرتُ به، وفي مصحفِ أُبيٍّ: «أَكَادُ أُخْفِيهَا مِنْ نَفْسِى»[٩] ورُويَ ذلكَ عن الصادقِ عليه السلام[١٠] ﴿لِتُجْزَىٰ﴾ يتعلّقُ بـ﴿ءَاتِيَةٌ﴾، ﴿بِمَا تَسْعَىٰ﴾ أي: بسعيها.

---

(١) وهي قراءة حمزة والمفضّل. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٣٢.
(٢) في بعض النسخ زيادة: فإنّ ذكري أن أُعبد ويصلّىٰ لي أو لتذكرني.
(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥٥.
(٤) حكاه الزمخشري أيضاً في الكشّاف. (٥) الفجر: ٢٤.
(٦) وهو قول ابن عباس وابراهيم، ورواه سعيد بن المسيب عن النبي صلى الله عليه وآله. راجع تفسير ابن عباس: ص ٢٦٠، وتفسير الماوردي: ج ٣ ص ٣٩٧، وتفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٣٣٨.
(٧) في نسخة: الصادق عليه السلام.
(٨) رواه الكليني في الكافي: ج ٣ ص ٢٩٣ ح ٤، والآلوسي في تفسيره: ج ١٦ ص ١٧١.
(٩) حكاها أبو الليث السمرقندي في تفسيره: ج ٢ ص ٣٣٨.
(١٠) رواه عنه عليه السلام الآلوسي في تفسيره: ج ١٦ ص ١٧٢.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ عن تصديقِها، والضميرُ للقيامةِ أو عنِ الصلاةِ ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ بالقيامةِ، ولا يهولنَّكَ كثرةُ عددِهم ووفورُ سَوادِهم فإنَّ بناءَ أمرِهم على اتِّباعِ الهَوَىٰ ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي: فتهلكَ.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ (٢١) وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى (٢٣) ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي (٢٦) وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُواْ قَوْلِي (٢٨) وَٱجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَـٰرُونَ أَخِي (٣٠) ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِيَ أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ (٣٦)﴾

﴿بِيَمِينِكَ﴾ في موضعِ الحالِ، والعاملُ فيه معنَى الإشارةِ، وإنَّما سألَه ليُريَه عِظَمَ ما يفعلُه بها[١]، ويُنَبِّهَه علىٰ باهرِ قدرته.

﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ أعتَمِدُ عليها إذا مَشَيتُ أو وَقَفْتُ علىٰ رأس القطيع ﴿وَأَهُشُّ﴾ أي: أخبِطُ الورَقَ ﴿بِهَا عَلَىٰ﴾ رؤوس ﴿غَنَمِي﴾ تأكُلُه ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي: حاجاتٌ أُخَرُ، قالُوا: انقطَعَ لسانُه من الهيبةِ فأَجْمَلَ[٢].

﴿تَسْعَىٰ﴾ أي: تمشي بسرعةٍ وخفَّةِ حركةٍ، وعن ابن عبَّاس: انقلَبَ ثُعباناً

(١) في نسخة زيادة: من قلبها حيّة.

(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٥٨.

ذَكَراً يبتلعُ الصخرَ والشجرَ، فلمَّا رآهُ موسَى خافَ[١].

ولمَّا ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ بَلَغَ من ذَهابِ خوفِه أَن أَدخَلَ يدَه في فمِها وأَخذَ بلَحْيِها، والسِيرَةُ: من السَيرِ كالرِكبةِ من الرُكوبِ ثمَّ نُقِلَتْ إِلىٰ معنى الطريقةِ[٢] فقيلَ: سِيَرُ ٱلأَوَّلِينَ، فيجوزُ أَن ينتصبَ على الظرفِ أَي: ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ في طريقتِهَا ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ أَي: في حالِ ماكانت عصاً، ويجوزُ أَن يكونَ مفعولاً ثانياً لـ«أعاد»، أَو يَنتَصِبَ بفعلٍ مضمرٍ والمعنىٰ: سنُعيدُها سائرةً ﴿سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ حيثُ كُنتَ تتوكَّأُ عليها ولكَ ﴿فِيهَا﴾ المآربُ الَّتي عرَّفتَها.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ إِلىٰ جَنْبِكَ[٣] تحتَ العَضُدِ مستعارٌ من جَناحِ الطائرِ ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ كنايةٌ عن البَرَصِ كما كُنِّيَ عن العَورَةِ بالسوءَةِ[٤].

رُويَ: أَنَّهﷺ كان آدَمَ[٥]، فأَخرجَ يدَه من مِدْرعته ﴿بَيْضَآءَ﴾ لها شُعاعٌ كشُعاعِ الشمسِ تُغشي البصرَ[٦].

وقولُه: ﴿بَيْضَآءَ﴾ و ﴿ءَايَةً﴾ حالانِ، و ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ حالٌ من معنىٰ ﴿بَيْضَآءَ﴾ أَي: ٱبيَضَّتْ من غيرِ سُوءٍ، ويجوزُ أَن يَنتَصِبَ ﴿ءَايَةً﴾ بإِضمارِ «خُذْ» ونحوِه، وتَعلَّقَ به ﴿لِنُرِيَكَ﴾ أَي: خُذْ هذهِ الآيَةَ أَيضاً بعدَ قلبِ العَصَا حيَّةً لنُريَكَ

---

(١) أخرجه عنه الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٤٠٧.

(٢) في نسخة هكذا: ثم اتّسع فيها فنقلت الى معنى المذهب والطريقة.

(٣) في نسخة: جيبك.

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ الأعراف: ٢٠، ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ الأعراف: ٢٢، ﴿يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ الأعراف: ٢٦، ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ الأعراف: ٢٧، ﴿يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ و ﴿فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ المائدة: ٣١، ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ طه: ١٢١.

(٥) الآدم من الناس: الأسمر. (الصحاح: مادة ادم).

(٦) رواه مجاهد ووهب بن منبه. راجع تفسير الطبري: ج ٨ ص ٤٠٨.

بهاتَينِ الآيَتَينِ بعضَ ﴿ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أو لِنُرِيَكَ بهما الكبرىٰ من آياتنا، ويجوزُ أَن يكونَ التقديرُ: لنُريَكَ من آياتِنا فَعَلْنَا ذلكَ.

ولمَّا أَمَرَهُ سبحانَه بالذهابِ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ عَرَفَ أَنَّه كُلِّفَ أمراً عظيماً، فسأَلَ ربَّه أَن يشرحَ صدرَهُ حتَّىٰ لايَضْجَرَ ولا يَغْتَمَّ، ويستقبلَ الشدائدَ بجميلِ الصبرِ، وأَن يُسهِّلَ عليه أَمرَهُ الَّذي هو خلافَةُ ٱللهِ في أَرضه وما يصحبُها من مقاساةِ الخُطُوبِ الجليلةِ، وعن ابنِ عبَّاس: كـانَ فـي لسـانِه رُتَّـةٌ[1] [2] لمـا رُوِيَ مـن حـديثِ الجَمْرَةِ[3]، واختُلِفَ في زوالِ العقدةِ: فـقيلَ: ٱنـحَلَّتْ عـن لسـانِه وزَالَتْ وهـو ٱلصحيحُ لقولِه: ﴿أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾[4]، وقيلَ: بَقِيَ بعضُها لقولِه: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَاناً﴾[5] [6].

والوَزيرُ منَ الوِزْرِ؛ لأَنَّه يتحمَّلُ عن المَلِكِ أَوزارَهُ[7]، أَو مِن الوَزَرِ[8] لأَنَّ المَلِكَ يَعتَصِمُ برأيِه[9]، أَو منَ المُوَازرةِ وهي المُعاونَةُ ﴿وَزِيـراً﴾ و ﴿هَـٰرُونَ﴾ مفعولانِ لِـ ﴿ٱجْعَل﴾ أَي: ٱجعَلْ هَارونَ وزيراً ﴿لِى﴾ فقُدِّمَ عنايةً بأَمرِ الوِزَارةِ،

---

(١) الرتّة بالضمّ: عجلة في الكلام وقلّة أناة، وقيل: هو أن يقلب اللام ياء، وقيل: هي ردّة قبيحة في اللسان من العيب، وقيل: هي العُجمة في الكلام. (لسان العرب: مادة رتت).

(٢) أُنظر تفسير ابن عباس: ص ٢٦١.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره: ج٨ ص ٤١٠، وحديث الجمرة باختصار: أنّه أراد فرعون قتل موسىٰ عليه السلام وهو طفل لأنّه أخذ بلحيته ونتفها، فقالت له آسية زوجته: انّه صبي لايعقل وعلامة جهله أنّه لايميِّز بين الدّرة والجمرة، فاحضر فرعون الدرة والجمرة لامتحانه، فأراد موسىٰ أن يأخذ الدّرة فصرف جبرائيل يده الى الجمرة فأخذها ووضعها في فيه فاحترق لسانه.

(٤) قاله السدي. راجع تفسير الطبري: ج ٨ ص ٤١٠.

(٥) القصص: ٣٤.

(٦) وهو قول الحسن البصري في تفسيره: ج ٢ ص ١١٦.

(٧) في نسخة زيادة: ومؤنه.

(٨) الوَزَر: يعني الملجأ. (الصحاح: مادة وزر).

(٩) في نسخة زيادة: ويلتجئ إليه في أُموره.

وقيل: إنّ المفعولَين ﴿لِى وَزِيراً﴾ و﴿هَـٰرُونَ﴾ عطفُ بيانٍ[١]، وقرأ ابنُ عـامرٍ: «أشدُدْ ... وَأَشْرِكْهُ» على الجوابِ[٢]، والأَزْرُ: القُـوَّةُ، وأَزرَهُ: قـوّاهُ، أي: اجْـعَلْهُ شَريكي في الرسالةِ حتّىٰ نتَعَاونَ علىٰ عبادتِكَ وذكرِك ونتَزايَدَ الخيرَ.

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً﴾ أي: عالماً بأحوالِنا، وأنَّ هارونَ نِعمَ المـعينُ[٣] لي والشَّادُّ لعَضُدِي، والسُّؤْلُ: الطَّلِبَةُ، فُعْلٌ في معنى مفعول كـالخُبزِ والأُكْـلِ بـمعنى المخبوزِ والمَأكولِ.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَايُوحَىٰٓ (٣٨) أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ (٣٩) إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَاتَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ (٤٠) وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى (٤١) ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَاتَنِيَا فِى ذِكْرِى (٤٢) ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَاتَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَاتُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨)﴾

---

(١) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٣ ص ٣٥٦.

(٢) أنظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤١٨.

(٣) في بعض النسخ: النصير.

﴿أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ أي: أَلهَمْناها ﴿مَا﴾ يُلْهَمُ، وهو ماكانَ سببَ نَجاتِكَ من القَتلِ، أَو بَعَثْنَا إِليها مَلَكاً كما بعثْنَا إِلىٰ مريمَ. ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ ... فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: ضَعيهِ وأَلقيهِ، وهي ﴿أَنِ﴾ المفسِّرَةُ؛ لأَنَّ الوحيَ بمعنى القولِ، والضمائرُ كلُّها تَرجِعُ إِلىٰ ﴿مُوسَىٰ﴾، ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ وهو شَطُّ البحرِ، كأَنَّه أَمَرَ البحرَ كما أَمَـرَ أُمَّ موسىٰ، وهذا علىٰ طريقِ المَجازِ جَعَلَه كَذِي تمييزٍ، أُمِرَ بذلكَ ليُـطيعَ لمـا كـانت مشيئتُه عزَّاسمُهُ إِلقاءَهُ إِلى الساحلِ ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ وهو فرعونُ؛ لأَنَّهُ تَصَوَّرَ أَنَّ مُلكَه ينقرضُ علىٰ يدِهِ، و ﴿مِنِّى﴾ إِن تعلَّقَ بـ ﴿أَلْقَيْتُ﴾ فالمعنىٰ: إِنِّي أَحببتُكَ ومَن أَحَبَّهُ ٱللهُ أَحبَّتهُ القلوبُ، وإِن تعلَّقَ بمحذوفٍ هو صفةٌ لـ ﴿مَـحَبَّةً﴾ فالمعنىٰ: ﴿أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً﴾ واقعةً ﴿مِنِّى﴾ قد ركزْتُه أَنَا في القلوبِ وزرعْتُه فيها ولذلك أَحبَّكَ فـرعونُ وكـلُّ مـن رآكَ، و ﴿لِـتُصْنَعَ﴾ مـعطوفٌ عـلىٰ عـلَّةٍ مُضمَرَةٍ[١]، مثلُ: «ليُعْطَفَ عليكَ» ونحوِهِ، أَو حُذِفَ المُعَلَّلُ أَي: «ولتُصنعَ فَـعَلْتُ ذلكَ» والمعنىٰ: ولتُرَبَّىٰ وتُغذَّىٰ ويُحسَنَ إِليكَ وأَنا أُراعِيكَ كـما يُـراعـى الرجـلُ الشيءَ بعَينَيْه[٢] إِذا اعتنىٰ به، وكما تقولُ للصانعِ، اصنَعْ هذا علىٰ عيني أَنظُرُ إِليك ليكونَ صنيعُك علىٰ حَسَبِ ماأُريدُه منك، وقُـرِئَ: «وَلْـتُصْنَعْ» بـالجزمِ وسكـونِ اللَّامِ[٣] أَوكسرِها على أَنَّه أَمرٌ. والعاملُ في ﴿إِذْ تَمْشِىٓ﴾: ﴿أَلْقَيْتُ﴾ أَو ﴿تُصْنَعَ﴾ أَو يكونُ بدلاً من ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ﴾.

ورويَ: أَنَّ أُختَ موسىعليه السلام لمَّا قالت لها أُمُّه: قُصِّيهِ ٱتَّبَعَتْ مـوسىٰ مـتعرِّفةً خَبَرَه، فرأَتهم يطلبونَ له مُرضِعَةً يَقْبَلُ ثَدْيَها لأَنَّه كان لايقبلُ ثَدْيَ ٱمرأةٍ، فقالَت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ فجاءَت بأُمِّ موسىٰ فقبلَ ثَدْيَها[٤] ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً﴾ يعني: القـبطيَّ

---

(١) في نسخة: مقدَّرة. (٢) في بعض النسخ: بعينه.

(٣) وهي قراءة أبي جعفر المدني. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢١٧.

(٤) رواه ابن اسحاق. راجع تفسير الطبري: ج ٨ ص ٤١٤.

الَّذي استغاثَه عليه الَّذي هو من شيعتِه فوكزهُ فقتله ﴿فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ﴾ غَمِّ القصاص ومن بأس فرعونَ، و ﴿فُتُونًا﴾ يجوزُ أَن يكونَ مصدراً علىٰ فُعُولٍ في المتعدِّي كالشُّكورِ والثُبورِ، وأَنْ يكونَ جمعَ فتنٍ أَو فتنةٍ كبُدُورٍ في جمعِ بَدْرَةٍ، أَي: ﴿فَتَنَّـٰكَ﴾ ضُروباً من الفِتَنِ فتنةً بعدَ فتنةٍ، وذاك أَنَّه وُلِدَ في عامٍ كانَ يُقتَلُ فيه الوِلدانُ، وأَلقَته أُمُّه في البحرِ، وهَمَّ فرعونُ بقتلِه، وقَتَل القِبطيَّ، وآجر نفسَه عشرَ سنينَ، والفتنةُ: المحنةُ وكلُّ مايَشُقُّ على الإنسانِ، و ﴿مَدْيَنَ﴾ علىٰ ثماني مراحلَ من مِصرَ ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ علىٰ مقدارٍ من الزمانِ يُوحَىٰ فيه إِلى الأَنبياءِ وهو رأْسُ أَربعينَ سنةً، وقيلَ: معناه: سَبَقَ في قَدَري وقضائي أَن أُكلِّمَكَ في وقتٍ بعينِهِ[1]، فـ﴿جِئْتَ﴾ علىٰ ذلكَ القدَرِ. ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ اتَّخذْتُكَ صَنيعَتي وخالصتي، واختَصِصْتَ[2] بكرامتي.

﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ الوَنَىٰ: الفُتورُ والتَقصيرُ، يعني: ولا تـنسَيَاني ولا أَزالُ منكما علىٰ ذكرٍ حيثُما كنتُما، أَو يريدُ بالذِكرِ تبليغَ الرسالةِ أَي: لاتَضْعُفَا في ذلك ولا تُقصِّرا.

و«القولُ الليِّنُ» نحوُ قولِه تعالىٰ: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾[3] ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[4]، وقيل: عِداهُ شَباباً لايَهْرَمُ بعدَه ومُلكاً لايُنزَعُ منه إِلَّا بالموتِ[5]، واذْهَبا علىٰ رجائكما وطمعكُما فِعلَ مَن يبذُلُ أَقصَىٰ وُسْعِه وطاقَتِه، وإِنَّما أَرسلَهما إِليه مع علمِه بأَنَّه لايؤمنُ؛ إِلزاماً للحجَّةِ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ أَي: يتأَمَّلُ فيُنصِفُ من نفسِه ويُذعِنُ للحقِّ ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أَن يكونَ الأَمرُ كما تَصِفانِ.

---

(١) وهو قول الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص ١٧٩.

(٢) في بعض النسخ: واختصصتك. (٣) النازعات: ١٨.

(٤) النازعات: ١٩.

(٥) قاله السدي: راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢١٩.

﴿نَخَافُ﴾ أي: نخاف ﴿أَن﴾ يَعْجَلَ ﴿عَلَيْنَآ﴾ بالعقوبةِ، يقالُ: فَرَطَ منه فِعلٌ أي: سَبَقَ، وفَرَسٌ فُرُطٌ: يَسبِقُ الخَيْلَ ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ أي: يُجاوِزَ الحدَّ في الإساءَةِ بِنا.

﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ بالحفظِ والنُصرةِ، أي: حافظُكُما وناصِرُكما ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ مايجري بينكما وبينَه، وكانت بَنُو إِسْرَائيلَ في مُلكةِ فرعونَ، والقِبْطُ يُعذِّبونهم بتكليفِ الأَعمالِ الشاقَّةِ والسُخرةِ في كلِّ شيءٍ.

﴿قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أَي: بمعجزةٍ وبُرهانٍ على ماادَّعيناهُ ﴿وَٱلسَّلَـٰمُ﴾ سلامُ الملائكةِ، أَو السلامةُ من عذابِ اللهِ ﴿عَلَىٰ﴾ المهتدينَ، و﴿ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ﴾ المكذِّبينَ.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى (٥٢) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَـٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦)﴾

خاطَبَ الاثنينِ ووجَّهَ النداءَ إِلىٰ مُوسىٰ؛ لأَنَّ الأَصلَ في النُبُوَّةِ موسىٰ، أَو حمَلَهُ خبثُهُ على استدعاءِ كلامِ موسىٰ دون كلامِ أَخيه لِمَاعرفَ من فَصاحةِ هارون.

﴿خَلْقَهُۥ﴾ مفعولٌ أَوّلُ لِـ﴿أَعْطَىٰ﴾ أي: أَعطىٰ خَلْقَهُ يعني: خليقتَهُ ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ يحتاجونَ إِليه، أَو مفعولٌ ثانٍ بمعنىٰ: أَعطىٰ كلَّ شيءٍ صورتَه وشكلَه الَّذي يوافقُ المنفعةَ المنوطَةَ به كما أَعطَى العينَ الهيئَةَ الَّتي تُطابِقُ الإِبصارَ، والأُذُنَ

الشكلَ الَّذي يُطابقُ الاستماعَ، وكذلكَ باقي الأَعضاءِ وقيلَ: أَعطَىٰ كلَّ حَيَوانٍ نظيرَه في الخَلْقِ والصُورةِ أي: زَوْجَه[١]، وقُرِئَ: «خَلَقَه»[٢] أَي: كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ اللهُ لم يُخلِه من عطائه وإنعامِه.

﴿مَابَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أَي: ماحالُ الأُممِ الماضيةِ في السعادةِ والشقاوة؟ فأَجابَ أَنَّ عِلْمَ أَحوالِهَا مكتوبٌ ﴿عِندَ رَبِّى فِى﴾ اللوحِ المحفوظِ، لا يُخطئُ شيئاً وَلَايَنْسَاهُ، وقيل: لايتركُه حتَّىٰ يُجازِيَه[٣] أَي: ﴿لَّايَضِلُّ﴾ كما تضِلُّ أَنتَ ﴿وَلَايَنسَى﴾ كما تَنسىٰ يامُدَّعيَ الرُبوبيَّة.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ صفةٌ لـ ﴿رَبِّى﴾ أَو خبرُ مبتدأ محذوف ﴿مَهْداً﴾ أَي: مَهَدَهَا مَهْداً، أَو يَمْهَدُونَها فهي لهم كالمَهدِ الَّذي يُمهَدُ للصبيِّ، وَقُرِئَ: «مِهَاداً»[٤] أَي: فِراشاً وبِساطاً، و ﴿سَلَكَ لَكُمْ﴾ أَي: حَصَّلَ لكم ﴿فِيهَا سُبُلاً ... فَأَخْرَجْنَا﴾، انتقلَ فيه من لفظِ الغيبةِ إِلىٰ لفظِ المتكلِّمِ علىٰ طريقةِ الالتفاتِ، ومثلُه قولُه تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾[٥] وفيه تخصيصٌ بأَنَّا نحنُ نَقدِرُ علىٰ مثلِ ذلك ولا يدخلُ تحتَ قُدرةِ أَحدٍ ﴿أَزْوَٰجاً﴾ أَصنافاً، و ﴿شَتَّىٰ﴾ جمعُ شَتيتٍ، والنبَاتُ: مصدرٌ سُمِّيَ به النابتُ كما سُمِّيَ بالنبتِ فاسْتَوَى فيه الواحدُ والجمعُ، يعني: أَنَّها مختلفةُ النفعِ والطعمِ واللونِ والرائحةِ والشكلِ. والمعنىٰ: قائلينَ: ﴿كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ﴾ حالٌ من الضميرِ في ﴿أَخْرَجْنَا﴾ أَي: مُبيحينَ أَكلَها والانتفاعَ بها.

---

(١) قاله ابن عباس والسدي. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٤٠٦.

(٢) وهي قراءة نصير عن الكسائي. راجع التبيان: ج ٧ ص ١٧٧.

(٣) قاله ابن عباس. في تفسيره: ص ٢٦٢.

(٤) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤١٨.

(٥) الأنعام: ٩٩.

﴿أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا﴾ يعني: الآياتِ التسعَ، أَي: معجزاتِنَا الدالَّةَ علىٰ صدقِ موسىٰ عليه السلام ﴿فَكَذَّبَ﴾ بجميعِ ذلك ﴿وَأَبَىٰ﴾ أن يؤمن.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَاناً سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَاتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَـٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوٓاْ إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ (٦٤) قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦)﴾

قولُه: ﴿بِسِحْرِكَ﴾ تَعَلُّلٌ من فِرعونَ، وإلَّا فلا يَخفىٰ علىٰ أحدٍ أَنَّ ساحراً لايَقدرُ علىٰ أن يُخرِجَ مَلِكاً مثلَه مِن أرضه بالسحرِ، ويَلُوحُ من كلامِهِ هذا أَنَّه كانَ يَخافُ منه أن يَغْلِبَه علىٰ مُلكِه.

﴿مَوْعِداً﴾ مصدرٌ بمعنىٰ «الوَعْدِ» على تقديرِ مضافٍ محذوفٍ، أَي: مكانَ مَوعِدٍ، والهاءُ في ﴿نُخْلِفُهُ﴾ للموعدِ، و ﴿مَكَاناً﴾ بدلٌ من المكانِ المَحذوفِ، وهو بمعنى الوقتِ في قولِه: ﴿مَوْعِدُكُمْ﴾ أَي: وقتُ الوعدِ ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ وهو يطابِقُ ماتقدَّمَ معنىً وإن لم يُطابِقْه لفظاً من حيثُ إنَّ الاجتماعَ يومَ الزينةِ لابدَّ أَن يكونَ في مكانٍ مشهورٍ، فبذكرِ الزمانِ يُعلَمُ المكانُ، ويجوزُ أَن لايُقدَّرَ في الأوَّلِ مضافٌ محذوفٌ ويكونَ المعنىٰ: اجعَلْ بينَنَا وبينَكَ وَعْداً لانُخْلِفُه، ويـنتصبَ ﴿مَكَاناً﴾

بالمصدرِ ويكونَ ﴿مَوْعِدُكُمْ﴾ معناه: وَعْدُكُم وَعْدُ يومِ الزينةِ، وقُرِئَ: «لَانُخْلِفْهُ» بالجزمِ[١] على جوابِ[٢] الأمرِ، وقُرِئَ: «سِوىً» و﴿سُوًى﴾ بكسرِ السينِ[٣] وضمِّها ومعناه: مَنْصَفاً بينَنا وبينَك أي: يستوي مسافتُه على الفريقينِ، وقُرِئَ: «يَوْمَ ٱلزِّينَةِ» بالنصبِ[٤] وهو مثلُ قولِك: قيامُك يومَ الجُمُعةِ، فيكونُ ﴿مَوْعِدُكُمْ﴾ مصدراً والظرفُ خبراً عنه أَو علىٰ تقديرِ: إِنجازُ مَوْعِدِكُمْ يَوْمَ ٱلزينَةِ، و﴿أَن يُحْشَرَ﴾ في موضِعِ جرٍّ، أَي: موعدُكُم يومَ الزينةِ وحَشْرِ ﴿ٱلنَّاس﴾ فيكونُ معطوفاً علىٰ ﴿ٱلزِّينَةِ﴾، أَو في موضِعِ رفعٍ أَي: إِنجازُ موعِدِكم وحشرُ الناس ﴿ضُحًى﴾ في يومِ الزينةِ، وهو يومُ عيدٍ كانَ لهم في كلِّ عامٍ، وقيلَ: يومٌ كانُوا يَتَّخِذُونَ فيه سُوقاً ويتزيَّنُونَ ذلكَ اليومَ[٥]، وإِنَّما واعدَهم ذلكَ اليومَ ليكونَ ظُهورُ دينِ ٱللهِ وعُلُوُّ كلمتِهِ وزهوقُ الباطلِ علىٰ رؤوسِ الأَشهادِ ويَشِيعَ ذلك في الناس.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ أَي: انصرفَ ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أَي: حيلَتَهُ ومكرَهُ وذلك جمعُهُ ٱلسَحَرَةَ.

﴿لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللهِ كَذِباً﴾ أَي: لَا تَكذِبُوا على ٱللهِ بأَنْ تَدعوا آياتِه ومعجزاته سِحراً، قُرِئَ: «فيَسْحَتَكُمْ»[٦] و﴿فَيُسْحِتَكُم﴾، والسَحْتُ والإِسحاتُ بمعنىً وهو الاستئصال.

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أَي: تَشاوَرُوا وتَجاذَبوا أَهدابَ القولِ ﴿وَأَسَرُّواْ

---

(١) وهي قراءة يزيد بن القعقاع وشيبة والأعرج. راجع تفسير القرطبي: ج ١١ ص ٢١٢.

(٢) في نسخة: وجوب.

(٣) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤١٨.

(٤) قرأه الحسن. راجع الكشّاف: ج ٣ ص ٧١.

(٥) قاله قتادة. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٤٠٩.

(٦) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم برواية أبي بكر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤١٩.

ٱلنَّجْوَىٰ﴾ يعني: السَحَرةَ، ونَجْواهُم: إنْ غَلَبَنا موسىٰ اتَّبعْنَاه، وقيلَ: إن كانَ ساحراً فسَنَغْلِبُه وإن كانَ مِنَ السماءِ فله أمرٌ[١]، ولمَّا ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا ... قَالُوٓاْ﴾: ماهذا بقولِ ساحر.

قالَ فرعونُ وقومُه للسَحَرةِ: «إنَّ هـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ»[٢] وهي لغةُ بَلْحَرِثِ[٣] ابن كَعبٍ، جعلوا الاسمَ المُثنَّىٰ نحوَ الأَسماءِ الَّتي آخِرُها أَلفٌ كعصا وسلمَى ولم يُقلِّبوها ياءً في الجرِّ والنصب، وقيلَ: «إنَّ» هنا بمعنىٰ: نَعَمْ و «سَاحِرَانِ» خبرُ مبتدأ محذوفٍ تقديرُه: لَهُمَا سَاحِرانِ[٤]، وقُرِئَ: ﴿إِنْ هَـٰذَانِ لَسَـٰحِرَٰنِ﴾ وهو مثلُ قولك: إنْ زيدٌ لمنطلقٌ، واللامُ هي الفارقةُ بينَ «إن» النافيةِ والمُخفَّفَةِ من الثقيلةِ، وقَرأَ أبو عمرو: «إنَّ هـٰذَيْنِ لَسَاحِرَانِ»[٥] على الوجهِ الظاهرِ، وقُرِئَ: «هـٰذَانِّ» بتشديدِ النونِ[٦] وهو لغةٌ.

و﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾ تأنيثُ الأَمثلِ، وهو الأَفضلُ والأَشبهُ بالحقِّ، والمعنىٰ: ﴿يُرِيدَانِ أَن﴾ يَصْرِفَا وجوهَ الناسِ إليهما، وقيلَ: الطريقةُ: اسمٌ لوجوهِ الناسِ وأَشرافِهم الَّذينَ هم قُدوَةٌ لغيرِهم[٧]، ويقالُ أَيضاً للواحدِ: هو طريقةُ قومِه، وقيلَ: إنَّ طَرِيقتَهمُ ٱلْمُثْلَىٰ: بنُو إسرائيلَ وكانوا أَكثَرَ القومِ عدداً ومالاً[٨]، أَي: يُريدانِ أَن

---

(١) وهو قول قتادة. راجع تفسير الطبري: ج ٨ ص ٤٢٨.

(٢) الظاهر أنّ القراءة المعتمدة لدى المصنّف هنا بتشديد «إن».

(٣) في نسخة: لحارث. و «بَلْحرث» مخفّف «بني حرث». والحرث بن كعب هو جدّ جاهلي. أُنظر القاموس المحيط: مادة «حرث».

(٤) قاله المبرّد واسماعيل بن اسحاق القاضي. راجع التبيان: ج ٧ ص ١٨٤.

(٥) أُنظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤١٩.

(٦) قرأه ابن كثير. راجع التيسير في القراءات للداني: ص ١٥١.

(٧) وهو قول ابن عباس وأبي صالح. راجع التبيان: ج ٧ ص ١٨٥، وتفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٢٣.

(٨) قاله ابن عباس وقتادة. راجع تفسير الطبري: ج ٨ ص ٤٣٠.

﴿يَذْهَبَا﴾ بِهِم لأنفسِهم لقولِ موسىٰ: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[1].

﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾ أي: أزمِعُوه واجعلوهُ مُجْمَعاً عليه حتّىٰ لاتختلفُوا، وهذا قولُ فرعونَ للسَّحَرةِ أو قولُ بعضٍ لبعض، وقُرِئَ: «فَاجْمَعُوا»[2] ويعضُدُه قولُه: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾، ﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾ أي: مصطفِّينَ مجتمعينَ ليكونَ أشدَّ لهيبتكم ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ أي: فازَ مَنْ غَلَبَ وعَلا.

﴿أَن تُلْقِىَ﴾ مرفوعٌ بأنَّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: الأمرُ إلقاؤُكَ أو إلقاؤُنا، أو منصوبٌ بفعلٍ مُضمرٍ معناهُ: ٱختَرْ أحدَ الأمرَيْنِ، وهذا التخييرُ منهم حسنُ أدبٍ وخفضُ جَناحٍ له.

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ﴾: ﴿إِذَا﴾ هذهِ للمفاجأةِ، والتقديرُ: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ مُخيَّلةٌ ﴿إِلَيْهِ﴾ السعيَ، وقولُه: ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ فاعلُ[3] ﴿يُخَيَّلُ﴾ والضميرُ في ﴿إِلَيْهِ﴾ يَرجِعُ إلىٰ ﴿مُوسَىٰ﴾ عليه السلام، وقيلَ: إلىٰ ﴿فِرْعَوْنَ﴾[4]، وقُرِئَ: «تُخَيَّلُ» بالتاءِ[5] على أنْ يَكونَ مُسنداً إلىٰ ضميرِ «الحِبَالِ» و «العِصِيِّ»، ويكونَ ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ بدلاً من الضميرِ وهو بدلُ الاشتمالِ، كقولك: أعجَبَني زيدٌ علمُه.

﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى

---

(١) الآية: ٤٧.

(٢) قرأه أبو عمرو. راجع الكشف عن وجوه القراءات للقيسي: ج ٢ ص ١٠٠.

(٣) كذا في النسخ، والظاهر هو نائب فاعل لـ ﴿يُخَيَّلُ﴾ المبني للمجهول.

(٤) حكاه الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٤١٣.

(٥) وهي قراءة ابن عباس وأبي حيوة وابن ذكوان وروح عن يعقوب. راجع تفسير القرطبي: ج ١١ ص ٢٢٢.

عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى
جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ
مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ (٧٢) إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ
ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (٧٣) إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ
لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦) ﴾

﴿أَوْجَسَ﴾ الخوفَ: أَضمَرَ شيئاً منه، وكانَ إيجاسُ الخِيفةِ من موسى عليه السلام للجِبِلَّةِ البشريَّةِ عندَ رُؤيةِ أمرٍ فظيعٍ، وقيلَ: لأَجلِ أَن يَتَخالجَ فيه شكٌّ على الناس فلا يَتَّبِعُوه(١).

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فيه تقريرٌ لقهرِه(٢) وغلبتِه، وتأكيدٌ بالاستئنافِ وبكلمةِ التحقيقِ وبتكرير الضميرِ وبلامِ التعريفِ وبلفظِ العُلُوِّ ـ وهو الغلبةُ الظاهرةُ ـ وبلفظِ التفضيلِ.

قُرِئَ: «تَلَقَّفُ»(٣) بالرفعِ(٤) على الاستئنافِ أَو على الحالِ، أَي: أَلْقِهَا مُتَلَقِّفَةً، وقُرِئَ: ﴿تَلْقَفْ﴾ بالتخفيفِ ﴿مَا صَنَعُوٓا۟﴾ أَي: ما زَوَّرُوا وٱفتعلُوا ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟﴾ أَي: الَّذي صنعوهُ «كَيْدُ سِحْرٍ»(٥) أَي: ذَوي سِحرٍ، أَو بُيِّنَ الكيدُ بسحرٍ كما يُبَيَّنُ

---

(١) قاله مقاتل والجبائي والبلخي. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٢٤، والتبيان: ج ٧ ص ١٨٧.
(٢) في نسخة: لأمره.
(٣) لقفت الشيء ألقفه لقفاً: أي تناولته بسرعة. (الصحاح: مادة لقف).
(٤) وهي قراءة ابن عامر وابن ذكوان. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٣٣٥.
(٥) يظهر من عبارته أنّه اعتمد هنا ـ تبعاً للزمخشري ـ على هذه القراءة كما هو واضح.

المِائَةُ بدرهمٍ؛ لأَنَّ الكيدَ يكونُ سحراً أَو غيرَ سحرٍ، ومثلُه: علمُ فقهٍ، وقُرِئَ: ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ وُحِّدَ لأَنَّ القصدَ معنى الجنسيَّةِ لا معنَى العددِ، يدلُّ عليه قولُه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾ أَي: هذا الجنسُ ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ هو كقولِهم: أَينما كانَ، وأَيَّةَ سَلَكَ، وهاهنا حذفٌ أَي: فأَلقىٰ عَصَاهُ فتلقَّفَتْ ماصنعوا.

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّداً﴾ وعن عِكْرِمَةَ: لَمَّا سجدُوا أَراهمُ ٱللهُ في سجودهم منازِلَهم الَّتي يصيرُونَ إِليها في الجنَّةِ(١).

﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أَي: من غيرِ إِذني ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾ أَي: رئيسُكُم و(٢) أَسحرُكم و(٣) أُستاذُكم ومعلِّمُكُم ﴿مِنْ خِلَٰفٍ﴾ هو أَن يُقطَعَ اليدُ اليُمنَىٰ والرِجْلُ اليُسرَىٰ؛ لأَنَّ كلَّ واحدٍ من العضوَينِ يُخالِفُ الآخَرَ بشيئين: بأَنَّ هذا يدٌ وذاكَ رِجلٌ وهذا يمينٌ وذاك شِمالٌ، و ﴿مِنْ﴾ لابتداءِ الغايةِ؛ لأَنَّ القطعَ مبتدأٌ(٤) من مُخالَفةِ العضوِ العُضوَ، والجارُّ والمجرورُ في موضعِ الحالِ، أَي: لأُقطِّعنَّها مختلفاتٍ ﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ شَبَّهَ تَمكُّنَ المصلوبِ في الجِذعِ بتمكُّنِ الشيءِ في وِعائه فهذا معنىٰ «في» ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ أَيُّها السَحَرَةُ ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَاباً﴾ يُريدُ الملعونُ نفسَه وموسىٰ عليه السلام، بدليلِ قولِه: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُ﴾، واللامُ مَعَ الإِيمانِ لغيرِ اللهِ في القرآنِ كقولِه: ﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٥)، وقيلَ: يُريدُ اللهَ تعالىٰ(٦).

﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ أَي: لن نختارَكَ ﴿عَلَىٰ مَا﴾ أَتانا ﴿مِنَ﴾ المعُجزاتِ ﴿وَ﴾ على ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ أَي: خلَقَنَا، أَو هو قسمٌ أَي: واللهِ الَّذي فَطَرَنا ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أَي: فَاصنَعْ ما أَنتَ صانِعُه فإِنَّا لانَرجِعُ عن الإِيمانِ، أَو: فَاحكُمْ ما أَنتَ

---

(١) حكاه عنه الفخر الرازي في تفسيره: ج ٢٢ ص ٨٦.

(٢) في بعض النسخ: «أو» بدل الواو.

(٣) في بعض النسخ: «أو» بدل الواو.

(٤) في نسخة زيادة: وناشٍ.

(٥) التوبة: ٦١.

(٦) حكاه الآلوسي في تفسيره: ج ١٦ ص ٢٣١.

حاكِمُه ﴿هَـٰذِهِ ٱلحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ منصوبةٌ على الظرف.

﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ﴾ رُوِيَ: أنَّهم قالوا لفرعونَ: أَرِنا موسىٰ نائماً، ففعَلَ، فوجدُوه تَحرُسُهُ عصاه، فقالوا: ماهذا بسحرٍ، فإنّ الساحرَ إذا نامَ بَطَلَ سحرُه، فأَبَىٰ فرعونُ إلَّا أن يعملوا، فذلك إكراهُهم[1] ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ لَنا منك ﴿وَ﴾ ثوابُه ﴿أَبْقَىٰٓ﴾ لنا من ثوابِك.

والآياتُ الثلاثُ بعدُ حكايةُ قولهم، وقيلَ: هي خبرٌ من اللهِ عزَّوجلَّ[2] ﴿مُجْرِماً﴾ أي: كافراً، و ﴿ٱلْعُلَىٰ﴾ جمعُ العُليَا تأنيثُ «الأَعلىٰ»، و ﴿تَزَكَّىٰ﴾ تَطَهَّرَ من أَدناس الذُنوبِ، وعن ابنِ عبَّاس: قالَ: لَا إِلَـٰهَ إلَّا اللهُ[3].

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِى ٱلْبَحْرِ يَبَساً لَّاتَخَـٰفُ دَرَكاً وَلَاتَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَاغَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (٧٩) يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَارَزَقْنَـٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ (٨٢) وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَـٰنَ أَسِفاً قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ

---

(١) رواه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٢٥ عن عبدالعزيز بن أبان.
(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٧٧.
(٣) حكاه عنه الفخر الرازي في تفسيره: ج ٢٢ ص ٩١.

وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى (٨٦)﴾

﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ أي: سِرْ بهم ليلاً من أرضِ مصرَ، فاجعلْ ﴿لَهُمْ طَرِيقاً فِى ٱلْبَحْرِ يَبَساً﴾ أي: يابساً، من قولِهم: ضَرَبَ له في مالِه سَهْماً، أو ضَرَبَ اللبنَ أي: عَمِلَه، وأصلُ اليَبَس مصدرٌ ﴿لَا تَخَـٰفُ﴾ حالٌ من الضميرِ في ﴿فَاضْرِبْ﴾، وقُرِئَ: «لَاتَخَفْ»[(١)] على الجوابِ ﴿دَرَكاً﴾ هو اسمٌ من الإدراكِ، أي: لايُدرِكُك فرعونُ وجنودُه ولا يلحقونكَ، وإذا قُرِئَ: «لَاتَخَفْ» بالجزمِ ففي ﴿لَاتَخْشَىٰ﴾ وجهانِ: أن يكونَ مقطوعاً من الأوَّلِ أي: وأنتَ لاتخشىٰ، وأن يكونَ الألفُ للإطلاقِ من أجلِ الفاصلةِ كقوله: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا﴾[(٢)].

﴿مَاغَشِيَهُمْ﴾ من جوامعِ الكَلِمِ المستقلَّةِ بالمعاني الكثيرةِ مع قِلَّتِها، وفيه تفخيمٌ للأمرِ، و ﴿مَا هَدَىٰ﴾ تهكُّمٌ به لقولِه: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[(٣)].

﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ خِطابٌ لهم بعدَ إنجائهم من البحرِ وإهلاكِ فرعونَ، أي: قلنا لبني إسرائيلَ أو للَّذينَ كانُوا في عهدِ نبيِّناﷺ: منَّ ٱللهُ عليهم بما فَعَلَ بأسلافهم، وقُرِئَ: «أَنْجَيْتُكُمْ ... وَوَاعَدْتُكُمْ ... وَرَزَقْتُكُمْ»[(٤)]، وقُرِئَ: «وَعَدْنَاكُمْ»[(٥)]، ذكَّرَهُمُ النعمةَ في نَجاتهم وهَلاكِ عَدُوِّهم وفيما وَعَدَ موسىٰعليه السلام من المناجاةِ بـ ﴿جَانِبَ ٱلطُّورِ﴾ وكَتْبِ التوراةِ في الألواحِ، ونَسَبَ المواعَدَةَ إليهم حيثُ كانَت لِنَبيِّهم ولنُقَبائهم وإليهم رجعتْ منافِعُها الَّتي بها قوامُ دينهم.

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ﴾ أي: لاتَتَعَدَّوا حدودَ ٱللهِ تعالىٰ ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ أي:

---

(١) وهي قراءة حمزة وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٢١.
(٢) الأحزاب: ٦٧.
(٣) غافر: ٢٩.
(٤) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٢٢.
(٥) قرأه أبو عمرو ويعقوب. راجع التبيان: ج ٧ ص ١٩٢.

فيَجِبَ عليكم عقوبَتي، مِنْ حَلَّ الدَينُ يَحِلُّ: إِذَا وجَبَ أداؤُهُ، وقُرِئَ: «فَيَحُلَّ» بضمِّ الحاءِ[1] أي: فينزِلَ؛ لأَنَّ الغَضَبَ بمعنى العقوبةِ ﴿وَمَن يَحْلِلْ﴾ بالضمِّ[2] والكسرِ ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ أي: هَلَكَ، وأَصلُهُ: أَن يَسقُطَ من جَبلٍ، كما قيلَ:

هَوَىٰ من رأسِ مَرْقَبَةٍ ... فَفُتَّتْ تَحْتَها كَبِدُهُ[3]

أو[4] سَقَطَ سُقوطاً لا نُهوضَ بعدَهُ.

﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: استقامَ واستمرَّ عليه حتَّىٰ يموتَ. وعن الباقرِ عليه السلام: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ إلى وِلايَتِنا أهلَ البيتِ[5].

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾ أيُّ شَيءٍ عَجِلَ بكَ عنهم؟! وكان قد مَضَىٰ مع النُقَباءِ إلى الطُورِ، ثُمَّ تقدَّمَهُم شوقاً إلىٰ كلامِ ربِّه. ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عليه السلام ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ يُدركُونَني عن قريبٍ، وسبقتهم إليكَ حرصاً علىٰ تحصيلِ رِضاكَ.

﴿فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ﴾ يُريدُ الَّذين خَلَّفَهُم معَ هارونَ، أَضافَ سبحانَه الفتنةَ إلىٰ نفسِهِ والضلالَ إلىٰ ﴿ٱلسَّامِرِىُّ﴾ لِيَدُلَّ علىٰ أَنَّ الفتنةَ غيرُ الإضلالِ، أَي: امتحَنَّاهُم بخَلقِ العِجْلِ وحَمَلَهُم السامِريُّ على الضلالِ وأَوقَعَهم فيه بقولِه: ﴿هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ﴾[6] والمرادُ بالفتنةِ: تشديدُ التكليفِ عليهم بما حَدَثَ فيهم من أَمرِ العِجْلِ ليظْهَرَ المُؤمِنُ المخلصُ من المنافقِ.

والوَعْدُ الحَسَنُ: هو أَنْ وَعَدَهُم إعطاءَ التوراةِ الَّتي فيها هُدىً ونورٌ[7]،

---

(١) قرأه الكسائي وحده. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٣٧.
(٢) وهي قراءة الكسائي. راجع العنوان في القراءات السبع لابن خلف: ص ١٣٠.
(٣) البيت منسوب لأعرابي يرثي ابناً له سقط من جبل. أنظر شرح شواهد الكشّاف: ص ٣٨١.
(٤) في بعض النسخ: «أي» بدل «أو».
(٥) تفسير فرات الكوفي: ص ٩١.
(٦) الآية: ٨٨.
(٧) في نسخة زيادة: ولا وعد أحسن من ذلك وأجمل، حكي لنا أنّها كانت الف سورة، كل سورة نزلت يحمل أسفارها سبعون جملاً.

و ﴿ٱلْعَهْدُ﴾: الزمانُ، يريدُ مدَّةَ مفارَقَتِهِ لهم، يُقالُ: طالَ عَهدِي بك أي: طالَ زماني بسببِ مفارَقتِكَ، وهُم وَعَدُوه أَن يُقيمُوا علىٰ ماتركهم عليه من الإِيمانِ فأَخْلَفُوا موعِدَهُ بعبادتِهِم العِجْلَ.

﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى (٩٠) قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَامَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى (٩٣) قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَاتَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَابِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى (٩٦)﴾

﴿بِمَلْكِنَا﴾ قُرِئَ بالحركاتِ الثلاثِ[١]، أي: ﴿مَآأَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ﴾ بأَن مَلَكْنا أمرَنا، أَي: لو مَلَكْنا أَمْرَنا وخُلِّينا ورَأْينا لَمَا أَخلفناهُ، ولكن غُلِبْنَا من جهةِ السامِرِيِّ وكيدِهِ، والمعنىٰ: «حَمَلْنَا»[٢] أَحمالاً ﴿مِن﴾ حُلِيِّ القِبطِ الَّتي استَعَرْناها منهم ﴿فَقَذَفْنَـٰهَا﴾ في نارِ السامريِّ الَّتي أَوقَدَها في الحُفرةِ وأُمِرنا أَن نطرحَ فيها الحُلِيَّ،

---

(١) فقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر الميم، ونافع وعاصم بفتحها، وحمزة والكسائي بضمّها. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٢٢.

(٢) الظاهر أن القراءة المعتمدة لدى المصنّف هنا بالتخفيف مبنياً للمعلوم.

وقُرِئَ: ﴿حُمِّلْنَآ﴾ أي: جُعِلْنا نَحْمِلُ «أَوْزَارَ» القومِ ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أَراهم أنَّه يُلقي حُلِيّاً في يدِهِ[1]، وإنَّما أَلقَى التربةَ الَّتي أَخَذَها من مَوطِئِ فرسِ جبرئيلَ. ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾ من الحُفرةِ ﴿عِجْلاً جَسَداً ... فَنَسِىَ﴾ أَي: فَنَسِيَ موسىٰ أَن يطلُبَه هاهنا وذهَبَ يطلبه عند الطُّورِ ويكونُ من قولِ السامريِّ، أَو: فنسي السامريُّ أَي: تَرَكَ ماكانَ عليه من الإِيمانِ الظاهرِ.

﴿أَلَّا يَرْجِعُ﴾ مَنْ رفعَهُ فَعَلَى أَنَّ «أَنْ» مخفَّفَةٌ من الثقيلةِ، ومن نصَبَهُ فعلىٰ أَنَّها الناصبةُ للفعلِ.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أَي: من قبلِ أَنْ يعودَ موسىٰ إِليهم، و «لَا» مَزيدةٌ، والمعنىٰ: «مَامَنَعَكَ ... أَنْ ... تَتَّبِعني» في شدَّةِ الزجرِ عن الكفرِ وقتالِ مَنْ كَفَرَ بمَن آمنَ، أَو مالَكَ لم تلحقْني؟ وكان موسىٰ عليه السلام شديدَ الغضبِ للهِ ولدينِهِ مجبولاً على الحِدَّةِ والخُشونةِ في ذاتِ اللهِ، فلم يتمالكْ حين رأى القومَ يعبدونَ العِجْلَ بعدَ رؤيتهم المعجزاتِ والآياتِ أَن أَلقَى الأَلواحَ لمَا عَرَتْهُ من الدهشةِ غضباً للهِ وحَمِيَّةً، وعَنُفَ بأَخيه وخليفتِهِ علىٰ قومِهِ إِذ أَجراهُ مجرىٰ نفسِهِ إِذا غَضِبَ في القبضِ علىٰ شعرِ رأسِهِ ووجهِهِ.

﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أَي: لو قاتلتُ بعضَهم ببعضٍ لتفرَّقُوا وتَفَانَوا، فأَردتُ أَن تكونَ أَنتَ المتلاقِي لأَمرهم بنفسِكَ، وخَشِيتُ عِتابَكَ علىٰ تركِ ما أَوصيتني به حين قُلتَ: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾[2].

﴿فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِىُّ﴾ أَي: ما شَأْنُكَ وما دَعَاكَ إِلى ما صَنَعْتَ؟ وهو مصدرُ خَطَبَ الأَمرَ: إِذا طَلَبَهُ، فكأَنَّهُ ﴿قَالَ﴾: ما طَلَبُكَ؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾ أَي: رأَيتُ مالم يَروه، أَو: علمتُ مالم يعلموه، من البصيرةِ، وعن ابنِ مسعودٍ وأُبَيٍّ

(١) في نسخة زيادة: مثل ماالقوا.
(٢) الأعراف: ١٤٢.

والحسنِ: «فَقَبَصْتُ قَبْصَةً» بالصادِ(١)، ومعنى الضادِ(٢): الأخذُ بجميعِ الكفِّ، والصادِ(٣): بأطرافِ الأصابعِ.

رُوِيَ: أنَّ موسى عليه السلام لمَّا حَلَّ ميعادُ ذهابِهِ إلى الطُّورِ أرسَلَ ٱللهُ تعالىٰ جبرئيلَ راكِبَ حَيْزُومِ فرس الحياةِ ليذهَبَ به، فأبصرَهُ السامريُّ فقال: إنَّ لهذا شأناً، فَقَبَضَ ﴿قَبْضَةً﴾ من تُربةِ موطِئِه، فلمَّا سألَهُ موسىٰ عن قصَّتِهِ قال: قَبضتُ ﴿مِنْ أَثَرِ﴾ فرس ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ الَّذي أُرسِلَ إليكَ ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ في العِجلِ، وكَمَا حَدَّثتُكَ يَامُوسىٰ ﴿سَوَّلَتْ﴾ أي: زيَّنتْ ﴿لِي نَفْسِي﴾ من أخذِ القبضةِ وإلقائِها في صورةِ العِجْلِ(٤).

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفاً (٩٧) إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً (٩٨) كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَاقَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً (٩٩) مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْراً (١٠٠) خَـٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلاً (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (١٠٢) يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً (١٠٣) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً (١٠٤)﴾

عوقبَ السامريُّ في الدنيا بأنْ مُنِعَ من مُخالَطَةِ الناس منعاً كُلِّياً، وحُرِّمَتْ عليهم مكالمته ومبايعته ومجالسته ومؤاكلته، وإذا ٱتَّفَقَ أن يُمَاسَّ أحداً، رجلاً كان أو ٱمرأةً حُمَّ الماس والممسوسُ، فكان يهيمُ في البريَّةِ مع الوحش، وإذا لَقِيَ أحداً

(١) حكاه القرطبي في تفسيره: ج ١١ ص ٢٤٠.

(٢) في بعض النسخ زيادة: المعجمة. (٣) في بعض النسخ زيادة: المهملة.

(٤) رواه الرازي في تفسيره: ج ٢٢ ص ١١٠ عن علي عليه السلام.

قالَ: ﴿لَامِسَاسَ﴾ أي: لاتقربني ولا تمسَّني، وقيل: إنَّ ذلك بَقِيَ في وُلدِهِ إلى اليوم: إنْ مَسَّ واحدٌ من غيرهم واحداً منهم حُمَّ كلاهما في الوقتِ[١] ﴿لَن تُخْلَفَهُ﴾ أي: لن يُخْلِفَكَ ٱللهُ تعالىٰ موعدَهُ الَّذي وَعَدَكَ على الشركِ والفسادِ في الأَرضِ، يُنجِّزُهُ لك في الآخرةِ، فأنتَ ممَّن خَسِرَ الدنيا والآخرةَ، وقُرِئَ: «لَنْ تُخْلِفَهُ» بكسرِ اللّامِ[٢] وهو مِنْ أَخْلَفْتُ المَوْعِدَ: إذا وجدتَّهُ خُلْفاً، وقُرِئَ: «لَنْ نُخْلِفَهُ» بالنون[٣] حكايةً لقولِهِ عزَّوجلَّ ﴿ظَلْتَ﴾ أي: ظَلَلْتَ، حُذِفَت اللامُ الأُولىٰ، وقُرِئَ: «لَنَحْرُقَنَّهُ»[٤] وهي قراءَةُ عليٍّ عليه السلام[٥]، ومعناه: لَنَبْرُدَنَّه بالمِبْرِدِ ولَنَحُتَّنَّه حَتّاً، ويجوزُ أَن يكونَ ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ مبالغةً في حَرَقَ: إذا بَرَدَ، وهذه القِراءَةُ تدُلُّ علىٰ أَنَّه كانَ ذهَباً وفضَّةً ولم يَصِرْ حَيَواناً.

﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ مفعولُ ﴿وَسِعَ﴾، و﴿عِلْماً﴾ منصوبٌ على التمييزِ وهو في المعنىٰ فاعلٌ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَي: مثلَ ذلكَ الاقتصاص وهو ماقصصنا عليكَ من قصَّةِ موسىٰ وفرعونَ ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ﴾ سائرِ أَخبارِ الأُمَمِ السالفةِ وأَحوالهم تكثيراً في آياتِكَ ومعجزاتِكَ، والمرادُ بالذِكْرِ: القرآنُ؛ لأَنَّ فيه ذِكرَ كُلِّ مايُحتاجُ إليه من أُمورِ الدينِ، أَي: ﴿ذِكْراً﴾ مشتملاً علىٰ هذه الأَقاصيص وعلى الأَخبارِ الحقيقةِ بالتفكُّرِ فيها، فمن أَقبَلَ عليه سَعدَ ونَجا، و﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ فقد شَقِيَ وَهَوىٰ، والمرادُ

---

(١) قاله ابن عباس. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٣٠.

(٢) قرأه ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب. راجع الكشف عن وجوه القراءات للقيسي: ج ٢ ص ١٠٥، والتذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٣٨.

(٣) قرأه ابن مسعود على ماحكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٨٥.

(٤) قرأه ابن عباس وأبو جعفر وابن محيصن وأشهب العقيلي. راجع تفسير القرطبي: ج ١١ ص ٢٤٢.

(٥) أُنظر معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص ١٩١.

بـ«الوِزْرِ»: العقوبةُ لما فيها من الثقلِ والصعوبةِ تشبيهاً بالحِملِ الثقيلِ الَّذي يَفْدَحُ حاملَهُ، أَو: لأَنَّها جزاءُ الوزرِ الَّذي هو الإِثمُ ﴿خَـٰلِدِينَ﴾ حَمْلٌ علىٰ معنىٰ ﴿مَنْ﴾ ووُحِّدَ الضميرُ في ﴿أَعْرَضَ﴾ حَملاً على اللفظِ ﴿فِيهِ﴾ أَي: في ذلك الوِزْرِ أَو في احتمالِهِ ﴿وَسَآءَ﴾ حكمُهُ حكمُ «بِئْسَ»، وفيه ضميرٌ مبهَمٌ يُفسِّرُه ﴿حِمْلاً﴾، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ لدَلالةِ الوزرِ الَّذي تقدَّمَ ذكرُه عليه، تقديره: وسَاءَ حِمْلاً وزرهم، ونحوُهُ: ﴿وَسَآءَتْ مَصِيراً﴾ (١) جهنَّمُ، و ﴿لَهُمْ﴾ للبيانِ، مثْلهُ في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ (٢).

وقَرأَ أَبو عمرو: «نَنْفُخُ» بالنونِ (٣)، وقيلَ في «الزُّرْقِ»: إِنَّ المرادَ: العَمَىٰ (٤)، وقيلَ: العُطاشُ (٥) يَظْهَرُ في عيونهم كالزُّرْقةِ (٦)، وقيل: زُرْقُ العيونِ: سودُ الوُجُوهِ (٧).

﴿يَتَخَـٰفَتُونَ﴾ أَي: يَتَسارُّونَ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يقولُ بعضُهم لبعضٍ: ما ﴿لَبِثْتُمْ إِلَّا﴾ عشرَ ليالٍ، وإِنَّما تخافتوا لِمَا اعتَرَاهُم من الرُّعبِ والهَولِ، استَقْصَروا مدَّةَ لَبْثهم في الدنيَا لاستطَالتهم في الآخرةِ، أَو مدَّةَ لَبثهم في القبورِ.

و﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أَوفرُهُمْ عقلاً وأَصوَبُهم رأياً عندَ نفسِهِ، ونحوُهُ: ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ (٨).

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعاً

---

(١) النساء: ٩٧ و ١١٥. (٢) يوسف: ٢٣.

(٣) أُنظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٢٤.

(٤) ذهب اليه الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص ١٩١.

(٥) العطاش: داء يصيب الإنسان يشرب الماء فلا يَروىٰ. (الصحاح: مادة عطش).

(٦) وهو قول الأزهري في تهذيب اللغة: ج ٨ ص ٤٢٨ مادة «زرق».

(٧) قاله الضحاك ومقاتل. راجع تفسير الرازي: ج ٢٢ ص ١١٤.

(٨) الكهف: ١٩.

صَفْصَفاً (١٠٦) لَّاتَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلَآ أَمْتاً (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَّاتَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩) يَعْلَمُ مَابَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (١١٠) وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً (١١٢) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (١١٣) فَتَعَـٰلَى ٱللهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَاتَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً (١١٤) ﴾

﴿يَنسِفُهَا رَبِّى﴾ أي: يجعلُها بمنزلةِ الرمْلِ، ثُمَّ يُرسِلُ عليها الرياحَ فتُذَرِّيها وتُفرِّقُها كما يُذَرَّىٰ الطعامُ. ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: فَيَذَرُ مَقَارَّها ومراكِزَها، أو يكونُ الضميرُ للأرض وإن لم يَجْرِ لها ذِكرٌ. ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً﴾ أي: أعوجاجاً ﴿وَلَآ أَمْتاً﴾ ولا نُتُوّاً[1] يسيراً، وعن الحسنِ: العِوَجُ: ما انخفَضَ من الأرضِ، والأَمْتُ: ما ارتفعَ من الروابي[2].

وأضافَ «اليَوْمَ» إلىٰ وقتِ نَسْفِ الجِبالِ في قولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إِذْ نُسِفَتْ، ويجوزُ أن يكونَ بدلاً بعدَ بدلٍ من ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[3]، ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ صوتَ ﴿ٱلدَّاعِىَ﴾ إلى المحشرِ، وهو إسرافيلُ الَّذي ينفخُ في الصُورِ يدعُو الناسَ قائماً على صخرةِ بيتِ المَقْدِسِ، فيُقبِلونَ من كُلِّ أَوْبٍ[4] إلىٰ صوتِهِ ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي:

---

(١) نَتَأَ نَتْأً ونُتُوءاً ونُتُوّاً: انتَبَرَ وانتفخ وارتفع. (لسان العرب: مادة نتأ).

(٢) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٣١.

(٣) الآية: ١٠٠.

(٤) يقال: جاءوا من كل أوْبٍ: أي من كل ناحية. (الصحاح: مادة أوب).

لايعوجُّ له مدعُوٌّ، بل يستوونَ إليه من غيرِ انحرافٍ ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ﴾ أي: خفضتْ من شدَّةِ الفَزَعِ وَخَفَتَتْ ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً﴾ وهو الركزُ الخفيُّ ومنه الحروفُ المهموسةُ، وقيلَ: هو من هَميس الإبلِ وهو صوتُ أخفافِها إذا مَشَتْ، أي: لاتَسمَعُ إلَّا خَفْقَ[١] الأقدامِ ونَقْلَها إلى المحشرِ[٢].

﴿مَنْ﴾ يجوزُ فيه الرفعُ والنصبُ: فالرفعُ على البدلِ من ﴿ٱلشَّفَـٰعَةُ﴾ بتقديرِ حذفِ المضافِ، أي: ﴿لَّاتَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا﴾ شَفَاعةُ ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾، والنصب على المفعوليّة، ومعنىٰ ﴿أَذِنَ لَهُ ... وَرَضِيَ لَهُ﴾: لأَجْلِهِ، كاللامِ في قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾[٣].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ماتَقَدَّمَهم من الأحوالِ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: مايستقبلُونه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ﴾ بمعلوماتِهِ ﴿عِلْماً﴾.

﴿وَعَنَتِ﴾ وجوهُ العُصاةِ أي: خَشَعَتْ وذَلَّتْ إذا عاينتْ أهوالَ يومِ القيامةِ، وقيلَ: المرادُ بـ﴿ٱلْوُجُوه﴾ الرؤساءُ والمُلوك[٤]، أي: صَارُوا كالعُناةِ وهم الأُسَارىٰ، وقولُه: ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ وما بعدَهُ اعتراضٌ.

﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْماً﴾ وهو أنْ يؤخذَ بذنبٍ لم يعملْهُ، أو لا يُجزىٰ بعمَلِهِ ﴿وَلَا هَضْماً﴾ وهو أن يُكسَرَ من حقِّهِ فلا يُوفَى له، أو يُبْطَلَ بعضُ حسناته، وقُرِئَ: «فَلَايَخَفْ» على النهي[٥]، والمعنىٰ: فليَأْمَنِ الظُّلمَ والهضمَ.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عَطْفٌ علىٰ ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ﴾[٦] أي: مثلَ ذلكَ الإنزالِ، و[٧] كما

---

(١) الخَفق: صوت النعل وما أشبهها من الأصوات. (لسان العرب: مادة خفق).

(٢) وهو قول ابن عباس والحسن وعكرمة وابن زيد. راجع تفسير الطبري: ج٨ ص٤٥٩ ـ ٤٦٠.

(٣) الأحقاف: ١١.

(٤) حكاه الآلوسي في تفسيره: ج ١٦ ص ٢٦٥.

(٥) قرأه ابن كثير. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٢٤.

(٦) الآية: ٩٩.

(٧) في نسخة: «أو» بدل الواو.

أنزلنا عليك هؤلاءِ الآياتِ المتضمِّنةِ للوعيدِ أنزلنا القرآنَ كُلَّهُ ﴿وَصَرَّفْنَا﴾ أي: وكرَّرنا ﴿فِيهِ﴾ آياتِ ﴿ٱلْوَعِيدِ﴾ وبيَّناها على ألفاظٍ مختلفةٍ لِيتَّقُوا المعاصيَ ﴿أَوْ يُحْدِثُ﴾ القرآنُ ﴿لَهُمْ﴾ شرَفاً بإيمانِهِم به، أو اعتباراً بأن يَذَّكَّروا به عقابَ اللهِ للأُممِ.

﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ استِعظَامٌ له سبحانَه، ولما يصرِفُ عليه عبادَه من أوامرِهِ ونواهيهِ ووَعْدِهِ ووَعيدِهِ، وما يُجْرِي عليه أُمورَ ملكوتِهِ.

ولمَّا ذكَر القرآنَ وإنزالَه قالَ علىٰ سبيلِ الاستطرادِ: وإذا لقَّنَكَ جبرئيلُ الوحيَ فـ﴿لَا تَعْجَلْ﴾ بتلاوتِهِ قبل أن يفرغَ من قراءتِهِ، ولا تكنْ قراءَتُكَ مساوقةً لقِراءَتِهِ، ونحوُه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾[1]، وقيل: معناه: لاتُقرِئْهُ أصحابَك حتَّىٰ يُبيَّنَ لك ماكانَ مجملاً[2]، واستَزِدْ من اللهِ سبحانَه علماً إلىٰ علمك ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً﴾ إلىٰ علم.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم

(١) القيامة: ١٦.

(٢) وهو قول مجاهد وقتادة. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٣٣.

مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣)﴾

عَطَفَ سبحانَه قصَّةَ آدمَ علىٰ قولِهِ: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، والمعنىٰ: ﴿وَ﴾ أُقْسِمُ قَسَماً ﴿لَقَدْ﴾ وَصَّيْنا أَباهُم بأَن لايقربَ الشجرةَ ﴿فَنَسِىَ﴾ العَهدَ ولم يَتذكَّرِ الوصيّةَ، يُقالُ: عَهدَ المَلِكُ إِلىٰ فلانٍ وأَوعزَ إِليه وعَزَمَ عليه ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ يجوزُ أَن يكونَ من الوجود الَّذي هو بمعنى العلمِ ومفعولاهُ ﴿لَهُ عَزْماً﴾، وأَن يكونَ نقيضَ العَدَمِ، كأَنَّه قالَ: وعَدِمْنَا له عَزْماً، وقيل: ﴿فَنَسِىَ﴾ معناه: فَتَرَكَ الأمر[1].

﴿وَإِذْ﴾ منصوبٌ بمُضْمَرٍ، أَي: وَٱذْكُرْ وقتَ ماجَرَىٰ عليه مِن مُعاداةِ إِبليسَ ووسوستِهِ إِليه، وتزيينِهِ له الأَكلَ من الشجرةِ ﴿أَبَىٰ﴾ جملةٌ مُستَأنَفةٌ كأَنَّه جوابُ قائلٍ يقولُ: لِمَ لَم يسجدْ؟ والوجهُ: أَن لايُقدَّرَ له مفعولٌ وهو السجودُ، وأَن يكونَ معناهُ: أَظْهَرَ الإِباءَ وتَوَقَّفَ.

وقولُهُ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ معناه: فلا يكونَنَّ سبباً لإِخراجِكُما ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ أَسنَدَ الشقَاءَ إِلىٰ آدمَ دون حوَّاءَ بَعدَ اشتراكهما في الخروجِ؛ لأَنَّ المرادَ بالشقاءِ هنا: التعبُ في طلبِ القوتِ ومعاناةُ العملِ وذلك معصوبٌ برأسِ الرجلِ، وعن سعيدِ بنِ جُبَير: أَنَّه أُهبِطَ إِلىٰ آدمَ ثورٌ أَحمرُ فكانَ يحرثُ عليه ويرشحُ العرقُ من جبينهِ فذلك هو الشقاوةُ[2].

وقُرِئَ: ﴿وَأَنَّكَ﴾ بفتحِ الهمزةِ وكسرِها[3]، ووجهُ الفتحِ: العطفُ علىٰ ﴿أَلَّا تَجُوعَ﴾ والتقديرُ: وَإِنَّ لَكَ أَنَّكَ لاتَظْمَأُ، والكسرُ: على الاستئنافِ، والشبعُ

---

(١) قاله مجاهد. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٤٣٠.

(٢) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٤٦٧.

(٣) وبالكسر هي قراءة نافع وعاصم برواية أبي بكر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٣٩.

والريُّ والكسوةُ والكِنُّ[1] هي الأَقطابُ الَّتي يدورُ عليها كفَافُ الإِنسانِ، فذَكَـرَ سبحانَه استجماعَها له في الجنَّة، وأَنَّه لا يـحتاجُ إِلىٰ كـفايةِ كـافٍ ولا إِلىٰ كَسْبِ كاسبٍ كما أَنَّ أَهلَ الدنيا يحتاجونَ إِلىٰ ذلك، وذكَرها بلفظِ النفي لنقائضِها الَّتي هي الجوعُ والعُرْيُ والظمأُ والضُّحِيُّ لِيَطْرُقَ سمعَهُ بأَسامي أَصنافِ الشقْوَةِ الَّتي حذَّرَهُ منها حتَّىٰ يَتحرَّزَ عن السببِ المُوقِعِ فيها كراهةً لها.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ أَي: أَنْهَىٰ[2] إِليه الوسوسةَ كما يقالُ: أَسَرَّ إِليـه، وأَضافَ الـ﴿شَجَرَةِ﴾ إِلىٰ ﴿ٱلْخُلْدِ﴾ وهو الخُلودُ؛ لأَنَّ مَن أَكلَ ﴿مِنْهَا﴾ خَلَدَ بزَعمِهِ.

وطَفِقَ يَفْعَلُ كذا مثلُ: جَعَلَ يَفعَلُ، وأَخَذَ يَفعَلُ، وحكمها حكمُ «كَادَ» في أَنَّ خبرَها الفِعلُ المضارعُ، وهي للشروعِ في أَوَّلِ الأَمرِ، و «كادَ» للدنُوِّ مـن الأَمـرِ ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا﴾ أَي: يُلزِقانِ بسوآتِهما ﴿مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ للتسَتُّرِ، وهو وَرقُ التينِ ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ أَي: خَالفَ ما أَمَرَه به رَبُّه، والمعصيةُ: مُخالَفةُ الأَمـرِ، سواءٌ كانَ الأَمرُ واجباً أَو ندباً ﴿فَغَوَىٰ﴾ أَي: فخابَ من الثوابِ الَّذي كان يستحقُّهُ علىٰ فعلِ المأمورِ به، أَو خَابَ ممَّا كان يَطمَعُ فيه بأَكـلِ الشـجرةِ مـن الخُـلودِ، ويُستشهدُ علىٰ ذلك بقولِ الشاعرِ:

فَمن يَلْقَ خَيْراً يَحمَدُ ٱلنَّاسُ أَمـرَهُ   وَمَنْ يَغْوَ لَايَعْدَم على الغَيِّ لائِماً[3]

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أَي: اصطَفَاهُ رَبُّهُ وقَرَّبَهُ إِليه، مـن قـولِهم: جـبى إِلَيَّ كـذا فاجتبيتُهُ ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أَي: قَبِلَ توبتهُ وهداه إِلىٰ ذكرِهِ، وقيل: هَدَاهُ للكلماتِ الَّتي تَلَقَّاها منه[4]. ولمَّا كان آدمُ وحوَّاءُ أَصلَي البشرِ جُعِلَا كأَنَّهما البشَـرُ، فـخوطبا

(١) الكنّ: البيت، والجمع: أكنان وأكنّة. (لسان العرب: مادة كنن).

(٢) الانهاء: الابلاغ. (الصحاح: مادة نهى).

(٣) والبيت للمرقّش الأصغر. تقدّم شرحه وبيان معناه.

(٤) قاله السمرقندي في تفسيره: ج ٢ ص ٣٥٧.

مخاطبَتَهم فقيل: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ على لفظِ الجماعةِ كما أُسنِدَ الفعلُ إلى السببِ وهو في الحقيقة للمُسبَّبِ، والمرادُ بالهُدَى: الكتابُ والشريعةُ.

وعن ابنِ عبَّاس: ضَمِنَ اللهُ لِمَن اتَّبعَ القرآنَ أَن لا يَضِلَّ في الدنيا ولا يشقىٰ في الآخرةِ، ثُمَّ تلا قولَهُ: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[1].

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ (١٢٧) أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّأُوْلِى النُّهَىٰ (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآىِٕ الَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠)﴾

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن﴾ القرآنِ، وقيلَ: عن الدلائلِ[2] فلم ينظرْ فيها ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾ أَي: عيْشاً ضَيِّقاً، والضنكُ مصدرٌ يستوي في الوصفِ به المذكّرُ والمؤنّثُ، والمعنيُّ فيه: أَنّ مع الدينِ القَناعَةَ والتوكُّلَ على اللهِ والرضا بقسمتِهِ، فصاحِبُهُ يُنفِقُ مِمَّا رُزِقَ بسُهولةٍ وسَماحٍ فيكونُ في رفاهيةٍ من عيشِهِ، ومن أَعرضَ عن الدينِ استولىٰ عليه الحرصُ والجَشَعُ، ويتسلَّطُ عليه الشُحُّ الَّذي يقبضُ يدَه عن الإِنفاقِ فيعيشُ في ضَنْكٍ ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ البصرِ، وقيلَ: أَعمىٰ

(١) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٤٣١.
(٢) ذكره القرطبي في تفسيره: ج ١١ ص ٢٥٨.

عن الحجّةِ لايهتدي إليها[١]، والأوّلُ أوجَهُ[٢] لأنّه الظاهرُ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك فعلتَ أنتَ، ثمَّ فسَّرهَ بأنَّ آياتِنا ﴿أَتَتْكَ﴾ واضحةً مُنيرةً فلم تنظرْ إليها بعينِ المُعتبِرِ وتَرَكْتَها وعَميتَ عنها فـ﴿كَذَٰلِكَ﴾ نَترُكُك علىٰ عَماك، ولا نُزيلُ غِطاءَه عن عينَيْك.

ولَمَّا تَوَعّد المُعرِضُ عن ذكرِه بعقوبتين: المَعيشةِ الضنكِ في الدنيا وحَشرِه أعمىٰ في الآخرةِ، خَتَمَ آياتِ الوعيدِ بقولِه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ كأنَّه قالَ: وَلَلحَشرُ على العَمَى الَّذي لايَزولُ أبداً أَشَدُّ من ضيقِ العيشِ المُنقضي، أو أرادَ: ولَتَرْكُنا إيّاه في العَمَىٰ أَشَدُّ وأَبقىٰ من تَرْكِهِ لآياتنا.

وفاعلُ ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ﴾ الجملةُ بعدَه، والمرادُ: أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ هذا بمضمونه ومعناه، كما أنَّ قولَه تعالىٰ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[٣] مَعناه: تَرَكْنا عليه هذَا الكلامَ، ويَجوزُ أن يَكونَ فيه ضميرُ اللهِ أَوِ الرَّسولِ، ويدلُّ عليه القراءةُ بالنونِ[٤] ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ﴾ يُريدُ: أنَّ قريشاً يَتقَلَّبونَ في بلادِ عادٍ وثمودَ ويُعاينونَ آثارَ إهلاكِهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ لَعِبَراً ودَلالاتٍ لذوي العقولِ.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي العِدَةُ بتأخيرِ جزائهم إلى الآخرةِ ﴿لَكَانَ﴾ مثلُ إهلاكِنا عاداً وثمودَ لازماً لهؤلاءِ الكفَرةِ، واللزامُ: إمّا مصدرُ لازَمَ وُصِفَ به، وإمّا فِعالٌ بمعنى مِفْعَلٍ كأنّه آلةُ اللزوم؛ لفرطِ لزومِه كما قيلَ: لِزازُ[٥] خصمٍ ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ معطوفٌ علىٰ ﴿كَلِمَةٌ﴾ أو على الضميرِ في ﴿كَانَ﴾ أي:

---

(١) قاله مجاهد. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٣٥.

(٢) في بعض النسخ: أولىٰ.

(٣) الصافات: ٧٨ و ٧٩.

(٤) وهي قراءة أبي عبد الرحمن السلمي وأبي رجاء العطاردي. راجع الفريد في اعراب القرآن للهمداني: ج ٣ ص ٤٧٠.

(٥) لزّه يلزّه لزّاً ولززاً، أي: شدّه وألصقه، وكزٌّ لزٌّ اتباع له، رجل مِلَزٌّ: اذا كان شديد الخصومة، لَزومٌ إذا طالب. (الصحاح: مادة لزز).

لكانَ الأَخذُ العاجلُ وأَجلٌ مُسَمّىً لازمَيْن لَه كما كانا لازِمَيْن لعادٍ وثمودَ.

وقولُه: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في موضعِ نصبٍ على الحالِ، أَي: وأَنتَ حامدٌ لِربِّكَ علىٰ أَن وَفَّقَكَ للتسبيحِ وأَعانَك عليه، والمرادُ بالتسبيحِ: الصلاةُ أَو هو على الظاهرِ ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني: صلاةَ الفجرِ ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني: الظهرَ والعَصرَ؛ لأَنَّهما واقعتانِ في النصفِ الأَخيرِ من النهارِ بين زوال الشمس وغُروبها ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾ أَي: ساعاتِه، وعن ابنِ عبَّاس: هي صلاةُ الليلِ كلِّه[١]، وقيلَ: إنَّ قبلَ غروبها هو صلاةُ العصرِ و ﴿أَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ هو الظُهرُ لأَنَّ وقتَه الزوالُ وهو طرفُ النصفِ الأَوَّلِ وطرفُ النصفِ الثاني من النهارِ[٢]، وقد تُؤُوِّلَ أَيضاً التسبيحُ في ﴿ءَانَآءِ ٱلَّيْلِ﴾ بصلاةِ العَتَمَةِ وفي ﴿أَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ بصلاةِ الفجرِ والمغربِ، فيكونُ تكراراً علىٰ إرادة الاختصاص كما في قولِه: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[٣] ومَن حَمَلَ التسبيحَ على الظاهرِ قالَ: أَرادَ المُداوَمَةَ على التسبيحِ والتحميدِ في عموم الأَوقاتِ «لَعَلَّكَ تُرضَى»[٤] بالشفاعةِ والدرجةِ الرفيعةِ، وقُرِئَ بفتحِ التاءِ كما في قولِه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[٥].

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢) وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ (١٣٣) وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً

(١) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٤٣٢.

(٢) وهو قول ابن جريج وقتادة. راجع تفسير الطبري: ج ٨ ص ٤٧٧.

(٣) البقرة: ٢٣٨.

(٤) يظهر منه أنّه يعتمد على هذه القراءة بضم التاء مبنياً للمجهول هنا تبعاً للكشّاف.

(٥) الضحىٰ: ٥.

فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ (١٣٥) ﴾

أي: ﴿لَاتَمُدَّنَّ﴾ نظرَ ﴿عَيْنَيْكَ﴾، ومدُّ النظرِ تطويلُه وأن لايكاد يَرُدُّه؛ استِحساناً للمنظور إليه وإعجاباً بِه، وتَمَنِّياً أن يكونَ ذلكَ له.

وقد قالَ بعضُ الزُّهَّادِ: ويجبُ غَضُّ البَصَرِ[1] عن أَبنيةِ الظَلَمَةِ ومَلابِسِهم المُحَرَّمَةِ؛ لأنَّهم اتَّخذُوا ذلك لعيونِ النظارةِ[2]، فَالناظِرُ إليها مُحَصِّلٌ لغرضِهم وكأنَّه يحملُهُم على اتِّخاذِها[3].

﴿أَزْوَٰجاً مِّنْهُمْ﴾ أَصنافاً من الكَفَرةِ، ويجوز أَن ينتصبَ حالاً من هاءِ الضمير، والفعلُ واقعٌ علىٰ ﴿مِنْهُمْ﴾، كأَنَّه قالَ: إِلَى الَّذي مَتَّعْنَا بِهِ وهو أَصناف بعضهم وناساً منهم، وفي انتصابِ ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ وجوهٌ: أَن ينتصبَ على الذمِّ وهو النصبُ على الاختصاص، وعلى تضمينِ ﴿مَتَّعْنَا﴾ معنىٰ «أَعْطَيْنا» و «خَوَّلْنا» وكونه مفعولاً ثانياً له، وعلى إِبدالِه من محلِّ الجارِّ والمجرورِ، وعلى إِبدالِه من ﴿أَزْوَٰجاً﴾ علىٰ تقديرِ: ذَوي زهرةٍ، والزهرةُ: الزينةُ والبهجةُ، وقُرِئَ بفتحِ الهاءِ[4] فيكونُ لغةً في «الزَهْرَة» كما جاءَ في «الجَهْرَة»: «الجَهَرة»، أَو يكونُ جمعَ زاهرٍ وصفاً لهم بأَنَّهم زاهِرُو الدنيا؛ لتهلُّلِ وجوههم وصفاءِ أَلوانِهم ممّا يتنعَمونَ ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾ لنبلوهم، أَو لِنُعذِّبهم في الآخرة بسببه ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ المدَّخَرُ لك في الآخرةِ ﴿خَيْرٌ﴾ منه وأَدْوَمُ، أَو: مارُزِقْتَ من نعمةِ النُّبوَّةِ خيرٌ ممّا مَتَّعْناهُم به.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ﴾ أَي: أَهل بيتِك ﴿بِالصَّلَوٰةِ﴾ واستعينوا بها علىٰ خصاصتكم ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ واصبِرْ علىٰ فعلِها والأَمرِ بها، ولا تهتمَّ بأَمرِ الرزقِ والمعيشةِ،

---

(١) في بعض النسخ: الطرف.

(٢) في بعض النسخ: النظّار، وفي أُخرى: الناظرة.

(٣) حكاه عن هذا البعض الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٩٨.

(٤) وهي قراءة يعقوب. راجع التبيان: ج ٧ ص ٢٢٤.

فَإِنَّ رزقَكَ مكفيٌّ من عندنا ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ﴾ أَن ترزُقَ نفسَكَ ولا أهلَكَ.

وعن أَبي سعيد الخُدْرِيِّ: لَمّا نزلتْ هذه الآيةُ كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله يأتي بابَ فاطمةَ وعليٍّ عليهما السلام تسعةَ أشهرٍ وقتَ كلِّ صلاةٍ فيقولُ: الصلاةَ رَحِمَكُمُ اللهُ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [١] [٢].

وعن بَكْرِ بنِ عبدِاللهِ المُزنيِّ [٣]: أَنَّه كانَ إذا أَصابَ أَهلَه خَصاصةٌ قالَ: قوموا فَصَلّوا، بهذا أَمَرَ اللهُ [٤] رسولَه، ثمَّ يَتلو هذه الآيةَ [٥].

﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ﴾ المحمودةُ ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ أَي: لأَهلِ التقوىٰ.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ﴾ اقترحوا علىٰ عادتهم في التعنُّتِ آيةً على النُبوَّةِ، فقيلَ لهم: ﴿أَوَلَمْ﴾ تأتكم آيةٌ هي أَصلُ الآياتِ وأَجَلُّها في بابِ الإعجازِ، يعني: القرآنَ، وذلك أَنَّ القرآنَ به يُستدَلُّ علىٰ صحَّةِ سائرِ الكتبِ المُنزَلةِ، وجميعُها مفتقرةٌ إِلىٰ شهادتِه علىٰ صحَّةِ مافيها كما يحتاجُ المحتجُّ عليه إِلىٰ شهادةِ الحجَّةِ؛ لأَنَّه معجزةٌ وتلكَ الكتبُ ليست بمعجزاتٍ، وذكّرَ الضمير الراجع إِلىٰ «البيِّنةِ» في ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ لأَنَّها في معنى الدليلِ والبرهانِ.

﴿كُلٌّ﴾ أَي: كلُّ واحدٍ منّا ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ منتظرٌ للعاقبةِ، فنحنُ ننتظرُ وعدَ اللهِ لَنا فيكم، وأَنتم تتربَّصونَ بنا الدوائر، و ﴿ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾: الدينُ المستقيمُ.

وفي قولِه: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم﴾ الآية، دلالةٌ علىٰ وجوبِ اللُّطفِ، وأَنَّه إِنَّما بَعَثَ الرسولَ لكونِه لطفاً، ولو لم يبعثْهُ لكانَ للخلقِ الحجَّةُ عليه سبحانه وتعالىٰ.

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) تفسير الحِبري: ص ٣٠٦ ح ٥٥، شواهد التنزيل للحسكاني: ج ٢ ص ٤٧ ح ٦٦٨.

(٣) هو بكر بن عبدالله بن عمرو بن هلال المزني، أخو علقمة. راجع تهذيب التهذيب لابن حجر: ج ١ ص ٤٨٤.

(٤) في نسخة زيادة: واو.

(٥) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٩٩.

سورةُ الأنبيَاءِ

مكّية[1]، وهي مائة واثنتا عشرة آيةً كوفي، وإحدىٰ عشرة آية غيرهم، عدَّ الكوفي ﴿لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ﴾[2].

في حديث أُبيٍّ: «مَن قرأ سورة الأنبياء حاسَبه الله حساباً يسيراً، وصافحه وسلَّم عليه كلّ نبيّ ذُكر اسمه في القرآن»[3].

وقال أبو عبدالله عليه السلام: «من قَرأَها حُبّاً لها كان ممَّن رافق النبيِّين في جنَّات النعيم، وكان مهيباً في أعين الناس في الدنيا»[4].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٢٢٧: هي مكية في قول قتادة ومجاهد، وهي مائة واثنتا عشرة آية في الكوفي، وإحدى عشرة في البصري والمدنيّين.

وقال الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٠٠: مكية، وآياتها ١١٢، نزلت بعد سورة ابراهيم.

وفي تفسير الآلوسي: ج ١٧ ص ٢ ما لفظه: نزلت بمكّة كما أُخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير، وفي البحر: أنّها مكّية بلاخلاف وأُطلق ذلك فيها، واستثنىٰ منها في الاتقان قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ﴾ الآية.

(٢) الآية: ٦٦.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٤٠ مرسلاً.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٥.

ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ (٥)﴾.

اللام في ﴿لِلنَّاسِ﴾ لتوكيد معنى إضافة «الحساب» إلى «الناس»، والأصل[١]: اقترابُ حسابِ الناس[٢]، ثمّ اقتربَ للناسِ الحسابُ، ثمّ ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ والمرادُ: اقترابُ القيامةِ، وإذا اقتربَتْ فقد اقتربَ ما يكون فيها من الحسابِ والثوابِ والعقاب وغير ذلك، وإنّما وُصفت بالقُرب لأنّ كلّ آتٍ وإن طالت مدّة ترقّبه قريبٌ، وإنّما البعيدُ هو الّذي وُجد وانقرض.

وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّ الدنيا ولّت حَذّاء[٣] ولم يبق منها إلّا صُبابة كصُبابة الإناء»[٤].

وَصَفهم بالغفلة مع الإعراض على معنىٰ: أنّهم غافلون عن حسابهم، ساهون لا يتفكّرون في عاقبتهم، وإذا نُبّهوا عن سِنَةِ الغَفلة بما يُتلى عليهم من الآيات أعرضوا عن التفكّر فيها والتدبّر لها والإيمان بها، ثم قرّر سبحانه إعراضهم عن تنبيه المنبّه بأنّ الله يجدّد لهم الذكر وقتاً فوقتاً، ويُحدث لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ليتّعظوا، فما يَزيدهم استماع الآيِ والسُوَرِ إلّا لَعِباً وتلهّياً.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ حالانِ مترادفتانِ أو متداخلتانِ، وأبدل

---

(١) أي: أصل العبارة قبل زيادة التوكيد عليه.

(٢) ليس في بعض النسخ جملة: «والأصل: اقتراب حساب الناس».

(٣) حذّاء: أي خفيفة سريعة النفاذ. (لسان العرب: مادة حذذ).

(٤) نهج البلاغة: ص ٨٤ خطبة ٤٢ ضبط صبحي الصالح.

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ من واو ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ إذاناً بأنّهم الموسُومُونَ بالظلمِ فيما أسرُّوا به، أو يكون على لغة مَن قال: أكلوني البراغيث، أو هو مبتدأ وخبره ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ قُدِّم عليه، والمعنى: ﴿و﴾ هؤلاء ﴿أَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ بالغوا في إخفاتها، فوُضع الظاهر موضع المضمر تسجيلاً على أفعالهم بأنّه ظلم ﴿هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ هذا الكلامُ كلُّه في محلِّ النصب بدلاً من ﴿ٱلنَّجْوَى﴾ أي: وأسرّوا هذا الحديث، ويجوز أن يتعلَّق بـ«قالوا» مضمراً. اعتقدوا أنّ الرسولَ من الله لا يكون إلّا مَلَكاً، وأنّ كلّ مَن ادَّعى الرسالة من البشر وأتى بالمعجزات فهو ساحر، وما أتىٰ به فهو سحر، فلذلك قالوا: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ﴾ تُعاينون أنّه سحر؟

وقُرئ: ﴿قَالَ رَبِّى﴾ على الخبر عن الرسول ﷺ، ولم يقل: يعلم السر؛ لأنَّ القولَ عامٌّ يشمل السرّ والجهر، فكان في العلم به العلم بالسرّ وزيادته[(١)]، ثم بيَّن ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: العالم لذاته لا يخفىٰ عليه خافية.

ثم أضربوا عن قولهم: هو سحرٌ، إلى: أنّه تخاليط ﴿أَحْلَـٰمٍ﴾، ثم إلى: أنّه كلام مفترىً من عنده، ثم إلى: أنه قول شاعر؛ لأنَّ الباطل لجلجٌ، والمبطل متحيّر لا يثبتُ على قولٍ واحدٍ، وصحَّة التشبيه في قوله: ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ من حيث إنّه في معنى: كما أتى ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾ بالآيات؛ لأنّ إرسال الرُسُل متضمّن للإتيان بالآيات، فلا فرق بين أن يقول: أُرسل محمد ﷺ، وبين قولك: أتىٰ محمد ﷺ بالمُعجز.

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا

(١) في نسخة: «وزيادة».

جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَـٰلِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠)﴾

في قوله: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ دلالةٌ على أنّهم أعتَىٰ من الأُمم التي اقترحت على أنبيائهم الآيات ووعدوهم أن يؤمنوا عندها، فلمّا جاءتهم خالفُوا وأخلفُوا الوعدَ فأهلَكَهُم الله، أي: فلو أعطيناهم ما اقترحوا لَكانُوا أنكث منهم.

واختلف في ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ فقيل: هم أهلُ الكتاب[١]، وقيل: هم أهلُ العلم بأخبار مَن مضىٰ من الأُمم[٢].

وعن علي عليه السلام: «نحن أهلُ الذكر»[٣].

﴿لَا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ صفة الجسد، والمعنى: وما جعلنا الأنبياء قَبلَه ذَوي جسدٍ غير طاعمين، ووحَّد «الجسد» لإرادة الجنس، كأنّه قال: ذوي ضربٍ من الأجساد، وهذا ردٌّ لقولهم: ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾[٤]، ﴿وَمَا كَانُوا خَـٰلِدِينَ﴾ أي: ما أخرجناك[٥] وما أخرجناهم عن حدِّ البشريَّة بأن أوحينا إليهم.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ أي: في الوعد، فهو مثل قوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾[٦] أي: من قومه. ومنه قولهم: صدقني سنّ بكره، وصَدَقُوهم القتَال ﴿فَأَنجينـٰهُم﴾ من أعدائِهم ﴿وَ﴾ أَنجينا ﴿من نَّشاءُ﴾ من المؤمنين بهم ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ وهم المشركون، أسرفوا على أنفُسِهم بتكذيبهم الأنبياء.

---

(١) قاله الحسن وقتادة. راجع تفسير التبيان: ج ٧ ص ٢٣٢.

(٢) وهو قول الرماني والأزهري والزجّاج. راجع التبيان: ج ٦ ص ٣٨٤، ومعاني القرآن للزجّاج: ج ٣ ص ٢٠١.

(٣) رواه الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٦، والطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٢٣٢.

(٤) الفرقان: ٧.

(٥) ليس في بعض النسخ: «ما أخرجناك».

(٦) الأعراف: ١٥٥.

﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: شرفكم وَصِيتُكم، كما في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[1]، أو: موعظتكم، أو فيه مكارم الأخلاق التي كنتم تطلبون بها الثناءَ وحُسنَ الذكر، كالسخاء وأداء الأمانة والوفاء وحُسن الجوار وصدْق الحديث وأشباهها من محاسن الأفعال.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً ءَاخَرِينَ (١١) فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَى مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ (١٣) قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيداً خَٰمِدِينَ (١٥) وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾

هذا كلامٌ واردٌ عن غضبٍ شَديدٍ؛ لأنَّ القَصْمَ أفظعُ الكسر، بخلاف الفصم، وهو سبحانه قاصم الجبارين، وأراد بالقريةِ أهلَها ولذلك وَصَفَها بالظُّلم، والمعنى: أهلكنا قوماً وأنشأنا قوماً آخرين، وعن ابن عبَّاس: أنَّها «حضور»، وهي و«سحول» قريتان باليَمن، تُنسب إليهما الثياب[2].

وفي الحديث: كُفِّنَ رَسُول الله ﷺ في ثوبين سحوليَّين، ويروىٰ: حضوريَّيْن[3].

(١) الزخرف: ٤٤.
(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٠٥.
(٣) رواه أيضاً في الكشّاف: ج ٣ ص ١٠٥.

بَعثَ الله إليهم نبيّاً اسمُهُ «حنظلة» فقتلوه، فسلَّط عليهم «بَخْتُنصَّر» كما سُلِّط على أهل بيت المَقْدِس فاستأصلهم.

وظاهر الآية على الكثرة، ولعلّ ابن عبّاس ذكر «حضور» بأنّها إحدى القرى التي أرادها الله بهذه الآية.

فلمّا علموا شدّةَ بطشنا[١] بأجسامهم وشاهدوا عذابنا ركضوا من ديـارهم، والركض: ضَرْب الدابة بالرِجْل، أي: هَربُوا وانهزموا من قَريتهم لمَّا أدركتهم مقدّمة العذاب، فقيل لهم: ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ والقول محذوف، ويحتمل أن يكون القائل بعض الملائكة، أو مَنْ هناك من المؤمنين ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ من العيشِ الرافِهِ والحالِ الناعِمَة، والإتراف: إبطارُ النعمةِ، وهي الترَفُّه ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ تَهكُّمٌ بهم، أي: ارجعوا إلىٰ نعمتكم ومساكنكم لعلّكم تُسألون غـداً عـمَّا جـرىٰ عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علمٍ ومشاهدة، أو: ارجعوا واجلسوا في مجالسكم ومراتبكم كما كنتم كذلك حتّىٰ تَسألكم حشـمُكم ومَـن تَملكونَ أمرَهُ ويقولوا لكم: بِمَ تأمرون؟ ومـاذا تـرسمون؟ كـعادة المُـنْعَمين، أو: يسألكم الناس في أنديتكم المعاونة في الخُطُوب النازلة، ويسـتشفون بآرائِكـم في المهمات الكادسة[٢].

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلىٰ ﴿يَـٰوَيْلَنَآ﴾، والدعوى بمعنى الدعـوة، أي: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ﴾ الدعوىٰ ﴿دَعْوَىٰـهُمْ﴾، وإنّما سُمّي الدعوىٰ لأنّ المُوَلْول كأنّه يدعو الويلَ فيقول: تعال يَا ويلُ فهذا وقتُكَ، والحَصِيدُ: الزرعُ المحصودُ، أي: جعلناهم مـثلَ الحَصيد، شبّههم به فـي اسـتئصالهم، أي: جـعلناهم جـامعين لمـماثلة الحـصيد والخمود، كما يقال: جعلته حُلْواً حامضاً أي: جامعاً للطَعْمَين.

---

(١) في نسخة: «بأسنا».

(٢) في بعض النسخ: «الكارثة».

وما جعلنا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من أنواع الخلائق لِلَّهو واللعب، وإنّما سوَّيناها للفوائدِ الدينيّة والحِكَم الالهيَّة. ﴿لَّاتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي: من جهة قُدرتنا، واللهو: الولدُ، وقيل: المرأة[1]، وقيل: ﴿مِن لَّدُنَّآ﴾ أي: من الملائكة لا من الإنس[2]، وهو ردٌّ لولادة المسيح وعُزَير، بل إضراب عن اتِّخاذ اللَّهو، كأنَّه قال: سبحانَنا أَنْ نَتَّخِذَ اللهو واللعب. ﴿بَلْ﴾ من موجب حِكْمتنا أن نَغْلِبَ اللهو بالجدِّ ونَدحض الباطلَ ﴿بِـٱلْحَقِّ﴾، واستعار لذلك القَذفَ والدفعَ تصويراً لإبطاله به ومَحْقِهِ، فجعلَه كأنَّه جُرمٌ صلْبٌ كالصخرة مثلاً قَذَفَ به على جُرمٍ رَخْوٍ أَجْوَفَ فدمغه، ثم قال: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ به ممّا لا يجوز عليه.

﴿ومَنْ عِندَهُۥ﴾ هُمْ الملائكة، يعني: أنَّهم منزَّلون منه منزلةَ المقرّبين عند الملوك؛ لشرفهم على الخلق وكرامتهم عليه ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يَعْيَوْنَ ولا يملُّون. ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ أي: ينزِّهُونَ الله تعالىٰ عمَّا لا يليق بصفاته على الدوام في ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ لا يَضعفون عنه.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ (٢٣) أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤) وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ (٢٥) وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ

(١) قاله ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد. راجع تفسير التبيان: ج ٧ ص ٢٣٦.
(٢) قاله ابن جريج. راجع تفسير القرطبي: ج ١١ ص ٢٧٦.

أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ (٢٩) أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَـٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)﴾

﴿أم﴾ هذه منقطعةٌ بمعنى «بل»، والهمزة فقد دلّت على الإضراب عمّا قبلَها، والإنكار لِمَا بعدَهَا، وهو أن يتّخذوا ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ آلهةً ﴿يُنشِرُونَ﴾ الموتىٰ، ومن أعظم المنكرات أَن يَنشرَ المَواتُ الأمواتَ، وإذا ادَّعَوْا لها الإلهيّة لَزِمَهُم أَنْ يدَّعوا لها الإنشارَ؛ لأنَّه لا يستحقّ هَذا الاسم إلَّا القادرُ علىٰ كلِّ مقدور، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ من نحو قولك: فلانٌ من الكوفة، تريد: أنّه كوفيٌّ، فيه إيذان بأنَّها الأصنام التي تعبد في الأرض، أو يريد: ﴿ءَالِهَةً﴾ من جنس الأرض؛ لأنَّها: إمّا أن تُنْحَتَ من بعض حجارة الأرض أو تُعْمَلَ من بعض جواهرها، وقُرِئ: «يَنْشُرُونَ»[1]، ويقال: أَنْشَرَ اللهُ الموتى وَنَشَرَهَا، وهما لغتان.

ثم دلَّ سبحانه علىٰ توحيده فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾ أي: في السماء والأرض ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وُصفت الآلهةُ بـ﴿إِلَّا﴾ كما تُوصَفُ بـ«غير»، كما لو قيل: آلهةٌ غير الله، ولا يجوز أن يكون بَدَلاً؛ لأنَّ البدل لا يسوغ إلَّا في غير الموجب، كقوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾[2] وذلك أنّ أعمَّ العامِّ يصحّ نفيه ولا يصحّ إيجابُه، والمعنىٰ: لو كان يدبِّر أَمْرَهما آلهةٌ شتّى غير الواحد الذي هو مُنشِئُهما ومُحْدِثُهما ﴿لَفَسَدَتَا﴾ ولم ينتظم أمرُهُما، وفي هذا دليل التمانع الذي بَنَىٰ عليه المتكلِّمون في مسألة التوحيد.

---

(١) قرأه الحسن ومجاهد. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٣٠٤.

(٢) هود: ٨١.

﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لأنَّ أفعالَه كلَّها حكمةٌ وصواب، ولا يجوز عليه فعلُ القبيح ﴿وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ لأنّهم مملوكون مُستَعْبَدون، يقع منهم الحسَن والقبيح، فهم جُدراءُ بأنْ يقال لهم: لِمَ فعلتم في كلّ شيءٍ فعلوه؟

وكرّر ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ استعظاماً لكُفرهم ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ علىٰ ذلك من جهة العقل أو من جهة الوحي، فإنَّكم لا تجدون كتاباً من كُتبِ الأوَّلين إلّا وفيه الدعاء إلى التوحيد والنهي عن الشرك ﴿هَـٰذَا﴾ القرآن ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ أي: عِظَةُ الذي معي، يعني: أُمَّته ﴿وَذِكْرُ﴾ الَّذين ﴿قَبْلِى﴾ من أُمم الأنبياء ممّن نَجَا بالإيمان أو هَلَكَ بالكفر. وعن الصادق عليه السلام: يعني بـ﴿ذِكْرُ مَنْ مَّعِيَ﴾ مَن معه وما هو كائن، وبـ﴿ذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ ما قد كان[1]. ثم ذمَّهم سبحانه بالجهل في قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن التأمُّل والنظر.

وقُرئ: ﴿نُوحِيٓ﴾ و«يوحىٰ»[2] وهذه الآية مقرِّرةٌ لما قبلها من آي التوحيد.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَداً﴾ هم خزاعة حيث قالوا: الملائكةُ بناتُ الله ﴿سُبْحَـٰنَهُ﴾ نزَّه ذاتَه عن ذلك، ثم أخبر عنهم بأنَّهم ﴿عِبَادٌ﴾، والعبودية تنافي الولادة ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ أكرمهم الله وقرَّبهم. ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ يعني: يتَّبعون قوله ولا يقولون شيئاً حتّىٰ يقوله، فلا يَسبق قولُهم قولَه، وكما أن قولَهم تابعٌ لقولِه فعملهم أيضاً كذلك مبنيٌّ على أمره، لا يعملون عملاً لم يأمرْهم به، وجميع ما يأتون ويذَرون ممَّا قدَّموا وأخَّروا بعين الله، يحيط عِلْماً بما عملُوا وما هم عاملُون، ولا يَجترِئون أن يَشفعوا ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ الله دينه، أو: ارتضى

(١) رواه الصفّار في بصائر الدرجات: ص ١٤٩ ح ١.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالنون، وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم بالياء. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٢٨.

أن يُشفع فيه وأهّلَهُ للشفاعة وهم المؤمنون، ثم إنّهم مع هذا كلّه ﴿مِّنْ﴾ خَشيةِ الله ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون وَجِلُونَ من التقصير في عبادته.

ثم أوعد بعذاب جهنّم من أشركَ منهم إن كان ذلك علىٰ سبيل الفرض والتمثيل؛ تقطيعاً لأمر الشرك، كما قال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (١) وقُرئ: «أَلَمْ يَرَ»، بغير واو (٢)، والمعنى: أنّ السماء كانت لاصقةً بالأرض لا فضاءَ بينهما، وكانت ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ متلاصقات وكذلك الأرضون لا فُرَجَ بينها فَفَتَقَهَا الله وفَرّج الله بينهما، وقيل: ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ بالمطر والنبات بعد ما كانت مُصْمَتَة (٣) وهو المرويُّ عنهم عليهم السلام (٤)، وإنّما قال: ﴿كَانَتَا﴾ ولم يقل: «كُنَّ»، لأنّ المراد جماعة السماوات وجماعة الأرض، كما قيل: لِقاحان سوداوان أي: جماعتان، فَعلَ في المضمَر مثل ما فعل في المظهَر ﴿وَجَعَلْنَا﴾ لا يخلو أن يتعدّى إلى واحد أو اثنين، فإن كان الأول فالمعنىٰ: خلقْنا ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ﴾ حيوان كقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ (٥)، أو: كأنّما خلقناه من الماء لحاجته إليه وقلّة صبره عنه كقوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (٦)، وإن كان الثاني فالمعنىٰ: صَيَّرنا ﴿كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ بسبب ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ لابدّ له منه، ويكون ﴿مِنَ﴾ هنا كما في قوله عليه السلام: «ما أنا من دَدٍ ولا الدّدُ مِنّي» (٧).

---

(١) الأنعام: ٨٨.

(٢) وهي قراءة ابن كثير. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٤٣.

(٣) قاله عكرمة و عطية و ابن زيد و المهدوي عن ابن عباس. راجع تفسير القرطبي: ج ١١ص ٢٨٤.

(٤) رواه الطوسي في التبيان: ج ٧ص ٢٤٢ عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام.

(٥) النور: ٤٥. (٦) الآية: ٣٧.

(٧) والدَدُ: اللعب، والمثل يضربه الرجل لمن لا يوافقه. انظر المستقصىٰ في أمثال العرب للزمخشري: ج ٢ ص ٣١٤.

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)﴾

﴿رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالٌ ثوابت، أي: كراهةَ ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ وتضطرب، أو لأنْ لا تميد بهم، فحذف «لا» واللام، وإنما حذف «لا» لعدم الالتباس، كما زِيدَ لذلك في نحو قوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ (١) وهذا مذهب الكوفيِّين ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في الرواسي ﴿فِجَاجاً﴾ أي: طُرُقاً واسعةً بينها، جَمْعُ «فَجٍّ» وهي صفة لـ«سُبُل»، فلمَّا تقدّمت عليها جُعلت حَالاً منها.

﴿سَقْفاً مَّحْفُوظاً﴾ مِنْ أن يَسقطَ إلى الأرض ويتزلزل، أَو: محفوظاً بالشُهب عن أن يتَسَمَّعَ الشياطين علىٰ سكّانه من الملائكة ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا﴾ أي: عمَّا وضَعَ الله فيها من الأدلّة والعِبَرِ بالشَمسِ والقَمرِ وسائر الكواكب ومَسائرها على الحسابِ القَويم والتَرتيب المُستَقيم الدالِّ على الحكمة البالغة، فَمَنْ أعرضَ عن الاستدلال بها على عِظَمِ شأنِ مَنْ أَوجدَها وبَديعِ حكمتِهِ فلا جَهْلَ أعظمُ من جهله.

﴿كُلٌّ﴾ التنوينُ فيه عِوَضٌ عن المضاف إليه، أي: كلُّهم ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، والضمير لـ﴿الشَّمْس وَٱلْقَمَر﴾ والمراد: جنس الطوالع كلَّ يومٍ وليلة، ولذلك جُعلت متكاثرةً لتكاثُرِ مَطالِعها، وهو السبب في جمعها بالشموس والأقمار وإن كانت الشمس واحدةً والقمر واحداً، وإنما جُعل الضمير «واو» العقلاء للوصف

(١) الحديد: ٢٩.

بفعلهم وهو السباحة.

كانوا قد تَمنَّوا مَوتَه عليه السلام ليشمتُوا بذلكَ فَنفَى الله عَنه الشَماتة بهذا، أي: قضى الله أن لا يُخَلَّد في الدنيا بشراً، فإن ﴿مِتَّ﴾ أنت أيبقىٰ هؤلاء؟

وَ﴿فِتْنَةً﴾ مصدرٌ مؤكّد لـ﴿نَبْلُوكُم﴾ من غير لفظِه، أي: يختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا، وبما يجبُ فيه الشُكر من العطايا ﴿وَإِلَيْنَا﴾ مرجعُكُم فَنُجازيكم علىٰ حَسبِ ما يوجد مِنكُم من الصَبرِ والشُكر.

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٣٦) خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠) ﴾

الذكر يكون بالخير وبالشرِّ، فإذا دلَّت الحال علىٰ أحدهما أطلق، تقول للرجل: سَمعتُ فلاناً يذكُركَ، فإنْ كان الذاكرُ صديقاً فهو ثَناءٌ، وإنْ كان عَدُواً فهو ذمٌّ، ومنه قوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ وقوله: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾[1]، والمعنىٰ: أنّهم يذكرون آلهتهم بما يجب أن لا تُذكَر به لكونِهم شُفَعاء وشُهداء، ويَسوءهُم أن يَذكرها ذاكرٌ بخلاف ذلك و﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ بما يجب أن يُذكَرَ اللهُ به من الوحدانية لا يصدّقون به، فهم أحقُّ بأن يُتّخذُوا ﴿هُزُوًا﴾ منك لأنهم مُبطِلُون وأَنت مُحِقٌّ، والجملةُ في موضع «الهزء» وهو الكفر بالله، ويجوز أن يكون في موضع الحال على حَذفِ القول، أي: قائلين: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾.

(١) الآية: ٦٠.

كانوا يستعجلون عذاب الله ويقولون: ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، فأراد الله سبحانه نَهْيَهُم عن الاستعجال فقدَّم أولاً ذمَّ ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ على العجلة وأنّه مطبوعٌ عليها، ثم نهاهم وزَجَرهم، فكأنّه قال: ليس بِبِدْعٍ منكم أنْ تَستعجلوا، فإنّكم مجبولون على ذلك وهو سجيّتكم، وعن ابن عباس: أنه أراد بالإنسان آدم، إنّه لمّا بلغ الروحُ صدرَهُ أراد أن يقوم[1]، والظاهرُ أن المرادَ به الجنس، وقيل: العَجل: الطين بلغةِ حِميَرَ[2] واستشهد بقول شاعرهم:

والنبعُ يَنْبُتُ بين الصَّخر صاخيةً والنخل يَنبتُ بين الماءِ والعَجَلِ[3]

وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف أي: لو علموا لَمَا قامُوا على الكُفْر ولَمَا ٱستَعجلُوا، و﴿حِينَ﴾ مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾، أي: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الوقتَ الذي يستعجلون عنه بقولهم: متىٰ هذا الوعد، وهو وقتٌ صعبٌ يحيط بهم فيه ﴿ٱلنَّارَ﴾ من ورائهم وقدَّامهم، فلا يقدرون على رَفْعِها من نفوسهم، ولا يجدون ناصراً ينصرهم؛ لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء، ويجوز أن يكون ﴿يَعْلَمُ﴾ متروكاً بلا تعديةٍ بمعنىٰ: لو كان معهم عِلْمٌ ولم يكونوا جاهلين لَمَا كانوا مستعجلين، ويكون ﴿حِينَ﴾ منصوباً بِمضمَرٍ، أي: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ يعلمون أنّهم كانوا على الباطل. ﴿بَلْ﴾ تفجأُهُم الساعةُ أو النارُ الَّتي وُعِدُوا بها فتغلبهُم، ويقال

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١١٧.

(٢) قاله أبو عبيد على ما حكاه عنه الرازي في تفسيره: ج ٢٢ ص ١٧٢.

(٣) لم نعثر على اسم الشاعر الحِمْيَري فيما توفّرت لدينا من مصادر، وروي صدره:

والنبع في الصخرة الصمّاء منبته

يقول: النبع ـ وهو شجر تتخذ منه القسيّ ـ انّما نباته بين الصخور الصلبة لا في غيرها، بينما النخل ينبت في الارض الرخوة الليّنة والريّانة، فهو بين الماء والطين، والظاهر هما كناية على الصعب البخيل والسهل الجواد، أو على الشجاع والجبان لشدة الأول ورخاوة الثاني. أُنظر شرح شواهد الكشّاف للافندي: ص ٢٠١.

لمن غُلِبَ في الْحِجَاجِ: مَبْهُوتٌ، وفي قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ تذكيرٌ بإنظارِه وإمهالِه إيَّاهم، أي: لا يُمهَلُون بعدَ طول الإمهَال.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٤١) قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥)﴾

ثم سلَّىٰ سبحانه نبيَّه صلى الله عليه وآله عن استهزائِهم به بأنَّ له في الأنبياء قبلَه أُسوةً، وأنَّه يحلُّ بهم وَبَالُ استهزائهم كما حلَّ بأُولئك.

﴿مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ أي: من بأسِ الرحمـٰنِ وعذابِهِ، والْكَلاءةُ: الحِفْظُ، بل هم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن ذِكْرِ ربِّهم لا يَخطرونه ببالهم فضلاً عن أَن يخافوا بأسَه، والمراد: أنَّه أمر بسؤالهم عن الكالئ، ثم بيَّن أنّهم لا يصلحون لذلك؛ لإعراضهم عن ذِكْر مَن يكلؤُهم. ثم أضرب عن ذلك لِمَا في ﴿أَمْ﴾ من معنى «بَل»، وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن﴾ العذاب تتجاوز مَنْعَنَا وحِفظَنا، ثم استأنف وبيَّن أنَّ ما ليس بقادر علىٰ نصرِ نفسه ومَنْعِها، ولا بمصحوب من الله بالنصر كيف يمنع غيره وينصره؟!

ثم قال: ﴿بَلْ﴾ ما هم فيه من الكلاءة إنما هو منّا أمهلْناهم ومتَّعناهم بالحياة الدنيا كما متَّعنا ﴿ءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ﴾ الأَمدُ، فظنّوا أنّهم لا يُنزع عنهم ثوبُ الأمن والطمأنينة.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا﴾ نَنْقُص أرضَ الكُفر بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم علىٰ

أهلها، وقيل: نَنْقُصها بموت الْعُلَماء[١]، وعلى القول الأول ففي قوله: ﴿أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا﴾ تصويرٌ لِمَا كَان يُنجز به اللهُ على أيدي المسلمين من الْغَلَبة على ديار المشركين، والنقص من أطرافها.

وقُرِئَ: «لا تُسْمِعُ الصُّمَّ»[٢] على الخطاب للنبي ﷺ.

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ (٤٧) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ (٥٠)﴾

أي: وإن مسَّهم ممَّا أُنْذِروا به أدنىٰ شيءٍ لذلُّوا وأقرُّوا بالظُّلمِ علىٰ أنفسهم، وفي «النَّفْحَةِ» معنى القِلَّة لبناء المرَّة، ولقولهم: نَفَحَتْهُ الدابة وهو ريحٌ يسير، وَنَفَحَهُ بعطيَّةٍ إذا رضخه[٣].

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ ذوات ﴿ٱلْقِسْطَ﴾ فحذف المضاف، ووصفت ﴿ٱلْمَوَٰزِين﴾ بـ﴿ٱلْقِسْطَ﴾ وهو العدل مبالغةً، كأنَّها في أنفسها قِسْطٌ ﴿لِـ﴾ أهل ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: لأجلِهِم، أو هو كاللام في قولك: لخَمْسٍ لَيَالٍ خَلَونَ من الشهر، ومنه قولُ النابغة:

تـوَسَّمْتُ آيـاتٍ لهـا فَـعرفتُها لِستَّةِ أعوامٍ وذا العام سـابعُ[٤]

---

(١) وهو قول عطاء والضحاك. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٤٤٩.

(٢) قرأه ابن عامر وحده. راجع التيسير في القراءات للداني: ص ١٥٥.

(٣) رضخه رضخاً: إذا أعطاه عطيةً قليلةً. (لسان العرب: مادة رضخ).

(٤) وهو من قصيدة يعتذر بها الى النعمان بن المنذر ممّا وشت به بنو قريع، ومطلعها: ←

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ لا يُنقص من إحسان مُحسنٍ، ولا يُزاد في إساءة مُسيءٍ ﴿وَإِن كَانَ﴾ الظلامة ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ أحضرناها للمجازاة، ويجوز أن يؤنَّث ضمير «المثقال» لإضافته إلىٰ «الحبة»، كما يقال: ذهبتْ بعضُ أصابعه، وقرأ الصادقُ عليه السلام وابنُ عباس ومجاهد: «آتيْنَا بِهَا» بالمَدِّ[1]، وهي مفاعلةٌ من الإتيان بمعنىٰ: المجازاة والمكافاة؛ لأنّهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء.

و﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾: التوراة، و﴿ضِيَآءً﴾ أي: وآتيناهما به ضياء ﴿وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والمعنىٰ: أنّه في نفسه ضياءٌ وذكرىٰ، أو يريد: أتيناهما بما فيه من الشرائع ضياءً وذكرىٰ، وقيل: ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ فَلْقُ البحرِ[2]، وقيل: المُخرِجُ من الشُبهات[3]. ومحلّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ جرٌّ على الوَصْفِ، أو نَصبٌ على المَدحِ، أو رفعٌ عليه. ﴿وَهَـٰذَا﴾ القرآن ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ وبركته: خيره ومنافعه، ودوام ذلك إلىٰ يوم القيامة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ (٥٢) قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَاْ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ (٥٦) وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذاً

← أقارع عوفٍ لا أحاول غيرها وجوه قرود تبتغي من تجادعُ
أُنظر خزانة الأدب للبغدادي: ج ٢ ص ٤٥٣ وفيها: «توهّمت» بدل «توسّمت».

(١) أُنظر شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٩٤، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٣١٦.

(٢) قاله الضحاك. راجع الكشّاف: ج ٣ ص ١٢١.

(٣) وهو قول محمد بن كعب. راجع البحر المحيط لابن حيان: ج ٦ ص ٣١٧.

إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُواْ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّـهُ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٥٩) قَالُواْ سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَٰهِيمُ (٦٠)﴾

الرُشدُ: الاهتداءُ لوجوه الصلاح، ومعنى إضافته إليه: أنّه رشدٌ مثلُه، وأنّه رشدٌ له شأن، وقيل: هو الحُججُ الموصلة إلى التوحيد(١)، وقيل: النبوة(٢) ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل موسىٰ وهارون ﴿وَكُنَّا بِهِ﴾ أي: بصفاته الرضيّة وأسراره ﴿عَـٰلِمِينَ﴾ حتّىٰ أهَّلْناه لِخلَّتِنَا.

﴿إِذْ﴾ يتعلَّق بـ﴿ءَاتَيْنَآ﴾ أو بـ﴿رُشْدَهُۥ﴾، وقولُه: ﴿مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ تصغيرٌ لشأن آلِهَتِهِم، وتحقيرٌ لها، ولم ينوِ للعاكفين مفعولاً وأجراه مجرى ما لا يَـتَعدَّىٰ، أي: فاعلون للعكوف لها، ولو قصد التعدية لقال: ﴿عَـٰكِفُونَ﴾ عليها.

ورُوي عن الأصبغ بن نباتة أنّه قال: إنّ أميرالمؤمنينعليه السلام مرَّ بـقومٍ يـلعبون بالشطرنج فقال: ﴿مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ﴾؟ لقـد عَـصَيتُم الله ورسوله(٣).

اعترَفوا بتقليد الآباء حينَ لم يجِدُوا حجةً في عبادتها، وكَفىٰ أهل التقليد عاراً وسُبَّةً أنَّ عابِدي الأوثان منهم. ﴿أَنتُمْ﴾ من التـوكيد الذي لا يـصحُّ الكـلام مـع الإخلال به؛ لأنّ العطف على ضمير «هو» في حُكم بعض الفعل لا يجوز، أي: أنتم ومَن قلَّدتموهم قد انخرطتُم في سِلْكِ ضَلالٍ ظاهرٍ غير خافٍ.

﴿قَالُوٓاْ﴾ له: هذا الذي ﴿جِئْتَنَا﴾ به أجِـدٌّ هـو وَحَـقٌّ ﴿أَمْ﴾ هـزلٌ ولَـعِب؟ إذ تعجَّبوا من تضليله إيَّاهم، واستَبعَدوا أن يكونوا علىٰ ضلال.

---

(١) وهو قول الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٢٥٥.

(٢) قاله ابن عيسىٰ. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٤٥٠.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذمّ الملاهي: ص ٨٩، والبـيهقي فـي شـعب الإيـمان: ج ٥ ص ٢٤١ ح ٦٥١٨.

والضميرُ في ﴿فَطَرَهُنَّ﴾ لـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أو لـ﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾.

و﴿تَٱللَّهِ﴾ التاء فيها بدل من الواو المبدلة من الباء، وفي التاء زيادة معنىً وهو التعجّب، كأنه تعجَّب من تسهُّل الكيد علىٰ يدِه، وتأتّيه لصعوبته، وتعذُّره علىٰ يده[1] في زمن النمرود مع فرط عُتُوِّه واستكبارِه، وعن قتادة: قال ذلك سِرّاً من قومه[2].

ورُوي[3]: أنّهم خرجوا في يوم عيدٍ لهم، فجعل إبراهيم أصنامهم جُذاذاً أي: قِطَعاً، من الجذِّ وهو القطع، كسّرَها كلها بفأسٍ في يدهِ حتىٰ إذا لم يبقَ إلّا الصنمُ الكبيرُ علّق الفأس في عنقهِ، وقُرئ: «جِذاذاً»[4] جمع جَذيذ، وإنما استبقى الكبير؛ لأنّه غلب في ظنّه أنّهم لا يرجعون إلّا ﴿إِلَيْهِ﴾ لِمَا كانوا يسمعون من إنكاره لدينهم وسبِّه لآلهتهم، فأراد أن يبكتهم بقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ﴾[5] وعن الكلبي: ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى ﴿كَبِيرهمْ﴾ كَمَا يُرْجَع إلى العَالِمِ في حَلِّ المُشكلات[6]، فيقولون له: ما لِهؤلاء مكسورةً وما لك صحيحاً والفأس علىٰ عاتقك؟ فتبيَّن لهم أنّه عاجز لا ينفع ولا يضرُّ، وأنّهم في عبادته علىٰ غاية الجهل ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: مَنْ فَعَلَ هذا الكَسْرَ والحَطْمَ إنَّه لَشديدُ الظلم؛ لِجُرأته علىٰ آلِهَتِنا ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أو منادىٰ، والأوجهُ أن يكون فاعلَ «يقال»؛ لأنّ المرادَ الاسمُ لا المسمّىٰ.

---

(١) ليس في نسخة: «علىٰ يده».

(٢) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٤٧.

(٣) رواه السدي علىٰ ما حكاه الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٣٨.

(٤) قرأه الكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٤٤.

(٥) الآية: ٦٣.

(٦) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٢٣.

﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَالَا يَنفَعُكُم شَيئاً ولا يَضُرُّكُم (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْداً وَسَلَٰماً عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْداً فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ (٧٠) ﴾

أي: فَجِيئُوا ﴿بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: معايَناً مُشَاهَداً بمرأىً من الناس ومنظرٍ، فهو في موضع الحال ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عليه بما فعله، أو يَحْضُرون عقوبتنا له.

﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ من معاريض الكلام، ولم يكن قصداً من إبراهيمﷺ إلىٰ أن ينسب الفعل إلى الصنَم، وإنّما قصد تقريرهﷺ لنفسه علىٰ هذا الأُسلوب تبكيتاً لهم، كما لو قال لك صاحبك وقَد كَتبتَ كتاباً بخطٍّ رائقٍ وأنتَ مشهورٌ بحُسن الخطّ: أنتَ كَتبتَ هذا؟ وصاحبُك أُمّي لا يُحسِن الكتَابةَ، فقُلتَ له: بل كَتبتَ أنتَ، وقصدُك بهذا الجواب تقريرُ الكتاب لك مع الاستهزاء به، لا نَفْيهُ عنك وإثباتُهُ لصاحبك الأمّي، وقيل: إنّ تقديرَه: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ .... إِنْ كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ فآسألوهم، فعلّقَ الكلامَ بشرطٍ لا يوجد[1]، وقيلَ إنَّ التقديرَ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ﴾ مَنْ فَعلَه ويوقف عليه، ويبتدأ فيُقرأ ﴿كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾[2].

(١) قاله القتيبي. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٤٩.
(٢) وهو قول الكسائي. راجع تفسير القرطبي: ج ١١ ص ٣٠٠.

﴿فَـ﴾ لمّا أَلْقَمهمُ الْحَجر ﴿رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ على الحقيقة لا مَنْ ظَلمتُموه حينَ قُلتُم: ﴿مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

ونَكستُ الشيءَ: قَلَبْتُهُ فجعلتُ أَسْفَلَه أعلاه، وانتكسَ: انْقلبَ، والمعنىٰ: انتكسوا عن كونهم مُجَادِلين لإبراهيم وصاروا مُجادِلين عَنه حين نفَوا عنها القدرة على النُّطق، أو يريد: قُلِبُوا علىٰ ﴿رُءُوسِهِمْ﴾ لفرط إطراقهم؛ خَجَلاً ممّا بَهَتَهُم به إبراهيمُ، فما أَجابوا جَواباً إلّا ما هو حجةٌ عليهم.

﴿أُفٍّ﴾ صوتٌ يُعْلَم به أنّ صاحبه متضجّرٌ، تأفَّفَ بهم: إذا ضجره ما رأىٰ من ثباتهم علىٰ عبادتهم[(١)] بعد وضوح الحقِّ وانقطاع العُذْر، واللّامُ لبيان المتأفَّف به، أي: ﴿لَّكُمْ﴾ ولآلهتكم هذا التأفُّف.

ولمّا غُلِبُوا أزمعوا علىٰ إهلاكه وتحريقه، فجَمَعوا الحطبَ حتّىٰ إنّ الرجل ليمرض فيوصي بمالِه يُشْتَرَىٰ به حطبٌ لإبراهيم! ثم أشعَلوا ناراً عظيماً كادت الطير تحترق في الجو من وهجها، ثم وَضَعوه في المَنْجنيق مقيَّداً مَغلُولاً فرَمَوْا به فيها، وذُكِرَ أنّ جبرائيل عليه السلام قال له حين رُمِيَ به: هَل لَكَ حَاجَة؟ قال: أَمّا إليك فَلا، قال: فاسأل ربَّك، قال: حَسْبِي من سُؤالي عِلْمُهُ بِحَالي[(٢)].

وعن الصادق عليه السلام: أنّه قال: يا اللهُ يا وَاحدُ يا أَحَدُ يَا صَمَدُ يَا مَنْ لَم يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَم يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ، فحسرتِ النارُ عنه، وإنّه لَمُحْتَبٍ ومعه جبرائيل عليه السلام وهما يتحدَّثان في روضةٍ خضراء[(٣)].

﴿كُونِى بَرْداً وَسَلَـٰماً﴾ يعني: ذاتَ بَرْدٍ وسَلامٍ، فَبُولِغَ في ذلك، كأَنَّ ذاتها بردٌ

(١) في نسخة: «عبادتها».

(٢) ذكره أُبيّ بن كعب. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٥٠.

(٣) الكافي: ج ٨ ص ٣٦٩ ح ٥٥٩.

وسلام، والمُرادُ: ابْرُدِي فَيَسْلَمُ منكِ إبراهيم عليه السلام، وابْرُدِي بَرْداً غَيْرَ ضَارٍّ، وعن ابن عباس: لو لم يقلْ ذلك لأهلكته بِبَرْدِها(١)، نزعَ اللهُ عن النار طَبْعَهَا من الحرّ والإحراق وأبقاها على الإنارة والإشراق كما كانت، والتحقيق: أنّ النار من جهة مطاوعتها فِعْلَ الله تعالىٰ وإرادتَهُ كانت كمأمورٍ أُمِرَ بشيءٍ فامتثلَه، وأرادوا أن يكيدوه فما كانوا إلّا مغلوبين مقهورين.

﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطاً إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ لَنَا عَـٰبِدِينَ (٧٣) وَلُوطاً ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (٧٥)﴾

أي: نَجَّيْنَا إبراهيمَ ولوطاً ـ وهو ابن أخيه ـ من نمرود وكيده من كوثى(٢) ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي الشام، وبركاتها الواصلة إلى العالَمينَ: إنّ أكثر الأنبياء بُعِثُوا فيها فانتشرت في العالمين شرائعهم، وقيل: إنّها بلاد خصبٍ يكثر أشجارها وثمارها ويطيب العيش فيها(٣)، رُوي: أنّه نَزلَ بفلسطين، ولوط بالمؤتفكةِ، وبينهما مسيرةُ يومٍ وليلة(٤).

والنافِلَةُ: وَلَدُ الوَلَدِ، قيل: إنّه سأل الولَد فَأُعْطِيَ ﴿إِسْحَـٰقَ وَ﴾ أُعْطِيَ ﴿يَعْقُوبَ

---

(١) تفسير ابن عباس: ص ٢٧٣.

(٢) كُوثَىٰ: قرية في أرض بابل بسواد العراق، وبها مشهد ابراهيم الخليل عليه السلام وبها مولده. انظر معجم البلدان للحموي: ج ٤ ص ٣١٧ ـ ٣١٨.

(٣) قاله البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٥١.

(٤) رواه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٥٢.

نَافِلَةً﴾ أي: زيادةً وفضلاً من غير سؤال[١]، أي: ﴿صَـٰلِحِينَ﴾ للنبوّة والرسالة. ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقْتَدَىٰ بهم في دين الله ﴿يَهْدُونَ﴾ إلى طريق الحقِّ والدين القويم ﴿بِأَمْرِنَا﴾ وكلُّ من صَلحَ أن يكونَ قُدوةً للخَلْق، فالهداية محتومةٌ عليه، مأمورٌ هو بها من جهة الله تعالى، وأولُها أن يهتدي بنفسه ليعمَّ الانتفاع بهداه، وتسكنَ النفوسُ إلى الاقتداء به.

و﴿لُوطاً﴾ منصوب بفعلٍ مضمرٍ ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ﴾ يُفسِّره ﴿حُكْماً﴾ أي: حكمةً وهو ما يجب فعلُه، أو فَصْلاً بين الْخُصوم، وقيل: هو النبوّة[٢]، و﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾ سَدُوم. ﴿فِى رَحْمَتِنَا﴾ أي: في أهلِ رحمتنا، أو في الجنة.

﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ وَكُلّاً ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ (٨٠) ﴾

أي: ﴿مِن قَبْلُ﴾ هؤلاء المذكورين ﴿وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: جعلْناه منتصراً منهم، مِن: نَصرتُه فانتَصر ﴿ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الطوفان وما كان فيه من تكذيب قومه.

﴿وَ﴾ اذكرْ ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾، و﴿إِذْ﴾ بدلٌ منهما، والنفْشُ: الانتشارُ بالليل

---

(١) قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد. راجع التبيان: ج ٧ ص ٢٦٤.

(٢) قاله مقاتل. راجع تفسير الرازي: ج ٢٢ ص ١٩٢.

﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ جمعَ الضميرَ لأنّه أرادهما والمتحاكمين إليهما، والضَميرُ في ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا﴾ للحكومةِ أو للفتوىٰ، حَكَمَ داودُ عليه السلام بالغنم لِصَاحبِ الحَرْثِ، فقال سليمانُ عليه السلام وهو ابن إحدىٰ عشرة سنة: غَيِّرْ هذا يا نبيَّ الله، أَرفِقْ بالفريقَين، فقال: وما ذاك؟ قال: يُدفع الغنمُ إلىٰ صاحب الْحَرث فينتفع بها، والحرثُ إلىٰ صاحب الغنم فيقوم عليه حتّىٰ يعود كما كان، فقال: القضاءُ ما قضيتَ، وأَمْضَى الحُكم بذلك.

والصحيح: أنّهما جميعاً حَكَمَا بالوحي، إلّا أنَّ حكومةَ سليمانَ نَسخَتْ حكومةَ داود؛ لأنّ الأنبياءَ لا يَجوزُ أن يحكمُوا بالظنّ والاجتهاد، ولهم طريقٌ إلى العِلمِ، وفي قولِهِ: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ دلالةٌ علىٰ أنّ كِلَاهما كان مُصِيباً.

﴿يُسَبِّحْنَ﴾ حالٌ بمعنى: مسبِّحاتٍ، ويجوز أن يكونَ على الاستئناف، كأنَّ قائلاً قال: كيف سخَّرهنَّ؟ فقال: يُسبّحن ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾: إمّا معطوفٌ على ﴿الجِبَالَ﴾ وإمّا مفعول معه، وكانت الجبالُ تجاوبُه بالتَسبيح، وكانت الطيرُ تسبِّح مَعه بالغَداةِ والعَشيِّ ﴿وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ أي: قادرين علىٰ أن نفعل هذا وإن كان عَجَباً عندكم، وقيل: وكنّا نَفعلُ مثلَ ذلكَ بالأنبياء (١).

واللبوس: اللباس، والمراد هنا الدِرْع، وأوّلُ مَنْ صنعَ الدِرْعَ داودُ عليه السلام، وإنّما كانت صفائح فَسَردَها (٢) وحَلَّقها فجَمَعَت الخفَّةَ والتَحصين، وقرئ: ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ بالنون (٣) والتاء والياء (٤)، فالنونُ لله عزّوجلّ، والياءُ لداودَ أو للبوس، والتاءُ

---

(١) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٢٧٤.

(٢) يقال: الخرز مُسرود ومُسرَّد أي: مثقوبة، وكذلك الدرع، وقيل: سَرْدُها: نَسجُها، وهو تداخُل الحَلَقِ بعضها في بعض. (الصحاح: مادة سرد).

(٣) وهي قراءة أبي بكر عن عاصم ورويس وشيبة والمفضّل وابن أبي اسحاق. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٤٤، وتفسير القرطبي: ج ١١ ص ٣٢١.

(٤) وبالياء قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٣٠.

للصُنْعَةِ، والبأس: المرادُ به الحربُ والقِتالُ.

﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ (٨١) وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ (٨٢) وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٨٣) فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ (٨٤) وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (٨٦)﴾

﴿ٱلرِّيحَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْجِبَالَ﴾، كانت الريحُ مطيعةً ﴿لِسُلَيْمَـٰنَ﴾ إذا أراد أن تَعصف عَصَفتْ، وإذا أراد أن تَرخي رَخَتْ، وذلك قوله: ﴿رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[(١)]، وكان هبوبها علىٰ حسب ما يريد، ويحتكم آية إلىٰ آية ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ﴾ تجري الأشياء علىٰ ما يقتضيه عِلْمُنَا وحِكْمَتُنا.

﴿يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في البحارِ فيستخرجونَ الجواهرَ ﴿وَيَعْمَلُونَ﴾ لَهُ أعْمالاً سَواءً من بناء المدائن والقصور، واختراع الصنائع العجيبة، والله جلّ اسمه يحفظهم من أن يمتنعوا عليه ويَزيغوا عن أمره، أو يكون منهم فَسادٌ فيما عَملُوه.

ناداه، بـ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ والضُّرُّ بالضمّ: الضررُ في النفس من مرضٍ وهزالٍ، وبالفتح: الضررُ في كلّ شيء، ألْطَفَ في السؤال حيث ذكرَ عن نفسِه ما يوجب الرحمة، وذكرَ رَبَّه بغاية الرحمة وكنّىٰ عن المطلوب ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن﴾ الضُّرّ[(٢)] والأمراض، وكان أيّوب كثير الأولاد والأموال، فابتلاه الله تعالى بذهابِ وُلْدِهِ ومالِهِ وبالمرضِ في بَدنِهِ ثلاث عشرة سنة أو سبع سنين وسبعة أشهر، فلمّا

(١) صٓ: ٣٦.
(٢) في نسخة: «الأوجاع».

كشف الله ضُرَّهُ أحيا ولْدَهُ ورَزَقَه مثلَهم ونوافلَ مِنهُم ﴿رَحْمَةً﴾ مِنَّا، أي: لرَحْمَتِنا العابدين وذِكْرِنا إيَّاهم بالإحسان لا نَنساهُم، أو: ﴿رَحْمَةً﴾ منا لأيّوبَ وَتَذْكِرَةً لغَيره من العابدين ليَصبِروا كما صَبرَ حتّىٰ يثابوا كما أُثيب في الدنيا والآخرة.

﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ قيل: هو إلْيَاسُ[١]، وقيل: هو الْيَسَعُ[٢]، وقيل: إنّه نبيٌّ كان بعد سليمانَ، يقضي بينَ الناسِ كقضاء داودعليه السلام، ولَم يَغضبْ قط إلّا لله عزّوجل[٣].

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٨٧) فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٨٩) فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ (٩٠)﴾

﴿ٱلنُّونِ﴾ الحوتُ، وصاحبُه يونس بنُ مَتَّىٰ، بَرِمَ بقومه لطولِ ما ذكَّرهم فلَمْ يذَّكَّروا وأقاموا علىٰ كفرهم، فَرَاغَمَهُم فظنّ أنّ ذلك سائغٌ حيث لم يفعلْه إلّا غضباً للهِ وأَنَفَةً لدينه وبُغْضاً للكُفر وأهله، وقَد كانَ الأَوْلَىٰ به أن يُصابِرَ وينتظرَ الإِذْن من الله جلَّ اسمُه في مهاجرتهم فابْتُلِيَ ببطن الحوت، ومعنىٰ مُغَاضَبَتِه لقومه أنّه أَغْضَبَهم بمفارقَتِهِ لِخَوفِهِم حُلولَ العقابِ عليهم عندها.

وسأل معاوية ابن عباس كيف يظنّ نبيُّ اللهعليه السلام أن لا يُقْدَرَ عليه؟ فقال: هو من القَدَرِ لا من القُدْرَة، يعني: أَنْ لَن نُضَيِّقَ عليه كما في قوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ

(١) قاله ابن عباس على ما حكاه عنه في السراج المنير: ج ٢ ص ٥٢٥.
(٢) حكاه الماوردي في تفسيره: ج ٣ ص ٤٦٤.
(٣) وهو ما روي عن أبي جعفر الثانيعليه السلام، رواه الراوندي في قصصه: ص ٢١٣ ح ٢٧٧.

رِزْقُهُۥ﴾[١]. وقيل: إنّه استفهام تقديرُه: أَفَظَنَّ أن لن نقدر عليه؟ فحذف الهمزة[٢]. وقيل: معناه: فظَنَّ أنْ لم تَعملْ فيه قُدرتُنا[٣] ﴿فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ أي: في الظُّلمة الشديدة في البحر في بطن الحُوتِ، أي: بأنّه ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، أو هو بمعنىٰ: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: من الّذين يقع منهم الظُّلم.

وقُرِئَ: ﴿نُنجِى﴾ و«نُنَجِّي»[٤] و«نُجِّي» بنون واحدة وبتشديد الجيم والنون لا تدغم في الجيم[٥]، وربّما أُخفِيَت فحُذفَت في الكتابةِ وهي في اللفظِ ثابتةٌ، فظَنَّ الراوي ذلك إدغاماً.

سأل اللهَ تعالىٰ زكريَّا أن يرزقَه وَارِثاً، ولا يدعه ﴿فَرْداً﴾ بلا ولد، ثم ردَّ الأمرَ إلى الله واستسلمَ فقال: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ يعني: إنْ لَم ترزقْني ولداً يرثُني فلا أُبالي فإنّك خيرُ وارثٍ. ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥ﴾ أي: وجعلْناها صالحةً لأَن تَلِدَ بعد أن كانت عاقِراً. وقيل: معناه: جعلناها حسنةَ الخُلقِ وكانت سيّئة الخُلق[٦]. وقيل: رَدَدْنَا عليها شبابَها[٧] ﴿إِنَّهُمْ﴾ الضميرُ للأنبياء المذكورين، أي: استَحقُّوا الإجابةَ منّا لمُسارعَتِهم ﴿فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ومُبادرتِهم إلى الطاعات ﴿رَغَباً وَرَهَباً﴾ أي: راغبين وراهبين كقوله تعالىٰ: ﴿يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾[٨]

---

(١) الطلاق: ٧.

(٢) قاله سليمان بن المعتمر. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٤٦٦.

(٣) وهو قول الفراء. راجع معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص ٢٠٩.

(٤) قرأه عاصم الجحدري وحده. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٩٥.

(٥) وهي قراءة ابن عامر وأبي بكر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٤٥.

(٦) قاله ابن عباس وعطاء ومحمد بن كعب وعون بن عبدالله وابن كامل. راجع تفسير الماوردي: ج ٣ ص ٤٦٨، وتفسير القرطبي: ج ١١ ص ٣٣٦.

(٧) قاله سعيد بن جبير وقتادة. راجع تفسير الآلوسي: ج ١٧ ص ٨٧.

(٨) الزمر: ٩.

﴿خَٰشِعِينَ﴾ أي: ذُلّلاً لأمرِ الله، وقيل: متواضعينَ لأمر الله تعالىٰ[١]، وعن مجاهد: الخشوع: الخوف الدائم في القلب[٢].

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ (٩١) إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ (٩٣) فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ (٩٤) وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٩٧)﴾

﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ إحصاناً كُلّياً من الحَلالِ والحَرام جميعاً، كقولها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾[٣]، ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أي: فعلنا النفخ فيها من جهة رُوحنا وهو جبرائيل عليه السلام؛ لأنَّه نفخ في جَيْبِ دِرْعِها فَوصلَ النفخُ إلىٰ جَوفِها، وإنْ جُعِلَتْ نَفْخ الرُّوح بمعنى الإحياء كما في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[٤] أي: أحييتُهُ، فالمعنىٰ: فَنفخنا الروحَ في عيسىٰ عليه السلام فيها أي: أحييناهُ في جَوفها، كما يقول الزامر: نفختُ في بَيتِ فلانٍ، أي: نفختُ في المزمار في بيته ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لم يقلْ: آيتين؛ لأنَّ حالَهما آيةٌ واحِدَة وهي ولادتُها إيَّاه من غيرِ فَحل.

والمراد بالأُمَّة: مِلَّةُ الإسلام، يعني: أنّ ملَّةَ الإسلام مِلَّتُكم التي يجبُ أن

---

(١) قاله ابن عباس ومجاهد. راجع تفسير ابن عباس: ص ٢٧٥، وتفسير ابن كثير: ج ٣ ص ١٨٨.
(٢) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٦٧.
(٣) مريم: ٢٠.
(٤) الحجر: ٢٩، صٓ: ٧٢.

تكونُوا عليها لا تَنحرفون عَنها، يشار إليها ملّة ﴿وَٰحِدَةً﴾ غير مختلفة ﴿وَأَنَا﴾ إلٰهكم إلهٌ واحدٌ ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ ي.

الأصلُ: وتقطَّعتم، إلّا أنّ الكلام صُرِفَ إلى الغَيبة علىٰ طريقة الالتفات، كأنّه يقبِّح عندهم فعلهم ويقول لهم: أَلَا ترَوْن إلىٰ عظيم ما اُرتكبَ هؤلاء في دين الله تعالىٰ؟ والمعنىٰ: جَعلوا أمرَ دينهم فيما بينَهم قِطَعاً كما يتقسَّم الجماعةُ الشيءَ فيَصيرُ لهذا نَصيبٌ ولذلك نَصيبٌ؛ تمثيلاً لاختلافهم فيه، وصيرورتهم فِرقاً وأحزاباً شتّى يتبرّأ بعضُهم من بعضٍ، ثم أوعدَهم بأنّ هؤلاء الفِرَق المختلفة إليه يُرْجَعُونَ فيُجازيهم بما عَملوا.

الكفران: مَثَلٌ في حرمانِ الثَواب، كما أنّ الشكرَ مثلٌ في الإثابة إذا قيل لله: شكور، أي: لا يكفِّر سعيه ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ أي: نحنُ كاتِبُون ذلك السعي، نُثْبتُهُ في صحيفة عمله.

﴿وَحَرَٰمٌ﴾ مستعارٌ للممتنع وجودهُ، كما في قولِهِ تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (١) أي: منعَهما منهم، وأبىٰ أن يكونا لهم، وقُرئَ: «وَحِرْمٌ» (٢) ومعناه: ممتنعٌ مِن ﴿قَرْيَةٍ﴾ قَدَّرْنَا إهلاكَها وغَير متصوَّر رجوعهم من الكفر إلى الإسلام، و«لا» مزيدة، وقال الزجّاج: تقديرهُ: حَرامٌ علىٰ قريةٍ أهلكناها أن يُتقبَّل منهم عملٌ لأنَّهم لا يرجعون (٣). وعلىٰ هذا فيكون ﴿حَرَٰمٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، ويجوزُ أن يكون التقدير: وحرامٌ عليها ذلك المذكور في الآية المتقدّمة من السَعي المشكورِ غير المكفورِ؛ لأنَّهم لا يرجعون عن الكفر.

---

(١) الاعراف: ٥٠.

(٢) قرأه حمزة والكسائي وعاصم برواية أبي بكر والمفضّل ويحيىٰ. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٣١.

(٣) معاني القرآن واعرابه: ج ٣ ص ٤٠٥.

وتعلَّقت ﴿حَتَّىٰ﴾ بـ﴿حَرَامٌ﴾ وهي غايةٌ له؛ لأنَّ امتناع رجوعهم لا يزول حتّىٰ يوم القيامة، وَ﴿حَتَّىٰ﴾ هذه هي التي يُحكىٰ بعدها الكلام، والجملة الشرطية هنا هي الكلام المحكي بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ أعني: ﴿إِذَا﴾ وما في حيِّزها، أي: فُتِحَ سَدُّ ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ فحُذِفَ المضافُ، وقُرِئَ: «فُتِّحَتْ» بالتشديد[1]، وَالْحَدَبُ: النشرُ من الأرض، والنَّسْلَانُ العَسَلانُ: الإسراع.

و«إذا» هي ظرف المفاجأة وتسدُّ في الجزاء مسدَّ الفاء، فإذا جاءتِ الفاء معها تعاونتا علىٰ وصلِ الجزاء بالشَرطِ فيتأكّد، ولو قيل: إذاً هي شاخصةٌ أو: فهي شاخصةٌ لجاز، وهيَ ضميرٌ مبهمٌ يفسِّره الإبصار، و﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ تعلَّق بمحذوفٍ، والتقديرُ: يقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ وهو في موضعِ الحالِ من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ (١٠٤) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ (١٠٥)﴾

﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وَقودُها وحَطَبُها ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل الأوثان والشياطين؛ لأنّهم بطاعتهم لهم في حُكْمِ عَبَدَتِهم، والفائدة في مقارنَتهم بآلهتهم: أنّهم قدَّروا أنّهم يشفعون لهم عند الله تعالىٰ، فإذا صادفُوا الأمرَ علىٰ

(١) وهي قراءة ابن عامر ويعقوب. راجع والتذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٣٩٨.

عكسِ ما قَدَّرُوهُ لم يكنْ شيءٌ أبغضَ إليهم منهُم.

﴿الْحُسْنَىٰٓ﴾ الخصلةُ المفضَّلةُ في الحُسْن، وهي: السعادةُ أو البشارةُ بالثواب أو التوفيقُ للطاعات. والحَسِيسُ: الصوتُ الذي يُحَسُّ، والشهوَةُ: طلبُ النفسِ اللذةَ يقال: اشتهىٰ شهوةً.

وقُرِئ: «لَا يُحْزِنهم» [١]، و﴿الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾: النفخةُ الأخيرةُ، كقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ﴾ [٢] وعن الحسن: حين يُؤْمَرُ بهم إلى النار [٣]، وعن الضحّاكِ: حينَ يُطبَّق على النَّارِ [٤]، وقيل: حين يُذبَحُ الموتُ علىٰ صُورةِ كبشٍ أمْلَح وينادَىٰ: يا أهلَ الجنَّة خلودٌ لا موت، ويا أهل النَّار خلودٌ لا موت [٥]، ﴿وَتَتَلَقَّـٰهُمُ الْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أي: تَستقبلهم علىٰ أبوابِ الجنَّة بالتَهنئةِ، يقولون: ﴿هَـٰذَا﴾ وقتُ ثوابكم ﴿الَّذِى﴾ وعدكم ربُّكم قد حَلَّ.

و﴿يَوْمَ نَطْوِى﴾ منصوبٌ بـ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ﴾ أو بـ﴿تَتَلَقَّـٰهُمُ﴾، وقُرِئ: «يوم تُطْوَى السماءُ» على البناء للمفعول [٦]، و﴿السِّجِلِّ﴾ الصحيفةُ، أي: كما يُطْوَى الطُومارُ [٧] للكتابة، أي: لِيُكْتَبَ فيه، أو: لما يُكتب فيه؛ لأنّ الكتابَ أصلُه المصدر كالبناء، ثم يوقع على المكتوب، وقُرِئ: ﴿لِلْكُتُبِ﴾ [٨] والمراد بذلك المكتوبات أي: لما يُكْتب فيه من المعاني الكثيرةِ، قيل: السِجلُّ: مَلَك يطوي كُتُبَ بني آدم

---

(١) قرأه أبو جعفر وابن محيصن. راجع تفسير القرطبي: ج ١١ ص ٣٤٦.

(٢) النمل: ٨٧.

(٣) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ١٣٧.

(٤) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٧٠.

(٥) قاله مقاتل وابن شريح. راجع تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٣٨٠.

(٦) قرأه أبو جعفر المدني وشيبة بن نصاح والأعرج والزهري. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٩٥، وتفسير القرطبي: ج ١١ ص ٣٤٦.

(٧) الطامور والطومار: الصحيفة، قيل: هو دخيل، قال ابن سيده: وأراه عربياً محضاً لأنّ سيبويه قد اعتدّ به في الأبنية فقال: هو ملحق بفُسطاط. (لسان العرب: مادة طمر).

(٨) الظاهر أنّ القراءة المعتمدة لدىٰ المصنّف هي على المفرد دون الجمع.

إذا رفعت إليه[١]، وقيل: هو اسمُ كاتبٍ للنبيِّ صلى الله عليه وآله[٢]، وعلىٰ هذا فالكتاب: اسمٌ للصحيفة المكتوب فيها ﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ مفعولُ «نعيدُ» الذي يفسّره ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾، و﴿مَا﴾ كافّة للكافِ، والمعنىٰ: نُعيدُ أوّلَ الخَلْق كَمَا بدأْنَاه؛ تَشبيهاً للإعادةِ بالابتداءِ في تَناولِ القُدرةِ لَهما على السواءِ، وأوّلُ الخَلْقِ: إيجادُه عن عَدَم، أي: فَكَما أَوجدْنَاهُ أوّلاً عن عدمٍ نُعيدُهُ ثانياً، وقولُهُ: ﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ كقولِكَ: هو أَوّلُ رَجُلٍ جاءَني، تُريدُ: أَوّل الرجالِ، ولكنَّكَ نكَّرْتَهُ وَوَحَّدْتَه إرادةَ تَفْصيلِهم رجلاً رجلاً، فكذلكَ معنىٰ ﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾: أوَّلُ الخَلْق، بمعنىٰ: أَوّلُ الخَلائقِ؛ لأنَّ «أَوّلَ الخَلْقِ» مصدرٌ لا يُجمع.

ويجوز فيهِ وَجْهٌ آخرَ: وهو أَن يَنْتَصِبَ الكافُ بِفِعْلٍ مضْمَرٍ يفسِّرُهُ ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾ وَ﴿مَا﴾ موصُولةٌ، أي: نعيد مثلَ الذي بدأناه نعيدُهُ، و﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ ظرفٌ لـ﴿بَدَأْنَآ﴾ أي: أوّل ما خلق، أو حالٌ من الهاء المحذوفِ من الصلةِ ﴿وَعْدًا﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ؛ لأنّ قوله: ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾ عِدَة للإعادة ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي: قادرين علىٰ أن نفعل ذلك.

قيل: ﴿ٱلزَّبُورِ﴾ اسمٌ لجنسِ ما أُنزل على الأنبياء من الكُتُب، و﴿ٱلذِّكْرِ﴾: أُمُّ الكِتَاب يعني: اللوح[٣]، وقيل: زبورُ داود عليه السلام، والذكرُ: التوراة[٤]، أي: ﴿يَرِثُهَا﴾ المؤمنون، كقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ الآية[٥].

وعن الباقر عليه السلام: «هم أصحاب المهديّ عليه السلام في آخر الزمان»[٦].

---

(١) رواه الرازي في تفسيره: ج ٢٢ ص ٢٢٨ عن علي عليه السلام.
(٢) قاله ابن عباس. راجع التبيان: ج ٧ ص ٢٨٣.
(٣) قاله ابن زيد. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ٩٧.
(٤) وهو قول الشعبي. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٧١.
(٥) الأعراف: ١٣٧.
(٦) تفسير القمي: ج ٢ ص ٧٧.

وقيل: ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ هي أرضُ الجنّة[١].

﴿إِنَّ فِى هَـٰذَا لَبَلَـٰغاً لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ (١٠٦) وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢)﴾

﴿هَـٰذَا﴾ إشارة إلى المَذكورِ في السورةِ من الأخبارِ والمَواعِظِ ﴿لَبَلَـٰغاً﴾ أي: كفاية[٢] موصلةً إلى البُغية.

كان صلواتُ الله عليه وآله ﴿رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ كافَّة، إذ جاء بما يُسْعِدُهم إن اتَّبَعُوه، ومَن لم يتَّبعْهُ فقد أَتىٰ من عندِ نَفسِهِ، وقيل: إنّ الوجه في كونهِ ﴿رَحْمَةً﴾ للكافرين: أنّ عقابَهم أُخِّر بسببِهِ، وأَمِنُوا به عذابَ الاستئصال[٣].

﴿إِنَّمَآ﴾ لِقَصْرِ الحُكْم علىٰ شيءٍ، كما يُقالُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، أو: لِقَصْرِ الشيء علىٰ حُكمٍ، كقولِكَ: إنَّما يقُومُ زيدٌ، وقَد اجتمعَ كِلاَهُما في الآيةِ؛ لأنَّ ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ مَع فاعلِهِ بمنزلةِ: إنّما يقومُ زيدٌ، و﴿أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ بمنزلةِ: إنّما زيدٌ قائمٌ، وفائدة اجتماعهما: الدلالةُ علىٰ أنَّ الوحيَ إلىٰ رسولهِ ﷺ مقصورٌ علىٰ أنّ الله عزَّ اسمه استأثر بالوحدانيَّة، وفي قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أنّ الوحي الوارِدَ علىٰ هذه الطريقةِ موجبٌ أن تُخلِصُوا التوحيد لله، ويجوزُ أن يكون ﴿مَا﴾ موصولةً، فيكون معناه: أنّ الذي يوحىٰ إليَّ.

---

(١) قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وابن زيد. راجع التبيان: ج ٧ ص ٢٨٣.

(٢) في نسخة: كفالةً.

(٣) قاله ابن عباس. راجع التبيان: ج ٧ ص ٢٨٥.

ومعنىٰ ﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾: أعْلَمتُكُم، ولكنّه كثُرَ ٱستعمالُه في معنى الإنذار، ومنه قول ابن حلّزة:

آذنَتْنا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ[1]

والمعنىٰ: أنّي بعد إعراضِكُم عن قَبولِ تَوحيدِ الله تعالىٰ، وتنزيهِهِ عن الأنداد كرجلٍ بينه وبينَ أعدائه هدنةٌ، فنبذَ إليهم العهدَ وآذنهم جميعاً بذلك ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: مُسْتَوِين في الإعلام بِهِ لم يَطْوِهِ عن أحدٍ منهم، و﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ من غلبة المسلمين عليكم، أو: القيامة كائنٌ لا مَحَالة إلّا أنّ الله تعالىٰ لم يطلعْني عليه. ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿يَعْلَمُ﴾ السرّ والعلانية منكم، وهو مجازيكم علىٰ ذلك.

وما ﴿أَدْرِى﴾ لعلّ تأخيرَ هذا الموعدِ امتحانٌ ﴿لَّكُمْ﴾ لينظر كيف تعملونَ، أي: تَمتيعٌ لكم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ ليكون ذلك حجّةً عليكم.

وقُرئَ: ﴿قَـٰلَ﴾ على حكاية قول النبيِّ صلى الله عليه وآله[2] و﴿رَبِّ ٱحْكُم﴾ على الاكتفاء بالكسرة، و«رَبُّ ٱحْكُمْ» على الضم[3] و«رَبِّي احْكَمُ» علىٰ أفعل التفضيل[4]، أُمرعليه السلام باستعجال العذابِ لقَومِهِ فعُذِّبوا ببَدْرٍ، ومَعنىٰ قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: لا تُحَابِهِمْ، وافعلْ بهم ما يَستحقُّون ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ من الحال التي تَجري علىٰ خلافِ ما يَظنّونَ، وقد نَصَرَ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم عليهم، وخَذلَهُم وخيَّب ظنونَهم.

❁ ❁ ❁

---

(١) وعجزه: ربّ ثاوٍ يملّ منه الثواء. والبيت هو مطلع معلّقة الشاعر وهو الحارث بن حِلّزة من بني يشكر بن بكر بن وائل، قالها وهو ابن مائة وخمس وثلاثين سنة. أُنظر خزانة الأدب للبغدادي: ج ١ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦، وج ٣ ص ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) يستفاد من عبارته أنّه يعتمد على القراءة بصيغة الأمر كما هو ظاهر.

(٣) قرأه أبو جعفر المدني وابن محيصن وعن ابن كثير روايةً. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٩٥ ـ ٩٦. وتفسير القرطبي: ج ١١ ص ٣٥١.

(٤) وهي قراءة الجحدري والضحاك وطلحة ويعقوب. راجع المصدرين السابقين.

سورةُ الحَجّ

مكّية(1)، وقيل: مَدَنيّة غير ستّ آيات(2)، وآياتها ثمانية وسبعون آيةً كوفيّ، خمسٌ بصريّ، عدَّ الكوفيُّ: ﴿الْحَمِيمُ﴾(3) ﴿الْجُلُودُ﴾(4) ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾(5).

وفي حديث أُبيٍّ: «مَن قرأ سُورةَ الحجّ أُعطِيَ من الأجر كحجّةٍ حَجّها، أو عمرةٍ اعتَمَرها بعدد مَن حَجَّ واْعتَمَر»(6).

وعن الصادق عليه السلام: «مَن قرأها في كلّ ثلاثة أيام لم تخرج سنته حتّىٰ يخرج إلىٰ بيت الله الحرام»(7).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَـوْمَ

---

(1) كذا في النسخ تبعاً لصاحب الكشاف، لكن المشهور أنّها مدنيّة.

ففي تفسير القمي: ج ٢ ص ٧٨: سورة الحجّ مدنية وآياتها ثمان وسبعون. وفي البرهان للبحراني: ج ٣ ص ٧٦: مدنية إلّا الآيات ٥٢ و٥٣ و٥٤ و٥٥ فبين مكة والمدينة، نزلت بعد النور. وفي التبيان: ج ٧ ص ٢٨٧: عن قتادة قال: هي مدنية إلّا أربع آيات فانّها مكية من قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ الى قوله: ﴿يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾، وقال مجاهد وعياش بن أبي ربيعة: هي مدنية كلّها.

(2) انظر تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٧٣.

(٣ و٤ و٥) الآية: ١٩ و٢٠ و٤٣ على التوالي.

(٦) رواه الزمخشري في كشّافه: ج ٣ ص ١٧٣ مرسلاً.

(٧) ثواب الأعمال: ص ١٣٥.

تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا
وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ (٢)
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ
عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (٤) يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ
مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا
نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن
يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا
وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن
كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ (٥)﴾

الزلزلةُ والزلزالُ: شِدَّةُ التحريكِ والإزعاجِ، وأَن يُضاعف ذليلُ الأشياء عن مَراكزها ومَقارِّها، وهيَ مضافةٌ إلى الفاعل علىٰ تقدير: أنّ الساعةَ تُزلزلُ الأشياء، أو: إلىٰ تقدير المفعول فيها علىٰ طَريقةِ الاتّساعِ في الظرفِ وإجرائِهِ مَجرى المفعولِ به، كقوله: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[1]، علَّلَ سبحانَه وجوبَ التَقوىٰ على الناس بذِكْرِ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ وَوصْفِها بأَهولِ صفةٍ ليَتصوَّروها بعقولِهم ويتزوَّدوا لها.

فرُوِيَ: أنّ هاتَين الآيتَين نَزلتا ليلاً في غزوةِ بني المصطلق فقرأهُما رسول الله ﷺ ولم يُرَ أكثَر باكياً من تلك الليلة، ولمّا أصبحُوا لم يضربوا الخيامَ وقتَ النُزولِ ولم يطبخوا قِدْراً، وكانوا بَين بَاكٍ ومُفكِّرٍ[2].

﴿يَوْمَ﴾ منصوبٌ بـ﴿تَذْهَلُ﴾ والضمير له «الزلزلةِ»، والذُهولُ: الذِهابُ عن

(١) سبأ: ٣٣.
(٢) رواه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٧٤ عن عمران بن حصين وأبي سعيد الخدري.

الأمرِ بدَهشَةٍ، والْمُرْضِعَةُ: هي التي أَلقمت ثديَها الصبيَّ، والمُرضع ـ بغير هاء ـ التي من شأنها أن تُرضِع، والمعنىٰ: أنّ هولَ تلكَ الزلزلة إذا فَاجَأها وقد أَلقمت الرضيعَ ثديَها نزعته عن فيه؛ لِمَا يلحقها مِن الدهشةِ ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ عن إرضاعِها، أو: عن الذي أرضعته، وعن الحسن: تَذهَلُ المُرضِعةُ عن ولدِها لِغير فطامٍ، وتَضعُ الحاملُ ما في بَطنِها لغير تمام[1]، وقُرئَ: «سَكْرَىٰ» و«بِسَكْرَىٰ»[2] فهو نظير عَطشىٰ من عطشان، ﴿سُكَـٰرَىٰ﴾ و﴿بِسُكَـٰرَىٰ﴾ نحو: «كُسالىٰ»، والمعنىٰ: وتراهم سكارىٰ على التشبيهِ لِمَا هُم فِيه مِن شدَّة الفَزَعِ، وما هُم بسُكارىٰ من الشراب ﴿وَلَـٰكِنَّ﴾ أذهبَ عقولَهم خوفُ ﴿عَذَابَ ٱللَّهِ﴾.

والمجادلُ ﴿فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قيل: هو النضر بن الحارث وكان يُنكر البعث ويقول: القرآنُ أساطيرُ الأوَّلين، والملائكةُ بناتُ الله[3]، وقيل: هي عامَّةٌ في كلّ مَن تَعاطَى الجدال فيما يجوز على الله وفيما لا يجوز من الصفاتِ والأَفعالِ ولا يَرجعُ إلىٰ علمٍ ولا برهان[4] ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ في ذلك ﴿كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ﴾: عَاتٍ مُتَجرّدٍ للفساد، يُغويه عن الهدىٰ ويَدعُوه إلى الضلال. وعُلم من حاله أَنَّ مَن جعلَهُ وليّاً له فإنَّ ثَمرةَ ولايتهِ الإِضلالُ عن طَريقِ الجنَّة والهدايةُ إلى النار.

وقولُه: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ تمثيلٌ، والهاءُ للشيطان، أي: كأنَّما كُتِبَ إضلالُ مَنْ يتولَّاهُ عليه؛ لظهور ذلك في حالِهِ، وقُرئَ: ﴿أَنَّهُ﴾ أي: فأنّه بالفتح والكسر[5]، فأمَّا الفتحُ فَلأنّ الأول فاعل ﴿كُتِبَ﴾ والثاني عطفٌ عليه، والأَولىٰ أن يكونَ الفاءُ

---

(١) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ١٣٩.

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٤٩.

(٣) قاله ابن عباس وابن جريج وأبو مالك. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ١٠٩.

(٤) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٤٣.

(٥) وبالكسر قرأه النخعي عن أبي عمرو، والأعمش. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٩٦، وتفسير الآلوسي: ج ١٧ ص ١١٥.

وما بعده في موضع جواب الشرط إن جُعِلَتْ ﴿مَن﴾ شرطاً، وفي موضع خبر المبتدأ إن جُعلَتْ ﴿مَن﴾ بمعنىٰ «الذي» لكونِهِ موصلاً بالفعل، والجملة في موضع خبر «انّ» الأُولىٰ. وأمّا الكسر فعلىٰ حكاية المكتوب كما هو، أي: كأنّما كُتِبَ عليه هذا الكلام، كما تقول: كَتبتُ إنَّ الله علىٰ كلّ شيء قدير، أو: علىٰ تقدير «قيل»، أو علىٰ: أن كُتِبَ فيه مَعنى القَول.

المعنىٰ: ﴿إن﴾ ارتبتُم في ﴿ٱلْبَعْثِ﴾ فالذي يُزيل رَيبكم أن تَنظروا في مَبدأ خَلْقِكُم، وَالْعَلَقَةُ: القطعةُ الجامدةُ من الدم، وَالْمُضْغَةُ: اللحمةُ الصغيرةُ قدَر ما يُمضَغ، والمُخلَّقة: المسوَّاة الملساء من العَيبِ والنَقصِ، يقال: خَلَّقَ السِواك إذا سوّاه وملَّسه، كأنّه سبحانه يَخلقُ بعضَ المضغ كاملاً أملسَ من العَيبِ وبَعضَها علىٰ عكسه، فيتفاوتُ لذلك الناسُ في خَلْقِهم وصُورِهم وتَمامِهم ونَقْصِهم ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بهذا التدريج قُدرتَنا وَحكمتَنا، وأنّ مَن قَدِرَ علىٰ خَلْقِ البَشَرِ ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ أولاً ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ ثانياً، وقَدِرَ علىٰ أن يَجعلَ النُطفَةَ عَلْقَةً والعَلْقَةَ مُضغَةً والمُضغَةَ عِظاماً قَدِرَ علىٰ إعادة ما أبدأه ﴿وَنُقِرُّ﴾ أي: ونُبقيَ ﴿فِى﴾ أرحَامِ الأُمّهات ﴿مَا نَشَآءُ﴾ أن نقرّه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو وقتُ الوضع، وما لم نشأ إقرارَه أسقطَتْه ﴿ٱلْأَرْحَامِ﴾، ووحَّد قوله: ﴿طِفْلًا﴾ لأنَّ الغرضَ الدلالةُ على الجنسِ، أو أَراد: ﴿ثُمَّ﴾ نُخرِج وكلَّ واحدٍ منكُم طِفلاً، ثمَّ ﴿لِتَبْلُغُوٓا أَشُدَّكُمْ﴾ وَهُو حالُ اجتماعِ العَقْلِ وتمامِ الخَلْقِ وَالقُوةِ والتَمييز، وهو من أَلفاظِ الجُموع التي لم يأتِ لها واحدٌ، كأنّها شدَّةٌ في غَيرِ شيءٍ واحدٍ فبُنيت لذلك علىٰ لفظِ الجَمع، و﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾: الهَرَمُ والخَرَفُ حتّىٰ يَعودَ كَهيئَتِهِ الأُولىٰ وقتَ الطفُولية ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أي: ليصيرَ نسَّاءً، بحيث لو كَسَبَ عِلْماً في شيءٍ زَالَ عنه من ساعَتِهِ ولا يستفيد علماً، وينسىٰ ما كانَ عَلِمَهُ.

وَالهَامِدَةُ: المَيّتةُ اليابِسَة، وهذه دلالةٌ أُخرىٰ على البَـعْثِ، ولكـونها مـعاينة ظاهرة كرَّرها اللهُ في كتابِه ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ تحرَّكتْ بالنَباتِ، وٱنتفخَتْ لظُهورِ نَمائِها ﴿وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ﴾ جنسٍ مؤنقٍ حسن الصُورةِ سارٍّ للناظر إليه.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ (٧) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٩) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠) ﴾

أي: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرنَا من تَصريفِ الخَلْقِ وإحياءِ الأَرضِ وَما فـيهما(١) من البَدائعِ والحِكَمِ حَاصلٌ ﴿بِـ﴾ سبب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الثابتُ الموجودُ، وأنّه قادرٌ علىٰ إحياءِ ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وعلىٰ كلّ مقدورٍ، وهو حَكيمٌ لا يخلف الميعاد، وقَد وَعَدَ البَعثَ فَلابُدَّ أن يَفيَ بِوَعدِهِ.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ضروريٍّ ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي: استدلالٍ وَنَظَرٍ يَهدي إلى المَـعرفةِ ﴿وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ وهو الوَحي. ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ أي: مُتكبّراً في نفسِهِ، فإنَّ تَـنْيَ العِطْفِ عبارةٌ عن الخُيَلاءِ والكِبْر كَتَصعير الخَدّ ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لِمَا كـانَ جِدالُه مُؤدّياً إلى الضَلال جَعَلَ كأنّه الغَرضُ في الضَلال.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ (١١) يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ

---

(١) في نسخة: فيها.

ٱلْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ (١٦)﴾

﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي: عَلىٰ طَرفٍ في الدين، لا في وَسَطِهِ وقَـلْبِه، وهـذا مـثلٌ لكونِهِم علىٰ قَلقٍ واضطِرابٍ في دينهِم لا علىٰ هيئةٍ وطمأنينةٍ، كالذي يكونُ علىٰ طَرفٍ من العَسكر، فإنْ أَحَسَّ بظَفَرٍ وغَنيمةٍ اطمأنَّ وقرَّ، وإلّا انْهَزَمَ وَفرَّ، وقُـرئ: «خَاسِرَ الدُّنيا والآخرة»[1] وهو منصوبٌ على الحال.

و﴿ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ مُستعارٌ من ضلال مَنْ أبعدَ في التيه، فَبَعُدت مَسافةُ ضَلاله. سفَّه الله سبحانه هذا الكافرَ بأنّه يَعبُد جَماداً لا يَملكُ ضَرّاً وَلا نَفْعاً، وهو يَعتقدُ أنّه ينتفعُ به حينَ يَستشفعُ به، ثم قال: يقولُ هذا الكافرُ يومَ القيامة بدعاءٍ وصراخٍ حينَ يَرىٰ دخولَه النار بعبادةِ الأصنام، ولا يَرىٰ أثر الشفاعة التي أمِلَهَا منها ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾، وكرَّر «يدعُو» كأنّـه قـال: يدعُو يدعُو من دون الله مالا يضرّه وما لا ينفعه، ثم قال: لَمَنْ ضَرُّه بكونهِ مَعبوداً أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ بكونهِ شَفيعاً لبئس المَولىٰ، والمَولىٰ: الناصرُ، والعشيرُ: الصَـاحبُ، كقوله: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾[2].

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ﴾ من أعادي رسولِ الله ﷺ وحُسّاده أَنَّ الله لا ينصره ويطمع

(١) قرأه مجاهد وحميد والأعرج وابن محيصن من طريق الزعفراني وقعنب والجحدري وابن مقسم والزهري وابن ابي اسحاق وروي عن يعقوب. راجع تفسير القرطبي: ج ١٢ ص ١٨، وتفسير الآلوسي: ج ١٧ ص ١٢٤.

(٢) الزخرف: ٣٨.

فيه، ويغيظه أنَّه لا يظفر بمطلوبه، فليستفرغ جهدَه في إزالةِ ما يُغيظه بأن يفعلَ ما يفعله مَنْ بلغ به الغيظُ كلَّ مبلغٍ حتَّى مدَّ حَبْلاً ﴿إِلَى﴾ سماء بيته فاختنق، فلينظرْ أنَّه إنْ فَعَلَ ذلك ﴿هَلْ﴾ يُذهِبُ نصرَ الله الذي يُغيظُه؟ وسمَّى الاختناقَ قَطْعاً لأنَّ المختنقَ يَقطعُ نَفَسَه بحَبْس مَجاريه، ولذلكَ يقال لِلْبُهْر[١]: قطع، وسمَّىٰ فعلَهُ «كَيْداً» لأنَّه وَضَعه مَوضعَ الكَيدِ حيث لم يقدر علىٰ غيره، أو: علىٰ سَبيلِ الاستهزاء لأنَّه لم يَكِدْ به محسودَه، إنّما كَادَ به نفسَه، والمرادُ: ليسَ في يدِهِ إلَّا ما ليس بِمُذْهِبٍ لِمَا يَغيظه. وقيل: معناه: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ بحبلٍ ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ المُظِلَّة ليَصعدَ عليه و﴿لِيَقْطَعْ﴾ الوحيَ أن ينزلَ عليه[٢]، وقُرئ: ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ بكسر اللّام[٣] وسكونها، وأصلُ هذه اللّام الكسر، إلّا أنّه جازَ إسكانها مع الفاء والواو؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما لا يَنفردُ بنفسِهِ، فهو كحرفٍ من نفسِ الكلمةِ فَصارَ بمنزلة: فخذ وعضد، ثم شبَّه الميمَ في ﴿ثُمَّ﴾ بالواو والفاء كقولهم: أراك منتصباً.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ذلك الإنزال أَنزلنا القرآنَ كلَّه ﴿ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾، ولأنَّ ﴿ٱللَّهَ يَهْدِى﴾ به الذين عَلم أنّهم يؤمنون، أو: يثبِّت الذين آمنوا ويزيدهم هدىً أنزله كذلك.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ

---

(١) البُهْر بالضم: تتابع النفس من الإعياء، وبالفتح: المصدر منه. (راجع لسان العرب: مادة بهر).

(٢) قاله ابن زيد. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٢.

(٣) قرأه ابو عمرو ورويس وورش وابن ذكوان وهشام. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٤٩ ـ ٥٥٠.

وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ (١٨)﴾

دخلَتْ ﴿إِنَّ﴾ علىٰ واحدةٍ من جُزْأي الجملةِ لزيادة التأكيد، كما في قولِ جرير:

إنَّ الخليفةَ إنَّ الله سَرْبَلَهُ سِرْبَالَ مُلكٍ بِهِ تُرجَىٰ الخواتيم[1]

وَالْفَصْلُ: التَميزُ بين المُحِقّ والمُبطِل، أو: الحُكمُ والقضاءُ بينهما، وسمِّيت مطاوعة هذه الأشياء لله عزَّوجلَّ اسمُهُ فيما يُحدثُ مِن أفعالِهِ وتسخيرِهِ لها «سُجُوداً» تشبيهاً لذلك بما يَفعلُه المكلَّفُ من السجودِ الذي كلُّ خضوعٍ دونَه.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ويَسجُد له كثيرٌ من الناس سجودَ طاعةٍ وعبادةٍ، وقيل: التقدير: وكثيرٌ من الناسِ استحقَّ الثوابَ إذ وحَّد الله وأطاعَهُ ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ إذ أبى السجودَ ولم يوحّده جلَّ اسمه[2] ﴿وَمَن﴾ يُهِنْهُ الله بأَن كَتَبَ عَليهِ الشَقاوةَ وأدخلَهُ النارَ ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ من الإكْرامِ والإهانة.

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ

---

(١) البيت من قصيدة يمدح بها عبدالعزيز بن الوليد بن عبدالملك بن مروان الأموي، يريد: أنّ سلاطين الآفاق يُرسلون إليه خواتمهم خوفاً منه، فيضاف ملكهم الى ملكه. ويروىٰ «تزجىٰ» بالزاي. أنظر ديوان جرير: ص ٤٣١ وفيه «يكفي الخليفة».

(٢) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٢٧٨.

مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ (٢٤)﴾

﴿هَٰذَانِ﴾ فَريقان أو جَمْعانِ مختصمان، والخَصمُ مصدرٌ وصِفَ به، فاستَوىٰ فيه الواحدُ والجمعُ، وقولُه: ﴿هَذَانِ﴾ للّفظِ و﴿ٱخْتَصَمُواْ﴾ للمعنىٰ، كقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ﴾ (١)، ولو قال: هـؤلاء ﴿خَـصْمَانِ﴾ أو اختصما كان جائزاً، وقيل: نزلت في النَفر الستة من المؤمنين والكافرين تبارزوا يَومَ بَدرٍ، وهو حمزة بن عبد المطلب قَتلَ عُتبةَ بن ربيعة، وعليٌّ عليه السلام قَتلَ الوليد بن عتبة، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وقرنُه شَيبة بن ربيعة (٢) ﴿فِى رَبِّهِمْ﴾ في دين ربّهم وصفاته.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هو فصلُ الخصومة المعْنِيُّ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِن نَّارٍ﴾ أي: أُلبِسُوا مُقَطَّعاتِ النيران وهي الثيابُ القِصارُ، كأنّه سبحانه يقدِّر لهم نيراناً علىٰ مَقادير جثثهم كَما يقطع الثياب الملبوسة، ونحوه: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ (٣). و﴿ٱلْحَمِيمُ﴾ الماء الحارُّ، وعن ابن عبَّاس: لو سقَطَتْ منه نقطةٌ علىٰ جبالِ الدنيا لأذابتها (٤). ﴿يُصْهَرُ﴾ أي: يُذاب ويُنْضَجُ بذلك الحميم أمعاؤهُم وأحشاؤهُم كما يُذاب به جلودُهم. المقامعُ: السِياط، أي: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ﴾ فخرجوا ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ وعن الحسن: أنّ النارَ تَضربُهم بلَهَبِها فَترفَعهُم حتّىٰ إذا كانوا في أعلاها ضُرِبُوا بالمقامع فَهَوَوْا فيها سبعين خريفاً (٥)، وقيل لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ وهو الغَليظُ من النار

(١) محمد: ١٦.

(٢) وهو قول أبي ذر وقيس بن عباد. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ١٢٣.

(٣) ابراهيم: ٥٠.

(٤) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٥٠.

(٥) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ١٤١.

المنتشر العظيم الإحراق.

وقُرئ: ﴿لُؤْلُؤاً﴾ بالنصبِ[١] على تقدير: ويؤتَونَ لؤلؤاً. ﴿وَهُدُوٓاْ﴾ أي: وهداهم الله إلى أن يقولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾[٢]، وهداهم إلى طريق الجنَّة، و﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ هو الله المستحمد على عبادهِ بنعمِه.

وَالأسَاوِرَ: جمع أسوار، وفيه ثلاث لغات: أُسوار، وسِوار، وسُوار.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ (٢٩) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ (٣٠)﴾

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني: أنّ الصُدودَ يقع منهم على سَبيلِ الاستمرار والدوام ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: للذين يَقعُ عَلَيهم اسمُ الناس، من غير فرقٍ بينَ حاضرٍ وبادٍ، وناءٍ وطارئ، وقُرئ: ﴿سَوَآءً﴾ بالرفع والنصب[٣]، فالنصبُ على أنّه

(١) يظهر من عبارة المصنّف أنّه المعتمد في قراءة هنا ـ تبعاً للزمخشري ـ على قراءة الجرّ.

(٢) الزمر: ٧٤.

(٣) كلّهم قرأ ﴿سوآء﴾ رفعاً غير عاصم في رواية حفص فإنّه قرأها بالنصب. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٣٥.

المفعول الثاني لـ﴿جَعَلْنَـٰهُ﴾ أي: جعلناه مستوياً ﴿ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾، والرفعُ علىٰ أنّ الجملة في محل النّصبِ على المفعول الثاني، وفيه دلالةٌ على امتناع جَوازِ بيعِ دور مكة، والمراد بـ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: الحرَمُ كلّه، كما قال: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلاً مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[١]، والإلحادُ: العدولُ عن القَصد، وقولُه: ﴿بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ حَالان مترادفان، ومفعولُ ﴿يُرِدْ﴾ متروكٌ ليتناولَ كلّ مُتناولٍ، كأنّه قال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ مُراداً ما عادلاً عن القَصدِ ظَالِماً ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يعني: أنّ الواجبَ علىٰ مَنْ كانَ فيه أن يسلكَ طريقَ العدلِ والسَدادِ في جَميعِ ما يَهمُّ به ويقصدُه، وخبر ﴿إِنَّ﴾ محذوف؛ لدلالة جواب الشرط عليه، وتقديره: إنّ الّذين كَفَروا ويَصدُّونَ عن سبيلِ الله والمَسجدِ الحَرامِ نُذيقُهم من عَذابٍ أليمٍ، وكلّ مَن ارتكب فيه ذنباً فهو كذلكَ.

واذكرْ حِينَ جَعَلْنَا ﴿لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ مَباءَةً، أي: مرجعاً يرجع إليه للعمارةِ والعبادة، و﴿أَن﴾ هي المفسِّر، أي: تَعبَّدْنَا إبراهيمَ وقُلنا له: ﴿لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ من الأصنامِ والأقذارِ أن تُطرح حَوله. ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ﴾ نادِ فيهم، والنِّداءُ ﴿بِٱلْحَجِّ﴾ أن يقولَ: حُجُّوا، أو: عليكم ﴿بِٱلْحَجِّ﴾.

ورُوِي: أنّه صَعَدَ أبا قبيس فقال: يا أيّها الناس، حجُّوا بيتَ ربّكم، فأَسمعَ اللهُ صَوتَه كلّ مَن سَبقَ علمُهُ بأنّه يحجّ إلىٰ يَومِ القيامَة، فأجَابُوه بالتلبيةِ في أَصلابِ الرجال[٢].

وعن الحسن: أنّ الخطابَ لرسول الله ﷺ، أُمِرَ أن يُعْلِمَ الناسَ بوجوبِ الحجّ في حجّةِ الوداع[٣]. ﴿رِجَالاً﴾ أي: مشاةً، جَمعُ راجل، كقائم وقيام ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ

---

(١) الاسراء: ١.
(٢) رواه الماوردي في تفسيره: ج ٤ ص ١٨.
(٣) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٨٣.

ضَامِرٍ﴾ حال معطوف على حال، كأنّه قال: رجالاً وركباناً ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لـ﴿كُلِّ ضَامِرٍ﴾ لأنّه في معنى الجمع، وقرأ الصادقُ عليه السلام: «رُجَّالاً» بضمّ الراء مشدّدة، وقالَ: هُم الرجّالة[1]، وقرئ «يأتون» بالواو[2] صفةً للرجالِ والرُكبانِ ﴿فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ طريق بعيد.

ونُكّر ﴿مَنَـٰفِعَ﴾ لأنّه أرادَ منافعَ مختصّةً بهذه العبادات دينيّة ودنيويّة لا توجد في غيرها من العبادات، وقيل: هي منافعُ الآخرةِ من العفو والمغفرة[3].

واختُلِف في «الأيّام المعلومات»: فالمرويُّ عن الباقر عليه السلام: أنّها يومُ النحر والثلاثةُ بعده أيّام التشريق، و«الأيّامُ المَعْدُودات» عشر ذي الحجّة[4]. وهو قول ابن عبّاس[5] واختيار الزجاج، قال: لأنَّ الذكر هنا يدلّ على التسميةِ على ما يُذبح ويُنحر، وهذه الأيامُ تختصّ بذلك[6].

وعن الصادق عليه السلام: «هو التكبير بِمنَىٰ عقيب خمس عشرة صلاة أوّلُها صلاةُ الظهرِ من يومِ النَحر، يقول: الله أكبر الله أكبر لا إله إلّا الله، والله أكبر الله أكبر ولله الحمد، الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا ورزَقَنا من بهيمةِ الأنعام»[7].

البهيمةُ: مُبهمةٌ في كلّ ذاتِ أربعٍ، فَبُيِّنَت بـ﴿ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ وهي: الإبلُ والبَقرُ والضَأنُ والمَعزُ، والأمرُ بالأكلِ منها أمر إباحة؛ لأنَّ أهلَ الجاهليةِ كانوا لا يأكلون

(١) أنظر البحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٣٦٤.
(٢) قرأه ابن مسعود وابن أبي عبلة والضحاك. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٩٧، والبحر المحيط: ج ٦ ص ٣٦٤.
(٣) قاله سعيد بن المسيب والضحاك، وروي عن أبي جعفر عليه السلام. راجع التبيان: ج ٧ ص ٣١٠، وتفسير الطبري: ج ٩ ص ١٣٧.
(٤) راجع التبيان: ج ٧ ص ٣١٠ وليس فيه «يوم النحر».
(٥) ذكره عنه الماوردي في تفسيره: ج ٤ ص ١٩.
(٦) معاني القرآن للزجاج: ج ٣ ص ٤٢٣.
(٧) تفسير القمي: ج ٢ ص ٨٤ باختلاف يسير لا يضرّ.

من نَسائِكِهِمْ، ويجوز أن يكونَ ندباً لِمَا فيه من المساواة للفقراء ومواساتهم ﴿ٱلْبَآئِسَ﴾ الذي أصابَه بؤسٌ، أي: شدّة وقضاء.

التَفَثُ: قصُّ الشَارِبِ والأظفار والاستحدادِ[1] واستعمالِ الطِيب، والتفث: الوسخ، والمراد: قضاءُ إزالةِ التَفَثِ ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ ما وجب حجّهم، أو: ما عسىٰ ينذرونَه من أعمالِ البرِّ في حجّهم ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ طواف الزيارة، وروىٰ أصحابنا[2]: أنّه طوافُ النساء الذي يُستباح به وطءُ النساء، وذلك بعد طَوافِ الزيارة، والعتيقُ: القديمُ لأنّه ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾[3] وقيلَ: أُعتِقَ من الجبابرة، كَم من جبّارٍ سارَ إليه ليَهدمَه فمَنَعَهُ الله[4]، وقيلَ: أُعْتِقَ من الغرق[5]، وقيلَ: هو الكريمُ من قولهم عِتاقُ الطيرُ[6].

﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمرُ والشأنُ ذلك، والحُرمَةُ: ما لا يحلّ هَتكُه، وجميعُ ما كلّفه الله بِهِ من مَناسكِ الحجِّ وغيرها فهو بهذه الصفة، فيحتملُ أن يكونَ عامّاً في جميعِ التكاليف، ويحتمل أن يكون خاصّاً في مناسك الحجّ ﴿فَهُوَ﴾ خبرٌ له، فالتعظيمُ ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ ومعنى التعظيم: العلْمُ بأنّها واجبةُ الحفْظِ ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ آيةُ تحريمه، وذلك قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ الآية في سورة المائدة[7].

---

(١) الاستحداد: الحلاقة. (أقرب الموارد: مادة حدد).
(٢) انظر تهذيب الاحكام للطوسي: ج ٥ ص ٢٥٢ و٢٥٣ ح ١٤ و١٥.
(٣) آل عمران: ٩٦.
(٤) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن الزبير. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٨٥.
(٥) قاله ابن زيد، وروي عن أبي جعفر عليه السلام. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٢١، والتبيان: ج ٧ص ٣١١.
(٦) وهو قول ابن جبير. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٣٦٥.
(٧) الآية: ٣ منها.

ثم لمّا حثَّ اللهُ سبحانه علىٰ تَعظيمِ حُرماتِه أَمَرَ عقيبه باجتناب الأوثان وقولِ الزور؛ لأنّ توحيدَ اللهِ ونفيَ الشركِ عنه وصدقَ القول من أعظمِ الحُرمات، وقيل: ﴿قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ وهو قولُ أهلِ الجاهلية: لَبّيكَ لا شَرِيكَ لَكَ إلّا شريك هُوَ لَكَ تَملِكُهُ وَمَا مَلَكَ(١).

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ (٣٤) ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥)﴾

﴿حُنَفَآءَ﴾ أي: مستقيمي الطَريقةِ علىٰ أمرِ الله، مائلين عن سائرِ الأديان، وقُرئ: «فَتَخَطَّفُهُ ٱلطَّيْرُ»(٢) أي: فَتَتَخَطَّفُهُ فحُذِفَ تاء التفعّل، وهذا التشبيه يجوزُ أن يكونَ من المركّب والمفرّق، والمركّبُ مثل أن يقولَ: ﴿مَن يُشْرِكْ بِاللهِ﴾ فإنَّ حالَه كَحالِ مَن ﴿خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فاختطفته الطير، أي: أَخذَتْه بِسُرعةٍ فتفرَّق أجزاؤه في حواصِلها، أو عَصَفَتْ ﴿بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ فَهوتْ بِهِ إلى الأماكنِ البَعيدةِ، والمفرّقُ أن يكونَ الإيمانُ مشبّهاً في علوّه بالسماء، وتاركُهُ مشبّهاً بالساقِطِ من السَماء، والأهواءُ الموزعةُ أفكارُهُ بالطيرِ المختطفةِ، والشيطانُ الذي يستهويه في الضَلالةِ بالريحِ التي ﴿تَهْوِى بِهِ﴾ في المهاوي المهلكة.

---

(١) حكاه السيوطي في الدر المنثور: ج ٦ ص ٤٥ عن مقاتل.

(٢) وهي قراءة نافع وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص٤٣٦.

وَتَعظِيمُ الـ﴿شَعَـٰٓئِرَ﴾ وهي الهَـدايـا؛ لأنّـها مِـن مَـعالمِ الحـجّ اسْـتِسْمَانُها، واسْتِحْسَانُها أن يُترَكَ الْمِكَاسُ في شرائِها، فَقد كانوا يُغالُون في ثلاث ويكرهونَ المِكَاسَ فيهنّ: الهَدْي، والأُضحية، والرقبة.

وعن الباقر عليه السلام: «لا تماكِس في أربعة أشياء: في الأُضحية، وفي ثمن النسمة، وفي الكفن، وفي الكراء إلى مكة»[١].

﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أي: فإنَّ تَعظيمَها من أفعالِ ذَوي تَقوى القُلوبِ، فحُذِفَت هذه المضافات، ولا يستقيمُ المعنىٰ إلّا بتَقديرِها؛ لأنّه لابدّ من عائدٍ من الجزاء إلىٰ مَن ليرتبط به، وإنّما ذُكرت ﴿ٱلْـقُلُوب﴾ لأنّها من مراكز التقوىٰ، فإذا تمكّنَتْ فيها ظَهرَ أثرُها في الجوارح.

﴿لَكُمْ﴾ في الشعائر ﴿مَنَـٰفِعُ﴾ بركُوبِ ظُهُورِها وشُرْبِ أَلبانِها ﴿إِلَـىٰٓ أَجَـلٍ مُّسَمًّى﴾ إلىٰ أن يُنحرَ ويُتصدَّقَ بلحومِها، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الوقت، فاستُعيرت للتراخي في الأحوال، والمعنىٰ: أنّ لكُم في الهَدْيِ منافعَ كثيرةً في دينِكُم ودُنياكُم، وأعظمُ هذه المنافع ﴿مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ﴾ ومَحَلُّها: حيث يجبُ نَحرُهَا، أو: وقتُ وجوبِ نَـحرِها، أو: وجـوبُ نَـحرِها مُـنتهيةٌ إلى البـيتِ كـقوله: ﴿هَـدْياً بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾[٢]، فإن كانَ الهَدْيُ للحجِّ يُنحَر بمِنَىٰ، وإن كانَ للعمرة بمكّة.

وقُرئَ: ﴿مَنسَكاً﴾ بفتح السين وكسـرها[٣]، وهـو مـصدر بـمعنىٰ النُسك، والمكسور بمعنىٰ: الموضع، أي: شَرَعْنا ﴿لِكُلِّ أُمَّـةٍ﴾ أن يـنسكُوا، أي: يـذبحُوا لِوَجْهِ الله تعالىٰ لأنْ يذكُروا اسمَهُ على النَسائِك ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ﴾ أي: أَخـلِصُوا له

(١) الخصال للصدوق: ج ١ ص ٢٤٥ ح ١٠٢.
(٢) المائدة: ٩٥.
(٣) و بكسر السين هي قراءة حمزة و الكسائي. راجع كتاب العنوان في القراءات لابن خلف: ص ١٣٤.

الذِكْرَ خاصةً، واجعلُوه لوجهِهِ سَالِماً أي: خَالِصاً لا يشوبه إشـراك، والْـمُخْبِتُونَ: المتواضعون، من الخبت وهو المطمئنُّ من الأرض.

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْـقَانِعَ وَٱلْـمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَـنَالَ ٱللَّهَ لُـحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰـكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٧) إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُـلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰـرِهِم بِـغَيْرِ حَـقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَـن يَـنصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾

﴿ ٱلْبُدْنَ ﴾ جمعُ بَدَنَةٍ، سمِّيَ بذلك لعِظَمِ بَدَنِهَا، وهي الإبلُ خَاصةً، وجُعل البقرُ في حُكم الإبل لقولهعليه السلام: «البدنةُ عن سبعة والبقرةُ عن سبعة»[(١)]، وهي منصوبٌ بإضمار الفعلِ الذي ظَهر تفسيرُه ﴿ مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ من أعلام الشَريعةِ التي شرَّعها اللهُ، وإضافتُها إلى اسمه تَعظيمٌ لها ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ أي: نَفعٌ في الدنيا والآخرةِ، وَذِكْرُ ﴿ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ أن يقول: بسم اللهِ واللهُ أكبر، اللّهمَّ مِنكَ ولَكَ ﴿ صَوَآفَّ ﴾ أي: قَائمات قد صَففْنَ أَيْدِيَهُنَّ وأرجلَهنَّ، قد رُبطت اليدان من كلٍّ واحدةٍ منها ما بين الرُسغِ إلى الرُكبةِ، وعن الباقرعليه السلام: أنّه أ «صوافِنَ»[(٢)]، ورُوِيَ ذلك عن ابن

(١) رواه في الكشّاف: ج ٣ ص ١٥٨ مرفوعاً.
(٢) راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٩٧ ـ ٩٨، ، تفسير القرطبي: ج ١٢ ص ٦٢.

مسعود وابن عبَّاس[١]، وهو من صفون الفرس، وهو أن يقومَ علىٰ ثلاثٍ وَينصبَ الرابعةَ علىٰ طَرفِ سُنبكِهِ، لأنَّ البدنةَ قد تَعقل إحدىٰ يدَيْها فتقوم علىٰ ثلاثٍ ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: سَقَطتْ على الأرضِ، مِن وَجَب الحائطُ وجبةً، ووجبتِ الشمسُ جِبَةً، وهو عبارةٌ عن تَمامِ خُروج الروحِ منها ﴿فَكُلُواْ﴾ أي: فَحَلٌّ لكم الأكلُ ﴿مِنْهَا﴾ والإطعام، و﴿ٱلْقَانِعَ﴾: السائلُ، من قنعتُ إليه وكنعتُ: إذا خضعتُ له وسألتُه قنوعاً ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ المعترض بغير سؤال، والقانع: الراضي يقنعُ بما أعطيتَهُ، والمعترُّ: المارُّ بكَ تُطْعِمُهُ، يقال: عراه واعتراه وعرَّه واعترَّه بمعنىً ﴿سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ﴾ تأخذُونَها مطيعةً منقادةً للأخذ فَتعقلُونَها، مَنَّ اللهُ سبحانه بذلكَ علىٰ عبادِهِ.

لَنْ يُصِيبَ رضاءَ اللهِ ﴿لُحُومُهَا﴾ المتصدَّقُ بها ﴿وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ الْمُهراقة بالنَحْر ﴿وَلَـٰكِن﴾ يصيبَ رضَاه ﴿ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ والإخلاصُ وصدقُ النية، وقُرئَ: ﴿يَنَالَ﴾ و﴿يَنَالُهُ﴾ بالتاء[٢] والياء.

ورُوِيَ[٣]: أنَّ أهلَ الجاهليةِ كانُوا إذا نَحَروا لَطَّخُوا البيتَ بالدَمِ، فلمَّا حَجَّ المسلمون أرادوا مثل ذلك، فنزلتْ.

فكرَّر سبحانه تَذكيرَ النعمةِ بالتخيّر، ثم قالَ: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ وهو أن يقالَ: الله أكبر علىٰ مَا هَدانا، وقيل: إنَّهُ ضَمَّنَ معنى الشُكر فعدَّاه تعديةً، أي: لتشكروا الله علىٰ هدايتكم لأَعلامِ دينِهِ ومَناسك حجّه، بأن تُكبِّروا وتُهلِّلُوا[٤].

ثمّ خَصَّ المؤمنينَ بالدَفْعِ عَنهُم والنُصرةِ لَهم كما قالَ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا

---

(١) راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٩٧ ـ ٩٨، وتفسير القرطبي: ج ١٢ ص ٦٢.

(٢) وهي قراءة يعقوب. راجع التبيان: ج ٧ ص ٣١٦.

(٣) رواه ابن عباس في تفسيره: ص ٢٨٠.

(٤) وهو قول الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٣٢٠.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ (١)، وجعل العلّةَ في ذلكَ أنَّه لا يحبُّ أضدادَهُم الذين يخُونونَ اللهَ ورسولَه ويكفرونَ نِعَمَه، وقرئ: ﴿يُدَافِعُ﴾ (٢) أي: يبالغُ في الدَفْعِ عَنهم كما يبالغُ مَن يُغالِبُ فيه.

وقُرئ: ﴿أُذِنَ﴾ وَ﴿يُقَـٰتَلُونَ﴾ على البناء للفاعل (٣) والمفعول جميعاً، والمعنىٰ: أُذِنَ لَهم في القتالِ، فحُذِفَ المأذون فيه لدلالةِ ﴿يُقَـٰتَلُونَ﴾ عليه ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ بسبب كونِهم مظلومين، وهُم أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي أوّلُ آيةٍ نَزَلتْ في القتال، والإخبار بكونِهِ قادِراً علىٰ نَصرِهِم عدَةً منه بالنَصرِ، وما قبل الآيةِ من قوله: ﴿يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مؤذنٌ بهذه العِدَةِ أيضاً.

و﴿أَن يَقُولُواْ﴾ مجرور الموضع على البدلِ من ﴿حَقٍّ﴾، أي: ﴿بِغَيْرِ﴾ مُوجبٍ سوى التَوحيدِ الذي كانَ ينبغي أن يوجبَ التمكينَ والإقرارَ لا الإخراج من الديارِ، والمعنىٰ: ﴿دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ تَسليطُهُ المسلمين على الكفّارِ ﴿وَلَوْلَا﴾ ذلك لاستولىٰ أهلُ الشركِ علىٰ أهل المِلَلِ وعلىٰ متعبّداتِهِم فهدمُوها، ولَمَا تركوا للنصارىٰ بِيَعاً ولا لرُهبانهم ﴿صَوَٰمِعُ﴾ ولا لليهودِ ﴿صَلَوَٰتٌ﴾ ولا للمسلمين ﴿مَسَـٰجِدُ﴾ وسمِّيت الكنيسة صلاةً لأنَّها يُصلّىٰ فيها، وقرأ الصادق عليه السلام: «صُلُوَاتٌ» بضم الصاد واللام (٤)، وفسَّرها بالحصون والآطام (٥) وقرئ: «دِفَاعُ» (٦)

---

(١) غافر: ٥١.

(٢) يظهر من عبارة المصنّف هنا أنّه اعتمد على قراءة فتح الياء وإسكان الدال من غير ألف.

(٣) قرأه ابن كثير وحمزة والكسائي. راجع التبيان: ج ٧ ص ٣١٦.

(٤) حكاه عنه عليه السلام أبو حيان في البحر المحيط: ج ٦ ص ٣٧٥.

(٥) قال الجوهري: الأُطمُ مثل الأُجم، يخفّف ويثقّل، والجمع آطام، وهي حصون لأهل المدينة، وباليمن حصنٌ يُعرف بأُطُمِ الأضبط. أُنظر الصحاح: مادة «أطم».

(٦) قرأه نافع ويعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٥٢.

وَ«لَهُدِمَتْ» بالتخفيف[1] ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: يَنصرُ دينَه وأولياءَه.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ (٤١) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥)﴾

هذا ثناءٌ من اللهِ عزَّ اسمُهُ على المؤمنينَ، وإخبارٌ عمَّا سيكون منهم بظهر الغَيبِ: أنْ مَكَّنهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وبَسَطَ لَهم في الدنيا من القيام بِأُمورِ الدين.

وعن الباقرعليه السلام أنّه قال: «نحنُ هم»[2].

و﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ﴾ منصوب بدل من قوله: ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، وقيل: هو تابعٌ لـ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟﴾[3] فيكون المعنيُّ بهم: المهاجرين ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: مرجِعُهَا إلىٰ حُكمه وتقديره.

أي: لستَ بواحدٍ في التكذيب، فَقَد كذَّب الرُسلَ أقوامُهم، ولكَ بهم أُسوةٌ. وكُذِّب مُوسَىٰ أيضاً مع ظُهور معجزاته ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري وتَغييري حيث أبدلتُهم بالنعمةِ نقمةً وبالمنحةِ محنةً، وبالعمارةِ خراباً.

والخاوي: الساقِطُ، من خَوَى النجم: إذا سَقَطَ، أو الخالي من خَوَى المنزل: إذا خَلَا من أهلِهِ، وَخوىٰ بطنُ الحَاملِ. وكلُّ مرتفعٍ أظلَّكَ من سَقفِ بيتٍ أو أظلّةٍ

---

(١) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأيوب وقتادة وطلحة وزائدة عن الأعمش والزعفراني. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٣٧٥.

(٢) تفسير القمي: ج ٢ ص ٨٧.

(٣) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٦١.

أو كرمٍ فهو عرشٌ، وقوله: ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ إن تعلّق بـ﴿خَاوِيَةٌ﴾ فالمعنىٰ: أنّها سَاقِطةٌ، علىٰ سُقوفها، أي: خرَّتْ سقُوفُها على الأرض ثم سَقَطَتْ حيطانُها عليها، أو: أنّها ساقطةٌ أو: خاليةٌ معَ بَقاءِ عُروشها، وإن كان خبراً بعد خبر فالمعنىٰ: هي خاليةٌ وهي مطلّةٌ علىٰ عروشها، علىٰ معنىٰ: أنّ العرشَ سَقَطتْ على الأرض وبَقيتْ الحيطانُ مشرفةً عليها، وقُرئ: «أَهْلَكْتُها»[1] ومعنىٰ «المُعَطَّلَةِ»: أنّها عامرةٌ، فيها الماءُ، ومعها آلاتُ الاستسقاءِ إلّا أنّها عُطِّلت أي: تُرِكَتْ لا يُستسقىٰ منها لهلاكِ أهلِها، أي: وكَم من ﴿بِئْرٍ﴾ عطَّلنَاها عن سِقائها ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ أخليناه عن ساكنيه، فحُذفَتْ لدلالة ﴿مُعَطَّلَةٍ﴾ عليه، وفي هذا دليلٌ علىٰ أن ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى «مع» في ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، والمَشِيد المُرتَفعُ، وقيل: هو المُجَصَّص[2].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ (٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ (٤٨) قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَاْ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ (٥١)﴾

ثم حثَّ سبحانَه على السفار والاعتبار بمصارع مَنْ أهلكَهُ[3] اللهُ من الكفّار، أي: ﴿يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ ما يَجبُ أن يُعقل من التوحيدِ، و﴿يَسْمَعُونَ﴾ ما يجبُ سماعه

---

(١) وهي قراءة البصريين (أبي عمرو ويعقوب). راجع التذكرة في القراءات: ج ٢ ص ٥٥٣.

(٢) قاله عكرمة ومجاهد. راجع التبيان: ج ٧ ص ٣٢٤.

(٣) في نسخة: أهلكهم.

من الوحي ﴿فَإِنَّهَا﴾ الضمير للشأن والقصَّة، وقد يجيء مؤنثاً، ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً يفسِّره ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، وفي ﴿تَعْمَى﴾ راجعٌ إليه، والمعنىٰ: أنَّ أبصارَهُم صَحيحةٌ لا عمىً بها وإنّما العَمىٰ بقلوبِهِم، أو يريد: أن لا ٱعتبار بعمَى الأبصار، فكأنَّه ليس بعمىً[١] بالإضافة إلىٰ عَمى القلوب، وقوله: ﴿ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ توكيدٌ كما في قوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾[٢]، وذلك لتقرير: أنَّ مكانَ العَمىٰ هو القلبُ لا البصر.

ثم أنكرَ استعجالَهُم للعذابِ المتوعّد به، أي: كأنّهم يجوِّزون فوته والله عزَّ اسمه لا ﴿يُخْلِفَ .. وَعْدَهُۥ﴾ ولا مَحالةَ أن يصيبَهم ذلكَ إلّا أنَّه عزَّ اسمه حليمٌ لا يَعجل، ومن حلمِهِ واستقصاره المُدَدَ الطويلة أن ﴿يَوْماً﴾ واحداً عندَهُ ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ عندكم، وقيلَ: معناه: كيف يستعجلونَ بعذابِ مَنْ يومٌ واحدٌ من أيام عذابِهِ في طولِ ألفِ سنةٍ من سنيّكم؛ لأنَّ أيام الشدائد طوال[٣].

وكم ﴿مِّن﴾ أهل ﴿قَرْيَةٍ﴾ قد أَنْظَرْتُهُمْ حيناً ﴿ثُمَّ﴾ أخذْتُهم بالعذابِ ﴿وَإِلَيَّ﴾ الْمَرْجِع.

﴿سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالفسادِ: من الطعنِ فيها بأن سمَّوها سِحْراً وشِعْراً وأَسَاطِير الأوَّلينَ، ومن تَثبيط الناسِ عَنها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: مُسابقينَ في زعمِهِم وتقديرِهم، وقُرئ: «مُعْجِزِيْنَ»[٤] أي: مُسابقينَ عندهم طامِعينَ أنَّ كيدَهُم للإسلام يتمُّ لَهُم، أو: قاصدين تَعجيز رسولنا، يقال: عاجَزَهُ أي: سَابَقَهُ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من المتسابقينَ[٥] في طَلَبِ عَجز الآخر عن اللِّحاقِ به، فإذا سَبَقَه قيل: أَعْجَزَهُ وَعَجَزَهُ.

---

(١) في بعض النسخ: لعمى. (٢) آل عمران: ١٦٧.
(٣) قاله عكرمة كما في تفسير القرطبي: ج ١٢ ص ٧٨.
(٤) قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٣٩.
(٥) في نسخة: المسابقين.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ(٥٣) وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ(٥٥) ﴾

رُوِي: أنَّ السَببَ في نزولِ هذه الآية أنَّ النبيَّ ﷺ تَلا سورةَ النجمِ وهو في نادي قومه، فلمَّا بلَغَ قولَه: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [١] ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: في تلاوته: «تِلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَى وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَى»، فَسُرَّ بذلك المشركون، فَنزلَتْ الآيةُ تسليةً له صلوات الله عليه وآله [٢]، ومعناه: أنّه لم يُبعث رسولٌ ولا نبيٌّ ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: تَلا، حاولَ الشيطانُ تَغليطَه فَأَلْقَىٰ في تلاوتِهِ ما يُوهِمُ أنّه من جملةِ الوحي فيَرفعُ الله ما أَلقاه بِمُحْكَمِ آياته، وقيل: إنَّما أَلقىٰ ذلك في تلاوته بعضُ الكفَّارِ، فأُضيفَ ذلك إلى الشيطانِ لمَا حَصَلَ بإغوائه [٣]. وممّا يُبيِّن أنّ التمنّي يكون في معنى التلاوة، قول حسّان بن ثابت:

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ ليلة ... وآخِرَهَا لاقَى حِمَامَ المقادِرِ [٤]

(١) النجم: ٢٠.

(٢) رواه ابن عباس وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب ومحمد بن قبيس. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ١٧٤. ولا يخفىٰ أنّ العديد من المحقّقين من علماء المسلمين الأبرار قد صرّحوا أنّ ما روي في سبب نزول هذه الآية فهو من الموضوعات والخرافات التي لا أساس لها من الصحة، فما نقله بعض المفسّرين لا يعبأ به. راجع تفصيل ذلك في كتاب الهدىٰ إلىٰ دين المصطفى للعلامة البلاغي: ج ١ ص ١٢٣ وما بعده.

(٣) حكاه ابن عيسىٰ كما في تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٣٥.

(٤) وروي الشطر الثاني: تمنّىٰ داود الزبورَ على رِسْلِ. قد تقدم ذكر البيت في ج ١ ص ١١٩.

وعن مجاهد: كان النبيُّ ﷺ إذا تأخّر عنه الوحي تمنّىٰ أن ينزلَ عليه فيُلقي الشيطانُ في أُمنيته بما يوسوس إليه، وينسخُ اللهُ ذلك ويُبطلُه بما يُرشده إليه من مخالفةِ الشيطان[١]. وقالَ: «تلك الغرانيق» إشارة إلى الملائكة، أي: هم الشُّفعاء لا الأصنام، والغرانيق: جمع غرنوق، وهو الشاب الجميل الممتلئ ريّاً[٢] ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ أي: يذهب به ويُبطله ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أي: يُثبتها حتّىٰ لا يَتطرّق عليها ما يُشعّثُها.

﴿لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ في الأُمنيّة وتمكينه من ذلك ﴿فِتْنَةً﴾ أي: محنةً وابتلاءً، يَزدادُ المنافقون به شكّاً وظُلمةً، وهم الَّذينَ ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، والمؤمنون يقيناً ونوراً قد ازدادوا إيماناً إلىٰ إيمانِهم ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ هُمُ المشركون المكذّبون، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ يعني: وإنّ هؤلاء المنافقين والمشركين، والأصلُ: «وإنّهم» إلّا أنّه وُضِعَ الظاهرُ موضعَ الضَميرِ ليقضيَ عليهم بالظُلمِ ﴿لَفِى شِقَاقٍ﴾ أي: مشاقّةِ الله تعالىٰ.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ بالله وبحكمتِهِ ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ في الحكمةِ فيصدِّقوا به ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تطمئنّ وتسكن ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ لهادي ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ﴾ أن يتأوّلوا ما يتشابَهُ في الدِينِ بالتأويلات الصَحيحةِ، فلا تَعتَريهم شُبهةٌ ولا تُخالجهم مِرْيَةٌ.

والضمير في قوله: ﴿فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ للقرآنِ أو للرسولِ، والمرادُ باليومِ العقيمِ: يومُ بدرٍ، وَصَفَه بالعَقيمِ لأنَّ أولادَ النساءِ يقتلون فيه فيصرن كأنّهنَّ عُقْمٌ لم يلدْنَ، أو: لأنَّ المقاتلين يوصفون بأنّهم أبناء الحرب فإذا قُتلوا وُصِفَ يومُ الحربِ بأنَّه

---

(١) حكاه عنه الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٣٣٠.

(٢) كذا في النسخ.

عقيم مجازاً، أو: لأنّه لا مثل لهذا اليوم في عظم أمره لِقتال الملائكة فيه، كما قيل:

عَـقُمَ النسـاءُ فَـمَا يَـلدنَ شـبيهَهُ   إنَّ النســـاءَ بــمثلِهِ لَـعَقِيمُ[1]

وقيل: المرادُ به: يومُ القيامةِ، وسمَّاه عقيماً لأنّه لا ليـلة له[2]، وكأنّـه قـال: ﴿تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ ... أَوْ يَأْتِيَهُمْ﴾ عذابُها، فوضِعَ الظاهرُ موضع الضمير.

﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٥٦) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔـايَـٰتِنَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَـهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥٧) وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِـى سَـبِيلِ ٱللَّهِ ثُـمَّ قُـتِلُوٓاْ أَوْ مَـاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ ٱللَّهَ لَـهُوَ خَـيْرُ ٱلرَّٰزِقِـينَ (٥٨) لَـيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَٰلِكَ وَمَنْ عَـاقَبَ بِـمِثْلِ مَـا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ﴾

التقديرُ في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: يوم يؤمنون، أو: يوم تزول مِرْيَتُهُم، سوَّىٰ بين مَن مات من المهاجرين في سبيلِ الله وبينَ مَنْ قُتل منهُم في المَوعدِ تفضّلاً منه، و﴿ٱللَّهُ﴾ عَلِيمٌ بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم ﴿حَلِيمٌ﴾ عن تَفريطِ مَن فرَّط مـنهم بفضلِهِ وكَرَمِه.

ورُوي: أنّهم قالوا: يا رسول الله، هؤلاء الَّذين قُتِلُوا قد عَلِمْنَا ما أعطاهُم الله من الخير، ونحنُ نجاهدُ معكَ كما جاهَدُوا، فما لَنَا إن مِتْنَا معك؟ فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين[3].

﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ أي: وَمَن جَازَى الظَّالِمَ بمثل مـا ظَـلَمَه،

(١) البيت منسوب الى أبي دهبل يمدح عبدالله بن الأزرق المخزومي، وقيل: للحزين الليثي، ومعناه واضح. أنشده الزجاج في معاني القرآن: ج ٤ ص ٤٣٤.

(٢) قاله عكرمة والضحاك. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٣٧.

(٣) رواه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ١٦٧.

سمِّي الابتداء بالمعاقبة من حيث إنَّه سببٌ وذاك مسبَّبٌ عنه، كما حَملوا النظير على النظير والنقيضَ على النقيضِ للملابسة ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ الضمير للمبغيِّ عليه ﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ ولا يَلومُه علىٰ تَرْكِ ما بَعَثَه عليه من العفوِ عن الجاني بقوله: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[1]، ومَن عفَا وأصلحَ فأجرُهُ على الله.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ (٦١) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِىُّ ٱلۡكَبِيرُ (٦٢) أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ (٦٣) لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِىُّ ٱلۡحَمِيدُ (٦٤) أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِى فِى ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ (٦٥)﴾

أي: ﴿ذَٰلِكَ﴾ النصرُ بسببِ أنّه قادرٌ، ومن آيات قدرتِهِ أنّه ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِ﴾، أو: بسببِ أنّه خالقُ الليلِ والنهارِ فلا يَخفىٰ عليهِ ما يَجري فيهما علىٰ أيدي عبادِهِ مِن خيرٍ أو شرٍّ، فإنّه ﴿سَمِيعُۢ﴾ لمَا يقولون ﴿بَصِيرٞ﴾ بما يعملون.

وقُرِئَ: ﴿يَدۡعُونَ﴾ بالياء والتاء[2] ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الوصف بخلقِ الليلِ والنَّهارِ وبالإحاطةِ بما يجري فيهما بسببِ أنّه ﴿ٱللَّهَ ... ٱلۡحَقُّ﴾ الثابت إلـٰهيَّته، وأنَّ كلّ ما يُدعىٰ إلهاً من دونه باطلُ الدعوةِ وأنّه ﴿ٱلۡعَلِىُّ﴾ عن الأشباه، ولا شيء أعلىٰ منه شأناً وأكبرُ سلطاناً.

---

(١) البقرة: ٢٣٧.

(٢) بالتاء قرأه الحرميان وابن عامر وأبو بكر. راجع التذكرة في القراءات: ج ٢ ص ٥٥٣.

﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ إنّما رفع لأنَّ المعنىٰ إثباتُ الاخضرار، ولو نُصب جواباً للاستفهام لانقلب المعنىٰ إلىٰ نفي الآخضرار ﴿لَطِيفٌ﴾ وأصلُ علمِهِ وفضلِهِ إلىٰ عبادِهِ ﴿خَبِيرٌ﴾ بمَصالحِهم.

﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من البهائِمِ مذلَّلةٌ للركوبِ في البرِّ، ومن المَراكب جاريةٌ ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ وغير ذلك من المسخَّرات ﴿أَن تَقَعَ﴾ أي: كراهةَ أن تقعَ إلّا بمشيئته.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ (٦٦) لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدىً مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَـٰناً وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٧٢)﴾

﴿لَكَفُورٌ﴾ أي: جَحُودٌ يَجحد الخالقَ مع هذه الأدلّةِ الدالّةِ على الخلقِ.

﴿فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ﴾ نهيٌ لرسول الله صلى الله عليه وآله، أي: لا تلتفتْ إلىٰ قولهم، ولا تُمكِّنْهُمْ من أن ينازعُوك، أو: هو زجرٌ لهم عن مُنازعَتِهِ ﴿فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في أمرِ الدين.

رُوِيَ: أنّ بديل بن ورقاء وغيره من كفّار خُزاعة قالوا للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قَتَلتُم ولا تأكلون ما قَتَلَه الله؟ يعنون الميتة[1].

---

(١) رواه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ١٦٩.

وإن أبوا إلاَّ مجادلتك فادفعْهُم بأن تقول: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ بأعمالِكُم وبقُبحِها، فهو مُجازيكم عليها، وهذا وعيدٌ برفقٍ ولُطفٍ. ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: يَفصل بينكُم [1] بالثوابِ والعقابِ، وهذا تسليةٌ لرسول الله ﷺ ممَّا كان يَلقاهُ منهم، أي: وكيف تخفىٰ عليه أعمالُهُم وقد عُلِمَ بالدليل أنَّه سبحانه ﴿يَعْلَمُ﴾ كلَّ ﴿مَا﴾ يَحدثُ ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقد كتبه في اللوحِ المَحفوظِ قبلَ حدوثِهِ؟! وحفظُه ذلك وإثباتُه والإحاطة به عليه ﴿يَسِيرٌ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ مالم يتمسَّكوا في صحّةِ عبادتِهِ ببرهانٍ سماويٍّ، ولا عَرفوه بدليل عقليٍّ ﴿وَمَا﴾ لمن ظَلَمَ مثل هذا الظُّلم ناصرٌ يَنصرُه.

﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ [2] الفظيع من التجهُّم والعُبوس، أو: الإنكار كالمكرَم بمعنى الإكرام، و﴿يَسْطُونَ﴾ أي: يقعون ويبطشون من شدَّة الغيظ ﴿ٱلنَّارُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، كأنّ قائلاً قال: ما هو؟ فقال: النار، أي: هو النار ﴿مِن ذَٰلِكُمُ﴾ أي: من سَطوِكُم على التالين للآيات وغَيظِكُم عليهم، أو: ممّا أصابَكُم من الغيظِ والكراهةِ بسببِ ما تُلِيَ عليكم ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ﴾ استئناف، أو تكون ﴿ٱلنَّارُ﴾ مبتدأ ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ﴾ خبرُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٧٤) ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (٧٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ

---

(١) ليس في نسخة: «أي يفصل بينكم». (٢) في بعض النسخ زيادة: «أي المنكر».

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَـٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّـٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَـٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ (٧٨)﴾

قد تُسمَّى الصفة أو القصة الرائعة «مَثَلاً» لاستحسانها واستغرابها[١]، تشبيهاً ببعضِ الأمثالِ التي سيرت لكونها مُستحسَنةً عندهم، وقُرئ: ﴿تَدْعُونَ﴾ بالياء[٢] والتاء ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ في محلّ النصبِ على الحال، كأنّه قال: إنَّ خَلْقَ الذُباب يَستحيلُ منهم مشروطاً عليهم اجتماعُهم لخلْقِه، وهذا مبالغةٌ في تَجهيل قُـريش حيث وَصَفوا[٣] صوراً ممثلةً يستحيل منها أن يقدروا علىٰ أقلِّ ما خَـلَقَ[٤] اللهُ وأحقَره ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ﴾ لذلك بالإلهيّة التي تَقتضي الاقتدارَ علىٰ كـلّ أجـناسِ المقدورات، والإحاطة بجميع المعلومات، و﴿ٱلطَّالِبُ﴾ الذبابُ ﴿وَٱلْـمَطْلُوبُ﴾ الصنم، وقيل: بالعكس منه، والمعنىٰ: ضَعُفَ السالبُ والمسلوبُ[٥]، وقيل: معناه: جهلَ العابدُ والمعبودُ[٦].

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عرفُوه حقَّ معرفتِهِ، وما عظّموه حقَّ عظمته حيث[٧] جعلوا الأصنامَ شركاء له.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى﴾ هذا ردٌّ لإنكارهم من أن يكون الرسولُ من البشرِ، وبيانٌ أنّ

---

(١) في بعض النسخ: لاستحسانهما واستغرابهما.

(٢) قرأه يعقوب والسلمي وأبو العالية. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٥٤، وتفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٩٨.

(٣) في نسخة: وضعوا.

(٤) في نسخة: خلقه.

(٥) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٢٨٤.

(٦) قاله الضحاك. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٢٩٨.

(٧) في نسخة: حين.

رُسُلَ الله قد يكونون[1] ﴿مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ ومن البَشَرِ. ثم ذَكَرَ أنّه سبحانه عالمٌ بأحوال المكلّفين مَنْ مَضىٰ منهم وَمَنْ غَبَرَ، فلا يعترض عليه في حُكمه واختياره.

أمر سبحانه بالصلاة التي هي أجلُّ العبادات، ثم بغيرها من العبادات كالصوم والحجّ والزكاة، ثم بفعل الخيرات على العموم، وعن ابن عبّاس: أنّ ﴿ٱلْخَيْرَ﴾ صلةُ الأرحامِ ومكارمُ الأخلاق[2] ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: افعلوا هذا كلّه وأنتم طامعون في الفلاح، لا تتكلّمون[3] على أعمالكم.

وعن عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله، في سورة الحجّ سجدتان؟ قال: «نعم، إن لم تسجدهما فلا تقرأهما»[4].

﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ﴾ أمَرَ بالغزو، أو: بمجاهدةِ النفسِ والهوىٰ وهو الجهادُ الأكبرُ، كما رُوِيَ أنّه ﷺ رجع من بعضِ الغَزوات فقال: «رَجَعْنَا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر في الله»[5] أي في ذات الله، ومن أجلِه ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ كما يقال: هو حقُّ عالم أي: عالمٌ حقّاً، فكان القياسُ: حقَّ الجهادُ فيه أو حقَّ جهادُكم فيه، إلّا أنَّ الجهادَ لمّا اختصَّ باللهِ من حيث إنّه يُفعل لوجهِهِ ومن أجلِهِ جازَتْ إضافته إليه؛ لأنَّ الإضافةَ قد تكونُ بأدنَى اختصاص، ويجوز أن يتّسع في الظَّرفِ، كقول الشاعر:

ويومَ شَهِدْنَاهُ سُلَيْماً وعَامِراً[6]

﴿ٱجْتَبَـٰكُمْ﴾ أي: اختاركم لدينِهِ ولِنُصْرتِهِ ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ

(١) في بعض النسخ: يكون.
(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ١٧٢.
(٣) في بعض النسخ: تتكلون.
(٤) ذكره البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٢٩٩.
(٥) إتحاف السادة المتّقين للزبيدي: ج٦ ص ٣٧٩ و ج٧ ص٢١٨.
(٦) وعجزه: قليل سوى الطعن النهّال نوافله. وهو منسوب لرجلٍ من بني عامر، وفيه يمدح قومه. أنشده سيبويه في كتابه: ج ١ ص ٩٠.

حَرَجٍ﴾ أي: ضيقٍ، فلم يكلّفكُم مَا لا تُطيقونه، ورخّصَ لكُم عند الضرورات كالقصر والتيمّم، وجعلَ التوبةَ مخلّصاً لكم من الذّنوب، ونحوه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾(١).

وفي الحديث: «إنَّ أُمَّتي أمةٌ مرحومةٌ»(٢).

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ نصبٌ على الاختصاصِ، أي: أعني بالدِينِ ملةَ أبيكم، أو بمضمون ما تقدّمها، كأنّه قال: وَسِعَ دينُكم توسعةً ملةَ أبيكم، ثم حُذِفَ المضافُ، وجُعِلَ ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ أبا الأُمَّة كلِّها؛ لأنَّ العربَ من وُلْدِ إسماعيل، وأكثرَ العَجَمِ من ولد إسحاق، ولأنَّه أبو رسول الله ﷺ وهو أبٌ لأُمته، والأُمَّة في حكم أولاده ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾ الضميرُ لله تعالىٰ أو لإبراهيم ﴿مِن قَبْلُ﴾ القرآنِ في سائر الكُتُب ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ القرآن، أي: فضَّلَكُم على الأُمم وسمَّاكم بهذا الاسم ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾ بالطَاعةِ والقبولِ ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى﴾ الأُمم بأنَّ الرُسُلَ قد بلّغُوهُم، ومثله: ﴿كَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُواْ﴾ الآية(٣)، وقيل: ﴿شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾ أنّه قد بلَّغكُم ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بعدكُم بأن تبلِّغُوا إليهم ما بلّغه الرسولُ إليكم(٤). وإذ خصَّكم سبحانه بهذه الكرامة فَاعْبُدُوهُ وَثِقُوا به وتمسَّكوا بدينِهِ(٥) ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ المتولّي لأمرِكُم، وهو خيرُ مَوْلىً وناصر.

❁ ❁ ❁

---

(١) البقرة: ١٨٥.

(٢) أخرجه أبو حنيفة في مسنده: ص ١٤١، والحاكم في مستدركه: ج ٤ ص ٤٤٤.

(٣) البقرة: ١٤٣.

(٤) قاله مجاهد. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ١٩٤.

(٥) في نسخة: «به» بدل «بدينه».

سورةُ المُؤمنُونَ

مكّيّةٌ[1] مائة وثمان عشرة آية كوفي، وتسع عشرة آيـة غـيرهم، لم يـعدّ الكوفيّ ﴿وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ﴾[2].

في حديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرأَها بشَّرتْهُ الملائكَةُ بالرَّوحِ والرَّيحانِ يومَ القـيامةِ، وَبمَا تَقرُّ به عينُهُ عندَ نزولِ مَلَكِ المَوتِ»[3].

وعن الصادقِ عليه السلام: «مَنْ قَرأَها خَتَمَ اللهُ لَهُ بالسَعادةِ، [و] إذا كَانَ يُدْمِنُ قراءَتَها في كلّ جُمعةٍ كانَ منزلُهُ في الفِرْدَوسِ الأعلىٰ معَ النَبيِّينَ والمُرسَلينَ»[4].

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ (٢)

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٣٤٧: مكّية بلا خلاف، وهو قول قتادة ومجاهد، وهي مائة وثمان عشرة آية في الكوفي، وتسع عشرة في البصري والمدنيّين، وليس فيها ناسخ ولا منسوخ، إلّا ما روي أنّهم كانوا يجيزون الالتفات يميناً وشمالاً والى ماوراء، نسخ ذلك بقوله: ﴿فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾ فلم يجيزوا أن ينظر المصلّي إلّا الى موضع سجوده.

وفي الكشاف: ج ٣ ص ١٧٤ ما لفظه: مكّية، وهي مائة وتسع عشرة آية، وثماني عشرة عند الكوفيّين، نزلت بعد سورة الأنبياء. (٢) الآية: ٤٥.

(٣) رواه الزمخشري في كشّافه: ج ٣ ص ٢٠٧ مرسلاً.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٥.

وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ (٤) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ (٧) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ (٨) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ (١٠) ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (١١)﴾

الفَلَاحُ: الظَّفَرُ بالمُرادِ، وقيلَ: البقاءُ في الخَيرِ[1]، و﴿أَفْلَحَ﴾: دَخَلَ في الفَلَاحِ، كَأَبْشَرَ دَخَلَ في البشَارةِ. والخشوعُ ﴿فِى﴾ الصَلاةِ: خشيةُ القَلبِ والتواضعُ، وأُضيفت الصلاةُ إليهم لأنَّهم المنتفِعُون بها، وهي عُدَّتُهُم وذخيرتُهم، والذي يصلُّون لَه جلَّ وتقدَّس عن الحاجةِ إليها. و﴿ٱللَّغْوِ﴾: ما لا يعنيك من قولٍ أو فعلٍ كالهزلِ واللعبِ، والمعنىٰ: أنّهم شغَلهم الجدُّ عن الهزلِ[2] والباطلِ وجَميع المعاصي، ولمَّا وَصَفَهم بالخشُوعِ في الصلاة وَصَفَهم عقيبه بالإعراضِ عن اللغوِ ليجمعَ لهم الفعلَ والترك.

والزكاة: اسمٌ مشتركٌ بين عينٍ ومعنىً، فالعينُ: ما يُخرجه المزكِّي، والمعنىٰ: فعلُهُ الذي هو التزكية، وهو المرادُ في الآية، وما من مصدرٍ إلّا وقَد يعبّر عن مَعناه بالفعلِ، ويقال لِمُحْدِثِهِ: فاعل، كما يُقال للضارب: فاعلُ الضَربِ، وأُنشد لأُميَّة بن أبي الصلت:

المُطعِمُونَ الطَعامَ فـي السنَةِ الأ زمـةِ والفَاعِلُونَ للـزَّكَـوَاتِ[3]

---

(١) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٤ ص ٥.

(٢) في نسخة: «اللعب».

(٣) والأزمة: الشدّة والقحط، والبيت واضح المعنىٰ، انظر تفسير الكشاف: ج ٣ ص ١٧٦.

ويجوزُ أن يُرادَ بالزكاة: العين علىٰ تَقديرِ مضافٍ محذوفٍ وهو الأداءُ، ويُحمل البيت علىٰ هذا أيضاً.

﴿عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ في موضع الحال، أي: الأوَّالين علىٰ أزواجهم، والمعنىٰ: أنّهم ﴿لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ في جميع الأحوال ﴿إِلَّا﴾ في حَالِ تزويجهم أو تسرّيهم، ويجوز أن يتعلّق ﴿عَلَىٰٓ﴾ بمحذوفٍ يدلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ كأنّه قالَ: يُلامون إلَّا علىٰ أزواجِهِم، أي: يُلامون علىٰ كلّ مباشَرٍ إلَّا علىٰ ما أُطْلِقَ لهم ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ عليه. ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: طَلَبَ سِوَى الأَزواجِ والمملُوكَةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ الكاملُونَ في العُدوانِ المتَنَاهُونَ فيه.

وقُرئ: «لِأَمَانَتِهِمْ»[1] وَ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾، وَ«عَلَى صَلَاتِهِمْ»[2] و﴿عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ﴾ عَلى الواحدِ والجمع، وسُمِّي الشيءُ المؤتَمنُ عليه والمعاهَدُ عليه أمانةً وعهداً، ومثلُهُ: ﴿يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ﴾[3]، ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾[4]، وإنّما يؤدَّىٰ المؤتَمَنُ عليه لا الأَمانةُ نفسُها، وكذلكَ الخيانة. ويَحتملُ العُمومُ في كلّ ما أتُمِنُوا عليه وعُهِدُوا من جهةِ الله ومن جهةِ المخلُوقينَ، والخُصوصُ فيمَا حَمَلُوه من الأَماناتِ للنَاسِ وعُهُودِهِم.

وكَرَّرَ ذِكْرَ الصَلاةِ لأنَّ في الأولِ وصفَهم بالخُشُوع فيها، وفي الثاني وصفَهم بالمُحافظةِ عليها، وهو أن يُؤدُّوها في أوقاتِها ويُراعُوا أَركانَها، وكانَ أُولئكَ الجَامعُونَ لهذِهِ الصفَات هُم الأَحِقَّاء بأن يسمُّوا وُرَّاثاً دونَ من عَداهُم، ثم بيَّن

(١) قرأه ابن كثير. راجع التبيان: ج ٧ص ٣٥٠.
(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٤٤.
(٣) النساء: ٥٨. (٤) الأنفال: ٢٧.

الوارثينَ بقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ وأنَّثَ ﴿ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ على تأويلِ الجنَّة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ (١٧) وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ (٢٠)﴾

السُلالَةُ: خلاصةٌ تُسَلّ من بين الكدرِ، وعن الحَسَنِ: ماءٌ بين ظَهراني الطينِ[١]. والمعنىٰ: ﴿خَلَقْنَا﴾ جوهر ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أولاً ﴿مِّن طِينٍ﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا﴾ جَوهرَهُ بعدَ ذلكَ ﴿نُطْفَةً﴾، وَ﴿مِن﴾ الأول للابتداء و﴿مِن﴾ الثاني للبيان. والْقَرارُ: المستقرُّ، يريدُ: الرَحِم، وَصفَها بالمكانِ[٢] التي هي صفةُ المستقرِّ فيها، كقولهم: طريقٌ سائرٌ، أو بمكانتها في نفسِها لأنَّها مكنت، بحيث هي وأحرزت.

وقُرِئ: «عَظْماً فَكَسَوْنَا الْعَظْمَ» على الإفرادِ[٣] وعلى الجمعِ في الموضعَين، وُضِعَ الواحدُ موضعَ الجمعِ لزَوالِ اللبسِ؛ لأنَّ الإنسان ذو عظام كثيرة، أي: ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ مبايناً للخَلْقِ الأول، حيث جَعَله حيواناً بعد كونِهِ جَماداً، وأودعَ كلَّ جزءٍ

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٧٨.

(٢) في نسخة: «بالمكانة».

(٣) قرأه أبو بكر وابن عامر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٥٧.

من أجزائِه من عجائب فطرةٍ وغرائب حكمةٍ ما لا يُكْتَنَه بالوَصفِ ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ تَعالىٰ واْستَحقَّ التَعظيمَ ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ أي: أحسنُ المقدِّرِينَ تَقديراً، فَترَكَ ذكْرَ المميّز لدَلالةِ ﴿ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ عليه.

والطرائقُ: السماوات؛ لأنّه طُورِقَ بعضُها فوقَ بعضٍ، وكلُّ شيءٍ فَوقه مثلُهُ فهو طَريقُه، أو: لأنَّها طُرُقُ الملائكةِ ومتقلَّباتُهم، أو: هي الأفلاك لأنّها طرائقُ الكَواكبِ وفيها مَسائرُها.

﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: بتقديرٍ يَصلُون بِهِ إلى المنفعة ويسلَمُون من المضرّة، أو: بمقدارِ ما عَلِمْنَا من مَصالِحِهم وحَاجَاتِهم بِهِ ﴿فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كَقولِهِ: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1]، وكَما قَدِرْنَا علىٰ إنزالِهِ فنحنُ قَادرُونَ علىٰ رفعِهِ وإزالتِه، وقولُهُ: ﴿عَلَىٰ ذَهَابٍ﴾ يَعني علىٰ وَجْهٍ من وجُوهِ الذهَابِ ﴿بِهِۦ﴾.

وخَصَّ هذه الأنواعَ الثلاثةَ من جُملةِ الأشجارِ لأنَّها أكرمُها وأجمعُها للمنافع، ووصف النَّخِيلَ وَالأَعنَابَ بأنَّ ثَمَرهما جامعٌ بين أمرَين: إنَّه فَاكِهةٌ يتَفكَّهُ بهَا، وطَعامٌ يُؤكَلُ رَطباً ويَابساً، ولذلكَ أُتي بالواو، وَالزيتُونَ بأنّ دُهْنَه صَالِحٌ للاستصباحِ والاصطِباغ جَميعاً.

﴿وَشَجَرَةً﴾ عَطفٌ علىٰ ﴿جَنَّـٰتٍ﴾، وقُرئ: ﴿سَيْنَآءَ﴾ بكَسْرِ السينِ[2] وفَتحِها، فَمَن كَسَرَهَا فإنَّما يمنعُ الصَرفَ للتَعريفِ والعُجْمةِ أو للتأنيثِ لأنَّها بُقعةٌ، لأنَّ «فِعلاء» بكَسْرِ الفَاءِ لا يَكُونُ أَلِفُهُ للتأْنيثِ كأَلفِ «صَحْراء» و«طور سيناء»، وطُورِ سينينَ لا يخلو: إمَّا أَن يكُونَ مُضَافاً إلىٰ بُقْعةٍ اسمُها: «سيناء» أو «سينُون»، وإمَّا أَن يكونَ اسْمَاً للجبَلِ مُرَكَّباً من مُضافٍ ومُضافٍ إليه كـ«امرئ القيس»

(١) الزمر: ٢١.
(٢) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٥٧.

﴿بِالدُّهْنِ﴾ في مَوضِعِ الحَالِ، أي: تَنبتُ وفيهَا الدُّهْنُ، وقُرِئَ: «تُنبتُ»(١)، وفيه وَجْهانِ: أَحدُهُما: أَن يكونَ «أنْبَتَ» بمعنىٰ «نَبَتَ» كما في بَيتِ زُهَيرٍ:

رَأَيتُ ذَوي الحَاجَاتِ حَولَ بُيُوتِهِمْ قَطِيناً لَهُمْ حَتَّىٰ إذا أَنْبَتَ البَقْلُ(٢)

والآخرُ: أَن يكُونَ مفعُولُهُ محذُوفاً، والمَعنىٰ: يَنبُتُ زَيتُونُها، وفيهِ الزَيتُ.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥)﴾

القَصدُ بـ﴿ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ إلى الإبلِ لأَنَّها مَقرونَةٌ بِالْفُلكِ التي هي السُّفُنُ، وهي سُفنُ البَرِّ، أي: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ﴾ من الركُوبِ والحَملِ وغَيرِ ذلكَ، وفيها مَنْفَعةٌ زائِدةٌ وهي الأكلُ الذي هو ٱنتفاع بذَواتها.

﴿غَيْرُهُ﴾ بالرفع على المحل وبالجرّ على اللفظ(٣)، والجُملةُ ٱستِئنافٌ يَجري مَجْرَى التَعليلِ للأَمرِ بالعبَادَةِ.

﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يَطلُبُ الفَضْلَ عليكُم والرئَاسَةَ، ونَحوُهُ: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(٤)، ﴿بِهَـٰذَا﴾ أي: ما سَمِعْنا بهذا(٥) الكَلامِ، أو: بمِثْلِ هذا الذي يَدَّعِي أنَّه رَسُولُ الله وهو ﴿بَشَرٌ﴾. والجِنَّةُ: الجنونُ أو الجِنّ

---

(١) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو ورويس: راجع المصدر السابق: ص ٥٥٨.

(٢) أنظر ديوان زهير: ص ٦٢، وفيه «قطيناً بها».

(٣) في نسخة: «الموضع». (٤) يونس: ٧٨.

(٥) في نسخة: «بمثل هذا».

أي: به جِنٌّ يخيِّلونه ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: اصبرُوا عَلَيه إلىٰ زمانٍ، فإنْ أفاقَ من جُنونِهِ وإلَّا فاقتلوه.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّـٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ﴾

أي: ﴿ٱنصُرْنِى﴾ بإهلاكِهم بسَببِ تكذيبِهم إيّايَ، و﴿ٱنصُرْنِى﴾ بدلَ «ما كذَّبوني»، كما يُقالُ: هذا بذاك، أي: مكان ذاك، والمعنىٰ: أبْدِلْني من غمِّ تكذيبِهم النُصرةَ عَليهم، وٱنصُرني بإنجازِ ما وَعدْتَهم منَ العَذابِ، وهو ما كَذَّبُوه فيه حينَ قالَ لَهُم: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١).

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحِفظِنا وكَلاءَتِنا، كانَ مَعهُ من الله حَفظَةٌ يكلَؤونه بِعُيونِهم لئلّا يُتعرَّض لَه، ومنهُ قَولُهُم: عَليه من اللهِ عَينٌ كَالِئَةٌ ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي: بأَمرِنا وتَعليمِنا إيّاك كَيفَ تَصنَعُ.

رُوِيَ: أنّه قيلَ لنُوحٍ عليه السلام: إذا رأيتَ الماءَ يفُورُ من التنّورِ فاركبْ أَنتَ وَمَن مَعكَ في السفينةِ، فلمَّا نَبعَ الماءُ من التنُّورِ أخبرَتْهُ امرأتُهُ فركبَ (٢).

وقيلَ: التنّور: وجهُ الأرضِ (٣)، وقَد مَرَّ ذكرُهُ وبيانُه (٤)، وَسَلَكَ فِيهِ: دَخَلَه،

(١) الأعراف: ٥٩، الشعراء: ١٣٥، الأحقاف: ٢١.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٨٣.

(٣) قاله ابن عباس، علىٰ ما حكاه عنه في الكشّاف: ج ٣ ص ١٨٤.

(٤) تقدّم في ص ١٦٦ ضمن تفسير الآية: ٤٠ من هود.

وسلكَ غيرَهُ وأَسْلَكَهُ بمعنىً ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى﴾ أي: ولا تُكلِّمْني ﴿فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أي: بشأنِهم، نَهاهُ عن الدعاءِ لَهُم لكَونِهِم ظَالِمينَ، ولأنَّ الحكمةَ أَوجَبتْ إغراقَهم ليكونُوا عِبْرةً للمعتَبِرينَ.

وكما نَهىٰ عن ذلك أَمَرَ بالحَمدِ علىٰ هَلاكِهِم والنَجاةِ منهم، ثمَّ أمَرَهُ أن يدعُوَه بدُعاءٍ هو أَنفعُ له، وهو طَلَبُ أن ينزلَه في السَفينةِ أو في الأَرضِ عندَ خروجِهِ منها ﴿مُنزَلاً مُّبَارَكاً﴾ يُبارَكُ له فيه، وأن يشفعَ الدعاءَ بالثناءِ عليه المُطابق لِمسأَلتِهِ، وهو قولُهُ: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، وقُرِئَ: «مَنْزَلاً»[1] بمعنىٰ: إنزالاً، أو مَوضعَ إِنْزالٍ.

﴿وَإِن كُنَّا﴾: ﴿إِن﴾ هي المخفَّفةُ من الثَقيلةِ، واللامُ هي الفَارقةُ بينها وبين النَافيةِ، والمَعنىٰ: وإنَّ الشَأنَ والقصّةَ كُنَّا مُبتَلينَ، أي: مُصيبينَ قوم نُوحٍ ببَلاءٍ عَظيمٍ، أو: مُختَبِرينَ بهذه الآياتِ عبادَنا لِيَعتَبِروا.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً ءَاخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَـٰسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَـٰماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ (٤٠)﴾

---

(١) قرأه أبو بكر. راجع الكشف عن وجوه القراءات للقيسي: ج ٢ ص ١٢٨.

﴿قَرْناً ءَاخَرِينَ﴾ هُم عادٌ قومُ هود؛ لأنَّه المَبعوثُ بَعد نُوحٍ. ﴿أَنِ﴾ مُفسِّرةٌ لـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أي: قُلنا لَهم علىٰ لسَانِ الرَسُول: ﴿اعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾.

﴿كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: بلقاءِ مَا فِيهَا من الحِسَابِ والجَزاءِ ﴿مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ مِنْهُ، وحُذِفَ لدلالةِ ما قَبله عليه، أو حذف الضَمير، والمعنىٰ: مِن مشروبِكُم.

﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ في موضعِ الرفع بِأنّه فاعلُ فعلٍ هو جَزاءُ الشَرطِ، كأنّه قالَ: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ﴾ وَقَعَ إخراجُكُم؟ والجملةُ الشَرطيةُ في موضعِ الرَفعِ بأنّها خَبَرٌ عن ﴿أَنَّكُمْ﴾ أو كرَّر ﴿أَنَّكُمْ﴾ للتَأْكيدِ، فَيكُونُ ﴿مُّخْرَجُونَ﴾ خبراً عن الأول، وَحَسُنَ التكريرُ بفَصْلِ ما بينَ الأولِ والثاني بالظَرفِ، أو ارتفع قولُهُ: ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ بالظَرفِ علىٰ تقدير: أيَعِدُكُمْ أنَّكم وَقْتُ مَوتِكُم وكَونُكُم ﴿تُرَاباً وَعِظَـٰماً﴾ إخراجُكُم بِكَونِ الظَرف مع ما ارتفَعَ به خبراً لـ«أن».

وقُرِئَ ﴿هَيْهَاتَ﴾ بالفَتحِ والكَسر[١]، وعن الزجَّاجِ: معناهُ: أنّ البُعْدَ لِمَا تُوعَدون[٢]، فنزَّله مَنزلةَ المَصْدرِ، ويَجوزُ أن يكونَ اللامُ لبيانِ المستَبعَدِ ما هو بعدَ التَصويتِ بكَلمةِ الاستبعادِ، كما أنّ اللاَمَ في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[٣] لبَيانِ المهيت له. ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾: ﴿هِيَ﴾ ضميرٌ لا يُعلَم ما يَعني به إلّا بمَا يَتْلُوه من بَيانِه، وأصلُهُ: إنِ الحياةُ إلّا حَياتُنا الدُنيا، ثمّ وُضِعَ ﴿هِيَ﴾ مَوضِعُ الحَياةِ لأنّ الخبرَ يَدلّ عَليها وَيُبَيِّنُها، ومثلُهُ: هيَ النفسُ ما حمّلتها تَتحمّلُ، والمعنىٰ: لا حَياةَ إلّا هذه الحَياةُ ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: يَموتُ بَعضٌ ويولدُ بَعضٌ، وينقرِضُ قرنٌ ويأتي قرنٌ.

﴿قَلِيلٍ﴾ صِفَةٌ للزَمان، كقَديمٍ وحَديثٍ في قولِكَ: ما رَأيته قَديماً ولا حَديثاً،

---

(١) وقراءة الكسر هي قراءة أبي جعفر المدني وشيبة وعيسىٰ. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٩٩، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٤٠٤.

(٢) معاني القرآن: ج ٣ ص ١٢.

(٣) يوسف: ٢٣.

وفي مَعناهُ: عن قَريبٍ، و«مَا» تَوكيدٌ بمعنىٰ: قلّة المدّةِ وقِصَرِها.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً ءَاخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَآ بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) ﴾

﴿الصَّيْحَةُ﴾ صَيحةُ جبرائيلَ عليه السلام، صَاحَ بِهِم فدمَّرهُم ﴿بِالْحَقِّ﴾ باستحقَاقِهم العَذاب أو: بالعَدْلِ مِنَ الله، وَالغُثاء: حَميلُ السَيْلِ ممَّا آسْوَدَّ وبُليَ من العُودِ والورَقِ، وشبَّه دَمارَهُم بذلكَ ﴿فَبُعْداً﴾ أي: سُحْقاً، وهو من المَصادرِ الموضُوعة مَواضِعِ أفعالِهَا، أي: بَعُدوا وَهَلَكُوا، يقالُ: بَعُدَ بُعْداً وَبعْداً، قال:

إخْوَتِي لا تَبْعُدوا أَبَداً وَبَلَىٰ واللهِ قَدْ بَعِدُوا

و﴿لِلْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ﴾ بيانٌ لِمَن دُعِيَ عليه بالبُعد كما ذكرناه في ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾. ﴿أَجَلَهَا﴾ الوقت الذي حلّ لهلاكِها. ﴿تَتْرَا﴾ فَعْلَىٰ، والألف للتأنيث، أي: أرسلنَاها مُتواترةً يتبع بعضُهم بعضاً، واحداً بعدَ واحدٍ، وقُرِئ: «تترىً» بالتَنوين[١]، والتاء بدل[٢] الواو، وأضاف «الرسل» إلىٰ نفسِهِ هنا وإلىٰ أُممِهم

(١) قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون ج ٢ ص ٥٥٩.

(٢) في نسختين زيادة: «من».

في قولِهِ: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ﴾ (١) لأنَّ الإضافةَ تكونُ بالملابسةِ، والوصولُ يلابسُ المُرسِل والمُرسَل إليه جَميعاً ﴿فَأَتْبَعْنَا﴾ الأُمم والقُرون ﴿بَعْضَهُم بَعْضاً﴾ في الإِهلاك ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ أخباراً يَسمرُ بها، والأَحَادِيثُ: اسمُ جمعٍ للحَديث، ويكونُ جمعاً أيضاً للأُحدوثة التي هي مثلُ الأُعجُوبةِ والأُضحوكَةِ، وهي ما يَتَحدّثُ به الناسُ تَعجُّباً، وهو المرادُ هنا.

والمرادُ بـ«السُّلْطَانِ الْمُبينِ»: العَصَا؛ لأنَّها كانت أُم آيات موسىٰ، وقد تعلَّقت بها معجزاتٌ شتَّىٰ، كانفلاق (٢) البَحرِ وانفجارِ العيُونِ منَ الحَجَر يَضربُهما بها، فجُعلت كأنَّها لَيست بَعضَها، فَعطفتْ عليها كقوله: جبرائيل وميكائيل، ويجوزُ أن يُرادَ به الآياتُ أَنفُسها، أي: هي آياتٌ وحُجَّةٌ ظَاهرةٌ بيِّنةٌ.

﴿قَوْماً عَالِينَ﴾ أي: متكبِّرين، من قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (٣) أي: متطاولينَ على النَاس بِبَغْيِهم وظُلْمِهم.

﴿لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ لإنسانَين خَلْقهما مثلُ خلْقنا، والبشرُ يكونُ واحِداً وجَمعاً، و«مثلُ» و«غيرُ» يُوصف بهما الاثنانُ والجَمعُ والمذكّرُ والمؤنّثُ، كقولِهِ: ﴿إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ﴾ (٤) ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ (٥) ويقالُ أيضاً: هما مِثْلاه، وهم أمثالُهُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُوْنِ ٱللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ (٦). ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعني: بني إسرائيلَ ﴿عَٰبِدُونَ﴾ أي: مُطيعُونَ لَنا طاعةَ العَبدِ لمولاه، أي: أَعطَينا قَومَ مُوسَى التَوراةَ لكي يَهتدوا إلىٰ طريقِ الحقّ، ويعملُوا بشَرائعها.

﴿ءَايَةً﴾ أي: حُجّةً علىٰ قُدرَتِنا على الاختراعِ، فهو مثلُ قولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا

(١) الأعراف: ١٠١، يونس: ١٣، إبراهيم: ٩، الروم: ٩، فاطر: ٢٥، غافر: ٨٣.
(٢) في نسخة: «كانقلاب».
(٣) القصص: ٤.
(٤) النساء: ١٤٠.
(٥) الطلاق: ١٢.
(٦) الأعراف: ١٩٤.

﴿وَٱبْنَهَا ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ (١) وذلكَ أنّ الآيةَ في كليهِمَا واحدةٌ، وهيَ: أنّ عيسىٰ عليه السلام خُلِقَ مِن غيرِ ذكَرٍ، ومَريمُ حَملَتْ من غيرِ فَحْلٍ ﴿وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ أي: وجَعَلْنا مكانَهما ومأواهُمَا أَرضاً مُرتفِعَةً، وهي أرضُ بيتِ المَقْدِسِ، فإنَّها كَبِدُ الأرضِ، وأقربُ الأرضِ إلى السماءِ، وقيلَ: فَلسطينُ والرَملةُ (٢)، وقيلَ: هي حيرةُ الكوفةِ وسوادُها (٣)، وَالْقَرَارُ: المُستَقَرُّ من أرضٍ مستَويةٍ منبسطةٍ. وعن الباقرِ عليه السلام والصادقِ عليه السلام: «الْقَرَارُ: مسجدُ الكوفة» (٤). وَالْمَعِينُ: الفُراتُ، وأصلُهُ الماءُ الظاهرُ الجَاري علىٰ وَجهِ الأرضِ، واختُلِفَ في زيادَةِ ميمِهِ، فقيلَ: إنَّه مفعُولٌ مِن عَانَه: إذا أدركه بِعينه (٥)، وقيلَ: إنَّه فَعيلٌ من الماعُون وهو المنفعة (٦)، أي: نَفّاعٌ لظهُورِهِ وجَرْيِهِ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦)﴾

قيلَ: إنَّه خِطابٌ لنبيِّنا صلى الله عليه وآله (٧)، وفيه إعلامٌ بأنَّ كلَّ رسُولٍ في زَمانِهِ مأمورٌ

(١) الأنبياء: ٩١.
(٢) وهو قول أبي هريرة والحسن. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ٢١٨.
(٣) قاله القمي علي بن ابراهيم في تفسيره: ج ٢ ص ٩١.
(٤) كامل الزيارات لابن قولويه: ص ٤٨، معاني الأخبار للصدوق: ص ٣٧٣.
(٥) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٤ ص ١٥.
(٦) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٩٠.
(٧) وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسدي والكلبي. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٣١٠، وتفسير الآلوسي: ج ١٨ ص ٤٠.

بذلك وموصىً به، والمرادُ بـ﴿الطَّيِّبَٰتِ﴾: ما طَابَ وَحَلَّ، وقيلَ: هنا كلُّ ما يُستطابُ ويُستلذُّ من الأكْلِ والفواكِه[١]، ويَشهدُ لذلكَ مجيئُه في إثرِ قولِهِ: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، ويجوزُ أن يكونَ وَقْعُ هذا الإِعلامِ عندَ إيواءِ عيسىٰ عليه السلام ومَريمَ إلىٰ الرَبْوةِ، فذُكِرَ علىٰ سَبيلِ الحكَايةِ، أي: آويناهُما وقُلْنَا لَهما هذا، فعلَّمَهما أنَّ الرُسلَ كلَّهم خُوطِبُوا به، فكُلَا مِمَّا رزَقْناكما وٱعمِلَا صَالحاً اقتداءً بالرُسُلِ.

وقُرئ: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ بالكسر على الاستئنافِ، «وأَنَّ» بالفَتحِ[٢] بمعنىٰ: ولأنَّ، «وَأَنْ» المخفَّفةُ من الثَقيلةِ[٣]، و﴿أُمَّتُكُمْ﴾ مرفُوعةٌ مَعَها.

وقرئ: ﴿زُبُرًا﴾ جَمْعُ زَبُور، أي: كُتُباً مختلفةً، يعني: جَعلُوا دينَهم أدياناً، وقُرئ: «زُبَراً»[٤] أي: قِطَعاً، استُعِيرَتْ من زُبرِ الفضّةِ والحَديدِ، و﴿كُلُّ﴾ فرقةٍ من فِرَقِ هؤلاء المختَلِفينَ الذين تَقَطَّعُوا دينَهم فَرِحٌ ببَاطلِهِ، معتقِداً أنّه علىٰ الحقِّ، رَاضٍ بمَا عنده. ﴿فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ أي: فيما هُم مغمُورونَ فيه من جَهْلِهم وعَمايَتِهِمْ، وأصلُ الغَمْرةِ: الماءُ الذي يغمرُ القَامَةَ، أو: شبَّههم الله باللاعبينَ في الغَمْرةِ لِمَا هُم عليه منَ البَاطلِ، قالَ ذُو الرمّةِ:

كَأَنَّني ضَاربٌ في غَمرةٍ لَعِبُ[٥]

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلىٰ أن يُقْتَلُوا أو يموتُوا، أي: يحسبونَ هذه الأمداد مُسَارَعةً

---

(١) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ١٩٠.

(٢) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٤٦.

(٣) وهي قراءة ابن عامر. راجع المصدر السابق.

(٤) قرأه ابن عامر والأعمش وأبو عمرو. راجع تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٤١٥، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٤ ص ٤٠٨.

(٥) وصدره: لَيالِيَ اللَهْوِ يَطْبِيني فَأَتبعُهُ، ومعناه واضح. انظر ديوان ذي الرمّة: ص ٢٧.

﴿لَهُمْ فِى الخَيْرَٰتِ﴾ ومُعاجَلةً بالثَواب قَبلَ وقتِه، وليسَ ذلك إلّا ٱستدراجاً لـهم إلى الهَلاكِ، و﴿بَلْ﴾ استدراكٌ لقولِهِ: ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾ أي: بَلْ هُم أشباه البَهائِمِ لا فِطْنة لَهم حتّىٰ يتأمَّلوا ويتفكَّرُوا هو استدراجٌ أم مُسَارعةٌ في الخيرات، والراجِـعُ مـن خَبَرِ «أنَّ» إلىٰ اسمه مَحْذوفٌ، والتَقديرُ: نُسارِعُ به.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِم لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ (٦٠) أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ (٦١) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَـدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ (٦٤) لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُـنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَـٰمِراً تَهْجُرُونَ (٦٧)﴾

﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ أي: يعطُونَ ما أُعطُوا من الزكاةِ والصَدَقةِ، وقيلَ: أعمالُ البرِّ كلِّها(١) ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ الصادقُ عليه السلام: «أي: خَائِفةٌ أن لا يُقبلَ منهم»(٢).

وعنه عليه السلام: «يُؤْتي ما آتىٰ وهو خَائِفٌ راجٍ»(٣).

وعن الحَسَنِ: المؤمنُ جَمعَ إحساناً وشفقةً، والمنافقُ جَمعَ إساءةً وأمْـناً(٤)، لأنَّهم أو بـ﴿ـأنَّهم إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ وحُـذِفَ الجَـارُ، أي: لإيـقانِهم بأنّـهم

---

(١) قاله ابن عباس وابن جبير. راجع البحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٤١٠.

(٢) روضة الكافي: ص ١٩٢ ح ٢٩٤.

(٣) كتاب الزهد للحسين بن سعيد الأهوازي: ص ٢٤ ح ٥٤.

(٤) حكاه عنه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٣٧٧.

راجِعُونَ إلى الله وَجِلَتْ قلوبُهم، إذ لم يأمَنُوا التَفريطَ.

﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِى الخَيْرَاتِ﴾ أي: هُم الَّذين يُبادرونَ إلى الطَاعَاتِ رَغبةً منهُم فيها ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أي: فاعِلُونَ السَبقَ لأَجلِها، أو: سَابقُونَ النَاسَ لأجلها، أي: وهذا الَّذي وُصِفَ به الصَالحون ليسَ بخارجٍ من حدّ الوُسْعِ والطاقةِ، وكلّ ما عَملَه العبادُ من التكاليفِ مُثبتٌ عندَنا في ﴿كِتَٰبٍ﴾ نَاطِقٍ بالحقّ، وهو صَحيفةُ الأعمالِ يَقرؤون فيه[1] يومَ القيامةِ ماهُو صدُقٌ وعَدْلٌ، لا زِيادةَ فيهِ ولانُقصَان، يُوَفَّوْنَ أُجُورِ أَعمالِهِم ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا ينقصُ من ثَوابِهِم ولا يزداد في عقابِهم، ولا يُؤاخَذون بذَنْبِ غيرِهِم.

﴿بل﴾ قُلُوبُ الكفّارِ ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ أي: غفلةٍ غَامرةٍ لَها ﴿مِنْ هذَا﴾ أي: من هذا الكتابِ المُشتملِ عَلى الوَعدِ والوَعيدِ وهو القرآن، أو: من هذا الّذي عليه هؤلاء الموصُوفون من المؤمنينَ ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾ مُتجَاوزةٌ لـ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: لِمَا وُصِفَ المؤمنونَ به ﴿هُمْ لَهَا﴾ معتادونَ، وبها مشتَغِلُونَ.

﴿حَتَّىٰ﴾ يأخذهُم اللهُ ﴿بالعَذاب﴾: و«حتّىٰ» هذه هي التي يُبتدأ بعدها الكلامُ، والعَذَابُ: قَتلُهُم يوم بدر، أو: الجُوعُ حين دَعَا عليهم رسول الله ﷺ فقال: «اللّٰهُمّ اشدُدْ وطأَتَكَ علىٰ مُضَرَ، واجْعَلْهَا عليهم سنين كسِنيّ يوسف عليه السلام[2]» فابتَلاهُم الله بالقَحْطِ حتّىٰ أكلُوا الجِيَفَ والكِلابَ والعظامَ المحترقَةَ والقدَّ والأولاد «تَجأَرُونَ» أي: تَصيحونَ وتَصرخُون باستغاثةٍ، أي: يقالُ لهم حينئذٍ: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟﴾ فإنَّ الجُؤَارَ غيرُ نَافعٍ لَكُم ﴿إِنَّكُمْ مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: لا تُغاثُون[3] ولا تُمنعون مِنَّا، أو: من جهَتِنَا لا يَلحقُكُم نَصْرٌ ومَعونَةٌ.

---

(١) في نسخة: «منه».
(٢) انظر تفسير القرطبي: ج ١٢ ص ١٣٥.
(٣) في نسخة: «لا تعاونون».

والضَميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ للبَيتِ الحَرامِ أو للحَرَمِ، وَالباءُ يـتعلَّقُ بـ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ كانُوا يستَكبرون[١] على الناسِ ويفخَرون بأنّهم وُلاتُهُ، أو يكُونُ الضميرُ لا يأتي لأنَّها في مَعنىٰ «كتابي»، ومعنىٰ آستكبارِهِم بالقُرآن: تكذيبُهُم به استكباراً، ضمَّن ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ معنىٰ «مكذِّبين» فعُدِّي تعديته، أو: استكبروا بسببِهِ فَلَمْ يـقبلُوه، وعلىٰ هذا فالوقْفُ يكونُ علىٰ ﴿به﴾، ويجوزُ أن يتعلَّقَ البـاءُ بـ﴿سـامراً﴾ أي: يستمرُّونَ بالطَعنِ في القـرآنِ وتَسـميتُه سِـحْراً و[٢] شِـعْراً، وبسَبِّ النـبيِّ ﷺ، والسَامرُ: القومُ الذين[٣] يَسْمَرُونَ ليلاً، ويجوزُ أن يتعلَّقَ بـ﴿تَهۡجُرُونَ﴾ أيضاً، أي: تهذُّونَ بذلكَ، وعلىٰ هذين الْوَجْهَين يجوزُ الوَقْفُ علىٰ ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ﴾، وقُـرِئَ: «تُهْجِرُونَ» بضمِّ التاءِ[٤]، من أهْجَرَ الرجُلُ في مَنْطقِهِ أي: أفْحَشَ، والهُجْرُ بالضمّ: الفُحْشُ، و﴿تَهۡجُرُونَ﴾ بالفَتْحِ يجوزُ أن يكونَ معناهُ: تَهجُرونَ آياتي وكتَابي، لا تَنقادونَ له وتكذِّبونَ به، من الهَجْرِ بالفَتْح.

﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٦٨) أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ (٧٠) وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ (٧١) أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٧٣) وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ (٧٤) وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ

---

(١) في نسخة زيادة: «به». (٢) في نسخين: «أو» بدل «و».

(٣) ليس في نسخة كلمة «الذين».

(٤) قرأه نافع. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٦٠.

لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِالعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَـذَابٍ شَـدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧)﴾

﴿القَوْل﴾ القُرآنُ، يقولُ: ﴿أَفَلَم﴾ يتدبَّروا القُرآنَ ليَعرفُوا أنّه الحقُّ الدالُّ علىٰ صِدْقِ نبيِّنا، بل أجاءَهم ﴿مَا لَمْ يَأْتِ ءَاباءَهُمُ﴾ فلذلكَ استَبدعُوه[١] وأنكَروه، كما قَالَ: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً مَّا أُنْذِرَ ءَابَاؤُهُمْ﴾[٢]، أو: ليخافوا عندَ تَدبُّرِ آياتِهِ مثل ما نَزَلَ بمَن قَبلَهُم من المكذّبين ﴿أَمْ جَآءَهُمْ﴾ من الأمن[٣] ﴿مَا لَمْ يَأْتِ ءَاباءَهُمُ﴾ حيث خافُوا الله فآمنوا به وأطاعُوه، وآباؤهم: إسماعيلُ وأعقابُه.

وعن النبيِّ ﷺ: «لا تَسبُّوا مُضَرَ ولا رَبيعةَ فإنّهما كانَا مُسلِمَيْنِ، ولا تسبُّوا حارثَ بن كَعْبٍ ولا أسد بن خزيمَة ولا تَميم بن مرَّة فإنَّهم كانُوا على الإسلام، وما شَكَكتُم منه من شَيءٍ فَلا تشكّوا في أنَّ تُبَّعاً كانَ مُسلماً»[٤].

﴿أمْ لَمْ يَعْرِفُواْ﴾ محمداً وشَرَفَه في نَسَبِهِ وصِدْقَ لسانِهِ وأمانَتِهِ، وأنّه كما قالَ أبو طالب في خطبته لنكاح خديجة: لا يُوزنُ برجلٍ إلَّا رَجَح.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: جنونٌ وَهُم يَعلَمُونَ أنَّه بَريءٌ منها، وأنّه أَرجَحُ الناسِ عَقْلاً، وأجلُّهُم قَدراً، وأتقنُهُم[٥] رأياً، ولكنّه جاءَهُم بِمَا خَالفَ أهواءَهُم، ولَمْ يوافقْ ما أَلِفوهُ ونَشَأوا عليه، ولم يمكنْهم دفعهُ[٦]؛ لأنَّه الحقُّ المُبينُ، فقولُوا على البَهتِ من النسْبَةِ إلى الجنونِ والسحرِ والشِعْر.

ثم عظَّمَ سبحانُه شأنَ الحقّ بأنّ السَماواتِ والأرضَ ومَن فيهنّ لم يقُمْ إلَّا بِهِ

(١) في نسخة: «استبعدوه».
(٢) يس: ٦.
(٣) في نسختين: «الأمر».
(٤) فتح الباري لابن حجر: ج ٧ ص ١٤٦.
(٥) في نسخة: «وأوثقهم».
(٦) في نسختين: «رفعه».

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ... أَهْوَآءَهُمْ﴾ لانقلبَ بَاطلاً، وَلَذَهَبَ ما يقومُ بـه العـالَمُ، ويـجوزُ أن يكونَ المرادُ بالحقّ الإِسلامُ، أي: وَلَو اتّبعَ أهواءَهُم وٱنـقلَبَ شِـرْكاً لأَهـلَكَ اللهُ العالَمَ، ولَجاءَ بالقيامةِ ولم يؤخِّرْهُ، وعن قَتادةَ: الحقُّ هو الله تعالى[١]، أي: لَو اتَّبعَ اللهُ أهواءَهُم وأَمَرَ بالشِرْكِ لمَا كانَ إلهاً ﴿أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أي: بالكتابِ الَّذي هو ذِكْرُهُم، أي: شَرَفُهُم وَصيتُهُم وفخرُهُمْ، أو: بالذِكْرِ الذي كانُوا يَتَمنّونه ويـقولُون: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً مِنَ الأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[٢].

وأَصْلُ الخَرجِ والخَرَاجِ وَاحِدٌ، وهو ما تُخرجُهُ إلى الإِمامِ و[٣] والعامل مِن أُجرةِ أرضِك، والخَرجُ أخصّ من الخَراجِ، يعني: لم ﴿تَسْأَلُهُمْ﴾ علىٰ هدايتِكَ لَهم قَليلاً من عَطاءِ الخَلْقِ، فالكَثير[٤] من عَطاءِ الخَالقِ خَيرٌ.

أَلْزَمَهُم سبحانُه الحُجّةَ في هذه الآياتِ بأنّ الذي أَرسلَهُ إليهم رَجلٌ مـعروفٌ أمرُهُ، مخبورٌ علانيتُه وسرُّه، صالحٌ لأَنْ يُصطَفَىٰ للرسالةِ، جَديرٌ به؛ لأنّه لم يُعهَدْ منه إلّا الصِدقُ ووفورُ العقْلِ والشَهامةُ والأَمانةُ حتّىٰ يَدَّعي النبوّةَ بباطلٍ، ولم يجعلْ ذلكَ ذريعةً إلى ٱستعطافِ أَموالِهم، ولَم يَدْعُهُم إلّا إلى الصِرَاطِ السويِّ الذي هـو دينُ الإِسلامِ، هذا مَع إبرازِ المكنونِ من أدوائهم، وهو إخلالُهُم بالتدبّرِ، وشَـغَفُهم بتَقليدِ آباء الضَلالِ من غَيرِ بُرهانٍ، وتعلُّلُهم بِأَنّه مَجنونٌ بعدَ ثَباتِ تَصديقِهِ من الله بالمعجزاتِ والدَلالاتِ، وإعراضِهِم عمَّا فيه حظُّهُم من الذِكْرِ والشَرَفِ ﴿لَنَـٰكِبُونَ﴾ أي: عَادِلُونَ عن هذا الصِراطِ المذكُورِ.

ولمّا أَسلَمَ ثُمامةُ بن أثال الحَنَفي ولَحِقَ باليمَامَةِ وَمنَعَ المِيرَةَ من أهلِ مكّـة،

---

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ١٩٦.

(٢) الصافات: ١٦٨ و١٦٩.

(٣) في نسخة: «أو» بدل «و».

(٤) في نسخة: «فالكبير».

وأخَذَهُم الله بالسنينِ حتّىٰ أكلُوا العِلْهِزَ ـ وهو دمُ القِرادِ مع الصوف ـ جاءَ أبو سفيان بن حَرب إلىٰ رسول الله ﷺ فقالَ له: أنشدك بالله والرَّحم، ألَسْتَ تزعَمُ أنّك بُعِثْتَ رَحمةً للعالمينَ؟ فقالَ: «بلىٰ»، قالَ: قَتَلْتَ الآباءَ بالسيفِ، والأبناءَ بالجُوعِ. والمَعنىٰ: لو كَشَفَ اللهُ تعالىٰ عَنهُم هذا الضُرَّ وهو الهزالَ والقَحْطَ الذي أصابَهُم برحمتِهِ عَليهم وَوَجَدُوا الخَصبَ لَرجعُوا إلىٰ ما كانُوا عليه من الاستكبار، ولَتمادُوا في غِوايتِهِم يَتَردّدونَ. وٱستشهدَ علىٰ ذلكَ بأنّا أخذْناهُم بالسيُوفِ، وبمَا جَرَىٰ عَلَيهِم يومَ بَدْرٍ من قَتْلِ صَناديدهم وأسْرِهِم، فما وُجِدَتْ منهم بعدَ ذلكَ ٱستكانةٌ ولا تَضَرُّعٌ، حتّىٰ فَتَحْنَا عليهم بابَ الجُوعِ الذي هو آلَمُ[1] العَذابِ وأشدُّ من الأَسْر والقَتْل، فَأُبْلِسُوا السَاعةَ وخَضَعتْ رِقَابُهُم، وجاءَ أعتاهُم في العِنادِ والاستكبارِ يَستعطفُكَ، أو: مَحَنَّاهُمْ بكلِّ محنةٍ من الجُوعِ والقَتلِ فما رُئِيَ مِنهُمْ لِينُ قيادٍ وَهُم كذلكَ حتّىٰ إذا عُذِّبوا بنَارِ جهنّمَ فحينئذٍ «يُبْلِسُونَ»، كقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[2]، والإبلاسُ: اليأسُ من كلّ خيرٍ، وقيلَ: هو السُكوتُ مع التَحيُّرِ[3]، وَٱسْتَكَانَ:[4] استفعلَ من الكَونِ، أي: انتقلَ من كَونٍ إلىٰ كونٍ، كاستحالَ: إذا ٱنتقلَ من حَالٍ إلىٰ حَالٍ، أو: هو ٱفتعلَ من السكُونِ أُشبِعَتْ فَتحةُ عينِهِ، كما قيل: ... بمنتزاح[5].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا

---

(١) في نسخة: «أطمّ». (٢) الروم: ١٢.

(٣) في نسختين: «التحسير». وهو قول العجّاج على ما في تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٣٠٢.

(٤) في نسخة زيادة: «هو».

(٥) من قول ابراهيم بن هرمة يرثي ابنه:

فأنتَ من الغَوائل حين تُرمىٰ وعَن ذمّ الرجالِ بمنتَزَاحِ

أنظر الخصائص لابن جنّي: ج ٢ ص ٣١٦ وج ٣ ص ١٢١.

تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَـٰماً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨٣) قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ (٩٠)﴾

إنّما خصَّ ﴿ٱلسَّمْعَ والأَبْصَـٰرَ والأَفْئِدَةَ﴾ لأنّه يَتعلّقُ بها من المَنافعِ الدينيّةِ والدنيويّةِ ما لا يَتعلّق بغيرِها، وإحدىٰ مَنافعها أن يَستعملُوها في آياتِ الله تعالىٰ وأفعالِه، فَيستدلُّوا بذلكَ علىٰ توحيدِهِ، ويشكُروا نِعَمَهُ، فإنَّ مقَدّمةَ الشُكْرِ للنعمةِ الإقرارُ بالمُنعِمِ بها[1]، وأَن لا يُجْعَلَ مَعَه شَريكٌ، أي: ﴿تَشْكُرُونَ﴾ شُكْراً قَليلاً، و«ما» مزيدةٌ للتأكيدِ.

ومعنىٰ ﴿ذَرَأَكُمْ﴾: خَلَقَكُم وبَثَّكم بالتَناسلِ ﴿وَإِلَيْهِ﴾ تُجمَعُون بعد تَفرّقكم.

﴿وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: هو المختَصُّ به، وهو يَتولّاه ولا يقدر علىٰ تَصريفِهما غيرُهُ، وقُرئ: «أَفَلَا يَعْقِلُونَ» بالياء[2].

﴿بَلْ قَالُوا﴾ أي: قالَ أهلُ مكّة كَمَا ﴿قَالَ الأَوَّلُونَ﴾ المنكِرون للحشر.

(١) في نسخة: «لهم».

(٢) قرأه أبو عمرو. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٠٠.

وَالأَسَاطِيرُ: جمعُ أُسطُورة، وهي ما كَتَبَه الأوّلُونَ وسطَّروه ممّا لا حقيقة لَه.

ثمّ ٱحتجَّ عليهم بمَا فيه تَجهيلٌ لَهم، والمرادُ: أجيبوني عمّا استعملتُكم فيه (١): إن كانَ عندَكُم فيه علمٌ ﴿أفَلَا﴾ تَتَذَكَّرُونَ فَتعلَموا أنَّ مَن فَطَرَ الأرضَ وَمَنْ فيها من العقلاء وغيرهم كانَ قادِراً على الإعادةِ إذ ليسَ ذلكَ بأعظم منه، وكانَ حقيقاً بأن لا يُشْرَكَ بِهِ في الإلهيَّة بعضُ مخلوقاتِهِ.

قُرِئَ الأوّلُ ﴿لله﴾ باللّام، وفي الآيتينِ بعده باللّام وغيرِ اللّام (٢)، لأنَّ قولَكَ: «من ربُّه» و«لمن هو» في معنىً واحد ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أَفَلا تخافونَه؟ فلا تَشرِكُوا بِهِ.

يقال: أجارَ الرجلُ فلاناً علىٰ فلانٍ أي: أَغاثَه منه ومنعه، أي: مَن يجيرُ مَن يشاءُ علىٰ مَن يشاء ولا يُجيرُ عليه أَحدٌ من أرادَه بسوءٍ. ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي: فكيفَ تُخْدَعُون عن تَوحيدِهِ ويُموَّه عليكم؟! كما قالَ امرؤُ القَيسِ:

أرانَا مَوضَعِين لِحتْمِ غَيْبٍ ونَسْحَرُ بالطَعَامِ وبالشَرَابِ (٣)

أي: نُخْدَعُ، والخَادِعُ هو الشَيطانُ، أو الهوىٰ. ﴿بَلْ﴾ جِئْنَاهُم ﴿بِالْحَقِّ﴾ بأنّ الشِّركَ باطلٌ، ونسبةَ الولدِ إليه محالٌ ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ بادِّعائِهِم الشِّرْك ونسبَتِهِم إليه الولَدَ.

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهِۭ بِمَا خَلَقَ ولَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٩٢) قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ(٩٣)

(١) في نسختين: «استعلمتكم منه».

(٢) وممّن قرأ الأُخريتين بغير اللام: أبو عمرو ويعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٦٠.

(٣) انظر ديوان امرئ القيس: ص ٧٢ وفيه «لأمر» بدل «لحتم».

رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ (٩٥) ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)﴾

﴿إذاً﴾ تكونُ جزاءً وجَواباً لكلامٍ مُقدَّمٍ، وها هُنا شَرطٌ محذُوفٌ، والتقديرُ: ولَو ﴿كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ أي: لانْفَرَدَ كلُّ واحدٍ من الآلهةِ بما خَلَقَه من الخَلْقِ واستبدَّ به، ولرأيتُم مَلِكَ كلِّ واحدٍ من الآلهةِ متميّزاً من مَلِكِ الآخَرين، ولَغَلَبَ بعضُهم بَعْضاً، كما أنّ ملوكَ الدنيا يتغالَبُون ويَطلبُ بعضُهُم قَهرَ بعضٍ، وممالِكُهُم مُتَمايزَةٌ، فحينَ لَم تَروا أثَراً لِتَمايُزِ المَمَالكِ والتَغالُبِ فاعلموا أنّه إلـهٌ واحدٌ منزَّهٌ ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الأولادِ والأنْدادِ.

قرئ: ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ بالجرّ صفةً لـ«الله»، وبالرفع[1] خبرَ مبتدأ محذوف.

والنون و«ما» مؤكّدتان، «لأنْ» أي: إن كانَ لابدّ أن ﴿تُرِيَنِّى﴾ ما وُعِدُوه من العَذَابِ في الدنيا أو في الآخرةِ فَلاَ تجعَلْني فيهم، وأَخْرِجْني من بينهِم إذَا أَرَدْتَ إحلالَ العذَابِ بِهِم. وعن الحَسَنِ: أَخْبَرَه الله تعالىٰ أنّ له في أُمّته نقمةً، ولم يُخبرْه أَفي حياتِهِ هي أَم بعدَ وفاتِهِ، فأمرَه أن يدعُو بهذَا الدُعاءِ[2].

وعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه، وجابر بن عبدالله: أنّه ﷺ قال في حَجَّة الوداعِ وهو بِمِنَىٰ: «لا تَرْجِعُوا بعدي كُفّاراً يَضرب بعضُكم رقابَ بعضٍ، وأيْمُ الله

(١) قرأه نافع وأبو بكر وحمزة والكسائي. راجع كتاب العنوان في القراءات: ص ١٣٧.
(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٠١.

لَئِن فَعلتُموها لَتَعْرِفُنِّي في كتيبةٍ يِضاربونَكُم»، فغُمز من خَلْفِهِ مَنْكِبُهُ الأيسر، فالتفتَ فقال: «أو عَليٌّ»، فنزلت الآيات (١).

وقولهُ: ﴿رَبِّ﴾ مرّتين قبلَ الشرطِ وقبلَ الجَزاءِ، حَثٌّ علىٰ فَضلِ تضرّعٍ وجوارٍ ﴿وَإِنَّا ... لَقَـٰدِرُونَ﴾ علىٰ إنْجاز ما نَعِدُهُم، ولكن نُنْظِرُهُم ونُمْهِلُهُم.

﴿ٱدْفَعْ﴾ السيّئةَ بالحُسنىٰ، وهو الصفحُ عَنها ومقابلتُها بالإِحْسَانِ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا﴾ يذكرونَه مِن أَحوالِكَ بخلافِ صفتِها أو (٢) بوَصفِهِم وَسُوءِ ذكرِهِم، وأقدَرُ علىٰ جَزَائِهِم.

﴿أَعُوذُ بِكَ﴾ أي: أَعتصِمُ بكَ ﴿مِنْ﴾ نَزَغاتِ ﴿ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ والهَمزُ: النخسُ، ومنه: مهمازُ الرائضِ، والشَياطينُ يحثُّونَ الناسَ على المعاصيَ كَما تهمزُ الراضَةُ الدَوابَ يَحثّونَها على المَشْيِ، ونحوُهُ: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ (٣)، فأمَرَ عَزَّ اسمُهُ بالتعوُّذِ من نخساتِهِم بلَفْظِ المتضرِّعِ إلىٰ ربِّه المكرِّر لندائِهِ، وبالتعوّذِ من أن يَحْضُرُوه أَصْلاً ويشْهَدوه، وعن ابن عبَّاسٍ: عندَ تلاوةِ القُرآنِ (٤)، وعن عكرمة: عند النزع (٥)؛ والأظهرُ أنَّه في الأَحْوالِ كلِّها حتَّىٰ يَتَعلَّق بـ﴿يَصِفُونَ﴾ أي: لا يَزالونَ علىٰ سُوءِ الذكْرِ إلىٰ هذا الوقت.

﴿ٱرْجِعُونِ﴾ خطابٌ للهِ تعالىٰ بلفظِ الجَمع للتَعظيم، إذا أيقَنَ بالمَوتِ تَحسَّرَ علىٰ ما فرَّط فيهِ فَسَألَ ربَّه الرَجْعةَ وقالَ: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَـٰلِحًا﴾ في الذي ﴿تَرَكْتُ﴾ ـهُ من المَالِ، وفيما ضَيَّعته منَ الطَاعَاتِ، وقيلَ: هو في الزكاة (٦).

---

(١) شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني: ج ١ ص ٤٠٤.
(٢) في نسخة: «أي» بدل «أو». (٣) مريم: ٨٣.
(٤) حكاه عنه أبو السعود في تفسيره: ج ٦ ص ١٥٠.
(٥) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٠٢.
(٦) وهو قول الصادق عليه السلام. رواه عنه الكليني في الكافي: ج ٣ ص ٥٠٣ ح ٣، والصدوق في ثواب الأعمال: ص ٢٨٠.

وسُئل الرضاعليه السلام: أيَعرفُ القَديمُ سبحانَه الشَيءَ الذي لَم يكنْ أنّه لو كانَ كيفَ كانَ يكونُ؟ فقال: «أَمَا قَرأتَ قولَه عزَّ اسمُهُ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ وفي موضعٍ آخَرَ: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فَقَد عَرفَ الشيءَ الذي لَم يكنْ ولا يكون أن لو كانَ كيفَ كانَ يكونُ، وقولُه سبحانُه [حين] حكىٰ قولَ الأشقياءِ: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّيَ أَعْمَلُ صَـٰلِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَـائِلُهَا﴾ قـالَ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ فَقَد عَلِمَ الشيءَ الذي لم يكنْ أن لو كانَ كيفَ كانَ يكون»[1].

و﴿كَلَّآ﴾ معناهُ: رَدْعٌ عن طَلَبِ الرَجْعةِ، وإنكارٌ وٱستبعادٌ ﴿إِنَّهَا كَـلِمَةٌ هُـوَ قَائِلُهَا﴾ بلسانِهِ لا حقيقة لها، أو: هو قائِلُها وحدَه لا تُسمعُ منه ﴿وَمِـن وَرَآئِـهِم بَرْزَخٌ﴾ والضَميرُ للجَماعةِ، أي: أمَامهم حَائلٌ وحَاجزٌ بينَهم وبينَ الرَجْعةِ إلىٰ يومِ البَعثِ منَ القُبور.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَـوَٰزِيـنُهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَآلِّينَ (١٠٦) رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ (١٠٧) قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِـيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَـٱغْفِرْ لَـنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١٠٩) فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠)﴾

(١) رواه العياشي في تفسيره على ما حكاه في المجمع: ج ٧ ص ١١٧.

﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لا يتواصَلُونَ بالأنْساب ولا يتَعاطفُون بها مَع معرفةِ بعضِهم بعضاً، أو: يتفرّقُون مُعاقَبين ومُثابين.

وعن النبيِّ ﷺ: «كلُّ حَسَبٍ ونَسَبٍ مُنقَطعٌ يومَ القيامةِ إلّا حَسَبي ونَسَبِي»[١].

﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا يَسألُ بعضُهُم بَعضاً عن حالِه وَخَبرِه؛ لشُغْلِ كلِّ واحدٍ منهُم بنفسِهِ، وأمّا قولُه: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾[٢]، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾[٣] فقَد سُئل عنه ابنُ عبّاس فقال: هذه تَاراتُ يوم القيامةِ[٤]، يعني: أنّ للقيامةِ أحْوالاً مختلفةً يتَساءَلُون ويتَعارفُون في بَعضِها، ويَشغَلُهم عِظَمُ الْهَوْلِ عن المُساءَلةِ في بعَضِها.

وَالْمَوَازِينُ: جمعُ موزُون، وهي الموزُونات من الأعمالِ التي لَها قَدْرٌ ووزنٌ عند اللهِ، وقولُهُ: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾ بدلٌ من ﴿خَسِرُوٓاْ أَنْفُسَهُمْ﴾، أو يكونُ خَبَراً لـ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ بعد خَبَرٍ، أو خَبَرَ مبتَدأ محذُوف. ﴿تَلْفَحُ﴾ أي: يُصيبُ وجُوهَهُم لَفحُ النار، وعن الزجّاج: اللَّفحُ والنَّفحُ واحدٌ، إلّا أنّ اللفحَ أشدّ تأثيراً[٥]. و«الْكُلُوحُ» أن تَتَقلَّصَ الشفَتان عن الأسنانِ.

﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا﴾ أي: مَلَكتْنَا، من قولِهِم: غَلبني فلانٌ على كذا إذا أخذه منه، وقُرئ: ﴿شِقْوَتُنَا﴾ وَ«شَقَاوَتُنَا»[٦] ومعناهُما واحدٌ، وهو سوءُ العَاقبةِ الذي استَحقّوه لسوءِ أعمالِهم. ﴿اخْسَـُٔواْ فِيهَا﴾ أي: ذِلُّوا فيها وانْزجِرُوا كما تَنزجِرُ الكلابُ إذا زُجِرَت، يقال: خَسِئَ الكلبُ فَخَسَأَ، لازمٌ ومتعدٍّ ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِـ﴾ـي

(١) أخرجه ابن سعد في طبقاته: ج ٨ ص ٣٤٠.
(٢) يونس: ٤٥. (٣) الصافات: ٢٧.
(٤) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٣١٨.
(٥) معاني القرآن: ج ٤ ص ٢٣.
(٦) قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٦١.

في رَفْعِ العَذابِ فإنَّه لا يُرفَع.

﴿سِخْرِيّاً﴾ قُرِئَ بضمّ السين(١) وكسرِها، وهو مصدرُ سَخِرَ كالسَخَرِ، إلّا أنّ في الياءِ زيادةَ قوةٍ في الفعلِ، وقيلَ: إنَّ المكسورَ من الهُزْءِ، والمضمومَ من السُخْرَةِ والعبُوديّةِ(٢)، أي: سخرتُمُوهم وٱستعبدتُمُوهم ﴿حتى أَنسَوْكُمْ﴾ بتَشاغِلِكُم بِهِم عن تلكَ الصفَةِ ﴿ذِكْرِى﴾ فَتَركتُموه، أي: تَركتُم أن تذكُروني فَتَخافُوني في أوليائي.

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (١١١) قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ ٱلْعَآدِّينَ (١١٣) قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١١٨)﴾

قُرِئَ: ﴿أَنَّهُمْ﴾ بفَتحِ الهَمزةِ وكَسرِها(٣)، فالفَتحُ علىٰ أنّه مفعولُ ﴿جَزَيْتُهُمْ﴾، والكسرُ ٱستئنافٌ، أي: قَد فازُوا حيثُ صَبَروا فجُزُوا أحسنَ الجَزاءِ بصَبْرِهِم.

والضَميرُ في ﴿قَالَ﴾ لله تعالىٰ، أو للسَائلِ عن لَبثِهِمْ، وقُرِئَ: «قُلْ» في الموضعين(٤) علىٰ معنىٰ: قُلْ أيّها السائل عن لَبْثِهِم، استَقْصَروا مدّةَ لَبْثِهِم في الدُنيا بالإضَافةِ إلىٰ خُلُودِهِم في النَارِ، أو: لَمْ يشعُرُوا بطُولِ لَبْثِهِم في القُبورِ لِكَونِهِم

(١) قرأه نافع وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٤٨.

(٢) قاله الفراء والكسائي. انظر الكشاف: ج ٣ ص ٢٠٥.

(٣) وممّن قرأها بالكسر: حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات: ج ٢ ص ٥٦١.

(٤) قرأها حمزة والكسائي بصيغة الأمر في الموضعين، وقرأ ابن كثير الأول فقط كذلك. أنظر المصدر السابق: ص ٥٦٢.

أمواتاً أو: لأنّ المنقضِي في حُكْمِ مَا لَمْ يكن. وصَدَّقَهم اللهُ في تَقَالِّهِمْ[١] لِسِنِّي لَبثِهِم في الدنيا، وَوَبَّخَهم علىٰ غَفلَتِهِم التي كانوا عليها.

والمراد بـ﴿ٱلْعَادِّينَ﴾ الملائكةُ؛ لأنّهم أَحصَوا أعمالَ العبادِ وأيّامَهُم، وقيلَ: هُم الحُسَّابُ[٢]، أي: فاسألِ الملائكةَ الذينَ عَدُّوا أعمارَ الخَلْقِ، أو: من يَقدِر أن يُلقي فِكْرَهُ إلى العَدِّ فإنَّا لا نَعرفُ عددَ تلكَ السنين إلَّا أَن نَستقلّها ونَحسِبَها ﴿يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

﴿عَبَثاً﴾ حالٌ، أي: عابثينَ، أو مفعولٌ لَه، أي: ما ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ للعَبَثِ بل للحكمةِ التي اقتضَتْه، وهي أن نَتعبَّدكُم ونكلّفكُم الطَاعَات ثم نُعيدُكُم في دارِ الجَزاءِ لنُثيبَ ونُعاقبَ، وقُرئ: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بفَتح التاء[٣].

و﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابتُ الذي لا يَزولُ، أو: الذي يحقّ له الإلٰهيَّةُ والمُلْكُ فَلا يَزولُ مُلْكُه، وكُلُّ مَلكٍ غَيرُه فَمُلْكُه مُستعارٌ، وإنَّما يَملكُ بعضَ الأشياء من بعضِ الوجوهِ، وهو ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ المالِكُ لجميعِ الأَشياء من جَميعِ الوجُوه ووُصِفَ ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ بالكَرَمِ[٤] لأنَّ الرحمةَ تَنزلُ منه، ويُنالُ الخيرُ والبرَكةُ من جهَتِهِ، ولِنِسبَتِهِ إلىٰ أكرمِ الأكرمينَ.

﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُ بِهِ﴾ صِفَةٌ لازمةٌ، نحوُ قَولِهِ: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[٥] جِيء بها للتوكيد، أو: هو اعتراضٌ بين الشرطِ والجَزاءِ، كما يقالُ: مَنْ أَحْسَنَ إلىٰ فلانٍ لا أَحَقَّ بالإِحسَانِ منه، فاللهُ مُثيبُه.

۞ ۞ ۞

---

(١) في نسخة: «مقالهم». (٢) قاله قتادة. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤٠١.
(٣) قرأه حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٥٠.
(٤) في نسخة: «بالكريم». (٥) الأنعام: ٣٨.

سورةُ النُّورِ

مدنيّة[1]، أربع وستّون آية.

في حديث أُبيّ: «مَن قَرأَها أُعطِيَ من الأجْرِ عشرُ حَسَناتٍ بعدد كلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ فيما مَضىٰ وما بَقي»[2].

الصادقُ عليه السلام: «حَصِّنُوا أموالَكُم وفُروجَكُم بتلاوةِ سُورةِ النُور، وحصِّنُوا بها نساءَكُم، فإنّ مَن أدْمَنَ قراءَتَها في كلّ يومٍ أو في كلّ ليلةٍ لَم يَزْنِ أحدٌ مِن أهل بيته أبَداً حتّىٰ يموتَ، فإذا هو ماتَ شيّعه الى قبرِهِ سَبعُون ألف ملكٍ كلُّهم يَدعُونَ ويَستغفِرُونَ اللهَ لَهُ حتّىٰ يَدخُلَ في قبرِهِ»[3] صدق وليّ الله.

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٤٠٣: مدنيّة بلا خلاف، وهي أربع وستون آية في البصري والكوفي، واثنتان في المدنيّين.

وفي الكشّاف: ج ٣ ص ٢٠٨: مدنيّة، وهي اثنتان وستون آية، وقيل: أربع وستون، نزلت بعد الحشر.

وفي تفسير الآلوسي: ج١٨ ص ٧٤ ما لفظه: مدنيّة كما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير، وحكىٰ أبوحيان الإجماع علىٰ مدنيّتها ولم يستثن الكثير من آيها شيئاً، وعن القرطبي أنّ آية ﴿يا أيُّها الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَستَأذِنكُم﴾ الخ مكّية.

(٢) رواه الزمخشري في كشّافه: ج ٣ ص ٢٦١ مرسلاً.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٥.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)﴾

﴿سُورَةٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أو مبتدأ موصوف بـ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ والخبرُ محذوفٌ أي: فيمَا يُتلىٰ عليكُم ﴿سُورةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾، وقُرِئَ في الشواذِ: «سُورةً أنزلناها» بالنَّصبِ[١] علىٰ: زيداً ضربتُهُ، و﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ تَفسيرٌ للفعلِ المضْمَرِ، أو علىٰ: اقرأْ سورةً و﴿أنزلنَاهَا﴾ صفةٌ ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ وفرضنا أحكامَها التي فيها، أي[٢]: جَعَلنَاهَا واجبةً مقطُوعاً بها، وأَصلُ الفَرضِ القطعُ، وقُرِئ: «فَرَّضْنَاهَا» بالتَّشديدِ[٣] وهو للتوكيدِ وللمُبالغةِ في الإيجابِ، أو: لأَنَّ فيها فرائض شتّىٰ، تقولُ: فَرَضْتُ الفَرِيضةَ وفرَّضتُ الفَرائضَ، وقُرِئَ: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتَشديدِ الذالِ[٤] وتَخفيفِها.

﴿الزَّانِيَةُ والزَّانِي﴾ رفعُهُما على الابتداء، والخبرُ محذوفٌ، والتقديرُ: فيما

---

(١) قرأه عيسىٰ بن عمرو كما في شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٠١.

(٢) في نسخة: «أو» بدل «أي».

(٣) قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٦٥.

(٤) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وعاصم برواية أبي بكر وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٢٧٢.

فُرِضَ عَليكُم الزَانيةُ والزَاني أي: جَلْدُهُما، ويجوزُ أن يكونَ الخبرُ ﴿فـاجْلِدُوا﴾ لأنّ الألف واللام بـمعنى «الذي» و «التـي»، والتـقديرُ: الذي زَنـىٰ والتـي زَنَت فاجْلِدوهما، كما تقول: مَنْ زنَىٰ فاجلِدُوه. والجَلْدُ: ضَرْبُ الجِلْدِ، تقول: جَلَده كما تقول: ظَهَرَهُ وَبَطَنَهُ وَرَكِبَهُ، وهذا حُكْمُ مَـنْ ليس بـمُحصِنٍ مـن الزُّنـاة الأحـرارِ البالغينَ، فأمّا المُحْصِن فَحُكْمُه الرَّجمُ. وقُرِئَ: «رَأَفَةً» بفتح الهمزة [١]، والمـعنىٰ: أنّ الواجبَ على المؤمنينَ أن يستعملُوا الجدَّ في ديـنِ الله، ولا يأخـذهُم اللـينُ والهَوادةُ في ٱستيفاءِ حدودِهِ، وقولُه: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾ مـن بابِ التَهييجِ وإلهابِ الغَضَبِ للهِ ولدينِهِ، وقيلَ: معناهُ: ﴿لَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا﴾ رَحـمةٌ تَمنَعكُم عن إقامةِ الحَدِّ عليهما فتعطِّلُوا الحدود [٢]، أو: من الضَربِ الشَديدِ، بـل أَوْجِعُوهُمَا ضَرْباً ولا تُخَفِّفوا كَما يُخَفَّفُ في حدِّ الشَارِبِ.

والرجلُ يُجلَد قَائماً علىٰ حالتِهِ التي وُجدَ عَليها ضَرْباً وَسَطاً مُفرَّقاً عـلى الأعضاءِ كُلِّها، لا يُستثنىٰ منها إلّا ثلاثةٌ: الوجهُ والرأسُ والفَرْجُ، وفي لفظ: «الجِلْد» إشارةٌ إلىٰ أنّه لا ينبغي أَن يَتجاوزَ الألَمُ إلى اللَّحمِ. والمرأةُ تُجلَدُ قـاعدةً عَـليها ثيابُها قد رُبِطَتْ عليها حتّىٰ لا تَبدو عَورتُها.

وفي تَسميتِهِ «عَذَاباً» دَليلٌ علىٰ أنّه عقُوبةٌ، ويجوزُ أن يسمَّىٰ «عذاباً» لأنّـه يَمنَعُ من المُعاودةِ كما يُسمَّىٰ «نَكَالاً».

والطَّائِفَةُ: الفِرْقَةُ الحافَّةُ حَولَ الشيءِ، وَهُم ثلاثةٌ فصَاعِداً، وهي صفةٌ غالبةٌ، وعن الباقرعليه السلام وابن عبّاسرضي الله عنه والحسن وغيرهم: «أنّ أقلَّها رجلٌ واحِدٌ» [٣].

(١) قرأه ابن كثير. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٦٥.
(٢) قاله عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وابراهيم. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤٠٦.
(٣) تفسير التبيان: ج ٧ ص ٤٠٦، تفسير الطبري: ج ٩ ص ٢٥٨.

وينبغي أن لا يشهدَ إلَّا خِيارُ الناسِ.

الْفَاسِقُ: الذي من شَأنِهِ الزِّنا لا يَرغبُ في نكاحِ الصَوالحِ من النساءِ اللّاتي علىٰ خلافِ صفَتِهِ، وإنَّما يَرغبُ في زانِيَةٍ مثله أو مُشركةٍ، وكذلك الزَّانيةُ الْمُسَافِحَةُ المشهورةُ بذلكَ لا يَرغبُ في نكاحِها الصُلَحاء من الرجالِ وينفرونَ عَنها، وإنَّما يرغبُ فيها مَن هو من شكلها. وإنَّما قَرَنَ سبحانُه بين الزَّاني والمشركِ تَفخيماً لأمرِ الزِّنا واستعظاماً له، ومعنى الجملةِ الأُولىٰ: وَصْفُ الزَّاني بكونِهِ غيرَ راغبٍ في العفائِفِ لكن في الزَّواني، ومعنى الجملةِ الثانيةِ: وَصْفُ الزَّانيةِ بكونِها غَيرَ مرغوبٍ فيها للأَعفّاءِ ولكن للزُّناة، وبينهما فرقٌ، وإنَّما قُدِّمت الزانيةُ على الزاني في الأُولىٰ لأنَّ الآيةَ مَسوقةٌ لعقوبتِهِما علىٰ جنايتِهِما، والمرأةُ منها مَنشَأُ الجنايةِ، وهي الأصلُ والمادةُ في ذلك، ثم قدَّم الزاني عليها في الثانية[1] لأنَّ الآيةَ مسوقةٌ لذِكرِ النكاحِ، والرجلُ هو الأَصلُ فيهِ والخَاطِبُ، ومنه مبدأُ الطلب. وحُرِّمَ الزِّنا[2] ﴿وَحُـرِّمَ﴾ نكاحُ المَشهورات بالزِّنا على المؤمنين.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَداً وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ (٤) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)﴾

ذَكَرَ سبحانُه حَدَّ الزِّنا، ثم ذَكَرَ حدَّ القَذْفِ بالزِّنا، أي: يقذفُونَ العفائفَ من النساءِ بالزِّنا والفجورِ ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بَأَرْبَعَةِ﴾ عُدولٍ يشهدُونَ بأنّهم شَاهَدُوهنَّ يَفعلْنَ ذلكَ ﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾ والواجبُ أن يَحضَروا في مجلسٍ واحدٍ، فإن جاءوا متفرِّقينَ كانُوا قَذَفَةً.

(١) في جميع النسخ: «الثاني»، والصحيح ما أثبتناه.
(٢) ليس في نسخة: «وحرِّم الزنا».

ويقتَضي نظمُ الآيةِ أن تكونَ هذه الجملُ الثلاثُ بأجمعِها جزاءً للشرطِ، فيكونُ التقديرُ: مَن قَذَفَ المحصناتِ فاجْلِدُوهم وردُّوا شهادتَهم وفسِّقوهُم، أي: فاجْمَعُوا لَهم الجَلْدَ وردَّ الشهادةِ والتفسيقَ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ عن القَذْفِ ﴿وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ يَغفرُ لَهم، فَلا يُجْلَدونَ ولا تُردُّ شهادتُهم ولا يُفسَّقُون.

والأَبَدُ: اسمٌ لزمانٍ طويلٍ انتهىٰ أو لَمْ ينتهِ، فإذا تابَ القاذفُ قُبِلَت شهادتُهُ، سواء حُدَّ أو لَمْ يُحَدَّ، عن أئمة الهدىٰ عليهم السلام وابن عبَّاس رضي الله عنه [1]، وهو مَذهبُ الشافعي [2]. ومِنْ شَرطِ تَوبةِ القَاذِفِ أن يكذِّبَ نفسَه، فإن لم يفعلْ ذلكَ لَم تُقبلْ شهادتُه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٦) وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٧) وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٨) وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾

رويَ: أنَّه لمَّا نَزَلَتْ آيةُ القَذْفِ قامَ عاصمُ بن عديٍّ الأنصاري فقال: يا رسول الله، إنْ رأىٰ رَجلٌ منَّا مع امرأتِهِ رَجلاً فأخبرَ بما رأىٰ جُلِدَ ثمانين! وإلىٰ أن يجيء بأربعةِ شُهَداء فَقَد قَضَى الرجلُ حاجَتَه ومضىٰ، قال: كذلك أُنزِلتْ يا عاصِم، فَخَرجَ فَلَم يصلْ إلىٰ منزلِهِ حتّى استَقبلَه هلالُ بن أُميَّة يَستَرجِع، فقال: ما وراءَك؟ قال: شرٌّ، وجدتُ علىٰ بطنِ امرأتي خَولةَ شريكَ بن سَمحاء، فقال: هذا واللهِ سُؤالي،

(١) أنظر الكافي: ج ٧ ص ٣٩٧ ب ١٨ شهادة القاذف والمحدود.
(٢) كتاب الأم للشافعي: ج ٧ ص ٤٥.

فَرجعَا، فأخبر عاصم رسول الله، فَبَعَثَ إليها فقال: ما يقولُ زوجك؟ فقالت: لا أدري، الغِيرةُ أدركَتْه أم بُخلاً على الطعام، وكانَ شريكٌ نَزيلَهم، فَنَزَلت الآيات ولاَعَن بينهما[١].

وقُرئ: «أَرْبَعَ شَهادَاتٍ» بالنَّصب[٢] لأنّه في حُكمِ المَصدرِ الذي هو ﴿فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ وهي مبتدأ محذوفُ الخَبرِ، فيكونُ التَّقديرُ: فواجِبٌ أن يَشهدَ أحدُهُم أربعَ شهاداتٍ، ويكونُ ﴿بِٱللَّهِ﴾ من صلةِ ﴿شَهَـٰدَٰتٍ﴾، وفي الرفع يكون ﴿أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍ﴾ خَبَراً.

وقُرئ: «أَنْ لَعْنَةُ اللهِ» و«أنْ غَضَبُ اللهِ» علىٰ تَخفيفِ ﴿أَنَّ﴾ ورَفْعِ ما بَعدَهُما[٣]. وقُرئ بنصب ﴿ٱلْخَـٰمِسَةَ﴾ الثانية[٤] علىٰ معنىٰ: وتَشهَدُ الخامسةَ.

وَصِفةُ اللِّعانِ: أن يوقَفَ الرجلُ بين يَدَي الحاكمِ والمرأةُ عن يمينه، فيقولُ الرجلُ أربعَ مرّاتٍ: أَشهد باللهِ أنّي لَمِنَ الصادقينَ فيما ذكرته من الفجور عنها، ثم يقولُ في المرّة الخامسةِ: لعنةُ الله عليَّ إن كنتُ مِنِ الكاذبينَ فيما رميتُها بِه. ويدرأ[٥] عن المرأة العذابَ ـ وهو حدُّ الزِّنَا ـ أنْ تقول: أشهدُ بالله أنّه لَمِنَ الكاذبينَ فيما قَذَفَني به، أربعَ مرّاتٍ، مرَّةً بعد أُخرىٰ، وتقول في الخامسة: غَضَبُ اللهِ عليَّ إن كانَ من الصادقينَ فيما قَذَفَني بِه، ثم يفرِّقُ الحاكِمُ بينَهما، ولا تَحِلُّ لَه أَبَداً، وكانَ عليها العدّةُ من وَقتِ اللِّعان. وإنْ نَكَلَ الرجلُ عن اللِّعان قبلَ ٱستكمال

---

(١) رواه الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٢٧٣.

(٢) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم برواية أبي بكر، راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٥٢.

(٣) وهي قراءة نافع ويعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٦٦.

(٤) الظاهر من عبارة المصنّف أنّه اعتمد علىٰ قراءة الرفع هنا كما لا يخفىٰ.

(٥) في نسخة: «يدفع»، وأُخرىٰ: «يرفع».

الشَّهادات وَجَبَ عليه حدُّ القَذْف.

وجوابُ ﴿لَوْلَا﴾ مَتروكٌ، وَتَركُهُ دالٌّ علىٰ أَمرٍ عظيمٍ لا يُكْتَنه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُواْ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِالشُّهَدَآءِ فَأُوْلَـٰئِكَ عِندَ ٱللهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ ٱللهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ ٱللهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ وَٱللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ ٱللهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) ﴾

«الإِفْكُ»: أبلَغُ الكَذِب، وأَصلُهُ من «الإِفْك» وهو القَلْبُ، لأنّه قَولٌ مَأْفوكٌ عن وجهِهِ، والمرادُ: ما أُفِكَ بِهِ علىٰ عائشة وصفوان بن المعطّل. والعُصْبَةُ: الجَماعةُ من العشَرةِ إلىٰ أربعين، وكذلك العِصابةُ، واَعصَوْصَبُوا: اجتَمعُوا، وهم: عبدالله بن أُبيّ وهو الذي ﴿تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ أي: إثمه، ومسطح بن أثاثة، وحسّان بن ثابت، وحمنة بنت جحش ومَنْ ساعدهم. ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ﴾ من تلكَ العُصْبةِ نَصيبُهُ ﴿مِنَ الإِثْمِ﴾ علىٰ مِقْدارِ خَوضِهِ في الإِفْكِ، وَالعَذابُ العَظيم لابن أُبيٍّ؛ لأنّ مُعظَمَ الشّرّ كانَ منه،

يُشيعُ ذلكَ في الناسِ ويقولُ: امرأةُ نبيِّكُم باتَتْ مع رجلٍ حتّىٰ أصبَحَتْ ثم جاءَ يقودُها، واللهِ ما نجتْ منه ولا نَجَا منها.

والخطابُ في قولِهِ: ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لعائشة وصفوان لأنّهما المقصُودانِ بالإفْكِ، ولِمَن ساءَه ذلكَ من المؤمنينَ ولكلّ مَن رُمِيَ بسبٍّ، ومعنىٰ كونِهِ خيراً لَهُم: أنّ الله تعالىٰ يعوِّضُهُم بصَبْرِهِم.

وكانَ سَبَبُ الإفْكِ: أنّ عائشة ضاعَ عقدُها في غَزوةِ بَني المصطَلَق، وكانَتْ قَد خَرَجَت لقضاء حَاجَةٍ، فَرجَعَتْ طَالِبَةً لَه، وَحُمِلَ هَوْدَجُها علىٰ بَعيرِها ظَنّاً منهم أَنَّها فيهِ، فَلَمَّا عَادَت الىَ الموضِعِ وَجَدَتْهُم قَد رَحَلُوا، وكان صفوانُ من وَراءِ الجيشِ، فلمّا وَصَلَ إلىٰ ذلكَ الموضعِ وعَرَفَها أناخَ بَعيرَه حتّىٰ رَكِبَتْهُ وهو يَسُوقُه حتّىٰ أَتَى الجيشَ وقد نَزَلُوا في قائمِ الظَهيرة. كذا رواه الزهري عن عائشة[1].

وقرئ: «كُبْرَهُ» بضمّ الكاف[2]، أي: عُظْمَهُ ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي: الذين هُم كأنفسِهِم، لأنّ المؤمنينَ كلّهم كالنَّفسِ الواحدَةِ. ونحوُه: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[3] و﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾[4]، وقيلَ: مَعناهُ: هلَّا ظَنَنتُم ما تَظنّونَه بأنفُسِكُم لو خلَوتُم بها[5]، ولَم يقلْ: ظَنَنْتُم بأنفسِكُم خَيراً، عدولاً عن المُضْمَرِ إلى المُظهَر، وعن الخطابِ إلى الغَيبة، ليبالغَ في التَوبيخِ بطَريقةِ الالتفات. ويدلّ علىٰ أنّ الاشتراكَ في الإيمان مُقتَضٍ أن لا يُصدِّق مؤمنٌ علىٰ أخيه قولَ غائب، ومُوجِبٌ أن يصرِّحَ ببراءةِ ساحَتِهِ وتَكذيبِ قاذِفِه.

---

(١) تفسير ابن كثير: ج ٣ ص ٢٦٠.

(٢) قرأه حميد ومجاهد وأبو البرهم ويعقوب وابن قطيب وأبو جعفر المدني. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤١٥، وشواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٠٢.

(٣) الحجرات: ١١.

(٤) النور: ٦١.

(٥) قاله مجاهد. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤١٦.

﴿لَوْلَآ﴾ الأُولىٰ والثانية للتحضيض، وهذه لامتناعِ الشيءِ لوجودِ غيرِه، والمعنىٰ: ولولا أنِّي حَكَمْتُ بأن أَتفضّلَ عليكُم في الدنيا والآخرة لعاجَلْتُكُم بالعقابِ فيما خضتُم فيه. يقال: أفاضَ في الحَديثِ واْندفعَ وخَاضَ.

﴿إِذْ﴾ ظرفٌ ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أو لـ﴿أَفَضْتُمْ﴾، ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ يأخذُه بعضُكم من بَعضٍ، يقالُ: تَلقَّى القَولَ وتلقَّنَه وتلقَّفَه بمعنىً، والأصلُ تتلقَّونَه، وَصَفَهم بارتكاب آثامٍ ثلاثةٍ، وعلَّق مَسَّ العَذابِ العظيمِ بها، وهو: التحدّثُ منهم بِهِ حتّى اْنتشرَ وشَاعَ، وقولهُم بِأَفْوَاهِهِم ما لا علم لَهم به، واْستحقَارهم لذلكَ.

وفَصَلَ بين ﴿لَوْلَآ﴾ وَ﴿قُلْتُم﴾ بالظَرفِ لفَائدةٍ، وهي بيانُ أنّه كان يَجبُ عليهم أوّلَ ما سمعُوا أن يَتفادَوْا عن التكلّم به، فكانَ ذكْرُ الوقتِ أهمّ، فَوَجَبَ تَقديمُهُ ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ فيه تَعجُّبٌ مِنْ عِظَمِ الأمرِ، أو تَنزيه اللهِ من أن تكونَ زَوجةُ نبيِّه فاجرةً. ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ في ﴿أَن تَعُودُواْ﴾ من قولِكَ: وعظتُ فلاناً في كذا فتركه، أو كراهةَ أن تَعودُوا أبداً، أي: ما دمتُم أحياءً مكلّفين، و﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تهييجٌ[1] لَهم، أو[2] تذكيرٌ بما يوجبُ تَرْكَ العودِ، وهو اْتّصافُهم بالإيمان الصَارفِ عن القَبيحِ.

﴿تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ أي: تُشيعُونَها عن قَصدٍ إلى الإشاعة ومحبّة لها، وعَذَابُ الدُنيا: الحدّ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما في القُلوبِ من الأسرار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ

(١) في نسخة: «تقبيح».

(٢) في نسخة: واو بدل «أو».

وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ (٢٥)﴾

﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم﴾ أي: ما طَهُرَ أحدٌ منكُم من وَسوسَةِ الشَّيطانِ، لكنّه سبحانَه يُطهِّر بلُطفِهِ مَن يشاءُ، وهو مَن لَه لطفٌ يَفعلُهُ به ليَزْكُوَ عندَهُ ويصلُحَ بِهِ.

﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي: لا يَحْلِفْ، وهو ٱفتعالٌ من الأَلِيَّة، وقُرئ: «وَلا يَتَأَلَّ»[١]، وعن الزَّجاج: يريد أن لا يؤتوا فَحَذَفَ «لا»، والمعنىٰ: لا يَحلِفُوا علىٰ أن لا يُحسِنُوا إلىٰ مَن يستحقّ الإحسان[٢] ﴿أُولُوا الْفَضْلِ﴾ أُولُو الغنىٰ ﴿مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ في المال، وقيلَ: معناهُ: لا يُقصِّروا في أن يُحْسِنُوا إليهم وإن كانَتْ بينَهم وبينَهم إحنةٌ لجنايةٍ ٱقترفُوها[٣]، من قولِهِم: مَا أَلَوْتُ جُهْداً، إذا لم تدَّخِرْ منه شَيئاً، نَزَلَتْ في شأنِ مُسطَّح، وكان ابنُ خالة أبي بكر، وكانَ فَقيراً، وكانَ أبو بكر يُنفقُ عَلَيه، فلَمَّا خاضَ في الإفْكِ حَلَفَ أن لا يُنفقَ عليه. وقيلَ: نَزَلَت في جَماعةٍ من الصَحابةِ حَلَفُوا أن لا يَتَصدَّقوا علىٰ مَن تَكَلَّمَ بشيءٍ من الإفْكِ ولا يُواسُوهم[٤].

﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ عن الفَواحِشِ. وقُرئ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ﴾ بالتاء والياء[٥]. وَالدِّينُ:

---

(١) قرأه الحسن وأبو جعفر المدني وزيد بن أسلم وعبدالله بن عياش بن أبي ربيعة. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٠٢، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٤٤٠.

(٢) معاني القرآن: ج ٤ ص ٣٦.

(٣) قاله ابن بحر كما في تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٨٣.

(٤) قاله ابن عباس والضحاك كما في تفسير البغوي: ج ٣ ص ٣٣٤.

(٥) وبالياء قرأه حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٥٤.

الجَزاءُ، و﴿الحَقَّ﴾ صِفَةٌ للدينِ، أي: يُوفِّيهم الجَزاءَ الحقَّ الَّذي هُم أَهـلُه ﴿أنَّ الله هُوَ الحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: العَادلُ، الظاهرُ العدلِ الذي لا ظُلْمَ في حُكمِه.

﴿ ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) ﴾

﴿الْخَبِيثَـٰتُ﴾ من الكَلِمِ تُقالُ أو تُعَدُّ للخَبيثينَ من الرجالِ والنساءِ ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾ منهُم يَتعَرَّضُون للخَبيثات من القَولِ، وكذلكَ ﴿الطَّيِّبَـٰتُ ... والطَّيِّبُونَ﴾، و﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الطَّيِّبينَ، وأنّهم ﴿مُبَرَّءُونَ﴾ مِمَّا يقولُ الخبيثُونَ من خَبيثات الكَلِمِ. ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بالخَبيثاتِ والطَّيّباتِ النساءَ، أي: الخَبائِثُ يَتزوّجْنَ الخباثَ، والخباثُ الخبائِثَ، فكذلك أَهلُ الطيِّبِ.

﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾ فيه وجهان: أحدُهما: أنّه من الاستئناس، خِلافُ الاستيحاشِ، لأنّ الذي يَطرقُ بابَ غَيرِهِ لا يَدري أيُؤذَنُ لَه أَم لا، فَهُو كالمستوحِشِ لخفَاء الحَالِ عَليه، فإذا أُذِنَ لَه استأنَسَ، فالمعنىٰ: حتّىٰ يُؤْذَنَ لَكم، فهو كقولِهِ: ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [١] فَوضِعَ الاستئناسُ مَوضعَ الإِذْنِ، لأنّ الاستئناسَ يُرادِفُ الإِذْنَ. والثاني: أنّه استفعَالٌ من أنسَ الشَيءَ: إذا أبْصَرَه مكشُوفاً، والمعنىٰ: حتّىٰ تَستعْلِمُوا وتَستكْشِفُوا الحالَ هل يُراد دُخُولُكم

(١) الأحزاب: ٥٣.

أَم لا؟ ومنه قولُهُم: استأْنَسْتُ فلَمْ أرَ أَحداً، أي: استَعْلَمْتُ وتـعرَّفتُ، ومـنه قـولُ النَابغةِ:

على مستأنسٍ وَحَدٍ[١]

وعن أبي أيّوب الأنصاري: قلنا: يا رسول الله، ما الاستئناسُ؟ قال: «يَتَكلّم الرجلُ بالتَسبيحةِ والتَحميدةِ والتَكبيرةِ ويَتَنحنَحُ، يُؤْذِنُ أهْـلَ البـيت، والتَّسْـلِيمُ: أن يقولَ: السَّلامُ عليكم، أأَدْخُلُ، ثلاث مرّات. فإن أُذِنَ له وإلّا رَجع»[٢].

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الاستئذانُ والتَّسليمُ ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من تَحيّةِ الجاهليةِ وهو قـولُهُم: حُيِّيتُم صَباحاً أو مساءً، أو من الدخُولِ بغَيرِ إذْنٍ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أنْـزَلَ عليكُم هذا إرادةَ أن تَتَّعِظُوا وتعملوا بما أُمِرْتُمْ به في بَابَ الاستئذَانِ.

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً﴾ من الآذِنينَ ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ واَصـبِرُوا حـتّىٰ تَجِدُوا مَنْ يأذَنُ لكُم، أو: إنْ لَمْ تَجدُوا فيها أَحَداً من أَهلها فلا تَدخلُوها إلّا بإذْنِ أَهلِها لأنّه تَصرّفٌ في مُلْكِ غَيرِك، فلابدّ أن يكونَ برضَاهُ ﴿فَارْجِعُوا﴾ ولا تَقِفُوا علىالأبوابِ منتَظرينَ، ولاتُـلِحُّوا[٣] فـي تَسهيلِ الحُـجَّابِ ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ الرجوعُ أَطْهَرُ لَكُم، لِمَا فيه من السَّلامةِ والبُعْدِ عن الرِّيبةِ لكم، وأَنفَعُ لَكُم وأنْـمَىٰ خَيْراً، ثم أوعَدَ المخاطَبينَ بأنّه ﴿عَلِيمٌ﴾ بـما يأتُـونَ ومـا يَـذَرُونَ، فَـيُجازي بحسب ذلك.

ثم اَستَثْنىٰ من البيوتِ التي لا يجب علىٰ داخِلِها الاستئذانُ: ما ليسَ بمَسْكُونٍ

---

(١) كأنّ رَحْـلي وقَـد زَالَ النَـهارُ بنا … بـذي الجُـلَيل عـلى مسـتأنسٍ وَحَـدِ
وهو من قصيدة نظمها في مدح النعمان بن المنذر، وفيه يصف حاله كحال المسافر يجدّ في السير بعدالزوال ليصل الى منزلٍ يجدفيه رفيقاً مؤنساًوعلفاًلدابّته. ديوان النابغة: ص ٢١.

(٢) أخرجه ابن ماجة في السنن: ج ٢ ص ١٢٢١ ح ٣٧٠٧.

(٣) في نسخة: «تلجّوا».

منها نحو: الفنادق وهي الخَاناتُ والرُّبط وحَوانيتُ الباعةِ والأَرْحيةُ والحمّامات، والمَتَاعُ: المَنفعةُ والارتفَاقُ والبيعُ والشِّراءُ، وقيلَ: هي الخَرِبَاتُ المعطَّلَةُ يُتَبَرَّزُ فيها، والمتاع: التبرُّز[1].

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾

﴿مِنْ﴾ للتَبعيضِ، والمرادُ: غَضُّ البَصَرِ عمّا يَحرُمُ، والاقتصارُ بِهِ علىٰ ما يَحِلُّ. ويجوزُ عند الأخفشِ أَن يكونَ «مِنْ» مزيدةً[2]، ولم يُجزه سيبويه[3].

الصادق عليه السلام: «حِفْظُ الفُروجِ عبارةٌ عن التَّحَفُّظِ من الزِّنا في جَميعِ القرآنِ، إلَّا هُنا فإنّ المرادَ به السِّترُ حتّىٰ لا يَنظر إليها أحدٌ، ولا يَحلّ للرجلِ أن يَنظرَ إلىٰ فَرجِ أخيه، ولا للمرأةِ أن تَنظرَ الىٰ فَرجِ أُختها»[4].

ثم أَخبرَ أنّه ﴿خَبِيرٌ﴾ بأحوالِهم وأَفعالِهم، ويعلَمُ كَيفَ ﴿يَصْنَعُونَ﴾، فَعليهم أن يكونُوا علىٰ حَذَرٍ واَتقاءٍ في كلّ حَرَكةٍ وسكُون.

---

(١) قاله عطاء. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤٢٧. (٢) أُنظر معاني القرآن للأخفش: ج ١ ص ٢٧٢.
(٣) أُنظر كتاب سيبويه: ج ٤ ص ٢٢٤. (٤) الكافي: ج ٢ ص ٣٦ ح ١ قطعة.

وأمَرَ النساءَ أيضاً بغضِّ الأبصار وحِفْظِ الفُروجِ كَما أَمَرَ الرجالَ.

وعن أمّ سَلَمة قالتْ: كنت عند النبيِّ صلى الله عليه وآله وعندَه ميمونةَ، فأَقْبَلَ ابن أمّ مكتوم، وذلك بعدَ أن أمَرَنا بالحجاب، فقال: احْتَجِبَا، فقُلْنا: يا رسول الله، أليسَ أَعْمىٰ لا يُبصرنا؟ فقال: أفَعَمْيَاوَانِ أنتُما؟ أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانه (١)؟

الزِّينةُ: ما تزيَّنَتِ المَرأةُ من حُليٍّ أو كُحْلٍ أو خِضَابٍ، وهي ظاهرةٌ وباطنةٌ، فالظاهرُ لا يَجبُ سَتْرُها وهي الثيابُ، وقيلَ: الكُحلُ والخاتمُ والخِضَابُ في الكفّ (٢)، وقيل: الوجهُ والكفَّان (٣)، وعنهم عليهم السلام: الكفَّانُ والأَصابعُ، والباطنة كالخلخالِ والسِّوارِ والقلادةِ والقُرطِ، فلا تُبدِيهِ إلّا لهؤلاء المذكُورين (٤).

وسئل الشعبي: لِمَ لَمْ يَذكرِ اللهُ الأعْمامَ والأخْوال؟ فقال: لئلّا يَصِفُها العَمُّ عند ابنِه، وكذلك الخال (٥).

وذكَرَ الزينةَ دونَ مَواقِعِها للمُبالَغةِ في الأَمْرِ بالتَستُّرِ، لأنّ هذه الزِّيَنَ واقعةٌ علىٰ مواضعٍ من الجَسَدِ، لا يَحلُّ النَظَرُ إليها لغَيرِ هؤلاء، وأمّا الظَاهرةُ فَسُومِحَ فِيها لَهنَّ، لأنّ المَرأةَ لا تجدُ بُدّاً من ذلكَ، خصُوصاً في الشهادةِ والمُحَاكَمة.

والخُمُرُ: المَقانعُ، جمع خِمَار، أُمِرْنَ بإلقائِها علىٰ جُيوبهنّ لأنّها لو كانَتْ واسعةً تبدُو منها نُحورُهنّ، وكنَّ يُسدلْنَ الخُمُرَ من ورائهنّ فتبقَىٰ مكشُوفةً، فأُمِرْنَ بِسَدْلِهَا من قدَّامِهنّ حتّىٰ تغطّيها. ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بالجيوبِ الصدور تَسميةً بما

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه: ج ٥ ص ١٠٢ ح ٢٧٧٨.

(٢) قاله ابن عباس. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤٢٩.

(٣) وهو قول سعيد بن جبير والحسن وعطاء والأوزاعي. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ٣٠٤، وتفسير الماوردي: ج ٤ ص ٩١.

(٤) تفسير القمي: ج ٢ ص ١٠١ برواية أبي الجارود عن الباقر عليه السلام.

(٥) حكاه عنه الرازي في تفسيره: ج ٢٣ ص ٢٠٧.

يَليها، كما قيل: ناصحُ الجيب، وضَرْبُها بالخِمَارِ على الجيبِ وضعُها عليه، كقولك: ضربتُ بيدي على الحائطِ. وقُرئ: «جِـيُوبِهِنَّ» بكسـر الجـيم [١] لأجـل اليـاء، و«بِيُوتاً غَيْرَ بِيُوتِكُمْ» [٢] بكسر الباء [٣]. ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني: النِسَاءُ المؤمنات، لأنّه ليس للمؤمنةِ أن تَتَجرَّدَ بين يدَي مشركةٍ أو كتابيّةٍ، وعن ابنِ عبَّاسٍ: والظاهرُ أنّه عَنَىٰ بنسائهنَّ و﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ مَن في صُحبتِهِنَّ وخِدْمَتِهِنَّ من الحرائر والإِماء [٤]. وقيلَ: ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ هم الذكورُ والإناثُ جَميعاً [٥].

والتَّابعُ: هو الذي يَتْبعُكَ لينالَ من طعامِكَ، ولا حاجةَ له في النساءِ، وهو الأبله الذي لا يَعرفُ شيئاً من أَمْرِ النساء، وقرئ ﴿غَيْرِ﴾ بالنَصب [٦] على الاستثناءِ أو الحَالِ، وبالجرّ على الوَصفيّةِ، و﴿الإِرْبَةِ﴾ الحَاجةُ ﴿أَوِ الطِّـفْلِ﴾ وضـع الواحِـدُ موضع الجَمع لأنّه يفيدُ الجنسَ، و﴿لَمْ يَظْهَرُواْ﴾ هو إمَّا مِنْ ظَهَرَ على الشَّيء: إذا اطَّلَعَ عليه، أي: لا يَعرفُونَ ما العَورة، ولا يميِّزُونَ بينَها وبينَ غيرها، وإمَّا مِنْ ظَهَرَ علىٰ فلانٍ: إذا قَوِيَ عَلَيه، أي: لَمْ يَبلغُوا وقتَ القدرةِ على الوطءِ لِعدَم شَهوتِهِم.

وكانَتِ المَرأةُ تَضربُ الأرضَ برجلِها ليتقَعْقَعَ خِلْخالُها، وقيلَ: كانَتْ تضربُ بإحدىٰ رجْلَيها الأُخرىٰ ﴿لِيُعْلَمَ﴾ أنّها ذاتُ خِلْخَالَيْن [٧]، وإذا نُهِينَ عَن إظهار صَوتِ الحُلِيِّ بعدَما نُهِيْنَ عن إظهارِ الحُلِيِّ عُلِمَ أنَّ النَّهيَ عن إظْهارِ مواضعِ الحُلِيِّ أبلغُ.

---

(١) قرأه ابن كثير وحمزة والكسائي وابن عامر وابن ذكوان والأعشىٰ. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٣٣٠، وتفسير البغوي: ج ١ ص ١٦١.

(٢) الآية: ٢٧.

(٣) قرأه ابن كثير وابن عامر والكسائي. راجع التبيان: ج ٧ ص ١٤٠.

(٤) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٣١.

(٥) وهو قول أم سلمة وعائشة كما في تفسير البغوي: ج ٣ ص ٣٣٩.

(٦) وهي قراءة ابن عامر وأبي بكر وأبي جعفر. راجع التذكرة في القراءات: ج ٢ ص ٥٦٧.

(٧) قاله السدي. راجع تفسير السمرقندي: ج ٢ ص ٤٣٨.

وقُرِئ: «أيُّهُ المُؤمنُونَ» بضمِّ الهاء(١)، والوجهُ فيه: أنّ الألفَ لمّا سقطَتْ من «أيها» لالْتِقاء الساكنَين اتبعتْ حَرَكتُها حَرَكَةَ ما قَبلِها.

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَـٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلاً مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤)﴾

الأَيَامَىٰ واليَتامىٰ أَصلُهُما «أيايِيم» و «تيايم» فقُلبا، والأيِّم للرجلِ والمَرأةِ، وتأيّما إذا لَم يتزوَّجا بِكْرَيْن كانا أو ثيِّبَيْن.

وفي الحَديثِ: «اللّهم إنّا نعوذُ بكَ من العَيْمةِ والأيْمةِ والغَيْمة»(٢).

أي: ﴿أَنْكِحُوا﴾ من يأتمُّ منكُم من الأحْرارِ والحَرائِر، ومَن كانَ فيه صلاحٌ من غلْمانِكُم وجَواريكُم، وهذا أَمرُ نَدْبٍ واَستحباب.

وعنه عليه السلام: «مَن أحبَّ فِطْرتي فلْيَستَنَّ بسُنَّتي، وهي النكاح»(٣).

وعنه عليه السلام: «مَن كانَ لَهُ مَا يَتَزَوَّجُ بِهِ فَلَمْ يَتَزَوَّجْ فَلَيْسَ مِنَّا»(٤).

وعنه عليه السلام: «إلْتَمِسُوا الرزْقَ بالنِّكاحِ»(٥).

---

(١) وهي قراءة ابن عامر. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤٢٩.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٣٣ مرسلاً.

(٣) أخرجه البيهقي في سننه: ج ٧ ص ٧٨. (٤) الكشاف: ج ٣ ص ٢٣٤.

(٥) أخرجه المتّقي الهندي في كنزالعمال: ج ١٦ ص ٢٧٦ ح ٤٤٤٣٦ نقلاً عن مسند الفردوس.

الصادقُ عليه السلام: «مَنْ تَركَ التزويجَ مخافةَ العيلَةِ فَقَد أساءَ الظَّنّ بربِّهِ، لقوله تعالىٰ: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾»[١].

﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: استطاعةَ تزوُّجٍ، ويجوزُ أن يُرادَ بالنكاحِ ما يُنكَحُ بِهِ منَ المَالِ ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾ مرفوعٌ بالابتداء، أو منصوبٌ بفعلٍ مُضْمَرٍ يُفسِّرهُ ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ كقولك: زيداً فاضْرِبْه، ودَخَلَتِ الفاءُ لتضمُّن مَعنَى الشَّرطِ. والمُكاتبةُ والكِتابُ أن يقولَ الرجلُ لمملوكِهِ: كاتبتُك علىٰ كذا، ومعناه: كَتَبتُ لكَ علىٰ نَفسي أن تُعتَقَ منّي إذا وَفَيْتَ بالمالِ وكَتَبْتَ لِي علىٰ نفسِكِ أن تَفِيَ بذلكَ، أو: كتبتُ عليكَ الوفاءَ بالمَالِ وكَتَبتَ عليَّ العِتْقَ ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: صَلَاحاً ورُشْداً، وقيلَ: قدرةً علىٰ أداءِ مَالِ الكتابة[٢]. ﴿وَءَاتُوهُم﴾ أمرٌ بإعانَتِهِم وإعطائِهِم سَهمهم الذي جَعَلَه الله لَهم في قوله: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾[٣]، أو: حظّهم من المالِ الذي عليهم وهو استحبابٌ. ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ﴾ إماءَكُم على الزِّنا، وكانَت إماءُ أهلِ الجاهليةِ يُساعِين علىٰ مواليهنَّ، وكانَت لعبدالله بن أُبَيٍّ ستّ جوارٍ يُكْرِهُهُنّ على البغاء، وَضَرَبَ عليهنَّ ضَرائبَ، فَشَكَتِ اثنتان منهنّ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله فنزلت[٤]. ويكنّى بالفَتىٰ والفَتاة عن العبد والأمَة.

وفي الحديثِ: «ليقُلْ أحدُكُم: فَتايَ وفتاتي، ولا يقلْ: عَبدي وأَمَتي»[٥].

و﴿ٱلْبِغَآءِ﴾ مَصدرُ البَغي، وإنّما شَرَطَ إرادة التَحصُّن لأنّ الإكراهَ لا يتأتّىٰ إلّا مع إرادةِ التَحصُّنِ، وهو التعفُّفُ. وكلمةُ ﴿إِنْ﴾ وإيثارها علىٰ «إذا» تُؤْذِنُ بأنّهنّ كنَّ يفعلنَ ذلك برغبةٍ وطوعٍ، ومَن يُجبرُهنّ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ﴾

---

(١) الكافي: ج ٥ ص ٣٣٠ ح ٥.
(٢) قاله مجاهد. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ٣١٤.
(٣) البقرة: ١٧٧.
(٤) أسباب النزول للواحدي: ص ٢٧٣.
(٥) مسند أحمد: ج ٢ ص ٤٩٦.

وللمكرَهَات لا للمُكْرِهِ ﴿رَحيمٌ﴾ بهنَّ، وعن الصادقِ عليه السلام: «لهنّ غفورٌ رحيمٌ».

و﴿مبيِّنَٰتٍ﴾ أي: واضحاتٍ ظاهراتٍ في معاني الأحكام والحدود، و«مبيَّناتٍ» بالفتح: مُوضَحَاتٍ مفصَّلاتٍ ﴿وَمَثَلاً﴾ مِن أمثال ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وشبهاً من حالِهم بحالِكم.

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) ﴾

قال: ﴿نُورُ السَّمَٰوَاتِ﴾، ثمّ قال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ و﴿يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ﴾، كما يقال: فلانٌ كرمٌ وجُودٌ، ثم يقول: يُنعشُ الناسَ بكَرمِهِ ويَشملُهُم جُودُه. ومعناه: ذو نُور السَّماوات وصاحبُ نُورِ السَّماوات، وإضافةُ النور إلى السَّماوات والأرض لأحدِ معنَيين: إمَّا لأنّ المرادَ أهلُ السَّماواتِ والأرضِ وأنّهم يَستضيئُونَ بنورِهِ، وإمَّا للدَّلالةِ على عُمومِ إضاءتِهِ وشُيوعِ إشراقه.

ورووا عن عليٍّ عليه السلام: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ والمعنى: نَشَرَ فيها الحقَّ فَأضَاءَتْ بنورِهِ، أو نوَّر قُلوبَ أهلِها به[1].

---

(١) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٤٢.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: صفةُ نُورِهِ العَجيبةُ الشأنِ في الإِضاءةِ والإِشراقِ ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ أي: كصفةِ مشكاةٍ، وهي الكُوَّةُ في الجدارِ غيرِ النافذةِ ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي: سِراجٌ ثاقبٌ ﴿الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ زَهراءُ هي مشبهة في ظُهُورها[1] بـ﴿كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ من الكواكبِ المشهُورةِ بمزيد الضَوءِ والظُهور[2] كالمشتري والزُّهرة ونحوهما، وهو منسوبٌ إلى الدُّرِّ، أي: أبيض متلألئ. وَقُرِئَ: «دِرِّيء» بالهمزة[3] علىٰ زِنَةِ «سِكّيتٍ»، كأنّه يَدرَأُ الظلامَ أي: يَدفعُهُ بضيائِه، و«دُرِّيٍّ»[4] كَمُرِّيق، وهو العُصْفُر ﴿يُوقَدُ﴾ هذا المصباح ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ أي: مبدأُ تُقويهِ من شجرةِ الزيتُون، يعني: رُوِيَتْ ذُبالتُه بزَيتِها، ومَن قرأ «تُوقَد» بالتاءِ[5] فالفعلُ للزُّجاجةِ، والتقديرُ: مصباحُه الزجاجة، فحُذِفَ المضافُ، وقُرئ: ﴿يُوقَدُ﴾ بالياء أيضاً ﴿مُّبَارَكَةٍ﴾ كَثيرةِ البَركَةِ والمنفعَةِ، لأنّه يُسرَجُ بدهْنِها، ويُؤْتَدَمُ بها، ويُوقَد بحَطَبِهِ وثفلِهِ، ويُغسلُ الإِبريسمُ برَمَادِهِ، وهي أولُ شجرةٍ نَبتتْ بعد الطُوفانِ في الأرض التي باركَ اللهُ فيها للعَالمينَ، وقيلَ: لأنّ سبعينَ نبيّاً باركُوا فيها منهم إبراهيم عليه السلام[6] ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ لأنّ مَنبتَها الشَّامُ، وهي بين المشرق والمغرب، وأجودُ الزيتُونِ زيتونُ الشَامِ، وقيلَ: لا يَفيءُ عليها ظلٌّ شرقٍ ولا غربٍ، بل هي ضاحيةٌ للشَمسِ لا يظلّها شجرٌ ولا جبلٌ، فَزَيْتُها يكونُ أصفى[7]، وقيل: ليست في مقنأة[8] لا تُصيبُها الشَمسُ، ولا في مَضْحىً لا يُصيبُها الظلُّ، لكنّ الشَمسَ والظلَّ

(١ و٢) في نسخة: «زهورها» و«الزهور».
(٣) قرأه النحويان (أبو عمرو والكسائي). راجع التذكرة في القراءات: ج ٢ ص ٥٦٨.
(٤) وهي قراءة المفضّل. راجع المصدر السابق.
(٥) قرأه حمزة والكسائي وأبو بكر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٦٨.
(٦) قاله ابن عباس. راجع تفسير القرطبي: ج ١٢ ص ٢٥٨.
(٧) قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة وابن سيرين. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤٣٨.
(٨) المقنأة: الموضع الذي لا تطلع عليه الشمس، وضدّه: المضحاة. (لسان العرب: مادة قنأ).

يَتَعاقبانِ عليها[١]. وعن الحَسَنِ: لَيستْ من شَجَرةِ الدنيا فتكونُ شرقيةً أو غربيةً[٢] ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ من صَفائِهِ وفَرطِ تَلألُئِهِ وضِيائِهِ من غَيرِ نارٍ، و﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي: هو نُورٌ مُتضاعفٌ، قد تَظَاهَرَ فيه نورُ الزيتِ ونورُ المصباحِ ونورُ الزجاجةِ، فلم يَبْقَ ممّا يقوِّي النورَ ويَزيدُ في إضاءَتِهِ بقيّةٌ.

واختُلفَ في هذا النورِ الذي أضافَهُ سبحانَه إلىٰ نفسِهِ وما شبَّهَهُ به، فذهب الأكثرُ من المفسّرينَ إلىٰ أنّه نبيُّنا محمدٌ صلّى الله عليه وآله، فكأنّه قال: مَثَلُ محمدٍ صلّى الله عليه وآله رسول الله وهو المِشْكاةُ، والمصباحُ قلبُهُ، والزجاجةُ صدرُهُ، شبَّهَهُ بالكَوكَبِ الدرِّي، ثمّ رَجَعَ إلىٰ قَلبِهِ المشبَّهِ بالمصباحِ فقال: يُوقَدُ هذا المِصْباحُ من شَجَرةٍ مُباركةٍ يعني: إبراهيمَ عليه السلام؛ لأنّ أكثرَ الأنبياءِ من صُلبِهِ، أو: شَجَرةُ الوحيِ لا شَرقيةٌ ولا غَربيّةٌ: لا نصرانيةٌ ولا يهوديةٌ؛ لأنّ النَصارىٰ تصلّي إلى المشرقِ واليهودَ إلى المغربِ ﴿يَكَادُ﴾ أعلامُ النبوّةِ تَشهَدُ له قبلَ أن يدعُو إليها، أو: يكادُ صدقُهُ في نبوّتِهِ يتبيَّنُ ويتميَّزُ وإن لَمْ يُرَ شيءٌ من معجزاتِهِ، كما قال عبدالله بن رواحة:

لَو لَم تَكُنْ فيه آياتٌ مبيَّنةٌ ... كَانَتْ بَديهتُهُ تُنبئُكَ بِالخيرِ[٣]

وعن الباقرِ عليه السلام: «إنّ قولَهُ: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ عَلَيها مِصْباحٌ هو نورُ العِلْمِ في صَدرِ النَّبي صلّى الله عليه وآله، والزُجَاجَةُ صدرُ عليٍّ عليه السلام، علَّمه النبيُّ صلّى الله عليه وآله عِلْمَهُ فصار إلى صَدره ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ يكادُ العَالِمُ من آل محمدٍ صلّى الله عليه وآله يتكلَّمُ بالعِلْمِ قَبل أن يُسْأَل ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي: إمامٌ يؤيَّدُ بنورِهِ العِلْمُ والحِكمَةُ في إثرِ إمامٍ من آل محمدٍ صلّى الله عليه وآله، وذلك من لَدن آدم إلىٰ قيام السَاعَةِ، هم خلفاءُ اللهِ في أرضِهِ، وحُجَجُهُ علىٰ خَلْقِهِ، لا تَخلُو الأرضُ في كلّ عصرٍ من واحدٍ منهم»[٤].

---

(١) قاله السدي. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٣٤٦.

(٢) تفسير الحسن البصري: ج ٢ ص ١٦٠. (٣) حكاه الرازي في تفسيره: ج ٢٣ ص ٢٣٧.

(٤) التوحيد للصدوق: ص ١٥٨.

وهذا يَقتَضي أن تكونَ الشَجَرةُ المباركةُ هي هذه الشجرةُ التي أشرَقَتْ الأَرضَ بنُورِها من عَهدِ آدم إلىٰ منقَرضِ العَالَمِ.

وقيلَ: إنّ نورَ اللهِ هو الحقّ[١]، كما في قَولِهِ: ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٢] أي: من البَاطِلِ إلى الحقّ، وعن أُبيّ بن كَعب: أنّه قَرأ «مثل نُورِ مَن آمَن به»[٣] يَهدي اللهُ بهذا النُورِ الثّاقِبِ مَنْ يشاء من عبادِهِ، بأنْ يفعلَ به لُطْفاً إذا عَلِمَ أنّه يَصلُحُ له، ويوفّقُهُ لاتّباع دلائِلِهِ.

﴿فِي بُيُوتٍ﴾ يتعلّقُ بمَا قَبلَه، أي: كَمِشْكاةٍ في بَعضِ بُيُوتِ اللهِ، وهي المَساجدُ، أو بما بعدَهُ وهو ﴿يُسَبِّحُ لَهُ ... رِجَالٌ﴾ في بيوت. وقوله: ﴿فِيهَا﴾ هُو تَكريرٌ كما يُقالُ: زَيدٌ في الدارِ جَالسٌ فيها، والمرادُ بِالإِذْنِ: الأمرُ ﴿أَنْ تُرْفَعَ﴾ أي: تُبْنَىٰ، كقولِهِ: بَنَاها: رفَعَ سُمْكَها ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾[٤]، أو: تعظم وترفع من قَدرِها، وقيلَ: هي بيوتُ الأنبياء[٥]، ورُوي ذلك مرفوعاً، وهو: أنّه عليه‌السلام لمّا قَرأَ هذه الآية سُئِلَ: أيُّ بُيُوتٍ هذه؟ قال: بُيُوتُ الأنبياءِ، فقامَ أبو بكر فقال: يا رسول الله، هذا البيتُ منها، وأشار إلىٰ بيت عليٍّ عليه‌السلام وفاطمة عليها‌السلام؟ فقال: نعم، مِنْ أفاضِلِهَا[٦]. ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ أي: يُتْلَىٰ فيها كتابُهُ، ويُذكرُ أسماؤه الحُسْنىٰ، وقُرئ: «يُسَبَّحُ لَه» على البناء للمفعولِ[٧]، وإسنادُه إلىٰ أَحَدِ الظُروفِ الثَلاثةِ وهي: ﴿لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾.

---

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٤٢ ونسبه الى علي عليه‌السلام.

(٢) البقرة: ٢٥٧.

(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٢٤٢.

(٤) البقرة: ١٢٧.

(٥) قاله مجاهد. راجع تفسير القرطبي: ج ١٢ ص ٢٦٥.

(٦) رواه الآلوسي في تفسيره: ج ١٨ ص ١٧٤ عن أنس وبريدة.

(٧) قرأه ابن عامر وأبو بكر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٦٨.

ويرتفعُ ﴿رِجَالٌ﴾ بما دلّ عَليهِ ﴿يُسَبِّحُ﴾ أي: يُسبِّحُ رجالٌ، والآصَالُ: جَمعُ أُصُل وهو العَشِيُّ، والمعنىٰ: بأوقاتِ الغُـدُوِّ أي: بـالغَدَواتِ، والتِّـجَارَةُ: صـناعةُ التَاجِرِ، أي: لا يشغلُهُم عن الذكرِ والصَلاةِ، فإذا حَضَرَتِ الصلاةُ تَـركُوا التـجَارةَ وقامُوا إليها ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إقَامتُها، فإنّ التاءَ في «إقامة» عِوَضٌ من العَينِ الساقِطَةِ، إذ الأصلُ «إِقْوَام» فلمّا أُضيفَتْ أُقيمَتِ الإضافةُ مقامَ حَرفِ التَـعويضِ فأُسقطَتْ، ونَحوُهُ:

وأَخْلَفُوكَ عِدَا الأَمرِ الّذِي وَعَدُوا[1]

وَتَقَلُّبُ الْقُلُوبِ وَالأبْصَارِ: أَن تَضطَرِبَ من الهَوْلِ والفَزَعِ، و«تَشْـخَصُ» أي: تَتَقلَّبُ أَحوالُها فتفْقَهُ القُلوبُ وتُبصر الأَبصَارُ بعد أن كانَتْ لا تَفقَهُ ولا تُبصرُ، أي: يُسَبِّحونَ ليَجزيَهُم جزاءَ أعمالِهِم مُضاعفاً، ويُزيدَهُم على الثَّوابِ تَفضُّلاً، والتَفضُّلُ يكونُ ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ (٤٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (٤٢)﴾

---

(١) وصدره: إنّ الخَليطَ أجدّوا البَيْنَ فانْجَرَدُوا. والبيت منسوب لزهير بن أبي سلمى من قصيدةٍ يمدح بها هرم بن سنان، وقيل: للفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب. راجع ديوان زهير: ٢٦.

وَالسَّرَابُ: ما يُرىٰ في الفلاة يَسربُ علىٰ وَجْهِ الأَرْضِ كأنّـه مـاءٌ يَـجري، والقِيعَةُ: بمعنى القَاع أو جَمعُ القَاعِ، وهو المُستَوي من الأَرضِ، شَبَّهَ ما يَعملُهُ الكفّارُ من الأعمالِ التي يَحسبُها نَافِعةً عند الله بسَرابٍ، يَراهُ مَنْ غَلَبَهُ العَطَشُ فيَحسِبُهُ ماءً، فيأتِيهِ فَلا يجدُ ما يرتَجِيه ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ﴾ عِنْدَ عَمَلِهِ فَجازَاهُ علىٰ كُفْرِهِ، أو: وَجَدَ اللهَ عندَه بالمِرصَادِ فأتمَّ لَهُ جَزَاءَه، وهذا في الظاهِرِ خَبَرٌ عن ﴿ٱلظَّمْـَٔانُ﴾ وفي المعنىٰ خبرٌ عن الكفّار، وفي معناهُ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُوراً﴾ [(١)] ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ [(٢)] ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ [(٣)].

وَالبَحرُ اللُّجِّيُّ: الكَثيرُ المَاءِ، منسوبٌ إلى اللَّجِّ وهو مُعظَمُ ماء البحرِ ﴿يَغْشَـٰهُ﴾ أي: يعلُو ذلكَ البحرَ ﴿مَوْجٌ﴾ مِن فَوقِ ذلكَ المَوجِ ﴿مَـوْجٌ مـن﴾ فـوقِ المَـوجِ ﴿سَحَابٌ ... ظُلُمَاتٌ﴾ ظُلْمةُ البَحرِ وظُلْمةُ المَوجِ وظُلْمةُ السَحَابِ ﴿إِذَآ أَخْـرَجَ﴾ الواقِعُ فيها ﴿يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰـهَا﴾ مبالغةً في: لَمْ يَرَها، أي: لَمْ يَقْرَبْ أَن يَـراهـا، وهذا تشبيهٌ ثانٍ لأعمَالِهِم في خلوِّها عن نُورِ الحقّ وظُلْمَتِها لِـبُطلانها بـظُلُماتٍ متَراكِمَةٍ ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً﴾ بتَوفيقِهِ ولُطْفِهِ فَهو في ظُلْمةِ الباطلِ لا نُورَ له. وقُرِئَ: «سحابُ ظلماتٍ» على الإضَـافةِ [(٤)]، و«سـحابٌ» بـالرَفعِ والتَـنْوينِ «ظلماتٍ» بالجرّ [(٥)] بدلاً من ﴿ظلماتٌ﴾ الأُولىٰ.

﴿صَـٰٓفَّـٰتٍ﴾ يَصفُفْنَ أجنحتَهنّ في الهَواءِ، والضَميرُ في ﴿عَلِمَ﴾ لـ﴿كُلٌّ﴾ أو لـ﴿اللهِ﴾، وكذلكَ في ﴿صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ كما أَلْهَمَها سَائرَ العُلُومِ الدَقـيقةِ التـي لا يَكادُ العقلاءُ يهتَدُونَ إليها.

---

(١) الفرقان: ٢٣. (٢) الغاشية: ٣.

(٣) الكهف: ١٠٤.

(٤) قرأه ابن محيصن والبزي عن ابن كثير. راجع تفسير القرطبي: ج ١٢ ص ٢٨٤.

(٥) وهي قراءة قنبل. راجع المصدر السابق.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ (٤٣) يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ (٤٤) وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦)﴾

﴿يُزْجِى﴾ يَسُوقُ، ومنه: البضاعةُ المُزْجَاةُ، يُزجِيها كلّ أَحَدٍ لا يَرضَاها، والسَّحَابُ قَد يَكونُ واحداً كالغماء وجَمعاً كالرباب ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أي: بين أجزائِهِ بأن يَضُمَّ بعضَها إلىٰ بعضٍ، ولذلكَ جَازَ «بينَه» وهو واحدٌ، كَما قيلَ في قولِهِ:

بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْملِ (١)

والرُّكَامُ: المتراكِمُ، والوَدْقُ: المَطَرُ ﴿مِنْ خِلَٰلِهِ﴾ من فُتُوقِهِ ومَخارجِ القَطرِ منهُ جمع خَلَل، وقُرِئَ في الشَّواذ: «مِنْ خَلَلِهِ» (٢). ذَكَرَ من جُملةِ الدلائلِ علىٰ رُبُوبيتِهِ: تَسبيحُ مَنْ في السَّماواتِ والأرضِ وكلّ ما يَطيرُ، ثم ذَكَرَ سبحانَهُ: تَسخيرُ السَحَابِ، وإنْزالِ المَطَرِ منه، وما يَحدثُ فيه من الأفعالِ علىٰ ما تَقتَضيه الحكمةُ. و﴿مِنْ﴾ الأُولىٰ لابتداءِ الغَايةِ والثانيةُ للتبعيضِ والثَالثةُ للتبيينِ، أو: الأُولتانِ للابتداءِ، والآخرةُ للتَبعيضِ، علىٰ معنىٰ: يَنزلُ البَرَدُ منَ السَماءِ ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا﴾،

---

(١) وتمام البيت:

قِفَا نَبكِ مِن ذِكْرىٰ حَبيبٍ ومَنزلِ بِسِقْطِ اللِوَىٰ بين الدَخُول فَحَوْمَلِ

لامرئ القيس وهو مطلع معلّقته المشهورة. انظر شرح المعلّقات السبعة للزوزني: ص ٤.

(٢) قرأه ابن عباس وابن مسعود والضحاك. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٠٤.

وعلىٰ الأوّلِ يكونُ ﴿مِن جِبَالٍ﴾ مفعولُ ﴿يُنَزِّلُ﴾ وقُرئَ: ﴿يَـذْهَبُ بِـالأَبْصَـرِ﴾ علىٰ أن يكونَ الباءُ مَزيدةً كما في قولِهِ: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [1] أي: يكَادُ ضوءُ برقِهِ يَخْطَفُ البَصَرَ لشـدّةِ لَـمَعَانِهِ. ﴿يُـقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّـيْلَ وَٱلنَّـهارَ﴾ أي: يصرِّفُهُما ويُخالِفُ بينَهُما بالطُّولِ والقِصَرِ.

ولمّا كانَ اسمُ «الدَّابَّة» يَقعُ على المُميِّزِ وغيرِ المُميِّز غُلِّبَ حُكم المـميِّز بأن قالَ: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى﴾ في الماشي علىٰ بَطنِهِ، والماشي علىٰ ﴿أَرْبَعٍ﴾ قَوائِمَ، وَلَم يذكُرْ ما يَمشي علىٰ أكثرِ مِن أَربعٍ، لأنّه كما يَمشي علىٰ أربعٍ في مَرأى العَينِ. وعن الباقرِ عليه السلام: «وَمِنْهُم مَن يَمشي علىٰ أكثرِ من ذٰلكَ» [2]. وإنّما نَكّرَ قوله: ﴿مِن مَّآءٍ﴾ لأنّ المَعنىٰ: أنّه خَلَقَ كلَّ دابَّةٍ من نَوعٍ منَ الماءِ مختصٍّ بتلكَ الدابّةِ، فمنها نَاسٌ، ومنها بَهائم، ومنها هَوامٌ، ومن نحوِهِ قولُه: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ [3]. وسمَّى الزَحْفَ على البَطْنِ مَشياً علىٰ طريقِ الاستعارةِ، كما قَالُوا: مَشَىٰ هذا الأمـرُ، أو: علىٰ طَريقِ المشاكَلَةِ لأنّه ذكَرَها مع الماشين. وقرئ: «خَالِقُ» [4].

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَـٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللهِ وَرَسُـولِهِ لِـيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّـهُمُ ٱلْـحَقُّ يَأْتُـوٓاْ إِلَـيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَـخَافُونَ أَن يَـحِيفَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْـمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَـٰئِكَ

(١) البقرة: ١٩٥.
(٢) تفسير القمي: ج ٢ ص ١٠٧ وفيه عن الصادق عليه السلام.
(٣) الرعد: ٤.
(٤) قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٦٩.

﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (٥٢)﴾

يعني بقولِهِ: ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلىٰ رَسولِ اللهِ بدَلالةِ قولِهِ: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾، كما قيلَ: أَعجَبَني زيدٌ وكَرَمُه، والمرادُ: كَرَمُ زيدٍ. ورُوي: أنّ رجلاً كانَت بينَه وبينَ عليٍّ عليه السلام خُصُومةٌ في مَاءٍ وأرضٍ، فقالَ الرجلُ: لا أُحاكِمُ إلىٰ محمدٍ صلى الله عليه وآله فإنّي أَخافُ أن يَحكُمَ لَه عَليٌّ[١]. وذكر أبو القاسم البلْخِي: أنّها كانَت بينَ عليٍّ عليه السلام وبينَ عثمانَ، وكانَ قَد ٱشترىٰ أرضاً من عليٍّ عليه السلام، فَخَرجَتْ فيها أحجارٌ، فأرادَ ردَّها بالعَيْبِ، فقالَ: بيني وبينَك رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال الحكمُ بن أبي العاص: إنْ حاكَمْتَه إلى ٱبن عمِّه حَكَمَ لَهُ، فنَزَلَتْ[٢].

﴿مُذْعِنِينَ﴾ مُسرعينَ مُنقادينَ، و﴿إِلَيْهِ﴾ صِلَتُه أو صِلَةُ ﴿يَأْتُوٓاْ﴾، والمعنىٰ: أنّهم يَنحَرفُونَ عن المُحاكَمةِ إليكَ إذا كانَ الحقُّ عَلَيهم لِعِلْمِهم بأنّك لا تَحكُمُ إلّا بالحقِّ المُرِّ والعَدْلِ البَحْتِ، وإنْ ثبتَ لَهُم حقٌّ علىٰ خَصْمٍ أَسرعُوا إليكَ ولَمْ يرضُوا إلّا بحكُومَتِكَ، لتأخذَ لَهُم ما ثَبتَ لَهُم في ذمّةِ الخَصْمِ. ﴿بَلْ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي: لا يخافُونَ أن يَحيفَ عَلَيهِم لِمَعرفَتِهِم بحَالِهِ، وإنَّما هُم ظَالمُونَ يُريدونَ ظُلْمَ مَنْ لَهُ الحقُّ عَلَيهم.

وقُرِئَ: ﴿يَتَّقْهِ﴾ بكَسْرِ القَافِ والهَاءِ مَعَ الوَصْلِ[٣] وبغَيرِ وَصْلٍ[٤]، وبِسكُونِ

(١) رواه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٢٤٨.

(٢) حكاه عنه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٤٥٠.

(٣) قرأه ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وورش وقالون وابن سعدان عن اسحاق المسيبي عن نافع. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤٥٢.

(٤) قرأه قالون عن نافع والأعشىٰ ويعقوب. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٧٠.

الهاءِ(١)، وبِسكُونِ القَافِ وكَسْرِ الهَاءِ. شُبِّه «تَقِهِ» بكَتِفٍ فخفَّف، كقولِ الشَاعِرِ:

قَالَتْ سُلَيمىٰ: اشْتَرْ لَنا سُوَيْقاً(٢)

وعن ابن عبَّاسٍ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ﴾ في فَرائِضِهِ ﴿وَرَسُولَهُ﴾ في سُنَنِه، ويَخشَىٰ ﴿اللهَ﴾ علىٰ ما مَضَىٰ من ذُنُوبِهِ ويَتَّقِه في المستَقْبل(٣).

﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُواْ ٱللهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ (٥٤) وَعَدَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ (٥٥)﴾

﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ أصلُه: يَجهدُونَ الأَيمانَ جُهداً، فَحُذِفَ الفعلُ وقُدِّمَ المصدرُ فوضع موضِعَهُ مضَافاً إلى المفعول، كقَولِهِ: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾(٤)، وحُكمُ هذا المنصُوبِ حُكْمُ الحَالِ، كأنّه قالَ: جاهِدِينَ أيمانَهم، وجُهْدُ يَمينِهِ مُستعارٌ من جُهْدِ نَفْسِهِ إذا بَلَغَ أقصىٰ وُسْعِها، وذلك إذا بالَغَ في اليَمينِ وبَلَغَ غَايةَ وِكَادَتِهَا، وعن ابن عبَّاسٍ: مَن قالَ: بالله، فَقَد جَهدَ يَمينه(٥). ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ بِالْخُرُوجِ في غَزَواتِكَ

---

(١) وهي قراءة أبي عمرو وأبي بكر وابن عامر ويحيىٰ. راجع المصدر السابق.

(٢) وعجزه: وهات خبز البرّ أو دَقيقاً والبيت منسوب للعذافر الكندي، والسويق: ما تعمله العرب من الحنطة والشعير. أُنظر الكشّاف: ج ٣ ص ٢٤٩.

(٣) تفسير ابن عباس: ص ٢٩٨.

(٤) محمد ﷺ: ٤.

(٥) تفسير ابن عباس: ص ٢٩٨.

﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ خبَرُ مبتدأ محذوفٌ، أي: أَمرُكُم، والذي يُطلَبُ منكُم طاعةٌ معلومةٌ لا يُشَكُّ فيها كطَاعةِ المخلِصينَ لا أَيْمَانَ تقسِمُونَ بها بأفْواهِكُم وقُلوبُكُم لا تُطَابقها، أو: مبتدأٌ محذوفُ الخَبرِ أي: طاعةٌ معلومةٌ[١] أوْلَىٰ بكُم من هذه الأَيمانِ الكاذِبةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا﴾ في ضَمائِركم يُجازيكُم عَليه.

﴿فإنْ﴾ تَتَوَلَّوا عن طَاعةِ اللهِ ورسولِهِ فإنّما ضَرَّرتُم أَنفُسَكُم، فإنّ الرسُولَ ليسَ عَليه إلّا ما حَمَّلَهُ اللهُ وكلَّفَهُ من أَداءِ الرِّسالةِ، فإذا أدَّىٰ فَقَد خَرَجَ عن العُهدَةِ ﴿وَعَلَيْكُم﴾ ما كُلِّفْتُم من التَّلَقِّي بالقَبولِ والانقيادِ للطَاعةِ، و﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾: التبليغُ، كالأَداءِ بمعنى التأْدِيَةِ، و﴿ٱلْمُبِينُ﴾ المَقْرونُ بالآياتِ والمعجَزاتِ.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ المُؤْمِنِينَ المُطيعينَ للهِ، ورسولِهِ أن يَنصُرَ دينَ الإِسلامِ على الكفرِ، ويُورِثَهُمُ الأرض، ويَجْعَلَهُم خُلَفَاءَ فيها كَمَا فَعَلَ ببَني إسرائيل إذ أَهلَكَ الجَبابرَةَ، وأَوْرَثَهُمْ أَرْضَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وأن يُمَكِّنَ ﴿لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى﴾ أَمَرَهُم أن يدينُوا به، وتَمكينُهُ وتَثبيتُهُ وتوطيدُهُ وإظهارُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه، كما قال ﷺ: «زُويتْ لِيَ الأَرضُ فَأُرِيتُ مشارِقَها ومغارِبَها، وسَيَبلغُ مُلك أُمّتي ما زُوِيَ لي منها»[٢].

ورَوَى المقدادُ عنه ﷺ أنّه قالَ: «لا يَبقَىٰ علىٰ وجهِ الأرضِ بَيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلّا أدخَله الله كلمة الإِسلام بعزّ عزيز أو ذُلّ ذليل، إمَّا أن يُعِزَّهم اللهُ فيَجعلُهُم من أَهلِها، وإمَّا أن يذلَّهُم فيدينُون لها»[٣].

وقرئ: «كَمَا ٱسْتُخْلِفَ» بضمّ التاء[٤] ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ﴾ من الأبدالِ ﴿يَعْبُدُونَنِى﴾ استئنافٌ أو حالٌ من «وَعدهم».

---

(١) في نسخة: «معروفة».
(٢) سنن ابن ماجة: ج ٢ ص ١٣٠٤ ح ٣٩٥٢.
(٣) رواه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٤٥٥.
(٤) قرأه ابو بكر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٧١.

وروي عن عليّ بن الحسين عليه السلام، أنّه قال: «هم واللهِ شيعتُنا أهل البيت، يفعلُ ذلكَ بهم علىٰ يَدَيْ رجلٍ منّا، وهومهديُّ هذه الأُمةِ، وهوالذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لو لم يبقَ من الدنيا إلّا يومٌ لَطوّل اللهُ ذلكَ اليومَ حتّىٰ يَليَ رجلٌ من عترتي اسمُه اسمي وكُنيتُه كُنيتي، يملأ الأرضَ قسطاً وعَدْلاً كما مُلِئَتْ ظُلْماً وجوراً»[1].

ورُوي ذلك عن الباقر عليه السلام والصادق أيضاً عليه السلام.

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٥٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) ﴾

﴿أقِيمُوا﴾ معطوفٌ علىٰ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وجازَ وإنْ طالَ الفاصلُ بينَهما، لأنّ حقَّ المعطوفِ أن يكونَ غيرَ المعطوفِ عليه.

وقُرئَ: «لَا يَحْسَبَنَّ» بالياء[2]، والوجهُ فيه أن يكونَ فاعلُهُ ضميرُ النبيّ صلى الله عليه وآله

(١) رواه الميرزا المشهدي في كنز الدقائق: ج ٧ ص ١٠٩ عن العياشي.

(٢) قرأه ابن عامر وحمزة. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٧١.

لتقدُّمِ ذكرِه، أو يكونَ أحدُ المفعولَين محذوفاً، أي: ولا يَحسبنَّ الَّذين كَفروا أنفسَهم مُعجِزين.

أمَرَ سبحانَه بأن يَستأذنَ العَبيدُ والأطفالُ الذين لم يحتلِمُوا من الأحرار ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ في اليومِ والليلةِ: ﴿قَبْلَ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ لأنّه وقتُ القيامِ عن المَضاجِعِ ولُبسِ الثِّياب، وبـ﴿ٱلظَّهِيرَةِ﴾ لأنّه وقتُ وَضعِ الثّيابِ للقائلة، و﴿بَعْدَ صلوٰةِ العِشَاءِ﴾ لأنّه وقتُ التجرُّدِ من ثيابِ اليَقْظَةِ والالتحافِ بثيابِ النومِ، وسمّىٰ كلّ وقتٍ من هذه الأوقات عَوْرَةً لأنّ الناسَ يَختلّ تَحَفُّظُهم وتسَتُّرهم فيها. والعَورَةُ: الخَلَلُ، ثم عَذَرَهَم في تَرك الاستئذانِ في غيرِ هذه الأحوالِ، وبيَّن وجهَ العُذْرِ في ذلكَ بقوله: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: هُم خَدَمُكُم يَطوُفون عليكم للخِدْمةِ، فلا يجدُونَ بُدّاً من دُخُولهم عَليكُم ﴿بَعْضُكُمْ علىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يطُوفُ بعضُكُم وهُم المَماليكُ على المَوالي. وقُرئَ: «ثَلاثَ عَوْرَاتٍ» بالنَصبِ[1] بدلاً عن ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ أي: أوقَاتِ ثَلاثَ عَورات، وإذا رُفِعَتْ ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَاتٍ﴾ كانَ قولُهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ في محلّ ٱلرفعِ على ٱلوصفِ، والمعنىٰ: هُنَّ ثَلاثُ عَوْراتٍ مخصوصةٌ بالاستئذانِ، وإذا نُصبتْ كان ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ كَلاماً مُستأنفاً مُقرّراً للأمر بالاستئذان في تلك الأحوالِ خاصّةً، و﴿بَعْضُكُمْ﴾ مبتدأٌ، والتقديرُ: بعضُكُم طَائفٌ علىٰ بعضٍ، فحُذِفَ لأنّ ﴿طَوَّٰفُونَ﴾ يَدلّ عليه.

﴿بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ﴾ الأَحرارُ دونَ المَماليك، والمعنىٰ: أنّ الأطفالَ مأذونٌ لَهُم في الدخولِ بغير إذْنٍ إلّا في الأحوالِ الثَلاثِ، فإذا خَرَجُوا من حَدِّ الطفُوليّةِ ﴿فَلْيَسْتَئْذِنُواْ﴾ في جَميعِ الأوقاتِ كالرجالِ الكِبَارِ. وعن ابن مسعودٍ: عَليكُم أَن تستأذِنُوا علىٰ آبائِكم وأُمّهاتِكم وأخواتكم وإخوانكم[2].

---

(١) قرأه حمزة والكسائي وأبوبكر عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٤٥٩.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٥٤.

القاعِدُ: التي قَعَدَتْ عن الحَيضِ والوَلَدِ لكبَرِها ﴿لا يَرْجُونَ نِكَاحاً﴾ لا يَطمَعْنَ فيه، والمُرادُ بالثِّيابِ: الثيابُ الطَّاهِرةُ[1] كالمِلْحَفَةِ والجِلْبابِ الذي فوق الخِمارِ، وفي قراءةِ أهل البيتِ عليهم السلام: «أنْ يَضَعْنَ مِنْ ثِيَابِهِنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ»[2] غيرَ مُظْهِرَاتٍ زينةً بوضعِ ثيابهنّ. وحقيقةُ التبرُّجِ: تكلُّفُ إظهارِ ما يَجبُ إخفاؤُهُ، واختصّ بأن تَنكشفَ المَرأةُ للرجالِ بإبداءِ زينَتِهَا، وإظْهارِ مَحَاسِنِها، والاستِعفَافِ بلُبسِ الجَلابيب ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ وإنْ سَقَطَ الحَرَجُ عَنهنَّ فيه.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢)﴾

كانَ المؤمنونَ يذهَبونَ بالضُعفاءِ وذَوي العَاهَاتِ إلىٰ بُيُوتِ أزواجِهِم وأولادِهِم، وإلىٰ بُيُوتِ أقربائِهِم وأصدقائِهِم فيُطعِمُونَهُم منها، فخافُوا أن يَلْحَقَهُم فيه حَرَجٌ فقيل: «لَيْسَ عَلَىٰ الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَىٰ المَرْضَى وَلاَ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ» يعني:

---

(١) في نسخة: «الظاهرة».

(٢) التبيان: ج ٧ ص ٤٦١.

لَيسَ عليكُم وعلىٰ مَن في مِثْلِ حَالِكُم من المؤمنينَ ﴿حَرَجٌ﴾ في ذلك، وقيلَ: كانَ هؤلاءِ يتوقَّونَ مُجَالَسةَ الناسِ ومُؤاكلتَهُم لَما عسىٰ أن يلحقَهُم من الكراهَـةِ مـن قِبَلِهِمْ[1]. وقيلَ: كانُوا يخرجُونَ إلى الغزوِ ويخلِّفون الضُعَفَاءَ في بيوتِهِم ويَدفعونَ إليهم المفاتيحَ ويأذنُونَ لَهم أن يأكُلُوا من بيوتِهِم فكانُوا يَتحرَّجُونَ، فـقيلَ: ليسَ علىٰ هؤلاءِ الضعفاءِ حَرَجٌ فيما تحرجونَ عنه ولا عليكم ﴿أنْ تَأكُلُوا﴾ من هـذهِ البُيُوتِ[2]، ولَمْ يأْتِ ذِكْرَ الأوْلادِ لأنّ ذِكْرَهُم قَد دَخَلَ في قوله: ﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ لأنّ وَلَدَ الرجلِ بعضُه، وحُكْمَهُ حُكْمُ نفسِه.

وفي الحديث: «إنّ أطيبَ ما يأكلُ الرجلُ من كَسْبِهِ، وإنّ وَلَدَه مِن كَسْبِه»[3].

ومُلْكُ المَفَاتِيح: كونُها في يَدِهِ وحفظِهِ، و«الصَّديقُ» يكونُ واحِداً أو[4] جمعاً، وكذلكَ العدوّ، والمعنىٰ: أو بُيُوتِ أَصْدِقَائِكُمْ، وعن أئمةِ الهـدىٰ عليهم السلام قـالوا: «لا بأس بالأكلِ لهؤلاءِ من بُيُوتِ مَنْ ذَكَرَه الله تعالىٰ بغير إذْنِهِم قَدَرَ حَـاجَتِهِم مـن غَيرِ إسرافٍ»[5].

وعن الحَسَنِ: أنّه دَخَلَ دارَه فإذا حلقة من أصدقائِهِ وقَدْ استَلُّوا سِلَالاً مـن تَحتِ سريرِهِ فيها الخَبيصُ وأطايب الأطعمةِ وهم يأكلونَ، فتهلَّلَ وجهُه سُـروراً وقال: هكذا وَجَدْناهُم ـ يريدُ كبراء الصَحابةِ ـ وكـانَ الرجـلُ مـنهم يَـدخُلُ دارَ صَديقِهِ وهو غَائبٌ، فَيَسألُ جاريَتَه كِيسَهُ فيأْخذُ ما شَـاءَ، فـإذا حَـضَرَ مَـولَاها فأَخْبَرَتْهُ أَعتَقَها سُروراً بذلك[6].

---

(١) قاله ابن عباس والضحاك والكلبي. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٢٢.

(٢) قاله سعيد بن المسيّب. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٣٥٧.

(٣) مسند أحمد: ج ٦ ص ٣١ و٤٢، سنن البيهقي: ج ٧ ص ٤٨٠.

(٤) في نسخة: «و» بدل «أو».

(٥) التبيان: ج ٧ ص ٤٦٣.

(٦) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٣٥٨.

وعن جعفر الصادق عليه السلام: «من عِظَمِ حُرمةِ الصَديقِ أنْ جَعَلَهُ اللهُ من الأُنسِ والثِقَةِ والانبساطِ وَطَرحِ الحشمَةِ بمنزلةِ النَفْسِ والأَبِ والأَخِ والابنِ»[١].

﴿جَمِيعاً أو أشْتَاتاً﴾ أي: مجتَمعينَ أو متفرِّقينَ، كانُوا لا يأكلُونَ إلّا مَعَ ضَيفِهِم، ويتحرَّجُ الرجلُ أن يأكلَ وحدَه، و﴿إذَا دَخَلتُمْ بُيُوتاً﴾ من هذه البيوتِ فابدأوا بالسَلامِ علىٰ أهلِها الذين هُم منكُم ديناً وقرابةً ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ ٱللهِ﴾ ثابتةً بأمرِهِ، مَشروعَةً من لَدُنْهِ، ولأنّ التَسليمَ طَلَبُ سَلامةٍ للمسلَّمِ عليه، والتَحيّةُ طَلَبُ حياةٍ للمحيَّىٰ من عندِ اللهِ، وَوَصَفَها بالبركةِ والطِّيبِ لأنّها دعوةُ مؤمنٍ لمؤمنٍ، يُرجَىٰ بها من اللهِ زيادة الخير وطيب الرزقِ. ومنهُ قولُهُ عليه السلام: «سلِّمْ علىٰ أهلِ بيتِكَ يَكثر خَيْرُ بيتِكَ»[٢] وَ﴿تَحِيَّةً﴾ منصوبةً بـ«سَلِّمُوا» لأنّها في معنىٰ «تسليماً»، كما تقولُ: حمدتُ شُكْراً.

﴿وإذَا كَانُوا﴾ مع النبيّ صلى الله عليه وآله ﴿عَلَىٰ أمْرٍ جَامِعٍ﴾ يَقتَضي الاجتماعَ عليه والتَعاونَ فيه، من حُضُور حَربٍ أو مشُورةٍ في أمرٍ أو صَلاةِ جُمعةٍ وما أشبهها ﴿لَمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَئْذِنُوهُ﴾ جَعَلَ تَرْكَ ذهابِهِم حتّىٰ يَستأْذنُوه ثالثَ الإيمانِ باللهِ والإيمانِ برسولِهِ مَعَ تصديرِ الجملةِ بـ﴿إنَّما﴾، وإيقاع «المؤمنين» مبتدأ مُخبَراً عنه بموصولٍ يُحيطُ صِلَتُهُ بذِكرِ الإيمانَين، ثم أكّد ذلك بأن أعادَ ذِكْرَهُ علىٰ أُسلوبٍ آخر فقال: ﴿إنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَئْذِنُونَكَ أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَرَسُولِهِ﴾ ضمَّنه شيئاً آخرَ، وهو أنّه جَعَلَ الاستئذانَ كالمِصْداقِ لصحّةِ الإيمانَين، ثمّ خيَّرَهُ صلى الله عليه وآله بين أن يأْذَنَ وبين أَن لا يأذن، وهكذا حُكْمُ مَن قامَ مَقَامَهُ منَ الأئمّةِ عليهم السلام.

﴿لَا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ ٱللهُ

---

(١) رواه عنه عليه السلام الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٢٥٧.

(٢) أخرجه ابن كثير في تفسيره: ج ٣ ص ٢٩٥.

ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَافِى ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)﴾

أي: ﴿لَا تَجْعَلُواْ﴾ تَسمِيَتَهُ ونداءَهُ ﴿بَيْنَكُمْ﴾ كَما يُسمِّي بَعضُكُم بَعضاً ويناديه باسمِهِ، فلا تقولوا: يا محمد صلى الله عليه وآله، ولكن: يا نبيَّ الله، ويا رسول الله، مَعَ التَوقيرِ والتَعظيمِ والتَواضِع وخَفضِ الصَوتِ، أو: لا تقيسُوا دعاء[1] إيّاكُم علىٰ ﴿دُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ ورجُوعِكُم عن المجمعِ بغير إذنِ الداعي، فإنَّ في القُعُودِ عن أمرِهِ قُعُوداً عن أمرِ الله تعالىٰ، أو: لا تجعَلُوا ﴿دُعَاءَ الرَّسُولِ﴾ لَكُم أو عليكم مثلَ دعائِكِم، فإنّ دعوتَهُ مُستَجابَةٌ مسموعَةٌ ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ﴾ قَليلاً ﴿لِوَاذاً﴾ أي: مُلَاوذَةً، يلوذُ هذا بذَاكَ وذاكَ بهذا، المعنىٰ: يَتَسلَّلونَ عن الجماعةِ في الخُفْيةِ، يستَتِرُ بعضُهُم ببَعضٍ. و﴿لِوَاذاً﴾ حالٌ، أي: مُلاوذينَ، وقيلَ: نَزَلَتْ في حَفْرِ الخَندقِ وكان قومٌ يَتَسلّلونَ بغير إذنٍ[2]، وقيلَ: كانوا يَتَسلّلونَ عن الجهادِ يَرجعُون عنه[3]، وقيلَ: عن خُطْبَةِ النبيّ صلى الله عليه وآله يوم الجُمُعة[4]. يقالُ: خَالَفَهُ إلى الأمر: إذا ذَهَبَ هو إليهِ دونَه، ومنهُ قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَـٰكُمْ عَنْهُ﴾[5] وخَالَفَهُ عن الأمر: إذا صَدَّ عنهُ دونَه، ومعناهُ: الذين يصدُّونَ عن أمرِهِ دونَ المؤمنينَ، والمفعولُ محذوفٌ، والضَميرُ في ﴿أَمْرِهِ﴾ للهِ أو للرَّسولِ، والمعنىٰ:

---

(١) في نسخة: «دعاءه».

(٢) قاله عروة ومحمد بن كعب القرظي. راجع الدر المنثور: ج ٦ ص ٢٢٩.

(٣) وهو قول مجاهد. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٢٨.

(٤) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص ٢٦٢.

(٥) هود: ٨٨.

عَن طاعةِ اللهِ ودينِهِ ﴿أنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: مِحْنةٌ في الدنيا تُظْهِرُ نفاقَهُم أو بليّةٌ. وعن جعفر بن محمد عليه السلام: «يُسلِّطُ عليهِم سُلْطاناً جائِراً، وعَذاباً أليماً في الآخرة»[١]، وهذا يَدلُّ علىٰ أنّ أوامرَ النبيِّ صلى الله عليه وآله على الوجوب.

أدْخَلَ ﴿قَدْ﴾ ليؤكّدَ عِلْمَه بما هُم عَليه من المُخالفَةِ، وتَوكيدُ العلم لِتَوكيد الوعيد، وذلك أنّ «قَدْ» إذا دَخَلَتْ على المُضارعِ كانت بمعنىٰ «ربّما»، فوافَقَتْ «ربّما» في خروجها إلىٰ معنى التكثير في نَحوِ قولِهِ:

فإنْ تُمْسِ مَهْجُورَ الفِنَاءِ فَرُبَّما ... أَقامَ به بعدَ الوفُودِ وفُودُ[٢]

ونحوه قولُ زُهَيرٍ:

أَخِي ثِقةٍ لا تُهلك الخمرُ مالَه ... ولكنَّه قد يُهلكُ المالَ نائلُهُ[٣]

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قد ٱختَصَّ جميعها به، خَلْقاً وَمُلْكاً وَعِلْماً، فكيفَ يَخفَىٰ عليهِ أَحوالُ المنافِقينَ وإنْ كانُوا يَجتَهدونَ في سِتْرِها عن العُيُونِ وإخفائِها، وسـ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ يومَ القيامةِ بمَا أَبطَنُوه ويُجازِيهم عليه.

والخِطابُ والغيبةُ في قولِهِ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾، ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يجوزُ أن يكونَا معاً[٤] للمنافقينَ علىٰ طَريقِ الالتفاتِ، ويجوزُ أن يكونَ ﴿ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ عامّاً و﴿يُرْجَعُونَ﴾ خاصّاً.[٥]

❁ ❁ ❁

(١) رواه عنه عليه السلام الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٦٠.

(٢) البيت منسوب لابن عطاء السندي من قصيدة نظمها في رثاء ابن هبيرة لمّا قتله المنصور الدوانيقي، يقول: فإن هجر الناس بيتك الآن فلا حزن، لأنّه كثيراً ما اجتمعوا فيه في حياتك ومُنِحُوا خيراً. راجع شرح شواهد الكشاف للأفندي: ص ٦٢.

(٣) البيت من قصيدة يمدح بها حصن بن حذيفة بن بدر ويصفه بالكريم، يقول: إنّ ماله «لا يتلفه» شيء بقدر ما «يتلفه» عطاؤه المتواصل. راجع ديوان زهير: ص ٦٨.

(٤) في نسخة: «عامّاً».

(٥) في المخطوطة زيادة: بهم.

سورةُ الفُرْقَان

مكّيّةٌ إلّا آياتٍ[1]، وهي سبعٌ وسبعونَ آيةً بلا خِلَاف.

وفي حَديثِ أُبيٍّ: «مَن قَرأَها بُعِثَ يومَ القيامَةِ وهو مُؤمنٌ بأنّ الساعَةَ آتيةٌ لا رَيْبَ فيها، وأُدْخِلَ الجنّةَ بغير نصب»[2].

[عن إسحاق بن عمّار] عن أبي الحَسَنِ موسىٰ عليه السلام قال: «يابنَ عمّار، لا تَدَعْ قِراءَة سُورةِ ﴿تَبَارك ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرقَانَ عَلَىٰ عَبدِهِ﴾ فإنَّ مَن قَرأَها في كلّ ليلةٍ لَمْ يُعذِّبْهُ اللهُ أبداً، ولَمْ يُحاسِبْهُ، وكانَ منزلهُ في الفِردَوسِ الأعلىٰ»[3].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٦٦٩: قال مجاهد وقتادة: هي مكّية، وقال ابن عباس: نزلت ثلاث آيات منها بالمدينة، من قوله: ﴿وَالَّذينَ لا يَدعُونَ مَعَ ٱللهِ إلٰهاً آخَر﴾ الى قوله: ﴿رَحيمَاً﴾، عدد آياتها سبع وسبعون آية ليس فيها خلاف.

وقال القرطبي في تفسيره: ج ١٣ ص ١: مكّية كلّها في قول الجمهور، وقال ابن عباس وقتادة: إلّا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة وهي: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدعُونَ مَعَ ٱللهِ﴾ الىٰ قوله: ﴿وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾، وقال الضحّاك: هي مدنية، وفيها آيات مكّية قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدعُونَ مَعَ ٱللهِ إِلٰهاً آخَرَ﴾.

وفي الكشّاف: ج ٣ ص ٢٦٢: مكية إلّا الآيات ٦٨ و٦٩ و٧٠ فمدنيّة وآياتها ٧٧، نزلت بعد يسٓ.

(٢) رواه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٢٩٨ مرسلاً.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٥.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيراً (١)
ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ
فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (٢) وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّا
يَخْلُقُونَ شَيْـٔاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا
يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُوراً (٣) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ
إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْماً وَزُوراً (٤) وَقَالُوٓاْ
أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى
يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً (٦) وَقَالُواْ مَالِ
هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ
فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (٧) أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ
ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً (٨) ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ
ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٩) تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ
خَيْراً مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً (١٠) ﴾

البَرَكةُ: الكثرةُ من الخيرِ، ومنها: ﴿تَبَارَكَ﴾ اللهُ أي: عَظُمَتْ خيراتُه وكَثُرتْ. وسمِّي القُرآنُ «فُرْقَاناً» لفَصْلِهِ بينَ الحقِّ والباطلِ، أو: لأنّه لم يَنزِلْ جُملةً واحدةً بل مُتفرِّقاً مفصُولاً بينَ بعضِهِ وبعضٍ في الإنزالِ ﴿لِيَكُونَ﴾ الضميرُ لـ﴿عَبْدِهِ﴾ أو لـ﴿الفُرْقَانَ﴾، ﴿لِلْعَٰلمينَ﴾ للجنِّ والإنسِ ﴿نَذِيراً﴾ مُنذِراً مُخوِّفاً، أو: إنذاراً كالنكيرِ بمعنَى الإنكار. ﴿الَّذي لَهُ﴾ بَدلٌ من ﴿الَّذي نزَّل﴾، أو مَدحٌ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: وأوجَدَ كلَّ شيءٍ ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ هيَّأهُ لِمَا يَصلُح له.

والخَلْقُ بمعنى الافتعال[١] في قَولِهِ: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾[٢] أي: لا يَقدرونَ علىٰ شيءٍ من أفعالِ اللهِ ولا من أفعالِ العبادِ، فَلا يَفتَعِلونَ شيئاً وهم يُفتَعَلون، لأنّهم عَبدتُهم يَنحتُونَهم ويُصوِّرونَهم ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ لا يستطيعُونَ ﴿لِأَنفُسِهِمْ﴾ دَفْعَ ضَررٍ عنها ولا جَلْبَ نفعٍ إليها، وإذا عجزُوا عن ذلك فَهُم عن المَوتِ والحَياةِ أعجزُ.

﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ وَهُم اليهُودُ، وقيلَ: عدَّاس مَولىٰ حُويطِب بن عبد العزَّىٰ، ويَسار مَولَى العلاء بن الحضرمي[٣]. «جَاءَ» و«أَتىٰ» يُستَعمَلان في معنىٰ فَعَلَ، فيعدَّيَانِ تَعديتَهُ، ويجوز أن يُحذفَ الجارُ ويُوصَلُ الفِعلُ، وَظُلْمُهُم أنّهم جَعَلُوا العَربيَّ يَتَلقَّنُ من العجميّ كَلَاماً عَربيّاً أَعْجَزَ الفُصَحاء[٤] بفَصَاحَتِهِ، وَالزُّورُ: بُهْتُهُم بنسْبَةِ ما هو بَريء مِنهُ إليه.

و﴿أَسَـٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾: ما سَطَّرَهُ المتقدّمُونَ في كُتُبِهِم ﴿اكْتَتَبَهَا﴾ كَتَبَها لنفسِهِ وأَخَذَها، كما تقول: إصْطَبَّ الماءَ: إذا صَبَّه لنفسِهِ وأَخَذَه، ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تُلْقَىٰ عَلَيه مِن كتَابِهِ يَتحفَّظُها ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي: دائمَاً، أو: في الخُفْيةِ قَبلَ أن ينتَشرَ الناسُ، وحينَ يأْوونَ إلىٰ مساكِنِهم، أي: يَعلَمُ الخَفيَّاتِ وبواطِـنَ الأُمـورِ، ومن جُملَتِها: ما تُسرّونَه أنتُم من الكَيدِ لرسولِهِ مَعَ عِلمِكُم بأنّ ما تقولُونَه بـاطلٌ وزُورٌ ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ لا يعاجِلُ بعقَابِكُم مع ٱستيجابِكُم بمُكابَرتِكُم هذه أنْ يُصبَّ عليكُم العَذَابَ.

﴿مَالِ هَـٰذَا الرَّسُولِ﴾ حَالُهُ مثلُ حَالِنا ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ كَما نأكلُ ﴿وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ﴾ لِطَلَبِ المَعَاشِ كما نَمشي وكانَ يجبُ أن يكونَ مستَغْنياً عن الأكلِ والتعيُّشِ بأن يكونَ مَلَكاً، ثم نَزَلُوا عن هذا إلى ٱقتراحِ أن يكـونَ إنسـاناً مـعه

(١) في نسخة: «الاقتدار». (٢) النحل: ٢٠.

(٣) قاله الكلبي ومقاتل. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٣٢.

(٤) في نسخة زيادة: «والبلغاء».

﴿مَلَكٌ﴾ يُعينُه على الإنذارِ والتخويفِ، ثم نزَلُوا أيضاً بأن قالُوا: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ يَستَظْهِرُ بِهِ وَ يَستَغْني عن طَلَبِ المعاشِ، ثُم نَزَلُوا فاتَّسعُوا بأن يكونَ رجلاً له بُستانٌ يَأكلُ منه ويَأكلُون منه، فَقَد قُرِئَ: ﴿يَأْكُلُ﴾ بالياء والنون[1] ﴿وَقَالَ الظَّٰلِمُونَ﴾ وُضِعَ الظاهِرُ مَوضِعَ المُضْمَرِ، وإنّما أرادَهُم، وقولُه: ﴿فَيَكُونَ﴾ نَصْبٌ لأنّه جَوابٌ، ﴿لَوْلَآ﴾ بمعنىٰ «هلَّا»، وحُكمُه حُكمُ الاستفهامِ، وعطف ﴿يُلْقَىٰ﴾ و﴿يَكُونُ﴾ علىٰ ﴿أُنزِلَ﴾ لأنّ محلَهُ الرفعُ، لأنّه في معنى «ينزلُ» بالرفعِ.

﴿ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَٰلَ﴾ أي: قالُوا فيكَ تلكَ الأقوالَ النادرةَ من نُبوَّةٍ مشتركةٍ بين إنسانٍ ومَلَكٍ، وإلقاءِ كنزٍ عليكَ من السماءِ وغير ذلك، فَهُم متحيِّرونَ ضلّالٌ لا يجدُونَ قَولاً يستَقِرُّونَ عليه، أو: فَضَلُّوا عن الحقِّ لا يهتَدونَ إليه، تَكاثَرَ خَيرُ ﴿الَّذِىٓ إِنْ شَآءَ﴾ وَهَبَ لكَ في الدنيا خَيْراً ممّا قَالُوا. وقُرِئ: ﴿وَيَجْعَل لَّكَ﴾ بالرفعِ[2] والجزمِ عَطْفاً على ﴿جَعَلَ﴾ لأنّ الشرطَ إذا وَقَعَ ماضِياً جازَ في جَزائِهِ الجزمُ والرَفعُ، كقولِ زهيرٍ:

وإنْ أَتَاهُ خَليلٌ يَومَ مَسغَبَةٍ يقُولُ لا غائِبٌ مَالِي ولا حَرَمُ[3]

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً (١٢) وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً (١٣) لَّا تَدْعُواْ الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُواْ ثُبُوراً كَثِيراً (١٤) قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ

---

(١) وبالنون قرأه حمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٦٢.

(٢) وهي قراءة ابن كثير وعاصم برواية أبي بكر وابن عاصم. راجع الكشف عن وجوه القراءات السبع للقيسي: ج ٢ ص ١٤٤.

(٣) والبيت من قصيدةٍ يمدح بها هرم بن سنان، ومعناه واضح. أُنظر ديوان زهير بن أبي سلمىٰ: ص ٩١ وفيه «مسألة» بدل «مسغبة».

كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيراً (١٥) لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً (١٦) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ (١٧) قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً (١٩) وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً (٢٠)﴾

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِالسَّاعَةِ﴾ عَطْفٌ علىٰ ما حكى عنهم، يقولُ: بَلْ أَتوا بما هو أعجبُ من ذلك كلِّه وهو تَكذيبُهُم بالساعَةِ، أو هو متّصلٌ بمَا يَليه أي: كيفَ يصدّقُون بذلكَ وهُم لا يؤمنونَ بالآخرةِ، والسَّعيرُ: النارُ المستَعرةُ. ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ نَسَبَ الرؤيةَ إلى النَّارِ، وإنّما يَرونَها هُم وهو كقولهم: دُورُ بني فُلانٍ تَترىٰ[١] أي: كانَ بعضُها يرىٰ بعضاً، فالمعنىٰ: إذا كانَتْ منهُم بمرائي النظر[٢] سمعُوا صوتَ ٱلْتِهابِهَا، وشبَّه ذلكَ بصوتِ المتَغيِّظِ والزَّافرِ، وقيلَ: التَّغيُّظُ للنَّارِ والزَفيرُ لأهلِها[٣].

﴿مَكَاناً ضَيِّقاً﴾ جَمَعَ علىٰ أهل النارِ التَضييقَ والإِرهاقَ، نعوذُ بـالله مـنها. وعن ابن عبَّاسٍ: أنّه يَضيقُ عليهِم كما يَضيقُ الزجّ في الرمحِ، وهم معَ ذلكَ الضيقِ مُسَلْسَلونَ مُصَفَّدون، قُرِنَتْ أيديهِم إلىٰ أعناقِهِم في الجَوامع والأصفَاد[٤]. وقيلَ: قُرِنُوا مع الشياطينَ في السَلاسِل[٥]. والثُّبُورُ: الهَلاكُ، ودعاؤه أن يقولُوا: واثبورَاه،

---

(١) كذا في النسخ، وهو مصحَّف «تتراءىٰ» كما هو واضح.

(٢) في نسخة: «الناظر».

(٣) وهو قول قطرب. راجع تفسير الرازي: ج ٢٤ ص ٥٦.

(٤) تفسير ابن عباس: ص ٣٠١.

(٥) قاله يحيىٰ بن سلام. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٣٤.

أي: تعالَ فهذا زَمانُك. ﴿لاَ تَدْعُواْ﴾ أي: يقالُ لهم، أو: هم حَريٌّ بأن يقالَ لَهم ذلك وإن لم يكنْ هناكَ قولٌ، أي: وَقَعْتُمْ فيما ليسَ ثُبُوركم فيه بواحد، إنّما هو ثُبُورٌ كَثِيرٌ.

أي: وعِدَها المتّقونَ ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ ـهُ، ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً﴾ أي: كانَ ذلكَ مكتُوباً في اللوحِ، أو: لأن موعدَ اللهِ في تحقّقه كأنّه قَد كانَ، والضَميرُ في ﴿كَانَ﴾ لـ﴿ما يَشَآءُونَ﴾ أي: كانَ ذلكَ مَوعُوداً واجباً ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ إنجازُه، حَقيقاً بأن يسألَ ويطلبَ لأنّه ثوابٌ مستحقٌ، وقيلَ: ﴿مَسْئُولاً﴾ يَسألُه الملائكةُ والناسُ في دعواتهم[1] ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾[2] ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾[3].

وَقُرِئَ: ﴿يَحْشُرُهُم ... فَيَقُولُ﴾ كِلاَهُما بالنون[4] والياء ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ يريدون مَعبودَهُم من الملائكةِ والإنسِ والأصنامِ إذا أنْطَقَهم اللهُ. والفائدة في ﴿أَنتُم﴾ و﴿هُمْ﴾ وإيلائهما حَرفَ الاستفهام: أنّ السؤالَ إنّما وقَعَ عن متولّي الفعل لا عن الفعلِ ووجودِهِ، فقدِّم ليُعْلَم أنّه المسؤول عنه.

﴿قَالُوا سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لكَ عن الشَريكِ، وهذا تَعَجّبٌ منهم ممّا قيلَ لَهم لأنّهم ملائكةٌ وأنبياءُ معصُومُونَ، أو: قالُوا سُبحانَك ليدلّوا علىٰ أنّهم المسَبِّحونَ الموسُومُونَ بذلكَ ﴿مَا كَانَ﴾ يصحُّ لَنا ولا يَستقيمُ أن نَتَولّىٰ أحداً دونَكَ، فكيفَ يصحّ لنا أن نَحمل غيرَنا علىٰ أن يَتَولّانا دونَك؟ وقُرِئَ: «نُتَّخَذَ»[5]، ورويَ ذلك

---

(١) قاله محمد بن كعب القرظي. راجع المصدر السابق: ص ١٣٥.

(٢) غافر: ٨.

(٣) آل عمران: ١٩٤.

(٤) قرأه ابن عامر والحسن وطلحة. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٦٢، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٤٨٧.

(٥) قرأه أبو الدرداء وزيد بن علي عليه السلام والحسن وأبو جعفر والسلمي. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٠٥، وتفسير القرطبي: ج ١٣ ص ١٠.

عن الصادق عليه السلام (١). و«اتّخذَ» قد يَتعدّىٰ إلىٰ مفعولٍ واحدٍ وإلىٰ مفعولَيْنِ، فالقراءةُ الأُولىٰ من المتعدّي إلىٰ مفعولٍ واحدٍ وهو ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾، والأصلُ: «أن نتّخذَ أولياءَ» فَزيدَتْ ﴿مِنْ﴾ لتأكيدِ النَفْي، والثانية من المتَعدّي إلىٰ مفعولَيْنِ و﴿مِنْ﴾ للتَبعيضِ أي: نتّخذ بعضَ أولياء، و﴿الذِّكْرَ﴾ ذكْرُ اللهِ والإيمانُ بِهِ، أو: القرآنُ والشَّرْعُ، وَالْبُورُ: الهَلاكُ يوصَفُ به الواحدُ والجَمعُ، أو: هو جمعُ بائرٍ كعَائذٍ وعُوذٍ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ علىٰ أنّ بُطلانَ قولِ مَن يزعَمُ أنّ اللهَ تعالىٰ يَضِلُّ عبادَه على الحقيقةِ، حيثُ يقولُ للمعبُودينَ من دونه: ﴿ءَأَنْتُم أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى .. أَمْ هُمْ ضَلُّواْ﴾ بأنفُسِهِم، فَيتبرّؤُونَ من إضْلالِهِم ويَستعيذُونَ به من أن يكونُوا مضلّين، ويقولونَ: بل أنتَ تَفضّلْتَ علىٰ هؤلاء وَآبائِهِمْ، فَجَعَلُوا النعمةَ التي هي سَببُ الشُكرِ سَبَباً للكُفرِ ونسيانِ الذِكرِ، وكانَ ذلكَ سَببُ هَلاكِهِم، فبرّؤا أَنفُسَهُم من الإِضْلالِ ونزَّهوه سبحانَه أيضاً منه حيثُ أضافُوا إليهِ «التَّمتيع بالنِّعمةِ»، وأضافُوا نسيانَ الذِكرِ الذي هو سَببُ البَوارِ إليهم، فَشَرحُوا الإِضلالَ المَجَازي الذي نَسبَه اللهُ إلىٰ ذاتِهِ في قَولِهِ: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَآءُ﴾ (٢)، ولو كانَ هو المُضِلُّ على الحقيقةِ لكانَ الجَوابُ أن يقولُوا: بَل أنتَ أَضْلَلْتَهم.

﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ قُرئَ بالتاء والياء (٣)، فالتاءُ علىٰ معنىٰ: فَقَد كَذّبوكُم بقولِكُم: لَهُم آلهةٌ، والياءُ علىٰ معنىٰ: فَقَد كذّبوكُم بقولِهِم: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنبَغِى لَنَا﴾ الآية، وقُرئَ: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ بالتاء والياء (٤) أيضاً، فالتاءُ علىٰ: فَما تَستَطيعونَ

(١) رواه أبو حيان في البحر المحيط: ج ٦ ص ٤٨٩ عن أبي جعفر عليه السلام.

(٢) الرعد: ٢٧، النحل: ٩٣، فاطر: ٨.

(٣) وبالياء قرأه ابن أبي بزة عن ابن كثير. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٤٦٣.

(٤) وبالياء هي قراءة الجمهور وأبي بكر عن عاصم، وروي عن علي عليه السلام. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٤٦٣، والبحر المحيط: ج ٦ ص ٤٩٠.

أنتُم صَرْفَ العَذابِ عنكُم، وقيل: الصَرْفُ: التوبة[١]، وقيل: الحيلة[٢] من قولهم: إنّه لَيَتَصَرَّف، أي: لَيَحْتالَ، والياء علىٰ: فَما يَستَطيعُ آلهـتُكُم ذلك ﴿نُـذِقْهُ عَـذَاباً كَبِيراً﴾ في الآخرةِ، والكافِرُ ظَالِمٌ لقولِهِ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٣].

والجملةُ بعد ﴿إِلَّآ﴾ صِفةٌ لمحذوفٍ، والمعنىٰ: وما أرسَلْنا أَحَداً من المرسَلينَ إلّا آكلينَ وماشينَ، وإنّما حُذِفَ لدلالةِ الجارِّ والمجرورِ عليه، ونحوُه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾[٤] أي: ومَـا مـنَّا أَحَـدٌ، ورُويَ عـن أمـيرالمـؤمنينعليه السلام: «ويُمشَونَ» على البناءِ للمفعولِ[٥] أي: يمشيهم حَوائِجُهُم أو الناس ﴿فِتْنَةً﴾ أي: مِحنةً وٱبتلاءً، وهذا تسليةٌ لرسول الله صلى الله عليه وآله وتصبيرٌ له علىٰ ما قالُوه وٱستبدَعُوه من أكْلِهِ الطعام ومَشْيِهِ في الأسواقِ، يعني: إنّا نبتَلي المرسَلِينَ بالمرسَلِ إليهم وأنواع أذاهُم. وموقعُ قَولِهِ: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ بعدَ ذكْرِ الفِتْنةِ مَوقعُ «أيُّكم» بعد الابـتلاء فـي قولِهِ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُـمْ أَحْسَـنُ عَـمَلاً﴾[٦]، ﴿وَكَـانَ رَبُّكَ بَـصِيراً﴾ أي: عَـالِمَاً بالصَوابِ فيما يُبتلى به وغيرُه، فَلا يضيقَنَّ صدرُكَ بأقوالِهِم وٱصبِرْ. وقـيلَ: هـو تَسليةٌ له عمّا عيَّروه به من الفَقرِ حينَ قالُوا: ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَـيْهِ كَـنزٌ أَوْ تَكُـونُ لَـهُ جَنَّةٌ﴾[٧] أي: جَعَلْنا الأغنياءَ فتنةً للفُقَراءِ لننظرَ هل يَصبرونَ، وقيلَ: جَعَلْناكَ فتنةً لَهم لأنّك لو كنْتَ غَنيّاً صَاحِبَ كنوزٍ وجنّاتٍ لكانَ مَيلُهُم إليكَ وطاعتُهُم لكَ للدنيا أو ممزوجةً بها، فَبعثْناكَ فَقيراً لتكُونَ طاعَةُ من يطيعُكَ خَالِصَةً لنا من غيرِ طَـمَعٍ وغَرَضٍ دنيوي[٨]، وقيلَ: كانَ أبو جَهلٍ وأضرابُهُ يقولُون: إن أسلَمْنا وقَد أسْلَمَ

(١) حكاه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٢٧١.
(٢) حكاه ابن قتيبة، نقله عنه الماوردي في تفسيره: ج ٤ ص ١٣٨.
(٣) لقمان: ١٣.
(٤) الصافات: ١٦٤.
(٥) تفسير القرطبي: ج ١٣ ص ١٣.
(٦) هود: ٧، والملك: ٢.
(٧) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٧٢، والآية: ٨ من هذه السورة.
(٨) قاله ابن عطية. راجع تفسير الآلوسي: ج ١٨ ص ٢٥٥.

قَبلنا صُهيبٌ وبلالٌ وفلانٌ وفلانٌ، تَرفّعوا عَلَينا إذلالاً بالسابقةِ فذلكَ الفتنة (١).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً (٢٢) وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُوراً (٢٣) أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (٢٤) وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلاً (٢٥) ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيراً (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولاً (٢٩) وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُوراً (٣٠) ﴾

أي: لا يأمُلونَ لقاءَنا بالخيرِ لأنّهم كفَرةٌ، أو: لا يخافُونَ لقاءَنا بالشرِّ، والرجاءُ: الخَوفُ في لُغةِ تِهامَة، جُعِلَتْ الصيرورةُ إلىٰ دارِ جزائِهِ بمنزلةِ لقائِهِ لو كانَ ملْقيّاً، هلّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ فتُخبرُنا بأنّ محمداً صادقٌ ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ جهرةً فيأمُرُنا بتَصديقِهِ واتِّباعِهِ ﴿ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بأنْ أضمَروا الاستكبارَ عن الحقِّ وَالعِنادِ في قلوبِهم، ونحوهُ: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ (٢)، و﴿عُتُوّاً﴾ أي: تَجاوَزُوا الحدَّ في الطُّغيانِ، وَوَصفَ العُتُوَّ بالكَبيرِ فبالغَ في إفراطِهِ، أي: أنّهم لم يَجسِرُوا علىٰ هذا القولِ العظيمِ إلّا لأنّهم بَلَغُوا أقصَى العتوِّ وغايةَ الاستكبارِ، واللامُ جَوابُ قسمٍ محذوفٍ.

(١) قاله مقاتل. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٣٦٥.

(٢) غافر: ٥٦.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ مَنصوبٌ بما دلَّ عليه ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ أي: يُمنعُونَ البُشرىٰ، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تكريرٌ، أو منصوب بـ«ذكر» أي: اذكر يومَ ﴿يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾، ثم ابتدأ ﴿لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ﴾، وقولُه: ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ إمّا ظاهرٌ في موضعِ مضمَرٍ، وإمّا لأنّه عامٌّ، فَقَد تَنَاولَهُم بعمُومِهِ ﴿حِجراً مَّحْجُوراً﴾ مَنصوبٌ بفعلٍ تُرِكَ إظهارُه، قال سيبويه: يقولُ الرجلُ للرجلِ: أتفعل كذا وكذا؟ فيقول: حِجْراً[1]، وهو من حَجَره: إذا مَنَعَه. والمعنىٰ: أسألُ اللهَ أن يَحْجرَ ذلكَ حِجْراً، ومجيئُهُ علىٰ فعلٍ أو فعلٍ تصرّف فيه لاختصاصِهِ بموضعٍ واحدٍ، كما قيلَ: فُدِيتَ وَعَمْرُكَ، قال: عَوذٌ بِرَبِّي مِنْكُمْ وَحِجْرٌ، وهذه كلمةٌ كانُوا يقولُونَها عند لقاءِ عدوٍّ أو هجومِ نازلةٍ يضعُونَها موضعَ الاستعاذةِ ﴿مَحْجُوراً﴾ صفةٌ لـ﴿حِجْراً﴾ جاءَتْ لتأكيدِ مَعناهُ، كما قالُوا: مَوتٌ مائِتٌ. والمعنىٰ: أنّهم يطلبُونَ الملائكةَ، وإذا رأَوهم يومَ القيامةِ كَرِهُوا لقاءَهم وقالُوا عند رؤيتِهِم ما كانُوا يقولُونَه عند لقاءِ العدوِّ الموتورِ، وقيلَ: هو من قَولِ الملائكةِ[2]، ومَعناهُ: حَراماً مُحرَّماً عليكُم الغفرانُ والجنةُ أو البشرىٰ، أي: جَعَلَ اللهُ ذلكَ حَراماً عليكُم.

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا﴾ ليسَ هنا قُدومٌ ولكنّ شَبَّه حالَهُم وأعمالَهُم التي عَمِلُوها في كفْرِهِم من صلةِ رحمٍ وَقَرْيِ ضيفٍ وإغاثةِ مَلهُوفٍ وغيرِها من المكارمِ بحَالِ قومٍ عَصَوا مَلِكَهُم فقَدِمَ إلىٰ أسبابِهِم وأمْلاكِهِم فأبْطَلَها ولم يَترِكْ لَها أثَراً، وَالْهَبَاءُ: ما يَخرجُ من الكوّةِ مع ضوءِ الشمسِ، شَبيهٌ بالغُبارِ ﴿مَنْثُوراً﴾ صفةٌ لـ﴿هَبَآءً﴾ أي: منتَشِراً متناثِراً.

(١) كتاب سيبويه: ج ١ ص ١٩٣.
(٢) قاله قتادة والضحاك ومجاهد وعطية العوفي والحسن وعطاء وعكرمة وخصيف. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤٨٣، وتفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٤١.

المستَقَرُّ: المكانُ الذي يستقرّونَ فيه متَحادِثينَ، والمَقيلُ: المكانُ الذي يأوونَ إليه للاستِرواحِ إلىٰ أزواجِهِم، وسمِّي مَقِيلاً علىٰ طريقِ التَشبيهِ، وفي لَفظِ ﴿أَحْسَنُ﴾ رَمزٌ إلىٰ ما يتزيَّن به مَقيلِهِم من حُسنِ الوجُوهِ والصُورِ وغير ذلك من التَحاسينَ.

وقُرِئ: ﴿تَشَقَّقُ﴾ والأصلُ «تَتَشَقَّق» فحُذِفَ التاء في إحدَى القَراءتين وأُدغِمَ في القَراءةِ الأُخرىٰ ﴿بالغَمَـٰمِ﴾ الباءُ للحالِ، أي: تَتَشَقَّقُ السَماءُ وعَلَيها الغَمامُ، كما تقولُ: رَكبَ الأميرُ بسلاحِهِ، أي: وعَلَيهِ سلاحُهُ ﴿وَنُزِّلَ ٱلمَلَـٰئِكَةُ﴾ ينزلُونَ وفي أيديهِم صَحائِفُ أعمالِ العبادِ، وقُرئَ: «ونُنزِلُ المَلائِكَة»[1].

﴿المُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ﴾ الثَابتُ ﴿لِلرَّحْمَـٰنِ﴾، لأنّ كلَّ مُلْكٍ يَزولُ يومئذٍ ويبطُلُ ولا يَبقىٰ إلّا مُلْكُه، فـ﴿ٱلمُلْكُ﴾ مبتدأ، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفٌ له، و﴿الحَقُّ﴾ صفةٌ له، و﴿لِلرَّحْمَـٰنِ﴾ خبرُه. ويجوزُ أن يكونَ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظَرفاً للخَبرِ، ويجوز أن يكونَ ﴿الحقُّ﴾ خبراً، والجارُّ والمجرورُ في مَوضعِ الحالِ.

العَضُّ على اليدَيْنِ، والسقوطُ في اليدِ، وأكلُ البَنانِ، وحَرقُ الإِرَّمِ، وقرعُ الأسنان، كناياتٌ عن الغَيظِ والحَسْرةِ لأنّها من رَوادِفِهِما، واللّامُ في ﴿الظَّـٰالِمُ﴾ يجوزُ أن يكونَ للعَهْدِ فيكونَ مخصُوصاً علىٰ ما ذُكِرَ في الروايةِ، ويجوزُ أن يكونَ للجنْسِ فيتناولَ كلّ ظَالمٍ تَبعَ خَليلَهُ وتابَعه علىٰ إضلالِهِ تمنَّىٰ أنْ لو صَحبَ الرسولَ وسَلَكَ معه سَبيلَ الحقّ.

الأصلُ «يَا وَيْلَتِي» فقُلبتْ الياءُ ألفاً كما في «صحارىٰ» و«مدارىٰ» ﴿فُلَاناً﴾ كنايةٌ عن الأعلام، كما أنّ الهَنَ كنايةٌ عن الأجناس[2].

(١) وهي قراءة ابن كثير. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤٨٤.
(٢) في نسخة: «الأخباث».

﴿عَنِ الذِّكْرِ﴾ ذِكْرُ اللهِ أو القرآنُ أو متابعةُ الرسولِ، والشيطانُ إشارةٌ إلىٰ «خليله»، سَمَّاهُ شَيْطَاناً لأنّه أضلّه كَما يَضِلّ الشيطانُ ثم خَذَلَهُ ولَم يَنفعْهُ في العَاقبةِ، أو: أرادَ إبليسَ فإنّه الذي حَمَلَه علىٰ مخالّةِ المُضِلِّ ومُخالَفةِ الرسولِ ثم خَذَلَه، ويحتملُ أن يكونَ ﴿وكَانَ الشَّيطَـٰنُ﴾ حِكايةَ كَلامِ الظالمِ، وأن يكونَ كلامَ اللهِ الرسول[1] محمد ﷺ وقَومه قُريش، حَكَىٰ الله عنه شَكْواه قومه إليه.

﴿مَهْجُوراً﴾ أي: تَركُوه ولم يؤمنُوا به، وقيلَ: هُو من هَجَرَ إذا هَذَىٰ[2]، أي: جَعلُوه مَهجُوراً فيه، أي: زَعَمُوا أنّه هَذَيانٌ وباطلٌ، أو: هَجَروا فيه حينَ سَمعُوه كقولِهِ: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا الْقُرءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ﴾[3].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً (٣١) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣) ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَـٰئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٣٤) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيراً (٣٥) فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيراً (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً (٣٧) وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيراً (٣٨) وَكُلّاً ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ وَكُلّاً تَبَّرْنَا تَتْبِيراً (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُوراً (٤٠)﴾

---

(١) في نسخة: «والرسول».

(٢) قاله ابن قتيبة. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٤٣.

(٣) فصّلت: ٢٦.

هذا تَسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ، أي: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كانَ كلُّ نبيٍّ قَبلكَ مُبتَلىً بعَداوةِ قومِهِ، وكفاكَ بي ﴿هَادِياً﴾ إلى الانتصارِ منهم، ونَاصِراً لكَ عليهم. والعَدوُّ يكونُ واحداً وجَمْعاً.

و﴿نُزِّلَ﴾ هنا بمعنىٰ «أنزل»، كخَبرَ وأَخبرَ، أي: هلَّا أُنْزِلَ ﴿عَلَيْهِ الْقُرْءانُ﴾ دفعةً في وقتٍ واحدٍ كما أُنزلت التوراةُ والإنجيلُ والزبورُ ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، وقولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ جَوابٌ لَهُم، أي: كذلكَ أُنزلَ مفرَّقاً. والحكمةُ فيه أنْ نُثَبِّتَ بِهِ قَلبَكَ ونقوِّيَه بتَفْريقِهِ حتّىٰ تَعيَه وتَحفظَهُ، لأنّ المتَلقِّنَ إنّما يقوىٰ قَلبُهُ بأن يحفظَ العلمَ شَيئاً بعد شيءٍ، وأيضاً فإنَّ فيه ناسِخاً ومنسُوخاً وما هو جوابٌ للسائلِ علىٰ حَسب سؤالِهِ، ولا يتأتّىٰ ذلكَ فيمَا يَنزلُ جملةً واحدةً، ولأنّه كانَ ﷺ أُمّيّاً لا يقرأُ ولا يكتبُ ولابدَّ لَهُ من التلقّنِ، فأُنزلَ عليه مفرَّقاً، وكانَ موسىٰ وعيسىٰ قارئَين وكاتِبَين ﴿وَرَتَّلْنَـٰهُ﴾ معطوفٌ على الفعلِ الذي تعلّقَ به ﴿كَذَٰلِكَ﴾، كأنّه قالَ: فرَّقناهُ ﴿وَرَتَّلْنَـٰهُ﴾ أي: قدَّرنَاهُ آيةً بعد آيةٍ، وسورةً عقيب سورةٍ، أو: أَمَرْنا بتَرتيل قراءتِهِ وهو أن يُقْرأَ بترتُّلٍ[1] وتَثبُّتٍ، وأَصلُ التَرتيلِ: في الأسنانِ، يقالُ: ثَغرُهُ رَتَلٌ ومُرتَّلٌ أي: مفلَّج، وقيلَ: هو تَنزيلُهُ علىٰ تَمكُّثٍ وتَمهُّلٍ في مدّةٍ بعيدةٍ[2].

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾ بسؤالٍ عَجيبٍ كأنّه مَثَلٌ في البُطْلانِ ﴿إِلَّا﴾ أتَيْنَاكَ بالجَوابِ الحقِّ الذي لا مَحيدَ لَهُم عنه، وبمَا هو ﴿أَحْسَنَ﴾ معنىً من سؤالِهم، وُضِعَ «التَّفْسِير» موضع «المعنىٰ» لأنَّ التفسيرَ هو الكَشْفُ عمّا يدلّ عليه الكلامُ، يعني: أنّ تَنزيلَه مفرَّقاً وتحدِّيهم بسورةٍ سُورةٍ منها أدْخَلُ في بابِ الاعجاز من أن يَنزلَ جملةً واحدةً فيقالُ لهم: إئتوا بمثلِها في الفَصَاحةِ، كأنّه قالَ: إنّما يَحملُكُم علىٰ هذه

(١) في نسخة: «بترسّل».

(٢) قاله مجاهد. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٣٦٨.

السؤالات أنّكم تضلّلونَ سَبيلَه وتحقّرونَ مكانَه ومنزلَتَه. وإذا سُحِبْتم ﴿علىٰ﴾ وجُوهِكُم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ عَلمْتُم أنّ مكانَكُم شرٌّ من مَكانِهِ، وسبيلُكُم أضلُّ من سَبيلِهِ، ويجوز أن يُرادَ بِالْمَكَانِ: الشَّرفُ والمنزلةُ، وأن يرادَ الدَّارُ والمسكنُ، كقولِهِ: ﴿أَيُّ الفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾[1].

﴿وَزِيراً﴾ أي: مُوَازِرَاً له علىٰ تأديةِ الرِّسالةِ. والمعنىٰ: فذَهَبَا إليهم فكذّبوهُما ﴿فَدَمَّرْنَـٰهُمْ﴾ فاختَصَرَ لأنَّ المقصودَ من القصّةِ إلزامُ الحجّةِ بإرسالِ الرُّسُلِ واستحقاقِ التَدبيرِ بتكذيبِهِم. ورَوَوا عن عليٍّ عليه السلام: «فدمَّراهم»[2] و«فدمِّرانّهم» على التأكيدِ بالنونِ المشدّدة[3].

﴿كَذَّبُواْ الرُّسُلَ﴾ لأنّ تَكذِيبَهُم لَه تَكذيبٌ لجَميعِهِم، أو: كذَّبُوه وَمَنْ قَبلَه من الرُّسُلِ، أو: لم يَرَوا بعثةَ الرُّسُل كالبَراهِمَة ﴿وجَعَلْنَـٰهُمْ﴾ أي: إغراقَهُم وقصّتَهُم ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: لَهُم، إلّا أنّه قَصَدَ تَظليمَهم فأَظْهَرَ، أو تناولَ الظالمينَ بعمومِهِ.

﴿وَعَاداً﴾ عَطْفٌ علىٰ «هُمْ» في ﴿جَعَلْنَـٰهُمْ﴾، ﴿وَأَصْحَـٰبَ الرَّسِّ﴾ كانَ لَهم نبيٌّ اسمُهُ حنظلة، فقَتَلُوه فأُهلِكُوا، والرَّسُّ: البئرُ غيرُ المطويَّة، وقيلَ: الرَّسُّ: قَريةٌ باليمامةِ يقالُ لَها فَلَج[4]، ورُوي عن الصادق عليه السلام: «أنّ نساءَهُم كُنَّ سَحَّاقَات»[5].

﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور، كما يَحسِبُ الحَاسِبُ أعداداً كثيرةً ثم يقولُ: فذلكَ كذا، بمعنىٰ: فذلكَ المحسُوبُ أو المعدُودُ.

---

(١) مريم: ٧٣.

(٢) رواه عنه عليه السلام الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٨٠.

(٣) انظر البحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٤٩٨.

(٤) قاله قتادة. راجع التبيان: ج ٧ ص ٤٩٠.

(٥) رواه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٧ ص ٤٩١.

﴿وَكُلاً﴾ منصوبٌ بمُضْمَرٍ وهو «أنذرنا» و«حذَّرنا»، ودلَّ عليه قولُهُ: ﴿ضَرَبْنَا لَهُ الأمْثَـلَ﴾ أي: بيَّنا له القَصَصَ العَجيبةَ ﴿وَكُلاً﴾ الثاني[1] بمضمَر وهو ﴿تَبَّرْنَا﴾ والتَّتْبيرُ: التكسيرُ.

وأراد بـ﴿ـالقَرْيَةِ﴾ سَدوم من قُرىٰ قَومِ لوطٍ، وكانَتْ خَمْساً، أهلكَ اللهُ أربعاً منها وبقيَتْ واحدةٌ، و﴿مَطَر السَّوْءِ﴾: الحِجَارَةُ، وكانَتْ قريشٌ يمرُّونَ في متاجرِهِم إلى الشَّام علىٰ تلكَ القَريةِ التي أُهلِكَتْ بالحجَارةِ ويَرَونها ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ أي: لا يَتوقّعونَ وضع الرَّجاءِ موضعَ التوقّعِ، لأنّه إنّما يتوقّعُ العاقبةَ من يكونَ مؤمناً، أو: لا يأملُونَ ﴿نُشُوراً﴾، أو: لا يخافُونَ فلذلكَ لم ينظرُوا ولم يتَذكّروا.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢) أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤) أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً (٤٦) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاساً وَٱلنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُوراً (٤٧) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرَاً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُوراً (٤٨) لِّنُحْىِ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰماً وَأَنَاسِىَّ كَثِيراً (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (٥٠)﴾

﴿إنْ﴾ الأُولىٰ نافيةٌ، والثانيةُ مخففَّةٌ من الثَّقيلةِ، واللامُ هي الفارقةُ بينهما، أي:

---

(١) في نسخة زيادة: «منصوب».

ما ﴿يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا﴾ موضع هُزْءٍ ومَهزُوءاً به، ومعناهُ: يستهزئُونَ بكَ ويقولُونَ: ﴿أَهَـٰذَا الَّذِي﴾ بَعثَه ﴿اللَّهُ﴾؟! وهذا ٱستِصْغارٌ.

وفي قولِهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ دليلٌ علىٰ بَذْلِ رسولِ الله ﷺ غايةَ المجهودِ في دعوتِهم وعَرْضِ الآياتِ والمُعجزاتِ عليهم حتّىٰ قَارَبُوا أن يتركُوا دينَهُم إلىٰ دينِ الإسلامِ، و﴿لَوْلَآ﴾ هنا جارٍ مَجْرىَ التقييدِ للحكمِ المُطلقِ من حيث المعنىٰ وَ﴿سَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وَعيدٌ، وقولُهُ: ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ كالجَوابِ عن قولِهِم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: مَنْ جَعَلَ هَواهُ مَعبودَهُ، أفتتوكّلُ عليه بأن تَدعُوهُ إلى الهدىٰ وتُجبرُه عليه وتقولُ: لابدَّ أن تُسلِمْ شئتَ أو أبيتَ؟ كما قالَ: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (١) ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ (٢).

﴿أَمْ﴾ منقطعةٌ، أي: بَلْ أ﴿تَحْسَبُ﴾، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ لأنّ الأنعامَ تَنقادُ لِمَن يَتَعهَّدُها، وتَعرفُ مَن يُحسِن إليها ممّن يسيء إليها، وتَطلبُ ما ينفعُها وتَجتنبُ ما يَضرُّها، وهؤلاء لا يَنقادونَ لربِّهم ولا يَعرفونَ إحسانَه إليهم من إساءةِ الشَّيطان، ولا يَطلبونَ الثَّوابَ الذي هو أعظمُ المنافع، ولا يَجتنبونَ العقابَ الذي هو أشَدُّ المضارّ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أَلَمْ تنظرْ إلىٰ صُنْعِ ربّكَ وقُدرتِهِ ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ أي: جَعَلَه ممتدّاً منبسِطاً لينتفعَ به الناسُ ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ أي: لاصِقاً بأَصلِ كلّ ذي ظلٍّ من بناءٍ أو شجرٍ فَلَمْ ينتفعْ به أحدٌ، سمَّىٰ سبحانَهُ انبساطَ الظلِّ وامتدادَهُ تَحرّكاً منه، وعدمَ ذلكَ سكُوناً. ومعنىٰ كونِ الشَمسِ ﴿دَلِيلاً﴾: أنّ الناسَ يَستدلّونَ بالشَمسِ وأَحْوالِها في مَسيرِها علىٰ أحوالِ الظلّ من كونِهِ ثَابتاً في مَكانٍ وزائلاً (٣)

---

(١) الغاشية: ٢٢. (٢) ق: ٤٥.

(٣) في نسختين زيادة: «ومنبسطاً».

ومتّسعاً ومتقلّصاً، ولولا الشَمسُ ما عُرِفَ الظلُّ، ولولا النُورُ لما عُرِفَتِ الظُلْمةُ.

ومعنىٰ «قَبَضَهُ إليه»: يَنْسِخَهُ بِضَحِّ الشَّمسِ ﴿قَبْضاً يَسِيراً﴾ علىٰ مهلٍ شيئاً بعد شيء، وفي ذلكَ منافع غيرُ محصورةٍ، ولو قُبِضَ دفعةً واحدةً لتَعطّلتْ أكثرُ مَرافقِ النَّاسِ بالظلّ والشمسِ جميعاً.

وأمّا فائدةُ ﴿ثُمَّ﴾ في المَوضِعَينِ فهو أنّه بيانٌ لتَفَاضل الأُمورِ الثلاثةِ تَشْبيهاً لتباعُدِ ما بَينَها في الفَضْلِ بتَباعدِ ما بينَ الحَوادثِ في الوقت.

وفي الآيةِ وجهُ آخرُ وهو: أنّه سبحانَه مدَّ الظلَّ حينَ بنى السَّماءَ كالقُبّةِ، فألْقَتِ القُبّةُ ظلَّها علىٰ وجهِ الأرضِ ﴿وَلَو شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ مُستَقَرّاً علىٰ تلكَ الحالةِ، ثم خَلَقَ الشَمسَ وجَعَلَها علىٰ ذلكَ الظلِّ دليلاً متبُوعاً له كما يُتَّبعُ الدَليلُ في الطريق، فهو يزيدُ بها وينقصُ، ثم نَسَخَه بها وقَبضَهُ قَبضاً سَهلاً يَسيراً غَيرَ عَسيرٍ.

ويمكنُ أن يكونَ المرادُ قَبضَهُ عندَ قيامِ الساعةِ بقَبْضِ أسبابِهِ وهي الأجرامُ ذواتُ الظلّ، أي: نعدِمُهُ بإعدام أسبابِهِ كما أنشأَهُ بإنشاءِ أسبابِهِ، وفي قولِهِ: ﴿قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنا﴾ دلالةٌ عليه، وكذلك في قوله: ﴿يَسِيراً﴾ كقولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾[١].

جَعَلَ ظَلامَ الليلِ مثلَ اللباسِ السَاترِ، والنَائمُ شبهُ الميّتِ، والسُباتُ: الموتُ لأنَّ في مُقابلتِهِ النُشُورَ، فالنَومُ واليقظةُ مشبَّهانِ بالموتِ والحياةِ، وقيلَ: ﴿سُبَاتاً﴾ راحةً لابدّ منها للناس[٢] وقَطْعاً لأعمالِهم[٣] ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً﴾ يَنتشرُ الناسُ فيه لطَلَبِ مَعَاشِهِم، ويتفرَّقُونَ لحوائجِهم، نَشراً أي: إحْياءً، ونُشُرٌ جمع نَشُورٍ وهي المحيية، و«نُشراً» تخفيفُ «نُشُرٍ».

---

(١) ق: ٤٤. (٢) في بعض النسخ: «لأبدان الناس».

(٣) قاله الخليل وأبو مسلم وابن عيسىٰ. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٤٧، وتفسير القرطبي: ج ١٣ ص ٣٩.

و«بُشْراً» تخفيفُ «بُشُرٍ» جمعُ بَشُورٍ وبُشْرى ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: قُدَّام المَطَرِ ﴿طَهُوراً﴾ أي: بليغاً في طهارتِهِ، وقيلَ: طَاهِراً في نفسِهِ مُطهِّراً لغيرِهِ[١]، وهو صفةٌ في قولِكِ: ماءٌ طهورٌ، واسمٌ لِمَا يُتطهَّر به كالوضُوءِ والوقُودِ.

قال: ﴿بَلْدَةً مَّيْتاً﴾ لأنّ البلدةَ في معنى «البَلَد» في قولِهِ: ﴿فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ ميِّتٍ﴾[٢]، وقُرِئَ: «نَسقيه» بالفتح[٣]، وسَقَىٰ وأَسْقَىٰ لُغتان، وقيلَ: أَسقاهُ: جَعَلَ له سُقْيا[٤]، والأَناسِي: جمعُ إنسيٍّ أو إنْسانٍ، كالظَرابِي في جَمْعِ ظِربان، علىٰ قَلْبِ النونِ من «أَناسين» و«ظرابينَ» ياءً.

﴿ولَقَدْ﴾ صَرَّفْنَا المَطَرَ بينَهُم في البلدانِ المختلفةِ والأوقاتِ المتَغايرةِ وعلى الصفاتِ المتفاوتةِ ليَستدِلّوا بذلكَ علىٰ سعةِ مقدورِنا، فَأبَوْا ﴿إِلَّا كُفُوراً﴾ وأن يقولُوا: مُطِرْنا بِنَوءِ كذا[٥].

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً (٥١) فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (٥٢) وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً (٥٣) وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً (٥٤)

(١) قاله أحمد بن عيسىٰ. راجع الكشّاف: ج ٣ ص ٢٨٤.

(٢) فاطر: ٩.

(٣) قرأه المفضّل والأعمش عن عاصم. راجع التذكرة في القراءات: ج ٢ ص ٥٧٤.

(٤) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٨٥.

(٥) قال أبو عبيد: الأنواء ثمانية وعشرون نجماً معروفة المطالع في أزمنة السنة كلّها، يسقط منها في كلّ ثلاث عشرة ليلة نجمٌ في المغرب مع طلوع الفجر، ويطلع آخر يقابله في المشرق من ساعته، وكِلَاهما معلوم مسمّىٰ، وكانت العرب في الجاهلية اذا سقط منها نجمٌ وطلع آخر قالوا: لابدّ من أن يكون عند ذلك مطر أو رياح، فينسبون كلّ غيث يكون عند ذلك الى ذلك النجم، فيقولون: مُطِرنا بنوء الثريا والدبران والسماك. أُنظر لسان العرب: مادة «نوأ».

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ مَالَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ
ظَهِيراً (٥٥) وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً (٥٦) قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ
ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً (٥٨) ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى
ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِ خَبِيراً (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَـٰنِ
قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً (٦٠)﴾

﴿لَبَعَثْنَا﴾ في كلّ قريَةٍ ﴿نَذِيراً﴾ يُنذرُها، وإنّما قصَرْنا الأمر عليكَ تفْضيلاً لكَ علىٰ سائرِ الرُّسلِ، فقابلْ هذا التعظيمَ والتبجيلَ بالتصبُّرِ، و﴿لَا تُطِعِ الكَـٰفِرِينَ﴾ فيمَا يُريدونَكَ عليه.

والضَّميرُ في ﴿بِهِ﴾ للقرآنِ، أو: لتَركِ الطاعَةِ الذي دلّ عليه ﴿فَلَا تُطِعِ﴾ والمرادُ: أنّ الكفّارَ يجتهدونَ في تَوهينِ أمرِكَ فقابلْهم من جدِّكَ واجتهادِكَ بما تغلبهُم به، وجعَلَه ﴿جِهَاداً كَبِيراً﴾ للمشاقِّ العظيمةِ التي يحتملُها فيه. ويجوزُ أن يكونَ المرادُ: وجاهِدْهُم بسببِ كونِكَ نَذيراً للجميعِ جهاداً كَبيراً جَامعاً لكلّ مُجاهدةٍ.

﴿مَرَجَ البَحْرَيْنِ﴾ خلَّاهُما متجاورَيْن كما يُخلَّى الخيلُ في المَرَجِ، والفُراتُ: البالغُ في العُذوبةِ، والأُجَاجُ ضِدُّه ﴿بَرْزَخاً﴾ أي: حَائِلاً من قُدرتِهِ يَفْصِلُ بينهما ويمنَعُهما التَمازُجَ ﴿وحِجْراً مَحْجوراً﴾ مرَّ تفسيرُه[1]، وهو هنا مجازٌ، كأَنَّ كلَّ واحدٍ من البحرَين يتعوَّذُ من صاحِبِهِ ويقولُ له: حِجْراً محجُوراً، كما قال:

(١) تقدّم في تفسير الآية: ٢٢ فراجع إن شئت.

﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ [(١)] أي: لا يَبغي أحدُهُما علىٰ صاحِبِه، فانتفاءِ البغْيِ هناك كـالتَعوُّذ هنا، جَعَلَ كلَّ واحدٍ منهما في صورةِ الباغي علىٰ صاحبِهِ فهو يَتعوَّذ منه.

﴿خَلَقَ مِنَ الْمَآءِ﴾ أي: من النُطْفَةِ ﴿بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً﴾ أي: فـقَسَّمَ البَشَـرَ قسمَين: ذَوِي نَسَبٍ ذُكُوراً يُنْسَبُ إليهم، و﴿صِهْراً﴾ أي: إناثاً يُصاهرُ بهنَّ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ يخلُقُ من النُطْفةِ الواحدةِ نوعَين: ذكَراً وأُنثىٰ.

والظَّهيرُ بمعنى الْمُظاهِرُ، أي: يُظاهرُ الشَيطانُ علىٰ ربِّه بعبادةِ الأوثانِ.

﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ﴾ مَعناهُ: إلَّا فعْلُ مَن شاءَ أن ينفق المالَ في طَلَبِ رضا ربِّه، ويَتَقرَّبُ بالصَدَقةِ في سبيلِهِ، وهو معنى الاتّخاذ إلى الله سَبيلاً.

أي: تَمَسَّكْ بالتوكّلِ ﴿عَلَى الحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ وَثِـقْ بـه فـي أستكفاءِ شرورِهِم، وعن بعضِ السَلَفِ أنّه قَرأَها فقال: لا يصحّ لذي عقل أن يثق بَعدَها بمخلوقٍ [(٢)] ﴿وَكَفَى بِهِ﴾ الباءُ زائدةٌ، أي كفاكَ اللهُ ﴿خَبِيراً﴾ تمييزٌ أو حالٌ، أرادَ بهذا أنّه ليسَ إليه من أمرِ عبادِهِ شيءٌ، آمَنُوا أم كَفَروا، وأنّه خبيرٌ بأحوالِهِم، كَافٍ في جزَاءِ أعمالِهِم.

﴿الَّذي خَلَقَ﴾ مبتدأ و﴿الرَّحْمٰنُ﴾ خبرهُ، أو: هُوَ صِفَةٌ لـ﴿الحيِّ﴾ و﴿الرَّحْمٰنُ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أو بدلٌ عن الضمير المستكنّ في ﴿استوىٰ﴾. وقُرِئَ: «الرَّحْمٰنِ» بالجر [(٣)] صِفَةٌ لـ﴿الحَيّ﴾، وقُرئَ: «فَأَسْأَل» [(٤)]، والباءُ في ﴿بِهِ﴾ صِلَةُ «سَلْ» كقولِهِ: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [(٥)] كما أنّ «عن» صلتُهُ

---

(١) الرحمن: ٢٠.

(٢) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٨٨.

(٣) قرأه زيد بن علي كما في البحر المحيط: ج ٦ ص ٥٠٨.

(٤) وهي قراءة ابن كثير والكسائي في الوصل وحمزة في الوقف، كما في تفسير السراج المنير: ج ٢ ص ٦٧٠.

(٥) المعارج: ١.

في قولِهِ: ﴿لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [١]، فقولُكَ: «سألَ به» مثلُ «اهْتَمَّ به» و«اعتنىٰ به»، و«سألَ عنه» كـ«فتَّشَ عنه» و«بَحَثَ عنه». ويجوزُ أن يكونَ صلةَ ﴿خَبِيراً﴾ ويُجعلَ ﴿خَبِيراً﴾ مفعول «سَلْ»، والمعنىٰ: فسَلْ عنه رجلاً عارفاً يُخبِرُكَ برحمتِهِ، أو: فَسَلْ رجلاً خبيراً به وبِرحمتِهِ، أو: فَسَلْ بسؤالِهِ خَبيراً، كما تقول: رأيتُ به أسداً، أي: برؤيته، والمعنىٰ: إنْ سألْته وجَدتَه خَبيراً، أو تجعلُه حالاً عن الهاءِ تريدُ: فَسَلْ عنه عالِمَاً بكلّ شيء. وقيلَ: الرَّحمٰنُ اسمٌ من أسماءِ الله تعالىٰ مذكورٌ في الكتبِ المتقدّمةِ، ولم يكُونُوا يعرفونه، فقيلَ لهُ: سَلْ بهذا الاسمِ مَن يخبرك به من أهلِ الكتابِ [٢].

﴿ومَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أنكرُوا إطلاقَ هذا الاسمِ على اللهِ لأنّه لم يكنْ مستعملاً في كَلامِهم ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: للذي ﴿تَأْمُرُنَا﴾ بالسجودِ له؟ فحُذف علىٰ تَرتيبٍ، وقُرِئَ بالياء [٣] أي: لِمَا يأمُرُنا محمدٌ ﷺ، ويأمُرُنا المُسمَّىٰ بالرَّحمٰن. ويجوزُ أن تكونَ «ما» مصدريةً أي: لأمْرِكَ لنا، وفي ﴿زَادَهُمْ﴾ ضَميرُ ﴿اسجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ لأنّه هو المَقُول.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً (٦١) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً (٦٢) وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰماً (٦٣) وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَٰماً (٦٤) وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً (٦٥) إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً (٦٦) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ

(١) التكاثر: ٨. (٢) قاله الزجّاج في معاني القرآن: ج ٤ ص ٧٣.
(٣) قرأه حمزة والكسائي. راجع التبيان: ج ٧ص ٥٠٠.

يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً (٦٧) وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (٦٨) يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَـٰلِحاً فَأُوْلَـٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَّحِيماً (٧٠)﴾

يريدُ بالْبُرُوجِ: منازلَ الكَواكبِ السيارةِ، وهي اثنا عشر بُرْجاً، سُمِّيت بالبُرُوجِ التي هي القُصُورُ العاليةُ لأنّها لهذهِ الكواكبِ كالبُرُوجِ لسكّانها، والسِّرَاجُ: الشَمسُ. وقُرِئَ: «سُرُجاً»[١] وهي الشَمسُ والكواكبُ الكبار معها. وعنهمعليهم السلام: «لا تَقرأ سُرُجاً إنّما هي سِرَاجاً، وهي الشَمسُ».

والخِلْفَةُ: الحالةُ التي يختلفُ عليها الليلُ والنهارُ، ويَخلُفُ كلّ واحدٍ منهما الآخرَ، والمعنىٰ: جعَلَهما ذَوي خِلفَةٍ، أي: ذوي عقبةٍ، يعقبُ هذا ذاك وذاكَ هذا. وقُرِئَ: «يَذْكُرَ»[٢] و﴿يَذَّكَّرَ﴾، أي: لينظرَ في اختلافِهما الناظرُ فيعلمُ أنّ لابدَّ لَهُما من مُغيّرٍ ونَاقلٍ من حَالٍ إلىٰ حَال، ويَشكُرَ الشَاكِرُ على النعمةِ فيهما من السكونِ بالليلِ والتصرّفِ بالنَهارِ، أو: ليكونا وقتاً للمتذكّرينَ والشاكرينَ، مَنْ فاتَهُ وِرْدُه في أحدِهِما قَضَاه في الآخَرِ.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ﴾ مبتدأ خبرُهُ في آخَر السورة قولُهُ: ﴿أُولَـٰئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾، ويجوزُ أن يكونَ خبرُهُ ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ الأرض ...﴾، ﴿هَوْناً﴾ حالٌ أو صِفَةٌ للمشي، أي: هيِّنينَ أو: مَشْياً هَيِّناً، إلّا أنّ في وَضْعِ المصدرِ موضعَ

(١) قرأه حمزة والكسائي وعبدالله وعلقمة والأعمش. راجع التبيان: ج ٧ ص ٥٠٢، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٥١١.
(٢) وهي قراءة حمزة وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٦٦.

الصِّفةِ مبالغةً، والهَوْنُ: الرِفْقُ واللِّينُ، وفي المَثَلِ: «إذا عزَّ أخوك فهُنْ»[1] أي: يمشُونَ بسَكينةٍ وتَواضعٍ ﴿سَلَاماً﴾ تسلّماً منكُم لا نُجَاهِلُكُم، ومتاركةً لا خَيرَ بينَنا ولا شرّاً، أي: نتسلَّم منكم تسلماً، فأُقيم السلامُ مَقامَ التسلُّمِ، وقيلَ: قالوا سداداً من القَولِ يسلَمونَ فيه من الإثمِ[2]. والمرادُ بالجَهْلِ السفَهُ وقلّةُ الأدبِ.

«باتَ» خلافُ «ظَلَّ»، وصِفُوا بإحياءِ الليلِ أو أكثره ساجدينَ وقائمينَ.

﴿غَرَاماً﴾ أي: هَلَاكاً وخُسْراناً مُلِحّاً لازماً، قال:

إنْ يُعَاقِبْ يَكُنْ غَراماً وإن يُعـ ـطِ جَزيلاً فإنَّه لَا يُبَالِي[3]

ومنه: الغريمُ لأنّه يلحُّ ويُلْزِم، يعني: أنّهم مَعَ عبادتِهم واجتهادِهم خائفُونَ متضرِّعُونَ إلى الله في ٱستدفاعِ العَذَابِ عنهُم. ﴿سَآءَتْ﴾ في حُكْمِ «بِئْسَت»، فيها ضَميرٌ مبهمٌ يفسِّره ﴿مُسْتَقَرّاً﴾، والمَخْصُوصُ بالذَمّ محذوفٌ، ومعناهُ: سَاءَتْ مستَقَرّاً ﴿وَمُقَاماً﴾ هي، وهذا الضَميرُ هو الذي رَبَطَ الجملةَ باسم «إنَّ» وجَعَلَها خَبَراً لَها. ويجوزُ أن يكونَ «ساءَتْ» بمعنىٰ «أحزَنَتْ»، وفيها ضميرُ اسم «إنَّ»، و﴿مستقراً﴾ حالٌ أو تَمييزٌ. التَعليلان يَصحّ أن يكُونَا مَتداخلَينِ ومترادِفَينِ، وأن يكونَا من كلامِ الله وحكايته لقولِهِم.

﴿وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ قُرِئَ بكسرِ التاء[4] وضمّها و«يُقتِرُوا» بضمّ الياء[5]، والقترُ والإِقتارُ نقيضُ الإسرافِ الذي هو مجاوزةُ الحدِّ في النَفَقَة، وَصَفَهُم بِالْقَصْدِ الذي هو بين الغلوِّ والتَقصيرِ، والقَوَامُ: العَدْلُ بين الشيئَيْن لاستقامةِ الطَرفَينِ وٱعتدالِهِما.

---

(١) وهو من الأمثال الشائعة، يعني: إذا عاسرك صديقك فياسره، فإنّ مياسرتك إيّاه ليست بضيمٍ يركبك منه، إنّماهوحسن خلقٍ وتفضّل عليه. راجع مجمع الأمثال: ج ١ ص ٢٤.

(٢) قاله مجاهد. راجع التبيان: ج ٧ ص ٥٠٤.

(٣) البيت للأعشىٰ، ومعناه واضح. راجع شرح ديوان الأعشى لكامل سليمان: ص ١٧١.

(٤) قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع التبيان: ج ٧ ص ٥٠٦.

(٥) قرأه نافع وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٦٦.

ونظيرُهُ «السَواءُ» من الاستواء. ويجوز أن يكون ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ و﴿قَوَاماً﴾ خبرَين مَعاً، وأن يكونَ ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ لغواً، و﴿قَوَاماً﴾ مستقراً، وأن يكونَ الظرفُ خَبَراً و﴿قَوَاماً﴾ حالٌ مؤكّدة.

﴿النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: حَرَّمَها، والمعنىٰ: حرَّم قَتْلَها، وتَعلَّقَ ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ بهذا القَتْلِ المَحذوفِ أو بـ﴿لَا يَقْتُلُونَ﴾، نَفَىٰ عَنهُم هذه الخصالَ القبيحةَ، وبرَّأهُم منها تَعريضاً بما كانَ عليه أعداؤُهُم من الكفّار، كأنّه قال: والّذِين بَرّأهُم اللهُ ممّا أنتُم عليه، والقَتْلُ بِغَيْرِ حَقٍّ يدخلُ فِيه الوأدُ وغيرُهُ. والأَثَام: جزاءُ الإِثْمِ كالوبالِ والنكالِ، وقيلَ: هو الإِثمُ[1]. والمعنىٰ جَزَاءَ أَثَامٍ.

﴿يُضَاعَفْ﴾ بَدَلٌ من ﴿يَلْقَ﴾ لأنّهما في معنىً واحدٍ، وقُرِئَ: «يُضَاعَفُ» بالرفع و«يَخْلُدُ» بالرفع[2]، و«يُضَعَّفُ» بالرفعِ[3] والجزمِ[4]، والرفعُ على الاستئنافِ أو على الحَال.

وتَبْدِيلُ السَّيِّئَاتِ حَسَناتٍ أن تُمحىٰ السيّئةُ وتُثبتُ بَدلَها الحَسَنَةُ، وقُرِئَ: «يُبْدِلُ»[5] من الإِبدالِ، وقيلَ: يبدّلُونَ بقَبائحِ أعمالِهِم في الشرْكِ مَحَاسنَ الأعمالِ في الإِسلام[6].

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحاً فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَاباً (٧١) وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَاماً (٧٢) وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ

---

(١) قاله ابن عباس والسدي وأبو مسلم. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٥٨.
(٢) وهي قراءة ابن عامر وأبي بكر. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٧٥.
(٣) قرأه ابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٤٦٧.
(٤) وهي قراءة ابن كثير وحده. راجع المصدر السابق.
(٥) قرأه عاصم برواية أبي بكر عنه. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٠٧.
(٦) قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والسدي والضحّاك. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٥٨.

بِـئَايَـٰتِ رَبِّهِم لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً (٧٣) وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً (٧٤) أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰماً (٧٥) خَـٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً (٧٦) قُلْ ما يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامَاً (٧٧)﴾

﴿وَمَن﴾ تَرَكَ المَعاصِيَ ونَدمَ عليها، ودَخَلَ في العَمَلِ الصَالحِ فـإنّه يَـرجـعُ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وإلىٰ ثَوابِهِ مَرْجِعاً حَسناً أيَّ مَـرْجِعٍ، أو: فـإنّه تـابَ بـذلكَ إلى اللهِ ﴿مَتَاباً﴾ مَرْضِيّاً عنده.

﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: مَجالسَ الفُسّاقِ، ولا يحضرونَ الباطلَ، وقيلَ: هو الغناءُ[1]، ورُوِيَ ذلك عن السيدَين الباقر والصادق عليهما السلام[2]، وفي مَواعظ عيسىٰ ابن مريم: «إيّاكم ومجالسةَ الخطّائين[3]». وقيلَ: لا يشـهَدونَ شـهادةَ الزورِ[4] فحُذِفَ المُضافُ ﴿وإذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ أي: بأهل اللّـغوِ والمشـتَغِلينَ بـه ﴿مَـرُّواْ كِرَاماً﴾ مُكرمينَ أنفُسَهُم عن التوقّفِ عليهم والخَـوضِ مـعهم، مُـعرضِينَ عـنهم، واللَّغوُ: كلّ ما يَنبغي أن يُلقىٰ ويُطرَحُ. ﴿إذا ذُكِّرُوا بِـئَايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: وُعِـظوا بالقرآنِ والأدلّةِ ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمّاً﴾ ليسَ بنفيٍ للخُرُورِ، بل هو إثباتٌ لَهُ ونفيٌ للصَمَمِ والعَمَىٰ، أي: إذا ذُكِّروا بها أكبُّوا عَلَيها حِرْصَاً على ٱستِمَاعِها وهم سامِعُونَ بآذانٍ واعيةٍ، مُبصِرُونَ بعيونٍ راعيةٍ.

(١) قاله محمد بن الحنفية ومجاهد. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٥٩.
(٢) الكافي: ج ٦ ص ٤٣١ ح ٦ وص ٤٣٣ ح ١٣.
(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٢٩٥.
(٤) وهو قول عليٍّ والباقر عليهما السلام وعلي بن طلحة. راجع تفسير القرطبي: ج ١٣ ص ٨٠.

وقرئ: «وذُرِّيَّتِنا»[١]، سألوا ربَّهم أن يرزقَهم أزواجاً وأولاداً وأعْقاباً تَقرُّ بِهِم عيونُهُم، وتُسرُّ بِهِم نفوسُهُم، وعن ابن عباسٍ: هـو الولدُ إذا رآهُ يَكـتُبُ الفِـقْه[٢] ﴿إِمَاماً﴾ أَرادَ أئمةً، واكتفىٰ بالواحدِ لدلالتِهِ على الجـنسِ، أو: أرادَ جـمع «آمٍّ» كصَائمٍ وصيّامٍ، و﴿مِنْ﴾ للبَيانِ، أي: ﴿هَبْ لَنَا ... قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ ثم بيَّنَ القُرَّةَ بقولِهِ: ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّـتِنَا﴾، وهو من قَولِهِم: رأيتُ منكَ أسداً أي: أنتَ أسدٌ. ويجوزُ أن يكونَ للابتداء بمعنى: هَبْ لَنا من جهتِهِم ما تَقرُّ به أعيُنَنا من صَلاحٍ وعلْمٍ، ونَكَّرَ القرّةَ بتنكير المُضافِ إليه، فكأنّه قالَ: هَبْ لَنا منهُم سُروراً وفَرحاً.

وعن الصادق عليه السلام في قولِهِ: ﴿وَٱجْـعَلْنَا لِـلْمُتَّقِينَ إِمَـاماً﴾ قـال عليه السلام: «إيّـانا عَنَىٰ»[٣]. وَرُوِيَ عنه عليه السلام أنّه قال: «هذه فينا»[٤].

وعن أبي بصيرٍ قالَ: قلتُ: واجعلْنا للمتّقينَ إماماً؟ فـقال عليه السلام: «سأَلْتَ ربَّكَ عَظيماً، إنما هي: واجْعلْ لَنا مِن المتّقين إماماً»[٥].

﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ يريدُ الغُرفات، وهي العَلالي في الجنّةِ، فَـوحَّدَ اقـتصَاراً على الواحدِ الدالِّ على الجنسِ، يدلّ عليه قولُهُ: ﴿وَهُمْ فِى الْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ﴾[٦]، ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصَبْرِهِم على الطَّاعَاتِ وعن الشَّهَواتِ، وعـلى مـجَاهَدةِ الكـفّارِ ومُقاساةِ الفقْرِ ومشاقّ الدُنْيا، لشياعِ اللَفْظِ في كلّ مَصْبورٍ عليه. وقُرِئَ: ﴿يُلَقَّوْنَ﴾،

---

(١) قرأه عاصم برواية ابي بكر وأبو عمرو وحمزة والكسائي وطلحة وعيسى. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٦٧، وتفسير القرطبي: ج ١٣ ص ٨٢.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٢٩٦.

(٣) تفسير القمي علي بن ابراهيم: ج ٢ ص ١١٧.

(٤) رواه البرقي في المحاسن: ص ١٧٠ ح ١٣٦.

(٥) تفسير القمي علي بن ابراهيم: ج ٢ ص ١١٧.

(٦) سبأ: ٣٧.

وهو كقولِهِ: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً﴾ [١] و«يَلْقَوْنَ» [٢] كقولِهِ: ﴿يَلْقَ أَثَاماً﴾. ﴿تَحِيَّةً﴾ قولاً يُسرُّونَ به، ودعاءً بالتَّعمير تُحيِّيهُم الملائكةُ ويُسلِّمونَ عليهم، أو: يحيِّي بعضُهم بَعْضاً ويسلِّم عليه، وقيلَ: يُعْطَونَ مُلْكاً عَظيماً وتَخليداً مع السَّلامةِ من كلّ آفة [٣]. ﴿مُسْتَقَرّاً ومُقَاماً﴾ موضع استقرارٍ وموضع إقامةٍ.

﴿مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ﴾ أي: ما يُبالي بكُم ربِّي، ولم يعتدَّ بكم ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ أي: عبادتُكُم، وقيلَ: «مَا» استفهاميةً في محلّ النَّصبِ، وهي عبارةٌ عن المصدر [٤]، كأنّه قالَ: أيُّ عَبْءٍ يَعبأُ بكُم لولا دعاؤُكُم، أي: لا تَستأهلُونَ شيئاً من العَبْءِ بكم لولا عبادتُكُم، وحقيقةُ قولِهِم: ما عَبأتُ به: ما ٱعتددّتُ به من مهمَّاتي وما يكونَ عَبْأً عَلَيَّ، وقيلَ: لَولَا دعاؤُكُم إيّاه إذا مسَّكُم ضرٌّ رغبةً إليه وخُضُوعاً له [٥]. وفي هذا دلالةٌ علىٰ أنّ الدعاءَ من الله بمكانٍ، وقيلَ: معناهُ: ما يَصنَعُ بكم ربّي لولا دعاؤُهُ إيّاكُم إلى الإسلام [٦] ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بالتَوحيدِ وبمَنْ دَعَاكُم إليه ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ العَذَابُ ﴿لِزَاماً﴾ أي: لازِماً لَكُم واقِعاً بكم لا محالةَ، وهو القَتلُ يوم بَدرٍ أو عذابُ الآخرة.

❁ ❁ ❁

---

(١) الإنسان: ١١.

(٢) قرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر والمفضّل والأعمش ويحيىٰ وخلف وطلحة ومحمد اليماني. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٦٨، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٦ ص ٥١٧.

(٣) حكاه الماوردي في تفسيره: ج ٤ ص ١٦١.

(٤) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص ٢٧٥.

(٥) قاله الماوردي في تفسيره: ج ٤ ص ١٦٢.

(٦) قاله الفراء في معانيه: ج ٢ ص ٢٧٥.

سورةُ الشُّعَرَاءِ

مكّية كلّها[1] إلّا قولَه: ﴿والشُعَراءُ يَتّبِعُهُمُ الغَاوُونَ﴾ الى آخرها، مائتان وسبع وعشرون آيةً كوفيٌّ، ستٌّ في غيرِهِم، ﴿طسٓمٓ﴾ كوفي، ﴿فَلَسَوْفَ تَعلمون﴾[2] غيرُهُم، ﴿أين ماكنتم تَعبدون من دون الله﴾[3] غيرُ البصريِّ.

في حديث أُبيٍّ: «من قَرأَ سورةَ الشُعَراءِ كانَ لَه من الأَجْرِ بعَدَدِ مَن صدَّق بنوحٍ وكَذَّبَ به، وهودٍ وشعيبٍ وصالحٍ وإبراهيمَ، وبعَدَد من كَذَّبَ بعيسى، وصدَّق بمحمدٍ صلى الله عليه وآله»[4].

وعن الصادق عليه السلام: «مَن قَرأَ الطَّواسين الثلاثَ في ليلةِ الجُمُعةِ كانَ من أولياء الله وفي جوارِهِ وكَنَفِهِ، ولَمْ يصبْهُ في الدنيا بؤْسٌ أبداً، وأُعطي في الآخرةِ من الجنّةِ حتّىٰ يرضىٰ وفَوقَ رضَاه، وزوَّجَهُ اللهُ مائةَ حوراء من حور العين»[5].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ٤: قال قتادة: هي مكّية، وقيل: أربع آيات منها مدنيّة من قوله: ﴿والشعراء...﴾ الى آخرها، وهي مائتان وسبع وعشرون آية في الكوفي والمدني الأوّل، وستّ في البصري والمدني الآخر.

وفي تفسير الآلوسي: ج١٩ ص٥٨ مالفظه: وفي تفسير الإمام مالك تسميتها بسورة الجامعة، وقد جاء في رواية عن ابن عباس وابن الزبير اطلاق القول بمكّيتها.

(٢) الآية: ٤٩. (٣) الآية: ٩٢ ـ ٩٣.

(٤) رواه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٣٤٦ مرسلاً.

(٥) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٦.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٦) أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٩) ﴾

«طَاء ويَاء وحَاء» من ﴿طسٓمٓ﴾ و﴿يسٓ﴾ و﴿حمٓ﴾: قُرئ بالإمالةِ[١] والتفخيمِ[٢]، وقرئ نونُ «سين» بالإظهارِ[٣] والإدغامِ[٤].

﴿ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ هو اللوحُ المحفوظُ يتبيَّنُ للناظرينَ في كلّ ما هو كائنٌ، أو: القرآنُ يبيِّنُ ما أودعَ من الحِكَمِ والشَرائعِ وأنواعِ العُلومِ، أو: هو الظاهِرُ إعجازُهُ وصحةُ أنّه من عندِ الله.

وَالبَخعُ: الإهلاكُ، و﴿لَعَلَّكَ﴾ للإشفاقِ، أي: أَشفِقْ علىٰ نفسِكَ أن تَقتلَها حَسْرةً علىٰ ما فاتَكَ من إسلامِ قومِكَ ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: خيفةَ أن لا يؤمنُوا،

(١) ممّن قرأهنّ بالإمالة: حمزة والكسائي وخلف ويحيى والعليمي والأعمش والمفضّل وأبو بكر عن عاصم. راجع التبيان: ج ٨ ص ٣، وتفسير القرطبي: ج ١٣ ص ٨٨.

(٢) وممّن قرأهنّ بالتفخيم: ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٧٠.

(٣) ممّن أظهر النون: حمزة وأبو جعفر والأعمش وما روى الكسائي عن اسماعيل عن نافع. راجع التبيان: ج ٨ ص ٣، وكتاب السبعة في القراءات: ص ٤٧٠.

(٤) وممّن أدغم النون: المدنيّون وأبو عمرو وعاصم والكسائي على ما حكاه النحاس في إعراب القرآن: ج ٣ ص ١٧٣.

أو: لأَن لا يؤمنُوا.

﴿إن نَّشَأْ نُنَزِّل ... آيَةً﴾ مُلْجِئَةً إلى الإِيمانِ، كَما نَتَقَ الجبلَ علىٰ بني إسرائيل ﴿فَظَلَّتْ﴾ مَعطُوفٌ علىٰ ﴿نُنَزِّلْ﴾، والأَصلُ: فَظَلُّوا ﴿لَـهَا خَـٰضِعِينَ﴾ فَأُقْـحِمَتْ «الأعناقُ» لبيانِ موضعِ الخُضُوعِ، وتُرِكَ الكلامُ علىٰ أصـلِهِ. ويـجوزُ أن يكـونَ «الأعناق» لمَّا وصِفَتْ بالخُضُوع الذي هو للعقلاءِ قيلَ: ﴿خَـٰضِعِينَ﴾ كقولِهِ: ﴿لِي سَاجِدِينَ﴾ (١)، وقيلَ: المُرادُ بالأعناقِ الرؤساءُ والمقدَّمون (٢)، شُبِّهُوا بـالأعناقِ كَما قيلَ لَهُم: الرؤوس والصُدُور والنَواصي، قال:

في مَحفَلٍ من نَواصِي النَاسِ مَشهُودُ(٣)

وقيلَ: ﴿أعنَـٰقُهُم﴾ جَماعاتُهم (٤). يقالُ: جاءَ عُنُقٌ من الناسِ أي: جَماعةٌ.

وما يجدِّدُ اللهُ بوحيِهِ مَوعِظَةً وتَذكيراً إلَّا جدَّدوا إعراضاً عنه وكُفْراً به.

وَصَفَ «الزَّوْج» وهوِ الصِنْفُ من النبات بالكَرمِ والكَريمِ صفةً لكلِّ ما يُرضىٰ ويُحمَدُ في بَابِهِ، يقالُ: وَجْهٌ كريمٌ مَرضيٌّ في حسنِهِ وبهائِهِ، وكِتَابٌ كَرِيمٌ مَرضِيٌّ في معانِيهِ، فالنباتُ الكريمُ هو المَرْضي في المنافعِ المتعلقةِ به.

﴿إنَّ في﴾ إنباتِ تلكَ الأَصْنافِ ﴿لآيَةً﴾ علىٰ أنّ مُنْبِتَها قَادرٌ عـلىٰ إحـياءِ الأمواتِ، وقد عَلِمَ اللهُ أنّ ﴿أَكثَرهُمْ﴾ لَا يُؤْمِنُونَ. ﴿وإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فـي أنتقامِهِ منهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ بمَن يؤمن.

---

(١) قاله ابن عيسى كما في التبيان: ج ٨ ص ٦. والآية من سورة يوسف: ٤.
(٢) قاله ابن شجرة وقطرب. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٦٥.
(٣) لأمِّ قيس الضبية، وصدره: ومشهدٌ قد كَفَيتُ الغائبينَ بِهِ
وقد تقدّم ذكر البيت وشرحه في ص في سورة هود: ١٠٣.
(٤) قاله ابن عباس ومجاهد وأبو زيد والأخفش والنقاش. راجع تـفسير المـاوردي: ج ٤ ص ١٦٥، وتفسير القرطبي: ج ١٣ ص ٨٩.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذاً وَأَنَا مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٢٢)﴾

﴿قَوْمَ فِرْعَونَ﴾ عَطْفُ بيانٍ ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ كَلامٌ مستأنفٌ، أي: أَمَا آنَ لَهُم أن يتّقُوا الله ويحذرُوا من أيّامِهِ.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ بالرفعِ لأنّهما معطُوفانِ علىٰ خبرِ ﴿أن﴾، وقُرِئا بالنَصب[1] عطفاً علىٰ صِلَةِ ﴿أنْ﴾، والرفعُ يفيدُ أنّ فيه ثلاثَ عللٍ: خَوفُ التكذيبِ، وضيقُ الصَدْرِ، وٱمتناعُ ٱنطلاقِ اللِّسانِ. والنصبُ يفيدُ أنَّ خَوفَه يتعلَّقُ بهذه الثلاثة. ﴿فَأَرْسِلْ﴾ جبرائيلَ ﴿إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾ وٱجعلْه نبيّاً، وأُزْرُني به وٱشْدُدْ به ظَهْري. ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنبٌ﴾ هو قتلُهُ القبطيّ، أي: ولَهُم عليَّ تَبِعَةُ ذنبٍ، وهي قَوَدُ ذلكَ القَتْلِ ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ـي به، فحُذِفَ المضافُ، أو: سمَّىٰ تَبِعَةَ الذنْبِ ذنباً، كما سمَّىٰ جَزاءَ السيّئةِ سيّئةً.

﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ: ﴿كَلَّا﴾ يعني: ارتَدِعْ يا موسىٰ عمّا تظنُّ، لأنّهم لَنْ يقتلُوكَ به، فإنّي لا أُسلّطُهُم عليكَ، فاذْهَبْ أنتَ وهارون. وقولُهُ: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ﴾

---

(١) قرأه يعقوب. راجع التبيان: ج ٨ ص ٨.

من مجازِ الكَلَامِ لأَنّه تعالىٰ لا يُوصَفُ بالاستماع على الحقيقةِ، فإنَّ الاستماعَ جارٍ مجرى الإِصغاءِ، وإنّما يُوصَفُ بأنّه سميعٌ وسامعٌ، والمرادُ: إنّا لَكُما كالظَّهيرِ المُعِين إذا حضر واَستمع ما يجري بينكما وبينه، فَأُظْهِرُكُمَا عليه وأَكسِرُ شوكَتَه عنكما. ويجوز أن يكُونَا خَبَرَين لـ«أن»، وأن يكونَ ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ مستقِراً، و﴿مَعَكُم﴾ لَغواً.

﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ جَعَل «رسول» هنا بمعنىٰ الرسالة، فلمْ يُثَنِّ كما ثنّىٰ في قولِهِ: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ (١)، كما يُفعَلُ في الصِفَةِ بالمصادر نحو: صَوْمٌ وزَوْرٌ. ويَجوزُ أن يوحَّدَ لأنّ حُكْمَهُما واحدٌ بالاتّفاقِ والأُخوّةِ، فكأنّهما رسولٌ واحدٌ.

﴿أَنْ أَرْسِلْ﴾ بمعنى: أي أَرْسِلْ لِتَضَمُّن الرسولِ معنَى الإرسالِ، وفي الإرسالِ معنَى القَولِ، كما في المناداة ونَحوِها. ومَعنىٰ هذه الارسال التخليةُ والإِطلاقُ، كما يقالُ: أَرسِلْ البازي، والمُرادُ: خَلِّ بَني إسرائيل يَذهَبُوا مَعَنا إلىٰ فلسطينَ، وكانَتْ مَسكَنَهما.

وفي الكلامِ حَذْفٌ تقديرُهُ: فَذهَبا إلىٰ فرعونَ وبَلَّغَا الرسالةَ علىٰ ما أُمِرَا به، فَعِنْدَ ذلكَ ﴿قَالَ﴾ فرعونُ لموسىٰ: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾ وهذا النَوعُ من الاختصارِ كَثيرٌ في التنزيلِ. الوَلِيدُ: الصبيُّ لقُرْبِ عَهْدِهِ بالولادةِ ﴿سِنِينَ﴾ قيلَ: لَبثَ عندَهُم ثماني عشرة سنة (٢)، وَقيلَ: ثلاثينَ سنة (٣)، وقَالَ الكلبيُّ: أَربعينَ سنة (٤). ﴿فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ يعني: قَتَلْتَ القبطيّ، أي: ﴿وَأَنْتَ﴾ لذلكَ ﴿مِنَ الكَافِرِينَ﴾ لِنِعْمَتي وحقِّ تَربِيَتي.

---

(١) طه: ٤٧.
(٢) قاله ابن عباس كما في مجمع البيان: ج ٧ ص ١٨٦.
(٣) قاله ابن عباس ومقاتل. راجع مجمع البيان السابق.
(٤) حكاه عنه الآلوسي في تفسيره: ج ١٩ ص ٦٨.

وأجابَهُ موسىٰ بأنّ تلك الفَعْلَة إنّما فَرَطَتْ منه وهو ﴿مِنَ الضَّالِّين﴾ أي: الذاهبينَ عن الصَوابِ أو الناسينَ من قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا الأُخْرَىٰ﴾ (١). كَذبَ فرعونُ ودَفَعَ الوَصْفَ بالكُفْرِ من نفسه بأن وَضَعَ «الضالِّين» موضع «الكافرين» رياءً بمحلٍّ مَن رشح للنبوّةِ عن تلك الصِفَةِ، ثم أبْطَلَ آمتنانَه عليه بالتَربيةِ، وأَبَىٰ أن يسمّي نِعْمَتَهُ نِعْمةً بأن بيّن أنَّ حقيقةَ إنعامِهِ عليه تَعبيدُ بني إسرائيل، لأنّ تَعبيدَهُم وقَصدَهُم بذبح أبنائِهِم هو السَبَبُ في حصولِهِ عندَهُ وتربيتِهِ، فكأنّه منَّ عليه بتَعْبيدِ قَومِهِ، وتعبيدُهُم: اتّخاذُهُم عَبيداً وتذليلُهُم.

﴿وَتِـلْكَ﴾ إشـارةٌ إلىٰ خَـصْلةٍ مُـنْكرةٍ لا نَـدري إلَّا بـتَفسيرِها، ومـحلُّ ﴿أَنْ عَبَّدْتَ﴾ الرفعُ بأنّه عطفُ بيانٍ لـ﴿تِلْكَ﴾، وَنَظيرُهُ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ (٢)، والمعنىٰ: تعبيدُكَ بني إسرائيل نعمةٌ ﴿تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾؟! ويجوزُ أن يكونَ في محلّ نَصْبٍ، والمعنىٰ: إنّما صَارَتْ نعمةً عليَّ لأن عبَّدْتَ بني إسرائيل، أي: لَو لَمْ تفعلْ ذلكَ لكَفَلَني أهلي ولم يُلقوني في ٱلْيَم.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهاً غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن

(١) البقرة: ٢٨٢. (٢) الحجر: ٦٦.

يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٢)﴾

﴿وَمَا رَبُّ العَـٰلَمِينَ﴾ يُريدُ: وأيُّ شيءٍ هو من الأشياء المشاهَدَةِ؟ فأجابَهُ موسىٰ بمَا يستدلّ عليه من أفعالِهِ ليعرّفَهُ أنّه ليسَ بشيءٍ يمكنُ أن يُشاهَدَ من الأجسامِ والأَعْراضِ، وإنّما هو شيءٌ مُخالِفٌ لجميعِ الأشياء، ليسَ كمثلِهِ شيءٌ، منشئُ ﴿ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ﴾ ومُبدِعُهُما ﴿وما بَيْنَهُمَآ إنْ كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ﴾ بأنّ هذه الأشياءَ مُحْدَثةٌ مُنشَأَةٌ وليستْ من فعْلِكُم، والمُحدَثُ لابدّ له من مُحدِثٍ.

فلمّا أَجابَ موسىٰ بما أَجابَ عَجَّبَ فِرعَونُ قومَه من جوابِهِ حيث نَسَبَ الربوبيةَ إلىٰ غيرِهِ. فلمّا ثنّىٰ موسىعليه‌السلام بتقريرِ قولِهِ نَسَبه فِرعَونُ إلى الجنونِ وأضافَه إلىٰ قومِهِ حيث سمّاهُ «رَسُولَهُم» طنزاً به[1].

فلمّا ثلّثَعليه‌السلام بتقريرٍ آخرَ غضبَ وقالَ: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَـٰهاً غَيْرِى﴾ وعارضَ موسىٰعليه‌السلام قولَه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ ... لَمَجْنُونٌ﴾ بقولِهِ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾ الواو للحالِ، دَخَلَتْ عليها همزةُ الاستفهامِ، والمعنىٰ: أَتفْعلُ ذلكَ بي وَلَو جِئْتُكَ ﴿بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ أي: جَائِياً بالمُعجزِ الظَاهِرِ.

وفي قولِهِ: ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ﴾ أَنّ المُعْجِزَ لا يَأتي به إلّا الصادقُ في دَعْواهُ، لأنّه يجري مَجْرى التَصدِيقِ من اللهِ تَعالىٰ، فلابُدَّ من يَدُلُّ على الصّادقِ،

(١) طنز طنزاً به: سَخِرَ منه. (لسان العرب: مادة طنز).

وتَقديرُهُ: إنْ كُنتَ مِنَ الصَّادقينَ في دَعْواكَ إئْتِ به، فَحُذِفَ الجَزاءُ لأنّ الأمْرَ بالإتيانِ به يدلّ عليه.

﴿ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ﴾ ظَاهِرُ الثعبانيَّة، لا شيء يُشبه الثُعبان. ﴿بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ فيه دلالةٌ علىٰ أنّ بياضَها كانَ شَيئاً تَجتَمعُ النَظَارةُ على النَظرِ إليه لخروجِهِ عن العَادةِ، فكانَ بَيَاضاً نُورانيّاً لَهُ شُعاعٌ يَغشى الأبصارَ ويَسُدُّ الأُفُق.

وقولُهُ: ﴿حَوۡلَهُۥٓ﴾ منصُوبُ اللفظِ على الظَرفِ، ومنصُوبُ المحلّ على الحَالِ.

﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ من المؤامَرةِ وهي المشَاوَرة، أو: من الأَمْرِ الذي هو ضدّ النَّهْي، جَعَلَ العبيدَ آمرينَ وربَّهم مأموراً؛ لِمَا دَهَاهُ من الدَهَشِ والحِيرَةِ حينَ أَبصَرَ الآيتينِ، واعترَفَ لهم بِمَا توقَّعَهُ وأحسَّ بِهِ من جهةِ موسىٰعليه السلام وغَلَبتِهِ علىٰ مُلْكِهِ وأرضِه. و﴿مَاذَا﴾ مَنصُوبٌ: إمّا لكونِهِ في معنى المَصدرِ، وإمّا لأنّه مفعولٌ به من قولِهِم: أمرتك الخير.

وقُرِئَ: «أرْجِئْهُ» وقَد مرَّ بيانُه[1]. ﴿يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ وهو يَومُ الزينةِ، وميقاتُهُ وقتُ الضُحىٰ لأنّه الوقتُ الذي وقَّتَهُ لَهم موسىعليه السلام من يَومِ الزينةِ. ﴿هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ﴾ استبطاءٌ لهم في الاجتماعِ، والمُرادُ منه: استِعْجَالُهُم، ومنه قولُ تأبّطَ شرّاً:

هَلْ أَنْتَ بَاعِثُ دِينَارٍ لحَاجَتِنا؟[2]

يريدُ: ابْعثْهُ إلينا سَريعاً ولا تُبطِئ[3]. ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ في دينِهِم إن غَلَبُوا مُوسىٰ، ولا نتّبعُ موسىٰ في دينِه.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ (٤٣) فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ

---

(١) في ج ١ ص ٦٨٦ من سورة الأعراف: ١١١ فراجع.
(٢) وعجزه: أو عَبْدَ ربٍّ أخا عَوْنِ بنِ مخراقِ. أنظر خزانة الأدب للبغدادي: ج ٨ ص ٢١٥.
(٣) في نسخة زيادة: «به».

وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ
تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ (٤٦) قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ
ٱلْعَـٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ (٤٨) قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ
لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا
مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٥١)
وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ
فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا
لَغَآئِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ
(٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٥٩)
فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا
لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَآ
إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ (٦٣)
وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ
أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧)
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٦٨) ﴾

أَقْسَمُوا ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ وهي من أَقْسامِ الجَاهليّةِ، وفـي الإِسـلامِ لا يـصحُّ الْحَلْفُ إلّا بالله تعالىٰ أو ببعضِ أسمائِهِ وصفاتِهِ، وفي الحديث: «لا تَحلِفُوا إلّا باللهِ، ولا تَحلفُوا بالله إلّا وأنتُم صَادِقُون»(١).

وعَبَّر عن الخُرُورِ بالإِلْقاءِ علىٰ طَرِيقِ المشَاكَلَةِ إذ جَرىٰ ذِكْرُ الإلقاءِ، يَعني:

---

(١) رواه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٣١٢ مرسلاً.

أنّهم إذا رأَوا ما رَأَوا رَمَوا بنفوسِهِم إلى الأرضِ ﴿سَٰجِدِينَ﴾ كأنّهم أُخِذُوا وطُرِحُوا وأُلْقُوا.

الضَّيْرُ: الضَّرُّ، أرادُوا: لا ضَرَرَ علينا في ذلكَ بل لَنا فيه أعظمُ النَّفعِ لِمَا يَحصلُ لنا في الصَبْرِ عليه من الثَوابِ العَظيمِ، أو: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ لَنا في القَتْلِ إذ لابدَّ لَنا من الانقلابِ إلى ربِّنا بسَبَبٍ من أَسبابِ المَوْتِ، والقَتْلُ أَهْونُ أسبابِهِ وأرضَاها، لأنّنا نَنقلِبُ إلىٰ ربِّنا انقلابَ مَن يطمعُ في مغفرتِهِ ورحمتِهِ لِمَا رزقَنا من السَبْقِ إلى الإِيْمانِ ﴿أَنْ كُنَّا﴾ مَعناهُ: لأَنْ كُنّا.

وعلَّلَ الأمرَ بالإِسْرَاءِ بقولِهِ: ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ علىٰ معنى: أنّ التَدبيرَ في أمرِهِم أَن يتقدَّمُوا ويتبعَهُم فِرعَونُ وجنودُه ويَسلِكوا مسالِكَهم في البحرِ فيُهلكهم الله بإطباقِ البَحرِ عليهم.

﴿إِنَّ هَٰؤُلَآءِ﴾ مَحكيٌّ بعد قَولٍ مُضمرٍ، والشِّرْذِمَةُ: الطائفةُ القَليلةُ، ذَكَرَهُم بهذا الاسمِ الدالّ على القلّةِ ثم وَصَفَهُم بالقلّةِ. ويجوزُ أن يريدَ بالقلّة المذلّة والغمارة[1]، فلا يريدُ قلّةَ العَدَدِ، يعني: أنّهم لقلّتِهِم لا يُبالَىٰ بِهِم. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ يفعلُونَ أَفْعالاً تُغيظُنا، ونَحنُ قَومٌ من عَادتِنَا التيقّظُ والحَذَرُ واستعمالُ الحَزْمِ في الأُمورِ، فإذا خَرَجَ علينا خَارجٌ بادَرْنا إلىٰ حَسْمِ مادَّةِ فَسَادِهِ، وهذه مَعاذيرُ اعتذَرَ بها إلىٰ أهل المَدائنِ لئلّا يُظَنَّ بِهِ ما يكسِرُ من سُلطانِهِ. وقُرِئَ: «حَذِرُونَ»[2] و﴿حَٰذِرُونَ﴾، فالحَذِرُ: المتيقِّظُ، والحَاذِرُ: المستَعِدُّ.

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ مَنَازلُ حَسنةٌ، وقيلَ: مَجالس الأُمراءِ التي تحتفّ[3] بها

---

(١) في بعض النسخ: «والقماءة».

(٢) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٧١.

(٣) في نسخة: «تحفّها».

الأَتْباعُ[١]. ﴿كَـذَٰلِكَ﴾ الكَافُ رُفِعَ لأنّه خَبرُ مبتدأ محذوف، أي: الأَمْرُ كَـذٰلِكَ، أو نُصِبَ أي: أَخرجْنَاهُم مثلَ ذلكَ الإِخْرَاجِ الذي وَصَفْنَاه. ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ فَلَحِقُوهُم ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخِلِينَ في وقتِ الشُّرُوقِ.

﴿سَيَهْدِينِ﴾ ـي طَرِيقَ النَّجَاةِ من إدراكِهِم. أي: فَضَربَ فانفلَقَ البَحرُ وظَـهَرَ فيه اثنا عَشَر طَرِيقاً، والفِرْقُ: الجُزْءُ المتفرّق فيه، والطَّوْدُ: الجَبَلُ العَظِيمُ.

﴿وأَزْلَفْنَا ثَمَّ﴾ أي: حَيثُ انفلَقَ البحرُ ﴿الآخَرِينَ﴾ يعني: قَومَ فِرعَونَ قَرَّبناهُم من بني إسرائيل، وأَدْنَيْنَا بَعضَهُم من بَعضٍ، وجَمَعْنَاهُم حتّىٰ لا يَنْجُو منهُم أَحَدٌ.

﴿إنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً﴾ لا تُوصَفُ، قد عَايَنَها النَّاسُ وما انتَبَهَ عَليها ﴿أَكْثَرُهُم﴾.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٧٧) ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً وَأَلْحِقْنِى بِالصَّـٰلِحِينَ (٨٣) وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ (٨٤) وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ (٨٥) وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ

(١) قاله ابن عيسى. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٧٢.

تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٩٨) وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٤)﴾

سألَهُم إبراهيمُ عليه السلام وإنْ كانَ يعلَمُ عبادَتَهم الأصنامِ ليريَهم أنَّ ما يَعبُدونَهُ بعيدٌ عن ٱستحقاقِ العبادةِ. ولابدَّ في ﴿يَسْمَعُونَكُمْ﴾ من تَقديرِ حَذفِ المضَافِ، معناهُ: هل يَسمعُونَ دعاءَكُم، وهل يقدرُونَ علىٰ ذلك؟ وجاءَ مضارِعاً مع إيقاعِهِ علىٰ ﴿إذْ﴾ لأنّه حكايةُ حالٍ ماضيةٍ.

وإنّما قالَ: ﴿عَدُوٌّ لِّي﴾ علىٰ معنىٰ: أنّي فكّرتُ في أَمري فرأيتُ عبادَتي لَها عبادةً للعدوِّ الذي هو الشَيطانُ فاجتَنَبْتُها، وآثرتُ عبادةَ مَن الخَيرُ كلُّه مِنهُ، وأَراهُم بهذا القولِ أنّه نصيحةٌ نَصَحَ بهَا نفسَهُ، لينظُرُوا فيقولُوا: ما نَصَحَنا إبراهيمُ إلّا بمَا نَصَحَ به نَفسَه، ويكُونوا إلى القَبولِ أقربَ، ولو قالَ: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ﴾ لَكُم لَمْ يكنْ بهذه المَثابةِ. والعَدوُّ والصَديقُ يكُونانِ بمعنى الواحدِ والجَمْعِ، قال:

وقَـومٌ عَـلَيَّ ذَوِي مِئْرَةٍ أَراهُم عَدُوّاً وكَانُوا صَدِيقَا

﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ، كأنّه قالَ: لكنْ ربّ العالمينَ.

وقالَ: ﴿إِذَا مَرِضْتُ﴾ ولَمْ يقلْ: أمْرَضَني لأنَّ كثيراً من أَسبابِ المَرَضِ يَحدثُ بتَفْريطٍ من الإنسانِ في طَعَامِهِ وشَرابِهِ وغَيرِ ذلك.

وإنّما قالَ: ﴿أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي﴾ علىٰ سَبيلِ الانقطاعِ إلى الله تعالىٰ،

أو أرادَ: أَطْمعُ أن يَغفرَ لأجلي خطيئةَ مَن يُشَفِّعني فيه، فإنَّ الأنبياءَ عليهم السلام مُنزَّهُون عن الخَطَايا[1] والآثامِ، فاستغفارُهُم مَحمُولٌ علىٰ تَواضِعِهِم لربِّهم وَهَضْمِهِم لأنفُسِهِم، ويدلّ علىٰ ذلكَ قولُهُ: ﴿أَطْمَعُ﴾ ولَمْ يجزمِ القَولَ بالمغفرةِ، وفيه تَعليمٌ لأُممِهِم. ﴿هَبْ لِى حُكْماً﴾ أي: حِكْمةً أو حُكْماً بين الناسِ بالحقّ، وقيلَ: الحُكْمُ: النبوّة[2]، لأنّ النبيَّ ذو حُكْمٍ بين الناسِ وذو الحِكْمةِ والعِلْمِ ﴿وَأَلْحِقْنِى بِالصَّـٰلِحِينَ﴾ إجْمَعْ بيني وبينَهم في الجنّة. ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ من الخِزْيِ الذي هو الهَوانُ، أو: من الخَزَايَةِ التي هي الحَياء، وهذا أيضاً من نحو ٱستغفارِهِم مع عِصمَتِهِم وبُعْدِهِم عمّا يُوجبُ الاستغفارَ، وفي ﴿يُبْعَثُونَ﴾ ضميرٌ للعِبَادِ لأنّه مَعلُومٌ. ﴿إِلَّا﴾ حَالٌ من ﴿أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ وهو من قولهم:

تحيةُ بَيْنِهِم ضَربٌ وَجيعُ[3].

وبيانُهُ أن يقالَ لكَ: هل لزيدٍ مالٌ وبنون؟ فتقول: مالُهُ وبنُوه سَلامةُ قلبِهِ، تريدُ نفيَ المالِ والبنينَ عَنْه، وإثباتَ سَلَامةِ القلبِ لَه بَدَلاً من ذلكَ. ويجوزُ حملُ الكلامِ على المعنىٰ بأن يَجعَلَ المالَ والبنينَ في معنى «الغِنىٰ»، إلّا غنى مَنْ أَتَى اللهَ بقلبٍ سليمٍ، لأنّ غنَى الرجلِ في دينِهِ بسلَامةِ قلبِهِ، كما أنّ غنَاهُ في دنْياه بمالِهِ وبَنيه. ويجوزُ أن يكونَ مفعولاً لـ﴿ينفعُ﴾ أي: لا ينفعُ مالٌ ولا بَنونَ إلّا رَجُلاً سَلمَ قلبُهُ مع مالِهِ حيثُ أنْفَقَهُ في طاعةِ الله، ومع بَنيه حيثُ أَرْشَدَهُم إلى الدينِ وعلَّمَهُم الشَرائعَ. وقيلَ: القلبُ السليمُ الذي أَسْلَمَ وسَالَمَ وٱستَسْلَم[4]. وعن الصادق عليه السلام:

---

(١) في نسخة: «الخطاء».

(٢) قاله السدي والكلبي. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٧٦، وتفسير البغوي: ج ٣ ص ٣٩٠.

(٣) وصدره: وخيلٍ قد دَلَفتُ لَها بخَيلٍ. وهو منسوب لعمرو بن معد يكرب، قد تقدّم شرح البيت في ج ١ ص ٧٣ فراجع.

(٤) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٢١.

«هو القلبُ الذي سَلِمَ من حبِّ الدُنيا».

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: قَربَتْ من موقِفِهم ينظرُونَ إليـها ويـغتبطُونَ بمكانِهِم منها. ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ كُشِفَتْ للأشقياءِ يَتحسَّرون علىٰ أنّـهم المَسوقُونَ إليها، قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [1] يَجمَعُ عَلَيهم الغُمُومَ، فتُجعَلُ النارُ بمرأىً منهم ويقالُ لَهُم: أينَ آلهتُكُم هَلْ يَنْفَعُونَكُمْ بـنُصْرتِهِم لكم؟ أو: هَل ينفعُونَ أنفُسَهُم بانتصارِهِم لأنّهم ومَا كَانُوا يعبُدونَهُم وقودُ النارِ، وهو قولُهُ: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ أي: الآلهة، والغَاوون أي: عَبَدَتُهُم، والكَبْكَبَةُ: تكريرُ الكبِّ، جَعَلَ التكريرَ في اللَفْظِ دليلاً على التَكريرِ في المعنىٰ، كأَنّه إذا أُلقِيَ في النارِ يُكَبُّ مرةً بعد مرّةٍ حتّىٰ يستقرَّ في قَعْرِ جهَنَّم، اللّهُمَّ أعِذْنا منْها. وكَبْكَبَ مَعَهُم ﴿جُنُود إِبْلِيسَ﴾ أي: أتْباعَه وشَياطينَه.

﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: يخاصِمُ بَعضُهُم بَعْضاً. و«إنْ» هي المخَفَّفةُ من الثَقيلة، أي: إنَّا كُنَّا في ﴿ضَلَـٰلٍ مُبِينٍ إذ﴾ سوَّيناكُم بالله في تَوجِيهِ العبَادةِ إليكُم.

والمرادُ بالْمُجْرِمينَ الذينَ أضلّوهُم: رؤساؤُهم وكُبراؤُهم والذين اقتدَوا بِهِم ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ﴾ [2]، ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَـٰفِعِينَ﴾ يَشفَعُون لَنا، ويسألُونَ في أمرنا، كـما نَـرَى المـؤمنينَ لَـهُم شُـفعاء مـن النـبيِّين والأوصياءِ، ولا صَديقٍ كما نَرىٰ لَهُم أصدقاء.

الصادق عليه السلام: «واللهِ لنشفعنَّ في شيعتنا، قَـالَها ثـلاثاً، حـتّىٰ يَـقولَ عـدوُّنا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿من ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾» [3].

وعن جابر بن عبدالله عن النبيِّ صلى الله عليه وآله: «إنّ الرجلَ يقولُ في الجنَّة: مـا فَـعَلَ

---

(١) الملك: ٢٧. (٢) الأحزاب: ٦٧.

(٣) رواه في تأويل الآيات: ص ٣٨٦ نقلاً عن البرقي.

صَديقِي فُلانٌ، وصَديقُهُ في الجَحيمِ؟ فيقولُ اللهُ سبحانُه: أَخرِجُوا له صَديقَهُ إلى الجنّةِ، فيقولُ مَن بَقِيَ في النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾»[1].

والحَميمُ من الاحتمامِ، وهو الاهتمامُ، وهو الذي يهمُّهُ ما يهمُّكَ، أو من «الحامَّة» بمعنَى الخاصّة، وهو الصَّديقُ الخاصُّ. وإنّما جَمَع «الشُّفَعاء» وَوَحَّدَ «الصديق» لكثْرَةِ الشُّفَعاءِ وقلّةِ الصَّديقِ الصَّادقِ في الودادِ. ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بالصَّديقِ الجَمْعَ. والْكَرَّةُ: الرَّجْعَةُ إلَى الدنيا، و«لَوْ» هنا في معنى التَمنّي، المعنىٰ: فَلَيْتَ لَنا كَرَّةً. ويمكنُ أن يكونَ «لَو» علىٰ أَصْلِ مَعناه، ويكونَ محذوفَ الجَوابِ والتقديرُ: لَفَعَلْنَا كَذَا.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَاْ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٢)﴾

(١) رواه القرطبي في تفسيره: ج ١٣ ص ١١٨.

«الْقَومُ» مؤنّثٌ، وتصغيرُهُ «قُوَيْمَة». ﴿أَخُوهُمْ﴾ مِثْلُ قَولِ العَربِ: يا أخَا بَني أَسَد، يُريدُون: يا واحِداً منهم، ومنه بَيتُ الحَمَاسَةِ:

لا يَسْأَلُونَ أخَاهُم حِينَ يَنْدُبُهُم ... في النَّائِباتِ علىٰ ما قَالَ بُرهَانَا[١]

﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ علَى الرسَالةِ، أو كانَ مَشْهُوراً فيهم بالأَمانَةِ كمُحمدٍ ﷺ في قَريشٍ. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فِيمَا أدعُوكُم إليه من الإيْمانِ والتَوحيدِ. ﴿وَمَا أَسْئَلُكُمْ﴾ علىٰ هذا الأمْر ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ يَعني علىٰ دُعائِهِ ونُصْحِهِ. ﴿فَاتَّقُواْ اللهَ﴾ في طَاعَتي، وكَرَّرَ ذلكَ ليقرِّرَهُ في نفُوسِهِم مع أنّ كلَّ واحدٍ منهُما قَد تعلّقَ بعلّةٍ: جَعَلَ علّةَ الأوّلِ كونَه أَميناً فيمَا بينَهُم، وعلّةَ الثاني حَسْمَ طَمَعِهِ عَنهُم.

وقرئ: «وَأَتْبَاعُكَ»[٢] جَمْعُ تَابعٍ كَشاهدٍ وأشهاد، أو جَمْعُ تَبَعٍ كبَطَلٍ وأَبطال. والواو للحالِ، والتَقْديرُ: وقَد اتَّبَعَكَ، فأضمَر «قد»، والرَذَالَةُ والنَذَالَةُ: الخسَّةُ والدَنَاءَةُ، وإنّما اَسترذَلُوهُم لاتِّضاع نَسَبِهِم وقلّة نَصيبِهِم من الدنيا، وقيلَ: كانُوا من أَهلِ الصناعَاتِ الدَنيئَةِ كالحياكَةِ ونَحوِها[٣].

﴿وَمَا عِلْمِى﴾ وأيّ شيءٍ عِلْمِي؟ والمرادُ: انتفاءُ عِلْمِهِ بسِرِّ أمرِهِم وباطِنِه، وإنّما قالَ هذا لأَنَّهم قَد طَعَنُوا مع اَسترذالِهِم في إيمانِهِم، وادَّعوا أنّهم لَمْ يؤمِنُوا علىٰ بَصيرةٍ وإنّما آمنُوا هَوىً وبَديهة، كَمَا حَكَى الله عَنهُم قَولَهُم: ﴿الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بادِىَ الرَّأْيِ﴾[٤]. ويجوزُ أن يكُونَ قَد فَسَّرَ نُوحٌ قَولَهُم: ﴿الأَرْذَلُونَ﴾

---

(١) البيت منسوب لقريط بن أُنيف العنبري، وهو أوّل أبياتٍ ثمانية نظمها عندما أغار عليه ناسٌ من بني شيبان فأخذوا له ثلاثين بعيراً، فاستنجد قومه فلم ينجدوه، فأتىٰ مازنَ تميم فركب معه نفرٌ فأطردوا لبني شيبان مائة بعير فدفعوها إليه. أُنظر خزانة الأدب: ج ٧ ص ٤٤١.

(٢) قرأه عبدالله وابن عباس والأعمش وأبو حيوة والضحاك وابن السميقع وسعيد بن أبي سعيد الأنصاري وطلحة ويعقوب. راجع التبيان: ج ٨ ص ٤١، وتفسير الآلوسي: ج ١٩ ص ١٠٧.

(٣) قاله عكرمة ومجاهد. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٧٩، وتفسير البغوي: ج ٣ ص ٣٩٢.

(٤) هود: ٢٧.

بِمَا هو الرذَالَة عندَه من سُوءِ الأعمالِ وفَسَادِ العقيدَةِ، ثمّ بنَىٰ جَوابَهُ علىٰ ذلك فقالَ: ما عَلَيَّ إلّا اعتبارُ الظَّواهِرِ دونَ الفَحْصِ عن الضَمائر، فإنْ كانُوا علىٰ ما وَصَفْتُم فاللهُ محاسِبُهُم ومُجازِيهُم ﴿وَمَا .. أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ لا مُحاسِبٌ ولا مُجَازٍ، وليسَ من شَأني أَن أطردَ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ طَمَعاً في إيمانِكُم.

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ أي: لَئِنْ لَمْ ترجعْ عَمَّا تقولُ ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ بالحِجَارةِ أو بالشَتْمِ. ﴿قَالَ رَبِّ﴾ إِنَّهُمْ ﴿كَذَّبُونِ﴾ ـي في وَحْيِكَ ورسَالَتِكَ فاحكُمْ بيني وبينَهُم. والْفَتَّاحُ: الحَاكِمُ، والفُتَاحَةُ: الحكُومةُ.

و﴿الْفُلْك﴾ السَفينَة، وهو واحِدٌ هنا، وجُمِعَ في قولِهِ: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [1] فالواحِدُ كقُفْل، والجَمعُ كأُسْد، جَمعُوا فَعْلاء [2] علىٰ «فُعْلٍ» كما جَمعُوا «فَعْلَىٰ» علىٰ «فَعَل» لأنّهما أخوانِ في قولِكَ: العُرْبُ والعَرَبُ، والعُجْمُ والعَجَمُ، والرُّشْدُ والرَّشَدُ، و﴿الْمَشْحُونِ﴾ المملُوء.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً

---

(١) فاطر: ١٢.

(٢) في بعض النسخ «فَعَلاً».

وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٤٠)﴾

الرِّيعُ: المكانُ المرتفعُ، والآيةُ: العلمُ، قيلَ: كانُوا يهتَدونَ بالنُّجُومِ في أَسفارِهِم، فاتَّخذُوا في طُرُقِهم أَعْلاماً طِوَالاً فعَبَثُوا بذلكَ، لأنّهم كانُوا مستَغْنِينَ عنها بالنُّجُوم [١]، وقيلَ: كانُوا يبنُونَ أبنيةً لا يحتاجُونَ إليها لسُكْناهُم، فَجَعَلَ بناءَ ما يستغنُونَ عنه عَبثاً منهم [٢].

وعن النبيِّ ﷺ: «كلُّ بناءٍ يُبنىٰ وبَالٌ علىٰ صَاحبِهِ يومَ القيامَةِ إلّا ما لابدَّ منه» [٣].

وقيلَ: كانُوا يبنُونَ بالمواضِعِ المرتفعَةِ ليشرفُوا على المَارَّة فيعبثُوا بِهِم [٤].

والْمَصَانِعُ: مَآخِذُ الماءِ، وقيلَ: القُصُورُ المشيَّدةُ والحُصُون [٥] ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي: تَرجُونَ الخُلُودَ في الدنيا، أو: يشبهُ حالُكُم حالَ مَن يَخلُدُ.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ بِسَوْطٍ أو سَيْفٍ ﴿بَطَشْتُمْ﴾ ظَالِمينَ عَالِينَ، وقيلَ: الجبَّارُ: الذي يقتلُ ويضربُ على الغَضَب [٦]، وعن الحَسَنِ: مُبادرينَ تعجيل العَذَابِ لا يَتفكّرونَ في العَواقِبِ [٧].

ثم نبَّهَهُم علىٰ نِعَمِ الله تعالىٰ عليهم، فأَجْمَلَها بقولِهِ: ﴿أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾، ثم فَصَّلَها وعَدَّدَها عليهم، وعرَّفَهُم المُنْعِمُ النِعَمَ بتَعديدها، أي: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ

---

(١) قاله عكرمة ومجاهد. راجع تفسير القرطبي: ج ١٣ ص ١٢٣.

(٢) قاله عطية والكلبي. راجع المصدر السابق.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه: ج ٤ ص ٣٦١ ح ٥٢٣٧ وليس فيه لفظة «يبنىٰ».

(٤) قاله الضحاك والكلبي. راجع تفسير الآلوسي: ج ١٩ ص ١١٠.

(٥) وهو قول مجاهد والكلبي. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٨١، وتفسير البغوي: ج ٣ ص ٣٩٣.

(٦) قاله الحسن والكلبي. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٨٢، وتفسير القرطبي: ج ١٣ ص ١٢٤.

(٧) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٣٢٦.

أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ﴾ مِن أهلِ الوَعْظِ.

وقُرِئَ: «خَلْقُ الأَوَّلِينَ» بالفَتحِ[١]، ومعناهُ: إنَّ ما جِئْتَ به ليسَ إلّا اختِلاقُ الأوَّلِينَ وكَذِبهُم، أو: ما خُلُقُنا هذا إلّا خُلُقُ القُرونِ المَاضيةِ، نَحيا كَما حيُوا، ونَموتُ كَمَا مَاتُوا ولا بَعْثٌ ولا حِسَابٌ. وقرئ: «خُلُقُ الأَوَّلين» بالضَمّ[٢]، أي: ما هـذا الذي نَحنُ عليه من الحَياةِ والمَوتِ إلّا عَادَةٌ لم يَزَلْ عليها الناسُ في قَديمِ الدَهْرِ، أو: ما هذا الذي جِئْتَ به من الكَذِبِ إلّا عَادةُ الأوّلين كانُوا يلفِّقُونَ مثْلَه.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَـٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَـاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِـيعُونِ (١٤٤) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ (١٤٦) فِى جَنَّـٰتٍ وَعُـيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَـخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً فَـٰرِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٥١) ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْـمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَـٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُـمْ شِـرْبُ يَـوْمٍ مَّـعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَـمَسُّوهَا بِسُـوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْـبَحُواْ نَـٰدِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٥٩)﴾

(١) قرأه ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر. راجع التبيان: ج ٨ ص ٤٦.

(٢) وهي قراءة أبي قلابة والأصمعي عن نافع. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ١٠٩، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٧ ص ٣٤.

﴿فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ أي: في الذي ٱستقرَّ في هذا المَكانِ من النَعيمِ. ثم فَسَّرَ ذلكَ بقولِهِ: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ والمَعنىٰ: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ فيما أَنتُم فيه من نَعيمِ الدنـيا لا تُزالُونَ عنه.

وَخَصَّ «النَّخلَ» بأفرادِهَا من جُملةِ الجَنَّاتِ لَفضلِهِ، أو: لأنَّـه أرادَ بـالجَنَّاتِ غيرَ النَخلِ من الشَجَر ثم عَطَفَها عليها، والطَّلْعُ: الكُفُرَّىٰ[1] لأنَّه يَطْلَعُ من النَخلِ، والْهَضِيمُ: اللَطيفُ الضَامِرُ من قولهم: كَشحٌ هَضيمٌ، وفي طَلْعِ إناثِ النَخْلِ لطفٌ ليسَ ذلكَ في طَلْعِ فِحَالِهَا، وقيلَ: الهَـضيمُ: اللـيِّنُ النَـضِيجُ[2]. وقـرئَ: «فَـرِهِينَ»[3] و﴿فَـٰرِهِينَ﴾، والفَارِهُ: الكَيِّسُ الحَاذِقُ، أي: حَاذِقينَ بنَحْتِها، والْفَرِهُ: الأَشِرِ البَطِرِ.

أي: ﴿أَطِيعُونِ﴾ ـي فيمَا آمرُكُم بِهِ. ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟﴾ رؤَساءَكُم المفْسِدِينَ، ولا تَمتَثِلوا[4] أو امرَهُم.

والْمُسَحَّرُ الذي سُحِّر كَثيراً حتّىٰ غُلِبَ علىٰ عَقْلِهِ، أي: سُحِرْتَ مَرةً بعد أُخرىٰ فَصِرْتَ لا تَدري ما تقُولُ، وقيلَ: معناهُ: أنْتَ من المـخلُوقينَ المـعلَّلينَ بـالطَعَامِ والشَرابِ مثلُنا، فَلِمَ صِرْتَ أَولىٰ بالنبوَّة منَّا؟![5].

والشِّرْبُ: النَصيبُ من المَاءِ إذا كانَ يَوم شِرْبِها شَـربَتْ مـاءَهُم كُـلَّه، ولَـهُمْ ﴿شِرْبُ يَوْمٍ﴾ لا تَشْرَبُ فيه المَاءَ، وإنَّما عَظَّمَ اليومَ لحلُولِ العَذابِ العَظيمِ فيه.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَـهُمْ أَخُـوهُمْ لُـوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣)

---

(١) قال ابن الأثير: كُفرَّىٰ بالضمّ وتشديد الراء وفتح الفاء وضمّها مـقصور: هـو وعـاء الطـلع وقشره الأعلى، وكذلك كافوره، وقيل: هو الطلع حين ينشقّ (النهاية: مادة كفر).

(٢) قاله ابن عباس وعكرمة. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٨٢.

(٣) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو. راجع التبيان: ج ٨ ص ٤٨.

(٤) في نسخة: «تقبلوا».

(٥) قاله ابن عباس. راجع التبيان: ج ٨ ص ٤٨.

وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزاً فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٧٥)﴾

أي: أَتَأْتُونَ من بين أولادِ آدمَ ذُكْرانَهم كأنَّ الإناثَ قد أَعْوَزَتْكُم؟ والمُرادُ بـ﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الناسُ، أو: أتأتُونَ أنتم من بين ما عَداكُم من العالَمينَ الذُّكْرانَ؟ بمعنىٰ: أنَّكم يا قَوم لُوطٍ وحدكم مختَصُّونَ بهذه الفَاحِشَةِ. والمُرادُ بالعَالَمِينَ: كلُّ ما يُنكَحُ من الحَيوانِ.

في ﴿مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ تَبيينٌ لِمَا خَلَقَ ﴿عَادُونَ﴾ معتَدُونَ في الظُّلْمِ، متجاوِزُونَ فيه الحَدَّ. ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن نَهيِنا، ولَمْ تمتَنِعْ عن تَقْبيحِ أَفْعالِنا ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ من جُملةِ مَنْ أَخرجْنَاهُ من بين أظْهُرِنا، وطَردْنَاه من بَلدِنا. ﴿مِنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أبْلَغُ من أن يقولَ: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم﴾ قَالٍ، كما يَقُولُ: فُلانٌ من العُلَماءِ، أي: مَعدُودٌ في جملَتِهم معروفٌ بالعِلْمِ فيهم، ويجوزُ أن يكونَ المُرادُ: إنّي من الكامِلينَ في قِلَاكُم، والقِلَىٰ: البُغْضُ الشَديدُ، كأنَّه بُغضٌ يَقلِي الفُؤادَ والكَبِدَ ممّا يعلَمُونَ من عقُوبةِ عَمَلِهم.

﴿إِلَّا عَجُوزاً فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ أي: مقدَّراً غُبورها في العذَابِ والهَلاكِ، قيلَ: إنَّها هَلَكَتْ مع مَنْ خَرَجَ من القريةِ بما أُمطِرَ عليهم من الحجَارةِ[1]. قالَ قَتَادة:

(١) حكاه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ٥٥.

أمطَرَ الله علىٰ شُذاذِ القَومِ حجارةً من السَمَاءِ فأهْلَكهُم [١]، وعن ابن زيدٍ: لَمْ يَرْضَ بِالائتِفاك [٢] حتّىٰ أتْبَعَهُ مَطَراً مِنْ حِجارة [٣]، والتَقْديرُ: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ مَطَرهُم فحُذِفَ، ولم يُرِدْ بالمُنذَرينَ قَوماً بأعْيانِهِم إنّما هو للجِنْس.

﴿كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٨٠) أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُواْ بِالْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٩١)﴾

قُرِئَ: ﴿أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ بالهَمزةِ وَبتخفيفِهِ وبالجرّ على الإضـافةِ، وقُـرئَ بالفتح [٤] علىٰ أنّ «أيكة» اسمُ بَلَدٍ، ورُوِيَ: أنّ أصحابَ الأَيْكةِ كـانُوا أصـحابَ شَجَرٍ مُلْتفٍّ، وكانَ شَجَرُهُم الدُّوم [٥]. ولَم يقُلْ: أخوهم شعيب كما في المَواضِعِ

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٣٣١.

(٢) في نسخة «بالانقلاب». قال الجوهري: ائتفكتْ البلدةُ بأهلها أي: انـقلبتْ، والمـؤتفكاتُ: المدن التي قلبها الله تعالى على قوم لوطٍ عليه السلام. راجع الصحاح: مادة «أفك».

(٣) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٣١.

(٤) قرأه الحرميان وابن عامر. راجع التبيان: ج ٨ ص ٥٧.

(٥) رواه القرطبي في تفسيره: ج ١٣ ص ١٣٥ عن قتادة.

المتقدّمةِ، لأنَّ شُعَيباً لم يكُنْ من أَصْحابِ الأَيْكةِ، وفي الحَديثِ: «أن شُعيباً أَخَـا مَدْيَنَ أُرسلَ إليهم وإلىٰ أصحابِ الأَيْكة»(١).

بَخَسَه حَقَّه بمعنىٰ: نَقَصَه أيّاهُ ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ﴾ أي: لا تَنقُصُوا النَاسَ حقُوقَهُم، وهو عَامٌّ في أن لا يُهضَمُ حقٌّ لأَحَدٍ، ولا يُغْصَب مُلْكٌ ولا يُتَصَرَّفُ فيه إلّا بـإذْنِ مالِكِه، وعَثَا في الأرضِ يَعثُو، وعَثَا يَعْثي، وعَاثَ يَعيثُ بمعنىً، وذلكَ نَحوُ: قَطْعُ الطَريقِ وإهْلاكُ الزرْعِ.

﴿وَٱلْجِبِلَّةَ﴾ الخَليقَةُ، أي: ذَوي الجِبَلَّةِ، وهو كقولِكَ: والخَلْقُ الأَوَّلينَ. ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ دَخلَتِ الواو هـنا لِـمَعنىً، وهـو أنّـهم قَـصَدُوا أنَّ البشـريّةَ والتَّسْحِيرَ كِلَيْهِمَا مُنَافٍ للرسالةِ عندَهُم ﴿إِن﴾ المخَفَّفَةُ من الثَقيلَةِ، وهي وَلَامُـها تفرَّقَتا علىٰ فعل «الظَنّ» وثاني مفعُولَيْهِ، لأنَّهما في الأَصْلِ يَتفرَّقانِ عَلَى المـبتدأ والخبر، فَلَمَّا كانَ باب «كان» وباب «ظننت» من جِنْسِ بابِ المبتدأ والخبر، قَالُوا أيضاً في البابينِ: إنْ كانَ زَيدٌ لَقَائِماً ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَـٰذِبِينَ﴾.

وقُرِئَ: ﴿كِسَفاً﴾ بسكونِ السينِ(٢) وفَـتْحِها، وكِـلَاهُما جَـمْعُ كِسْـفَةٍ، أي: إنْ كنتَ صَادقاً فادعُ اللهَ أن يُسقِطَ علينا كِسَفاً من السَمَاء. ﴿قَالَ رَبِّى أَعْلَمُ بِـمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بأعمالِكُم وبمَا تَستَوجِبُونَ عليها من العقَابِ، فإنْ أرادَ أن يُعاقِبَكُم بإسْقاطِ كِسَفٍ من السَمَاءِ فَعَلَ، وإنْ أرادَ عِقَاباً آخَرَ فَعَلَ، فأخَذَهم اللهُ بـمثْلِ مـا اقترحُوه من عَذَابِ ﴿الظُّلَّةِ﴾، يُرْوىٰ: أنَّه حَبَسَ عَنهُم الرِيحُ سَبْعاً، وسَلَّطَ عَلَيهِم الوَمَدَ(٣) فأَخَذَ بأنفاسِهِم، فَخَرجُوا إلَى البرّيةِ فأَظَلَّتْهُم سَحَابَةٌ وَجَـدوا لَـهَا بَـرداً

(١) رواه الرازي في تفسيره: ج ٢٤ ص ١٦٣.
(٢) وهي قراءة الجمهور إلّا حفصاً فانّه قرأ بفتح السين. راجع التذكرة في القراءات: ج ٢ ص ٥٨١.
(٣) الوَمَد: شدّة حرّ الليل. (الصحاح: مادة وَمَدَ).

ونَسيماً، فاجتَمعُوا تَحتَها فأَمطَرتْ عليهِم ناراً فاحترَقُوا[١].

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَـٰٓءِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢)﴾

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ الضَميرُ للقُرآن، والمُرادُ بالتَّنزيلِ: المُنزَلُ. وقرئ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾، و«نَزَّلَ به الرُّوحَ»[٢]، والباءُ في كِلْتَا القراءتَين للتَعديةِ، أي: جَعَلَ اللهُ الرُوحَ الأمين نَازِلاً به. ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: حفَّظَكَ وفهَّمَكَ إيَّاهُ وأثبتَهُ في قَلْبِكَ إثباتَ مَا لا يُنسىٰ، كقولِهِ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[٣]. ﴿بِلِسَانٍ﴾ الباءُ يتَعلَّقُ بـ﴿ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي: لتكونَ من الذينَ أَنذَرُوا بهذا اللسَانِ وهم خَمسةٌ: هودٌ وصالحٌ وشُعَيبٌ وإسماعيلُ ومحمدٌ صَلَوات الله عليهم أجمعينَ، أو يتَعلَّقُ بـ﴿نَزَلَ﴾

---

(١) رواه السيوطي في الدر المنثور: ج ٦ ص ٣٢٠ عن ابن عباس.

(٢) قرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٧٣.

(٣) الأعلىٰ: ٦.

فيكونُ المعنىٰ: نزّلَه باللّسانِ العَربي لتُنذِرَ به، لأنَّه لو نزَّلَهُ باللّسان الأعْجَميّ وقالوا: ما نَصنَعُ بما لا نَفْهَمُه؟ فيَتعذّرُ الإنْذارُ. وفي هذا الوجهِ أنَّ تنزيلَهُ بالعربيةِ التي هي لِسانُكَ ولِسانُ قَومِكَ تَنزيلٌ له علىٰ قَلْبِكَ لأنَّكَ تَفْهَمُهُ وتُفَهِّمُهُ قَومَكَ، ولَو كانَ أعْجَمياً لكانَ نَازِلاً علىٰ سَمعِكَ دونَ قَلْبِكَ، فكُنتَ تَسمَعُ أجراسَ حروفٍ ولا تَفْهمُ مَعَانيها ولا تَعِيها. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يَعني القُرآنَ ﴿لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني: ذِكْرُهُ مثبتٌ في سائِرِ الكُتُبِ السَماويةِ علىٰ وَجْهِ البشَارةِ به وبمحمّدٍ ﷺ، وقيلَ: إنَّ مَعَانيه من الدُعاءِ إلى التَوحيدِ وغيرِهِ فيها(١).

وقُرئ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن﴾ بالتَذْكيرِ و﴿ءَايَةً﴾ بالنَصْبِ علىٰ أنَّها خَبرُهُ و﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ هو الاسمُ، وقُرئ: «تَكُنْ» بالتأْنيثِ و«آيةٌ» بالرفع(٢) علىٰ أنَّ في «تَكُنْ» ضَميرَ القصّةِ و«آيةٌ» خبرُ المبتدأ الذي هو ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾، والجُملةُ خَبرُ «كانَ»، والمعنىٰ: أَلَمْ يكُنْ عِلْمُ عُلَماءِ بني إسرائيلَ بمجيئِهِ دَلَالةً لَهم علىٰ صحّةِ نبوَّتِهِ، وهم عبدالله بن سلام وغيرُه، كما قالَ سبحانَه: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾(٣).

والأَعْجَمُ الذي لا يُفصِحُ، يقالُ: في لِسَانِهِ عُجْمَةٌ واستِعْجَامٌ. ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ أي: كَما أنْزلْنا القُرآنَ عَرَبيّاً مُبيناً أَدْخَلْنَاهُ وأَوقَعْناهُ ﴿فِى قُلُوبِ﴾ الكافرينَ بأَن قَرأَهُ رسُولُنا عَلَيهم. ثم أسنَدَ تَرْكَ الإيمانِ إليهم بقَولِهِ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ولا يَزالُونَ علَى التكذيبِ والجُحُودِ بِهِ حتّىٰ يُعاينُوا الوَعيدَ ويرَوا العذاب، فيَلْحَقُ بِهِم ﴿بَغْتَةً﴾ أي: مُفَاجاةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمجيئِهِ. ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ تَبكيتٌ لَهُم وتَوبيخٌ.

---

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٣٥.

(٢) وهي قراءة ابن عامر. راجع التبيان: ج ٨ ص ٦١.

(٣) القصص: ٥٣.

ثمَّ قالَ: هَبْ أنّ الأمرَ كما يظنُّونَ من التَمْتيعِ والتَعْميرِ، فإذا أَتـاهُم العَـذابُ ما يَنفَعُهُم حينئذٍ ما مَضىٰ من طُولِ أعمارِهِم وَطِيبِ عَيْشِهِم.

﴿لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ أي: رُسُلٌ يُنذِرُونَهم. ﴿ذِكْرَىٰ﴾ مَنصُوبةٌ بمعنى «تذكِرةً»، إمَّا لأنّ «أنذرَ» و«ذكَّرَ» متقَاربانِ، فكأنَّه قالَ: مُذكِّرونَ تَذكِرةً، وإمَّا لأنّها حَالٌ مِـن الضَميرِ في ﴿مُنذِرُونَ﴾ أي: يُنذِرونَهُم ذَوي تَذْكِرةٍ، وإمَّا لأنَّها مفعُولٌ لَه بمعنىٰ: أنَّهم يُنذِرُونَهم لأَجْلِ التَذْكرةِ. ويجوزُ أن يكونَ ﴿ذِكْرَىٰ﴾ متعلّقةً بـ﴿أَهْـلَكْنَا﴾ مفعولاً لَه، والمعنىٰ: وَمَا أَهْلَكْنا من أهلِ قَريةٍ ظَالمةٍ إلّا بعدَما أَلْـزَمْناهُم الحـجَّةَ بإرسالِ المُنذِرينَ إليهِم ليكُونَ إهلاكَهُم تَذْكرةً وعبْرةً لغيرِهِم ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فنُهلِكَ قَوماً غيرَ ظَالِمينَ.

كانُوا يقولُونَ: إنّما يتنَزَّلُ علىٰ محمدٍ صلى الله عليه وآله من جِنْسِ ما يُنزِّلُ به الشَياطِينُ على الكَهَنَةِ، فكَذَّبَهُم اللهُ بأنَّ ذلكَ ممّا لا يَتَسَهَّلُ للشَياطين ولا يقدِرونَ عـليه، لأنَّـهم مرجُومُونَ بالشُّهُبِ ﴿مَعْزُولُونَ﴾ عن ٱستماعِ كَلامِ أَهلِ السَمَاء.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْـمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنـذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِـنَ ٱلْـمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَـعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَـوَكَّـلْ عَـلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (٢١٧) ٱلَّذِى يَـرَىٰـكَ حِـينَ تَـقُومُ (٢١٨) وَتَـقَلُّبَكَ فِـى ٱلسَّـٰجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٢٢٠) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَـلَىٰ مَـن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُـلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ (٢٢٣) وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللهَ كَثِيراً وَٱنتَصَرُواْ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾

عَلِمَ عَزَّ ٱسمُهُ أنَّ ذلكَ لا يكُونُ، لكنَّه أرادَ أن يحرِّكَ منه لازديادِ الإخْلاصِ والتَقْوىٰ، وهي [١] لُطْفٌ للمُكلَّفينَ كَما قالَ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقَاوِيلِ﴾ [٢].

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ أُمِرَ صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليه بإنْذارِ الأقْربِ فالأَقْربِ من قومِهِ، وأنْ يُقدِّمَ إنْذارَهُم علىٰ إنْذارِ غَيرِهِم. ورُوي: أنَّه جَمَعَ بَني عبدالمطلب، وهم يومئذٍ أربعونَ رَجُلاً، الرجُلُ منهُم يأكلُ الجذَعةَ ويَشْربُ العُسّ [٣] علىٰ رِجْلِ شاةٍ وقَعْبٍ من لَبَنٍ، فأَكلُوا وشَربُوا حتّىٰ صَدَروا، ثمّ أَنذَرهُم فقال: «يا بَني عبدالمطلب، إنّي أنا النَذيرُ إلَيكم من اللهِ عزَّوجلَّ، فأسْلِمُوا وأطيعوني تَهتَدوا»، ثمَّ قالَ: «مَن يُؤاخِيني ويُؤازِرُني فيكُونُ وليّي ووصيِّي بَعْدي، وخَليفَتي في أهل بيتي»؟ فَسَكَتَ القَومُ، وأعادَها ثَلاثاً، كُلُّ ذلكَ يَسْكُتُ القَومُ ويقولُ عليٌّ عليه السلام: أنا، وقالَ في المرّةِ الثالثةِ: أَنْتَ، فقامَ القومُ وهم يقُولُونَ لأبي طالبٍ: أَطِعِ ابنَك فَقَدْ أُمِّرَ عليك [٤].

و«خَفْضُ الْجناح» مَثَلٌ في التَواضعِ ولِينِ الجَانبِ. ﴿فإنْ عَصَوْكَ﴾ فَتبرَّأْ منهم ومن أَعمالِهم. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى﴾ اللهِ يكْفِكَ شَرَّ مَنْ يَعصيكَ، وفَوِّضْ أمْرَكَ إلىٰ مَن يقْدرُ علىٰ نَفْعِكَ وضَرِّكَ، وقُرئَ «فَتَوَكَّلْ» بالفاء [٥] ويكونُ عَطْفاً علىٰ: ﴿فَقُلْ﴾ أو ﴿فَلَا تَدْعُ﴾. ﴿الّذِى يَرىٰكَ﴾ ويَطَّلعُ عليكَ ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ للتهجُّدِ، والمُرادُ بـ﴿السَّـٰجِدِينَ﴾ المُصلُّونَ، وتَقلُّبُهُ فيهم: تَصرُّفُه فيمَا بينَهم بقيامِهِ وركُوعِهِ وسجُودِهِ وقعُودِهِ إذا أمَّهُم، وقيلَ: معناهُ: وتقلّبكَ في أَصلابِ الموحِّدينَ حتّىٰ

(١) في نسخة «فيه». (٢) الحاقة: ٤٤.
(٣) العُسُّ: القدح العظيم، والرفدُ أكبر منه، وجمعه: عِسَاسٌ. (الصحاح: مادة عسّ).
(٤) رواه الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٤٨٣ عن ابن عباس.
(٥) قرأه نافع وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٧٣.

أَخْرَجَكَ نبيّاً[١]، وهو المرويُّ عن أئمةِ الهدىٰ عليهم السلام[٢].

ثمّ ذكَرَ سبحانَهُ من ﴿تَنَزَّلُ﴾ عَلَيهِ الشَّياطِينَ ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ هُمُ الكَـهَنَةُ: كَشِقٍّ وسطيحٍ، والمُتَنَبِّئَةُ: كـمُسيلَمَة الكـذّاب وطُـلَيْحَة. ﴿يُـلْقُونَ السَّـمْعَ﴾ هُـمُ الشَياطِينَ كانُوا قبل أن يُحجَبُوا بالرجْمِ يستَمِعُونَ إِلى المَلأ الأعـلىٰ، فـيختَطِفُونَ بعضَ ما يتكلّمُونَ به ممّا اطّلعوا عليه من الغُيُوب، ثمّ ﴿يُلْقُونَ﴾ ما يَسمعُونَه أي: يُوحُونَ به إليهم.

وقولُهُ: ﴿وَإِنَّه لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِـهِ الشَّـيَـٰطِينُ﴾ ﴿هَـلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّـيَـٰطِينُ﴾[٣] أَخَوانٌ، فَرّقَ سبحانَهُ بينَهنَّ بآياتٍ لَيستْ في معناهُنّ لتَطرِئَةِ ذِكْرِ مَا فيهنّ كرّةً بعد كرّة، فيدلّ بذلكَ علىٰ أنّ المعنىٰ الذي نَزَلَ فيه من المَعاني التي ٱشتَدّت كراهَةُ اللهِ لخِلافِها.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ مبتدأ و﴿يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ﴾ خبرُه، أي: لا يتّبعُهُم علىٰ كـذبِهِم وباطِلِهم وفُضُولِ قَولِهِم، ومَا هُم عليه من الهجَاء وتَمزيقِ الأعْراضِ ومَـدْحِ مَـن لا يَستَحِقّ المَدْحَ، ولا يُستَحسَنُ ذلكَ مـنهم إلّا الغـاوون السفهاء[٤]، وقـيلَ: الغَاوون: الرّاوون[٥]، وقيلَ: الشَياطين[٦]، وقيلَ: هم شُعَراءُ المشركينَ: عبدالله بن الزِّبَعْرَىٰ، وأبو سُفيان بن الحارثِ بن عبدالمطلب، وأبو غرَّة، وأُميّة بن أبي الصلت وغيرهم، قَالُوا: نَحنُ نقولُ مثلَ ما قَالَ محمدٌ صلى الله عليه وآله وكانُوا يهجُونَه، ويَجتَمعُ إليـهم الأعْرابُ مِن قَومِهِم يستَمِعُونَ أشعارَهُم وأهاجيهم[٧].

---

(١) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٣١٥.

(٢) تفسير القمي علي بن ابراهيم: ج ٢ ص ١٢٥ وفيه: «النبيّين» بدل «الموحّدين».

(٣) الآيات حسب الترتيب: ١٩٢، ٢١٠، ٢٢١.

(٤) في نسخة: «والسفهاء».

(٥) قاله ابن عباس في تفسيره: ص ٣١٥.

(٦) قاله مجاهد وقتادة. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ١٨٩.

(٧) قاله ابن عباس كما في تفسير الآلوسي: ج ١٩ ص ١٤٦.

وقولُهُ: ﴿فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ مَثَلٌ لذهَابِهِم في كلِّ شِعبٍ من القَولِ، وقِلّةِ مُبالاتِهِم بالغلوِّ في المَنْطقِ ومُجَاوزَةِ حدِّ القَصْدِ فيه، وقَذفِ التقيِّ وبَهتِ البَريء.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ استثنى الشُعراءَ المؤمنينَ الذين يُكثِرُونَ ذِكْرَ اللهِ وتِلاوَةَ القُرآنِ، وكانَ ذلكَ أغْلب عليهم من الشِعْر، وإذا قَالُوا شِعْراً قالُوه في تَوحيدِ اللهِ والحكمةِ والمَوعظةِ والآدابِ الحَسَنَةِ ومَدْحِ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وصُلَحاءِ المؤمنينَ، وكَانَ هجاؤهُم علىٰ سبيلِ الانتصَارِ والردِّ علىٰ مَن هَجَا المسلمينَ، وهُم: عبدُاللهِ بنُ رَواحَة، والكَعْبان ـ كَعبُ بنُ مَالكٍ وكَعبُ بنُ زُهيرٍ ـ وحسَّانُ بنُ ثَابت.

قالَ عليه السلام لكَعبِ بن مَالكٍ: «اهْجُهُم، فوالذي نَفسي بيدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ عَليهِم مِن النَّبْل»[١]. وقالَ لحسَّانٍ: «قُلْ ورُوحُ القُدُسِ مَعَك»[٢].

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ وَعِيدٌ بَليغٌ وتَهديدٌ شَديدٌ ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ أيَّ منْصَرفٍ ينصَرفُونَ، أي: سيَعْلَمُونَ أنَّ ليسَ لَهُم وَجهٌ من وجُوهِ الانقلابِ وَهُو النَجَاةُ.

وقَرأَ الصَادقُ عليه السلام: «وسَيَعلَمُ الذين ظَلَموا آلَ مُحمدٍ صلى الله عليه وآله حقَّهُم»[٣] ويُشبهُ أَن تكونَ قِرَاءةً علىٰ سَبيلِ التَأويل.

❁ ❁ ❁

(١) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٤٥.
(٢) رواه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٤٠٤ عن البراء.
(٣) تفسير القمي علي بن ابراهيم: ج ٢ ص ١٢٥.

سورةُ النَّمْلِ

مكّية(١) أَربعٌ وتسعُونَ آيةً بَصريٌّ، ثَلاثٌ كوفيٌّ، عَدَّ البَصريُّ ﴿مِن قَوارِيرَ﴾ آيةً(٢).

وفي حَديثِ أُبيٍّ: «مَن قَرأَ طسّ سُلَيمَان، كانَ لَه من الأَجْرِ عَشرُ حَسَناتٍ بعَدَدِ مَن صَدَّقَ بسُلَيْمانَ وكَذَّبَ بِهِ، وهُود وشُعيبٍ وصَالحٍ وإبراهيمَ، ويَخرُجُ من قَبرِهِ وهو يُنادِي: لا إلٰه إلّا الله»(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ٧٣: مكّية بلا خلاف، وهي خمس وتسعون آيةً حجازي، وأربع وتسعون آيةً بصري وشامي، وثلاث وتسعون آية في عدد الكوفيّين.

وفي الكشّاف: ج ٣ ص ٣٤٦: مكّية، وهي ثلاث وتسعون آية، وقيل: أربع وتسعون، نزلت بعد الشعراء.

وفي تفسير الآلوسي: ج ١٩ ص ١٥٤ مالفظه: وتسمّىٰ أيضاً كما في الدر المنثور: سورة سليمان، وهي مكّية كما روي عن ابن عباس وابن الزبير، وذهب بعضهم إلى مدنية في بعض آياتها، وعدد آياتها خمس وتسعون آية حجازي وأربع بصري وشامي وثلاث كوفي، وروي عن ابن عباس وجابر بن زيد: أنّ الشعراء نزلت ثم طسّ ثم القصص.

(٢) في نسخة زيادة: «علىٰ سبيل التأويل».

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٩٠ مرسلاً.

(٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣)
إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُوْلَـٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى
ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَاراً
سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا
جَآءَهَا نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ
ٱلْعَـٰلَمِينَ (٨) يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا
رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا
يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ (١٠)﴾

﴿تِلْكَ﴾ مبتدأٌ و﴿ءَايَـٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ خَبرُه و﴿هُدًى﴾ خبرٌ بعدَ خَبَرٍ، أو خَبرُ مبتدأ مضمَر، أو نَصبٌ علَى الحَالِ، أي: هَاديةً ومبشّرةً.

﴿وهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: هؤلاء هم المُوقِنُونَ بالآخرةِ، ومَعناهُ: وما يُوقِنُ بالآخِرةِ حقّ الإيقانِ إلّا هؤلاء الجَامعُونَ بينَ الإِيمانِ وإقَامةِ الصَلاةِ وإيتَاءِ الزكَاةِ.

﴿زيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ أسنَدَ تَزيينَ أعمالِهِم إلىٰ ذَاتِهِ، وقد أُسنِدَ ذلكَ إلَى الشيطانِ في قَولِهِ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُم الشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾[1]، وبين الإِسنَادَيْنِ فَرقٌ، وذلكَ أنَّ إسنادَهُ إلَى الشَيطانِ حَقيقةٌ، وإسنادَهُ إلَى اللهِ عزّ اسمُه استعَارةٌ أو مَجازٌ حكميّ، فالاستعارةُ هي أنّه لمّا مَتّعهُم بطُولِ العُمُرِ والتَوسِعَةِ فِي الرِزْقِ فَجعَلُوا إنْعامَهُ بذلكَ ذريعةً إلَى اتّباعِ شَهَواتِهِم وإيثارَهُم التَرفُّه ونفَارَهم عن لَوازِمِ التكليفِ، فكأنّه زيّنَ لَهم بذلكَ أعْمالَهم، وإلىٰ هذا أشارَتِ الملائكةُ فِي قَولِهِم:

(١) العنكبوت: ٣٨.

﴿وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّى نَسُواْ الذِّكْرَ﴾[1]. وأمّا المَجازُ الحُكميّ: هو أنّ إمْهالَهُ الشَيطانَ بتَخليتِهِ حتّىٰ زيَّنَ لَهُم أعمالَهُم القَبيحةِ، وخَلْقَهُ فيهم شَهوةَ القَبيحِ الداعيةَ لَهُم إليهَا، وحِرمَانَهُ إيّاهُم التَوفيقَ عقُوبَةً لَهُم علىٰ كُفرِهِم، كالأسبابِ للتَزيينِ، فلذلكَ أضَافَ التَزيينَ إلىٰ ذاتِهِ. والْعَمَهُ: التَحيّرُ والتَردّدُ.

و﴿سُوٓءُ الْعَذَابِ﴾ هو القَتلُ والأَسْرُ يومَ بَدرٍ، و﴿الأَخْسَرُونَ﴾ أَشَدُّ النَاسِ خُسْراناً لأنَّهم يخسِرونَ الثَوابَ الدائِمَ ويَحصلونَ في العقابِ الدائِمِ.

﴿تُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: تُؤتاه وتُلَقَّنُهُ من عندِ أيِّ ﴿حَكِيمٍ﴾ وأيِّ ﴿عَلِيمٍ﴾، وهذا معنىٰ مَجيئِهما نَكِرَتَين. وهذهِ الآيةُ تَمهيدٌ لِمَا يريدُ أن يقصَّهُ بعدَها من الأَقاصيصِ، لِمَا فيها من لَطائفِ حِكمتِهِ ودَقَائقِ عِلْمِهِ.

﴿إِذْ﴾ منصُوبٌ بمُضْمرٍ وهو «اذكر»، كأنّه قالَ علىٰ أثرِ ذلكَ: خُذْ من آثارِ حكمتِهِ وعلْمِهِ قصَّةَ موسىٰ ويجوزُ أن ينتصبَ بـ﴿عَلِيم﴾. لم يكنْ معَ مُوسىٰ غيرُ امرأتِهِ وقَد كنَّى اللهُ تعالىٰ عنها بالأهْلِ، فتَبعَ ذلكَ ورودُ الخطابِ علىٰ لَفظِ الجَمْعِ وهو قولُهُ: ﴿امكثُوا﴾ وَ﴿ءَاتِيكُم﴾، ﴿إِنِّي ءانَسْتُ نَاراً﴾ أي: أبْصَرتُها، والشِّهَابُ: الشُعلةُ، والْقَبَسُ: النَارُ المقبوسَةُ، وأضاف «الشهَابَ» إلىٰ «القَبَسِ»[2] لأنّه يكونُ قَبَساً وغيرَ قَبَسٍ، وقرئ: ﴿بِشِهَابٍ﴾ منوّناً، فيكونُ ﴿قَبَسٍ﴾ بَدَلاً أو صِفةً لِمَا فيهِ من معنَى القَبَسِ، وقالَ: ﴿سَـٔاتِيكُمْ﴾ فجاءَ بسينِ التَسويفِ عِدَةً لأهلِهِ أنّه يأتيهم بِهِ وإن أبطَأَ وجاءَ بلَفْظِهِ، أو لأنَّه بنَى الأمرَ علىٰ أنّه: إنْ لم يَظفرْ بأحدِ الأَمرينِ لَم يعدمِ الآخر: إمَّا هِدايةُ الطَريقِ وإمَّا اقتباسُ النَارِ، لأنَّه كانَ قَد ضَلَّ عن الطَريقِ، وأرادَ بالْخَبَر: مَعرفةَ حَالِ الطَريقِ ﴿لَعَلَّكُم تَصْطَلُونَ﴾ تَستَدفِئُونَ بها، وما أَدْراه حينَ قَالَ ذلكَ أنّه يَظفرُ علَى النارِ بعزِّ الدُنيا وعزِّ الآخرةِ.

---

(١) الفرقان: ١٨.

(٢) الظاهرمن عبارته أنّه قدّس سرّه اعتمدعلىقراءة الإضافة هنادون التنوين تبعاًللزمخشري.

﴿أَنْ بُورِكَ﴾ مفسِّرةٌ، لأنَّ النداءَ فيه معنَى القَولِ، أي: قيلَ لَهُ: ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ والمعنىٰ: بُوركَ مَن في مكانِ النَارِ ومَن حَول مكانِها، ومكانُها البقعةُ التي حَصَلَتْ فيها وهي البقعةُ المباركَةُ، ويدلُّ عليهِ قراءةُ أُبيٍّ: «تَباركَتِ الأرضُ ومَن حولها»[1]. والذي بُوركَتْ لَه البقعةُ وبُوركَ مَن فيها وحَواليها حُدوثُ أمرٍ دينيٍّ فيها، وهو تَكليمُ اللهِ جلَّ جلالُه موسىٰ عليه السلام واستنباؤُهُ له وإظهارُ المعجِزاتِ عليه، وقيلَ: المرادُ بمَن بُوركَ: موسىٰ والمَلائكة[2]، والظاهرُ أنّه عامٌّ في كلِّ مَن كانَ في تلكَ الأرضِ وذلكَ الوادي وحواليها من أرضِ الشَام، كما وَسَمَ سبحانَه أرضَ الشَامِ بالبركاتِ في قَولِهِ: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطاً إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾[3]. والفَائدةُ في ابتداءِ الخطابِ من الله تعالىٰ بذلكَ أنّه بشَارةٌ من اللهِ تَعالىٰ لمُوسىٰ عليه السلام بأنّه قَد قُضِيَ أمرٌ عَظيمٌ ينتشرُ[4] منه في أرضِ الشَامِ كلّها البَركاتُ والخَيراتُ ﴿وَسُبْحَـٰنَ ٱللهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ إعلامٌ بأنّ ذلكَ الأمرِ من جَلائِلِ الأُمورِ، وأنَّ مكوِّنَه ربُّ العالَمِينَ.

﴿إِنَّهُ﴾ الضَميرُ للشَأْنِ ﴿أَنَا ٱللهُ﴾ مبتَدأٌ وخبَرٌ، و﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صِفَتَان لَه، أي: أنَا القَويُّ القَادرُ الذي لا يمتَنعُ عليه شيءٌ، المُحكِمُ لتَدابيره. ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ عَطْفٌ علىٰ ﴿بُورِكَ﴾ وكِلَاهُما تَفسيرٌ لـ﴿نُودِيَ﴾، والمعنىٰ: قيلَ لَه: بُوركَ مَن في النارِ، وقيلَ لَه: أَلْقِ عَصَاكَ، بدلالةِ قَولِهِ: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ في سُورةِ القَصَص[5] علىٰ تَكريرِ حَرفِ التَفسيرِ ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لَمْ يَرجِعْ، يقالُ: عَقَّبَ المُقَاتِلُ: إذا كَرَّ بعدَ الفَرارِ، قالَ:

---

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٤٩.

(٢) قاله السدي. راجع تفسير القرطبي: ج ١٣ ص ١٥٨.

(٣) الأنبياء: ٧١.

(٤) في نسخة: «ينشر».

(٥) الآية: ٣١.

فَمَاعقَّبُوا إذْ قيلَ هَلْ مِنْ مُعَقِّبٍ ... ولا نَزَلُوا يَومَ الكَريهَةِ مَنْزِلا(١)

وإنَّما خَافَ لظَنّه أنَّ ذلكَ لأَمْرٍ أُريدَ بِهِ، ويَدلُّ عليهِ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ (١٤)﴾

﴿إِلَّا﴾ بمعنى «لكنْ»، لأنَّه لمَّا أطلَقَ نَفي الخَوفِ عن الرُّسُلِ كانَ ذلكَ مَظَنَّةً لطُروءِ الشُبهةِ، فاستدركَ ذلكَ بـ«لكنْ»، والمعنىٰ: لكن ﴿مَنْ ظَلَمَ﴾ من غيرِ المُرسَلينَ ﴿ثُمَّ بَدَّلَ﴾ تَوبةً ونَدماً علىٰ ما فَعَلَه من السُوءِ، وعَزْماً علىٰ أن لا يعودَ فيمَا بَعد ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لظُلْمِهِ.

﴿فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ﴾ كَلامٌ مستَأنَفٌ، وحرفُ الجرّ فيه يتعلّقُ بمحذُوفٍ، والمَعنىٰ: واذهبْ في تِسْعِ آياتٍ إلىٰ فِرعَونَ، ونحوُهُ:

فقُلتُ إلى الطَّعَامِ فَقَالَ منهم ... فَريقٌ: نَحْسِدُ الإنسَ الطَّعَاما(٢)

ويجوزُ أن يكونَ المعنىٰ: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ... وَأَدْخِلْ يَدَكَ﴾ في جُملةِ «تِسْعِ آياتٍ» وعِدَادِهنّ.

---

(١) لم نعثر علىٰ قائله، وفيه يصف قوماً بالجبن، إذ لم يقدموا مرةً على العدو، ولم يلبّوا منادياً مستغيثاً فيدفعوا عنه. ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٣٥١.

(٢) البيت منسوب لسعير بن الحارث الضبي، و قيل: لتأبّط شرّاً، و قيل: شمر الغساني، و قيل: للفرزدق يصف نفسه بالجرأة و اقتحام المخاوف ضمن قصيدة أنشأها. انظر الكشّاف: ج ٣ ص ٣٥١.

الْمُبْصِرَةُ: الواضِحَةُ البيِّنة، جَعَلَ الإبصارَ لَها وهو في الحَقيقةِ لِمَتأمِّليها لأنَّهم ملابِسُوها، وكانُوا بسَببٍ منها بنَظَرِهِم وتفكُّرِهِم فيها، أو: جُعِلَت كأنَّها تَبصُرُ فتَهتَدي [١]، لأنَّ الأَعْمىٰ لا يَهتَدِي فَضْلاً عن أن يَهدِي غَيرَه، ومِنْه قَولُهُم: عَوراء لأنَّها تَغْوي. وقرأ علي بن الحسين عليهما السلام وقتادة «مَبْصَرَةً» [٢] وهي نحو: مَجْنَبَةً وَمَنْجَلَةً أي: مكَاناً يَكثرُ فيه التَبصرة [٣].

الواو في ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ واو الحَالِ، و«قد» مضمَرةٌ، والْعُلُوُّ: الكِبْرُ والترفّعُ عن الإيمانِ بما جاءَ بِهِ موسىٰ، كقولِهِ: ﴿وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُون﴾ [٤] والمعنىٰ: جَحَدُوها بألسنَتِهِم واستَيقَنُوها في قلُوبِهِم، والاستيقانُ أَبْلغُ من الإيقَان.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْماً وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحاً تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (١٩) ﴾

أي: ﴿عِلْماً﴾ جليلاً [٥] سَنِيّاً أو كَثيراً من العِلْمِ، أي: آتيناهُمَا عِلْمَاً فعمِلَا به

---

(١) في نسخة: «فتهدي».

(٢) حكاه عنه عليه السلام الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٥٢.

(٣) في نسخة: «التبصّر».

(٤) المؤمنون: ٤٦ و٤٧.

(٥) في نسخة: «جليّاً».

وعلّماهُ ﴿وَقَالَا الحَمْدُ للهِ الَّذي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي هذا دَلالةٌ علىٰ شَرَفِ العِلْمِ وفَضْلِهِ وتَقدُّمِ أهلِهِ، وأنَّ نِعْمةَ العلْمِ من أجلِّ النِعَمِ، وأنَّ مَنْ أُوتيه فَقَد أُوتي فَضْلاً علىٰ كَثيرٍ من الأُمم.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ فيه دَلالةٌ علىٰ أنَّ الأنبياءَ يُورِّثون كتوريثِ غيرِهِم، لأنَّ إطلاقَ اللفظِ يَقتَضي ذلكَ ﴿وَقَالَ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا﴾ فِيهِ تَشْهيرٌ لِنعْمةِ اللهِ واْعترافٌ بهَا، ودُعاءٌ للنَاسِ إلى التَصديقِ بذِكْرِ المُعْجزِ الذي هو عِلْمُ ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ وغَيرُ ذلكَ ممّا أُوتيهِ من جَلائِلِ الأُمور. والمَنْطِقُ: كلُّ ما يُصَوَّتُ بِهِ من المُفْرَدِ والمُؤلَّفِ، والذي عُلِّمَ سُليمانُ من مَنْطِقِ الطَيرِ هو ما يُفْهَمُ بَعضُه من بَعضٍ من مَعانِيهِ وأغْراضِهِ، كَما يُحكىٰ أنَّه مَرَّ علىٰ بُلبُلٍ في شَجَرةٍ فَقالَ: إنَّه يقُولُ: أَكَلْتُ نِصْفَ ثَمَرةٍ فَعَلَى الدُنيا العَفاء[1] ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُريدُ كَثرةَ ما أُوتيه ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ وعَنِ الصَادقِ عليه السلام: يَعني المُلْكَ والنبوّة[2].

سَخَّرَ اللهُ له الريحَ والجِنَّ والإِنْسَ والطَيرَ، فكانَ إذا خَرجَ إلىٰ مَجلسِهِ عَكَفَ عليه الطَيرُ، وقَامَ الجِنُّ والإنسُ حتَّىٰ يَجلسَ علىٰ سريرِهِ، وكانَ لا يَسمَعُ بمَلِكٍ في نَاحيةٍ من الأَرضِ إلَّا أذَلَّهُ وأدخلَهُ في الإسلام. ويُروىٰ أنّه خَرجَ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ مَعَ ستمائةِ ألفِ كُرْسي عَن يمينهِ ويَسارِهِ، وأَمَرَ الطَيرَ فأظَلَّتْهم، وأَمَرَ الريحَ فَحَمَلَتْهم حتَّىٰ وَردَتْ بِهِم المَدائنَ، ثمَّ رَجعَ فَباتَ في اصطَخرٍ، فقالَ بعضُهم لبَعضٍ: هَلْ رأيتُم قَطُّ مُلْكاً أَعظَم من هذا أَو سَمعْتُم؟ قالُوا: لا، فنَادىٰ مَلَكٌ من السَماءِ: لَثَوابُ تَسبيحَةٍ واحِدَةٍ في الله أعْظَمُ ممّا رَأيتُم! ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُحْبَسُ أَوَّلُهُم علىٰ آخَرِهِم بأَن تُوقَفَ هَواديهم حتَّىٰ يَلْحَقَهُم تَواليهم، فيكُونوا مُجتَمعينَ

---

(١) حكاه فرقد السنجي. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٤٠٩.

(٢) حكاه عنه عليه السلام الآلوسي في تفسيره: ج ١٩ ص ١٧١.

لا يَتخلَّفُ منهم أَحَدٌ، وذلكَ للكَثْرةِ العَظيمَة.

فَسَارَ سليمانُ بجنُودِهِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ وهو وَادٍ بالطائفِ أو بالشَامِ كَثيرُ النَمْلِ، وإنّما عُدِّي ﴿أَتَوۡاْ﴾ بـ﴿عَلَىٰ﴾ لأنّ إتيانَهُم كانَ من فَوقٍ، أو هُوَ مِن قَولِهِم: أَتىٰ علَى الشَيءِ: إذا أَنْفَذَهُ وبلَغَ آخرَهُ، كأنَّهم أرادُوا أن يَنزلُوا عند مَقْطَعِ الوَادي، لأنّهم ما دامَتِ الريحُ تَحملُهُم في الهَواءِ لا يخافُ عليهم الحطمُ. ويمكنُ أَن يكُونَ جنودُ سُليمانَ كانُوا رُكْباناً ومُشَاةً في ذلكَ الوقتِ ولَم تَحمِلْهُم الريحُ، أو كانَتِ القصّةُ قبلَ أن سَخَّرَ اللهُ الريحَ لَهُ. ولمَّا كانَ صوتُ النَمْلِ مفهُومَاً لسليمانَ عَبَّرَ عنه بالقَولِ، ولمَّا جُعِلَتِ النَملةُ قَائِلةً والنَملُ مَقُولاً لَهُم كَما فـي «أُولي العُـقُولِ» أَجرىٰ خطَابَهُم، و﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ جَوابُ الأمرِ أو نَـهيٌ بَـدلٌ مـن الأمـر، لأنَّ «ادْخُلُوا في مَسَاكِنكُم» في معنَىٰ: لا تكُونُوا حيثُ أَنتُم، والمُـرادُ: لا يَـحْطمنَّكُم جنودُ سُليمانَ، فَجاءَ بِمَا هو أَبلَغُ، ونَحوُهُ: عَجَبْتُ مِن نَفسي ومِن إشْفَاقِها.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ أي: أَخَذَ في الضحكِ، يعني: أنَّـه قَـد تَـجاوزَ التبسُّمَ إلى الضحكِ، وكذلكَ ضحكُ الأنبياءِ، وإنَّما ضَحكَ لإعجابِهِ بما دلَّ من قَولِها علىٰ ظُهُورِ شَـفَقَةِ جـنودِهِ وشُـهْرةِ حَـالِهِم فـي التَـقوىٰ حـيثُ قَـالَتْ: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، أو لسرورِهِ بمَا آتاه اللهُ من إدراكِهِ بسَمْعِهِ ما هَمَسَ به أصغرُ خَلْقِ اللهِ وإحاطتَهُ بمعنَاهُ، ولذلكَ قالَ: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ أي: اجـعلْني أَزِع شُكْـرَ نـعمتِكَ عندي، وأَرتَبطُه لا يَنفَلِتُ (١) عني، حتّىٰ لا أَزال شاكِراً لكَ وذاكِراً إنعامَكَ ﴿عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ بأَن أكرمْتَهُ بالنبوّةِ وغيرِها، وعلىٰ والدتي بأن زَوَّجتَها نبيَّك، جَعَلَ النعمةَ عليهِما نِعمةً عليه يَلزمُهُ شكرَها ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ اسـتوقَفَهُ سبحانَه لزيادةِ العَملِ الصَالح فِي المستقبَلِ ﴿فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إبـراهـيمَ

---

(١) في نسخة: «ينقلب».

وإسماعيلَ وإسحاقَ ومَن بعدَهُم من النَبيِّين، أي: أَدخِلْني في جُملتِهم.

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُواْ للهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ٱللهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (٢٦) ﴾

﴿أَمْ﴾ منقطعةٌ، نَظَرَ سليمانُ عليه السلام إلىٰ مكان الهُدهُدِ فَلَمْ يرَهُ، فقَالَ: ﴿مَـالِىَ﴾ لا أَراهُ؟ علىٰ مَعنىٰ: أنّه لا يَراهُ وهو حَاضِرٌ، لساترٍ أو غيرِهِ، ثمَّ ظَهَرَ له أنّه غائبٌ، فأضْرَبَ عن ذلكَ وَأَخَذَ يقُولُ: هو غائِبٌ، كأنَّه يسألُ عن صحَّةِ ما ظَهَرَ له من غَيبتِهِ، فهو نَحوُ قَولِهِم: إنَّها الإبلُ أم شَاءَ.

ويُروىٰ أنّ أبا حنيفةَ سألَ أبا عبدِاللهِ الصادقَ عليه السلام: كيفَ تَفقَّد سُليمانُ الهُدهُدَ من بين الطَيرِ؟ فَقَالَ: لأنَّ الهُدهُدَ يَرَى المَاءَ في بَطْنِ الأَرضِ كَمَا يَرىٰ أَحدُكُم الدُّهْنَ في القَارورةِ، فَضحكَ أبو حنيفةَ وقَالَ: كَيفَ لا يَرَى الفَخَّ في التُرابِ ويَرَى المَاءَ في بَطْنِ الأرضِ؟! قال: يا نُعمان، أَوَ مَا عَلمْتَ أنَّه إذا نَزَلَ القَدَرُ غَشِيَ البَصَرُ[1].

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ﴾ بنَتْفِ ريشِهِ وتَشميسِهِ، وقيلَ: بالتَفريقِ بينَه وبينَ إلْفِهِ[2]، وقُرِئَ:

(١) رواه في مجمع البيان: ج ٧ ـ ٨ ص ٢١٧ عن العياشي.

(٢) حكاه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٤١٢.

«لَيأتِيَنَّنِي» بنونَين أوَّلُهما مشدَّدة(١)، وبنونٍ واحِدةٍ مشدَّدةٍ، والسُّلطانُ: الحُجَّةُ والعذرُ.

قُرِئَ ﴿فَمَكَثَ﴾ بفَتْحِ الكَافِ وضَمِّها(٢)، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ كقَولِكَ: عَن قَرِيبٍ، وَصَفَ مَكْثَه بقَصْرِ المدّةِ للدلالةِ علىٰ إسراعِهِ خَوفاً من سليمانَ وتَسخيره لَه، وقُرِئَ: ﴿أَحَطتُّ﴾ بإدغامِ الطاءِ بالتاءِ بإطباقٍ(٣) وغير إطباقٍ(٤). وعن ابن عَباسٍ: فأَتاه الهُدهدُ بحجّةٍ وعُذرٍ فقَالَ: اطَّلعتُ علىٰ ما لَمْ تَطَّلِعْ عليه ﴿وَجِئْتُكَ﴾ بخَبَرٍ صَادقٍ لم تَعلَمْه(٥). أَلْهَمَ اللهُ الهُدهدَ فكافَحَهُ بهذا الكَلامِ مَع ما أُوتيَ من العُلُومِ الكَثيرةِ؛ ابتلاءً لَهُ في عِلْمِهِ وتَنبيهاً لَه علىٰ أنَّ في أدنىٰ خَلْقِهِ مَن أَحاطَ(٦) ﴿بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ ليكُونَ لُطفاً لَه في تَركِ الإعجابِ الذي هو فِتْنةُ العُلَماءِ، وقرئَ: ﴿سبإٍ﴾ بالهمزةِ مُنوَّناً وغير منوَّنٍ علىٰ مَنْعِ الصرفِ(٧)، و«سبا» بالألف(٨)، ومثلُهُ في سورةِ سَبأ: ﴿لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ﴾(٩)، وهو: سبأُ بن يَشْجب بن يَعرب بن قَحطان، فمَن جَعَلَه اسماً للقَبيلةِ لَم يَصرفْهُ، ومَن جَعَلَه اسماً للحي أو الأب الأكبر صَرَفَهُ، ثمَّ سمِّيتْ مدينةُ مَأرَب بـ«سبأ»، وبينَها وبينَ صَنعاء مسيرةُ ثلاثة أيامٍ، كَمَا سمِّيتْ معافر بـ«معافر بن أدّ»، والنَّبأ: الخبرُ الذي لَه شأنٌ.

﴿وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً﴾ وهيَ بلقيسُ بنت شَراحِيلَ أو شَرحِيلَ، كَانَ أَبُوها مَلَكَ

---

(١) قرأه ابن كثير. راجع التبيان: ج ٨ ص ٨٦.

(٢) قرأ عاصم وروح بفتح الكاف، وضمّها الباقون. راجع المصدر السابق.

(٣ و٤) حكاهما الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٥٩.

(٥) حكاه عنه الماوردي في تفسيره: ج ٤ ص ٢٠٣.

(٦) في نسخة زيادة: «علماً».

(٧) وبغير التنوين على منع الصرف قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع التبيان: ج ٨ ص ٨٦.

(٨) وهي قراءة ابن كثير برواية قوّاص عنه. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٤١٣.

(٩) الآية: ١٥.

أرضَ اليَمَنِ كلِّها ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ ممَّا يَحتاجُ إليه الملُوكُ من زِينَةِ الدُنيا ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ سَريرٌ أَعظَمُ من سريرِكَ، مقدَّمُهُ من ذَهَب مُرصَّع بالياقُوتِ الأحْمرَ والزُمرّد الأخضرَ، ومؤخَّرُهُ من فضّةٍ، وكانَ عليه سَبعةُ أبياتٍ علىٰ كلّ بَيتٍ بَابٌ مُغلقٌ. وقَالَ أبو مُسلم: أرادَ بالعَرشِ المُلْك[١].

وقُرئَ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ بالتَشديدِ علىٰ أنَّ المُرادَ: فَصَدَّهُمُ الشَّيطَانُ عَنِ السَّبِيلِ لأن لا يَسجُدُوا، فحُذِفَ الجارُّ، وقُرئَ بالتَخفيفِ وهو «أَلَا يَا اسْجُدوا»[٢]: «أَلَا» للتَنْبيهِ، و«يا» حرفُ النداءِ، والمُنَادىٰ مَحذُوفٌ، كَما حَذَفَه مَن قالَ:

أَلَا يَا اسْلَمي ...[٣]

﴿الَّذِى يُخْرِجُ الخَبْءَ﴾ أي: المَخبُوءَ في السَماءِ[٤]، سَمَّاهُ بالمصدَرِ، وهو النَباتُ والمَطَرُ وغيرهُما ممّا خَبَّأه عزَّوجلَّ من غُيُوبِهِ، وقُرئَ: ﴿الخَبْءَ﴾ بتَخفيفِ الهَمزةِ بالحَذْفِ[٥].

وقيلَ: إنَّ الجَميعَ مِن قَولِهِ: ﴿أَحَطتُ﴾ إلىٰ قوله: ﴿الْعَظِيمِ﴾ من كَلامِ الهُدْهُدِ[٦]، وقيلَ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ إلىٰ آخرِهِ كَلامُ ربِّ العِزّةِ، أمرَ جَميعَ خَلقِهِ بالسجُودِ[٧].

وفي إحدَى القَراءتَينِ أَمْرٌ بالسُجُودِ وفي الأُخرىٰ ذمٌّ لتَارِكِهِ، فَسَجْدةُ التلَاوةِ

---

(١) حكاه عنه الآلوسي في تفسيره: ج ١٩ ص ١٩٠.

(٢) وهي قراءة أبي جعفر والكسائي ورويس. راجع التذكرة في القراءات: ج ٢ ص ٥٨٥.

(٣) وتمام البيت:

ألا يا اسلمي يا دار ميَّ على البلىٰ ... ولا زال منهلاً بجرْعائِكِ القطرُ

انظر ديوان ذي الرمّة: ص ٢٠٢. (٤) ليس في نسخة: من السماء.

(٥) وهي قراءة أبيّ وعيسى. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ١١٠.

(٦) حكاه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٣٦٢.

(٧) المصدر السابق.

مَسنُونَةٌ في كِلْتيهِما، وإذا خَفَّفَ فالوقْفُ علىٰ ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾ ومَن شَدَّدَ لَم يَقِف إلّا علىٰ ﴿الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، وقُرِئَ: ﴿تُخفُونَ﴾ وَ﴿تُعْلِنُونَ﴾ بالتّاء[1].

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧)﴾

﴿سَنَنظُرُ﴾ هو من النظَرِ بمعنى الفِكرِ والتأمُّلِ، والمُرادُ: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ﴾ كَذبتَ، إلّا أنَّ قولَهُ: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أبلغُ. ﴿تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ تنحَّ عنهم إلىٰ مَكانٍ قَريبٍ تَتَوارىٰ فيه ليكُونَ مَا يقُولُونَه يُسمَعُ منكَ ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: ماذا يردُّونَ من الجَوابِ، ومنهُ قَولُهُ تعالىٰ: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾[2] قيلَ: دَخَلَ عَلَيها من الكُوَّةِ فَألْقَى الكتابَ إليها وتَوارىٰ في الكُوَّةِ[3].

---

(١) الظاهر أنّ المصنّف يعتمد على اقراءة الياء فيهما هنا كما هو واضح.

(٢) سبأ: ٣١.

(٣) قاله ابن زيد ووهب بن منبه. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ٥١٢.

وفي الكَلامِ ٱختصارٌ كَثيرٌ، أي: فَمَضَى الهُدْهُدُ وأَلْقَى إليهم الكتابَ، فَلَمَّا قَرأَتْهُ بَلقيسُ ﴿قَالَتْ﴾ لقومِها بَعد أن جَمَعَتْهُم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ يعني: الأشراف ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ﴾ وَصَفَتْه بالكَرمِ لأنَّه من عندِ مَلِكٍ كريم، أو كِتابٌ حَسَنَ مَضْمونُهُ ومَا فِيهِ، أو مختومٌ لقولِهِ ﷺ: «كَرَمُ الكتَابِ خَتْمُه»[1]، أو: لأنَّه صدَّرَهُ ببسم اللهِ الرحمنِ الرَّحيمِ. ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ﴾ استئنافٌ وتَبيينٌ لِمَا أُلقِيَ إليها، كأنَّه قيلَ لَهَا: مِمَّن هُو، ومَا هُوَ؟ فقالَتْ: إنَّه من سُليمانَ. و«أَنْ» في ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟﴾ مفسِّرةٌ، والمعنى: لا تَتَكبَّروا كَما يَفعلُ المُلوكُ ﴿وَأْتُونِى﴾ مُنقَادِينَ مستَسلِمينَ، أو: مؤمنينَ.

الْفَتْوَىٰ: الجَوابُ في الحَادثَةِ، وأرادَتْ أن يُشيرُوا عَليها بما عندَهُم فيمَا حَدَثَ لَها من الرَّأيِ والتَدبير، وقَصَدَتْ بالرجُوعِ إلَى ٱستشارتِهِم استِعْطافَهُم ليوافِقُوها ويَقُومُوا مَعَها ﴿قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ أي: فَاصِلَةً، لا أَقْطعُ أَمْراً إلَّا بحضُورِكُم.

﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ﴾ في الأَجسَادِ والآلَاتِ والعُدَدِ ﴿وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ﴾: أي نَجدَةٍ وبَلَاءٍ في الحَربِ ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ مَوكُولٌ ﴿إِلَيْكِ﴾ ونَحنُ مطيعُونَ لَكِ، فَمُرينَا بأَمـرِك نُطِعْ أمْرَكِ ونَتَّبِعْ رأيَكِ.

فَمَالَتْ إلَى الصُّلْحِ ورَأَتِ الابتداءَ بالأَحْسَنِ، وذَكَرَتْ في الجَوابِ لَهُم عَاقِبَةَ الحَربِ[2] وسُوءَ مغبَّتِها[3]، و﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً﴾ قَسْراً وعُنوَةً خَرَّبُوهَا، وأَذَلُّوا أَعِزَّتَها، وقَتَلوا وأَسرُوا، ثمَّ قَالَتْ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي: وهذهِ عَادَتُهُم المستَمِرّةُ الثَابتَةُ التي لا تَتغيَّر، وقيلَ: هو تَصديقٌ من اللهِ سبحانَه لِقَولِها[4].

ثمّ ذكَرَتْ حَديثَ الهَديّةِ، وما رَأَتْ من الرَّأيِ في ذلكَ، أي: ﴿مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم﴾

---

(١) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء: ج ٢ ص ١٦٠.

(٢) في نسخة: «الأمور».

(٣) غبُّ الأمر ومغبّته: عاقبته وآخره. (لسان العرب: مادة غيب).

(٤) حكاه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٣٦٥.

رُسُلاً ﴿بِهَدِيَّةٍ﴾ أُمانِعه[١] بذلكَ عَن مُلْكِي ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ أي: منتَظِرةٌ مَا يكونُ منهُم[٢] حتّىٰ أعملَ علىٰ حَسْبِ ذلكَ.

وقُرئ: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ بحَذْفِ الياءِ والاجتزاءِ بالكَسرةِ، والهَديَّةُ اسمُ «المُهدَىٰ»، كَمَا أنَّ العَطِيَّةَ اسمُ «المُعطَىٰ»، فَيُضَافُ إلى المُهْدِي والمُهدىٰ لَهُ، والمُضَافُ إليهِ في قولِهِ: ﴿بِهَدِيَّتِكُمْ﴾ هو المُهدَىٰ إليهِ، والمَعنىٰ: أنَّ ما عِنْدِي خيرٌ ممَّا عندَكُم، وذلكَ أنّ اللهَ عزَّ اسمُهُ آتاني مَا لا مَزيد عَليهِ، فَلَا يُمَدُّ مِثْلي بمَالٍ ﴿بَلْ أَنْتُم﴾ قَومٌ لا تَعلمُونَ إلَّا ظَاهِراً من الحَياةِ الدُنيا، فلذلكَ ﴿تَفْرَحُونَ﴾ بِمَا تزادُونَ ويُهدَىٰ إليكُم، لأنَّ ذلكَ مَبلَغُ همَّتكُم، ولَيسَ حَالي كَحَالِكُم، فَمَا أَرضَىٰ منكم بشَيءٍ إلَّا بالإيمانِ، ولَمَّا أَنكَرَ عليهِم إمْدادَهُ بالمَالِ أَضْرَبَ عن ذلكَ إلىٰ بَيانِ السَبَبِ الّذي حَمَلَهُم عليهِ. ويجوزُ أن تكونَ الهديَّةُ مضَافةً إلى المُهْدِيِّ، أي: بَل أنتُم بهديَّتِكُم هذهِ التي أهديتُمُوهَا تفرحُونَ.

﴿ارْجِعْ﴾ خِطَابٌ للرَّسولِ ﴿لَا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا طَاقَةَ، وحقيقتُهُ: المُقَابلَةُ والمُقَاومَةُ، والمعنىٰ: لا يَقدرونَ أن يقابلُوهُم مِنْها من أرضِها ومَملَكتِها وهُم ذَليلُونَ بذهابِ ما كانُوا فيه من العِزِّ والمُلْكِ ﴿صَاغِرُونَ﴾ بوقُوعِهِم في الاستعبادِ والأَسْر.

﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى

(١) في نسخة: «أُصانعه».
(٢) في نسخة: «منه».

غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيَ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٤٤)﴾

يُروىٰ أنَّها أَمَرَتْ عندَ خُروجِها إلىٰ سُلَيمانَ فَجُعِلَ عَرشُها في آخرِ سَبعةِ أبياتٍ، ووَكَّلَتْ بِهِ حَرَساً يحفظُونَه[١]، فأراد سُليمانُ أَن يُرِيَها بَعْضَ مَا يَخُصُّه بِهِ اللهُ تَعالىٰ من المُعجزَاتِ الشَاهدةِ لنبوَّتِهِ.

وعن الباقِرِ عليه السلام: «قَالَ عِفْرِيتٌ مِنْ عَفَارِيتِ الجِنِّ» والعِفريتُ: المَارِدُ القَويُّ الدَّاهِي ﴿مِن مَّقَامِكَ﴾ أي: مَجلسِكَ الذي تَقْضِي فِيهِ ﴿وإِنِّي﴾ على الإِتيانِ بِهِ ﴿لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ آتِي بِهِ كما هُوَ لا أُبدِّله. و﴿الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ وَزِيرُ سُلَيمانَ وابْنُ أُختِهِ، وهُو آصفُ بن برخيا، وكانَ يَعرفُ اسمَ اللهِ الأعظمِ الذي إذا دُعِيَ به أَجَابَ، وهو قَوْلُهُ: «يا إلـٰهنا وإلـٰه كلِّ شيءٍ، إلـٰهاً واحداً لا إلـٰه إلَّا أنت»، وقيلَ هو: «يا حيُّ يا قيُّوم»، وبالعبرانية: «آهيًّا شَرَاهِيًّا»[٢]، وقيلَ هو: «يا ذا الجَلالِ والإِكرامِ»[٣]، وقيلَ: الَّذي عِندَهُ عِلْمٌ من الكتابِ مَلَكٌ أيَّدَ اللهُ به سُليمان[٤]، وقيلَ: هو جبرئيلُ والكتابُ هو اللَّوح[٥]، وقيلَ: من جنسِ كُتُبِ اللهِ

(١) رواه الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٥٢٠ عن وهب بن منبه.
(٢) قاله الكلبي وعائشة. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٤٢٠.
(٣) قاله مجاهد ومقاتل. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ٥٢٣.
(٤) وهو قول ابن بحر كما في تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٢١٣.
(٥) قاله ابن عباس والنخعي. راجع البحر المحيط: ج ٦ ص ٨٦.

المُنزَلَةِ علَىٰ أنبيائِهِ(١)، وقيلَ: هو عِلْمُ الوَحْيِ والشَرائعِ(٢).

وقولُهُ: ﴿ءاتِيكَ﴾ في الموضِعَينِ يجوزُ أن يكونَ فعْلاً واسم فَاعل، «الطَّرْفُ»: تَحرِيكُكَ أجفانكَ إذا نَظَرْتَ، فوُضِعَ مَوضعَ النَظَرِ. ولمَّا كَانَ النَاظِرُ موصُوفاً بإرسالِ الطَرْفِ في نَحْوِ قَولِهِ:

وَكُنْتَ إذا أَرْسلتَ طَرْفَكَ رَائِداً لِقَلْبِكَ يَوْماً أَتْعبَتْكَ المَنَاظِرُ(٣)

وُصِفَ بردِّ الطَرْفِ، وَوَصَفَ الطَرْفَ بالارتدادِ، فَعلىٰ هذا يكُونُ معنىٰ قَولِهِ: ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ إنّكَ تَرسِلُ طَرفَكَ إلىٰ شَيءٍ فَقبل أن تَردَّهُ أَبْصَرْتَ العَرشَ بين يَدَيكَ، ورُوِيَ: أنَّ آصفَ قَالَ لسُليمانَ: مُدَّ عينيكَ حتّىٰ تَنتَهي طَرفُكَ، فَمَدَّ عَيْنَيهِ فَنَظَرَ نَحوَ اليَمين، وَدَعَا آصفُ فَغَارَ العرشُ في مكانِهِ بمَأْرب ثمَّ نَبَعَ عندَ مجلسِ سُليمانَ بالشَام بقُدرةِ اللهِ قَبل أَن يرتَدَّ طَرفه(٤).

﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأنَّه يَرتبطُ به النعمة، ويَحطُّ به عن نفسِهِ عِبْءَ الواجبِ، ويستَوجبُ المَزيد ﴿رَبِّى﴾ غنيٌّ عن الشُكرِ ﴿كَرِيمٌ﴾ بالإنعامِ علَى الشاكرِ والكَافر.

﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ إجعلُوه متنكرّاً متغيّراً عن شكْلِهِ، أرادَ بذلكَ اعتبارَ عَقلِها ﴿نَنْظُرْ أَتَهْتَدِىَ﴾ لِمَعرفتِهِ، أو للجَوابِ علَى الصَوابِ إذا سُئلَتْ عنه، أو للدِّينِ والإيمانِ بنبوّةِ سُلَيمانَ إذا رَأَتْ تلكَ المُعجِزَة.

﴿أَهَـٰكَذَا﴾ أربعُ كَلماتٍ: حَرفُ الاستفهامِ، وحَرفُ التَنبيهِ، وكافُ التَشبيهِ، وَاسمُ الإِشارةِ. أي: أَمِثلُ هذا عَرشُكِ؟ ولَم يَقُلْ: أَهذا عَرشُكِ؟ لئلّا يَكونُ تَلْقِيناً

(١ و٢) وهو قول ابن لهيعة. راجع الكشّاف: ج ٣ ص ٣٦٧ و٣٦٨.

(٣) البيت لاعرابية تردّ خاطباً لها يسألها عن أحوالها، وقيل: هو لشاعر حماسي. انظر شرح شواهد الكشّاف للافندي: ٧٨.

(٤) رواه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٤٢٠ عن ابن عباس.

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وَلَم تَقُلْ هو هو ولا ليس به، وذلكَ من رجَاحةِ عَقلِها، إذْ لَمْ تَقطَعْ في مَوضعِ الاحتمالِ ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ قيلَ: هو مِن كَلَامِ بلقيس (١) أي: وأُوتينَا العلمَ باللهِ وبقدرتِهِ وبصحّة نبوَّةِ سُلَيمانَ من قَبلِ هذهِ المُعجزةِ، أو: من قَبلِ هذهِ الحَالةِ، وقيلَ: هو من كَلَامِ سُليمانَ وقَومِهِ (٢) أي: وأُوتينا العلمَ بإسلَامِها ومَجيئِها طَائِعةً قَبلَ مَجيئِها، أو: أُوتينا العِلْمَ باللهِ وبقدرتِهِ قَبلَ عِلْمِها وَلَم نَزَلْ على دينِ الإِسلام. ﴿وَصَدَّهَا﴾ عن التقدّمِ إِلَى الإِسلامِ عِبَادَةُ الشَمسِ ونشُوؤُها بين الكفّار، وقيلَ: صَدَّهَا اللهُ أو سُليمانُ عَمَّا ﴿كَانَتْ تَّعْبُدُ﴾ بتقديرِ حَذفِ الجَارِّ وإِيْصَالِ الفِعل (٣).

والصَّرْحُ: القَصْرُ، وَالْمُمَرَّدُ: المُمَلَّسُ، وقيلَ: الصرحُ: المَوضعُ البَسيطُ المُنكَشِفُ من غيرِ سَقفٍ (٤)، أَمَرَ سليمانُ الشَّياطينَ ببنائِهِ وأجرىٰ تَحتَه الماءَ، ثمّ وُضِعَ لَه فيه سَريرٌ فَجَلَسَ عَلَيه ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ بَلقيسُ ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ وهي مُعظَم المَاءِ ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لدخُولِ المَاءِ، فقَالَ لها سليمانُ: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ﴾ مُمَلَّسٌ ﴿مِن قَوَارِيرَ﴾ وليسَ بمَاءٍ ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ يُريدُ بكفرِهَا فيما تَقَدَّم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُواْ تَقَاسَمُوا بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ

---

(١) انظر تفسير الرازي: ج ٢٤ ص ٢٠٠.
(٢) قاله مجاهد والجبائي. راجع التبيان: ج ٨ ص ٩٨.
(٣) قاله النحاس في إعراب القرآن: ج ٣ ص ٢١٣.
(٤) قاله محمد بن كعب القرظي. راجع البحر المحيط: ج ٧ ص ٧٩.

ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُواْ مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِم أَنَّـا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِـى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (٥٣)﴾

﴿هُمْ فَرِيقَانِ﴾ مبتدأ وخبرٌ، و﴿إِذَا﴾ خبرٌ ثانٍ، و﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ حالٌ أو صفةٌ لـ﴿فَرِيقَانِ﴾ أي: فَريقٌ مؤمِنٌ وفريقٌ كافِرٌ، يقولُ كلُّ فريقٍ: الحَقُّ مَعي.

وَالسَّيِّئَةُ: العقُوبة، وَالْحَسَنَةُ: التَوبةُ من الشِرْكِ، ومعنَى آستعجالِهِم ﴿بِـالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ﴾ أنَّهم قَالُوا: إنْ كانَ مَا أتيتنا بِهِ حَقّاً فأْتِنَا بالعَذَابِ، هَلَّا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ﴾ اللهَ من الشِّركِ بأَن تُؤمنُوا ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فَلَا تُعذَّبُونَ في الدنيا.

﴿اطَّيَّرْنَا﴾ أي: تَطَيَّرنَا بكَ، ومَعناهُ: تشَاءَمْنَا بِكَ وبمَنْ علىٰ دينِكَ، وكانُوا قَد قُحِطُوا ﴿قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللهِ﴾ أي: سَبَبُكُم الذي يَجيء به خيرُكُم وشرُّكُم عندَ اللهِ، وهو قَدَّره وقسَّمه، إنْ شَاءَ رَزَقَكُم وإنْ شَاءَ حَرَمَكُم. ويجوزُ أن يـريدَ: عَـمَلُكُم مكتوبٌ عندَ اللهِ فمنهُ نَزَلَ بكُم ما نَزَلَ عقُوبةً لكُم وآبتلاءً، ومنه قولُهُ: ﴿طَـٰٓئِرُكُـمْ مَعَكُمْ﴾[1] ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُ فِى عُنُقِهِ﴾[2]، ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ تُختَبرونَ وتُبتَلونَ أو تُعذَّبونَ.

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ التي بها صَالحٌ، وهي الحِجْرُ ﴿تِسْعَةُ﴾ أَنْفُسٍ سَعوا في عَقْرِ النَّاقةِ، وكانُوا عُتَاةَ قَومِ صالحٍ ومن أبناءِ أَشرافِهِم، أي: شَأنُهُم الإِفسادُ البَحْت الَّذي لا يَختلِطُ بشيء من الصَّلاحِ. ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ يجوزُ أن يكونَ أَمْراً، ويجوزُ أن يكونَ خَبَراً في مَحَلِّ الحَالِ بإضْمارِ «قد»، أي: قَالُوا متَقَاسمينَ: ﴿لَـنُبَيِّتَنَّهُ﴾ أي: لَنقْتُلَنَّ صَالِحاً وأَهلَه، وقُرِئَ: «لَتُبَيِّتُنَّهُ» بالتَاءِ وضَمِّ التاءِ الثانيةِ «ثم لَـتَقُولُنَّ»[3]،

---

(١) يس: ١٩. (٢) الإسراء: ١٣.

(٣) وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف. راجع التبيان: ج ٨ ص ١٠١.

وعلىٰ هذا يكونُ ﴿تَقَاسَمُوا﴾ أمراً لا غَير، والتقَاسِمُ: التَّحالِفُ، وَالْبيَاتُ: مباغَتَةُ العَدوِّ لَيْلاً. وقُرئ: «مَهْلَكَ» من الهَلاكِ و«مُـهْلَكَ» مِـنَ الإِهـلاكِ[1]. ﴿وَمَكَـرُوا مَكْراً﴾ بأَنْ أخفَوا تَدبيراً للفَتْكِ بصالحٍ وأهلِهِ ﴿وَمَكَرْنَا﴾ بإهلاكِـهِم مـن حـيث ﴿لا يَشْعُرُونَ﴾ شَبَّهَ بمكْرِ الماكِرِ علىٰ سَبيل الاستِعَارةِ.

«إنَّا دَمَّرْنَاهُمْ»[2] استئنافٌ، وَمَنْ قَرَأَ بالفَتحِ رَفَعَهُ بَدَلاً من «العاقبة»، أو: علىٰ أنَّه خَبَرُ مبتدأ محذوف وَتقديرُهُ: هي تَدميرُهُم، أو نَصَبه علىٰ خَبَر ﴿كَانَ﴾ أي: كَانَ عَاقِبةُ مَكْرِهِم الدَّمارَ، أو علىٰ معنى «لأَنَّا».

و﴿خَاوِيَةً﴾ نصبٌ على الحالِ من معنَى الإشارةِ؛ أي: فَارغَةً خَاليةً بـظُلْمِهِم وكُفرِهِم[3]. وعن ٱبنِ عَباسٍ: أجدُ في كتابِ اللهِ عـزَّ ٱسـمُهُ أنَّ الظُّـلمَ يُـخرِّبُ البيوتَ، وتَلَا هذهِ الآية[4].

﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ (٥٨)﴾

أَرسَلنا لُوطاً ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ مِن: بَصرَ القَلْبُ، أي: تَعلَمونَ أنَّها فَاحشَةٌ لَم تُسْبَقُوا إليها، أو: تُبصِرُونَها؛ لأنَّهم كانُوا يَرتَكبُونَ ذلكَ مُعالِنينَ به، لا يَستَتِرُ بعضُهم

---

(١) قرأ عاصم برواية أبي بكر «مَهْلَكَ» وفي رواية حفص «مَهلِك»، والباقون «مُهلَك». راجع المصدر السابق.

(٢) الظاهر أنّ القراءة المعتمدة لدى المصنّف هنا هي بكسر الألف كما لايخفىٰ.

(٣) في نسخة: «شركهم».

(٤) حكاه عنه الآلوسي في تفسيره: ج ١٩ ص ٢١٥.

من بعضٍ خِلَاعةً أو مجانةً، أو: تُبصِرُون آثارَ العُصَاةِ قَبلكُم ومَا نَزَلَ بِهِم.

﴿تَجْهَلُونَ﴾ تفعلُونَ فِعْلَ الجَاهِلينَ بأَنَّها فَاحشَةٌ مَعَ عِلْمِكُم بذلكَ، أو: تَجهلُونَ العَاقِبةَ. ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ يَتنزَّهُونَ عن هذا الفِعْلِ ويُنكِرُونَه، وعن ٱبنِ عباسٍ: هو ٱستهزاء[(١)].

أي: قَدَّرْنَاَ كَونَها ﴿مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ أي: الباقِينَ في العَذَابِ، فالتَقديرُ واقِعٌ على الغُبورِ في المَعنَى.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٦٤) قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥)﴾

فِيهِ بَعْثٌ عَلَى الاستفتاحِ بالتَّحميدِ والسَّلامِ عَلَى المُصطَفينَ من عبادِهِ، والتَّيَمُّنِ بالذِّكْرَيْنِ، والاستظهارِ بِهِما علىٰ قَبولِ ما يُلقَى إِلَى السَّامعينَ، وقيلَ: اتَّصَلَ بما قَبلَهُ

---

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٧٤.

إذا جُعِلَ تَحميداً علَى الهالكينَ من كُفَّارِ الأُمَم، والصَّلاةَ علَى الأنبياءِ وأَشْياعِهِم النَّاجِين (١).

وعنهم عليهم السلام: أنَّ ﴿الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ محمَّدٌ وآله عليهم السلام (٢).

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ لِمَن عَبَدَه أم الأَصنامُ لِعَابِدِيها؟ وهذا إلزامٌ للحجّةِ على المشركينَ بَعدَ ذكْرِ هَلَاكِ الكفَّار. وعَن الصَّادقِ عليه السلام: يقولُ إذا قَرأَها: «اللهُ خَيرٌ» ثَلاثُ مَرَّات (٣).

و«أَمْ» في ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ متَّصِلةٌ، والمعنىٰ: أيُّهُما خَيرٌ؟ وهي في: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ مُنقَطِعةٌ، والمعنىٰ: بَل أَمَّنْ خَلَقَ السَماواتِ والأرضَ خَيرٌ. وفيهِ تَقريرٌ لَهُم بأَنَّ مَنْ قَدرَ علىٰ خَلْقِ العَالَم خَيرٌ من جَمَادٍ لا يَقْدِرُ علىٰ شَيء. وفي قَولِهِ: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ﴾ وانتقالِهِ إِلَى التَكلُّمِ عن ذاتِهِ بَعدَ الإِخبارِ عن الغَيبةِ علىٰ طَرِيقِ الالتفاتِ تَأكيدٌ لمعنَى اختصاصِ الفعلِ بذَاتِهِ، وأنَّه لا يَقدِرُ علىٰ إنْباتِ الْحَدَائِقِ مَعَ بَهجَتِها وبَهائِها إلَّا هو وَحدَهُ. أَلَا تَرىٰ كَيفَ رشَّحَ مَعنَى الاختصاصِ بقولِهِ: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ ومَعنَى الكَينُونَةِ: الابتغاءُ، يَعني: أَنَّ تَأَتِّيَ ذلكَ من غَيرِهِ مُحالٌ، وكذلكَ قَولُهُ: ﴿بَلْ هُمْ﴾ بَعدَ الخطَابِ أَبْلغُ في تَخطِئَةِ رأيِهِم. والحَديقَةُ: البُستانُ عَليه حَائِطٌ، من قَولِهِم: أَحدَقُوا بِهِ أي: أَحَاطُوا بِهِ، و﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ بمعنىٰ: جَماعَةُ حَدائِق ذَاتَ بَهْجةٍ، كَما يُقالُ: النِّساءُ ذَهَبَت، والبَهجَةُ: الحُسْنُ لأَنَّ النَاظِرَ يَبتَهجُ بِهِ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أغَيرُهُ يُقْتَرنُ بِهِ ويُجعَلُ شَريكاً لَه؟ وَلَكَ أَن تُحقّقَ الهَمزتَيْنِ وتُوسِّطَ بينَهُما مَدَّةً، وأَن تُخْرِجَ الثانيةَ بَينَ بَينَ ﴿يَعْدِلُونَ﴾ بِهِ غَيرَهُ، أَو: يَعدِلُونَ عن الحقِّ والتَوحيدِ.

---

(١) حكاه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٤٢٤.

(٢) رواه القمي في تفسيره: ج ٢ ص ١٢٩.

(٣) أنظر تهذيب الأحكام للطوسي: ج ٢ ص ٢٩٧ ح ٥١.

﴿أمَّن جَعَلَ﴾ وما بَعْدَه بَدَلٌ من ﴿أَمَّن خَلَقَ﴾ وحُكْمُهَا حُكْمُه ﴿قَرَاراً﴾ سوَّاهَا للاستقرارِ عَلَيها ﴿حَاجِزاً﴾ أي: بَرزَخاً.

الاضطرارُ: افتعالٌ من الضَرُورَةِ، والْمُضطَرُّ: الَّذي أَحْوَجَه مَرَضٌ أَو فَقْرٌ أَو نَازِلَةٌ من نَوازل الأَيامِ إِلَى التَضَرُّعِ إِلَى اللهِ تعالىٰ، يُقالُ: إضْطَرَّه إلىٰ كَذَا، والفَاعِلُ والمَفعولُ: مُضْطَرٌّ ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: الشِّدّةَ وكلَّ ما يَسُوءُ ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ خُلَفاءَ فيهَا، تَتَوارثُونَ التَّصرُّفَ فيها خَلَفاً بَعدَ سَلَفٍ وقِرْناً بَعدَ قِرْنٍ، أو: أرادَ بالخِلَافَةِ المُلكَ والتَسلُّطَ، و﴿مَا﴾ مَزيدةٌ أي: يَذَّكَّرونَ تَذْكيراً قَليلاً، والمعنىٰ: نَفْيُ التَذَكُّرِ، وقُرئَ باليَاءِ مَعَ الإِدغام، وبالتّاءِ مَعَ الإِدغامِ والحَذْفِ(١).

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ بالنُّجُومِ في السَّماءِ، وبالعَلَاماتِ في الأَرضِ إذا جَنَّ عَليكُم اللَيلُ وأَنتُم مُسافِرُونَ في البَحرِ أو البرِّ؟ ﴿أَمَّنْ يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أَقرُّوا بالابتداءِ والإِنشاءِ فَيلْزَمُهُم الإِقرارَ بالإِعادةِ بَعدَ الفَناءِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بإنزالِ الأَمْطارِ ومنَ ﴿ٱلْأَرضِ﴾ بالنَّباتِ والثِّمار.

وجاءَ قولُهُ: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ علىٰ لغةِ بَني تَمِيم في قولِهِم: مَا أتاني زَيدٌ إلَّا عمرٌو، وقَولُ الشَاعرِ:

وَبَلْدَةٍ لَيسَ لَهَا أَنِيسُ … إِلَّا اليَعَافِيرُ وإِلَّا العِيسُ(٢)

وإنَّما اختِيرَ هذا ليؤُولَ المعنَىٰ إلىٰ قَولِكِ: إنْ كانَ اللهُ مِمَّن فِي السَماوات والأَرضِ فَفيهِم مَن يَعلَمُ الغَيبَ، كَما كانَ المَعنىٰ في البيتِ: إنْ كانَ اليَعافيرُ أَنيساً

---

(١) وبالياء قراءة أبي عمرو وابن عامر برواية هشام وابن ذكوان وروح والحسن والأعمش، وبالتاء الباقين. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٨٤، والبحر المحيط لأبي حيان: ج ٧ ص ٩٠.

(٢) لجران العَوْد وأسمه عامر بن الحارث بن كُلفة وقيل: كلدة، والبيت من قصيدة يذمّ فيهما امرأتيه ويشكو منهما. راجع خزانة الأدب للبغدادي: ج ١٠ ص ١٥ وما بعده.

فَفيها أنيسٌ ﴿أَيَّانَ﴾ بمعنىٰ «مَتَىٰ».

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡآخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ (٦٧) لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٦٨) قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٧١) قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ (٧٥) ﴾

قُرِئ: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾ و«ادَّرَكَ»[1]، وأصلُ «ادَّارك»: تَدارَكَ فأُدغِمَت التّاءُ في الدّالِ، و«ادَّرك» افتعَلَ، ومعنىٰ: ادَّرَكَ ﴿عِلۡمُهُمۡ﴾: انتهىٰ وتكاملَ، و﴿ادَّٰرَكَ﴾: تَتابَعَ واستَحكَمَ، يعني: أنَّ أسبابَ استحكامِ عِلْمِهم وتكامُلِهم[2] بأنَّ القيامَةَ كائنةٌ لا ريبَ فيها قد حَصَلَتْ لَهُم، ومُكِّنُوا منها ومن مَعرفَتِها، وهم شاكُّونَ جاهلُونَ، وذلكَ قولُهُم: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ يريدُ المشركينَ ممَّن في السماوات والأرضِ، لأنَّهم لمَّا كانُوا في جُملَتِهم نُسِبَ فِعلُهُم إلَى الجميعِ، كَما يُقالُ: بنُو فُلان فَعَلوا كذا، وإنَّما فَعَلَه نَاسٌ مِنهُم.

وَوَجهٌ آخَرُ وهو: أن يكُونَ «ادَّرك» بمعنىٰ «انتهىٰ» و«فَنِي»، من قولِكَ: ادَّركَتِ الثَمَرةُ، لأنَّ تلكَ غايتُها التي عندَها تُعدَمُ، وقَد فَسَّرَهُ الحَسَنُ بـ«اضمَحَلَّ

---

(١) وهي قراءة عاصم برواية أبي بكر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص٤٨٥.
(٢) في نسخة: «تكامله».

عِلْمُهُم»[١]. وتَدَارَكَ مِن: تَدَارَكَ بنو فُلانٍ إذا تَتَابعُوا في الهَلَاكِ. ومعنَى الإِضْرابِ ثَلاث مَرّاتٍ أنَّه وَصَفَهُم أوّلاً بأنَّهم «لا يَشْعُرُونَ» وَقْتَ البَعْث، ثُمَّ بأنَّهم ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾ بأنَّ القيامةَ كائِنةٌ، ثُمَّ بأنَّهم ﴿فِي شَكٍّ﴾ يَستَطيعُونَ إزالَتَه ولا يُزيلُونَه، ثمَّ بِما هو أَسوأُ حَالاً وهو العَمَىٰ، وَجَعَلَ الآخرةَ مبدأَ إعمائِهِم فلذلكَ عَدَّاه بـ«من» دُونَ «عَن»، لأنَّ الكُفْرَ بالعَاقبةِ هو الذي جَعَلَهُم كالبَهائِمِ لا يَتَدبَّرونَ.

والعامِلُ في ﴿إذا﴾ مَا دَلَّ عليهِ ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ وهو تَخرُجُ؛ لأنَّ بين يَدي «عَمَلَ» اسم فاعلٍ فيه مَوانع مِن العَمَلِ، وهي: هَمزةُ الاستفهامِ و«إنَّ» ولامُ الابتداءِ، واحدةٌ مِنها كَافيةٌ، فكيفَ إذا ٱجتَمَعَ الجَميعُ. والمُرادُ: الإِخْراجُ مِن الأرضِ أو مِن حَالِ الفَنَاءِ إلَى الحَياةِ، وتَكريرُ حَرفِ الاستفهامِ بإدخالِهِ علىٰ «إذا» و«إن» جَميعاً إنْكارٌ علىٰ إنْكارٍ وجُحُودٌ بَعدَ جُحُودٍ، والضَّميرُ في ﴿إنَّا﴾ لَهُم ولآبائِهِم، لأنَّ كَونَهُم ﴿تُرَاباً﴾ قَد تَناولَهُم وآباءَهُم. فَانظُرْ ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجرِمِينَ﴾ أي: الكافرينَ. ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لأنَّهم لَم يَتَّبعُوكَ، والمرادُ: لم يُسْلِمُوا ﴿وَلا تَكُنْ فِي﴾ حَرَجِ صَدْرٍ من مَكْرِهِم وكَيدِهِم، ولا تُبالِ بذلكَ، فإنَّ اللهَ يَعصِمُكَ مِنهُم، يُقالُ: ضَاقَ الشيءُ ضَيْقاً بالفتح والكسر، وقَد قُرئ بِهِما جَميعاً[٢].

إستَعجَلُوا العَذَابَ الموعُودَ، فقيلَ لَهُم: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ﴾ رَدِفَكُم بَعضُهُ وهوَ عَذابُ يَوم بَدرٍ، فَزيدَتِ اللّامُ للتأكيدِ كَمَا زيدَت الباءُ في ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾[٣]، أو ضَمَّنَ ﴿رَدِفَ﴾ معنىٰ فِعْل يَتَعدَّىٰ باللّامِ نَحوُ: دَنَا لَكُم وأَزِفَ لكُم، والمعنىٰ: تَبِعَكُم ولَحِقَكُم، و«عَسَىٰ» و«لعلَّ» و«سوف» في وَعدِ الملوكِ

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٣٧٩.

(٢) قرأ ابن كثير والمسيبي واسماعيل كلاهما عن نافع بكسر الضاد، وقرأ الباقون بفتحها. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٨٥.

(٣) البقرة: ١٩٥.

وَوَعيدِهِم يدُلُّ علىٰ صِدْقِ الأَمرِ وجدِّهِ، يعنُونَ بذلكَ أنَّهم لا يَعجلون بالانتقامِ لوثُوقِهم بغَلبتِهِم، وبأنَّ الأمرَ لا يفُوتُهُم. والفَضْلُ: الإفضالُ أي: هو مُفضِلٌ عَلَيهِم بتأخيرِ العقُوبةِ، وأكثرُهُم لا يعرفُونَ حقَّ النِعْمةِ فيه ولا يشكُرونَه.

كَنَنْتُ الشيءَ وَأَكْنَنْتُهُ: سَتَرتُهُ، أي: يَعلَمُ ما يُخفُونَ وما يُعلِنُونَ مِن عَداوةِ رَسولِ اللهِ وكَيدِهِ، وهو مُعاقِبُهم علىٰ ذلكَ علىٰ حَسَبِ ٱستحقَاقِهِم.

التاءُ في «الغَائبةِ» و«الخَافيةِ» بمنزِلَتِها في «العَاقبةِ» و«العَافيةِ»، والمَعنىٰ: الشَيءُ الذي يَغيبُ ويَخفىٰ، وهُمَا اسمان، ويجوزُ أن يكونَا صِفتَيْن، والتاءُ تكونُ للمبالَغةِ كـ«الرَّاوية» في قَولِهِم: حمّادُ الرَاويةُ، كأنَّه قَالَ: وما مِنْ شَيءٍ شَديدُ الغَيبوبَةِ والخَفَاءِ إلَّا وقَد عَلِمَهُ اللهُ وأثبتَهُ في اللوح.

﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١) وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (٨٥) ﴾

أي: ﴿يَقُصُّ﴾ عَلَيهم ما ٱختلفُوا فيهِ من أَمرِ المَسيحِ ومَريمَ وأَشياء كَثيرةٍ وَقَعَ بينَهُم الاختلافُ فيهِ من الأحكامِ وغَيرِها، وكانَ ذلكَ مِن مُعجزات نَبيّنا صلى الله عليه وآله،

إذ كانَ لا يَدرسُ كُتُبَهُم وأَخبَرَهُم بمَا فِيها. ﴿يَقۡضِي بَيۡنَهُم﴾ أي: بـينَ مَـن آمَـنَ بالقُرآنِ ومَن كفَرَ به، أو: بينَ المختلفينَ في الدينِ يومَ القيامَةِ ﴿بِحُكۡمِهِۦ﴾ أي: بمَا يَحكمُ بِهِ وهو عَدْلُه، فَسَمَّى المحكُومَ بِهِ حُكْماً، أو بحكمتِهِ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فَلا يُرَدُّ قَضاؤُهُ ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بمَن يَقْضِي لَه وعَليهِ.

أَمَرَهُ بالتَوكّلِ علَى الله وقلّةِ المُبالاةِ بأعداءِ الدينِ، وعَلَّلَ التَوكُّلَ بأنَّه ﴿عَلَى ٱلۡحَقِّ﴾ وصَاحبُ الحَقّ حَقيقٌ بالوثُوقِ بنُصرةِ اللهِ. ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ ومَن سَمعَ آياتِ اللهِ وهو حَيٌّ صَحيحُ الحَواسِ فَلَا تَعيهَا أُذُنه، وحَالُهُ كَـحالِ المَـوتَى الذين فَقَدوا مُصَحِّحَ السَّماعِ، وحَالُهُ كَحالِ الصُّمّ الذين يَنْعقُ بِهِم فـلا يَسـمَعُونَ. و﴿ٱلۡعُمۡيِ﴾ الذينَ يضلُّونَ الطريقَ ولا يَقدرُ أَحدٌ علىٰ أن يَجعلَهُم هُداةً بُصَراء إلّا الله، وقَولُهُ: ﴿إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾ تَأكيدٌ لحالِ الأصمّ، لأنَّه إذا وَلّىٰ عن الدَّاعي مُدبِراً كانَ أَبعد عَن إدراكِ صَوتِهِ، وقُـرئ: «وَلا يَسـمَعُ الصُّـمُّ»[(١)] «وَمَـا أَنْتَ تَـهْدِي العُمْيَ»[(٢)]. وهَداهُ عَن الضَلالِ كقولِهِ: سَقَاهُ عن العَيْمَةِ[(٣)] أي: أَبعَدَه عنها بالسَّقي، وأَبعَدَه عن الضَلالِ بالهدىٰ ﴿إِن تُسۡمِعُ﴾ أي: ما تُسْمِعُ ﴿إِلَّا﴾ مَن يَطلبُ الحَـقَّ، ويَعلمُ اللهُ أنّه يؤمنُ بآياتِهِ ويُصَدِّقُ بها ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ مخلِصُونَ.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي: حَصَلَ ما وَعَدَهُ اللهُ من عَلاماتِ قيامِ الساعَةِ وظُهورِ أَشراطِها ﴿أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ تخرج من بين الصَّفَا والمَروةِ، فَـتُخبِرُ المؤمنَ بأنّه مؤمنٌ والكافرَ بأنّه كافرٌ.

وعن حذيفةَ: أنَّ النبيَّ صلّى الله عليه وآله قال: «دابّةُ الأرضِ طُولُها ستُّونَ

(١) قرأه ابن كثير وابن محيص وحميد وابن أبي اسحاق وعباس عن أبي عمرو. راجع كـتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٨٦، وتفسير القرطبي: ج ١٣ ص ٢٣٢.

(٢) قرأه حمزة. راجع كتاب السبعة السابق.

(٣) عَامَ الرجل الى اللبن يَعامُ ويعيم عَيْماً وعَيْمَةً. (لسان العرب: مادة عيم).

ذِراعاً، لا يَدركُها طَالبٌ، ولا يَفُوتُها هَاربٌ، فَتَسِمُ المُؤمنَ بينَ عَينَيهِ، وتَسِمُ الكَافِرَ بينَ عَيْنَيْهِ، وَمَعَها عَصَا موسىٰ، وخَاتمُ سليمانَ، فَتَجلُو وجهَ المؤمنِ بالعَصَا، وتَخْتِمُ أَنْفَ الكَافرِ بالخَاتمِ حتّىٰ يُقال: يا مؤمنُ، ويا كافِرُ»[١].

ورُوِيَ: «فَتضربُ المؤمنَ بينَ عَينَيْه بعَصَا موسى فَتَنكتُ نُكتةً بيضاءَ فَتَفشُو تلكَ النكتَةُ في وَجهِهِ حتّىٰ يَبْيَضَّ لَهَا وَجهُهُ، ويُكتَبُ بين عَيْنَيْه: مؤمنٌ، وتَـنكتُ الكافِرَ بالخاتمِ فَتفشُو النكتةُ حتّىٰ يَسوَدَّ لَهَا وَجْهُهُ، ويُكتَبُ بين عَيْنَيه: كافرٌ»[٢].

وعن السَّدي: تُكَلِّمُهُم ببُطْلانِ الأَديانِ كُلِّها سوىٰ دين الإِسلامِ[٣].

وعن محمد بن كَعبٍ قَالَ: سُئِلَ عليٌّ عليه السلام عن الدَّابةِ فقال: «أَمَا وَاللهِ مالَهَا ذَنَبٌ، وإنَّ لَهَا لَلِحْيَةً»[٤]. وفي هذا إشارةٌ إلىٰ أنَّها من الإنْسِ.

وَقَد رُوِيَ عَنه عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «أَنَا صَاحبُ العَصَا والمَيْسَم»[٥].

وعن ابن عباسٍ وغيرِهِ[٦]: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ من الكَلمِ وهو الجُرحُ، والمُـرادُ بـهِ الوَسْمُ بالعَصَا والخَاتم، ويجوزُ أَن يكونَ تَكْلِمُهُم من الكَـلْمِ أيـضاً عـلىٰ مـعنَى التكثيرِ، يُقالُ: فلانٌ مكلَّمٌ أي: مُجَرَّحٌ، ويجوزُ أَن يُستدلَّ بالتَخفيفِ علىٰ أنَّ المُرادَ بالتَكْليمِ التَجريحُ، كَمَا فسَّر ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ بقرَاءةِ عليٍّ عليه السلام: «لَنَحْرِقَنَّهُ»[٧]، ويُستَدلُّ

---

(١) رواه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٤٢٩.

(٢) رواه الماوردي في تفسيره: ج ٤ ص ٢٢٦ عن ابن الزبير.

(٣) حكاه عنه البغوي في تفسيره: ج ٣ ص ٤٢٨.

(٤) رواه الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ١١٩، والماوردي في تفسيره: ج ٤ ص ٢٢٦.

(٥) وهو ما رواه الكليني في الكافي: ج ١ ص ١٩٨ باب أنّ الائمة هم أركان الأرض، والصدوق في العلل: ص ١٦٤ ب ١٣٠ ح ٣.

(٦) كالحسن وسعيد بن جبير وأبي زرعة وأبي رجاء العطاردي وعاصم الجحدري. راجع التبيان: ج ٨ ص ١٢٠، وتفسير القرطبي: ج ١٣ ص ٢٣٨.

(٧) حكاها عنه عليه السلام ابن خالويه في الشواذ: ص ٩٢، والآية من سورة طه: ٩٧.

بقراءةِ أُبـيٍّ «تُـنبِّئُهُمْ»(١)، وبـقراءةِ ابـن مسـعودٍ: ﴿تُكَـلِّمُهُمْ﴾ بـالتَشْديدِ «بأنَّ النَّاسَ»(٢) علىٰ أنّه من الكَلَامِ.

وعن الباقرعليه‌السلام: كَلَمَ اللهُ مَنْ قَرَأَ «تَكْلِمُهُمْ»، ولكن ﴿تُكَلِّمُهُم﴾ بالتشديد(٣).

وقُرِئَ: «إنَّ» بالكَسرِ(٤) علىٰ حكايةِ قَولِ الدابّةِ أو قولِهِ تَـعالىٰ عـندَ ذلك، وإذا كانَت حكايةً لقولِ الدابّةِ فمعنىٰ ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: بآيـات ربِّـنا، أو: لأنَّـها مـن خَواصِ خَلْقِ اللهِ أَضَافَتْ آيات الله إلىٰ نفسها، كما يقُولُ بعضُ خاصَّةِ المَلِكِ: بلادُنا وجندُنا، وإنَّما هي بلادُ مَولاهُ وجندُهُ. والقَراءةُ بفتحِ ﴿أَنَّ﴾ علىٰ حَذْفِ الجَارِّ.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُحْبَسُ أَوّلُهُمْ علىٰ آخـرِهِم حـتّىٰ يـجتَمِعُوا ﴿وَيَـوْمَ نَحْشُرُ﴾ مَنصُوبٌ بمَا دَلَّ عليه ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ لأنَّ ﴿يَوْمَ﴾ هاهُنا بمنزلةِ «إذا».

وقد استَدَلَّ بعضُ الإماميةِ(٥) بهذه الآيةِ علىٰ صَحّةِ الرَّجعةِ وقَالَ: إنَّ المذكُورَ فيها: يومَ نحشر فيه ﴿مِن كُلِّ﴾ جماعةٍ فَوْجاً، وصفَةُ يومِ القيامةِ أَنَّهُ يُحشَرُ فـيه الخَلَائقُ بأَسْرِهِم كَمَا قالَ سبحانَهُ: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾(٦).

ووردَ عن آل محمدٍعليهم‌السلام: أنَّ اللهَ تعالىٰ يُحْيي عند قيامِ المهديعليه‌السلام قَوماً من أعدائِهِم قد بَلَغُوا الغايةَ في ظُلْمِهِم واعتدائِهِم، وقَوماً من مُخْلِصِي أَوليـائِهِم قـد ابتَلَوا بمُعَانَاةِ كلِّ عناءٍ ومحنةٍ في وَلائِهِم؛ لينتقمَ هؤلاء من أُولئك، ويَتَشَفَّوا مـمّا

(١ و٢) انظر معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص ٣٠٠.

(٣) تفسير القمي علي بن ابراهيم: ج ٢ ص ١٣٠ وفيه عن أبي عبداللهعليه‌السلام.

(٤) قراه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٤٨٧.

(٥) كالشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ١٢٠.

(٦) روى القمي باسناده الى أبي بصير عن ابي عبداللهعليه‌السلام في حديث الى أن قال: فقال رجلٌ له: إنّ العامة تزعم أنّ قوله: ﴿ويوم نحشر من كلّ أمّةٍ فوجاً﴾ عـنى يـوم القـيامة، فـقال أبـو عبداللهعليه‌السلام: أفيحشر الله من كلّ أمة فوجاً ويدع الباقين؟! لا، ولكنّه في الرجعة، وأمّا آيـة القيامة فهي: ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾. راجع تفسير القمي: ج ٢ ص ١٣١.

تَجرَّعُوه من الغُمُوم بذلكَ، ويَنَالُ كلٌّ من الفَريقَيْنِ بعضَ ما ٱستَحَقَّه من الثَّوابِ والعقَابِ[1]. وهذا غَيرُ مستَحيلٍ في العقُولِ فإنَّ أَحَداً من المسلمينَ لا يشُكُّ في أنّه مقدورٌ للهِ تَعالىٰ، وقَدْ نَطَقَ القرآنُ بوقوعِ أمثالِهِ في الأُمَمِ الخَاليةِ كَـ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾[2]، والذي ﴿أَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾[3] [4].

ورُوِيَ عنهُ عليه السلام: «سيكُونُ في أُمَّتي كُلُّ ما كَانَ في بني إسرائيلَ، حَذْوَ النَّعلِ بالنَّعلِ والقُذَّةِ بالقُذَّةِ»[5]. وعلىٰ هذا فيكونُ المُرادُ بالآياتِ: الأئمة الهادية عليهم السلام.

وقولُهُ: ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْماً﴾ الواو للحالِ، فكأنَّهُ قالَ: أَكَذَّبْتُمْ بها بادئ الرأيِ من غَيرِ فكرٍ ونَظَرٍ يؤدّي إلىٰ إحاطة العلم بكُنْهِهَا، أو للعَطْفِ أي: أَجَحَدْتُموهَا وَمَعَ جُحُودِكُم لَم تقصدُوا مَعرفتَها وتحقّقها ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مِن غَيرِ الكُفرِ والتَكذيبِ بآياتِ اللهِ، يعني: لَم يَكُنْ لَكُم عَمَلٌ في الدُّنيا غير ذلكَ.

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ أي: غَشِيَهُم العَذابُ بسَبَبِ ظُلْمِهِم فَشَغَلَهُم عن الاعتذارِ والنُطْقِ به.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ

(١) أُنظر روضة الكافي: ص ٢٠٦ ح ٢٥٠. (٢) البقرة: ٢٤٣.
(٣) البقرة: ٢٥٩.
(٤) أُنظر الاعتقادات في دين الإمامية للصدوق: ب١٨ ص ٣٩ ـ ٤٣.
(٥) من لا يحضره الفقيه: ج١ ص ٢٠٣ ح ٦٠٩.

ءَامِنُونَ (٨٩) وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)﴾

﴿مُبْصِراً﴾ معناهُ: ليُبْصِرُوا فيه طُرُقَ المَكاسِب.

﴿فَفَزِعَ﴾ ولَمْ يقُلْ: فَيفْزَعُ ليُعلَمَ أنّه كائِنٌ لا محَالَةَ، والمُرادُ: أنَّ أهلَ السَّماواتِ والأرضِ يَفزعُونَ عندَ النَّفخةِ الأُولىٰ ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ﴾ من الملائكةِ الَّذينَ ثبَّتَهُم اللهُ تعالىٰ وهم: جبرائيلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ وعـزرائـيلُ، وقـيلَ: الشُـهَداء[1]، وقُرِئَ: «وَكُلٌّ أَتوهُ»[2] أي: فَاعِلُوه، وكِلَاهُما مَحمولٌ علىٰ مَعنىٰ «كلّ»، وَالدَّاخِرُ: الصَّاغِرُ، ومعنَى الإتيانِ: حُضُورُهُم الموقفَ بعدَ النَّفخةِ الثانيةِ، ويجوزُ أن يكـونَ المرادُ: رجُوعُهُم إلىٰ أمرِهِم وانْقيادِهِم لَه.

﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ مِن جَمَدَ في المكانِ: إذا لَم يَبرَحْ منه، تُجمَعُ الجبالُ وتُسَيَّر كَما تُسَيِّرُ الريحُ السَّحابَ، فإذا نَظَرَ إليها النَّاظرُ حَسِبَهَا واقفَةً ﴿وَهِيَ تَمُرُّ﴾ مَـرّاً حَثيثاً. وهكَذَا الأجْرامُ العظامُ المتَكاثرةُ العَدَدِ إذا تَحرَّكَتْ لا يتبيَّنُ حَرَكَتُها، كما قَالَ النَّابغةُ الجعدي يصفُ جَيشاً:

بِأَرْعَنَ مِثلِ الطَّوْدِ تَـحسَبُ أَنَّـهُم ... وقُوفٌ لِحَاجٍ والرِّكابُ تَـهَملَجُ[3]

---

(١) قاله أبو هريرة كما في تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٢٣٠.

(٢) وهي قراءة الجمهور إلّا حمزة وحفصاً. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٤٨٧.

(٣) الأرعن: الجبل العالي، والهملجة: السير السريع، يقول: إنّ جيشنا من الكثرة تظنّهم واقفين لحاجةٍ والحال أنّ ركابه تسرع السير. انظر شرح شواهد الكشّاف للافندي: ٩٩.

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ، وانتصابُه بمَا دَلَّ عليه ما تَقَدَّمَ من قولِهِ: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ وجَعَلَ هذا الصُّنْعَ من جملةِ الأشياء التي أَتَىٰ بها علىٰ وجهِ الحكمةِ والإتقانِ وهو حسن الاتِّساقِ ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ﴾ بمَا يفعَلُهُ العبادُ، وما يستَحقُّونَه عليه فيُجازِيهِم بِحَسبِ ذلكَ، وقُرِئَ: ﴿تَفْعَلُونَ﴾ بالتَّاءِ علَى الخطابِ[١].

وقُرِئَ: «مِنْ فَزَعِ يَوْمَئِذٍ» مجروراً بالإضافة[٢] و«يومَئذ» مفتوحاً مَعَ الإضافةِ[٣] لأنَّهُ أُضيفَ إلىٰ غيرِ مُتَمكِّنٍ، ومنصُوباً مَعَ تنوين «فَزَع». وَمَنْ نَوَّنَ ففي انتصابِ «يومَئذ» ثلاثةُ أوجهٍ: أَن يكُونَ ظَرْفاً للمصدرِ، وأَن يكُونَ صفةً لَهُ كأنّه قَالَ: مِن فَزَعٍ يَحدثُ يَومَئذٍ، وأَن يَتَعلَّقَ بـ﴿آمِنُونَ﴾ كأنَّهُ قَالَ: وهُم آمِنونَ يومَئذٍ من فزعٍ شديدٍ لا يكتَنِهه الوَصْفُ، وهُو خَوفُ النَّارِ.

وعن عليٍّ عليه‌السلام: «الحَسَنةُ حُبُّنا أهلَ البيت، والسيئةُ بُغضُنا»[٤].

ويؤيِّده ما رَووهُ عن جَابرٍ عن النبيِّ صلى‌الله‌عليه‌وآله أنّه قَالَ: «يا علي، لَوْ أَنَّ أُمَّتي صَامُوا حتّىٰ صَارُوا كالأَوتَارِ، وصَلُّوا حتّىٰ صَارُوا كالحَنَايَا، ثم أَبغضُوكَ، لأكَبَّهُم اللهُ علىٰ مَنَاخِرِهم في النَّار»[٥].

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ علىٰ إِضْمارِ القَولِ. ﴿هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ يعني: مكّة، خَصَّها اللهُ سبحانَه بإضافةِ اسمِهِ إليها، وأَشَارَ إِليها إشارةَ تعظيمٍ لَها، وَوَصَفَ ذاتَهُ بِالتَّحريمِ الذي هو خَاصٌّ، وَصْفُها: لا يُختلىٰ خَلَاها، ولا يُعضَدُ شَجَرُها، ولا يُنفَّرُ صَيدُها،

(١) الظاهر أنّ القراءة المعتمدة لدى المصنّف هنا بالياء.
(٢) قرأه ابن كثير وابو عمرو ونافع وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٤٨٧.
(٣) قرأه ابن جمّاز وقالون وابن أبي أويس والمسيبي وورش كلّهم عن نافع. راجع المصدر السابق.
(٤) أخرجه الكليني في الكافي: ج ١ ص ١٨٥ ح ١٤، والطوسي في الأمالي ج ٢ ص ١٠٧.
(٥) العلل المتناهية لابن الجوزي: ج ١ ص ٢٥٧.

ومَن ٱلتجأ إليها فهو آمنٌ، ومَن ٱنتهَكَ حُرمَتَها فهو ظَالمٌ، وهو مَالكُ ﴿كُلّ شَىْء﴾ فيحرِّمُ ما يَشاءُ ويَحلُّ ما يَشاءُ.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ باتّباعِهِ إيَّايَ فَمَنفَعةُ اهتدائِهِ رَاجِعةٌ إليه لا إليَّ ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ ولَمْ يتّبعْني فَلاَ عليَّ، ومَا أنَا إلّا رَسُولٌ مُنذِرٌ، وليسَ عَلَيَّ إلّا البَلاَغُ الْمُبِينُ.

ثم أمَرَ سبحانَه أن يَحمدَ اللهَ علىٰ مَا آتاه من نعْمةِ النبوَّةِ، وأَن يُهدِّدَ أعداءَهُ بمَا سَيُريهُم سبحانَه من الآياتِ التي تُلجِئُهُم إلَى المعرفةِ والإقرارِ بأنَّـها آيـاتُ اللهِ، وذلكَ حينَ لا تَنفعُهُم المعرفةُ، يعني: في الآخرةِ، وقيلَ: هي العَـذابُ فـي الدُنـيا والقَتلُ يوم بَدْرٍ فيشَاهِدُونها[1]، وقُرئَ: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتَّاءِ والياءِ[2].

(١) وهو قول مقاتل. راجع مجمع البيان: ج ٧ ص ٢٣٧.
(٢) وبالياء قرأه ابن كثيرٌ وأبو عمرو وهشام. راجع الكشف عن وجوه القراءات: ج ٢ ص ١٦٩.

سورةُ القَصَصِ

مكّيةٌ[1]، وهيَ ثمان وثمانُونَ آيةٍ، ﴿طسٓمٓ﴾ كوفيٌّ، ﴿يَسقُونَ﴾ غيرُهُم.

وفي حَديثِ أُبيٍّ: «مَن قَرأَها أُعطِيَ من الأَجْر عَشرَ حَسَناتٍ بعَدَدِ مَن صَدَّقَ مُوسىٰ عليه‌السلام ومَن كَذَّبَ به»[2].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ١٢٧: مكّية في قول قتادة والحسن عطاء وعكرمة ومجاهد، وليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وقال ابن عباس: آية منها نزلت بالمدينة، وقيل بالجحفة، وهي قوله: ﴿انّ الذي فَرَضَ عَلَيكَ القرآنَ لَرادّكَ الىٰ معاد﴾، وهي ثمانون وثمان آيات بلا خلاف في جملتها، واختلفوا في رأس آيتين.

وفي الكشّاف: ج ٣ ص ٣٩١: مكّية إلّا من آية ٥٢ إلى غاية آية ٥٥ فمدنية، وآية ٨٥ فبالجحفة أثناء الهجرة، وآياتها ٨٨، نزلت بعد النمل.

وفي تفسير الآلوسي: ج ٢٠ ص٤١ ما لفظه: مكّية كلّها علىٰ ما روي عن الحسن وعطاء وطاوس وعكرمة، وقال مقاتل: فيها من المدني قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ﴾ فقد أخرج الطبراني عن ابن عباس أنّها نزلت هي وآخر الحديد في أصحاب النجاشي الذين قدموا وشهدوا واقعة أحد، وفي رواية عنه أنّ الآية المذكورة نزلت بالجحفة في خروجه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم للهجرة، وقيل: نزلت بين مكّة والجحفة.

(٢) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٣٧ مرسلاً، وزاد في آخره: «ولم يبق ملك في السماوات والأرض إلّا شهد له يوم القيامة أنّه كان صادقاً أن كلّ شيء هالك إلّا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ (٦) ﴾

﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ﴾ بعضَ ﴿نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ أي: محقِّينَ كقولِهِ: ﴿تَنبُتُ بَالدُّهْنِ﴾[1]، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ سَبَقَ في عِلْمِنا أنَّهم يُؤمنُونَ، لأنَّ التِّلاوةَ إنَّما ينفعُ هؤلاء. ﴿إِنَّ فِرْعَونَ﴾ جُملةٌ مستأنفةٌ كالتفسيرِ لمَا تَقدَّمَ ﴿عَلَا﴾ أي: بَغَىٰ وتَجبَّرَ ﴿فِى﴾ أرضِ مصرَ، وتجاوزَ الحدَّ في الظُّلْمِ ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً﴾ أي: فِرَقاً يُشيِّعونَهُ علىٰ ما يُريدُ، أو: يُشيِّعُ بعضُهُم بعضاً في طاعتِهِ، أو: فِرَقاً مختلفةً قد أَوقَعَ بينَهم العَداوةَ، وهم: بنو إسرائيلَ والقبطُ ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وهُم بنو إسرائيلَ، وسَبَبُ ذَبحِ الأبناءِ أنَّ كَاهِناً قالَ لَهُ: يُولد مَولودٌ في بني إسرائيل يَذهَبُ مُلكُكَ علىٰ يدِهِ، ﴿يُذَبِّحُ﴾ بَدَلٌ من ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾، و﴿يَسْتَضْعِفُ﴾: إمَّا حَالٌ من الضَّمير في ﴿جَعَلَ﴾ أو صِفَةٌ لـ﴿شِيَعَاً﴾ أو كلامٌ مُستأنف.

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ﴾ جُملةٌ معطُوفةٌ على الكلامِ المتقدِّمِ، لأنَّ الجميعَ تفسيرٌ لـ﴿نَبأ مُوسَىٰ وفِرْعَونَ﴾، ﴿وَنُرِيدُ﴾ حِكايةُ حَالٍ مَاضِيَةٍ، ويَجوزُ أن يكونَ حَالاً من ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ أي: يَستَضْعِفُهُم فِرعَونُ ونحنُ نريدُ أن نَمُنَّ عَلَيهم

(١) المؤمنون: ٢٠.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ متقدِّمينَ في الدِّينِ والدُّنيا، وقَادةً في الخيرِ يُقْتَدىٰ بِهِم.

وعن سيِّدِ العابدينَ عليه السلام: والذي بَعَثَ محمَّداً صلى الله عليه وآله بالحقِّ بَشيراً ونَذيراً، إنَّ الأبرارَ منَّا أَهلَ البيتِ، وشيعتَهُم بمنزلةِ مُوسىٰ وشيعتِهِ، وإنَّ عَدوَّنا وأَشياعَهُم بمنزلةِ فِرْعَونَ وأشياعِه.

﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ يرِثُونَ فِرْعَونَ وقومَهُ ملكَهُم. ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ﴾ في أَرضِ مِصْرَ والشَامِ، أي: نَجعلُها لَهُم مُمَهَّدةً لا تَنبو بِهِم كَما كانَتْ في أيامِ الجَبابرةِ، ونُنَفِذُ أمرَهُم، ونُطْلِقُ أيديهم فيها ونُسلِّطُهُم عَلَيها. وقُرِئَ: «وَيَرَى» بالياء «فرعَونُ وجنودُهُ» بالرَّفعِ[1]، أي: يَرَوْنَ منه ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَـ﴾ـهُ من ذهابِ مُلكِهِم وهَلَاكِهِم.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٧) فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَـٰطِـِٔينَ (٨) وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠)﴾

﴿الْيَمِّ﴾ البَحرُ وهو نيلُ مِصْرَ، يعني: أَلْهَمنَاها، أو أَتَاهَا جبرائيلُ بذلكَ ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ما لَم تَخَافي عليه ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ القَتْلَ فَاقْذِفِيهِ فِي النِّيلِ ﴿ولا تَخَافِى﴾ عليه الغَرَقَ والضَّياعَ، والفَرقُ بين الخَوفِ والحُزْنِ: أنَّ الخَوفَ غَمٌّ يلحقُ الإنسانَ لمتوقَّعٍ، والحزنُ غمٌّ يلحقُهُ لواقعٍ، وهو فراقُهُ والإخطارُ بِـهِ، وقد

(١) قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٩٣.

نُهِيَتْ عن الأمرينِ جَميعاً، ووُعِدَتْ بمَا يُسلِّيها ويطمئنّ قَلبها ويُبهجُها، وهو رَدُّهُ إليها وجَعْلُهُ ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

واللَّامُ في ﴿لِيَكُونَ﴾ لَامُ «كي» التي مَعْناهَا التَعليلُ، ولكن معنَى التَعليلِ فيها واردٌ علىٰ طَريقِ المَجَازِ، لأنَّه لم يكنْ دَاعيهُم إلى الالتقاطِ أَن يكونَ لَهُم ﴿عَدُوّاً وَحَزَناً﴾ غَير أنَّ ذلكَ لمَّا كانَ نتيجةَ التقاطِهِم لَهُ وثَمَرتَهُ شبَّه بالدَّاعي الذي يفعلُ الفِعْلَ لأجْلِهِ. وقُرئَ: «حُزْناً»[1] هما لُغَتانِ كالرُّشْدِ والرَّشَدِ ﴿كانوا خَـٰطِئِينَ﴾ في كلّ شيء، ولَيسَ خَطَأُهُم في تَربيةِ عَدوِّهِم ببدع منهُم، أو: كَانُوا مُجرمينَ مُذنبينَ فَعَاقَبهُم اللهُ بأَن ربَّىٰ عَدوَّهُم الذي هو سَبَبُ هَـلَاكِـهِم عـلىٰ أيـديهِم. وقُـرئ: «خَاطِين» بتَخفيفِ الهَمزةِ[2]، أو: هُو مِن خَطَوتُ أي: خَاطِينَ الصَّوابَ إلَى الخَطأ.

ورُويَ أَنَّهُم التقطُوا التابوتَ فَدَنَتْ آسية فَرأَتْ في جَوفِ التابوتِ نُوراً فَفَتَحَتْه فإذا بصبيٍّ يَمُصُّ إبهامَهُ فأَحبُّوهُ، فقالَتْ آسية لفرعونَ: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ أي: هُو قُرَّةُ عينٍ.

وعن ابن عبَّاسٍ: أنَّ أَصحابَ فِرْعَونَ جـاءوا ليـقتلُوهُ فـمَنعَتْهُم وقـالَتْ: لا تَقْتلُوهُ، فَقَالَ فرعونُ: قُرَّة عينٍ لَكِ، فأمَّا لي فَلَا، ولَو أنَّه أقرَّ بأَن يكونَ لَه قرَّة عَينٍ كَمَا أَقرَّت اْمرأَتُهُ لَهدَاهُ اللهُ بِهِ كَمَا هدَاها[3].

﴿عَسَىٰٓ أَنْ يَنْفَعَنَآ﴾ فإنَّ فيه مَخَائِلَ اليُمْنِ تَوسَّمتْ في سيمائِهِ النَجَابةَ المؤذنةَ بكونِهِ نَـفَّاعَاً ﴿أَوْ نَـتَّخِذَهُ وَلَـداً﴾ فـإنَّه أَهْـلٌ لأَن يكـونَ ولداً للـمُلُوكِ ﴿وَهُـمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّهم وَجَدوا المطلُوبَ الذي يَطلبونَهُ فَارِغاً من الهَمِّ حـين سـمعت بعطفِ فرعونَ عليهِ وتَبنِّيهِ له.

---

(١) قرأه حمزة والكسائي. راجع الكشف عن وجوه القراءات للقيسي: ج ٢ ص ١٧٢.

(٢) حكاها الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٣٩٤.

(٣) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ٣٣.

وقيلَ: ﴿فَـٰرِغاً﴾ صِفراً من العَقْلِ حينَ سَمِعَتْ بوقوعِهِ في يـدِ فِـرعَون[١]، ونحوُه: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[٢] أي: لا عُقُولَ فيهَا. قَالَ حسَّان:

أَلا أَبْـلِغْ أَبَـا سُـفيانَ عَـنّي فَأَنْتَ مُجوَّفٌ نَخبٌ هَـواءُ[٣]

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ مَعْناهُ: أنَّها كادَتْ تَذْكُرُ موسىٰ فتَقولُ: يا ابْناهُ، من شدَّةِ الوَجْدِ ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بإلهامِ الصَّبرِ ﴿لِتَكُونَ مِنَ﴾ المصدِّقينَ بوَعْدِ اللهِ في ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾، وقيلَ: كادَتْ تُخبرُ أنَّها أُمُّه لمَّا رَأَتْه عندَ فِرعَونَ لِشِدَّةِ سُرورِها بِهِ[٤]، والهاءُ في ﴿بِهِۦ﴾ لموسىٰ، والمُرادُ بأَمرِهِ وقِصَّتهِ.

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (١٦) ﴾

---

(١) قاله مالك كما حكاه القرطبي في تفسيره: ج ١٣ ص ٢٥٥.

(٢) ابراهيم: ٤٣.

(٣) و هو من قصيدة يهجوبها أبا سفيان لمّا بلغه هجاؤه للنبي ﷺ. راجع ديوان حسان بن ثابت: ص ٢٨.

(٤) قاله ابن مسعود. راجع تفسير القرطبي: ج ١٣ ص ٢٥٦.

﴿وَقَالَتْ﴾ أُمُّ موسىٰ لأُختِ موسىٰ: ﴿قُصِّيهِ﴾ أي: اتَّبِعي أَثَرَهُ وتَتبَّعي خَبَرَهُ ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ عن بُعْدٍ، والمُرادُ: فَذَهَبَتْ فَوَجَدَتْ آل فِرْعَونَ أَخْرجُوا التابوتَ وأَخرجُوا موسىٰ، فَرَأَتْ أَخَاهَا مُوسىٰ وهُم لا يحسُّونَ بأَنَّها أُختُه.

والتَّحْريمُ: استِعَارةٌ للمنْعِ، لأنَّ مَن حُرِّمَ عليه الشَيءُ فَقَد مُنِعَ ذلكَ، وذلكَ أنَّ اللهَ مَنَعَ موسىٰ أَن يَرضَعَ تَدْياً، فَكَانَ لا يَقْبلُ تَـديَ مُـرْضِعٍ حـتَّىٰ أَهَـمَّهُم ذلكَ، و﴿ٱلْمَرَاضِعِ﴾ جَمعُ مُرْضِعٍ وهي التي تُرضِعُ، أو جَمْعُ مَـرْضَعٍ وهـو الرَّضَـاعُ أو مَوضع الرَّضَاعِ يعني التَدْي من قِبَلِ قصِّها أَثَره.

ورُويَ أَنَّها لمَّا قَالَتْ: ﴿وَهُمْ لَهُ نَـٰصِحُونَ﴾ قَالَ هَامَان: إِنَّها لَتعرِفه، وتَعرِف أَهلَهُ، فَقَالَتْ: إنَّما أَردْتُ: وهُم للمَلِكِ نَاصِحُون[1]. والنُّصحُ: إخلاصُ العَمَلِ مـن شَائِبِ الفَسَاد. فانطلَقَتْ إلىٰ أُمِّه فَجَاءَتْ بها، والصَبيُّ علىٰ يدِ فِرْعَونَ يقبِّله شَفَقَةً عليه، إذ أَلْقَى اللهُ محبَّتَهُ في قَلبِهِ، وهُو يَبكي بطلب الرضَاعِ، فحينَ وَجَدَ ريـحَهَا استأْنَسَ إليهَا وٱلتَقَمَ تَدْيها، فَقَالَ فِرعَونُ: وَمَنْ أَنْتِ مِنْه؟ قَالَتْ: إِنِّي امـرأَةٌ طـيِّبَةُ اللَّبَنِ، لا أُوْتَىٰ بصبيٍّ إلَّا قَبِلَني، فَدَفَعَهُ إليها وأَجرىٰ عليها، وذَهَبَتْ بهِ إلىٰ بَـيتِها، وأَنْجزَ اللهُ وعْدَهُ في الرَّدِّ، فَعِندَ ذلكَ ٱستَقرَّ عندَها أَنَّه يكـونُ نـبيّاً، وذلكَ قـولُهُ: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ والمُرادُ: لِـيثبُتَ عِـلْمُها ويَـتَمَكَّنَ ﴿وَلَكِـنَّ أَكْـثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّه حقٌّ كَمَا عَلِمَتْ.

﴿وَٱسْتَوَىٰ﴾ أي: اعتدَلَ وٱستَحكَمَ وبَلَغَ المبلَغَ الَّـذي لا يُـزادُ عـليه وهـو أربعُونَ سَنة ﴿ءاتَيْنَـٰهُ حُكْماً﴾ وهو النُّبُوَّةُ ﴿وَعِلْماً﴾ وهو التوراةُ.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ يعني: مصرَ، وقيلَ: مدينةٌ من أرضٍ مصر[2] ﴿عَلَىٰ حِينِ

(١) رواه الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ٤٠ عن طرق.

(٢) قاله السدي. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٢٤١.

غَفْلَةٍ﴾ يعني: مَا بَين العشاءَينِ، وقيلَ: وقتُ القائلةِ[١] ﴿مِنْ شِيعَتِهِ﴾ ممَّن شايَعَهُ علىٰ دينِهِ من بني إسرائيلَ ﴿مِنْ عَدُوِّهِ﴾ من مُخَالفيهِ من القبطِ. وَالْوَكْزُ: الدَّفعُ بأَطرافِ الأَصَابعِ، وقيلَ: بِجُمعِ الكَفِّ[٢] ﴿قَالَ هَذا مِنْ عَمَلِ الشَّيطَـٰنِ﴾ يعني: أنَّ العملَ الذي وَقَعَ القَتْلُ بسببِهِ من عَمَلِ الشَيطانِ إذْ حَصَلَ بوسْوَسَتِهِ ﴿إنَّه عَـدُوٌّ﴾ لِبني آدمَ ﴿مُضِلٌّ﴾ ظاهرُ الإضْلالِ.

﴿قَالَ رَبِّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بهذا القَتلِ لأنَّ القَومَ لَو عَلِمُوا بذلكَ لَقَتَلُوني، وقيلَ: إنَّما قالَهُ علىٰ سبيلِ الانقطاعِ إلَى الله، والاعترافِ بالتَقصيرِ عن أداء حقوقِ نِعَمِهِ[٣].

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٢١) ﴾

﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ يجوزُ أَن يكونَ قَسَماً جَوابُهُ محذوفٌ، والتَقديرُ: أُقْسِمُ بإنعامِكَ عليَّ لأَتَحفَظَنَّ ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، وأَن يكونَ معناهُ:

(١) وهو قول الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ٤٢.
(٢) قاله مجاهد. راجع المصدر السابق: ص ٤٥.
(٣) قاله السيد المرتضى كما في مجمع البيان: ج ٧ ص ٢٤٥.

﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ من القوّةِ فَلَنْ أَستعملَها إلاّ في مظاهرةِ أُولئكَ[١] المؤمنين، ولا أَدَعُ قبطيّاً يَغلِبُ أَحَداً من بني إسرائيلَ.

﴿يَتَرَقَّبُ﴾ المكرُوهَ وهو أَن يُستَقَادَ منه، أو ينتظرُ الأَخبارَ في قَتْلِ القبطي ويَتَجَسَّسُ، لأَنّه خَافَ من فِرعَونَ وقومِهِ أَن يكونُوا عَرفُوا أَنّه قَتلَهُ، وَقَالَ للإِسرائيلي: ﴿إِنَّك لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ لأَنَّه كَانَ سَبَبَ قَتلِ رجلٍ وهو يُقاتِلُ آخَر.

﴿فَلَمَّآ﴾ أَخَذَتْهُ الرِّقةُ علَى الإِسرائيلي و﴿أَرَادَ﴾ أَن يَدفَعَ القبطيَّ الذي هو عدوٌّ لموسىٰ والإِسرائيلي عنه و﴿يَبطِش﴾ بِهِ، وقُرئَ: «يَبْطُشُ» بالضمّ[٢]، والجَبَّارُ: الذي يَفْعَلُ ما يريدُ من الضَّرْبِ والقَتْلِ بظُلْمٍ، لا يَنظُرُ في العَواقِب، وقيلَ: هو المُتعظِّمُ الذي لا يَتَواضَعُ لأَمْرِ الله[٣].

فَلَمَّا قالَ للإِسرائيلي هذا اشتَهَرَ أَمرُ القَتْلِ في المَدينةِ، وأُنهي إلىٰ فِرْعَونَ وهمُّوا بقَتْلِهِ ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ قيلَ: هو من آلِ فِرْعَونَ وكان ابن عم فِرعَون[٤]، و﴿يَسْعَىٰ﴾ يجوزُ أَن يكونَ في مَحَلِّ الرَفعِ وَصْفاً لـ﴿رَجُل﴾، ويجوزُ أَن يكونَ مَنصُوباً حَالاً عنه، لأَنَّه قد تَخَصَّصَ بوصْفِهِ الذي هو ﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾، ويجوزُ أَن يكونَ صِلَةً لـ﴿جَاءَ﴾ فيكونُ ﴿يَسْعَىٰ﴾ صفَةً لـ﴿رَجُل﴾ لا غير، ﴿يَأْتَمِرُونَ﴾ يَتَشَاورونَ بِسَبَبِكَ، يُقالُ: تَأَمَّرَ القَومُ وٱئتَمَرُوا، و﴿لَكَ﴾ ليسَ بِصِلَةٍ لـ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ بَل هو بيانٌ. ﴿فَخَرَجَ﴾ موسىٰ من مِصْرَ ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ التَّعرُّضَ لَهُ في الطَريقِ، أو: أَن يُلحَقَ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ﴾ فِرعَونَ وقَومِهِ.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ

---

(١) في نسخة: «أوليائك».

(٢) حكاها الزجاج في معاني القرآن: ج ٤ ص ١٣٧.

(٣) قاله الزجاج. راجع المصدر السابق.

(٤) قاله قتادة والضحاك والكلبي. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٤٩.

ٱلسَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ ما خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)﴾

﴿تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ صَرَفَ وجهَهُ نَحوَهَا، وهي قَريةُ شُعَيبٍ، وعن ابن عبَّاسٍ: خَرجَ ولَيسَ لَهُ عِلْمٌ بالطَريقِ إلّا حُسن ظَنِّهِ بربِّهِ[1] و﴿سَوآء ٱلسَّبِيلِ﴾ وَسَطُهُ، وقيلَ: خَرجَ خافياً[2] لا يَعيشُ إلَّا بورَقِ الشَجرِ[3].

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ الذي يسقُونَ منهُ وكَانَ بِئْراً، ووُرُودُهُ: مَجيئُهُ والوصُولُ إليهِ ﴿وَجَدَ﴾ فوقَ شَفيرِهِ ومستَقَاه ﴿أُمَّةً﴾ جَماعةً كثيرةَ العَددِ من أُناسٍ مختلفينَ ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ أي: مَكَانٌ أسفَلَ من مكانِهِم ﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ عَنهُما، والذَّودُ: الطَّرْدُ والدَفعُ، كانَتا تكرهَان المُزَاحمةَ علَى الماءِ، وقيلَ: كانَتا لا تَتَمكَّنانِ من السَقْي، لأنَّ على الماءِ من هو أَقوىٰ منهما[4] ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾

(١) تفسير ابن عباس: ص ٣٢٥. (٢) خائفاً خ ل.
(٣) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٠٠.
(٤) قاله الزجاج في معاني القرآن: ج ٤ ص ١٣٩.

ما شَأْنُكُما، وأَصلُه: ما مخطُوبُكُما أي: مَطلوبُكُما مِن الذيادِ. وقُرئ: «يَصْدُرَ الرِّعاءُ»(١) أي: يَصْدرُوا مواشيهِم من ورُودِهِم، والرِّعَاءُ: جَمعُ الرَّاعي كالصِّيامِ والقيامِ. ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ فَسقَىٰ غنَمَهُما لأَجلِهِما، ورُوِيَ: أنّ الرِّعاءَ كانُوا يضعُونَ علىٰ رأسِ البئر حَجَراً لا يُقِلُّهُ إلَّا سبعةُ رجال، وقيلَ: عشرةٌ(٢)، وقيلَ: أَربعون(٣)، فَأَقَلَّهُ وحدَهُ، وسأَلَهُم دَلواً فأعطوه دلْوَهُم، وكانَ لا ينزعُها إلَّا عشرةٌ، فاستَقَىٰ بهَا وحدَه مرةً(٤) فروَّىٰ غنَمَهُما وأَصدرَهُما، وإنَّما فَعَلَ ذلكَ رغْبةً في المعروفِ وإغاثةً للملهُوفِ. ولم يذكُرْ مفعول ﴿يَسْقُونَ﴾ و﴿تَذُودَانِ﴾ و﴿لا نَسْقِي﴾ لأنَّ الغَرضَ هو الفعلُ لا المفعُول. والوَجْهُ في مُطَابقةِ جوابِهِما لِسُؤالِهِ أنَّه سَأَلَهُما عن سَبَبِ ذَودِهِما الغنَمِ، فَقَالَتا: سَبَبُ ذلكَ أنَّهما ضَعيفَتانِ لَم تَقدرا علىٰ مُزاحَمةِ الرِّجالِ، ولابُدَّ لَهُما من تَأخيرِ السَقْي إلىٰ أن يَصدرُوا ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ضَعيف(٥) لا يقْدِرُ علىٰ تولِّي السَّقْي بنفسِهِ، وكأنَّما قَالَتا ذلكَ تَعريضاً للطَلَبِ منه الإعَانَة علىٰ سَقْي غَنَمِهِما، وإيلاءً للعُذْرِ في توليِّهِمَا السَّقْي بأنفسِهِما.

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى﴾ ظلِّ سَمُرَةٍ من شدّةِ الحرّ وهو جَائعٌ فَقَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنْزَلْتَ إِلَيَّ﴾ أي: لأيِّ شيءٍ قليلٌ أَو كَثيرٌ ﴿فَقِيرٌ﴾ وإنَّما تَعدَّىٰ ﴿فَقِير﴾ باللّامِ لأنَّه ضُمِّنَ معنىٰ «سائل» و«طالب». ورُويَ أنَّه قالَ ذلكَ وخُضْرةُ البَقْلِ تُرىٰ في بَطنِهِ من الهُزالِ، ومَا سَأَلَ إلّا خُبزاً يأكُلُه.

﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ في مَوضعِ الحَالِ، أي: مُستَحيةً خَفِرَةً، وذلكَ أنَّهما لمَّا رَجَعَتَا إلىٰ أبيهِمَا قبلَ النَاسِ وأَغنامهُما حُفَّلٌ بِطانٌ وقَالَتَا: وَجَدْنا رجلاً صَالحاً

(١) قرأه ابن عامر وأبو عمرو. راجع التيسير في القراءات للداني: ص ١٧١.
(٢) قاله شريح. راجع التبيان: ج ٨ ص ١٤٢.
(٣) قاله الزجّاج على ما حكاه القرطبي في تفسيره: ج ١٣ ص ٢٦٩.
(٤) في المخطوطة زيادة: واحدة.
(٥) في نسخة زيادة: «كبير السنّ».

رحِمَنا وَسَقَىٰ لَنَا، قَالَ لإِحداهُما: عَلَيَّ بِهِ، فرَجَعَتْ فَتبعَها موسىٰ، فألْصَقَتِ الرِّيحُ ثَوبَها بِجَسَدِها فوَصَفتْهُ، فقَالَ لَهَا: إِمْشِي خَلْفِي وأَرِيني السَّمتَ بقَولِكِ، فَلَمَّا قَصَّ عليهِ قُصَّتَهُ ﴿قَالَ لا تَخَفْ﴾ فَلَا سُلطانَ لِفِرْعَونَ بأَرضِنَا، و﴿ٱلْقَصَصَ﴾ مَصدرٌ سُمِّي به المَقْصُوصُ.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ وهي كُبراهُمَا، وهي التي ذَهَبَتْ بِهِ، وهي التي تَزَوَّجَها. ورُوِيَ أَنَّ شُعَيباً قَالَ لَهَا: وكيفَ عَلِمْتِ قوَّتَهُ وأَمانَتَهُ؟ فَذَكَرتْ إِقْلال الحَجَرِ ونَزْعَ الدَّلْوِ، وأنَّه صَوَّبَ رأْسَهُ حتَّىٰ أَبلَغَتْه رسَالَتَهُ وأمَرَها بالمَشْيِ خَلْفَهُ، وفي قَولِهَا حِكْمَةٌ جَامعةٌ[1] لأنَّه إذا حَصَلَتِ الأَمانةُ والكفَايَةُ في القِيامِ بالأَمرِ فَقَد تَمَّ المُرادُ.

﴿تَأْجُرَنِى﴾ من أَجرتَهُ إذا كُنتَ لَهُ أَجيراً، و﴿ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ﴾ ظَرفٌ لَهُ ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي: فَإتمامُهُ من عندكَ، يعني: لا أُوجبُهُ عليكَ ولا أُلْزِمُكَهُ، ولكنَّكَ إنْ فَعَلْتَ فهُو تَبرُّعٌ منك ﴿ومَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإِتْمَامِ الأَجَلَينِ وإيجابهِ ﴿مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ في حُسْنِ المُعَاملةِ ولِينِ الجَانِبِ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتَدأٌ و﴿بَيْنِى وبَيْنَكَ﴾ خَبرُهُ، أي: ذلكَ الذي قُلْتُه وعَاهَدتَني فيه قَائِمٌ بينَنا لا نَخرجُ عَنهُ، أَيَّ أَجَلٍ ﴿قَضَيْتُ﴾ من الأَجَلَيْنِ: الثَّماني أو العَشر، فَلَا يُعتَدىٰ ﴿عَلَيَّ﴾ في طَلَبِ الزيادةِ عَلَيْهِ، و﴿مَا﴾ مُؤكِّدةٌ لإِبْهامِ «أيٍّ» زائدةٌ في شياعِها، والوَكِيلُ: الَّذي وُكِّلَ الأَمرُ إليه، ولمَّا ٱستُعمِلَ بمعنَى الشَاهدِ والمُهَيمنِ عُدِّيَ بـ﴿عَلَىٰ﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَاراً لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٣٠)

---

(١) في نسخة: «بالغة».

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ (٣١) اَسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَاَضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَـٰسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَـٰلِبُونَ (٣٥)﴾

قُرِئَ: ﴿جِذْوَةٍ﴾ بالحَرَكَاتِ الثّلاث(١)، وفيها اللُّغاتُ الثّلاث، وهيَ العُودُ الغَليظُ في رأسِهِ نارٌ. و﴿مِنْ﴾ الأُولىٰ والثانية لابتداءِ الغَايةِ، أي: أتاهُ النِّداءُ من شَاطِئِ الوادِي من قِبَلِ الشَّجرَةِ. و﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ بَدَلٌ من ﴿شَـٰطِئِ الْوَادِ﴾ وهو بَدَلُ الاشتمالِ، لأنَّ الشَجرةَ قد نَبَتَتْ عَلى الشَاطئ.

والرَّهْبُ: الخوف، وَالجَنَاحُ المُرادُ به اليد، لأنَّ يَدَ الإنسانِ بمنزلةِ جناحَي الطَّائرِ، وإذا أَدْخَلَ الإنسانُ يَدَهُ اليُمنىٰ تحتَ عضدِهِ اليُسرىٰ فَقد ضَمَّ جناحَه إليهِ. من الرَّهْبِ أي: من أَجْلِ الرَّهْبِ، يَعني: إذا أَصابَكَ الرَّهْبُ عندَ رُؤيةِ الحَيَّةِ فاضمُمْ إليكَ جناحَكَ ﴿فَذَٰنِكَ﴾ قُرئَ مُخففاً ومشدَّداً(٢). فالمُخفَّفُ تثنيةُ «ذاكَ» والمشدَّدُ تثنية «ذلكَ»، ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾ حُجَّتَانِ(٣)، وسُمِّيتُ الحجَّةُ بُرهاناً لبَيَاضِهَا ووضُوحِهَا، وقَالُوا: امرأةٌ بَرَهْرَهَةٌ أي: بيضاء، وأَبْرَهَ الرَّجلُ: جَاءَ بالبُرهانِ، وكذلكَ «السُّلْطَانُ» مشتَقٌّ من السَّليطِ وهو الزَّيتُ لإنارتِهِ.

(١) قرأ عاصم بفتح الجيم، وحمزة وخلف بضمّها، والباقون بكسرها. راجع التبيان: ج ٨ ص ١٤٤.
(٢) وبالتشديد قرأه ابن كثير وأبو عمرو. راجع المصدر السابق: ص ١٤٧.
(٣) في نسخة زيادة: «يثبتان».

والرِّدْءُ: اسمُ مَا يُعانُ به، فِعْلٌ بمعنَىٰ مفعول به، كالدِّفءُ لِمَا يُدْفَأُ بِهِ، قال:

وَرِدْئِـــي كُــلُّ أَبْـيضَ مَشْـرفيّ   شَحيذِ الحَدِّ عَذبٍ ذِي فُـلُولِ[١]

وقُرِئَ: «رِداً» علَى التَخْفيفِ[٢]، وقُرِئَ: ﴿يُصَدِّقُنِى﴾ بالرَفعِ والجَزمِ[٣] صِفَةً وجَواباً كقولِهِ: ﴿وَلِيّاً يَرِثُنِى﴾[٤] سواء، والمُرادُ بالتَّصديقِ أَن يخلِّصَ بلسَانِهِ الحقَّ ويُجَادلَ بِهِ الكُفَّارَ كَمَا يَفعَلُه المِصْقعُ البَليغُ، فإنَّه يَجري مَجْرَى التَصديقِ، كما أنَّ البُرهانَ يُصدِّقُ القولَ، أو يبيِّنَ كَلامَهُ حتّىٰ يصدِّقَهُ الذي يَخافُ تَكـذيبَهُ. وأسـندَ التصديقَ إليهِ لأنَّه السَبَبُ فيه علىٰ سَبيلِ الاستعارةِ، ويَدلُّ عليهِ قَولُهُ: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾.

ومعنىٰ ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ سنقوِّيكَ بِهِ ونـؤيِّدُكَ بأَن نَـقْرنَهُ إليكَ فـي النبوَّةِ، لأنَّ العَضُدَ قِوامُ اليَدِ، قَالَ طُرفَةُ:

أَبَـنِي لُـبَيْنَىٰ لَسْتُمْ بِـيَدٍ   إلَّا يداً لَيْسَتْ لَهَا عَـضُدُ[٥]

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰناً﴾ أي: غَلَبةً وتَسَلُّطاً، أو حُـجَّةً وبُـرهَاناً ﴿بِآيَـٰتِنَا﴾ يَتَعلَّقُ بـ﴿نَجْعَلُ لَكُما سُلْطَـٰناً﴾ أي: نُسلِّطُكُما، أو تَـعَلَّقَ بـ﴿لا يَـصِلُونَ﴾ أي: تُمتَنعانِ منهم بآياتِنا، أو: هو بيانٌ لـ﴿الْغَـٰلِبُونَ﴾ لا صِـلَةٌ، لأنَّ الصِـلَةَ لا تـتقدَّمُ على الموصُولِ، أو علىٰ تَقديرِ: إذْهَبَا بآياتِنَا.

(١) البيت لسلامة بن جندل، يقول: وردئى الذي أتوقّىٰ به المكاره كلّ سيف قاطع أبيض. راجع الكشّاف: ج ٣ ص ٤٠٩.

(٢) قرأه نافع. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٥٩٤.

(٣) قرأ حمزة وعاصم بالرفع والباقون بالجزم راجع التبيان: ج ٨ ص ١٤٧.

(٤) مريم: ٥ و٦.

(٥) البيت منسوب لطرفة بن العبد، وقيل: لأوس بن حجر، يهجو بني لبينىٰ من بني أسـد بـن وائلة، يقول في مقام ذمّهم: لستم مثل يدٍ من الأيدي في القوة إلّا مثل يد لاعضد لها، فهي صعبة ومشلولة. راجع ديوان طرفة: ص ١٤٧، وديوان أوس: ص ٢١.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ (٣٨) وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ (٤٢)﴾

أي: ﴿سِحْرٌ﴾ ظَاهِرٌ افتراؤُهُ، وليسَ بمُعْجِزٍ من اللهِ ﴿فِي ءابائِنَا﴾ حَالٌ عَن هذا، أي: كَائناً في زَمانِ آبائِنا، أي: لَم يُسْمَعْ بكَونِ مَا يدَّعيهم[(١)].

﴿رَبِّىٓ أعْلَمُ﴾ مِنكُم بحَالِ من يُؤَهِّلُهُ النُبوَّةَ ويَبعثُهُ بالهُدىٰ، يعني نفسه، ولَوْ كانَ كَمَا تَزعمُونَ كَاذباً مُفتَرِياً لَمَا أَهَّلَهُ لذلكَ، لأنَّه غنيٌّ حَكيمٌ، لا يُرسِلُ الكَاذبينَ والسَّاحرينَ، و﴿لا يُفْلِحُ﴾ عندَهُ ﴿الظَّـٰلِمُونَ﴾، وَ﴿عَـٰقِبَةُ الدَّارِ﴾ هـي العَـاقِبَةُ المحمُودةُ، يَدلُّ عليه قولُهُ: ﴿أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ﴾[(٢)] والدَارُ هي الدُنيا، وعُقْباهَا وعَاقبتُها أن يُختَمَ للعبدِ بالرِّضوانِ والرَّحمةِ. وقُرئ: «قَالَ مُوسَى» بغَيرِ واوٍ[(٣)]، و﴿تَكُونُ﴾ بالتَاءِ واليَاءِ[(٤)].

(١) في بعض النسخ: «لم نسمع بكون ما تدَّعيه فيهم».
(٢) الرعد: ٢٢ و٢٣.
(٣) قرأه ابن كثير. راجع التيسير في القراءات للداني: ص ١٧١.
(٤) وبالياء هي قراءة أهل الكوفة إلّا عاصماً. راجع التبيان: ج ٨ ص ١٥١.

﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾[١] واتَّخِذ الآجُرَ فاجعلْ لِي قَصراً وبِناءً مُرتفعاً عَالياً ﴿لَعَلِّيٓ﴾ أَقِفُ علىٰ حَالِ ﴿إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾ وأَشْرفُ عليهِ، وهذا تَلبِيسٌ من فِرعَونَ وإيْهامٌ علَى العَوام، إنَّ الذي يَدعُو إليهِ موسىٰ يَجري مَجْراهُ في الحَاجَةِ إلَى المكانِ، وقَصَدَ بِنَفْي عِلْمِه بإلهٍ غيره نَفْيَ وجودِهِ، يعني: مالَكُم من إلهٍ غيري، أو: يُريدُ أنَّ إلهاً غيرَهُ غيرُ معلومٍ عندَهُ لكنَّه مظْنُونٌ، والطُّلُوعُ وَالإطِّلاعُ: الصُّعُودُ. وكُلُّ مُسْتَكْبِرٍ متكبِّرٌ سوَى الله عزَّوجلَّ، فاستكبارُهُ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، وهو جَلَّ جَلالُهُ المُتَكبِّرُ علَى الحقيقةِ، أي: المُبالغُ في كبرياءِ الشَّأْنِ.

قَالَ عليه السلام فيمَا حَكَاهُ عن ربِّه عزَّ ٱسمه: «الكبرياءُ رِدَائِي، والعَظَمَةُ إزارِي، فَمَنْ نازَعَني واحِداً منهمَا أَلْقَيتُهُ في النَّار»[٢].

وقرئ ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بالضَمِّ والفتح[٣]. ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ من الكَلَامِ الدَّالّ علىٰ عظَمِ شأْنِهِ وجَلَالِ كبريائِهِ، شبَّهَهُم ٱستحقَاراً لَهُم ـ وإنْ كانُوا الجَمَّ الغَفيرَ ـ بكفٍّ من تُرابٍ أَخذَها الإنسانُ بكفِّهِ وَطَرَحَهُ في البَحرِ!

﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: دَعَوْنَاهُم[٤] دعاةً إلَى النارِ، وقُلْنا: إنَّهم أئمَّةٌ دُعَاةٌ إلىٰ النَّارِ، مِن قَولِكَ: جَعَلَهُ بَخيلاً، أَي: دَعَاهُ وقَالَ: إنَّه بخيلٌ. وَمَعْنَاهُ: إنَّـهم دُعـاةٌ إلىٰ مُوجباتِ النَارِ من الكُفْرِ والمَعَاصِي، ويجوزُ أن يكُونَ المعنىٰ: خَذَلْنَاهُم حتّىٰ كَانُوا أئمّةَ الكُفْرِ ومَنَعْنَاهُم أَلْطَافنا، وإنَّما يَمْنَعُ الألطافَ مَن عَلِمَ أَنَّها لا تَنفَعُ فيهِ، وهُـو المصمِّمُ علَى الكُفْرِ الذي لا تُغْني عَنه الآيَاتُ وَالنُّذُرُ، فكأنَّه قَالَ: صَـمَّمُوا عـلَى الكُفر حتّىٰ كَانُوا أَئمَّةً فيهِ دُعاةً إليه. وَلَولَا ذَلكَ لَمَا خَذَلْنَاهُم و﴿هُمْ﴾ يَومَ القيامَةِ

---

(١) في بعض النسخ زيادة: «أي فأجّج النار على الطين».

(٢) رواه أحمد في المسند: ج ٢ ص ٤١٤.

(٣) وبالفتح قرأه نافع وحمزة والكسائي. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٤٩٤.

(٤) في نسخة زيادة: «أنّهم».

مَخذُولونَ لا يُنصَرُونَ ﴿مِنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ أي: من المَطرودينَ المُبعَدِينَ.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ (٤٤) وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٥٠)﴾

إنتَصبَ ﴿بَصَآئِرَ﴾ علَى الحَالِ، والبَصيرةُ نُورُ القَلبِ الذي يُستبصَرُ بِهِ، كَمَا أنَّ البَصَرَ نُورُ العينِ الذي تُبْصِرُ بِهِ، يَعني: آتَيْناهُ الكِتابَ أنواراً للـقُلُوبِ ﴿وَهُـدًى﴾ وإرشاداً ﴿وَرَحْمَةً﴾ لِمَن آمَنَ بِهِ.

و﴿ٱلْغَرْبِىِّ﴾: المَكَانُ الواقِعُ في شَقِّ الغَربِ، وهو المَكَانُ الذي وَقَعَ فيه ميقاتُ موسىٰ عليه السلام من الطّورِ، والخِطَابُ لرسـولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، أي: ﴿وَمَـا كُـنتَ﴾ حَـاضِراً المَكَانَ الذي أَوْحَيْنا فيهِ إلىٰ موسىٰ وَلاَ ﴿كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ للوَحْي إليـهِ أو عَلَى الوَحْي إليه، حتّىٰ تَقِفَ بالمُشَاهَدَةِ علىٰ ما جَرىٰ من أَمْرِهِ. ﴿وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا﴾

بُعدُ عَهْدِ الوَحْيِ إليهِ إلىٰ عَهْدِكَ ﴿قُرُوناً﴾ كَثيرَةً ﴿فَتَطَاوَلَ﴾ علىٰ آخِرِهم، وهُـو القَرنُ الذي أَنتَ فيهمْ ﴿العُـمُرُ﴾ أي: أَمَـدُ ٱنـقطاعِ الوَحْـيِ وٱنْـدَرَسَتِ العـلُومُ فَأَرسَلْنَاكَ وأَوْحَينا إليكَ قَصَصَ الأنبياءِ وقِصَّةَ مُوسىٰ ﴿وَمَـا كُـنْتَ ثَـاوِياً﴾ أي: مُقيماً ﴿فِيۤ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ وهُمْ شُعَيب والمؤمنونَ بِهِ ﴿تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ تَعَلُّماً منهُم، يُريدُ الآياتِ التي فِيهَا قصَّةُ شُعَيب وقَومِهِ ﴿وَلَـٰكِنَّا﴾ أَرسَلْنَاكَ وعَلَّمْنَاكَها وأَخْبَرنَاكَ بِهَا. ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ مُوسَىٰ، يُريدُ لَيلةَ المُنَاجَاةِ ﴿ولـٰكِن﴾ عَلَّمناكَ ﴿رَحْمَةً﴾، ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً﴾ هُم العَرَبُ ﴿مَا أَتَـٰهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ﴾ في زَمانِ الفَترةِ بينَك وبينَ عيسىٰ، وهو خَمسمائة وخَمسُونَ سنة، ونَحوُهُ: ﴿لِتُنْذِرَ قوماً ما أُنْذِرَ آباؤهُمْ﴾ (١).

﴿لَوْلاَ﴾ الأُولىٰ امتناعية وَجَوابُها مَحذُوفٌ، والثَّـانيةُ تَـحضِيضيَّةٌ، وإحـدَى الفاءَينِ للعَطْفِ، والأُخرىٰ جواب ﴿لَولاَۤ﴾ لِكَونِها في حُكْمِ الأَمرِ من حَـيثُ أَنَّ الأَمرَ يَبعَثُ علَى الفعلِ، والباعِثُ والمُحرِضُ من بَابٍ واحدٍ. والمعنىٰ: لَولاَ أَنَّـهم قائِلُونَ إذا عُوقِبُوا بكُفرِهِم: هَلَّا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾ يَحتَجُّونَ عَلَينَا بذلكَ لِمَا أَرسَلْنا إليهِم، يُريدُ: أَنَّ إرسالَ الرسُولِ إنَّما هو لإلْزامِ الحُجَّة إيَّاهُم، و﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰاللهِ حُجَّةُ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (٢)، ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَآءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ﴾ (٣) ﴿لَوْلاَۤ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ (٤).

ولَمَّا كانَتْ أَكثَرُ الأَعْمالِ بِالأَيْدِي اتَّسَعَ فيهِ حتَّىٰ عَبَّرَ عن كلِّ عَمَلٍ بـتَقْديمِ الأَيدي، وإنْ كَانَ مِنْ أَعْمالِ القُلُوبِ.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلحَقُّ﴾ وهُو الرَسُولُ المصدَّقُ بالمُعْجزاتِ ﴿قَالُواْ لَوْلاَ أُوتِـيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسىٰ﴾ من فَلْقِ البَحْرِ وقَلْبِ العَصَا حيَّةً، أو: الكتَابُ المُنزَلُ جُملةً

---

(١) يس: ٦. (٢) النساء: ١٦٥.
(٣) المائدة: ١٩. (٤) طه: ١٣٤.

واحِدَةً، إلىٰ غَيرِ ذلكَ من اقتراحَاتِهِم المبيِّنة علَى التعنُّتِ والعَنَادِ ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا﴾ يَعني: أبناء جِنْسهم ومِن مَذهبِهِم وعنادِهِم، وهُم الكفَّارُ في زَمنِ موسىٰ ﴿بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ قَالُوا في موسىٰ وهَارُون «سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا» أي: تَعَاوَنَا، وقُرِئ: ﴿سِحْرَانِ﴾ [(١)] أي: ذوَا سِحرٍ، جَعَلُوهُما سِحْرَين مُبالَغةً في وَصْفِهِما بالسِحْرِ، أو أرادُوا: نوعَانِ من السِحرِ و﴿إِنَّا بِكُلٍّ﴾ واحِدٍ منهُمَا ﴿كَافِرُونَ﴾.

و﴿مِن قَبْلُ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا﴾، وإنْ تَعلَّقَ بـ﴿أُوتِيَ﴾ انقلَبَ المعنىٰ إلى: أَنَّ أهلَ مكّة الذين قَالُوا هذه المَقَالَةَ كَمَا كفَرُوا بمحمَّدٍ عَلَيْهِ وَآلِهِ السَّلَامُ وبالقُرآنِ فَقَد كفَروا بموسىٰ والتَوراةِ، فَقَالُوا في مُوسىٰ ومحمَّد: سَاحِران ﴿تَظَاهَرَا﴾، أو: في الكتَابَينِ ﴿سِحْرَانِ﴾ وذلكَ حينَ بَعَثُوا الرَّهْطَ إلىٰ رُؤَساءِ اليَهود بالمدينةِ يَسألونَهُم عن محمَّد عَلَيْهِ وَآلِهِ السَّلَامُ، فأَخبرُوهُم أنَّ نَعْتَهُ وَصِفَتَهُ في كتَابِهِم، فَقَالُوا: ذلكَ ﴿هُوَ أَهْدَىٰ﴾ ممَّا أُنزلَ علىٰ موسىٰ وممّا أنزلَ عَلَيَّ.

أي: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ دُعاءك إلى الإتْيانِ بالكتَابِ الأَهْدَىٰ فاعلَمْ أَنَّهم قَد أُلْزِمُوا، ولَمْ يَبْقَ لَهُم حُجَّةٌ إلّا اتّباعِ الهَوَىٰ، ثُمَّ قالَ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ﴾ لا يتَّبعُ في دينِهِ إلَّا ﴿هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ أي: لَا يَلطفُ بالقَومِ الثَابتينَ علَى الظُلْمِ، وَقَولُهُ: ﴿بِغَيْرِ هُدًى﴾ في مَوضعِ الحَالِ، أي: مَخْذُولاً.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤)

---

(١) الظاهر أنّ المصنّف يعتمد علىٰ قراءة فتح السين وألف بعدها هنا تبعاً للزمخشري في الكشّاف.

وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ (٥٥) إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٥٨)﴾

أي: آتيناهُم القُرآنَ متتابِعاً مُتَواصِلاً، وَعْداً وَوَعيداً، وعِبَراً ومَواعِظَ، إرادةَ أَنْ يَتذكَّرُوا فيُفلِحُوا، فنزَّلْناه[1] عَلَيهِم نُزُولاً متَّصلاً بَعضُهُ في إثْرِ بَعضٍ.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: مِنْ قَبلِ محمدٍ ﷺ أو القرآنِ، وَهُمْ مؤمِنُو أهلِ الكتَابِ، وَقيلَ: هُم أربعُونَ من أهلِ الإنْجيل، جاءوا مَعَ جعفر بن أبي طالب من أَرضِ الحَبَشةِ، وثَمانيةٌ من الشَامِ، منهم بُحَيرا[2].

﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ تعليلٌ للإيمانِ بِهِ، لأنَّ كونَهُ حقّاً من اللهِ يُوجِبُ أن يُؤمَن بِـهِ، و﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ بيَانٌ لقَولِهِم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ أَخبَروا أَنَّ إيمانَهُم بِـهِ مُتَقَادِمٌ، و«الإسلامُ» صِفةُ كلِّ مُوحِّدٍ مُصدِّقٍ بـالوَحْي. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصَبْرِهِم علَى الإيمانِ بالتَوراةِ والإيمانِ بالقُرآنِ، أَو: بِصَبرِهِم علَى الإيمانِ بالقُرآنِ قَبلَ نُزُولِهِ أو بَعدَ نُزُولِهِ، أَو: بصَبْرِهِم علىٰ أذَى المُشركينَ وأَهل الكتاب، ونحوه: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾[3]، ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ بالإيمانِ والطَاعَةِ المَعَاصيَ المتقدِّمَةَ أو بالحلمِ الأذىٰ.

---

(١) في نسخة: «أو أنزلنا».

(٢) قاله سعيد بن جبير وقتادة. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٢٥٧.

(٣) الحديد: ٢٨.

﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ مُتارَكَةٌ وتوديعٌ. وعَنِ الحَسَنِ: كلمةُ حلمٍ من المُـؤمنينَ[١] ﴿لَا نَبْتَغِى الْجَـٰهِلِينَ﴾ لا نُريدُ مُخالَطَتَهُم، ولا نَطلبُ مُجالَسَتَهُم ومُصاحَبتَهُم.

﴿لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لا تَقدِرُ أَن تُدخِلَ في الإيمانِ كُلَّ مَن أَحْبَبْتَ أن تُدخِلَ فيهِ من قَومِكَ وغيرِهِم ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ يُدخِلُ فيهِ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ وهو مَن عَـلِمَ أنَّ الألطافَ تنفعُ فيهِ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ بالَّذينَ يهتَدُونَ باللُّطف، وكَانَ النبيُّ صلى الله عليه وآله حَريصاً علىٰ إيمانِ قَومِهِ وإقْرارِهِم بنبوَّتِهِ، فأَخْبَرَهُ سبحانَه بأنَّ ذلكَ ليسَ في مَقْدورِهِ.

وَقَالُوا: إنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في أَبي طالب[٢]، وقَد ورد عن أئمَّةِ الهُدىٰ عليهم السلام: أنَّ أَبا طالب مَاتَ مُسْلِماً، واجتمَعَتِ الإماميةُ علىٰ ذلك، وأَشْعارُهُ مشْحُونةٌ بـالإسلامِ وتَصديقِ النبيِّ صلى الله عليه وآله[٣].

﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ﴾ أي: نُستَلَب ﴿مِنْ أَرْضِنَآ﴾ قيلَ: إنَّ القائِلَ الحارثُ بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف، قال: إنَّما نَحنُ أَكَلَةُ رأْسٍ، أي: قَليلُونَ، ونَخافُ إن اتَّبعناكَ وخَالَفنا العربَ أَن يَتَخَطَّفُونا من أَرضِنَا، فَرَدَّ اللهُ عَلَيهِم بقَولِهِ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ والعَربُ حَولَهُ يَتَغاوَرُونَ، وهُمْ آمنُونَ فـي حَرَمِهِم لا يَخافُونَ ﴿يُجْبَىٰٓ﴾ إليهِم الثَّمَراتُ من كُلِّ أرضٍ، فـإذَا خَـوَّلَهُم اللهُ مـا خَوَّلَهُم من الأَمْنِ والرزقِ وهُم كَفَرةٌ عَبَدةُ أصنامٍ فَكَيفَ يعرِّضَهُم للتَخَطُّفِ ويَسلبُهُم الأَمْنَ إذا آمنُوا بِهِ وَوَحَّدُوهُ وصَدَّقُوا رَسُولَه؟[٤].

---

(١) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٤٢٢.

(٢) كقول ابن عباس كما رووه عنه ومجاهد والحسن وقتادة. أُنظر التبيان: ج ٨ ص ١٦٤.

(٣) نحو قوله:

لقـد أكـرم الله النـبي مـحمداً	فأكرمُ خلق الله في الناس أحمدُ
وشـقّ له مـن إسـمه ليُجلّه	فذو العرش محمود وهذا محمدُ

وغيرها الكثير. راجع ديوان أبي طالب ضمن سلسلة «شعراؤنا» ط دار الكتاب العربي بيروت.

(٤) قاله ابن عباس. انظر تفسيره: ص ٣٢٨.

وإسنادُ الأَمْنِ إلىٰ أهلِ الحَرَمِ حقيقةٌ وإلَى الحَرَمِ مَجَازٌ، و﴿يُجْبَىٰٓ﴾ من: جَبَيتُ الماءَ في الحَوضِ أي: جَمَعْتُه، ومعنَى الكُلِّيَّةِ الكثرةُ كَمَا في قولِهِ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [1]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تَعلَّقَ بقولِهِ: ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ أي: قَليلٌ منهُم يُقِرُّونَ بأنَّ ذلكَ رِزْقٌ من عندِ اللهِ وأَكثَرهُم لا يعلمونَ ذلكَ، ولَوْ علمُوا ذلكَ لَـمَا خَافُوا التَخطُّفَ إذا آمنُوا بِهِ، و﴿رِزْقًا﴾ مفعُولٌ له أو مَصدَرٌ، لأنَّ معنىٰ ﴿يُجبىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ و«يُرزَقُ ثمراتُ كلِّ شيءٍ» واحِدٌ.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ تَخويفٌ لأهلِ مَكَّةَ من سُوءِ عَاقبةِ قَومٍ كانَتْ حَـالُهم مـثلَ حَالِهِم في كُفْرانِهِم نِعَمَ اللهِ تعالىٰ وَمقَابلتها بالأشَر حتّىٰ دَمَّرَهُم اللهُ وأَبَادَهُم.

وانتصبَ قَولُهُ: ﴿مَعِيشَتَهَا﴾ بحَذْفِ الجَارِّ وإيْـصالِ الفِـعْلِ كَـمَا فـي قـولِهِ: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ [2]، أو بالظَّرفِ بتَقْديرِ حَذْفِ الزَّمانِ المُضَافِ أي: بَطِرَتْ أيَّامُ مَعيشَتِها، كخُفُوقِ النَّجْمِ، أو: بتضمين «بَطِرَت» معنى «غَمطَت» و«كـفرت»، والبَطَرُ: سُوءُ احتمالِ الغنىٰ، وهو أَن لا يحفظَ حقَّ اللهِ فيهِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من السُكْنىٰ لَمْ يَسكُنْها إلَّا المُسافرُ ومَارُّ الطَريقِ يَومَاً أو سَـاعةً ﴿وَكُـنَّا نَـحْنُ ٱلْـوَٰرِثِـينَ﴾ لِتِلْكَ المَسَاكن مِن سَاكنيها تَركْنَاهَا علىٰ حَالٍ لا يَسكنُها أَحَدٌ، أو: كُنَّا خَـرَّبنَاهَا فَسَوَّينَاهَا بالأَرضِ.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّـهَا رَسُـولاً يَـتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ (٥٩) وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَـيْرٌ وَأَبْـقَىٰٓ أَفَـلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَـمَن مَّـتَّعْنَـٰهُ مَـتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ (٦١) وَيَـوْمَ يُـنَادِيهِمْ

---

(١) النمل: ٢٣. (٢) الأعراف: ١٥٥.

فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ (٦٦) ﴾

أي: ﴿وَمَا كَانَ﴾ من أَمْرِ ﴿رَبُّكَ﴾ أَنْ يُهْلِكَ ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ في الأَرضِ ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ﴾ في أُمِّ القرىٰ أي: مَكَّة ﴿رَسُولاً﴾ وهُو محمدٌ صَلَواتُ اللهِ عليه وآله خاتَمُ الأنبياءِ، أو: ما كَانَ مُهلِكَ القُرىٰ في كلّ وَقْتٍ حتّىٰ يَبعثَ في القَريةِ التي هي أُمُّها أي: أَصلُها رسُولاً لإلْزامِ الحجَّةِ عَليهم. وهذا إخبارٌ عن تَنزيهِهِ عن الظُّلْمِ حَيثُ لا يُهلِكُهُم مَعَ كونِهِم ظَالمينَ إلّا بَعدَ تَأكيدِ الحجَّةِ عَليهِم ببعْثَةِ الرُسُلِ، مَعَ علْمِهِ بأنَّهم لا يؤمنُونَ، ولَمْ يَجْعَلْ عِلْمَهُ بِهِم حُجَّةً عليهِم.

﴿وَمَا﴾ أُعْطِيتُمْ من أَسْبابِ الدُّنيا فَتَمَتُّعٌ وزينةٌ أيّاماً قَلائلَ، وهي مدّةُ الحياةِ المُنقَضية ﴿وَمَا عِندَ ٱللهِ﴾ وهُو الثوابُ ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ لأنَّ بقاءَهُ سَرمَداً ﴿فَلَا تَعقِلُونَ﴾ وقُرِئَ بالتّاءِ والياءِ[1]. ﴿أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ﴾ هذا تَقريرٌ للأُمَّةِ[2] التي قبلَها، أي: أَفَبَعْدَ هذا التفاوتِ الظَاهرِ سوّىٰ بين أبناءِ الدُّنيا وأَبناءِ الآخرةِ، وَالْوَعْدُ الْحَسَنُ: الثوابُ لأنّه مَنافِعُ دائِمةٌ مقارنةٌ للتعظيمِ والإجْلالِ ﴿فَهُوَ لَـٰقِيهِ﴾ كقَولِهِ: ﴿وَلَقَّـٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾[3]. ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أي: من الذينَ أُحْضِرُوا النَّارَ، ونَحوُهُ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[4]، وقُرِئَ: «ثُمَّ هْوَ» بسكُونِ الهاءِ[5]،

---

(١) وبالياء قرأة أبو عمرو وحده. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٤٩٥.

(٢) في نسخة: «للآية».

(٣) الإنسان: ١١.

(٤) الصافات: ١٢٧.

(٥) قرأه نافع وابن عامر في رواية قالون عنه والكسائي. راجع كتاب العنوان في القراءات: ص ١٤٦.

كما قيلَ: عَضْدٌ في عَضُدٍ تَشبيهاً للمنفصلِ بالمتَّصِلِ، وسُكونُ الهَـاءِ فـي «وهـوَ» «فهْو» «لهْو» أَحْسَنُ، لأنَّ الحَرفَ الواحِدَ لا يَنطقُ به وَحْدَهُ، فهو كالمتَّصل.

﴿شُرَكَآءِىَ﴾ مَبنيٌّ علىٰ زعْمِهِم، وهُو تهَكُّمٌ. ومفعُولَا «زعمَ» مَحذُوفَانِ هنا، والتَقْديرُ: الَّذي كُنتُم تَزعَمونَهُم شُركَائي، وهذا جائزٌ وإنْ لَمْ يَجزِ الاقتصارُ عـلىٰ أحَدِ المفعُولَيْنِ.

و﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ الشَّياطينُ أو رؤَسَاءُ الضَـلَالَةِ، ومـعنىٰ ﴿حَـقَّ عَلَيهِم ٱلقَوْلُ﴾: وَجَبَ عَلَيهِم مُقتَضىٰ القَولِ وهُو قَولُهُ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْـجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1]. ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ مُبتدأ و﴿الَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ صِفَتُهُ، وحَذِفَ العَائِدُ إِلَى الموصُولِ، و﴿أَغْوَيْنَـٰهُمْ﴾ خبرُ المبتدأ، والكَافُ صِفَةُ مَصْدرٍ محذُوفٍ، وتَقديرُهُ: أَغْويناهُم فَغَوَوا غَيّاً مثل ما غوينا، يَعنُونَ أنَّهُم غووا باختيارِهِم كَمَا غُوِينَا نحنُ باختيارِنَا، لأنَّ إغْواءَنَا لَهُم كانَ وَسْوسةً وتَسويلاً لا قَسْراً وَلَجاً ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَـيْكَ﴾ مِنْهُم ومِمَّا اختارُوهُ من الكُفْرِ ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ إنَّما يَـعبدُونَ أَهْـواءَهُـم ويُطيعُونَ شَهَواتَهُم، وإخلاءُ الجُمْلَتين من حَرْفِ العَطْفِ إنَّما هُو لِتَقْريرِهِما مـعنَى الجُملةِ الأُولىٰ ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ بِوَجْهٍ من وجُوهِ الحيلِ يَدفعُونَ به العَذَابَ ثمَّ يبكِّتُونَ بالاحتجاجِ عَلَيهِم بإرسَالِ الرُسُلِ، ويَسألُونَ سُؤالَ تَقْريرِ الذَّنْبِ.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ فَصارَتِ الأنباءُ مُشتَبهة طُرقَ جَوابِهَا عَلَيهِم ﴿فَهُمْ﴾ كالعمْيِ تَنْسَدُّ عَلَيهم طُرقُ الأَرضِ ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يَتَساءَلُ بَعضُهُم بَعضَاً كَمَا يَتَساءلُ الناسُ في المُشْكلاتِ، لأنَّهم يَتَسَاوونَ جَميعاً في عمَى الأنباءِ عَلَيهِم وعَجْزهم عن الجَوابِ، والمُرادُ بالنَبأ: الخَبَرُ عمَّا أَجَابَ به المُرسَلُ إليه رَسُولَه.

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ

(١) هود: ١١٩.

(٦٧) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٧٥)﴾

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ﴾ من المُشركينَ، وجَمَعَ بين الإِيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ أَن يَفلحَ عندَ اللهِ، و«عسىٰ» من الكِرامِ تَحْقِيقٌ.

و﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ من التخَيّر، كالطِّيَرةِ من التَطَيُّر، يُستعملُ بمعنَى المَصدرِ وبمعنَى المُتخَيَّر، يقالُ: مُحمدٌ ﷺ خيرَةُ الله من خلْقِهِ، وقولُهُ: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ بيانٌ لقولِهِ: ﴿وَيَخْتَارُ﴾، فإنَّ معناهُ: ويختارُ ﴿مَا يَشَآءُ﴾ ولهذا لَمْ يَدخُلِ العاطِفُ، والمعنَىٰ: إنَّ الخِيرَةَ للهِ في أفعالِهِ، وهُو أَعلَمُ بوجُوهِ الحِكْمَةِ فيهَا، وليسَ لأَحدٍ من خَلْقِهِ الاختيارُ، إذْ لا طريقَ لَهُ إلَى العِلْمِ بجَميعِ أَحْوالِ المُختارِ. وقيلَ: معناهُ: ويختارُ الذي لَهُم فيه الخِيَرة[1]، فحُذِفَ فيهِ كَمَا حُذِفَ منهُ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[2] أَن يَختارَ للعبادِ ما هُو خيرٌ لَهُم وأَصلحَ وهُو أَعلمُ بمصالِحِهم

(١) قاله ابن عباس. راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ٩٥.
(٢) الشورىٰ: ٤٣.

من أَنفُسِهِم، والْحَمْدُ في ﴿الآخِرَةِ﴾ قَولُهُم: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ (١) والتَّحْميدُ هناكَ علىٰ وَجْهِ اللَّذّةِ كالكلْفة (٢).

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ مَعْناهُ: أَخبِرُوني مَن يَقْدرُ علىٰ هذا؟ والسَّرْمدُ: الدائِمُ المتَّصِلُ، من السَّردِ، وَالمِيمُ مَزيدَةٌ، والمُرادُ بِالضِّياء: ضَوءُ الشَمسِ، وقَرَنَ بِهِ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لأنَّ السَمْعَ يَدرُكُ ما لا يَدْركُهُ البَصَرُ من ذِكْرِ مَنَافِعِهِ وَوَصْفِ فَوائِدِهِ. وقَرنَ باللَّيل ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لِأنَّ غيرَكَ يُبصِرُ ما تُبصِرُهُ من مَنْفَعةِ الظَلام. ﴿وَمِنْ رَّحْمَتِهِ﴾ زَاوَجَ بين اللَيلِ والنَّهارِ ﴿لِتَسْكُنُواْ﴾ في أحَدِهِما ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن﴾ فَضْلِ اللهِ في الآخر، ولإرَادَةِ شُكْرِكُم، وقد سُلِكَتْ فيهِ طَرِيقةُ اللَّفّ.

وكرَّرَ سبحانَهُ التَّوبيخَ باتّخاذِ الشُركَاءِ إيذاناً بأنَّ الشِّرْكَ أَجْلَبُ الأَشياء لغَضَبِ اللهِ، كَمَا أنَّ التَوحيدَ أَجْمَعُ لمَرضَاتِهِ.

﴿وَنَزَعْنَا﴾ أي: وأَخْرَجْنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ وهُو نَبيُّهُم، يَشْهَدُ علىٰ تلكَ الأُمةِ بمَا كَانَ مِنْها، وقيلَ: هُم عُدُول الآخرةِ الذينَ لا يخلو زمانٌ من وَاحِدٍ منهم (٣) فقُلْنا للأُمَّةِ: ﴿هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ فيما ذَهَبتُم إليهِ وكُنْتُم عَلَيهِ، فعَلمُوا حينئذٍ أَنَّ الحَقَّ للهِ ولرسُولِهِ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ من الأَبَاطِيل.

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ (٧٦) وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ

(١) الزمر: ٧٤. (٢) في بعض النسخ: «لا الكلفة».
(٣) حكاه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ١٧٤.

جَمْعاً وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً وَلَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ ٱللهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ (٨٢)﴾

﴿قَـٰرُونَ﴾ اسمٌ أَعْجَميٌّ كَانَ من بني إسرائيلَ، وهو ابنُ خَالة مُوسىٰ، وكَانَ أَقْرأُ بني إسرائيلَ للتَّوراةِ، ولمَّا جَاوزَ بِهِم مُوسىٰ البَحرَ وصَارَتِ الرِّئاسةُ لِهارُونَ فَقَرَّبَ القُربانَ وَجَدَ قَارونُ في نَفسِهِ ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ من البَغْي الذي هو الكِبْرُ والبَذخُ، والمَفَاتِحُ: جَمعُ المِفْتَح، وهُو ما يُفتحُ بِهِ، وقيلَ: هي الخَزائِنُ(١)، واحِدُها مِفْتَحٌ، وَنَاءَ بِهِ الحِمْلُ: إذا أَثقلَهُ حتّىٰ أَمالَهُ، والعُصْبَةُ: الجَماعةُ الكَثيرةُ، و﴿إِذْ﴾ نُصِبَ بـ«تَنُوء»، ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ أي: لا تَأْشَرْ ولا تَتكبَّرْ بسَببِ كنُوزِكَ.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَـٰكَ ٱللهُ﴾ من الغنىٰ ﴿الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ بأَن تَفْعلَ فيهِ أَفعالَ الخيرِ تَزَوَّد بهَا إلَى الآخرةِ ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ﴾ وهو أَن تَأْخذَ منهَا ما يَكْفيكَ ﴿وَأَحْسِن﴾ إلىٰ عبادِ اللهِ ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللهُ إِلَيْكَ﴾ وقيلَ: إنَّ المخاطَبَ بذلكَ موسىٰ عليه السلام(٢).

﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ علَى ٱستحقاقٍ وٱستيجابٍ لِمَا في منِّ العِلْم الَّذي فَضُلْتَ بهِ النَاسَ، وذلكَ أَنَّهُ كانَ أَعْلَمَ بني إسرائيلَ بالتَّوراةِ، وقيلَ: هو عِلْمُ الكيمياء(٣)،

(١) قاله السدي وأبو رزين. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٢٦٦.
(٢) حكاه الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ١٧٧.
(٣) قاله سعيد بن المسيّب. راجع تفسير البغوي: ج ٣ ص ٤٥٥.

وقيلَ: عَلَّمَ اللهُ تعالىٰ موسىٰ عليه السلام عِلْمَ الكيمياء فعلَّمَهُ موسىٰ أُختَهُ فَعَلَّمَتْه أُختُهُ قارونَ(١)، وقالَ: ﴿عِندِىٓ﴾ معناهُ: في ظَنِّي كَمَا يقُولُ: الأَمرُ عندِي كَذَا، أي: هُو في ظَنِّي ورَأْيِي هكَذَا ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ في جُملَةِ ما عندَهُ من العِلْمِ وقَرَأَهُ في التَوراةِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ مَنْ هُو أَقوىٰ منهُ فَلَا يَغْتَرَّ بكثرةِ مالِهِ وقُوَّتِهِ، ويَجُوزُ أن يكونَ نَفْياً لِعِلْمِهِ بذلكَ ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للمَالِ، أَو: أكثرُ جَمَاعةً وعَدَداً ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ بَلْ يَدخُلُونَ النَّارَ بغيرِ حِسَابٍ. ﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾ التي كَانَ يَتَزيَّنَ بهَا، وهوَ حَشَمُهُ وخَيْلُهُ، والحَظُّ والجَدُّ: البَخْتُ والدَّولةُ.

وَيْلَكَ: أَصْلُهُ الدُّعاءُ بالهَلاكِ، ثم اُستُعمِلَ في الزَّجْرِ والرَّدْعِ والبَعْثِ علىٰ تَركِ مَا لَا يُرتَضىٰ، والضَّميرُ في ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ للكَلِمةِ التي تَكَلَّمَ بها العُلماءُ، أو للثَّوابِ لأَنَّهُ في معنَى المثُوبةِ. ﴿مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ من المُنْتَقمينَ من موسىٰ، أو مِن المُمتَنعينَ من عَذَابِ اللهِ، يُقالُ: نَصَرَهُ من عدوِّه فانتَصَرَ، أي: مَنَعه منْهُ فامتَنَعَ.

أَرادَ ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ الوَقْتَ القَرِيبَ علىٰ طَرِيقِ الاستعارةِ، والمَكَانُ: المَنْزِلةُ ﴿وَىْ﴾ مَفصُولَة مِن ﴿كَأَنَّ﴾ وهي كلِمَةُ تنبُّهٍ علَى الخطَأ وتَندُّمٍ، والمعنىٰ: أَنَّ القَومَ تنبَّهُوا علىٰ خَطَئِهِم في تمنِّيهِم منزلةَ قَارونَ وتَندَّمُوا، ثمَّ قَالُوا: كأَنَّ اللهَ، أي: ما أَشْبَهَ الحَال بأنَّ اللهَ يَبسطُ الرزقَ لِمَن يشاءُ لَا لِكَرامَةٍ ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يُضيِّقُ علىٰ مَن يَشاء لا لِهَوانٍ، لكِنْ بحَسبِ المَصْلَحةِ، ما أَشْبَه الحَال بأنَّ الكافرينَ لا يَنَالُونَ الفَلاح. وعندَ الكُوفيِّين أنَّ «وَيْكَ» بمعنىٰ «ويلَكَ»، وأنّ المعنىٰ: أَلَمْ تَعْلَم أَنَّهُ ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ويجوزُ أن يكُونَ الكَافُ كَافَ الخِطَابِ قَد ضُمَّتْ إلىٰ «وَيْ»، كَقَولِهِ:

وَيْكَ عَنْتَرَ أَقْدِمِ(٢)

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٣١.

(٢) وتمام البيت:

←

و«أنَّه» بمعنىٰ «لأنَّه»، واللّامُ للبَيَانِ الّذي قِيلَ لأجْلِهِ هذا القَولُ، أو: لأنَّه يَفلحُ الكَافِرونَ كانَ ذلكَ، وهو الخَسْفُ بقَارونَ، وقرئ: «لَخُسِفَ بِنَا»[١] وفيهِ ضَميرٌ للهِ.

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَآ وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٨٤) إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَـٰفِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَـهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴾

﴿تِلْكَ﴾ تعظِيمٌ للدَارِ وتَفْخِيمٌ لَهَا، أي: تلكَ التي بَلَغكَ صِفَتُهَا. عَلَّقَ الوَعْدَ بتَرْكِ إرادةِ العُلُوِّ والفَسادِ، ولَمْ يقلْ: لا يعلُونَ ولا يَفسدُونَ، كَمَا عَلَّقَ الوَعيدَ بالرُّكـونِ في قَولِهِ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾[٢].

ورُوِيَ عن أميرالمُؤمنينَعليه السلام أنَّهُ قَالَ: «الرجلُ لَيُعجِبَهُ أَن يكونَ شِرَاكُ نَـعْلِهِ أَجْودُ من شِرَاكِ نَعْلِ صَاحِبِه فيدخُلُ تحتَها»[٣].

وعن الفُضَيلِ أنَّهُ قَرَأَها ثمَّ قَـالَ: ذَهَـبَتِ الأمـانيُّ هَـاهُنا[٤]، ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ﴾ الحَمِيدةُ لِلّذِينَ اتَّقَوْا مَعَاصِيَ اللهِ.

← ولقـد شَـفَى نـفسي وأبـرأ سُـقْمها قيلُ الفَـوارس: ويك عـنتر أقـدم

وهو من معلّقته المشهورة. راجع ديوان عنترة: ص ١٨.

(١) وهي قراءة الجمهور إلّا حفصاً. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٤٩٥.

(٢) هود: ١١٣.

(٣) رواه الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ١١٥.

(٤) حكاه عنه الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص ٤٣٥.

المعنىٰ: فَلَا يُجزَوْنَ، فَوُضِعَ الظَّاهرُ مَوضعَ الضَّميرِ، لأنَّ في إسْنادِ السيِّئاتِ إليهِم مُكرَّراً زِيادةَ تَهجيرٍ لَهُم.

﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرءانَ﴾ أَي: أَوْجَبَ عليكَ تِلاوَتَهُ وتَبليغَهُ والعَمَلَ بمَا فيهِ يُثيبكَ عليهِ ثَواباً لا يُحاطُ بِكُنْهِهِ، و﴿لَرَآدُّكَ﴾ بعدَ المَوتِ ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أيِّ مَعَادٍ، وإلىٰ مَعَادٍ ليسَ لغَيرِكَ من الخَلْقِ، ونكَّر المَعَادَ لذلكَ، وقيلَ: أَرادَ بالمَعَادِ مكَّةَ فردَّهُ إليهَا يَومَ الفتح[1]. وَوَجْهُ تَنكيرِهِ أَن كانَ مَعَاداً لَهُ ذِكْرٌ عَالٍ وشَأنٌ جَليلٌ، ظَهَرَ عِزُّ الإسلامِ وأهلِهِ بِهِ، وقيلَ: نَزَلَتْ عَليهِ حينَ بَلَغَ الجُحْفَةَ في مَهَاجِرِهِ وقَد اشتاقَ إلىٰ مكَّة[2]. ولَمَّا وَعدَهُ الرَّدَّ إلىٰ مَعَادٍ قَالَ: قُلْ للمُشركينَ: ﴿رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَنْ جَآءَ بِالْهُدَىٰ﴾ يَعني: نَفسَهُ وما يستَحِقُّهُ من الثَوابِ في مَعَادِهِ ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يَعنِهُم وما يَستَحِقُّونَهُ من العِقَابِ في مَعَادِهِم.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ بمعنىٰ «لكن» للاستدراكِ، أي: ولكن لِرَحمةٍ من رَبِّكَ أُلْقِيَ إليكَ، وقيلَ: هو مَحمُولٌ علَى المعنىٰ والتَقْديرُ: وما أُلْقِيَ إليكَ الكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً[3]. ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي: بَعدَ وَقْتِ إنْزالِهِ إليكَ. وقَولُهُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ وما بَعْدَهُ من بَابِ التَهيُّجِ الذي سَبَقَ ذِكْرُه.

وعن ابنِ عباسٍ: أنَّ أكثَرَ القُرآن: إيَّاكِ أَعْني فاسمَعِي يَا جَارَة.

و﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ﴾ أي: فَانٍ بَائدٌ ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ إلَّا ذَاتَه.

۞ ۞ ۞

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وأبو الحجّاج، راجع تفسير الطبري: ج ١٠ ص ١١٧ ـ ١١٨.
(٢) قاله الضحاك. راجع تفسير ابن كثير: ج ٣ ص ٣٨٨.
(٣) قاله الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٣٦.

سورةُ العَنْكبُوتِ

مَكيّةٌ[1] وقيلَ: مدنيَّة، وهي تسعٌ وستُّون آيةً ﴿الٓمٓ﴾ كُوفيٌّ، ﴿مُخْلِصِينَ لَـهُ الدِّين﴾[2] بصريٌّ.

وفي حَديثِ أُبيٍّ: «مَنْ قَرَأَ سُورةَ العَنكبُوتِ كَانَ لهُ من الأَجرِ عَشْرُ حَسَناتٍ بعَدَدِ المُؤْمنينَ والمنَافِقينَ»[3].

ورَوىٰ أبو بَصيرٍ عن الصَادقِ عليه السلام قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورتَيْ العَـنكبُوتِ والرُّومِ في شَهْرِ رَمَضَان في ليلةِ ثَلاثٍ وعشرينَ فَهُو واللهِ ـ يا أَبَا مُحمد ـ من أَهلِ الجَنَّةِ، لا أَستَثْني فيهِ أَبَداً، ولا أَخَافُ أَن يكتُبَ اللهُ عَلَيَّ في يَـميني إِثْـماً، وإنَّ لِـهاتَيْنِ السُورتَيْنِ مِنَ اللهِ مَكَاناً»[4].

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ج ٨ ص ١٨٥: قال قوم: هي مكّية، وقال قـتادة: العشـر الأوّل مدني والباقي مكي، وقال مجاهد: هي مكّية، وهي تسع وستّون آيةً بلا خلاف فـي جملتها، وفي تفصيلها خلاف.

وفي الكشّاف: ج ٣ ص ٤٣٨: مكية إلّا من آية ١ إلى غاية آية ١١ فمدنية، وآياتها ٦٩ نزلت بعد الروم.

(٢) الآية: ٦٥.

(٣) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٦٥ مرسلاً.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص ١٣٦.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ (١) أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٥) وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٧) ﴾

الْحُسْبَانُ إِنَّمَا يتعلَّقُ بمَضامينَ الجُمَلِ، وتَقديرُ الكَلامِ هُنا: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوٓاْ﴾ غيرَ مفتُونينَ لأَن ﴿يَقُولُواْ ءامَنَّا﴾، وكَانَ التقديرُ قبلَ المَجيء بالحُسْبَان: تَرْكَهُمْ غيرَ مفتُونينَ لقولِهِم: «آمنّا» على الابتداءِ والخَبَرِ، و«غير مفتُونينَ» من تَتمَّةِ التَّرْكِ، لأَنَّه من التَّرْكِ الَّذي هو بمعنَى التَّصْيير، كَمَا في قَولِ عنترة:

فَتَركْتُه جَزَرَ السِّباعِ يَنُشْنَهُ يَقْضِمْنَ حُسْنَ بَنَانِهِ وَالْمِعْصَمِ(١)

وهذا كما تقُولُ: خُروجُه لمخَافةِ الشرِّ، فَصَحَّ أَن يَقَعَ خَبَرَ مبتدأ وإنْ كَانَ علَّةً، وتَقُولُ: حَسبتُ خروجَهُ لمخَافةِ الشرِّ، فَتَجعلُهُما مفعُولَيْنِ كَمَا جَعلْتَهُما مبتدأً وخبراً.

﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ أي: لا يُمْتحنُونَ بشَدائِدِ التَّكليفِ من مفَارقةِ الأَوطانِ ومُجاهَدةِ الأعداءِ، ولا يُصابونَ بمَصَائبِ الدُنيا ومِحَنِها، بل يَبتَليهُم الله بضروبِ المكارهِ

---

(١) البيت من معلّقته المشهورة. ويروى البيت:

فَتركْتَ جزر السباعِ يُنشنُه ما بين قُلّة رأسِهِ والمعصَمِ

راجع ديوانه: ص ١٦.

حتّىٰ يبلوَ صَبرَهُم وصحّةَ ضَمائرِهِم، وليميِّزَ المُخْلِصَ من غيرِ المخلِصِ، والرَّاسِخَ في الدِّينِ من المُضْطَرِبِ فيهِ. ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: أَتباع الأنبياءِ قَبلهم فَقَد أَصَابَهُم من الفِتَنِ بالفَرائضِ التي افتُرضتْ عليهِم أو بالشَّدائِدِ والمِحَن.

وجَاءَ في الحديث: «قد كانَ من قبلِكُم يُؤْخَذُ فيُوضَعُ المنشارُ علىٰ رأسِهِ فيُفرَقُ فِرقَتَيْنِ ما يَصرِفُهُ ذلكَ عن دينِهِ، ويُمشَطُ بأَمْشَاطِ الحَديدِ ما دُونَ عظمِهِ من لَحْمٍ وعَصَبٍ ما يَصرِفُهُ ذلكَ عن دينِهِ»[١].

و﴿لَيَعْلَمَنَّ اللهُ﴾ بالامتحانِ ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في الإِيمانِ ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ﴾ فيه، ولَمْ يَزَلْ عزَّ وعَلَا عَالِماً بذلكَ ولكنَّهُ لا يعلمه موجُوداً إلَّا إذا وُجِدَ، والمعنىٰ: وليُميِّزنَّ الصَّادقَ من الكاذِبِ، ورووا عن عليٍّ عليه السلام: فَلَيُعْلِمَنَّ وَلَيُعْلِمَنَّ[٢]، من الإِعْلامِ أي: وليُعَرِّفَنَّهُم اللهُ النَّاسَ مَن هُم، أو: لَيَسِمَنَّهُمْ بِسِمَةٍ يُعرَفُونَ بها من بَيَاضِ الوجوهِ وسَوادِهَا.

ورُوِيَ: أنَّ العباسَ جاءَ إلىٰ عليٍّ عليه السلام فَقالَ لَه: إمْشِ حتَّىٰ يُبايعَ لكَ النَّاسُ، فقَالَ: أَتراهُم فَاعِلينَ؟ قَالَ: نَعم، قَالَ: فأينَ قولُ اللهِ عزَّوجلَّ: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ الآيات[٣]؟

﴿أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ أي: يفوتُونَا، يعني: أنَّ الجزَاءَ يَلْحَقُهُم، مثلُ قَولِهِ: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾[٤]، و﴿أَمْ﴾ منقطعةٌ، ومعنَى الإِضْراب فيها أنَّ هذا الحُسْبانَ أبطلَ من الحُسْبان الأولِ، لأنَّ ذلكَ يقدر أنَّه لا يُمتَحَنُ لإِيمانِهِ، وهذا يظنُّ أنَّه لا يُجَازَىٰ بكُفْرِهِ وعصْيانِهِ ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بِئْسَ الذي يحكمونَهُ حُكْمُهُم هذا،

(١) رواه البخاري في الصحيح: ج ٩ ص ٢٥ من كتاب الإكراه عن خباب بن الأرتّ.
(٢) رواه ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ١١٥.
(٣) رواه القمي علي بن ابراهيم في تفسيره: ج ٢ ص ١٤٨.
(٤) الزمر: ٥١.

أو بئسَ حُكْماً يحكمونهُ حُكْمُهم هذا، فحُذِفَ المخصُوصُ بالذَّمّ.

﴿لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ مَثَلٌ للوصُولِ إلَى العَاقِبَةِ من لقَاءِ الجَزَاءِ والبَعْثِ والحسَابِ، مُثِّلَتْ تلك الحَالُ بحالِ عَبْدٍ قَدِمَ علىٰ سيِّدِهِ بعد عَهْدٍ بعيدٍ وقد اطَّلَعَ سيِّدُهُ علىٰ أحوالِهِ، فَتَلَقَّاهُ ببُشرٍ وتَرحيبٍ أو تَقْطِيبٍ لمَّا رَضِيَ أو سَخَطَ من أفعالِهِ، فالمعنىٰ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ تلكَ الحالَ وأَن يلقَىٰ فيها الكَرَامَةَ من اللهِ والبُشرَىٰ ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ وهو الموتُ ﴿لَأَتٍ﴾ لا مَحَالةَ، فليبادرْ بالعَمَلِ الصالحِ، والَّذي يُحقِّقُ رَجَاءَهُ ويقرِّبُهُ إلى الله، وقيلَ: يرجُو: يَخَافُ[١].

﴿وَمَن جَـٰهَدَ﴾ أعداءَ الدينِ لإِحْيائِهِ، وجَاهَدَ نفسَهُ التي هي أَعْدىٰ أعدائِهِ ﴿فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ﴾ لأَجْلِ نَفْسِهِ، فَإِنَّ المنفعةَ عائِدةٌ إليها، فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ولا يَحتَاجُ إلىٰ طَاعَتِهم، وإنَّما يأْمُرُهُم ويَنْهاهُم لمنفَعتِهِم.

﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ التي اقترفُوهَا قبلَ ذلكَ، ولَنُبطلَنَّها حتَّىٰ يَصيرَ كأنَّهم لَم يعملُوها ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ بحَسَنَاتِهِم التي كانُوا يعملُونَها.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَ ٰلِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ (٩) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ (١١) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ

---

(١) قاله ابن جبير والسدي. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٢٧٧.

وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (١٣)﴾

أي: أَمَرْنَا الإنسانَ بأَن يَفعلَ ﴿بِوَٰلِدَيْهِ حُسْناً﴾ أَو بإِيْلاءِ والدَيْهِ حُسْناً، أي: فِعْلاً ذا حسن، يُقالُ: وَصَّيتَهُ بأن يَفْعلَ شيئاً وأَمَرتَهُ به، بمعنىٰ: ﴿وإنْ جَـٰهَدَاكَ﴾ أَبَواكَ ﴿لِتُشرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ما لا عِلْمٌ لكَ بـإِلهيّتِهِ وَحَـمَلاكَ عـليه ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ في الشِّركِ، والمُرادُ بنَفْيِ العلْمِ نَفيُ المَعلومِ، كأَنَّه قالَ: لِتُشركَ بي شيئاً لا يصحّ أن يكونَ إلَهاً، نبَّهَ بذلكَ سبحانَه علىٰ أنَّ كلَّ حقٍّ وإنْ عَظُمَ سَاقطٌ إذا جاءَ حقُّ اللهِ، فإنَّه لا طَاعةَ لمخلُوقٍ في مَعصيةِ الخَالقِ. ثم قال: ﴿إِلَيَّ﴾ مَـرجِـعُ المُؤمنِ والمُشركِ منكُم فَأُجازيكُم علىٰ حَسبِ ٱستحقَاقِكُم. ﴿فِى الصَّـٰلِحِينَ﴾ أي: في جُملَتِهِم وزُمرَتِهِم في الجنَّةِ.

﴿مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ﴾ أي: يؤمنُونَ بأَلسنَتِهِم، فإذا أَصَابَهُم أذىً من الكـفّارِ ﴿فِى ٱللهِ﴾ أي: في ذاتِ اللهِ وبسَببِ دينِ اللهِ، رَجعَ عن الدينِ، وهو المُرادُ بفتنةِ الناسِ، يعني: يَصرفُهُم مَا مَسَّهُم من أَذَاهم عن الإيمانِ كَمَا أنَّ عذابَ اللهِ يصرفُ المؤمنينَ عن الكُفرِ، وَإذَا ﴿جَآءَ نَصْرٌ﴾ من اللهِ للمؤمنينَ ودَولةٌ لَهُم علَى الكافرينَ قَالُوا: ﴿إنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: متابعينَ لكُم في دينِكُم فأَعْطُونا نَصيبَنَا من الغَنيمةِ، ثم أَخبَرَ سبحانَه بأنَّهُ: ﴿أَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ومن ذلكَ ما يخفيهِ صُدُورُ هؤلاءِ من النِّفاقِ. ثم وَعَدَ المؤمنينَ وأَوعدَ المنافقينَ.

أَمَرَ الكفَّارُ أهلَ الإيمانِ باتِّباعِ سَبيلِهِم وطَريقَتِهِم التي كانُوا عـليها، وأَمَـروا نفُوسَهُم بحَمْلِ خطَاياهم، فَعَطَفَ الأمرَ علَى الأمرِ، وأرادُوا: ليجتَمعَ هذانِ الأمرانِ في الحصُولِ: أَنْ تَتَّبعوا سَبيلَنا وأَن نَحْمِلَ خَـطَايَاكُـم، والمـعنىٰ: تَـعليقُ الحَـمْلِ بالاتِّباعِ، والمُرادُ ما كانَ قريشٌ تَقُوله لِمَن آمنَ منهُم: لا بَعْثَ ولا نُشُورٌ، ولو كانَ ذلكَ فإنَّا نَتحمَّلُ آثَامَكُم. ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ﴾ أثـقالَ أَنـفُسِهِم ﴿وَأَثْـقَالاً﴾ أُخَـرَ ﴿مَعَ

أَثقالِهِمْ﴾ وهي أثقالُ الذينَ كانُوا سَبَباً في آثـامِهِم ﴿وَلَيُسْئَلُنَّ﴾ سؤالَ تـقْريعٍ وتَعْنيفٍ ﴿عَمَّا كَانُواْ﴾ يَخْتلقُونَه من الأباطيل.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ (١٥) وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) ﴾

﴿الطُّوفَانُ﴾ ما أطافَ وأحاطَ بكَثْرةٍ وغَلبَةٍ. والضَّميرُ في ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا﴾ للسفينةِ أو للقصَّةِ. و«إبراهيم» عَطفٌ على «نوح»، و﴿إِذْ قَالَ﴾ ظَرفٌ لـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أي: أَرسَلْنَاهُ حينَ بَلَغَ السِّنِ التي صلَحَ فيها لأَن يَعِظَ قَومَه ويَعرضَ عَليهم الإيمانَ، ويأمُرَهُم بالعبَادةِ والتقوىٰ ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وإنْ كانَ فيكُم عِلْمٌ بمَا هُو خيرٌ لكم ممَّا هو شرٌّ لكم، وإنْ نَظرتُم بِعَينِ البصيرةِ عَلِمْتُم أنَّه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

أي: وتَختَلقُونَ ﴿إِفْكاً﴾ بتسميَتِكُم الأوثانَ شُركاءَ للهِ وآلهةً أو شُفعاءَ عند اللهِ، وقيلَ: معناهُ: وتَصنَعُونَ أَصناماً بأيديكُم سَمَّاها إِفكاً، ونَحتَهُمْ لها خَلْقاً للإِفْكِ[1] ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ أن يَرزقُوكُم شيئاً من الرزقِ فاطْلُبُوا ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ كلَّه، فإنَّه هو الرَّازقُ ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فاستَعِدُّوا للقائِهِ بعبادتِهِ ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُ﴾ علىٰ نِعَمِهِ.

---

(١) قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة. راجع تفسير ابن كثير: ج ٣ ص ٣٩٣.

﴿وَإِنْ﴾ تُكَذِّبُونِي فَلَا تَضرُّوني بتَكذيبِكُم ﴿فَقَدْ كَذَّبَـ﴾ ـتِ الأُمَمُ رُسُلَهُم ولَمْ يضرُّوهُم بالتَّكذيبِ بَلْ ضَرُّوا أنفسَهُم، إذْ حَلَّ بِهِم مَا حَلَّ بسببِ ذلكَ، و﴿ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ الذي يَزُولُ مَعَهُ الشَّكُّ لاقترانِهِ بالمعجزاتِ.

وهذه الآيةُ والآياتُ التي بَعدَها إلىٰ قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ يحتملُ أن يكونَ من جُملةِ قَولِ إبراهيمَ لقومِهِ، وأَن تكونَ آياتٌ وَقَعَتْ معترضةً في شأنِ نبيِّ الله ﷺ وشأنِ قُريشٍ بين أوَّلِ قصَّةِ إبراهيمَ وآخرِها، علىٰ معنىٰ: أنَّكم يا معشرَ قُريشٍ إنْ تُكذِّبُوا محمداً ﷺ فقَد كذَّبَ إبراهيمَ قومُهُ، وكَذَّبتْ كلُّ أُمَّةٍ نبيَّها. وكذلكَ الآياتُ التَابعةُ لَها لأنَّها نَاطقةٌ بدلائلِ التَّوحيدِ ووَصْفِ قُدرةِ اللهِ وإيضاحِ حُجَجِهِ.

وقُرئَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ بالتاءِ[1] والياءِ. وقَولُهُ: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إخبارٌ بالإعادةِ بعدَ المَوتِ غَير معطوفٍ علىٰ ﴿يُبْدِئُ﴾، ولَمْ تَقَعِ الرُّؤيةُ عليهِ كَمَا وَقَعَ النَظَرُ بعدَهُ علَى البَدْءِ دونَ الإنشاءِ في قولِهِ: ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ معنَى الإعادةِ في ﴿يُعِيدُهُ﴾.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ

---

(١) قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٤٩٨.

ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ (٢٥)﴾

﴿النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ يدُلُّ علىٰ أنَّهما نَشْأَتان، كلُّ واحدةٍ منهُما ابتداءٌ وإخراجٌ من العَدَمِ إلَى الوجُودِ، ولا فَرق بينَهما إلَّا أنَّ الثانيةَ إنشاءٌ بعد إنشاءِ مثلِهِ، والأُولىٰ لَيستْ كذلكَ. وقُرِئَ: «النَّشاءة»[١] و﴿النَّشأة﴾ كالرَّآفةِ والرَّأفةِ. والمعنىٰ: ثمَّ اللهُ الذي أَنشأَ النَشأةَ الأُولىٰ هو الذي يُنشِئُ النشأةَ الآخِرةَ، وللتَنْبيهِ علىٰ هذا المعنىٰ أَظْهَرَ اسمَهُ ولَمْ يقلْ: ثمَّ ينشئ. ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تَعذيبَهُ ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ رَحمتَهُ ﴿وَإِلَيْهِ﴾ تُردُّونَ وتُرجَعُونَ.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ربَّكُم، أي: لا تَفُوتُونَه إنْ هَربْتُم من حُكْمِهِ في الأرضِ العَريضَةِ البَسيطَةِ ولا في السَّماءِ التي هي أفسحُ مِنْها لَو كُنتُم فيهَا، أو: لا تُعجِزُونَ أَمرَهُ الجَاري ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وَالأرضِ أَن يَجرِي عليكُم فَيُصِيبُكُم بِبَلاءٍ يَظهَرُ من الأَرضِ أَو يَنْزِلُ من السَمَاءِ.

عن قُتادةَ: أنَّ اللهَ ذَمَّ قَوماً هانُوا عليه فَقَالَ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى﴾ وَقَالَ: ﴿لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ فَينْبغِي للمؤمنِ أَن لا ييأَسَ مِن رَوحِ اللهِ ولا مِن رَحْمتِهِ وَلَا يأْمنَ عِقَابَهُ، وَصِفَةُ المؤمنِ أَن يكونَ راجِياً للهِ خَائِفاً[٢].

﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ قُرِئَتْ منصُوبةً بغَيرِ إضَافةٍ وبإضَافةٍ، ومرفُوعةً كذلك[٣].

---

(١) قرأه ابن كثير وأبو عمرو بالمدّ في القرآن كلّه. راجع المصدر السابق.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٥٠.

(٣) قرأ حمزة وحفص عن عاصم بالنصب مع الاضافة، ونافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بالنصب منوناً بغير إضافة، وابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالرفع مع الإضافة، والأعشىٰ عن أبي بكر عن عاصم بالرفع منوناً بغير إضافة. راجع كتاب السبعة: ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩.

والنَّصبُ علىٰ وجهينِ: علَى التَّعليلِ، أي: لِتَتَوادُّوا بينكُم وتَتَواصلُوا لاتفاقِكُم علىٰ عبَادتِها كَمَا يتَّفقُ الناسُ علىٰ مَذْهبٍ واحدٍ فيكونُ ذلكَ سَبَبَ تَوادِّهِم، وعلىٰ أن يكونَ مفعُولاً ثانياً، أي: اتَّخَذْتُم الأوثانَ سَبَبَ المودَّةِ بينكُم، علىٰ تَقْديرِ حَذْفِ المُضافِ، أو: اتَّخَذْتُمُوها مودَّةً يَعني: مودودةً بينكُم كقَولِهِ: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾[1]. والرَّفعُ علىٰ وَجْهينِ أيضاً: أَن يكونَ خَبَراً لـ«إنَّ» علىٰ أَن تكُونَ «مَا» موصُولةً، وأَن يكونَ خَبَرَ مُبتَدأ مَحذُوف، والمعنىٰ: أنَّ الأوثانَ مودَّةٌ بينكُم، أي: سَبَبُ مودَّةٍ أو مُودودةٌ، يَعني: إنَّما تَتَوادُّون عليها أو تُودُّونَها ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ تَتَباغضُونَ وتَتَلاعنُون، تَتَبرَّأُ القَادةُ مِن الأَتْباعِ ﴿وَيَلْعَنُ﴾ الأتباعُ القَادةَ.

﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (٢٧) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ (٣٠) ﴾

﴿لُوطٌ﴾ أوَّلُ مَن صَدَّقَ بإبراهِيمَ، وهو ٱبنُ أُختِهِ ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيمُ ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ﴾ مِن كوثىٰ ـ وهو مِن سَوادِ الكُوفةِ ـ إلىٰ حرَّان من أَرضِ الشَامِ، ثمَّ منها إلىٰ فلسطينَ، وكَانَ مَعَهُ في هجرتِهِ لُوطٌ وامرأَتُهُ سَارةُ وهاجَرُ ﴿إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ حيثُ أَمَرني ربِّي بالهجْرةِ إليهِ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي يَمنَعُني من أَعْدائِي ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾

(١) البقرة: ١٦٥.

الذي لا يأمُرُني إلّا بمَا فيه مَصْلَحتي. و﴿أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ هو الذِّكْرُ الحَسَن، والصَّلاةُ عليه إلىٰ آخر الدهرِ، والذُّرِّيةُ الطَّيّبةُ، وأنَّ أَهلَ المِللِ كُلَّهُم يَتولَّونَه.

﴿وَلُوطاً﴾ عَطْفٌ علىٰ ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ أو علىٰ مَا عطف عليهِ، و﴿ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾ مُفسَّرةٌ بقولِهِ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾. وقُرِئ: «إِنَّكم» بغيرِ الاستفهامِ في الأَولِ دونَ الثاني، وقَطْعُ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ عَمَلُ قُطَّاعِ الطَريقِ مِن قَتْلِ الأَنفُسِ وأَخْذِ الأَموال، وقيلَ: هُو قَطْعُهُم الناس عن الأَسفَارِ بإتْيانِ هذه الفَاحِشَة بالمجتَازينَ في ديَارِهِم[1]، وعن الحَسَنِ: هُو قَطْعُ النَّسْلِ باختيارِ الرِجَالِ علَى النِّساءِ[2]، و﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ هو الحذْفُ بالحَصَا، فَأَيُّهُم أَصَابَه ينكحُونَه، والصَّفْعُ وضَرْبُ المعَازِفِ والقِمَارُ والسُّبابُ والفحشُ في المُزَاحِ، وقيلَ: كانُوا يَتَحابقُون[3]، وقيلَ: المُجَاهرةُ في نَادِيهِمْ بذلكَ العَمَلِ وكلّ معصيةٍ، فإظْهارُها أَقْبحُ مِن سرِّها[4].

وفي الحَديثِ: «مَن أَلقىٰ جِلْبابَ الحَياءِ فَلَا غيبةَ لَه»[5].

والنّادي: مُجتمعُ القَومِ، فإذا تَفرَّقُوا عنه لا يكونُ نَادِياً ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ فيمَا وَعدْتَنا من نُزولِ العَذَابِ.

﴿ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الذين يُفسِدونَ الناسَ بحَمْلِهِم علىٰ ما كانُوا عليه من الفَاحِشَةِ طَوْعاً وكَرْهاً، وبابتداعِهِم إيَّاها، وبأَن سَنُّوها لِمَن بَعدَهُم.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ

---

(١) حكاه ابن شجرة كما في تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٢٨٢.

(٢) حكاه عنه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٥٢.

(٣) وهو قول عائشة: راجع المصدر السابق.

(٤) حكاه الزمخشري في الكشاف. انظر المصدر نفسه.

(٥) المصدر السابق.

بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٣٢) وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ (٣٧) وَعَاداً وَثَمُوداْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)﴾

﴿مُهْلِكُواْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ إضَافةُ تَخفيفٍ لا إضَافةُ تَعريفٍ، ومعناهُ الاستقبالُ، و﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾ هي سَدُومُ التي قيلَ فيها: «أَجْوَرُ من قَاضي سَدوم» ﴿كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ استَمَرَّ بِهِم فِعْلُ الظُّلْمِ فِي الأيَّامِ السَالفةِ وأَصَرُّوا عليه.

وقرئ: ﴿لَنُنَجِيَنَّهُ﴾ و﴿مُنَجُّوك﴾ بالتَشْديدِ والتَخفيف[1]. ﴿ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ أي: ضَاقَ بشأْنِهم وتَدبيرِهِم ذَرْعُهُ أي: طاقَتُهُ، جَعَلُوا ضيقَ الذِّراعِ والذَّرعِ عبارةً عن فَقْدِ الطَاقَةِ، كَمَا قالُوا: رَحْبُ الذِّراعِ إذا كَانَ مطيقاً.

والرِّجْزُ والرِّجْسُ: العَذَابُ، من قولِهِم: إرتَجَزَ وٱرتَجَسَ: إذا ٱضطَرَبَ لِمَا يَلْحَقُ المُعذَّبُ من القَلَقِ والاضطرابِ. والآيَةُ البيِّنَةُ: آثارُ مَنَازِلِهِم المخرَّبَةِ، وقيلَ: الماءُ الأسودُ علىٰ وَجْهِ الأرضِ[2] ﴿لِقَوْمٍ﴾ يَتَعلَّقُ بـ﴿تَرَكْنَا﴾ أو بـ﴿بَيِّنَة﴾.

---

(١) قرأ ابن كثير وعاصم برواية ابي بكر بتشديد الحرف الأول وتخفيف الثاني، ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم برواية حفص بتشديد الحرفين، وحمزة والكسائي بتخفيفهما. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٥٠٠.

(٢) قاله مجاهد. راجع تفسير القرطبي: ج ١٣ ص ٣٤٣.

﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلآخِرَ﴾ إفعلُوا ما تَرجُونَ منهُ العاقبةَ، فأُقيمَ المسبَّبُ مقامَ السَّببِ، أي: وارجوا ثوابَ اليومِ الآخر بفعل الإيمانِ والطَّاعاتِ، وقيلَ: هو من الرَّجاءِ بمعنَى الخوفِ[1]. ﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزّلزلةُ الشّديدةُ، وقيلَ: هي صَيحةُ جبرائيل[2]، لأنَّ القُلوبَ رَجفَتْ لَها ﴿فِى دَارِهِمْ﴾ في بَلدِهِم وأرضِهِم، واكتفى بالواحدِ والمرادُ: في ديارِهِم لأنّهُ لا يُلتبَسُ ﴿جَٰثِمِينَ﴾ بارِكينَ عَلَى الرُّكَبِ ميِّتينَ.

﴿وَ﴾ أهْلَكْنَا ﴿عَاداً وَثَمُوداْ﴾ ويَدُلُّ عليهِ قولُهُ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجفَةُ﴾ لأنَّه في معنَى الإهْلاكِ ﴿وَقَدْ تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ يعني: مَا وَصَفَهُ من إهْلاكِهِم من جهةِ ﴿مَسَٰكِنِهِمْ﴾ إذا نَظَرتُمْ إليهَا عند مُرورِكُم بهَا ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ عُقَلاء مُتمكِّنينَ من النَظَرِ ولَم يفعَلُوا، أو: كانُوا مُتبيِّنينَ أنَّ العَذابَ نَازِلٌ بِهِم.

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِالبَيِّنَٰتِ فَاسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ (٣٩) فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خسفنا بِهِ ٱلأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُم يَظْلِمُونَ (٤٠) مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ العنكبوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ ٱلأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ (٤٣) خَلَقَ ٱللهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤)﴾

﴿مَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ أي: فَائتينَ اللهَ، أَدركَهُم أمرُ اللهِ فَلَمْ يفوتُوه. «الْحَاصِبُ»

---

(١) قاله يونس النحوي. راجع المصدر السابق.

(٢) قاله الضحاك. راجع الكشاف: ج ٣ ص ٤٥٣.

لِقَومِ لُوطٍ، وهي ريحٌ عَاصِفٌ فيها حَصْبَاءُ، وقيلَ: مَلَكٌ كَانَ يَرميهِم [١]، و«الصَّيْحَةُ» لِمَدْيَنَ وثَمودَ، و«الخَسفُ» لقَارُونَ، و«الغرَقُ» لقَومِ نُوحٍ وفِرعَوْنَ.

شَبَّهَ سبحانَه ما اتَّخذُوهُ مُتَّكلاً في دينِهِم ومُعَوَّلاً عليهِ بمَا هُو مَثَلٌ في الضَّعفِ والوهنِ، وهو نسْجُ ﴿ٱلْعَنكَبُوتِ﴾، والوَليُّ: المتَولِّي للنُّصْرةِ، وهو أَبلَغُ من النَّاصِرِ ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ هذا مَثَلُهم، وأنَّ أمْرَ دينِهِم بَلَغَ هذه الغَايةَ في الضَّعفِ، أو: إذا صَحَّ هذا التَشبيهُ فَقَد تَبيَّنَ أنَّ دينَهُم أَوهَنُ الأديانِ لو كَانُوا يَعلَمُونَ.

وقُرِئَ: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالتاءِ [٢] والياءِ وهذا أَوكَدُ ممَّا تَقَدَّمَهُ إذْ لَم يجعلْ ما يَدعُونَه شَيئاً ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فيه تَجهيلٌ لَهُم حيث عَبَدُوا ما لَيسَ بشيءٍ، وتَرَكُوا عبادةَ القَادِرِ الحَكيمِ. ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي: لا يَعْقَلُ صِحَّةَ ضَرْبِ المَثَلِ بالعنكبوتِ والذُّبابِ وفَائدتَهُ إلَّا العلماءُ باللهِ، فإنَّ الأمثالَ والتَشبُّهاتِ هي الطُّرُقُ إلَى المَعَاني المحتجَبَة في الأَستارِ، تَكْشِفُ عَنْها وتُصوِّرُها للأفهامِ، كَمَا صَوَّرَ هذا التَشْبيهُ الفَرْقَ بين حَالِ المُشْرِكِ وحَالِ المُوحِّدِ.

ورُويَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه تَلَا هذه الآيَةَ فَقَالَ: «العالِمُ الَّذي عَقَلَ عن اللهِ فَعَمَلَ بطَاعتِهِ واجتَنَبَ سَخَطَه» [٣].

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالغَرَضِ الصَحيحِ الَّذي هو حَقٌّ، وهو أَن يكُونَا [٤] مَسَاكن عبادِهِ، وعِبْرةً للمعتَبرينَ، ودلَالةً للموحِّدينَ علىٰ وحدانيَّتِهِ وكَمَالِ قُدرتِهِ.

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٥٤.

(٢) قرأه ابن كثير ونافع وحمزة والكسائي وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ٥٠١.

(٣) رواه ابن حجر في المطالب العالية: ج ٣ ص ٢١٤ ح ٣٢٩٤ عن جابر.

(٤) أي السماء والأرض.

عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ (٤٩)﴾

ٱلصَّلَاةُ لُطْفٌ للمكلَّفِ في تَرْكِ المَعاصي، فَكَأَنَّها ناهيةٌ عَنْها. وعن النبيِّ ﷺ: «مَن لَمْ تَنْهَهُ صَلاتُهُ عن الفَحشاءِ والمُنكرِ لَمْ تَزِدْهُ من اللهِ إلّا بُعْداً»(١).

﴿وَلَذِكْرُ ٱللهِ أَكْبَرُ﴾ والصَلاةُ أكبرُ من غَيرِهَا من الطَّاعَاتِ، وسمَّاها بذكْرِ اللهِ كَمَا قالَ: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ﴾(٢) فكأنَّه قَالَ: الصَلاةُ أَكبرُ لأنَّها ذِكْرُ اللهِ. وعن ابن عباسٍ: وَلَذِكْرُ اللهِ إيَّاكُم بِرَحْمَتِهِ أكبرُ من ذكرِكُم إيَّاهُ بطاعتِهِ(٣) ﴿وَٱللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من الخيرِ والطَّاعَةِ فيثيبكم(٤) عليهِ.

﴿وَلا تُجَـٰدِلُوا﴾ اليهودَ والنَّصارىٰ ﴿إِلَّا﴾ بالخَصْلةِ التي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ وهي مُقابلةُ الخُشُونةِ باللِّينِ كقَولِهِ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾(٥)، وفي هذا دَلالَةٌ علىٰ أنَّ الدُّعاءَ إِلَى اللهِ تعالىٰ يَجبُ أن يكونَ علىٰ أحسَنِ الوجوهِ وأَلْطَفِها ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ فَأَفْرَطُوا في الاعتداءِ والعنادِ، ولَمْ يَنْجحْ فيهِم الرفْقُ

---

(١) المعجم الكبير للطبراني: ج ١١ ص ٤٦ ح ١١٠٢٥.

(٢) الجمعة: ٩.

(٣) تفسير ابن عباس: ص ٣٣٦.

(٤) في نسخة: «فيصيبكم».

(٥) المؤمنون: ٩٦، فصّلت: ٣٤.

واللُطفُ ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ هُوَ من جُملةِ المجادلةِ التي هي أَحْسَنُ.

ومِثْلُ ذلكَ الإنْزالِ ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: أنزلناهُ مُصدِّقاً لسائرِ الكُتُبِ السَمَاويةِ ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هُم عبدُاللهِ بن سَلام وأضرابُه ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: ومن أهلِ مكّةَ، وقيلَ: أرادَ بالّذين آتيناهُم الكِتابَ مَنْ تَقَدَّم عَهْدَ رسولِ اللهِ ﷺ منهم ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مَنْ في عَهْدِهِ مِنهُم[1] ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مع ظُهُورِها ﴿إِلَّا﴾ المصمِّمُونَ علَى الكُفْرِ.

وما كنْتَ تَقْرأ من قَبلِ القُرآن كتاباً، وكنْتَ أُمِّيّاً لم تُعرفْ بِخَطٍّ قط، إذْ لَو كانَ شيءٌ من ذلِكَ أي: مِن التلاوةِ والخَطِّ ﴿لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ من أهلِ الكتابِ وقَالُوا: الذي نَجدُهُ في كُتُبِنا: أُمِّيٌّ لا يَكتبُ ولا يَقرأُ وليس هو به، أو: لارتابَ مشركُو مكّةَ وقَالُوا: لَعلَّهُ تَعَلَّمَهُ أو خَطَّهُ بيدِهِ، بَلِ القُرآن ﴿ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ وهُم النبيُّ والأئمةُ والعُلماءُ الذينَ حفظُوهُ وَوَعَوهُ، ورَسَخَ مَعناهُ في قلوبِهِم. وهذانِ من خَصَائصِ القُرآن: كَونُ آياتُهُ بيِّناتِ الإعجازِ، وكونُهُ محفُوظاً في الصُّدورِ يتلُوهُ حَمَلَتُهُ ظَاهِراً بخلافِ سائرِ الكُتُبِ الإلهيّةِ فإنّها لَمْ تكُنْ مُعجزاتٍ، وما كانَتْ تُقْرأُ إلّا من المَصَاحِف ﴿وَمَا يَجۡحَدُ﴾ بالآياتِ الواضِحَاتِ ﴿إِلَّا﴾ المكَابِرونَ المتوَغّلُونَ في الظُلْم.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٥١) قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِى وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ

(١) حكاه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٥٨.

وَكَفَرُواْ بِاللهِ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ (٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَـٰفِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَـٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) ﴾

وقُرِئ(١): ﴿ءَايَـٰتٌ﴾ أي: هَلَّا أُنزلَ عليهِ مثلُ نَاقَةِ صالح ومائدةِ عيسىٰ ونَحوِ ذلكَ ﴿إِنَّمَا الآيَـٰتُ عِندَ ٱللهِ﴾ يُنزلُ أَيَّتَها شَاءَ، ولو شَاءَ أَن يُنزلَ ما يقترحُونَهُ لأَنْزَلَ ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠﴾ مُنذِرٌ أُنذِرُ بمَا أُعطِيت من الآياتِ، ولَيسَ لي ٱختيارُ الآياتِ علَى اللهِ عزَّ ٱسمُهُ، وَمَعَ عِلْمي بأَنَّ الغَرض منَ الآيةِ ثُبوتُ الدَّلالة، والآياتُ كُلُّها في حُكْمِ آيةٍ واحدةٍ في ذلكَ.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا﴾ القُرآنَ عليكَ وهو المعجزةُ الواضِحةُ، والآيةُ المغْنِيةُ عن سائرِ الآياتِ، يَدُومُ تِلاوتُهُ عليهم في كلِّ مَكانٍ وزَمانٍ، فَلَا يَزال مَعَهُم آيـةً ثابتةً إلىٰ آخر الدهرِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ لَنِعْمَةً عَظِيمَةً وتَذْكِرةً ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً﴾ لي بأنْ قد أَبلَغتُ الرِّسالةَ، وعَلَيكُم بأنْ كذَّبتُم وعاندتُم ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فَهُو مطَّلِعٌ علىٰ أمري وأَمركُم، عالمٌ بحقِّي وبَاطِلِكُم ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالبَاطِلِ﴾ منكُم وهُو ما يَعبدُونَ من دونِ اللهِ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَـٰسِرُونَ﴾ المغبونُونَ في صَفقَتِهم حيثُ ٱشتروا الكُفْرَ بالإيمانِ.

«اسْتِعْجَالُهُمُ الْعَذَابَ»: استهزاءٌ منهُم وتَكذيبٌ، ومنهُ قَولُ النَّضر بن الحارث: «أَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ» ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسمًّى﴾ قَد سَمَّاهُ ٱللهُ، ووَقْتٌ قَدَّرَهُ ٱللهُ أَوجبَتِ الحِكْمةُ تَأخيرَهُ إلىٰ ذلك الوقتِ ﴿لَجَآءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وهو وَقْتُ فَنائِهِم بآجالِهِم، وقيلَ: المُرادُ بالأَجَلِ: الآخرة(٢)، لأَنَّ اللهَ سبحانَه وَعَدَ رسولَهُ عليه السلام أَن

(١) يظهر من عبارة المصنّف رحمه الله أنّه يعتمد هنا علىٰ قراءة المفرد من غير ألف كما لايخفىٰ.

(٢) قاله ابن جبير. راجع تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٢٩٠.

لا يعذِّبَ أُمَّتَه ولا يستأْصِلَهُم، وأَن يؤخِّرَ عذابَهُم إلىٰ يَومِ القيامةِ.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ﴾ بِهِم لأنَّها مَصيرُهم لا مَحالَة، فكَأنَّها أَحاطَتْ بِهِم، أو: ستُحيطُ بِهِم ﴿يَومَ يَغْشَـٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، وعلَى الأولِ ينتَصبُ ﴿يـومَ يَـغْشَـٰهُمُ﴾ بمُضمَرٍ، و﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ كَقَولِهِ: ﴿لَهُمْ مِن جَهَنَّمَ مِـهَادٌ وَمِـن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾[1]، ﴿لَهُمْ مِن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّـارِ وَمِـنْ تَـحْتِهِمْ ظُـلَلٌ﴾[2]، وقُرِئ: ﴿وَيَقُولُ﴾ بالياءِ والنُونِ[3]، أي: ذُوقُوا جَزاءَ أعمالِكُم.

﴿يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰيَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُـمَّ إِلَـيْنَا تُـرْجَعُونَ (٥٧) وَٱلَّـذِينَ ءَامَـنُواْ وَعَـمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ (٥٨) ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّـلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦٠) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِـبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢)﴾

مَعناهُ: إذا لَم يَتَسَهَّلْ لكُم العبادةُ، ولَم تَتَمَشَّ أُمورُ دينِكُم في بـلَدٍ أَنـتم فـيه فَاخرجُوا منهُ إلىٰ بَلَدٍ آخر. وعن الصادقِ عليه السلام: «إذا عُصِيَ اللهُ في أرضٍ أنتَ بهَا فاخرجْ منها إلىٰ غيرِها».

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «مَنْ فَرَّ بدينِهِ من أرضٍ إلىٰ أرضٍ وإنْ كانَ شِبْراً من الأرضِ استوجَبَ الجنَّةَ، وكانَ رَفِيقَ إبراهيمَ ومحمدٍ عليهما السلام»[4].

---

(١) الأعراف: ٤١.
(٢) الزمر: ١٦.
(٣) وبالنون قرأه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. راجع كتاب السبعة في القراءات: ص ٥٠١.
(٤) رواه الزمخشري في الكشّاف: ج ٣ ص ٤٦١.

﴿فَإِيَّىَ فَاعْبُدُونِ﴾ هُو في المتكلِّمِ مثلُ: «إِيَّاهُ ضَربتُهُ» في الغائب، و«إِيَّـاكَ ضَربتُكَ» في المخاطب، والتَقديرُ: فإيَّاي فاعبدُوني. والفَاءُ جَوابُ شَرطٍ محذوفٌ، لأنَّ المعنىٰ: إنَّ أَرضي واسِعَةٌ فإنْ لَم تخلصُوا العبادةَ لي في أَرضٍ فأَخلِصُوها لي في غيرِها، ثم حُذِفَ الشَرطُ وعُوِّضَ من حَذفِهِ تَقديمُ المفعُولِ مع إفادةِ تَقْديمِهِ معنَى الاختصاصِ والإخلاصِ.

ولمَّا أَمَرَ عبادَهُ بالحِرْصِ علَى العبادةِ والإِخلاصِ فيها حتَّىٰ يطلبُوا لَها أَوفَقَ البلادِ عقَّبَهُ بقولِهِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: وَاجِدٌ مرارَتَهُ بأيِّ أَرضٍ كَانَ.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ لَنُنزلنَّهم ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفاً﴾ أي: عـلاليَّ عَـاليات، وقُـرئَ: «لَنُثَوِّيَنَّهُمْ»[1] من الثَّواءِ، يُقالُ: ثَوىٰ في المنزلِ وأَثْوىٰ غَيرَهُ، والوَجهُ في تَعديتِهِ إِلَى الغُرفِ أَن يكونَ الأَصلُ «لنثوِّينَّهم في غُرَفٍ» وحُذِفَ الجَارُّ، أَو أُجريَ مَجرىٰ «لننزلنَّهم»، أو شُبه الظَّرفِ المُؤقَّتِ بالمُبْهَم. ﴿الَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ علىٰ مفَارقَةِ الأَوطانِ لأَجلِ الدِّينِ، وعلَى المِحَنِ والشَّدائدِ، وعلَى الطَـاعَاتِ، وعـن المـعَاصي، ولَـمْ يَتوكَّلُوا إلَّا علىٰ ربِّهم.

ولمَّا أُمِرُوا بالهِجرة من مَكَّةَ خَافُوا الفقرَ والضَّيعةَ وقَالُوا: كَيفَ نَخرجُ إلىٰ بَلدةٍ ليسَ لَنَا فيها مَعيشةٌ؟ فَقيلَ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَآبَّةٍ﴾ والدَّابةُ: كلُّ نَفْسٍ دبَّتْ علىٰ وَجهِ الأرضِ، عَقلَتْ أو لَمْ تَعقلْ ﴿لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تَستطيعُ أَن تَحمِلَهُ لِضَعْفِها ﴿اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: لا يَرزقُ تلكَ الدوابَ إلَّا الله، ولا يَرزقُكم أَيضاً إلَّا هُو، وإنْ كُنتُم تُطيقُونَ حَمْلَ أَرزاقِكُم وكَسْبِها فَلَا تَتركُوا الهِجرَةَ بسببِ الاهـتِمامِ للـرِّزقِ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِقولِكُم: نَخشَى الفقرَ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بِضَمَائِرِكُم.

﴿وَلَئِنْ﴾ سَأَلْتَ هؤلاء المشركينَ مِـن أَهْـلِ مَكَّـةَ ﴿مَـنْ خَـلَقَ السَّـمَـوَاتِ

---

(١) قرأه حمزة والكسائي. راجع التذكرة في القراءات لابن غلبون: ج ٢ ص ٦٠٣.

وَالأَرْضَ﴾؟ لأَقَرُّوا بأنَّه خَالِقُهما ومُسَخِّرُ الشَـمس والقَـمَر ومُسَـيِّرهُما ﴿فَأَنَّـىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيفَ تُصرَفُونَ عن تَوحيدِ ٱللهِ؟

وقَدَّرَ الرزقَ وَقَتَّرَهُ: ضَيَّقَهُ، أي: ويَقْدِرُ لِمَن يَشَـاء، فـوُضِعَ الضَـميرُ مَـوضعَ «مَن يَشَاء».

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِن بَـعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَمَـا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَـوْ كَـانُواْ يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللهَ مُخْلِصِينَ لَـهُ ٱلدِّيـنَ فَـلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ وَلِـيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءَامِناً وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَـنْ أَظْـلَمُ مِـمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُ أَلَيْسَ فِى جَـهَنَّمَ مَـثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ (٦٨) وَٱلَّـذِينَ جَـٰهَدُواْ فِـينَا لَـنَهْدِيَنَّهُمْ سُـبُلَنَا وَإِنَّ ٱللهَ لَـمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلهِ﴾ علىٰ مَا وَفَّقَ من توحيدِه ونفي الأَنْداد عَنْه ﴿بَلْ أَكْـثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ ما يَقولُونَ ومَا فيهِ من الدَّلَالةِ علىٰ بُطْلانِ الشِّركِ وصحَّةِ التَوحيدِ.

﴿هَـٰذِهِ﴾ فِيهَا ٱزدراءٌ لأَمرِ الدُنْيا وتَحقِيرٌ لَهَا، أي: ما هِيَ بسُرعةِ زَوَالِها عن أهلِها إلَّا كَمَا يَلْعبُ الصِّبيانُ سَاعةً ثم يَتَفرَّقُونَ ﴿وَإِنَّ ... الآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: لَيسَ فيهَا إلَّا حَياةٌ دائِمَةٌ لا مَوتَ فيهَا ولا تَـنغِيصٌ، فكَأَنَّـها فـي ذاتِـها حَـياةٌ. والحَيَوَانُ: مَصدَرُ «حَيِيَ»، وأَصلُهُ «حييان» فَقُلِبت الثَّانية واواً، وبِهِ سُمِّي ما فـيهِ حَياةٌ حيوَاناً ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ لَمْ يُؤثِرُوا عَلَيها الحَيَاةَ الفَانيةَ.

واتَّصَلَ قَولُهُ: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ﴾ بمحذُوفٍ دَلَّ عليهِ مَا شَرَحَهُ من أَمرِهِم، والمعنىٰ: أَنَّهُم علىٰ ما وُصِفُوا به من الشِرْكِ والعَنَادِ فإذَا رَكِبُوا في الفُلْكِ ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ كائنينَ في صُورةِ مَن يُخلِصُ الدِّينَ للهِ من المؤمنينَ، حَيثُ لا يَذكرُونَ إلَّا اللهَ، ولا يَدعُونَ مَعَهُ إلٰهاً آخرَ ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ وَأَمِنُوا عَادُوا إلىٰ حالِهِم الأُولىٰ من الإشراكِ مَعَهُ في العبَادةِ.

﴿لِيَكْفُرُواْ ... وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ قُرئَ بكسرِ اللَّامين، فيحتَملُ أَن يكونَ لام كي، بمعنىٰ: أَنَّهُم يعودُونَ إلىٰ شِرْكِهِم ليكونُوا بالعَوْدِ كافرينَ بنعمةِ اللهِ قَاصدينَ التَمتُّعَ بها والتَلذُّذَ لا غير، وأَن يكونَ لَام الأمر علىٰ معنىٰ التَهديدِ والتَوعيدِ، وقراءَةُ من قَرأَ: «وَلْيَتَمَتَّعُوا» بالسُّكونِ (١) تَشهَدُ لَهُ، ونَحوُهُ قَولُهُ سبحانه: ﴿اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ (٢).

ثم ذكَّرَهُم اللهُ سبحانه النِعْمةَ عليهِم في كونِهِم آمنينَ من القَتْلِ والغَارةِ، والعَرَبُ حَول مكّةَ يغزُو بَعضُهُم بَعْضاً، ويَتَغاوَرُونَ مع قلَّتِهِم وكَثْرةِ العَرَبِ، ووبَّخَهُم بأَنَّهُم يؤمنُونَ بالباطلِ الذي هُم عليهِ، وهذهِ النِعْمةُ الظَاهِرَةُ إلىٰ غيرِها من نِعَمِ اللهِ مكفُورةٌ عندَهُم.

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ﴾ كَقَولِ الشَاعِرِ:

أَلَستُم خَيْرَ مَن رَكِبَ المَطَايَا وأَندَى العَالَمِينَ بطُونَ رَاحِ (٣)

والهَمزةُ هَمزةُ الإنْكارِ دَخَلَتْ علَى النفي فرجَع إلىٰ مَعنَى التَقْرير، وفيها وَجْهَانِ: أَحَدهُما: أَلَا يَثْوونَ في جَهنَّمَ، ولا يَستَحِقُّونَ الثَّواءَ فيهَا وقَد ٱفتَرَوْا مثلَ هذا الكَذِبِ علَى اللهِ في ٱدِّعائِهِم لَهُ شَرِيكاً، وكذَّبُوا بالحَقِّ هذا التَكْذيب؟ والثاني:

---

(١) قرأه ابن كثير وحمزة والكسائي وقالون. راجع التيسير في القراءات للداني: ص ١٧٤.
(٢) فصّلت: ٤٠.
(٣) البيت لجرير من قصيدة يمدح بها عبدالملك بن مروان. راجع ديوان جرير: ص ٧٧.

أَلَمْ يَصِحَّ عِندَهُم أنَّ في جَهنَّمَ مَثْواهُم حتّىٰ اجتَرأوا مِثْلَ هذه الجُرْأَة؟

﴿وَالَّذينَ جَـٰهَدُواْ﴾ ما يَجبُ مُجَاهَدَتَهُ من النَفْسِ الأمَّارةِ بالسُوءِ، والشَيطانِ وأَعداءِ الدينِ ﴿فِينَا﴾ أي: في حَقِّنا، وَلِوَجْهِنَا، ومِن أَجْلِنَا ﴿لَـنَهْدِيَنَّهُمْ سُـبُلَنَا﴾ لَنَزيدَنَّهُم هِدَايةً إلَى السبيلِ المُوصِلةِ إلىٰ ثَوابِنا، وتَوفِيقاً لازدِيادِ الطَاعَاتِ المُوجِبَةِ لِرِضَائِنا، كقَولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[1] وَقِيلَ: والَّذينَ جَاهَدُوا فِـيمَا عَلِمُوا لَنَهدِيَنَّهُم إلىٰ مَا لَمْ يَعْلَمُوا[2].

۞ ۞ ۞

---

(١) محمَّد: ١٧.

(٢) قاله عباس أبو احمد كما في تفسير الماوردي: ج ٤ ص ٢٩٥.